تفسير القرآن العظيم

للإمام المحدث ابن كثير
(٧٠١ - ٧٧٤ هـ)

تحقيق
د. محمد ابراهيم البنا

الجزء الخامس
سورة النحل - سورة المؤمنون

مؤسسة علوم القرآن
شركة دار القبلة

دار ابن حزم

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار القبلة للثقافة الإسلامية

المملكة العربية السعودية - جدة - ص.ب: ١٠٩٣٢ - ت: ٦٧١٠٠٠٠ - تلكس: ٤٠٠٠٨٠ - دلّة. س.ج

مؤسسة علوم القرآن

سوريا - دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي - ص.ب ٤٦٢٠ - ت ٢٢٥٨٧٧ - بيروت - ص.ب ١٣/٥٢٨١

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

تفسير القرآن العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير

سورة النحل

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ ﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودُنوِّها معبراً بصيغة الماضي الدالِّ على التحقُّق والوقوعِ لا محالةَ، كما قال: ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غَفْلَة مُعرِضُون ﴾، وقال: ﴿ اقتربتِ الساعةُ وانشقَّ القمر ﴾.

وقولُه: ﴿ فلا تستعجلوه ﴾، أي: قَرُبَ ما تباعد فلا تستعجلوه.

يَحْتمِلُ أن يعودَ الضميرُ على الله، ويحتمل أن يعود على العذاب، وكلاهما متلازمٌ، كما قال تعالى: ﴿ ويستعجلونك بالعذابِ ولولا أجلٌ مسمًّى لجاءهم العذاب وليأتينَّهُم بغتةً وهم لا يشعُرونَ * يَستعجِلُونَكَ بالعذاب وإنَّ جهنَّم لمحيطة بالكافِرينَ ﴾.

وقد ذَهَب الضحَّاكُ في تفسير هذه الآية إلى قولٍ عجيبٍ، فقال في قوله ﴿ أتى أمر الله ﴾، أي: فرائضه وحدوده[1].

وقد رَدَّه ابنُ جَرِير فقال: لا نعلم أحداً استعجل الفرائِضَ والشرائعَ قبل وُجودها، بخلاف العَذابِ فإنَّهم استعجلوه قبل كَوْنِهِ، استِبْعاداً وتكذيباً.

قلتُ: كما قال تعالى: ﴿ يَستعجلُ بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مُشفِقُون منها ويعلمون أنها الحقُّ ألا إن الذين يُمارُونَ في الساعة لفي ضلالٍ بعيد ﴾.

وقال ابنُ أبي حاتم: ذُكر عن يحيى بن آدم، عن أبي بكر بن عَيَّاش، عن محمد بن عبد الله ـ مولى المغيرةِ بن شعبة ـ عن كعب بن عَلْقَمَةَ، عن عبد الرحمن بن حُجَيرَةَ، عن عُقبة بن عامر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «تطلع عليكم عند الساعة سحابةٌ سوداء من المغرب مثلُ التُّرسِ، فما تزال تَرْتَفِعُ في السماء، ثم ينادي منادٍ فيها: يا أيُّها الناسُ. فيقبِلُ الناسُ بعضهم على بعض: هل سَمِعتُم؟ فمنهم من يقولُ: نعم. ومنهم من يشك. ثم ينادي الثانيةَ: يـأيُّها الناسُ. فيقولُ الناس بعضُهم لبعض: هل سَمِعتُم؟ فيقولُون: نَعم. ثم ينادِي

(١) تفسير الطبري ١٤/٧٥.

الثالثة: يَـأيُّها الناسُ، أتى أمر الله فلا تستعجلوه. قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: فوَالَّذِي نَفْسِي بيده، إنَّ الرَّجُلين لَيَنشُرَان الثوبَ فما يَطْويانه أبداً، وإنَّ الرجلَ ليمدَّنَّ حَوْضَه فما يَسْقِي فيه شيئاً أبداً، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشرَبُه أبداً، قال: ويشتغِلُ الناسُ».

ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد ـ تعالى وتقدَّس عُلُوّاً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة ـ فقال: ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾.

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ ينزل الملائكة بالروح ﴾، أي: بالوحي كما قالَ تعالى: ﴿ وكذلك أوحينا إليك رُوحاً من أمرنا ما كنت تَدْري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾.

وقولُه: ﴿ على من يشاء من عباده ﴾، وهم الأنبياء، كما قال: ﴿ الله أعلَمُ حيثُ يجعل رسالته ﴾، وقال: ﴿ الله يَصْطَفِي من الملائكة رسلا ومن الناس ﴾، وقال: ﴿ يُلْقِي الروحَ من أمره على من يشاء من عباده لِيُنْذِرَ يوم التلاقِ * يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾.

وقولُه: ﴿ أن أنذِرُوا ﴾، أي: لِيَنْذِرُوا ﴿ أنه لا إلَه إلا أنا ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نُوحِي أنه لا إلَه إلا أنا فاعبدُونِ ﴾، وقال في هذه الآية: ﴿ فاتقُونِ ﴾، أي: فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعَبَد غَيْرِي.

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ ﴾

يخبر تعالى عن خلقه العالَمَ العُلْوِيَّ وهو السموات، والعالَمَ السفليَّ وهو الأرض بما حَوَت، وأن ذلك مخلوقٌ بالحقِّ لا لِلَّعِبِ، بل ﴿ ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾.

ثم نَزَّه نفسه عن شرك من عَبَد معَه غيره من الأصنام التي لا تخلق شيئاً وهم يُخْلَقون، فكيف ناسب أن يُعْبَدَ معه غيره وهو المستقل بالخلق وحده لا شَرِيكَ له، [فلهذايستحق أن يعبد وحده لا شريك له].

ثم نبه على خلق جنس الإنسان ﴿ من نطفة ﴾، أي: ضَعِيفةٍ مَهِينة، فلما استقلَّ ودَرَجَ إذا هو يخاصِمُ ربَّه تعالى ويُكَذِّبه، ويحاربُ رُسُلَه. وهو إنما خُلِقَ ليكونَ عَبداً لا ضِدّاً، كما قال تعالى: ﴿ وهو الذي خَلَقَ من الماء بَشَراً فَجَعَلَه نَسَباً وصِهْراً وكان ربُّك قديراً * ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهُم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظَهيراً ﴾، وقال: ﴿ أَوَلم يرَ الإنسانُ أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خَصِيمٌ مبين * وضَرَب لنا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقَه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يُحْيِيهَا الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾.

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن بُسْر بن جِحَاش قال: بَصَق رسولُ الله ـ ﷺ ـ في كَفِّه، ثم قال: يقولُ الله: ابنَ آدَمَ، أنَّى تُعجِزني وقد خلقتُكَ من مثل هَذِهِ؟! حتى إذا سَوَّيتُكَ فَعَدَلْتُك مَشيت بين بُرْدَيك وَللأرضِ منك وَئِيدٌ[١]، فجَمَعْتَ ومَنَعْتَ، حتى إذا بلغتِ الحلقومَ قلتَ: أتَصدَّقُ. وأنَّى أوانُ الصدقة»[٢]!

(١) الوَئِيدُ: شدّة الوَطْء على الأرض يسمع كالدَّوِيِّ من بُعْدٍ.

(٢) مسند الإمام أحمد ٤ / ٢١٠، وابن ماجة، كتاب الوصايا ٩٠٣.

﴿ وَالْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

يمتَنُّ تعالى على عباده بما خَلَق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، كما فصّلها في «سورة الأنعام» إلى ثمانية أزواج[1]، وبما جعَل لهم فيها من المصالح والمنافع، من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجَمال، وهو الزينة، ولهذا قال: ﴿ ولكم فيها جَمال حين تُريحون ﴾، وهو وقتُ رجوعها من المرعى عشياً، فإنها تكون أمدَّه خواصِرَ، وأعظمه ضُروعاً، وأعلاه أسنمةً[2]، ﴿ وحين تَسْرحُون ﴾، أي: غُدْوَةَ تَبْعثُونها إلى المرعى.

﴿وتحملُ أثقالكم﴾، وهي الأحمالُ الثقيلة التي تعجِزُون عن نَقْلِها وحملها، ﴿إلى بلد لم تكونوا بالغِيه إلا بشقِّ الأنفُس﴾ وذلك في الحجِّ والعُمرةِ والغزوِ والتجارةِ، وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها أنواعَ الاستعمالِ، من ركوبٍ وتحميل، كما قال تعالى: ﴿ وإنَّ لكم في الأنعام لعبرةً نُسقيكم مما في بطونـها ولكم فيها منافعُ كثيرةٌ ومنها تأكلون * وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾، وقال تعالى: ﴿ الله الذي جَعلَ لكُم الأنعامَ لتركَبُوا منها ومنها تأكُلون * ولكم فيها منافعُ ولتبلغوا عليها حاجةً في صُدُوركم وعليها وعلى الفلكِ تُحمَلُون * ويُريكم آياتِهِ فأيَّ آياتِ الله تُنكِرون ﴾، ولهذا قال ها هنا بعد تَعدادِ هذهِ النِّعَم: ﴿ إن ربكم لرءوف رحيم ﴾، أي: ربُّكم الذي قَيَّض لكم هذه الأنعامَ وسخَّرها لكم، كما قال: ﴿ أوَلم يـروا أنا خلقنَا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون * وذَلَّلناها لهم فمنها رَكُوبهم ومنها يأكلون ﴾، وقال: ﴿ وجَعَل لكم من الفلْكِ والأنعامِ ما تَركَبُون * لتستووا على ظـهوره ثم تَذْكُروا نِعْمَةَ ربِّكم إذا استويتُم عليه وتَـقولُوا سبحانَ الذي سَخَّر لنا هـذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى رَبِّنا لمنقلبون ﴾.

قال ابن عباس: ﴿ لكم فيها دِفْءٌ ﴾، أي: ثياب. والمنافع: ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة[3].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيـل، عن سِماكٍ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس: ﴿ دفءٌ ومَنافِعُ ﴾، نَسْلُ كُلِّ دابةٍ.

وقال مجاهد: ﴿ لكم فيها دفء ﴾، قال: لباس يُنْسَجُ، ومنافعُ: مَرْكَبٌ، ولَحْمٌ، ولَبَنٌ[3]. وقال قتادةُ: ﴿ دفءٌ ومنافعُ ﴾، يقول: لكم فيها لباس، ومنفعة وبُلْغة. وكذا قال غيرُ واحدٍ من المفسرين، بألفاظ متقاربة.

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

هذا صنف آخر مما خلق ـ تَبارك وتعالى ـ لعباده، يمتَنُّ به عليهم، وهو: الخَيلُ والبِغالُ والحَميرُ، التي جَعَلها للركوبِ والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فَصَلها من الأنعام وأفردَها بالذكر استدلَّ من استدل من العلماء ـ ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل ـ بذلك على ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبي حنيفة ـ رحمةُ الله عليه ـ ومن وافقه من الفقهاء، لأنه تعالى قَرَنها بالبغالِ والحَمير، وهي حَرام، كما ثبتت به السنةُ النبويةُ، وذهب إليه أكثر العلماء.

---

(١) سورة الأنعام، آيتي ١٤٣ ـ ١٤٤.
(٢) أي: «وأمدُّ شيءٍ خواصر...»، وهو أسلوب عربي فصيح.
(٣) تفسير الطبري ٧٩/١٤.

وقد روى الإمام أبو جعفرِ بنُ جَريرٍ: حدثني يعقوبُ، حدثنا ابنُ عُلَيَّةَ، أنبأنا هشام الدَّستَوائيُّ، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن مولى نافع بن علقمة أنّ ابن عباس كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير، وكان يقولُ: قال الله: ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافعُ ومنها تأكلون﴾، فهذه للأكلِ، ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها ﴾، فهذه للركوب[1].

وكذا روي من طريق سعيد بن جُبَير وغيره، عن ابن عباس، بمثله. وقال مثلَ ذلك الحكَمُ بنُعُتَيْبَةَ أيضاً واستأنسوا بحديثٍ رواه الإمامُ أحمدُ في مُسنَدِهِ:

حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا بَقِيَّةُ بن الوليد، حدثنا ثَورُ بن يزيد، عن صالحِ بن يحيى بن المقدام بن مَعْدِ يكرِبٍ، عن أبيه، عن جَدِّه، عن خالد بن الوليدِ قال: نهى رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن أكْلِ لحوم الخيل، والبغال، والحمير[2].

وأخرجَه أبو داودَ، والنسائيّ، وابن ماجَه، من حديث صالح بن يحيى بن المقدام ـ وفيه كلام ـ به[2].

ورواه أحمدُ أيضاً من وجه آخر بأبسط من هذا وأدلَّ منه فقال:

حدثنا أحمدُ بن عبد الملك، حدثنا محمد بن حرب، حدثنا سليمان بن سُلَيم، عن صالح بن يحيى بن المِقْدام، عن جدِّه المِقدام بن معد يكرب قال: غزونا مع خالد بن الوليد الصائِفَةَ[3]، فَقَرِم أصحابُنا إلى اللحم، فسألوني رَمَكَةً فدفعتُها إليهم فَحَبلُوها، فقلت: مكانكم حتى آتي خالِداً فأسأله. فأتيتهُ فسألتُه، فقال: غَزَونا مع رسول الله ـ ﷺ ـ غزوةَ خيبر، فأسرع الناس في حظائر يهودَ، فأمرني أن أناديَ: «الصلاةَ جامعةً، ولا يدخلِ الجنة إلامسلم». ثم قال: أيها الناس، إنكم قد أسرعتم في حظائر يهودَ، ألا لا تَحِلُّ أموالُ المعاهدين إلا بحقِّها، وحَرَام عليكم لحومُ الحُمُرِ الأهلية وخيلها وبغالها، وكلُّ ذي ناب من السباع، وكُلُّ ذي مِخْلَبٍ من الطير»[4].

والرَّمَكَةُ: هي الحِجْرَة. وقولُه: حَبَلُوها، أي: أوثقوها في الحبلِ لِيَذْبَحُوها. والحظائر: البساتين القريبة من العمران.

وكأن هذا الصنيع وَقَع بعد إعطائهم العهد ومعاملتهم على الشطر، والله أعلم.

فلو صَحَّ هذا الحديثُ لكان نصاً في تحريم لحوم الخيل، ولكن لا يُقاوِمُ ما ثَبَت في الصحيحين، عن جابرِ بن عبد الله قال: «نَهى رسول الله ـ ﷺ ـ عن لُحُوم الحُمُر الأهليَّة، وأذِنَ في لحوم الخيل»[5].

ورواه أحمدُ وأبو داودَ بإسنادَين، كلٌّ منهما على شرط مسلم، عن جابر قال: ذَبحنا يومَ خيبر الخيلَ والبغالَ والحميرَ، فَنَهانا رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن البِغَالِ والحَمِير، ولم يَنْهَنـا عن الخيلِ[5].

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٨٢.

(٢) مسند أحمد ٤/ ٨٩، وسنن أبي داود، كتاب الأطعمة ٣/ ٣٥٢، والنسائي، كتاب الصيد ٧/ ٢٠٢، وابن ماجة، كتاب الذبائح ١٠٦٦.

(٣) أي: الغزوة في الصيف. والقَرَمُ: شدّة الشهوة إلى اللحم. والرَّمكةُ: الفَرَسُ البِرْذون تتخذ للنسل، وهي الحِجْرَة، كما سيأتي في تفسير ابن كثير، والمعروف في اللغة أنها الحِجْرُ، دون هاء.

(٤) مسند أحمد ٤/ ٨٩ ـ ٩٠.

(٥) فتح الباري، كتاب الذبائح والصيد ٩/ ٦٤٨، ومسلم، كتاب الصيد ١٥٤١. ومسند أحمد ٣/ ٣٥٦، وسنن أبي داود، كتاب الأطعمة ٣/ ٣٥١ ـ ٣٥٢.

وفي صحيح مسلم، عن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ ـ رضي الله عنهما ـ قالت: نَحَرْنا على عَهْدِ رسول الله ـ ﷺ ـ فَرساً فأكلناه ونحنُ بالمدينة(١).

فهذه أدل وأقوى وأثبت. وإلى ذلك صار جُمهورُ العلماءِ: مالك، والشافعي، وأحمد، وأصحابهم، وأكثر السلف والخلف، والله أعلم.

وقال عبدُ الرزّاق: أنبأنا ابنُ جُريجٍ، عن ابن أبي مُلَيكة، عن ابن عباس قال: كانت الخيلُ وحشية فَذَلَّلها الله لإسماعيلَ بن إبراهيمَ عليهما السلام.

وذكر وهبُ بن مُنَبِّه في إسرائيلياته: أن الله خلق الخيل من ريح الجنوب. فالله أعلم.

فقد دَلّ النصُّ على جَوازِ ركوبِ هذه الدوابِّ، ومنها البغالُ. وقد أُهدِيتْ إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ بغلةٌ، فكان يركبها، مع أنه قد نَهَى عن إنزاء الحُمُر على الخيل لئلا ينقطع النسل.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثني محمد بن عُبَيد، حدثنا عُمَر من آل حُذَيفَةَ، عن الشعبي، عن دِحْيَةَ الكَلْبيِّ قال: قلت: يا رسول اللهِ، ألا أُحملُ لكَ حماراً على فرس، فَيُنْتِجَ لَكَ بغلاً، فتركَبَها؟ قال: إنما يفعلُ ذلك الذين لا يعلَمُونَ»(٢).

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾

لما ذكرَ تعالى من الحيوانات ما يُسارُ عليه في السبُل الحِسِّيـة نَبّه على الطرق الدينية المعنوية، وكثيراً ما يقع في القرآن العبورُ من الأمور الحسيَّة إلى الأمور الدينية المعنويَّة النافعة كما قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فإن خير الزاد التقوى﴾، وقال: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباسُ التقوى ذلك خيرٌ﴾.

ولما ذَكَر في هذه السورة الحيواناتِ من الأنعام وغيرها، التي يركبونها ويبلغُون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة ـ شَرَع في ذكر الطرق التي يسلُكُها الناسُ إليه، فَبَيَّن أن الحق منها ما هي موصلةٌ إليه، فقال: ﴿وعلى الله قصدُ السبيلِ﴾ كما قال: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فتفرق بكم عن سبيله﴾، وقال: ﴿قال هذا صراط عليَّ مستقيم﴾.

قال مجاهد في قوله: ﴿وعلى الله قصدُ السبيل﴾، قال: طريقُ الحقِّ على الله(٣).

وقال السديّ: ﴿وعلى الله قصدُ السبيلِ﴾، قال: الإسلامُ.

وقال العوفيُّ، عن ابن عباس في قوله: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾، يقول: على الله البيانُ، أي: تبيين الهدى والضلالة.

وكذا رَوَى عليُّ بن أبي طلحة، عنه. وكذا قال قتادة، والضحاك. وقولُ مجاهدٍ هاهنا أقوى من حيث السيـاق، لأنه تعالى أخبَرَ أن ثَمَّ طرقاً تُسلَك إليه، فليس يصلُ إليه منها إلا طريقُ الحق، وهي الطريق التي شَرَعها وَرَضِيَهَا، وما عداها مسدودة، والأعمالُ فيها مردودةٌ، ولهذا قال تعالى: ﴿ومنها جائر﴾، أي: حائد مائل زائغ عن الحق.

(١) مسلم، كتاب الصيد ١٥٤١. وقوله: «ونحن بالمدينة»، ليست في المطبوع من الصحيح.
(٢) مسند الإمام أحمد ٣١١/٤.
(٣) تفسير الطبري ٨٤/١٤.

قال ابن عباس وغيره: هي الطرقُ المختلفةُ، والآراء والأهواء المتفرقة، كاليهودية والنصرانية والمجوسية، وقرأ ابنُ مسعودٍ: ﴿ومنكم جائرٌ﴾(١).

ثم أخبر أن ذلك كلَّه كائن عن قَدَرِهِ ومشيئته، فقال: ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾، كما قال: ﴿ولو شاء ربُّكَ لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾، وقال: ﴿ولو شاء ربُّكَ لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالُونَ مختلفينَ * إلا من رَحِم ربُّك ولذلك خلقهم وتمَّت كَلِمةُ ربِّك لأملأن جَهَنَّم من الجنة والناس أجمعين﴾.

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾

لما ذكر سبحانه ما أنعَمَ به عليهم من الأنعام والدوابِّ، شَرَع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء - وهو العُلُوُّ - مما لهم فيه بُلْغَة ومتاع لهم ولأنعامهم، فقال: ﴿لكم منه شرابٌ﴾، أي: جعله عذباً زُلالا، يَسُوغُ لكم شرابه، ولم يجعله مِلْحاً أُجاجاً.

﴿ومنه شَجَرٌ فيه تُسِيمُونَ﴾ أي: وأخرج لكم به شجراً ترعَون فيه أنعامكم. كما قال ابن عباس، وعكرمة والضحاك، وقتادة، وابن زيد، في قوله: ﴿فيه تسيمون﴾ أي: ترعَون. ومنه الإبل السائمة، والسوم: الرعي.

ورَوَى ابن ماجه: أن رسول الله - ﷺ - نَهَى عن السَّوْمِ قبل طُلُوعِ الشَّمس(٢).

وقولُه: ﴿يُنْبِتُ لكم به الزَّرْعَ والزيتونَ والنخيلَ والأعنابَ ومن كُلِّ الثَّمرَاتِ﴾، أي: يُخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد، على اختلاف صُنُوفها وطعومها وألوانها ورَوائِحِها وأشكالها. ولهذا قال: ﴿إنَّ في ذَلِكَ لآية لقوم يتفكَّرون﴾، أي: دَلالةً وحجَّةً على أنه لا إلَه إلا الله، كما قال تعالى: ﴿أَمَّن خَلَق السَّمواتِ والأرضَ وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائقَ ذاتَ بَهجةٍ ما كان لكم أن تُنبِتُوا شَجَرها أَإِلَه مع الله بل هم قوم يَعدِلُون﴾.

ثم قال تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

يُنبِّه تعالى عبادَه على آياته العظام، ومِنَنِه الجسام، في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات، في أرجاء السموات نوراً وضياء للمهتدين بها في الظلمات، وكلٌّ منها يسير في فَلَكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مُقدرة، لا يزيد عليها ولا ينقُصُ منها. والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسييره، كما قال: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السمواتِ والأرضَ في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يَطلُبه حثيثاً والشمسَ والقمرَ والنجومَ مُسخَّراتٍ بأمره ألا له الخلق

(١) البحر المحيط ٥/٤٧٧، وتفسير الطبري ١٤/٨٤.
(٢) سنن ابن ماجه، كتاب التجارات ٢/٧٤٤.

والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾. ولهذا قال: ﴿ إن في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون ﴾، أي: لَدَلالاتٍ على قُدرته تعالى الباهرة وسلطانه العظيم، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حُجَجه.

وقولُه: ﴿ وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه ﴾، لمّا نبّه سبحانه على معالم السماء نبّه على ما خلَق في الأرض من الأمور العجيبة والأشياءِ المختلفة، من الحيوانات والنبات والمعادن والجمادات على اختلافِ ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواصّ ﴿ إن في ذلك لآيةً لقوم يذكرون ﴾، أي: آلاءَ الله ونِعَمه فيشكرونها.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن تسخيرِه البحرَ المتلاطِمَ الأمواجِ، ويمتَنّ على عباده بتذليله لهم، وتيسيرهم للركوب فيه، وجَعْلِه السَّمكَ والحيتان فيه، وإحلاله لعباده لحمها حَيّها وميتها، في الحل والإحرام، وما يخلقه فيه من اللآلىء والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجها من قرارها حلية يلبسونها. وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخرُه، أي: تشقّه. وقيل: تمخرُ الرياحَ ـ وكلاهما صحيح ـ بِجُؤْجُئِهَا ـ وهو صَدْرُها المسنَّم ـ الذي أَرْشَدَ العباد إلى صنعتها، وهداهم إلى ذلك، إرثاً عن أبيهم نوح عليه السلام؛ فإنه أول من رَكِب السفن، وله كان تعليم صَنْعَتِها، ثم أخذها الناسُ عنه قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، يسيرون من قطر إلى قطر، وبلد إلى بلد، وإقليم إلى إقليم، تجلب ما ههنا إلى هنالك. وما هنالك إلى ههنا، ولهذا قال تعالى: ﴿ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾، أي: نِعَمَه وإحسانَه.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزّارُ في مُسْنَده: وجدتُ في كتابي عن مُحمَّدِ بن مُعاوِيَةَ البَغْدادِيِّ:

حدثنا عبد الرحمن بن عبدالله بن عُمَر، عن سُهَيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة قال: كلم الله [هذا] البحرَ الغربي، وكَلَّم البحر الشرقي، فقال للبحر الغربي: إني حاملٌ فيك عباداً من عبادِي، فكيف أنت صانعٌ بهم؟ قال: أُغرِقُهم. قال: بأسُك في نواحيك، [وأحملهم على يدي](١). وحَرَمه الحِلْيَةَ والصيد. وكَلَّم هذا البحرَ الشرقي فقال: إني حامل فيك عباداً من عبادي، فما أنت صانع بهم؟ فقال: أحملهم على يدي(٢)، وأكون بهم كالوالدة لولدها. فأثابه الحلية والصيد.

ثم قال البزّارُ: لا نعلم رواه عن سُهَيل غَيْرَ عبد الرحمن بن عبدالله بن عُمَر، وهو منكر الحديث، وقد رواه سُهَيل، عن النعمان بن أبي عَيَّاش، عن عبدالله بن عَمْرو موقوفاً(٣).

ثم ذكر تعالى الأرضَ وما جَعَل فيها من الرواسي الشامخات والجبالِ الراسيات، لِتقِرَّ الأرض ولا تَميدَ، أي: تضطربَ بما عليها من الحيوان، فلا يهنأ لهم عيشٌ بسبب ذلك، ولهذا قال: ﴿والجبال أرساها﴾.

وقال عبدُ الرزّاق: أنبأنا معمرٌ، عن قتادَةَ، سمعتُ الحسنَ يقول: لما خُلِقَتِ الأرضُ كانت تميدُ، فقالوا:

(١) ما بين القوسين ليس في كشف الأستار، ومجمع الزوائد. (٢) في كشف الأستار: بدنى. وفي المجمع: ثديى.
(٣) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب الجهاد ٢/٢٦٥ ـ ٢٦٦، ومجمع الزوائد ٥/٢٨١ ـ ٢٨٢.

ما هذه بِمُقِرَّةٍ على ظهرها أحداً. فأصبحوا وقد خُلِقَتِ الجبالُ، فلم تَدْرِ الملائكةُ مِمَّ خُلِقَت الجبال[1]؟

وقال سعيدٌ، عن قتادَةَ، عن الحسن، عن قيس بن عُبَاد: أن الله تعالى لما خَلَق الأرضَ جَعَلتْ تمورُ، فقالت الملائكة: ما هذه بِمُقِرَّةٍ على ظهرها أحداً، فأصبحَتْ صبحاً وفيها رواسيها[1].

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا حَجَّاج بن مِنْهالٍ، حدثنا حماد، عن عطاء بن السائب، عن عبدالله ابن حبيب، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: لما خلق الله الأرض قَمَصَتْ[2] وقالت: أَيْ رَبِّ، تجعلُ عليَّ بني آدم يَعملُونَ عَلَيَّ الخطايا ويجعلون عليَّ الخَبَثَ؟! قال: فأَرسى الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون، فكان إقرارُها كاللحم يَتَرجَرجُ[1].

وقولُه: ﴿وأنهاراً وسُبُلاً﴾، أي: وجَعَل فيها أنهاراً تجري من مكانٍ إلى مكانٍ آخَرَ، رِزْقاً للعباد، يَنبُع في موضع وهو رِزْقٌ لأهل موضع آخَرَ، فيقطَعُ البقاع والبراري والقفار، ويخترق الجبال والآكام، فيصلُ إلى البلد الذي سُخِّر لأهله. وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة، وَجنوباً وشَمالاً، وشرقاً وغَرْباً، ما بين صغار وكبار وأودية، تجري حيناً وتنقطع في وقت، وما بين نَبْعٍ وَجْمعٍ، وقَوِيِّ السير وَبَطيئه، بحسب ما أراد وقَدَّر، وسخر ويسر. فلا إلّه إلا هو، ولا رب سواه. وكذلك جَعَل في الأرض سُبُلاً، أي: طرقاً يُسْلَكُ فيها من بلاد إلى بلاد، حتى إنه تعالى ليقطَع الجبلَ ليكون ما بينهما ممراً ومسلكاً، كما قالَ تَعالى: ﴿وَجعَلْنا فيها فِجَاجاً سبلاً﴾.

وقولُه: ﴿علاماتٍ﴾، أي: دَلَائِلَ من جبال كبار وآكَامٍ صغار ونحو ذلك، يستدلّ بها المسافرون براً وبحراً إذا ضَلُّوا الطريق بالنهار. وقولُه: ﴿وبالنَّجْمِ هم يهتدون﴾، أي: في ظلام الليل، قاله ابنُ عباس. وعن مالك في قوله: ﴿وعلامات﴾: «يقولون: النجوم، وهي الجبالُ».

ثم قال تعالى مُنَبِّهاً على عَظَمَتِه، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له دونَ ما سواه من الأوثان، التي لا تخلق شيئاً بل هم يخلقون، ولهذا قال: ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون﴾.

ثم نَبَّههم على كثرة نِعَمِه عليهم وإحسانه إليهم، فقال: ﴿وإن تَعُدُّوا نعمةَ الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم﴾، أي: يتجاوزُ عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نِعَمِه لعجزتُم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتُم وتركتُم، ولو عَذَّبكم لَعَذَّبكم وهو غيرُ ظالِمٍ لكم، ولكنه غفورٌ رحيمٌ، يغفرُ الكثيرَ، ويجازِي على اليسير.

وقال ابنُ جرير: يقول: ﴿إن الله لغفور﴾ لماكان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك، إذا تُبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته، ﴿رحيم﴾ بكم أن يعذبكم بعد الإنابة والتوبة[3].

﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٩٠.

(٢) أي: اضطربت.

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٩٢.

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائِرَ والسَّرائر كما يعلَم الظواهر، وسيَجْزِي كُلَّ عامل بعمله يومَ القيامة، إن خيراً فخيرٌ، وإن شر فشر.

ثم أخبر أنَّ الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقُون، كما قال الخليل: ﴿أتعبدون ما تنحتُون * والله خَلَقكم وما تعملون﴾.

وقولُه: ﴿أموات غير أحياء﴾ أي: هي جمادات لا أرواحَ فيها، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل.

﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾، أي: لا يدرُونَ متى تكونُ الساعةُ، فكيف يُرتَجى عندَ هذه نفعٌ أو ثوابٌ أو جزاء؟! إنما يُرتَجى ذلك من الذي يعلم كل شيء، وهو خالقُ كُلِّ شيء.

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)﴾

يخبرُ تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحدُ الفردُ الصمَدُ، وأخبر أن الكافرين تُنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم مُتعجِّبين من ذلك: ﴿أجعَلَ الآلهة إلهاً واحداً إنَّ هذا لشيءٌ عُجَاب﴾، وقال تعالى: ﴿وإذا ذُكِر الله وحده اشمأزَّت قلوبُ الذين لا يُؤمِنُون بالآخرة وإذا ذُكِر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾.

وقولُه: ﴿وَهُم مستكبرون﴾، أي: عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده، كما قال: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخُلون جهنَّم داخرين﴾، ولهذا قال ها هنا: ﴿لا جرم﴾، أي: حقاً ﴿أن الله يعلم ما يُسِرُّون وما يُعلِنُون﴾، أي: وسَيَجزيهم على ذلك أتمَّ الجزاء، ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥)﴾

يقولُ تعالى: وإذا قِيلَ لهؤلاء المكذبين: ﴿ماذا أنزل ربكم قالوا﴾ مُعرضين عن الجواب: ﴿أساطيرُ الأولين﴾، أي: لم يُنزِل شيئاً، إنما هذا الذي يُتلى علينا أساطيرُ الأولين، أي: مأخوذٌ من كتب المتقدِّمين، كما قال تعالى: ﴿وقالوا أساطيرُ الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بُكرةً وأصيلاً﴾، أي: يفترون على الرسول، ويقولون فيه أقوالاً متضادة مختلفة، كلُّها باطلٌ، كما قال تعالى: ﴿انظر كيف ضَربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾، وذلك أن كل من خَرَج عن الحقِّ فمهما قال أخطأ، وكانوا يقولون: ساحر، وشاعر، وكاهن، ومجنون. ثم استقرَّ أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهمُ الوحيدُ المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي، لَمَّا ﴿فكر وقدَّر * فقُتِل كيف قدَّر * ثم قُتِل كيف قدَّر * ثم نظَر * ثم عَبَس وبسَرَ * ثم أدبر واستكبر * فقال إن هذا إلا سحر يُؤْثَر﴾، أي: ينقل ويحكى، فتفرَّقوا عن قوله ورأيه، قبحهم الله تعالى!

قال الله تعالى: ﴿لِيَحملوا أوزارهم كاملةً يوم القيامة ومن أوزار الذين يُضِلُّونهم بغير علم﴾، أي: إنما قدَّرنا عليهم أن يقولوا ذلك لِيَحمِلُوا أوزارهم ومن أوزار الذين يَتَّبِعونَهم ويُوَافِقُونَهم، أي: تَصير عليهم خطيئةُ ضَلالهم في أنفسهم، وخطيئةُ إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم، كما جاء في الحديث: «من دعا إلى هُدًى كان له من الأجرِ مثلُ أجور من اتبعه، لا يَنْقُصُ ذلك من أُجورهم شيئاً، ومن دَعَا إلى ضلالة كان عليه من الإثم

مثلُ آثام من اتبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»[١]، وقال تعالى: ﴿وَلَيحمِلُنَّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ولَيُسْئلنّ يوم القيامة عما كانوا يفترُون﴾.

وهكذا رَوى العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿لِيَحْمِلوا أوزارَهُم كاملةً يومَ القيامةِ ومن أوزارِ الذين يُضِلُّونهم بغير علم﴾: إنها كقوله: ﴿وَلَيحمِلُنَّ أثقالَهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾[٢].

وقال مجاهِدٌ: يحمِلُون أثقالهم: ذُنوبَهم وذنُوبَ من أطاعهم، ولا يُخفِّف [ذلك][٣] عمن أطاعهم من العذاب شيئاً.

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قال العوفيُّ، عن ابن عباس في قوله: ﴿قد مَكَر الذين من قبلهم﴾، قال: هو نُمرود حين بنى الصَّرح[٤].

قال ابن أبي حاتم: ورُوِي عن مجاهدٍ نحوهُ.

وقال عبد الرزَّاق، عن معمر، عن زيد بن أسلَمَ: أولُ جَبَّار كان في الأرض نُمرودٌ، فبعثَ الله عليه بعَوضةً، فدخلت في مِنْخَره، فمكث أربعمائة سنة يُضرب رأسُه بالمطارق، وأرحَمُ الناسِ به من جَمَع يديه فضرَب بهما رأسَه. وكان جبَّاراً أربعمائة سنة، فعَذَّبه الله أربعمائة سنة كمُلْكِهِ، ثم أماته الله، وهو الذي كان بنى صرحاً إلى السماء، وهو الذي قال الله: ﴿فأتى الله بُنيانَهم من القَواعد فخرَّ عليهم السقفُ﴾.

وقال آخرون: بل هو بُخْتَنَصَّرُ. وذكروا من المكر الذي حكى الله ها هنا، كما قال في سورة إبراهيم: ﴿وإن كان مكرُهم لِتزُولَ منه الجبالُ﴾.

وقال آخرون: هذا من باب المثل، لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كَفَروا بالله وأشركوا في عبادته غيرَه، كما قال نوحٌ عليه السلام: ﴿ومكروا مكراً كباراً﴾، أي: احتالوا في إضلال الناس بكُلِّ حيلةٍ وأمالوهم إلى شركهم بكُلِّ وسيلةٍ، كما يقول لهم أتباعُهم يوم القيامة: ﴿بل مكرُ الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً. . .﴾ الآية.

وقولُه: ﴿فأتى الله بُنيانَهم من القواعد﴾، أي: اجتثَّه من أصله، وأبطل عملهم وأصْلَه، كما قال تعالى: ﴿كُلَّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾. وقوله: ﴿فأتاهُم الله من حيث لم يَحْتَسِبُوا وقذف في قلوبهم الرعبَ يُخرِبُون بيوتهم بأيديهم وأيدِي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾.

وقال ها هنا: ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد فَخرَّ عليهم السقفُ من فوقهم وأتاهُم العذابُ من حيث لا يشعرون * ثم يوم القيامة يخزيهم﴾، أي: يظهر فَضائحهم، وما كانت تُجنُّه ضَمائرهم، فيجعله عَلانيةً، كما قال

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب السنة ٤/٢٠١، وابن ماجة في المقدمة ٧٥، والإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة ٢/٣٩٧.
(٢) تفسير الطبري ١٤/٩٦.
(٣) عن تفسير الطبري.
(٤) تفسير الطبري ١٤/٩٧.

تعالى: ﴿يوم تُبلى السرائر﴾، أي: تَظهر وتَشتهِرُ، كما في الصحيحين عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يُنصَبُ لِكلِّ غادر لواءٌ يوم القيامة عند استِهِ بِقَدْرِ غَدْرَته، فيقال: هذه غَدْرَة فُلان بن فُلانٍ»(١).

وهكذا هؤلاء، يظهرُ للناس ما كانوا يُسِرّونه من المكر، ويُخزيهم الله على رءوس الخلائق، ويقول لهم الربُّ تبارك وتعالى مُقرِّعاً ولهم وموبخاً: ﴿أين شركائي الذين كنتم تُشاقّون فيهم﴾، أي: تحاربون وتعادون في سبيلهم، أين هُم عن نصركم وخلاصكم ها هنا؟ ﴿هل ينصرونكم أو ينتصرون﴾، ﴿فماله من قوة ولا ناصر﴾. فإذا تَوَجَّهت عليهم الحجة، وقامت عليهم الدلالة، وحقت عليهم الكلمة، وأُسكِتُوا عن الاعتذار حين الإقرار ﴿قال الذين أوتوا العلم﴾ ـ وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمُخبرون عن الحقِّ في الدنيا والآخرة، فيقولون حينئذ: ﴿إنَّ الخزيَ اليومَ والسوء على الكافرين﴾، أي: الفضيحة والعذاب اليوم محيط بمن كفر بالله، وأشرك به ما لا يضرّه ولا ينفعه.

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن حال المشركين الظّالمي أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة: ﴿فألقوا السَّلم﴾، أي: أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾، كما يقولون يوم المعاد: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾، ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم﴾.

قال الله مكذباً لهم في قيلهم ذلك: ﴿ بلى إن الله عليم بما كنتم تعمَلُون * فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين﴾، أي: بئس المَقِيل والمُقام والمكان من دار هَوَانٍ، لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله. وهم يَدخلون جهنم من يوم مَماتهم بأرواحهم، وينال أجسادَهم في قبورها من حرِّها وسَمُومِها، فإذا كان يومُ القيامة سُلِكت أرواحهم في أجسادهم، وخُلِّدت في نار جهنم، ﴿لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يُخفَّف عنهم عذابها﴾، كما قال الله تعالى: ﴿النار يُعرضُون عليها غُدُواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدَّ العَذابِ﴾.

﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

هذا خبرٌ عن السُّعَداء بخلافِ ما أخبَر به عن الأشقياء، فإنَّ أولئك قيل لهم: ﴿ماذا أنزلَ ربُّكم﴾، فقالوا معرضين عن الجواب، أي: لم ينزل شيئاً إنما هذا أساطير الأولين. وهؤلاء ﴿قالوا خيراً﴾، أي: أنزل خيراً، أي: رحمةً وبركةً وحُسناً لمن اتَّبعَه وآمن به.

---

(١) فتح الباري، كتاب الأدب ٥٦٣/١٠، ومسلم، كتاب الجهاد ١٣٥٩ ـ ١٣٦١.

ثم أخبروا عما وَعَد الله عباده فيما أنزله على رسله فقالوا: ﴿للذين أحسَنُوا في هذه الدنيا حَسَنَةٌ ولدارُ الآخرة خيرٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذَكَرٍ أو أُنثى وهو مؤمن فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيبة ولَنَجزِيَنَّهُم أجرَهُم بأحسن ما كانوا يعملون﴾، أي: من أحسنَ عَمَلَه في الدنيا أحسَنَ الله إليه في الدنيا والآخرةِ.

ثم أخبروا بِأَنَّ دار الآخرةِ خيرٌ، أي: من الحياة الدنيا، والجزاءُ فيها أتمُّ من الجزاء في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير﴾. وقال تعالى: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾، وقال تعالى: ﴿والآخرة خير وأبقى﴾، وقال لرسوله ـ ﷺ ـ: ﴿وللآخرة خيرٌ لك من الأولى﴾.

ثم وَصَفُوا الدارَ الآخِرَةَ فقالوا: ﴿ولنعم دار المتقين﴾.

وقولُه: ﴿جناتُ عدن﴾، بدلٌ من ﴿دار المتقين﴾، أي: لهم في الدار الآخرة ﴿جنات عَدْنٍ﴾، أي: مُقَامَةٍ[1] يدخلونها ﴿تجري من تحتِها الأنهارُ﴾، أي: بين أشجارها وقُصورها، ﴿لهم فيها ما يشاءون﴾، كما قال تعالى: ﴿وفيها ما تشتَهِيه الأنفسُ وتَلَذُّ الأعينُ وأنتم فيها خالدون﴾، وفي الحديث: «إن السحابةَ لَتَمُرُّ بالملأ من أهلِ الجنّة وهُم جلوس على شرابهم، فلا يشتهي أحدٌ منهم شيئاً إلا أمطرتـه عليهم، حَتَّى إن منهم لمن يقول: أَمطِرينا كواعِبَ أتراباً. فيكونُ ذلك»[2].

﴿كذلك يجزي الله المتقين﴾، أي: هكذا يجزي الله كلَّ من آمن به واتقاه وأحسَنَ عمله.

ثم أخبر تعالى عن حَالهم عند الاحتضار وهم طيبون ـ أي: يَخلُصُون من الشرك والدنَسِ وكُلِّ سُوءٍ ـ بأن الملائكة تسلم عليهم ويبشِّرونهم بالجنة، كما قال تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزَّلُ عليهم الملائكة أَلَّا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تَشتَهِي أنفسكم ولكم فيها ما تَدَّعُون * نُزُلاً من غفور رحيم﴾.

وقد قدمنا الأحاديثَ الواردةَ في قَبْض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ الله الذين آمنوا بالقَوْلِ الثابت في الحياة الدُّنيا وفي الآخِرَةِ ويُضِلُّ الله الظالمين ويَفعَلُ الله ما يشاءُ﴾[3].

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

يقول تعالى مُتَهدِّداً للمشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا: هل ينتظرُ هؤلاء إلا الملائكة أن تأتِيَهم تَقبِضُ أرواحهم، قاله قتادةُ.

﴿أو يأتي أمر ربك﴾، أي: يومَ القِيامةِ وما يعاينونه من الأهوال.

وقولُه: ﴿كذلك فَعَلَ الذين من قبلهم﴾، أي: هكذا تَمادَى في شركهم أسلافُهم ونُظَراؤُهم وأشباهُهم من المشركين، حتى ذاقوا بأسَ الله، وحَلُّوا فيما هم فيه من العذابِ والنَّكالِ. ﴿وما ظلمهم الله﴾، لأنه تعالى أعذَرَ إليهم، وأقام حُجَجه عليهم بإرسال رُسُله وإنزال كتبه، ﴿ولكن كانوا أنفسَهُم يظلمون﴾، أي: بمُخَالفتهم الرسل

(١) المُقَامة والمُقام: الإقامة.
(٢) رواه ابن أبي حاتم بإسناده إلى أبي أمامة، وسيأتي الحديث عند الآية ٣٣ من سورة النبأ.
(٣) انظر تفسير الآية ٢٧ من سورة إبراهيم.

والتكذيب بما جاءوا به، فلهذا أصابتهم عقوبةُ الله على ذلك، ﴿وحاق بهم﴾، أي: أحاطَ بهم من العذابِ الأليم ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾، أي: يسخرُون من الرسل إذا توَعَّدوهم بعقاب الله، فلهذا يُقال لهم يوم القيامة: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

يخبرُ تعالى عن اغترار المشركين بما هُم فيه من الشرك واعتذارهم مُحتجِّين بالقدر، في قولهم: ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حَرَّمنا من دُونه من شيءٍ﴾، أي: من البحائر والسوائب والوصَائِلِ وغير ذلك، مما كانوا ابتدعُوه واخترعُوه من قِبَلِ أنفُسِهم، مما لم ينزل الله به سلطاناً.

ومضمونُ كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لِمَا فَعَلنا لأنكره علينا بالعقوبة، ولَمَا مكَّننا منه. قال الله تعالى راداً عليهم شبهتهم: ﴿فهل على الرسُل إلا البلاغ المبين﴾؟ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه لم يُغيِّره عليكم ولا أنكره، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه آكد النهي، وبعث في كل أمة، أي: في كل قَرْنٍ من الناس وطائفة رَسُولاً، وكلُّهم يَدْعُون إلى عبادة الله، ويَنهَوْن عن عبادة ما سواه: ﴿أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾، فلم يَزَلْ تعالى يُرسِلُ إلى الناس الرسلَ بذلك، منذ حَدَثَ الشرك في بني آدم، في قوم نوح الذين أُرسِلَ إليهم نوحٌ، وكان أولَ رَسولٍ بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن خَتَمهم بمحمد ـ ﷺ ـ الذي طَبَّقت دعوتُه الإنسَ والجنَّ في المشارق والمغارب، وكلُّهم كما قال الله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدونِ﴾، وقال تعالى: ﴿واسأل من أرسلنا من قَبْلِكَ مِن رُسُلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ولقد بعثنا في كُلِّ أمة رسولاً أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾، فكيف يَسُوغُ لأحدٍ من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لو شاء اللهَ ما عَبَدنا من دونه من شيء﴾؟! فمشيئتُه تعالى الشرعية عنهم منتفية، لأنه نهاهم عن ذلك على أَلْسِنَةِ رُسُلِه، وأما مشيئته الكونية، وهي تَمْكينُهم من ذلك قدراً، فلا حُجَّةَ لهم فيها، لأنه تعالى خَلَقَ النار، وأهلَها من الشيطان والكفَرةِ، وهو لا يَرْضى لعباده الكُفْر، وله في ذلك حُجَّةٌ بالغةٌ وحكمة قاطعة.

ثم إنه تعالى قد أخبر أنه عَيَّره عليهم، وأنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فلهذا قال: ﴿فمنهم من هدى الله ومنهم من حَقَّت عليه الضلالةُ فَسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾، أي: فاسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكَذَّب بالحق كيف ﴿دَمَّر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾، ﴿ولقد كَذَّب الذين من قبلهم فكيف كان نكيرِ﴾.

ثم أخبر تعالى رسوله ـ ﷺ ـ أن حِرْصَه على هدايتهم لا ينفعهم، إذا كان الله قد أراد إضلالهم، كما قال تعالى: ﴿ومن يُرِد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً﴾، وقال نوح ـ عليه السلام ـ لقومه: ﴿ولا ينفعكم نُصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يُغوِيكم﴾، وقال في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿إن تحرِصْ على هُدَاهم فإن الله لا يهدي من يُضِلّ﴾، كما قال تعالى: ﴿من يُضلِل الله فلا هاديَ له ويَذَرُهم في طغيانهم يعمهون﴾، وقال تعالى: ﴿إن الذين حَقَّت عليهم كَلِمَةُ ربِّك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ حتى يَرَوُا العذابَ الأليم﴾.

فقولُه: ﴿فإن الله﴾، أي: شأنُه وأمرُهُ أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلهذا قال: ﴿لا يَهدِيْ من يُضِلّ﴾، أي: من أضلَّه فمن ذا الذي يهديه من بعد الله؟! أي: لا أحَدَ. ﴿وما لهم من ناصرين﴾، أي: ينقذونهم من عذابه وَوَثَاقه، ﴿ألا له الخلقُ والأمـرُ تبارك الله رب العالمين﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى مُخبِراً عن المشركين أنهم حَلَفوا فأقسموا ﴿بالله جَهْدَ أيمانهم﴾، أي: اجتهدوا في الحَلف وغَلَّظوا الأيمان على أنه ﴿لا يَبْعث الله من يموت﴾، أي: استبعَدُوا ذلك، فكذبوا الرُّسُلَ في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نَقِيضه. فقال تعالى مُكَذِّباً لهم وراداً عليهم: ﴿بلى﴾، أي: بلى سيكون ذلك، ﴿وَعْداً عليه حقاً﴾، أي: لا بُدَّ منه، ﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يعلَمون﴾، أي: فَبِجَهلهم يخالفون الرسل ويَقَعُون في الكفر.

ثم ذَكَر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجسادِ يوم التناد، فقال: ﴿لِيُبيِّن لهم﴾، أي: للناس ﴿الذي يختلِفُون فيه﴾، أي: من كلِّ شيءٍ، و﴿ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحُسنى﴾، ﴿وَلِيَعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾، أي: في أيمانهم وأقسامهم: ﴿لا يبعثُ الله من يموت﴾. ولهذا يُدعُّون يوم القيامة إلى نار جهنم دَعّاً، ويقول لهم الزبانية: ﴿هذه النار التي كنتم بها تُكَذِّبون * أَفَسِحْرٌ هذا أم أنتم لا تُبصِرون * اصلَوها فاصبِرُوا أو لا تَصْبِرُوا سواء عليكم إنما تُجزَوْنَ ما كنتم تعملون﴾.

ثم أخبر تعالى عن قُدرته على ما يشاء، وأنه لا يُعجِزُه شيءٌ في الأرض ولا في السماء. وأنَّه إذا أرادَ شيئاً أن يقول له: «كُنْ»، فيكونُ، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمُرُ به مَرَّةً واحدة، فيكونُ كما يشاء، كما قال ﴿وما أمرنا إلا واحدة كَلَمْحٍ بالبصر﴾، وقال: ﴿ما خَلْقُكم ولا بَعْثُكم إلا كنفس واحدة﴾، وقال في هذه الآية الكريمةِ: ﴿إنما قولُنا لشيءٍ إذا أردناه أن نَقُولَ له كُن فَيَكُونُ﴾، أي: أَنْ يأمُرَ به مَرَّةً واحدة فإذا هو كائن، كما قال الشاعر:

إذا مَـا أرادَ الله أمْـراً فَـإنَّـمـا يَـقُـولُ لَـهُ: كُنْ. قَـولَـةً فَـيَـكُـونُ

أي: إنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيدٍ فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يُمانَعُ ولا يُخالَفُ، لأنه هو الواحد القهار العظيم، الذي قَهَر سلطانُه وجبروتُه وعزتُه كُلَّ شيءٍ، فلا إله إلا هُوَ، ولا ربَّ سواه.

وقال ابن أبي حاتم: ذكر الحسن بن محمد بن الصَّباح، حدثنا حجاج، عن ابن جُرَيج، أخبرني عطاء: أنه سَمِعَ أبا هُرَيرة يقولُ: قال الله تعالى: سَبَّني ابنُ آدم ولم يكن يَنْبَغي له أن يَسُبَّني، وكَذَّبني ولم يكن ينبغي له أن يُكَذِّبني، فأما تكذيبه إياي فقال: ﴿ وأقسَمُوا بالله جَهْدَ أيمانهم لا يبعثُ الله من يَموتُ ﴾، قال: وقلت: ﴿بلى وَعْداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾، وأما سَبُّه إياي فقال: ﴿ إن الله ثالثُ ثلاثةٍ﴾، وقلتُ: ﴿قُل هو الله أحدٌ * الله الصمدُ * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد﴾.

هكذا ذكره موقوفاً، وهو في الصَّحيحَين مرفوعاً بلفظٍ آخرَ(١).

(١) فتح الباري، تفسير سورة البقرة عن ابن عباس ١٦٨/٨، وتفسير سورة الصمد عن أبي هريرة ٧٣٩/٨ - ٧٤٠.

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) ﴾

يُخبِرُ تعالى عن جَزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخِلّان، رجاءَ ثواب الله وجزائه.

وَيَحتمِلُ أن يكونَ سببُ نزول هذه الآية الكريمة في مُهاجِرَةِ الحبشة الذين اشتدَّ أذى قومهم لهم بمكَّة، حتى خَرَجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة، ليتمكَّنُوا من عبادة ربهم، ومن أشرافِهِم: عثمانُ بن عفان، ومعه زوجتهُ رُقَيَّةُ بنت رسول الله ـ ﷺ ـ وجعفرُ بن أبي طالب، ابنُ عَمِّ رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ وأبو سَلَمه بنُ عبد الأسد في جماعةٍ قريبٍ من ثمانين ما بين رجل وامرأة وصدِّيق وصِدِّيقة ـ رضي الله عنهم وأرضاهم، وقد فَعَل ـ فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿ لنبوئنهم في الدنيا حسنة ﴾، قال ابن عباس والشعبيُّ، وقتادة: المدينة. وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد.

ولا مُنافاة بين القولين، فإنهم تَركُوا مساكنهم وأموالهم فَعوَّضهم الله خيراً منها في الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله عَوَّضه الله بما هو خير له منه في الدنيا، وكذلك وقع، فإنهم مَكَّن الله لهم في البلاد وحَكَّمهم على رقاب العباد، فصاروا أُمراءَ حُكَّاماً، وكُلٌّ منهم للمتقين إماما، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظمُ مما أعطاهم في الدنيا، فقال: ﴿ ولأجرُ الآخرة أكبر ﴾، أي: مما أعطيناهم في الدنيا ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾، أي: لو كان المتخلِّفون عن الهجرة مَعَهم يعلمون ما ادَّخَر الله لمن أطاعه واتبع رَسُوله، ولهذا قال هُشَيم، عن العَوَّام، عمَّن حدثه أن عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عَطاءَه يقول: خُذْ، بارَكَ الله لك فيه، هذا ما وَعدك الله في الدنيـا، وما ذَخره لك في الآخرة أفضل، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ لَنُبوِّئَنَّهم في الدنيا حَسَنةً ولأجرُ الآخرةِ أكبرُ لو كانوا يعلمون ﴾[١].

ثم وَصَفهم تعالى فقال: ﴿ الذين صَبَرُوا وعلى ربِّهم يتوكلون ﴾، أي: صَبَروا على أذى من آذاهم من قومهم، مُتوكِّلين على الله الذي أحسَنَ لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾

قال الضحاكُ، عن ابن عباس: لما بَعَث الله محمداً ـ ﷺ ـ رسولاً أنكرت العربُ ذلك، أو من أنكر منهم، وقالوا: الله أعظمُ من أن يكون رسولُه بشرا. فأنزل الله: ﴿ أكانَ للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم ﴾، وقال: ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نُوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تَعلَمون ﴾ يعني أهل الكتب الماضية: أبشراً كانت الرسُل إليهم[٢] أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم، وإن كانوا بشرا فلا تنكروا أن يَكُونَ محمد ـ ﷺ ـ رسولا؟ قال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلاَّ رجالا نُوحي إليهم من أهل القرى ﴾، ليسوا من أهل السماء كما قُلتم[٣].

(١) تفسير الطبري ١٤/١٠٧.

(٢) في تفسير الطبري: «أبشراً كانت الرسل التي أتتكم...؟».

(٣) تفسير الطبري ١٤/١٠٩.

وهكذا روي عن مجاهد، عن ابن عباس، أن المراد بأهلِ الذكر أهلُ الكتاب. وقاله مجاهد، والأعمش.

وقولُ عبد الرحمن بن زيد: الذكرُ القرآن، واستشهد بقوله: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ـ صحيحٌ، ولكن ليس هو المرادَ هاهنا، لأنَّ المخالِف لا يرجع في إثباته بعد إنكاره إليه.

وكذا قولُ أبي جعفرٍ الباقر: «نحن أهلُ الذكر» ـ ومراده أن هذه الأُمَّة أهلُ الذكر ـ صحيح، فإنَّ هذه الأمة أعلَمُ من جميع الأمم السالفة، وعلماءُ أهلِ بيت الرسول ـ ﷺ، وعليهم السلامُ والرحمةُ ـ من خير العلماء إذا كانوا على السنة المستقيمة، كعلي، وابن عباس، وبني علي: الحسن والحسين، ومحمدابن الحنفية، وعلي بن الحسين زين العابدين، وعلي بن عبد الله بن عباس، وأبي جعفر الباقر ـ وهو محمد بن علي بن الحسين ـ وجعفر ابنه، وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم، ممن هو مُتَمسِّك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم، وعَرَف لكلِّ ذي حقٍّ حقَّه، ونَزَّلَ كُلًّا المنزلَ الذي أعطاه الله ورسوله، واجتمع عليه قلوبُ عباده المؤمنين.

والغرضُ أَنَّ هذه الآية الكريمةَ أخبرت بأنَّ الرسل الماضين قبل محمد ـ ﷺ ـ كانوا بشراً كما هو بَشَرٌ، كماقال تعالى: ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا * وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعَثَ الله بشراً رسولاً * قل لو كان في الأرض ملائكةٌ يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾. وقال تعالى: ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنَّهم ليأكلون الطعام ويمشُون في الأسواق ﴾. وقال ﴿ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ﴾، وقال تعالى: ﴿ قل ما كُنتُ بدعاً من الرسل ﴾، وقال تعالى: ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يُوحَى إليَّ ﴾.

ثم أرشد الله تعالى مَن شَكَّ في كَوْنِ الرُسلِ كانوا بشراً أن يسألوا أهلَ الذكر أصحابَ الكتب المتقدِّمة عن الأنبياءِ الذين سلفوا: هل كان أنبياؤُهم بشراً أو ملائكة؟

ثم ذكر تعالى أنه أرسلَهم ﴿ بالبيِّنات ﴾، أي: بالدلائل والحُجج، ﴿والزُّبُرِ﴾، وهي الكُتُبُ. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم.

والزُّبُر: جمعُ زَبُورٍ، تقولُ العرب: زَبَرْتُ الكتاب إذا كَتَبتَه، وقال الله تعالى: ﴿ وكلُّ شيءٍ فَعَلُوه في الزبر ﴾، وقال: ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يَرِثها عبادي الصالحون ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر﴾ ـ يعني القرآن ـ ﴿ لِتُبَيِّن للناس ما نُزِّل إليهم ﴾، من ربهم أي: لِعلْمِكَ بمعنى ما أنزل الله عليك، وحِرْصِكَ عليه، واتباعك له، ولعملنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، فَتُفَصِّلَ لهم ما أُجمِلَ، وتُبيِّن لهم ما أَشْكَلَ: ﴿ ولعلهم يتفكرون ﴾، أي: ينظرون لأنفسهم فَيهتَدُون، فيفوزون بالنجاة في الدَّارَينِ.

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عن حِلْمِهِ وإنظاره العُصاة الذين يعملون السيئات ويَدْعون إليها، ويمكرُون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على ﴿ أن يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذابُ من حيث لا يشعرون ﴾، أي: من حيث لا يعلمون مجيئَه إليهم، كما قال تعالى: ﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور *

أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعملون كيف نذيرِ﴾، وقوله: ﴿ أو يأخذهم في تقلُّبهم﴾. أي: في تَقَلُّبهم في المعاش واشتغالهم بما في أسفارهم ونحوها من الأشغال المُلْهِيَة.

قال قتادةُ والسديُّ: ﴿ تقلبهم ﴾ أي: أسفارُهم. وقال مجاهد، والضحاك: ﴿ في تقلبهم ﴾، في الليل والنهار، كما قال تعالى: ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ۞ أو أَمِن أهلُ القرى أن يأتيهم بأسُنا ضُحىً وهم يلعبون ﴾.

وقولُه: ﴿ فما هُم بمعجِزينَ﴾، أي: لا يُعْجِزُون الله على أي حال كانوا عليه.

وقولُه: ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾، أي: أو يأخذهم الله في حال خَوْفِهم من أخذه لهم، فإنه يكونُ أبلَغَ وأشدَّ حالةَ الأَخذِ؛ فإن حصولَ ما يُتوقَّع مع الخوف شديدٌ. ولهذا قال العَوفي، عن ابن عباس: ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾، يقول: إن شئتُ أخذتُه على أثرِ موت صاحبه وتخوُّفِ بذلك(١). وكذا رُوِيَ عن مجاهدِ، والضحاك، وقتادة، وغيرهم.

ثم قال تعالى: ﴿ فإنَّ ربكم لرءوفٌ رَحيم ﴾، أي: حيث لم يعاجلكم بالعُقُوبةِ، كما ثَبت في الصَّحِيحَينِ: «لا أحد أصبرُ على أذىً يسمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم»(٢). وفي الصحيحين: «إن الله لَيُمْلِي للظَّالم حَتَّى إذا أخذَه لم يُفْلِته»، ثم قرأ رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿وكذلك أَخْذُ ربِّكَ إذا أَخذَ القُرى وهي ظالمة إن أخذَهُ أليمٌ شَدِيدٌ(٣)﴾. وقال تعالى: ﴿ وكأين من قرية أمليتُ لها وهي ظالمةٌ ثم أخذتُها وإليّ المصيرُ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُۥ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۝٤٨ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝٥٠ ﴾

يخبر تعالى عن عَظَمتِه وجَلاَله وكبريائه الذي خَضَع له كلُّ شيء، ودانت له الأشياءُ والمخلوقاتُ بأسرها: جمادها وحيواناتها، ومكلَّفُوها من الإنس والجن والملائكة. فأخبر أن كُلَّ ماله ظلٌّ يَتفيَّأ ذات اليمين وذات الشمال، أي: بكرة وعشيا، فإنه ساجد بظله لله تعالى.

قال مجاهدٌ: إذا زالت الشمسُ سجد كلُّ شيء لله عز وجل. وكذا قال قتادةُ، والضحاكُ، وغيرهم.

وقوله: ﴿ وهم داخرون ﴾، أي: صاغرون. وقال مجاهد أيضاً: سجودُ كلِّ شيءٍ فيئُه ـ وذكر الجبال قال: سُجُودها فَيْئُها. وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلاته.

ونَزَّلَهم منزلة من يَعْقِل إذ أسند السجود إليهم.

ثم قال: ﴿ ولله يَسجُد ما في السمواتِ وما في الأرضِ من دابَّة ﴾، كما قال: ﴿ ولله يَسجدُ من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالُهم بالغدوِّ والآصال﴾.

---

(١) تفسير الطبري ١٤/١١٣.

(٢) فتح الباري، كتاب الأدب ١٠/٥١١، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ٢١٦٠.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة هود ٨/٣٥٤، ومسلم، كتاب البرّ ١٩٩٧ ـ ١٩٩٨.

وقوله: ﴿ والملائكةُ وهم لا يستكبرون ﴾، أي: تسجد لله غَيْرَ مستكبرين عن عبادته، ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾، أي: يَسجُدون خائِفِينَ وَجِلين من الرب جَلَّ جلالُه، ﴿ ويفعلون ما يُؤْمَرُون ﴾، أي: مُثابرين على طاعة الله تعالى في امتثالِ أوامرِه وترك زواجرِه.

﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

يُقَرر تعالى أنه لا إِلَه إلا هُوَ، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ فإنه مالكُ كُلِّ شيءٍ وخالقُه وربُّه.

﴿ وله الدينُ وَاصِباً ﴾، قال ابنُ عباس، ومجاهِدٌ، وعكرمةُ، وميمونُ بن مِهْرَانَ، والسدِّيُّ، وقتادَةُ، وغير واحد: أي دائماً.

وعن ابن عباس أيضاً: واجباً، وقال مجاهد: خالصاً. أي: له العبادةُ وحدَه مِمَّن في السموات والأرض، كقوله: ﴿ أفغير دين الله يَبغُون وله أسلَمَ من في السموات والأرض طوعاً وكرها ﴾. فهذا على قول ابن عباس وعكرمة، فيكون من باب الخَبَرِ، وأما على قول مجاهد فإنه يكون من الطَّلَبِ أي: ارهبونِ أن تشركوا بي شيئا، وأخلصوا لي الطاعة، كما في قوله تعالى: ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾.

ثم أخبر أنه مالك النَّفعِ والضَّر، وأنَّ ما بالعبادِ من نعمةٍ ورِزْقٍ وعافيةٍ ونصر فمن فضله عليهم، وإحسانه إليهم ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾، أي: لِعلمِكُم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجأون إليه، وتسألونه وتلحون في الرغبة مُستَغيثين به، كما قال تعالى: ﴿ وإذا مسكم الضرُّ في البحر ضَلَّ من تَدْعُون إلا إياه فلما نجَّاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً﴾. وقال ها هنا: ﴿ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم﴾.

قيل: «اللام» ها هنا لام العاقبة. وقيل: لام التعليل، بمعنى قيضنا[1] لهم ذلك ليكفروا، أي: يستروا ويجحدوا نعمَة الله عليهم، وأنه المُسْدي إليهم النعم، الكاشف عنهم النِّقَمَ.

ثم توعَّدهم قائلا: ﴿ فتمتَّعُوا ﴾، أي: اعملوا ما شئتم وتَمتَّعوا بما أنتم فيه قليلا، ﴿ فسوف تعلَمُون ﴾، أي: عاقبةَ ذلك.

﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾

---

(١) في نسخة: قيضاهم لذلك ليكفروا.

يُخبر تعالى عن قَبَائح المشركين الذين عَبَدُوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد، وجعلوا لها نصيباً مما رزقهم الله، فقالوا: ﴿ هذا لله بِزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يَصِلُ إلى الله وما كان لله فهو يَصِلُ إلى شركائهم ﴾، أي: جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله وفضَّلُوها أيضاً على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنَّهم عن ذلك الذي افتروه وائتفكوه، وليقابلنهم عليه وليجازينَّهم أوفر الجزاء في نار جهنم فقال: ﴿ تالله لَتُسْئَلُنَّ عما كنتم تفترون ﴾.

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جَعَلوا الملائكةَ الذين هم عبادُ الرحمن إناثا، وجَعَلوها بناتِ الله، وعبدوها مَعَه، فأخطأوا خَطَأً كبيراً في كلِّ مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً، ولا وَلَدَ له! ثم أعطوه أخس القِسْمَين من الأولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: ﴿ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذاً قسمةٌ ضِيزَى﴾، وقال ها هنا: ﴿ويجعلُون لله البناتِ سبحانه ﴾، أي: عن قولهم وإفْكِهم، ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولد الله وإنَّهُم لكاذبون * اصطفى البنات على البنين * مالكم كيف تحكمون﴾.

وقولُه: ﴿ ولهم ما يشتَهُون ﴾، أي: يختارون لأنفسهم الذكور ويأنَفُون لأنفسهم من البنات التي نَسَبُوها إلى الله ـ تعالى الله عن قولهم عُلُوّاً كبيرا ـ فإنه ﴿ إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهُه مسودّاً ﴾، أي: كَئِيبا من الهمِّ، ﴿ وهو كَظِيمٌ ﴾ ساكتٌ من شدّة ما هو فيه من الحزن، ﴿ يَتَوارى من القوم ﴾، أي: يكره أن يَرَاه الناسُ ﴿ من سوءِ ما بشر به أيمسكه على هُون أم يَدُسُّهُ في التراب ﴾، أي: إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها ولا يَعتَني بها، ويُفضل أولاده الذكور عليها، ﴿ أم يدسُّه في التراب ﴾، أي: يئدها، وهو: أن يدْفنَها فيه حيَّةً، كما كانوا يصنَعُون في الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله؟ ﴿ ألا ساء ما يحكمون ﴾، أي: بئس ما قالوا، وبئس ما قَسَمُوا، وبئس ما نَسَبُوا إليه! كما قال تعالى: ﴿ وإذا بشِّر أحدهم بما ضَرَب للرحمن مثلا ظَلَّ وجهُه مسودّاً وهو كظيم ﴾، «وقال ها هنا: ﴿ للذين لا يؤمنون مثَلُ السوءِ﴾، أي: النقص إنما يُنْسَبُ إليهم، ﴿ ولله المثَلُ الأعلى ﴾، أي: الكمال المطلق من كُلِّ وجه، وهو منسوب إليه، ﴿ وهو العزيزُ الحكيم ﴾.

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن حِلْمه بخلقه مع ظُلمهم، وأنه لو يُؤَاخذهم بما كسبوا ما تَرَكَ على ظهر الأرض من دابة، أي: لأهلك جميع دوابِّ الأرض تبعاً لإهلاك بني آدم. ولكن الرب ـ جَلَّ جلالُه ـ يحلُم ويستُر، ويُنْظِر ﴿إلى أجل مُسَمَّى﴾، أي: لا يُعاجِلُهم بالعقوبة؛ إذ لو فَعَل ذلك بهم لما أبقى أحداً.

قال سفيانُ الثَّوريُّ، عن أبي إسحاقَ، عن أبي الأحوص أنه قال: كاد الجُعَل[١] أن يُعذَّب بِذَنْبِ بني آدم، وقرأ: ﴿ولو يُؤَاخِذُ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة﴾.

وكذا رَوى الأعمشُ، عن أبي إسحاقَ، عن أبي عُبَيدَةَقال: قال عبدُالله: كادَ الجعل أن يَهلِكَ في جُحْرِه بخطيئة ابن آدم.

(١) الجُعَل: حيوان كالخنفساء يكثر في المواضع النديَّة.

وقال ابنُ جرير: حَدَّثني محمد بن المثنى، حدثنا إسماعيل بن حكيم الخُزاعي، حدثنا محمد بن جابر الحَنَفي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سَلَمة قال: سمع أبو هُرَيرة رَجُلاً وهُوَ يقولُ: إنَّ الظالم لا يضرُّ إلا نفسه. قال: فالتفت إليه فقال: بلى[1] والله، حتى إن الحبارى لتموت في وَكْرِها بظلم الظالم[2].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، أنبأنا الوليدُ بنُ عبد الملك بن عبيد الله بن مُسَرَّح، حدثنا سُلَيمان بن عطاء، عن مَسْلمة بن عبدالله، عن عمه أبي مَشْجَعَةَ بن رِبْعِيٍّ، عن أبي الدرداء قال: ذُكِرنا عندَ رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «إن الله لا يُؤَخِّر شيئاً إذا جاء أجلهُ، وإنما زيادةُ العُمْر بالذرِّيَّةِ الصالحةِ، يرزقها الله العبدَ فَيدعُون له من بعده، فيلحقه دعاؤُهم في قبره، فذلك زيادةُ العُمُرِ».

وقولُه: ﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾، أي: من النبات ومن الشركاء الذين هم عَبيده، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريكٌ له في ماله.

وقولُه: ﴿وتَصِفُ ألسنتهم الكَذِبَ أن لهم الحسنى﴾، إنكارٌ عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا، وإن كان ثَمَّ مَعَادٌ ففيه أيضاً لهم الحسنى، كقوله إخباراً عن قِيل من قال منهم: ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور * ولئن أذقناه نعماء بعد ضَرَّاء مسته ليقولَنَّ ذَهَبَ السيئاتُ عني إنه لَفَرِح فَخُور﴾، وكقوله: ﴿ولئن أذقناه رحمةً منا من بعد ضَرَّاء مسته ليقولنّ هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رُجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنَّهم من عذاب غليظ﴾، وقَوْلِهِ: ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتَيَنَّ مالاً وولداً * أطَّلَع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾، وقال إخباراً عن أحد الرجلين: أنه ﴿دَخَل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظنّ أن تَبِيد هذه أبداً * وما أظنّ الساعة قائمةً ولئن رُدِدتُ إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً﴾ ـ فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمني الباطل، بأن يجازوا على ذلك حُسناً، وهذا مستحيل، كما ذكر ابن إسحاق: أنه وُجِدَ حَجَر في أساس الكعبة حين نَقَضُوها ليجددوها مكتوبٌ عليه حِكَمٌ ومواعظ، فمن ذلك: تَعمَلُون السيئاتِ وتُجزَون الحسنات؟! أجل، كما يُجتنى من الشوك العِنَبِ[3]!

وقال مجاهد، وقتادَة: ﴿وتَصِفُ ألسنتهم الكَذِبَ أن لهم الحسنى﴾، أي: الغِلْمانُ.

وقال ابنُ جرير: ﴿أن لهم الحسنى﴾، أي: يوم القيامة. كما قدمنا بيانه، ولله الحمد، وهو الصواب.

ولهذا قال تعالى رادّاً عليهم في تَمَنِّيهم: ﴿لا جرم﴾، أي: حَقّاً لا بد منه ﴿أن لهم النار﴾، أي: يومَ القيامةِ، ﴿وأنهم مُفرَطون﴾.

قال مجاهد، وَسعيد بن جبُير، وقتادة، وغيرهم: مَنْسِيُّون فيها مُضَيَّعون.

وهذا كقوله تعالى ﴿اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾[4].

وعن قتادَةَ أيضاً: ﴿مُفْرَطُونَ﴾، أي: مُعجَلُون إلى النار، من الفَرَط وهو السابق إلى الوِرْد. ولا منافاة، لأنهم يُعَجَّلُ بهم يوم القيامة إلى النار، ويُنْسَون فيها، أي: يُخلَّدون.

---

(١) وقعت بلى هل موقع بل، استدراكاً على كلام الرجل. والمعنى: بل والله ليضرّ غيره، نحو قوله تعالى: ﴿وقالوا لن تمسنا النارُ إلا أياماً معدودة. قل: أتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون. بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته﴾ [البقرة: ٨٠ ـ ٨١].

(٢) في تفسير الطبري ١٤/١٢٦: «لتموت في وكرها هزالاً...».

(٣) سيرة ابن هشام ١/١٩٦. وفيها: كما لا يجتني. والصواب ما في أصولنا، والمعنى أن هذا مستحيل استحالة جني العنب من الشوك.

(٤) سورة الجاثية، آية ٣٤. وكان في النسخ: فاليوم. وهذا في سورة الأعراف، آية ٥١، ونصها: ﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾

يذكر تعالى أنه أرسَلَ إلى الأمم الخالية رُسُلاً، فكُذِّبت الرسلُ، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة، فلا يَهيدَنَّك[1] تكذيبُ قومِكَ لك، وأما المشرِكُون الذين كذبوا الرسل فإنما حَمَلهم على ذلك تزيينُ الشيطان لهم ما فعلوه، ﴿فهو وليهم اليوم﴾، أي: هم تحتَ العقوبة والنكال، والشيطانُ وليُّهم، ولا يملك لهم خلاصاً، ولا صَرِيخَ لهم، ولهم عذاب أليم.

ثم قال تعالى لرسوله: إنه إنما أُنزِلَ عليه الكتاب ليبين لهم، أي: للناس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه، ﴿وهدًى﴾، أي: للقلوب، ﴿ورحمة﴾، أي: لمن تَمسَّكَ به، ﴿لقوم يؤمنون﴾.

وكما جعل تعالى القرآنَ حياةً للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يُحْيِي الأرض بعد موتها بما ينزله عليها من السماء من ماء، ﴿إن في ذلك لآية لقوم يسمعون﴾، أي: يفهمون الكلام ومعناه.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿وإنَّ لكم﴾ أيها الناسُ ﴿في الأنعام﴾، وهي: الإبل والبقر والغنم، ﴿لعبرةً﴾، أي: لآيةً ودلالةً على قدرة خالقها وحكمته ولطفه ورحمته، ﴿نُسقِيكم مما في بُطُونِهِ﴾، وأفرد ها هنا الضمير عوداً على معنى النعم، أو الضمير عائد على الحيوان؛ فإن الأنعام حيوانات، أي: نسقيكم مما في بطون هذا الحيوان.

وفي الآية الأخرى: ﴿مما في بطونها﴾[2]، ويجوزُ هذا وهذا، كما في قوله تعالى: ﴿كلا إنها تذكرة * فمن شاء ذكره﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون * فلما جاء سليمانَ﴾، أي: المالُ.

وقولُه: ﴿من بين فرث ودم لبناً خالصاً﴾، أي: يَتخلَّصُ الدمُ بياضه وطَعْمُه وحَلاوته من بين فرث ودَمٍ في باطن الحيوان، فيسري كُلٌّ إلى موطنه، فإذا نَضِجَ الغِذاءُ في مَعِدته تَصرَّفَ منه دمٌ إلى العروق، ولبنٌ إلى الضرع، وبولٌ إلى المثانة، ورَوْثٌ إلى المخرج، وكلٌ منها لا يَشُوب الآخَرَ ولا يُمازِجُه بعد انفصاله عنه، ولا يَتغير به.

وقولُه: ﴿لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾، أي: لا يُغَصُّ أحدٌ به.

ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جَعَله شراباً للناس سائغاً، ثَنَّى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة، من ثمراتِ النخيل والأعناب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه، ولهذا امتنَّ به عليهم فقال: ﴿ومن

---

(١) أي: لا يُفزِعَنْك ولا يَكرُبَنْكَ.
(٢) أي في الآية ٦٦ من سورة النحل.

ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منهُ سكراً﴾، دَلَّ على إباحته شرعاً قبل تحريمه، ودل على التسوية بين السَّكَرِ المتخَذِ من العنب، والمتَّخَذِ من النخل، كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء، وكَذَا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما جاءت السنَّةُ بتفصيل ذلك، وليس هذا موضعَ بسط ذلك، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿سَكَرًا ورزقاً حسناً﴾، قال: السَّكَر: ما حُرِّم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أُحِلَّ من ثمرتيهما ـ وفي رواية: «السَّكر حَرامه، والرزق الحسن حلاله». يعني ما يَبِسَ منهما من تَمْرٍ وزَبِيب، وما عُملِ منهما من طِلاَءٍ ـ وهو الدِّبْسُ[١] ـ وخَلٍّ ونَبِيذٍ، حلال يُشْرَب قبل أن يشتدَّ، كما وردت السنة بذلك.

﴿إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾، ناسب ذكرُ العقل ها هنا، فإنّه أشرفُ ما في الإنسان، ولهذا حَرَّمَ الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانةً لعقولها، قال الله تعالى: ﴿وجعلنا فيها جناتٍ من نخيل وأعنابٍ وفَجَّرنا فيها من العيون * ليأكلوا من ثَمَرِهِ وما علمته أيديهم أفلا يشكرون * سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تُنبِت الأرضُ ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

المرادُ بالوحي ها هنا: الإلهامُ والهدايةُ والإرشادُ إلى النحلِ أن تَتَّخِذَ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر، ومما يعرشون. ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تَسْدِيسها ورصِّها، بحيث لا يكون بينها خَلَلٌ.

ثم أَذِن لها تعالى إذناً قَدَرياً تسخيريًّا أن تأكل من كلِّ الثمرات، وأن تسلُكَ الطرق التي جعلها الله تعالى لها مُذَلَّلة، أي: سهلة عليها حيث شاءت في هذا الجو العظيم والبَرَارِي الشاسِعَة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعودُ كلُّ واحدةٍ منها إلى موضعها وبيتها، لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها ومالها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع من أجنحتها، وتَقِيءُ العسَلَ من فِيها، وتَبِيض الفراخ من دُبُرها، ثم تُصبِح إلى مراعيها.

وقال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلَمَ: ﴿فاسلُكِي سُبُل رَبِّك ذللاً﴾، أي: مُطِيعة[٢]. فجعلاه حالاً من السالكة. قال ابن زيد: وهو كقول الله تعالى: ﴿وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون﴾، قال: ألا تَرَى أنَّهم ينتقلون بالنحل ببيوته من بلد إلى بلد وهو يَصْحَبُهم.

والقولُ الأول أظهرُ، وهو أنه حال من الطريق، أي: فاسلكيها مذلَّلةً لك، نص عليه مجاهد. وقال ابن جرير: كلا القولين مُتَّجِهٌ[٣].

وقد قال أبو يعلى الموصلي: حدثنا شيبان بن فَرُّوخ، حدثنا سُكَين بن عبد العزيز، عن أبيه، عن أنس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «عُمرُ الذباب أربعونَ يوماً، والذبابُ كلُّه في النارِ إلا النحلُ»[٤].

وقولُه تعالى: ﴿يخرجُ من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانه﴾، أي: ما بين أبيضَ وأصفرَ وأحمرَ وغير ذلك من الألوان الحسنة، على اختلاف مراعيها ومآكِلها منها.

---

(١) الطِّلاء: شراب مطبوخ من عصير العنب. والدِّبْس: عسل التمر وعصارته.
(٢) تفسير الطبري ١٤/١٤٠.
(٣) تفسير الطبري ١٤/١٤٠. وزاد: «غير أنا اخترنا أن يكون نعتاً للسُّبُل لأنها إليها أقرب».
(٤) مسند أبي يعلى ٧/٢٣٠.

وقولُه: ﴿فيه شفاء للناس﴾، أي: في العسل شفاء للناس من أدواءٍ تعرِضُ لهم.

قال بعضُ من تَكَلَّم على الطبِّ النبويِّ: لو قال: «فيه الشفاء للناس»، لكان دواءً لكل داءٍ، ولكن قال ﴿فيه شفاء للناس﴾، أي: يصلح لكلِّ أحدٍ من أدواءٍ باردة، فإنه حار، والشيءُ يُدَاوَى بِضِدِّه.

وقال مجاهد بن جَبْرٍ في قوله: ﴿فيه شفاء للناس﴾: يعني القرآن.

وهذا قول صحيح في نفسه، ولكن ليس هو الظاهرَ ها هنا من سياق الآية، فإن الآية إنما ذكر فيها العسل، ولم يتابع مجاهدٌ على قوله ها هنا، وإنما الذي قاله ذكروه في قوله تعالى: ﴿ونُنَزِّلُ من القرآن ما هو شفاء ورحمةٌ للمؤمنين. . .﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاءٌ لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾.

والدليل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فيه شفاء للناس﴾، هو العسل، الحديثُ الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحهما، من رواية قتادة، عن أبي المتوكِّل علي بن داودَ الناجيِّ، عن أبي سعيد الخُدْري ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: إن أخي اسْتَطْلَقَ[1] بطنُه؟ فقال: اسقه عسلاً. فسقاهُ عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسولَ الله، سقيتُه عسلاً فما زادَه إلا استطلاقاً! قال: اذهَبْ فاسقه عسلاً. فذهَبَ فسقاه، ثم جاء فقال: يا رسولَ الله، ما زاده إلا استطلاقاً! فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: صدق الله وكذَبَ بطنُ أَخِيكَ! اذهَبْ فاسقه عسلاً. فذهبَ فسقاه فَبَرَأ[1].

قال بعضُ العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلاتٌ، فلما سقاه عَسَلاً وهو حارٌّ تحللت، فأسرعَت في الاندفاع، فزاد إسهالُه، فاعتقد الأعرابي أن هذا مضرةٌ، وهو مَصْلَحة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليلُ والدفعُ، ثم سقاه فكذلك، فلما اندفعت الفضلاتُ الفاسدةُ المضرَّةُ بالبدن استمسك بطنُه، وصَلَح مزاجه، واندفعت الأسقامُ والآلام ببركة إشارته، عليه من ربِّه أفضلُ الصلاةِ والسلام.

وفي الصحيحين، من حديث هِشَام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشةَ: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يُعجِبُه الحَلْواءُ والعَسَلُ. هذا لفظُ البخاريِّ[2].

وفي صحيح البخاري، من حديث سالم الأفطس، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «الشفاء في ثلاثة: في شَرْطة مِحْجَم، أو شَرْبَةِ عَسَلٍ، أو كيَّةٍ بنار، وأنهى أُمَّتي عن الكَيِّ»[3].

وقال البخاري: حدثنا أبو نُعيم، حدثنا عبد الرحمن بن الغَسِيل، عن عاصم بن عُمَر بن قتادَةَ، سمعت جابر بن عبدالله قال: سَمِعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن كان في شيءٍ من أدويتكم ـ أو يكونُ في شيء من أدويتكم ـ خير ففي شرطة محجَم، أو شَرْبَةِ عَسَلٍ، أو لَذْعَةٍ بنارٍ توافق الداء، وما أحب أن أكتوِيَ»[4].

ورواه مسلم من حديث عاصم بن عُمَر بن قتادَةَ، عن جابر، به[4].

---

(١) مسلم، كتاب السلام ١٧٣٦ ـ ١٧٣٧، وفتح الباري، كتاب الطب ١٠/١٦٨، وقد اختصره البخاري عند قوله: «صدق الله وكذب بطن أخيك».

والاستطلاق: الإسهال. ويقال: بَرِىءَ من المرض، وبَرَأَ. والثانية لغة أهل العالية وأهل الحجاز.

(٢) فتح الباري، كتاب الأشربة ١٠/٧٨، ومسلم، كتاب الطلاق ١١٠١.

والمراد بالحلواء هنا: كلّ شيء حُلْوٍ، وقد ذكر العسل بعده تنبيهاً على فريته.

(٣) فتح الباري، كتاب الطب ١٠/١٣٦ ـ ١٣٧.

(٤) فتح الباري، كتاب الطب ١٠/١٣٩، ومسلم، كتاب السلام ١٧٢٩ ـ ١٧٣٠.

وقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا عبدالله، أنبأنا سعيدُ بن أبي أيوب، حدثنا عبدالله ابن الوليد، عن أبي الخير، عن عُقبَة بن عامر الجُهَني قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ثلاثٌ إن كان في شيءٍ شفاءٌ فشَرطة مِحْجَم، أو شَرْبَةُ عَسَل، أو كيَّة تُصِيب ألماً، وأنا أكرَهُ الكَيَّ ولا أحبه»(١).

وَرَواه الطبرانيُّ عن هارونَ بن مَلُول المصري، عن أبي عبد الرحمن المقرىء(٢)، عن عبدالله بن الوليد، به، ولفظه: «إن كان في شيء شفاء فَشَرْطَة مِحْجَمٍ...»(٣) وذكره، وهذا إسنادٌ صَحِيحٌ، ولم يُخرِجُوه.

وقال الإمامُ أبو عبدالله بن محمد بن يزيد بن ماجة القَزْوينيّ في سننه: حدثنا علي بن سلمة ـ هو اللَّبَقِيُّ ـ حدثنا زيد بن الحُباب، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبدالله ـ هو ابن مسعود ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «عليكم بالشفاءَين: العَسَل والقرآن»(٤).

وهذا إسنادٌ جيدٌ، تَفَرَّد بإخراجه ابن ماجَة مرفوعاً، وقد رواه ابنُ جرير، عن سفيانَ بن وكيع، عن أبيه، عن سفيان ـ هوالثوري ـ به موقوفاً؛ وَلَهو أشبه(٥).

وَرُوِّينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «إذا أراد أحدُكم الشفاءَ فَلْيكتب آيةً من كتاب الله في صَحْفَة، وليغسلها بماء السماء، وليأخذ من امرأته درهماً عن طيب نفس منها، فَلْيَشْتَرِ به عَسَلاً فَلْيشربْه بذلك، فإنه شفاء»، أي: من وجوه، قال الله: ﴿وَنُنَزِّلُ من القرآن ما هو شفاء﴾، وقال: ﴿وَنَزَّلنا من السماء ماءً مباركاً﴾، وقال: ﴿فإن طِبْنَ لكم عن شَيْءٍ منه نفساً فكلوه هَنِيئاً مريئاً﴾، وقال في العسل: ﴿فيه شفاء للناس﴾.

وقال ابن ماجه أيضاً: حدثنا محمود بن خِدَاش، حدثنا سعيدُ بن زكريا القرشي، حدثنا الزبير بن سعيد الهاشمي، عن عبد الحميد بن سالم، عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من لَعِقَ العسل ثلاث غَدَوَاتٍ في كلِّ شهر، لم يُصِبْه عظيم من البلاء»(٦).

الزبير بن سعيد متروك.

وقال ابنُ ماجةَ أيضاً: حدثنا إبراهيمُ بن محمد بن يوسفَ بن سَرْح الفِرْيابيُّ، حدثنا عمرو بن بكر السَّكْسَكِيّ، حدثنا إبراهيم بن أبي عبْلَة. سمعت أبا أُبَيّ بن أمِّ حَرَام ـ وكان قد صَلَّى القبلتين ـ يقول: سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «عليكم بالسَّنَى والسَّنُوتِ؛ فإن فيهما شفاءً من كُلِّ داءٍ إلا السامَ. قيل: يا رسول الله، وما السامُ؟ قال: الموت».

قال عمرو: قال ابنُ أبي عبلة: «السَّنُّوتُ»: الشِّبِتُّ(٧). وقال آخرون: بل هو العسل الذي في زِقَاق السمن، وهو قول الشاعر:

---

(١) مسند أحمد ١٤٦/٤.

(٢) في المعجم الكبير: حدثنا أبو عبد الرحمن المقري، حدثنا حيوة بن شريح، عن عبدالله بن الوليد».

(٣) المعجم الكبير ٢٨٨/١٧ ـ ٢٨٩.

(٤) سنن ابن ماجة، كتاب الطب ١١٤٢.

(٥) تفسير الطبري ١٤١/١٤.

(٦) سنن ابن ماجة، كتاب الطب ١١٤٢.

(٧) قيل في تفسير السَّنُّوت أنه: الرُّبّ، وقيل: العَسَلُ! وقيل: الكَمُّون. فأما الشِّبِتُّ ـ بكسرتين فتاه مشددة ـ فقال في اللسان عن أبي حنيفة: نَبْتٌ ـ ولم يزد.

هُمُ السَّمْنُ بِالسَّنُوتِ لا أَلْسَ فِيهِمُ   وَهُمْ يمنَعُونَ الجَارَ أَنْ يَتَقَرَّدَا(١)

كذا رواه ابنُ ماجة(٢) : وقولُه: «لا أَلْسَ فيهم»، أي: لا خَلْطَ(٣). وقوله: «يَمنَعُون الجارَ أن يَتَقَرَّدا»، أي: يُضطهَدَ ويُظْلَمَ. كذا قاله شيخُنا المِزِّيُّ.

وقولُه: ﴿إنَّ في ذلك لآيةً لقوم يتفكرون﴾، أي: إن في إلهام الله لهذه الدوابِّ الضعيفةِ الْخِلْقَةِ إلى السلوك في هذه المهامه والاجتناء من سائر الثمار، ثم جَمْعها للشمع والعسل، وهو من أطيب الأشياءِ ﴿لآيةً لقوم يتفكرون﴾ في عظمة خالقها ومُقدِّرها ومُسخِّرها ومُيَسِّرها، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادرُ، الحكيم العليم، الكريم الرحيم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

يخبر تعالى عن تَصَرُّفه في عباده، وأنه هو الذي أنشأهم من العَدَم، ثم بعد ذلك يَتوفَّاهم، ومنهم من يَتركُه حتى يُدْرِكه الهرَم ـ وهو الضعف في الخِلْقَةِ ـ كما قال الله تعالى: ﴿الله الذي خلقكم من ضَعْفٍ ثم جَعَل من بعد ضَعْفٍ قُوَّةً ثم جَعَل من بعد قُوَّةٍ ضعفاً وَشَيْبَةً يخلُق ما يشاء وهو العليمُ القديرُ﴾.

وقد رُوِي عن علي ـ رضي الله عنه ـ في أرذل العمر قال: خَمْسٌ وسبعون سنةً. وفي هذا السنِّ يحصُل له ضعفُ القُوى والخَرَفُ وسوءُ الحِفْظِ وقلَّة العلم. ولهذا قال: ﴿لكي لا يَعْلَم بعد علم شيئاً﴾، أي: بعدَ ما كانَ عالِماً أصبحَ لا يَدْرِي شيئاً من الفَنَد والخَرَفِ(٤). ولهذا رَوَى البخاريُّ عند تفسير هذه الآية:

حَدّثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا هارونُ بن موسى أبو عبدالله الأعور، عن شُعَيب، عن أنس بن مالك: أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يدعو: «أعوذُ بك من البُخْلِ والكَسَل، وأرذَلِ العُمْرِ، وعَذَابِ القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات»(٥).

[ورواه](٦) [مسلم، من حديث هارون الأعور، به].

وقال زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة(٧):

سَئِمتُ تَكاليفَ الحيَاةِ، وَمَنْ يعِشْ   ثمانينَ عاماً ـ لا أَبَالَـكَ ـ يَسْأَمِ
رَأيتُ المَنَايا خَبْطَ عَشْواءَ من تُصِبْ   تُمِتْه وَمَنْ تُخْطِىءْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾

(١) في سنن ابن ماجة: أن يُقَرَّرا. ولا يستقيم عليه الوزن، والمثبت عن أصلنا. ورواية اللسان: قرد، ألس: «وهم يمنعون جارهم أن يقَرَّدا» مستقيمة.

وقد نسب البيت في اللسان، رَسْم «قرد» إلى الحُصَين بن القعقاع.

(٢) سنن ابن ماجة، كتاب الطب ١١٤٤.

(٣) فُسِّر الألس في اللسان بالخداع والخيانة والغِشّ.

(٤) خرِفَ عقلُه: فَسَدَ من الكِبَرِ. وفَنِد فَنَداً: ضَعُفَ رأيه من الهرم، وكذب، وأتى بالباطل.

(٥) فتح الباري، تفسير سورة النحل ٨/٣٨٧ ـ ٣٨٨.

(٦) عن إحدى النسخ، وبعدها بياض. والحديث رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٠٨٠.

(٧) ديوان زهير ٢٩.

يُبَينُ تعالى للمشركين جَهْلهم وكُفْرهم فيما يزعمون لله من الشركاء، وهم يَعْرفون أنها عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبياتهم في حجهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك». فقال تعالى منكراً عليهم: أنتُم لا ترضَون أن تُساووا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيفَ يرضَى هو تعالى بمساواة عبيده له في الإلهية والتعظيم؟! كما قال في الآية الأخرى: ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾. . . الآية.

قال العَوْفي، عن ابن عباس في هذه الآية: يقول: «لم يكونوا لِيُشْرِكوا عَبِيدَهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني، فذلك قوله: ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾[(١)].

وقال في الرواية الأخرى، عنه: «فكيف ترضَون لي ما لا ترضون لأنفسكم؟!»[(١)].

وقال مجاهد في هذه الآية: هذا مثَلٌ للآلهة الباطلة.

وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله، فهل منكم من أحد شارَكَ مملوكه في زوجته وفي فراشِه، فتعدلون بالله خلقه وعباده؟! فإن لم تَرْضَ لنفسِك هذا، فالله أحقُّ أن ينزَّه منك.

وقولُه: ﴿أفبنِعْمَةِ اللهِ يجحَدُون﴾، أي: إنهم جعلوا لله مما ذَرأ من الحرث والأنعامِ نصيباً، فجَحَدُوا بنعمَةِ الله، وأشركوا معه غيره.

وعن الحسن البصريِّ قال: كتب عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ هذه الرسالة إلى أبي مُوسَى الأشعريِّ: «واقنع برزقك من الدنيا، فإنَّ الرحمن فَضَّل بعضَ عباده على بعض في الرزق، بل[(٢)] يبتلي به كُلًّا، فيبتلي مَن بَسَط له، كيفَ شُكرهُ فيه؟ وشكرُهُ الله أداؤهُ الحقَّ الذي افترَض عليه فيما رزَقه وخوَّلَه؟». رواه ابن أبي حاتم.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

يذكُر تعالى نِعَمَه على عَبِيده، بأن جَعَل لهم من أنفُسِهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم وَزِيِّهم[(٣)]، ولو جَعَل الأزواجَ من نوعٍ آخر لما حَصَل ائتلافٌ ومودَّةٌ ورحمةٌ. ولكن من رحمته خلَق من بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجَعَل الإناثَ أزواجاً للذكُورِ.

ثم ذكر تعالى أنه جَعَل من الأزواج البنين والحَفَدَة، وهم أولادُ البنين. قاله ابنُ عَبّاسٍ، وعكرمةُ، والحسنُ، والضحاك، وابنُ زيد.

قال شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس: ﴿بَنِينَ وحَفدةً﴾: هم الوَلَدُ ووَلَدُ الوَلَدِ[(٤)].

وقال سُنَيد: حَدَّثنا حَجَّاج، عن أبي بكر، عن عكرمةَ، عن ابن عباس قال: بَنُوك حين يَحفِدُونك

(١) تفسير الطبري ١٤/١٤٢.
(٢) في نسخة: بلى.
(٣) الزيّ: الهيئة والمنظر.
(٤) تفسير الطبري ١٤/١٤٦.

ويَرفِدُونك، ويعينونك ويخدمونك، قال جَمِيلٌ(١):

حَفَدَ الولائدُ حَوْلَهُنَّ وأسْلَمَتْ بأكُفِّهِنَّ أزِمَّةَ الأجْمَالِ

وقال مجاهدٌ: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: ابنه وخادِمُهُ. وقال في رواية: الحَفَدَةُ: الأنصار والأعوان والخُدَّام.

وقال طاوس: الحفدةُ الخدمُ. وكذا قال قتادة، وأبو مالك، والحسن البصري.

وقال عبد الرزَّاق: أنبأنا معمر، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة أنه قال: الحَفَدَةُ مَن خَدَمك من وَلَدِك ووَلَدِ وَلَدِك.

وقال الضحاك: إنما كانت العرب يخدُمها بنوها.

وقال العوفي، عن ابن عباس قولُه: ﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحَفَدةً﴾، يقول: بنو امرأة الرجل، ليسوا منه. ويقال: «الحفدة»: الرجل يعمل بين يدي الرجل، يقال: فلان يحفد لنا. قال: وَزَعم رجال أن الحفَدَةَ أَخْتانُ الرجل(٢).

وهذا القولُ الأخير الذي ذكره ابنُ عباس قاله ابنُ مسعود، ومسروق، وأبو الضُّحى، وإبراهيم النَّخعيُّ، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، والقُرَظِيّ. ورواه عِكْرِمة عن ابن عباس.

وقال عليُّ بنُ أبي طلحة، عن ابن عباس: هم الأصهار.

قال ابنُ جرير: وهذه الأقوال كلُّها داخلة في معنى الحَفْدِ، وهو الخدمة، الذي منه قوله في القُنُوتِ: «وإليك نسعَى ونحفِدُ»، ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والأصهار والخُدَّام، فالنعمة حاصلة بهذا كله، ولهذا قال: ﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾.

قلت: فمن جعل ﴿وحفدة﴾ متعلقاً بأزواجكم فلا بد أن يكونَ المرادُ الأولاد، وأولاد الأولاد، أو الأصهار؛ لأنهم أزواج البنات، أو أولاد الزوجة، كما قاله الشعبي والضحاك، فإنهم غالباً يكونون تحت كَنَفِ الرجُلِ وفي حِجْرِه وفي خدمته. وقد يكون هذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام في حديث بَصْرَةَ ابن أَكْثَمَ: «والولَدُ عبدٌ لك». رواه أبو داود(٣).

وأما من جعل الحَفَدة هم الخدم فعنده أنه معطوف على قوله: ﴿والله جَعَل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾، أي: وجعل لكم خُدَّاماً.

قال تعالى: ﴿ورزقكم من الطيبات﴾، الرزق من المطاعم والمشارب.

ثم قال تعالى: منكراً على من أشرك في عبادة المنعم غيره: ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾، وهم: الأصنامُ والأندادُ، ﴿وبنعمة الله هم يكفرون﴾، أي: يَستُرُون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره.

---

(١) كذا، ونُسِبَ في مجاز القرآن ٣٦٤/١ أيضاً إلى جميل بن معمر، وفي تفسير الطبري ١٤٦/١٤ إلى حميد، ولم أجده في ديوان جميل، ولا ديوان حميد بن ثور.

(٢) تفسير الطبري ١٤٦/١٤. والأختان: جمع خَتَنٍ، وهو كل ما كان من قبل المرأة كأبيها وأخيها.

(٣) سنن أبي داود، كتاب النكاح ٢٤١/٢ ـ ٢٤٢.

فأما بَصرة فاختلف فيه، فقيل بالباء والصاد، وقيل بالنون والضاد، ويقال فيه: بُسْرة، إلى غير ذلك. انظر تهذيب الكمال ١٨٩/٤.

وفي الحديث الصحيح: «إنَّ الله تعالى يقولُ للعبدِ يومَ القيامةِ ممتناً عليه: ألم أُزَوِّجك؟ ألم أسخِّر لك الخيلَ والإبلَ وأذرْكَ ترأسُ وتَرْبعُ؟»(١).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

يقولُ تعالى إخباراً عن المشركين الذين عَبَدُوا معه غيرَه، مع أنه هو المنعِم المتفضِّلُ الخالِقُ الرازِقُ وحدَه لا شريكَ له، ومع هذا يَعبُدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ﴿مالا يملك لهم رِزْقاً من السموات والأرض شيئاً﴾، أي: لا يقدر على إنزال مطر ولا إنباتِ زَرعٍ ولا شجرٍ، ولا يملكون ذلك لأنفسهم، أي: ليس إليهم ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾، أي: لا تجعلوا له أنداداً وأشباهاً وأمثالاً، ﴿إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾، أي: إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا الله، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.

﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

قال العَوفِيُّ، عن ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن: وكذا قال قتادةُ، واختاره ابن جرير.

فالعبدُ المملوكُ الذي لا يقدرُ على شيء مثل الكافر. والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سراً وجهراً هو المؤمنُ.

وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستَوِي هذا وهذا؟!

ولما كان الفرق ما بينهما بيِّناً واضحاً ظاهراً لا يجهله إلا كلُّ غَبِيٍّ، قال الله تعالى: ﴿الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمونَ﴾.

ثم قال تعالى:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

قال مجاهد: وهذا أيضاً المرادُ به الوثن والحق تعالى، يعني أن الوثنِ أبكَمُ لا يتكلَّم ولا ينطق بخير ولا شرٍّ، ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مَقَال، ولا فِعال، وهو مع هذا «كَلٌّ»، أي: عيال وكلفة على مولاه،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد ٢٢٧٩ ـ ٢٢٨٠، والترمذي في أبواب صفة القيامة، عارضة الأحوذي ٩/٢٥٩، والإمام أحمد في مسنده ٢/٤٩٢، ٤/٣٧٨، ٣٧٩.

وترأسُ: تكون رئيس القوم وكبيرهم. وتربع: تأخذ المرباع الذي كانت ملوك الجاهلية تأخذه من الغنيمة، وهو ربعها. والمعنى المراد: ألم أجعلك رئيساً مطاعاً، وقيل إن المعنى: تركتك مستريحاً لا تحتاج إلى مشقة وتعب، من قولهم: اربَعْ على نفسك، أي: ارفق بها.

﴿أينما يوجهه﴾، أي: يبعثه ﴿لا يأت بخير﴾ ولا ينجحْ مسعاه، ﴿هل يستوي﴾ من هذه صفاتُه، ﴿ومن يأمرُ بالعدل﴾، أي: بالقسط، فمقالُه حَق وفِعاله مستقيمة، ﴿وهو على صراط مستقيم﴾. وبهذا قال السُّديُّ، وقتادة وعطاء الخراساني. واختار هذا القولَ ابنُ جرير.

وقال العوفيُّ، عن ابن عباس: هو مَثَلٌ للكافر والمؤمنِ أيضاً كما تقدَّمَ.

وقال ابن جرير: حدثنا الحسنُ بن الصباح البزّار، حدثنا يحيى بن إسحاق السَّيْلحيني، حدثنا حماد، حدثنا عبدالله بـن عثمان بن خُثَيم، عن إبراهيمَ بن عِكْرِمةَ بن يَعْلى بن أُميّة[1]، عن ابن عباس في قوله: ﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء﴾: نزلت في رجل من قريش وعبده. وفي قوله: ﴿مثلا رجُلَين أحدُهما أبكَمُ لا يقدر على شيء﴾ إلى قوله: ﴿وهو على صراط مستقيم﴾، قال: هو عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ قال: والأبكم الذي أينما يُوجِّهه لا يأتِ بخيرٍ قال هو: مولىً لعثمانَ بن عَفّان، كان عُثمانَ ينفِقُ عليه وَيَكْفُله ويَكْفِيه المئونة، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما[2].

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

يخبِرُ تَعالى عن كماله وقدرتِهِ على الأشياء، في علمه غَيْبَ السموات والأرض، واختصاصِه بذلك، فلا اطِّلاعَ لأحد على ذلك إلا أن يُطلعه تعالى على ما يشاء، وفي قدرته العامة التي لا تُخالف ولا تُمانع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له «كن» فيكونُ، كما قال: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾، أي: فيكونُ ما يريد كَطَرْفِ العين. وهكذا قال ها هنا: ﴿وما أمر الساعة إلا كَلَمْحِ البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير﴾، كما قال: ﴿ما خَلقُكم ولا بَعْثُكم إلا كنفس واحدة﴾.

ثم ذكر تعالى مِنَّته على عباده، في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يَرزُقهم تعالى السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار اللاتي بها يُحِسُّون المرئيّاتِ، والأفئدة ـ وهي العقولُ ـ التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدِّماغ، والعقلُ به يُميِّز بين الأشياء ضارِّها ونافِعِها. وهذه القُوَى والحواسُّ تَحصُلُ للإنسان على التَّدريج قليلاً قليلاً، كُلَّما كبر زِيدَ في سمعه وبصره، وقَوِيَ عقلُه حتى يبلغ أشده.

وإنما جَعَل تعالى هذه في الإنسان، ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعينَ بكل جارحة وعُضو وقُوَّة على طاعة مولاه، كما جاء في صحيح البخاري، عن أبي هريرة، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: ويقولُ تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارَزَني بالحرب، وما تَقرَّب إليّ عبدي بأفضل من أداء ما افترضتُ عليه. ولا يزالُ عَبْدِي يَتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سَمْعَه الذي يسمَعُ به، وبصرَه الذي يُبصِرُ به، ويده التي يَبْطِش

(١) مترجم في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١٢٠/٢، ويقال فيه: يعلى ابن مُنْيَة، انظر التاريخ الكبير ٢٠٦/١، ومنيةُ والدة يعلى.
(٢) تفسير الطبري ١٥١/١٤.

بها، وَرِجْلَه التي يمشي بها، وَلَئِن سَألني لأُعطِيَنَّه، ولئن دعاني لأُجيبنه، ولئن استعاذ بي لأُعيذَنَّه، وما تَرَدَّدتُ في شيءٍ أنا فاعله تَرَدُّدِي في قبض نفس عَبْدِي المؤمن، يكره الموتَ وأكره مساءَته، ولا بُدَّ له منه»(١).

فمعنى الحديثِ أنَّ العبدَ إذا أخلص الطاعةَ صارت أفعالُه كلُّها لله عَزَّ وَجلَّ، فلا يسمَعُ إلا لله، ولا يُبصِرُ إلا لله، أي: ما شَرَعه الله له، ولا يَبْطِش ولا يمشي إلا في طاعة الله عَزَّ وجلَّ، مُستَعِيناً بالله في ذلك كُلِّه. ولهذا جاء في بعض رواية الحديثِ في غير الصحيح، بعد قوله: «وَرِجْلَه التي يمشي بها»: «فَبِي يَسْمَع، وَبِي يُبصِرُ، وَبِي يَبْطِش، وَبِي يَمْشِي»، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَل لكم السمع والأبصار والأفئِدَةَ لعلكم تشكرون﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون * قل هو الذي ذَرَأكم في الأرض وإليه تحشرون﴾.

ثم نَبَّه تعالى عبادَه إلى النَّظر إلى الطير المسخَّر بين السماء والأرض، كيف جَعَله يطيرُ بجناحيه بين السماء والأرض، في جَوِّ السماء ما يُمسِكه هناك إلا الله بِقُدرته تعالى، الذي جعل فيها قُوىً تفعل ذلك، وسَخَّر الهواء يَحمِلُها وَيسَّر الطير لذلك، كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿أو لم يَرَوا إلى الطير فوقهم صَافَّاتٍ وَيَقبِضْنَ ما يمسِكُهنَّ إلا الرحمن إنه بكل شيء بَصِير﴾. وقال ها هنا: ﴿إن في ذلك لآياتٍ لقوم يُؤمِنُونَ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

يذكُر تبارَكَ وتعالى تَمام نِعَمِه على عبيده، بما جَعَل لهم من البيوتِ التي هي سَكَنٌ لهم، يَأْوُون إليها ويَستَقِرُّون بها، وينتفعون بها سائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضاً ﴿من جلود الأنعام بيوتاً﴾، أي: من الأَدَم، يَستَخِفُّون حملها في أسفارهم، ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر. ولهذا قال: ﴿تَستخِفُّونها يوم ظَعْنِكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها﴾، أي: الغنم، ﴿وأوبارها﴾، أي: الإبل، ﴿وأشعارها﴾، أي: المَعْز ـ والضمير عائد على الأنعام ـ ﴿أثاثاً﴾، أي: تتخذون منه أثاثاً، وهو المال. وقيل: المَتَاع. وقيل: الثيابُ. والصحيح أعمُّ من هذا كلِّه، فإنه يتخذ منه الأثاث والبُسُط والثياب وغير ذلك، ويُتَّخذُ مالاً وتجارةً.

وقال ابن عباس: الأثاثُ المتاع. وكذا قال مجاهد، وعكرمةُ، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وعَطِيَّة العَوْفي، وعطاء الخُرَاساني، والضحاك، وقتادةُ.

وقولُه: ﴿إلى حين﴾، أي: إلى أَجَلٍ مُسمًّى ووقتٍ معلوم.

وقولُه: ﴿والله جَعَل لكم مما خَلَق ظلالاً﴾، قال قتادةُ: يعني الشَّجَر.

---

(١) فتح الباري، كتاب الرقاق ١١/٣٤٠ . ٣٤١. مع خلاف يسير في بعض ألفاظه من روايات أخرى أشار إليها ابن حجر في الفتح ٣٤٢/١١.

﴿وجَعَل لكم من الجبال أكناناً﴾، أي: حُصوناً ومعاقِل، كما ﴿جَعَل لكم سرابيل تَقِيكُم الحرّ﴾، وهي الثيابُ من القطن والكتان والصوف، ﴿وسرابيلَ تَقِيكم بأسكم﴾، كالدروع من الحديد المصفح والزَّرَدِ وغير ذلك، ﴿كذلك يُتِم نعمتَه عليكم﴾، أي: هكذا يَجعل لكم ما تستعينون به على أمركم، وما تحتاجُون إليه، ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته، ﴿لعلكم تسلمون﴾.

هكذا فَسَّره الجمهور، وقرءوه بكسر اللام من ﴿تُسْلِمُون﴾ أي: من الإسلام.

وقال قتادةُ في قوله: ﴿كذلك يتم نعمته عليكم لعلّكم تسلمون﴾، هذه السورةُ تُسمَّى سورةَ النِّعَم.

وقال عبدالله بن المبارك وعَبَّاد بن العوام، عن حَنْظَلةَ السدوسيِّ، عن شهر بن حوشَب، عن ابن عباس أنه كان [يقرؤها] ﴿تَسلَمون﴾ - بفتح اللام - يعني من الجِراح. رواه أبو عبيد القاسم بن سلام، عن عبَّاد، وأخرجه ابن جرير من الوجهين، وردَّ هذه القراءة[1].

وقال عطاء الخراساني: إنما نزل القرآنُ على قَدْرِ معرفة العَرَبِ، ألا تَرَى إلى قوله تعالى: ﴿والله جعلَ لكم مما خلق ظـلالاً وجَعَل لكم من الجبال أكناناً﴾، وما جعل لكم من السهل أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب جبال؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعـاً إلى حين﴾، وما جعل لكم من غير ذلك أعظمُ منه وأكثر، ولكنهم كانوا أصحابَ وبَر وشَعَر. ألا ترى إلى قوله: ﴿ويُنزِّل من السماء من جبال فيها من بَرَدٍ﴾، يُعَجِّبهُم من ذلك، وما أُنْزَل من الثلج أعظمُ وأكثر، ولكنهم كانوا لا يَعْرِفونه؟ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾، وما تَقَى[2] من البرد أعظمُ وأكثر، ولكنهم كانوا أصحابَ حَرٍّ[1].

وقولُه: ﴿فإن تولوا﴾، أي: بعد هذا البيان وهذا الامتنان، فلا عليكَ منهم، ﴿فإنما عليك البلاغُ المبينُ﴾، وقد أدَّيتَه إليهم.

﴿يَعْرِفُون نعمةَ الله ثم يُنكِرُونها﴾، أي: يَعرِفُون أن الله تعالى هو المُسْدِي إليهم ذلك، وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك، ويعبدون معه غيره، ويُسندون الرزق والنصر إلى غيره، ﴿وأكـثرهـم الكافرون﴾، كـما قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن مجاهد: أن أعرابياً أتى رسولَ الله - ﷺ - فسأله، فقرأ عليه رسول الله - ﷺ -: ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً﴾، قال الأعرابي: نَعَم. قال: ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تَسْتَخِفُونها يوم ظَعْنِكم ويوم إقامتكم﴾، قال الأعرابي: نعم. ثم قرأ عليه كُلَّ ذلك يقول الأعرابي: نعم، حتى بلغ: ﴿كذلك يُتِمُّ نعمتَه عليكم لعلكم تُسْلِمُون﴾، فوَلَّى الأعرابي، فأنزل الله: ﴿يَعْرِفُون نعمةَ الله ثم يُنْكِرونها وأكثرهم الكافرون﴾.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا
الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا
الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم
مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

---

(١) تفسير الطبري ١٤/١٥٦.

(٢) يقال: تقاه يتقيه كما يقال: وقاه يقيه.

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم مَعادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعَثُ من كُلِّ أُمَّةٍ شهيداً، وهو نَبِيُّها، يشهد عليها بما أجابته فيما بَلَّغَهَا عن الله تعالى، ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾، أي: في الاعتذار؛ لأنهم يعلَمون بُطلانه وكَذِبه، كما قال: ﴿هذا يوم لا يَنْطِقون * ولا يُؤْذَن لهم فيَعْتَذِرون﴾. ولهذا قال: ﴿ولا هم يُسْتَعتبون * وإذا رأى الذين ظلموا﴾، أي: أشركوا ﴿العذاب فلا يخفف عنهم﴾، أي: لا يُفتَر عنهم ساعةً واحدةً، ﴿ولا هم يُنْظَرون﴾، أي: ولا يُؤَخَّر عنهم، بل يأخُذُهم سَريعاً من الموقف بلا حِسَابٍ، فإنه إذا جِيءَ بجهنَّم تُقاد بسبعين ألفَ زِمامٍ، مع كُلِّ زمامٍ سبعون ألف ملك، فيشرف عُنُق[1] منها على الخلائق، وتَزْفِرُ زفرة فلا يبقى أحد إلا جَثَا لركبتيه، فتقول: إني وُكِّلْت بكلِّ جَبَّارٍ عنيد، الذي جعل مع الله إلهاً آخر، وبكذا وبكذا، وتَذكُر أصنافاً من الناس، كما جاء في الحديث[2]. ثم تنطوي عليهم وتتلقَّطُهم من الموقف كما يَتَلقَّط الطائر الحب، قال الله تعالى: ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سَمِعوا لها تغيظاً وزفيراً * وإذا أُلقوا منها مكاناً ضيقاً مُقَرَّنين دعوا هنالك ثبوراً * لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثُبوراً كثيراً﴾، وقال تعالى: ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مُوَاقِعُوها ولم يَجِدُوا عنها مَصْرِفاً﴾، وقال تعالى: ﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يَكُفُّون عن وُجُوهِهم النارَ ولا عن ظُهُورِهم ولا هم يُنصَرون * بل تأتيهم بغتةً فتَبْهَتُهم فلا يستطيعون رَدَّها ولا هم يُنظَرون﴾.

ثم أخبر تعالى عن تَبَرُّؤِ آلهتِهِم منهم أحوجَ ما يكونون إليها فقال: ﴿وإذا رَأى الذين أشركوا شركاءهم﴾، أي: الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ﴿قالوا رَبَّنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعُو من دونك فألقوا إليهم القولَ إنكم لكاذبون﴾، أي: قالت لهم الآلهة: كَذَبتم، نحن ما أمرناكم بعبادتنا. كما قال تعالى: ﴿ومن أضلُّ ممن يدعُو من دون الله من لا يستجيبُ له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافِلُون * وإذا حُشِر الناسُ كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين﴾، وقال تعالى: ﴿واتَّخذُوا من دون الله آلهةً ليكونوا لهم عِزًّا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾. وقال الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ثم يومَ القيامةِ يكفُر بعضكم ببعض ويلعن بعضُكم بعضاً ومأواكم النارُ وما لكم من ناصرين﴾، وقال تعالى: ﴿وقيل ادعوا شركاءَكم فدعَوهم فلم يستجِيبُوا لهم وَجَعلنا بينهم موبقاً﴾. والآيات في هذا كثيرة.

وقولُه: ﴿وألقوا إلى الله يومئذ السَّلَم﴾، قال قتادةُ، وعكرمةُ: ﴿ذَلُّوا واستسلَمُوا يومئذ﴾ أي: استسلَمُوا لله جميعُهم، فلا أحدَ إلا سامعٌ مطيعٌ. كما قال: ﴿أسمِعْ بهم وأبصِرْ يوم يأتوننا﴾، أي: ما أسمَعَهم وما أبصَرَهُم يومئذ! وقال تعالى: ﴿ولو ترَى إذ المجرمون ناكسو رُءُوسِهم عند ربهم رَبَّنا أبصرنا وسَمِعنا فارجِعْنا نعمَلْ صالحاً إنا موقنون﴾، وقال: ﴿وعَنَتِ الوجوهُ للحيِّ القيومِ﴾، أي: خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت.

﴿وألقوا إلى الله يومئذ السَّلَم وضَلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾، أي: ذَهَب واضمحَلَّ ما كانوا يعبدونَه افتراءً على الله، فلا ناصِرَ لهم ولا مُعِينَ ولا مُجِيرَ.

ثم قال تعالى: ﴿الذين كفروا وصَدُّوا عن سبيل الله زِدْنَاهم عذاباً فوقَ العذابِ بما كانوا يفسدون﴾، أي: عذَاباً على كُفرِهم، وعذاباً على صَدِّهم الناسَ عن اتباع الحق، كما قال تعالى: ﴿وهم يَنْهَون عنه ويَنْأَون عنه﴾، أي: يَنهَوْنَ الناسَ عن اتباعه، ويبتعدون هُم منه أيضاً ﴿وإن يُهلِكُون إلا أنفُسَهم وما يشعرون﴾.

---

(١) أي: قطعة من النار، وعنق كُلِّ شيء: أوله.

(٢) أخرجه الترمذي عن عبدالله بن مسعود، انظر عارضة الأحوذي، أبواب صفة جهنم ١٠/٤٣ ـ ٤٥، والإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة ٢/٣٣٦، وعن أبي سعيد الخدري ٣/٤٠، وعن عائشة ٦/١١٠.

وهذا دَلِيلٌ على تفاوُتِ الكفار في عَذَابهم، كما يتفاوَتُ المؤمنونَ في مَنَازِلِهم في الجنة ودَرَجاتِهم، كما قال الله تعالى: ﴿قال لكل ضِعْفٌ ولكن لا تَعْلَمُون﴾.

وقد قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سُرَيجُ بن يونس، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عبدالله بن مُرَّة، عن مسروق، عن عبدالله في قول الله تعالى: ﴿زدناهم عذاباً فوق العذاب﴾، قال: زيدوا عقارب أنيابُها كالنَّخل الطِّوَال.

وحدثنا سُرَيجُ بن يونس، حدثنا إبراهيم بن سليمان، حدثنا الأعمشُ، عن الحسن، عن ابن عباس أنه قال: ﴿زدناهم عذاباً فوقَ العذابِ﴾، قال: هي خمسةُ أنهارٍ فوقَ العرش يُعَذَّبون بِبَعضِها بالليل وَبِبَعضها بالنهارِ.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

يقولُ تعالى مخاطباً عبدَه ورسولَه محمداً ـ ﷺ ـ: ﴿ويوم نَبْعَثُ في كل أُمَّةٍ شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾، يعني أمته.

أي: اذكر ذلك اليومَ وهولَه وما منحكَ الله فيه من الشَّرَفِ العظيم والمَقَام الرفيع. وهذه الآيةُ شبيهةٌ بالآية التي انتهى إليها عبدُالله بن مسعودٍ حين قرأ على رسول الله ـ ﷺ ـ صدر «سُورَةِ النساء» فلما وصلَ إلى قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جِئْنَا من كُلِّ أمة بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾. فقال له رسولُ الله ـ ﷺ ـ: حسبك! قال ابنُ مسعود ـ رضي الله عنه ـ: فالتفتُّ فإذا عيناه تَذْرِفان[1].

وقولُه: ﴿وَنَزَّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾، قال ابنُ مسعود: «وقد بُيِّن لنا في هذا القرآن كلُّ علمٍ وكُلُّ شيءٍ»[2]. وقال مجاهد: كل حلال وحرام.

وقولُ ابنِ مسعودٍ أعمُّ وأشملُ، فإنَّ القرآنَ اشتمل على كُلِّ علمٍ نافعٍ من خبر ما سَبَق، وعِلْمِ ما سيأتي، وحُكْمِ كُلِّ حلال وحرام، وما الناسُ إليه مُحتاجون في أمر دنياهم ودِينِهم، ومعاشهم ومعادهم.

و﴿وهُدًى﴾، أي: للقلوب، ﴿ورحمةً وبُشْرَى للمسلمين﴾.

وقال الأوزاعيُّ: ﴿ونزَّلنا عليك الكتابَ تبياناً لكلِّ شيء﴾، أي: بالسنة.

ووجهُ اقتران قوله: ﴿ونَزَّلنا عليك الكتاب﴾، مع قوله: ﴿وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾، أن المراد ـ والله أعلم ـ أنَّ الذي فَرض عليك تبليغُ الكتابِ الذي أنزلُه عليكَ، سائلك عن ذلك يوم القيامة، ﴿فَلَنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألَنَّ المرسلين﴾، ﴿فو ربِّك لَنسألنَّهم أجمعين * عما كانوا يعملون﴾، ﴿يوم يجمَعُ الله الرسل فيقول ماذا أُجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنتَ عَلاَّم الغيُوب﴾، وقال تعالى: ﴿إن الذين فَرَضَ عليك القرآن لرادُّك إلى معاد﴾، أي: إن الذي أوجبَ عليك تبليغ القرآن لرادك إليه، ومُعِيدُك يوم القيامة، وسائلُك عن أداءِ ما فُرِضَ عَلَيك. هذا أحدُ الأقوالِ، وهو مُتَّجه حَسَنٌ.

---

(١) انظر تفسير الآية ٤١ من سورة النساء.
(٢) في بعض النسخ: «علمُ كُلِّ شيء». والأثر في تفسير الطبري ١٤/١٦٢.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

يُخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القِسْطُ والموازنة، ويندُب إلى الإحسان، كما قال تعالى: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صَبَرتُم لهو خير للصابرين﴾، وقال: ﴿وجزاءُ سَيِّئته سَيِّئةٌ مثلها فمن عَفا وأصلح فأجره على الله﴾، وقال: ﴿والجروحُ قصاصٌ فمن تَصدَّق به فهو كفارةٌ له﴾، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا، من شرعية العدل والندب إلى الفضل.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿إن الله يأمرُ بالعدل﴾، قال: شهادة أن لا إله إلا الله[١].

وقال سفيانُ بن عُيَينَة: العدلُ في هذا الموضع استواءُ السَّريرة والعلانية من كلِّ عاملٍ لله عملاً. والإحسانُ أن تكون سريرتُه أحسنَ من علانيته. والفحشاءُ والمنكرُ أن تكونَ علانيتُه أحسنَ من سريرته.

وقولُه: ﴿وإيتاء ذى القُربى﴾، أي: يأمرُ بصِلَةِ الأرحامِ، كما قال: ﴿وآتِ ذا القُربى حَقَّه والمسكينَ وابن السبيل ولا تُبَذِّرْ تبذيراً﴾.

وقولُه: ﴿وينهى عن الفحشاءِ والمُنكَرِ﴾، فالفواحش: المحرَّماتُ. والمنكرات ما ظَهَر منها من فاعليها، ولهذا قال في الموضع الآخر: ﴿قل إنما حَرَّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾. وأما البغيُ فهو العدوانُ على الناس. وقد جاء في الحديث: «ما من ذنبٍ أجدرُ أن يُعَجِّلَ الله عُقُوبَتَه في الدنيا، مع ما يَدَّخِر لصاحبه في الآخرة، من البَغْيِ وَقطِيعَةِ الرَّحِم»[٢].

وقولُه: ﴿يَعظِكُم﴾، أي: يأمُرُكم بما يأمُرُكم به من الخيرِ، وينهاكم عن الذي ينهاكم عنه من الشرِّ، ﴿لعلكم تذكرون﴾.

قال الشعبي، عن شُتَير بن شَكَل: سَمِعتُ ابنَ مسعود يقول: إن أجمع آيةٍ في القرآنِ في سُورة النحل: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾... الآية. رواه ابنُ جرير[٣].

وقال سعيدٌ، عن قتادة قوله: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾... الآيةَ، ليس من خُلُق حسن كان أهلُ الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به، وليس من خُلُق سَيِّءٍ كانوا يتعايَرُونه بينهم إلا نهى الله عنه وقَدَّم فيه. وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومَذامِّها.

قلت: ولهذا جاء في الحديث: «إن الله يُحِبُّ مَعاليَ الأخلاقِ، ويكْرَهُ سَفْسَافَها»[٤].

وقال الحافظ أبو نُعيم في كتابه «كتاب معرفة الصحابة»: حدثنا أبو بكر محمد بن الفتح الحنبلي، حدثنا يحيى بن محمد مولى بني هاشم، حدثنا الحسن بن داود المُنْكَدِرِيُّ، حدثنا عُمَر بن عَلِيٍّ المُقَدَّمي، عن علي بن عبد الملك بن عمير، عن أبيه قال: بلغ أكثَم بن صَيْفِيٍّ مُخرجَ النبي ـ ﷺ ـ فأراد أن يأتيه، فأبى قومُه

(١) تفسير الطبري ١٤/١٦٢.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥/٣٦، ٣٨، وابن ماجة في كتاب الزهد ١٤٠٨.
(٣) تفسير الطبري ١٤/١٦٣.
(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير بإسناده إلى الحسين بن علي رضي الله عنه ٣/١٣١. وفي مجمع الزوائد ٨/١٨٨: «وفيه خالد بن إلياس ضعفه أحمد وابن معين والبخاري والنسائي، وبقية رجاله ثقات».

أن يَدْعُوه وقالوا: «أنت كبيرُنا، لم تكن لِتَخِفَّ إليه! قال: فَلْيأْتِهِ من يُبْلِغُه عَني ويُبْلِغُني عنه. فانتدَبَ رجلان فأتيا النبي ـ ﷺ ـ فقالا: نحن رسلُ أكثَم بن صَيْفِيٍّ، وهو يسألك: من أنت؟ وما أنت[١]؟ فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «أما من أنا فأنا محمد بن عبدالله، وأما ما أنا فأنا عبدالله ورسولـه» قال: ثم تلا عليهم هذه الآية: ﴿إن الله يأمرُ بالعَدْلِ والإحسانِ وإيتاء ذي القُربى وينهَى عن الفحشاء والمُنكرِ والبَغيِ يَعِظُكم لعلَّكم تذكَّرُون﴾، قالوا: ارْدُدْ علينا هذا القولَ. فردَّده عليهم حتى حفظوه. فأتيا أكثم فقالا: أبى أن يرفع نسبه، فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكي النَّسَبِ، واسِطاً في مضر، وقد رمى إلينا بكَلِمَاتٍ قد سمعناها. فلما سمعَهُنَّ أكثَمُ قال: إني قد أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن مَلاَئِمها، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً، ولا تكونوا فيه أذناباً[٢].

وقد وَرَد في نزول هذه الآيةِ الكريمةِ حديثٌ حَسَنٌ، رواه الإمام أحمد:

حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد، حدثنا شَهْرٌ، حدثني عبدالله بن عباس قال: بينما رسولُ الله ـ ﷺ ـ بفناءِ بيته جالس، إذ مَرَّ به عثمانُ بنُ مظعون، فكشَرَ[٣] إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال له رسول الله ـ ﷺ: ألا تجلس؟ فقال: بلى. قال: فجلسَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ مستقبله، فبينما هو يحدثه إذ شَخَصَ[٤] رسول الله ـ ﷺ ـ ببصره إلى السماء، فنظر ساعةً إلى السماء، وأخذ يَضَع بصره حتى وَضَعه على يَمْنَته في الأرض، فَتحرَّفَ[٥] رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن جليسه عثمانَ إلى حيث وَضَع بصره. فأخذ يُنغِضُ[٦] رأسه كأنه يستفقه ما يقال له، وابنُ مظعون ينظُر. فلما قضى حاجتَه واستفقـه ما يُقال له، شخَصَ بَصَرُ رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ إلى السماء كما شَخَص أوَّل مرة، فأتبعه بَصَرَه حتى توارَى في السماء، فأقبلَ إلى عثمان بجلسته الأولى، فقال: يا محمدُ، فيم كنت أجالسك؟ ما رأيتك تفعَلُ كفعلك الغداةَ! قال: وما رأيتني فعلْت؟ قال: رأيتُكَ شَخَص بَصَرُكَ إلى السماء، ثم وضعتَه حيثُ وضعتَه على يمينك، فَتحرَّفْتَ إليه وتركتني، فأخَذْتَ تُنْغِضُ رأسك كأنك تَستفقُه شيئاً يقال لك. قال: وفَطِنتَ لذلك؟ قال عثمان: نعم. قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أتاني رسولُ الله[٧] آنفاً وأنتَ جالسٌ. قال: رسولُ الله؟! قال: نعم. قال: فما قال لك؟ قال: ﴿إن الله يأمرُ بالعَدْلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذِي القُربى وينهَى عن الفحشاءِ والمنكر والبَغْيِ يَعِظُكم لعلَّكم تَذَكَّرون﴾. قال عثمانُ: فذلك حين استقرَّ الإيمانُ في قَلْبِي، وأحبَبْتُ محمَّداً[٨].

إسنادٌ جيِّد متصل حسن، وَقَد بُيِّن فيه السماع المُتَّصِلُ. ورواه ابنُ أبي حاتمٍ، من حديثِ عبد الحميد ابن بَهرام مختصراً.

حديث آخر، عن عثمان بن أبي العاص الثَّقَفِيِّ في ذلك، قال الإمام أحمدُ:

حدثنا أسود بن عامر، حدثنا هُرَيم، عن ليث، عن شهر بن حَوْشَبٍ، عن عثمانَ بن أبي العاص قال: كنتُ عندَ رسول الله ـ ﷺ ـ جالساً، إذ شَخَصَ بَصَرَه فقال: أتاني جبريلُ، فأمرني أن أضعَ هذه الآية بهذا

---

(١) في نسخة الحرم: من أنت؟ وما جاء بك؟ وما جئت به؟.
(٢) انظر ترجمة أكثم بن صيفي في الإصابة ١/١١٣ ـ ١١٤.
(٣) كشر عن أسنانه: كشف عنها وأبداها عن الضحك وغيره، وكشر فلانة لصاحبه: تبسّم. ولفظ المسند: فتكشّر.
(٤) يقال: شخص فلان بَصَرَه وبِبَصَرِه: فتح عينيه ولم يَطْرِفْ بهما متأملاً أو مُنْزَعِجاً.
(٥) أي: انصرف عنه.
(٦) أي: يُحرِّكه.
(٧) يريد جبريل عليه السلام.
(٨) مسند أحمد ١/٣١٨.

الموضع من هذه السورة: ﴿إن الله يأمرُ بالعَدْلِ والإحْسانِ وإيتاءِ ذِي القربى وينْهى عن الفَحْشاء والمنكر والبَغْيِ يعظكم لعَلَّكم تَذَكَّرون﴾(١).

وهذا إسنادٌ لا بأسَ به، ولعله عند شَهْرِ بنِ حَوْشَبٍ من الوجهين، والله أعلم.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾

وهذا مما يأمر الله تعالى به، وهو: الوفاءُ بالعهود والمواثيق، والمحافَظَةُ على الأيمانِ المؤكَّدةِ، ولهذا قال: ﴿ولا تَنْقُضُوا الأيمانَ بعد تَوْكِيدِها﴾.

ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿ولا تجعَلُوا الله عرضةً لأيمانكم أن تَبَرُّوا وتَتَّقوا وتُصْلِحوا بين الناس﴾، وبين قوله تعالى: ﴿ذلك كفارة أيمانكم إذا حَلَفتُم واحفَظُوا أيمانكم﴾، أي: لا تتركوها بلا تَكْفِير، وبين قوله ﷺ، فيما ثبت عنه في الصحيحين: «إني والله إن شاء الله، لا أحلفُ على يمين فأرى غَيْرَها خيراً منها، إلا أتيت الذي هو خيرٌ وتَحلَّلْتُها». وفي رواية: «وكفَّرتُ عن يَمِيني»(٢) ـ لا تعارضَ بين هذا كلِّه، ولا بين الآية المذكورةِ ها هنا وهي قولُه: ﴿ولا تَنْقُضُوا الأيمانَ بعد تَوْكِيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً﴾، لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلةُ في العهود والمواثيق، لا الأيمانُ التي هي واردة على حِنْثٍ أو مَنْعٍ؛ ولهذا قال مجاهد في قوله: ﴿ولا تَنْقضُوا الأيمان بعد تَوْكِيدِها﴾، يعني الحِلْف(٣)، أي: حِلْفَ الجاهلية؛ ويؤيده ما رواه الإمام أحمد:

حدثنا عبدالله بن محمد ـ هو ابن أبي شَيْبَة ـ حدثنا ابن نُمَير وأبو أسامَةَ، عن زكريا ـ هو ابنُ أبي زائدةَ ـ عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه، عن جُبَير بن مُطْعِم قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا حِلْفَ في الإسلام، وأيُّما حِلْف كان في الجَاهِلِيَّة لم يَزِدْهُ الإسلامُ إلا شدَّةً»(٤).

وكذا رواه مُسلم، عن ابن أبي شيبةَ، به(٤).

ومعناهُ أنَّ الإسلامَ لا يُحتَاجُ معه إلى الحِلْف الذي كان أهلُ الجاهليَّة يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

وأما ما وَرَد في الصَّحِيحين، عن عاصم الأَحْوَلِ، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: حالف رسولُ الله ـ ﷺ ـ بين المهاجرين والأنصار في دُورِنا(٥) ـ فمعناه أنه آخى بينهم، فكانُوا يتوارَثُون به حتى نُسِخَ ذلك، والله أعلم.

---

(١) مسند أحمد ٤/٢١٨.

(٢) أخرجاه في كتاب الأيمان، فتح الباري ١١/٥٦٤، ومسلم ١٢٧٠.

(٣) تفسير الطبري ١٤/١٦٤.

(٤) مسند أحمد ٤/٨٣، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة ١٩٦١.

(٥) فتح الباري، كتاب الاعتصام ١٣/٣٠٥، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة.

وقال ابنُ جرير: حدثني محمد بن عُمارة الأَسَدي، حدثنا عُبَيد الله بن موسى، أخبرنا أبو[1] لَيْلَى، عن بُرَيْدَة في قَوْله: ﴿وأوفُوا بعَهْدِ الله إذا عاهدتم﴾، قال: نزلت في بيعة النبي ـ ﷺ ـ كان من أسلم بايَعَ النبي ـ ﷺ ـ على الإسلام، فقال: ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾، هذه البيعة التي بايعتُم على الإسلام، ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾: البيعة لا يحملنكم قِلَّةُ محمَّدٍ وكثرةُ المشركين أن تنقضُوا البيعةَ التي بايعتم على الإسلام[2].

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا صخر ابن جُوَيرية، عن نافع قال: لما خَلَع الناسُ يزيدَ ابن معاوية، جَمَعَ ابنُ عمر بَنِيه وأهلَه ثم تشهَّدَ، ثم قال: أما بعدُ فإنا قد بايعنا هذا الرجلَ على بَيْعِ الله ورسُوله، وإني سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن الغادر يُنصَبُ له لواءٌ يوم القيامة، فيقال: هذه غَدْرَةُ فلانٍ». وإن من أعظم الغَدْرِ ـ إلا أن يكونَ الإشراكُ بالله ـ أن يُبَايعَ رجُل رَجُلاً على بَيْعِ اللهِ ورسوله، ثم ينكُث بيعتَه، فلا يخلعَنَّ أحدٌ منكم يزيدَ ولا يُسْرِفَنَّ أحدٌ منكم في هذا الأمر، فيكون صَيْلَمٌ[3] بيني وبينه»[4].

المرفوعُ منه في الصَّحِيحَين[4].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيدُ، حدثنا حَجَّاج، عن عبد الرحمن بن عابس، عن أبيه، عن حُذَيفَةَ قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: من شَرَط لأخيه شرطاً، لا يُريد أن يَفِي له به، فَهُو كالمُدْلِي جَارَه إلى غَيْرِ مَنَعَةٍ[5].

وَقَولُه: ﴿إن اللهِ يعلَمُ ما تفعلون﴾، تهديدٌ ووعيدٌ لمن نقَضَ الأيمانَ بعد توكيدها.

وقولُه: ﴿ولا تكُونوا كالتي نَقَضَتْ غَزْلَها من بعد قوة أنكاثاً﴾ ـ قال عبدالله بن كثير، والسُّدِّيُّ: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة، كُلَّما غَزَلت شيئاً نقضته بعدَ إبرامِه[6].

وقال مجاهدٌ، وقتادةُ، وابنُ زيد: هذا مثلٌ لمن نَقَض عَهْدَه بعد توكيده. وهذا القولُ أرجحُ وأظهرُ، وسواءٌ كان بمكة امرأة تنقض غَزْلها أم لا.

وقولُه: ﴿أنكاثاً﴾، يَحْتَمِلُ أن يكونَ اسمَ مَصْدَرٍ[7]، نَقَضَت غزلها أنكاثاً، أي: أنقاضاً. ويحتمل أن يكونَ بدلاً عن خبر كان، أي: لا تكونوا أنكاثاً، جمع نكث من ناكث، ولهذا قال بعده: ﴿تتخذون أيمانكم دَخَلاً بينكم﴾ أي: خَدِيعة ومكراً، ﴿أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾، أي: تحلِفُون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدرُ بهم غَدَرتُم. فنهى الله عن ذلك، لينبه بالأدنى على الأعلى؛ إذا كان قد نهى عن الغَدْرِ والحالةُ هذه فَلأنْ يَنْهَى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى.

---

(١) أبو ليلى، هذا مترجم في الجرح لابن أبي حاتم ٤٣١/٩، وروي عن يحيى بن معين قال: «أبو ليلى الذي يروي عن بريدة ضعيف».

(٢) تفسير الطبري ١٦٤/١٤.

(٣) أي: قطيعة.

(٤) مسند أحمد ٤٨/٢. وفتح الباري، كتاب الأدب ٥٦٣/١٠، ومسلم، كتاب الجهاد ١٣٥٩ ـ ١٣٦١.

(٥) مسند أحمد ٤٠٤/٥. والمَنَعَة ـ بالتحريك، وبفتح فسكون ـ: القوة.

(٦) تفسير الطبري ١٦٦/١٤.

(٧) هذا معنى ما قاله الزجاج، يقول أبو جعفر النحاس في إعراب القرآن ٤٠٧/٢، قال أبو إسحاق: «أنكاثاً، يعني المصدر، لأن معنى نقض ونكث واحد، ولعلَّ مراد ابن كثير بقوله: «يحتمل أن يكون اسم مصدر»، أنه جمع نِكْث ـ بكسر فسكون ـ وهو ما ينكث فتلُه، ومثله يطلق عليه النحاة واللغويون اسم مصدر، يعنُون باسم المصدر الشيء المفعول، أي: أثر المصدر، وهو يقع موقع المصدر ويعرب إعرابه، ويجوز جمعه وانظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢١٧/٣.

وقد قدمنا ـ ولله الحمد ـ في «سورة[١] الأنفال» قصةَ معاويةَ لما كانَ بينه وبين مَلِك الروم أَمَدٌ، فسار معاويةُ إليهم في آخر الأَجل، حتى إذا انقضى وهو قريبٌ من بلادهم، أغار عليهم وهم غارُّون لا يَشعرُون، فقال له عمرو بن عبَسَةَ: الله أكبر يا معاويةُ، وفاءٌ لا غدراً! سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «من كان بينه وبين قوم أجلٌ فلا يَحُلَّنَّ عُقْدَةً حتى ينقضي أَمَدُها». فَرجَع معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ بالجيش.

قال ابنُ عَبَّاسٍ: ﴿أن تكون أمةٌ هي أَرْبَى من أمة﴾، أي: أكثر.

وقال مجاهدٌ: «كانوا يحالفون الحلفاء، فَيَجِدُونَ أكثرَ منهم وأعزَّ، فينقضُون حِلْفَ هؤلاء ويُحالفون أولئكَ الذين هم أكثرُ وأعزُّ. فنهوا عن ذلك». وقال الضحاك، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ نحوه.

وقولُه: ﴿إنما يبلُوكم الله به﴾، قال سَعيد بن جُبَير: ﴿إنما يَبْلُوكم الله به﴾، يعني بالكثرة. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابنُ جَرِيرٍ: أي بِأَمْرِه إيَّاكم بالوفاء بالعهد[٢].

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لكم يوم القيامةِ ما كنتُم فيه تَختلِفُون﴾، فيجازي كل عامل بعمله، من خَيرٍ وَشرٍّ.

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿وَلَو شاء الله لجعَلَكم﴾ أيُّها الناسُ ﴿أُمَّةً واحدةً﴾، كما قال تعالى: ﴿ولو شاء ربُّك لآمن مَن في الأرضِ كُلُّهم جميعاً﴾، أي: لوفَّق بينكم. ولما جعل اختلافاً ولا تباغُضَ ولا شَحناء ﴿ولو شاء ربُّك لجَعَل الناس أُمَّة واحدة ولا يزالون مختلفينِ * إلا مَنْ رَحِم رَبُّك ولذلك خَلَقهم﴾، وهكذا قال ها هنا: ﴿ولكن يُضِلُّ مَن يشاء ويَهدِي من يشاء﴾، ثم يسألُكم يومَ القيامةِ عن جميع أعمالكم، فَيُجازِيكم عليها على الفَتِيلِ والنَّقِير والقِطْمِيرِ[٣].

ثم حَذَّر تعالى عبادَه من اتخاذ الأيمان دخَلاً، أي: خَدِيعَةً ومَكْراً، لئلا تَزِلَّ قَدَمٌ بعد ثبوتها، مثل لمن كان على استقامةٍ فحادَ عنها وزَلَّ عن طريق الهدى، بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصدِّ عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غَدَر بـه لم يبق له وثوقٌ بالدين، فانصدّ بسببه عن الدخول في الإسلام، ولهذا قال: ﴿وتذُوقوا السُّوء بما صَدَدتُم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ولا تَشتَرُوا بعهد الله ثمناً قَلِيلاً﴾، أي: لا تعتاضُوا عن الأيْمان بالله عَرَض الحياة الدنيا

---

(١) انظر تفسير الآية ٥٨ من سورة الأنفال.

(٢) تفسير الطبري ١٤/١٦٨.

(٣) الفتيلُ: الخيط الذي في شق النواة، يقال: ما أغنى عنه فتيلاً، أي: شيئاً، وفي الكتاب العزيز: ﴿ولا يُظْلَمون فَتِيلاً﴾. والنقير: النُّقْرَة في ظهر النواة، وفي التنزيل: ﴿ولا يُظْلَمون نَقيرا﴾. والقطمير: القشرة الرقيقة على النواة كاللفافة لها. يضرب الله تعالى المثل بذلك، وفي القرآن الكريم أيضاً: ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾.

وزينتها، فإنها قليلة، لو حِيزَت لابنِ آدمَ الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أي: جزاءُ الله وثوابهُ خيرٌ لمن آمن به ورجاه وطلبه، وحَفِظ عَهْدَ الله رجاء موعوده. ولهذا قال: ﴿إن كنتم تعلَمُون * ما عندكم ينفَدُ﴾، أي: يفرَغ وينقضي؛ فإنه إلى أجل معدود محصور مُقدَّر مُتَناهٍ ﴿وما عند الله باقٍ﴾، أي: وثوابُه لكم في الجنة باقٍ لا انقطاع له ولا نفادَ؛ فإنه دائم لا يَحُولُ ولا يَزُولُ، ﴿ولنجزين الذين صَبَرُوا أجرَهم بأحسنِ ما كانوا يعمَلُون﴾: قَسَمٌ من الربِّ ـ جَلَّ شأنه ـ مُتَلَقًى باللام، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم، أي: ويتجاوز عن سَيِّئِها.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

هذا وعدٌ من الله تعالى لمن عمل صالحاً ـ وهو العمل المُتَابعُ لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ـ ﷺ ـ من ذكر أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وأَنَّ هذا العملَ المأمور به مشروع من عند الله ـ بأن يحييه الله حياةً طيبةً في الدنيا، وأن يُجزَى بأحسن عَمَلِهِ في الدار الآخرة.

والحياةُ الطيبةُ تشمَلُ وُجُوهَ الراحـة من أي جهة كانت. وقد رُوِي عن ابن عباس وجماعةٍ أنهم فَسَّرُوها بالرزق الحلال الطيِّب. وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنه فَسَّرها بالقناعة. وكذا قال ابنُ عباس، وعكرمةُ، ووهب بن مُنَبِّه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هي السعادةُ. وقال الحسن، ومجاهد، وقتادة: لا تطيب الحياةُ لأحدٍ إلا في الجنة. وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادةُ في الدنيا. وقال الضحاك أيضاً: هي العملُ بالطاعةِ والانشراحُ بها(١).

والصحيحُ أنَّ الحياة الطيبة تشمل هذا كلَّه، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمدُ:

حدثنا عبدُالله بن يَزيدَ، حدثنا سعيدُ بن أبي أيوب، حدثني شُرَحبيل بن شَريك، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «قد أفلحَ من أسلم ورُزِقَ كَفافاً، وقَنَّعه الله بما آتاه(٢)».

وَرَواه مسلمٌ، من حديث عبدالله بن يزيد المُقرِىء، به(٢).

ورَوَى الترمذيُّ والنسائيُّ، من حديث أبي هانىء، عن أبي علي الجَنْبِيِّ، عن فَضَالة بن عُبَيد: أنه سَمِع رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «قد أفلح من هُدِي إلى الإسلام، وكان عيشه كَفافاً، وقَنِعَ به». وقال الترمذي: هذا حديث صحيح(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا هَمَّام بن يحيى، عن قتادةَ، عن أنس بن مالك قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الله لا يظلم المؤمنَ حسنةً يعطى بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة. وأما الكافر فَيُطْعَمُ بحسناته في الدنيا حَتَّى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حَسَنَةٌ يُعطَى بها خيراً»(٤). انفرد بإخراجه مسلمٌ(٤)، والله أعلم.

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٤/١٧٠ ـ ١٧١.
(٢) مسند أحمد ٢/١٦٨، ومسلم، كتاب الزكاة ٧٣٠.
(٣) عارضة الأحوذي، أبواب الزهد ٩/٢١١ ـ ٢١٢.
(٤) مسند أحمد ٣/١٢٣، ومسلم، كتاب صفة القيامة ٢١٦٢.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

هذا أمرٌ من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ـ ﷺ ـ إذا أرادوا قراءةَ القرآن، أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم: وهو أمرُ ندبٍ ليس بواجبٍ، حكى الإجماعَ على ذلك الإمامُ أبو جعفر بن جَرير وغيرُه من الأئمة. وقد قدَّمنا الأحاديث الواردة في الاستعاذة مبسوطةً في أول التفسير، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة، لئلا تَلْتَبِسَ على القارىء قراءتُه ويُخْلطَ عليه، ويمنَعه من التدبر والتفكر. ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل القراءة، وحُكِي عن حمزةَ وأبي حاتم السجستانيِّ أنها تكون بعد التلاوة. واحتجَّا بهذه الآية. ونقل النوويُّ في شرح المهذب مثل ذلك عن أبي هُريرة أيضاً، ومحمد بن سيرين، وإبراهيم النَّخعي. والصحيح الأولُ، لما تقدَّم من الأحاديث الدالة على تَقدمها على التلاوة، والله أعلم.

وقولُه: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾، قال الثَّوريُّ: ليس له عليهم سلطان أن يُوقِعَهم في ذنب لا يَتُوبون منه. وقال آخرون: معناه لا حجةَ له عليهم. وقال آخرون: كقوله: ﴿إلا عبادك منهم المخلَصين﴾.

﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه﴾، قال مجاهد: يُطيعونه. وقال آخرون: اتخذوه ولياً من دون الله.

﴿والذين هُم به مشركون﴾، أي أشركُوه في عبادة الله تعالى. وَيَحْتَمِلُ أن تكون الباء سببية، أي: صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى.

وقال آخرون: معناه أنه شَرِكهم في الأموال والأولاد.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

يُخبرُ تعالى عن ضَعف عُقُولِ المشركين وقلة ثَباتهم وإيقانِهم، وأنه لا يُتَصوَّر منهم الإيمان وقد كُتِب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا للرسول ـ ﷺ ـ ﴿إنما أنت مفترٍ﴾، أي: كَذَّاب. وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

وقال مجاهد: ﴿بَدَّلنا آيةً مكانَ آيةٍ﴾، أي: رَفَعناها وأثبتنا غيرَها.

وقال قتادةُ، هو كقوله تعالى: ﴿ما نَنْسَخ من آية أو نُنْسِها﴾.

فقال تعالى مُجيباً لهم: ﴿قل نَزَّله روحُ القدس﴾، أي: جبريل، ﴿من رَبِّك بالحقِّ﴾، أي: بالصِّدق والعَدْل، ﴿لِيُثَبِّتَ الذين آمنوا﴾، فَيُصدِّقوا بما نزل أولاً وثانياً وتُخْبِتَ له قلوبهم، ﴿وهُدًى وبُشْرَى للمسلمين﴾، أي: وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾

يقولُ تعالى مُخبراً عن المشركين ما كانوا يَقُولونه من الكَذِب والافتراء والبَهْتِ: إن محمداً إنما يُعلِّمه هذا الذي يَتلُوه علينا من القرآن بشرٌ، ويشيرون إلى رجل أعجَمِي كان بين أظهرهم، غلامٍ لبعض بُطون قريش، وكان بيَّاعاً يَبِيعُ عند الصفا، وَرُبَّما كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يجلِسُ إليه ويُكَلِّمه بعض الشيء، وذاك كان أعجميَّ اللسان ولا يُعرَفُ بالعربية، أو أنه كانَ يعرف الشيء اليسير بِقدرِ ما يَرُدّ جَوابَ الخطاب فيما لا بد منه، فلهذا قال الله تعالى راداً عليهم في افترائهم ذلك: ﴿لسانُ الذي يُلحِدُون إليه أعجمي وهذا لسان عَرَبي مبين﴾، يعني القرآنُ، أي: فكيف يتعلَّم من جاء بهذا القرآن، في فَصَاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة، التي هي أكملُ من معاني كُلِّ كتاب نَزَل على نبي أُرسِلَ، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟! لا يقول هذا من له أدنى مُسْكَةٍ من العقل.

قال محمد بنُ إسحاقَ بن يَسَار في السيرة: كان رسولُ الله ـ ﷺ، فيما بلغني ـ كثيراً ما يجلس عند المروة إلى مَبْيَعَةِ غلام نصرانيٍّ يقال له: جَبْرٌ، عبد لبعض بني الحَضْرَمي، [(١) فكانوا يقولون: والله ما يُعلِّم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر النصراني، غلام بَني الحضرمي] (١) فأنزل الله تعالى: ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بَشَر لسان الذي يُلحِدُون إليه أعجَمِيٌّ وهذا لسانٌ عربي مبين﴾(٢).

وكذا قال عبدالله بن كَثِير. وعن عكرمةَ وقتادةَ: كان اسمهُ يعيشَ.

وقال ابنُ جرير: حَدَّثني أحمد بن محمد الطوسي، حدثنا أبو عامر، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن مسلم ابن عبدالله الملائي، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يَعْلَم قَيناً بمكة، وكان اسمُه «بِلْعَام»، وكان أعجمي اللسان، وكان المشركون يَرَون رسولَ الله ـ ﷺ ـ يدخل عليه ويخرج من عندِه، فقالوا: إنما يعلمه بِلْعَامُ، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يُعَلِّمه بشر لسانُ الذي يُلحِدُون إليه أعجمي وهذا لسانٌ عربي مبين﴾(٣).

وقال الضحاك بن مزاحم: هو سَلْمَان الفارسي. وهذا القولُ ضعيفٌ، لأن هذه الآية مكية، وسلمانُ إنما أسلَم بالمدينة. وقال عبدالله بن مسلم: كان لنا غلامان روميان يقرآن كتاباً لهما بلسانهما، فكان النبي ـ ﷺ ـ يمرُّ عليهما، فيقوم فيسمع منهما، فقال المشركون: يتعلم منهما. فأنزل الله تعالى هذه الآية(٤).

وقال الزهريُّ، عن سعيد بن المسيَّب: الذي قال ذلك من المشركين رجلٌ كان يكتب الوحي لرسول الله ـ ﷺ ـ فارتدَّ بعد ذلك عن الإسلام، وافترى هذه المقالةَ، قَبَّحه الله!

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

يخبر تعالى أنه لا يهدِي من أعرَضَ عن ذكره وتَغافَلَ عما أنزله على رسوله ـ ﷺ ـ ولم يكن له قصدٌ إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسَلَ به رُسُلَه في الدنيا، ولهم عذاب أليم مُوجِعٌ في الآخرة.

(١) عن سيرة ابن هشام.
(٢) سيرة ابن هشام ١/٣٩٣.
(٣) تفسير الطبري ١٤/١٧٧.
(٤) تفسير الطبري ١٤/١٧٨ ـ ١٧٩.

ثم أخبر تعالى أنَّ رسوله - ﷺ - ليس بمفترٍ ولا كَذَّاب؛ لأنه ﴿إنما يَفْتَرِي الكَذِبَ﴾ على الله وعلى رسوله شِرارُ الخلق، ﴿الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ منَ الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس. والرسولُ محمد - ﷺ - كان أصدقَ الناس وأبرَّهم وأكمَلَهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً، مَعْرُوفاً بالصِّدق في قومه، لا يشكّ في ذلك أحد منهم بحيث لا يُدْعى بينهم إلا بالأمين محمد ﷺ. ولهذا لما سأل هرقلُ ملكُ الروم أبا سفيانَ عن تلك المسائل التي سَألها من صفة رسول الله - ﷺ - كان فيما قال له: «أفكنتم تَتَّهِمُونه بالكَذِبِ قبلَ أن يَقُولَ ما قال؟ قال: لا. فقال هرقلُ: فما كان لِيَدَعَ الكَذِبَ على الناس ويَذهَبَ فَيَكْذِبَ على الله، عز وجل»(١).

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

أخبر تعالى عَمَّن كفر به بعد الإيمان والتبصُّر، وشُرِح صدرُه بالكفر واطمأنَّ به: أنه قد غَضِبَ عليه؛ لِعلمِهم بالإيمان ثم عدولهم عَنْه، وأنَّ لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة؛ لأنهم استحَبُّوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدمُوا على ما أقدمُوا عليه من الردَّة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قُلُوبهم ويُثَبِّتهم على الدين الحق، فَطَبع على قلوبهم فهم لا يعقلون بها شيئاً ينفعُهم، وخَتَم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئاً فهم غافلون عما يُراد بهم.

﴿لا جَرَم﴾، أي: لا بدَّ ولا عَجب أنَّ من هذه صِفَتُه، ﴿أنهم في الآخرة هم الخاسِرُون﴾، أي: الَّذين خَسِروا أنفسهم وأهاليهم يوم القيامة.

وأما قولُه: ﴿إلا من أُكرِهَ وقلبُه مطمئنٌ بالإيمان﴾، فهو استثناءُ مَـن كَفَر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مُكْرهاً، لما ناله من ضَرْبٍ وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئنٌ بالإيمان بالله ورسوله.

وقد رَوَى العَوفيّ عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في عَمَّار بن ياسر، حينَ عذَّبه المشركون حتى يكفر بمحمد - ﷺ - فوافقهم على ذلك مُسْتَكْرَهاً، وجاء معتذراً إلى النبي - ﷺ - فأنزل الله هذه الآية(٢). وهكذا قال الشعبي، وأبو مالك، وقتادة.

وقال ابنُ جرير: حدثنا ابنُ عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثَور، عن مَعْمَرٍ، عن عبد الكريم الجَزَرِيّ، عن أبي عُبيدة [بن](٣) محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عَمار بن ياسر فَعَذَّبوه حتى قارَبَهُم في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي - ﷺ - فقال النبي - ﷺ -: كيف تَجِدُ قَلْبَكَ؟ قال: مُطْمَئِناً بالإيمان. قال النبي - ﷺ -: إن عَادُوا فَعُدْ(٤).

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، انظر فتح الباري ١/٣٢ ومسلم، كتاب الجهاد ١٣٩٥.
(٢) تفسير الطبري ١٤/١٨١.
(٣) عن تفسير الطبري، وانظر ترجمة أبي عبيدة في الجرح لابن أبي حاتم ٩/٤٠٥.
(٤) تفسير الطبري ١٤/١٨٢.

ورواه البيهقي بأبسط من ذلك، وفيه أنه سَبَّ النبي ـ ﷺ ـ وذَكَر آلهتهم بخير، وأنه قال: يا رسولَ الله، ما تُركتُ حتى سَبَبْتُكَ وذكرتُ آلهتهم بخير! قال: كيف تَجِدُ قلبك؟ قال: مُطْمَئِناً بالإيمان. فقال: إن عادوا فَعُد. وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾[1].

ولهذا اتفق العلماءُ على أنه يجوز أن يُوَالِيَ المُكْرَهُ على الكفر إبقاءً لمهجته، ويجوز له أَنْ يَسْتَقتِلَ[2] كما كان بلال ـ رضي الله عنه ـ يأبَى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضَعون الصخرَة العظيمة على صَدْرِه في شدَّة الحرّ، ويأمرونه أن يشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول: أحدٌ، أحدٌ. ويقول: والله لو أعلمُ كلمةً هى أغيظُ لكم منها لقلتها، رضي الله عنه وأرضاه. وكذلك حَبيبُ بن زيد الأنصاري لما قال له مُسَيلِمَةُ الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أنّي رسول الله؟ فيقول: لا أسمع. فلم يزل يقطعه إِرْباً إِرْباً وهو ثابت على ذلك[3].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيلُ، حدثنا أَيُّوب، عن عكرمة، أن عَلِياً ـ رضي الله عنه ـ حَرَّق ناساً ارتدُّوا عن الإسلام، فَبَلَغ ذلك ابنَ عباس فقال: لم أكن لأحرِقَهم بالنار، إنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: لا تُعَذِّبُوا بعذاب الله. وكنت قاتِلَهم بقول رسول الله ـ ﷺ ـ: «من بَدَّلَ دينه فاقتُلوه». فبلغ ذلك علياً فقال: وَيْحَ ابنِ أُمِّ عباس[4]. رواه البخاري[4].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرزّاق، أنبأنا معمر، عن أيوبَ، عن حُميد بن هلال العَدَوِي، عن أبي بُرْدَة قال: قَدِم على أبي موسى معاذُ بن جَبَلٍ باليمن، فإذا رجل عنده، قال: ما هذا؟ قال: رجلٌ كان يهودياً فأسلم ثم تهود، ونحن نريده على الإسلام مُنْذُ ـ قال: أحسبه ـ شهرين، فقال: والله لا أقعد[5] حتى تَضرِبُوا عنقه. فَضرِبت عنقه، فقال: قَضَى الله ورسوله أن من رَجَع عن دينه فاقتلوه. أو قال: من بَدَّلَ دِينَه فاقتلوه[6]. وهذه القصةُ في الصحيحين بلفظٍ آخَرَ[6].

والأفضل والأولى أن يَثْبُتَ المسلمُ على دينه، ولو أفضى إلى قتله، كما قال الحافظُ ابن عساكر، في ترجمة عبدالله بـن حُذَافة السهمي أحد الصحابة: أنه أسرته الروم، فجاءوا به إلى مَلِكهم، فقال له: تَنصَّر وأنا أشرَكك في ملكي وأزوجك ابنتي. فقال له: لو أعطيتني جميعَ ما تملك وجميعَ ما تملكُه العربُ على أن أَرجِعَ عن دين محمد ـ ﷺ ـ طرفةَ عين ما فعلتُ! فقال: إذا أقتلك. قال: أنت وذاكَ! فأَمَرَ به فَصُلِب، وأمر الرماة فَرَمَوه قريباً من يديه وَرِجْلَيه، وهو يعرِض عليه دين النصرانية فيأبى، ثم أمر به فأُنزِل، ثم أمر بِقِدرٍ ـ وفي رواية: ببقرة من نحاس ـ فَأُحْمِيت، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظامٌ تلوحُ. وعَرَض عليه فأبى، فأمر به أن يُلقى فيها، فرفع في البَكْرَةِ[7] لِيُلْقَى فيها، فبكى، فَطَمع فيه ودعاه فقال له: إني إنما بَكَيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدةٌ، تلقى في هذه القدر الساعةَ في الله، فأحببتُ أن يكون لى بَعَددِ كُلِّ شعرة في جَسَدي نفسٌ تعذَّبُ هذا العذاب في الله.

---

(١) سنن البيهقي، كتاب التفسير ٣٥٧/٢.
(٢) أي: يستمرَّ على ما يعتقده ولو أدّى ذلك به إلى القتل أو الموت.
(٣) سيرة ابن هشام ٤٦٦/١ ـ ٤٦٧.
(٤) مسند أحمد ٢١٧/١، وفتح الباري، كتاب استتابة المرتدين ٢٦٧/١٢، وكتاب الجهاد ١٤٩/٦.
(٥) في نسخة: لا قعدت.
(٦) مسند أحمد ٢٣١/٥. وفتح الباري، كتاب استتابة المرتدّين ٢٦٨/١٢، ومسلم، كتاب الإمارة ١٤٥٦ ـ ١٤٥٧.
(٧) البَكْرة: خشبة مستديرة في جوفها محور تدور عليه، وأسطوانة من خشب ونحوه يلف عليها الخيط.

وفي بعض الروايات أنه سَجَنه ومَنَع عنه الطعام والشراب أياماً، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير، فلم يَقْربه، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكُلَ؟ فقال: أما إنه قد حَلّ لي، ولكن لم أكن لأشمِّتك بي. فقال له الملك: فَقَبِّل رأسي وأنا أُطلِقُك. فقال: وتطلق معي جَمِيعَ أسارى المسلمين؟ قال: نعم، فَقَبَّلَ رأسه، فأطلقه وأطلق معه جميعَ أسارى المسلمين عنده، فلما رَجَع قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: حَقّ على كل مسلم أن يقبل رأس عبدالله بن حُذَافة، وأنا أبدأ. فقام فقبَّل رأسه، رضي الله عنهما.

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

هؤلاء صنف آخر كانوا مُستَضْعَفين بمكة، مُهَانين في قومهم، قد وَاتَوْهم[(١)] على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاصُ بالهجرة، فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالَهم ابتغاءَ رضوانِ الله وغُفرانِه، وانتظموا في سِلْكِ المؤمنين، وجاهَدُوا معهم الكافرين، وصبروا. فأخبر الله أنه مِنْ بَعدها، أي: تلك الفَعْلة، وهي الإجابةُ إلى الفتنة لغفور لهم، رَحِيم بهم يوم معادهم.

﴿ يوم تأتي كل نفس تُجادِلُ ﴾، أي: تحاجُّ ﴿ عن نفسها ﴾، ليس أحدٌ يحاجُّ عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة، ﴿ وتُوفَّى كُلُّ نفس ما عَمِلت ﴾، أي: من خير وشر، ﴿ وهم لا يظلمون ﴾، أي: لا يُنقصُ من ثواب الخير ولا يُزادُ على ثواب الشر، ولا يُظلَمون نقيراً.

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

هذا مثلٌ أُريد به أهلُ مكة؛ فإنها كانت آمنةً مطمئنةً مستقرةً يُتخطَّف الناسُ مِن حَولها، ومن دَخلها آمن لا يَخافُ، كما قال تعالى: ﴿وقالوا إن نَتَّبِع الهُدَى معك نُتَخطَّفْ من أرْضِنا أو لم نُمَكِّن لهم حَرَماً آمناً يُجبَى إليه ثَمراتُ كُلِّ شيءٍ رِزْقاً من لَدُنّا ﴾، ولكن قال ها هنا: ﴿ يأتيها رزقُها رغداً ﴾، أي: هَنِيئاً سهلا، ﴿ من كل مكان فكفرت بأنعم الله ﴾، أي: جَحَدت آلاء الله عليها وأعظمُ ذلك بعثةُ محمد ـ ﷺ ـ إليهم، كما قال تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين بَدَّلُوا نعمةَ الله كفراً وأحلُّوا قومهم دار البوار ۞ جَهَنَّم يصلونها وبئس القرارُ ﴾، ولهذا بَدَّلهم الله بحاليهم الأوَّلَينَ خِلافَهُما، فقال: ﴿ فأذاقها الله لباسَ الجُوعِ والخَوْفِ ﴾، أي: ألبسَها وأذاقها الجوعَ بعد أن كان يُجبَى إليهم ثمراتُ كُلِّ شيء، ويأتيها رزقُها رغداً من كل مكان، وذلك لما استعصَوا على رسول الله ـ ﷺ ـ وأبوا إلا خلافه، فدعا عليهم بِسَبعٍ كَسَبْعِ يوسُفَ، فأصابتهم سَنَةٌ أذهبَتْ كُلَّ شيءٍ لهم، فأكَلُوا العِلْهِزَ، وهو: وَبَرُ البعير، يُجعَلُ[(٢)] بدَمِهِ إذا نَحَرُوه.

(١) أي: وافقوهم.

(٢) في نسخة: نحيل. كذا دون نقط. وقال ابن الأثير عن العِلْهِز: هو شيء يتخذونه في سِنِي المجاعة، يخلطون الدم بأوبار الإبل، ثم يشوونه بالنار ويأكلونه.

وقولُه: ﴿ والخَوْفِ ﴾، وذلك أنَّهم بُدِّلوا بأمنهم خَوْفاً من رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه، حين هاجروا إلى المدينة، من سَطْوةِ سَرَاياهُ وجُيُوشه، وجعلوا كل ما لهم في سَفَالٍ ودمار، حتى فتحها الله على رسوله ﷺ . وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول الذي بعثه الله فيهم منهم، وامتن به عليهم في قوله: ﴿ لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ﴾، وقال تعالى: ﴿ فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً * رسولا ﴾. . . الآية، وقوله: ﴿ كما أرسَلْنا فيكُم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويُزَكِّيكم ويُعَلِّمكم الكتابَ والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون * فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرونِ ﴾.

وكما أنه انعكَسَ على الكافرين حالُهم، فَخافوا بعد الأمن، وجاعُوا بعد الرَّغَد، بَدَّل الله المؤمنين من بعد خَوْفِهم أمناً، ورَزَقَهم بعد العَيْلَة، وجعلهم أمراءَ الناس وحُكَّامهم وقادتهم وسادتهم وأئمتهم.

وهذا الذي قلناه من أن هذا المثلَ مضروبٌ لمكة، قاله العَوْفِيّ، عن ابن عباس. وإليه ذهب مجاهدٌ، وقتادةُ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وحكاه مالك عن الزُّهريِّ رحمهم الله[١].

وقال ابنُ جرير: حدثني ابنُ عبد الرحيم البَرْقي، حدثنا ابنُ أبي مريم، حدثنا نافع بن يزيد،حدثنا عبد الرحمن بن شريح، أن عبد الكريم بن الحارث الحَضْرمي حَدَّثه، أنه سمع مِشْرَح بن هاعان يقول: سمعتُ سُليم بن عِتْر يقول: صَدَرنا من الحج مع حفصة زوج النبي ـ ﷺ ـ وعثمانُ ـ رضي الله عنه ـ محصور بالمدينة، فكانت تسأل عنه: ما فعل؟ حتى رأت راكبين، فأرسلت إليهما تسألهما، فقالا: قُتِل. فقالت حفصةُ: والذي نفسي بيده إنها القريةُ التي قال الله: ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقُها رغداً من كل مكان فكفرتْ بأنعم الله ﴾. قال أبو[٢] شُرَيح: وأخبرني عُبَيد[٣] الله بنُ المغيرة، عَمَّن حدثه: أنه كان يقول: إنها المدينة[٤].

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً عبادَه المؤمنين بأَكْلِ رِزْقِهِ الحلال الطيِّب، وبِشُكْرِه على ذلك؛ فإنه المنعم المتفضل به ابتداء، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له.

ثم ذكر ما حَرَّمه عليهم مما فيه مَضَرَّةٌ لهم في دينهم ودنياهم، من الميتة والدَّم، ولحم الخنزير. ﴿ وما أهل لغير الله به ﴾، أي: ذُبح على غير اسم الله. ومع هذا ﴿ فمن اضطُرَّ إليه ﴾، أي: احتاج في غير بَغْيٍ ولا عدوان، ﴿ فإن الله غفورٌ رحيمٌ ﴾.

(١) انظر تفسير الطبري ١٤/١٨٥ ـ ١٨٦.
(٢) في نسخة: ابن شريح. وكلاهما صواب. وأبو شُرَيح كنية عبد الرحمن بن شريح. انظر الجرح لابن أبي حاتم ٥/٢٤٤.
(٣) في تفسير الطبري: عبد الله بن المغيرة. وفي الجرح ٥/٢٤٤ أنَّ عبد الرحمن بن شريح يروي عن عبيد الله بن المُغيرة.
(٤) تفسير الطبري ١٤/١٨٦.

وقد تقدَّم الكلام على مثلِ هذه الآيةِ في «سورة البقرة» بما فيه كفايةٌ عن إعادته، ولله الحمدُ[1] والمنَّة.

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حَلَّلُوا وحَرَّموا بمجرد ما وضعوه واصطَلَحُوه عليه من الأسماء بآرائهم، من البَحِيرة والسائِبَةِ والوصيلة والحام، وغيرِ ذلك مما كان شرْعاً لهم ابتدعوه في جاهليّتِهم، فقال: ﴿ ولا تَقُولوا لما تصف ألسنتكم الكـذبَ هذا حَلالٌ وهذا حَرام لتفتروا على الله الكذب ﴾. ويدخل في هذا كلُّ مُبْتَدِعٍ ابتدع بِدْعَةً ليس فيها مستند شرعي، أو حَلَّلَ شيئاً مما حرم الله، أو حَرَّم شيئا مما أباح الله، بمجرَّدِ رأيه وَتشَهِّيهِ.

«وما» في قوله: ﴿ لما ﴾ مصدريَّة، أي: ولا تَقُولوا الكَذِبَ لوصف ألسنتكم.

ثم تَوعَّدَ على ذلك فقال: ﴿ إن الذين يفترون على الله الكَذِبَ لا يُفلِحُون ﴾، أي: في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الدنيا فمتاعٌ قليلٌ، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿ نمتعهم قليلاً ثم نضطرُّهم إلى عذاب غَليظ ﴾، وقال: ﴿ إن الذين يَفتَرُون على الله الكذب لا يفلحون * متاعٌ في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذابَ الشَّدِيدَ بما كانوا يكفرون ﴾.

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾

لما ذَكر تعالى أنه إنما حَرَّم علينا الميتةَ والدمَ ولحمَ الخنزير، وما أُهِلَّ لغير الله به، وأنه أرخصَ فيه عند الضرورة ـ وفي ذلك تَوْسِعةٌ لهذه الأمة، التي يُرِيدُ الله بها اليسر ولا يريد بها العسر ـ ذكر سبحانه وتعالى ما كان حَرَّمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والأغلال والحَرَجِ والتَّضْيِيق، فقال: ﴿ وعلى الذين هادُوا حَرَّمنا ما قَصَصْنا عليك من قبلُ ﴾، يعني في «سورة الأنعام»، في قوله: ﴿ وعلى الذين هـادوا حَرَّمنا كل ذي ظُـفُر ومن البقر والغنم حَرّمنا عليهم شـحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختَلَطَ بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾، ولهذا قال ها هنا: ﴿وما ظلمناهم﴾ أي: فيما ضَيَّقنا عليهم، ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾، أي: فاستحقُّوا ذلك، كما قال: ﴿ فبظلم من الذين هـادوا حَرَّمنا عليهم طيبات أُحلت لـهم وبِصَدِّهم عن سبيل الله كثيرا ﴾.

ثم أخبر تعالى تكرُّماً وامتناناً في حق العصاة المذنبين: أَنَّ من تاب منهم إليه تابَ عليه، فقال: ﴿ ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة﴾، قال بعض السلف: «كل من عَصَى الله فهو جاهل».

﴿ ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ﴾، أي: أقلعوا عما كانوا فيه من المَعَاصِي، وأقبلوا على فعل الطاعات، ﴿ إن ربك من بعدها ﴾ أي: تلك الفعلةِ والزلَّة ﴿ لغفور رحيم ﴾.

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

(١) انظر تفسير الآية ١٧٣ من سورة البقرة.

يمدَحُ تباركَ وتعالى عبده ورسوله وخَليله إبراهيمَ، إمامَ الحنفاء ووالدَ الأنبياء، ويُبرئُه من المشركين ومن اليهوديّة والنصرانية، فقال: ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً ﴾، فأما الأُمَّةُ فهو الإمام الذي يُقتدَى به. والقانت: هو الخاشع المطيع، والحنيف: المُنحرِف قَصْداً عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿ ولم يَكُ من المشركين ﴾.

قال سفيانُ الثوريُّ، عن سلمة بن كُهَيل، عن مسلم البَطِين، عن أبي العُبَيدين: أنه سأل عبد الله بن مسعود عن الأُمَّةِ القَانِتِ، فقال: الأمةُ: معلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله.

وعن مالك قال: قال ابنُ عُمَر: الأمة الذي يعلم الناس دينهم.

وقال الأعمشُ، [عن الحكم][1]، عن يحيى بن الجَزّار، عن أبي العُبَيدين: أنه جاء إلى عبد الله فقال: من نَسألُ إذا لم نسألك؟ فكأن ابن مسعودٍ رقَّ له، فقال: أخبرني عن الأمَّة، فقال: الذي يُعلِّم الناس الخير.

وقال الشعبيُّ: حدثني فروَةُ بن نوفل الأشجعيُّ قال: قال ابنُ مسعود: إن مُعاذاً كان أمةً قانتا لله حنيفا. فقلتِ في نفسي: غَلِط أبو عبد الرحمن[2]، إنما قال الله: ﴿ إن إبراهيم كان أمةً ﴾، فقال: تَدْري ما الأمةُ؟ وما القانتُ؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: الأمة الذي يعلم الناس الخير. والقانت: المطيعُ لله ورسوله. وكذلك كان معاذ يُعَلِّم الخير، وكان مطيعاً لله ورسوله.

وقد رُوِي من غير وجه، عن ابن مسعود؛ حَرَّرَه ابنُ جرير.

وقال مجاهد: ﴿ أُمَّةً ﴾، أي: أُمَّةً وحده، والقانتُ المطيعُ. وقال مجاهد أيضاً: كان إبراهيمُ أمةً، أي: مؤمنا وحدَه، والناسُ كلُّهم إذ ذاك كفارٌ.

وقال قتادةُ: كان إمامَ هُدىً، والقانت: المطيعُ لله.

وقولُه: ﴿ شاكراً لأنعُمه ﴾، أي: قائماً بِشُكْرِ نِعَمِ الله عليه، كما قالَ: ﴿ وإبراهيم الذي وَفَّى ﴾ أي: قام بجميعِ ما أمره الله تعالى به.

وقولُه: ﴿ اجتباه ﴾، أي: اختارَه واصطَفاه، كما قال: ﴿ ولقد آتينا إبراهيمَ رُشْدَه من قبلُ وكُنّا به عالمين ﴾.

ثم قال: ﴿ وهداه إلى صراطٍ مستقيم ﴾، وهو عبادةُ الله وحدَه لا شريكَ له على شرعٍ مَرْضِيٍّ.

وقولُه: ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴾، أي: جَمَعْنا له خَيْرَ الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمنُ إليه في إكمالِ حياته الطيبة، ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾.

وقال مجاهدٌ في قوله: ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنةً ﴾، أي: لسانَ صِدْقٍ.

وقولُه: ﴿ ثم أوحينا إليكَ أن اتبع مِلَّة إبراهيمَ حنيفا ﴾، أي: ومن كمالِه وعَظَمته وصِحَّةِ توحيده وطريقه، أنا أوحينا إليكَ يا خاتَم الرُسلِ وسَيِّد الأنبياء: ﴿ أن اتبع مِلَّة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾، كما قال: في «الأنعام»، ﴿ قُلْ إنَّني هداني رَبِّيَ إلى صراطٍ مستقيمٍ ديناً قِيَماً مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً وما كان من المشركين ﴾، ثم قال تعالى منكراً على اليهود:

(١) عن تفسير الطبري ١٤/١٩١. وينظر تهذيب الكمال، ترجمة الحكم بن عُتَيبة ٧/١١٦.

(٢) أبو عبد الرحمن كنيةُ عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه.

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

لاشكَّ أن الله تعالى شَرَع في كُلِّ مِلَّةٍ يوماً من الأسبوع، يجتمِعُ الناسُ فيه للعبادة، فَشَرَع لهذه الأمة يومَ الجُمُعة، لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة، واجتمعت فيه[1] وتَمَّت النعمةُ على عباده. ويقال: إنه تعالى شَرَع ذلك لبني إسرائيل على لسان مُوسى، فَعَدَلوا عنه واختاروا السبت، لأنه اليومُ الذي لم يخلُق فيه الربّ شيئاً من المخلوقات التي كَمَلَ خَلْقُها يوم الجمعة. فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة، وَوَصَّاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه، مع أمره إياهم بمتابعةِ محمد ـ ﷺ ـ إذا بعثه، وأخْذه مواثيقَهم وعهودهم على ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿ إنما جُعِلَ السبتُ على الذين اختلفوا فيه ﴾.

قال مجاهد: اتبعوه وتَرَكوا الجُمُعة[2].

ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به، حتى بعث الله عيسى ابن مريم، فيقال: إنه حَوَّلهم إلى يوم الأحد، ويقال إنه: لم يَزَل على شريعة التوراة إلا ما نُسِخ من بعض أحكامها وإنه لم يَزَل محافظاً على السبت حتى رُفِع، وإن النصارى بعده في زمان قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد، مخالفة لليهود، وتَحوَّلوا إلى الصلاة شرقاً عن الصَّخرة، والله أعلم.

وقد ثبت في الصَّحِيحين، من حديث عبد الرزَّاق، عن معمر، عن هَمَّام، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أُوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومُهم الذي فَرَض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناسُ لنا فيه تَبَعٌ، اليهودُ غداً، والنصارى بعد غدٍ». لفظ البخاري[3].

وعن أبي هُرَيرة وحُذَيفة قالا: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أضلَّ الله عن الجُمُعة من كان قبلنا، فكان لليهود يومُ السبت، وكان للنصارى يومُ الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجُمُعة، فَجَعَلَ الجمعةَ والسبتَ والأحدَ، وكذلك هم تَبَع لنا يومَ القيامة، نحن الآخِرون من أهل الدنيا والأَوَّلون يومَ القيامة، المقضيُّ بينهم قبل الخلائق» رواه مسلم[4]، والله أعلم.

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى آمراً رسوله محمداً ـ ﷺ ـ أن يدعُوَ الخلق إلى الله بالحِكْمَةِ.

قال ابنُ جرير: وهو ما أنزله عليك من الكتاب والسنة[5]. ﴿ والموعظة الحسنة ﴾، أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس يُذَكِّرهم بها، ليحذروا بأس الله تعالى.

(١) في نسخة: واجتمعت الناس.
(٢) تفسير الطبري ١٤/١٩٣.
(٣) فتح الباري، كتاب الأيمان ١١/٥١٧، ومسلم، كتاب الجمعة ٥٨٦.
(٤) مسلم، كتاب الجمعة ٥٨٦.
(٥) انظر لفظ ابن جرير في ١٤/١٩٤.

وقولُه: ﴿ وجادِلْهم بالتي هي أحسنُ ﴾، أي: من احتاج منهم إلى مناظرةٍ وجدالٍ، فلْيكُن بالوجه الحسن، برفق ولين وحُسْن خِطَابٍ، كما قال: ﴿ ولا تُجادِلُوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم ﴾، فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر موسى وهارون حين بَعَثهما إلى فرعونَ فقال: ﴿فقُولا له قولاً ليِّناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾.

وقولُه: ﴿ إنَّ ربَّك هو أعلَمُ بمن ضَلَّ عن سبيله وهو أعلمُ بالمهتدين ﴾، أي: قد عَلِم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفَرَغ منه، فادعُهم إلى الله، ولا تَذْهَب نفسك على من ضَلَّ منهم حَسَراتٍ، فإنه ليس عليك هُدَاهم، إنما أنت نذيرٌ، عليك البلاغُ، وعلينا الحسابُ، ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾، و﴿ ليس عليك هداهم ﴾.

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

يأمرُ تعالى بالعدلِ في الاقتصاص والمماثلةِ في استيفاء الحق، كما قال عبد الرزّاق، عن الثوري، عن خالد، عن ابن سيرينَ: أنه قال في قوله تعالى: ﴿ فعاقبوا بمثل ما عُوقِبتُم به ﴾: إنْ أَخذَ منك رجلٌ شيئاً فَخُذْ مِثْلَه[1].

وكذا قال مجاهدٌ، وإبراهيم، والحسن البصري، وغيرُهم. واختاره ابنُ جَرِير.

وقال ابنُ زيدٍ: كانوا أُمِروا بالصفح عن المشركين، فأسلم رجالٌ ذَوُو مَنَعةٍ، فقالوا: يا رسولَ الله، لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلابِ! فنزلت هذه الآية، ثم نُسِخَ ذلك بالجهاد.

وقال محمدُ بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورةُ النحل كلُّها بمكة، وهي مكيةٌ إلا ثلاث آيات من آخِرِها نزلت بالمدينة بعد أُحُدٍ، حيث قُتِلَ حَمزةُ ـ رضي الله عنه ـ ومُثِّل به، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لئن ظَهرنا عليهم لَنُمثِّلنّ بثلاثين رَجُلاً منهم». فلما سَمِع المسلمون ذلك قالوا: والله لئن ظَهَرْنا عليهم لَنُمثِّلَنَّ بهم مثلة لم يُمثِّلها أحدٌ من العرب بأحد قَطُّ. فأنزل الله: ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عُوقِبتُم به ﴾ . . . إلى آخر السورة[2].

وهذا مُرْسَل، وفيه رجلٌ مبهم لم يُسَمَّ، وقد رُوِي هذا من وَجْهٍ آخَرَ متصل، فقال الحافظ أبو بكر البَزّارُ:

حدثنا الحسن بن يحيى، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا صالح المُرِّيُّ، عن سليمان التَّيْميِّ، عن أبي عُثمانَ، عن أبي هُريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ـ ﷺ ـ وقف على حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ حين استُشْهِد، فنظر إلى منظر لم ينظر[3] أوجع للقلب منه. أو قال: لقلبه، فنظر إليه وقد مُثِّل به فقال: رحمةُ الله عليك، إن كنتَ ـ ما علمتُ ـ لوصولا للرحم، فَعُولا للخيرات، والله لولا حُزن من بَعْدَك عليك لسرَّني

---

(١) تفسير الطبري ١٤/١٩٧. ولفظه: «فخذ منه مثله».
(٢) تفسير الطبري ١٤/١٩٥ ـ ١٩٦.
(٣) لفظ البزار: «لم ينظر إلى منظر أوجع...».

أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع ـ أو كلمة نحوها ـ أما والله على ذلك لأمثِّلنَّ بسبعين كَمُثْلَتِك». فنزل جبريل ـ عليه السلام ـ على محمد ـ ﷺ ـ بهذه السورة وقرأ: ﴿ وإن عاقبتُم فعاقبُوا بمثل ما عُوقِبتُم به ﴾ . . . إلى آخر الآية، فكفَّر رسولُ الله ـ ﷺ ـ يعني عن يمينه ـ وأمسك عن ذلك[1].

وهذا إسناد فيه ضعف، لأن صالحا ـ هو ابن بَشِير المُرِّيُّ ـ ضعيفٌ عند الأئمة، وقال البخاري: هو منكر الحديث.

وقال الشعبيُّ وابنُ جُرَيج: نزَلت في قولِ المسلمينَ يومَ أُحُدٍ فيمن مثّل بهم: [لَنُمَثِّلَنَّ بهم]، فأنزل الله فيهم ذلك.

وقال عبدُ الله ابنُ الإمامِ أحمَدَ في مسندِ أبيه: حدثنا هَدِيَّةُ بنُ عبدِ الوهّاب المَرْوَزِيُّ، حدثنا الفضلُ بن موسى، حدثنا عيسى بن عُبيدٍ، عن الرَّبيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبي بن كعب قال: لما كانَ يومُ أحد قُتِل من الأنصار ستون رجلاً، ومن المهاجرين ستة. فقال أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ: لئن كان لنا يومٌ مثل هذا من المشركين لَنُرْبِينَّ عليهم. فلما كان يومُ الفتح قال رجل لا يُعرَفُ: لا قُرَيشَ بعدَ اليوم. فنادى منادٍ: إن رسول الله ـ ﷺ ـ آمَنَ الأسودَ والأبيضَ إلا فلانا وفلانا ـ ناسا سَمَّاهُم ـ فأنزلَ اللهُ تبارك وتعالى: ﴿ وإن عاقبتُم فَعَاقِبُوا بمثل ما عُوقبتم به ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصابرين ﴾. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «نصبر ولا نعاقب»[2].

وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعيَّة العدل والندب إلى الفَضْل، كما في قوله: ﴿ وجزاء سَيِّئةٍ سَيِّئةٌ مثلها ﴾، ثم قال: ﴿ فمن عفا وأصلَحَ فأجرُه على الله ﴾. وقال: ﴿ والجروحَ قصاصٌ ﴾، ثم قال: ﴿ فمن تَصدَّق به فهو كَفَّارةٌ له ﴾، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ وإن عاقبتُم فَعَاقِبُوا بمثل ما عُوقِبتُم به ﴾، ثم قال: ﴿ ولئن صبرتُم لهو خير للصابرين ﴾.

وقولُه: ﴿ واصبِرْ وما صَبْرُك إلا بالله ﴾، تأكيدٌ للأمر بالصَّبر، وإخبارٌ بأنَّ ذلك إنما بمشيئة الله وَإعانَتِه، وحَوْلِه وقُوَّته.

ثم قال تعالى: ﴿ ولا تَحْزَن عليهم ﴾، أي: على من خالفَكَ، لا تحزَن عليهم؛ فإن الله قَدَّر ذلك، ﴿ ولا تَكُ في ضَيْقٍ ﴾، أي: غمٍّ ﴿ مما يمكرون ﴾، أي: مما يَجهَدُون في عَدَاوَتِك وإيصَالِ الشر إليك، فإن الله كافيك وناصِرُك، ومُؤيِّدك، ومُظْهِرُك ومُظَفِّرُك بهم.

وقولُه: ﴿ إن الله مع الذين اتَّقوا والذين هم مُحسِنُونَ ﴾، أي: مَعَهم بتأييده ونَصْرِه ومَعُونته. وهذه مَعيَّةٌ خاصَّةٌ، كقوله: ﴿ إذ يُوحِي ربك إلى الملائكة أني مَعَكُم فثبتوا الذين آمنوا ﴾. وقوله لموسى وهارون: ﴿ لا تخافا إنني مَعَكُما أسمع وأرى ﴾. وقول النبي ـ ﷺ ـ للصديق وهُمَا في الغار: ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾. وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: ﴿ وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾، وكقوله تعالى: ﴿ ألم تَرَ أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نَجوى ثلاثة إلا هو رابعهُم ولا خمسةٍ إلا هو سادسُهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ﴾، وكما قال تعالى: ﴿ وما تَكُون في شأن وما تتلو منه قرآن ولا تعملُون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تُفِيضُون فيه وما يَعْزُبُ عن رَبِّك من مثقال ذَرَّةٍ في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾.

---

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب الهجرة والمغازي ٢/٣٢٦-٣٢٧.

(٢) مسند أحمد ٥/١٣٥.

ومعنى : ﴿ الذين اتقوا ﴾، أي: تركوا المُحَرَّمات، ﴿ والذين هم مُحسِنُون ﴾، أي: فعلوا الطاعات. فهؤلاء يحفظهم الله ويكلؤهم، وينصُرُهم ويُؤَيِّدهم، ويُظْفِرُهم على أعدائهم ومُخالِفِيهم.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن بَشَّار، حدثنا أبو أحمد الزُّبَيْرِيُّ، حدثنا مِسْعَرٌ، عن أبي عَونٍ، عن محمد بن حَاطِبٍ قال: كان عثمان ـ رضي الله عنه ـ من الذين اتقَوا، والذين هم مُحْسِنُون.

* * *

آخر تفسير سورة النحل، ولله الحمد أجمعُه والمنة، وبه المستعان،
وهو حسبنا ونعم الوكيل

تفسير

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

وهي مكية

قال الإمامُ الحافظُ المُتْقِنُ أبو عبد الله محمَّد بن إسماعيل البخاريُّ: حدثنا آدمُ بن أبي إياس، حدثنا شُعبةُ، عن أبي إسحاقَ [قال]: سمعتُ عبدَ الرحمن بن يزيدَ، سمعت ابنَ مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال في بني إسرائيلَ، والكهفِ، ومَريَم: إنهنَّ من العِتاقِ الأُوَلِ، وهُنَّ من تِلَادِي[١].

وقال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا عبدُ الرحمن، حدثنا حماد بن زيد، عن مَرْوانَ أبي لُبَابة، سمعت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقول: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يَصُوم حتى نقول: ما يريد أن يُفطِرَ، ويُفْطِرُ حتى نَقُولَ: ما يُريد أن يصومَ، وكان يقرأ كلَ ليلة: «بني إسرائيل» «والزُّمَر»[٢].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾

يُمَجِّد تعالى نفسَه، ويُعَظِّم شأنه، لقدرته على ما لا يَقْدِرُ عليه أحدٌ سواه، فلا إلهَ غيرُه، ﴿الذي أسرى بعبده﴾، يعني محمداً ـ ﷺ ـ ﴿ليلاً﴾، أي: في جُنْح الليل، ﴿من المسجد الحرام﴾، وهو مسجد مكة، ﴿إلى المسجد الأقصى﴾، وهو بيت المقدس الذي بإِيلِيَاءَ[٣]، مَعْدِنِ الأنبياءِ من لدن إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ ولهذا جُمِعُوا له هنالك كلُّهم، فَأَمَّهم في مَحِلَّتهم ودارِهم، فَدَلَّ على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدَّم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة بني إسرائيل ٣٨٨/٨.
والعتاقُ: جمع عتيق، وهوالقديم، أو: هو كلّ ما بلغ الغاية في الجودة. وقوله: وهُنَّ من تلادي: أي مما حَفِظ قديماً. يريد ابن مسعود أنهن من أول ما تَعَلَّم من القرآن، وأنَّ لهنَّ فضلاً لما فيهن من القصص وأخبار الأنبياء والأمم.

(٢) مسند الإمام أحمد ١٨٩/٦.

(٣) إيلِيَاءُ: اسم مدينة بيت المقدس.

وقولُه: ﴿ الذي باركْنا حولَه ﴾، أي: في الزروع والثمار، ﴿ لنريه ﴾، أي: محمداً - ﷺ - ﴿ من آياتنا ﴾، أي: العظام، كما قال تعالى: ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾.

وسنذكُر من ذلك ما وردت به السنَّةُ من الأحاديث عنه، صلوات الله وسلامه عليه.

وقولُه: ﴿ إنَّه هو السميعُ البصيرُ ﴾، أي: السميعُ لأقوالِ عبادِه، مُؤمِنِهم وكافِرِهم، مُصَدِّقهم ومُكَذِّبهم، البصيرُ بهم، فيعطي كُلًّا ما يَستحقّه في الدنيا والآخرة.

* * *

ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء، رواية أنس بن مالك، رضي الله عنه:

قال الإمامُ أبو عبد الله البُخارِيُّ: حدثني عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا سليمان - هو ابن بلال - عن شَريك بن عبد الله - يعني ابن أبي نَمِر - أنه قال: سمعت أنس بن مالك يقول: ليلةَ أسري برسول الله - ﷺ - من مسجد الكعبة أنَّه جاءه ثلاثة نفر قبلَ أن يُوحَى إليه وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أوَّلُهم: أيّهم هو؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم. فكانت تلك الليلة، فلم يَرَهُم حتى أتَوه ليلةً أخرى فيما يرى قلبه - وتنامُ عيناه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قُلوبُهم - فلم يُكَلِّمُوه حتى احتملوه فوضَعُوه عند بئر زمزم، فتولاّه منهم جبريل، فشَقَّ جبريلُ ما بين نحره إلى لَبَّتِه[1]، حتى فَرَغَ من صدره وجوفه، فغَسَله من ماء زمزم بيده، حتى أنقى جَوفَه. ثم أتى بطَسْت من ذهب فيه تورٌ[2] من ذَهَبٍ محشُوٌّ إيماناً وحكمة، فحَشَا به صدره ولغاديده - يعني عُرُوق حلقه - ثم أطبقه. ثم عَرَج به إلى السماء الدنيا، فضَرَب باباً من أبوابها، فناداه أهلُ السماء: من هذا؟ فقال: جبريلُ. قالوا: ومن مَعَك؟ قال: معي محمد ﷺ. قالوا: وقد بُعِث إليه؟ قال: نعم. قالوا: مرحباً به وأهلاً به، يَسْتَبْشِرُ به أهلُ السماء، لا يعلم أهلُ السماء بما يُريد الله به في الأرض حتى يُعْلِمَهُم.

ووجَدَ في السماء الدنيا آدم، فقال له جبريلُ: هذا أبوكَ آدمُ، فَسلِّم عليه. فسلَّمَ عليه، وردّ عليه آدم فقال: مرحباً وأهلاً بِـابني، فنعْمَ الابنُ أنتَ. فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يَطَّرِدَان[3]، فقال: ما هذان النهران يا جبريل؟ قال: هذا النيلُ والفراتُ عُنْصُرهما[4]. ثم مَضَى به في السماء، فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزَبَرْجَد، فضرب يده فإذا هو مسك أذْفَرُ[5]، فقال: ما هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا الكوثَرُ الذي خَبأ لك رَبُّك.

ثم عَرَجَ به إلى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثلَ ما قالت له الأولى: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بُعِث إليه؟ قال: نعم. قالوا: مرحباً به وأهلاً.

ثم عَرَج به إلى السماء الثالثة، فقالوا له مثلَ ما قالتِ الأولى والثانية. ثم عَرَج به إلى السماء الرابعة فقالوا له مثل ذلك. ثم عَرَج به إلى السماء الخامسة فقالوا له مثلَ ذلك. ثم عَرَج به إلى السماء السادسة فقالوا له مثلَ

(١) اللبَّة: موضع القلادة من الصدر.
(٢) التَّوْرُ: إناء يشرب فيه.
(٣) أي: يجريان.
(٤) العنصر: الأصل.
(٥) أي: طيب الريح.

ذلك. ثم عَرَج به إلى السماء السابعة فقالوا له مثلَ ذلك. كلُّ سماءٍ فيها أنبياءُ قد سَمّاهم، قد وَعَيتُ[١] منهم إدريسُ في الثانية، وهارونَ في الرابعة، وآخرَ في الخامسة لم أحفظِ اسمَه، وإبراهيمَ في السادسة، وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله. فقال موسى ـ عليه السلام ـ: «ربِّ لم أظنَّ أن يُرفع عليَّ أحدٌ». ثم علا به فوق ذلك، بما لا يعلَمه إلا الله ـ عز وجلّ ـ حتى جاء سدْرَة المنتهى، ودنا الجبَّار ربُّ العزَّةِ فتدلَّى، حتى كان منه قابَ قوسين أو أدنى، فأوحى الله إليه فيما يُوحِي خمسين صلاةً على أمتك كلَّ يوم وليلة. ثم هَبَطَ به حتى بلغ موسى، فاحتبسَه موسى فقال: يا محمدُ، ماذا عَهِد إليك ربُّك؟ قال: عَهِد إليَّ خمسين صلاةً كلَّ يومٍ وليلةٍ. قال: إن أُمَّتك لا تستطيع ذلك، فارجعْ فَلْيُخَفِّفْ عنك ربُّك وعنهم. فالتفت النبي ـ ﷺ ـ إلى جبريل، كأنه يستشيره في ذلك، فأشار إليه جبريل: أنْ نعم، إن شئت. فعلا[٢] به إلى الجبَّار تعالى فقال وهو في مكانه: «يا رب، خَفِّف عَنّا، فإن أمتي لا تستطيع هذا». فَوَضَع عنه عشر صلوات. ثم رجع إلى موسى فاحتبَسَه، فلم يزل يردِّده موسى [إلى ربه][٣] حتى صارت إلى خمس صَلَوات. ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال: يا محمدُ، والله لقد راودتُ بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا، فضعُفُوا فتركوه، فأمتك أضعفُ أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً، فارجعْ فَلْيخفِّف عنك ربُّك، كُلّ ذلك يلتفت النبي ـ ﷺ ـ إلى جبريلَ لِيُشير عليه، ولا يكرَه ذلك جبريلُ، فرفعه عند الخامسة فقال: «يا ربِّ، إن أمتي ضعفاءُ أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم، فخفف عنا. فقال الجبار: يا محمد. قال: لَبَّيْكَ وسَعْدَيك. قال: إنه لا يُبدَّل القولُ لديَّ؛ كما فرضتُ عليك في أم الكتاب: كلُّ حَسَنةٍ بعشر أمثالها. فهي خمسون في أم الكتاب؛ وهي خمس عليك» فرجع إلى موسى فقال: كيف فعلتَ؟ فقال: خَفَّفَ عنا، أعطانا بكل حَسَنةٍ عشر أمثالها. فقال موسى: قد والله راودتُ بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه، فارجع إلى رَبِّك فَلْيخَفِّف عنك أيضاً. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: يا موسى، قد ـ والله ـ استَحْيَيتُ من رَبِّي مما اختلفتُ[٤] إليه، قال: فاهبِطْ باسم الله. فاستيقظ وهو في المسجد الحرام.

هكذا ساقه البخاري في «كتاب التوحيد»[٥]، ورواه في «صِفَةِ» النبيِّ ﷺ، عن إسماعيل بـن أبي أويس، عن أخيه أبي بكر عبد الحميد، عن سُليمان بنِ بلال[٥].

ورواه مسلم، عن هارون بن سعيد، عن ابن وَهبٍ، عن سليمان قال: «فزادَ ونَقَصَ، وقَدَّمَ وَأَخَّرَ»[٥].

وهو كما قاله مسلم ـ رحمه الله ـ فإن شَرِيكَ بن عبد الله بن أبي نَمِرٍ اضطرب في هذا الحديث، وساء حفظُه ولم يَضْبِطه، كما سيأتي بيانه في الأحاديث الأُخَر.

ومنهم من يجعل هذا مناماً توطئة لما وَقَع بعد ذلك، والله أعلم.

وقد قال الحافظُ أبو بكر البيهقيُّ: «وفي حديث شَرِيكٍ زيادةٌ تفرَّد بها، على مذهب مَن زَعَمَ أنه ـ ﷺ ـ رأى ربَّه ـ عزَّ وجلّ ـ يعني قوله: «ثم دنا الجبارُ ربُّ العزةِ فتدلَّى، فكان قابَ قوسين أو أدنى» ـ قال: وقول عائشةَ وابنِ مسعودٍ وأبي هُرَيرة ـ رضي الله عنهم ـ في حَملهم هذه الآياتِ على رؤيته جبريلَ أصحُّ»[٦].

---

(١) في نسخة: «قد سمّاهم وعينهم منهم...». ولفظ الصحيح: «قد سماهم فأوعيت منهم». ويروى: «فوعيت منهم».
(٢) في نسخة: «ثم علا».
(٣) عن الصحيح.
(٤) في النسخ: «اختلف». والمثبت عن الصحيح.
(٥) فتح الباري، كتاب التوحيد ١٣/٤٧٨ ـ ٤٧٩، وكتاب المناقب ٦/٥٧٩، ومسلم، كتاب الإيمان ١٤٨.
(٦) دلائل النبوة للبيهقي ٢/٣٨٥.

وهذا الذي قاله البيهقي ـ رحمه الله ـ هو الحقُّ في هذه المسألة؛ فإنَّ أبا ذرٍّ قال: يا رسولَ اللهِ، هل رأيتَ ربَّكَ؟ قال: نور أنَّى أراه[١]؟! وفي رواية: «رأيت نوراً». أخرجه مسلم[٢].

وقولهُ: (ثم دنا فتدلَّى)، إنما هو جبريلُ عليه السلام، كما ثَبَت ذلك في الصحيحَين، عن عائشةَ أُمِّ المؤمنين، وعن ابن مسعود، وكذلك هو في صَحيح مسلم عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنهم ـ ولا يُعرَف لهم مخالفٌ من الصحابة في تفسير هذه الآية بهذا[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حمّاد بن سلمة، أخبرنا ثابت البُنَاني، عن أنس بن مالك أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أُتيتُ بالبُرَاق، وهو دابَّة أبيضُ فوق الحِمَارِ ودُونَ البغل، يَضع حافره عند منتهى طَرْفِهِ، فركبتُه فسار بي حتى أتيتُ بيتَ المقدس، فربطتُ الدابة بالحَلْقَةِ التي يَرْبِطُ فيها الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ثم دخلتُ فَصَلَّيت فيه ركعتين، ثم خرجت. فجاءني جبريلُ بإناءٍ من خمر وإناءٍ من لبن، فاخترت اللبنَ، قال جبريل: أصبتَ الفِطْرةَ. قال: ثم عَرَج بي إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريلُ، فقيل: من أنت؟ قال: جبريلُ. فقيل: ومن معك؟ قال: مُحمَّد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أُرسِلَ إليه. فَفُتِحَ لنا، فإذا أنا بآدم؛ فرحَّب لي ودعا لي بخير.

ثم عَرَج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريلُ، فقيل: من أنت؟ قال: جبريلُ. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أُرسِلَ إليه. فَفُتِحَ لنا، فإذا أنا بابنَيِ الخالةِ يحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ فرحبا بي ودعَوَا لي بخير.

ثم عَرَج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتَحَ بجبريلُ، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ فقال: محمد. فقيل: وقد أُرسِل إليه؟ قال: قد أرسِل إليه. فَفَتح لنا، فإذا أنا بيوسفَ ـ عليه السلام ـ وإذا هو قد أُعِطي شَطْرَ الحُسْنِ، فَرَحَّب بي ودعا لي بخير.

ثم عَرَج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريلُ. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد أُرسِل إليه؟ قال: قد بُعِث إليه. فَفُتِحَ البابُ فإذا أنا بإدريسَ ـ عليه السلام ـ فَرَحَّبَ بي وَدَعا لي بخير، ثم [قال[٤]]: يقولُ الله: ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾.

ثم عَرَجَ بنا إلى السماءِ الخامسِة، فاستفتَحَ جبريلُ، فقيل: من أنت؟ فقال: جبريلُ: فقيل: ومن مَعَك؟ فقال: محمد. فقيل: قد أرسل إليه. قال: قد بُعِث إليه. ففُتِح لنا، فإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عَرَج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريلُ، فقيل: من أنت؟ قال: جبريلُ. فقيل: ومن معك. قال: محمد. فقيل: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه. فَفُتِحَ لنا، فإذا أنا بموسى ـ عليه السلام ـ فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عَرَج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم ـ عليه السلام ـ وإذا هو مُستَنِدٌ إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كلَّ يوم سبعون ألف ملك ثم لا يَعُودُون إليه.

(١) أي: كيف أراه.
(٢) مسلم، كتاب الإيمان ١٦١.
(٣) فتح الباري، كتاب التفسير ٦٠٦/٨، ومسلم، كتاب الإيمان ١٥٨ ـ ١٦١.
(٤) عن المسند.

ثم ذهب بي إلى سِدْرة المنتهى، فإذا ورقها كآذان الفِيَلَةِ، وإذا ثَمَرُها كالقِلال[١]. فلما غَشِيها من أمر الله ما غَشِيها تغيَّرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها. قال: فأوحى الله إليَّ ما أوحى، وفَرَض عَلَيَّ في كل يوم وليلة خمسينَ صلاةً، فنزلتُ حتَّى انتهيتُ إلى موسى قال: ما فَرَض ربُّك على أمتك؟ قال: قلتُ: خمسين صلاةً في كلِّ يوم وليلة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيفَ؛ فإن أمتك لا تُطيقُ ذلك، وإني قد بَلَوتُ بني إسرائيل وخَبَرتُهم. قال: فرجعتُ إلى ربِّي فقلت: أيْ ربِّ، خَفِّفْ عن أُمتي. فَحطَّ عني خمساً. فرجعت إلى موسى فقال: ما فعلت؟ قلتُ: قد حَطَّ عنِّي خمساً. قال: إن أمتك لا تُطيق ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. قال: فلم أزل أرجعُ بين ربِّي وبين موسى، ويحطّ عني خمساً خمساً حتى قال: «يا محمد، هُنَّ خمس صلوات في كل يوم وليلة، بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة. ومَن هَمَّ بِحَسَنةٍ فلم يعملها كُتِبت له حسنة، فإن عَمِلها كُتِبَت عشراً. ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب، فإن عَمِلَها كُتِبت سيئةً واحدةً». فنزلتُ حتى انتهيتُ إلى موسى فأخبرتُه، فقال: ارجِعْ إلى ربك فاسأله التخفيفَ لأُمَّتِك؛ فإن أُمَّتك لا تُطيق ذلك. فقال رسول الله - ﷺ -: «لقد رَجَعْتُ إلى ربي حتّى استحييتُ»[٢].

ورواه مسلم عن شَيبان بن فَرُّوخ، عن حماد بن سَلَمة بهذا السياق، وهو أصح من سياق شَرِيك[٢].

قال البيهقي: «وفي هذا السياق دليل على أنَّ المعراج كان ليلةَ أُسرِيَ به - ﷺ - من مكة إلى بيت المقدس»[٣].

وهذا الذي قاله هو الحق الذي لا شَكَّ فيه ولا مِرْيَةَ.

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا عبد الرَّزاق، حدثنا معمَرٌ، عن قتادَةَ، عن أنس: أن النبي - ﷺ - أُتِيَ بالبُراق ليلةَ أُسرِيَ به مُسْرَجاً مُلْجَماً ليركبه، فاستصعَبَ عليه، فقال له جبريلُ: ما يحملك على هذا؟ فوالله ما رَكِبَك قطُّ أكرمُ على الله منه. قال: فارفَضَّ عرقاً[٤].

ورواه الترمذي، عن إسحاقَ بنِ منصور، عن عبد الرَّزاق، وقال: «غريبٌ لا نَعْرِفه إلا من حَدِيثه»[٤].

وقال أحمدُ أيضاً: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوانُ، حدثني راشد بن سعد وعبدُ الرحمن بن جُبَير، عن أنس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لما عَرَج بي ربي - عزَّ وجلَّ - مررت بقوم لهم أظفارٌ من نحاس، يخمِشُون بها وُجُوههم وصُدُورهم، فقلت: مَن هؤلاءِ يا جبريلُ؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحومَ الناس، ويقعون في أعراضهم»[٥].

وأخرجَه أبو داود، من حديث صفوان بن عمرو، به. ومن وجه آخر ليس فيه أنس[٥]، فالله أعلم.

وقال أيضاً: حدثنا وكيع، حدثنا سفيانُ، عن سليمانَ التَّيميِّ، عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال

---

(١) القِلالُ: جمع قُلَّة، والقُلَّةُ: جرَّة كبيرٌ تَسع قربتين أو أكثر.
(٢) مسند أحمد ٣/١٤٨ - ١٤٩، ومسلم، كتاب الإيمان ١٤٥ - ١٤٧.
(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٢/٣٨٥.
(٤) مسند الإمام أحمد ٣/١٦٤، وعارضه الأحوذي، تفسير سورة الإسراء ١١/٢٩١ - ٢٩٢؛ ولفظ الترمذي: «ولا نعرفه إلا من حديث عبد الرزاق».
ارفضَّ عرقاً: سال عَرَقُهُ.
(٥) مسند أحمد ٣/٢٢٤، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٢٦٩ - ٢٧٠.

رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «مررتُ ليلةَ أُسرِيَ بي على موسى ـ عليه السلام ـ قائماً يصلِّي في قبره»(١).

ورواه مسلم من حديث حَمَّادِ بن سَلَمة، عن سليمان بن طَرْخان التيْمي وثابت البُنانيِّ، كلاهما عن أنس، رضي الله عنه(٢).

قال النسائيُّ: وهذا أصحُّ من رواية: سليمان، عن ثابت، عن أنس.

وقال الحافظ أبو يَعْلَى الموصلي في مُسنَده: حدثنا وهب بن بقية، حدثنا خالد، عن التيمي، عن أنس قال: أخبرني بعضُ أصحاب النبي ـ ﷺ ـ «أن النبي ـ ﷺ ـ ليلةَ أُسرِي به مَرّ على موسى ـ عليه السلام ـ وهو يصلي في قبره»(٢).

وقال أبو يعلى: حدثنا إبراهيم بن محمد بن عَرْعَرة، حدثنا مُعْتمِر، عن أبيه قال: سَمِعتُ أنساً: أن النبي ـ ﷺ ـ ليلة أُسرِيَ به مَرّ على موسى ـ عليه السلام ـ وهو يُصَلِّي في قبره ـ قال أنس: ذُكِر أنه حُمِل على البراق، فأوثَقَ الدابة أو قال: الفرس ـ فقال أبو بكر: صِفْها لي. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «هي كَذِهْ وَذِهْ»(٣). فقال: أشهد أنك رسولُ الله، وكان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ قد رآها(٤).

وقال الحافظُ أبو بكر أحمدُ بن عمرو البَزّارُ في مُسنَدِه: حدثنا سَلَمة بن شَبِيب، حدثنا سعيدُ بن منصور، حدثنا الحارثُ بن عُبَيد، عن أبي عِمْرانَ الجَوْني، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «[بينا أنا قاعد](٥) إذ جاء جبريل عليه السلام، فوكز بين كَتِفيَّ، فقمت إلى شجرة فيها كَوكَرَي الطير، فَقَعَد في أحدهما وقعدتُ في الآخر، فسَمَتْ وارتفعَتْ حتى سَدَّتِ الخافقين وأنا أُقلِّبُ طَرْفِي، ولو شئتُ أن أمسَّ السماء لَمَسِسْتُ، فالتفتُّ إلى جبريل ـ عليه السلام ـ كأنه حِلْسٌ(٦) لاطٌ، فعَرَفتُ فَضْلَ عِلْمِه بالله عَلَيّ وفُتِح لي بابٌ من أبواب السماء فرأيتُ النورَ الأعظم، وإذا دون الحجاب رفرفُ(٧) الدرِّ والياقوت، وأُوحِيَ إليّ ما شاء الله أن يوحي.

ثم قال: هذا الحديثُ لا نعلم رواه إلا أنسٌ، ولا نَعْلَم رواه عن أبي عمران الجَوْنِيِّ إلا الحارث بن عبيد، وكان رجلاً مشهوراً من أهل البصرة(٨).

ورواه الحافظ البيهقي في «الدلائل» عن أبي بكر القاضي، عن أبي جعفر محمد بن علي بن دُحَيم، عن محمد بن الحسين بن أبي الحُسَين، عن سعيد بن منصور، فذكر بسنده مثله، ثم قال: وقال غيرُه في هذا الحديث في آخره: «ولُطَّ دوني ـ أو قال: دون الحجاب ـ رَفْرَفُ الدرِّ والياقوت». ثم قال: هكذا رواه

---

(١) مسند أحمد ٣/١٢٠، ومسلم، كتاب الفضائل ١٨٤٥.
(٢) مسند أبي يعلى ٧/١١٧.
(٣) في نسخة الأزهر: «هي كذه وذه، وذكر كلمة». وفي مسند أبي يعلى: «فقال رسول الله ﷺ: . . . وذكر كلمة».
(٤) مسند أبي يعلى ٧/١٢٦ ـ ١٢٧.
(٥) عن كشف الأستار، ومجمع الزوائد.
(٦) الحِلْسُ: الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القَتَب. ولاطٌ، هكذا في نسخنا، وفي كشف الأستار ومجمع الزوائد: لاطىء، وكلاهما بمعنى. يقال: لطّ بالأمر: لزمه. ولطىء بالأرض: لزق بها.
(٧) في كشف الأستار ومجمع الزوائد: رفرفة. والمراد بالرفرف: البساط أو الستر، وفي الكتاب العزيز: ﴿متكئين على رفرف خضر﴾، وفي الحديث الذي رواه البخاري: «رأى رفرفاً أخضر قد سدّ الأفق»، فتح الباري، كتاب التفسير ٨/٦١١، ويقول ابن حجر: «وأصل الرفرف ما كان من ديباج رقيقاً حسن الصنعة».
(٨) كشف الأستار عن زوائد البزار ١/٤٧.

الحارث بن عُبَيد. ورواه حَمَّاد بن سلمة، عن أبي عمران الجوني، عن محمد بن عمير بن عطارد: أن النبيَّ ـ ﷺ ـ كان في ملإٍ من أصحابه، فجاءه جبريل، فَنَكَت في ظهره، فذهب به إلى الشجرة وفيها مثل وَكْرَي الطير، فقعد في أحدهما وقعد جبريل في الآخر، فنَشَأَت[1] بنا حتى بلغَتْ الأفق، فلو بَسَطْتُ يَدِي إلى السماء لنلتها، فَدُلِّي بسبَب وهبط النور، فوقع جبريل مغشياً عليه كأنه حِلْس، فعرفتُ فَضْلَ خشيته على خشيتي. فَأُوحِيَ إلى: نَبِيًّا مَلِكاً أو نَبِيًّا عبداً؟ وإلى[2] الجنة ما أنت؟ فأومأ إليّ جبريل وهو مضطجع: أن تواضع. قال قلت: لا بل نبياً عبداً[3].

قلتُ: وهذا إن صَحَّ يقتضي أنها واقعةٌ غير ليلة الإسراء، فإنه لم يُذْكَر فيها بيتُ المقدس، ولا الصعود إلى السماء، فهي كائنة غير ما نحن فيه، والله أعلم.

وقال البزار أيضاً: حدثنا عمرو بن عيسى، حدثنا أبو بحر، حدثنا شُعبَةُ، عن قَتَادَةَ، عن أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ: أن محمداً ـ ﷺ ـ رَأَى رَبَّه عزّ وجلّ. هذا غريب.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا يونس، حدثنا عبد الله بن وهب، حدثني يعقوب بن عبد الرحمن الزُّهْرِي، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: لما جاء جبريل ـ عليه السلام ـ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ بالبراق فكأنها أمَرّت[4] ذنبها، فقال لها جبريل: مه يا براقُ. فوالله إنْ[5] ركبك مثله. وسار رسول الله ـ ﷺ ـ فإذا هو بعجُوز على جانب الطريق، فقال: ما هذه يا جبريلُ؟ قال: سِرْ يا محمد. قال: فسار ما شاء الله أن يسير، فإذا شيء يدعوهُ مُتنَحِّياً عن الطريق يقول: هَلُمّ يا محمدُ. فقال له جبريلُ: سِرْ يا محمد. فسار ما شاء الله أن يسيرَ، قال: فلقيه خَلْق من الخَلْق فقالوا: السلامُ عليك يا أولُ، السلامُ عليك يا آخرُ، السلامُ عليك يا حاشرُ. فقال له جبريلُ: اردِدْ السلامَ يا محمدُ. فَرَدَّ السلامَ، ثم لَقِيه الثانية فقال له مثلَ مقالته الأولى، ثم الثالثة كذلك، حتى انتهى إلى بيت المقدس. فعرض عليه الماء والخمرَ واللبن، فتناول رسولُ الله ـ ﷺ ـ اللبن، فقال له جبريلُ: أصبتَ الفِطْرة، ولو شَربت الماء لغرقْت وغرقَت أُمتُكَ، ولو شَربْتَ الخَمْرَ لَغَويت ولغَوَت أمتك. ثم بُعِث له آدم فمن دونه من الأنبياء عليهم السلام، فَأَمَّهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ تلك الليلةَ. ثم قال له جبريلُ ـ عليه السلام ـ: أما العجوز التي رأيتَ على جانب الطريق، فلم يبقَ من الدنيا إلا ما بقِي من عمر تلك العجوز. وأما الذي أراد أن تميل إليه، فذاك عدوُّ الله إبليس، أراد أن تَمِيل إليه. وأما الذين سَلَّمُوا عليك فإبراهيمُ وموسى وعيسى عليهمُ السلامُ[6].

وهكذا رواه الحافظُ البيهقي في «دلائل النبوة»[6] من حديث ابن وهب. وفي بعضِ ألفاظه نَكَارةٌ وغرابة.

طريق أخرى عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ وفيها غرابةٌ ونكارة جدًّا، وهي في سُنَن النسائي المجتَبى، ولم أَرها في الكبير. قال: أخبرنا عمْرو بن هشام، حدثنا مَخْلَد ـ هو أبو الحسن ـ عن سعيد بن

---

(١) في الدلائل: «فتسامت بنا».

(٢) لفظ الدلائل: «أو إلى».

(٣) دلائل النبوة ٢/٣٦٨ ـ ٣٦٩.

(٤) كذا في نسخنا: أُمَرْت. وفي تفسير الطبري ١٥/٦: «ضربت بذنبها». ونص دلائل النبوة للبيهقي ٢/٣٦٢ مثل ما هنا. ولعلّ معنى أمرّت ذنبها أنها لَوَته وحركته ذات اليمين وذات الشمال.

(٥) في نسخة: «ما ركبك». وإنْ هنا بمعنى ما النافية.

(٦) تفسير الطبري ١٥/٥ ـ ٦، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/٣٦١ ـ ٣٦٢.

عبد العزيز، حدثنا يزيد بن أبي مالك، حدثنا أنس بن مالك: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أُتيتُ بدابة فوقَ الحمار ودُون البغل، خَطْوُها عند مُنتَهى طَرْفها، فركبتُ ومعي جبريل ـ عليه السلام ـ فسرتُ فقال: انزِلْ فَصَلِّ. فَصَلَّيتُ، فقال: أتدري أين صليتَ؟ صَلَّيتَ بطَيْبَةَ وإليها المُهَاجَرُ. ثم قال: انزل فَصَلِّ. فصَلَّيتُ، فقال: أتدري أين صَلَّيتَ؟ صَلَّيتَ بطور سَيْناء، حيث كلّم الله موسى. ثم قال: انزل فصلِّ. فصليتُ، فقال: أتدري أين صَلَّيتَ؟ صَلَّيتَ ببيت لَحم، حيثُ ولد عيسى عليه السلام. ثم دخلتُ بيت المقدس فَجَمَع لي الأنبياءَ عليهم السلام، فقدّمني جبريلُ حتى أَمَمْتُهم ثم صَعَدَ بي إلى السماء الدنيا، فإذا فيها آدم عليه السلامُ، ثم صَعِدَ بي إلى السماء الثانية فإذا فيها ابنا الخالة: عيسى ويحيى عليهما السلامُ. ثم صَعِدَ بي إلى السماء الثالثة فإذا فيها يوسفُ عليه السلامُ. ثم صَعِد بي إلى السماءِ الرابعة فإذا فيها هارون عليه السلامُ. ثم صَعِدَ بي إلى السماء الخامسة فإذا فيها إدريس عليه السلامُ. ثم صَعِد بي إلى السماء السادسة فإذا فيها موسى عليه السلامُ. ثم صَعِدَ بي إلى السماء السابعة فإذا فيها إبراهيم عليه السلامُ. ثم صَعِد بي فوق سبع سموات، وأتيت سِدْرَةَ المنتهى، فَغَشِيَتني ضَبَابةٌ فَخَرَرْتُ ساجداً، فقيل لي: إني يوم خلقت السموات والأرض فرضتُ عليك وعلى أُمَّتِك خمسين صلاة، فَقُم بها أنتَ وأمتُكَ. فرجَعْتُ[1] بذلك حَتَّى أَمُرَّ على موسى ـ عليه السلام ـ فقال: ما فَرَضَ رَبُّك على أُمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: فإنك لا تستطيعُ أن تقومَ بها، لا أنت ولا أمتُك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيفَ. فرجعتُ إلى ربِّي فخفّفَ عني عشراً. ثم أتيت موسى فأمرني بالرجوع، فرجَعْتُ فخفف عَنِّي عشراً، ثم رُدَّتْ إلى خمس صلوات. قال: فارجع إلى ربك فاسأله التخفيفَ، فإنه فَرَض على بني إسرائيل صلاتين فما قاموا بهما. فرجعت إلى ربي ـ عزّ وجلّ ـ فسألته التخفيف، فقال: إنّي يومَ خلقتُ السمواتِ والأرضَ فرضتُ عليك وعلى أمتك خمسين صلاةً، فخمس بخمسين، فقم بها أنت وأمتك. فعرفتُ أنها من الله تعالى صِرًى[2]، فرجعت إلى موسى ـ عليه السلام ـ فقال: ارجع. فعرفت أنها من الله صِرًى، يقول: أي حَتْمٌ ـ فلم أرجع»[3].

طريق أخرى، وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبي، حدثنا هشامُ بن عمار، حدثنا خالد بن يزيد بن أبي مالك، عن أبيه، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: لما كان ليلةُ أسريَ برسول الله ـ ﷺ ـ إلى بيت المقدس، أتاهُ جبريلُ بدابَّةٍ فوقَ الحمار ودُونَ البغلِ، حَمله جبريلُ ـ عليه السلام ـ عليها، ينتهي خُفُّها حيث ينتهي طَرْفُها. فلما بَلَغ بيت المقدِس وبَلَغ المكان الذي يُقال له: بابُ محمَّدٍ، أتى إلى الحجر الذي ثَمَّةَ، فغمَزَه جبريلُ بإصْبَعِهِ فثَقبه، ثم ربطها. ثم صَعِدَ فلما استويا في صرْحَةِ[4] المسجد، قال جبريلُ: يا محمَّدُ، هل سألت ربَّكَ أن يُرِيَكَ الحور العِينَ؟ فقال: نعم. قال: فَانْطَلِقْ إلى أولئك النسوةِ، فَسَلّم عليهنَّ وهُنَّ جلوسٌ عن يسار الصَّخرةَ. قال: فأتيتُهنَّ فسلمتُ عليهنَّ، فرَدَدْنَ عليَّ السلامَ، فقلت: من أنتنَّ؟ فَقُلن: نحن خَيْراتٌ حسان، نساءُ قومٍ أبرارٍ، نَقُوا[5] فلم يَدْرَنوا. وأقاموا فلم يظعَنوا، وخُلِّدوا فلم يموتوا. قال: وانصرفت، فلم ألبث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذَّن مُؤَذِّن، وَأُقيمت الصلاةُ، فقمنا صفوفاً ننتظِرُ من يَؤُمُّنا. فأخذ بيدي جبريلُ ـ عليه السلام ـ فقدمّني فصلَّيتُ بهم. فلما انصرفت قال جبريل: يا محمدُ، أتدري مَن صَلَّى خلفك؟ قال، قلتُ: لا. قال: صلى خلفك كلّ نبي بعثه الله عَزّ وجلَ.

(١) لفظ سنن النسائي: «فرجعت إلى إبراهيم فلم يسألني عن شيء، ثم أتيت على موسى فقال: كم فرض الله عليك وعلى أمتك؟».
(٢) أي: عزيمة باقية لا تقبل النسخ.
(٣) سنن النسائي، كتاب الصلاة ١/٣٢٢ ـ ٣٢٣.
(٤) أي: ساحته.
(٥) أي: طهروا.

قال: ثم أخذ بيدي جبريلُ فَصَعِد بي إلى السماء، فلما انتهينا إلى البابِ استفتَحَ فقالوا: من أنتَ؟ قال: أنا جبريلُ. قالوا: ومَنْ مَعكَ؟ قال: محمد. قالوا: وَقَد بُعِث؟ قال: نعم. قال: فَفَتحُوا له وقالوا: مرحباً بك وبمن مَعَك. قال: فلما استوى على ظهرها إذا فيها آدمُ، فقال لي جبريلُ: يا محمدُ، ألا تُسَلِّم على أبيك آدم؟ قال، قلت: بلى. فأتيته فَسَلَّمتُ عليه، فرد عليَّ وقال: مرحباً بابني والنبيِّ الصالح. قال: ثم عَرَجَ بي إلى السماء الثانية فاستفحَ، قالوا: من أنت؟ قال: جبريلُ. قالوا: ومن مَعَك؟ قال: محمدٌ. قالوا: وقد بُعِث؟ قال: نعم. ففتحُوا له وقالوا: مرحباً بك وبمن معك. فإذا فيها عيسى وابنُ خالته يحيى عليهما السلام. قال: ثم عَرَج بي إلى السماء الثالثة فاستفتَح، قالوا: من أنتَ؟ قال: جبريلُ. قالوا: ومن معك؟ قال: محمدٌ. قالوا: وقد بُعِث؟ قال: نعم. قال: ففتحوا وقالوا: مَرحباً بِكَ وبمن مَعَك. فإذا فيها يوسف عليه السلام، ثم عَرَج بي إلى السماء الرابعة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريلُ، قالوا: ومن مَعَك؟ قال: محمدٌ. قالوا: وقد بُعِث؟ قال: نعم. فَفَتحُوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك. فإذا فيها إدريسُ عليه السلام. قال: فَعرج بي إلى السماء الخامسة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريـلُ. قالوا: ومن معك؟ قال: محمدٌ. قالوا: وقد بُعِث؟ قال: نعم. ففتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك. فإذا فيها هارونُ عليه السلام. قال: ثم عَرَج بي إلى السماء السادسة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريلُ. قالوا: ومن معك؟ قال: محمدٌ. قالوا: وقد بُعِث؟ قال: نعم. ففتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن مَعَك. فإذا فيها موسى عليه السلام. ثم عَرَج بي إلى السماء السابعة، فاستفتَحَ، قالوا: من أنت؟ قال: جبريلُ. قالوا: ومن معك؟ قال: محمدٌ. قالوا: وقد بُعِث؟ قال: نعم. فَفَتحُوا وقالوا: مرحباً بك وبمن مَعَك، فإذا فيها إبراهيمُ عليه السلام. فقال جبريل: يا محمد، ألا تُسَلِّم على أبيك؟ فقلتُ: بلى. فأتيتُه فسلمتُ عليه، فَرَدَّ عليَّ السلامَ، وقال: مرحباً بِابْـني والنبيِّ الصالح.

ثم انطلق بي على ظهر السماء السابعةِ، حتى انتَهى إلى نهر عليه خيامُ الياقوتِ واللؤلؤ والزبرجَدِ، وعليه طيرٌ خُضْر، أنعَمُ طيرٍ رأيتُ. فقلت: يا جبريل، إن هذا الطير لناعم؟ قال: يا محمدُ، آكِلُه أنعم منه. ثم قال: يا محمد، أتدري أيَّ نهر هذا؟ قال، قلت: لا. قال: هذا الكوثرُ الذي أعطاكَ اللهُ إياه. فإذا فيه آنية الذهبِ والفضة، يجري على رَضْراضٍ(١) من الياقوتِ والزُمرُّدِ، وماؤه أشدُّ بياضاً من اللبن. قال: فأخذتُ منه آنيتِهِ، فاغترفت من ذلك الماء فشربتُ، فإذا هو أحلى من العسل، وأشد رائحةً من المسك.

ثم انطلق بي حتى انتهى إلى الشجرةِ، فَغَشِيتني سحابةٌ فيها من كلِّ لون، فَرَفَضَني(٢) جبريل، وخَرَرْت ساجداً لله عزّ وجلّ، فقال الله لي: يا محمد، إني يوم خلقتُ السمواتِ والأرضَ فرضتُ عليك وعلى أُمَّتِك خمسين صلاة، فَقُم بها أنت وأمتُك. قال: ثم انجلَت عنِّي السحابة وأخذَ بيدي جبريلُ فانصرفتُ سريعاً، فأتيت على إبراهيم فلم يَقُلْ لي شيئاً، ثم أتيت على موسى فقال: ما صنعتَ يا محمدُ؟ فقلت: فَرَضَ ربِّي عليَّ وعلى أمتي خمسينَ صلاةً. قال: فلن تستطيعها أنتَ ولا أُمّتك، فارجعْ إلى ربك فاسأله أن يُخفِّف عنك. فرجعتُ سريعاً حتى انتهيتُ إلى الشجَرةِ، فَغَشِيَتْنِي السحابة، ورَفَضَني(٢) جبريل، ـ عليه السلام ـ وخررت ساجداً، وقلت: رَبِّ، إنكَ فرضتَ عليَّ وعلى أمتي خمسينَ صلاةً، ولن أستطيعها أنا ولا أُمّتي، فَخَفِّف عنا. قال: قد وضعتُ عنكم عشراً. قال: ثم انجلَتْ عَني السحابةُ، وأخذ بيدي جبريلُ ـ عليه السلام ـ فانصرفتُ سريعاً حتى أتيتُ على إبراهيمَ فلم يقل شيئاً. ثم أتيت على موسى ـ عليه السلام ـ فقال لي: ما صنعت يا

(١) الرَّضراضُ: الحصى الصغار في مجاري الماء.
(٢) رَفَض الشيءَ: تركه وجانَبَهُ.

محمدُ؟ فقلتُ: وضَعَ رَبي ـ عزّ وجلّ ـ عني عشراً. فقال: فأربعون صلاة! لن تستطيعها أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك.

فذكر الحديثَ كذلك إلى خَمْسِ صلواتٍ، وخَمْسٍ بخمسين، ثم أمره موسى ـ عليه السلام ـ أن يرجع فيسأل التخفيف، فقلت: إني قد استحييتُ منه تعالى.

قال: ثم انحدر، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لجبريل: مالي لم آتِ أَهْلَ سماء إلا رَحَّبُوا بي وضَحِكُوا إليّ، غير رجل واحد، فسلمت عليه فرد عَلَيَّ السلامَ ورحَّب بي ولم يضحك إليّ. قال: يا محمدُ، ذاك مالكٌ خازن جَهَنَّم، لم يضحَكْ منذ خُلِقَ، ولو ضَحِكَ إلى أحدٍ لَضَحِك إليك.

قال: ثم رَكب منصرفاً، فبينا هو في بعضِ طريقِهِ مرّ بعيرٍ لِقُرَيش تحمل طعاماً، فيها جملٌ عليه غِرَارَتان: غِرَارَةٌ سوداءُ، وغِرَارَةٌ بيضاءُ، فلما حاذى بالعير نَفَرت منه واستدارت، وصُرِع ذلك البعيرُ وانكسر.

ثم إنه مَضَى فأصبَحَ، فأخبر عَمَّا كان، فلما سَمِع المشركون قوله أتَوا أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ فقالوا: يا أبا بكر، هل لك في صاحبك؟ يخبر أنه أتَى في ليلته هذه مَسِيرةَ شَهْرٍ، ثم رَجَع في ليلته. فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: إن كان قاله فقد صَدَق، وإنا لَنُصدِّقه فيما هو أبعدُ من ذلك، نُصَدِّقهُ على خَبَرِ السماء.

فقال المشركون لرسولِ الله ـ ﷺ ـ: ما علامَةُ ما تقول؟ قال: مَرَرْتُ بِعيرٍ لقُرَيشٍ، وهي [في مكان] كذا وكذا، فنفرت العير منا وَاسْتَدارَتْ، وفيها بعيرٌ عليه غِرارتان: غِرَارةٌ سوداءُ، وغرارة بيضاء، فَصُرِع فانكسر.

فلما قدمت العير سَألوهم، فأخبروهم الخبر على مثل ما حَدَّثهم رسول الله ـ ﷺ ـ ومن ذلك سُمِّي أبو بكر: الصِّدِّيقَ، رضي الله عنه.

وسألوه فقالوا: هل كان فيمن حضر معك موسى وعيسى؟ قال: نعم. قالوا: فَصِفْهُم. قال: نعم، أما موسى فرجل آدم، كأنه من رجال أزْد عمان، وأما عيسى فَرَجل ربعة، سَبْط، تعلوه حُمْرَة، كأنه يتحادر من شعره الجُمَانُ(١).

هذا سياقٌ فيه غرائبُ عجيبةٌ.

* * *

رواية أنس عن مالك بن صعصعة ـ رضي الله عنه ـ قال الإمام أحمد:

حدثنا عَفَّانُ، حدثنا هَمَّام قال: سمعتُ قتادَةَ يحدّث عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن مالك بن صَعْصَعَة حَدَّثه: أن نبي الله ـ ﷺ ـ حدثهم عن ليلةَ أُسْرِيَ به، قال: بينما أنا في الحَطِيم ـ وربما قال قتادةُ: في الحِجْرِ ـ مضطجعاً، إذ أتاني آتٍ فجعل يقول لصاحبه: الأوسطُ بين الثلاثة، قال: فأتاني فَقَدَّ ـ وَسمعتُ قتادة يقول: فشق ـ ما بين هذه إلى هذه» ـ وقال قتادة: فقلت للجارود(٢) وهو إلى جَنْبي: ما يعني؟ قال: مِن ثُغرة نحره إلى شِعْرَته، وقد سمعته يقول: من قَصّته(٣) إلى شعْرته، قال: فاستخرَجَ قلبي، قال: فَأُتِيتُ بِطَسْتٍ من ذَهَبٍ مملوءٍ إيماناً وحكمةً، فَغَسل قلبي ثم حُشِي، ثم أعيد. ثم أُتِيتُ بدابَّةٍ دونَ البغلِ وفوقَ الحمار أبيض ـ قال: فقال الجارود: وهو البُرَاقِ يا أبا حَمْزَة(٤)؟ قال: نعم، يقع خَطْوُه عند أقصى طَرْفِهِ ـ قال: فَحُمِلْتُ عليه،

(١) الجُمان: اللؤلؤ.
(٢) هو الجارود بن أبي سبرة. انظر تهذيب الكمال ٤/٤٧٥.
(٣) المعروف في هذا الموضع أنه القَصُّ، دون هاء، وهو عظم الصدر المغروز فيه أطراف الأضلاع.
(٤) أبو حمزة كنية أنس بن مالك رضي الله عنه.

فانطلق بي جبريل ـ عليه السلام ـ حتى أَتَى بي إلى السماء الدنيا: فاستفتَحَ فقيل: من هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن مَعَكَ؟ قال: محمَّدُ. قيل: أو قد أُرْسِل إليه؟ قال: نعم. فقيل: مرحباً به، ولنعم المجيءُ جاءَ. قال: فَفُتِح فلما خَلَصتُ فإذا فيها آدم عليه السلام، قال: هذا أبوك آدم، فَسَلِّم عليه. فَسلَّمتُ عليه، فرّد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبيِّ الصالح.

ثم صَعِدَ حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح فقيل: من هذا؟ فقال: جبريل. قيل: ومن مَعَكَ؟ قال: محمد. قيل: أو قد أُرْسِل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيءُ جاء. قال: فَفُتِح، فلما خلصت فإذا يحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ وهما ابنا الخالة، قال: وهذان يحيى وعيسى فَسَلِّم عليهما. قال: فسلمتُ فردَّا السلام، وقالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالحِ.

ثم صَعِد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن معك؟ قال: محمدٌ. قيل: أو قد أُرسِل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيءُ جاء. قال: فَفُتِح فلما خلصتُ إذا بيوسُفَ عليه السلام، قال: هذا يوسفُ، قال: فسلمتُ عليه، فَرَدَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صَعِد حتى أتى السماء الرابعة، فَاسْتَفْتَحَ فقيل: من هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن مَعَكَ؟ قال: محمدٌ: قيل: أو قد أُرْسِل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعم المجيءُ جاء. قال: فَفُتِح، فلما خَلَصْتُ فإذا إدريسُ ـ عليه السلام ـ قال: هذا إدريس، [فَسَلِّمْ عليه] قال: فسلَّمتُ عليه. فَرَدَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح.

قال: ثم صَعِد حتى أتى السماءَ الخامسة فاستفتَحَ، فقيل: من هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن مَعَكَ؟ قال: محمدٌ: قيل: أو قد أُرسِلَ إليه؟ قال: نَعم. قيل: مرحَباً به، ولنعمَ المجيءُ جاء. قال: فَفُتِح، فلما خَلَصْتُ فإذا هارون عليه السلام، قال: هذا هارون فسلِّم عليه. فسلمتُ عليه فردّ عَلَيَّ السلامَ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح.

قال: ثم صَعِدَ حتى أتى السماء السادِسَة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن مَعَكَ؟ قال: محمدٌ. قيل: أو قد أُرْسِل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيءُ جاء. فَفُتِحَ، فلما خلصتُ فإذا أنا بموسى ـ عليه السلام ـ قال: هذا موسى فَسَلِّم عليه. فسلمتُ عليه فردَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح. قال: فلما تجاوزْتُ بكى. قيل له: ما يُبْكِيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بُعِث بعدي، يدخل الجنة من أمته أكثرُ مما يدخلُها من أمتي.

قال: ثُمَّ صَعِد حتى أتى السماء السابعة فاستفتَحَ، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن مَعَكَ؟ قال: محمد. قيل: أو قد أُرْسِل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعمَ المجيءُ جاء. قال: فَفُتِح فلما خلصتُ فإذا إبراهيم عليه السلام، فقال: هذا إبراهيم ـ عليه السلام ـ فَسَلِّم عليه. قال: فَسَلَّمتُ عليه فَرَدَّ السلام، ثم قال: مرحباً بالابنِ الصالحِ والنبيِّ الصالح.

قال: ثم رُفِعْتُ إلى سِدْرَة المنتهى، وإذا نَبْقُها مثل قِلال[1] هَجَر، وإذا وَرَقُها مثل آذان الفيلة، فقال: هذه سِدْرةُ المنتهى. قال: وإذا أربعةُ أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات.

---

(١) القِلال: جمع قُلَّة، والقُلَّة: جرّة كبيرة تسع قربتين أو أكثر. وهَجَر: مدينة بالبحرين.

قال: ثم رُفِعَ إلى البيت المعمور.

وقال قتادة: وحدثنا الحسنُ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ: أنه رأى البيتَ المعمورَ يدخله كُلَّ يوم سبعونَ ألف مَلَك، ثم لا يعودون فيه.

ثم رَجَع إلى حديث أنس قال: ثم أُتِيتُ بإناءٍ من خَمْرٍ وإناءٍ من لَبَن وإناء من عَسَلٍ، قال: فأخذتُ اللبنَ، قال: هذه الفطرةُ، وأنتَ عليها وأمتُك.

قال: ثم فُرِضَت الصلاةُ خمسين صلاةً كلَّ يوم، قال: فَنَزَلْتُ حتى أتيتُ موسى ـ عليه السلام ـ قال: ما فرضَ ربُّك على أمتك؟ فقلت: خمسين صلاةً كُلَّ يوم. قال: إن أمتك لا تستطيعُ خمسين صلاة، وإني قد خَبَرتُ الناس قبلكَ وعالجتُ بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى رَبِّك فاسأله التخفيفَ عن أمتك. قال: فَرَجَعتُ فوضَعَ عني عشراً قال: فرجعتُ إلى موسى ـ عليه السلام ـ فقال: بمَ أُمِرْتَ؟ قلت: بأربعين صلاةً كلّ يوم. قال: إن أمتكَ لا تستطيعُ أربعين صلاةً كُلَّ يوم، وإني قد خَبَرْتُ الناسَ قبلك، وعالجتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيفَ لأمتك. قال: فرجعتُ فوضَعَ عني عشراً أُخَر. فرجعتُ إلى موسى ـ عليه السلام ـ فقال: بِمَ أُمِرْتَ؟ فقلت: أُمِرْتُ بثلاثين صلاة. قال: إن أُمّتكَ لا تستطيع ثلاثين صلاة كل يوم، وإني خَبَرت الناس، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى رَبِّك فاسأله التخفيف لأمتك. قال: فرجعتُ فوضَع عني عشراً أُخَر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أُمِرْتَ؟ قلت: بعشرينَ صلاة كلَّ يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع لعشرين صلاة كلّ يوم، وإني قد خَبَرْتُ الناسَ قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشدَّ المعالجةَ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. قال: فرجعتُ فوضع عني عشراً أُخر، فرجعت إلى موسى ـ عليه السلام ـ فقال: بم أُمِرْتَ؟ فقلتُ: أُمِرْتُ بعشر صَلَواتٍ كُلَّ يوم قال: أمتك لا تستطيع لعشر صلوات كُلَّ يوم، وإني قد خَبَرْتُ الناسَ قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأُمّتك. قال: فرجعت فَأُمِرْتُ بخمس صلوات كُلَّ يوم، فرجعت إلى موسى ـ عليه السلام ـ فقال: بم أُمِرْتَ؟ فقلت: أمرتُ بخمس صلوات كلّ يوم. فقال: أمتَكَ لا تستطيع لخمس صلوات كُلّ يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيفَ لأمتك. قال، قلت: قد سألت ربي حتى استحييت، ولكني أرضى وأُسلِّم. فَنَفَذْتُ، فنادى منادٍ: قد أمضيتُ فريضَتِي، وخَفَّفْتُ عن عبادي»(١).

وأخرجاه في الصحيحين، من حديث قتادة، بنحوه(١).

* * *

رواية أنس عن أبي ذرٍّ رضي الله عنهما:

قال البخاري: حدثنا يحيى بن بُكَير، حدثنا الليثُ، عن يونُس، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كان أبو ذرٍّ يُحدِّث أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «فُرِجَ سَقفُ بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريلُ فَفَرَجَ صَدْري، ثم غَسَله بماء زَمْزَم، ثم جاء بطَسْت من ذهب ممتلىءٍ حكمةً وإيماناً، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه. ثم أخذ بِيَدِي فعَرج بي إلى السماء، فلما جئتُ إلى السماء قال جبريلُ لخازن السماء: افتحْ. قال: من هذا؟ قال: جبريلُ. قال: هل معك أحدٌ؟ قال: نعم، مَعِي محمدٌ. قال: أُرسِلَ إليه؟ قال: نعم. فلما فتح

(١) مسند الإمام أحمد ٢٠٨/٤ ـ ٢١٠. وفتح الباري، كتاب بدء الخلق ٣٠٢/٦ ـ ٣٠٣، ومسلم، كتاب الإيمان ١٤٩ ـ ١٥١.

عَلَونا السماء الدنيا وإذا رجلٌ قاعدٌ على يَمينه أَسْوِدَةٌ[1] وعلى يسارِهِ أَسْوِدَةٌ، فإذا نظر قِبَلَ يَمينهِ ضَحِك، وإذا نظر قِبَلَ شِمَالِه بكى. فقال: مَرْحَباً بالنبيِّ الصالحِ والابنِ الصالحِ. قلتُ لجبريلَ: من هذا؟ قال: هذا آدَمُ، وهذه الأسودةُ عن يمينه وعن شِمَاله نَسَمُ[2] بَنِيه، فأهلُ اليمينِ منهم أهلُ الجنة، والأسودَةُ التي عن شِمَاله أهلُ النار، فإذا نَظَر عن يمينه ضَحِك، وإذا نَظَر عن شِمَاله بَكَى.

ثم عَرَج بي إلى السماء الثانية فقال لخازنها: افتَحْ. فقال له خازنُها مثل ما قالَ له الأولُ، فَفَتح، قال أنسٌ: فذكر أنه وَجَد في السموات آدَمَ، وإدريسَ، وموسى، وعيسى، وإبراهيمَ، ولم يُثْبِتْ كيفَ منازِلُهم، غيرَ أنه ذَكَر أنه وَجَد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيمَ في السماء السادسة. قال أنس: فلما مَرَّ جبريلُ بالنبي - ﷺ - بإدريس قال: مرحباً بالنبيِّ الصالح والأخ الصالح. فقلتُ: من هذا؟ فقال: هذا إدريسُ. ثم مَرَرْتُ بموسى فقال: مرحباً بالنبيِّ الصالح والأخ الصالح. قلت: مَن هذا؟ قال: موسى. ثم مررتُ بعيسى فقال: مَرْحَباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: عيسى. ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيمُ. قال الزهري: فأخبرني ابنُ حَزْمٍ أَنَّ ابن عباس وأبا حَبَّة الأنصاري كانا يقولان: قال النبيُّ ﷺ: «ثم عَرَجَ بي حَتَّى ظهرتُ لمستوى أسمَعُ فيه صَرِيفَ الأقلام. قال ابنُ حَزْمٍ وأنسُ بن مالك: قال رسولُ الله - ﷺ -: «فَفَرَضَ اللهُ على أُمَّتي خمسين صلاةً، فرجعتُ بذلك حتى مَرَرْتُ على موسى - عليه السلام - فقال: ما فرض الله على أُمَّتِك؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فارجِعْ إلى رَبِّك، فإن أُمَّتك لا تُطِيقُ ذلك. فَرَاجعتُ [-3-فوضع شطرها، فَرَجعتُ إلى موسى، قلت: وَضَع شَطْرَها. فقال: راجِعْ ربك، فإن أمتك لا تطيق. فَرَاجعتُ فوضع شَطْرها. فَرَجَعْتُ إليه فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تُطِيقُ ذلك. فراجعتُه]-3- فقال: هي خمسٌ وهي خمسُون، لا يُبَدَّل القولُ لديَّ. فرجَعْتُ إلى موسى فقال: ارجِعْ إلى ربِّك. قلتُ: قد استحيَيْتُ من رَبِّي. ثم انطلَق بي حتى انتهى إلى سِدْرَةِ المُنتهى، فَغَشِيها ألوانٌ لا أدري ما هي، ثم أُدْخِلْتُ الجنة فإذا فيها حَبَايِلُ[4] اللؤلؤ، وإذا تُرَابها المِسْكُ».

هذا لفظ البخاري في «كتاب الصلاة»[5]، ورواه في ذكر بني إسرائيل، وفي الحج، وفي أحاديث الأنبياء من طرق أخر، عن يُونُسَ، به. ورواه مسلم في صَحِيحه في «كتابِ الإيمان» منه، عن حَرمَلة، عن ابن وهب، عن يونس، به نحوه.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عفان، حدثنا هَمَّامٌ، عن قتادةَ، عن عبد الله بن شَقِيق قال: قلتُ لأبي ذَرٍّ: لو رأيتُ رسولَ الله - ﷺ - لسألتُه. قال: وما كنتَ تسألُه؟ قال: كنتُ أسألُه: هل رأى ربَّه؟ فقال: إني قد سألته فقال: إني قد رأيته نوراً أنَّى أراه»[6].

(١) الأَسْوِدَة: جمع سَوَاد، وهو الشخصُ، يقال: لا يفارق سوادُه سوادي، أي: لا يفارق شخصُه شخصي، ويطلقُ الشخص على كل جسم له ارتفاع وظهور وغلب في الإنسان.

(٢) النَّسَم: جمع نسمة وهي الروح.

(٣) عن فتح الباري.

(٤) في نسخة: جبال، وفي أخرى: جنابذ. أما جبال فيبدو أنها تحريف جبايل الذي وقع لجميع رواة البخاري، ويرى كثير من الأئمة - كما يقول ابن حجر - أن حبايل هذا تصحيف جنابذ، ونقل ابن حجر عن ابن حزم قوله: «فَتَّشْتُ على هاتين اللفظتين فلم أجدهما ولا واحدة منهما ولا وقفت على معناهما». «وذكر غيره أن الجنابذ شبه القِبَابِ واحدها جُنْبُذة، وهو ما ارتفع من البناء، فهو فارسيٌّ معرَّب، وأصلُه بلسانهم كنبذة». انظر فتح الباري ٤٦٣/١.

(٥) فتح الباري، كتاب الصلاة ٤٥٨/١ - ٤٥٩، وكتاب الحج ٤٩٢/٣، وكتاب الأنبياء ٣٧٤/٦ - ٣٧٥، ومسلم، كتاب الإيمان ١٤٨ - ١٤٩.

(٦) مسند أحمد ١٤٧/٥.

هكذا وقع في رواية الإمام أحمد. وأخرجه مسلم في صحيحه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع، عن يزيد بن إبراهيم، عن قتادةَ، عن عبد الله بن شَقِيق: عن أبي ذرٍّ قال: سألتُ رسول الله ـ ﷺ ـ: هل رأيتَ رَبَّك؟ قال: نور أَنَّى أراه[١]!

وعن محمد بن بَشَّار، عن مُعاذِ بن هشام، حدثنا أبي، عن قتادَةَ، عن عبد الله بن شَقِيقٍ قال: قلتُ لأبي ذرٍّ: لو رأيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ لسألتُه. فقال: عن أيِّ شيءٍ كنتَ تسألُه؟ قال: كنتُ أسألُه: هل رأيت ربَّك؟ قال أبو ذرٍّ: قد سألتُه فقال: رَأَيتُ نُوراً[١].

* * *

روايةُ أنس، عن أُبَيِّ بن كعب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ قال عبدُ الله ابن الإمام أحمدَ:

حدثنا محمد بن إسحاق بن محمد المُسَيِّبي، حدثنا أنس بن عياض، عن يونس بن يزيد قال: قال ابنُ شهابٍ: قال أنسُ بن مالك: كان أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ يُحدِّث أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «فُرِجَ سَقْفُ بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريلُ فَفَرَج صَدْرِي ثم غسله من ماءَ زَمْزَمَ، ثم جاء بطَسْت من ذهب ممتلىءٍ حكمةً وإيماناً، فأفرغَها في صدري ثم أطبقه، ثم أَخَذَ بيدي فعَرَجَ بي إلى السماء. فلما جاء السماءَ الدنيا [[٢]-فافتتح فقال: من هذا؟ قال: جبريلُ. قال: هل معك أحدٌ؟ قال: نَعَم، معي محمدٌ. قال: أُرْسِلَ إليه؟ قال: نعم، فافتح. فلما عَلَونا السماء الدنيا]-[٢] إذا رجلٌ عن يمينه أَسْوِدَةٌ[٣] وعن يساره أَسْوِدَة، فإذا نَظَر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَلَ شِمَاله بَكَى ـ قال: مرحباً بالنبيِّ الصالح والابنِ الصَّالح. قال: قلتُ لِجِبْرِيلَ: من هذا؟ قال: هذا آدمُ، وهذه الأَسْوِدَةُ التي عن يمينه وعن شماله نَسَمُ بَنِيه، فأهلُ اليمين هم أهلُ الجنة، والأسودة التي عن شماله هُم أهلُ النار. فإذا نظر قِبَلَ يمينه ضَحِكَ، وإذا نظر قِبَلَ شِماله بكى.

قال: ثم عَرَج بي جبريل حتى أتى السماءَ الثانيةَ، فقال لخازنها: افتح. فقال له خازِنُها مثلَ ما قال خازنُ السماءِ الدنيا فَفُتِحَ له، قال أنس: فَذَكر أنه وَجَد في السموات: آدمَ، وإدريسَ، ومُوسى، وعيسى، وإبراهيمَ، ولم يُثْبِتْ لي كيفَ منازِلُهم؟ غير أنه ذَكر أنه وَجَد آدم ـ عليه السلام ـ في السماء الدنيا، وإبراهيمَ في السماء السادِسَةِ، قال أنس: فلما مَرّ جبريل ـ عليه السلام ـ ورسولُ الله ـ ﷺ ـ بإدريس قال: مَرْحَبَاً بالنبي الصالح والأخ الصالح. قال قلت: مَن هذا يا جبريل؟ قال: هذا إدريسُ. قال: ثم مررتُ بموسى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. فقلتُ: مَن هذا؟ قال: هذا مُوسى. ثم مررتُ بِعيسى فقال: مرحباً بالنبيِّ الصالح والأخِ الصالحِ. قلتُ: من هذا؟ قال: هذا عيسى ابن مريم. قال: ثم مررتُ بإبراهيمَ فقالَ: مرحباً بالنبيِّ الصالح والابنِ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم.

قال ابنُ شهاب: وأخبرني ابنُ حَزْمٍ أَنَّ ابن عباس وأبا حَبَّة الأنصاريَّ كانا يقولان: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ثم عُرِجَ بي حتى ظهرتُ لمستوى أَسمع صَرِيفَ الأقلام. قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: فَرَضَ الله على أُمتي خمسينَ صلاةً، قال: فرجَعتُ بذلك حتى أَمُرَّ على موسى ـ عليه السلام ـ فقال موسى: ماذا فَرَضَ ربُّك على أمتك؟ قلت: فَرَضَ عليهم خمسينَ صلاةً. فقال لي موسى: راجع رَبَّكَ؛ فإن أمتك لا تُطِيق ذلك. قال: فَراجعتُ ربِّي. فوضع شطرها، فَرَجعتُ إلى موسى فأخبرتُه فقال: رَاجِعْ رَبَّك؛ فإن

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان ١٦١.

(٢) عن المسند.

(٣) مضى تفسير هذه الكلمة من قريب.

أمتك لا تُطيقُ ذلك، فَراجعتُ ربِّي فقال: هي خمس وهي خمسون. لا يُبَدَّلُ القولُ لديَّ. قال: فَرجعْتُ إلى موسى ـ عليه السلام ـ فقال: رَاجِعْ ربك. فقلت: قد استحييتُ من ربي. قال: ثم انطَلَقَ بي حتى أتَى سِدْرَةَ المنتهى، قال: فَغَشِيَها ألوانٌ لا أَدْرِي ما هي؟ قال: ثم أُدْخِلْتُ الجنة فإذا فيها جَنَابذ[١] اللؤلؤ، وإذا ترابُها المِسْكُ.

هكذا رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند[٢] أبيه. وليس هو في شيء من الكتب الستة، وقد تقدم في الصحيحين من طريق يونس، عن الزهري، عن أنس، عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ مثل هذا السياق سواء، فالله أعلم.

* * *

روايةُ بُرَيدة بن الحُصَيب الأسلمي، قال الحافظ أبو بكر البَزَّار:

حدثنا عبد الرحمن بن المتوكل ويعقوب بن إبراهيم ـ واللفظُ له ـ قالا: حدثنا أبو تُمَيلَةَ، أخبرنا الزبير بن جُنادة، عن عبد الله بن بُرَيدَةَ، عن أبيهِ قالَ: قالَ رسول الله ـ ﷺ ـ: «لما كانَ ليلةُ أُسْرِي به قال: فَأَتَى جبريلُ الصخرةَ التي ببيتِ المقدِس، فوضَع إصبعَه فيها فَخرقها، فَشَدَّ بها البراق».

ثم قال البَزَّار: لا نعلم رواه عن الزبير بن جُنادة إلا أبو تُمَيلَةَ، ولا نَعْلَمُ هذا الحديث يُـرْوَى إلا عن بُرَيدَة رضي الله عنه. وقد رواه الترمذي في التفسير من جامِعِه، عن يعقوبَ بن إبراهيم الدَّورَقِيِّ، به، وقال: غريبٌ[٣].

* * *

روايةُ جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال الإمامُ أحمدُ:

حدَّثنا يعقوبُ، حدثنا أبي، عن صالح، عن ابن شهاب قال: قال أبو سَلَمة: سَمِعتُ جابرَ بن عبد الله يُحدِّثُ: أنه سَمِع رسولَ الله ـ ﷺ ـ: لما كَذَّبَتْنِي قريشٌ حين أُسرَى بي إلى بَيْتِ المَقْدِس، قمتُ في الحِجْر فَجَلّى الله لي بيتَ المقدس، فطفقت أخبِرُهم عن آياته وأنا أنظر إليه»[٤].

أخرجاه في الصَّحِيحَين من حَدِيثِ الزُّهرِيِّ، به[٤].

وقال البيهقيُّ: أخبرنا أحمد بن الحسن القاضي، حدثنا أبو العباس الأصمُّ، حدثنا العباسُ بن محمد الدَّورِيُّ، حدثنا يعقوبُ بن إبراهيمَ، حدثنا أبي، عن صالحُ بن كيسان، عن ابن شهابٍ قال: سَمِعتُ ابنَ المسيَّبِ يقول: إن رسولَ الله ـ ﷺ ـ حين انتَهى إلى بيت المقدس، لَقِي فيه إبراهيم وموسى وعيسى، وإنه أُتِي بقدَحَين: قدحٍ من لَبَن وقَدَحِ خَمْرٍ، فنظر إليهما، ثم أخذ قَدَح اللبن. فقال له جبريلُ ـ عليه السلام ـ: هُدِيتَ الفطرةَ لو أَخَذتَ الخمر لغَوَت أُمَّتُكَ. ثم رَجَع رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى مكة، فأخبر أنه أُسْرِيَ به، فافتَتَن ناسٌ كثير كانوا قد صَلُّوا معه.

---

(١) مضى تفسير هذه الكلمة من قريب.
(٢) مسند الإمام أحمد ١٤٣/٥ ـ ١٤٤.
(٣) عارضة الأحوذي، تفسير سورة بني إسرائيل ٢٩٢/١١، ولفظ الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».
(٤) مسند أحمد ٣٧٧/٣، وفتح الباري، تفسير سورة بني إسرائيل ٣٩١/٨، ومسلم، كتاب الإيمان ١٥٦.

قال ابنُ شهابٍ: قال أبو سَلَمة بنُ عبد الرحمن: فَتجهَّز ـ أو كلمةً نحوَها ـ ناسٌ من قريش إلى أبي بكر فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعمُ أنه جاء بيتَ المقدسِ ثم رجعَ إلى مَكَّة في ليلة واحدة! فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: أوَ قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: فأشهدُ لئن كان قال ذلك لقد صَدَق. قالوا: فَتصدِّقه بأن يأتي الشامَ في ليلةٍ واحدةٍ ثم يرجعُ إلى مكة قبل أن يُصبحَ؟ قال: نعم، إني أصدقه بأبعدَ من ذلك، أُصَدِّقه بخبر السماء.

قال أبو سلمة: فبها سُمِّي أبو بكر: الصديقَ.

قال أبو سَلَمة: فسمعتُ جابر بنَ عبد الله ـ رضي الله عنه ـ يُحدِّث أنه سَمِع رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: لما كَذَّبتني قريشٌ حين أُسريَ بي إلى بيت المقدس، قُمتُ في الحِجْر، فَجَلّى الله لي بيتَ المقدس، فطفقتُ أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»[1].

* * *

رواية حُذَيفةَ بنَ اليمان رضي الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدّثنا أبو النَّضر، حدّثنا شيبانُ، عن عاصمٍ، عن زِرِّ بن حُبَيش قال: أتيتُ عَلَى حُذَيفةَ بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ وهو يُحدِّث عن لَيلةَ أُسرِيَ بمحمد ـ ﷺ ـ وهو يقولُ: فانطلقنا حتى أتينا بيتَ المقدِس ـ فلم يدخلاه ـ قال قلتُ: بل دَخلَه رسولُ الله ـ ﷺ ـ ليلتئذٍ وصَلّى فيه. قال: ما اسمُك يا أصلعُ، فإني أعرفُ وجهَك ولا أدري ما اسمُك؟ قال قلتُ: أنا زِرُّ بن حُبَيش. قال: فما عَلَّمك بأنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ صلَّى فيه ليلتئذٍ؟ قال قلت: القرآنُ يخبرني بذلك. قال: من تكلم بالقرآن فَلَجَ[2]، اقرأ. قال فقلتُ: (سُبحانَ الذي أسرَى بعبدِه ليلاً من المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى). قال: يا أصلعُ، هل تجدُ «صلّى فيه»؟ قلت: لا. قال: والله ما صلّى فيه رسولُ الله ـ ﷺ ـ ليلتَئذٍ، ولو صَلّى فيه لكُتِب عليكم صلاةً فيه، كما كُتِب عليكم صلاةً في البيت العتيق، والله ما زايلا البُراق حتى فُتِحت لهما أبواب السماء، فرأيا الجنةَ والنار وَوَعْدَ الآخرة أجمَع، ثم عادا عَوْدَهما على بَدْئِهما. قال: ثم ضحك حتى رأيت نواجِذَه. قال: وتُحدِّثُوني أنه ربَطه لا يفرُّ منه، وإنما سَخَّره له عالمُ الغيبِ والشهادةِ.

قلت: أبا عبدَ الله[3]، أيُّ دابَّةٍ البُراقُ؟ قال: دابة أبيضُ طويلٌ هكذا، خَطْوُه مَدّ البَصرِ[4].

ورواه أبو داود الطيالسي، عن حماد بن سلمة، عن عاصم، به. ورواه الترمذي والنسائي في التفسير، من حديث عاصم ـ وهو ابن أبي النَّجود ـ به، وقال الترمذي: حَسَنٌ صَحِيحٌ[4].

وهذا الذي قاله حُذَيفةُ ـ رضي الله عنه ـ نفيٌ، وما أثبته غيره عن رسول الله ـ ﷺ ـ من رَبْطِ الدابة بالحَلْقَةِ ومن الصلاة بالبيت المقدّس، مما سبق وما سيأتي مقدَّمٌ على قوله، والله أعلم[5].

* * *

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/٣٥٩ ـ ٣٦٠.

(٢) فَلَج: ظفر، ويقال: فَلَج بحجَّته: أحسن الإدلاء بها فَغَلب خصمه.

(٣) أبو عبدالله كنيةُ حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٤) مسند أحمد ٥/٣٨٧، ومسند أبي داود الطيالسي ٥٥، وعارضة الأحوذي، أبواب التفسير ١١/٣٠٤ ـ ٣٠٥.

(٥) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٢/٣٦٥.

روايةُ أبي سعيد سَعْدِ بن مالك بن سِنَانٍ الخدريِّ رضي الله عنه:

قال الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب «دلائل النبوة»: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أبو بكر يحيى بن أبي طالب، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، أخبرنا أبو مَحَمَّد راشِد الحمّاني، عن أبي هارونَ العَبْدي، عن أبي سَعِيد الخدري ـ رَضِي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال له أصحابُه: يا رسولَ الله، أخبرنا عن ليلة أسري بك فيها، قال: قال الله عَزَّ وجلَّ: ﴿ سبحانَ الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾، قال: فأخبَرَهُم قال: «بينا أنا نائم عَشِيًّا(١) في المسجد الحرام، إذ أتاني آتٍ فأيقظني، فاستيقظتُ فلم أَرَ شيئاً، وإذا أنا بكهيئة خيالٍ، فأتبعتُه بَصَري حتى خرجت من المسجد الحرام، فإذا أنا بدابَّةٍ أدنى شُبْهَةٍ بدوابكم هذه، بغالكم هذه، مضطرب(٢) الأذنين، يقال له: البراقُ. وكانت الأنبياءُ ـ عليهم السلام ـ تركبه قبلي، يَقَعُ حافره عند مَدِّ بصره، فركبته. فبينما أنا أسير عليه إذ دعاني داعٍ عن يمين: يا محمد، انْظِرْني أسألْكَ، يا محمدُ، انظِرْني أسألك. فلم أجبه ولم أُقِمْ عليه، فبينما أنا أسير عليه إذ دَعَاني داعٍ عن يساري: يا محمد، انظِرْني أسألُك، فلم أجبه ولم أُقِم عليه. فبينما أنا أسير، إذ أنا بامرأة حاسرةٍ عن ذراعيها، وعليها من كل زينة خَلَقَها الله، فقالت: يا محمد، انظرني أسألك. فلم ألتفت إليها ولم أُقِم عليها، حتى أتيت بيت المقدس، فأوثقت دابَّتي بالحَلْقَةِ التي كانت الأنبياءُ تُوثِقُها بها. ثم أتاني جبريل ـ عليه السلام ـ بإناءين: أحدهما خمر، والآخر لَبَن، فشربت اللبن، وتركت الخمرَ، فقال جبريل: أصبت الفطرة [أما إنَّك لو أخذت الخمر غوت أُمَّتك]. فقلت: الله أكبر، الله أكبر. فقال جبريل: ما رأيتَ في وَجْهِكَ(٣) هذا؟ قال: فقلت: بينما أنا أسير، إذ دَعَاني داعٍ عن يميني: يا محمد، انظرني أسألك. فلم أجبه ولم أُقِم عليه. قال: ذاك داعي اليهود، أما إنك لو أجبتَه ـ أو: وقفت عليه ـ لتهوّدت أمتُك. بينما أنا أسير، إذ دعاني داعٍ عن يساري قال: يا محمدُ، انظرني أسألك. فلم ألتفت إليه ولم أُقِم عليه. قال: ذاك داعي النصارى، أما إنَّك لو أجبتَه لتنَصَّرت أمتك. قال: فبينما أنا أسير إذا أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها، عليها من كل زينةٍ خَلَقها الله تعالى تقول: يا محمد، انظِرْني أسألك. فلم أجبها ولم أُقِمَ عليها. قال: تلك الدنيا، أما إنك لو أجبتها أو أقمت عليها، لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة.

قال: ثم دخلت أنا وجبريل بيت المقدس، فصلى كل واحد منا ركعتين.

ثم أُتِيت بالمعراج الذي تَعْرج عليه أرواح بني آدم(٤)، فلم يَرَ الخلائقُ أحسَنَ من المعراج، أما رأيتَ الميِّت حين يَشُقُّ(٥) بَصَرَه طامحاً إلى السماءِ، فإنما يَشُقُّ بَصَرَه طامحاً إلى السماء عَجَبُه بالمعراج. قال: فَصَعِدت أنا وجبريل، فإذا أنا بمَلَكٍ يقال له إسماعيلُ، وهو صاحبُ سماء الدنيا، وبين يديه سبعُون ألفَ مَلَكٍ، مع كل ملك جُنْدُه مائةُ ألفِ مَلَك، قال: وقال الله: ﴿ وما يعلَم جُنُودَ رَبِّك إلا هو ﴾ ـ فاستفتَح جبريلُ بابَ السماء، قيل: من هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: ومن مَعَكَ؟ قال: محمد. قيل: أو قد بُعِث إليه؟ قال: نعم. فإذا

(١) في سنن البيهقي: عشاء.
(٢) في نسخة: «بدوابكم هذه بغالكم غير أنه مضطرب...».
(٣) أي: جهتك.
(٤) في نسخة: أرواح الأنبياء.
(٥) أي: ينفتح بصره. ورواية الطبري: كيف يُحِدُّ بصره.

أنا بآدَمَ كهيئتِهِ يومَ خلقه الله تعالى على صورته (لم يتغيّر منه شيء)(١) فإذا هو تُعْرَض عليه أرواح ذُرِّيته المؤمنين، فيقول: روحٌ طيبة ونفسٌ طيبة، اجعلوها في علّيين، ثم تعرض عليه أرواحُ ذريته الفُجّار، فيقول: روحٌ خبيثة ونفسٌ خبيثة، اجعلوها في سِجّين، (١- فقلت: يا جبريلُ، من هذا؟ قال: هذا أبوك آدم عليه السلام فسلَّمَ عليّ ورحَّبَ بي فقال: مرحباً بالابن الصالح -١).

ثم مضيتُ هُنَيَّةً، فإذا أنا بأَخْونَةٍ عليها لحم مُشَرَّحٌ ليس يَقْرَبها أحدٌ، وإذا أنا بأخْوِنَةٍ أخرى عليها لحم قد أَرْوَحَ وأنتَنَ، عندها أناس يأكلون منها، قلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أُمَّتِكَ، يتركون الحلال ويأتون(٢) الحرام.

قال: ثم مَضَيتُ هُنَيَّةً(٣) فإذا أنا بأقوام بطونُهم أمثالُ البيوت، كُلَّما نَهَضَ أحدُهم خرَّ يقولُ: اللهُمَّ، لا تُقِمِ الساعةَ، قال: وهم على سَابِلَةِ(٤) آل فرعون، قال: فتجيءُ السابلةُ(٤) فتطَؤُهم، قال: فَسَمِعتُهم يَضِجُّون إلى الله عزّ وجلّ، قال: قلتُ: يا جبريلُ، من هؤلاءِ؟ قال: هؤلاءِ من أُمَّتِك ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يَقُومُ الذي يَتَخَبَّطُه الشيطانُ من المس﴾.

قال: ثم مَضَتْ هُنَيَّةٌ(٣) فإذا أنا بأقوام مشافِرُهم كمشافِرِ الإبل، قال فَتُفتَحُ أفواهُهُم ويُلْقَمُون من ذلك الجمر، ثم يخرُج من أسافلهم. فسمعتهم يَضِجُّون إلى الله عزَّ وجلّ. فقلتُ: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك ﴿الذين يأكلون أموالَ اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾. قال: ثم مَضَتْ هُنَيَّةٌ فإذا أنا بنساء يُعَلَّقن بثُدُيِّهِنَّ، فسمِعتُهنَّ يضجِجْن إلى الله عزّ وجلّ، قلت: يا جبريل، من هؤلاء النساء؟ قال: هؤلاء الزناة من أُمتِّكَ.

قال: ثم مَضَتْ هُنَيَّةٌ فإذا أنا بأقوام يقطع من جُنُوبهم اللحمُ، فَيُلْقَمونَ، فَيُقال له: كُلْ كما كنتَ تأكلُ من لحم أخيك. قلتُ: يا جبريلُ، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الهمازون من أمتك اللمّازُونَ.

قال: ثم صَعِدْنا إلى السماء الثانية، فإذا أنا بِرَجُلٍ أحسنَ ما خلق الله عَزّ وجلّ، قد فَضَلَ الناسَ بالحسن كالقمر ليلةَ البَدْرِ على سائر الكواكِبِ، قلتُ: يا جبريلُ، من هذا؟ قال: هذا أَخُوكَ يوسفُ ومعه نفر من قومه، فَسَلَّمت عليه، وسَلَّم عليّ.

ثم صَعِدتُ إلى السماء الثالثة، فإذا أنا بيحيى وعيسى عليهما السلام، ومعهُما نَفَرٌ من قومهما، فسلمتُ عليهما، وسَلَّما عليَّ.

ثم صَعِدتُ إلى السماءِ الرابعَةِ، فإذا أنا بإدريسَ ـ عليه السلام ـ قد رفعه الله ـ عزّ وجلّ ـ مكاناً عَلِيًّا، فسلمت عليه، وسَلَّم عليَّ.

قال: ثم صَعِدتُ إلى السماء الخامسة فإذا بهارون ـ عليه السلام ـ ونصف لحيته بيضاءُ ونصفُها سوداءُ، تكادُ لحيتُه تصيب سُرَّته من طولها، قلتُ: يا جبريلُ، من هذا؟ قال: هذا المحبَّب في قومه، هذا هارونُ بن عمرانَ ومعه نَفَرٌ من قومه، فسلمتُ عليه، وسَلَّم عليّ.

---

(١) عن هامش نسخة.
(٢) في نسخة: ويأكلون.
(٣) في نسخة: هُنَيهة. وكلاهما بمعنى قليل من الزمان.
(٤) السابلة: الطريق المسلُوك. والسابلة أيضاً: المارُّون.

ثم صَعِدتُ إلى السماءِ السَّادِسَةِ، فإذا أنا بموسى بن عمران ـ عليه السلام ـ رجلٌ آدمُ كثيرُ الشعر، لو كانَ عليه قميصان لنفذَ شعرُه دون القميص، وإذا هُوَ يقولُ: يزعمُ الناس أني أكرمُ على اللهِ من هذا، بل هذا أكرمُ على الله تعالى منِّي. قال: قلتُ: يا جبريلُ، مَنْ هذا؟ قال: هذا أخوك موسَى بنُ عمران ومعه نَفَرٌ من قومه، فَسَلَّمْتُ عليه، وسلَّم عليَّ.

ثم صَعِدتُ إلى السماء السابعة، فإذا أنا بأبِينَا إبراهيمَ خليلِ الرَّحمن ـ عليه السلام ـ ساندَ ظهرِه إلى البيتِ المعمور كأحسن الرجال، قلت: يا جبريلُ، من هذا؟ قال: هذا أبوك خليلُ الرحمن ومعه نَفَر من قومه، فسلَّمتُ عليه، وسَلَّم عليَّ، وإذا أنا بأمتي شطرين، شطرٌ عليهم ثيابٌ بيضٌ كأنها القراطيس، وشطر عليهم ثياب رُمْدٌ، قال: فدخلتُ البيتَ المعمور، ودَخَل معي الذين عليهم الثياب البيض، وحُجِبَ الآخرون الذين عليهم الثيابُ الرُمْدُ، وهم على خير. فَصَلَّيت أنا ومن مَعِي في البيت المعمور، ثم خرجت أنا ومن معي، قال: والبيتُ المعمورُ يُصلِّي فيه كُلَّ يوم سبعون ألف مَلَك، لا يَعُودُون فيه إلى يوم القيامة.

قال: ثم دُفِعْتُ إلى سِدْرَة المنتهى، فإذا كُلُّ ورقة منها تكاد أن تغطِّي هذه الأمة، وإذا فيها عينٌ تجري يقال لها: سَلْسَبيل، فينشقُّ منها نهران، أحدهما: الكوثر، والآخر يقال له: نهرُ الرحمةِ. فاغتسلتُ فيه، فغُفِرَ لي ما تَقَدَّم من ذنبي وما تأخر.

ثم إني دُفِعتَ إلى الجنة، فاستقبلتني جارية، فقلت: لمن أنتِ يا جارية؟ فقالت: لزيد بن حارثة، وإذا أنا بأنهار من ماءٍ غير آسن، وأنهارٍ من لَبَن لم يَتَغيَّر طعمُه، وأنهارٍ من خَمْرٍ لذة للشاربين، وأنهارٍ من عَسَل مُصَفًّى، وإذا رُمَّانُها كأنه الدِّلاء عِظَماً، وإذا أنا بطيرها كأنها بُخْتِيِّكم[1] هذه، فقال عندها ﷺ: «إن الله تَعالى قد أعدَّ لعباده الصالحين ما لا عين رَأَتْ، ولا أذنٌ سَمِعَت، ولا خَطَر على قلب بشر.

قال: ثم عُرِضَت عليَّ النارُ، فإذا فيها غضب الله وزَجْرُه ونقْمَتُه، لو طُرِح فيها الحجارة والحديد لأكلتها، ثم أُغْلِقَتْ دوني.

ثم إني دُفعت إلى سدْرَة المنتهى، فَتَغشَّاني، فكان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى، قال: ونَزَل على كل ورقة ملك من الملائكة، قال: وفُرِضَتْ عليَّ خمسون صلاةً. وقال: لك بكل حسنة عشر، إذا هَمَمْتَ بالحسنة فلم تَعْمَلْها كُتِبَتْ لك حسنةٌ، فإذا عملتها كُتِبت لك عشراً. وإذا هَمَمْتَ بالسيئة فلم تَعْمَلها لم يُكتَب عليك شيء، فإن عملتها كُتبَتْ عليك سيئةٌ واحدةٌ.

ثم دُفِعتُ إلى موسى ـ عليه السلام ـ فقال: بِمَ أمرك ربُّك؟ قلت: بخمسين صلاة. قال: ارجعِ إلى ربك فاسأله التخفيفَ لأمتك، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، ومتى لا تُطِيقه تكفُر. فرجعت إلى ربي ـ عز وجل ـ فقلت: يا ربِّ، خَفِّف عن أمتي، فإنها أضعفُ الأُمَمِ. فوضع عني عشراً، وجعلها أربعين. فما زلتُ أختلف بين موسى وَرَبِّي، ـ عز وجلّ ـ كُلَّما أتيت عليه قال لي مثل مَقالته، حتى رجعتُ إليه فقال لي: بم أُمِرْتَ؟ فقلتُ: أُمِرْتُ بعشر صلوات. قال: ارجع إلى ربك ـ عزّ وجلّ ـ فاسأله التخفيف لأمتك. فرجعتُ إلى ربي فقلت: أيْ ربِّ، خَفِّف عن أمتي فإنها أضعفُ الأمم. فوضَعَ عني خمساً، وجعلها خمساً. فناداني مَلَكٌ عندها: تَمَّمتُ فَرِيضتي، وخَفَّفتُ عن عبادي، وأعطيتهم بكُلِّ حسنة عَشرَ أمثالها. ثم رَجعتُ إلى موسى فقال: بم أُمِرْتَ؟ فقلت: بخمس صلوات. قال: ارجعْ إلى رَبِّكَ فاسأله التخفيف، فإنه لا يَئُوده شيء، فاسأله التخفيفَ لِأُمَّتِكَ. فقلتُ: رجعتُ إلى ربِّي حتى استحييته.

(١) البختيّ: واحدةُ البُخت، وهي الإبل الخراسانية، وهي طِوالُ الأعناق.

ثم أصبح بمكة يخبرهم بالعجائب: إني أَتيتُ البارحة بيتَ المقدس، وعُرِج بي إلى السماء، ورأيتُ كذا ورأيتُ كذا. فقال أبو جهل ـ يعني ابن هشام ـ: ألا تَعجَبُون مما يقول محمد؟ يزعم أنه أتى البارحة بيتَ المقدِسِ، ثم أصبح فينا، وأحدُنا يضربُ مَطِيَّته مُصعِدةً شهراً ومُقْفِلَةً شهراً، فهذا مَسِيرَةُ شهرين في ليلة واحدة! قال: فأخبرَهم بعيرٍ لقُرَيشٍ: لما كُنتُ في مُصْعَدِي رأيتُها في مكان كذا وكذا، وأنها نَفرت، فلما رَجَعْتُ رأيتها عند العقبة. وأخبرهم بكل رجل وبعيره كذا وكذا، ومتاعه كذا وكذا. فقال أبو جهل: يُخبِرُنا بأشياء. فقال رجلٌ من المشركين: أنا أعلم الناس ببيت المقدس، وكيفَ بناؤُه؟ وكيف هيئتُه؟ وكيف قُربُه من الجَبَل؟ فإن يَكُ محمدٌ صادقاً فسأخبركم، وإن يكُ كاذباً فسأخبركم. فجاء ذلك المشرك فقال: يا محمد، أنا أعلم الناس ببيتِ المقدسِ، فأخبرني: كيف بناؤُه؟ وكيفَ هيئتُه؟ وكيف قربُه من الجبل؟ قال: فَرُفِع لرسولِ الله ـ ﷺ ـ بيتُ المقدس من مقعده، فَنَظر إليه كَنَظر أحدِنا إلى بيته: بناؤُه كذا وكذا، وهيئتُه كذا وكذا، وقربه من الجبل كذا وكذا. فقال الآخر: صَدَقت. فَرَجَع إلى أصحابه فقال: صدق محمد فيما قال، أو نحو هذا من الكلام[١].

وكذا رواه الإمام أبو جعفر بن جَرِير بطوله، عن محمد بن عبد الأعلى، عن محمد بن ثَور، عن معمر، عن أبي هارون العَبْدي. وعن الحسن بن يحيى، عن عبد الرزَّاق، عن معمر، عن أبي هارون العبدي، به. ورواه أيضاً من حديث محمد بن إسحاق: حدثني رَوح بن القاسم، عن أبي هارون، به نحو سياقه المتقدم[١].

ورواه ابنُ أبي حاتم، عن أبيه، عن أحمدَ بن عَبْدَة، عن أبي عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد، عن أبي هارون العَبْدي، عن أبي سَعيد الخُدري ـ رضي الله عنه ـ فذكره بسياق طويلٍ حَسَن أنيق، أجودَ مما ساقه غيره، على غرابته وما فيه من النَّكارة.

ثم ذكره البيهقي أيضاً من رواية نُوحِ بن قيسٍ الحُدّاني وهُشَيم ومعمر، عن أبي هارون العَبْدِيِّ ـ واسمه عُمارة بن جُوَين ـ وهو مُضَعَّفٌ عند الأئمة[٢].

وإنما سقنا حديثه ها هنا لما في حديثه من الشواهد لغيره، ولما رواه البيهقي:

أخبرنا أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن، أنبأنا أبو نُعَيم أحمد بن محمد بن إبراهيم البزاز، حدثنا أبو حامد بن بلال، حدثنا أبو الأزهر، حدثنا يزيد[٣] بن أبي حَكِيم قال: رأيت في النوم رسولَ الله ـ ﷺ ـ قلت: يا رسول الله، رجل من أمتك يقال له: سفيان الثوري، لا بأس به؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: لا بأس به ـ حدثنا عن أبي هارون العَبْدِي، عن أبي سَعِيد الخُدْرِيِّ، عنك ليلةَ أسريَ بك أَنَّك قلتَ: «رأيتُ في السماء. . .»، فحدّثته بالحديث؟ فقال لي: نعم. فقلت له: يا رسول الله، إن ناساً من أمتك يحدثون عنك في السُّرَى بعجائب؟ فقال لي: ذلك حديثُ القُصَّاصِ[٤].

* * *

رواية شَدّاد بن أوس، رضي الله عنه:

قال الإمام أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل التِّرمِذيُّ: حدثنا إسحاقُ بن إبراهيم بن العلاء بن الضَّحَّاك الزُّبيدي، حدثنا عمرو بن الحارث، عن عبد الله بن سالم الأشعري، عن محمد بن الوليد بن عامر الزُّبيدِيِّ،

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/٣٩٠ ـ ٣٩٦. وتفسير الطبري ١٥/١١ ـ ١٤.
(٢) دلائل النبوة ٢/٣٩٦.
(٣) في الدلائل: جابر بن أبي حكيم.
(٤) دلائل النبوة للبيهقي ٢/٤٠٥.

حدثنا الوليد بن عبد الرحمن، عن جُبير بن نُفير، حدثنا شَدّادُ بن أَوْسٍ قال: قلنا: يا رسولَ الله، كيف أُسْرِي بك؟ قال: صَلَّيتُ لأصحابي صلاة العتمة بمكة مُعتِماً، قال: فأتاني جبريل عليه السلام بدابة أبيضَ، أو قال: بيضاء، فوق الحمار ودون البغل، فقال: اركب. فاستَصْعَبَتْ عليّ، فدارها[1] بأذنها، ثم حملني عليها. فانطلقَتْ تَهْوِي بنا يقع حافرها حيث أَدْرك طَرْفُها، حتى بلغنا أرضاً ذاتَ نخل، فأنزلني فقال: صَلِّ. فصليتُ، ثم ركبنا فقال: أتدري أين صَلَّيتَ؟ قلت: الله أعلم. قال: صليتَ بيثرب، صليت بطَيْبَة. فانطلقَتْ تَهْوِي بنا يقع حافرها حيثُ أَدْرَكَ طَرْفُها. ثم بلغنا أرضاً فقال: انزل فنزلتُ، ثم قال: صَلِّ. فصليتُ، ثم ركبنا فقالَ: أتدري أين صَلَّيتَ؟ قلت: الله أعلمُ. قال: صَلَّيت بمدين، صليت عند شَجَرة موسى - عليه السلام -. ثم انطلقت تَهْوِي بنا يقع حافرها حيث أدرك طَرْفُها، ثم بلغنا أرضاً، بَدَت لنا قصور، فقال: انزل. فنزلتُ، فقال: صَلِّ. فصليتُ، ثم رَكِبْنَا فقال: أَتَدْرِي أين صليتَ؟ قلتُ: الله أعلم. قال: صَلَّيت ببيت لحم حيثُ وُلِد عيسى المسيحُ ابن مَرْيَم. ثم انطلق بي حتى دخلنا المدينةَ من بابها اليماني، فأتى قبلةَ المسجدِ، فَرَبط فيه دابَّته، ودخلنا المسجد من باب فيه تميل الشمس والقمر، فصليتُ من المسجد حيث شاء الله، وأخذني من العطش أشدُّ ما أخذني، فَأُتِيتُ بإناءَين، في أحدهما لبن وفي الآخر عسل، أُرسِلَ إليَّ بهما جميعاً، فَعَدلْتُ بينهما، ثم هداني الله تعالى، فأخذت اللَّبَن فَشَرِبْتُ حتى قَرَعْتُ به جَبِيني، وبين يدي شيخ متكىء على مَثْوَاة[2] له، فقال: أخذ صاحبك الفِطْرَةَ، إنه ليُهْدَى. ثم انطلق بي حتى أتينا الوادي الذي فيه المدينة، فإذا جَهَنَّم تنكشِفُ عن مثل الزَّرابي[3]، قلت: يا رسولَ الله، كيف وجدتَها؟ قال: مثل الحَمَّة[4] السَّخِينَة، ثم انصرفَ بي، فَمررنا بِعِير لقُريش بمكان كذا وكذا، قد أَضَلُّوا بعيراً لهم قد جَمَعه فلان، فسلمت عليهم، فقال بعضُهم: هذا صوتُ محمد.

ثم أتيت أصحابي قبل الصُّبْحِ بمكة، فأتاني أبو بكر - رضي الله عنه - فقال: يا رسولَ الله، أين كُنتَ الليلةَ؟ فقد التمستك في مَنَامِك[5]. فقال: عَلِمْتَ أني أتيتُ بيتَ المقدِسِ الليلة؟ فقال: يا رسولَ الله، إنه مسيرةُ شهرٍ فَصِفْه لي. قال: فَفُتِح لي صراطٌ كأني أنظر إليه، لا يسألني عن شَيءٍ إلا أنبأتُه عنه. قال أبو بكر - رضي الله عنه -: أشهد أنك رسول الله. فقال المشركون: انظروا إلى ابن أبي كبشة، يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلةَ! قال: فقال: إن من آيةِ ما أقولُ لكم أني مَرَرْتُ بعير لكم بمكان كذا وكذا، قد أَضَلُّوا بعيراً لهم، فَجَمَعه فلان، وَإنَّ مَسِيرهم ينزلون بكذا ثم بكذا، ويأتونكم يومَ كذا وكذا، يَقدُمهم جَمَلٌ آدم، عليه مِسْحٌ أسود وغِرَارتان سوداوان. فلما كان ذلك اليومُ أشرفَ الناسُ ينظرون، حتى كان قريبٌ من نصف النهار، حتى أقبلت العِيرُ يَقدُمُهم ذلك الجملُ، الذي وَصَفه رسولُ الله ﷺ.

هكذا رواه البيهقي[٦] من طريقين، عن أبي إسماعيل الترمذي، به. ثم قال بعد تمامه: «هذا إسناد صحيح، وروى ذلك مفرقاً في أحاديث غيره، ونحن نذكُرُ من ذلك إن شاءَ الله ما حَضَرنا[٦]». ثم ساق أحاديثَ كثيرةً في الإسراء كالشاهد لهذا الحديث.

---

(١) كذا ومثله في الدلائل. ولعل المعنى: جعلها تدور ممسكاً بأذنها.

(٢) كذا في الأصول. وفي مطبوعة الدلائل: مثراة.

(٣) الروابي: جمع رابية، وهي ما ارتفع من الأرض. وفي الدلائل: الزرابي، ومثله في بعض النسخ.

(٤) الحَمَّة: كل عين ماءٍ حارَّة.

(٥) في الدلائل: مكانك.

(٦) الدلائل ٢/ ٣٥٥ ـ ٣٥٧.

وقد روى هذا الحديثَ عن «شدّاد بن أوس» بطوله الإمامُ أبو محمد عبدُ الرحمن بنُ أبي حاتم في تفسيره، عن أبيه، عن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزُّبيدِيِّ، به. ولا شكَّ أنَّ هذا الحديث ـ أعني الحديث المرويَّ عن شَدَّاد بن أوس ـ مشتملٌ على أشياءَ منها ما هو صحيحٌ كما ذكره البيهقيُّ، ومنها ما هو مُنْكَر، كالصلاة في بيت لَحْمٍ، وسُؤَالِ الصدِّيقِ ـ رضي الله عنه ـ عن نَعْتِ بيت المقدس، وغير ذلك، والله أعلم.

* * *

روايةُ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال الإمام أحمد:

حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جريرٌ، عن قابوسَ، عن أبيه قال: حَدَّثنا ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: ليلةَ أسريَ بنبيِّ الله ـ ﷺ ـ دخل الجنة، فَسَمِعَ في جانبها وَجْساً(١) فقال: يا جبريلُ، ما هذا؟ قال: هذا بلالٌ المؤذن. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ حين جاء إلى الناس: قد أفلح بلال، قد رأيت له كذا وكذا. قال: فلقيه موسى ـ عليه السلام ـ فَرَحَّب به، وقال: مرحباً بالنبيِّ الأميِّ، قال: وهو رَجُلٌ آدم طويل، سَبْط(٢) شعرُه مع أذنيه أو فوقهما، فقال: من هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا موسى. [قال: فمضى، فَلَقِيه عيسى فرحَّب به، وقال: من هذا جبريل؟ قال: هذا عيسى](٣) قال: فمضى، فلقيه شَيخٌ جليل مُتهيِّبٌ(٤) فرحَّب به وسلّم عليه، وكلُّهم يُسَلِّم عليه، قال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم عليه السلام. قال: ونظر في النار، فإذا قومٌ يأكلون الجِيَفَ، قال: مَن هؤلاء يا جبريلُ؟ قال: هؤلاءِ الذينَ يأكُلون لحومَ الناس. ورأى رجلاً أحمَرَ أزرَقَ جدًّا، قال: من هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا عاقِرُ الناقةِ. قال: فلما أتى النبي ـ ﷺ ـ المسجد الأقصى قام يصلي، [فالتفَتَ ثم التفَت](٥) فإذا النبيُّونَ أجمعون يُصَلُّون معه. فلما انصرف جيء بقَدَحين، أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال، في أحدهما لبن وفي الآخر عَسَلٌ، فأخذ اللبن فَشرِب منه، فقال الذي كان معه القدح: أَصَبْتَ الفِطْرَةَ(٦). إسناد، صحيح، ولم يخرجوه.

طريق أخرى، وقال الإمام أحمد:

حدثنا حسن، حدثنا ثابت أبو زيد، حدثنا هلال، حَدَّثني عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أُسرِيَ بالنبي ـ ﷺ ـ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته فَحَدَّثَهم بمسيره وبِعَلامة بيت المقدس وبعيرهم، فقال ناس: نحنُ لا نُصدِّق محمداً بما يقول! فارتدُّوا كفاراً، فضربَ الله رقابهم مع أبي جهل، قَبَّحهم الله. وقال أبو جهل ـ قَبَّحه الله ـ يُخَوِّفنا محمد بشجرة الزقوم، هاتوا تَمراً وزُبداً فتَزَقَّموا(٧). ورأى الدجالَ في صورته رُؤيا عين ليس برؤيا منام، وعيسى وموسى وإبراهيم ـ عليهم السلام ـ فَسُئِل النبي ـ ﷺ ـ عن الدجال، فقال: رأيته فَيلَمَانياً(٨) أقمَر هِجَاناً، إحدى عينيه قائمةٌ(٩) كأنها كوكب دُرِّي، كأن شعر رَأْسِه أغصانُ

---

(١) الوَجس: الصوت الخفي. وفي النسخ: وخشاً.

(٢) السَّبْطُ من الشعر: المسترسل غير الجَعْد.

(٣) عن المسند.

(٤) في المسند: مهيب.

(٥) عن المسند.

(٦) مسند أحمد ١/٢٥٧.

(٧) تَزَقَّم الخبز ونحوه: ابتلعه.

(٨) الفيلمانيّ: نسبة إلى الفَيْلَم، وهو العظيم الجُثَّة. والأقمر: الشديد البياض. والهجان: الأبيض.

(٩) أي: باقية في موضعها صحيحة، وقد ذهب إبصارها.

شَجَرَةٍ. ورأيت عيسى أبيض، جَعْدَ الرأس، حديدَ البصر، مبَطّن[١] الخَلْق. ورأيت موسى ـ عليه السلام ـ آسحمَ[٢] آدَمَ، كثير الشعر، شديد الخَلْق. ونظرت إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فلم أنظر إلى إرْب[٣] منه إلا نظرت إليه مني، حتى كأنه صاحبكم. قال جبريل: سَلِّم على مالك. فسلمتُ عليه»[٤].

ورواه النسائي من حديث أبي زيد ثابت بن يزيد، عن هلال ـ وهو ابن خَبَّاب ـ به، وهو إسنادٌ صَحِيحٌ.

طريق أخرى، وقال البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو بكر الشافعي، أنبأنا إسحاق بن الحسن، حدثنا الحُسَين بن محمد، حدثنا شيبانُ، عن قتادَةَ، عن أبي العالية قال: حدثنا ابنُ عَمِّ نبيكم ـ ﷺ ـ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: رأيتُ ليلةَ أُسريَ بي موسى بنَ عمران، رَجُلاً طُوالاً جَعْداً، كأنه من رجال شَنُوءَةَ، ورأيت عيسى ابنَ مَرْيَم، مربوع الخَلْقِ، إلى الحمرة والبَيَاض، سَبْطَ الرأس. وأُرِيَ مالكاً خازن جَهَنَّم والدجال، في آيات أراهُنَّ الله إيَّاه، قال: ﴿ فلا تَكُن في مِرْيَةٍ من لقائِهِ ﴾ ـ فكان قتادةُ يُفَسِّرها: أن نبيَّ الله ـ ﷺ ـ قد لقي موسى، ـ عليه السلام ـ ﴿ وجعلناه هُدًى لِبَنِي إسرائيلَ ﴾، قال: جعل الله موسى هدى لبني إسرائيل[٥].

رواه مسلم في الصحيح عن عَبْدِ بن حُمَيد، عن يُونُس بن مُحمَّد، عن شيبانَ. وأخرجاه من حديث شعبة، عن قتادة مختصراً[٥].

طريقٌ أخرى، قال البيهقيُّ: أخبرنا علي بن أحمد بن عَبْدان، أنبأنا أحمد بن عُبَيد الصَّفّار، حدثنا دُبَيس المُعَدِّلُ، حدثنا عَفَّان قال: حدثنا حَمَّاد بن سَلَمة، عن عطاءِ بن السَّائبِ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: لما أُسْرِي بي مرَّت بي رائحةٌ طَيِّبَةٌ، فقلت: ما هذه الرائحةُ؟ قالوا: ماشِطةُ بنتِ فِرْعَون وأولادُها، سقط مُشطُها من يدها، فقالت: باسم الله. فقالت ابنة فرعون: أبي؟ قالت: رَبِّي وربُّك وربُّ أبيك. قالت: أَوَلَكِ ربٌّ غيرُ أبي؟ قالت: نَعم، رَبِّي وربُّك وربُّ أبيك الله. قال: فدعاها فقال: أَلَكِ ربٌّ غيري؟ قالت: نعم، رَبِّي وربُّك الله عَزَّ وجلّ. قال: فأمر بِبُقَرَةٍ من نحاس فَأُحْمِيَتْ، ثم أَمَر بها أَنْ تُلْقَى فيها، قالت: إن لي إليك حاجةً. قال: ما هي؟ قالت: تَجمَعُ عظامي وعظامَ وَلَدِي في موضع. قال: ذاك لك، لما لَكِ علينا من الحقِّ. قال: فأمر بهم فَأُلقُوا واحداً واحداً، حتى بَلَغَ رَضِيعاً فيهم، فقال: قَعِي يا أُمَّاهُ ولا تَقاعَسي، فإنّا على الحقِّ. قال: وتَكَلَّم أربعةٌ وهم صغارٌ: هذا، وشاهدُ يوسف، وصاحِبُ جُريج، وعيسى ابن مَرْيَم عليه السلام[٦]. إسناد لا بأس به، ولم يخرجوه.

طريق أخرى، وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر وَرَوْحُ ـ المَعْنَى ـ قالا: حدثنا عوف، عن زُرارة بن أَوْفَى، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: لما كان ليلةَ أُسريَ بي فَأَصبحْت بمكة، فَظِعْتُ[٧] وعرفتُ أن الناسَ مُكَذِّبِيَّ. فقعد[٨] معتزلاً حزيناً، فمر[٨] به عدو الله أبو جهل ـ قبحه

(١) أي: ضامر البطن.

(٢) أي: أسود.

(٣) الإرْبُ: العضو.

(٤) مسند أحمد ٣٧٤/١.

(٥) دلائل النبوة ٣٨٥/٢ ـ ٣٨٦، ومسلم، كتاب الإيمان ١٥١ ـ ١٥٢ ـ وفتح الباري، كتاب أحاديث الأنبياء ٤٢٨/٦ ـ ٤٢٩، ومسلم، كتاب الإيمان ١٥١.

(٦) دلائل النبوة للبيهقي ٣٨٨/٢ ـ ٣٨٩.

(٧) لفظ المسند: قَطِعتُ بأمري.

(٨) في نسخة: فقعدت . . . فمرَّ بي.

الله - فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزىء: هل كانَ من شيءٍ؟ فقال له رسولُ الله - ﷺ -: نعم. قال: وما هو؟ قال: إني أُسرِيَ بي الليلة. قال: إلى أينَ؟ قال: إلى بيتِ المَقْدِس. قال: ثم أَصْبَحتَ بين ظهرانينا؟! قال: نعم. قال: فلم يُرِه أنه يكذبه مخافةَ أن يَجْحَدَه الحَديثَ إن دعا قومه إليه. فقال: أرأيتَ إن دَعَوتُ قومَكَ إليك أتحدِّثُهم بما حدثتني؟ فقال رسولُ الله - ﷺ -: نعم. قال: هيا معشَرَ بني كعب بن لُؤَيٍّ. قال: فَانْفَضَتْ(١) إليه المجالسُ وجاءوا حتى جلسوا إليهما. قال: حَدِّثْ قومَكَ بما حَدَّثتني. فقال رسول الله - ﷺ -: إنّي أُسرِيَ بي الليلةَ، فقالوا: إلى أينَ؟ قال: إلى بيتِ المقدس. قالوا: ثم أصبحتَ بين ظهرانينا؟! قال: نعم. قال: فمن بين مُصَفِّقٍ، ومن بين واضعٍ يدَه على رأسهُ مُتعجِّباً للكذب - زَعَم - قالوا: وتستطيعُ أن تنعَتَ المسجِدَ؟ - وفي القومِ مَن قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد - قال رسول الله - ﷺ -: فذهبتُ أنعتُ، فما زلتُ أنعتُ حتى التبسَ عليَّ بعضُ النعتِ - قال: فجيءَ بالمسجدِ وأنا أنظُرُ إليه، حتى وُضِع دون دار عقيل - أو: عقال - فنعتّه، وأنا أنظر إليه - قال: وكان مع هذا نعت لم أَحفَظْهُ - يقول(٢) عوف - قال: فقال القومُ: أما النعتُ فوالله لقد أصابَ»(٣).

وأخرجه النسائي من حديث عوف بن أبي جَمِيلة، وهو الأعرابيُّ، به. ورواه البيهقيُّ من حديثِ النَّضْرِ بن شميل وهوذَةَ، عن عوف، وهو ابن أبي جَمِيلَةَ الأعرابي، أحدِ الأئمةِ الثِّقاتِ(٣)، به.

* * *

روايةُ عبدِ الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال الحافظُ أبو بكر البيهقي:

أخبرنا أَبُو عبدِ الله الحافظِ، أخبرنا أبو عبد الله محمدُ بن يَعقُوبَ، حدثنا السَّري بن خُزَيمة، حدثنا يُوسُف بن بُهلُولٍ، حدثنا عبد الله بن نُمَير، عن مالك بن مِغْوَلٍ، عن الزُّبَير بن عَدِيٍّ، عن طلحة بن مُصرِّفٍ، عن مُرَّة الهَمْداني، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: لما أُسْرِيَ برسول الله - ﷺ - فانتهى إلى سِدْرَةِ المنتهى، وهي في السماء السادِسَةِ، وإليها ينتهي ما يُصعَد به حتى يقبض منها، وإليها ينتهي ما يُهْبَط [به] من فوقها حتى يقبض منها، ﴿إذ يغشى السدرَة ما يَغْشَى﴾ - قال: غَشِيها فراش من ذهب، وأعطى رسول الله - ﷺ - الصلواتِ الخمس، وخواتِيمَ سورةِ البقرة، وغفر لمن لا يشكر بالله المُقْحِمَاتُ، يعني الكبائر(٤).

رواه مسلمٌ في صحيحه، عن محمد بن عبد الله بن نُمير وزُهَير بن حرب، كلاهما عن عبد الله بن نُمَير، به(٤).

قال البيهقي: «وهذا الذي ذكره عبدُ الله بن مسعود - رضي الله عنه - طَرَفٌ من حديثِ المعراج، وقد رَواه أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة، عن النبي ﷺ، ثم عن أبي ذَرٍّ، عن النبي ﷺ، ثم رواه مَرَّةً مرسلاً دون ذكرهما(٤)». ثم إن البيهقي ساق الأحاديث الثلاثة كما تَقَدّم.

قلت: وقد رُوِي عن ابن مسعود - رضي الله عنه - بأبسط من هذا، وفيه غرابة، وذلك فيما رواه الحسن(٥) بن عَرَفة في جزئه المشهور:

---

(١) أي: خرج إليه جميع من فيها. وفي بعض النسخ: فانتفضت. وهو بمعناه، ومنه قولهم: أَنْفَضت جُلَّةُ التمر - والجلة وعاء التمر -: نُفِض جميع ما فيها. وتقرأ أيضاً: فانفضَّت إليه، أي: تفرقت ذاهبة إليه.

(٢) قوله «يقول عوف». ليس في المسند، ولفظ دلائل النبوة للبيهقي: «وقد كان مع هذا حديث لم يحفظه عوف».

(٣) مسند أحمد ١/٣٠٩، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/٣٦٣ - ٣٦٤.

(٤) دلائل النبوة للبيهقي ٢/٣٧٢ - ٣٧٣، ورواية مسلم في كتاب الإيمان من صحيحه ١/١٥٧.

(٥) هو أبو علي الحسن بن عَرَفة بن يزيد العَبْدِيّ، المؤدِّب، بغداديٌّ، عُمِّر طويلاً عاش بين ١٥٠ - ٢٥٧ هجرية، محدِّث ثقة. وقد ذكر جُزْأَه ابن خير في الفهرسة ١٧٧.

حدثنا مَرْوَان بن معاوية، عن قَنَان بنُ عبد الله النَّهمي، حدثنا أبو ظَبْيَان الجَنْبيّ قال: كُنَّا جلوساً عند أبي عُبَيدة بن عبد الله ـ يعني ابن مسعود ـ ومحمد بن سعد بن أبي وقاص، وهما جالسان، فقال محمد بن سعد لأبي عُبَيدة: حَدِّثنا عن أبيك ليلةَ أسري بمحمد ﷺ. فقال أبو عُبَيدة: لا، بل حَدِّثنا أنت عن أبيك. فقال محمد: لو سألتني قبل أن أسالك لفعلتُ! قال: فأنشأ أبو عُبَيدة يحدِّث ـ يعني عن أبيه ـ كما سُئِل، قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أتاني جبريلُ بدابة فوقَ الحمار ودُونَ البَغْلِ، فحملني عليه، ثم انطلق يَهْوِي بنا كُلَّما صَعِد عَقَبةً استوت رجلاه كذلك مع يديه، وإذا هَبَط استوت يداه مع رجليه، حتى مَرَرنا برجلٍ طُوَالٍ سَبْطٍ آدَمَ، كَأَنَّه من رجالِ شَنُوءَةَ، وهو يقولُ ـ فَرَفَعَ صَوْتَهُ ـ: أكرمتَهُ وفَضَّلته. قال: فَدَفعنا[1] إليه فسلَّمنا عليه، فردَّ السلام، فقال: من هذا معكَ يا جبريل؟ قال: هذا أحمدُ. قال: مرحباً بالنبيِّ الأمي العربي، الذي بَلَّغ رسالة رَبِّه ونصح لأُمَّتِه. قال: ثم اندفعنا فقلت: من هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا موسى بن عمران. قال قلتُ: ومن يعاتب؟ قال: يُعاتِبُ ربَّه فيك! قلت: وَيَرفع صَوتَه على ربِّه؟! قال: إن الله ـ عزّ وجلّ ـ قد عرف له حِدَّته. قال: ثم اندفعنا حتى مَرَرنا بشجرة كأن ثمرها السُّرُحُ[2] تحتها شيخ وعيالُه، قال فقال لي جبريل: اعمِدْ إلى أبيك إبراهيم. فَدَفعنا إليه فَسَلَّمنا عليه فردَّ السلام، فقال إبراهيم: من هذا مَعَك يا جبريلُ؟ قال: هذا ابنُك أحمَدُ. قال: فقال: مرحباً بالنبيِّ الأميِّ الذي بَلَّغ رسالة ربه ونَصَح لأمته، يا بني، إنك لاقٍ ربَّك الليلة، وإن أمتك آخرُ الأمم وأضعفُها، فإن استطعت أن تكون حاجتك أو جُلُّها في أُمَّتِك فافعل. قال: ثم اندَفَعنا حتى انتهينا إلى المسجِد الأقصى، فنزلت فربطت الدابة بالحَلْقَةِ التي في باب المسجد التي كانت الأنبياءُ ـ عليهم السلام ـ تَرْبِط بها. ثم دخلتُ المسجِدَ فعرفت النبيِّين من بين قائم وراكع وساجد، قال: ثم أُتِيتُ بكأسين من عَسَل ولبن، فأخذت اللَّبَن فَشَرِبْتُ، فَضرب جبريلُ ـ عليه السلام ـ مَنْكِبي وقال: أصبتَ الفطرة وربِّ محمد. قال: ثم أُقِيمت الصلاةَ فَأَمَمْتهم، ثم انصرفنا فأقبلنا»[3].

إسنادٌ غَريبٌ ولم يُخرِجُوه، فيه من الغَرَائِبِ: سؤالُ الأنبياء عنه ـ عليه السلام ـ ابتداءً، ثم سُؤاله عنهم بعد انصرافه. والمشهور في الصحاح كما تقدم: أنَّ جبريل ـ عليه السلام ـ كان يُعْلِمُه بهم أولاًليسلِّم عليهم سلامَ مَعْرِفَةٍ. وفيه أنه اجتمع بالأنبياء ـ عليهم السلام ـ قبل دخوله المسجدَ، والصحيحُ أنه إنما اجتمع بهم في السموات، ثم نزل إلى بيتِ المقدس ثانياً وهم معه، وصَلَّى بهم فيه، ثم رَكِبَ البُرَاقَ وكَرَّ راجعاً إلى مكة، والله أعلم.

طريقٌ أخرى، قال الإمام أحمد: حدثنا هُشيم، أخبرنا العَوَّام، عن جَبَلة بن سُحَيم، عن مُؤثِر بن عَفَازَةَ، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: لقيتُ ليلةَ أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى ـ عليهم السلام ـ فتذاكروا أمر الساعة، قال: فَرَدُّوا أمرهم إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال: لا عِلْمَ لي بها. فَرَدُّوا أمرهم إلى موسى ـ عليه السلام ـ فقال: لا عِلْمَ لي بها. فَرَدُّوا أمرهم إلى عيسى ـ عليه السلام ـ فقال: أما وَجْبَتُها[4] فلا يعلم بها أحدٌ إلا الله عزّ وجلّ، وفيما عَهِد إلى رَبِّي أنَّ الدجّال خارج، قال: ومعي قضيبان، فإذا رآني ذابَ كما يَذُوب الرَّصاصُ، قال: فيهلكه الله إذا رآني، حتى إن الحجَر والشجَر يقول: «يا مسلمُ، إن تحتي كافراً، فتعال فاقتله»، قال: فَيُهلِكهم الله، ثم يرجعُ الناسُ إلى بلادِهم وأوطانهم، قال: فعند ذلك يَخْرج يأجوجُ ومأجوجُ وهم من كل حَدَب ينسلون، فيطئون بلادَهم، فلا يأتونَ على شيءٍ إلا أهلَكوه. ولا يمرّون على

(١) أي: انتهينا إليه.

(٢) السَّرْحُ: شجر طُوَال عظام.

(٣) جزء الحسن بن عرفة ٨٠ ـ ٨٢.

(٤) أي: وقعها. والوجبة في الأصل: صوت السقوط.

ماء إلا شَرِبوه، قال: ثم يرجع الناس إليّ فيشكونهم، فأدعو الله عليهم، فيُهلكُهم ويُميتهم، حتى تَجْوَى الأرض من نَتْنِ ريحهم ـ أي: تُنْتِنُ ـ قال: فيُنزِل الله المطر، فتَجْرَفُ أجسادُهم حتى يَقْذِفهم في البحر. ففيما عَهِد إلى ربِّي أنَّ ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المُتِمّ[1]، لا يدري أهلها متى تفجَؤُهم بولادها ليلاً أو نهاراً[2].

وأخرجه ابنُ ماجَه، عن بُنْدَارٍ، عن يزيدَ بنِ هارونَ، عن العَوَّام بن حَوْشَبٍ[2].

* * *

روايةُ عبد الرحمن بن قُرْط ـ رضي الله عنه ـ أخي عبد الله بن قُرْطٍ الثُّمالي، قال سعيد بن منصور:

حدثنا مسكين بن ميمون مؤذن مسجد الرملة، حدثني عُروةُ بن رُوَيم، عن عبدِ الرحمن بن قُرْطٍ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ ليلةَ أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان[3] بين زَمْزَمَ والمقام، جبريلُ عن يمينه وميكائيلُ عن يساره، فطارا به حتى بلغ السموات العُلَى. فلما رَجَع قال: سمعت تَسْبِيحاً في السموات العُلَى مع تسبيح كَثِيرٍ، سَبَّحتِ السموات العُلَى من ذي المهابة مُشْفِقاتٍ من ذي العلوِّ بما علا، سبحان العَلِيِّ الأعلى، سبحانه وتعالى.

ونذكُرُ هذا الحديث عند قوله تعالى من هذه السورة: ﴿تُسَبِّح له السمواتُ السبعُ﴾... الآية[4].

* * *

روايةُ عُمرَ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال الإمامُ أحمدُ:

حدثنا أسود بن عامر، حَدَّثنا حماد بن سلمة، عن أبي سنان، عن عُبَيدِ بن آدَمَ وأبي مَرْيَمَ وأبي شعيب: أن عُمرَ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان بالجابية[5]، فذكر فتح بيت المقدس ـ قال: قال أبو سَلَمة[6]: فحدَّثني أبو سنان، عن عُبَيد بن آدم قال: سَمِعتُ عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول لكعب: أين تَرَى أن أُصَلِّي؟ قال: إن أخذت عَنِّي صَلَّيتَ خَلْفَ الصخرة، فكانت القدس كلُّها بين يديك. فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: ضاهيتَ اليهودية، ولكن[7] أصلِّي حيث صَلَّى رسولُ الله ـ ﷺ ـ فتقدم إلى القبلة فصلى، ثم جاء فَبَسط رداءه، وكَنَس الكُنَاسَةَ في رِدَائه، وكَنَس الناس»[8].

فلم يُعَظِّم الصخرة تعظيماً يُصَلِّي وراءها وهي بين يديه، كما أشار به كعبُ الأحبار، وهو من قوم يعظمونها حتى جَعَلوها قبلتهم. ولكن مَنَّ الله عليه بالإسلام فهُدِيَ إلى الحقِّ. ولهذا لما أشار بذلك قال له أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ: «ضاهيتَ اليهوديةَ»، ولا أهانها إهانةَ النصارى الذين كانوا قد جعلوها مَزْبلة من أجل أنها قبلَةِ اليهود، ولكن أماط الأذَى، وكنس عنها الكُنَاسة بِرِدَائِهِ. وهذا شبيه بما جاء في صحيح مسلم، عن أبي مَرْثَدِ الغَنَوي قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها»[9].

---

(١) أتمَّتِ الحامل: دنا وقت ولادها.

(٢) مسند أحمد ٣٧٥/١، وسنن ابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٦٥.

(٣) في نسخة الحرم: «مرّ بين زمزم».

(٤) انظر تفسير الآية ٤٤ من هذه السورة، فقد ذكره ابن كثير هناك برواية الطبراني، عن علي بن عبد العزيز، عن سعيد بن منصور.

(٥) الجابية: قرية من أعمال دمشق من ناحية الجولان.

(٦) أبو سَلَمة كنية حماد بن سلمة.

(٧) لفظ المسند: «لا ولكن...».

(٨) مسند أحمد ٣٨/١. وفي نسخة: «وكنس الناس الصخرة تعظيماً» ونص نسخة الحرم: «وكنس الناس الصخرة... يصلي ذراعاً».

(٩) مسلم، كتاب الجنائز ٦٦٨/٢.

رواية أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ وهي مُطَوَّلة جداً، وفيها غَرَابةٌ، قال الإمام أبو جعفر بن جرير في تفسير «سورة سبحان»:

حدثنا عليّ بن سهل، حدثنا حجاج، حدثنا أبو جعفر الرازيّ، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية الرِّياحي، عن أبي هريرة ـ أو غيره، شك أبو جعفر ـ في قول الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله، لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾، قال: جاء جبريل ـ عليه السلام ـ إلى النبي ـ ﷺ ـ ومعه ميكائيل، فقال جبريلُ لميكائيلَ: ائتني بطَسْتٍ من ماء زمزم، كيما أُطهر قَلْبَه وأشرَحَ له صَدْرَه. قال: فشقّ عن بطنه فغسله ثلاثَ مرات. واختلفَ إليه ميكائيلُ بِثَلاثِ طِسَاسٍ من ماءِ زَمْزم، فشرح صدره ونزع ما كان فيه من غِلٍّ، وملأه حلماً وعلماً، وإيماناً ويقيناً وإسلاماً، وختم بين كتفيه بخاتَمِ النبوَّة.

ثم أتاه بفرس فَحَمَله عليه، كلُّ خَطوة منه مُنتَهى بَصَره ـ أو: أقصى بَصَره ـ قال: فسار وسار معه جبريلُ ـ عليه السلام ـ قال: فأتى على قَوم يَزْرَعون في يوم ويحصدون في يوم، كُلَّما حصدوا عاد كما كان، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: يا جبريلُ، ما هذا؟ قال: هؤلاءِ المجاهدونَ في سبيل الله، تُضاعَف لهم الحسنةُ بسبعمائةِ ضِعْفٍ، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه، وهو خيرُ الرازقين.

ثم أتى على قوم تُرْضَخُ[1] رءوسُهم بالصخر، كُلَّما رُضِخَت عادت كما كانت، ولا يُفَتَّر عنهم من ذلك شَيءٌ، فقال: ما هؤلاءِ يا جبريلُ؟ قال: هؤلاء الذين تَتَثاقل رؤسُهم عن الصلاةِ المكتُوبَةِ.

ثم أَتَى على قَومٍ على أقبالهم رِقَاعٌ[2] وعلى أدبارهم رِقَاعٌ، يَسْرَحون[3] كما تَسْرَح الإبلُ والنَّعم، ويأكُلُون الضَّريعَ[4] والزقومَ ورَضْفَ جهنم وحجارَتها، قال: ما هؤلاءِ يا جبريلُ؟ قال: هؤلاء الذين لا يُؤَدُّون صَدَقاتِ أموالهم، وما ظَلَمهم الله شيئاً، وما الله بظلام للعبيد.

ثم أَتَى على قَوْمٍ بين أيديهم لحمٌ نَضِيج في قِدْرٍ، ولحمٌ آخرُ نِيْءٌ في قِدْرٍ خبيث، فجعلوا يأكُلُون من النَّيءِ الخبيث ويَدَعُون النَّضِيج الطيب، فقال: ما هؤلاء يا جبريلُ؟ فقال: هذا الرجلُ من أمتك، تكون عنده المرأة الحلال الطيب، فيأتي امرأةً خبيثةً فَيبيتُ عندها حتى يُصبحَ، والمرأة تقومُ من عند زَوْجِها حَلالاً طيباً، فتأتي رجلاً خبيثاً فَتَبيتُ عنده حتى تُصبحَ.

قال: ثم أَتَى على خشبةٍ على الطريق، لا يمرُّ بها ثوب إلا شَقَّته، ولا شيء إلا خرقته، قال: ما هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا مثل أقوام من أمتك، يقعدُون على الطريق فيقطعونه، ثم تلا: ﴿ ولا تقعُدوا بِكلِّ صراطٍ تُوعِدُون وتصدّون عن سبيل الله ﴾.

قال: ثم أتى على رجل قد جمعَ حُزمة [حطب] عَظِيمة لا يستطيعُ حَمْلها، وهو يَزِيد عليها، فقال: ما هذا يا جبريلُ؟ فقال: هذا الرجلُ من أمتك يكون عليه أماناتُ الناس لا يقدر على أَدَائِها، وهو يُريد أن يَحْمِلَ عليها.

ثم أتى على قوم تُقرَضُ ألسنتُهم وشفاهُهم بمقاريضَ من حديد، كُلَّما قُرِضت عادت كما كانت، لا يُفَتَّر عنهم من ذلك شيءٌ، قال: ما هؤلاءِ يا جبريلُ؟ قال: هؤلاء خطباء الفتنة.

---

(١) أي: تكسر.

(٢) الرقاع: جمع رقعة، وهي ما رُقِع به. والمقصود ـ والله أعلم ـ القطع الممزقة البالية.

(٣) أي: يمضون على وجوههم لا يعرفون لهم وجهةً ولا غاية.

(٤) الضريع: نبت له شوك كبار. والزقّوم: شجرة مُرّة كريهةُ الرائحة ثمرها طعام أهل النار. والرَّضْفُ: الحجارة المحماة.

ثم أتى على حَجَر صغير يخرج منه ثورٌ عظيم، فجعل الثورُ يريد أن يرجع من حيث خَرَج، فلا يستطيعُ، قال: ما هذا يا جبريل؟ فقال: هذا الرجلُ يتكلَّم بالكلمة العظيمة، ثم يندَم عليها فلا يستطيع أن يردَّها.

ثم أتى على وادٍ فوجَدَ ريحاً طيبة باردة، وريحَ مِسْكٍ، وسَمِع صوتاً، فقال: يا جبريلُ، ما هذه الريحُ الطيِّبة الباردة؟ وما هذا المسكُ؟ وما هذا الصوت؟ قال: هذا صوتُ الجنةِ، تقول: يا ربِّ، آتني ما وعدتني فقد كَثُرت غُرَفي، واستبرقي وحَريري وسُندُسي وعبقريّي[1]، ولُؤلؤي ومَرْجاني، فِضَّتي وذَهَبي، وأكوابي وصحافي وأباريقي ومراكبي، وعَسَلي ومائي وخمري ولبني، فآتني ما وعدتني. فقال: لك كلُّ مسلم ومسلمة، ومؤمن ومؤمنة، ومن آمن بي وبِرُسلي وعَمِل صالحاً ولم يُشرِكْ بي، ولم يتَّخذْ من دوني أنداداً. ومن خَشِيَني فهو آمن، ومن سألني أعطيته، ومن أقرضني جزيته، ومن توكَّل عليَّ كفيته، إني أنا الله، لا إلهَ إلا أنا، لا أُخلِفُ الميعادَ، وقد أفلحَ المؤمنونَ، وتبارك الله أحسنُ الخالقين. قالت: قد رَضِيتُ.

قال: ثم أتى على وادٍ فَسَمِع صوتاً منكراً، ووَجد ريحاً مُنْتِنَةً، فقال: ما هذه الريحُ يا جبريلُ؟ وما هذا الصوت؟ فقال: هذا صوتُ جَهنَّم، تقول: يا ربِّ، آتني ما وعدتني، فقد كَثُرت سلاسلي وأغلالي، وسَعيري وحَميمي، وضَريعي وغَسّاقي وعذابي، وقد بَعُدَ قَعْرِي واشتدَّ حرِّي، فآتني ما وَعَدْتني. فقال: لك كلُّ مُشْرِك ومُشْرِكة، وكافِرٍ وكافرةٍ، وكلُّ خبيثٍ وخبيثةٍ، وكلُّ جَبَّار لا يؤمن بيوم الحساب. قالت: قد رَضِيتُ.

قال: ثم سار حتى أتى بيت المقدس، فنزلَ فَربَطَ فَرَسه إلى صَخْرَةٍ، ثم دخَلَ فصلى مع الملائكة، فلما قُضِيتِ الصلاةُ قالوا: يا جبريلُ، من هذا معك؟ قال: محمدٌ ﷺ. قالوا: أو قد أرسل محمد؟ قال: نعم. قالوا: حَيَّاه الله من أخٍ ومن خليفةٍ، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيءُ جاء.

قال: ثم لقي أرواحَ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فأثنوا على ربِّهم، فقال إبراهيم ـ عليه السلام ـ: الحمد لله الذي اتخذني خليلاً، وأعطاني مُلْكاً عظيماً، وجعلني أمَّة قانتاً يُؤتَمّ بي، وأنقذني من النار، وَجَعلها عَلَيَّ برداً وسلاماً.

ثم إن موسى ـ عليه السلام ـ أثنى على ربِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ فقال: الحمدُ لله الذي كَلَّمني تكليماً، وجَعَلَ هلاكَ آل فرعون ونجاةَ بني إسرائيل على يديَّ، وجعل من أمتي قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون.

ثم إن داود ـ عليه السلام ـ أثنى على رَبِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ فقال: الحمد لله الذي جعل لي مُلكاً عَظِيماً، وعَلَّمني الزبور، وألان لي الحديدَ، وسخَّر لي الجبالَ يُسبِّحن والطير، وأعطاني الحكمةَ وفَصْلَ الخِطَابِ.

ثم إن سليمان ـ عليه السلام ـ أثنى على ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ فقال: الحمدُ لله الذي سخَّر لي الرياح، وسخَّر لي الشياطين يعملون لي ما شئتُ من محاريبَ وتماثيلَ، وجفانٍ كالجَوابي[2] وقُدُور راسياتٍ، وعَلَّمني مَنطِقَ الطير، وآتاني من كل شيء فضلاً، وسَخَّر لي جُنودَ الشياطين والإنس، والطير، وفَضَّلني على كثيرٍ من عبادِه المؤمنين، وآتاني ملكاً عظيماً لا يَنبغي لأحدٍ من بَعْدِي، وجَعَل ملكي ملكاً طيباً ليس فيه حساب.

ثم إن عيسى ـ عليه السلام ـ أثنى على ربِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ فقال: الحمدُ لله الذي جَعَلني كلمتَه، وجعل مَثَلي مَثَل آدم، خَلَقه من تراب ثم قال له: كن، فيكونُ. وعَلَّمني الكتابَ والحكمةَ والتوراة والإنجيل، وجَعَلَني أخلق من الطين كهيئةِ الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وجَعَلني أُبرِيءُ الأكمهَ والأبرص وأحيي الموتى

---

(١) الإستبرق: الحرير الغليظ. والسندس: رقيق الحرير. والعبقريّ: صفة لكلّ ما بُولِغ في وصفه من ثوب وغيره.
(٢) الجوابي: جمع جابية وهي الحوض العظيم الواسع العميق الذي يجمع فيه الماء لسقي الأشجار والزروع.

بإذن الله، ورفعني وطهَّرني، وأعاذني وأُمّي من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطانِ علينا سبيلٌ.

قال: ثم إن محمداً رسول الله ـ ﷺ ـ أثنى على ربه ـ عزّ وجلّ ـ فقال: كُلُّكم أثنى على رَبِّه، وإنِّي مُثْنٍ على ربي ـ عزَّ وجلٍّ ـ فقال: الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين، وكافّةً للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل عليَّ الفرقان فيه بيان لكلّ شيء، وجعل أمتي خَيْرَ أمة أُخرِجَت للناس، وجعل أُمَّتي أمةً وسطاً، وجَعَل أُمَّتي هم الأولون وهم الآخِرُون، وشرح لي صَدْرِي، وَوَضَع عني وِزْرِي، وَرَفع لي ذِكْرِي، وَجعلني فاتحاً وخاتماً. فقال إبراهيم ـ عليه السلام ـ: بهذا فَضَلَكُم محمدٌ ﷺ.

قال أبو جعفر الرازيُّ: خاتِم النبوة، فاتِحٌ بالشفاعَة يوم القيامة.

ثم أُتِيَ بآنية ثلاثةٍ مُغطَّاةٍ أفواهُها، فَأُتِي بإناء منها فيه ماء فقيل: اشرَبْ. فَشَرِب منه يسيراً، ثم دفع إليه إناء آخرَ فيه لبنٌ، فقيل له: اشرَبْ. فَشَرِبَ منه حتى رَوِي. ثم دفع إليه إناء آخر فيه خَمْرٌ فقيل له: اشرَبْ. فقال: لا أُرِيدُه قد رَوِيتُ. فقال له جبريل ـ عليه السلام ـ: أما إنها ستُحَرَّم على أُمَّتك، ولو شَرِبت منها لم يتبعك من أمتك إلا قليل.

قال: ثم صَعِدَ به إلى السماء فاستفتح، فقيل: من هذا يا جبريلُ؟ فقال: محمدٌ. قالوا: أَوَ قد أُرسِلَ؟ قال: نعم. قالوا: حَيَّاه الله من أخٍ ومن خَلِيفة، فنعم الأخُ ونعم الخليفةُ، ونعم المجيءُ جاء. فدخل فإذا هو برجل تام الخَلْقِ، لم ينقُص من خَلْقِه شيء كما يَنْقُص من خَلْقِ الناس؛ على يمينه باب يخرج منه ريح طيبة، وعن شماله باب يخرج منه ريح خبيثة، إذا نظر إلى الباب الذي عن يمينه ضَحِك واستبشر، وإذا نَظَر إلى الباب الذي عن يَسَاره بكى وحَزِن، فقلتُ: يا جبريلُ، من هذا الشيخُ التام الخَلْق الذي لم ينقص من خلقه شيءٌ؟ وما هذان البابان؟ فقال: هذا أبوك آدم ـ عليه السلام ـ وهذا الباب الذي عن يمينه باب الجنة، إذ نظر إلى من يدخُله من ذريته ضَحِك واستبشر، والباب الذي عن شماله باب جهنم، إذا نظر إلى من يدخله من ذريته بكى وحزن.

ثم صَعِدَ به جبريلُ إلى السماء الثانية فاستفتح، فقيل: من هذا مَعَك؟ فقال: محمدٌ رسولُ الله. قـالـوا: قد أُرسِل محمد؟ قال: نعم. قالوا: حَيَّاه الله من أخٍ ومن خَلِيفَةٍ، فَنِعْم الأخُ ونِعْمِ الخليفةُ، ونعم المجيء جاء. قال: فدخل، فإذا هو بشابين فقال: يا جبريل، من هذان الشابان؟ قال: هذا عيسى ابن مريم، ويحيى بنُ زكريا، ابنا الخالة عليهما السلام.

قال: فَصَعِدَ به إلى السماء الثالثة فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريلُ. قالوا: ومن مَعَك؟ قال: محمدٌ. قالوا: أو قد أُرْسِل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حَيَّاه الله من أخٍ ومن خليفةٍ، فنعم الأخُ ونعم الخليفةُ، ونعم المجيءُ جاءَ. قال: فدخل فإذا هُو برجلٍ قد فَضَل على الناس في الحُسن، كما فَضَلَ القمرُ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكَوَاكب، قال: مَن هذا يا جبريلُ الذي فَضَل على الناس في الحسن؟ قال: هذا أخوك يوسفُ عليه السلام.

قال: ثم صَعِد به إلى السماء الرابعة فاستفتَح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريلُ. قالوا: ومن مَعَك؟ قال: محمدٌ. قالوا: أَوَ قد أُرسِلَ إليه؟ قال: نعم. قالوا: حَيَّاه الله من أَخٍ ومن خَليفةٍ، فنعم الأخُ ونعم الخليفةُ، ونعم المجيءُ جاءَ! قال: فدخل، فإذا هو برجُلٍ، قال: من هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا إدريسُ ـ عليه السلام ـ رفعه الله مكاناً عليًّا.

ثم صَعِد به إلى السماء الخامسة فاستفتَح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريلُ. قالوا: ومن مَعَك؟ قال:

محمدٌ. قالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حَيّاه الله من أخ ومن خَليفةٍ، فنعم الأخُ ونعم الخليفةُ، ونعم المجيءُ جاء. ثم دخل فإذا هو برجُلٍ جالسٍ وحوله قومٌ يقصُّ عليهم، قال: من هذا يا جبريلُ؟ ومن هؤلاءِ حوله؟ قال: هذا هارون المحبَّبُ [في قومه] ـ عليه السلام ـ وهؤلاءِ بنو إسرائيل.

ثم صَعِدَ به إلى السماء السادسة فاستفتَح، قيل: من هذا؟ قال: جبريلُ. قالوا: وَمَن معكَ؟ قال: محمدٌ. قالوا: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حَيَّاه الله من أخٍ ومن خَليفةٍ، فنعم الأخُ ونعم الخليفةُ، ونعم المجيءُ جاءَ. فإذا هو برجل جالسٍ، فجاوزه فبكى الرجلُ، فقال: يا جبريلُ، من هذا؟ قال: موسى ـ عليه السلام ـ قال: فما باله يبكي؟ قال: يَزْعم بنو إسرائيل أني أكرم بني آدم على الله عَزَّ وجَلَّ، وهذا رجل من بني آدمَ قد خَلَفني في دنيا، وأنا في أخرى، فلو أنه بنفسه لم أبالِ، ولكن مع كل نبي أمته.

قال: ثم صَعِدَ به إلى السماء السابعة فاستفتَحَ، فقيل له: من هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: وَمَن معكَ؟ قال: محمدٌ. قالوا: أو قد أرسل؟ قال: نعم. قالوا: حَيَّاه الله من أخٍ ومن خَليفةٍ، فَنِعْم الأخُ ونِعْم الخليفةُ، ونعم المجيءُ جاء. قال: فدخَل، فإذا هو برجلٍ أشمطَ[1] جالسٍ عند باب الجَنَّة على كرسيٍّ، وعنده قوم جُلُوسٌ بيضُ الوجوهِ أمثالُ القَراطيس[2]، وقوم في ألوانهم شيءٌ، فقام هؤلاء الذين في ألوانهم شيء فدخَلُوا نهراً فاغتسلوا فيه فَخَرجوا وقد خَلَص من ألوانهم شيء، ثم دخلوا نهراً آخَرَ فاغتسلوا فيه، فَخَرَجُوا وقد خَلَص من ألوانهم شيء، ثم دَخَلُوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه، فَخرجوا وقد خَلَصت ألوانُهم فصارت مثلَ ألوانِ أصحابهم، فجاءوا فجلسوا إلى أصحابهم، فقال: يا جبريلُ، من هذا الأشمطُ؟ ثم من هؤلاء البيض الوجوه؟ ومن هؤلاءِ الذين في ألوانهم شيءٌ؟ وما هذه الأنهار التي دَخَلُوا فيها فجاءوا وقد صَفَت ألوانُهم؟ قال: هذا أبوك إبراهيم ـ عليه السلام ـ أول من شَمِطَ[1] على الأرض. وأما هؤلاء البيضُ الوجوهِ فَقَومٌ لم يَلبِسُوا إيمانهم بِظُلم. وأما هؤلاء الذين في ألوانهم شيءٌ فقومٌ خَلَطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتابُوا فتاب الله عليهم. وأما الأنهار فأولها رحمة الله، والثاني نعمةُ الله، والثالث سقاهم ربُّهم شراباً طهوراً.

قال: ثم انتهى إلى السِّدرة فقيل له: هذه السِّدرةُ ينتهي إليها كلُّ أحد خَلَا من أمتك على سُنَّتِكَ. فإذا هي شجرةٌ يخرُج من أصلها أنهارٌ من ماء غير آسن، وأنهارٌ من لَبَن لم يتغيَّر طعمُه، وأنهارٌ من خمر لَذَّةٍ للشاربين، وأنهارٌ من عَسَل مصفّى، وهي شجرة يسير الراكب في ظِلِّها سبعينَ عاماً لا يقطعها، والورقة منها مُغطِّية للأمة كلها. قال: فَغَشِيَها نورُ الخلَّاقِ عَزَّ وجَلَّ، وغشيتها الملائكةُ أمثالُ الغِرْبان حين يقعن على الشجرة (من حُبِّ الربِّ[3] تعالى)، قال: فكلَّمه الله تعالى عند ذلك فقال له: سَلْ. قال: إنك اتخذتَ إبراهيم خليلاً، وأعطيتَه مُلكاً عظيماً، وكَلَّمت موسى تكليماً، وأعطيتَ داود ملكاً عظيماً، وألنت له الحديد، وسَخَّرت له [[4]-الجبال، وأعطيت سليمان ملكاً عظيماً، وسخرت له الجن والإنس والشياطين، وسَخَّرت له-[4]] الرياح، وأعطيته ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحدٍ من بعده. وعَلَّمت عيسى التوراة والإنجيلَ، وجَعَلتَه يُبرِيءُ الأكمَهَ والأبرصَ ويحيي الموتى بإذنك، وأعَذْتَه وأُمَّه من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطانِ عليهما سبيلٌ. فقال له الربُّ عَزَّ وجَلَّ: وقد اتخذتكَ خليلاً ـ وهو مكتوبٌ في التوراة: حبيب الرحمن ـ وأرسلتك إلى الناسِ كافَّةً بشيراً ونذيراً، وشرحتُ

(١) شَمِط شعرُه: اختلط سوادُه ببياضه فهو أشمَطُ وهي شمطاء.

(٢) القرطاس من الدوابّ: الذي لا يخالط بياضه نمنمة، ومن الجواري: البيضاء المديدة القامة.

(٣) عن نسخة الحرم.

(٤) عن تفسير الطبري.

لكَ صَدرَك، ووضعتُ عنك وِزْرَك. ورَفَعتُ لك ذكرك، فلا أُذكَر إلا ذُكِرتْ معي، وجَعلتُ أُمّتك خيرَ أمة أُخرِجَت للناس، وجعلتُ أُمّتَك أُمّةً وسطاً، وجعلت أمتك هم الأولين وهم الآخرين، وجعلتُ أُمّتك لا تجوزُ لهم خطبةٌ حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي، وجعلت من أُمّتك أقواماً قلوبُهم أناجيلُهم، وجعلتُكَ أولَ النبيين خَلْقاً وآخِرَهم بعثاً وأولَهم يُقضى له. وأعطيتُكَ سبعاً من المثاني لم يُعطَها نبي قبلك، وأعطيتك خواتيم سُورَةِ البقرة من كَنْزٍ تحتَ العَرْشِ لم أُعطِها نبياً قبلك، وأعطيتك الكوثر، وأعطيتك ثمانية أسهم: الإسلامَ، والهجرةَ، والجهادَ، والصدقةَ، والصلاةَ، وصومَ رمضانَ، والأمرَ بالمعروف، والنهي عن المنكر. وجعلتك فَاتِحاً وخاتماً. فقال النبي - ﷺ -: فَضّلني ربي بست: أعطاني فَوَاتِحَ الكَلِمِ وخواتيمه، وجوامع الحديث، وأرسلني إلى الناس كافّةً بشيراً ونذيراً. وقذف في قلوب عَدُوّي الرُّعبَ من مسيرة شهر، وأُحِلَّت لي الغنائمُ ولم تَحِلَّ لأحد قبلي، وجُعِلَت لي الأرضُ كُلُّها طهوراً ومسجداً.

قال: وفرض عَلَيَّ خمسين صلاة. فلما رَجَع إلى موسى قال: بم أمرت يا محمدُ؟ قال: بخمسين صلاة. قال: ارجع إلى رَبِّك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعفُ الأمم، فقد لقيتُ من بني إسرائيلَ شدَّةً، قال: فرجع النبي - ﷺ - إلى ربه - عَزَّ وجَلَّ - فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً. ثم رَجَع إلى موسى - عليه السلام - فقال: بكم أُمِرْتَ؟ قال: بأربعين. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإنَّ أمتك أضعفُ الأمم، وقد لَقِيت من بني إسرائيل شدة. قال: فرجع إلى رَبِّه فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً. فرجع إلى موسى - عليه السلام - فقال: بكم أُمِرْتَ؟ قال: أُمِرْتُ بثلاثين. فقال له موسى: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بني إسرائيل شِدَّة. قال: فرجع إلى رَبِّه فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً. فرجع إلى موسى - عليه السلام - فقال: بِكَمْ أُمِرْتَ؟ قال: أُمِرْتُ بعشرين قال: ارجِعْ إلى رَبِّك فاسأله التخفيف، فإن أُمّتك أضعفُ الأمم، وقد لَقِيت من بني إسرائيل شدة. قال: فرجع إلى ربه - عَزَّ وجَلَّ - فسأله التخفيف، فوضَعَ عنه عشراً. فَرَجَع إلى موسى - عليه السلام - فقال: بكم أُمِرْت؟ قال: أُمِرْت بِعَشْرٍ. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيتُ من بني إسرائيل شِدَّةً. قال: فرجع على حياء إلى ربه، فسأله التخفيف فَوَضَع عنه خمساً. فرجع إلى موسى - عليه السلام - فقال: بكم أُمِرْتَ؟ قال: بخمس. فقال: ارجِعْ إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أُمّتك أضعفُ الأمم، وقد لقيتُ من بني إسرائيل شِدَّةً، قال: قد رَجَعتُ إلى ربي حتى استحييتُ، فما أنا راجعٌ إليه. قيل: أما إنَّك كما صَبَرت نفسَك على خمس صلوات، فإنهن يُجْزِينَ عنك خمسينَ صلاة، فإن كلَّ حسنة بعشر أمثالها. قال: فَرَضِي محمد - ﷺ - كُلَّ الرضا. قال: وكان موسى - عليه السلام - من أشدّهم عليه حين مَرَّ به، وخَيْرِهم له حين رجع إليه[١].

ثم رواه ابنُ جرير عن محمد بن عُبَيد الله، عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن أبي جعفر الرازيِّ، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية أو غيره - شك أبو جعفر - عن أبي هُرَيرة، عن النبي - ﷺ - فذكره بمعناه[٢].

وقد رواه الحافظ أبو بكر البيهقيُّ عن أبي سَعْدٍ الماليِنيِّ، عن ابن عَدِيٍّ، عن محمد بن الحسن السَّكُوني البالسيِّ بالرملة، حدثنا علي بن سهل. . . فذكر مثل ما رواه ابن جرير، عنه. وذكر البيهقي أن الحاكم أبا عبد الله رواه عن إسماعيل بن محمد بن الفضل بن محمد الشعراني، عن جده، عن إبراهيم بن حمزة الزُّبيري،

(١) تفسير الطبري ١٥/٦ - ١١.
(٢) تفسير الطبري ١٥/١١.

عن حاتم بن إسماعيل، حدثني عيسى بن ماهان[١] - يعني أبا جعفر الرازي - عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي هُريرة، عن النبي - ﷺ - فذكره[٢].

وقال ابنُ أبي حاتم: ذَكَر أبو زرعة، حدثنا محمد بن عبد الله بن نُمَير، حدثنا يونس بن بُكير، حدثنا عيسى بن عبد الله التميمي - يعني أبا جعفر الرازي[١] - عن الربيع بن أنس البكري، عن أبي العالية أو غيره - شك عيسى - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: قال الله: ﴿ سُبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام ﴾ . . فذكر الحديث بطوله كنحو مما سُقناه.

قلت: أبو جعفر الرازي، قال فيه الحافظ أبو زُرعَةَ: «الرازيُّ يَهم في الحديث كثيراً». وقد ضعّفه غيره أيضاً، ووثّقه بعضهم. والأظهر أنه سَيّءُ الحِفْظِ، ففيما تفرد به نظر. وهذا الحديث في بعض ألفاظِه غرابةٌ ونَكارةٌ شديدةٌ، وفيه شيء من حديث المنام من رواية سَمُرة بن جُندَب في المنام الطويل عند البخاري[٣]، ويشبه أن يكون مجموعاً من أحاديث شتى، أو منام وقصة أخرى غير الإسراءِ، والله أعلم.

وقد روى البخاري ومسلم في الصَّحيحين من حديث عبد الرزّاق: أنبأنا معمر، عن الزهري، أخبرني سعيد بن المسيب، عن أبي هُريرة قال: قال النبي - ﷺ - حين أُسْرِي به: لقيتُ موسى - عليه السلام - قال: فَنعَتَه، فإذا رجل حَسِبْتُه[٤] قال -: مضطرب، رَجِلُ الرأسِ، كأنَّه من رجال شنوءَةَ، قال: ولقيت عيسى - عليه السلام - فَنَعَته النبي - ﷺ - قال: ربعةٌ أَحمرُ، كأنما خرج من دِيْماسٍ - يعني حَمّاماً - قال: ورأيت إبراهيم - عليه السلام - وأنا أشبَهُ وَلَدِه به. قال: وَأُتيت بإناءَين في أحدهما لبنٌ وفي الآخر خَمْرٌ، قيل لي: خُذْ أَيَّهما شِئْتَ. فأخذتُ اللبن فشربتُ، فقيل لي: هُدِيتَ الفطرة - أو: أصبْتَ الفِطْرَةَ - أمَا إنك لو أخذتَ الخمر غَوَت أمتك». وأخرجاه من وجه آخر، عن الزهريِّ، به نحوه[٥].

وفي صحيح مسلم [عن زُهَير بن حَرْبٍ][٦] عن حُجَين بن المثنى، عن عبد العزيز بن أبي سَلَمة، عن عبد الله بن الفضل الهاشمي، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: «لقد رأيتني في الحِجْر وقُريشٌ تسألني عن مَسْرَاي، فَسألوني عن أشياءَ من بيتِ المقدِس لم أُثْبِتْها، فَكُرِبْتُ كَرْباً ما كُرِبتُ مثله قَطُّ. فَرَفعه الله لي أنظُر إليه، ما سألوني عن شيء إلا وأنبأتهم به. وقد رأيتُني في جماعةٍ من الأنبياءِ وإذا موسى - عليه السلام - قائم يصلي، وإذا رَجُلٌ ضَرْبٌ[٧] جَعْد كأنه من رجال شَنُوءة، وإذا عيسى ابن مريم قائمٌ يصلّي أقربُ الناس به شبهاً عروةُ بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيمُ - عليه السلام - قائم يصلّي أشبه الناس به صاحبكم - يعني نفسه - فحانت الصلاةُ فَأممتُهم، فلما فرغتُ قال قائل: يا محمدُ، هذا مالِك صاحبُ النار، [فَسلِّم عليه] فالتفتُّ إليه، فبدأني بالسلام»[٨].

---

(١) أبو جعفر الرازي اسمه: عيسى بن عبدالله بن ماهان التميمي. انظر ترجمته في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٦/ ٢٨٠.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣٩٦ - ٣٩٧.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التعبير، انظر فتح الباري ١٢/ ٤٣٨ - ٤٣٩.

(٤) القائل: حسبته، هو عبد الرزاق. والمضطرب: الطويل غير الشديد، وقيل: الخفيف اللحم. ورَجِلَ الشعرُ: كان بين السبوطة والجعودة، فهو رَجِلٌ، ورَجَلٌ. وشنوءة: قبيلة يمنية.

(٥) فتح الباري، كتاب أحاديث الأنبياء ٦/ ٤٧٦ - ٤٧٧، ومسلم كتاب الإيمان ١/ ١٥٤.

(٦) مكانه في النسخ: «عن محمد بن رافع». والمثبت عن مسلم، وقد رواه البيهقي في الدلائل ٢/ ٣٥٨ من طريق محمد بن رافع عن حُجَين، فلعل اللبس جاء منه.

(٧) الضَرْب: الرجل بين الرجلين في كثرة اللحم وقلته. والجَعْدُ: صفة تعني شدّة الخَلْق، كما تعني أن صاحبها شعره جَعْدٌ غير سَبْطٍ.

(٨) مسلم، كتاب الإيمان ١/ ١٥٦ - ١٥٧، وما بين القوسين عنه.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حَمّاد بن سَلَمة، عن علي بن زيد، عن أبِي الصَّلت، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «رأيتُ ليلةَ أسريَ بي لما انتهينا إلى السماء السابعة، فنظرت فوقُ فإذا رَعْدٌ وبَرْقٌ وصواعق ـ قال: وأتيتُ على قَوْمٍ بطونُهم كالبيوت فيها الحيَّات تُرَى من خارج بطونهم، فقلتُ: من هؤلاء يا جبريلُ؟ قال: هؤلاء أَكَلَةُ الربا. فلما نزلتُ إلى السماءِ الدنيا نظرتُ أسفلَ مني فإذا أنا برَهَج ودُخَانٍ وأصواتٍ، فقلتُ: ما هذا يا جبريلُ؟ قال: هذه الشياطينُ يُحَرِّفُون[1] على أعين بني آدَمَ لا يتفكروا في مَلَكُوت السمٰوات والأرض، ولولا ذلك لرأُوا العجائِبَ».

ورواه الإمامُ أحمدُ عن حَسَنٍ وعفانَ، كلاهما عن حَمّاد بن سلمة، به. ورواه ابنُ ماجه من حديث حَمّادٍ، به[2].

* * *

رواية جماعة من الصحابة ممن تَقَدَّم وغيرهم ـ رضي الله عنهم ـ قال الحافظ البيهقي:

أخبرنا أبو عبد الله، يعني الحاكم، أخبرنا عبدان بن يزيد بن يعقوب الدقاق بهمَذَان، حدثنا إبراهيم بن الحسين الهَمذاني، حدثنا أبو محمد هو إسماعيل بن موسى الفَزَارِيّ، حدثنا عُمَر بن سَعد النَّصْري، من بني نَصْر بن قُعَين، حدثني عبد العزيز، وليث بن أبي سُلَيم، وسليمان الأعمش، وعَطاء بن السائب ـ بعضُهم يزيد في الحديث على بَعْضٍ ـ عن علي بن أبي طالب وعن عبد الله بن عباس ـ ومحمد بن إسحاق بن يسار، عمن حدثه عن ابن عباس ـ وعن سليمان[3] بن مسلم العُقَيلي، عن عامر الشَّعبِيِّ، عن عبد الله بن مسعود ـ وجُوَيبر، عن الضَّحّاك بن مزاحم ـ قالوا: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ في بيت أم هانىء راقداً وقد صَلَّى العشاء الآخرة، قال أبو عبد الله الحاكم: قال لنا هذا الشيخُ... وذكر الحديث، فكتبتُ المتن من نسخة مسموعة منه، فذكر حديثاً طويلاً، يذكر فيه عدد الدَّرَجِ والملائكة وغَيْرَ ذلك مما لا يُنْكَرُ شيءٌ منها في قدرة الله إن صَحَّت الرواية.

قال البيهقي: فيما ذكرنا قبلُ في حديث أبي هارون العَبْدِيِّ في إثبات الإسراء والمعراج كفاية، وبالله التوفيق[4].

قلت: وقد أرسل هذا الحديثَ غيرُ واحد من التابعين وأئمة المفسرين، رَحمَةُ الله عليهم أجمعين.

* * *

رواية عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قال البيهقي:

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني مكرم بن أحمد القاضي، حدثنا إبراهيم بن الهيثم البَلَدِي، حدثنا محمد بن كثير الصَّنعَاني، حدثنا معمر بن راشد، عن الزُّهري، عن عُروَةَ، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: لما أُسْرِيَ بالنبي ـ ﷺ ـ إلى المسجد الأقصى، أصبح يُحَدِّث الناسَ بذلك، فارتدَّ ناسٌ ممن كانوا آمنُوا به وصَدَّقوه، وسَعَوا بذلك إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعُم أنه أُسرِيَ به الليلة

(١) كذا، ومثله في مسند أحمد ٢/٣٦٣. وفي هامش إحدى النسخ عنده: لعلّه «يحومون». وهي في المسند ٢/٣٥٣. ولعلّ معنى «يحرفون على أعين بني آدم» أي: يزيغونها طائفين عليها.

(٢) مسند أحمد ٢/٣٥٣، ٣٦٣، وسنن ابن ماجه، كتاب التجارات ٢/٧٦٣.

(٣) كذا في نسخة الحرم. وفي أخرى: «وعن سليم بن مسلم». وفي الدلائل: «وعن سليمان أو سلمة العقيلي». وانظر ترجمة سليمان بن مسلم العجلي في الجرح والتعديل ٤/١٤٢.

(٤) دلائل النبوة للبيهقي ٢/٤٠٤ ـ ٤٠٥.

إلى بيتِ المقدِس! فقال: أَوَ قال ذلك؟ قالوا: نَعم. قال: لئن كان قال ذلك لقد صَدَق. قالوا: فتُصدِّقه أنه ذهبَ الليلةَ إلى بيتِ المقدِس، وجاء قبل أن يُصبح؟! قال: نَعم، إني لأصدقه بما هو أبعدُ من ذلك، أُصدِّقه بخبر السماء في غَدْوة أو رَوْحة. فلذلك سُمِّي أبو بكر الصِّديق، رضي الله عنه[١].

* * *

رواية أم هانىء بنت أبي طالب ـ رضي الله عنها ـ قال محمد بن إسحاق:

حدثني محمدُ بن السائب الكلبي، عن أبي صالح باذانَ، عن أم هانىء بنت أبي طالب ـ رضي الله عنها ـ في مَسْرَى رسول الله ـ ﷺ ـ أنها كانت تقول: ما أسري برسول الله ـ ﷺ ـ إلا وَهُو في بيتي، نائم عندي تلك الليلة، فصلَّى العِشاء الآخِرَة ثم نام ونمنا، فلما كان قُبيل الفجر أهبَّنا[٢] رسولُ الله ﷺ، فلما صلَّى الصبحَ وصلَّينا معه قال: يا أُمَّ هانىء، لقد صَلَّيت معكُمُ العشاءَ الآخرة كما رأيتِ بهذا الوادي، ثم جِئتُ بيتَ المقدِسِ فَصَلَّيت فيه، ثم صَلَّيت صلاةَ الغداةِ معكم الآن كما تَرَين[٣].

الكلبي: متروك بمرَّةٍ ساقطٌ. لكن رواه أبو يعلى في مُسْنَدِه عن محمد بن إسماعيل الأنصاري، عن ضَمْرَة بن رَبِيعَةَ، عن يحيى بن أبي عمرو السَّيباني، عن أبي صالح، عن أم هانىء بأبسط من هذا السياق، فَلْيكتب ها هنا.

وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث عبد الأعلى بن أبي المُسَاور، عن عكرمة، عن أُمِّ هانىء قالت: باتَ رسول الله ـ ﷺ ـ ليلَةَ أُسرِيَ به في بيتي، فَفَقدتُه من الليل، فامتنعَ مني النومُ مخافَةَ أن يكونَ عَرَض له بعضُ قُريش، فقال رسولُ الله ﷺ: إن جبريلَ أتاني فأخذ بيدي فأخرجني، فإذا على الباب دابةٌ دون البغلِ وفوقَ الحمار، فَحَملني عليها ثم انطلق حتى انتهى بي إلى بيتِ المقدِس، فأراني إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ يُشبِهُ خَلْقُه خَلْقِي، ويُشْبِهُ خَلقي خَلْقَه، وأراني موسى ـ عليه السلام ـ آدمَ طويلاً سَبْط الشَّعِر، شَبَّهْته برجال أَزْد شنوءة. وأراني عيسى ابنُ مريم ـ عليه السلام ـ رَبْعة أبيضَ يَضْربُ إلى الحمرة، شَبَّهته بعُروةَ بن مسعودٍ الثقفي. وأراني الدجَّالَ ممسوحَ العين اليمنى، شَبَّهته بقَطَن بن عبد العُزَّى.

قال: وأنا أُريد أن أخرج إلى قريش، فأخبِرُهم بما رأيت. فأخذتُ بثوبه فقلت: إني أذَكِّرُكَ الله، إنك تأتي قوماً يكذبونك وينكرون مقالتك، فأخاف أن يَسْطُوا بك. قالت: فَضرب ثوبَه من يدي، ثم خَرَج إليهم فأتاهم وهم جُلُوس، فأخبَرَهم ما أخبَرَني. فقام جُبَير بن مُطعِم فقال: يا محمد، لو كنتُ شاباً كما كنتَ، ما تكلمتُ بما تكلمتَ به وأنت بين ظهرانينا. فقال رجلٌ من القوم: يا محمد، هل مررتَ بإبلٍ لنا في مكانِ كذا وكذا؟ قال: نَعم، والله وَجَدتُهم قد أَضلُّوا بعيراً لهم، فهم في طَلَبه. قال: فهل مَرَرت بإبل لبني فلان؟ قال: نعم، وجدتهم في مكان كذا وكذا، وقد انكسرت لهم ناقة حمراء، وعندهم قَصعَةٌ من ماء، فشربت ما فيها. قالوا: فأخبرنا عِدّتها وما فيها من الرعاة[٤-قال: قد كنتُ عن عِدَّتها مشغولاً. فقام[٥] فَأُتِيَ بالإبل فعدَّها وَعَلِمَ ما فيها من الرعاة-٤]. ثم أتى قريشاً فقال لهم: سألتموني عن إبلِ بني فلانٍ، فهي كذا وكذا، وفيها من الرعاة فلان وفلان.

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/٣٦٠ - ٣٦١.
(٢) اهبَّ فلاناً من نومه: أيقظه.
(٣) تفسير الطبري ١٥/٢، وسيرة ابن هشام ٤٠٢/١.
(٤ - ٤) عن المعجم الكبير.
(٥) كذا في المعجم الكبير، وفي الخصائص الكبرى للسيوطي: فنام.

وسألتُموني عن إبلِ بني فلانٍ، فهي كذا وكذا، وفيها من الرعاة ابنُ أبي قُحافةَ وفلانٌ وفلانٌ، وهي مُصبحتكم بالغداة على الثنية. قال: فقعدوا على الثنية يَنظُرون أَصدَقهم ما قال؟ فاستقبلوا الإبلَ فسألوهم: هل ضَلَّ لكم بعيرٌ؟ قالوا: نَعَم. فسألوا الآخر: هل انكسرت لكم ناقةٌ حمراءُ؟ قالوا: نعَم. قالوا: فهل كانت عندكم قصعةٌ؟ قال أبو بكر: أنا والله وضعتُها فما شَرِبها أحد، ولا أهراقوه في الأرض. فَصَدَّقه أبو بكر وآمن به، فَسُمِّي يومئذٍ الصديق(١).

فصـــل

فإذا حصل الوقوفُ على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وَحَسَنها وضعيفها، يحصُل مَضْمُون ما اتفقتْ عليه من مَسرَى رسول الله ـ ﷺ ـ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مَرَّةٌ واحدةٌ، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه وزاد بعضهم أو نَقَص منه، فإن الخطأ جائزٌ على من عدا الأنبياءَ عليهمُ السلامُ. ومن جعل من الناس كُلَّ رواية خالفت الأخرى مَرَّة على حدَة، فأثبت إسراءاتٍ مُتعدِّدة، فقد أبعدَ وأغرَب. وهَرَب إلى غير مَهرَب، ولم يتحصَّل على مطلب.

وقد صَرَّح بعضُهم من المتأخرين بأنه ـ ﷺ ـ أُسرِيَ به مَرَّة من مكة إلى بيت المقدس فَقَط، ومَرَّة من مكة إلى السماء فقط، ومَرَّةً إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء. وفَرِح بهذَا المسلك، وأنه قد ظَفِرَ بشيءٍ يخلُص به من الإشكالات. وهذا بعيدٌ جدًّا، ولم يُنقَل هذا عن أحدٍ من السلف، ولو تعدَّد هذا التعددُ لأخبَر النبيُّ ـ ﷺ ـ به أُمَّته، ولنقلته الناسُ على التعدُّد والتكرر.

قال موسى بن عُقبَـة، عن الزُّهريِّ: كان الإسراء قبلَ الهجرةِ بسنةٍ: وكذا قال عُروَةُ. وقال السدِّيُّ: بستةَ عشرَ شهراً(٢).

والحق أنه ـ ﷺ ـ أُسري به يقظةً لا مناماً من مكة إلى بيت المقدس، راكباً البراقَ، فلما انتهى إلى باب المسجد رَبَط الدابة عند الباب، ودخله فصلَّى في قبلته تحيةَ المسجدِ ركعتين. ثم أُتِيَ بالمعراج ـ وهو كالسلم ذو دَرَج يَرْقَى فيها ـ فَصعِدَ فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فتلقاه من كلِّ سماء مقرَّبوها، وسلم عليه الأنبياء ـ عليهم السلام ـ الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مَرَّ بموسى الكليم ـ عليه السلام ـ في السادسة، وإبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ في السابعة، ثم جاوز منزلتهما ـ ﷺ ـ وعليهما وعلى سائر الأنبياء ـ حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صَريف الأقلام، أي: أقلام القَدَر بما هو كائن، ورأى سِدْرَةَ المنتهى وغَشِيَهَا من أمر الله تعالى عظمةٌ عظيمةٌ، من فَرَاش من ذَهَب، وألوان متعددة، وغَشِيَتها الملائكةُ، ورأى هنالك جبريل ـ عليه السلام ـ على صورته، له ستمائة جَنَاح، ورأى رَفرفاً أخضَرَ قد سدَّ الأفق. ورأى البيتَ المعمورَ، وإبراهيمَ الخليل ـ عليه السلام ـ باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه، لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سَبعُون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودُون إليه إلى يوم القيامة. ورأى الجنةَ والنار، وفَرَض الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خَفَّفها إلى خمس، رحمةً منه ولطفاً بعباده، وفي هذا اعتناءٌ عظيمٌ بشَرَفِ الصلاة وعظمتها. ثم هَبَط ـ ﷺ ـ إلى البيت المقدَّس، وهبطَ مَعه الأنبياءُ فصلَّى بهم فيه لما حانت الصلاة. ويَحْتَمِل أنها الصبح من يومئذٍ: ومن الناس من يزعُم أنه أمَّهم في السماء. والذي تظاهرت به الروايات أنه بيتُ المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دُخُوله إليه. والظاهرُ أنه بعد رُجُوعه إليه،

(١) المعجم الكبير للطبراني ٢٤/٤٣٢ ـ ٤٣٤، وانظر الخصائص الكبرى للسيوطي ١/٤٣٩ ـ ٤٤١.
(٢) انظر دلائل النبوة للبيهقي ٢/٣٥٤ ـ ٣٥٥.

لأنه لما مَرّ بهم في منازلهم جَعَل يسأل عنهم جبريل ـ عليه السلام ـ واحداً واحداً، وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائِقُ لأنه كانَ أَوَّلاً مطلوباً إلى الجناب العلوي، ليفرض عليه وعلى أمته ما شاءَ الله تعالى. ثم لما فرغ من الذي أريد به اجتَمع هو وإخوانه من النَّبيِّين ـ صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ـ ثم أظهر شَرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل ـ عليه السلام ـ له في ذلك. ثم خَرَج من بيت المقدس فَرَكِبَ البُراق وعاد إلى مكة بغَلَسٍ، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وأما عَرْضُ الآنية عليه من اللبن والعَسَل، أو اللبن والخَمْر، أو اللبن والماء، أو الجميعُ، فقد وَرَدَ أنه في البيت المقدَّس، وجاء أنه في السماء. ويَحتَمِلُ أن يكونَ ها هنا وها هنا، لأنه كالضِّيافة للقادم، والله أعلم.

ثم اختلفَ الناسُ: هل كان الإسراءُ ببدنه ـ ﷺ ـ وروحه؟ أو بروحه فقط؟ على قولين، فالأكثرون من العلماء على أنه أُسرِيَ بِبَدنهِ ورُوحه يقظةً لا مناماً، ولا يُنْكِرون أن يكونَ رسول الله ـ ﷺ ـ رأى قبل ذلك مناماً، ثم رآه بعده يقظة، لأنه ـ ﷺ ـ كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَقِ الصبح. والدليل على هذا قولُه: ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾، فالتسبيح إنما يكونُ عند الأمور العظام، ولو كان مناماً لم يكن فيه كبيرُ شيءٍ ولم يكن مستعظماً، ولَمَا بادرت كفارُ قريشٍ إلى تكذيبه، ولَمَا ارتدَّ جماعةٌ ممن كان قد أسلم. وأيضاً فإنّ العبدَ عبارة عن مجموع الرُّوح والجسد، وقد قال ـ عزّ شأنه ـ: ﴿ أسرى بعبده ليلاً ﴾، وقد قال تعالى: ﴿ وما جعلنا الرُّؤيا التي أريناكَ إلا فتنةً للناس ﴾، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ هي رُؤيا عَينٍ، أُرِيهَا رسولُ الله ﷺ. رواه البخاري[(١)]، وقال تعالى: ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾، والبصرُ من آلاتِ الذاتِ لا الروحِ. وأيضاً فإنه حُمِل على البراق، وهو دابة بيضاء بَرّاقة لها لَمَعانٌ، وإنما يكون هذا للبَدَنِ لا للروح، لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مَرْكب يُركَبُ عليه، والله أعلم.

وقال آخرون: بل أُسرِيَ بِرسُول الله ـ ﷺ ـ بروحه لا بجسده ـ قال محمد بن إسحاق بن ياسر في السِّيرة:

حدثني يعقوبُ بن عتبة بن المغيرةِ بن الأخنَسِ: أن معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ كان إذا سُئِل عن مسرى رسول الله ـ ﷺ ـ قال: كانت رؤيا من الله صادقة.

وحدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة كانت تقول: ما فُقِدَ جَسدُ رسولِ الله ﷺ، ولكن أسري بروحه.

قال ابن إسحاق: فلم يُنْكَرْ ذلك من قولها، لقول الحسن: إن هذه الآية نَزَلت ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنةً للناس ﴾، ولقول الله في الخبر عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿ إني أرى في المنام أني أذبحك، فانظرْ ماذا ترى ﴾، ثم مضى على ذلك. فعرفتُ أن الوحي يأتي للأنبياءِ من الله أيقاظاً ونياماً.

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «تنام عيناي، وقَلْبي يقظانُ». فالله أعلم أيُّ ذلك كان قد جاءه، وعاين فيه مِنَ الله ما عاين، على أيِّ حالاته كان، نائماً أو يقظان، كلّ ذلك حق وصدق. انتهى كلام ابن إسحاق[(٢)].

وقد تَعقّبه أبو جعفر بن جرير في تفسيره بالردِّ والإنكار والتشنيع، بأنّ هذا خلافُ ظاهرِ سياق القرآن، وذكر منَ الأدلة على رده بعض ما تَقدَّم، والله أعلم.

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة الإسرء ٣٩٨/٨.

(٢) سيرة ابن هشام ٣٩٩/١ ـ ٤٠٠، وتفسير الطبري ١٦/١٥.

فائـدةٌ حسنة جليلـة

روى الحافظ أبو نُعَيم الأصبهاني في كتاب «دلائل النبوّة»، من طريق محمد بن عُمَر الواقدي:

حدثني مالك بن أبي الرجال، عن عُمَر بن عبد الله، عن محمد بن كعب القرظي، قال: بَعَث رسول الله ـ ﷺ ـ دِحيَةَ بن خليفة إلى قيصر، فذكر وُروده عليه وقدومه إليه، وفي السياق دلالةٌ عظيمةٌ على وُفُور عقل هِرَقل، ثم استدعى من بالشام من التجار، فجيء بأبي سفيان صخر بن حرب وأصحابه، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم، كما سيأتي بيانُه، وجَعَل أبو سفيان يَجْهَدُ أن يَحْقِرَ أمره ويُصَغِّره عنده، قال في هذا السياق، عن أبي سفيان: والله ما يمنعني أن أقولَ عليه قولاً أسقطهُ من عينه إلا أني أكره أن أكذبَ عنده كِذبةً يأخذها عليَّ، ولا يُصَدِّقني بشيء. قال: حتى ذكرتُ قولَه ليلة أُسرِي به، قال: فقلتُ: أيها الملك، ألا أخبرك خبراً تعرِف أنه قد كَذَب؟ قال: وما هو؟ قال: قلتُ: إنه يزعُم لنا أنه خرج من أرضنا أرضِ الحَرَم في ليلة، فجاء مسجدَكم هذا مسجدَ إِيلِيَاءَ، فرجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح. قال: وبِطْرِيقُ إِيلِيَاءَ عند رأس قيصر، فقال بطريق إيلِيَاءَ: قد علِمتَ تلك الليلةَ؟. قال: فنظر إليه قيصر وقال: وما عِلْمُك بهذا؟ قال: إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كان تلك الليلة أغلقتُ الأبوابَ كُلَّها غير باب واحد غَلَبني، فاستعنتُ عليه بعمالي ومن يحضرني كلُّهم فعالجتهُ فغلبني، فلم نستطع أن نُحرِّكه، كأنما نزاول به جبلاً. فَدَعوتُ إليه النَجاجِرَةَ فنظروا إليه فقالوا: إن هذا الباب سقط عليه النِّجاف[1] والبنيان، وما نستطيع أن نحركه حتى نُصبِحَ فَنَنظُر من أين أتى. قال: فرجعت وتركت البابين مفتوحين. فلما أصبحتُ غَدَوتُ عليهما، فإذا الحجر الذي من زاوية المسجد مثقوب، وإذا فيه أَثَرُ مَرْبِطِ الدابة. قال فقلتُ لأصحابي: ما حُبِس هذا الباب الليلةَ إلا على نبيٍّ، وقد صَلَّى الليلة في مسجدنا.. وذكر تمام الحديث[2].

فـائـدة

قال الحافظُ أبو الخطّاب عُمَر[3] بن دِحيَةَ في كتابه: «التنويرُ في مولدِ السِّراج المنير» وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس، وتكلم عليه فأجاد وأفاد ـ ثم قال: وقد تواترتِ الرواياتُ في حديث الإسراء عن عُمَر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، وأبي ذَرٍّ، ومالك بن صَعْصَعَةَ، وأبي هُرَيرة، وأبي سعيد، وابن عَبَاس، وشَدَّاد بن أوس، وأبي بن كعب، وعبد الرحمن بن قُرْط، وأبي حَبَّة وأبي ليلى الأنصاريين، وعبد الله بن عُمَر، وجابر، وحذيفة، وبُرَيدة، وأبي أيوب، وأبي أمامة، وسَمُرة بن جُندُبٍ، وأبي الحمراء، وصُهَيب الرومي، وأم هانىء، وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق، رضي الله عنهم أجمعين. منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصَره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن روايةُ بعضهم على شرط الصحَّة، فحديثُ الإسراء أجمَعَ عليه المسلمون، واعترض فيه الزنادقةُ الملحدون، ﴿ يُرِيدون لِيُطْفِئوا نور الله بأفواههم والله مُتِمُّ نورِه ولو كره الكافرون ﴾.

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾

(١) النِّجافُ: عتبةُ البابِ، وأعلاه.

(٢) الأثر في الدرّ المنثور ٥/٢٢٤ ـ ٢٢٦.

(٣) هو: عمر بن الحسن الكلبيّ الأندلسي الحافظ، كان من أعيان العلماء، ومشاهير الفضلاء، ولد سنة ٥٥٤، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٣٣ هـ. انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٣/٤٤٨ ـ ٤٥٠.

لما ذَكر تعالى أنه أسرَى بعبده محمد ـ ﷺ ـ عطف بِذِكر موسى عبده وكليمه ـ عليه السلام ـ أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما من الله الصلاة والسلام، وبين ذكر التوراة والقرآن، ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿ وآتينا موسى الكتاب ﴾، يعني التوراةَ، ﴿ وجعلناه ﴾، أي: الكتابَ ﴿ هُدًى ﴾، أي: هادياً ﴿ لبني إسرائيلَ ألا تتَّخِذُوا ﴾ أي: لئلا تتخذُوا، ﴿ من دوني وكيلا ﴾، أي: ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دوني؛ لأن الله تعالى أنزل على كلِّ نبيٍّ أرسله أن يعبدَه وحدَه لا شَرِيكَ له.

ثم قال: ﴿ ذُرِّيَّةَ من حَمَلنا مع نوحٍ ﴾، تقدِيرُه: يا ذُرِّيَة مَن حملنا مع نوح. فيه تَهيِيجٌ وتَنْبِيهٌ على المِنَّة، أي: يا سُلَالَة مَن نَجَّينا فحَملنا مع نوح في السفينة، تَشَبَّهوا بأبيكم، ﴿ إنه كان عبداً شكوراً ﴾، فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالي إليكم مُحمَّداً ﷺ. وقد وَرَد في الحديثِ وفي الأثرِ عن السَّلَفِ: أن نوحاً ـ عليه السلام ـ كان يحمَدُ الله على طعامه وشرابه ولباسه وشَأنِهِ كلِّه، فلهذا سُمِّي عبداً شكوراً.

قال الطبرانيّ: حَدَّثنا علي بنُ عبد العزيز، حدثنا أبو نُعَيم، حدثنا سفيان، عن أبي حُصَين، عن عبد الله بن سِنَانٍ، عن سَعد بن مَسْعُودٍ الثقفي قال: إنما سُمِّي نوحُ عبداً شكوراً، لأنه كان إذا أَكَل أو شرب حَمِد الله[١].

وقد قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو أسامة، حدثنا زكريا بن أبي زائدة، عن سعيد بن أبي بُردَة،عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ الله لَيَرْضى عن العَبْدِ أنْ يأكُلَ الأَكْلَةَ أو يَشْرَبَ الشَّربة، فيحمَدَ الله عليها»[٢].

وهكذا رواه مسلمٌ، والترمذي، والنسائي، من طريق أبي أسامة، به[٢].

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: كان يحمدُ الله على كلِّ حال.

وقد ذكر البخاري ههنا حديث أبي زُرْعَة، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة» بطوله، وفيه: «فيأتون نُوحاً فيقولون: يا نوحُ، أنتَ أولُ الرسُلِ إلى أهل الأرض، وقد سَمَّاكَ اللهُ عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك»... وذكر الحديث بكماله[٣].

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨ ﴾

يقول تعالى: إنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب، أي: تَقَدَّم إليهم وأخبرهم في الكتابِ الذي أنزلَه عليهم: أنهم سَيُفسِدُون في الأرض مَرَّتين ويَعلُون عُلواً كبيراً، أي: يَتجبَّرون ويطغَون ويفجُرون على الناس،

(١) المعجم الكبير ٣٢/٦.
(٢) مسند أحمد ١١٧/٣، ومسلم، كتاب الذكر ٢٠٩٥/٤، وعارضة الأحوذي، أبواب الأطعمة ٩/٨ ـ ١٠.
(٣) فتح الباري، كتاب التفسير ٣٩٥/٨ ـ ٣٩٦.

كما قال تعالى: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾، أي: تَقَدَّمنا إليه وأخبرناه بذلك، وأعلمناه به.

وقولُه: ﴿فإذا جاء وَعْدُ أُولاهما﴾، أي: أولى الإفسادتين، ﴿بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد﴾، أي: سَلَّطنا عليكم جُنداً من خَلْقِنا أولي بأسٍ شديدٍ، أي: قُوَّةٍ وعُدَّة وسلطة شديدة، ﴿فجاسوا خلال الديار﴾، أي: تملكوا بلادكم وسَلَكُوا خِلالَ بيوتكم، أي: بينَها وَوَسْطَها، وتَصَرَّفُوا ذاهبين وجائين، لا يخافُونَ أحداً، ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾.

وقد اختلف المفسِّرون من السلَفِ والخلَفِ في هؤلاء المسلطين عليهم: من هم؟ فعن ابن عباسٍ وقتادةَ: أنه جالوت الجَزَرِيّ وجنوده، سُلِّط عليهم أولاً، ثم أُديلوا[١] عليه بعد ذلك، وقَتَل داودُ جالوتَ، ولهذا قال: ﴿ثم رَدَدْنا لكم الكَرَّة عليهم وأمددناكم بأموالٍ وبنينَ وجَعَلناكم أكثَرَ نفيراً﴾[٢].

وعن سعيد بن جُبَير: أنه ملك الموصل سَنْحَارِيبُ وجنودُه. وعنه أيضاً، وعن غيره: أنه بختنصر ملك بابل.

وقد ذكر ابنُ أبي حاتم له قصةً عجيبةً في كيفية تَرَقِّيه من حال إلى حال، إلى أن ملك البلاد، وأنه كان فقيراً مُقْعَداً ضَعِيفاً يستعطي الناس ويستطعمهم، ثم آل به الحالُ إلى ما آل، وأنه سار إلى بلاد بيت المقدس، فقتلَ بها خلقاً كثيراً من بني إسرائيل.

وقد روى ابنُ جرير في هذا المكان حديثاً أسنده عن حُذَيفة مرفوعاً مطولاً[٣]. وهو حديثٌ موضوع لا محالة، لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث!! والعَجَب كُلُّ العَجَب كيف راج عليه مع إمامته وجلالة قدره! وقد صرّح شيخنا الحافظُ العلّامة أبو الحجاج المِزّي بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب.

وقد وَرَدت في هذا آثارٌ كثيرةٌ إسرائيليةٌ لم أرَ تطويلَ الكتاب بذكرها، لأنَّ منها ما هو موضوعٌ، من وَضْعِ بعض زنادقتهم، ومنها ما قد يحتملُ أن يكونَ صحيحاً، ونحن في غُنْيَةٍ عنها، ولله الحمد. وفيما قصَّ الله تعالى علينا في كتابه غنية عما سِواه من بقيَّةِ الكتب قبلَه، ولم يُحْوِجْنا الله ولا رسولُه إليهم. وقد أخبر الله تعالى أنهم لما بَغَوا وطَغَوا سلط عليهم عَدُوَّهم، فاستباح بَيْضَتهم، وسَلَك خلال بُيُوتِهم وأذلَّهم وقَهَرهم، جزاء وفاقاً، وما رَبُّك بظلّام للعبيد. فإنهم كانوا قد تَمَرَّدوا وقَتَلُوا خَلقاً من الأنبياء والعلماء.

وقد روى ابنُ جرير: حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني سُلَيمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال: سَمِعتُ سعيد بن المسيِّب يقول: ظهر بُخْتَنَصَّر على الشام، فَخَرَّب بيتَ المقدسِ وقتلهم. ثم أتى دمشقَ فوجدَ بها دماً يغلي على كِبًا[٤]، فسألهم: ما هذا الدمُ؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا، وكُلَّما ظَهَر عليه الكِبَا ظهر. قال: فقَتَل على ذلك الدَّمِ سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم، فَسَكَن.

وهذا صحيحٌ إلى سَعِيد بن المسيِّب، وهذا هو المشهورُ، وأنه قتل أشرافَهم وعُلَماءَهم، حتى إنه لم يبقَ

---

(١) أدال فلاناً على فلان: نَصَره، وغَلَّبه عليه، وأظفره به.
(٢) تفسير الطبري ١٥/٢٨.
(٣) تفسير الطبري ١٥/٢٤ - ٢٧.
(٤) الكبا: الكُناسة.

من يحفظُ التوراة، وأخذَ معه خلقاً منهم أُسَراءُ من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجَرَت أمورٌ وكوائن يطول ذكرُها. ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقارِبُه، لجاز لنا كتابتُه وروايتُه، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾، أي: فعليها. كما قال تعالى: ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾.

وقولُه: ﴿ فإذا جاء وعدُ الآخرة ﴾، أي: المرَّة الآخرة، أي: إذا أفسدتم المرةَ الثانيةَ وجاء أعداؤكم، ﴿ ليسوءوا وجوهكم ﴾، أي: يُهينوكم ويَقْهَروكم، ﴿ وليدخلوا المسجد ﴾، أي: بيت المقدس، ﴿كما دخلوه أول مرَّة﴾، أي: في التي جاسُوا فيها خلال الديار، ﴿وليُتَبِّروا﴾، أي: يُدَمِّروا ويُخرِّبوا ﴿ما علوا﴾، أي: ما ظَهَروا عليه ﴿تَتْبيراً * عسى ربُّكم أن يرحمكم ﴾، أي: فيصرفهم عنكم، ﴿وإن عدتم عدنا﴾، أي: متى عدتم إلى الإفساد (عدنا) إلى الإدالة عليكم في الدنيا، مع ما نَدَّخره لكم في الآخرة من العذابِ والنكالِ، ولهذا قال: ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ﴾، أي: مُستقرًّا ومَحْصَراً وسِجْناً لا مَحِيدَ لهم عنه.

قال ابن عباس: ﴿حَصِيرا﴾، أي: سجناً. وقال مجاهد: يُحصَرون فيها. وكذا قال غيره. وقال الحسن: فراش ومهادٌ.

وقال قتادة: قد عاد بنو إسرائيلَ، فَسَلَّط الله عليهم هذا الحي، محمداً ـ ﷺ ـ وأصحابه، يأخذون منهم الجزية عن يدٍ وهم صاغرون[١].

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

يمدح تعالى كتابَه العزيزَ الذي أنزله على رسوله محمد ـ ﷺ ـ وهو القرآنُ، بأنه يهدِي لأقوم الطرق وأوضحِ السُّبُل، ﴿ ويُبَشِّر المؤمنين ﴾ به، ﴿ الذين يعملون الصالحاتِ ﴾ على مقتضاه، ﴿ أن لهم أجراً كبيراً ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿ وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾، أي: ويُبَشِّرُ الذين لا يؤمنون بالآخرة أن ﴿ لهم عذاباً أليماً ﴾، أي: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾.

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾

يُخبِر تعالى عن عَجلَةِ الإنسان، ودُعائِهِ في بعضِ الأحيانِ على نفسه أو ولده أو ماله ﴿ بالشر ﴾، أي: بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربُّه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: ﴿ ولو يُعَجِّل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لَقُضِي إليهم أجلُهم ﴾. وكذا فَسَّره ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وقتادة. وقد تقدَّم في هذا الحديثُ: «لا تَدْعُوا على أنفُسِكم ولا عَلَى أمْوالِكم، أن توافقوا من الله ساعةَ إجابةٍ يستجِيبُ فيها»[٢]. وإنما يحمل ابنَ آدم على ذلك عَجَلته وقَلَقُه، ولهذا قال تعالى: ﴿ وكان الإنسانُ عَجُولاً ﴾.

وقد ذكر سلمانُ الفارسيُّ وابنُ عباس ها هنا قصة آدم ـ عليه السلام ـ حين هَمَّ بالنهوض قائماً قبل أن

(١) تفسير الطبري ١٥/٤٤.
(٢) انظر تخريجنا لهذا الحديث عند تفسير الآية ١١ من سورة يونس.

تصِل الروح إلى رجليه، وذلك أنه جاءته النفخةُ من قِبَلِ رَأْسِه، فلما وصلت إلى دِمَاغِه عَطِس، فقال: الحمد لله. فقال الله: يرحَمُكَ ربُّك يا آدم. فلما وَصَلت إلى عينَيه فَتَحهما، فلما سَرَت إلى أعضائه وجَسَده جعَل ينظر إليه ويُعجِبُه، فهَمَّ بالنهوض قبل أن تَصِلَ إلى رِجْلَيه فلم يَسْتَطِعْ، وقال: يا ربِّ، عَجِّل قبلَ الليل[1].

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾

يمتَن تعالى على خَلْقِه بآياته العِظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار؛ ليسكُنوا في الليل ويَنْتَشِرُوا في النهار، للمعايشِ والصنائعِ والأعمالِ والأسفارِ، وليعلَمُوا عَدَد الأيامِ والجُمَعِ والشُّهورِ والأعوام، ويَعْرِفوا مُضيَّ الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجَارَاتِ وغير ذلك، ولهذا قال: ﴿ لتبتغوا فضلاً من ربِّكم ﴾، أي: في معايشكم وأسفَارِكم ونحو ذلك، ﴿ ولتعلَمُوا عددَ السنين والحساب ﴾، فإنه لو كان الزمان كُلُّه نَسقاً واحداً وأسلوباً متساوياً، لما عُرِف شيءٌ من ذلك، كما قال تعالى: ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليلَ سَرْمَداً إلى يوم القيامة مَن إلهٌ غير الله يأتيكم بِضِياء أفلا تَسمَعُون * قل أرأيتُم إن جعل الله عليكم النهارَ سَرْمَداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تَسكُنونَ فيه أفلا تُبْصِرُون * ومن رَحْمَتِه جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ وقال تعالى: ﴿ تبارك الذي جَعَل في السماء بُرُوجاً وجعل فيها سِرَاجاً وقمراً منيراً * وهو الذي جعل الليل والنهار خلفةً لمن أراد أن يَذَّكر أو أراد شكوراً﴾. وقال تعالى: ﴿ وله اختلافُ الليل والنهار ﴾، وقال: ﴿ يُكَوِّر الليل على النهار ويُكَوِّر النهارَ على الليل وسَخَّر الشمس والقمر كُلٌّ يجري لأجلٍ مُسمًّى ألا هو العزيز الغفَّار ﴾. وقال تعالى: ﴿ فالقُ الإصباح وجاعِلُ[2] الليل سكناً والشمس والقمر حُسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾، وقال تعالى: ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلِمون * والشمس تجري لمستقرٍّ لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

ثم إنه تعالى جعل لليل آيةً، أي: علامةً يُعرَفُ بها، وهي الظلامُ وظهورُ القمرِ فيه، وللنهار علامة، وهي النورُ وظهورُ الشمس النَّيِّرة فيه، وفاوت بين ضياء القمر وبُرهان الشمس لِيُعرَفَ هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿ هو الذي جَعَل الشمسَ ضياءً والقمرَ نُوراً وقَدرَّه منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾، إلى قوله: ﴿ إن في ذلك لآياتٍ لقوم يَتَّقون ﴾، كما قال تعالى: ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾. . . الآية.

قال ابن جُريج، عن عبد الله بن كثير في قولِه: ﴿ فمَحَونا آيةَ الليلِ وجعلنا آيةَ النهارِ مُبصِرَةً ﴾، قال: ظلمة الليل وسُدْفَة[3] النهار.

وقال ابن جُرَيج، عن مجاهد: الشمس آية النهار، والقمرُ آية الليل. ﴿ فَمَحَونا آيةَ الليلِ ﴾، قال: السواد الذي في القمر، وكذلك خَلَقه الله تعالى.

---

(١) تفسير الطبري ١٥/٤٨.

(٢) قرأ الكوفيون ﴿جَعَل﴾، والباقون من السبعة ﴿جاعِلُ الليل﴾. انظر الإقناع لابن الباذش ٦٤١.

(٣) المراد بالسدفة هنا الضوء. ومن معانيها أيضاً: الظلمة، والطائفة من الليل، واختلاط الضوء والظلمة معاً، كوقت ما بين طلوع الفجر إلى الإسفار.

وقال ابن جُرَيج: قال ابن عباس: كان القمرُ يُضِيءُ كما تُضِيءُ الشمسُ، والقمرُ آيةُ الليل، والشمسُ آيةُ النهار، ﴿ فمحونا آية الليل ﴾: السواد الذي في القمر.

وقد رَوَى أبو جعفر بنُ جَرير من طرق متعددة جيدة: أن ابن الكَوَّاء سأل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فقال: يا أمير المؤمنين، ما هذه اللَّطْخَةُ التي في القمر؟ فقال: ويحكَ. أما تقرأُ القرآنَ؟: ﴿فَمَحَونا آيَةَ الليل ﴾ فهذه مَحوُه[1].

وقال قتادةُ في قولِهِ: ﴿ فمحَونا آيةَ الليلِ ﴾: كنا نُحدَّثُ أن مَحوَ آيةِ الليل سَوادُ القَمرِ الذي فيه ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾، أي: منيرة، وخَلَق الشمسَ أنورَ من القَمرِ وأعظم.

وقال ابنُ أبي نَجيحٍ، عن ابن عباس: ﴿ وجَعَلنا الليلَ والنهارَ آيتين ﴾، قال: ليلاً ونهاراً، كذلك خَلَقهما الله تعالى.

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى بعد ذِكْرِ الزمان، [وذكر] ما يقع فيه من أعمال بني آدم: ﴿ وكُلَّ إنسان ألزمناه طائِرَه في عُنقه ﴾. وطائِرُه: هو ما طار عنه من عمله ـ كما قال ابنُ عباس ومجاهد وغير واحد ـ من خير وشر، يُلزَم به ويُجازى عليه، ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾، وقال تعالى: ﴿ عن اليمين وعن الشمالِ قَعيد * ما يَلْفِظُ من قولٍ إلا لَدَيه رقيبٌ عَتِيد ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عليكم لحافِظِينَ * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون * إن الأبرار لفي نَعِيم * وإنَّ الفُجّار لفي جحيم ﴾. وقال: ﴿ إنما تُجزَون ما كنتم تعمَلُون ﴾، وقال: ﴿ من يَعْمَل سوءاً يُجْزَ به ﴾.

والمقصودُ أن عمل ابن آدم محفوظٌ عليه، قليلُه وكثيرُه، ويُكتَب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً.

قال الإمامُ أحمد: حدثنا قُتَيبة، حدثنا ابن لَهِيعَةَ، عن أبي الزُّبير، عن جابر: سَمِعْتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «لَطَائِرُ كُلِّ إنسانٍ في عُنُقِه». قال ابن لهيعة: يعني الطِّيَرَةَ[2].

وهذا القولُ من ابن لَهِيعة في تفسير هذا الحديث غَريبٌ جداً، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾، أي: نجمَعُ له عمله كله في كتابٍ يُعطاه يَومَ القيامة، إما بيمينه إن كان سَعيداً، أو بشماله إن كان شَقِيًّا. ﴿ منشوراً ﴾، أي: مفتوحاً يقرؤه هو وغيره، فيه جميعُ عَمَله من أول عمره إلى آخره: ﴿ يُنَبأ الإنسان يومئذٍ بما قَدَّم وأخَّر * بل الإنسانُ على نفسِه بَصيرةٌ * ولو ألقى معاذيرَهُ ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ اقرأ كتابكَ كَفى بِنَفسِك اليوم عليك حَسِيباً ﴾، أي: إنك تعلم أنَّك لم تُظلَم ولم يُكتَب عليكَ غير ما عَمِلْتَ، لأنك ذَكَرت جَمِيعَ ما كان منك، ولا يَنْسَى أحدٌ شيئاً مما كان منه، وكلُّ أحدٍ يقرأ كتابه من كاتب وأمي.

وقولُه: ﴿ ألزمناه طائره في عُنُقِه ﴾، إنما ذكر العُنُقَ، لأنه عضوٌ لا نَظير له في الجسد، ومن أُلزِمَ بشيء فيه فلا مَحِيدَ له عنه، كما قال الشاعر:[3].

---

(١) تفسير الطبري ١٥/٤٩.

(٢) مسند أحمد ٣/٣٦٠.

(٣) هو أبو أحمد بن جحش، صحابي، يخاطب أبا سفيان بن حرب في أبيات منها هذا البيت، وكان أبو سفيان قد عدا على دار بني جحش=

اذهَبْ بِها، اذهَبْ بهَا طُوِّقتها طَوقَ الحَمَامَـة

قال قتادة، عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ عن نبي الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «لا عدوى ولا طِيَرَة، وكلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه». كذا رواه ابن جرير[١].

وقد رُواه الإمامُ عبدُ بن حُميد ـ رحمه الله ـ في مسنده مُتَّصِلاً، فقال: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا ابن لَهِيعَة، عن أبي الزبير، عن جابر قال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «طَيرُ كلِّ عبدٍ في عُنُقه».

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا علي بن إسحاق، حدَّثنا عبد الله، حدثنا ابن لَهِيعَة، حدثني يَزِيدَ: أن أبا الخير حَدَّثه: أنه سَمِع عُقبَة بنَ عامرٍ يُحدِّث عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ليس من عَمَلِ يوم إلاّ وَهُو يُخْتَم عليه، فإذا مَرِضَ المؤمن قالت الملائكةُ: يا ربَّنا، عبدُك فلانٌ، قد حَبَسْته؟ فيقول الرب ـ جلّ جلالُه ـ: اختِمُوا له على مثل عمله، حتى يبرأ أو يموت»[٢]. إسنادٌ جيد قوي، ولم يُخرِجوه.

وقال مَعْمرٌ، عن قتادة: ﴿ألزمناه طائِرَه في عُنُقِهِ﴾، قال: عمله، ﴿ونُخرِج له يومَ القيامةِ﴾، قال: نخرج ذلك العملِ ﴿كتاباً يلقاه مَنشُوراً﴾، قال مَعمرٌ: وتَلا الحسنُ البَصريُّ: ﴿عَنِ اليمينِ وعن الشمال قَعيد﴾، يا ابنَ آدمَ، بَسطتُ لك صَحِيفَتَك، ووُكِّلَ بك مَلَكان كريمان، أحدُهما عن يَمِينكِ والآخر عن يَسارك، فأما الذي عن يمينك فيحفظُ حَسَناتِك، وأما الذي عن يَسارِك فيحفظ سَيِّئاتِك، فاعمل[٣] ما شئت، أَقْلِل أو أكثر، حتى إذا مِتَّ طُوِيتْ صحيفتُك فجعلت في عنقك مَعَك في قَبرِك، حتى تَخرُج يوم القيامةِ كتاباً تلقاه منشوراً، ﴿اقرأ كتابَكَ كَفَى بنفسِكَ اليومَ عليكَ حسيبا﴾، قد عدل ـ والله ـ عليك من جَعَلك حَسِيبَ نَفْسِك[٤].

هذا من حَسَن كلام الحَسَن، رَحِمه الله.

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾

يُخبِرُ تعالى أن من اهتدَى واتَّبع الحقَّ واقتفى آثار النبوة فإنما يُحصِّل عاقبة ذلك الحميدةَ[٥] لنفسه، ﴿ومن ضلَّ﴾، أي: عَن الحق، وزاغ عن سبيلِ الرشادِ، فإنما يجني على نفسه، وإنما يعودُ وبالُ ذلك عليه.

ثم قال: ﴿ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزرَ أخرى﴾، أي: لا يحملُ أَحدٌ ذنبَ أحد، ولا يجني جانٍ إلا على نفسِه، كما قال تعالى: ﴿وإن تدع مُثقَلَة إلى حِمْلها لا يُحمَل منه شيء﴾.

ولا منافاةَ بين هذا وبينِ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وليحملُنّ أثقالَهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾، وقوله: ﴿ومن أوزار الذين يُضِلُّونهم بغير عِلْم﴾؛ فإن الدعاة عليهم إثمُ ضَلالهم في أنفسهم، وإثم آخرُ بِسببِ ما أضلوا مَن أضلُّوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحملوا عنهم شيئاً. وهذا من عَدْل الله ورحمتِه بعباده.

= حين هاجروا إلى رسول الله ﷺ، فباعها من عمْرو بن علقمة. انظر الخبر في سيرة ابن هشام ١/٤٤٩ ـ ٥٠٠. وللسهيلي في الروض الأنف ٢/١٤ ـ ١٥ شرح جيد لهذه الأبيات.

(٢) تفسير الطبري ١٥/٥٠ ـ ٥١.

(٢) مسند أحمد ٤/١٤٦. ويقول ابن القيم في عون المعبود ٧/١٧٧: «كل الميت يختم على عمله، المراد به على صحيفته، وأن لا يكتبُ له بعد موته عمل».

(٣) في نسخة الحرم: فاملك.

(٤) تفسير الطبري ١٥/٥٢ ـ ٥٣.

(٥) نسخة الحرم: الحمد.

وكذا قولُه: ﴿ وما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نبعَث رَسُولاً ﴾: إخبارٌ عن عدله تعالى، وأنه لا يُعَذِّب أحداً إلا بعد قيام الحجَّةِ عليه بإرسالِ الرسولِ إليه، كما قال تعالى: ﴿ كُلَّما أُلقِيَ فيها فَوجٌ سألهم خَزَنتُها ألم يأتكم نذيرٌ * قالوا بلى قد جاءنا نذير فَكَذَّبنا وقلنا ما نَزَّل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلالٍ كبيرٍ ﴾، وكذا قولُه: ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءُوها فُتِحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آياتِ ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حَقَّت كلمةُ العذابِ على الكافرين ﴾، وقال تعالى: ﴿ وهم يَصْطرِخون فيها رَبَّنا أَخرِجنا نَعمَلْ صالحاً غير الذي كنا نعمَلُ أو لم نُعَمِّركم ما يتذكَّر فيه من تَذَكَّر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾، إلى غير ذلك من الآياتِ الدالَّةِ على أن الله تعالى لا يُدخِلُ أحداً النارَ إلا بعد إرسالِ الرسول إليه. ومن ثَمَّ طعن جَماعةٌ من العلماء في اللفظة التي جاءت مُقْحَمَةً في صحيح البخاري، عند قوله تعالى: ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾:

حدثنا عُبَيد الله بن سعد، حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن صالح بن كيسان، عن الأعرج، عن أبي هُريرَةَ ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «اختصَمتِ الجنةُ والنارُ» . . . فذكر الحديث إلى أن قال: «وأما الجنةُ فلا يظلم الله مِنْ خلقه أحداً، وإنه يُنشِيءُ للنار خلقاً فَيُلقَون فيها، فتقول: هل من مزيد؟ ثلاثاً» . . . وذكر تمام الحديث(١).

فإن هذا إنما جاء في الجنة لأنها دارُ فضل، وأما النار فإنها دار عدل، لا يدخُلها أحدٌ إلا بعد الإعذار إليه، وقيامِ الحجَّةِ عليه. وقد تَكَلَّم جماعةٌ من الحفاظ في هذه اللفظة، وقالوا: لعله انقلَبَ على الراوي، بدليل ما أخرجاه في الصحيحين ـ واللفظ للبخاري ـ من حديث عبد الرزَّاق، عن مَعْمَرٍ، عن هَمَّام، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: «تحاجَّتِ الجنة والنار»، فَذَكر الحديثَ إلى أن قال: «فأما النارُ فلا تَمتَلِيءُ حتى يَضَع فيها قَدَمه، فتقول: قَطْ، قَطْ، فهنالك تمتلىءُ ويُزْوَى بعضُها إلى بعض، ولا يظلِم اللهُ من خَلْقِه أحداً، وأما الجنة فإن يُنشِيءُ لها خَلْقاً»(٢).

بَقِي ها هنا مسألةٌ قد اختلف العُلَماء فيها قَدِيماً وحديثاً، وهي الوِلدانُ الذين ماتُوا وهم صغاروآباؤهم كفار، ماذا حكمهم؟ وكذا المجنونُ والأصمُّ والشيخ الخَرِف، ومن مات في الفَتْرة ولم تبلغه دَعوة. وقد وردت في شأنهم أحاديث أنا ذاكرها لك بعون الله وتوفيقه، ثم نذكر فصلاً مُلَخَّصاً من كلام الأئمة في ذلك، والله المستعان.

* * *

فالحديثُ الأول: عن الأسود بن سَرِيع، قال الإمام أحمدُ:

حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا مُعاذ بن هشام، حدثني أبي، عن قتادَةَ، عن الأحنفِ بن قيس، عن الأسودِ بن سَرِيعٍ ـ رضي الله عنه ـ أَنَّ نبي الله ـ ﷺ ـ قال: «أربعة يحتجُّون يوم القيامة: رجل أَصَمُّ لا يسمَع شيئاً، ورجل أحمَقُ، ورجل هَرِمٌ، ورجل مات في فَتْرَةٍ. فأما الأصمُّ فيقولُ: ربِّ، لقد جاء الإسلام وما أسمعُ شيئاً. وأما الأحمق فيقول: ربِّ، لقد جاء الإسلام والصبيان يَحْذِفوني بالبَعْر. وأما الهَرِمُ فيقول: ربِّ، لقد جاء الإسلام وما أعقِلُ شيئاً. وأما الذي مات في الفترة فيقول: ربِّ، ما أتاني لك رسولٌ. فيأخذُ مواثيقهم ليُطيعُنَّه،

---

(١) فتح الباري، كتاب التوحيد ١٣/٤٣٤.

(٢) فتح الباري، تفسير سورة ق ٨/٥٩٥، ومسلم، كتاب الجنة ٤/٢١٨٦ ـ ٢١٨٧.

فيرسِلُ إليهم أن ادخلوا النار. فوالذي نفسُ محمدٍ بيدِه، لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً»(١).

وبالإسناد عن قتادة، عن الحَسَن، عن أبي رافع، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مثل هذا الحديث غير أنه قال في آخره: «فمن دخلها كانت عليه بَرْداً وسَلَاماً، ومن لم يدخلها يُسْحَبْ إليها».

وكذا رواه إسحاق بن راهويه، عن معاذ بن هشام، ورواه البيهقي في كتاب الاعتقاد، من حديث حَنْبَل(٢) بن إسحاق، عن علي بن عبد الله المَدينيِّ، به، وقال: هذا إسناد صحيح. وكذا رواه حَمّاد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي رافع، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أربعةٌ كلُّهم يُدْلِي على الله بحجة»... فذكر نحوه.

ورواه ابنُ جرير، من حديث مَعْمَرٍ، عن هَمّام، عن أبي هُرَيرة، فذكره موقوفاً، ثم قال أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً)(٣).

وكذا رواه مَعْمَرٌ، عن عبد الله بن طاوس، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ موقوفاً.

* * *

الحديث الثاني: عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال أبو داود الطيالسي:

حدثنا الربيع، عن يزيد ـ هو ابنُ أبان ـ قلنا لأنس: يا أبا حَمزةَ، ما تقول في أطفال المشركين؟ فقال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لم يكن لهم سيئاتٌ فَيُعذَّبوا بها، فيكونوا من أهل النار. ولم يكن لهم حسناتٌ فَيُجازَوا بها فيكونوا من مُلُوكِ أهل الجنة، هم خَدَمُ أهل الجنة»(٤).

* * *

الحديث الثالث: عن أنس أيضاً، قال الحافظ أبو يَعْلَى:

حدثنا أبو خَيْثَمةَ، حدثنا جرير، عن لَيثٍ، عن عبد الوارث، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يؤتى بأربعةٍ يومَ القيامةِ: بالمولود، والمعتوه، ومن مات في الفترة، والشيخ الفاني الهِمِّ(٥)، كلهم يتكلَّم بحجته، فيقول الربُّ ـ تبارك وتعالى ـ لِعُنُق(٦) من النار: ابرُزْ. ويقول لهم: إني كنتُ أبعَثُ إلى عبادي رُسُلاً من أنفسهم، وإني رَسُولُ نفسِي إليكم، ادخلوا هذه. قال: فيقولُ من كُتِب عليه الشقاء: يا رب، أنىَّ ندخلُها ومنها كنا نَفِرُّ؟ قال: ومن كُتِبت عليه السعادةُ يمضي فَيَقتَحِمُ فيها مسرعاً، قال: فيقول الله تعالى: أنتم لِرُسُلي أشدُّ تكذيباً ومعصيةً. فَيُدخِلُ هؤلاءِ الجنةَ، وهؤلاءِ النارَ»(٧).

وهكذا رواه الحافظُ أبو بكر البَزّار، عن يُوسُفَ بن موسى، عن جَرِيرِ بن عبد الحميدِ، بإسنادهِ مثلَه.

* * *

الحديثُ الرابع: عن البَرَاء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده أيضاً:

حدثنا قاسم بن أبي شيبة، حدثنا عبد الله ـ يعني ابن داود ـ عن عمر بن ذَرٍّ، عن يزيدَ بن أُميَّةَ، عن

(١) مسند أحمد ٤/٢٤.

(٢) في نسخة الحرم: أحمد بن إسحاق. والصواب ما أثبتناه. انظر المؤتلف والمختلف للدارقطني ٢/٧٦٨.

(٣) تفسير الطبري ١٥/٥٤.

(٤) مسند أبي داود الطيالسي ٢٨٢.

(٥) الهِمُّ: الشيخ الكبير الفاني.

(٦) أي: قطعة منها.

(٧) مسند أبي يعلى ٧/٢٢٥.

البَرَاء ـ رضي الله عنه ـ قال: سُئِلَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن أطفال المسلمين، قال: هُم مع آبائهم. وسئل عن أولاد المشركين فقال: هم مع آبائهم. فقيل: يا رسول الله، ما يعملون؟ قال: الله أعلم بهم.

ورواه عُمَر بن ذَرٍّ، عن يزيدَ بن أُميَّةَ، عن رَجُل، عن البَرَاء، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ فذكره.

* * *

الحديثُ الخامِسُ: عن ثوبان، قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عَمْرو بن عبد الخالق البَزَّارُ في مسنده:

حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهريّ، حدثنا ريحان بن سعيد، حدثنا عَبَّاد بن منصور، عن أيوب، عن أبي قِلَابَةَ، عن أبي أسماءَ، عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ: أن نبيَّ الله ـ ﷺ ـ عَظَّم شأن المسألة، قال: إذا كان يومُ القيامة، جاء أهلُ الجاهلية يحملون أوثانَهم على ظُهُورهم، فَيَسْأَلهم ربُّهم، فيقولون: رَبَّنا لَمْ تُرْسِلْ إلينا رسولاً، ولم يَأْتِنا لك أمر، ولو أرسلْتَ إلينا رَسُولاً لكنا أطوعَ عبادك. فيقول لهم ربُّهم: أرأيتُم إن أمرتُكم بأمر تطيعوني؟ فيقولون: نعم. فيأمُرُهم أن يَعْمِدُوا إلى جَهَنَّم فيدخلوها، فينطلِقُونَ حتى إذا دَنَوا منها وجدوا لها تَغَيُّظاً وزَفيراً، فرجعوا إلى رَبِّهم فيقولون: ربنا أخرجنا ـ أو: أَجِرْنا ـ منها، فيقول لهم: ألم تزعموا أنكم إن أمرتكم بأمر تطيعوني؟ فيأخذ على ذلك مواثيقَهم. فيقول: اعمِدُوا إليها، فادخلوها. فينطلقون حتى إذا رأوها فَرِقوا ورَجَعُوا، فقالوا: ربنا فَرِقنا منها، ولا نستطيع أن ندخلها. فيقول: ادخُلُوها داخرين. فقال نبي الله ـ ﷺ ـ: لو دخلوها أوَّل مَرَّةٍ كانت عليهم برداً وسلاماً»[1].

ثم قال البَزّار: ومَتْنُ هذا الحديث غير معروف إلا من هذا الوجه، لم يَرْوِه عن أيوب إلا عَبَّاد، ولا عن عَبَّاد إلا ريحانُ بن سعيد.

قلت: وقد ذكره[2] ابن حِبَّان في ثِقَاته. وقال يحيى بن مَعِين والنسائي: لا بأس به، ولم يرضه أبو داود. وقال أبو حاتم: شيخ لا بأس به، يكتب حديثه ولا يحتج به.

* * *

الحديث السادس: عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سِنان الخُدْرِي ـ رضي الله عنه ـ قال الإمام محمد بن يحيى الذهلي:

حدثنا سعيد بن سليمان، عن فُضَيل بن مرزوق، عن عَطِيَّةَ، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: الهالك في الفترة والمعتوه والمولود، يقول الهالك في الفترة: لم يأتني كتابٌ. ويقول المعتُوه: ربِّ، لم تجعل لي عقلاً أعقِلُ به خيراً ولا شرًّا. ويقول المولود: ربِّ، لم أدرك العقل. فَتُرفع لهم نارٌ فيقال لهم: رِدُوها. قال: فَيَرِدُها من كان في علم الله سعيداً لو أدركَ العمَلَ، ويُمسِكُ عنها من كان في علم الله شَقِيًّا لو أدرك العمل. فيقول: إيايَ عصيتم، فكيفَ لو أن رسلي أتتكم؟.

وكذا رواه البزار، عن محمد بن عُمَر بن هَيَّاج الكوفي، عن عُبَيد الله بن موسى، عن فُضَيل بن مرزوق، به. ثم قال: لا يُعرف من حديث أبي سعيد إلا من طريقه، عن عطية، عنه. وقال في آخره: «فيقول الله: إياي عصيتم، فكيف برسلي بالغيب[3]؟.

* * *

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار ٤/١٥٦ ـ ١٥٧، وقد وقع فيه سقط.

(٢) يعني: ريحان بن سعيد. انظر تهذيب الكمال ٩/٢٦٠ ـ ٢٦١.

(٣) كشف الأستار عن زوائد البزار ٣/٣٤.

الحديث السابع: عن مُعَاذِ بن جَبَلٍ ـ رضي الله ـ قال هشام بن عَمّار، ومحمد بن المبارك الصُّوريّ:

حدثنا عَمْرو بن واقد، عن يونس بن حَلْبَس، عن أبي إدريس الخولاني، عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ عن نبي الله ـ ﷺ ـ قال: «يُؤتَى يومَ القيامةِ بالممسُوخ عقلاً، وبالهالك في الفَتْرَةِ، وبالهالِكِ صَغِيراً. فيقول الممسُوخُ عقلاً: يا ربِّ، لو آتيتني عقلاً ما كان من آتيتَه عقلاً بأسعد بعقله منّي. وذَكَر في الهالك في الفَتْرةِ والصِّغيرِ نحوَ ذلك، فيقول الربُّ ـ عزَّ وجلَّ ـ: إني آمركم بأمرٍ فَتُطِيعُوني؟ فيقولونَ: نَعَم. فيقول: اذهبُوا فادخلُوا النارَ. قال: ولو دَخلُوها ما ضَرَّتْهم، فَيُخرج عليهم قوابض[١]، فيظنون أنها قد أهلكت ما خلق الله من شيء، فيرجعون سراعاً، ثم يأمرهم الثانية فيرجعون كذلك، فيقول الربُّ ـ عزَّ وجلَّ ـ: قبل أن أخلقكم عَلِمْتُ ما أنتم عاملون، وعلى عِلْمِي خلقتكم، وإلى علمي تَصِيرون، ضُمِّيهم. فتأخذهم النار».

* * *

الحديث الثامن: عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ. قد تقدم روايته مندرجةً مع رواية الأسود بن سَرِيع رضي الله عنه.

وفي الصحيحين، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «كلُّ مولود يُولَدُ على الفِطْرَةِ، فأبواهُ يُهَوِّدانه ويُنَصِّرانه ويُمجِّسانه، كما تُنْتَج البهيمةُ بهيمةً جَمْعَاء، هل تحسّون فيها من جَدْعَاء»[٢]؟.

وفي رواية قالُوا: يا رسولَ اللهِ، أفرأيتَ من يموتُ صغيراً؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا عبدُ الرَّحمن بنُ ثابتٍ، عن عطاء بن قُرَّةَ، عن عبد الله بن ضَمْرة، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ـ ﷺ ـ فيما أعلم، شكَّ موسى ـ قال: ذَرَاريّ المسلمين في الجنة، يكفُلُهم إبراهيم عليه السلام[٣]».

وفي صحيح مسلم، عن عياض بن حِمَارٍ، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ عن الله ـ عَزّ وجلَّ ـ أنه قال: «إني خلقت عبادي حُنَفَاء»[٤]. وفي رواية [لغيره]: مسلمين.

* * *

الحديث التاسع: عن سَمُرة ـ رضي الله عنه ـ رواه الحافظُ أبو بكر البَرْقانيّ في كتابه «المستخرج على البخاري» من حديث عَوْفٍ الأعرابي، عن أبي رَجَاءٍ العَطَاردي، عن سَمُرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: كُلُّ مولود يُولَد على الفِطْرَة. فناداه الناسُ: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ قال: وأولادُ المشركين.

وقال الطبراني: حدثنا عبدُ الله بن أحمدَ، حدثنا عقبة بن مُكْرَم الضبِّي، عن عِيسى بن شُعَيب، عن عَبَّاد بن منصور، عن أبي رجاءٍ، عن سَمُرَةَ قال: سَأَلْنا رسولَ الله ـ ﷺ ـ عن أطفال المشركين فقال: هم خَدَمُ أهلِ الجَنّة[٥].

* * *

(١) في نسخة الحرم كأنها: «فرائص».

(٢) أخرجاه في كتاب القدر، فتح الباري ٤٩٣/١١، ومسلم ٢٠٤٧/٤ ـ ٢٠٤٨. والبهيمة الجمعاء: المجتمعة الأعضاء السليمة من النقص. والجدعاء: المقطوعة الأذن. والمعنى: أن البهيمة تلد بهيمة كاملة الأعضاء لا نقص فيها، وإنما يحدث فيها الجدع والنقص بعد ولادتها.

(٣) مسند أحمد ٣٢٦/٢.

(٤) مسلم كتاب الجنة ٢١٩٧/٤.

(٥) المعجم الكبير ٢٤٤/٧.

الحديث العاشر، عن عم حَسْناء[١] قال أحمد:

أخبرنا رَوحُ[٢]، حدثنا عَوفٌ، عن حَسناءَ[١] بنتِ معاويةَ، من بني صُرَيم قالت: حَدَّثني عَمِّي قال: قلتُ: يا رسولَ الله ـ من في الجنة؟ قال: النبيُّ في الجنةِ، والشهيدَ في الجنةِ، والمولودُ في الجنةِ، والوئيدُ في الجنةِ»[٣].

* * *

فمن العلماءِ من ذَهَب إلى التوقّف فيهم لهذا الحديث. ومنهم من جَزَم لهم بالجنة، لحديث سَمُرة بن جُندَب ـ رضي الله عنه ـ في صحيح البخاري: أنه ـ ﷺ ـ قال في جُملة ذلك المنام، حين مَرّ على ذلك الشيخ تحتَ الشجرةِ وحولَه وَلَدان، فقال له جبريلُ: «هذا إبراهيم عليه السلام، وهؤلاء أولادُ المسلمين وأولادُ المشركين، قالوا: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ قال: نعم، وأولاد المشركين»[٤].

ومنهم من جَزَم أنهم في النار، لقوله ـ ﷺ ـ: «هم مع آبائهم».

ومنهم من ذهب إلى أنهم يُمْتَحنون يوم القيامة في العَرَصات، فمن أطاع دَخَل الجنة وانكشف علمُ الله فيه بسابق السعادَة، ومن عَصَى دخل النار داخراً، وانكشف علم الله فيه بتقدُّم الشقاوة.

وهذا القولُ يجمع بين الأدلَّة كلها، وقد صَرَّحت به الأحاديثُ المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضُها لبعض، وهذا القولُ هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ـ رحمه الله ـ عن أهل السنّة والجماعة. وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي ـ رحمه الله ـ في «كتاب الاعتقاد». وكذلك غيرُه من مُحَقّقي العلماء والحفاظ النقاد.

وقد ذَكَر الشيخ أبوعمر بن عبد البرّ النَّمَرِيّ ـ رحمه الله ـ بعض ما تقدم من أحاديث الامتحان، وقال: وأحاديث هذا الباب ليست قوية، ولا تقومُ بها حجة، وأهل العلم ينكرونها؛ لأن الآخرةَ دارُ جزاءٍ وليست دار عمل ولا ابتلاء، وكيف يُكَلَّفون دخول النار وليس ذلك في وسع المخلوقين، والله لا يُكَلِّف نفساً إلا وُسْعَها؟!.

والجواب عما قال: أن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيحٌ، كما قد نصَّ على ذلك غير واحد من أئمة العلماء، ومنها ما هو حَسَن، ومنها ما هو ضعيف يَقْوَى بالصحيح والحسن. وإذا كانت أحاديثُ البابِ الواحدِ متعاضدةً على هذا النمط، أفادت الحجَّةَ عند الناظر فيها. وأما قولُه: «إنَّ الآخرةَ دارُ جزاء»، فلا شكَّ أنها دار جزاء، ولا ينافي التكليفَ في عَرَصاتها قبلَ دخولِ الجنة أو النار، كما حكاه الشيخ أبو الحَسَن الأشعريُّ عن مذهب أهل السنةِ والجماعةِ، من امتحان الأطفال، وقد قال الله تعالى: ﴿ يومُ يكشَف عن ساق ويُدْعَون إلى السجود فلا يستطيعون ﴾، وقد ثبتت السنة في الصحاح وغيرها: أن المؤمنين يَسجُدون لله يوم القيامة، وأما المنافق فلا يَستَطِيعُ ذلك ويعود ظهره طَبَقاً[٥] واحداً كُلَّما أرادَ السجُودَ خرّ لِقَفَاه[٦].

---

(١) في نسخة الحرم: خنساء. والمثبت عن المسند، والمؤتلف والمختلف للدارقطني ٧٩٧/٢. وقد ذكر في التقريب ٥٩٤/٢ الروايتين؟ حسناء، وخنساء.

(٢) كذا في نسختي الحرم والأزهر. وفي المسند أن الإمام أحمد يرويه عن إسحاق الأزرق، عن عوف. وكما يروي الإمام أحمد عن إسحاق ابن يوسف الأزرق، يروي كذلك عن روح بن عبادة. انظر تهذيب الكمال ٤٣٧/١، ٢٤٠/٩.

(٣) مسند أحمد ٥٨/٥.

(٤) فتح الباري، كتاب التعبير ٤٣٩/١٢.

(٥) الطَّبَق: فَقَارُ الظهر، واحدته طَبَقَة واحدة، يقول: فصار فَقَارهم كلّه فَقَارةً واحدةً فلا يقدرون على السجود.

(٦) أخرجه البخاري في تفسير سورة ن والقلم ٦٦٣/٨ ـ ٦٦٤.

وفي الصحيحَين في الرَّجُلِ الذي يَكونُ آخرَ أهلِ النارِ خُروجاً منها: أنَّ الله يأخذُ عهودَه ومواثيقَه ألاَّ يَسألَ غيرَ ما هو فيه، ويتكرَّر ذلك مِراراً، ويقولُ الله تعالى: «يـا ابنَ آدمَ، ما أغدَرَكَ! ثم يأذَنُ له في دُخولِ الجَنّةِ»(١).

وأما قولُه: «وكيف يُكلِّفُهم دخولَ النار، وليس ذلك في وُسْعِهم؟»، فليس هذا بمانعٍ من صِحَّة الحديث، فإنَّ الله يأمرُ العباد يومَ القيامة بالجواز على الصراط، وهو جِسْرٌ على جهنم أحَدُّ من السيفِ وأدقُّ من الشَّعْرَةِ، ويمرُّ المؤمنون عليه بحسب أعمالهم كالبَرْقِ وكالرِّيح وكأجاويد الخيل والرِّكاب، ومنهم السَّاعي ومنهم الماشي، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم المكدُوسُ(٢) على وَجْهِه في النار(٣). وليس ما ورد في أولئك بأعظَمَ من هذا، بل هذا أطمُّ وأعظَمُ. وأيضاً فقد ثَبَتَتِ السنَّةُ بأن الدجّال يكون معه جَنَّةٌ ونار، وقد أمر الشارعُ المؤمنين الذين يُدرِكُونه أن يشرَبَ أحدهم من الذي يرى أنه نار، فإنه يكونُ عليه بَرْداً وسلاَماً، فهذا نظير ذلك؛ وأيضاً فإن الله تعالى أمر بني إسرائيل أن يقتُلوا أنفُسَهم، فَقَتل بعضُهم بعضاً حتى قَتَلُوا فيما قيل في غَداةٍ واحدةٍ سبعين ألفاً، يقتلُ الرجلُ أباه وأخاه، وهم في عَمَايةِ غمامةٍ أرسلها الله عليهم، وذلك عقوبةٌ لهم على عبادتهم العِجْلَ، وهذا أيضاً شاق على النفوس جداً لا يتقاصَرُ عما ورد في الحديث المذكور، والله أعلم.

فصــل

فإذا تُقَرَّر هذا، فقد اختلفَ الناسُ في ولدانِ المشركين على أقوالٍ:

أحدُها: أنهم في الجنة، واحتجوا بحديث سَمُرة ـ رضي الله عنه ـ أنه ـ ﷺ ـ رأى مع إبراهيم أولاد المسلمين وأولاد المشركين وبما تقدم في رواية أحمد، عن حسنـاء(٤)، عن عمها أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «والمولودُ في الجنة». وهذا استدلالٌ صحيحٌ، ولكنَّ أحاديثَ الامتحانِ أخصُّ منه؛ فمن عَلِم الله ـ عزّ وجلّ ـ منهم أنه يُطيع جعل رُوحَه في البَرْزَخِ مع إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأولاد المسلمين الذين ماتوا على الفِطْرَة، ومن عَلِم منهم أنه لا يُجيب، فأمرُه إلى الله تعالى، ويوم القيامة يكون في النار كما دَلَّت عليه أحاديث الامتحان، ونقله الأشعريُّ عن أهل السنّة والجماعة، ثم مِن هؤلاء القائلين بأنهم في الجنة مَنْ يَجعلهم مُستقلّين فيها، ومنهم مَن يَجعلُهم خَدَماً لهم، كما جاء في حديث علي بن زَيدٍ، عن أنس، عند أبي داود الطيالسي، وهو ضعيف، والله أعلم.

القولُ الثاني: أنَّهم مع آبائهم في النار، واستدلَّ عليه بما رواه الإمامُ أحمدُ بن حنبل، عن أبي المغيرة: حدثنا عُتبةَ بن ضَمْرة بن حَبِيب، حَدَّثني عبد الله بن أبي قيس مولى غُطَيف، أنه أَتى عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ فسألها عن ذَرَاري الكفار فقالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: هم تَبَع لآبائهم: فقلت: يا رسولَ اللهِ، بلا عَمَلٍ؟ فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين(٥).

وأخرجه أبو داود(٥) من حديث محمد بن حَرْبٍ، عن محمد بن زياد الألهاني، سَمِعت عبد الله بن أبي

(١) فتح الباري، كتاب الرقاق ٤٤٥/١١، ومسلم، كتاب الإيمان ٢٩٩/١.

(٢) أي: المدفوع.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، فتح الباري ٤٢١/١٣، ومسلم في كتاب الإيمان ١٦٩/١.

(٤) في نسخة الحرم: خنساء، وقد تقدّم من قريب بيان ما قيل في ضبط هذا الاسم.

(٥) مسند الإمام أحمد ٨٤/٦، وسنن أبي داود، كتاب السنة ٢٢٩/٤.

قيس، سمعت عائشة تَقُول: سألت رسول الله ـ ﷺ ـ عن ذَرَارِي المؤمنين، قال: هم من آبائهم. قلت: فَذَرَارِي المشركين؟ قال: هم من آبائهم: قلت: بلا عمل؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين.

ورواه الإمامُ أحمد أيضاً، عن وكيع، عن أبي عَقِيل يحيى بن المتوكل، وهو متروكٌ، عن مولاته بُهَيَّة، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ «أنها ذكرت لرسول الله ـ ﷺ ـ أطفال المشركين فقال: إنْ شِئْتَ أسمعتُك تَضَاغِيَهم في النار»[1].

وقال عبد الله ابنُ الإمام أحمد: حدثنا عثمانُ بن أبي شيبة، عن محمد بن فُضَيل بن غَزْوان، عن محمد بن عثمان، عن زاذان، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: سألَتْ خديجة ـ رضي الله عنها ـ رسولَ الله ـ ﷺ ـ عن ولدين لها ماتا في الجاهلية، فقال: هما في النار. قال: فلما رأى الكراهية في وجهها قال: لو رأيت مكانهما لأبغَضْتِهما. قالت: فولدي منك؟ قال: [(٢قال: في الجنة: قال: ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ]٢): إن المؤمنين وأولادَهم في الجَنَّةِ، وإن المشركين وأولادَهم في النار. ثم قرأ: ﴿ والذين آمنوا وأَتبعناهم[3] ذُرِّيَّاتهم بإيمان﴾[4].

وهذا حَدِيثٌ غريبٌ، فإن محمد بنَ عثمان هذا مجهولُ الحال، وشيخُه زاذان لم يُدرِكْ علياً ـ رضي الله عنه ـ والله أعلم.

وروى أبو داود من حديثِ ابن أبي زائدة، عن أبيه، عن الشَّعبيِّ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: الوائدةُ والموءودةُ في النار: ثم قال الشعبي: حدثني به علقمة، عن أبي وائل، عن ابن مسعود[5].

وقد رواه جماعةٌ، عن داود بن أبي هندَ، عن الشَّعبِّي، عن عَلْقَمة، عن سَلَمَة بن قيس[6] الأشْجعيِّ قال: أتيت أنا وأخي النبي ـ ﷺ ـ فقلنا: إنَّ أمنا ماتت في الجاهلية، وكانت تَقْرِي الضيفَ وتَصِلُ الرَّحِم، وإنها وأدت أختاً لَنا في الجاهلية لم تبلغ الحِنْثَ. فقال: الوائِدَةُ والموءودَةُ في النار، إلا أن تُدرِكَ الوائدةُ الإسلامَ فتسلِمَ. وهذا إسنادٌ حسنٌ.

والقولُ الثالث: التوقُّف فيهم، واعتمَدُوا على قوله ـ ﷺ ـ: «الله أعلَمُ بما كانوا عاملين». وهو في الصحيحين من حديث جَعفرِ بن إياس، عن سعيد بنُ جبير، عن ابن عباس: سُئِل رسول الله ـ ﷺ ـ عن أولاد المشركين قال: «الله أعلم بما كانوا عَامِلين»[7]. وكذلك هو في الصحيحين، عن الزهري، عن عطاء بن يزيد[7]، وعن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: أنه سُئِل عن أطفال المشركين، فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين».

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢٠٨/٦. وتضاغيهم: صياحهم.

(٢ ـ ٢) عن المسند.

(٣) هذه قراءة أبي عمرو من السبعة. انظر الإقناع لابن الباذش ٧٧٢/٢.

(٤) مسند الإمام أحمد ١٣٤/١ ـ ١٣٥.

(٥) سنن أبي داود، كتاب السنة ٢٣٠/٤.

(٦) كذا، والحديث رواه الإمام أحمد في مسنده ٤٧٨/٣ من هذه الطريق، وكذلك الطبراني في المعجم الكبير ٣٩/٧ ـ ٤٠ عن سلمة بن يزيد الجعفي. وانظر مجمع الزوائد ١١٨/١ ـ ١١٩. والحِنْثُ: الإدراكُ.

(٧) فتح الباري، كتاب الجنائز ٢٤٥/٣، وكتاب القدر ٤٩٣/١١. ومسلم، كتاب القدر ٢٠٤٩/٤.

ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف. وهذا القولُ يرجع إلى قول من ذَهَب إلى أنَّهم من أهل الجنةِ، لأن الأعراف ليس دَارَ قرارٍ، ومآل أهلِها إلى الجنَّةِ كما تَقدَّم تقريرُ ذلك في «سورة الأعراف»، والله أعلم.

فصـــل

وَلْيُعلم أن هذا الخلافَ مخصوصٌ بأطفال المشركين، فأما وِلدانُ المؤمنين فلا خلافَ بين العلماء - كما حكاه القاضي أبو يَعْلَى بن الفَرَّاء الحنبلي، عن الإمام أحمد أنه قال: لا يُختلَفُ فيهم أنَّهم من أهل الجنة. وهذا هو المشهور بين الناسِ، وهو الذي نقطَعُ به إن شاء الله تعالى. فأما ما ذكره الشيخُ أبو عمر بنُ عبد البرّ، عن بعض العلماء: أنهم تَوقَّفوا في ذلك، وأن الولدان كلهم تحت مَشِيئة الله تعالى، قال أبو عمر: ذهب إلى هذا القولِ جماعةٌ من أهل الفقه والحديث منهم: حمادُ بن زيد، وحمادُ بن سلمة، وابنُ المبارك، وإسحاق بن راهُويه وغيرهم، قالوا: وهو يشبه ما رَسَم مالك في مُوطئه في أبواب القدر، وما أورده من الأحاديث في ذلك، وعلى ذلك أكثر أصحابه. وليس عن مالك فيه شيء منصوص، إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلى أن أطفال المسلميـن في الجنة، وأطفاال الكفار تحت المشيئة. انتهى كلامه، وهو غريبٌ جداً.

وقد ذَكَر أبو عبد الله القرطبي في كتاب «التذكرة»[١] نحو ذلك أيضاً، والله أعلم.

وقد ذَكَرُوا في ذلك حديث عائشة بنت طلحةَ، عن عائشة أُمِّ المؤمنين - رضي الله عنها - قالت: «دُعِي رسول الله - ﷺ - إلى جنازة صَبِيٍّ من الأنصار، فقلتُ: يا رسول الله، طُوبى له عصفورٌ من عصافير الجنة. لم يعمَل السوءَ ولَم يُدْرِكه. فقال: أوَ غير ذلك يا عائشة، إن الله خَلَق الجنةَ وخَلَق لها أهلاً وهم في أصلابِ آبائهم، وخَلَق النار وخَلَق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم.

رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه[٢].

ولما كان الكلامُ في هذه المسألة يحتاجُ إلى دلائلَ صحيحةٍ جيدةٍ، وقد يتكلَّم فيها من لا عِلْمَ عنده عن الشارع، كره جماعة من العلماء الكلام فيها، رُوِي ذلك عن ابن عباس، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، ومحمد بن الحنفية وغيرهم. وأخرج ابن حِبَّان في صحيحه، عن جرير بن حَازِم: سمعت أبا رَجَاء العَطَاردي، سَمِعتُ ابن عباس - رضي الله عنه - وهو على المنبر يقول: قال رسولُ الله - ﷺ -: لا يزالُ أمر هذه الأمة مواتياً - أو: مُقارِباً[٣] - ما لم يتكلَّموا في الولدان والقدر.

قال ابن حِبَّان: يعني أطفال المشركين[٤].

وهكذا رواه أبو بكر البزَّار، من طريق جَرير بن حازم، به. ثم قال: وقد رواه جماعةٌ عن أبي رَجَاءٍ، عن ابن عباس مَوقُوفاً[٤].

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾

(١) انظر كتاب التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ٥١١ - ٥١٧.
(٢) مسند أحمد ٤١/٦، ومسلم، كتاب القدر ٢٠٥٠/٤، وسنن أبي داود، كتاب السنة ٢٢٩/٤، والنسائي، كتاب الجنائز ٥٧/٤، وابن ماجه في المقدمة ٣٢/١.
(٣) المواتاة: حسن المطاوعة. وأصله أن يقال بالهمز: مؤاتاة. والمقاربة: القصدُ في الأمور كلها وترك المغالاة.
(٤) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب التاريخ ٢٥٥/٨ - ٢٥٦. وكشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب القدر ٣٥/٣ - ٣٦.

اختلف القراء في قراءةِ قوله: ﴿ أَمَرنا ﴾ - فالمشهور قراءة التخفيف(١). واختلف المفسرون في معناها، فقيل: معناه أَمَرنا مترفيهـا فَفَسقوا فيها أمراً قَدَرياً، كقوله تعالى: ﴿ أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً ﴾؛ فإن الله لا يأمر بالفحشاء. قالوا: معناه أنه سَخَّرهم إلى فعل الفواحش، فاستحقوا العذاب.

وقيل: معناه أَمَرناهم بالطاعاتِ فَفعلُوا الفواحش، فاستحقوا العقوبة. رواه ابن جُرَيج عن ابن عباس، وقاله سعيد بن جُبَير أيضاً.

وقال ابنُ جَرِير: «وقد يحتمل أن يكون معناه: جعلناهم أمراء».

قلت: هذا إنما يجيء على قراءة من قرأ: ﴿ أَمَّرْنا مترفيهـا ﴾؛ قال علي بن طلحةَ، عن ابن عباس قوله: ﴿ أمَّرنا مترفيها ففسقوا فيها ﴾، يقول: سَلَّطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب، وهو قوله: ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكُروا فيها﴾(٢). وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، والربيعُ بن أنس.

وقال العوفي، عن ابن عباس - رضي الله عنه: ﴿ وإذا أردنا أن نُهلك قرية آمرنا مترفيها ففسقوا فيها ﴾، يقول: أكثرنا عددهم. وكذا قال عكرمةُ، والحسنُ، والضحّاكُ، وقتادةُ. وعن مالك، عن الزهريِّ: ﴿ آمرنا مترفيها ﴾: أكثرنا.

وقد استشهد بعضُهم بالحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال:

حدثنا روحُ بن عُبادة، حدثنا أبو نَعَامة العدويُّ، عن مسلم بن بُدَيل، عن إياس بن زُهَير، عن سُوَيد بن هُبَيْرَةَ، عن النبي - ﷺ - قال: «خيرُ مالِ امرىءٍ مُهرةٌ مأمورةٌ، أو سِكَّةٌ مأبورةٌ»(٣).

قال الإمام أبو عُبَيد القاسم بن سَلَّام - رحمه الله - في كتابه الغريب: المأمورةُ كثيرةُ النَّسْل. والسِّكة: الطريقةُ المصطَّفةُ من النخل. والمأبُورة من التأبير.

وقال بعضهم: إنما جاء هذا متناسباً كقوله: «مَأْزُوراتٍ غير مَأْجُوراتٍ»(٤).

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

يقول تعالى مُنذِراً كفّار قريش في تكذيبهم رسولَه محمداً - ﷺ - بأنه قد أهلك أمماً من المكذِّبين للرسل من بعد نوح، ودلَّ هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح - عليهما السلام - على الإسلام، كما قاله ابن عباس - رضي الله عنهما -: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلّهم على الإسلام.

---

(١) أَمَرْنا - بالتخفيف وقصر الهمزة - قراءةُ السبعة، وقرأ يعقوب بمدّ الهمزة والتخفيف: آمَرْنا. وقد رُوِيت عن ابن كثير وأبي عَمْرو وعاصم ونافع. وقد قرأ أبو عثمان النهدي، وابن عباس، والربيع بن أنس، وغير واحد: أَمَّرنا بتشديد الهمز. انظر الإتحاف ٢٨٢، وتفسير الطبري ١٥/٥٥.

(٢) تفسير الطبري ١٥/٥٥.

(٣) مسند أحمد ٣/٤٦٨.

(٤) أخرجه ابن ماجه في كتاب الجنائز ١/٥٠٢-٥٠٣. وكان القياس أن يقال: مَوْزورات، لأنه من الوِزْر، ولا موجب لقلب الواو همزة، وإنما قيل: مازورات للازدواج بماْمورات. فأما الازدواج الذي في حديث أحمد ففي قوله مهرة مامورة، لأنه اسم مفعول منه آمرها الله: أي: أكثر نسلها، وقياسه أن يقال: مُؤْمَرَةٌ، ولكن جيء به على وزن مفعول مزاوجة لقوله: مَأْبُورة. فأما على اللغة الأخرى التي نقول. أَمَرَها الله، فلا مزاوَجَةَ، لأن اسم المفعول على بابه من الثلاثي.

ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم، وقد كذَّبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى.

وقوله: ﴿ وكفى بربِّك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ﴾، أي: هو عالمٌ بجميع أعمالِهم، خيرِها وشرِّها، لا يخفي عليه منها خافيةٌ، سبحانه وتعالى.

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾

يُخبِرُ تعالى أنه ما كلُّ من طَلَب الدنيا وما فيها من النعيم يحصُل له، بل إنما يحصُل لمن أراد الله ما يشاء. وهذه مقيَّدةٌ لإطلاقِ ما سواها من الآيات، فإنه قال: ﴿ عَجَّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جَهنَّم ﴾، أي: في الدار الآخرة، ﴿ يصلاها ﴾، أي: يَدخُلُها حتى تغمُرَه من جميع جوانبه، ﴿ مذموماً ﴾، أي: في حال كونه مذموماً على سوء تَصرُّفه وصَنِيعه، إذ اختار الفاني على الباقي، ﴿ مدحوراً ﴾، مُبعَداً مَقصِيًّا حقيراً ذليلاً مهاناً.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حسين، حدثنا ذُوَيد، عن أبي إسحاق، عن زُرعَةَ، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الدنيا دارُ مَن لا دار له، ومالُ مَن لا مالَ له، ولها يجمع من لا عقلَ له»(١).

وقولُه: ﴿ ومن أرادَ الآخِرَة ﴾، أي: أراد الدارَ الآخِرَة وما فيها من النعيم والسرور ﴿ وسعَى لها سَعْيَها ﴾، أي: طَلَب ذلك من طريقه، وهو متابعةُ الرسولِ، ﴿ وهو مؤمن ﴾، أي: وقلبهُ مؤمن، أي: مُصَدِّق مُوقِنٌ بالثواب والجزاء، ﴿ فأولئك كان سعيهُم مَشكُوراً ﴾.

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ كُلًّا ﴾، أي: كلُّ واحد من الفريقين الذين أرادُوا الدنيا والذين أرادُوا الآخرة، نُمِدُّهم فيما هم فيه ﴿ من عطاء ربك ﴾، أي: هو المتصرِّفُ الحاكم الذي لا يجورُ، فيعطي كُلًّا ما يَستَحِقُّه من الشقاوة والسعادة. ولا رادَّ لحكمه، ولا مانعَ لما أعطى، ولا مُغيِّرَ لما أراد. ولهذا قال: ﴿ وما كان عطاءُ ربِّك محظوراً ﴾، أي: ممنوعاً، أي: لا يمنعه أحدٌ ولا يردُّه رادٌّ.

قال قتادةُ: ﴿ وما كان عطاءُ ربِّك محظوراً ﴾، أي: منقوصاً. وقال الحسن، وابن جُرَيج، وابن زيد: ممنُوعاً(٢).

ثم قال تعالى: ﴿ انظُر كيف فَضَّلنا بعضَهم على بعضٍ ﴾، أي: في الدنيا، فمنهم الغنيُّ والفقيرُ وبينَ ذلك، والحسنُ والقبيحُ وبين ذلك، ومن يموتُ صَغِيراً، ومن يُعمَّرُ حتى يبقَى شيخاً كبيراً، وبين ذلك،

(١) مسند أحمد ٦/٧١.
(٢) انظر تفسير الطبري ١٥/٦٠ ـ ٦١.

﴿ وَلَلآخِرَةُ أَكبرُ دَرَجاتٍ وأكبرُ تَفْضِيلاً ﴾، أي: وَلَتفاوُتُهم في الدَّارِ الآخرةِ أكبرُ من الدنيا، فإن منهم مَن يكون في الدَّرَكاتِ في جَهَنَّم وَسَلاسِلِها وأغلالها، ومنهم مَن يكونُ في الدرجات العُلَى وَنعيمِها وسُرُورِها ثم أهلُ الدَّرَكات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أنَّ أهلَ الدرجاتِ مُتفاوِتُونَ، فإنَّ الجنةَ مائةُ درجةٍ ما بين كُلِّ درجَتَينِ كما بين السماءِ والأرضِ. وفي الصحيحين: «إن أهل الدرجات العُلَى ليرَوْنَ أَهْلَ عِلّيِّين كما تَرون الكوكَبَ الغابِر في أُفُق السَّماءِ»(١)، ولهذا قال تعالى: ﴿ وللآخرة أكبر دَرجاتٍ وأكبر تَفْضِيلاً ﴾.

[وفي(٢- الطبراني، من رواية زاذان، عن سلمان مرفوعاً(٣): «ما من عبدٍ يريد أن يَرْتَفِعَ في الدنيا دَرَجة فارتفَعَ إلا وَضَعَه الله في الآخرة أكبَرَ منها»، ثم قرأ: ﴿ وللآخرةُ أكبرُ دَرَجاتٍ وأكبرُ تَفْضِيلاً ﴾]-٢).

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾

يقولُ تعالى: والمرادُ المكلَّفون من الأمَّةِ، لا تجعَلْ أيها المُكلَّف في عبادَتِكَ رَبَّكَ له شَريكاً، ﴿فتقعُدَ مَذْمُوماً ﴾ على شِرْكك به ﴿ مخذولاً ﴾، لأن الربَّ تعالى لا ينصُرك، بل يَكِلُكَ إلى الذي عَبَدت معه، وهو لا يَملِكُ لك ضرّاً ولا نفعاً، لأن مالكَ النَّفع والضَّر هو الله وحده، لا شريكَ له، وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو أحمد الزُّبيري، حدثنا بشير بن سَلْمَانَ، عن سَيَّار أبي الحكم، عن طَارِق بن شِهَاب، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود، ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من أصابته فاقةٌ فأنزلها بالناس لم تُسَدّ فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى، إما غنىً آجِلٍ(٤)، وإما غِنًى عاجلٍ»(٥).

ورواه أبو داود، والترمذي من حديث بَشِير بن سَلْمَانَ، به، وقال الترمذيُّ: «حسنٌ صَحِيحٌ غَرِيب»(٥).

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له؛ فإن القضاء ها هنا بمعننى الأمر، قال مجاهد: ﴿ وقَضَى ﴾، يعني: وَصَّى. وكذا قرأ ذلك أبيّ بن كعب، وعبد الله بن مسعود، والضَّحَّاك بن مُزَاحم: «وَوَصَّى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه»(٦). ولهذا قَرَن بعبادته بِرَّ الوالدين فقال: ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾، أي: وأمر بالوالدين إحساناً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ أن اشكُر لي ولوالديكَ إليَّ المصير ﴾.

---

(١) فتح الباري، كتاب بدء الخلق ٦/٣٢٠، ومسلم، كتاب الجنة ٤/٢١٧٧.
والكوكب الغابر: الذاهب الذي تدلّى للغروب وبعُد عن العيون.

(٢) سقط من نسخة الحرم.

(٣) المعجم الكبير ٦/٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٤) لفظ المسند: «إما أجل عاجل»، وفي ١/٤٤٢: «إما برزق عاجل أو موت عاجل». ولفظ أبي داود: «إما بموت عاجل أو غنى عاجل».
وقد فُسِّر هذه النصّ بأن يموت قريبٌ له غنيٌّ فيرثه. والمثبت في الأصل يوافق ما في الترمذي: «فيوشك له برزق عاجل أو آجل».

(٥) مسند أحمد ١/٤٠٧، وسنن أبي داود، كتاب الزكاة ٢/١٢٢، وعارضة الأحوذي، أبواب الزهد ٩/٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٦) تفسير الطبري ١٥/٦٢ ـ ٦٣.

وقوله: ﴿ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ﴾، أي: لا تُسْمِعهما قولاً سيئاً، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مَراتِب القول السيِّىء، ﴿ ولا تَنْهرْهما ﴾، أي: ولا يصدُر منك إليهما فعلٌ قبيحٌ، كما قال عطاء بنُ أبي رَباحٍ في قوله: ﴿ ولا تَنْهرْهما ﴾: وَلاَ تَنْفُضْ يدك على والديك[1].

ولما نهاه عن القَول القَبيح والفِعْل القَبِيح، أمره بالقَول الحَسَن والفِعْل الحَسَنِ، فقال: ﴿ وقُل لهما قَولاً كَرِيماً ﴾، أي: لَيِّناً طيباً حَسَناً بأدبٍ وتوقيرٍ وتَعظِيمٍ.

﴿ واخفض لهما جَناح الذل من الرحمة ﴾، أي: تواضَعْ لهما بِفِعْلِك، ﴿ وقل ربِّ ارحَمْهُما ﴾ ، أي: في كِبَرِهما وعند وَفَاتهما ﴿ كما رَبَّياني صغيراً ﴾.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: ثم أنزل الله تعالى: ﴿ ما كان للنبيِّ والذين آمنوا أن يستغفِرُوا للمشركين ولو كانُوا أولي قُربى ﴾[2].

وقد جاء في برِّ الوالدين أحاديثُ كثيرة، منها الحديث المرويُّ من طُرُق عن أنس وغيرِهِ: أَنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ لما صَعِد المنبر قال: «آمين، آمين، آمين. فقالوا: يا رسولَ الله، عَلاَم أَمَّنتَ؟ قال: أتاني جبريلُ فقال: يا محمد، رَغِم[3] أنفُ امرىءٍ ذُكِرتَ عنده فلم يُصَلِّ عليك، قل: آمين. فقلتُ: آمين. ثم قال: رَغِم أنفُ امرىءٍ دخل عليه شهرُ رمضانَ ثم خَرَج ولم يُغفر له، قل: آمين. فقلتُ: آمين. ثم قال: رَغِم أنفُ امرىءٍ أدرَك أبويه أو أحدَهما فلم يدخلاه الجنة، قل: آمين. فقلتُ: آمينَ[4].

حَدِيثٌ آخَرُ، وقال الإمام أحمدُ: حدثنا هُشَيم، حدثنا علي بن زيد، أخبرنا زُرارةُ بن أَوفى، عن مالك بن الحارث، رَجُل منهم، أنه سَمِعَ النبيَّ ـ ﷺ ـ يقول: «من ضَمَّ يتيماً بين[5] أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حَتَّى يستغني عنه، وَجبت له الجنةُ البتةَ. ومن أعتَقَ امرأً مسلماً كان فَكاكَه من النار، يُجزي بكلِّ عُضوٍ منهُ عضواً منه»[6].

ثم قال: حدَّثنا محمد بن جعفر، حدثنا شُعبة: سَمِعتُ عليَّ بن زيد. . . فذكر معناه، إلا أنه قال: عن رجل من قومه يقال له: مالك أو ابن مالك، وزاد: ومن أَدْرَكَ والديه أو أحدَهما، فدخلَ النار، ، فأبعده الله[7].

حَديثٌ آخَرُ، وقال الإمام أحمدُ: حدثنا عفان، حدثنا حَمَّاد بن سَلْمة، أخبرنا علي بن زيد، عن زُرَارة بن أوفى، عن مالك بن عمرو القُشَيري: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: « من أعتَقَ رقبةً مسلمةً فهي فِداؤُه من النار، مكان كل عظم[8] من عظام مُحَرَّرِهِ بعظم من عظامه ، ومن أدرك أحدَ والديه ثم لم يُغفَر له فأبعده الله عَزَّ وجَلَّ. ومن ضَمَّ يتيماً بين أَبوَينِ مُسلِمَين إلى طعامه وشرابه حتى يُغنِيَه الله وَجَبت له الجنةُ»[6].

حديثٌ آخَرُ، وقال الإمام أحمدُ: حدثنا حجّاجٌ ومحمد بن جعفر قالا: حدثنا شعبةُ، عن قتادةَ، سَمِعتُ

---

(١) تفسير الطبري ١٥/٦٥.
(٢) تفسير الطبري ١٥/٦٨، ويريد ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أن آية براءة هذه قد نسخت آية الإسراء.
(٣) أي: ذَلَّ. وأصله: لصق أنفه بالرغام، وهو التراب.
(٤) أخرجه مسلم عن أبي هريرة في كتاب البرّ ٤/١٩٧٨، وكذلك الإمام أحمد في مسند ٢/ ٢٥٤، وابن حبان في صحيحه ٢/١٣٢.
(٥) في نسخة الحرم: من أبوين.
(٦) مسند أحمد ٤/٣٤٤.
(٧) مسند أحمد ٥/٢٩.
(٨) في نسخة الحرم: كل عضو.

زُرارةَ بن أوفى يُحدِّث عن أُبيّ(١) بن مالك القُشيري قال: قال النبي - ﷺ -: «من أدركَ وَالِدَيه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك، فأبعده الله وأسحقه»(٢). وَرَواه أبو داودَ الطَّيالسيُّ عن شُعبةَ، به. وفيه زياداتٌ أُخَرُ(٣).

حديثٌ آخَرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عفَّان، حدثنا أبو عَوانة، حدثنا سُهَيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «رَغِمَ أنفُ، ثم رَغِمَ أنفُ، ثم رَغِمَ أنفُ رجلٍ أَدْرَكَ وَالِدَيه، أحدَهما أو كِلاهما عند الكِبَرِ، ولم يَدْخُلِ الجنة»(٤).

صَحِيحٌ من هذا الوَجْهِ، ولم يُخرِجْه سوى مسلم، من حديثِ أبي عَوانَةَ وجَرير وسُلَيمان بن بِلَالٍ، عن سُهَيلٍ، به(٤).

حديثٌ آخَرُ، وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا رِبعيُّ بن إبراهيم. قال(٥) أحمدُ: وهو أخو إسماعيل بنُ عُلَيَّة، وكان يُفَضَّل على أخيه، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هُرَيرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «رَغِمَ أنفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عنده فلم يُصَلِّ عَلَيَّ! وَرَغِمَ أنفُ رَجُلٍ دخل عليه شهرُ رمضانَ فانسلخ قبل أن يُغفَرَ له، وَرَغِمَ أنفُ رَجُلٍ أدرك عنده أبواه الكِبَرَ فلم يدخلاه الجنة. قال رِبْعيٌّ: ولا أعلمه إلا قال: أو أحدهما»(٦).

ورواه الترمذي، عن أحمد بن إبراهيم الدَّوْرَقي، عن ربعيّ بن إبراهيم، ثم قال: غريبٌ من هذا الوَجْهِ(٦).

حديثٌ آخَرُ، وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يونُس بن محمد، حدثنا عبد الرحمن بن الغَسِيل، حدثنا أَسِيدُ بن علي، عن أبيه علي بن عُبَيدٍ، عن أبي أُسَيْدٍ وهو مالك بن ربيعة السَّاعِدي قال: بينما أنا جالسٌ عندَ رسولِ الله - ﷺ - إذ جاءه رجلٌ من الأنصار فقال: يا رسولَ اللهِ، هل بقي عليَّ من برِّ أَبَوَيَّ شيء بعد موتهما أَبَرُّهما به؟ قال: نعم، خصال أربع: الصلاةُ عليهما، والاستغفارُ لهما، وإنفاذُ عهدهما، وإكرامُ صَدِيقهما، وصِلَةُ الرحم التي لا رَحِمَ لك إلا من قِبَلِهما، فهو الذي بَقِيَ عليك مِن برِّهما بعد موتهما(٧).

ورواه أبو داودَ وابن ماجه، من حديثِ عبد الرَّحمنِ بن سُلَيمان، وهو ابن الغَسِيل، به(٧).

حديثٌ آخَرُ، وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا رَوْحٌ، أخبرنا ابن جُرَيج، أخبرني محمد بن طلحةَ بن عبد الله بن عبد الرحمن، [عن أبيه]، عن معاوية بن جاهِمَةَ السُّلمي: أن جاهمة - رضي الله عنه - جاء إلى النبي - ﷺ - فقال: يا رسولَ الله، أردتُ الغزو، وجِئتُكَ أستشِيرُك؟ فقال: هَلْ لَكَ من أُمٍّ؟ قال: نعم. فقال: الزَمْها، فإنَّ الجنةَ عند رِجْلِها، ثم الثانيةَ ثم الثالثةَ، في مَقاعِدَ شتى، كَمِثْلِ هذا القَوْلِ(٨).

---

(١) في نسخة الحرم: عن ابن مالك.

(٢) مسند أحمد ٢٩/٥، وفي نسخة الحرم: «فأبعده الله وأمحقه».

(٣) مسند أبى داود الطيالسي ١٨٧ - ١٨٨.

(٤) مسند أحمد ٣٤٦/٢، ومسلم، كتاب البرّ ١٩٧٨/٤.

(٥) في نسخة الحرم: حدثنا أحمد. ونصّ المسند: «قال أبي».

(٦) مسند أحمد ٢٥٤/٢، وعارضة الأحوذي، أبواب الدعاء ٦٢/١٣.

(٧) مسند الإمام أحمد ٤٩٧/٣ - ٤٩٨، وسنن أبي داود، كتاب الأدب ٣٣٦/٤، وابن ماجه، كتاب الأدب ١٢٠٨/٢ - ١٢٠٩.

(٨) مسند أحمد ٤٢٩/٣، وسنن النسائي، كتاب الجهاد ١١/٦، وسنن ابن ماجه، أبواب الجهاد ٩٢٩/٢ - ٩٣٠. وانظر تحفة الأشراف للمزي ٤٢٤/٨.

ورواه النَّسائي وابن ماجه، من حديث ابن جُرَيج، به.

حديثٌ آخَرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا خَلَف بنُ الوليد، حدثنا ابن عَيَّاش، عن بَحِير بن سَعدٍ، عن خالد بن مَعْدَانَ، عن المِقْدام بن مَعْدِ يكرب الكِنْدِيِّ، عن النبي - ﷺ - قال: إنَّ الله يُوصِيكم بآبائكم، إن الله يُوصِيكُم بأُمَّهاتكم، إنَّ الله يُوصِيكُم بأُمَّهاتكم، إنَّ الله يُوصِيكُم بأُمَّهاتكم، إنَّ الله يُوصِيكُم بالأقربِ فالأقرب(١)».

وقد أخرجه ابنُ ماجه، من حديث ابن(٢) عياش، به(١).

حديثٌ آخَرُ، وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يونسُ، حدثنا أبو عَوَانَةَ، عن الأشعث بن سُلَيم، عن أبيه، عن رجلٍ من بني يَرْبُوع قال: أتيتُ النبيَّ - ﷺ - فسمعتُه وهو يُكَلِّم الناسَ يقولُ: يَدُ المعطِي العُلْيا. أُمَّك وأَباك، وأُختَك وأَخاك، ثم أدناك أدناك»(٣).

حديثٌ آخَرُ، قال الحافظ أبو بكر أحمدُ بن عَمْرو بنِ عبد الخالق البَزَّار في مُسنَدِه:

حدثنا إبراهيم بن المستمر العُرُوقي، حَدّثنا عمرو بن سُفيان، حدثنا الحسنُ بن أبي جعفرٍ، عن ليث بن أبي سُلَيم، عن علقمةَ بن مَرْثَدٍ، عن سليمان بن بُرَيدَةَ، عن أبيه: أنّ رَجُلاً كان في الطواف حَامِلاً أُمَّه يطوفُ بها، فسأل النبيَّ - ﷺ -: هل أديتُ حَقَّها؟ قال: لا، ولا بزَفْرَةٍ وَاحِدَةٍ، أو كما قال. ثم قال البزَّار: لا نعلَمُه يُروَى إلا من هذا الوجه(٤).

قلت: والحسن بنُ أبي جعفرٍ ضعيف، والله أعلم.

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾

قال سعيد بن جُبَير: هو الرجل تكونُ منه البادِرَةُ إلى أبويه، وفي نِيَّته وقلبه أنه لا يُؤَاخَذُ به. وفي رواية: لا يُرِيدُ إلا الخيرَ بذلك، فقال: ﴿ ربكم أعلم بما في نفوسكم ﴾(٥).

وقولُه: ﴿ فإنه كان للأوابين غفوراً ﴾، قال قتادة: للمطيعين أهلِ الصلاة. وعن ابن عباس: المسبِّحين. وفي روايةٍ عنه: المُطِيعين المُحْسِنين. وقال بعضُهم: هم الذين يُصَلُّون بين العِشَاءين. وقال بعضُهم: هم الذين يُصَلُّون الضحى.

وقال شعبة، عن يحيى بن سَعِيد، عن سَعِيد بن المسيِّب في قوله: ﴿ إنه كان للأوابين غفوراً ﴾، قال: الذي يُصِيب الذنب ثم يَتُوب، ويُصِيب الذنب ثم يتوبُ.

وكذا رواه عبد الرزاق، عن الثوري ومعمر، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيِّب، به. وكذا رواه الليث وابن جُرَيج، عن يحيى بن سعيد، عن ابن المسيِّب به. وكذا قال عطاء بن يسار.

---

(١) مسند أحمد ١٣٢/٤، وسنن ابن ماجه، كتاب الأدب ١٢٠٧/٢ ـ ١٢٠٨.

(٢) في نسخة الحرم: «من حديث عبدالله بن عياش». وابن عياش هو إسماعيل وقد صرح به في سنن ابن ماجه، وانظر تهذيب الكمال ١٦٣/٣، ٢٠/٤ ـ ٢١.

(٣) مسند الإمام أحمد ٦٤/٤ ـ ٦٥.

(٤) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب البر والصلة ٣٧١/٢.

(٥) تفسير الطبري ٦٨/١٥.

وقال مجاهد، وسعيد بن جُبَير: هم الراجعون إلى الخير.

وقال مجاهد، عن عُبَيد بن عُمَير في قوله: ﴿ إنه كان للأوابين غفوراً ﴾، قال: هو الذي يذكر ذنوبه في الخَلاء، فيستغفر الله منها. ووافقه مجاهدٌ في ذلك.

وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا محمد بن مُسلِم، عن عمرو بن دينار، عن عُبَيد بن عُمَير في قوله: ﴿ إنه كان للأوابين غفوراً ﴾، قال: كُنا نعد الأواب الحفيظ، أن يقول: اللهمَّ اغفِرْ لي ما أصبتُ في مجلسي هذا.

وقال ابنُ جرير: «والأولَى في ذلك قولُ مَن قال: هو التائبُ من الذنب، الراجعُ عن المعصية إلى الطاعة، مما يكرهُ الله إلى ما يحبه ويرضاه»(١).

وهذا الذي قاله هو الصوابُ؛ لأن الأوّاب مشتق من الأوْبِ، وهو الرجوعُ، تقول: آب فلانٌ إذا رجَعَ، قال الله تعالى: ﴿ إنَّ إلينا إيابهم ﴾، وفي الحديث الصَّحيحِ أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان إذا رَجع من سفر قال: «آيبون تائبون عابدون، لربِّنا حامدون»(٢).

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ ﴾

لما ذَكَر تعالى برَّ الوالدين، عَطَف بذكر الإحسان إلى القرابة وصِلَةِ الأرحام، كما تقدم في الحديث: «أُمّك وأباك، ثم أدناك أدناك» وفي رواية: «ثم الأقرب فالأقرب». وفي الحديث: «مَن أحبَّ أنْ يُبْسَطَ له رزقُه وينسأ له في أجَله، فَلْيَصِلْ رَحِمَه»(٣).

وقال الحافظ أبو بكر البَزّار: حدثنا عَبّاد بن يعقوب، حدثنا أبو يحيى التيمي، حدثنا فُضَيل بن مرزوق، عن عَطِيَّة، عن أبي سعيد قال: لما نَزَلت هذه الآيةُ: ﴿ وآتِ ذا القُرْبى حَقَّه ﴾، دعا رسولُ الله ـ ﷺ ـ فاطمة فأعطاها «فَدَك»(٤).

ثم قال: لا نعلم حَدَّث به عن فُضَيلِ بن مَرْزُوقٍ إلا أبو يحيى التيمي، وحُمَيد بن حَمّاد بن أبي الخُوار(٤).

وهذا الحديث مشكلٌ لو صحَّ إسنادُه؛ لأنَّ الآية مكية، وفَدَك إنما فتحت مع خيبر سنة سَبْع من الهجرة، فكيفَ يلتئمُ هذا مع هذا؟! [(٥- فهو إذاً حديث مُنكَر، والأشبه أنه من وَضْعِ الرافضةِ. والله أعلم]-٥).

وقد تقدَّم الكلامُ على المساكين وابنِ السبيل في «سورة براءة»(٦) بما أغنى عن إعادته ها هنا.

---

(١) تفسير الطبري ٧١/١٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العمرة: فتح الباري ٦١٨/٣ - ٦١٩، ومسلم، في كتاب الحج ٩٧٨/٢.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب: فتح الباري ٤١٥/١٠، ومسلم في كتاب البرّ ١٩٨٢/٤.

(٤) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٥٥/٣.

وفدك: قرية بينها وبين خيبر يومان، وقد صالح أهلها رسول الله ـ ﷺ ـ بعد غزوة خيبر على النصف، فكانت له ـ عليه السلام ـ خاصّة، لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب. انظر سيرة ابن هشام ٣٥٣/٢، والخراج لأبي يوسف ١١٣ ـ ١١٤، والمغازي للواقدي ٧٠٦/٢ ـ ٧٠٧

[٥ ـ ٥] عن نسخة الحرم.

(٦) انظر تفسير الآية ٦٠ من سورة التوبة.

وقولُه: ﴿ ولا تُبَذِّر تبذيراً ﴾، لما أَمَر بالإنفاق نَهى عن الإسرافِ فيه، بل يكون وَسَطاً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يُسرِفُوا ولَم يَقْتُروا وكان بين ذلك قَواماً ﴾.

ثم قال مُنَفِّراً عن التبذير والسَّرَف: ﴿ إن المُبذِّرين كانوا إخوانَ الشياطين ﴾، أي: أشباههم في ذلك.

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: والتبذير الإنفاق في غير حق. وكذا قال ابن عباس. وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مُبذِّراً. ولو أنفق مُدّاً في غير حقه كان تبذيراً. وقال قتادةُ: التبذيرُ الإنفاق في المعصية، وفي غير الحق وفي الفساد[١].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا ليث، عن خالد بن يزيدَ، عن سَعيد بن أبي هلال، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: أتى رجلٌ من بني تميم إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، إنّي ذو مالٍ كثيرٍ، وذو أهلٍ وَوَلَدٍ وحاضِرَةٍ[٢]، فأخبرني: كيف أُنفِقُ وكيف أصنَعُ؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: تُخرِجِ الزّكاة من مالك، فإنها طُهْرَة تُطَهِّرك، وتَصِل أقرباءك، وتَعرِف حقَّ السائل والجار والمسكين. فقال: يا رسول الله، أقلل لي؟ فقال: ﴿ فآتِ ذا القربى حَقَّه والمسكينَ وابنَ السبيلِ ولا تُبَذِّر تبذيراً ﴾، فقال: حَسبي يا رسول الله، إذا أديتُ الزكاةَ إلى رسولكَ فقد بَرِئتُ منها إلى الله وإلى رسوله؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «نعم إذا أديتها إلى رسولي فقد برئت منها، فلك أجرُها، وإثمُها على من بَدَّلها»[٣].

وقولُه: ﴿ إنَّ المبذِّرين كانوا إخوان الشياطين ﴾، أي: في التَّبذِير والسَّفَهِ، وتَرْكِ طاعةِ الله وارتكاب معصيته. ولهذا قال: ﴿ وكان الشيطان لربِّه كَفُوراً ﴾، أي: جَحُوداً، لأنه أنكر نعمةَ اللهِ عليه، ولم يعمَلْ بطاعته، بل أقبل على معصيته ومخالفته.

وقولُه: ﴿ وإما تُعرِضَنَّ عنهم ابتغاءَ رحمةٍ من رَبِّك ترجُوها فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾، أي: وإذا سَألك أقرِباؤُك ومن أمَرناك بإعطائهم، وليس عندك شيءٌ، وأعرضت عنهم لفقدِ النفقة، ﴿ فقُل لهم قولاً ميسوراً ﴾، أي: عدهم وعْداً بسهولة ولين: إذا جاء رزقُ الله فَسنَصِلكم إن شاء الله. هكذا فَسَّر قوله: ﴿ فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ بالوعد ـ مجاهدٌ، وعكرمةُ، وسعيدُ بن جُبَير، والحسنُ، وقتادةُ، وغيرُ واحد.

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى آمراً بالاقتصاد في العيش، ذامّاً للبخل، ناهياً عن السَّرَف: ﴿ ولا تجعلَ يُدَك مغلولةً إلى عُنقك ﴾، أي: لا تَكن بخيلاً مَنُوعاً، لا تُعطِي أحداً شيئاً، كما قالت اليهودُ ـ عليهم لعائنُ الله ـ: ﴿ يَدُ الله مَغْلُولةٌ ﴾، أي: نَسبوه إلى البخل، تعالى وتقدّس الكريم الوهاب.

وقولُه: ﴿ ولا تبسُطها كلَّ البسط ﴾، أي: ولا تُسرِف في الإنفاق، فتعطيَ فوقَ طاقَتِك، وتُخرجَ أكثر من دَخْلِك، فتقعد ملوماً محسوراً.

---

(١) تفسير الطبري ١٥/٧٤.

(٢) الحاضرة والحاضر: الحيّ العظيم، أو القوم.

(٣) مسند الإمام أحمد ٣/١٣٦.

وهذا من باب اللَّف والنَّشر، أي: فتقعد إن بَخِلت ملوماً، يلومُك الناسُ ويذمُّونك ويستغنُونَ عنك، كما قال زُهَير بن أبي سُلمى في المعلَّقة:

وَمَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَيَبْخَلْ بِمَالِهِ ... عَلى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْهُ وَيُذْمَمِ[١]

ومتى بَسَطت يدَك فوق طاقتك قَعَدت بلا شيءٍ تنفقه، فتكون كالحسير ـ وهو: الدابَّةُ التي قد عَجَزت عن السير، فوقفت ضَعفاً وعجزاً، فإنها تسمى الحَسِير، وهو مأخوذ من الكِلال، كما قال تعالى: ﴿ فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرَّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حَسِير ﴾، أي: كليلٌ عن أن يرى عيباً. هكذا فسَّر هذه الآيةَ بأن المرادَ منها البخل والسرف ابنُ عباس، والحسنُ، وقتادةُ، وابنُ جُرَيج، وابنُ زيد، وغيرهم.

وقد جاء في الصحيحَيْن، من حديث أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ أنه سَمِع رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: مَثَلُ البَخِيل والمُنفِق كَمَثَل رجلين عليهما جُبَّتان من حديد، من ثُدِيِّهما إلى تَرَاقيهما[٢]. فأما المنفق فلا يُنفِقُ إلا سَبَغت ـ أو: وَفَرت[٣] ـ على جلده، حتى تُخفِيَ بَنَانه وتَعفُوَ[٤] أثره. وأما البخيلُ فلا يُريدُ أن يُنفِقَ شيئاً إلا لَزِقَت كُلُّ حَلْقةٍ مكانها، فهو يُوَسِّعها ولا تتَّسع». هذا لفظ البخاري في «الزكاة»[٥].

وفي الصحيحين، من طريق هِشام بن عُرْوة، عن زوجته فاطمةَ بنتِ المنذر، عن جَدَّتها أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ قالت: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أَنْفِقي هكذا وهكذا وهكذا، ولا تُوعِي فَيُوعِيَ الله عليك، ولا تُوكِي فَيُوكِيَ اللهُ عليك». وفي لفظ: «ولا تُحصِي فَيُحصِيَ الله عليك»[٦].

وفي صحيح مسلم من طريق عبد الرزَّاق، عن مَعْمَر، عن هَمَّام، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الله قال لي: أَنفِقْ أُنفِقْ عليك»[٧].

وفي الصحيحين من طريق مُعاوية بن أبي مُزَرِّد، عن سعيد بن يَسَار، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما من يوم يُصبحِ العبادُ فيه إلا ومَلَكَانِ يَنْزِلان من السماء، يقول أحدهما: اللهم أعطِ مُنفقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللهم أعطِ ممسكاً تَلَفاً»[٨].

وروى مسلم، عن قُتَيبة، عن إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «ما نَقَص مالٌ من صَدَقة، وما زَادَ الله عبداً بِعَفو إلا عزّاً، ومن تَواضَعَ لله رفعه الله»[٩].

---

(١) ديوانه ٣٠.

(٢) الثُّدِيُّ: جمعُ ثَدْيٍ. والتراقي: جمع تَرْقُوة، وهي العظم بين ثُغْرةِ النحر والعاتق، وهما ترقوتان.

(٣) سبغت: كملت واتسعت، ومثله: وَفَرَت.

(٤) أي: تستر أثره.

(٥) أخرجاه في كتاب الزكاة، فتح الباري ٣/٣٠٥، ومسلم ٢/٧٠٨ ـ ٧٠٩.

(٦) فتح الباري، كتاب الزكاة ٣/٢٩٩ ـ ٣٠٠، وكتاب الهبة ٥/٢١٧، ومسلم، كتاب الزكاة ٢/٧١٣. ولفظ «هكذا وهكذا» في المسند ٦/٣٤٦، ٦/٣٥٤.

يقال: أوعيت المتاع في الإناء: إذا جعلته فيه. والإيكاء: شدّ رأس الوعاء بالوِكَاء، وهو الرباط الذي يُربَط به.

(٧) مسلم، كتاب الزكاة ٢/٦٩١.

(٨) أخرجاه في كتاب الزكاة، فتح الباري ٣/٣٠٤، ومسلم ٢/٧٠٠.

(٩) مسلم، كتاب البر ٤/٢٠٠١.

وفي حديث أبي كثير، عن عبد الله بن عَمْرو - رضي الله عنهما - مرفوعاً: «إياكم والشحَّ، فإنه أهلك من كان قَبْلَكم، أمرهم بِالبُخل فَبَخِلُوا، وأَمَرَهم بالقَطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور فَفَجَرُوا»[١].

وروى البيهقي من طريق سَعْدان بن نصر، عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن [ابنُ بُرَيدة، عن][٢] أبيه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما يخرج رَجُلٌ صدقةً حتى يَفُكَّ لَحْيَي سبعين شيطاناً»[٣].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو عُبَيدة الحداد، حدثنا سُكَين بن عبد العزيز، حدثنا إبراهيم الهَجَري، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما عال من اقتصد»[٤].

وقولُه: ﴿ إن ربَّك يبسُط الرزقَ لمن يشاءُ ويقدِرُ ﴾: إخبارٌ أنَّه تعالى هو الرزّاق، القابضُ الباسطُ، المتصرِّفُ في خلقه بما يشاء، فَيُغني من يشاء ويُفقِر من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة، ولهذا قال: ﴿ إنَّه كان بعبادِه خَبيراً بَصِيراً ﴾، أي: خبيرٌ بصيرٌ بمن يستحقّ الغِنَى ومن يستحقّ الفقر، كما جاء في الحديث: «إنَّ من عِبادي لَمَنْ لا يُصلِحه إلا الفقر ولو أغنيتُه لأفسدتُ عليه دينه. وإنَّ من عبادي لمن لا يُصلِحُه إلا الغِنَى ولو أفقرتُه لأفسدتُ عليه دينَه».

وقد يكون الغِنَى في حَقِّ بعضِ الناسِ استدراجاً، والفقرُ عقوبةً، عياذاً بالله من هذا وهذا.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾

هذه الآيةُ الكريمة دالَّة على أن الله تعالى أرحمُ بعباده من الوالد بولده؛ لأنه تعالى ينهَى عن قتل الأولاد، كما أوصى بالأولاد في الميراث، وقد كان أهلُ الجاهلية لا يُوَرِّثون البناتِ، بل كان أحدُهم ربَّما قتلَ ابنتَه لئلا تكثر عيلتُه[٥]، فَنَهى الله تعالى عن ذلك فقال: ﴿ ولا تقتُلوا أولادَكم خشيةَ إملاقٍ ﴾، أي: خوفَ أن تَفْتَقِروا في ثاني الحال، ولهذا قَدَّم الاهتمام برزقهم فقال: ﴿ نحن نرزقُهم وإياكم ﴾، وقال في سورة الأنعام: ﴿ ولا تقتلوا أولادَكم من إملاق ﴾، أي: من فقر، ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾.

وقولُه: ﴿ إن قتلهم كان خطئاً كبيراً ﴾، أي: ذنباً عظيماً. وقرأ بعضهم ﴿ كان خَطَأً كبيراً ﴾، وهو بمعناه[٦].

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: قلتُ: يا رسولَ الله، أَيُّ الذنبِ أعظمُ؟ قال: أن تجعلَ لله نِدّاً وهو خلقك. قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: أن تقتل وَلَدك خَشْيَةَ أن يَطْعَم معك. قلتُ: ثم أَيٌّ؟ قال: أن تُزاني حَليلة جارِكَ[٧].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢/١٥٩ - ١٦٠، ١٩١، ١٩٥.

(٢) عن سنن البيهقي.

(٣) سنن البيهقي، كتاب الزكاة ٤/١٨٧.

(٤) مسند أحمد ١/٤٤٧.

(٥) العيلةُ: الفقر والحاجة.

(٦) قرأ أبو جعفر، وابن عامر - من طريق ابن ذكوان -: (خَطَأً)، بفتح الخاء والطاء غير ممدود. وقرأ ابن كثير: (خِطَاءً)، بكسر الخاء وفتح الطاء، ممدود. وقرأ الباقون (خِطْأً) بكسر الخاء وسكون الطاء.

انظر المبسوط في القراءات العشر لأبي بكر بن مهران الأصبهاني ٢٢٨. وتفسير الطبري ١٥/٧٩.

(٧) فتح الباري، تفسير سورة البقرة ٨/١٦٣، ومسلم، كتاب الإيمان ١/٩٠.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا وعن مُقاربته، وهو مخالطة أسبابه ودَوَاعيه: ﴿ ولا تَقْرَبُوا الزِّنا إنه كان فاحشة ﴾، أي: ذنباً عظيماً، ﴿ وساء سبيلاً ﴾، أي: وبئسَ طريقاً ومسلكاً.

وقد قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ بن هارونَ، حدثنا جريرُ، حدثنا سُلَيم بن عامر، عن أبي أُمامَةَ قال: إن فتىً شابًّا أتى النبي ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله، ائذن لي بالزنا. فأقبل القومُ عليه فَزَجَرُوه، وقالوا: مَهْ مَهْ. فقال: ادنُهْ. فدنا منه قريباً، فقال: اجلِسْ. فَجَلس، قال: أَتُحِبُّه لأمّكَ؟ قال: لا والله، جعلني الله فداكَ. قال: ولا الناس يحبُّونه لأمهاتهم. قال: أَفَتحِبُّه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أتحبُّه لأختك؟ قال: لا والله، جَعَلني الله فِدَاك. قال: ولا الناس يُحبُّونه لأخواتهم، قال: أفتحبُّه لِعمَّتِك؟ قال: لا والله، جَعَلني الله فداك. قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم. قال: أفتحبّه لخالَتِك؟ قال: لا والله، جَعَلني الله فداك. قال: ولا الناس يُحبُّونه لخالاتهم. قال: فَوَضع يدَه عليه وقال: اللهم، اغفِرْ ذَنْبَه، وطَهِّر قلبه، وحَصِّن فرجَهْ. قال: فلم يَكُن بعد ذلك الفتى يلتفتُ إلى شيء[1].

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا عمار بن نصر، حدثنا بقية، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن الهيثم بن مالك الطائي عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ما من ذنبٍ بعد الشركِ أعظمَ عند الله من نُطفة وَضَعَها رجلٌ في رَحِم لا يحلّ له».

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾

يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حَقٍّ شرعي، كما ثبت في الصحيحين أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: لا يحلُّ دمُ امرىءٍ مسلم يشهَدُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفسُ بالنفس، والزاني المحصَن، والتاركُ لِدينه المفارقِ للجماعة[2]. وفي السُّنَن: لَزَوالُ الدنيا أهوَنُ عند الله من قَتْلِ المُسلِمِ»[3].

وقولُه: ﴿ ومن قُتِلَ مظلوماً فقد جعلنا لِوَلِيِّه سُلطاناً ﴾، أي: سُلطةً على القاتل، فإنَّه بالخيارِ فيه، إن شاء قَتَله قَوَداً، وإن شاء عَفَا عنه على الدية، وإن شاء عفا عنه مَجّاناً، كما ثبتت السنةُ بذلك. وقد أخذ الإمام الحَبْرُ ابنُ عباس من عُموم هذه الآية الكريمةِ ولايةَ معاوية السلطنة، وأنه سَيَمْلِكُ؛ لأنه كانَ وَلِيَّ عثمان، وقد قُتِل عثمان ـ رضي الله عنه ـ مظلوماً. وكان معاويةُ يطالب علياً ـ رضي الله عنه ـ أن يُسَلِّمه قَتَلته حتى يقتصَّ منهم، لأنه أُمَوِيّ، وكان علي ـ رضي الله عنه ـ يَستَمْهله في الأمر حتى يتمكَّنَ ويفعلَ ذلك، ويطلب عليٌّ من معاويةَ أن يسلمه الشام، فأبى معاوية ذلك حتى يسلمه القَتَلَةَ، وأبى أن يبايع علياً هو وأهلُ الشام، ثم مع المطاولة تمكن معاويةُ، وصار الأمر إليه كما تفاءل ابن عباس واستنبطَ من هذه الآية الكريمة. وهذا من الأمرِ العجيبِ. وقد روى ذلك الطبرانيُّ في معجمه حيث قال:

---

(١) مسند أحمد ٢/٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(٢) فتح الباري، كتاب الديات ١٢/٢٠١، ومسلم، كتاب القسامة ٣/١٣٠٢ ـ ١٣٠٣.

(٣) أخرجه الترمذي وابن ماجه في الديات، والنسائي في كتاب تحريم الدم، انظر عارضة الأحوذي ٦/١٧٢ ـ ١٧٣، وسنن ابن ماجه ٢/٨٧٤، وسنن النسائي ٧/٨٢.

حدثنا يحيى بن عبد الباقي، حدثنا أبو عُمَير بن النحاس، حدثنا ضَمْرَة بن ربيعة، عن ابن شَوْذب، عن مَطَر الورّاق، عن زَهْدَم الجَرْمي قال: كُنّا في سَمَرِ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فقال: إني محدثكم حديثاً ليس بسرٍّ ولا عَلانيةٍ؛ إنه لما كان من أمر هذا الرجل ما كان، يعني عثمان، قلت لعليٍّ: اعتزِلْ، فلو كنتَ في جُحرٍ طُلِبتَ حتى تُستَخرَجَ. فعصاني، وايمُ الله ليتأمَّرَنّ عليكم معاويةُ، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ ومن قُتِل مَظْلُوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً ﴾، ولَيَحمِلَنَّكُم قريشٌ على سُنَّةِ فارس والروم، ولَيُؤْتَمنَنَّ(١) عليكم النصارى واليهودُ والمجوسُ، فمن أَخَذ منكم يومئذٍ بما يُعرَف نجا، ومن تَرَك، وأنتم تاركون، كنتم كقَرْنٍ من القُرُونِ، هَلَك فيمن هلك(٢).

وقوله: ﴿ فلا يُسْرِف في القتل ﴾، قالوا: معناه: فلا يُسْرِفِ الوليُّ في قتل القاتل، بأن يُمَثِّل به، أو يقتصَّ من غير القاتل.

وقولهُ: ﴿ إنه كان منصوراً ﴾، أي: إنَّ الولي منصورٌ على القاتل شَرْعاً، وغالباً قَدَراً.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ ولا تقرَبُوا مالَ اليتيم إلاّ بالتي هي أحسنُ ﴾، أي: لا تَتَصَّرفُوا له إلا بالغِبْطَةِ، ولا تأكلوا أموالَهم إسرافاً وبداراً أن يَكْبَرُوا، ومن كان غنياً فَلْيستعفِفْ، ومن كان فقيراً فَلْيأكُل بالمعروف. وقد جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لأبي ذر: «يا أبا ذَرٍّ، إني أراك ضعيفاً، وإني أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسي: لا تَأَمَّرَنّ على اثنين، ولا تَوَلَّيَنَّ مال يتيم»(٣).

وقولهُ: ﴿ وأوفُوا بالعَهْدِ ﴾، أي: الذي تُعاهدُونَ عليه الناسَ والعقودِ التي تعاملونهم بها، فإن العهدَ والعقدَ كلّ منهما يُسأل صاحبُه عنه، ﴿ إن العهد كان مسؤولاً ﴾، أي: عنه.

وقولهُ: ﴿ وأوفوا الكيلَ إذا كلتم ﴾، أي: من غير تطفيف، ولا تبخَسُوا الناس أشياءهم.

﴿ وَزِنُوا بالقِسْطَاس ﴾: قُرِئَ(٤) بضم القاف وكَسْرِها كالقِرطاس، وهو: الميزان. وقال مجاهد: هو العدل بالرومية.

وقولهُ: ﴿ المستقيم ﴾، أي: الذي لا اعوجاجَ فيه ولا انحرافَ ولا اضطرابَ.

﴿ ذلك خيرٌ ﴾، أي: لكم في معاشكم ومعادكم، ولهذا قال: ﴿ أحسنُ تأويلاً ﴾، أي: مآلاً ومنقلباً في آخرتكم.

قال سعيدُ، عن قتادةَ: ﴿ ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ﴾، أي: خير ثواباً وعاقبة. وأُخبِرْنا أَنَّ ابنَ عباس كان يقول: يا معشَرَ الموالي، إنكم وُلّيتم أمرين بهما هَلَكَ الناسُ قبلكم: هذا المكيال، وهذا الميزان. قال: وذكر لنا

---

(١) في النسخ: (وليتمنن). وفي مجمع الزوائد ٧/٢٣٦: «ولتؤمنن». ومثله في المعجم الكبير. ومعنى «وليؤتمنن» ليكونُنَّ عليكم أمناءَ.

(٢) المعجم الكبير ١٠/٣٢٠، وقال في مجمع الزوائد: «رواه الطبراني، وفيه من لم أعرفهم».

(٣) مسلم، كتاب الإمارة ٣/١٤٥٧ ـ ١٤٥٨.

(٤) قرأ بالكسر من السبعة حفص وحمزة والكسائي. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٦٨٦.

أن نبي الله ـ ﷺ ـ كان يقول: «لا يقدرُ رجل على حرام ثم يدعه، ليس به إلا مخافةُ الله، إلا أبدَلَه الله في عاجِلِ الدنيا قبل الآخِرَةِ ما هو خيرٌ له من ذلك»(١).

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾

قال عليّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يقول: لا تَقُلْ. وقال العَوْفيُّ عنه: ولا تَرْم أحداً بما ليس لك به عِلْم. وقال محمد بن الحَنفيَّة: يعني شهادة الزور. وقال قتادةُ: لا تقل رأيتُ، ولم ترَ. وسَمِعتُ، ولم تسمع. وعَلِمْتُ، ولم تَعْلَم. فإن الله سائلك عن ذلك كلِّه.

ومضمونُ ما ذكروه أن الله تعالى نهى عن القول بلا عِلْمٍ، بل بالظنِّ الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿ اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ﴾، وفي الحديث: «إيَّاكم والظنَّ، فإنَّ الظنَّ أكْذَبُ الحديث»(٢) وفي سنن أبي داود: «بِئْسَ مطيةُ الرجل: زَعَمُوا»(٣)، وفي الحديث الآخر: «إنَّ أفْرَى الفِرَى أن يُرِيَ الرجلُ عَيْنَيه ما لم تَرَيا»(٤). وفي الصَّحيح: «من تَحَلَّم(٥) حلماً كُلِّفَ يومَ القيامة أن يَعْقِد بين شَعِيرتَين، وَليسَ بفاعلٍ»(٤).

وقولهُ: ﴿ كلُّ أولئك ﴾، أي: هذه الصِّفات من السمع والبصر والفُؤاد، ﴿ كان عنه مَسْئُولاً ﴾، أي: سَيُسأَلُ العبدُ عنها يوم القيامة، وتُسأَلُ عنه وعَمَّا عَمِل فيها. ويصحُّ استعمال «أولئك» مكان «تلك»، كما قال الشاعر(٦):

ذُمَّ المَنازلَ بَعْدَ مَنْزلَة اللِّوَى   وَالعَيْش بَعْدَ أولئِكَ الأيَّـامِ

﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى ناهياً عبادَه عن التَّجبُّر والتبختر في المِشْيَة: ﴿ ولا تَمْشِ في الأرض مَرَحاً ﴾، أي: متبختراً متمايلاً مشي الجبَّارين، ﴿ إنك لن تَخْرِقَ الأرضَ ﴾، أي: لن تقطع الأرضَ بمشيتك، قاله ابن جرير، واستشهد عليه يقول رؤبة بن العَجَّاج(٧):

وَقَاتِمِ الأعْمَاقِ خَاوِي المُخْتَرَقْ

وقولهُ: ﴿ ولن تبلُغ الجِبَالَ طُولاً ﴾، أي: بتمايُلِكَ وفَخْرِك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازَى فاعِلُ ذلك

(١) تفسير الطبري ١٥/٨٥.

(٢) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الوصايا ٥/٣٧٤ ـ ٣٧٥، ومسلم، كتاب البر ٤/١٩٨٥.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٢٩٤.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب التعبير ١٢/٤٢٧.

(٥) تحلَّم: تكلف الحُلْم. والمراد بالتكليف نوعٌ من التعذيب.

(٦) جرير، ديوانه ٤٥٢. وفيه يروي: «بعد أولئك الأقوام».

(٧) تفسير الطبري ١٥/٨٨. وقال ابن جرير: «يعني بالمُخْتَرَق: المُقَطَع».

بنقيض قَصْدِه، كما ثبتَ في الصَّحِيح: «بَيْنَا رجلٌ يمشي فيمن كان قبلكم، وعليه بُرْدَان يَتبختَرُ فيهما، إذ خُسِفَ به الأرضُ، فهو يَتَجَلْجَلُ فيها إلى يوم القيامة»(١).

وكذلك أخبر الله عن قارون أنّه خَرَج على قومه في زينته، وأن الله تعالى خَسَفَ به وبداره الأرض، وفي الحديث: «من تَواضَعَ لله رَفَعه الله، فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير، ومن استكبر وَضَعَه الله فَهُو في نَفسِه كبيرٌ وعند الناس حقير، حتى لهو أبغضُ إليهم من الكلب أو الخنزير»(٢).

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب «الخُمُول والتواضع»: حدثنا أحمد بن إبراهيم بن كثير، حدثنا حجاج بن محمد، عن أبي بكر الهُذَلي قال: بينما نحن مع الحسن إذ مَرَّ عليه ابن الأهيَم يريد المنصورَ وعليه جِبَابُ خزٍّ قد نُضِّد بعضُها فوق بعضٍ على ساقه، وانفرَجَ عنه قباؤه، وهو يمشي يتبختر، إذ نظر إليه الحسنُ نظرةً فقال: أُفٍّ أُفٍّ، شامخٌ بأنفِه، ثانٍ عِطْفَه، مُصَعِّرٌ خَدَّه، ينظر في عطفيه: أَيْ حُمَيقُ، انظر في عِطْفيكَ في نِعَمٍ غير مَشْكُورةٍ ولا مَذْكُورةٍ، غيرِ المأخوذِ بِأَمْرِ الله فيها ولا المؤدِّى حَقُّ الله منها! والله أَلَا يمشي أحدهم طبيعته يَتلجلج تَلَجْلُجَ المجنون، في كل عُضْوٍ منه نعمة، وللشيطان به لَعْنَة. فَسمِعه ابن الأهيم فَرَجَع يعتذر إليه، فقال: لا تعتذر إليَّ، وَتُب إلى رَبِّك، أما سَمِعتَ قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأرضَ ولَن تبلُغَ الجِبَال طُولاً ﴾(٣).

ورأى البَخْتَريُّ [العابدُ] رجلاً من آل علي يمشي وهو يخطِرُ في مِشْيَتِه، فقال له: يا هذا، إن الذي أكرمك به لم تكن هذه مِشْيَتُه! قال: فتركها الرجلُ بعدُ.

ورأى ابنُ عمر رجلاً يَخْطِر في مشيته، فقال: إن للشياطين إخوانا.

وقال خالد بن مَعْدَان: إياكم والخَطْرَ، فإن الرَّجُلَ(٤) يَدُه من دون سائر جسده. رواهما ابنُ أبي الدنيا(٥).

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا خَلَفُ بن هشام البزّار، حدثنا حَمّاد بن زيد، عن يحيى بن سعيد، عن يُحَنّس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا مشت أمتي المُطَيطاء(٦)، وخَدَمتهم فارس والروم، سُلِّطَ بعضُهم على بعض»(٧).

وقولُه تعالى: ﴿ كل ذلك كان سَيّئه عند ربك مكروهاً ﴾، أما من قرأ ﴿ سيِّئةً ﴾(٨)، أي: فاحشة. فمعناه عنده: كلُّ هذا الذي نَهينا عنه، من قوله: ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ إلى ها هنا، فهو سيِّئة مُؤاخَذ عليها ﴿ مكروهاً ﴾ عند الله، لا يحبه ولا يرضاه. وأما من قرأ ﴿ سيِّئُه ﴾ على الإضافة فمعناه عنده، كلُّ هذا

---

(١) أخرجاه في كتاب اللباس، فتح الباري ٢٥٨/١٠، ومسلم ١٦٥٣/٣ ـ ١٦٥٤. ومعنى يتجلجل: يغوصُ في الأرض.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط «وبنحوه رواه أحمد والبزار، كلهم عن عُمرَ بن الخطاب مرفوعاً. وقال في مجمع الزوائد ٨٢/٨: «ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح، وفي إسناد الطبراني سعيد بن سلام العطار، وهو كذاب». وانظر مسند أحمد ٤٤/١، وكشف الأستار عن زوائد البزار ٢٢٢/٤ ـ ٢٢٣.

(٣) انظر الخُمول والتواضع ٢٨٣.

(٤) بعده بياض بمقدار كلمتين، ولفظ ابن أبي الدنيا كما في الخمول والتواضع: «إياكم والخطران، فإن الرجل قد نبا فؤاده من سائر جسده».

(٥) الخمول والتواضع ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

(٦) المُطَيطاء، التبختر، ومدّ اليدين أثناء المشي.

(٧) أخرجه الترمذي في أبواب الفتن بإسناده إلى ابن عُمر مَرفوعاً، وقال: «هذا حديث غريب. وقد رواه أبو معاوية عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن عبدالله بن دينار، عن ابن عُمَر. . . وقد روى مالك بن أنس هذا الحديث عن يحيى بن سعيد مرسلاً، ولم يذكر فيه: عن عبدالله بن دينار، عن ابن عُمَر». انظر عارضة الأحوذي ١١٨/٩.

(٨) قرأ الكوفيون وابن عامر ﴿سَيِّئُه﴾. وقرأ باقي السبعة ﴿سيِّئَةً﴾ انظر التبصرة لمكي ٥٦٨.

الذي ذكرناه من قوله: ﴿ وَقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ إلى ها هنا فسيّئه، أي: فقبيحه مكروه عند الله، هكذا وجّه ذلك ابنُ جرير رحمه الله[1].

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول تعالى: هذا الذي أمرناك به من الأخلاقِ الجميلةِ، ونَهيناكَ عنه من الصِّفاتِ الرذيلة، مما أوحيناهُ إليك يا محمد، لتأمر به الناس.

﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً ﴾، أي: تلومك نفسك ويلومك الله والخلق، ﴿ مدحوراً ﴾، قال ابنُ عباسٍ وقتادة: مطروداً.

والمرادُ من هذا الخطاب الأمةُ بواسطة الرسول ﷺ، فإنه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ معصومٌ.

﴿ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى رادًّا على المشركين الكاذبين الزاعمين ـ عليهم لعائن الله ـ أن الملائكة بناتُ الله، فَجعلوا الملائكة الذين هم عبادُ الرحمن إناثاً، ثم ادّعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطئوا في كلٍّ من المقاماتِ الثلاثِ خَطأً عظيماً، فقال تعالى مُنكِراً عليهم: ﴿ أفأصفاكم ربُكم بالبنين ﴾، أي: خَصَّصَكُم بالذكور ﴿ واتخذ من الملائكة إناثاً ﴾، أي: واختار لنفسه على زَعْمِكم البناتِ؟! ثم شَدَّد الإنكار عليهم فقال: ﴿ إنكم لَتَقولون قولاً عظيماً ﴾، أي: في زعمكم أن للّه ولداً، ثم جَعْلكم ولده الإناث اللاتي تأنَفُون أن يَكُنّ لكم، وربما قتلتموهُنّ بالوأد، فتلك إذاً قسمةٌ ضِيزَى. وقال الله تعالى: ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إدًّا * تكادُ السموات يَتفطَّرن منه وتنشقُّ الأرضُ وتخر الجبال هدًّا * أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كلُّ من في السمواتِ والأرضِ إلا آتي الرحمن عَبْداً * لقد أحصاهُم وعَدَّهم عدّاً * وكلُّهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾.

﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ولقدْ صَرَّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثلٍ، وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبينات والمواعظ، فينزجروا عماهم فيه من الشرك والظلم والإفك ﴿ وما يزيدُهم ﴾، أي: الظالمين منهم ﴿ إلا نفوراً ﴾، أي: عن الحق، وبعداً منه.

﴿ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾ ﴾

يقولُ تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن الله شريكاً من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفى: لوكان الأمر كما تقولون، وأنّ معه آلهة تُعبَد لتقرُّبَ إليه وتشفَعَ لديه، لكان أولئك المعبودُون يعبدونه ويتقرَّبُون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحدَه كما يعبدُه من تَدْعُونه من دونه، ولا حاجة لكم

(١) انظر تفسير الطبري ١٥/٨٩.

إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحبُّ ذلك ولا يَرْضَاه، بل يكرَهُه ويأباه. وقد نَهَى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه.

ثم نزَّه نفسه الكريمة وقدَّسها فقال: ﴿ سبحانه وتعالى عما يقولون ﴾، أي: هؤلاء المشركون المعتدُون الظالمون في زعمهم أن معه آلهةً أخرى، ﴿ عُلُوًّا كَبِيراً ﴾، أي: تَعَالِياً كبيراً، بل هو الله الأحدُ الصَّمَدُ، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفُواً أحد.

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى: تُقَدِّسُه السموات السبع والأرضُ ومن فيهنَّ، أي: من المخلوقات، وتُنَزِّهه وتُعَظِّمه وتُجِلّه وتُكَبِّرُه عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهَدُ له بالوحدانية في رُبُوبيته وَإلَهِيَّتِهِ:

فَفِي كُـلِّ شَيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ ... تَـدُلُّ عَلَى أَنَّـه واحِـد

كما قال تعالى: ﴿ تكاد السمواتُ يَتفطَّرن منه وتَنشقُّ الأرضُ وتَخِرّ الجبالُ هَدًّا * أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ﴾.

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا مسكين[١] بن ميمون مؤذِّن مسجد الرملة، حدثنا عُرْوَة بن رويم، عن عبد الرحمن بن قُرْطٍ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ ليلةَ أُسْرِيَ به إلى المسجد الأقصى﴾ كان[٢] بين المقام وزمزم، جبريلُ عن يمينه وميكائيلُ عن يساره، فطارا به حتى بَلَغ السموات السبع، فلما رَجَع قال: سَمِعْتُ تسبيحاً في السمَواتِ العُلَى مع تسبيحٍ كثيرٍ: سَبَّحتِ السمواتُ العُلَى من ذي المهابة، مُشْفِقاتٍ لذي العلو بما علا، سبحانَ العَلِيِّ الأعلى، سبحانه وتعالى».

وقولُه: ﴿ وإن من شيء إلا يُسبِّحُ بِحَمْدِه ﴾، أي: وما من شيء من المخلوقات إلاَّ يُسَبِّح بحمد الله، ﴿ ولكن لا تفقهـون تسبيحهم ﴾، أي: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس، لأنها بخلاف لغتكم. وهذا عامٌّ في الحيوان والنبات والجماد، وهذا أشهرُ القولين، كما ثبت في صَحِيحِ البُخَارِيِّ، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «كنا نَسمَعُ تسبيحَ الطعام وهو يُؤكل»[٣].

وفي حديث أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ أخذ في يده حَصَيات، فَسُمِعَ لهنَّ تسبيحٌ كَحَنين النَّحل. وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ وهو حديثٌ مشهورٌ في المسانيد[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابنُ لَهِيعَةَ، حدثنا زَبّان، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيـه ـرضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه مَرَّ على قوم وهم وقوفٌ على دوابٍّ لهم ورواحل، فقال لهم: «اركبوها

(١) في نسخة الحرم: سليمان بن ميمون. وهو خطأ، انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣٢٩/٨. وأحاديث الإسراء أول هذه السورة.
(٢) في نسختي الحرم والأزهر: «إلى المسجد الأقصى فلما رجع كان».
(٣) فتح الباري، كتاب المناقب ٥٨٧/٦.
(٤) رواه البزار، انظر كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب علامات النبوة ١٣٥/٣ ـ ١٣٦. ومجمع الزوائد ٢٩٨/٨ ـ ٢٩٩.

سالمةً، ودعوها سالمةً، ولا تَتَّخِذُوها كراسيَّ لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فَرُبَّ مركوبةٍ خير من راكبها، وأكثر ذكراً لله تعالى منه»(١).

وفي سُنَن النسائي عن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله ـ ﷺ ـ عن قتل الضفدع، وقال: نقيقها تسبيحٌ.

وقال قتادة، عن عبد الله بن بابي(٢)، عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ: أن الرجُلَ إذا قال: «لا إله إلا الله»، فهي كلمة الإخلاص التي لا يَقبَلُ الله من أحد عملاً حتى يقولها. وإذا قال: «الحمدُ لله» فهي كلمةُ الشكر التي لم يشكر الله عبدٌ قطُّ حتى يقولها، وإذا قال: «الله أكبر» فهي تملأ ما بين السماء والأرض، وإذا قال «سبحان الله»، فهي صلاةُ الخلائقِ التي لم يَدْعُ الله أحدٌ من خلقه إلا قَرَّرَه(٣) بالصلاة والتسبيح. وإذا قال «لا حول ولا قوة إلا بالله»، قال: أسلم عبدي واستسلم(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وهبُ بن جرير، حدثنا أبي، سمعت الصَّقْعَبَ بن زُهَير يُحدِّث عن زيدِ بن أسلَمَ، عن عطاءِ بن يَسَار، عن عبد الله بن عَمْرٍو قال: أتى النبيَّ ـ ﷺ ـ أعرابيٌّ عليه جُبَّةٌ من طيالسة مكفوفة(٥) بديباج، أو: مَزْرُورَةٍ بديباج، فقال: إن صاحبكم هذا يُريد أن يَرْفَع كلَّ راعٍ ابن راعٍ، ويضع كلَّ رأسٍ ابن رأسٍ. فقام إليه النبي ـ ﷺ ـ مُغضباً، فأخذ بمجامع جُبَّته فاجتَذَبه، فقال: لا أرى عليكَ ثيابَ مَن لا يَعقِل. ثم رَجَع رسول الله ـ ﷺ ـ فجلس فقال: إن نوحاً ـ عليه السلام ـ لما حَضَرته الوفاة، دعا ابنيه فقال: إني قاصِرٌ عليكما الوصية: آمرُكما باثنتين وَأَنْهاكما عن اثنتين، أنهاكما عن الشركِ والكِبْرِ، وآمرُكما بلا إلَه إلا الله، فإنَّ السمواتِ والأرضَ وما فيهما لو وُضِعت في كِفَّة الميزان، وَوُضِعَت «لا إلَه إلا الله» في الكِفَّةِ الأخرى، كانت أرجَحَ. ولو أن السموات والأرض كانتا حَلْقَةً، فَوُضِعت «لا إلّه إلا الله» عليهما لَفَصَمَتْها أو لَقَصَمَتْها. وآمركما بسبحانَ اللهِ وبحمدِهِ، فإنها صلاةُ كُلِّ شيء، وبها يُرزَق كل شيء(٦).

ورواه الإمام أحمد أيضاً عن سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، عن الصَّقْعَب بن زهير، به أطول من هذا. تفرَّد به(٧).

وقال ابنُ جرير: حدثني نصر بن عبد الرحمن الأَوْدِيُّ، حدثنا محمد بن يَعلَى، عن موسى بن عُبَيدة، عن زيد بن أسلَمَ، عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ألا أُخبرُكم بشيءٍ أمر به نوحٌ ابنه؟ إن نوحاً ـ عليه السلام ـ قال لابنه: يا بني، آمرُكَ أن تَقُولَ: «سبحان الله»، فإنها صلاةُ الخَلْقِ وتسبيح الخلق، وبها يُرْزَقُ الخلق، قال الله تعالى: ﴿ وإن من شيء إلا يُسَبِّح بِحَمْدِهِ ﴾. إسناده فيه ضعف، فإن الرَّبذي(٨) ضعيف عند الأكثرين.

---

(١) مسند أحمد ٣/٤٣٩.

(٢) في نسخة: باني. وأخرى: أبى. وانظر ترجمته في الجرح لابن ابي حاتم ١٢/٥، وتهذيب الكمال ٣٢٠/١٤.

(٣) في تفسير الطبري: نوره.

(٤) تفسير الطبري ٩٣/١٥.

(٥) كفُّ الثوب: خَاطه الخياطة الثانية بعد الشَّلّ.

(٦) فَصَم الشيء فَصْماً: شقه، وصَدَعه دون بَيْنُونة. وقَصَمه: كَسَره كَسْراً فيه انفصال.

(٧) مسند أحمد ٢/٢٢٥، ٢/١٦٩ ـ ١٧٠.

(٨) في نسخة الحرم: «فإن الأودى ضعيف».

وقال عكرمةُ في قوله: ﴿ وإن من شيء إلا يُسبِّح بحمده ﴾، قال: الأسطوانة تُسَبِّح، والشجرةُ تُسَبِّح. الأسطوانة: السارية. وقال بعضُ السلف: إن صرير الباب تسبيحُه، وخرير الماء تسبيحُه، قال الله تعالى: ﴿ وإن من شيءٍ إلا يُسَبِّح بحمده ﴾. وقال سفيانُ الثوري، عن منصور، عن إبراهيم قال: الطعام يُسَبِّح. ويشهد لهذا القول آيةُ السَّجدة في أول الحج[1].

وقال آخرون: إنما يُسَبِّح ما كان فيه روح. يعنُون من حيوان أو نبات، قال قتادةُ في قوله: ﴿ وإن من شيءٍ إلا يُسَبِّح بحمده ﴾، قال: كُلّ شيء فيه الروح يسبِّح من شَجَرةٍ أو شيء فيه [الروح][2].

وقال الحسن، والضَّحَّاكُ في قوله: ﴿ وإن من شيءٍ إلا يُسَبِّح بِحمْدِه ﴾، قالا: كلُّ شيء فيه الروح.

وقال ابنُ جرير: حدثنا محمد بن حُمَيد، حدثنا يحيى بن واضح وزيدُ بن حُبَاب قالا: حدثنا جرير أبو الخطاب قال: كنا مع يَزِيدَ الرَّقاشي ومعه الحسن في طَعَامٍ، فَقَدَّموا الخِوَان، فقال يزيدُ الرَّقَاشِيُّ: يا أبا سعيد، يُسَبِّح هذا الخِوَان؟ فقال: كان يسبح مَرَّة[3].

قلت: الخِوَان هو المائدةُ من الخشب. وكأن الحسن ـ رحمه الله ـ ذهب إلى أنه لما كان حَيًّا فيه خُضرة كان يُسَبِّح، فلما قُطِع وصار خَشَبَة يابسة انقطع تسبيحُه. وقد يُستَأنَس لهذا القولِ بحديثِ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ مر بقبرين فقال: «إنهما لَيُعذَّبان، وما يُعَذَّبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يَسْتَتِرُ من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة. ثم أخذ جُرِيدَةً رَطْبَة، فشقها نصفين، ثم غَرَزَ في كُلِّ قبر واحدةً، ثم قال: «لَعَلَّه يخفف عنهما ما لم ييبسا». أخرجاه في الصحيحَيْن[4].

قال بعضُ من تكلَّم على هذا الحديث من العلماء[5]: إنما قال: «ما لم ييبسا» لأنهما يُسَبِّحان ما دام فيهما خُضرَةٌ، فإذا يبسا انقطع تَسْبِيحهما، والله أعلمُ.

وقوله: ﴿إنه كان حَليماً غفوراً﴾، أي: إنه لا يُعاجِلُ من عصاه بالعُقوبة، بل يُؤَجِّله ويُنْظِره، فإن استمرَّ على كُفره وعناده أخذَه أَخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ، كما جاء في الصحيحَيْن: «إن الله لَيُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه». ثم قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿وكذلك أخذُ رَبِّك إذا أَخذ القرى وهي ظَالِمةٌ إن أخذه أليم شديد﴾ . . .[6] الآية، وقال تعالى: ﴿ وكأين من قرية أمليتُ لها وهي ظالمةٌ ثم أخذتُها وإليَّ المصيرُ ﴾. ومن أقلع عما هُو فيه من كُفرٍ أو عِصْيانٍ ورجعَ إلى الله وتاب إليه تابَ عليه، كما قال تعالى: ﴿ ومن يعمل سُوءاً أو يظلِمْ نفسَه ثم يستغْفر الله يَجِدِ الله غفوراً رحيماً ﴾.

وقال ها هنا: ﴿إنه كان حليماً غفوراً ﴾، كما قال في آخر فاطر: ﴿ إن الله يُمسِكُ السموات والأرض أن تَزُولا ولئن زالَتَا إن أمسَكهما من أحدٍ من بعده إنه كانَ حَليماً غفوراً ﴾ ، إلى أن قال: ﴿ ولو يُؤَاخِذُ الله الناسَ بما كسبوا، ما تَرَكَ على ظهرها من دابَّةٍ ولكن يُؤَخِّرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلُهم فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾.

---

(١) هي الآية الثامنة عَشْرَة.
(٢) عن تفسير الطبري ٩٣/١٥. ومكانه في نسخة الحرم: كذا.
(٣) تفسير الطبري ٩٢/١٥.
(٤) فتح الباري كتاب الوضوء ٣١٧/١، ومسلم، كتاب الطهارة ٢٤٠/١ ـ ٢٤١.
(٥) نقل ذلك الخطابي عن بعض العلماء، انظر فتح الباري ٣٢٠/١.
(٦) فتح الباري، كتاب التفسير ٣٥٤/٨، ومسلم، كتاب البر ١٩٩٧/٤ ـ ١٩٩٨.

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى لرسوله - محمد ﷺ -: وإذا قرأتَ - يا محمدُ - على هؤلاء المشركين القرآنَ جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً.

قال قتادةُ، وابنُ زيدٍ: هو الأكنَّةُ على قلوبهم[1]، كما قال تعالى: ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعُونا إليه وفي آذاننا وَقْرٌ ومن بيننا وبينك حجاب ﴾، أي: مانع حائل أن يَصِل إلينا مما تقول شيءٌ.

وقوله: ﴿ حجاباً مستوراً ﴾، أي: بمعنى ساتر، كميمون ومشؤم بمعنى يامن وشائم، لأنه من يَمَنَهم وشَأَمَهم.

وقيل: مستوراً عن الأبصار فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى، ومال إلى تَرْجِيحه ابنُ جرير رَحِمه[2] الله.

وقال الحافظ أبو يَعْلَى الموصلي: حدثنا أبو موسى الهروي إسحاق بن إبراهيم، حدثنا سفيان، عن الوليد بن كثير، عن يزيد بن تدرس، عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قالت: لما نزلت ﴿ تَبَّت يدا أبي لهب ﴾، جاءت العَوْرَاء أم جُمَيل ولها وَلْوَلَة، وفي يدها فِهْر[3] وهي تقول: مُذَمَّماً أتينا، أو: أَبَينا، قال أبو موسى: الشك مِنِّي - ودينه قَلَيْنا، وأمره عَصَينا. ورسولُ الله - ﷺ - جالس، وأبو بكر إلى جنبه، أو قال: معه، قال: فقال أبو بكر - رضي الله عنه -: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: إنها لن تراني، وقرأ قرآناً اعتصم به منها: ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾. قال: فجاءت حتى قامَتْ على أبي بكر، فلم ترَ النبي - ﷺ - فقالت: يا أبا بكر، بَلَغني أن صَاحِبَك هجاني. فقال أبو بكر: لا وربِّ هذا البيت ما هَجَاكِ. قال: فانصرفت وهي تقول: لقد عَلِمَت قُرَيشٌ أني بنتُ سَيِّدها[4].

وقوله: ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة ﴾: جمع «كِنَان»، الذي يَغْشَى القلبَ، ﴿ أن يفقَهُوه ﴾، أي: لئلا يفهَمُوا القرآن، ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾، وهو الثِّقَلُ الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون به.

وقولُه: ﴿ وإذا ذكرتَ ربَّك في القرآن وحده ﴾، أي: إذا وَحَّدْتَ الله في تلاوتك، وقُلْتَ: «لا إله إلا الله»، ﴿ وَلَّوا ﴾، أي: أدبَرُوا راجِعِينَ ﴿ على أدبارهم نُفُوراً ﴾، ونفورٌ: جمع نافر، كقُعود جمع قاعد. ويجوز أن يكون مصدراً من غير الفعل[5]، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿ وإذا ذُكِر الله وحدَه اشمأزَّت قلوبُ الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذُكِرَ الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾.

قال قتادةُ في قَوْلِهِ: ﴿ وإذا ذكرتَ ربَّك في القرآن وحدَه وَلَّوا على أدبارهم نفوراً ﴾: إن المسلمين لما قالوا: «لا إلَه إلا الله»، أنكر ذلك المشركون، وكَبُرت عليهم، وَصَافَها[6] إبليسُ وجنودُه، فأبى الله إلا أن يُمضِيَها

(١) تفسير الطبري ١٥/٩٣.
(٢) تفسير الطبري ١٥/٩٣ - ٩٤.
(٣) الفهر: الحجر.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم بإسناده إلى سفيان، والبزار عن ابن عباس، انظر تفسير سورة ﴿تبت﴾ - فيما يأتي - الآية الرابعة.
(٥) يريد أنَّ (نُفُوراً) مصدرٌ مؤكدٌ للفعل (ولَّوا) من غير لفظه. وقد أخذ هذا من الطبري في تفسيره ١٥/٩٥.
(٦) في النسخ: وضاقها. وفي تفسير الطبري: فصافَّها. يقال: صافَّ القائدُ جُنْدَه: أعدها صُفوفاً. وهذا كنايةٌ عَن التصدِّي للقائلين بشهادة التوحيد، ومكره بهم.

وينصُرها ويُفْلجها ويظهرها على من ناوأها، إنها كلمة من خاصم بها فَلَج، ومن قاتَلَ بها نُصِر، إنما يَعْرِفها أهلُ هذه الجزيرة من المسلمين، التي يقطعها الراكب في ليالٍ قلائلَ، ويسير الدهر في فِئام[١] من الناس لا يعرفونها ولا يقرّون بها[٢].

قولٌ آخرُ في الآية، قال ابن جرير:

حدثني الحسين بن محمد الذَّارع[٣]، حدثنا روح بن المسيَّب أبو رجاء الكلبي، حدثنا عَمْرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله: ﴿ وإذا ذكَرْت ربك في القرآن وحدَه ولَّوا على أدبارهم نفوراً ﴾: هم الشياطين.

وهذا غريب جدًا في تفسيرها، وإلا فالشيطان إذا قُرِىء القرآن، أو نُودِي بالأذانِ، ﴿ أو ذكر الله ﴾، انصرَف.

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾

يخبر تعالى نبيَّه - صلواتُ الله وسلامُه عليه - بما تناجى به رُؤَساءُ كُفَّار قريش، حين جاءوا يستَمِعُون قراءة رسول الله - ﷺ - سراً من قومهم، بما قالوا من أنه رجلٌ مسحورٌ، من السِّحْرِ على المشهور، أو من «السَّحْر»[٤]، وهو الرئة، أي: إنْ تتبعون - إن اتبعتم محمداً - ﴿ إلا بشـراً ﴾ يأكل، كما قال الشاعر[٥]:

فَإن تَسْأَلينا فِيمَ نَحْنُ فَإنَّنـا عَصَافيرُ مِنْ هَذا الأنَامِ المُسَحَّرِ

وقال الآخر[٦]:

ونُسْحَر بالطَّعَام وبالشَّرَابِ

أي نُغَذَّى: وقد صَوَّب هذا القولَ ابنُ جرير. وفيه نظر، لأنهم إنما أرادوا ها هنا أنه مسحورٌ له رَئِيٌّ يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلُوه. ومنهم من قال: شاعر، ومنهم من قال: كاهن، ومنهم من قال: مجنون، ومنهم من قال: ساحر، ولهذا قال: ﴿ انظر كيف ضَرَبُوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾، أي: فلا يهتدون إلى الحق، ولا يَجِدُون إليه مخلصاً.

قال محمد بن إسحاقَ في السيرة: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزُّهري، أنه حُدِّثَ أن أبا سفيان بن

---

(١) الفئام: الجماعة من الناس.
(٢) تفسير الطبري ١٥/٩٤.
(٣) في نسخة الحرم: الذراع. والمثبت عن تفسير الطبري ١٥/٩٥، والجرح لابن أبي حاتم ٣/٦٤.
(٤) السَّحْر - بفتح السين وضمها، مع سكون الحاء -: كلّ ما تعلق بالحلقوم من قلب ورئة. ويقول الطبري في تفسيره ١٥/٩٦: «ما تتبعون إلا رجلاً له سَحْرٌ، أي: له رئة. والعرب تسمّي الرئة سَحْراً. والمسحّر من قولهم للرجل إذا جَبُن: قد انتفخ سَحْرُه، وكذلك يقال لكل ما أكل أو شرب من آدميّ وغيره: مَسْحُور ومسحّر».
(٥) الكميت، ديوانه ٥٦، وتفسير الطبري ١٥/٩٦.
(٦) في النسخ: الراجز. تحريف، والقائل هو امرؤ القيس، وهو عَجُز بيت من الوافر، وصدره:

* أرَانَا مُوضِعين لأمر غَيْب *

انظر ديوانه ١١، وتفسير الطبري ١٥/٩٦.

حرب، وأبا جَهلِ بن هشام، والأخنسَ بن شَرِيق بن عمرو بن وَهْبِ الثقفي، حليف بن زُهرَةَ، خرجوا ليلة ليستمعُوا من رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كلُّ واحد منهم مجلساً يَسْتَمِعُ فيه، وكلٌ لا يعلَمُ بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجرُ تفرّقوا فَجَمَعْتهم الطريقُ فتلاوموا، وقال بعضُهم لبعضٍ: لا تعودوا، فلو رآكم بعضُ سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كلُ رجُلٍ منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجرُ تَفرّقوا، فَجَمَعْتهم الطريقُ، فقال بعضهم لبعضٍ مثل ما قال أول مَرَّةٍ، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أَخَذَ كلُّ رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فَجَمَعَتْهُم الطريقُ فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نَتعاهد لا نعودُ. فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شَرِيق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعتَ من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبةَ، والله لقد سمعتُ أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعتُ أشياء ما عرفتُ معناها، ولا ما يراد بها. قال الأخنسُ: وأنا والذي حَلَفت به. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ـ لعنه الله ـ فدخل عليه بيتَه، فقال: يا أبا الحَكَم، ما رأيُكَ فيما سَمِعت من محمد؟ قال: ماذا سمعتُ؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحَمَلوا فَحَملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفَرَسَيْ رِهان قالوا: منا نبيٌّ يأتيه الوحيُ من السماء، فَمَتى نُدْرِك هذه؟ والله لا نؤمِن به أبداً ولا نُصَدِّقه. قال: فقام عنه الأخنس وتركه(١).

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك: ﴿ أئذاً كنا عظاماً ورفاتاً ﴾. أي: تراباً. قاله مجاهد.

وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: غُباراً.

﴿ أئنا لمبعوثون ﴾، أي: يومَ القيامةِ ﴿ خَلْقاً جديداً ﴾، أي: بعد ما بَلِينا وصِرْنا عَدماً لا يذكر، كما أخبر عنهم في الموضع الآخر: ﴿ يقولون أئِنا لمردودُون في الحافرة * أئذاً كنا عظاماً نخرة * قالوا تلك إذاً كرة خاسرة ﴾. وقال تعالى: ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يُحيِي العظَامَ وهي رَمِيم * قل يُحيِيها الذي أنشأها أول مَرَّةٍ وهو بكل خلق عليم ﴾.

وهكذا أمر رسُوله هنا أن يجيبهم فقال: ﴿ قل كونوا حجارة أو حديداً ﴾، إذْ هما أشدُّ امتناعاً من العظام والرفات، ﴿ أو خَلْقاً مما يكبُر في صدوركم ﴾.

قال ابن إسحاقَ عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: سألتُ ابنَ عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن ذلك فقال: هو الموت.

(١) سيرة ابن هشام ١/٣١٥ ـ ٣١٦. وانظر هذا الأثر أيضاً عند تفسير الآية ٣٣ من سورة الأنعام.

ورَوَى عطيةُ، عن ابن عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال في تفسير هذه الآية. لو كنتم موتى لَأحييتُكم[١]. وكذا قال سعيد بن جبير، وأبو صالح، والحسنُ، وقتادةُ، والضحّاك.

ومعنى ذلك: أنكم لو فرضتُم أنكم لو صُيِّرْتُم مَوْتاً الذي هو ضد الحياة، لأحياكم الله إذا شاء، فإنه لا يمتنع عليه شيءٌ إذا أراده.

وقد ذكر ابنُ جرير حديث: «يُجاءُ بالموتِ يوم القيامة كأنه كبش أملحُ، فَيُوقَفُ بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهلَ الجَنَّةِ، أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. ثم يقال: يا أهل النار، أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. فَيُذْبَح بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة خُلودٌ بلا موت، ويا أهل النارِ، خُلودٌ بلا موت»[٢].

وقال مجاهد: ﴿ أو خَلْقاً مما يكبر في صدوركم ﴾، يعني: السماء والأرضَ والجبال. وفي رواية: ما شئتم فكونوا، فَسَيُعِيدكم الله بعد موتكم.

وقد وقع في التفسير المروي عن الإمام مالك، عن الزهريِّ في قوله: ﴿ أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ﴾، قال: النبي ﷺ. قال مالك: ويقولون: هو الموتُ.

وقولُه: ﴿ فسيقولون من يعيدنا ﴾، أي: من يُعِيدنا إذا كنا حجارةً أو حديداً أو خلقاً آخرَ شديداً، ﴿ قل الذي فطركم أول مرة ﴾، أي: الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ثم صِرْتم بشراً تنتشرون، فإنه قادرٌ على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال، فَهُو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهوَنُ عليه.

وقولُه: ﴿ فَسَيُنغِضُون إليك رءُوسهم ﴾، قال ابن عباس وقتادة: يُحرِّكونها استهزاءً.

وهذا الذي قالاه هو الذي تَفهَمُه العرب من لغاتها، فإن الإنغاض هو: التحرك من أسفل إلى أعلى، أو من أعلى إلى أسفل، ومنه قيل للظليم، وهو وُلَد النعامة نَغْضاً، لأنه إذا مشى عَجِلَ في مِشْيَتِه وحَرَّك رأسه. ويقال: نَغَضَتْ سِنُه: إذا تَحرَّكت وارتفعت من مَنْبِتها، قال الراجزُ[٣]:

وَنَغَضتْ مِنْ هَرَمٍ أسنانُها

وقولُه: ﴿ ويقولون متى هُو ﴾ ، إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك، كما قال تعالى: ﴿ ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين ﴾، وقال تعالى: ﴿ يَسْتَعجِل بها الذين لا يُؤمنون بها ﴾.

وقولُه: ﴿ قل عسى أن يكون قريباً ﴾ ، أي: احذَرُوا ذلك، فإنه قريبٌ إليكم، سيأتيكم لا محالة، فكلُّ ما هو آتٍ آتٍ.

وقولُه: ﴿ يوم يدعُوكم ﴾، أي: الرب تعالى ﴿ إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾، أي: إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يُخَالَف ولا يُمانَع، بل كما قال: ﴿ وما أمرُنا إلا واحدةٌ كلمح بالبصر ﴾ و﴿ إنما قولنا لشيءٍ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ وقال: ﴿ فإنما هي زَجْرةٌ واحدةٌ * فإذا هم بالساهرة ﴾، أي: إنما هو أمرٌ واحدٌ بانتهار، فإذا الناسُ قد خَرَجوا من باطنِ الأرضِ إلى ظاهرها، كما قال: ﴿ يوم يدعُوكم فتستجيبون بحمده ﴾، أي: تَقُومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته.

---

(١) تفسير الطبري ٩٨/١٥.

(٢) تفسير الطبري ٩٩/١٥. والحديث أخرجه البخاري ومسلم بإسنادهما إلى أبي سعيد الخدري انظر فتح الباري، تفسير سورة مريم ٤٢٨/٨، وإلى عبدالله بن عُمَر في كتاب الرقاق ٤٠٦/١١، ٤١٥. ومسلم، كتاب الجنة ٢١٨٨/٤ ـ ٢١٨٩.

(٣) البيت في تفسير الطبري ١٠٠/١٥، والقرطبي ٢٧٥/١٠.

قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ﴿ فتستجيبون بِحَمْدِه ﴾، أي: بأمره. وكذا قال ابن جُرَيج. وقال قتادة: بمعرفته وطاعته.

وقال بعضهم: ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ﴾، أي: وله الحمدُ في كلِّ حال، وقد جاء في الحديث: «ليس على أهلِ «لا إله إلا الله» وَحْشَةٌ في قبورهم، وكأنّي بأهلِ «لا إله إلا الله» يقومُون من قبورهم يَنفضُونَ التراب عن رءُوسهم، يقولُون: لا إله إلا الله»، وفي رواية يقولُون: ﴿ الحمدُ لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾، وسيأتي في سورة فاطر[1]، إن شاء الله تعالى.

وقولُه: ﴿ وتَظنُّون ﴾، أي: يوم تقومون من قبوركم ﴿ إن لبثتم ﴾، أي: في الدار الدنيا ﴿ إلا قليلاً ﴾، كما قال: ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾، وقال تعالى: ﴿ يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذٍ زرقاً * يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً * نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً ﴾، وقال تعالى: ﴿ ويوم تقوُم الساعةُ يُقسِمُ المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون﴾، وقال تعالى: ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين * قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون ﴾.

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾

يأمرُ تعالى رسولَه ـ ﷺ ـ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة، فإنه إذا لم يفعلوا ذلك نَزَغَ الشيطان بينهم، وأخرج الكلامَ إلى الفعال، ووقع الشرُّ والمخاصمة والمقاتلة، فإنَّ الشيطانَ عدوٌّ لآدم وذريته من حينَ امتنعَ من السجود لآدم، فعداوتُه ظاهرةٌ بيِّنة، ولهذا نهى أن يُشِير الرجلُ إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان يَنْزَغ في يده، أي: فربما أصابَه بها.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن هَمَّام، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يُشِيرَنَّ أحدُكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يَدْرِي أحدُكم لعلَّ الشيطانَ أن يَنْزَغ في يده، فيقع في حفرة من نار»[2]. أخرجاه من حديث عبد الرزاق[2].

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا عَفَّان، حدثنا حَمّاد، أنبأنا علي بن زيد، عن الحسن قال: حَدَّثني رجل من بني سَلِيطٍ قال: أتيتُ النبي ـ ﷺ ـ وهو في أَزْفَلَةٍ[3] من الناس، فسمعتُه يقول: المسلمُ أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذُله، التقوى ها هنا ـ قال حَمّاد: وقال[4] بيده إلى صدره ـ وما تَوادَّ رجلان في الله فَيُفَرَّقَ بينهما إلا بِحَدَثٍ[5] يحدثه أحدهما، والمحدَثُ شرّ، والمحدَثُ شرٌّ، والمُحدَث شرٌّ»[6].

(١) أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني بإسنادهما إلى عبدالله بن عُمَر، انظر تفسير الآية ٣٤ من سورة فاطر.
(٢) مسند أحمد ٣١٧/٢، وفتح الباري، كتاب الفتن ٢٣/١٣، ومسلم، كتاب البر ٢٠٢٠/٤.
وَيَنْزَغ ـ بالغين المعجمة ـ: يحمله على الفساد. ويروى بالعين المهملة، يقال: نَزَعَ بالسهم: رمى به. والمعنى هنا: يَرْمي به في يده ويحقق ضَرْبَته.
(٣) أي: جماعة.
(٤) أي: أشار.
(٥) في نسخة الحرم: حدث. والمثبت عن المسند.
(٦) مسند أحمد ٧١/٥.

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾

يقول الله تعالى: ﴿ ربُّكم أعلمُ بكم ﴾ أيها الناسُ، من يستحقّ منكم الهداية ومن لا يستحق، ﴿ إن يَشأْ يرحَمْكم ﴾ بأن يُوفّقكم لطاعته والإنابةِ إليه، ﴿ أو إنْ يَشأْ يعذبكم وما أرسلناكَ ﴾ يا محمد ﴿ عليهم وكيلاً ﴾، أي: إنما أرسلناك نذيراً، فمن أطاعك دَخَلَ الجنة، ومن عَصاك دخلَ النار.

وقولُه: ﴿ وربُّك أعلَمُ بمن في السمواتِ والأرضِ ﴾، أي: بمراتبهم في الطاعةِ والمعصِيَةِ، ﴿ ولقد فَضَّلنا بعض النبيين على بعض ﴾ كما قال: ﴿ تلك الرسلُ فَضَّلنا بعضَهم على بعضٍ منهم من كلَّم الله ورفع بعضهم درجاتٍ ﴾.

وهذا لا يُنافي ما ثبت في الصحيحَيْن عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «لا تُفَضِّلُوا بين الأنبياء»[١]، فإن المرادَ من ذلك هو التفضيلُ بمجرَّد التشهِّي والعصبية، لا بمقتضى الدليل، لأنه إذا دَلّ الدليلُ على شيءٍ وَجَب اتباعه، ولا خلافَ أن الرُّسلَ أفضلُ من بقية الأنبياء، وأنَّ أُولي العَزْمِ منهم أفضلهم، وهمِ الخمسةُ المذكورون نصًّا في آيتين من القرآن في سورة الأحزاب: ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نُوحٍ وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ﴾، وفي الشورى في قوله: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصَّى به نُوحاً والذي أوحينا إليكم وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرَّقوا فيه ﴾. ولا خلافَ أن محمداً ـ ﷺ ـ أفضلُهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى ثم عيسى ـ عليهم السلام ـ على المشهور، وقد بَسطنا هذا بدلائله في غير هذا الموضع، والله الموفق.

وقولُه: ﴿ وآتينا داودَ زَبُوراً ﴾: تنبيهٌ على فضله وشرفه، قال البخاري:

حدثنا إسحاق بن نصر، أخبرنا عبد الرزّاق، أخبرنا معمَرٌ، عن هَمّام، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «خُفِّف على داود القراءة[٢]، فكان يأمر بِدابَّته لِتُسْرَجَ، فكان يقرأ قبل أن يَفْرُغ، يعني القرآن»[٣].

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمدُ لهؤلاء المشركين الذين عَبَدُوا غير الله: ﴿ ادعُوا الذين زَعَمتم من دُونه ﴾ من الأصنام والأنداد، فارغَبُوا إليهم، فإنهم ﴿ لا يَمْلِكون كَشْفَ الضرِّ عنكم ﴾، أي: بالكلية، ﴿ ولا تحويلاً ﴾، أي: أن يحولوه إلى غيركم. والمعنى: أن الذي يقدرُ على ذلك هو الله وحدَه لا شريكَ له الذي له الخلقُ والأمرُ.

---

(١) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/٤٥٠ ـ ٤٥١، ومسلم، كتاب الفضائل ٤/١٨٤٣ ـ ١٨٤٤.

(٢) كذا في نسخة الحرم. وفي غيرها: القرآنُ. وكلتاهما واردة في رواية البخاري. والمراد بالقرآن القراءة أيضاً. وفي فتح الباري ٦/٤٥٤ ـ ٤٥٥: «قيل: المراد بالقرآن القراءة... وقيل: المراد الزبور. وقيل: التوراة. وقراءة كلِّ نبي تُطلق على كتابه الذي أوحى إليه. وإنما سماه قرآناً للإشارة إلى وقوع المعجزة به كوقوع المعجزة بالقرآن».

(٣) فتح الباري، كتاب التفسير ٨/٣٩٧.

قال العوفيُّ، عن ابن عباس في قوله: ﴿ قل ادعُوا الذين زَعَمتُم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً ﴾، قال: كان أهلُ الشرك يقولون: نعبدُ الملائكةَ والمسيحَ وعُزيراً، وهم الذين يَدْعُون، يعني الملائكةَ والمسيحَ وعُزَيراً(١).

وقولُهُ: ﴿ أولئك الذين يدعون يبتَغُون إلى رَبِّهم الوسيلةَ أَيُّهم أقرب ﴾، روى البخاريّ، من حديث سليمانَ بن مِهْرانَ الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي مَعْمَرٍ، عن عبد الله في قوله: ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلةَ ﴾، قال: ناس من الجن، كانوا يعبدون، فأسلموا(٢). ـ وفي رواية قال: كان ناسٌ من الإنس يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجنّ وتمسك هؤلاء بدينهم(٢).

وقال قتادة، عن معبد(٣) بن عبد الله الزِّمّاني، عن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ في قوله: ﴿ أولئك الذين يدعُون يبتَغُون إلى ربهم الوَسِيلَةَ ﴾، قال: نَزَلت في نَفَرٍ من العرب، كانوا يعبُدُون نفراً من الجنِّ، فأسلم الجِنّيّون، والإنسُ الذين كانوا يعبدُونهم لا يشعُرون بإسلامهم، فنزلت هذه الآية.

وفي رواية عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم الجنُّ فذكره(٣).

وقال السدّي، عن أبي صالح، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: ﴿ أولئك الذين يدعُون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أَيُّهم أقرب ﴾، قال: عيسى، وأمه، وعُزيرٌ.

وقال مغيرة، عن إبراهيم، كانَ ابنُ عباس يقولُ في هذه الآية: هم عيسى، وعُزيرٌ، والشمسُ، والقمرُ. وقال مجاهد: عيسى، والعُزيرُ، والملائكة.

واختار ابنُ جرير قولَ ابنِ مسعودٍ، لقوله: ﴿ يبتَغُون إلى رَبِّهم الوسيلةَ ﴾، وهذا لا يُعبَّر به عن الماضي(٤)، فلا يَدْخل فيه عيسى والعُزير. قال: والوسيلةُ هي القُربة كما قال قتادةُ، ولهذا قال: ﴿ أَيُّهم أقربُ ﴾.

وقولُه: ﴿ ويرجُون رحمته ويخافُون عَذَابه ﴾: لا تتمُّ العبادةُ إلا بالخوفِ والرجاءِ، فبالخوفِ ينكفُّ عن المناهي وبالرجاءِ ينبعث إلى الطاعاتِ.

وقولُه: ﴿ إنَّ عذابَ رَبِّك كان محذوراً ﴾، أي: ينبغي أن يُحذَر منه، ويُخافَ من وُقوعه وحصوله، عياذاً بالله منه.

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ ﴾

(١) تفسير الطبري ١٥/١٠٤.

(٢) فتح الباري، تفسير سورة الإسراء ٨/٣٩٧ ـ ٣٩٨.

(٣) كذا، ومثله في تفسير الطبري ١٥/١٠٤. وفي رواية أخرى ١٥/١٠٥: عبدالله بن معبد. وهذه هي الترجمة المعروفة: عبدالله بن معبد الزماني. انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٥/١٧٣.

(٤) هذه عبارة ابن كثير، ويريد الطبري أن يقول: إن تفسير ابن مسعود أولى ما أُثِر، ولا ينبغي أن يعتدّ في تفسير المَدْعُوين بأنهم عيسى وأمُّه وعزيرٌ، لأن عزيراً لم يكن موجوداً وعيسى كان قد رفع، وإنما يبتغي الوسيلة من كان موجوداً حيّاً يعمل بطاعة الله... فأما من كان لا سبيل له إلى العمل فبم يبتغي إلى ربّه الوسيلة؟! انظر تفسير الطبري ١٥/١٠٦.

هذا إخبارٌ من الله بأنه قد حَتَمَ وقَضى بما قد كتبه عنده في اللوح المحفوظ، أنَّه ما من قرية إلا سيهلكها، بأن يُبِيد أهلها جميعَهم أو يُعذِّبهم ﴿ عذاباً شديداً ﴾، إما بقتل أو ابتلاءٍ بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال عن الأمم الماضين: ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾. وقال تعالى: ﴿ وكأيِّن من قرية عَتَتْ عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً. فذاقت وبَال أمرها وكان عاقبة أمرها خُسْراً ﴾.

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾

قال سُنَيد، عن حماد بن زيد، عن أيّوبَ، عن سعيد بن جُبَير قال: قال المشركُون: يا محمَّد، إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياءُ، فمنهم من سُخِّرت له الريح، ومنهم من كان يُحيي الموتى، فإن سَرَّك أن نؤمن بك ونُصَدِّقَك، فادعُ ربك أن يَكُونَ[١] لنا الصَّفا ذهباً. فأوحى الله إليه: إني قد سَمِعتُ الذي قالوا، فإن شِئْتَ أن نفعل الذي قالوا، فإن لم يؤمنوا نَزَل العذابُ؛ فإنه ليس بعد نزول الآيةِ مناظرةٌ، وإن شِئْتَ أن تستأني بقومك استأنيتُ بهم؟ قال: يا رب، أستأني[٢].

وكذا قال قتادةُ، وابن جُرَيج، وغيرُهما.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جَرير، عن الأعمش، عن جعفر بن إياس[٣]، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: سأل أهلُ مكَّة النبيَّ ـ ﷺ ـ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يُنَحِّي الجبالَ عنهم فَيَزْدَرِعُوا[٤]. فقيل له: إن شئتَ أن تَسْتَأْنِي بهم، وإن شئت أن نُؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أُهلِكُوا كما أَهْلَكتُ من كان قبلهم من الأمم. قال: لا، بل أستأني بهم. فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿ وما منعنا أن نُرسِلَ بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة ﴾[٥]. وقد رواه النسائي من حديث جرير، به.

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن سَلَمة بن كُهَيل، عن عمران بن الحكم[٦] عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قالت قُرَيشٌ للنبي ـ ﷺ ـ: ادع لنا ربك أن يجعلَ لنا الصَّفَا ذَهَباً، ونُؤمِنَ بِكْ. قال: وتفعلون؟ قالوا: نَعَم. قال: فَدَعا، فأتاه جبريلُ ـ عليه السلام ـ فقال: إنَّ ربَّك يقرأ عليك السلامَ ويقولُ لك: إن شئتَ أصبحَ الصفا لهم ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عَذَّبتُه عذاباً لا أُعَذِّبه أحداً من العالمين، وإن شئتَ فتحتُ لهم باب التوبة والرحمة. فقال: بل بابَ التوبةِ والرَّحمة»[٧].

وقال الحافظ أبو يَعْلَى في مسنده: حدثنا محمد بن إسماعيل بن علي الأنصاري، حدثنا خَلَف بن تَمِيم

---

(١) أي: يصير.

(٢) تفسير الطبري ١٥/١٠٨.

(٣) في نسخة الحرم: جعفر بن أبي إياس. وهو خطأ. انظر تهذيب الكمال ٥/٥ ـ ٦.

(٤) ازدرع: زرع، وحرث.

(٥) مسند أحمد ١/٢٥٨.

(٦) في نسختي الحرم والأزهر: عمران بن حكيم. والمثبت عن المسند. ويقول ابن حجر في تعجيل المنفعة ٢١٩: «عمران بن الحكم السلمي، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ كذا وقع. والصواب: عمران بن الحارث أبو الحكم، كما في صحيح مسلم».

(٧) مسند أحمد ١/٢٤٢.

المَصِيصيّ، عن عبد الجبّار بن عُمَر الأَيْلي، عن عبد الله بن عطاء بن إبراهيم، عن جدته أم عَطَاء مولاةِ الزُّبير بن العوام قالت: سَمِعتُ الزبير ـ رضي الله عنه ـ يقول: لما نزلَتْ: ﴿ وأنذِرْ عَشِيرتك الأقربين ﴾، صاح رسولُ الله ـ ﷺ ـ علي أبي قبيس: يا آل عَبْدِ مناف، إني نذير! فجاءته قريشٌ، فَحَذَّرهم وأنذَرهم، فقالوا: تَزْعُم أنك نبيٌّ يُوحَى إليك، وأن سليمان سُخِّر له الريحُ والجبالُ، وأنَّ موسى سُخِّر له البحر، وأَنَّ عيسى كان يحيي الموتى، فادع الله أن يُسَيِّر عنا هذه الجبالَ، وَيُفَجِّر لنا الأرضَ أنهاراً، فَنَتَّخِذَها مَحارِثَ فنزرَعَ ونأكُلَ، وإلاّ فادعُ الله أن يُحيِيَ لنا موتانا فَنُكَلِّمهم ويُكَلِّمونا، وإلا فادعُ الله أن يُصَيِّر هذه الصخرةَ التي تحتك ذهباً، فَنَنحتَ منها وتُغنِينَا عن رحلة الشتاء والصيف، فإنَّكَ تزعُم أنك كَهَيْئتهم! قال: فبينا نحنُ حوله إذ نَزَل عليه الوحيُ، فلما سُرِّيَ عنه قال: والذي نَفسي بيده، لقد أعطاني ما سَألتم، ولو شئتُ لكَان، ولكنَّه خَيَّرني بين أن تدخُلوا باب الرحمة، فَيُؤمنَ مُؤمنُكم، وبين أن يَكِلَكم إلى ما اخترتُم لأنفسكم فَتَضِلُّوا عن باب الرحمة، فلا يُؤمِنَ منكم أحدٌ، فاخترتُ بابَ الرحمةِ، فيؤمنُ مؤمنكم. وأخبرني أنه إن أعطاكم ذلك ثم كَفَرتم أنه يُعذِّبكم عَذاباً لا يُعَذِّبه أحداً من العالمين. ونزلت: ﴿ وما مَنَعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كَذَّب بها الأولون ﴾ حتى قرأ ثلاث آيات، ونزلت: ﴿ وَلَو أَنَّ قرآناً سُيِّرت به الجبال أو قُطِّعت به الأرض أو كُلِّم به الموتى ﴾(1). . . الآية.

ولهذا قال تعالى: ﴿ وما مَنَعنا أن نُرسِلَ بالآيات ﴾، أي: نبعث الآيات ونَأتِيَ بها على ما سأل قومُك منك، فإنه سَهلٌ علينا يسيرٌ لدينا، إلا أنه قد كَذَّب بها الأولون بعد ما سألوها، وجَرَت سُنَّتُنا فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يُؤَخَّرون إذا كذبوا بها بعد نزولها، كما قال تعالى في المائدة: ﴿قال الله إني مُنَزِّلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أُعَذِّبه عذاباً لا أُعَذِّبه أحداً من العالمين ﴾. وقال تعالى عن ثمود، حين سَأَلوا أن يُخرج لهم ناقة تخرج من صخرة عَيَّنُوها، فدعا صالح ـ عليه السلام ـ ربه، فأخرج له منها ناقة على ما سألوا ﴿ فظلموا بها ﴾ أي: كفروا بمن خلَقَها، وكَذَّبوا رَسُوله وعَقَرُوا الناقة، فقال: ﴿ تَمَتَّعوا في داركم ثلاثَةَ أيامٍ ذلك وَعْدٌ غير مكذوب ﴾ ولهذا قال: ﴿ وآتينا ثمود الناقةَ مُبْصِرة ﴾ أي: دالة على وَحْدَانِيَّةِ مَن خلقها وصِدْقِ الرسول الذي أُجيب دعاؤُه فيها، ﴿ فظلموا بها ﴾، أي: كَفَروا بها ومنعوها شِرْبها وقَتَلُوها، فأبادهم الله عن آخرهم، وانتقم منهم، وأخذَهم أَخْذَ عَزيز مقتدر.

وقولُه: ﴿ وما نُرسِلُ بالآيات إلا تخويفاً ﴾، قال قتادة: إن الله يخوف الناس بما يشاء من آياته، لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون، ذُكر لنا أن الكوفة رُجِفَت على عهد ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا أيها الناس، إنَّ ربكم يَسْتَعتِبُكم، فَأَعتِبُوه(2).

وهكذا رُوِي أن المدينة زُلزِلَت على عهد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مرات، فقال عمر: أَحْدَثْتُم، والله لَئِنْ عادَتْ لأَفعَلَنَّ ولأفعَلَنَّ. وكذا قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ في الحديث المُتَّفق عليه: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله ـ عزّ وجلّ ـ يُرسِلُهما يُخَوِّف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزَعُوا إلى ذكره ودُعَائِه واستغفاره. ثم قال: يا أُمَّةَ محمد، والله ما مِن أحدٍ أَغيرُ من الله أن يزني عبدُه أو تزني أمتُه، يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أَعلَمُ لَضَحِكتُم قليلاً ولَبَكَيتم كثيراً»(3).

---

(1) مسند أبي يعلى ٢/٤٠ ـ ٤١.

(2) تفسير الطبري ١٥/١٠٩. واستعتبه: طلب منه الرجوع عن الإساءة، واسترضاءه. ومعنى أَعْتِبُوه: أَرْضُوه.

(3) أخرجاه في كتاب الكسوف، فتح الباري ٢/٥٢٩، ومسلم ٢/٦١٨.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

يقولُ تعالى لرسوله ـ ﷺ ـ مُحرِّضاً له على إبلاغ رسالته، ومخبراً له بأنه قد عَصَمه من الناس، فإنه القادر عليهم، وهُم في قَبْضَتِه وتحت قهره وغَلَبتِهِ.

قال مجاهدٌ، وعُروة بن الزُّبير، والحسنُ، وقتادةُ، وغيرُهم في قوله: ﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاطَ بالناس﴾، أي: عَصَمَك منهم.

وقولُه: ﴿وما جَعَلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنةً للناس﴾، قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيانُ، عن عمرو، عن عكرمةَ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناكَ إلا فتنةً للناسِ﴾، قال: هي رُؤيا عَينٍ أُرِيَهَا رسول الله ـ ﷺ ـ ليلة أُسرِيَ به، ﴿والشجرة الملعونةَ في القرآن﴾: شجرةُ الزقّوم(١).

وكذا رواه أحمد، وعبد الرزاق، وغيرهما، عن سفيان بن عُيَينة، به. وكذا رواه العَوفي(٢)، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وهكذا فَسَّر ذلك بليلة الإسراء: مجاهد، وسَعِيد بن جُبَير، والحسنُ، ومسروق، وإبراهيم، وقتادةُ، وعبد الرحمن بن زيد، وغيرُ واحد. وقد تقدَّمت أحاديثُ الإسراءِ في أول السورة مستقصاة، ولله الحمد والمنّة. وتقدَّم أن ناساً رجعُوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق؛ لأنه لم تحمل قلُوبهم وعقولُهم ذلك، فَكَذَّبوا بما لم يُحِيطُوا بعلمه، وجعل الله ذلك ثباتاً وَيقِيناً لآخرين، ولهذا قال: ﴿إلا فتنةً﴾، أي: اختباراً وامتحاناً. وأما «الشجرة الملعونة»، فهي شجرة الزَّقُّوم، كما أخبرهم رسول الله ـ ﷺ ـ أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزَّقُّوم، فَكَذَّبوا بذلك حتى قال أبو جهل ـ عليه لعائن الله ـ: هاتُوا لنا تمراً وزبداً، وجعل يأكل هذا بهذا، ويقول: تَزَقَّموا، فلا نعلم الزَّقُّوم غيرَ هذا.

حكى ذلك ابن عباس، ومسروق، وأبو مالك، والحسن البصري، وغيرُ واحد: وكل من قال: إنها ليلة الإسراء، فسره كذلك بشجرة الزقوم(٣).

وقد قيل: المرادُ بالشجرةِ الملعونةِ: بَنُو أمية. وهو غريبٌ ضَعِيفٌ(٤).

قال ابنُ جَرير: حُدِّثت عن محمد بن الحسن بن زَبَالة، حدثنا عبدُ المُهَيمن بن عَبّاس بن سهل بن سعد، حَدَّثني أبي، عن جدي قال: رأى رسولُ الله ـ ﷺ ـ بني فلان يَنْزُون على مِنْبَرِهِ نَزْوَ القرود، فساءه ذلك، فما استُجْمِع ضاحكاً حتى مات، قال: فأنزل الله في ذلك: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾... الآية(٥).

وهذا السندُ ضَعِيفٌ جدًا؛ فإن محمد بن الحسن بن زَبَالة متروك، وشيخه أيضاً ضعيفٌ بالكلية. ولهذا

(١) فتح الباري، تفسير سورة الإسراء ٣٩٨/٨.
(٢) تفسير الطبري ١١٣/١٥.
(٣) تفسير الطبري ١١٣/١٥ ـ ١١٥.
(٤) تفسير الطبري ١١٢/١٥.
(٥) تفسير الطبري ١١٧/١٥.

اختار ابنُ جرير: أن المراد بذلك ليلة الإسراء، وأن الشجرةَ الملعونةَ هي شجرة الزقوم، قال: لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، أي: في الرؤيا والشَّجرة.

وقوله: ﴿ ونُخوِّفهم ﴾، أي: الكفار بالوعيد والعذاب والنَّكال، ﴿ فما يزيدُهم إلا طغياناً كبيراً ﴾، أي: تمادياً فيما هُم فيه من الكفر والضلال. وذلك من خِذْلانِ الله لهم.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾

يذكُر تعالى عداوةَ إبليس ـ لعنه الله ـ لآدم، عليه السلام وذُرِّيته، وأنها عَداوة قديمة منذ خُلِق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجُود، فَسجدُوا كلُّهم إلا إبليسَ استكبر وأبى أن يَسجُد له؛ افتخاراً عليه واحتقاراً له، ﴿ قال أأسجدُ لمن خلقتَ طيناً ﴾ . كما قال في الآية الأخرى: ﴿ أنا خيرٌ منه خلقتَني من نار وخلقته من طين ﴾.

وقال أيضاً: ﴿ أرأيتك ﴾، يقولُ للربِّ جَراءة وكفراً، والربُّ يحلُم ويُنْظِر، ﴿ قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليَّ لئن أخرتَنِ إلى يوم القيامة لأحتنكَنَّ ذُرِّيَّته إلا قليلاً ﴾.

قال عَلِيُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: لأستوْلِيَنَّ على ذُرِّيته إلا قليلاً. وقال مجاهد: لأحتَوِيَنَّ. وقال ابن زيد: لأضِلَّنَّهم.

وكلُّها متقاربةٌ، والمعنى أنه يقول: أرأيتَكَ هذا الذي شَرَّفته وعَظَّمته عليَّ، لئن أنظرتني لأُضِلنَّ ذرِّيَّته إلا قليلاً منهم!

﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾

لما سَأَلَ إبليسُ ـ عليه اللعنةُ ـ النَّظِرَةَ قال الله له: ﴿ اذهب ﴾، فقد أَنظرتُك. كما قال في الآية الأخرى: ﴿ قال فإنك من المُنظَرين * إلى يوم الوقت المعلوم ﴾. ثم أوعده ومن تَبِعه من ذُرِّية آدمَ جهنَم، فقال: ﴿ فمن تَبِعك منهم فإن جَهنَّم جزاؤكم ﴾، أي: على أعمالكم، ﴿ جزاءً موفوراً ﴾.

قال مجاهد: وافراً. وقال قتادة: مَوْفوراً عليكم، لا يُنقَصُ لكم منه.

وقولهُ: ﴿ واستفزِزْ من استطعتَ منهم بِصَوتِك ﴾، قيل: هو الغِنَاء. قال مجاهد: باللهو والغناء، أي: استخفهم بذلك.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿ واستَفْزِزْ من استطعت منهم بِصَوْتكَ ﴾، قال: كلُّ[1] داعٍ دعا إلى معصية الله عزَّ وجلَّ. وقاله قتادة، واختاره ابن جرير.

(١) نصه كما في تفسير الطبري ١١٨/١٥: «وصَوْتُهُ كلّ داعٍ...».

وقولهُ: ﴿ وأجلِبْ عليهم بخَيلك ورَجِلك ﴾، يقول: واحمل عليهم بجنودك خَيَّالتهم ورَجَّالَتِهم؛ فإن الرَّجْل(١) جمعُ راجلٍ، كما أن الركب جمع راكب، وصحب جمع صاحب.

ومعناه: تَسَلَّطْ عليهم بكل ما تقدِرُ عليه. وهذا أمرٌ قَدَريّ، كما قال تعالى: ﴿ ألم ترَ أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تَؤُزُّهم أَزًّا ﴾، أي: تُزعِجُهم إلى المعاصي إزعاجاً، وتسوقُهم إليها سوقاً. وقال ابن عباس، ومجاهد في قوله: ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورَجِلك ﴾، قال: كُلّ راكب وماشٍ في معصية الله.

وقال قتادةُ: إنّ له خيلاً ورجالاً من الجن والإنس، وهم الذين يُطِيعونه.

وتقول العربُ: «أَجْلَب فلانٌ على فلان»: إذا صاح عليه. ومنه نُهِيَ في المسابَقَةِ عن الجَلَب والجَنَب(٢)، ومنه اشتقاقُ الجَلَبةِ، وهي ارتفاعُ الأصواتِ.

وقولُه: ﴿ وشَارِكْهُم في الأموالِ ﴾، قال ابنُ عباسٍ ومجاهدٍ: هو ما أمرهُم به من إنفاقِ الأموال في معاصِي الله. وقال عطاء: هو الرِّبا. وقال الحسن: جَمْعُها من خبيثٍ، وإنفاقُها في حَرَامٍ. وكذا قال قتادةُ.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أَمَّا مشاركَتُه إياهم في أموالهم فهو ما حَرمُوه من أنعامهم، يعني من البحائر والسوائبِ ونحوها. وكذا قال الضَّحَّاكُ وقتادةُ.

ثُمَّ قال ابنُ جرير: والأولى أن يُقالَ: إن الآية تَعُمُّ ذلك كلَّه(٣).

وقولُهُ: ﴿ والأولادِ ﴾، قال العوفيُّ عن ابن عباسٍ، ومجاهدٍ، والضحاكِ: يعني أولاد الزنا.

وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: هو ما كانوا قَتَلُوا من أولادهم سَفَهاً بغير علم.

وقال قتادةُ، عن الحسن البصريِّ: قد والله شارَكَهُم في الأموال والأولاد، مَجَّسُوا وهَوَّدُوا ونَصَّروا وصَبَغُوا غير صِبْغَةَ الإسلام، وجَزَّءوا من أموالهم جزءاً للشيطان. وكذا قال قتادةُ سواءً.

وقال أبو صالح، عن ابن عباس: هو تَسمِيتُهم أولادَهم عبد الحارث، وعبدَ شمس، وعبدَ فلان.

قال ابنُ جرير: وأولى الأقوال بالصواب أن يقال: كلُّ مولود وَلَدته أنثى عُصِيَ الله فيه بتسميته بما يكرهه الله، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله. أو بالزنا بأمه، أو بقتله ووأده، أو غير ذلك من الأمور التي يعصي الله بفعله به أو فيه، فقد دَخَل في مشاركة إبليس فيه مَن وُلِد ذلك الولدُ له أو منه؛ لأن الله لم يخصص بقوله: ﴿ وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾ معنى الشَّركة فيه بمعنى دُونَ معنى، فَكُلُّ ما عُصِيَ الله فيه أو به، وأُطِيع فيه الشيطانُ أو به، فهو مشاركة(٤).

وهذا الذي قاله مُتَّجِهٌ، وكلٌّ من السلف ـ رحمهم الله ـ فَسَّرَ بعضَ المشاركة، فقد ثبت في صحيح

---

(١) قرأ حفص بكسر الجيم، وأسكن الباقون. يقول مكي في الكشف ٢/٤٨ ـ ٤٩: «وحجة من كسر الجيم أنه لغة في رَجْل، يقال: رَجِلٌ ورَجْل للراجل، فيسكنون استخفافاً» وهو حينئذ صفة كَحَذِرٍ وحَذْرٍ. وأما من سَكَّن الجيم فيحتمل أيضاً أن يكون جمع راجل، كما قال ابن كثير.

(٢) الجَلَبُ هنا: أن يَتْبَع الرجُلُ فَرَسه فيَزجُرَه ويُجْلِبَ عليه أو يصيح حثّاً له. وفي ذلك معونة للفَرَسِ على الجري. وقد نهى عن ذلك. والجَنَبُ: أن يُجْنَبَ مع الفَرَسِ الذي يُسابَقُ به فَرَسٌ آخر، فَيُرسَلَ، حتى إذا دنا تحوّل راكبه على الفَرَس المجنوب، فأخذ السَّبَقَ. والحديث رواه أبو داود في كَتاب الجهاد من سُننه ٣/٣٠ عن عمران بن حصين مرفوعاً: «لا جَلَب ولا جَنَب».

(٣) تفسير الطبري ١٥/١٢٠.

(٤) تفسير الطبري ١٥/١٢١.

مسلم(١)، عن عياض بن حمار أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «يقول الله ـ عزّ وجلّ ـ: إني خَلقتُ عبادي حُنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالَتْهُم عن دِينِهم، وحَرَّمت عليهم ما أحلَلْتُ لهم».

وفي الصحيحَين أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «لو أنَّ أحدَهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: باسم الله، اللهُمَّ جَنِّبنا الشيطانَ وجَنِّبِ الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقدَّرْ بينهما ولدٌ في ذلك لم يَضُرَّه الشيطانُ أبداً»(٢).

وقولهُ: ﴿ وعِدْهُم وما يَعِدُهم الشيطانُ إلا غروراً ﴾، كما أخبر تعالى عن إبليسَ أنه يقول إذا حَصْحَصَ الحقُّ يوم يُقضَى بالحق: ﴿ إن الله وَعَدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتُكم وما كان لي عليكم من سلطانٍ إلا أن دعوتُكم فاستجبتُم لي فلا تَلُوموني ولُوموا أنفسَكم ما أنا بمُصرِخكم وما أنتم بمُصْرِخيَّ ﴾ . . . الآية.

وقولهُ: ﴿ إنَّ عبادي ليس لك عليهم سُلطانٌ ﴾: إخبارٌ بتأييده تعالى عبادَه المؤمنين، وحِفْظِه إياهم، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم، ولهذا قال: ﴿ وكفي بِرَبِّك وكيلاً ﴾، أي: حافظاً ومؤيداً وناصراً.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا قُتيبة، حدثنا ابن لَهِيعَةَ، عن موسى بن وَرْدَان، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ: أَنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن المؤمن لَيُنضِي شَيَاطينه، كما يُنْضِي أحدُكم بَعِيرَه في السفر»(٣).

يُنْضِي، أي: يأخذُ بناصيته ويَقْهَره.

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ ﴾

يخبر تعالى عن لُطفه بخَلْقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر، وتَسْهيله لها لمصالح عباده لابتغائهم من فَضْلِهِ في التجارة من إقليم إلى إقليم. ولهذا قال: ﴿ إنه كان بكم رحيماً ﴾، أي: إنما فَعَل هذا بكم من فَضْلِهِ عليكم ورحمته بكم.

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه إذا مَسَّ الناسَ ضُرٌّ دَعَوه مُنِيبين إليه مُخلِصين له الدينَ. ولهذا قال: ﴿ وإذا مسكم الضرُّ في البحر ضَلَّ من تدعُون إلا إياه ﴾، أي: ذَهَب عن قُلوبكم كلُّ ما تعبدون غَيْرَ الله، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارًّا من رسول الله ـ ﷺ ـ حين فَتْحِ مكة، فذهب هارباً، فَرَكِبَ في البحر ليدخل الحبشة، فجاءهم ريح عاصف، فقال القوم بعضُهم لبعض: إنه لا يُغني عنكم إلا أن تدعُوا الله وحده. فقال عكرمة في نَفْسِه: والله لَئِن كان لا ينفع في البحر غيرُه فإنه لا ينفعُ في البرِّ غيرُه. اللهم لك عليَّ عهدٌ لئن أخرجتني منه لأذهبَنَّ فَلأضَعَنَّ يدي في يَدِ مُحَمَّد، فلأجدنَّه رءُوفاً رَحِيماً. فَخَرجُوا من البحر، فَرَجَع إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فأسلم وحسن إسلامه. رَضِي الله عنه(٤).

---

(١) في نسخة الحرم: «في صحيح مسلم، عن ابن عباس، عن عياض». وهو خطأ. والحديث أخرجه مسلم في كتاب الجنة ٢١٩٧/٤.

(٢) فتح الباري، كتاب بدء الخلق ٣٣٥/٦، ومسلم، كتاب النكاح ١٠٥٨/٢.

(٣) مسند أحمد ٣٨٠/٢.

(٤) أخرجه أبو يعلى والبزار بإسنادهما إلى مصعب بن سعد، عن أبيه سعد بن أبي وقاص، انظر مسند أبي يعلى ١٠١/٢، وكشف الأستار ٣٤٣/٢. ورواه أبو داود في سننه في كتاب الجهاد ٥٩/٣، وكتاب الحدود ١٢٨/٤ باختصار. وقد صححه الحاكم في كتاب المغازي ٤٥/٣، وانظر أسد الغابة ٧٠/٤ ـ ٧١، ومجمع الزوائد ١٦٨/٦ ـ ١٦٩.

وقولهُ: ﴿ فَلَمَّا نجاكم إلى البر أعرضتُم ﴾، أي: نَسِيتم ما عرفتُم من توحيدِه في البحر، وأعرضتُم عن دعائه وحده لا شريكَ له.

﴿ وكان الإنسان كفوراً ﴾، أي: سَجِيتُهُ هذا، ينسَى النِّعم ويجحَدُها، إلا مَن عَصَم الله.

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ ﴾

يقول تعالى: أفحسبتم إنْ يُخرجُكم إلى البر أَمِنتم من انتقامه وعذابه؟! ﴿ أن يَخسِفَ بكم جانب البر أو يُرْسِلَ عليكم حاصباً ﴾، وهو المَطَرُ الذي فيه حِجارة، قاله مجاهد وغير واحد. كما قال تعالى: ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آلَ لوطٍ نَجَّيناهم بسحر ﴾، وقد قال في الآية الأخرى: ﴿ وأمطرنا عليهم حِجَارة من سِجِّيل ﴾، وقال: ﴿ أأمنتم مَن في السماء أن يخسِفَ بكم الأرض فإذا هي تَمُور * أم أمنتم من في السماء أن يُرسِلَ عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير ﴾.

وقولهُ: ﴿ ثم لا تَجِدُوا لكم وكيلاً ﴾، أي: ناصِراً يَرُدُّ ذلك عنكم ويُنقِذكم منه. والله - سبحانه وتعالى - أعلم.

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ أم أمنتم ﴾ - أيُّها المعرضون عنا بعد ما اعترفوا بتوحيدنا في البحر، وخرجوا إلى البر - ﴿ أن يُعيدكم ﴾ في البحر مرة ثانية، ﴿ فيُرسل عليكم قاصفاً من الريح ﴾، أي: يَقْصِف الصواري ويُغرِق المراكب؛ قال ابن عباس وغيرُه: القاصفُ ريح البحار التي تكسِرُ المراكِبَ وتُغرِقها.

وقولهُ: ﴿ فنغرقكم بما كفرتُم ﴾، أي: بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى. وقولُه: ﴿ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴾، قال ابن عباس: نَصِيراً. وقال مجاهدٌ: نصيراً ثائراً. أي: يأخذ بثاركم بعدكم. وقال قتادة: ولا نخاف أحداً يتبعنا بشيء من ذلك[1].

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾

يُخبِرُ تعالى عن تَشْرِيفه لبني آدم وتكريمه إياهم، في خَلْقِه لهم على أحسن الهيئات وأكمَلِها، كما قال: ﴿ لقد خلقنا الإنسانَ في أحسن تقويم ﴾، أي: يمشي قائماً منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع، ويأكل بفمه، وجَعَل له سمعاً وبَصَراً وفؤاداً، يفقه بذلك كلِّه وينتفِعُ به، ويفرق بين الأشياء، ويعرِف منافعها وخواصَّها ومَضَارَّها في الأمور الدينية والدنيوية. ﴿ وحَملناهم في البرِّ ﴾، أي: على الدواب من الأنعام والخيل والبغالِ، ﴿ وفي البحر ﴾ أيضاً على السفن الكبار والصغار. ﴿ ورزقناهُم من الطيِّبات ﴾، أي: من زُروع وثمار، ولحُوم وألبانٍ، من سائر أنواع الطعُوم والألوان، المشتهاة اللذيذة، والمناظر

---

(١) تفسير الطبري ١٥/١٢٥.

الحسنة، والملابس الرفيعةِ من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافِها وألوانِها وأشكالِها، مما يصَنْعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرُهم من أقطار الأقاليم والنواحي ﴿ وفَضَّلناهم على كثيرٍ ممَّن خَلقنا تَفْضِيلاً ﴾، أي: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات.

وقد استُدِلّ بهذه الآية على أَفْضَلِيَّة جنسِ البشرِ على جنسِ الملائكةِ، قال عبد الرزاق:

أخبرنا معمر، عن زيد بن أسلم قال: قالت الملائكةُ: يا ربَّنا، إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلُون منها ويتنعَّمُون، ولم تُعطنا ذلك فأعطِناهُ في الآخرة. فقال الله: وعزَّتي وَجَلالِي لا أجعلُ صالحَ ذُرِّيةِ مَن خلقتُ بيديَّ كمن قلت له: كن، فكان[(١)].

وهذا الحديثُ مرسَلٌ من هذا الوجه، وقد رُوِيَ من وجه آخَرَ مُتَّصلاً، فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني:

حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة البغدادي، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي، حدثنا حجاج بن محمد. حدثنا أبو غسَّان محمد بن مُطَرِّف، عن صفوان بن سُليم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عَمرو عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن الملائكة قالت: يا ربَّنا، أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون، ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهُو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة. قال: لا أجعل صالح ذُرِّية من خلقت بيديَّ، كمن قلت له: كن، فكان».

[(٢) وقد روى ابن عساكر من طريق محمد بن أيوب الرازي: حدثنا الحسن بن علي بن خلف الصيدلاني، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن، حدثني عثمان بن حصن بن عبيدة بن علاق، سمعت عُروة بن رُوَيم اللخمي، حدثني أنس بن مالك، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الملائكة قالوا: ربنا، خلقتنا وخلقتَ بني آدم، فجعلتهم يأكلون الطعام، ويشربون الشراب، ويلبسون الثياب، ويتزوجون النساء، ويركبون الدواب، ينامون ويستريحون، ولم تجعل لنا من ذلك شيئاً، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة. فقال الله عزّ وجلّ: لا أجعل من خلقته بيدي، ونفخت فيه من روحي، كمن قلت له: كن، فكان»](٢).

وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا عمر بن سهل، حدثنا عُبَيد الله بن تمام، عن خالد الحذاء، عن بِشْر بن شَغَاف، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما شيءٍ أكرمَ على الله يوم القيامة من ابن آدمَ. قيل: يا رسولَ الله، ولا الملائكةُ؟ قال: ولا الملائكةُ، الملائكةُ مجبورون بمنزلة الشمس والقمر». وهذا حديث غريب جداً.

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة أنَّه يحاسِبُ كُلَّ أمة بإمامهم. وقد اختلفوا في ذلك، فقال مجاهدٌ وقتادةُ: أي بِنَبِيِّهم. وهذا كقوله: ﴿ ولكلِّ أمةٍ رسولٌ فإذا جاء رسولهم قُضِي بينهم بالقسط وهم لا يُظلَمون ﴾.

وقال بعضُ السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث، لأن إمامهم النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه الطبري بإسناده إلى عبد الرزاق ١٢٦/١٥.
[٢ - ٢] سقط من نسخة الحرم.

وقال ابنُ زيد: بكتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع. واختاره ابن جرير، ورَوَى عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد أنه قال: بكُتُبهم. فيحتمل أن يكون أراد هذا، وأن يكون أراد ما رواه العَوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾، أي: بكتاب أعمالهم. وكذا قال أبو العالية، والحسنُ، والضحّاك. وهذا القولُ هو الأرجحُ، لقوله تعالى: ﴿ وكلَّ شيء أحصيناه في إمامٍ مبين ﴾. وقال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ الكتابُ فَتَرى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وَوَجَدُوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾. وقال تعالى: ﴿ وترى كلَّ أمةٍ جاثيةً كلُّ أمةٍ تُدعَى إلى كتابها اليومَ تُجزَون ما كنتم تعملون * هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾.

وهذا لا ينفي أن يُجَاء بالنبي إذا حَكَم الله بين أمته، فإنه لا بدَّ أن يكون شاهداً عليها بأعمالها، كما قال تعالى: ﴿ وأشرقتِ الأرضُ بنور ربها ووُضِع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء ﴾، وقال تعالى: ﴿ فكيفَ إذا جئنا من كل أمة بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾.

[(١) ويَحْتَمِل أنّ المراد ﴿ بإمامهم ﴾، أي: كلُّ قوم بمن ائتمُّوا به، فأهلُ الإيمان ائتمُّوا بالأنبياء - عليهم السلامُ - وأهلُ الكفر ائتمُّوا بأئمتهم، كما قال: ﴿وجعلناهم أئمةً يدعون إلى النار﴾. وفي الصحيحين: «لتتبع كلّ أمةٍ ما كانت تعبُدُ. فيتبع من كان يعبُد الطواغيت الطواغيت»(٢). . . الحديث](١).

ولكنَّ المراد ها هنا بالإمام ههنا كتابُ الأعمال، ولهذا قال تعالى: ﴿ يوم نَدْعُو كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرءُون كتابهم ﴾، أي: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤهُ ويحبُّ قراءته، كما قال تعالى: ﴿فأما من أُوتِي كتابَه بيمينه فيقول هاؤُم اقرؤوا كتابيه * إني ظننتُ أنّي ملاقٍ حسابِيَه﴾ إلى أن قال: ﴿ وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه * ولم أدرِ ما حسابيه﴾.

وقوله: ﴿ ولا يُظْلَمُون فتيلاً ﴾، قد تَقدَّم أن «الفَتِيلَ» هو الخيطُ المستطيلُ في شِقِّ النواةِ(٣).

وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً في هذا فقال:

حدثنا محمد بن مَعْمَر، ومحمد بن عثمان بن كَرَامَةَ قالا: حدثنا عُبَيد الله بن موسى، عن إسرائيلَ، عن السُّدِّي، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ - في قول الله: ﴿ يوم تَدْعُو كُلَّ أناس بإمامهم ﴾ قال: يُدعَى أحدُهم فيُعطَى كتابه بيمينه، ويُمَدّ له في جسمه، ويُبَيَّض وجهه، ويجعَلُ على رأسه تاجٌ من لؤلؤة تَتلألأ، فينطلق إلى أصحابه فَيَرَوْنه من بعيد، فيقولون: اللهم ائْتِنَا بهذا، وبارك لنا في هذا. فيأتيهم فيقول لهم: أبشروا، فإنّ لكلِّ رجل منكم مثلَ هذا. وأما الكافر فَيَسْوَدُّ وجهه، وَيُمدُّ له في جِسْمه، ويراه أصحابُه فيقولون: نعوذ بالله من هذا، أو: من شر هذا، اللهم لا تأتنا به. فيأتيهم فيقولون: اللهمَّ أَخْزِه. فيقول: أَبْعَدكُم الله! فإنّ لكلِّ رجلٍ منكم مثلَ هذا.

ثم قال البزار: لا يُرْوَى إلا من هذا الوجه(٤).

[١ - ١] عن نسخة الحرم، وكان موضع هذه الآية فيها بعد آية الكهف المتقدّمة، عقب قوله تعالى: ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾.

(٢) فتح الباري، كتاب التوحيد ٤١٩/١٣، ومسلم، كتاب الإيمان ١٦٤/١.

(٣) انظر تفسير الآية ٩٣ من سورة النحل، والآية ٤٩ من سورة النساء.

(٤) أخرجه الترمذي في أبواب التفسير بإسناده إلى عبيد الله بن موسى، انظر عارضة الأحوذي ٢٩٤/١١ - ٢٩٥، وكذلك أخرجه ابن حبان في صحيحه، انظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، باب إخباره ﷺ عن البعث ٢٢٢/٩، بإسناده إلى إسرائيل، وأخرجه الحاكم بإسناده إلى عبيدالله بن موسى في كتاب التفسير ٢٤٢/٢ - ٢٤٣ وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه».

وقولهُ: ﴿ ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلاً ﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادةُ، وابن زيدٍ: ﴿ ومن كان في هذه ﴾، أي: في الحياة الدنيا ﴿ أعمى ﴾ عن حجج الله وآياته وبيناته، ﴿ فهو في الآخرة أعمى ﴾، أي: كذلك يكون، ﴿ وأضلّ سبيلا ﴾، أي: وأضلّ منه، كما كان في الدنيا، عياذاً بالله من ذلك.

﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾

يخبر تعالى عن تأييد رسوله ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ وتثْبيته، وعِصْمَتِه وسَلاَمته من شرِّ الأشرار وكيد الفُجّار، وأنه تعالى هو المتولِّي أمره ونصره، وأنه لا يَكِله إلى أحدٍ من خلقه، بل هو وَلِيُّه وحافِظُه وناصِرُه ومؤيده ومُظْفِرُه، ومُظهِرُ دينِه على من عاداه وخَالَفه وناوأه، في مشارق الأرض ومغاربها، ﷺ تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾

قيل: نزلت في اليهود، إذْ أشاروا على النبي ـ ﷺ ـ بسكنى الشام بلاد الأنبياء، وتَرِك سُكْنَى المدينة. وهذا القولُ ضعيفٌ، لأن هذه الآية مكية، وسُكْنَى المدينة بعد ذلك. وقيل: إنها نزلت بتبوك. وفي صِحَّتِه نظرٌ.

قال البيهقيُّ، عن الحاكم، عن الأصمِّ، عن أحمد بن عبد الجبّار العُطَاردي، عن يونس بن بُكَير، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حَوْشب، عن عبد الرحمن بن غَنْم أنَّ اليهودَ أتوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ يوماً فقالوا: يا أبا القاسم، إن كنتَ صادقاً أنَّك نبيٌّ فالْحَقْ بالشام، فإنَّ الشام أرضُ المحشر وأرضُ الأنبياء. قال: فصدّق ما قالوا، فغزا غزوةَ تبوك لا يريد إلا الشام. فلما بلغ تَبُوكَ أنزل الله عليه آيات من سُورة بني إسرائيل بعد ما خُتِمت السورةُ: ﴿ وإن كادوا ليَستفِزُونك من الأرض لِيُخرِجوك منها ﴾ إلى قوله، ﴿ تحويلاً ﴾، فأمره الله تعالى بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك، ومنها تُبعَثُ(١).

وفي هذا الإسناد نظرٌ. والأظهر أنَّ هذا ليس بصحيح، فإن النبي ـ ﷺ ـ لم يغز تبوك عن قول اليهود، وإنما غزاها امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذيـن يلونكم من الكفار ﴾، ولقوله تعالى: ﴿ قاتلوا الذين لا يُؤمِنُون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحَرِّمون ما حَرَّم الله ورسوله ولا يَدِينُون دِينَ الحقِّ من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون ﴾. وغَزَاها ليقتصَّ وينتقم ممن قَتَل أهلَ مؤتة من أصحابه، والله أعلم. ولو صَحَّ هذا لَحُمل عليه الحديث الذي رواه الوليد بن مسلم، عن عُفَير بن مَعْدان، عن سُلَيم بن عامر، عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أُنزِلَ القرآنُ في ثلاثة أمكنة: مكّةَ،

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٥/٢٥٤.

والمدينةِ، والشام»(١). قال الوليد: يعني بيت المقدس. وتفسير الشام بتبوك أحسن مما قال الوليد: إنه بيت المقدس. والله أعلم.

وقيل: نزَلت في كُفَّار قُرَيش، هَمُّوا بإخراج الرسول من بين أَظهُرهم، فَتَوعَّدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجُوه لما لبثوا بعدَه بمكَّة إلا يسيراً. وكذلك وَقَع؛ فإنه لم يكن بعد هِجْرَته من بين أظهرهم، بعدما اشتدَّ أذاهم له إلا سَنَةٌ ونصف. حَتَّى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسَلَّطه عليهم وأَظْفَره بهم، فَقَتل أشرافهم، وسَبى سراتهم(٢). ولهذا قال: ﴿ سُنَّةَ من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ﴾، أي: هكذا عادتنا في الذين كَفَرُوا برسلنا وآذوهم: يخرج الرسول من بين أظهرهم ويأتيهم العذاب، ولولا أنه عليه الصلاة والسلام رسولُ الرحمة لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قِبَل لأحد به. ولهذا قال تعالى: ﴿ وما كان الله لِيُعذِّبهم وأنت فيهم وما كان الله مُعَذِّبهم وهم يستغفرون ﴾.

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ ﴾

يقول تعالى لرسوله ـ ﷺ ـ آمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها: ﴿ أقم الصلاةَ لِدُلُوكِ الشمس ﴾، قيل لغروبها. قاله ابن مسعود، ومجاهد، وابن زيد. وقال هُشيم، عن مغيرة، عن الشعبي، عن ابن عباس: دُلُوكها: زوالها. ورواه نافع، عن ابن عُمَر. ورواه مالك في تفسيره، عن الزُّهري، عن ابن عُمَر. وقاله أبو بَرْزَة الأسلمي وهو رواية أيضاً عن ابن مسعود، ومجاهد. وبه قال الحسنُ، والضحَّاكُ، وأبو جعفر الباقر، وقتادةُ. واختاره ابنُ جرير(٣). ومما استشهد عليه ما رواه عن ابن حُمَيد، عن الحكم بن بَشير، حدثنا عمرو بن قيس، عن ابن أبي ليلى، [عن رجل]، عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: دعوتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ ومن شاء من أصحابه، فَطَعِمُوا عندي، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرجَ النبي ـ ﷺ ـ فقال: اخرج يا أبا بكر، فذاك حين دَلَكت الشمس»(٤).

ثم رواه عن سهل بن بكار، عن أبي عَوَانة، عن الأسود بن قيس، عن نُبَيحٍ العَنَزِيِّ، عن جابر ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ، نحوه. فعلى هذا تكون هذه الآية دَخَل فيها أوقاتُ الصلاة الخمسة، فمن قوله: ﴿ لدلوك الشمس إلى غسق الليل ﴾ ـ وهو: ظلامه، وقيل: غروبُ الشمس ـ أُخِذَ منه الظهرُ والعصرُ والمغربُ والعشاءُ. وقولهُ: ﴿ وقرآن الفجر ﴾، يعني: صلاة الفجر.

وقد ثبتت السنةُ عن رسول الله ـ ﷺ ـ تواتُراً من أفعاله وأقواله، بتفاصيل هذه الأوقات، على ما عليه عمل أهلُ الإسلام اليوم، مما تَلَقَّوه خلفاً عن سلف، وقرنا بعد قرن، كما هو مُقَرَّر في مواضعه، ولله الحمد.

﴿ إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾، قال الأعمشُ، عن إبراهيم، عن ابن مسعود ـ وعن أبي صالح، عن

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير بإسناده إلى الوليد ٢٠١/٨، وقال في مجمع الزوائد ١٥٧/٧: «وفيه عُفَير بن معدان. وهو ضعيف».
(٢) في نسخة الحرم: «وسبى ذراريهم».
(٣) تفسير الطبري ١٣٦/١٥.
(٤) في نسخة: فهذا حين. ولفظ الطبري ١٣٧/١٥: أخرج يا أبا بكر، قد دلكت الشمس».

أبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ـ ﷺ ـ في هذه الآية: ﴿ وقرآنَ الفجرِ إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾، قال: تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار[١].

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا معمر، عن الزُّهري، عن أبي سلمة ـ وسعيد بن المسيب، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «فَضْلُ صلاةِ الجميع على صلاة الواحد خمسٌ وعشرون درجةً، وتجتمع ملائكةُ الليل وملائكةُ النهارِ في صَلاَة الفجرِ». يَقُولُ أبو هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ: اقرءوا إن شئتُم: ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسباطٌ، حدثنا الأعمش، عن إبراهيمَ، عن ابن مسعود، عن النبي ـ ﷺ ـ وحدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿ وقرآنَ الفجرِ إنَّ قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾، قال: تشهَدُه ملائكة الليل، وملائكة النهار[٣].

ورواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، ثلاثتهم عن عُبَيدِ بن أسباطِ بن محمد، عن أبيه، به. وقال الترمذي: حسن صحيح[٣].

وفي لفظ في الصحيحَين، من طريق مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكةُ الليل وملائكةُ النهار، ويَجتَمِعُون في صلاةِ الصُّبح وفي صلاةِ العَصْر، فَيَعْرُجُ الذين باتوا فيكم فيسألهم ـ وهو أعلَمُ بكم ـ: كيف تركتُم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يُصلُّونَ، وتركناهم وهم يُصَلُّون»[٤].

وقال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: يجتمع الحرسان في صلاة الفجر، فَيصعَدُ هؤلاء ويُقِيم هؤلاء. وكذا قال إبراهيم النخَعيّ، ومجاهد، وقتادةُ، وغيرُ واحدٍ في تفسير هذه الآية.

وأما الحديثُ الذي رَوَاه ابنُ جرير ها هنا، من حديث الليث بن سعد، عن زِيادةَ، عن محمد بن كعب القُرَظي، عن فضالة بن عُبَيد، عن أبي الدَّرداء، عن رسول الله ـ ﷺ ـ فذكر حديثَ النزول، وأنه تعالى يقول: «من يَستغفِرني أغفرْ له، من يَسألني أعطِه، مَنْ يَدْعُني فأستجيبُ[٥] له حتى يطلعِ الفجر». فلذلك قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿ وقرآن الفجرِ إنَّ قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾، فيشهده اللهُ، وملائكةُ الليلِ، وملائكة النهار[٦] ـ فإنه تَفرَّد به زِيادَةُ، وله بهذا حديث[٧] في سُنَنِ أبي داود.

وقولهُ: ﴿ ومن الليل فَتهجَّد به نافلةً لك ﴾، أمرٌ له بقيام الليل بعد المكتوبة، كما وَرَد في صحيح مسلم، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ: أنه سُئِل: أَيُّ الصلاةِ أفضلُ بعد المكتوبة؟ قال: صلاةُ الليل[٨].

---

(١) تفسير الطبري ١٣٩/١٥.

(٢) فتح الباري، تفسير سورة الإسراء ٣٩٩/٨.

(٣) مسند أحمد ٤٧٤/٢، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الإسراء ٢٩٣/١١ ـ ٢٩٤، وسنن ابن ماجه، كتاب الصلاة ٢٢٠/١.

(٤) فتح الباري، كتاب مواقيت الصلاة ٣٣/٢، ومسلم، كتاب المساجد ٤٣٩/١.

(٥) كذا ورد النصّ في أصولنا، وهو صحيح عربيَّة، والفعل المضارع بعد الفاء خبر لمبتدأ، والتقدير: فأنا أستجيبُ له. ومثله قوله تعالى: ﴿ومن عاد فينتقم الله منه﴾، وقوله: ﴿فمن يُؤْمِن بربّه فلا يخاف بخساً ولا رَهَقَا﴾، وفي تفسير الطبري: مَنْ يَدْعُوني فأستجيبَ له؟ على الاستفهام.

(٦) تفسير الطبري ١٣٩/١٥.

(٧) أي: بهذا السند. والحديث أخرجه أبو داود في كتاب الطب ١٢/٤.

(٨) مسلم، كتاب الصيام ٨٢١/٢.

ولهذا أمر تعالى رسولَه بعد المكتوبات بقيام الليل، فإنَّ التهجُّدَ ما كان بعد نوم. قاله علقمةُ، والأسود، وإبراهيم النخَعي، وغيرُ واحد، وهو المعروف في لغة العرب. وكذلك ثبتت الأحاديثُ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه كان يَتهجَّد بعد نومه، عن ابن عباس، وعائشة، وغير واحد من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كما هو مبسوط في مَوْضِعه، ولله الحمد والمنَّة.

وقال الحسنُ البصري: هو ما كان بعد العِشَاء. ويُحَملُ على ما بعد النوم.

واختُلِف في معنى قوله: ﴿ نافلةً لك ﴾، فقيل: معناهُ أنك مخصوصٌ بوجوبِ ذلك وحدك، فَجَعلُوا قيام الليل واجباً في حَقِّه دون الأمة. رواه العَوفي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وهو أحدُ قولَي العلماء، وأحدُ قَوْلَي الشافعي رحمه الله، واختاره ابنُ جرير.

وقيل: إنما جُعِلَ قيامُ الليل في حَقِّه نافلة على الخصوص، لأنه قد غُفِر له ما تَقَدَّم من ذنبه وما تأخر، وغيرُه من أمته إنما يُكَفِّر عنه صلواتُه النوافلُ الذنوبَ التي عليه. قاله مجاهد، وهو في المسند عن أبي أمامة الباهلي، رضي الله عنه[(١)].

وقولهُ: ﴿ عسى أن يبعثَكَ رَبُّك مقاماً محموداً ﴾، أي: افعَلْ هذا الذي أمرتُك به لِنُقيمك يوم القيامة مقاماً يحمَدُك فيه الخلائق كلُّهم وخالِقُهم تبارك وتعالى.

قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يقُومه ـ ﷺ ـ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربُّهم من عظيم ما هم فيه من شدَّة ذلك اليوم. ذِكْرُ من قال ذلك:

حدثنا ابن بَشَّار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاقَ، عن صِلَةَ بن زُفَر، عن حُذَيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: يُجمَع الناسُ في صعيدٍ واحدٍ، يُسْمِعُهم الداعي وَيَنفُذُهم[(٢)] البصر، حُفاةً عُراةً كما خُلِقوا قياماً، لا تَكَلَّم نفسٌ إلا بإذنه، ينادَى: يا محمدُ، فيقول: لَبَّيكَ وسَعديْكَ، والخيرُ في يديك، والشرُّ ليس إليك، والمهدي من هَدَيت، وعبدُك بين يديك، وبك وإليك، لا منجى ولا مَلْجأ منك إلا إليك، تباركتَ وتعاليتَ، سُبحانَكَ رَبَّ البيت. فهذا المقامُ المحمودُ الذي ذَكَره الله تعالى.

ثم رواه عن بُنْدَار[(٣)]، عن غُندر، عن شعبةَ، عن أبي إسحاقَ[(٤)]، به: وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر والثوري، عن أبي إسحاق، به[(٥)].

وقال ابن عباس: المقامُ المحمود مقامُ الشفاعة: وكذا قال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، وقاله الحسن البصري.

وقال قتادة: هو أول من تَنْشقُّ عنه الأرض، وأولُ شافع، وكان أهلُ العلم يرون أنه المقامُ المحمودُ الذي قال الله تعالى: ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾.

قلت: لرسولِ الله ـ ﷺ ـ تشريفاتٌ لا يَشْرَكه فيها أحدٌ، وتشريفات لا يُساوِيه فيها أحدٌ، فهو أوَّل من

(١) مسند أحمد ٥/٢٥٥، ٢٥٦.
(٢) يقال: نفذني بصرُه: إذا بلغني وتجاوزني. والمعنى أنه ينفذهم بصر الرحمن ـ تبارك وتعالى ـ حتى يأتي عليهم كلِّهم.
(٣) الرواية الثانية كما في تفسير الطبري ١٥/١٤٤ عن محمد بن المثنى، عن محمد بن جعفر. فأما بندار فهو محمد بن بشار، وغندر هو: محمد بن جعفر.
(٤) تفسير الطبري ١٥/١٤٤.
(٥) تفسير الطبري ١٥/١٤٥.

تَنشقُّ عنه الأرضُ، ويبعث راكباً إلى المحشَرِ، وله اللواءُ الذي آدمُ فمن دونَه تحتَ لوائه، وله الحوضُ الذي ليس في الموقفِ أكثرُ وارداً منه، وله الشفاعةُ العظمى عند الله لِيَأتيَ لِفَصْلِ القضاءِ بين الخلائق، وذلك بعد ما يسألُ الناسُ آدمَ ثم نوحاً ثم إبراهيمَ ثم موسى ثم عيسى، فكل يقول: لست لها، حتى يأتوا محمداً ـ ﷺ ـ فيقول: «أنا لها، أنا لها»، كما سنذكر ذلك مفصلاً في هذا الموضع إن شاء الله تعالى. ومن ذلك أنه يشفَع في أقوام قد أُمِرَ بهم إلى النار، فَيُرَدُّون عنها. وهو أول الأنبياء يَقْضِي بين أمته، وأولُهم إجازة على الصِّراط بأمته. وهو أولُ شَفِيع في الجنة، كما ثبت في صحيح مسلم. وفي حديث الصُّور: أن المؤمنين كُلَّهم لا يدخُلون الجنةَ إلا بشفاعَتِه، وهو أول داخل إليها وأمته قبل الأمم كلهم. ويشفع في رفع درجات أقوام لا تبلُغها أعمالهم، وهو صاحبُ الوسيلةِ التي هي أعلى مَنْزِلةٍ في الجنة، لا تليق إلا له. وإذا أَذِنَ الله تعالى في الشفاعة في العُصَاة تَشفَعُ الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيشفَعُ هو في خلائق لا يَعلَم عدتهم إلا الله تعالى، ولا يشفَعُ أحد مثله ولا يُساوِيه في ذلك. وقد بَسَطْتُ ذلك مُستَقْصىً في آخِرِ كتابِ «السِّيرَةِ» في بابِ الخَصَائِصِ، ولله الحمدُ والمِنَّةُ.

وَلْنَذْكُرِ الآنَ الأحاديثَ الوارِدَةَ في المقام المحمود، وبالله المستعانُ، قال البخاري:

حدثنا إسماعيلُ بن أبان، حدثنا أبو الأحوص، عن آدَمَ بن علي، سَمِعْتُ ابن عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ [يقول]: إن الناس يَصِيرُون يوم القيامة جُثاً(١)، كل أمة تتبع نَبِيَّها، يقولون: «يا فلان اشفع، يا فلان اشفع»، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ـ ﷺ ـ فذلك يوم يبعَثُه الله مقاماً محموداً(٢).

ورواه حمزةُ(٣) بن عبد الله، عن أبيه، عن النبي ﷺ(٢).

قال ابنُ جَرير: حدثني محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا شُعَيب بن الليث، حَدَّثني الليثُ، عن عُبَيد الله بن أبي جَعفر أنه قال: سَمِعتُ حمزةَ بن عبد الله بن عُمَر يقول: سَمِعتُ عبد الله بن عُمَر يقولُ: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنَّ الشمسَ لتدنُو حتى يَبْلُغَ العَرَقُ نِصفَ الأذن، فبينما هم كذلك استغاثُوا بآدم ـ عليه السلام ـ فيقول: لستُ صاحِبَ ذلك. ثم بموسى ـ عليه السلام ـ فيقول كذلك، ثم بِمُحَمَّد فيشفَعُ بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة بابِ الجَنَّةِ، فيومئذٍ يبعثُه الله مقاماً محموداً(٤).

وهكذا رواه البخاريُّ في «الزكاة» عن يحيى بن بُكير وعبد الله بن صالح(٥)، كلاهما عن الليث بن سعد، به: وزاد: «فيومئذٍ يبعثه الله مقاماً محموداً، يحمده أهل الجَمْعِ كلهم»(٦).

قال البخاري: وحدثنا علي بن عَيَّاش، حدثنا شُعَيب بن أبي حَمْزَة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «من قال حين يسمَعُ النداء: اللهمَّ، ربَّ هذه الدعوةِ التامَّةِ والصلاةِ القائمةِ، آتِ مُحمَّداً الوسيلةَ والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ـ حَلَّت له شفاعتي يوم القيامة»(٢). انفرد به دون مسلم.

حديث أُبيِّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ وقال الإمام أحمد:

حدثنا أبو عامر الأزديّ، حدثنا زُهَير بن محمد، عن عبد الله بن محمد بنِ عَقِيل، عن الطفيل بن أبي بن

---

(١) جُثاً: جمع جثوة كَخُطْوَةٍ وخُطاً والجُثْوةُ في الأصل: الحجر أو التراب المجموع، والمراد هنا بالجُثا: الجماعات. وحكى ابن الأثير أنه روى «جِثِيّ» ـ بكسر المثلثة وتشديد التحتانية جمع جاثٍ، وهو الذي يجلس على ركبتيه.

(٢) فتح الباري، تفسير سورة الإسراء ٨/٣٩٩. (٣) حمزةُ هو: ابن عبدالله بن عُمَر. (٤) تفسير الطبري ١٥/١٤٦.

(٥) في نسخة الحرم: «وعلقمة، عن عبدالله بن صالح». وانظر تحفة الأشراف للمزّي ٥/٣٤١.

(٦) فتح الباري، كتاب الزكاة ٣/٣٣٨. والمراد بأهل الجمع أهلُ المحشر، لأنه يوم يُجْمَعُ فيه الناسُ كلُّهم.

كعب، عن أُبيه، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إذا كان يومُ القيامة كنتُ إمام الأنبياء وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم غيْرَ فَخْرٍ»[١].

وأخرجه الترمذي، من حديث أبي عامرٍ عبد الملك بن عَمْروٍ العَقَدِيِّ، وقال: «حديث حسن صحيح». وابنُ ماجه، من حديث عبد الله بن محمد بن عَقِيلٍ[١]، به. وقد قَدّمنا في حديثِ «أبي بن كعب» في قراءة القرآن على سبعة أحرب، قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ في آخره: فقلت: اللهمَّ، اغفِرْ لأُمّتي، اللهُمَّ اغفِرْ لأُمّتي، وأخرتُ الثالثةَ ليوم ٍ يرغَب إليَّ فيه الخلقُ، حَتّى إبراهيمُ عليه السلام»[٢].

* * *

حديثُ أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال الإمام أحمد:

حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبة، حدثنا قتادةُ، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: يُجمَع المؤمنونَ يَوْمَ القيامة، فَيُلْهَمُون ذلك فيقولُون: لو استَشْفَعنا إلى ربِّنا، فأراحنا من مكاننا هذا. فيأتون آدمَ فيقولون: يا آدم، أنتَ أبو البَشَرِ، خَلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعَلّمك أسماء كلّ شيء، فاشفع لنا إلى رَبِّك حتى يُريحنَا من مكاننا هذا. فيقول لهم آدمُ: لستُ هناكم. ويَذْكُر ذَنْبَه الذي أصاب، فَيَسْتَحِي ربَّه ـ عزّ وجلّ ـ من ذلك، ويقول: ولكن ائتوا نُوحاً، فإنه أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض. فيأتون نوحاً فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئةَ سُؤَاله ربَّه ـ عزّ وجلّ ـ ما ليس له به علم، فَيَسْتَحِي رَبَّه من ذلك، ولكن ائْتوا إبراهيمَ خليلَ الرحمن. فيأتونه فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا موسى، عَبْداً كلمه الله تعالى، وأعطاه التوراة. فيأتون موسى فيقولُ: لست هناكم، ويذكر لهم النفس التي قَتَل بغير نفس، فَيَسْتَحِي رَبَّه ـ عزّ وجلّ ـ من ذلك، ولكن ائتوا عيسى، عبدُ الله ورسوله، وكلمتَه وروحُه. فيأتون عيسى فيقول: لست هناكم. ولكن ائتوا محمداً ـ ﷺ ـ عبداً غَفَر الله له ما تَقدّم من ذَنْبِه وما تأَخّر. فيأتوني ـ قال الحسنُ هذا الحرفَ: فأقوم فأمشي بين سِمَاطين[٣] من المؤمنين ـ قال أنس: حتى أستأذِنَ على ربي، فإذا رأيت ربي وَقَعْتُ له ـ أو: خَرَرْتَ ـ ساجداً لربي، فيَدَعني ما شاء الله أن يدعني، قال: ثم يقال: ارفَعْ محمدُ، قُل تسمع، واشفع تشفع، وسل تعطه. فأرفع رأسي، فأحمده بتحميد يُعَلِّمُنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة. ثم أعود إليه الثانية فإذا رأيت ربي وقعت ـ أو خَرَرتُ ـ ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل تُسمَعْ، وسَل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسي فأحمَدُه بِتَحمِيد يُعَلِّمُنيه، ثم أشفع فَيَحُدُّ لي حَدًّا، فأدخلهم الجنة، ثم أعود في الثالثة؛ فإذا رأيت ربي وقعت ـ أو: خررت ـ ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل تسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يُعَلِّمنيه، ثم أشفع فَيَحُدُّ لي حَدّاً فأدخلهم الجنة. قال: ثم أعود الرابعة فأقول: يا رب، ما بقي إلا من حَبَسه القرآن. فحدثنا أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال: فَيَخرُج من النار من قال: «لا إله إلا الله»، وكان في قلبه من الخير ما يَزِن شعيرة، ثم يَخرُج من النار من قال: «لا إله إلا الله»، وكان في قلبه من الخير ما يَزِن بُرَّة. ثم يَخرُج من النار من قال: «لا إله إلا الله»، وكان في قلبه من الخير ما يَزِن ذَرَّةً»[٤].

---

(٢) مسند أحمد ١٣٧/٥، وعارضة الأحوذي، أبواب المناقب ١٠١/١٣. وسنن ابن ماجه، كتاب الزهد ١٤٤٣/٢.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٢٧/٥، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين ٥٦١/١ ـ ٥٦٢.

(٣) السِّماط: الصفُّ.

(٤) مسند أحمد ١١٦/٣، وروايته عن عفان في ٢٤٧/٣ ـ ٢٤٨، وفتح الباري، تفسير سورة البقرة ١٦٠/٨، ومسلم، كتاب الإيمان ١٨١/١.

أخرجاه في الصحيح من حديث سعيد، به. وهكذا رواه الإمامُ أحمدُ، عن عَفّان، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بطوله(١).

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا يونُس بن محمد، حدَّثنا حَرْب بن ميمون أبو الخطّاب الأنصاري، عن النَّضر بن أنس، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: حَدَّثني نبيُّ الله ـ ﷺ ـ: «إني لقائمٌ أنتظر أُمّتي تعبُر الصِّراط، إذ جاءني عيسى ـ عليه السلام ـ فقال: هذه الأنبياءُ قد جاءتك يا مُحَمَّد يسألون ـ أو قال: يجتمعون إليك ـ ويَدْعُون الله أن يُفرِّق(٢) بين جميع الأمم إلى حيثُ يشاء الله، لِغَمّ ما هُم فيه، فالخلق مُلجَمون بالعرق، فأما المؤمنُ فهو عليه كالزُّكْمَة، وأما الكافر فيغشاه الموت. فقال: انتظر حتى أرجعَ إليك. فذهبَ نبيُّ الله ـ ﷺ ـ فقام تحتَ العرش، فلقي ما لم يَلْقَ مَلَك مصطفي ولا نبيٌّ مُرسَلٌ. فأوحى الله ـ عز وجلّ ـ إلى جبريل: أن اذهَبْ إلى محمد، وقل له: ارفع رأسَكَ، وَسَلْ تُعطَه، واشفع تُشفَّع. فَشَفَعتُ في أمتي: أنْ أَخْرِجْ من كل تسعة وتسعين إنساناً واحداً، فما زلت أتردَّدُ إلى ربي عزّ وجلّ، فلا أقوم منه مقاماً إلا شَفَعت، حتى أعطاني الله من ذلك، أن قال: يا محمد، أَدْخِلْ من أُمّتِك مِن خَلْق الله ـ عزّ وجلّ ـ مَنْ شهد أن لا إله إلا الله يوماً واحداً مخلصاً، ومات على ذلك(٣).

* * *

حديث بُرَيدة ـ رضي الله عنه ـ وقال الإمام أحمدُ بن حنبل:

حدثنا الأسود بن عامر، أخبرنا أبو إسرائيل، عن الحارث بن حَصِيرة، عن ابن بُرَيدة، عن أبيه: أنه دَخَل على معاوية ـ رضي الله عنه ـ فإذا رجلٌ يتكلم، فقال بُرَيدة: يا معاويةُ، ايذَنْ لي في الكلام؟ فقال: نَعَم، وهو يرى أنه سيتكلّم بمثل ما قال الآخر، فقال بُرَيدة: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «إني لأرجو أن أشفَعَ يومَ القيامة عَدَد ما على الأرض من شجرة ومَدَرة. قال: فَتَرْجُوها(٤) أنت يا معاوية ولا يرجوها علي رضي الله عنه(٥)؟!.

* * *

حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال الإمام أحمد:

حدثنا عارِمُ بن الفضل، حدثنا سعيدُ بن زيد، حدثنا علي بن الحكم البُنَاني، عن عثمان، عن إبراهيم، عن علقمة والأسود، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء ابنا مُلَيكة إلى النبي ـ ﷺ ـ فقالا: إن أمَّنا [كانت](٦) تُكرِمُ الزوج، وتَعطِف على الولد، قال: وذكر الضَّيفَ، غير أنها كانت وَأَدَت في الجاهلية؟ فقال: أُمُّكما في النار. قال: فأدبرا والسوءُ يُرَى في وجوههما، فأمر بهما فرُدّا، فرَجَعا والسرور يُرى في وجوههما؛ رجاء أن يكون قد حدث شيءٌ، فقال: أمي مع أمكما. فقال رجل من المنافقين: وما يُغني هذا عن أُمِّه شيئاً ونحن نَطَأُ عَقِبه(٧). فقال رجل من الأنصار ـ ولم أرَ رَجلاً قطُّ أكثرَ سُؤَالاً منه ـ: يا رسولَ الله، هل وَعدكَ ربُّك

(١) انظر التعليق السابق.
(٢) لفظ المسند: «أن يُفرِّق جَمْع الأمم».
(٣) مسند أحمد ١٧٨/٣.
(٤) في المسند: «أفترجوها»، بهمزة الاستفهام.
(٥) مسند أحمد ٣٤٧/٤.
(٦) عن المسند.
(٧) في المسند: عقبيه.

فيها أو فيهما؟ قال: فَظَنَّ أنه من شيءٍ قد سَمِعَه، فقال: ما شاء الله رَبِّي[١]، وما أطمَعَني فيه، وإني لأقومُ المقامَ المحمودَ يوم القيامة. فقال الأنصاريّ: يا رسولَ اللهِ، وما ذاك المقامُ المحمودُ؟ قال: ذاك إذا جيءَ بكم حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً[٢]، فيكون أولُ مَن يُكْسَى إبراهيمَ عليه السلام، فيقول: اكسُوا خَلِيلي. فَيُؤتى بِرَيطَتَينِ[٣] بَيْضَاوَين، فيلبَسُهما ثم يُقعِدُه مستقبلَ العرش، ثم أُوتَى بِكِسوَتي فألبسها، فأقوم عن يَمِينه مقاماً لا يقومُه أحد، فيغبطني فيه الأولون والآخرون. ويفتح لهم نهر من الكوثر إلى الحوض. فقال المنافقون: إنه ما جَرَى ماء قَطُّ إلا على حال أو رَضراض[٤]. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: حالهُ المسك، ورَضْرَاضُه التُّوم[٤]. قال المنافق: لم أَسمَعْ كاليوم. فإنه قلَّما جرى ماء قَطُّ على حَال أو رَضراض إلا كان له نَبْتَةٌ. فقال الأنصاري: يا رسول الله، هل له نبت؟ فقال: نعم، قُضبَانُ الذَّهَبِ. قال المنافِقُ: لم أسمَع كاليوم، فإنه قلما ينبُت قضيبٌ إلا أورق، وإلا كان له ثَمرا فقال الأنصاري: يا رسولَ الله، هل له ثَمَرَةٌ؟ قال: نعم، ألوان الجَوهَر، وماؤُه أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، من شَرِب منه شَرْبَةً لا يظمأ بعدَه، ومن حُرِمه لم يَرْوَ بعدَه[٥].

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا يحيى بن سَلَمة بن كُهَيل، عن أبيه، عن أبي الزَّعْرَاء، عن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: ثم يأذن الله ـ عزَّ وجلّ ـ في الشفاعة، فيقوم روحُ القدُس جبريلُ، ثم يقوم إبراهيم خليل الله[٦]، ثم يقوم عيسى أو موسى ـ قال أبو الزعراء: لا أدري أيُّهما ـ قال: ثم يقوم نبيكُم ـ ﷺ ـ رابعاً، فيشفع لا يشفع أحدٌ بعده أكثر مما شفع، وهو المقام المحمود الذي قال الله عزّ وجلّ: ﴿عسى أن يبعثك ربُّك مقاماً محموداً﴾[٧].

* * *

حديثُ كعبِ بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال الإمام أحمد:

حدثنا يزيدُ بن عبدِ رَبِّه، حدثني محمد بن حَرْبٍ، حدثنا الزّبيدي، عن الزُّهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «يُبعَثُ الناس يوم القيامة فأكونُ أنا وأُمَّتي على تَلٍّ، ويكسوني ربِّي ـ عزّ وجَلّ ـ حُلّةً خضراء. ثم يُؤذَن لي فأقولُ ما شاء الله أن أقول، فذلك المقامُ المحمودُ»[٨].

* * *

حديثُ أبي الدَّرداء ـ رضي الله عنه ـ قال الإمامُ أحمدُ:

حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعَةَ، حدثنا يزيد بن أبي حَبِيب، عن عبد الرحمن بن جُبَير، عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أنا أول من يُؤذَنُ له بالسجود يوم القيامة، وأنا أول من يُؤذَن له أن يَرْفَع رأسه، فأنظرُ إلى ما بين يَدَيَّ، فأعرفُ أُمَّتي من بين الأمم، ومن خَلْفِي مثل ذلك، وعن يميني مثل ذلك،

---

(١) في المسند: ما سألته ربي.

(٢) غُرلاً: جمع أَغرَل، وهو الذي بقيت غُرْلَتُهُ، وهي الجلدة التي تقطع عند الختان.

(٣) الرَّيطَةُ: الملاءة.

(٤) الحال: التراب اللّيِّن، والطين الأسود والرضراض: الحصى الصغار. والتُّوم ـ بضم التاء ـ: الدُّرّ.

(٥) مسند أحمد ١/٣٩٨ ـ ٣٩٩.

(٦) في نسخة الحرم: خليل الرحمن.

(٧) مسند أبي داود الطيالسي ٥١.

(٨) مسند الإمام أحمد ٣/٤٥٦.

وعن شمالي مثل ذلك. فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، كيف تعرفُ أُمَّتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك؟ قال: «هم غُرٌ مُحَجَّلُون[١] من أَثَرِ الوضوء، ليس أحد كذلك غيرهم، وأعرفُهم أنهم يُؤتَونَ كُتُبَهم بأيمانهم، وأعرِفهم يسعَى بين أيديهم ذُرِّيتُهم»[٢].

* * *

حديث أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال الإمامُ أحمدُ:

حدثنا يحيى بن سَعِيد، حدثنا أبو حَيَّان، حدثنا أبو زُرعة بن عَمرو بن جَرير، عن أبي هُرَيرَة ـ رضي الله عنه ـ قال: أُتِيَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بلحم، فَرُفِعَ إليه الذراعُ ـ وكانت تُعجِبُه ـ فَنَهَس[٣] منها نَهْسَةً، ثم قال: «أنا سيدُ الناس يوم القيامة، وهل تدرُون مِمّ ذاك؟ يَجْمَع الله الأولين والآخرين في صَعِيد واحد، يُسْمِعهم الداعي وَيَنفُذُهم[٤] البصر، وتدنو الشمسُ فيبلُغ الناسَ من الغمِّ والكَرْبِ ما لا يُطِيقُون ولا يحتملون. فيقول بعضُ الناس لبعضٍ: ألا تَرَون إلى ما أنتم فيه؟ [ألا تَرَون إلى][٥] ما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربِّكم؟ فيقول بعضُ الناس لبعض: أبوكم آدمُ.

فيأتون آدم ـ عليه السلام ـ فيقولون: يا آدمُ، أنتَ أبو البشر، خَلَقك الله بيده، ونَفَخ فيك من رُوحه، وأمر الملائكة فَسجَدُوا لك؛ فاشفع لنا إلى ربك، ألا تَرَى ما نحنُ فيه، ألا ترى ما قد بَلَغنا؟ فيقول آدم: إنَّ ربي قد غَضِبَ اليوم غَضباً لم يَغْضَبْ قبله مثلَه، ولن يَغْضَب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فَعَصيتُه[٦]! نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي! اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح عليه السلام.

فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوحُ، أنت أولُ الرسل إلى أهل الأرض، وسَمَّاك الله عبداً شكوراً، فاشفَع لنا إلى ربِّك، ألا ترَى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بَلَغنا؟ فيقولُ نوحٌ: إنَّ ربِّي قد غَضِب اليوم غَضباً لم يَغْضَب قبلَه مِثْلَه، ولن يَغْضَب بعده مثلَه، وإنه كانت لي دعوةٌ (دعوتها)[٧] على قومي، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي! اذهَبُوا إلى غَيْرِي، اذهَبُوا إلى إبراهيم عليه السلام.

فَيأتُون إبراهيمَ فيقولون: يا إبراهيمُ، أنت نبيُّ الله وخليلُهُ من أهل الأرض، [اشفع لنا إلى ربك][٥]، ألا تَرَى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بَلَغَنا؟ فيقول: إنَّ ربي قد غَضِبَ اليوم غَضَباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، فذكر كذَباته[٨]. نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي! [اذهبوا إلى غيري][٥]، اذهبوا إلى موسى عليه السلام.

فَيأتُون موسى فيقولون: يا موسى، أنت رسولُ الله، اصطفاك الله برسالاتِه وبتكليمه على الناس، اشفَعْ لنا إلى رَبِّك، ألا ترى ما نحنُ فيه، ألا تَرَى ما قد بَلَغنا؟ فيقولُ لهم موسى: إنَّ ربِّي قد غَضِب اليوم غضباً لم

---

(١) رَجُلٌ أغرّ الوجه: إذا كان أبيض الوجه، والجمع: غُرٌ، يريد أن بياض وجوههم بنور الوضوء. والمُحجَل: الذي يرتفع البياض في قوائمه في موضع القيد. والمقصود أنهم بِيضُ مواضع الوضوء من الأيدي والأقدام.

(٢) مسند أحمد ١٩٩/٥.

(٣) نَهَس اللحم نهساً: أخذه بمقدّم أسنانه ونَتَفَه للأكل.

(٤) أي: يبلغهم البصر ويتجاوزهم، أي: يَنْفُذهم بصر الرحمن ـ تبارك وتعالى ـ حتى يأتي عليهم كلِّهم.

(٥) عن المسند.

(٦) في نسخة الحرم: فعصيت.

(٧) عن نسخة الحرم.

(٨) انظر حديث هذه الكذبات الثلاث فيما رواه الإمام أحمد بإسناده إلى مالك بن أنس ـ رضي الله عنه ـ في مسنده ٢٤٤/٣.

يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلتُ نفساً لم أُومَرْ بقتلها، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي! اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى عليه السلام.

فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنت رسولُ الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم وروحٌ منه. قال: هكذا هُوَ. وكلمتَ الناس في المهد، فاشفع لنا إلى ربِّك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بَلَغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غَضِب اليوم غضباً لم يغضَب قبلَه مثله، ولن يغضبَ بعدَه مثله. ولم يَذْكُر ذنباً، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ.

فَيَأْتُوني فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، غَفَر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تَأَخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بَلَغنا؟ فأقومُ فآتي تحت العرش، فأَقَعُ ساجداً لربِّي عزَّ وجلَّ، ثم يفتح الله عليّ ويُلهِمُني من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يَفْتَحه على أحد قبلي. فيقال: يا محمدُ، ارفَع رأسك، وسَلْ تُعطَه، واشفع تُشفَّع. فأقول: يا ربِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي. يا ربِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي. يا ربِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي! فيقال: يا محمد، أَدْخِلْ من أمتك من لا حِساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شُرَكاء الناسِ فيما سِوَاه من الأبواب. ثم قال: والذي نَفْسُ محمدٍ بيده لَمَا بين مِصْراعين من مصاريع الجنة لَكَما بين مكة وهَجَر[1]، أو كما بين مكة وبُصْرَى[1] أخرجاه في الصحيحَين[2].

وقال مسلم ـ رحمه الله ـ: حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا هِقْلُ بن زياد، عن الأوزاعي، حدثني أبو عمار، حَدَّثني عبد الله بن فَرّوخ، حدثني أبو هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يوم القيامة، وأولُ من ينشق عنه القبرُ، وأولُ شافعٍ، وأول مُشَفَّع»[3].

وقال ابنُ جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حَدَّثنا وَكيع، عن داود بن يزيد الزَّعافِرِيِّ، عن أبيه، عن أبي هُرَيـرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿ عسى أن يبعثك رَبُّك مقاماً محموداً ﴾، سئل عنها فقال: هِيَ الشفاعة[4].

ورواه الإمامِ أحمدُ عن وكيع ومحمد بن عُبَيد، عن داود، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿ عسى أن يَبعَثك رَبُّك مقاماً محموداً ﴾، قال: هو المقامُ الذي أشفَعُ لأُمَّتي فيه[5].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمرٌ، عن الزهري، عن علي بن الحُسَين قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا كان يومُ القيامة، مَدَّ الله الأرضَ مَدَّ الأديم، حتى لا يكونَ لبشرٍ من الناس إلا موضعُ قدمه، قال النبي ـ ﷺ ـ: فأكونُ أولَ من يُدْعَى، وجبريلُ عن يمين الرحمن، والله ما رآه قبلها، فأقول: أَيْ رَبِّ، إنْ هذا أخبرني أنك أرسلته إليَّ. فيقولُ الله ـ عزّ وجلّ ـ: صدق، ثم أشفَعُ. فأقول: يا ربِّ، عبادُك عَبَدُوك في أطراف الأرض. قال: فهو المقام المحمود». وهذا حديثٌ مرسَلٌ.

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾

---

(١) هجر: مدينة عظيمة هي قاعدة بلاد البحرين. وبُصْرى: قصبة كورة حوران بالشام، بينها وبين دمشق ثلاث مراحل.
(٢) مسند الإمام احمد ٢/٤٣٥ ـ ٤٣٦. وفتح الباري، تفسير سورة الإسراء ٨/٣٩٥ ـ ٣٩٩، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١٨٤ ـ ١٨٦
(٣) مسلم، كتاب الفضائل ٤/١٧٨٢.
(٤) تفسير الطبري ١٥/١٤٥.
(٥) مسند أحمد ٢/٤٤١، ٤٤٤، ٥٢٨.

قال الإمامُ أحمَدُ: حدثنا جرير، عن قابوسَ بن أبي ظَبْيَان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: كان النبي ـ ﷺ ـ بمكة ثم أُمِر بالهجرة، فأنزل الله: ﴿ وقل رَبِّ أدخلني مُدخَلَ صدقٍ وأخرجني مُخرَج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾(١).

وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية: إنَّ كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ـ ﷺ ـ ليقتلوه أو يَطرُدوه أو يُوثِقوه، وأراد الله قتالَ أهل مكة، فأمره أن يخرُج إلى المدينة، فهو الذي قال الله ـ عَزَّ وجلّ ـ: ﴿ وقل ربِّ أدخلني مُدخَلَ صِدْقٍ وأخرِجني مُخرَجَ صِدْقٍ ﴾(٢).

وقال قتادةُ: ﴿ وقل ربِّ أدخلني مُدخَلَ صدق ﴾، يعني المدينةَ، ﴿ وأخرجني مخرج صدق ﴾، يعني مكَّةَ. وكذا قال عبدُ الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا القول هو أشهرُ الأقوال.

وقال العوفي، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿ أَدْخِلني مُدخَلِ صِدْقٍ ﴾، يعني الموت، ﴿ وأخرجني مُخرَج صدق ﴾، يعني الحياة بعد الموت. وقيل غيرُ ذلك من الأقوال. والأول أصح، وهو اختيارُ ابنِ جرير.

وقولهُ: ﴿ واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾، قال الحسنُ البصريُّ في تفسيرها: وعده ربه لَيَنزِعنَّ ملك فارس وعزَّ فارس، وَلَيَجعَلنَّه له، وعز الروم وملك الروم، وَلَيَجْعَلَنَّه له(٣).

وقال قتادةُ فيها: إن نبي الله ـ ﷺ ـ علم أن لا طاقَةَ له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله ولحدود الله ولفرائض الله ولإقامة دين الله؛ فَإِنَّ السلطانَ رحمةٌ من الله جعله بين أظهر عباده، لولا ذلك لأغار بعضُهم على بعضٍ فأكَلَ شديدُهم ضعيفَهم.

وقال مجاهد: ﴿ سُلطاناً نَصِيراً ﴾: حُجَّةً بينةً.

واختار ابن جرير قولَ الحسنِ وقتادةَ، وهو الأرجحُ، لأنه لا بدَّ مع الحقِّ من قهر لمن عاداه وناوأه، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ لقد أرسلنا رسلَنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتابَ والميزان ليقومَ الناسُ بالقسط وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافع للناس وَلِيعلَم الله مَن ينصرُه ورسلَه بالغيب ﴾ وفي الحديث: «إن الله لَيَزَع بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن». أي: لَيمنَعُ بالسلطَان عن ارتكاب الفَواحِشِ والآثامِ ما لا يمتنع كثيرٌ من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقعُ.

وقولُه: ﴿ وقُل جاءَ الحقُّ وزهَقَ الباطلُ إنَّ الباطِلَ كان زَهُوقاً ﴾ تهديدٌ ووعيد لكفار قريش؛ فإنه قد جاءهم من الله الحقُّ الذي لا مِرْيَة فيه ولا قبل لَهُم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع. وزَهَق باطلُهم، أي: اضمحَلَّ وهلك، فإنَّ الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء، ﴿ بل نَقْذِف بالحقِّ على الباطل فيدَمغُه فإذا هو زاهق ﴾.

وقـال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن أبي مَعْمَرٍ، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: دخل النبيُّ ـ ﷺ ـ مكَّة وحول البيت ستون وثلاثمائةِ نُصُبٍ(٤)، فجعل

(١) مسند أحمد ٢٢٣/١.
(٢) تفسير الطبري ١٤٩/١٥.
(٣) تفسير الطبري ١٥٠/١٥.
(٤) النُّصُب: واحد الأنصاب، وهي ما ينصب للعبادة من دون الله تعالى.

يَطْعَنها بعُودٍ في يده، ويقول: ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾، ﴿جاءَ الحقُّ وما يُبدِئُ الباطِلُ وما يُعيد ﴾[1].

وكذا رواه البخاريُّ أيضاً في غير هذا الموضع، ومسلم، والترمذي، والنسائي، كُلُّهم من طُرُقٍ عن سفيانَ بن عُيَينَةَ، به. وكذا رواه عبد الرزاق، عن الثَّوريِّ، عن ابن أبي نَجيح.

وقال الحافظ أبو يَعْلَى: حدثنا زُهَير، حدثنا شَبَابَةُ، حدثنا المِغْيرة، حدثنا أبو الزبير، عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: دخلنا مع النبي ـ ﷺ ـ مكة، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً يُعْبَدُون من دون الله. فأمر بها رسولُ الله ـ ﷺ ـ فأُكِبَّتْ لوجهها، وقال: ﴿ جاء الحق وزَهَق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾.

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ـ ﷺ ـ وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تَنزيلٌ من حكيم حَميد ـ أنه ﴿ شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ﴾، أي: يُذْهِب ما في القلوبِ من أمراضٍ، من شك ونفاق، وشرك وزَيغ ومَيل، القرآنُ يَشفي من ذلك كله. وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمانُ والحكمةُ وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصَدَّقه واتبعه، فإنه يكون شفاءً في حَقِّه ورحمةً. وأما الكافرُ الظالم نفسَه بذلك، فلا يزيده سماعُهُ القرآنَ إلا بُعداً وتكذيباً وكفراً. والآفةُ من الكافرِ لا من القرآن، كما قال تعالى: ﴿ قل هُوَ للذين آمنوا هُدًى وشفاءٌ والذين لا يُؤمِنُون في آذانهم وقر وهو عليهم عَمًى أولئك يُنادَون من مكان بعيد ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ وإذا ما أُنزِلَت سورةٌ فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مَرَضٌ فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾ . . . . والآيات في هذا كثيرة.

قال قتادةُ في قوله: ﴿ ونُنَزِّل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ﴾: إذا سَمِعه المؤمن انتفَع به وحَفِظه ووعاه، ﴿ ولا يَزِيدُ الظالمين إلا خساراً ﴾، إنه لا ينتفعُ به ولا يحفَظُه ولا يَعِيه، فإن الله تعالى جَعَل هذا القرآن شفاءً ورحمةً للمؤمنين.

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن نَقْصِ الإنسان من حيثُ هو، إلا من عَصَمَ الله تعالى في حالَتي سَرَّائه وضَرَّائه، بأنه إذا أنعم الله عليه بمَال وعافية، وفتح ورزق ونصر، ونال ما يُريد، أعرض عن طاعةِ الله تعالى ونَأَى بجانبه، قال مجاهد: بَعُد عنا. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿ فلما كَشَفنا عنه ضُرَّه مرَّ كأن لم يَدْعُنا إلى ضر مَسَّه ﴾، وقَوْلِه: ﴿ فلما نجاكم إلى البر أَعْرَضتُم ﴾ ـ وبأنه إذا مسه الشرُّ، وهو المصائب والحوادث والنوائب، ﴿ كان يئوساً ﴾، أي: قَنِطَ أن يعودَ يحصلُ له بعد ذلك خير، كما قال: ﴿ ولئن أذقنا الإنسانَ منا رحمةً ثم نزعناها منه

(١) فتح الباري، تفسير سورة بني إسرائيل ٨/٤٠٠. وكتاب المغازي ٨/١٥ ـ ١٦، ومسلم، كتاب الجهاد ٣/١٤٠٨، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة بني إسرائيل ١١/٢٩٦ ـ ٢٩٧.

إنه ليئوس كفورٌ * وَلَئِن أذقناه نعماءَ بعدَ ضَرَّاء مسته ليقولَنّ ذَهبَ السيئاتُ عني إنه لَفَرِحٌ فَخُور * إلا الذين صَبَرُوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾.

وقولهُ: ﴿ قل كلٌّ يعمَلُ على شاكلته ﴾ ،قال ابن عباس: [على] ناحيته. وقال مجاهد: [على] حِدَتِهِ وطبيعته. وقال قتادةُ: على نِيَّته. وقال ابن زيد: دينه(١).

وَكُلُّ هذه الأقوال مُتقارِبَةٌ في المعنى. وهذه الآية ـ والله أعلم ـ تهديدٌ للمشركين ووعيدٌ لهم، كقوله تعالى: ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون ﴾. ولهذا قال: ﴿ قل: كلٌّ يعمل على شاكلته فَرَبُّكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً ﴾، أي: منا ومنكم، وسيجزي كُلَّ عامل بعمله، فإنه لا يخفى عليه خافية.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود، رضي الله عنه ـ قال: كنت أمشي مع النبي ـ ﷺ ـ في حَرْثٍ في المدينة، وهو مُتوكِّىءٌ على عَسِيبٍ(٢)، فمرَّ بقوم من اليهود، فقال بعضُهم لبعضٍ: سَلُوه عن الروح. فقال بعضهم: لا تَسْأَلوه. قال: فسألوه عن الروح، فقالوا: يا محمدُ، ما الروحُ؟ فما زال متوكِّئاً على العَسِيب، قال: فظننت أنه يُوحَى إليه، فقال: ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروحُ من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾. قال، فقال بعضُهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه(٣).

وهكذا رواه البخاريُّ ومسلم، من حديث الأعمش، به. ولفظُ البخاريِّ عند تفسير هذه الآية، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: بينا أنا مع النبي(٤) ﷺ في حَرْث، وهو مُتَّكِىءٌ على عَسِيبٍ(٢)، إذ مرَّ اليهودُ(٥)، فقال بعضهم لبعض: سَلُوه عن الروح، فقال: ما رَابَكم(٦) إليه. وقال بعضُهم: لا يستقبلنَّكم بشيء تكرهونه. فقالوا: سَلُوه فسألوه عن الروح، فأمسك النبي ـ ﷺ ـ فلم يَرُدَّ عليه شيئاً، فعلمتُ أنه يُوحَى إليه، فقمتُ مقامي، فلما نزل الوحيُ قال: ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾(٣).. الآية.

وهذا السياق يقتضي فيما يظهر بادِيَ الرأي أنَّ هذه الآيةَ مدنيةٌ، وأنها إنما نَزَلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورةَ كُلَّها مكية. وقد يُجَاب عن هذا بأنها قد تكون نَزَلت عليه بالمدينة مَرَّةً ثانية كما نَزَلت

---

(١) تفسير الطبري ١٥/١٥٤.

(٢) العَسِيبُ: الجريدَةُ التى لا خوص فيها.

(٣) مسند أحمد ١/٣٨٩. وفتح الباري، تفسير سورة بني إسرائيل ٨/٤٠١، وكتاب التوحيد ١٣/٤٤٠ ـ ٤٤١، ومسلم، كتاب صفة القيامة ٤/٢١٥٢.

(٤) في نسخة الحرم: «بينا أنا أمشي مع رسول الله...». وهذا ليس لفظ البخاري عند تفسير هذه الآية، ولكنه لفظه في كتاب التوحيد.

(٥) في نسخة الحرم: «إذ مرّ باليهود». ويقول ابن حجر في الفتح ٨/٤٠١ عند تفسير هذه الآية: «كذا فيه اليهودُ بالرفع على الفاعلية. وفي بقية الروايات في العلم والاعتصام والتوحيد، وكذا عند مسلم: إذ مَرَّ بنفر من اليهود».

(٦) أي: ما دعاكم إلى سؤال تخشون عاقبته، بأن يستقبلكم بشيء تكرهونه؟ وفي فتح الباري ٨/٤٠٢: «وقال الخطابي: الصواب: ما أَرْبُكُم؟ بتقديم الهمزة وفتحتين، من الأَرَب وهو الحاجة. وهذا واضح المعنى لو ساعدته الرواية. نعم، رأيته في رواية المسعودي عن الأعمش، عند الطبري».

عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نَزَل عليه وَحْيٌ بِأن يُجيبهم عَمَّا سألوا بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهي هذه الآية: ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾، ومما يَدُلُّ على نزول هذه الآية بِمكَّة ما قال الإمام أحمد:

حَدَّثنا قتيبة: حدثنا يحيى بن زكريا، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قالت قريش ليهودَ: أعطونا شيئاً نَسأل عنه هذا الرجلَ. فقالوا: سَلُوه عن الروح. فَسأَلُوه، فنزلت: ﴿ ويسئلونك عن الـروح قـل الروح من أمر ربي وما أُوتيتُم من العلم إلا قليلاً ﴾، قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراةَ، ومن أُوتِيَ التوراةَ فقد أوتي خيراً كثيراً. قال: وأنزل الله: ﴿ قل لو كان البحرُ مِدَاداً لكلماتِ رَبِّي لَنَفِدَ البحرُ قبل أن تَنْفَد كلماتُ ربِّي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾(١).

وقد روى ابنُ جرير، عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى، عن داود، عن عكرمة قال: سأل أهلُ الكتاب رسولَ الله ـ ﷺ ـ عن الرُّوح، فأنزل الله: ﴿ وَيَسألونَكَ عن الروح قل الروحُ من أمر رَبِّي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾، فقالوا: يزعمُ أنا لم نُؤْتَ من العلم إلا قليلاً، وقد أوتينا التوراةَ، وهي الحكمة، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً. قال: فنزلت: ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعةُ أبحُر ما نَفِدَتْ كلماتُ الله ﴾، قال: ما أُوتِيتُم من علم فنجاكم الله به من النار فهو كثير طيب، وهو في علم الله قليل(٢).

وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن عطاءِ بن يسار قال: نزلت بمكة: ﴿ وما أُوتِيتُم من العلم إلا قليلاً ﴾. فلما هاجر رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة، أتاه أحبار يَهُودَ فقالوا: يا محمد، ألم يبلغنا عنك أنك تقول: ﴿ وما أُوتيتم من العلمِ إلا قليلاً ﴾. أفعَنَيْتَنا أم عَنيتَ قومَك؟ فقال: كُلًّا قد عنيتُ. قالوا: فإنك تتلو أنا قد أوتينا التوراة، وفيها تِبيان كُلِّ شيء؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: هي في علم الله قليلٌ، وقد آتاكم الله ما إن عملتم به انتفعتُم، وأنزل الله: ﴿ ولو أن ما في الأرضِ من شَجَرةٍ أقلامٌ والبحر يَمدُّه من بعده سبعةُ أبحر ما نَفِدَتْ كلماتُ الله إن الله عزيز حكيم ﴾(٣).

وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح ها هنا على أقوال، أحدها: أَنَّ المراد بالروح أرواح بني آدم.

قال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿ ويسألونَكَ عن الرُّوح ﴾... الآية، وذلك أن اليهودَ قالوا للنبي ـ ﷺ ـ: أخبِرْنا ما الروحُ؟ وكيف تُعذَّب الروحُ التي في الجسد، وإنما الروحُ من الله؟ ولم يكن نَزَل عليه فيه شيءٌ فلم يُحِرْ إليهم شيئاً. فأتاه جبريلُ فقال له: ﴿ قل الروحُ من أمر ربِّي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾، فأخبرهم النبيُّ ـ ﷺ ـ بذلك، فقالوا: من جاءك بهذا؟ فقال: جاءني به جبريلُ من عند الله؟ فقالوا: والله ما قاله لك إلا عدوٌّ لنا. فأنزل الله: ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يَدَيه ﴾ الآية(٤).

وقيل: المرادُ بالروح ها هنا جبريلُ. قاله قتادة، قال: وكان ابنُ عباس يكتُمه.

وقيل: المرادُ به ها هنا مَلَك عظيم بِقَدرِ المخلوقات كلها. قال عليُّ بنُ أبي طلحةَ، عن ابن عباس قوله: ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾، يقول: الروحُ مَلكٌ.

---

(١) مسند أحمد ١/٢٥٥.
(٢) تفسير الطبري ١٥/١٥٥.
(٣) تفسير الطبري ١٥/١٥٧.
(٤) تفسير الطبري ١٥/١٥٦.

وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله بن عُرسٍ المِصْري، حدثنا وَهْبُ الله بن رزق أبو هُرَيرَة[١]، حدثنا بشر بن بكر، حدثنا الأوزاعي، حدثنا عطاء، عن عبد الله بن عباس قال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إنَّ لله مَلَكـاً، لو قيل له: التقم السموات السبع والأرضين بِلَقْمَةٍ واحدة، لفعل، تَسبيحُه: سبحانكَ حيث كنت»[٣]. وهذا حديثٌ غريبٌ، بل منكر.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثني علي، حدثنا عبد الله، حدثنا أبو هِزَّانَ يزيدُ بن سَمُرة صاحب قيسارية، عَمَّن حدثه، عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال في قوله: ﴿ويسألونك عن الرُّوح﴾، قال: هو مَلَكٌ من الملائكة، له سبعون ألفَ وجهٍ، لكلِّ وجهٍ منها سبعونَ ألفَ لسانٍ، لكل لسان منها سبعون ألفَ لغةٍ، يُسبِّح الله تعالى بتلك اللغاتِ كُلِّها، يخلق الله تعالى من كلِّ تسبيحة مَلَكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة[٣].

وهذا أثر غريب عجيبٌ، والله أعلم.

وقال السُّهيلي: رُوِيَ عن علي أنه قال: هو مَلَك، له مائةُ ألفِ رأسٍ، لكلِّ رأسٍ مائةُ ألفِ وجهٍ، لكلِّ وجهٍ مائةُ ألفِ فم، في كل فَمٍ مائةُ ألفِ لسانٍ، يُسَبِّح الله بلغاتٍ مختلفة. قال السهيلي: وقيل: المرادُ بذلك طائفة من الملائكة على صُوَر بني آدم. وقيل: طائفةٌ يرون الملائكة ولا تراهم، فهم للملائكة كالملائكة لبني آدم[٤].

وقولهُ: ﴿قُلِ الروحِ من أمر ربي﴾، أي: من شأنه، ومما استأثر بعلمه دونكم، ولهذا قال: ﴿وما أُوتِيتم من العلم إلا قليلاً﴾، أي وما أَطلعَكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يُحيط أحدٌ بشيء من علمه إلا بما شاءَ تبارك وتعالى.

والمعنى: أَنَّ عِلْمكم في علم الله قليل، وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى، ولم يُطلِعْكم عليه، كما أنه لم يُطلِعكم إلا على القليل من علمه تعالى. وسيأتي إن شاء الله في قصة موسى والخَضِر أن الخَضِر نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة، فنقر في البحر نَقرةً، أي: شرب منه بمنقاره، فقال: يا موسى، ما علمي وعلمُك وعلم الخلائق في علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر. أَو كما قال صلواتُ الله وسلامُه عليه. ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وما أُوتِيتم بن العلم إلا قليلاً﴾.

وقال السُّهيلي: قال بعضُ الناس: لم يجبهم عَمَّا سألوا، لأنهم سَألوا على وجه التعنت. وقيل: أجابهم. وعَوَّل السهيليُّ على أن المراد بقوله: ﴿قُلِ الروحُ من أمر ربي﴾، أي: من شَرْعِه، أي: فادخُلوا فيه، وقد علمتم ذلك لأنه لا سبيل إلى معرفة هذا من طبع ولا فلسفة، وإنما يُنَال من جهة الشرع. وفي هذا المسلك الذي طرقه وسلكه نظر، والله أعلم.

ثم ذكر السُّهَيلي الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس، أو غيرها، وقَرَّر أنها ذات لطيفة كالهواء، ساريةً في الجسد كسريان الماء في عُرُوق الشجر. وقَرَّر أن الروح التي ينفخها المَلَك في الجَنِين هي النفس بشرط اتصالها بالبدن واكتسابها بسببه صفاتِ مدحٍ أو ذم، فهي إما نفس مطمئنة أو أَمّارة بالسوء. قال: كما أن الماء هو حياة الشجر، ثم يكتسب بسبب اختلاطه معها اسماً خاصاً، فإذا اتصل بالعِنَبة وعُصِر منها صار إمَّا

(١) في النسخ: أبو هبيرة. والمثبت عن المعجم، والمقتنى للذهبي ٢/١٢٥.
(٢) المعجم الكبير ١١/١٩٥.
(٣) تفسير الطبري ١٥/١٥٦.
(٤) الروض الأنف ١/١٩٧.

مُصْطاراً[١] أو خمراً، ولا يقال له: «ماء» حينئذٍ إلا على سبيل المجاز. وهكذا لا يقال للنفس: «روحٌ» إلا على هذا النحو، وكذلك لا يقال للروح نفس إلا باعتبار ما تؤول إليه. فحاصِلُ ما نقولُ أَنَّ الروحَ هي أصلُ النفس ومادتها، والنفسُ مُركَّبة منها ومن اتصالها بالبدن، فهي هي من وجه لا من كُلِّ وجه. وهذا معنى حسن، والله أعلم[٢].

قلت: وقد تَكَلَّم الناسُ في ماهية الروح وأحكامها وصنفوا في ذلك كتباً، ومن أحسن من تكلّم على ذلك الحافظُ ابن مَنْده، في كتابٍ سمعناه في الرُّوح.

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾

يذكُر تعالى نعْمَته وفَضْلَه العظيم على عبده ورسوله الكريم، فيما أوحاه إليه من القرآنِ المجيدِ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ تطرُق الناسَ ريح حمراء ـ يعني في آخِرِ الزمان ـ من قِبَلِ الشام، فلا يبقى في مُصحف رجل ولا قلبه آية، ثم قرأ ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: ﴿ ولئن شئنا لنذهبنَّ بالذي أوحينا إليك ﴾[٣]. . . الآية.

ثم نَبَّه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم، فأخبر أنه لو اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ كلُّهم، واتفقُوا على أن يأتُوا بمثل ما أنزله على رسوله، لما أطاقوا ذلك ولا استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا، فإنَّ هذا أمرٌ لا يستطاع، وكيف يُشْبِهُ كلامُ المخلوقين كلامَ الخالق[٤]، الذي لا نظير له، ولا مثال له، ولا عَدِيلَ له.

وقد روى محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد،عن سَعيدٍ أو عكرمةَ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: أن هذه الآية نَزَلت في نفر من اليهود، جاءوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقالوا له: إنَّا نأتيك بمثل ما جئتنا به. فأنزل الله هذه الآية[٥].

وفي هذا نظرٌ؛ لأنَّ هذه السورةَ مكيَّة، وسياقُها كلُّه مع قريش، واليهودُ إنما اجتمعوا به في المدينة، فالله أعلم.

وقولهُ: ﴿ ولقد صَرَّفنا للناس في هذا القرآن من كُلِّ مثل ﴾، أي: بيَّنا لهم الحُجَج والبراهين القاطعة، ووضَّحنا لهم الحقَّ وشرحناه وبسطناه، ومع هذا ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾، أي: جُحَوداً وردّاً للصَّواب.

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ

(١) المُصْطار: الخمر الحامض. وقيل: هي الحديثة المتغيرة الطعم والريح. ويقال فيه: المُسْطار، بالسين، وبضم الميم وكسرها.
(٢) انظر الروض الأنف ١/١٩٨ ـ ١٩٩.
(٣) تفسير الطبري ١٥/١٥٨.
(٤) في نسخة الحرم: وكيف نسبة كلام المخلوقين إلى كلام الخالق؟.
(٥) تفسير الطبري ١٥/١٥٩.

ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ
بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا
رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا يوسن بن بُكَير، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني شيخٌ من أهل مصرَ قَدِم منذ بضع وأربعين سنة ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس: أن عُتبةَ وشيبةَ ابني ربيعة، وأبا سفيانَ بن حَرْبٍ، ورجلاً من بني عبد الدار، وأبا البَخْتَرِيِّ أخا بني أسد، والأسود بن المطلب بن أسد، وزَمعةَ بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأُميَّةَ بن خلف، والعاصَ بن وائل، ونُبيهاً ومُنَبِّهاً ابني الحجاج السَّهْمِيَّين اجتمعوا، أو: من اجتمع منهم، بعد غُروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضُهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلِّموه وخاصِمُوه حتى تُعذَرُوا فيه. فبعثوا إليه أنّ أشرافَ قومِك قد اجتَمعُوا لك لِيُكلِّموك. فجاءهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ سريعاً وهو يظنُّ أنه قد بدا لهم في أمره بَداءٌ ـ وكان عليهم حريصاً، يحب رُشْدَهم، ويعِزُّ عليه عَنَتُهم ـ حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمدُ، إنا قد بعثنا إليك لنُعْذَرَ فيك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلتَ على قومك! لقد شتمتَ الآباء، وعِبْتَ الدين، وسَفَّهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما بَقِي من قَبيحٍ إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك! فإن كنتَ إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً، جَمَعنا لك من أموالنا حتى تكونَ أكثَرنا مالاً، وإن كنتَ إنما تطلبُ الشرف فينا سَوَّدناك علينا ، وإن كنت تُريد ملكاً ملكناك علينا. وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رَئِيًّا تراه قَدْ غلب عليك ـ وكانوا يسمون التابع من الجن: الرَّئِيَّ ـ فَرُبّما كان ذلك، بَذَلنا أموالنا في طَلَب الطبِّ، حتى نُبرئَكَ منه، أو نُعذرَ فيك. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلبُ أموالَكم، ولا الشرفَ فيكم، ولا المُلكَ عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فَبلَّغتكم رسالةَ ربِّي ونصحتُ لكم، فإن تقبلوا منِّي ما جئتكم به فهو حَظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبرْ لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم. أو كما قال رسول الله ﷺ.

فقالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منّا ما عَرَضنا عليك، فقد عَلِمتَ أنه ليس أحدٌ من الناس أضيق بلاداً، ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً مِنَّا، فَسَلْ لنا ربَّكَ الذي بَعَثك بما بعثك به، فَلْيُسَيِّر عنا هذه الجبالَ التي قد ضُيِّقت علينا، وَلْيَبسُط لنا بلادنا، وَلْيُجْرِ فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وَلْيبعَثْ لنا مَن مضى من آبائنا، وليكن فيمن يَبْعَث لنا منهم قُصيٌّ بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول، أحَقٌ هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصَدَّقُوكَ، صَدَّقناك، وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثكَ رسولاً كما تقول. فقال لهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ما بهذا بُعثْت! إنما جئتُكم من عند الله بما بعثني به، فقد بَلّغتكم ما أُرسِلْتُ به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرةِ، وإن تَردُّوه عليّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فإن لم تفعَلْ لنا هذا فخذ لنفسك، فَسَلْ ربَّك أن يبعث مَلَكاً يُصدِّقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لك جِناناً، وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمسُه، حتى نَعرِف فَضْلَ منزلتك من ربك، إن كنتَ رسولاً كما تزعم. فقال لهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل رَبَّه هذا. وما بُعِثْتُ إليكم بهذا. ولكن الله بَعَثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جِئْتُكم به فهو حَظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تَردوه عليَّ أصبرْ لِأَمرِ الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فَأَسقِطْ السماء كما زعمتَ أن ربك إن شاء فَعَل، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال رسول الله ﷺ: ذلك إلى الله، إن شاء فعل بكم ذلك.

فقالوا: يا محمدُ، أما عَلِم ربُّك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب فيتقدَّم إليك ويُعْلمك ما تُراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتَنا به؛ فقد بَلَغنا أنه إنما يُعلِّمك هذا رجل باليمامة، يقال له الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذَرْنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركُكَ وما فعلتَ بنا حتى نُهلِكَك أو تُهلِكنا. وقال قائلهم: نحن نعبدُ الملائكة وهي بناتُ الله. وقال قائلهُم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً.

فلما قالوا ذلك قام رسولُ الله - ﷺ - عنهم، وقام معه عبدُ الله بن أبي أميَّة بن المغيرة بن عبد الله بن عُمَر بن مخزوم - وهو ابن عمته، ابن عاتكة ابنة عبد المطلب - فقال: يا محمدُ، عَرَض عليك قومُك ما عرضوا، فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تَفْعَلْ ذلك، ثم سألوك أن تُعَجِّلَ ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه، وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بنسخة منشورة معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وايم الله لو فعلتَ ذلك لظننتُ أني لا أُصدِّقك. ثم انصرف عن رسول الله - ﷺ - وانصرف رسولُ الله - ﷺ - إلى أهله حزيناً أسِفاً لما فاته مما كان طَمع فيه من قومه حين دعوه، ولمّا رأى من مباعدتهم إياه[1].

وهكذا رواه زياد بن عبد الله البَكّائيُّ، عن ابن إسحاق: حَدَّثني بعض أهل العلم، عن سعيد بن جُبَير وعكرمة، عن ابن عباس، فذكر مثله سواء.

وهذا المجلس الذي اجتمعَ هؤلاء له، لو عَلِم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيبوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفراً وعناداً، فقيل للرسول: إن شئتَ أعطيناهم ما سألوا، فإن كفروا عَذَّبتُهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئتَ فتحتُ عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: بل تفتَحُ عليهم باب التوبة والرحمة. كما تقدم ذلك في حديثي ابن عباس والزبير بن العوام أيضاً، عند قوله تعالى: ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكلُ الطعامَ ويمشي في الأسواق لولا أُنزِلَ إليه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيراً * أو يلقي إليه كنزٌ أو تكونُ له جنّة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً * انظر كيف ضَرَبُوا لك الأمثالَ فَضلُّوا فلا يستطيعون سبيلاً * تبارك الذي إن شاء جَعَل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً * بل كَذَّبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ﴾.

وقولهُ تعالى: ﴿ حتى تفجرَ لنا من الأرض ينبوعاً ﴾، اليَنْبُوعُ: العينُ الجارية، سألوه أن يجري لهم عَيْناً مَعِيناً[3] في أرض الحجاز ها هناوها هنا. وهذا سهلٌ يسير على الله تعالى، لو شاء لَفَعَله ولأجابهم إلى جميع ما سألوا وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿إن الذين حَقّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾. وقال: ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكَلَّمهم الموتى وحَشَرنا عليهم كل شيء قُبُلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ﴾.

(١) تفسير الطبري ١٥/١١٤-١١٦، وسيرة ابن هشام ١/٢٩٥-٢٩٨.
(٢) انظر فيما تقدم تفسير الآية ٥٩ من هذه السورة.
(٣) مَعَن الماء: سال وجرى، فهو مَعِينٌ، وجمعه: مُعُن.

وقولُهم: ﴿ أو تسقط السماء كما زعمتَ علينا كِسَفاً ﴾، أي: إنك وعدتنا أن يوم القيامة تَنْشَقُّ السماءُ وتَهِي[(١)]، وتُدَلَّى أطرافها، فعجِّل ذلك في الدنيا، وأسقطها كسَفاً، أي: قطعاً، كما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿ اللهُمَّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾. وكذلك سَأَل قومُ شُعَيب منه فقالوا: ﴿ فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴾، فعاقبهم الرب بعذاب يوم الظُّلَّة، إنه كان عذاب يوم عظيم. وأما نبيُّ التوبة ونبيُّ الرحمة المبعوث رحمة للعالمين، فسأل إنظارهم وتأجيلهم، لعلّ الله أن يُخرِجَ من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً. وكذلك وقع، فإنَّ من هؤلاء الذين ذُكروا مَن أسلم بعد ذلك وَحَسُن إسلامهُ، حتى عبدُ الله بن أبي أُميَّةَ الذي تَبع النبيَّ ـ ﷺ ـ وقال له ما قال، أسلم إسلاماً تاماً، وأناب إلى الله عزّ وجلّ.

﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادةَ: هو الذهبُ. وكذلك هُوَ في قراءة ابن مسعود: ﴿ أو يكون لك بيت من ذهب ﴾[(٢)]، ﴿ أو تَرْقَى في السماء ﴾، أي: تصعَد في سلم ونحن ننظر إليك، ﴿ ولن نُؤمِنَ لرقيِّكَ حتى تُنَزِّل علينا كتاباً نقرؤه ﴾، قال مجاهدٌ: أي مكتوبٌ فيه إلى كل واحد واحد صحيفةٌ: هذا كتاب من الله لفلان بن فلان، تُصبح عند رأسه موضُوعة.

وقولهُ: ﴿ قُل سبحان ربي هل كنتُ إلا بشراً رسُولاً ﴾، أي: سبحانه وتعالى وتقدّس أن يتقدّم بين يديه أحد في أمر من أمور سلطانه وملكُوته، بل هو الفعّالُ لما يشاء، إن شاء أجابكم إلى ما سألتم، وإن شاء لم يجبكم، وما أنا إلا رسول إليكم، أُبَلِّغكم رسالاتِ ربِّي وأنصحُ لكم، وقد فعلتُ ذلك، وأمرُكم فيما سألتم إلى الله عزَّ وجلّ.

قال الإمام أحمدُ: حدثنا علي بن إسحاقَ، حدثنا ابنُ المبارك، حدثنا يحيى بن أيوبَ، عن عبيد الله بن زَحْرٍ، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: عَرَض ربِّي ـ عزَّ وجلَّ ـ ليجعلَ لي بطحاءَ مكّة ذهباً، فقلتُ: لا يا ربِّ، ولكن أشبَعُ يوماً وأجُوع يوماً، أو نحو ذلك، فإذا جُعتُ تضرَّعتُ إليك وذكرتك، وإذا شبِعتُ حَمِدتك وشَكَرتك[(٣)].

ورواه الترمذي في «الزهد» عن سُوَيد بن نصر، عن ابن المبارك، به وقال: هذا حديثٌ حسنٌ. وعلي بن يزيد يُضعَّفُ في الحديث[(٣)].

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ وما مَنَع الناسَ ﴾، أي: أكثرَهم، ﴿ أن يؤمنوا ﴾ ويتابعوا الرسل، إلا استعجابُهم من بَعْثَتِه البشر رُسلاً، كما قال تعالى: ﴿ أكان للناس عَجَباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا ﴾، وقال تعالى: ﴿ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسُلُهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد ﴾. وقال فرعونُ ومَلَؤُه: ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ﴾. وكذلك قالت الأمم

(١) في نسخة الحرم: تنشق السماء بهم. ومعنى تهي: تسقط.
(٢) تفسير الطبري ١٥/١٦٣.
(٣) مسند أحمد ٥/٢٥٤، وعارضة الأحوذي، أبواب الزهد ٩/٢٠٩ ـ ٢١٠.

لرسلهم: ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ﴾، والآيات في هذا كثيرة.

ثم قال تعالى مُنَبِّهاً على لطفه ورحمته بعباده: إنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم، ليفقَهُوا عنه ويفهَمُوا منه، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مُواجهَتَه ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: ﴿ لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بَعَث فيهم رسولاً من أنفسهم ﴾، وقال تعالى: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾، وقال: ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون * فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرونِ ﴾. ولهذا قال ها هنا: ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ﴾، أي: كما أنتم فيها، ﴿ لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾، أي: من جنسهم. وَلَمَّا كنتم أنتم بشراً بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفاً ورحمة.

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ ﴾

يقول تعالى مُرشداً نبيَّه إلى الحجَّةِ على قومه، في صدق ما جاءهم به: إنه شاهد عَلَيَّ وعليكم، عالم بما جئتكم به، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني أشد الانتقام، كما قال: ﴿ ولو تَقَوَّل علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوَتِينَ ﴾.

وقولهُ: ﴿ إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾، أي: عليمٌ بهم بمن يستحقُّ الإنعامَ والإحسانَ والهداية، ممن يستحقُّ الشقاء والإضلال والإزاغة، ولهذا قال:

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن تَصَرُّفه في خلقه، ونُفُوذِ حكمه، وأنه لا مُعقِّب له، بأنه من يَهْدِهِ فلا مُضِلَّ له، ﴿ ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ﴾، أي: يهدونهم، كما قال تعالى: ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾.

وقولهُ: ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ﴾، قال الإمامُ أحمدُ:

حَدَّثنا ابن نمير، حَدَّثنا إسماعيل، عن نُفَيع قال: سَمِعتُ أَنَس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ يقول: قيل: يا رسولَ الله، كيف يُحشَرُ الناسُ على وجوههم؟ قال: الذي أمشاهم على أرجُلِهم قادرٌ على أن يمشيهم على وجوههم[1]. وأخرجاه في الصحيحين[1].

وقال الإمام أحمد أيضاً: [حدثنا يزيد][2]، حدثنا الوليد بن جُمَيع القرشي، عن أبيه، حدثنا أبو الطُّفَيل عامر بن واثلة، عن حُذَيفة بن أَسِيدٍ قال: قام أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا بني غِفَار، قولوا ولا تَحلِفُوا[3]،

(١) مسند أحمد ١٦٧/٣، وفتح الباري، تفسير سورة الفرقان ٤٩٣/٨، وكتاب الرقاق ٣٧٧/١١، ومسلم، كتاب صفة القيامة ٢١٦١.
(٢) عن مسند أحمد.
(٣) في المسند: ولا تختلفوا.

فإنَّ الصادقَ المصدوقَ حدثني: أن الناس يُحشَرون على ثلاثة أفواج: فوجٍ راكبين طاعمين كاسِينَ، وفوجٍ يمشُونَ ويَسعَون، وفوجٍ تَسحَبُهم الملائكةُ على وجوههم وتَحشُرهم إلى النار. فقال قائلٌ منهم: هذان قد عرفناهما، فما بالُ الذين يمشُون ويسعَون؟ قال: يُلقي الله ـ عزّ وجلّ ـ الآفة على الظهر[1]، حتى لا يبقى ظهرٌ، حتى إن الرجل لتكون له الحديقة المعجبة، فيعطيها بالشارِفِ ذات القَتَب، فلا يقدر عليها»[2].

وقولهُ: ﴿ عُميا ﴾، أي: لا يُبصِرون. ﴿ وبُكماً ﴾، يعني لا ينطقون. ﴿ وصُمًّا ﴾، لا يسمعون. وهذا يكون في حال دون حال. جزاءً لهم، كما كانوا في الدنيا بُكماً وعُمياً وصُمًّا عن الحق، فَجُوزُوا في مَحشَرِهم بذلك أحوجَ ما يحتاجون إليه، ﴿ مأواهم ﴾، أي مُنْقلبهم ومَصيرهم ﴿ جهنم كلما خَبَت ﴾ ، قال ابنُ عباس: سكنت. وقال مجاهد: طَفِئت. ﴿ زدناهم سعيراً ﴾، أي: لَهباً وَوَهَجاً وجَمْراً، كما قال: ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) ﴾

يقولُ تعالى: هذا الذي جازيناهم به من البعث على العَمَى والبَكَم والصَّمَم جزاؤهم الذي يستحقونه؛ لأنهم كَذَّبوا ﴿ بآياتنا ﴾، أي: بأدلّتنا وحُجَجِنا واستبعدوا وقوعَ البعث ، ﴿ وقالوا أئذاً كنا عظاماً ورفاتاً ﴾، أي: باليةً نَخِرَةً، ﴿ أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾، أي: بعد ما صِرْنا إلى ما صِرْنا إليه من البِلَى والهلاك، والتفرُّق والذهاب في الأرض نُعَاد مرة ثانية؟! فاحتج تعالى عليهم ونَبَّهم على قدرته على ذلك، بأنه خَلَق السموات والأرض، فقدرتُه على إعادتهم أسهلُ من ذلك، كما قال: ﴿ لَخَلْقُ السموات والأرض أكبرُ من خلق الناس ﴾، وقال: ﴿ أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يَعْيَ بخلقهنّ بقادرٍ عَلى أن يُحيِيَ الموتى بلى إنه على كل شيء قدير ﴾. وقال: ﴿ أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادرٍ على أن يخلُق مثلهم بلى وهو الخلاقُ العليم * إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه تُرجَعُون ﴾.

وقال ها هنا: ﴿ أو لم يَرَوا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادرٌ على أن يخلق مثلهم ﴾ أي: يوم القيامة، يعيدُ أبدانهم ويُنْشِئهم نشأةً أخرى، ويُعِيدَهم كما بدأهم.

وقوله: ﴿ وجعلَ لهم أجلاً لا ريبَ فيه ﴾، أي: جعلَ لإعادتهم وإقامَتِهم من قبورهم أجلاً مضرُوباً ومدة مقدَّرة لا بد من انقضائها، كما قال تعالى: ﴿ وما نُؤَخِّره إلا لأجلٍ معدود ﴾.

وقولهُ: ﴿ فأبى الظالمون﴾، أي: بعدَ قيامِ الحجّة عليهم ﴿ إلا كفوراً ﴾، إلا تمادياً في باطلهم وضَلالهم.

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا (١٠٠) ﴾

(١) الآفة: آفة الموت. والمراد بالظهر هنا: الدابة. والشارف من الدوابّ: المسنُّ. والقَتَب: الرحل الصغير على قدر سنام البعير.
(٢) مسند أحمد ٥/١٦٤ ـ ١٦٥. وأخرجه النسائي في كتاب الجنائز ٤/١١٦ ـ ١١٧.

يقول تعالى لرسوله ـ صلواتُ الله عليه وسلامه ـ قُل لهم: يا محمدُ، لو أنكم، أيُّها الناس، تملكون التصرُّفَ في خزائن الله ﴿ لأمسكتم خشية الإنفاق ﴾. قال ابنُ عباس وقتادةُ: أي الفقر. أي: خشية أن تذهبوها، مع أنها لا تَفرُغ ولا تَنفَد أبداً؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم، ولهذا قال: ﴿ وكان الإنسان قتوراً ﴾. قال ابن عباس، وقتادة[١]: أي بخيلاً مَنُوعاً. وقال الله تعالى: ﴿ أم لهم نَصيبٌ من الملك فإذا لا يُؤتونَ الناس نَقِيراً ﴾، أي: لو أن لهم نصيباً من مُلْكِ الله لما أعطوا أحداً شيئاً، ولا مقدار نَقِيرٍ، والله تعالى يَصِفُ الإنسانَ من حيثُ هو، إلا من وفقه الله وهداه، بالبخل والجزع والهَلَع، كما قال تعالى: ﴿ إن الإنسان خلق هَلُوعاً * إذا مسه الشر جَزُوعاً * وإذا مسه الخير مَنُوعاً * إلا المصلين ﴾. ولهذا نظائرُ كثيرةٌ في القرآن العزيز، ويدُلّ هذا على كَرَم الله وجوده وإحسانه، وقد جاء في الصَّحِيحَين: «يد الله ملأى لا يَغِيضها نفقةٌ، سَحَّاءُ الليلَ والنهارَ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يَغِض ما في يمينه»[٢].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه بَعث موسى بتسع آيات بينات، وهي الدلائل القاطعة على صحَّةِ نُبُوته وصِدْقه فيما أخبر به عمَّن أرسله إلى فرعون، وهي: العصا، واليد، ولسانه، والطوفان، والبحر، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات. قاله ابن عباس[٣].

وقال مُحمَّد بن كعب: هي اليدُ، والعصا، والخمس في الأعراف[٤]، والطَّمْسَة، والحجر.

وقال ابنُ عباسٍ أيضاً، ومجاهد، وعكرمة، والشعبي، وقتادة: هي يدُه، وعصاه، والسِّنين، ونقصُ الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

وهذا القولُ ظاهر جليٌّ (حسن) قويٌّ. وجعل الحسن البصري «السنين ونقص الثمرات» واحدة، وعنده أن التاسعة هي: تَلَقُّفُ العصا ما يأفِكُون. ﴿ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾، أي: ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها كفروا بها وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسُهم ظلماً وعُلُواً، وما نَجعَت فيهم، وكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا، وقالوا: ﴿ لن نؤمن لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ . . . إلى آخرها، لما استَجابوا ولا آمنوا، إلا أن يشاء الله، كما قال فرعونُ لموسى، وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات، قال: ﴿ إني لأظنك يا موسى مَسْحُوراً ﴾، قيل: بمعنى ساحر. والله تعالى أعلم.

(١) في نسخة الحرم: ومجاهد. بدل: وقتادة. وأثر ابن عباس وقتادة في تفسير الطبري ١٥/١٧٠.
(٢) فتح الباري، تفسير سورة هود ٨/٣٥٢. ومسلم، كتاب الزكاة ٢/٦٩١.
(٣) تفسير الطبري ١٥/١٧١.
(٤) هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم﴾، الآية ١٣٣. فأما الطمسة فقد سأل عمر بن عبد العزيز مُحمَّد بن كعب عنها، فقال: دعا موسى وأمَّن هارون. فقال: ﴿قد أجيبت دعوتكما﴾، روى ذلك الطبري ١٥/١٧١. وانظر تفسير الآية ٨٨ من سورة يونس.

فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المرادةُ ها هنا، وهي المعنيَّة في قوله تعالى: ﴿ وَأَلْقِ عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى لا تَخَفْ إني لا يخاف لديَّ المرسلون * إلا من ظَلَم ثم بدَّل حسناً بعد سوء فإني غفورٌ رحيمٌ * وأدخل يَدَكَ في جيبك تخرُج بيضاءَ من غير سُوءٍ في تسع آياتٍ إلى فِرْعَونَ وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾. فذكر هاتين الآيتين العصا واليد، وبيَّن الآيات الباقيات في «سورة الأعراف» وفصَّلها.

وقد أُوتِيَ موسى ـ عليه السلام ـ آيات أُخَرَ كثيرةً، منها: ضربُه الحَجَر بالعصا، وخروج الأنهار منه، ومنها تَظْلِيلُهم الغمام، وإنزال المنِّ والسلوى، وغير ذلك مما أوتوه بنو[1] إسرائيل بعد مفارقتهم بلادَ مصر، ولكن ذكر ها هنا التسعَ الآيات التي شاهدها فرعونُ وقومُه من أهل مصر، وكانت حُجَّةً عليهم فَخَالَفُوها وعاندوها كُفراً وجُحُوداً. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

حدَّثنا يزيد، حدثنا شعبة، عن عمرو بن مُرَّة قال: سمعتُ عبد الله بن سلمة يحدِّث عن صَفوان بن عَسَّال المرادي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال يَهُودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبيِّ حتى نَسْأَلَهُ عن هذه الآية: ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾. فقال: لا تقل له: نبي، فإنه لو سَمِعك لصارت له أربعة أعيُن[2]. فسألاه، فقال النبي ـ ﷺ ـ: لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنُوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تَسحَرُوا، ولا تأكلُوا الربا، ولا تمشُوا ببريءٍ إلى ذِي سلطانٍ ليقتلَه، ولا تقذفوا محصنة، أو قال: لا تَفِرُّوا من الزحف ـ شُعبةُ الشاكّ ـ وأنتم يا يهود، عليكم خاصةً ألَّا تَعْدُوا في السبت. فقبَّلا يديه ورجليه، وقالا: نَشهد أنك نبي. قال: «فما يمنعكما أن تَتَّبعاني؟ قالا: لأنَّ داود ـ عليه السلام ـ دعا أن لا يزال من ذريته نَبِيٌّ، وإنا نخشى إن أسلمنا أن تقتلنا يهود»[3].

فهذا الحديثُ رواه هكذا الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابنُ جرير في تفسيره من طُرُق، عن شعبة ابن الحجاج، به. وقال الترمذي: حسن صحيح[3].

وهو حديث مشكل، وعبدُ الله بن سلمة في حفظه شيءٌ، وقد تكلموا فيه، ولعله اشتَبَه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات، فإنها وصايا في التوراة لا تَعَلُّق لها بقيام الحجة على فرعون، والله أعلم.

ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿ لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلا ربُّ السمواتِ والأرض بَصَائِر ﴾، أي: حُجَجاً وأدلَّةً على صدق ما جئتُك به، ﴿ وإني لأظنُّك يا رفعون مثبوراً ﴾، أي: هَالِكاً. قاله مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ ملعوناً. وقال أيضاً هو والضحّاك: ﴿ مثبوراً ﴾، أي: مغلوباً. والهالك ـ كما قال مجاهد ـ يشمل هذا كله، قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى[4]:

إذْ أُجَارِي الشَّيْطانَ في سَنَنِ الغَيِّ وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

---

(١) كذا، وهو جائز على وجه في العربية. وفي نسخة الحرم: أوتوه بني. وقياس العربية الواضح: أوتيه بنو إسرائيل.

(٢) كذا في النسخ، والمسند، والترمذي، والنسائي، والطبري في رواية. وقواعد العربية تقول: «أربع أعين». بمخالفة العدد للمعدود تذكيراً وتأنيثاً.

وقوله: «لصارت له أربعة أعين»: كناية عن زيادة الفرح وفَرْطِ السرور، إذ الفرحُ يوجب قُوَّةً في الأعضاء، وتضاعف القُوى يشبه تضاعف الأعضاء الحاملة لها.

(٣) مسند أحمد ٤/٢٣٩، وعارضة الأحوذي، أبواب الاستئذان ١٠/١٩٣ ـ ١٩٤، وسنن النسائي، كتاب التحريم ٧/١١١ ـ ١١٢، وابن ماجه، كتاب الأدب ٢/١٢٢١. تفسير الطبري ١٥/١٧٢.

(٤) البيت في تفسير الطبري ١٥/١٧٥، وسيرة ابن هشام ٢/٤١٩.

بمعنى هالك. وقرأ بعضهم برفع التاء من قوله: ﴿ علمتُ ﴾[1] ورُوي ذلك عن علي بن أبي طالب. ولكن قراءة الجمهور بفتح التاء على الخطاب لفرعون، كما قال تعالى: ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين * وجَحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾.

فهذا كله مما يَدُلُّ على أن المراد بالتسع الآيات إنما هي ما تقدّم ذكرُه من العصا، واليد، والسنين، ونقص الثَّمرات، والطوفان، والجَراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم. التي فيها حُجَجٌ وبراهينُ على فرعونَ وقومه، وخوارقُ ودلائلُ على صِدْقِ موسى ووجود الفاعل المختار الذي أرسله. وليس المراد منها كما ورد في هذا الحديث، فإن هذه الوصايا ليس فيها حُجَج على فرعون وقومه، وأيُّ مناسبة بين هذا وبين إقامةِ البراهين على فرعون؟ وما جاء هذا الوهم إلا من قبل «عبد الله بن سلمة»، فإن له بعض ما يُنكَرُ. والله أعلم. ولعل ذينك اليهوديين إنما سألا عن العشر الكلمات، فاشتبه على الراوي بالتسع الآيات، فَحصَل وهم في ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿فأراد أن يستفزهم من الأرض﴾، أي يُجْليهم منها ويزيلهم عنها، ﴿فأغرقناه ومن معه جميعاً * وقلنا من بعده لبني إسرائيلَ اسكنوا الأرض﴾، وفي هذا بشارة لمحمد ـ ﷺ ـ بفتح مكة مع أن هذه السورة نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع؛ فإن أهلَ مكّة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً * سُنَّةَ من قدر أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً ﴾. ولهذا أورث الله رسولَه مكة، فدخلها عَنْوَةً على أشهر القولين، وقهر أهلها، ثم أطلقهم حلماً وكرماً، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارقَ الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾، وقال ها هنا: ﴿وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً﴾، أي: جَميعِكم أنتم وَعدُوُّكم.

قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وقتادةُ، والضحّاكُ: ﴿ لَفِيفاً ﴾، أي: جميعاً.

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن كتابه العزيزِ، وهو القرآنُ المجيدُ، أنه بالحق نزل، أي: مُتضمِّناً الحقَّ، كما قال تعالى: ﴿ لكن الله يشهدُ بما أنزل إليك أنزله بعلمه ﴾، أي: مُتضمِّناً عِلْمَ الله الذي أراد أن يُطْلِعَكم عليه، من أحكامِه وأمرِه ونهيِه.

وقولهُ: ﴿ وبالحقِّ نزل ﴾، أي: وَوَصل إليك، يا محمدُ، محفوظاً محروساً، لم يُشَب بغيره، ولا زِيدَ فيه ولا نُقِص منه، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديدُ القُوى، الأمينُ المكينُ المطاعُ في الملأ الأعلى.

وقولهُ: ﴿ وما أرسلناكَ ﴾، أي: يا محمدُ ﴿ إلا مبشراً ﴾ لمن أطاعَكَ من المؤمنين، ﴿ ونذيراً ﴾ لمن عصاك من الكافرين.

---

(١) قرأ بها من السبعة الكسائي. انظر الإقناع ٦٨٧/٢. فأما قراءة علي ـ رضي الله عنها ـ فذكرها الطبري ١٧٤/١٥.

وقولهُ: ﴿ وقرآناً فرَقناه ﴾، أما قراءة من قرَأ بالتخفيف، فمعناه: فَصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيتِ العزّةِ من السماء الدنيا، ثم نزل مُفرّقاً مُنجماً على الوقائع إلى رسول الله ـ ﷺ ـ في ثلاث وعشرين سنة. قاله عكرمة عن ابن عباس.

وعن ابن عباس أيضاً أنه قرَأه ﴿ فرّقناه ﴾، بالتشديد(١). أي: أنزلناه آية آيَةَ، مُبيّناً مُفسّراً، ولهذا قال: ﴿ لتقرأه على الناس ﴾، أي: لِتُبلّغهُ الناسَ وتتلوه عليهم ﴿ على مُكْثٍ ﴾، أي: مَهَلٍ، ﴿ ونزلناه تنزيلاً ﴾، أي: شيئاً بعد شيء.

﴿ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيه ـ ﷺ ـ: ﴿ قل ﴾ يا محمد، لهؤلاء الكافرين بما جئتَهم به من هذا القرآن العظيم: ﴿ آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾، أي: سواء آمنتم به أم لا، هو حقٌّ في نفسه، أنزله الله ونوّه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المُنزّلةِ على رُسُله، ولهذا قال: ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله ﴾، أي: من صالح أهل الكتاب الذين يُمسّكون بكتابهم ويُقيمونه، ولم يُبدّلوه ولا حَرّفوه ﴿ إذا يتلى عليهم ﴾ هذا القرآنُ، ﴿ يَخِرُّون للأذقان ﴾، جمعِ ذَقْن، وهو أسفل الوجه ﴿ سُجّداً ﴾، أي: لله ـ عزَّ وجلَّ ـ شكراً على ما أنعم به عليهم، من جعله إياهم أهلاً أن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب، ولهذا يقولون: ﴿ سبحان ربنا ﴾، أي: تعظيماً وتوقيراً على قُدرته التامّة، وأنه لا يُخلِف الميعاد الذي وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد ـ ﷺ ـ ولهذا قالوا: ﴿ سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً ﴾.

وقولهُ: ﴿ ويخرُّون للأذقان يبكُون ﴾، أي: خضوعاً لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله، ﴿ ويزيدُهم ﴾ الله ﴿ خشوعاً ﴾، أي: إيماناً وتسليماً كما قال: ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾.

وقوله: ﴿ ويخرُّون ﴾، عطف صفة على صفة لا عطف سجود على سجود، كما قال الشاعر(٢):

إلى المَلِكِ القَرْمِ وابن الهُمام وَلَيْثِ الكَتِيبَةِ في المُزْدَحَمْ

قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾

يقولُ تعالى: قلْ يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركينَ المُنكِرينَ صفةَ(٣) الرحمة لله عز وجلّ، المانعين من تسميته بالرحمن: ﴿ ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياماً تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾، أي: لا فرقَ بين دعائكم له باسم

(١) تفسير الطبري ١٥/١٧٨.

(٢) تقدم البيت عند تفسير آيتي البقرة ٣، ٢٣٨.

(٣) في نسخة الحرم: «المنكرين صفة الرحمن لله عزّ وجل، من دعائكم له باسم الله أو باسم الرحمن، فإنه ذو الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿هو الله الذي لا إله إلا [كذا] هو الرحمن الرحيم﴾. إلى أن قال: ﴿له الأسماء الحسنى يسبّح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾.

«الله» أو باسم «الرحمن»، فإنه ذُو الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ﴾ إلى أن قال: ﴿ له الأسماء الحسنى يُسَبِّح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾.

وقد رَوَى مكحول: أن رجلاً من المشركين سمع النبي ﷺ وهو يقول في سجوده: «يا رحمنُ يا رحيم»، فقال: إنه يزعم أنه يدعو واحداً، وهو يدعو اثنين. فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ هذه الآية. وكذا رُوِي عن ابن عباس، رواهما ابنُ جرير[١].

وقولهُ: ﴿ ولا تجهَرْ بِصَلاَتِك ﴾... الآية، قال الإمام أحمد:

حدثنا هُشَيم، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزلت هذه الآيةُ ورسولُ الله ـ ﷺ ـ مُتَوارٍ بمكة، ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾، قال: كان إذا صَلّى بأصحَابِهِ رَفَع صوتَهُ بالقرآن، فلما سَمِعَ ذلك المشركون سَبُّوا القرآن، وسَبُّوا من أنزله، ومن جاء به. قال: فقال الله تعالى: ﴿ لنبيه ﴾: ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾، أي: بقراءتك، فيسمَع المشركُون فيسبُّوا القرآنَ، ﴿ ولا تخافِتْ بها ﴾ عن أصحابك فلا تُسمِعُهُم القرآن حتى يأخذوه عنك، ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾[٢].

أخرجاه في الصحيحَين من حديث أبي بشر جعفر بن إياس، به. وكذا رَوَاه الضحّاكُ عن ابن عباس، وزاد. «فلما هاجَرَ إلى المدينة سَقَط ذلك، يفعلُ أيَّ ذلك شاء»[٢].

وقال محمدُ بن إسحاقَ: حدثني داودُ بن الحُصَين، عن عكرمةَ، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا جَهَر بالقرآن وهو يُصَلِّي تَفَرَّقوا عنه وأبَوا أن يَستَمِعُوا منه، فكان الرجلُ إذا أرادَ أن يَستَمِع من رسول الله ـ ﷺ ـ بعضَ ما يتلُو وهو يُصَلِّي، استرق السمع دونهم فَرَقاً منهم، فإن رأى أنهم قد عَرَفوا أنه يستمع ذَهَبَ خشيةَ أذاهم فلم يستمع. فإن خفضَ رسول الله ـ ﷺ ـ صوته لم يسمع الذين يَستَمِعون من قراءته شيئاً، فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ: ﴿ ولا تجهَرْ بصلاتك ﴾ فَيَتفرَّقوا عنك، ﴿ ولا تُخافِتْ بها ﴾ فلا تُسمِعُ من أراد أن يسمَعَها ممن يسترق ذلك، لعله يَرْعَوِي إلى بعضِ ما يسمَع فينتفعَ به، ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾[٣].

وهكذا قال عكرمةُ، والحسنُ البصري، وقتادةُ: نزلت هذه الآية في القراءة في الصلاة.

وقال شعبة، عن أشعث بن سُلَيم، عن الأسود بن هلال، عن عبد الله بن مسعود: لم يُخافتْ بها مَنْ أسمع أذنيه.

قال ابنُ جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّةَ، عن سَلَمة بن علقمة، عن محمد بن سيرين قال: نُبِّئتُ أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ كان إذا صلّى فقرأ خَفَّض صوته، وأن عمر ـ رضي الله عنه ـ كان يرفع صوته، فقيل لأبي بكر: لِمَ تصنعُ هذا؟ قال: أناجي ربِّي ـ عزّ وجلّ ـ وقد عَلِم حاجتي. فقيل: أحسنتَ. وقيل لعمر: لم تصنعُ هذا؟ قال: أطردُ الشيطانَ وأوقظ الوَسْنانَ. قيل: أحسنتَ. فلما نزلت: ﴿ ولا تجهَرْ بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾، قيل لأبي بكر: ارفَعْ شيئاً، وقيل لعمر: اخفض شيئاً[٤].

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٥/١٨٢.

(٢) مسند أحمد ١/٢٣، ٢١٥، وفتح الباري، كتاب التوحيد ١٣/٤٦٣، ٥٠٠ ـ ٥٠١. ومسلم، كتاب الصلاة ١/٣٢٩. ورواية الضحاك عن ابن عباس في تفسير الطبري ١٥/١٨٥.

(٣) تفسير الطبري ١٥/١٨٥.

(٤) تفسير الطبري ١٥/١٨٦.

وقال أشعث بن سَوَّار، عن عكرمةَ، عن ابن عباس: نزلت في الدعاء. وكذا رَوَى الثوري، ومالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: نزلت في الدعاء. وكذا قال مجاهدٌ، وسعيد بن جُبَير، وأبو عِيَاض، ومكحولٌ، وعُروَةُ بن الزبير.

وقال الثوريُّ، عن ابن عَيَّاش العامِرِيِّ، عن عبد الله بن شَدَّادٍ قال: كان أعرابٌ من تَميمٍ إذا سلم رسول الله ـ ﷺ ـ قالوا: اللهم ارزُقنا إبلاً وولداً. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿ ولا تَجهَرْ بِصَلاتك ﴾.

قولٌ آخَرُ، قال ابن جُرير: حدثنا أبو السائب، حدثنا حفصُ بن غياث، عن هشام بن عُروَةَ، عن أبيه، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: نزلت هذه الآية في التشهُّد: ﴿ ولا تَجْهَر بِصَلاتك ولا تُخافِتْ بها ﴾. وبه قال حفص، عن أشعث بن سوار، عن محمد بن سيرين، مثله.

قولٌ آخَرُ، قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس في قوله: ﴿ ولا تجهَرْ بصلاتك ولا تخافت بها ﴾، قال: لا تُصَلِّ مراءاةَ الناس، ولا تَدَعها مخافَةَ الناس.

وقال الثوريُّ، عن منصور، عن الحسن البصري: ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾، قال: لا تُحسِنْ علانِيَتها وتُسيِءْ سَرِيرتها. وكذا رواه عبد الرزّاق، عن معمر، عن الحسن، به. وهُشَيْم، عن عوفٍ، عنه به. وسعيد، عن قتادة، عنه كذلك.

قولٌ آخَرُ، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿وابْتَغِ بين ذلك سبيلاً ﴾، قال: أهلُ الكتابِ يخافتون، ثم يجهر أحدُهم بالحرف فيصيح به، ويَصِيحون هم به وراءه، فنهاه أن يصيح كما يصيح هؤلاء، وأن يُخافِتَ كما يُخافِتُ القوم، ثم كان السبيلُ الذي بين ذلك الذي سَنَّ له جبريلُ من الصلاة.

وقولهُ: ﴿ وقل الحمدُ لله الذي لم يتخذ ولداً ﴾، لما أثبتَ تعالى لنفسه الكريمةِ الأسماءَ الحسنى، نَزَّه نفسه عن النقائص فقال: ﴿وقل الحمدُ لله الذي لم يَتَّخِذْ ولداً ولم يكن له شريكٌ في الملك ﴾، بل هُو الله الأحدُ الصمدُ، الذي لم يَلِدْ ولم يُولَد، ولم يكن له كُفُواً أحد.

﴿ ولم يكن له وليٌّ من الذل ﴾، أي: ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له وَلِيٌّ أو وزيرٌ أو مُشِيرٌ، بل هو تعالى خالقُ الأشياء وحدَه، لا شريكَ له ومُقدِّرها ومُدَبِّرها بمشيئته وحدَه، لا شريكَ له.

قال مجاهدٌ في قوله: ﴿ ولم يكن له وليٌّ من الذلِّ﴾: لم يُحَالِفْ أحداً ولا يبتغي نَصْر أحد.

﴿ وكَبِّره تكبيراً ﴾، أي: عَظِّمه وأجلَّه عما يقولُ الظالمون المعتدُون عُلوّاً كبيراً.

قال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابنُ وهب، أخبرني أبو صخر، عن القُرَظي أنه كان يقول في هذه الآية: ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ﴾... الآية، قال: إنَّ اليهودَ والنصارَى قالُوا: اتخذ الله ولداً. وقالت العربُ: لبيك، لا شريك لك؛ إلا شريكاً هُوَ لَكَ، تملكه وما ملك. وقال الصابئونَ والمجوس: لولا أولياء الله لذلَّ. فأنزل الله ـ عزَّ وجلّ ـ هذه الآيةَ: ﴿وقل الحمدُ لله الذي لم يَتَّخِذ وَلَداً ولم يَكُن له شريكٌ في الملك ولم يكن له وليّ من الذلّ وكبره تكبيراً ﴾[1].

وقال أيضاً: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادةَ: ذُكر لنا أن نبيَّ الله ـ ﷺ ـ كان يُعَلِّم أهلَه

(١) تفسير الطبري ١٥/١٨٩.

هذه الآية: ﴿ الحمدُ لله الَّذِي لم يَتَّخِذْ ولداً ولم يَكُن لَهُ شريكٌ في الملكِ وَلَم يكنْ له وَلِيٌّ من الذلِّ وَكَبِّره تكبيراً ﴾، الصغيرَ من[1] أهلِهِ والكَبِيرَ.

قلت: وقد جاء في حديث أن رسول الله ـ ﷺ ـ سَمَّاها آية العِزِّ[2]. وفي بعض الآثار: أنها ما قرئت في بيت في ليلة فَيُصِيبَه سَرَقٌ أو آفَةٌ. والله أعلم.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا بشر بن سَيحان البصري، حدثنا حرب بن ميمون، حدثنا موسى بن عبيدة الرَّبَذيُّ، عن محمد بن كعب القُرَظي، عن أبي هُريرة قال: خرجتُ أنا ورسولُ الله ـ ﷺ ـ ويَدُه في يَدِي ـ أو يدي في يده ـ فأتى عَلَى رجلٍ رَثِّ الهيئةِ، فقال: أَيْ فلانُ، ما بَلَغ بك ما أَرَى؟ قال: السُّقم والضرُّ يا رسولَ الله. قال: ألا أُعَلِّمك كلماتٍ تُذْهِبُ عنكَ السُّقَمَ والضرَّ؟ قال: لا[3] ما يسرُّني بها! إنِّي شَهِدْتُ معك بدراً وأُحداً!. (قال): فَضَحِك رسول الله ـ ﷺ ـ وقال: وهل يُدرِك أهلُ بدر و (أهلُ) أحدٍ ما يدرك الفقيرُ القانعُ؟! قال: فقال أبو هُرَيرة: يا رسول الله، إياي فَعَلِّمني. قال فقال: فقل يا أبا هُرَيرة: توكلتُ على الحي القيُّوم الذي لا يموتُ، ﴿ الحمدُ لله الذي لم يَتَّخذ ولداً، ولم يكن له شريكٌ في الملك ولم يكن له وليٌّ من الذل وكَبِّره تكبيراً ﴾. قال: فأتى عَليَّ رَسُولِ الله وقد حَسُنَتْ حَالِي، قال: فقال لي: مَهْيَمْ[4]. قال، قلتُ: يا رسولَ الله، لم أَزَل أقولُ الكلماتِ التي علمتني[5].

إسنادُه ضعيفٌ، وفي مَتْنِه نَكارةٌ. والله أعلم.

---

(١) في نسخة الحرم: «الصغير منهم والكبير».

(٢) رواه الإمام أحمد بإسناده إلى معاذ بن أنس الجهني ٣/٤٣٩ ـ ٤٤٠. وفي مجمع الزوائد أن الطبراني وأحمد روياه عن أنس بن مالك ٧/٥٢.

(٣) في مسند أبي يعلى: بلى، ما يَسُرني بها.

(٤) أي: ما شأنك؟ وهي كلمة يمانية.

(٥) مسند أبي يعلى ٦/١٣٢، وقال في مجمع الزوائد ٧/٥٢: «رواه أبو يعلى، وفيه موسى بن عبيدة الربذى. وهو ضعيف».

تفسير

سُورَةُ الكَهْفِ

مرتبها ١٨ — آياتها ١١٠

وهي مكية

ذِكْرُ ما وَرَد في فَضْلها، والعَشْرِ الآياتِ من أَوَّلها وآخرها، وأنها عِصمةٌ من الدجَّال:

قال الإمام أحمدُ: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبةُ، عن أبي إسحاق قال: سمعتُ البَرَاء يقول: قرأ رجلٌ الكهفَ، وفي الدار دابَّة، فَجَعلت تَنفِرُ، فَنظر فإذا ضَبَابة، أو: سحابة، قد غَشِيته، فَذَكر ذلك للنبي ـ ﷺ ـ فقال: «اقرأ فلانُ، فإنها السكينةُ تنزَّلت عند القرآن، أو تنزَّلت للقرآن»[١].

أخرجاه في الصحيحَين[١]، من حديث شعبة، به. وهذا الرجلُ الذي كان يتلُو هو: أُسَيدُ بن الحُضَير، كما تَقَدَّم في تفسير سُورة البَقرةِ[٢].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ، أخبرنا هَمّام بن يحيى، عن قتادةَ، عن سالم بن أبي الجَعْدِ، عن مَعْدَان بن أبي طَلْحَةَ، عن أبي الدَّرداء، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: من حَفِظَ عَشْرَ آياتٍ من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجّال[٣].

رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي، والترمذي من حديث قتادة، به ولفظ الترمذي: «من حَفِظ الثلاثَ الآياتِ من أول الكهف»، وقال: حسن صحيح[٣].

طريقٌ أخرى، قال الإمامُ أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، عن قتادةَ، سَمِعتُ سالم بن أبي الجعد يُحدِّثُ عن معدان، عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه عن النبي ـ ﷺ ـ قال: من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصِم من فتنة الدَّجَّالِ[٤].

ورواه مسلم أيضاً والنسائي، من حديث قتادة، به. وفي لفظ النَّسَائي: «من قرأ عشر آيات من الكهف»، فذكره.

---

(١) مسند أحمد ٤/٢٨١، وفتح الباري، كتاب المناقب ٦/٦٢٢، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ١/٥٤٧ـ٥٤٨.

(٢) انظر أول سورة البقرة.

(٣) مسند أحمد ٥/١٩٦، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ١/٥٥٥. وسنن أبي داود، كتاب الملاحم ٤/١١٧، وعارضة الأحوذي، أبواب فضائل القرآن ١١/١٦ ـ ١٧.

(٤) مسند أحمد ٦/٤٤٦، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ١/٥٥٤.

حديثٌ آخَرُ وقد رواه النسائي في «اليوم والليلة» عن محمد بن عبد الأعلى، عن خالد، عن شعبة، عن قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف فإنه عِصْمَةٌ له من الدجّال» . فَيَحْتَمِل أن سالماً سَمِعه من ثوبانَ ومن أبي الدَّرداء.

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا زَبَّان بن فايد، عن سهل بن مُعَاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «من قرأ أولَ سورة الكهف وآخرها كانت له نوراً من قَدَمِه إلى رأسِه. ومن قرأها كُلَّها كانت له نوراً ما بين السماء إلى الأرض» انفرد به أحمد ولم يخرجوه[(١)].

وروى الحافظ أبو بكر بن مَرْدُويه في تفسيره بإسناد له غريب، عن خالد بن سعيد بن أبي مَرْيَم، عن نافع، عن ابن عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ سُورَةَ الكهفِ في يوم الجُمُعة سطع له نورٌ من تحتِ قدمه إلى عَنَان السماء، يُضِيءُ له يومَ القيامة، وغُفِر له ما بين الجمعتين»[(٢)].

وهذا الحديث في رفعه نظرٌ، وأحسنُ أحواله الوقفُ. وهكذا روى الإمام سعيدُ بن منصور في سُنَنه، عن هُشَيم بن بَشِير، عن أبي هاشم، عن أبي مِجْلَز، عن قيس بن عُبَاد، عن أبي سعيد الخُدْري ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له مِنَ النور ما بينه وبين البيت العَتِيق. هكذا وقع موقوفاً. وكذا رواه الثوريُّ، عن أبي هاشم، به، من حديث أبي سَعِيد. وقد أخرجه الحاكمُ في مُستَدركه، عن أبي بكر محمد بن المؤمِّل، حدثنا الفَضل بن محمد الشَّعراني، حدثنا نُعَيم بن حَمّاد، حدثنا هشيم، حدثنا أبو هاشم، عن أبي مجْلَز، عن قيس بن عُبَادٍ، عن أبي سَعِيد، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعيتن». ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه[(٣)].

وهكذا رواه الحافظُ أبو بكر البيهقيُّ في سُنَنه، عن الحاكم، ثم قال البيهقي: ورواه يحيى بنُ كثير، عن شعبة عن أبي هاشم (بإسناده) أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «من قرأ سورة الكهف كما أُنزِلَت كانت له نوراً يوم القيامة»[(٤)]. والله أعلم.

وفي «المختارة» للحافظ الضِّياء المقدسي من حديث عبدالله بن مصعب بن منظور بن زيد بن خالد الجهني، عن علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي مرفوعاً: من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة، فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة، وَإن خَرَجَ الدجّال عُصِم منه.

* * *

(١) مسند أحمد ٣/٤٣٩.
(٢) كنز العمال ١/٥٧٦.
(٣) المستدرك، كتاب التفسير ٢/٣٦٨.
(٤) سنن البيهقي، كتاب الجمعة ٣/٢٤٩.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾

قد تَقدَّم في أول التفسير أنه تعالى يَحمَدُ نفسه المقدَّسة عند فَواتح الأمور وخَواتيمها، فإنه المحمودُ على كلِّ حال، وله الحمدُ في الأولى والآخرة. ولهذا حَمد نَفْسَه على إنزاله كتابَه العزيزَ على رسوله الكريم محمد - صلوات الله وسلامه عليه - فإنه أعظمُ نعمةٍ أنعمها الله على أهل الأرض؛ إذ أخرجَهُم به من الظلمات إلى النور، حيث جَعَله كتاباً مستقيماً لا اعوجاجَ فيه ولا زيغَ، بل يَهدِي إلى صراط مستقيم، بَيِّناً واضحاً جلياً، نَذِيراً للكافرين وبَشِيراً للمؤمنين. ولهذا قال: ﴿ ولم يجعل له عِوَجاً ﴾، أي: لم يجعَلْ فيه اعوجاجاً ولا زَيغاً ولا مَيْلاً، بل جَعَله معتدلاً مستقيماً. ولهذا قال: ﴿ قِيماً ﴾، أي: مستقيماً.

﴿ لِيُنذِرَ بأساً شديداً من لَدُنه ﴾، أي: لمن خَالفَه وكَذَّبه ولم يُؤمن به، يُنذِرُه بأساً شديداً، عقوبةً عاجلة في الدنيا وآجلةً في الأخرى، ﴿ من لَدُنه ﴾، أي: من عند الله الذي لا يُعَذِّب عذابه أحد، ولا يُوثِقُ وَثاقه أحد.

﴿ وَيُبشِّر المؤمنين ﴾، أي: بهذا القرآن الذين صَدَّقوا إيمانهم بالعمل الصالح، ﴿ أن لهم أجراً حسناً ﴾، أي: مَثُوبةً عند الله جميلة، ﴿ ماكثين فيه ﴾، في ثوابهم عند الله، وهو الجنة، خالدين فيه، ﴿ أبداً ﴾، دائماً لا زوالَ له ولا انقضاءَ.

﴿ ويُنذِرَ الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾، قال ابنُ إسحاقَ: وهم مشركُو العرب في قولهم: نحن نعبدُ الملائكةَ، وهم بنات الله.

﴿ ما لهم به من علم ﴾، أي: بهذا القول الذي اقترفُوه وتَقَوَّلوه من علم، ﴿ ولا لآبائهم ﴾، أي: أسلافهم.

﴿ كَبُرت كلمةً ﴾: نُصِبَ على التميز تقديرُه: كَبُرت كلمتُهم هذه ﴿ كلمةً ﴾. وقيل: على التعجب، تقديره: أَعْظِم بكلمتهم كلمةً، كما تقول: أَكرِمْ بزيد رجلاً. قاله بعض البصريين. وقرأ ذلك بعضُ قراءِ مكة ﴿ كبرت كلمةٌ ﴾(١)، كما يقال: «عَظُم قولُك»، و«كَبُر شأنُك».

والمعنى على قراءة الجمهور أظهر، فإن هذا تبشيعٌ لمقالتهم واستعظامٌ لإفكِهم، ولهذا قال: ﴿ كَبُرت كلمةً تخرج من أفواههم ﴾، أي: ليس لها مُستَنَد سِوَى قَوْلِهم، ولا دليلَ لهم عليها إلا كَذِبُهم وافتراؤُهم. ولهذا قال: ﴿ إن يقولون إلا كَذِباً ﴾.

وقد ذكر محمدُ بن إسحاق سببَ نزول هذه السورة الكريمة، فقال:

حدثني شيخٌ من أهل مصرَ، قَدِمَ علينا منذ بضع وأربعين سنةً، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: بَعَثت قريشٌ النضرَ بن الحارث، وعُقبة بن أبي مُعَيطٍ، إلى أحبار يَهُودَ بالمدينة، فقالوا لهم: سَلُوهم عن محمد وَصِفُوا لهم صِفَته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهلُ الكتاب الأَوَّلِ، وعندهم علمُ ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فَخرَجا

(١) أي بالرفع. انظر تفسير الطبري ١٥/١٩٤.

حتى قَدِما المدينة، فسألوا أحبارَ يَهودَ عن رسول الله ـ ﷺ ـ ووصفوا لهم أمره وبعضَ قوله، وقالا: إنكم أهلُ التوراة، وقد جئناكم لِتخبرُونا عن صاحبنا هذا. قال: فقالت لهم: سَلُوه عن ثلاث نأمركم بِهِنّ فإن أخبركم بهنّ فهو نبيٌّ مُرسَلَ، وإن لم يفعل فالرجل مُتقوِّل فرَوْا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذَهَبُوا في الدهر الأوّل، ما كان من أمرهم؟ فإنهم قد كان لهم حديثٌ عجيب. وسَلُوه عن رَجُلٍ طَوَّافٍ بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نَبَؤُه؟ وسَلُوه عن الروح، ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبيٌّ فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رَجُلٌ متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضرُ وعقبةُ حتى قَدِما على قريش، فقالا: يا معشرَ قريش، قد جئناكم بِفَصْلِ ما بينكم وبين محمد، قد أمَرَنا أحبارُ يهودَ أن نسأله عن أمور، فَأَخْبَرُوهم بها، فجاءوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقالوا: يا محمد، أخبرنا. فسألوه عما أمرُوهم به، فقال لهم رسول الله ـ ﷺ ـ: «أُخبِرُكم غداً بما سألتم عنه. ولم يستثن[1]، فانصرفوا عنه، ومكث رسولُ الله ـ ﷺ ـ خمس عشرة ليلة، لا يُحدِثُ الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريلُ عليه السلام، حتى أرجفَ أهلُ مَكّة وقالوا: وَعَدَنا محمدٌ غداً، واليومُ خمسَ عشرةَ قد أصبحنا فيها، لا يُخبرنا بشيء عما سألناه عنه. وحتى أحزنَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ مُكْثُ الوحي عنه، وشَقَّ عليه ما يتكلم به أهلُ مكة، ثم جاءه جبريلُ ـ عليه السلام ـ من عند الله ـ عزَّ وجلّ ـ بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبتُه إيَّاه على حُزْنِه عليهم، وخَبَر ما سألوه عنه من أمر الفِتْية والرجُل الطواف، وقول الله عزّ وجلّ: ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروحُ من أمر ربي وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾[2].

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُسلِّياً رسولَه ـ ﷺ ـ في حُزْنه على المشركين، لتركهم الإيمان وبُعدهم عنه، كما قال تعالى: ﴿ فلا تذهب نفسُك عليهم حسرات ﴾، وقال: ﴿ ولا تحزَن عليهم ﴾، وقال: ﴿ لعلَّك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين ﴾.

باخع، أي: مُهلِكٌ نفسَك بِحُزنكَ عليهم. ولهذا قال: ﴿ فَلَعلَّك باخعٌ نفسَك على آثارِهم إن لم يُؤمِنُوا بهذا الحديثِ ﴾، يعني: القرآن. ﴿ أَسَفاً ﴾، يقولُ: لا تُهلِكْ نفسَك أَسَفاً.

قال قتادةُ: قَاتِلٌ نَفْسَك غضباً وحزناً عليهم. وقال مجاهد: جزعاً. والمعنى متقاربٌ، أي: لا تأسف عليهم، بل أَبلِغْهم رسالةَ الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضَلَّ فإنما يضل عليها، فلا تذهب نفسُك عليهم حسرات.

ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية، مُزَيَّنَةً بزينة زائلة. وإنما جعلها دارَ اختبار لا دار قرار، فقال: ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلُوهَم أيهم أحسن عملاً ﴾.

قال قتادة، عن أبي نَضْرة، عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إن الدنيا حلوة

---

(١) أي: لم يقل: إن شاء الله.

(٢) تفسير الطبري ١٩١/١٥ ـ ١٩٢. وسيرة ابن هشام ٣٠٠/١ وما بعدها.

خِضَرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون. فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيلَ كانت في النساء»[(١)].

ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها، وفراغها وانقضائها، وذَهابها وخَرابها، فقال: ﴿ وإنا لَجَاعِلُون ما عليها صعيداً جُرزاً ﴾، أي: وإنا لَمُصيِّروها بعد الزِّينة إلى الخَرَاب والدَّمار، فنجعلُ كُلَّ شيء عليها هالكاً ﴿ صَعِيداً جُرزاً ﴾، لا يُنبِتُ ولا يُنْتَفَعُ به، كما قال العَوفي، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً ﴾، يقول: يهلك كل شيء عليها ويَبيد. وقال مجاهد: ﴿ صعيداً جرزاً ﴾: بلقعاً. وقال قتادة: الصعيد: الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات.

وقال ابنُ زيد: الصعيد الأرض التي ليس فيها شيءٌ، الا تَرَى إلى قوله تعالى: ﴿ أوَ لم يَرَوا أنا نسوقُ الماء إلى الأرض الجُرُز فَنُخرِج به زَرْعاً تأكل منه أنعامُهم وأنفُسهم أفلا يُبصِرُون ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صَعِيداً جُرُزاً ﴾، يعني الأرضَ، إن ما عليها لفانٍ وبائدٌ، وإن المرجع لإلى[(٢)] الله، فلا تأسَ ولا يحزُنك ما تسمَع وتَرَى.

﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ﴿١٠﴾ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ﴿١٢﴾ ﴾

هذا إخبار عن قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بَسَطها بعد ذلك فقال: ﴿ أم حسبت ﴾، يعني يا محمد، ﴿ أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾، أي: ليس أمرُهم عَجيباً في قدرتنا وسلطاننا، فإن خَلْق السموات والأرض، واختلافَ الليل والنهار، وتسخيرَ الشمس والقمر والكواكب، وغيرَ ذلك من الآيات العظيمة الدالَّة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادرٌ، ولا يعجزُه شيءٌ، أعجبُ من خبر أصحاب الكهف والرقيم، كما قال ابن جُرَيج، عن مجاهد: ﴿ أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾، يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجبُ من ذلك!.

وقال العوفي، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿ أم حَسِبتَ أن أصحاب الكهف والرَّقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾، يقول: الذي آتيتُكَ من العلم والسنَّة والكتاب أفضلُ من شأنِ أصحابِ الكهفِ والرَّقيم.

وقال محمد بن إسحاق: ما أظهرتُ من حُجَجي على العباد أعجبُ من شأن أصحاب الكهف والرقيم.

وأما الكهف فهو الغارُ في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون. وأما «الرقيم» فقال العوفي، عن ابن عباس: هو وادٍ قَرِيبٌ من أَيلَةَ[(٣)]. وكذا قال عطية العوفي، وقتادة. وقال الضحاك: أما الكهف فهو: غار الوادي، والرقيم اسم الوادي. وقال مجاهد: الرقيمُ: كان بنيانَهم، ويقول بعضهم: هو الوادي الذي فيه كهفهم.

(١) أخرجه الإمام أحمد ومسلم والترمذي بإسنادهم إلى نضرة، مسند أحمد ٣/٧، ١٩، ٢٢. ومسلم، كتاب الرقاق ٤/٢٠٩٨، وعارضة الأحوذي، أبواب الفتن ٩/٤٠ ـ ٤٤. ورواه الطبري بإسناده إلى قتادة مرسلاً ١٥/١٩٦.

(٢) في نسخة الحرم: وإلى الله المرجع. وانظر الأثر في تفسير الطبري ١٥/١٩٦.

(٣) أَيْلَة: مدينة على ساحل بحر القُلْزُم ـ الأحمر ـ مما يلي الشام. وقيل: هي آخر الحجاز وأول الشام.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوريّ، عن سِمَاكٍ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس في قوله: ﴿الرقيمِ﴾، قال: يزعُم كعبٌ أنها القرية.

وقال ابن جُرَيج، عن ابن عباس: ﴿الرقيم﴾: الجبل الذي فيه الكهف.

وقال ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نَجيح، عن مجاهد، عن، ابن عباس قال: اسمُ ذلك الجبلِ بنجلوس[٢].

وقال ابن جُرَيج: أخبرني وهبُ بن سُلَيمان، عن شُعَيب الجَبَئيِّ[٢]: أنَّ اسم جَبَلِ الكَهْفِ بنَاجلوس، واسمِ الكهف حيزم، والكلبِ حُمْرَان.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيلُ، عن سِمَاكٍ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس قال: القرآن أعلمه إلا حَنَاناً[٣]، والأَوَّاه، والرقيم.

وقال ابن جُرَيج: أخبرني عَمرو بن دينار، أنه سمع عِكْرِمَةَ يقولُ: قال ابنُ عباس: ما أدري ما الرقيم؟ أكتاب أم بنيان؟.

وقال عليِ بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الرقيمُ الكتابُ. وقال سعيد بن جُبَير: الرقيمُ لوحٌ من حجارةٍ، كَتَبُوا فيه قِصَصَ أصحابِ الكهفِ[٤]، ثم وضَعُوه على باب الكهف.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرقيم الكتاب. ثم قرأ: ﴿ كتابٌ مرقوم ﴾.

وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيارُ ابن جرير قال: الرقيمُ فَعِيلٌ بمعنى مرقوم، كما يقال للمقتول، قتيل، وللمجروح: جَريح. والله أعلم.

وقولُه: ﴿ إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وَهَيِّىءْ لنا من أمرنا رَشَداً ﴾. يُخبِر تعالى عن أولئك الفتية الذين فَرُّوا بدينهم من قَوْمِهِم لئلا يفتنوهم عنه، فهَرَبوا منهم فَلَجَئُوا إلى غار في جبل ليختَفُوا عن قومهم، فقالوا حينَ دَخَلُوا سائلين من الله تعالى رحمتَه ولُطفه بهم: ﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة ﴾، أي: هَبْ لنا من عندك رحمةً ترحَمُنا بها وتسترنا عن قومنا، ﴿ وهَيِّىء لنا من أمرنا رشداً ﴾، أي: وقَدِّر لنا من أمرنا هذا رشداً، أي: اجعل عاقبته رشداً، كما جاء في الحديث: «وما قَضَيتَ لنا من قَضاءٍ فاجعَلْ عاقبته رَشَداً»[٥]، وفي المسند من حديث بُسْر بن أبي أرطاة، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه كان يدعو: «اللهم، أحسِنْ عاقبتنا في الأمور كُلِّها، وأَجِرْنا من خِزْيِ الدنيا وعذاب الآخرة»[٦].

وقولُه: ﴿ فَضَربنا على آذانهم في الكهف سنينَ عددا ﴾، أي: ألقينا عليهم النومَ حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنينَ كثيرةً. ﴿ ثُمَّ بعثناهم ﴾، أي: من رَقْدَتهم تلك، وخَرَج أحدُهم بدرَاهِمَ معه ليشتري لهم

---

(٢) تفسير الطبري ١٥/١٩٩.

(٢) هو شعيب بن الأسود، مترجم في الجرح والتعديل ٤/٣٥٣. وقد ذكر البكري في معجم ما استعجم ١/٣٦٠: «الجباء ـ بالمد ـ: جبل باليمن. ويقال: جَبَا، بالهمز والقصر، وإليه ينتسب شُعَيب الجَبَئي المحدّث. والمحدثون يقولون: الجبائي، بالمدّ، وهو خطأ».

(٣) ﴿حَنَانا﴾ من آية مريم ١٣، و ﴿أوّاه﴾ من سورة التوبة ١١٤.

(٤) في نسخة الحرم: «قصص أهْلِ الكتاب». انظر الأثر في تفسير الطبري ١٥/١٩٩.

(٥) أخرجه الإمامُ أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها ٦/١٤٦ ـ ١٤٧، ٦/١٣٤. وابن ماجه في كتاب الدعاء ٢/١٢٦٤، وابن حبان في كتاب الرقائق، باب الأدعية، انظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٢/١١٥، وصححه الحاكم في كتاب الدعاء ١/٥٢١ ـ ٥٢٢. وأخرجه أبو يعلى في مسنده ٧/٤٤٦ ـ ٤٤٧.

(٦) مسند أحمد ٤/١٨١.

بها شيئاً يأكلونه، كما سيأتي بيانه وتفصيله، ولهذا قال: ﴿ ثم بعثناهم لنعلم أيُّ الحزبين ﴾، أي: المختلِفين فيهم، ﴿ أحصَى لما لبثوا أمداً ﴾، قيل: عدداً. وقيل: غايةً، فإن الأمد الغاية [كقوله](١):

سَبْقَ الجَوادِ إذا اسْتولى عَلى الأمَدِ

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾

من ها هنا شَرَع في بَسْطِ القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتيةٌ، وهم الشباب، وهم أقبلُ للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ، الذين قد عَتَوا وعَسَوا(٢) في دين الباطل، ولهذا كان أكثرُ المستجيبين لله ولرسوله شباباً. وأما المشايخُ من قُرَيش فعامتهم بَقُوا على دينهم، ولم يُسلِم منهم إلا القليلُ. وكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فِتيةً شباباً.

قال مجاهدٌ: بلغني أنه كان في آذان بَعْضِهم القِرَطة ـ يعني الحَلَق ـ فألهمهم الله رُشْدَهم وآتاهم تقواهم. فآمنوا بربهم، أي: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو.

﴿ وزدناهم هُدًى ﴾: استدلَّ بهذه الآية وأمثالها غيرُ واحد من الأئمة كالبُخاري وغيره، ممن ذَهَب إلى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيدُ وينقصُ. ولهذا قال تعالى: ﴿ وزدناهم هُدًى ﴾، كما قال: ﴿ والذين اهتدوا زادهـم هُدًى وآتاهم تقواهم ﴾، وقال: ﴿ فأما الذين آمنوا فَزادتهم إيماناً ﴾، وقال: ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾، إلى غير ذلك من الآيات الدالَّةِ على ذلك.

وقد ذُكر أنهم كانوا على دين عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ والله أعلم ـ والظاهر أنهم كانوا قبل مِلَّةِ النصرانية بالكلية، فإنهم لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أحبارُ اليهود بحفظ خَبَرهم وأمرهم، لمباينتهم لهم. وقد تقدم عن ابن عباس: أن قُرَيشاً بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياءَ يمتحنُون بها رسولَ الله ﷺ، فبعثوا إليهم أن يسألُوه عن خبر هؤلاء، وعن خبر ذي القرنين، وعن الرُّوح، فدلَّ هذا على أنَّ هذا أمرٌ محفوظ في كتب أهل الكتاب، وأنه متقدِّم على دين النصرانية، والله أعلم.

وقولُه: ﴿وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا رَبُّنا ربُّ السموات والأرض﴾، يقولُ تعالى: وصَبَّرناهم على مخالفة قومهم ومُباينتهم، ومفارَقة ما كانوا فيه من العيش الرَّغيد والسعادة والنعمة؛ فإنه قد ذَكَر غيرُ واحد من المفسِّرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرَجُوا يوماً في بعض أعيادِ قومهم وكان لهم مُجتَمَع في السَّنَةِ يجتمعُون فيه في ظاهر البلد، وكانوا يعبُدون الأصنام والطواغيت ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له: دقيانـوس، وكان يأمر الناس بذلك ويحثُّهم عليه ويدعُوهم إليه. فلما

(١) هو النابغة الذبياني، والبيت في ديوان ١٤، وتفسير الطبري ٢٠٦/١٥، وصدره:
إلَّا لمثلك أو من أنت سابقُه

(٢) أي: أسنُوا وَكبِرُوا.

خَرج الناس لِمُجتَمعِهم ذلك، وخَرج هؤلاء الفتيةُ مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم ـ عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومُهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا لله الذي خلق السموات والأرض. فجعل كلُّ واحدٍ منهم يتخلص من قومه، وينحاز عنهم، ويَتَبرَّزُ عنهم ناحية. وكان أول من جلس منهم وحده أحدُهم، جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر، وجاء الآخر، وجاء الآخر، ولا يعرف واحد منهم الآخرَ، وإنما جمعهم هنالك الذي جَمع قلوبهم على الإيمان، كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقاً، من حديث يحيى بن سعيد، عن عَمْرَة، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «الأرواحُ جنودٌ مجندة، فما تعارَفَ منها ائتلَفَ، وما تناكر منها اختلَفَ»[(١)]. أخرجه مسلم في صحيحه، من حديث سُهَيل، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ﷺ[(١)].

والناسُ يقولون: الجنسيةُ عِلَّة الضَّمِّ.

والغرض أنه (جعل) كلُّ واحد منهم يكتم ما هو فيه عن أصحابه، خوفاً منهم، ولا يدري أنهم مثلُه، حتى قال أحدهم: تَعلَمُونَ ـ والله يا قوم ـ أنه ما أخرجَكُم من قومكم وأفردَكُم عنهم إلا شيءٌ، فَلْيُظْهِرْ كلُّ واحدٍ منكم (ما) بأمره: فقال الآخر: أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه فعرفتُ أنه باطل، وإنما الذي يستحق أن يُعبَدَ ولا يُشرَك به شيءٌ، هو الله الذي خلق كلَّ شيء، السموات والأرض وما بينهما. فقال الآخر: أما والله وقع لي كذلك. وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلُّهم على كلمة واحدة، فصاروا يداً واحدة وإخوانَ صِدْقٍ، فاتخذوا لهم معبداً يعبدُون الله فيه، فعرف بهم قومُهم، فَوَشَوا بأمرهم إلى مَلِكهم، فاستحضَرَهم بين يديه فَسَألهم عن أمرهم وما هم عليه، فأجابُوه بالحقِّ، ودَعَوه إلى الله عزّ وجلّ، ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿ وَرَبطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً ﴾. ولن: لنفي التأبيد، أي: لا يقع منا هذا أبداً، لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً، ولهذا قال عنهم: ﴿ لقد قلنا إذاً شططا ﴾، أي: باطلاً وكَذِباً وبهتاناً.

﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين ﴾، أي: هَلَّا أقاموا على صِحَّةِ ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً؟! ﴿ فمن أظلَمُ ممن افترى على الله كَذِباً ﴾، يقولون: بل هم ظَالِمُونَ كاذبون في قولهم ذلك. فيقال: إنَّ ملكهم لما دَعَوه إلى الإيمان بـالله أَبَى عليهم، وتَهَدَّدهم وتوعدهم، وأَمَر بِنَزْع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم، وأجَّلهم لينظروا في أمرهم، لَعَلَّهم يراجعون دِينَهم الذي كانوا عليه. وكان هذا من لُطف الله بهم، فإنهم في تلك النَّظِرَة[(٢)] تَوصَّلوا إلى الهَرَب منه، والفِرَارِ بدينهم من الفتنة.

وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس، أن يَفِرَّ العبدُ منهم خَوْفاً على دينه، كما جاء في الحديث: «يوشك أن يكون خيرُ مال أحدكم غنماً يَتْبَعُ بها شَعَفَ الجِبَالِ ومَوَاقع القطر، يَفِرُّ بدينه من الفِتَنِ»[(٣)]؛ ففي هذه الحال تُشرَعُ العزلة عن الناس ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع.

فلما وقع عزمُهم على الذهاب والهَرَب من قومهم، واختار الله لهم ذلك، وأخبر عنهم بذلك، في قوله: ﴿وإذِ اعتزلتُـموهم وما يعبدُونَ إلاّ الله ﴾، أي: وإذ فارقتُموهم وخالفتُموهم بأديانكم في عبادتهم غيرَ الله،

---

(١) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/٣٦٩، ومسلم، كتاب البرّ ٤/٢٠٣١.

(٢) النَّظِرَة: الانتظار والتأخير.

(٣) فتح الباري، كتاب الإيمان ١/٦٩، وانظر الحديث عند الآية ١١٢ من سورة براءة (التوبة).

ففارقُوهم أيضاً بأبدانكم، ﴿ فأْوُوا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ﴾، أي: يبسط عليكم رحمته يستركم بها من قومكم، ﴿ ويُهَيِّـيء لكم من أمركم ﴾ الذي أنتم فيه، ﴿ مِرْفقاً ﴾، أي: أمراً تَرتفِقُون به. فعند ذلك خَرَجوا هُرَّاباً إلى الكهف، فَأووا إليه، فَفَقدهم قومهم من بين أظهرهم، وتَطَلَّبهم الملك فُيقال: إنه لم يظفر بهم، وعَمَّى الله عليه خبرهم. كما فعل بنبيه ـ ﷺ ـ وصاحِبه الصديق، حين لَجَأ إلى غار ثور، وجاء المشركون من قريش في الطَّلَب، فلم يهتدوا إليه مع أنهم يَمُرُّون عليه، وعندها قال النبي ـ ﷺ ـ حين رأى جَزَع الصديق في قوله: «يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قَدَميه لأبصرنا»، فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟». وقد قال الله تعالى: ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأَيَّده بجنود لم تروها وجعل كَلِمَة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴾ فقصة هذا الغارِ أشرفُ وأجلُّ وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف.

وقد قيل: إنَّ قومهم ظَفِروا بهم ووَقفُوا على باب الغَارِ الذي دَخَلُوا فيه فقالوا: ما كنا نُريد منهم من العقوبة أكثر مما فعلوا بأنفسهم. فأمر الملك بِرَدْم بابه عليهم لِيَهلِكُوا مكانهم، فَفُعِل ذلك. وفي هذا نظر، والله أعلم؛ فإن الله تعالى أخبر أن الشمس تدخُل عليهم في الكهف بكرةً وعشيةً، كما قال تعالى:

﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾

هذا فيه دليل على أن باب هذا الكهف كان من نحو الشمال؛ لأن الله تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تَزْوَرّ عنه ﴿ ذات اليمين ﴾، أي: يتقلَّصُ الفَيءُ يمنة، كما قال ابن عباس، وسعيد بن جُبَير، وقتادة: ﴿ تزاور ﴾، أي: تميل. وذلك أنها كُلَّما ارتفعت في الأفق تقلَّص شعاعُها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان. ولهذا قال: ﴿ وإذا غَرَبت تقرضهم ذات الشمال ﴾، أي: تدخل إلى غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية المشرق، فدل على صحة ما قلناه، وهذا بَيِّن لمن تأمَّله، وكان له علم بمعرفة الهيئة، وسير الشمس والقمر والكواكب، وبيانه: أنه لو كان باب الغار من ناحية المشرق لما دَخَل إليه منها شيءٌ عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة لما دخله منها شيءٌ عند الطلوع ولا عند الغُرُوب، ولا تزاور الفيءُ يميناً ولا شمالاً، ولو كان من جهة المغرب لما دخلته وقت الطلوع، بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب، فتعين ما ذكرناه ولله الحمد.

قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وقتادةُ، ﴿ تقرضهم ﴾: تتركهم.

وقد أخبر الله تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أيِّ البلاد من الأرض؛ إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصدٌ شرعي. وقد تكلف بعض المفسرين بذلك، فذكروا فيه أقوالاً، فَتقدَّم عن ابن عباس أنه قال: هو قريبٌ من أَيْلَة. وقال ابن إسحاق: هو عند نِينَوَى. وقيل: ببلاد الروم. وقيل: ببلاد البلقاء(١). والله أعلم بأيِّ بلاد الله هو. ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله ورسوله إليه؛ فقد قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما تركتُ شيئاً يُقَرِّبكم إلى الجنة ويُباعِدُكم من النار إلا وَقد أعلمتُكُم به». فأعلمنا تعالى

(١) تقدم التعريف بأيلة عند الآية التاسعة من هذه السورة، ونِيْنَوَى: قرية يونس بن مَتّى من قرى الموصول. والبلقاء: كورة من أعمال دمشق، بين الشام ووادي القرى، قَصَبتُها عَمّان.

بصفته، ولم يعلمنا بمكانه، فقال: ﴿ وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ﴾، قال مالك، عن زيد بن أسلم: تميل ﴿ ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ﴾، أي: في متسع منه داخلاً، بحيث لا تمسهم؛ إذ لو أصابتهم لأحرقت ثيابهم وأجسادهم، قاله ابن عباس.

﴿ ذلك من آيات الله ﴾، حيث أرشدَهم تعالى إلى هذا الغارِ الذي جعَلهم فيه أحياءً، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانُهم، ولهذا قال: ﴿ ذلك من آيات الله ﴾.

ثم قال: ﴿ من يَهْدِ الله فهو المهتَدِ ومن يُضلِلْ فلن تَجد له ولياً مُرْشِداً ﴾؛ أي: هو الذي أرشَدَ هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم؛ فإنه من هَداه الله اهتدى، ومن أضَلَّه فلا هادِيَ له.

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾

ذكَرَ بعضُ أهل العلم أنهم لما ضَرَب الله على آذانهم بالنوم لم تنطبق أعينهم؛ لئلا يُسرِعَ إليها البِلَى، فإذا بقيت ظاهرةً للهواء كان أبقَى لها. ولهذا قال تعالى: ﴿ وتحسبهم أيقاظاً وهم رُقود ﴾. وقد ذُكِر عن الذئب أنه ينام فَيُطبِقُ عَيناً ويفتح عَيناً، ثم يطبق هذه ويفتح هذه وهو راقد، كما قال الشاعر[1]:

يَنَـامُ بِـإحْـدَى مُقْلَتَيْـهِ وَيَتَّقِي ... بأخرى الرَّزَايَا، فَهْوَ يَقْظَانُ نَائِمُ

وقولهُ تعالى: ﴿ وَنُقَلبهم ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمالِ ﴾، قال بعض السلف: يُقلَّبون في العام مرَّتين. قال ابن عباس: لو لم يُقلَّبوا لأكلتهم الأرضُ.

وقولهُ: ﴿ وكلبُهم باسطٌ ذراعيه بالوَصِيدِ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، وقتادة: الوصيد الفِناءُ[2].

وقال ابنُ عباس: بالباب. وقيل: بالصعيد، وهو التراب. والصحيحُ أنه بالفناء، وهو الباب، ومنه قوله تعالى: ﴿ إنها عليهم مؤصدة ﴾، أي: مطبقة مغلقة. ويقال: «وَصِيد» و «أصِيد». ربض كلبُهم على الباب كما جرت به عادةُ الكِلاب. قال ابن جُرَيج: يحرسُ عليهم الباب. وهذا من سَجِيَّته وطبيعته، حيثُ رَبَض ببابهم كأنه يحرسُهم، وكان جلوسُه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخُل بيتاً فيه كلب[3]، كما ورد في الصحيح، ولا صورةٌ ولا جُنُبٌ ولا كافر، كما ورد به الحديث الحسن[4]. وشَمِلَت كَلْبَهم بَرَكتُهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحالِ. وهذا فائدةُ صُحبة الأخيار، فإنه صار لهذا الكلبِ ذكرٌ وَخبرٌ وشأنٌ.

وقد قيل: إنه كان كلبَ صيدٍ لأحدهم، وهو الأشبه. وقيل: كان كَلْبَ طباخ الملكِ، وكان قد وافقهم على الدِّين فَصَحِبَه كلبهُ، فالله أعلم.

---

(١) هو حميد بن ثور، ديوانه ١٠٥، والقصيدة في ديوانه عينية، ورواية العجز فيها:
بأخرى الأعَادي فَهْوَ يَقْظَانُ هَاجِعُ

(٢) تفسير الطبري ١٥/٢١٥.
(٣) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق (فتح الباري) ٦/٣٥٩. ومسلم في كتاب اللباس والزينة ٣/١٦٦٤ - ١٦٦٦.
(٤) أخرجه الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه ١/٨٣، وأبو داود والنسائي في كتاب الطهارة، سنن أبي داود ١/٥٨، والنسائي ١/١٤١.

وقد روى الحافظُ ابن عساكر في ترجمة «همام بن الوليد الدمشقي»: حدثنا صَدَقة بن عُمَر الغساني، حدثنا عباد المنقري، سمعت الحسن البصري رحمه الله يقول: كان اسمُ كَبْشِ إبراهيمَ جرير، واسم هدهد سليمان عَنقز، واسم كلب أصحاب الكهف قِطمير، واسم عجل بني إسرائيل الذي عبدوه: بَهْمُوت. وهبط آدم ـ عليه السلام ـ بالهند، وحواء بِجَدَّة، وإبليسُ بدست بيسان، والحيةُ بأصبهان[1].

وقد تقدم عن شُعَيب الجَبَئِيِّ أنه سماه حمران.

واختلفوا في لَونه على أقوال لا حاصلَ لها، ولا طائلَ تحتها ولا دليلَ عليها، ولا حاجة إليها، بل هي مما ينهى عنه فإن مُسْتَنَدَها رجم بالغيب.

وقولهُ تعالى: ﴿ لو اطلعت عليهم لولّيت منهم فِراراً ولَمُلِئتَ منهم رُعباً ﴾، أي: إنه تعالى ألقى عليهم المهابةَ بحيثُ لا يقع نظرُ أحدٍ عليهم إلا هابهم، لما أُلبِسُوا من المهابة والذعر لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس، حتى يبلغَ الكتابُ أجلَه، وتنقضِي رَقدتُهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم، لما له في ذلك من الحكمة والحجة البالغة، والرحمة الواسعة.

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى: وكما أرقدناهم بعثناهم صَحِيحةً أبدانُهم وأشعارُهم وأبشارهم، لم يَفْقِدوا من أحوالهم وهيآتهم شيئاً، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين، ولهذا تساءلوا بينهم: ﴿ كم لبثتم ﴾، أي: كم رَقدتُم؟ ﴿قالـوا لبثنا يوماً أو بعضَ يـوم﴾، كأنه كان دخولهُم لى الكهف في أول نهار، وإيقاظهم آخر نهار، فلهذا استدركوا فقالوا: ﴿ أو بعض يـوم قـالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾، أي: الله أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تَرَدّد في كثرة نومهم، فالله أعلم، ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك، وهو احتياجُهم إلى الطعام والشراب، فقالوا: ﴿ فابعَثُوا أحدَكُم بورِقِكم ﴾، أي: فِضّتكم هذه. وذلك أنهم كانوا قد استصحَبُوا معهم دَراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فَتصدَّقوا منها وَبقِي منها، فلهذا قالوا: ﴿ فابعثوا أحدَكُم بوَرِقكم هذه إلى المدينة ﴾، أي: مَدِينتكم التي خرجتُم منها. والألف واللام للعهد.

﴿ فَلْينظُر أَيُّها أزكى طعاماً ﴾، أي: أطيب طعاماً، كقوله: ﴿ ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه ما زكى منكم من أحد أبداً ﴾، وقولهِ: ﴿ قد أفلح من تَزَكّى ﴾. ومنه الزكاةُ التي تُطَيِّب المال وتُطَهِّره. وقيل: أكثر طعاماً، ومنه زَكا الزرعُ إذا كَثُر، قال الشاعر[2]:

قَبـائِلُنـا سَبْـعٌ وأنـتُمْ ثَـلاثَـةٌ وللسَّبْعُ أزكى مِن ثَلاثٍ وَأَطْيَبُ

والصحيحُ الأولُ؛ لأن مقصودَهم إنما هو الطيِّبُ الحَلالُ، سواء كان قليلاً أو كثيراً.

(١) انظر مفحمات الأقران في مبهمات القرآن للسيوطي ٤٢، ١٣٧، ١٥٢، ١٧٤.

(٢) هو القتال الكلابي، والبيت من شواهد سيبويه ٣/٥٦٥، وقافيته فيه: وأكثر.

وقوله: ﴿ وَلْيتلطَّفْ ﴾، أي: في خُروجه وذَهابه، وشَرائِه وإيابه، يقولون: وَلْيَتخفَّ كُلَّ ما يقدر عليه. ﴿ولا يُشعِرنَّ﴾، أي: يُعْلِمَنَّ ﴿بكم أحداً * إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم﴾ أي: إن عَلِمُوا بمكانكم رَجَمُوكم، ﴿أو يُعِيدُوكم في ملتهم﴾، يعنون أصحاب دقيانوس. يخافُون منهم أن يَطَّلعوا على مكانهم، فلا يزالُونَ يُعذِّبونهم بأنواع العَذابِ إلى أن يُعيدوهم في مِلَّتهم التي هم عليها أو يموتوا، وإن وَاتَوهم[1] على العودة في الدين فلا فلاح لهم في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿ ولن تُفلحُوا إذاً أبداً ﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ﴾، أي: أطلعنا عليهم الناس، ﴿ ليعلَمُوا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها ﴾.

ذكر غيرُ واحد من السلف أنه كان قد حَصَل لأهل ذلك الزمان شكٌّ في البعث وفي أمر القيامة.

وقال عكرمة: كان منهم طائفةٌ قد قالوا: تُبعَثُ الأرواحُ ولا تُبعَثُ الأجسادُ. فبعث الله أهل الكهف حُجَّةً ودلالة وآية على ذلك.

وذكروا أنه لما أراد أحدُهم الخروجَ ليذهَبَ إلى المدينة في شراء شيء لهم ليأكلوه، تنكَّر وخرجَ يمشي في غير الجادَّة حتى انتهى إلى المدينة، وذكروا أن اسمَها دَفْسُوسُ،[2] وهو يظن أنه قريبُ العهد بها، وكان الناسُ قد تبدَّلوا قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيلٍ، وأُمَّةً بعد أُمَّةٍ، وتغيَّرت البلادُ ومن عليها، كما قال الشاعر:

أما الدِّيارُ فإنَّها كَدِيارِهم وأرَى رجالَ الحَيِّ غَيْرَ رجَاله

فَجعَل لا يرى شيئاً من مَعالم البلد التي يعرِفُها، ولا يعرِفُ أحداً من أهلها، لا خواصِّها ولا عوامِّها، فجعل يتحيَّر في نفسه ويقول: لعلَّ بي جنوناً أو مساً، أو أنا حالمٌ. ويقول: والله ما بي شيءٌ من ذلك، وإنَّ عهدي بهذه البلدة عشيةَ أمسِ على غير هذه الصفة. ثم قال: إنَّ تعجيلَ الخروجِ من ها هنا لأولى لي. ثم عَمَدَ إلى رجلٍ ممن يبيعُ الطعام، فدفع إليه ما معه من النفقة، وسأله أن يبيعَه بها طعاماً. فلمَّا رآها ذلك الرجل أنكرَها وأنكر ضَرْبها، فدفعها إلى جاره، وجعلوا يتداوَلُونها بينهم ويقولون: لعل هذا قد وجد كنزاً. فسألوه عن أمره، ومن أين له هذه النفقةُ؟ لعلَّه وجدها من كنز، وَمِمَّنْ أنت؟ فجعل يقولُ: أنا من أهل هذه المدينةِ، وعهدي بها عشيةَ أمسِ وفيها دقيانوس. فَنسبُوه إلى الجنون، فحملوه إلى وليِّ أمرهم، فسأله عن شأنه وعن أمرِه، حتَّى أخبرهم بأمره، وهو متحيِّرٌ في حاله، وما هو فيه. فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف، مُتَوَلِّي البلد وأهلها، حتى انتهى بهم إلى الكهف، فقال: دَعُوني حتى أتقدَّمَكم في الدخول لأعلم أصحابي، فَدَخَل فَيُقال: إنهم لا يدرون كيف ذَهَب فيه، وأخفى الله عليهم خَبَره، ويُقَال: بل دخلوا عليهم، ورأوهم وسلَّم عليهم الملك واعتنقهم، وكان مُسلماً فيما قيل، واسمه تِيذُوسِيسُ، ففرحوا به وآنسوه بالكلامِ، ثم وَدَّعوه وسلَّموا عليه، وعادوا إلى مضاجِعِهم، وتوفاهم الله عزّ وجلّ؛ فالله أعلم.

---

(١) أي: طاوعوهم.

(٢) تاريخ الطبري ٦٠٣/١. وفي معجم البلدان لياقوت: «أُفْسوس، بضم الهمزة، وسكون الفاء، والسينان مهملتان، والواو ساكنة: بلد بثغر طرسوس، يقال: إنه بلد أصحاب الكهف».

قال قتادة: غزا ابنُ عباس مع حبيب بن مسلمة، فمروا بكهف في بلاد الروم، فرأوا فيه عظاماً، فقال قائل: هذه عظامُ أصحاب الكهف؟ فقال ابنُ عباس: لقد بَلِيَت عظامُهم من أكثر من ثلاثِمائة سنة. رواه ابن جرير(١).

وقولهُ: ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ﴾ أي: كما أرقدناهم وأيقظناهم بهيآتهم أطلعنا عليهم أهلَ ذلك الزمان، ﴿ ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريبَ فيها إذ يتنازعُون بينهم أمرهم ﴾، أي: في أمر القيامة، فمن مُثْبتٍ لها ومن مُنكِرٍ، فجعل الله ظُهُورَهم على أصحاب الكهف حُجَّةً لهم وعليهم. ﴿ فقالُوا ابنُوا عليهم بُنيانـاً ربهم أعلم بهم ﴾، أي: سُدُّوا عليهم باب كهفهم الذي هم فيه، وذَرُوهم على حالهم، ﴿ قال الذين غَلَبُوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً ﴾.

حكى ابنُ جرير في القائل ذلك قولين، أحدُهما: أنهم المسلمونَ منهم. والثاني: أهلُ الشِّركِ منهم(٢)، فالله أعلم.

والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحابُ الكلمة والنفوذ. ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر؛ لأن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لعن الله اليهودَ والنصارى، اتَّخذوا قُبورَ أنبيائهم وصالحيهم مساجِدَ»(٣)، يُحَذِّر ما فعلوا. وقد رُوِّينا عن أميـر المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه لما وَجَد قبر دانيالَ في زمانه بالعراق أمر أن يخفى عن الناس، وأن تُدفَنَ تلك الرقعةُ التي وَجَدُوها عنده فيها شيءٌ من الملاحم وغيرها.

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن اختلافِ الناس في عِدَّةِ أصحاب الكهف، فَحَكى ثلاثة أقوال، فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضَعَّفَ القولين الأولين بقوله: ﴿ رَجْماً بالغيب ﴾، أي: قول بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصابَ فَبِلا قصدٍ. ثم حكى الثالث وسَكَت عليه أو قَرَّره بقوله: ﴿ وثامنهم كلبهم ﴾، دلّ على صحته، وأنه هو الواقعُ في نفس الأمر.

وقولهُ: ﴿ قُل ربِّي أعلم بِعِدَّتهم ﴾ إرشادٌ إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رَدُّ العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا به، وإلا وَقَفنا حيث وَقَفَنا.

وقولهُ: ﴿ ما يعلَمُهم إلا قليلٌ ﴾، أي: من الناس. قال قتادةُ: قال ابن عباس: أنا من القليل الذين استثنى الله عزّ وجلّ، كانوا سبعة. وكذا رَوَى ابن جريج، عن عطاء الخراساني، عنه، أنه كان يقول: أنا ممن استثنى الله، ويقول: عدتهم سبعة.

---

(١) تفسير الطبري ١٥/٢١٧.
(٢) تفسير الطبري ١٥/٢٢٥.
(٣) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب الجنائز ٣/٢٠٠، ومسلم، كتاب المساجد ١/٣٧٦.

وقال ابن جرير: حَدَّثنا ابن بشار، حَدَّثنا عبد الرحمن، حدثنا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ما يعلمهم إلا قليل﴾، قال: أنا من القليل، كانوا سبعة[1].

فهذه أسانيدُ صحيحةٌ إلى ابن عباس: أنهم كانوا سبعة، وهو موافقٌ لما قدمناه.

وقال محمدُ بن إسحاقَ بن يَسار، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد قال: لقد حُدِّثْتُ أنه كان على بعضهم من حداثة سِنِّه وَضَحُ الوَرِق. قال ابن عباس: فكانوا كذلك ليلَهم ونهارَهم في عبادة الله، يبكون[2] ويستغيثون بالله، وكانوا ثمانية نفر: مكسلمينا، وكان أكبرَهم وهو الذي كَلَّم الملك عنهم ومحسيميلنينا، ويمليخا، ومَرْطوش، وكسيوطونس، وبيرونس، ودينموس، ويطونس قالوش[3].

هكذا وقع في هذه الرواية، ويحتمل أن يكون هذا من كلام ابن إسحاق، أو من بَيْنه وبَينه، فإن الصحيح عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنهم كانوا سبعةً، وهو ظاهرُ الآية. وقد تقدم عن شُعَيب الجَبَئِيِّ أن اسم كلبهم حُمران. وفي تسميتهم بهذه الأسماء واسم كلبهم نظر في صحته، والله أعلم؛ فإن غالبَ ذلك مُتَلَقًّى من أهل الكتاب، وقد قال تعالى: ﴿فلا تُمارِ فيهم إلا مراءً ظاهِراً﴾، أي: سهلاً هَيِّناً؛ فإن الأمرَ في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبيرُ فائدةٍ، ﴿ولا تستفت فيهم منهم أحداً﴾، أي: فإنهم لا عِلْمَ لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رَجْماً الغيب، من غير استنادٍ إلى كلامِ معصومٍ، وقد جاءك الله - يا محمد - بالحق الذي لا شَكَّ فيه ولا مِرْيَةَ، فهو المقدَّم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾

هذا إرشادٌ من الله تعالى رسولَهُ - صلواتُ الله وسلامُه عليه - إلى الأدبِ فيما إذا عَزَم على شيءٍ ليفعَله في المستقبل، أن يرد ذلك إلى مشيئة الله - عزّ وجلّ - علام الغيوب، الذي يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكُن لو كان كيفَ كان يكون، كما ثبت في الصَّحيحَين عن أبي هُرَيرة - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «قال سليمان بن داود - عليهما السلام -: لأطوفن الليلة على سبعين امرأةً - وفي رواية: على تسعين امرأة. وفي رواية: مائة امرأة - تَلد كلُّ امرأة منهن غلاماً يُقاتِلُ في سبيل الله. فقيل له، وفي رواية: فقال له الملكُ: قُل: إن شاء الله. فلم يَقُلْ، فطاف بهن فلم تَلِدْ منهن إلا إمرأة واحدةٌ واحدةٌ نِصفَ إنسان، قال رسولُ الله - ﷺ -: والذي نفسي بيده، لو قال: «إن شاءَ الله»، لم يحنَثْ، وكان دَرَكاً لحاجته» وفي رواية: «ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»[4].

وقد تقدَّم في أول السورة ذكْرُ سبب نزول هذه الآية في قَوْلِ النبي ﷺ، لما سُئِل عن قصة أصحاب الكهف: «غداً أُجِيبكم». فتأخر الوحيُ خمسةَ عَشر يوماً، وقد ذكرناه بطوله في أول السورة، فأغنى عن إعادته.

---

(١) تفسير الطبريّ ١٥/٢٢٦.

(٢) في نسخة الحرَم: نيلون. ونص الطبري: يبكون إلى الله.

(٣) كذا وردت الأسماء على هذا الترتيب في تفسير الطبري، مع خلاف يسير ١٥/٢٠١. وقد وردت في مفحمات الأقران للسيوطي ١٣٨ وبعضها على غير ما أثبت. ويقول السهيلي في التعريف والأعلام وقد ذكرها: «وفي اللفظ بأسمائهم اختلاف... وهذه الأسماء يونانية».

(٤) أخرجاه في كتاب الأيمان، فتح الباري ١١/٥٢٤، ومسلم ٣/١٢٧٥. كان دَرَكاً لحاجته: أي سبب إدراكها والوصل إليها.

وقولهُ: ﴿ واذكر ربَّك إذا نسيت ﴾ قيل: معناه: وإذا نسيت الاستثناء، فاستثن عند ذكرك له. قاله أبو العالية، والحَسَنُ البصريُّ.

وقال هُشَيم، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس في الرجل يحلِفُ؟ قال: له أن يستثني ولو إلى سنة. وكان يقول: ﴿ واذكر ربك إذا نَسيتَ ﴾ في ذلك. قيل للأعمش: سَمِعتَه من مجاهدٍ؟ قال: حَدَّثني به ليث بن أبي سليم، يرى رَهَب كسائي هذا(١).

ورواه الطبراني من حديث أبي معاوية، عن الأعمش، به(٢).

ومعنى قول ابن عباس: «أنه يستثني ولو بعد سنة»، أي: إذا نَسِي أن يقول في حَلِفه أو كلامه «إن شاء الله»، وذكر ولو بعد سنة، فالسُّنَّةُ له أن يقول ذلك، ليكون آتياً بسُنَّة الاستثناء، حتى لو كان بعد الحنث، قاله ابنُ جرير(٣) ـ رحمه الله ـ ونص على ذلك، لا أن يكون ذلك رافعاً لحنث اليمين ومُسقِطاً للكفارة. وهذا الذي قاله ابنُ جرير هو الصحيحُ. وهو الأليق بحَمْلِ كلام ابن عباس عليه، والله أعلم.

وقال عكرمةُ: ﴿ واذكر رَبَّك إذا نَسيت ﴾، أي: إذا غَضِبْتَ. وهذا تَفسيرٌ باللازم.

وقد قال الطَّبَرَانيُّ: حدثنا أحمد بن يحيى الحلواني، حدثنا سَعِيد بن سُلَيمان، عن عَبَاد بنِ العوّام، عن سفيان بن حُسَين، عن يعلَى بن مسلم، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس: ﴿ ولا تقولَنَّ لشيءٍ إنِّي فاعلٌ ذلك غداً إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت ﴾ أن تقول: إن شاء الله(٤).

وقال الطبراني: حدثنا محمد بن الحارث الجُبَيلي، حدثنا صفوان بن صالح، حدثنا الوليد بن مسلم، عن عبد العزيز بن حُصَين، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿ واذكر ربك إذا نَسِيت ﴾ [قال: إذا نَسِيتَ] الاستثناء فاستثن إذا ذكرتَ. وقال: هي خاصَّة لرسول الله ـ ﷺ ـ وليس لأحدٍ منَّا أن يَسْتَثْنِي إلا في صلةٍ من يمينه. ثم قال: تَفَرَّد به الوليد، عن عبد العزيز بن الحُصَين(٥).

ويُحتَمل في الآية وجهٌ آخرُ، وهو أن يكون الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد أرشد من نَسِي الشيءَ في كلامه إلى ذكر الله تعالى لأن النسيان مَنْشَؤُهُ من الشيطان، كما قال فتى موسى: ﴿ وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾، وذِكْرُ الله تَعالى يَطْرُد الشيطانَ، فإذا ذَهَب الشيطانُ ذَهَب النسيانُ، فَذِكْرُ الله تعالى سَبَبٌ للذكر، ولهذا قال: ﴿ واذكر ربك إذا نَسِيتَ ﴾.

وقولهُ: ﴿ وقل عسى أن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأقربَ من هذا رشداً ﴾، أي: إذا سُئلت عن شيءٍ لا تعلمه، فاسأل الله فيه، وتوجَّه إليه في أن يُوَفِّقك للصواب والرشد في ذلك. وقيل غير ذلك في تفسيره، والله أعلم.

﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾

---

(١) في تفسير الطبري «ذهب». والمثبت عن نسخة الحرم، والرَّهَبُ: كم القميص.
(٢) المعجم الكبير للطبراني ٦٨/١١.
(٣) تفسير الطبري ٢٢٩/١٥ ـ ٢٣٠.
(٤) المعجم الكبير ١٧٩/١٢.
(٥) المعجم الصغير ٤١/٢. وما بين القوسين عنه.

هذا خَبَرٌ من الله تعالى لرسولِهِ ـ ﷺ ـ بمقدار ما لَبِث أصحابُ الكهف في كهفهم، منذ أرقَدَهم الله إلى أن بَعثَهم وأعثَرَ عليهم أهلَ ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة وتسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنةٍ بالشمسية، فإنَّ تفاوُتَ ما بين كل مائةِ سنةٍ بالقمرية إلى الشمسية ثلاثُ سنينَ، فلهذا قال بعد الثلاثمائة: ﴿ وازدادوا تسعاً ﴾.

وقولُه: ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾، أي: إذا سُئِلت عن لُبْثِهم وليس عندك في ذلك توقيفٌ من الله تعالى، فلا تَتَقدَّم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا: ﴿ الله أعلم بما لبثوا له غيبُ السموات والأرض ﴾، أي: لا يعلم ذلك إلا هو أو من أَطْلَعَه الله عليه من خَلْقِهِ، وهذا الذي قلناه عليه غيرُ واحد من علماء التفسير كمجاهد، وغير واحد من السلف والخلف.

وقال قتادة في قوله: ﴿ولَبِثُوا في كَهفهم ثلاثمائة سنينَ وازدادوا تِسعاً ﴾: هذا قولُ أهل الكتاب، وقد رَدَّه الله تعالى بقوله: ﴿ قُلِ الله أَعلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾، قال: وفي قراءة عبد الله: «وقالوا: ولَبِثوا»، يعني أنه قاله الناس[١]. وهكذا قال ـ كما قال قتادة ـ مُطَرِّف بن عبد الله.

وفي هذا الذي زعمه قتادة نظر، فإن الذي بأيدي أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة من غير تسع، يعنون بالشمسية، ولو كان الله قد حَكَى قولَهم لما قال: ﴿ وازدادوا تسعاً ﴾، وظاهرُ الآية إنما هو من أخبار الله، لا حكاية عنهم. وهذا اختيار ابن جرير ـ رحمه الله ـ ورواية قتادة قراءةَ ابنِ مسعود منقطعة، ثم هي شاذة بالنسبة إلى قراءة الجمهور. فلا يحتجّ بها، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَبصِرْ به وأَسمِعْ﴾، أي: إنه لبصير بهم سميع لهم[٢].

وقال ابن جرير: «وذلك في معنى المبالغة في المدح، كأنه قيل: ما أبصَرَه وأسمَعَه! وتأويلُ الكَلَامِ: ما أبصر الله لكلِّ موجودٍ، وأسمَعَه لكلِّ مسمُوع، لا يخفَى عليه من ذلك شيءٌ»[٣].

ثم رَوَى عن قتادَةَ في قوله: ﴿ أبصِرْ به وأسمِعْ ﴾، فلا أحدَ أبصرُ من الله ولا أسمعُ[٣].

وقال ابنُ زيد: ﴿ أبصر به وأسمع ﴾، يَرَى أعمالهم، ويسمَعُ ذلك منهم سميعاً بصيراً.

وقولهُ: ﴿ ما لهم من دونه من وَلِيٍّ ولا يُشرِكُ في حكمه أحداً ﴾، أي: إنه تعالى هو الذي له الخلقُ والأمرُ، الذي لا مُعقِّب لحكمه، وليس له وزيرٌ ولا نصيرٌ ولا شريكٌ ولا مُشِيرٌ، تعالى وتقدس سبحانه.

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى آمراً رسولَهُ بتلاوَةِ كتابِه العزيز وبلاغه إلى الناس ﴿ لا مُبدِّل لكلماته ﴾، أي: غير مُغيِّر لها ولا محرف ولا مُؤوّل[٤].

(١) تفسير الطبري ١٥/٢٣٠.
(٢) في نسخة الحرم: «أي: «بصيرٌ بهم سميع إليهم».
(٣) تفسير الطبري ١٥/٢٣٢.
(٤) في بعض النسخ بدل «ولا مؤول»: «ولا مزيل».

وقولُه: ﴿ولن تجد من دونه ملتحداً﴾، [(١ـ عن مجاهد: ﴿مُلْتَحداً﴾ قال: مَلْجأً. وعن قتادة: ولياً(٢) ولا مولى)ـ١)] قال ابن جُرير: يقول: «إن أنت يا محمّد لم تَتْلُ ما أُوحِي إليك من كتاب ربك فإنه لا ملجأ لك من الله». كما قال تعالى: ﴿ يا أيُّها الرسولُ بَلِّغ ما أُنزِلَ إليك من رَبِّـك وإن لم تفعل فما بَلَّغت رسالته والله يَعصِمُك من الناس ﴾، وقال تعالى: ﴿ إن الذي فَرَض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد ﴾، أي: سائلك عما فَرَض عليك من إبلاغِ الرسالةِ.

وقولُه: ﴿ واصبِرْ نفسَك مع الذين يدعُون ربَّهم بالغَداة والعشيِّ يريدُون وجْهَه ﴾، أي: اجلِسْ مع الذين يذكرون الله ويُهَلِّلونه، ويحمَدُونه ويُسبِّحونه ويكبِّرونه، ويسألونه بُكْرةً وعَشِيّاً من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضُعَفاء. يقال: إنها نَزَلت في أشراف قريش، حين طَلَبوا من النبي ـ ﷺ ـ أن يجلس معهم وَحْدَهم ولا يُجَالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصُهَيب وخَبَّاب وابن مسعود، وَلْيُفردْ أولئك بمجلس على حَدِّه. فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿ ولا تَطرُد الذين يدعُون رَبَّهم بالغَداةِ والعَشِيِّ ﴾... الآية، وأمَرَه أن يَصْبِر نفسه في الجُلوس مع هؤلاء، فقال: ﴿ واصْبِر نَفْسَك مع الذين يدعُون ربهم بالغَداة والعشيِّ يُريدُون وجهه ﴾.

وقال مسلمٌ في صَحِيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمدُ بن عبد الله الأَسَديُّ، عن إسرائيلَ، عن المِقْدَام بـن شُرَيح، عن أبيه، عن سَعْدٍ ـ هو ابن أبي وقَّاص ـ وقال: كُنَّا مع النبي ـ ﷺ ـ ستَّةَ نَفَرٍ، فقال المشركون للنبي ـ ﷺ ـ: اطرُدْ هؤلاء لا يَجْترِئُون علينا. قال: وكنتُ أنا وابنُ مسعود، ورجلٌ من هُذَيل، وبلال، ورجلان نسيت اسمَهُمَا(٣). فوقع في نفس رسول الله ـ ﷺ ـ ما شاء الله أن يَقَع، فَحَدَّث نفسه، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ ولا تَطرُدِ الذين يدعُون رَبَّهم بالغداةِ والعَشِيِّ يريدُون وجهه ﴾. انفرد بإخراجه مسلم(٤) دون البخاريِّ.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمدُ بن جعفر، حدثنا شعبةُ، عن أبي التَّياح قال: سَمِعتُ أبا الجَعْدِ يُحَدِّث عن أبي أُمامة قال: خَرَج رسولُ الله ـ ﷺ ـ على قاصٍّ يقصُّ، فَأَمْسَك، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «قُصَّ، فَلأَنْ أقعُدَ غُدوةً إلى أن تُشرِق الشمسُ أحبُّ إلي من أن أُعتِقَ أربعَ رِقَابٍ»(٥).

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا هشام، حدثنا شُعبَةُ، عن عبد المَلِك بن مَيْسَرَةَ قال: سَمِعتُ كُردُوس بن قَيس ـ وكان قاصَّ العامَّةِ بالكُوفة ـ يقول: أخبَرَني رجلٌ من أصحاب بَدْرٍ: أنه سمع النبي ـ ﷺ ـ يقول: لأَنْ أقعُدَ في مثلِ هذا المَجْلسِ أحبُّ إليَّ من أن أُعتِقَ أربعَ رِقَابٍ. قال شعبةُ: فقلت: أَيَّ مَجْلِسٍ؟ قال: كان قاصّاً(٦).

وقال أبو داود الطَّيالِسيَ في مُسنَدِه: حدثنا مُحمَّد، حدثنا يزيدُ بن أَبانَ، عن أنس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لأَن أُجَالِسَ قوما يَذْكُرون الله من صَلاة الغَداةِ إلى طلوع الشمس أَحَبُّ إليَّ مما طَلَعت عليه الشمس، ولأَنْ أَذكُر الله من صَلاة العَصْر إلى غروب الشمس أَحَبُّ إليَّ من ان أُعتِقَ ثمانيةً من وَلَد إسماعيلَ،

(١ ـ ١) عن نسخة الحرم.
(٢) قول قتادة كما في تفسير الطبري ١٥/٢٣٣: «ملجأ ولا موئلاً».
(٣) في مسلم: أُسَمِّيهما.
(٤) مسلم، كتاب فضائل الصحابة ٤/١٨٧٨.
(٥) مسند أحمد ٥/٢٦١. وفيه بعده: «وبعد العصر حتى تغرُب الشمس أحبُّ إليَّ من أن أُعتِقَ أربع رقاب».
(٦) مسند أحمد ٣/٣٧٤.

دِيَةُ كُلِّ وَاحِدٍ منهم اثنا عَشَر ألفاً. فَحَسَبنا دياتِهم ونحن في مَجْلِسِ أنسٍ، فبلغت ستةً وتسعين ألفاً، وهاهنا من يقول: أربعة من ولد إسماعيل»، والله ما قال إلا ثمانية، دِيَةُ كُلِّ واحدٍ منهم اثنا عشر ألفاً»[(١)].

وقال الحافظُ أبو بكرٍ البزَّار: حدثنا أحمدُ بن إسحاقَ الأهوازيُّ، حدثنا أبو أحمد الزّبيريّ، حدثنا عَمرو ابن ثابت، عن علي بن الأقمَر، عن الأغرِّ أبي مسلم ـ وهو كوفي ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ مرَّ برجل يقرأ سورة الكهف فلما رأى النبيَّ ـ ﷺ ـ سَكَت، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «هذا المجلسُ الذي أُمِرْتُ أن أَصْبِرَ نفسي معهم». هكذا رواه أبو أحمد، عن عَمرو بن ثابت، عن علي بن الأقمَر، عن الأغرِّ مرسلاً. وحدَّثناه يحيى بن المُعلَّى بن منصور، حدثنا محمد بن الصَّلْت، حدثنا عَمرو بن ثابت، عن عليِّ بن الأقمَر، عن الأغرِّ أبي مسلم، عن أبي هُرَيرةَ وأبي سعيدٍ قالا: جاء رسولُ الله ـ ﷺ ـ ورجلٌ يقرأ سُورة الحِجْر أو سورة الكهف، فسكَتَ، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «هذا المجلسُ الذي أُمِرْتُ أن أصبرَ نَفسي معهم»[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدّثنا ميمون المَرَئيّ، حدثنا ميمون بن سِياه، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: ما من قومٍ اجتمَعُوا يذكُرون الله، لا يُرِيدُون بذلك إلا وجهه، إلا ناداهم منادٍ من السماءِ: أن قُومُوا مغفوراً لكم، قد بُدِّلتْ سيئاتكُم حَسَناتٍ». تفرد به أحمد رحمه الله[(٣)].

وقال الطبراني: حدثنا إسماعيل بن الحسن، حدثنا أحمدُ بن صالح، حدثنا ابنُ وهب، عن أسامةَ بن زيد، عن أبي حازم، عن عبد الرحمن بن سَهل بن حُنَيفٍ قال: نَزَلَت على رسولِ الله ـ ﷺ ـ وهو في بعض أبياته: ﴿ واصبِرْ نفسَكَ مع الذين يدعُون ربَّهم بالغَدَاةِ والعشيِّ يُرِيدُون وجهه ﴾، فخرج يَلْتَمِسُهم، فوجد قوماً يذكُرون الله، منهم ثائرُ الرأس، وجَافي الجِلْدِ، وذُو الثوبِ الواحِدِ، فلما رآهم جَلَسَ معهم وقال: الحمدُ لله الذي [جعل] في أمتي مَنْ أمرني الله أن أصبر نفسي معهم»[(٤)].

عبد الرحمن هذا ذكره أبو بكر بنُ أبي داود في الصحابة. وأما أبوه فمن سَادت الصحابة رضي الله عنهم.

وقولُه: ﴿ ولا تَعدُ عيناك عنهم تُريد زينةَ الحياة الدنيا ﴾، قال ابنُ عباس: «ولا تُجاوِزْهم إلى غيرهم». يعني: تطلب بَدَلهم أصحابَ الشرفِ والثروة.

﴿ ولا تُطع مَن أغفلنا قلبَه عن ذكرنا ﴾، أي: شُغِل عن الدِّين وعبادة ربه بالدنيا، ﴿ واتَّبع هواه وكان أمره فُرُطا ﴾ أي: أعماله وأفعاله سَفَهٌ وتفريطٌ وضياع، ولا تكن مُطيعاً له ولا مُحِبّاً لطريقته، ولا تَغْبطه بما هو فيه، كما قال تعالى: ﴿ ولا تَمدَّنَّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرةَ الحياة الدنيا لنفتنهم فيه وَرِزْقُ رَبِّكَ خيرٌ وأبقى ﴾.

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى لرسول محمد ـ ﷺ ـ: وقُل يا محمدُ للناس: هذا الذي جئتُكم به من ربِّكم هو الحقُّ الذي لا مِرْيَةَ فيه ولا شك، ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾: هذا من باب التهديد والوعيد الشديد، ولهذا

(١) مسند أبي داود الطيالسي ٢٨١.
(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٣/٩٤ـ٩٥.
(٣) مسند أحمد ٣/١٤٢.
(٤) انظر أسد الغابة ٣/٤٥٧.

قال: ﴿ إنا أعتدنا ﴾، أي: أرصدنا ﴿ للظالمين ﴾، وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابِهِ ﴿ ناراً أحاطَ بهم سُرَادقُها ﴾ أي: سُورُها.

قال الإمام أحمد: حدثنا حسنُ بن موسى، حدثنا ابنُ لَهيعةَ، حدثنا دَرَّاج، عن أبي الهَيثم، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «لِسُرَادِقِ النار أربعةُ جُدُر، كَثَافَةُ[1] كلِّ جدار مثلُ مسافةِ أربعين سنة»[2].

وأخرجه الترمذي في «صفة النار»، وابنُ جرير في تفسيره، من حديث دَرَّاجٍ أبي السَّمح، به[2].

وقال ابنُ جُرَيج: قال ابن عباس: ﴿ أحاط بهم سرادقها ﴾، قال: حائطٌ من نار.

قال ابنُ جرير: حدثني الحسين بن نصر والعباس بن محمد قالا: حدثنا أبو عاصم، عن عبد الله بن أُمَيَّةَ، حدثني محمد بن حُيَيٍّ بن يعلى، عن صفوان بن يعلى، عن يعلى بن أمية قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: البحر هو جَهَنَّم قال: فَقِيلَ له: [كيف ذلك؟]، فتلا، أو: قرأ، هذه الآية: ﴿ ناراً أحاط بهم سرادقها ﴾، ثم قال: والله لا أدخلها أبداً، أو: مادمت حياً، ولا تصيبني منها قطرة[3].

وقولُه: ﴿ وإن يستغيثوا يُغَاثُوا بماء كالمهل يَشْوِي الوجُوهَ بئس الشرابُ وساءت مرتفقاً ﴾، قال ابن عباس: (المهل): ماء غليظ مثل دُرْدِيِّ الزيت.

وقال مجاهد: هو كالدم والقَيح. وقال عكرمة: هو الشيءُ الذي انتهى حَرُّه: وقال آخرون: هو كلُّ شيءٍ أُذِيبَ.

وقال قتادةُ: أذاب ابنُ مسعود شيئاً من الذهب في أُخدُود، فَلَمَّا انماع وأَزْبَدَ قال: هذا أشبه شَيْءٍ بالمهل[4].

وقال الضحاك: ماء جهنم أسود، وهي سوداء، وشجرها أسودُ، وأهلها سُود.

وهذه الأقوالُ ليس شيء منها ينفي الآخر، فإنَّ المُهل يجمعُ هذه الأوصافَ الرذيلةَ كُلَّها، فهو أسود مُنْتِنٌ غليظٌ حارٌّ، ولهذا قال: ﴿ يَشْوِي الوُجُوه ﴾، أي: من حَرِّه، إذا أراد الكافرُ أن يشرَبَه وقرَّبه من وجهه شواه حتى يسقُطَ جلد وجهه فيه، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد، بإسناده المتقدم في سُرَادق النار، عن أبي سعيد الخُدْري، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: مَاءٌ كالمهل، قال: كَعَكَرِ الزيْت فإذا قُرِّب إليه سَقَطت فَرْوَةُ وَجْهِه فيه»[5]. وهكذا رواه الترمذيّ في «صفة النار» من جامعه، من حديث رِشْدِينَ بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن دَرَّاج، به. ثم قال: «لا نعرفه إلا من حديث «رشدين»، وقد تُكُلِّمَ فيه من قِبَلِ حفظه»[5]. هكذا قال، وقد رواه الإمام أحمد كما تقدم عن حَسَن الأشيب، عن ابنِ لَهيعة، عن دَرَّاج، والله أعلم.

وقال عبدُ الله بن المبارك، وبَقِيَّةُ بن الوليد، عن صفوان بن عَمْرو، عن عُبَيد الله بن بُسْرٍ، عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿ وَيُسْقَى من ماءٍ صديدٍ يَتَجَرَّعُه ﴾، قال: «يُقرَّب إليه فيَتَكَرَّهه،

---

(١) في المسند والترمذي: كثف. وكُثُف ـ كما في النهاية ـ: جمع كثيف، وهو الثخين الغليظ.

(٢) مسند أحمد ٣/٢٩، وعارضة الأحوذي، أبواب صفة جهنم ١٠/٥٣، وتفسير الطبري ١٥/٢٣٩.

(٣) تفسير الطبري ١٥/٢٣٩، وما بين القوسين عنه.

(٤) تفسير الطبري ١٥/٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٥) مسند أحمد ٣/٧٠ ـ ٧١، وعارضة الأحوذي، كتاب صفة جهنم ١٠/٥٣ ـ ٥٤.

فإذا قُرِّب منه شَوَى وَجْهَه وَوَقَعَتْ فروةُ رأسه، فإذا شَرِبه قطع أمعاءَه، يَقولُ الله تعالى: ﴿ وإن يستغيثوا يُغَاثُوا بماء كالمهل يَشْوِي الوجوهِ بِئْسَ الشَّراب ﴾[1].

وقال سعيد بن جُبَير: إذا جاع أهل النار استغاثُوا بشجَرةِ الزقُّوم، فأكَلُوا منها فاختلَست جُلُودَ وجوههم، فلو أنّ ماراً مرَّ بهم يَعْرِفهم لعرف جُلُود وجوههم فيها. ثم يُصَبُّ عليهم العطش فيستغيثون، فيغاثون بماء كالمهل، وهو الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود[2].

ولهذا قال تعالى بعد وَصْفه هذا الشرابَ بهذه الصفات الذَّميمة القبيحة: ﴿بئس الشراب﴾، أي: بئْس هذا شَرَاباً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وسُقُوا ماء حميماً فقطَّع أمعاءهم﴾، وقال تعالى: ﴿تُسقَى من عين آنيةٍ﴾، أي: حارَّةٍ، كما قال: ﴿ وبين حَمِيمٍ آنٍ ﴾.

﴿ وساءت مرتفقاً ﴾، أي: وساءت النار مَنْزِلاً ومَقِيلاً ومجتَمَعاً ومَوْضِعاً للارتفاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ إنها ساءت مُستقرّاً ومقاماً﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حالَ الأشقياء ثنّى بذكر السُّعَداء الذين آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين فيما جاءوا به، وعَمِلوا بما أَمَرُوهم به من الأعمالِ الصالحة، فلَهم ﴿ جناتُ عَدْنٍ ﴾، والعَدْنُ: الإقامةُ.

﴿ تجري من تحتهم الأنهار ﴾، أي: من تحت غُرَفهم ومنازِلهم، قال فرعون: ﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾.

﴿ يُحلَّون ﴾، أي: من الحِلْيَة ﴿ فيها من أساور من ذهب ﴾، وقال في المكان الآخر: ﴿ ولؤلؤاً ولباسُهم فيها حرير ﴾، وفَصَّله هاهنا فقال: ﴿ وَيَلْبَسُون ثياباً خُضْراً من سُندُسٍ وإستبرق ﴾، فالسندُس: ثيابٌ رِفاعٌ رِقَاقٌ كالقمصان وما جَرَى مجراها، وأما الإستبرقُ فَغَلِيظ الديباجِ وفيه بَرِيق.

وقولُه: ﴿ مُتَّكئين فيها على الأرائك ﴾، الاتكاءُ قيل: الاضطجاع. وقيل: التربُّع في الجلوس. وهو أشبه بالمراد هاهنا، ومنه الحديث الصحيح: «أما أنا فلا آكل متكئاً»[3]، فيه القولان.

والأرائك: جمع أَرِيكة، وهي السَّرير تحت الحَجَلةِ، والحَجَلةُ[4] كما يعرفهُ الناسُ في زَمَاننا هذا بالبَشْخَانة. والله أعلم.

---

(١) مسند أحمد ٢٦٥/٥. وتفسير الطبري عند تفسير الآية ٢٧ من سورة إبراهيم ١٩٥/١٣ ـ ١٩٦.

(٢) تفسير الطبري ٢٤١/١٥.

(٣) أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي في كتاب الأطعمة، فتح الباري ٥٤٠/٩، وسنن أبي داود ٣٤٨/٣، وعارضه الأحوذي ٢٥/٨ ـ ٢٦.

(٤) الحَجَلَةُ: ساتر كالقُبَّة يُزَيَّن بالثياب والسُّتور للعَرُوس. وسِتْر يُضْرَب للعروس في جوف البيت، وجمعه: حَجَلٌ وحِجَالٌ.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمرٌ، عن قتادةَ: ﴿ على الأرائِكِ ﴾، قال: هي الحِجَالُ. قال مَعمَر: وقال غيره: السُّرُرُ في الحِجَال.

وقولُه: ﴿نعم الثواب وحَسُنَت مرتَفَقاً﴾، أي: نِعْمَتِ الجنةُ ثواباً على أعمالهم، ﴿وحَسُنت مرتفقاً﴾ أي: حَسُنت منزلاً ومَقِيلا ومَقَاماً، كما قال في النار: ﴿بئس الشرابُ وساءت مرتفقاً﴾. وهكذا قابل بينهما في سورةِ الفرقان في قوله: ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾، ثم ذكر صفات المؤمنين فقال: ﴿أولئك يُجزون الغرفةَ بما صبروا ويُلَقَّون فيها تحية وسلاماً * خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً﴾.

﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى بعد ذِكْرِ المشركين المستكبرين عن مُجَالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتَخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم مثلا برجلين، جَعَل الله ﴿ لأحدِهما جنتين ﴾، أي: بستانين من أعناب، محفوفَتين بالنخل المحدقة في جنباتهما، وفي خلالهما الزرُوع، وكلٌّ من الأشجار والزروع مثمر مُقبِلٌ[1] في غاية الجودة، ولهذا قال: ﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ﴾، أي: أخرجت ثمرها، ﴿ ولم تَظْلِم منه شيئاً ﴾، أي: ولم تنقُصْ منه شيئاً، ﴿ وفَجّرنا خِلالَهما نهراً ﴾، أي: والأنهارُ تَتخرَّق فيهما هاهنا وهناهنا.

﴿ وكان له ثُمُرٌ ﴾ قيل: المرادُ المالُ. رُوِي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادةَ. وقيل: الثمار[2]. وهو أظهر هاهنا، ويؤيده القراءة الأخرى: ﴿ وكان له ثُمْر ﴾ بضم الثاء، وتسكين الميم، فيكون جمع ثَمَرَة، كخَشَبَة وخُشْب. وقرأ آخرون: ﴿ثَمَر﴾ بفتح الثاء والميم[3].

﴿فقال﴾، أي: صاحبُ هاتين الجنتين ﴿ لصاحبه وهو يحاوره ﴾، أي: يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأَّس: ﴿ أنا أكثر منك مالاً وأعزُّ نفراً ﴾، أي: أكثر خَدَماً وحَشَماً ووَلَداً.

قال قتادة: تلك ـ والله ـ أمنيةُ الفاجر: كثرةُ المالِ وعزَّةُ النَّفَر.

وقوله: ﴿ ودَخَل جَنَّته وهو ظالم لنفسه ﴾، أي: بكفره وتَمَرُّده وتَكَبُّره وتَجَبُّره وإنكاره المعادَ، ﴿قال ما أظن أن تَبِيد هذه أبداً ﴾، وذلك اغترارٌ منه، لمّا رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطَّردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تَفْنى ولا تَفْرُغ ولا تَهْلِك ولا تَتْلَف، وذلك لقلة عقله، وضعف يَقينه بالله،

---

(١) يقال: أقبل بالشيء: جاد به، ومنه: أقبلت الأرضُ بالنبات.

(٢) تفسير الطبري ١٥/٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(٣) قرأ عاصم: (ثَمَر) و(بِثَمَره). وقرأ أبو عمرو بسكون الميمين وضم الثاء، والباقون من السبعة بضمتين. انظر الإقناع لابن الباذش ٦٨٩/٢.

وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكُفْره بالآخرة، ولهذا قال: ﴿ وما أظنُّ الساعةَ قائمةً ﴾، أي: كائنةً، ﴿ ولئن رُدِدْتُ إلى ربِّي لأجدَنَّ خيراً منها مُنقلباً ﴾، أي: ولَئِن كانَ معاد ورَجْعَة ومَرَدٌّ إلى الله لَيَكُونَنَّ لي هناك أحسنُ من هذا لأني مُحظىً عند ربي، ولولا كرامَتِي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ ولئن رُجِعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾. وقال: ﴿ أفرأيتَ الذي كَفَر بآياتنا وقال لأُوتَيَنَّ مالاً وولداً ﴾، أي: في الدَّار الآخرة، تألَّى على الله عز وجل. وكان سَبَبُ نزولها[1] في العاص بن وائل، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى، وبه الثقة، وعليه التكلان.

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عما أجابه به صاحبُه المؤمن، واعظاً له وزاجراً عمَّا هو فيه من الكفر بالله والاغترار: ﴿أكفرت بالذي خلقك من تُراب ثم من نُطْفَة ثم سَوَّاك رجلاً﴾، وهذا إنكارٌ وتعظيم لما وَقَع فيه جُحُود ربِّه، الذي خَلَقه وابتدأ خَلْقَ الإنسان من طين، وهو آدم، ثم جعل نَسْلَه من سلالة من ماء مهين، كما قال تعالى: ﴿ كيف تكفُرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ ، أي: كيف تجحَدُون ربكم، ودلالته عليكم ظاهرة جَلِيّة، كلُّ أَحَدٍ يعلمها من نفسه، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلَم أنه كان مَعدُوماً ثم وُجِد، وليس وجودُه من نفسه ولا مستنداً إلى شيء من المخلوقات، لأنه بمثابته، فَعُلِمَ استنادُ إيجادِه إلى خالقه، وهو الله، لا إله إلاّ هُو، خالقُ كلِّ شيء، ولذا قال المؤمن: ﴿ لكنا هو الله ربي ﴾، أي: أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف لله بالربوبية والوحدانية، ﴿ ولا أشرك بربي أحداً ﴾، أي: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿ ولولا إذ دخلتَ جَنَّتك قُلْتَ ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً ﴾: هذا تحضيض وحثٌّ على ذلك، أي: هلا إذ أعجبتك جَنَّتُك حين دَخَلْتَها ونَظَرْتَ إليها حَمِدْتَ الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يُعْطِ غيرك، وقلت: ﴿ ما شاء الله لا قوة إلا بالله ﴾ ، ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ولده أو ماله، فليقل: ﴿ ما شاء الله لا قُوَّةَ إلا بالله ﴾: وهذا مأخوذٌ من هذه الآيةِ الكريمةِ، وقد رُوِيَ فيه حديث مرفوع أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده.

حدثنا جَرَّاح بن مَخْلَد، حدثنا عُمَر بن يونس، حدثنا عيسى بن عون، حدثنا عبد الملك بن زُرَارة، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما أنعَمَ الله علي عبدٍ نعمةً من أهلٍ أو مالٍ أو وَلَدٍ، فيقول: ﴿ما شاء الله لا قُوَّة إلا بالله ﴾ فيرى فيه آفةً دون الموت». وكان يتأوَّل هذه الآية: ﴿ ولولا إذ دَخَلْتَ جَنَّتك قلتَ ما شاء الله لا قُوَّة إلا بالله ﴾.

قال الحافظُ أبو الفتح الأزديُّ: عيسى بنُ عونٍ، عن عبد الملك بن زُرارة، عن أَنسٍ: لا يَصِحُّ حديثُه.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا مُحمّد بن جعفر، حدثنا شعبةُ وحجاج، حدثني شعبة، عن عاصم بن عُبَيد

(١) أي: آية مريم السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتَيَنَّ مالاً وولداً﴾.

الله، عن عبيد مولى أبي رُهْم، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «ألا أدُلُّك على كَنْزٍ من كُنوزِ الجنَّةِ؟ لا قوة إلا بالله». تَفَرَّد به أحمدُ(١).

وقد ثَبت في الصحيح، عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال له: «ألا أدلُّك على كَنْزٍ من كنوز الجنة؟ لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله»(٢).

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا بكر(٣) بن عيسى، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بَلْج، عن عَمْرو بن ميمون قال: قال أبو هُرَيرة: قال لي نبيُّ الله ـ ﷺ ـ: «يا أبا هُرَيرة، ألا أدلُّك على كنز من كُنوز الجنة تحت العرش؟ قال: قلت: نَعم، فِدَاكَ أبي وأمي. قال: أن تقولَ: لا قُوَّةَ إلا بالله. قال أبو بَلْج: وأحسَبُ أنه قال: فَإنَّ الله يقولُ: أسلم عبدي واستسلم. قال: فقلتُ لعمرو، قال أبو بَلْج: قال عَمْرو: قلتُ لأبي هُرَيرة: لا حولَ ولا قوة إلا بالله؟ فقال: لا، إنها في سورة الكهف: ﴿ ولولا إذ دَخلْتَ جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ﴾(٤).

وقولُه: ﴿ فَعسى رَبِّي أن يُؤْتيَنِ خيراً من جنتك ﴾، أي: في الدار الآخرة، ﴿ وَيُرسِلَ عليها ﴾، أي: على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تَبيد ولا تفنَى، ﴿ حسباناً من السماء ﴾، قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، ومالك عن الزهريِّ: أي عذاباً من السماء.

والظاهر أنه مَطَرٌ عظيم مزعج، يقلَع زَرْعَها وأشجارَها، ولهذا قال: ﴿ فَتُصبح صَعِيداً زَلَقاً ﴾، أي: بلقعا تراباً أملس، لا يثبت فيه قَدَمٌ. وقال ابن عباس: كالجرُزُ الذي لا ينبت شيئاً.

وقولُه: ﴿ أو يُصبحَ ماؤُها غوراً ﴾، أي: غائِراً في الأرض، وهو ضِدُّ النابع الذي يطلبُ وجهَ الأرض، فالغائر يطلبُ أسفلها، كما قالَ تعالى: ﴿ قل: أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء مَعِين ﴾، أي: جارٍ وسائح، وقال هاهنا: ﴿ أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طَلَباً ﴾، والغور: مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه، كما قال الشاعر(٥):

تَـظَلّ جِـيَـادُهُ نَـوْحـاً عَـلَيْـه مُـقَـلَّدَةً أعِـنَّـتَـهـا صُـفُـونـاً

بمعنى: نائحاتٍ عليه.

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وأُحِيط بثَمَره ﴾: بأمواله، أو بثماره على القول الآخر. والمقصودُ أنه وقَع بهذا الكافر ما كان يحذَر، مما خَوَّفه به المؤمنُ من إرسال الحُسبان على جَنَّتِه التي اغتر بها وأَلْهته عن الله عزَّ وجلَّ، ﴿ فأصبح يُقلِّب كَفَّيه على ما أنفق فيها ﴾، قال قتادة: يُصفِّق كَفَّيه متأسفا مُتلهفاً على الأموال التي أذهَبها عليها.

(١) مسند أحمد ٢/٤٦٩.

(٢) فتح الباري، كتاب الدعوات ١١/١٨٧، ومسلم، كتاب الذكر ٤/٢٠٧٦ ـ ٢٠٧٧.

(٣) في نسخة الحرم: بكير. ومثله في المسند. وما اثبت موافق لتهذيب الكمال ٤/٢٢٤.

(٤) مسند أحمد ٢/٣٢٥.

(٥) عمرو بن كلثوم، انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٤٠٣ ـ ٤٠٤، وتفسير الطبري ١٥/٢٤٩. ورواية صدره كما في شرح معلقته لابن كيسان ٦٠:

تركنا الخيل عاكفةً عليه.

﴿ ويقول يا ليتني لم أُشرِكْ بربي أحداً * ولم تكن له فئةٌ ﴾ ، أي: عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم واستعزَّ، ﴿ يَنصُرونه من دون الله وما كان منتصراً * هنالك الولاية لله الحقِّ ﴾ ـ اختلف القراء هاهنا، فمنهم من يقف على قوله: ﴿ وما كان منتصراً هنالك ﴾، أي: في ذلك الموطن الذي حَلَّ به عذاب الله، فلا منقذ له منه، ويبتدىء: ﴿ الولايةُ لله الحقِّ ﴾، ومنهم من يقف على: ﴿ وما كان منتصراً ﴾، ويبتدىء بقوله: ﴿ هنالك الولايةُ لله الحقِّ ﴾.

ثم اختلفوا في قراءة ﴿ الوَلَايةِ ﴾، فمنهم من فتح الواو، فيكون المعنى: هنالك المُوَالاة لله، أي: هنالك كلُّ أَحَدٍ من مؤمن أو كافر، يرجع إلى الله وإلى مُوالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمَنَّا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ ، وكقوله إخباراً عن فرعون: ﴿ حتى إذا أدركه الغرق قال آمنتُ أنه لا إله إلا الذي آمنَتْ به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين * آلآن وقد عَصَيت قبلُ وكنتَ من المفسدين ﴾. وَمِنْهُم من كَسَر الواو من ﴿ الوِلاية ﴾، أي: هنالك الحكمُ لله الحق[1].

ثم منهم من رَفَع ﴿ الحقّ ﴾، على أنه نعت للولاية، كقوله تعالى: ﴿ الملك يومئذ الحقُّ للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾ . ومنهم من خَفَض القاف، على أنه نعت لله ـ عز وجل ـ كقوله: ﴿ ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحقِّ ألا له الحكم وهو أسرَعُ الحاسبين ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿ هو خيرٌ ثواباً ﴾، أي: جزاءً ﴿ وخير عُقْباً ﴾، أي: الأعمال التي تكون لله عزَّ وجلَّ ثوابها خير، وعاقبتها حَميدة رَشيدة، كُلُّها خير[1].

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿واضرِبْ لهم﴾ يا محمد للناس ﴿مثلَ الحياة الدنيا﴾، في زَوَالها وفَنائها وانقضَائها، ﴿ كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الأرض ﴾، أي: ما فيها من الحَبِّ، فشب وحَسُن، وعَلاه الزهرُ والنُّور والنُّضرَةُ، ثم بعد هذا كلِّه ﴿ أصبح هَشِيماً ﴾ يابساً، ﴿ تَذْرُوه الرياحُ ﴾، أي: تُفرِّقه وتَطرَحُه ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال، ﴿ وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾، أي: هو قادرٌ على هذه الحالِ وهذه الحالِ، وكثيراً ما يضرب الله مثلَ الحياة الدنيا بهذا المثل كما قال في سورة يونس: ﴿ إنما مثلُ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلطَ به نباتُ الأرضِ مما يأكلُ الناسُ والأنعامُ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازيَّنتْ﴾. . . الآية وقال في سورة الزمر: ﴿ ألم تَرَ أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيعَ في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرّاً ثم يجعلُه حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب﴾. وقال في سورة الحديد: ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لَعِبٌ ولهو وزينةٌ وتفاخُرٌ بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كَمَثلِ غيث أعجَبَ الكفار نباتُه ثم يَهِيج فتراه مُصفرّاً ثم يكون حُطاماً وفي الآخِرَةِ عذابٌ شديدٌ ومغفرة من الله ورِضوانٌ وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرور﴾. وفي الحديث الصَّحيح: «الدنيا حُلْوَة خَضِرة»[2].

(١) انظر تفسير الطبري ١٥/ ٢٥١ . وقد كسر الواو من ﴿الولاية﴾ حمزة والكسائي والباقون بفتحها. ورفع ﴿الحق﴾ أبو عمرو والكسائي، والباقون على الكسر. الإقناع لابن الباذش ٢/ ٦٨٩.

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجة في كتاب الفتن، عارضة الأحوذي ٩/ ٤١، وابن ماجه ٢/ ١٣٢٥.

وقولُه: ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾، كقوله: ﴿ زُيِّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾. وقال تعالى: ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾، أي: الإقبالُ عليه والتفرُّغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم، والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم، ولهذا قال: ﴿ والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾، قال ابن عباس، وسعيد بن جُبَير، وغير واحد من السلف: ﴿ الباقيات الصالحات ﴾: الصلواتُ الخمس.

وقال عطاء بن أبي رباح، وسعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿ الباقيات الصالحات ﴾: سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وهكذا سُئِلَ أميرُ المؤمنين عثمان بنُ عفان ـ رضي الله عنه ـ عن ﴿ الباقيات الصالحات ﴾، ما هي؟ فقال: هي لا إلّه إلا الله، وسبحانَ الله، والحمدُ لله، والله أكبر، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله. رواه الإمام أحمد:

حدثنا أبو عبد الرحمن المقرىء، حدثنا حَيْوَة، أنبأنا أبو عقيل، أنه سَمِعَ الحارث مولى عثمان ـ رضي الله عنه ـ يقول: جلس عثمانُ يوماً وجلسنا معه، فجاءه المؤذِّن، فدعا بماء في إناء، أظنه أنه سيكون فيه مُدّ[1]، فتوضأَ ثم قال: رأيتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يتوضَّأ وُضوئي هذا، ثم قال: من توضَّأ وُضوئي هذا، ثم قام فصلى صلاة الظهر، غُفِرَ له ما كان بينها وبين الصبح، ثم صلّى العصر غُفر له ما بينها وبين الظهر، ثم صلّى المغرب غُفر له ما بينها وبين العصر، ثم صلى العشاء غُفِر له ما بينها وبين المغرب، ثم لعله يبيتُ يتمرَّغ ليلته، ثم إن قام فتوضأ وصلَّى صلاة الصبح غُفر له ما بينها وبين صلاة العشاء، وهي الحسناتُ يُذهِبْنَ السيئات. قالوا: هذه الحسناتُ، فما الباقيات الصالحات يا عثمان؟ قال: هي لا إلّه إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قُوَّة إلا بالله». تفرَّد به[2].

وروى مالك، عن عمارة بن عبد الله بن صياد، عن سَعِيد بن المُسَيَّب قال: ﴿ الباقيات الصالحات ﴾: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلّه إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله[3].

وقال محمدُ بن عجلان، عن عُمارة قال: سألني سعيد بن المسيب عن ﴿ الباقيات الصالحات ﴾، فقلت: الصلاة والصيام. قال: لم تُصِبْ. فقلت: الزكاةُ والحجُّ. فقال: لم تُصِبْ، ولكنَّهن الكلمات الخمس: لا إلّه إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال ابنُ جُرَيج: أخبرني عبد الله بن عثمان بن خُثَيم، عن نافع بن سرجس، أنه أخبره أنه سأل ابنَ عمر عن ﴿ الباقيات الصالحات ﴾، قال: لا إلّه إلا الله، والله أكبر، وسبحانَ الله، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلا بالله. قال ابنُ جُرَيج: وقال عطاء بن أبي رباح مثل ذلك.

وقال مجاهد: ﴿ الباقيات الصالحاتُ ﴾: سبحانَ الله، والحمد لله، ولا إلَه إلا الله، والله أكبر.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الحسن وقتادة في قوله: ﴿ والباقيات الصالحات ﴾، قال: لا إلّه إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، هُنّ الباقياتُ الصالحاتُ.

قال ابنُ جرير: وجَدت في كتابي عن الحسن بن الصباح البزار، عن أبي نصر التمار، عن عبد العزيز بن

(١) المدُّ: كيلٌ، وهو رطلٌ وثلث عند أهل الحجاز، فهو ربع صاع، لان الصاع خمسة أرطال وثلث. وعلى هذا يبلغ بالمقاييس الحديثة ١,٢ رطل مصري، لأن الصاع ٤,٨ من الرطل، أو $\frac{١}{٦}$ كيلة. فعلى هذا يبلغ المدّ بالكيل المصري $\frac{١}{٢٤}$ من الكيلة.

(٢) مسند أحمد ١/ ٧١.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٢٥٤.

مسلم، عن محمد بن عجلان، عن سعيدٍ المُقبريِّ، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «سبحانَ اللهِ، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، مِنَ الباقيات الصالحات»[١].

قال: وحدثني يونس، أخبرنا ابنُ وهب، أخبرنا عمرو بن الحارث، أن درَّاجاً أبا السَّمْح حَدَّثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: استكثِرُوا من الباقياتِ الصَّالحاتِ. قيل: وما هُنَّ يا رسولَ الله؟ قال: المِلَّةُ. قيل: وما هِيَ يا رسول الله؟ قال: التكبير، والتهليل، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهكذا رواه أحمد، من حديث دراج، به[٢].

وبه قال ابن وهب: أخبرني أبو صخر أن عبد الله بن عبد الرحمن، مولى سالم بن عبد الله حَدَّثه قال: أرسلني سالم إلى محمد بن كعب القُرَظي، فقال: قُل له: الْقَنِي عند زاويةِ القبر، فإنَّ لي إليك حاجةً. قال: فالتقيا، فَسَلَّم أحدُهما على الآخر، ثم قال سالم: ما تعدُّ الباقياتِ الصالحاتِ؟ فقال: لا إله إلا الله، وسبحانَ الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. فقال سالم: متى جعلتَ فيها «لا حولَ ولا قوة إلا بالله»؟ فقال: مازلت أجعلها. قال: فراجعتُه مرتين أو ثلاثاً، فلم يَنْزِع، قال: فَأَبَيْتُ[٣]. قال سالم: أجل فَأُثْبِتُ[٣]؛ فإن أبا أَيوب الأنصاريَّ حَدَّثني أنه سَمِع رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يقول: «عُرِج بي إلى السماء فأُرِيتُ إبراهيم عليه السلام، فقال: يا جبريلُ، من هذا معك؟ فقال: محمد. فَرَحَّب بي وسَهَّل، ثم قال: مُرْ أُمَّتك فَلْتُكْثِر من غِرَاسِ الجنة، فإنَّ تربتها طَيِّبة، وأرضَها واسعةٌ. فقلت: وما غِرَاسُ الجنة قال: لا حولَ ولا قُوَّةَ إلا بالله»[٤].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن يزيد، عن العَوَّام، حدثني رجل من الأنصار من آل النعمان بن بَشِير، عن النعمان بن بَشير، قال: خَرَج علينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ ونحن في المسجد بعد صلاة العشاء، فرفع بصره إلى السماء ثم خَفَض، حتى ظَنَنَّا أنه قد حَدَث في السماء شيءٌ، ثم قال: أما إنه سيكونُ بعدي أمراء، يَكْذِبون ويَظْلِمون، فمن صَدَّقهم بِكَذِبهم ومَالأهم على ظُلْمِهم فليس مِنِّي ولا أنا منه، ومن لم يُصَدِّقهم بِكَذِبهم ولم يمالئهم على ظلمهم، فهو مني وأنا منه. ألا وإنَّ «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» هُنَّ الباقياتُ الصالحاتُ»[٥].

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبان، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن زيد، عن أبي سلام، عن مَولَى لرسول الله ـ ﷺ ـ أن رسول الله ـ قال: بَخٍ بَخٍ لخمس ما أثقلَهُنَّ في الميزان: لا إلَه إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد الله، والولد الصالح يُتوفَّى فيحتَسِبه والده. وقال بخٍ بخٍ لخمس، من لقي الله مستيقناً بهنَّ دخل الجنة، يؤمن بالله، واليومِ الآخرِ، وبالجنةِ والنارِ، وبالبعثِ بعد الموتِ، وبالحساب»[٦].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا روح، حدثنا الأوزاعي، عن حَسَّانَ بن عطية قال: كان شداد بنُ أوس ـ رضي الله عنه ـ في سفر فَنَزَل منزلاً، فقال لغلامه: «ائتنا الشُّفرة[٧] نَعْبَث بها». فأنكرت عليه، فقال: ما تكلمتُ بكلمةٍ منذ أسلمت إلا وأنا أَخطِمُها وأَزُمُّها غير كلمتي هذه. فلا تحفظوها علي، واحفَظُوا ما أقول لكم: سَمِعتَ رسول

---

(١) تفسير الطبري ١٥/٢٥٥.

(٢) مسند أحمد ٣/٧٥.

(٣) في نسخة الأزهر والحرم: «فابيت. والمثبت عن الطبري».

(٤) تفسير الطبري ١٥/٢٥٥، وأخرجه الإمام أحمد ٥/٤١٨.

(٥) مسند أحمد ٤/٢٦٧ ـ ٢٦٨.

(٦) مسند أحمد ٤/٢٣٧.

(٧) الشَفرةُ: التي تقنع من النكاح بأيسره، وهو نقيض القعيرة.

الله ـ ﷺ ـ يقول: «إذا كَنَز الناسُ الذهبَ والفضة فاكنِزُوا هؤلاء الكلماتِ: اللهمَّ إني أسألك الثباتَ في الأمر، والعَزِيمةَ على الرُّشْدِ، وأسألك شُكْرَ نِعْمَتِك، وأسألك حُسْنَ عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، وأسألك لساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلَم، وأعوذُ بك من شرِّ ما تعلم، وأستغفرك لما تَعْلَم، إنَّك أنت عَلاَّم الغُيُوب»(١).

ثم رواه أيضاً والنسائي، من وجه آخر، عن شداد، بنحوه(١).

وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا محمد بن سعد العوفي، حدثني أبي، حدثنا عمي الحسين، عن يونس بـن نُفَيع الجَدَلي، عن سعد بن جُنَادةَ ـ رضي الله عنه ـ قال: كنتُ في أَوَّل مَنْ أتى النبي ـ ﷺ ـ مِن أهل الطائف، فخرجت من أهلي من السَّراةِ غُدْوَة، فأتيتُ مني عند العَصْر، فتصاعدتُ في الجبل ثم هبطتُ، فأتيت النبي ـ ﷺ ـ فأسلمتُ، وعَلَّمني: ﴿ قل هو الله أحد ﴾، و﴿ إذا زلزلت ﴾، وعلمني هؤلاء الكلمات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلَه إلا الله، والله أكبر، وقال: «هن الباقيات الصالحات»(٢).

وبهذا الإسناد: «من قام من الليل فتوضَّأ ومَضْمَض فاه، ثم قال: سبحانَ الله مائةَ مرَّةٍ، والحمدُ لله مائةَ مرَّةٍ، والله أكبر مائةَ مرَّةٍ، ولا إلَه إلا الله مائةَ مرَّةٍ ـ غُفِرَت ذنوبُه إلا الدماءَ فإنها لا تبطُل»(٢).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿ والباقياتُ الصالحات ﴾، قال: هي ذكرُ الله، قولُ: لا إلَهَ إلاَّ الله، والله أكبرُ، وسبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، وتباركَ الله، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا باللهِ، وأستغفرُ الله وصَلَّى الله على رسول الله، والصيامُ، والصلاةُ، والحجُّ والصدَقةُ، والعِتْقُ، والجِهادُ، والصِّلَةُ، وجميعُ أعمالِ الحسناتِ. وَهُنَّ الباقياتُ الصالحاتُ، التي تبقَّى لأَهْلِها في الجنةِ ما دامت السموات والأرض.

وقال العوفي، عن ابن عباس: هُنَّ الكلام الطيِّبُ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي الأعمال الصالحة كلُّها، واختاره ابن جرير رحمه الله(٣).

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة، وما يكونُ فيه من الأمور العظام، كما قال تعالى: ﴿ يوم تمورُ السماءُ موراً * وتَسِيرُ الجبالُ سيراً ﴾، أي: تذهبُ من أماكِنِهَا وتزولُ، كما قال: ﴿ وترى الجبال تَحسبُها جامدةً وهي تمرُّ مرَّ السحاب ﴾ وقال تعالى: ﴿ وتكونُ الجبالُ كالعِهْنِ المنفوش ﴾، وقال: ﴿ ويسألُونَكَ عن الجبال فقُلْ ينسفها ربي نسفاً * فيذرها قاعاً صفصفاً * لا ترى فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً ﴾، يقولُ تعالى: إنه تذهبُ الجبالُ، وتتساوى المهادُ، وتبقى الأرضُ ﴿ قاعاً صفصفاً ﴾، أي: سطحاً مستوياً لا عِوَج فيه، ﴿ ولا أَمْتاً ﴾، أي: لا واديَ ولا جَبَلَ. ولهذا قال تعالى: ﴿ وترى الأرضَ بارزةً ﴾، أي: باديةً ظاهرةً، ليس فيها مَعْلَم لأحد ولا مكان يواري أحداً، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم، لا تخفى عليه منهم خافية.

(١) مسند أحمد ٤/١٢٣، ١٢٥. وسنن النسائي، كتاب السهو ٣/٥٤.
(٢) المعجم الكبير ٦/٥١ ـ ٥٢.
(٣) تفسير الطبري ١٥/٢٥٦.

قال مجاهدٌ، وقتادةُ: ﴿ وترى الأرضَ بارزةً ﴾، لا خَمَرَ فيها ولا غَيابة[1]. وقال قتادةُ: لا بِناءَ ولا شَجَرَ.

وقولُه: ﴿ وحَشَرناهم فلم نغادِرْ منهم أحداً ﴾، أي: وجَمَعناهم، الأولين منهم والآخرين، فلم نترك منهم أحداً، لا صغيراً ولا كبيراً، كما قال: ﴿قل إنّ الأوّلين والآخرين * لمجموعُونَ إلى ميقاتِ يومٍ معلومٍ﴾. وقال: ﴿ ذلك يومٌ مجموعٌ له الناسُ وذلك يومٌ مشهودٌ ﴾.

وقولُه: ﴿ وعُرِضُوا على ربِّك صفّاً ﴾، يحتمل أن يكون المراد: أنّ جميع الخلائق يقومُون بين يَدَي الله صفّاً واحداً، كما قال تعالى: ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفّاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾، ويحتمل أن يقوموا صفوفاً صفوفاً، كما قال: ﴿ وجاء ربك والملكُ صفّاً صفّاً﴾.

وقولُه: ﴿ لقد جئتمونا كما خلقناكم أَوَّل مرَّةٍ ﴾: هذا تقريع للمنكرين للمعاد، وتوبيخٌ لهم على رءوس الأشهاد، ولهذا قال مخاطباً لهم: ﴿ بل زعمتُم أن لن نجعلَ لكم موعِداً ﴾، أي: ما كان ظَنُّكم أن هذا واقعٌ بكم، ولا أن هذا كائن.

وقولُه: ﴿ وَوُضِعَ الكتابُ ﴾، أي: كتابُ الأعمالِ الذي فيه الجليل والحقير، والفَتِيل[2] والقِطْمير، والصغير والكبير، ﴿ فَتَرى المجرمين مُشفِقِين مما فيه ﴾، أي: من أعمالهم السيِّئة وأفعالِهم القبيحةِ، ﴿ ويقولون يا ويلتنا ﴾، أي: يا حسرَتَنا وويلنا على ما فَرّطنا في أعمارنا، ﴿ ما لهذا الكتاب لا يُغادِرُ صَغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ﴾، أي: لا يترك صَغِيراً ولا كبيراً ولا عَمَلاً وإن صَغُر، ﴿ إلا أحصاها ﴾، أي: ضَبَطَها وحَفِظَها.

وروى الطبراني، بإسناده المتقدم في الآية قبلها، إلى سَعْدِ بن جُنَادة قال: لما فَرَغ رسول الله ـ ﷺ ـ من غزوة حُنَين نزلنا قفراً من الأرض ليس فيه شيء، فقال النبي ـ ﷺ ـ: اجتمِعُوا، من وَجَد عُوداً فَلْيأت به، ومن وجد حَطَبًا[3] أو شيئاً فَلْيَأتِ به. قال: فما كان إلا ساعة حتى جعلناه رُكاماً، فقال النبي ـ ﷺ ـ: أترون هذا؟ فكذلك تُجمعُ الذنوبُ على الرجل منكم كما جَمَعْتم هذا. فَلْيتَقِ الله رجلٌ ولا يذنب صغيرةً ولا كبيرةً، فإنها مُحْصَاةٌ عليه»[4].

وقولُه: ﴿ ووجَدُوا ما عملوا حاضراً ﴾، أي: من خَيْرٍ أو شرٍّ، كما قال تعالى: ﴿ يوم تَجدُ كلُّ نفس ما عملت من خَيرٍ مُحضَراً وَمَا عَمِلت من سُوء تَوَدُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾، وقال تعالى: ﴿يُنَبَّأ الإنسانُ يومئذٍ بما قَدَّم وأَخَّرَ﴾، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السرائرُ﴾، أي: تَظهَرُ المخبآتُ والضمائر.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شُعْبَةُ، عن ثابتٍ، عن أَنَسٍ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لكل غادرٍ لواءٌ يومَ القيامة يُعرَفُ به»[5].

---

(١) الخَمَرُ: ما وارى الشيء من شجر أو بناء أو جبل أو نحوه. والغَيَابة: كُلُّ ما غَيَّب شيئاً، والمنخفض من الأرض كالجُبِّ والوادي.

(٢) الفتيل: الخيط الذي في شقِّ النواة، يقال: ما أغنى عنه فتيلاً، أي: شيئاً. والقطمير: القشرة الرقيقة على النواة كاللفافة لها. والشيء الهيِّن الحَقير. يقال: ما أصبت منه قطميراً.

(٣) في المعجم الكبير: «ومن وجد عظماً». وفي مجمع الزوائد ١٠/١٩٠: «من وجد عظماً أو سنّاً».

(٤) المعجم الكبير ٦/٥٢.

(٥) مسند أحمد ٣/١٤٢، وفتح الباري، كتاب الأدب ١٠/٥٦٣، ومسلم، كتاب الجهاد ٣/١٣٥٩ ـ ١٣٦١.

واللواء: الراية العظيمة. والمعنى: أن لكل غادر علامة يُشْهَر بها في الناس. ويقول ابن حجر: «والحكمة في نصب اللواء أن العقوبة تقع غالباً بضدّ الذنب، فلما كان الغدر من الأمور الخفية ناسب أن تكون عقوبته بالشهرة، ونصب اللواء أشهر الأشياء عند العرب».

أخرجاه في الصَّحِيحَين، وفي لفظ: «يُرْفَعُ لِكُلِّ غادِرٍ لواءُ يوم القيامة عند استِهِ بِقَدْرِ غَدْرَته، يقال: هذه غَدْرَة فلان بن فلان».

وقوله: ﴿ ولا يظلم ربُّك أحداً ﴾، أي: فيحكُم بين عباده في أعمالهم جَمِيعِها، ولا يظلُم أحداً من خَلْقِهِ، بل يعفُو ويصفَحُ ويغفِر ويرحَمُ، ويُعَذِّب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويملأ النار من الكفّار وأصحاب المعاصي، ثم ينجّي أصحاب المعاصي ويُخَلِّد فيها الكافرين، وهو الحاكمُ الذي لا يجورُ ولا يظلِمُ، قال تعالى: ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تكُ حسنةً يضاعِفْها ويُؤتِ من لدنه أجراً عظيماً ﴾، وقال: ﴿ ونَضَعُ الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلَم نفسٌ شيئاً وإن كان مِثقالَ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسِبينَ ﴾. والآيات فيها كثيرة.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يزيدُ، أخبرنا هَمَّام بن يحيى، عن القاسم بن عبد الواحد المكي، عن عبد الله بن محمد بـن عَقِيل، أنه سَمِعَ جابر بن عبد الله يَقول: بلغني حديثٌ عن رَجُلٍ سَمِعه من رسول الله ـ ﷺ ـ فاشتريت بعيراً ثم شَدَدتُ عليه رحلي، فَسِرْت عليه شهراً، حتى قَدِمت عليه الشام، فإذا عبدُ الله بن أُنَيسٍ. فقلت للبواب: قل له: جابرٌ على الباب. فقال: ابنُ عبد الله؟ قلت: نعم. فخَرَجَ يَطأ ثوبه، فاعتَنقني واعتنقته، فقلت: حديثٌ بلَغَني عنك أنك سَمِعتَ من رسول الله ـ ﷺ ـ في القصاص، فَخَشِيتُ أن تموتَ أو أموتَ قبل أن أسمَعَه. فقال: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: يَحشُر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الناسَ يومَ القيامة، أو قال: العبادَ، عُراةً غُرْلاً[1] بُهماً ـ قلتُ: وما بُهماً؟ قال: ليس معهم شيء ـ ثم يناديهم بصوتٍ يسمَعُه من بعد، كما يسمَعُه من قَرُب: «أنا الملك، أنا الديَّان، لا ينبغي لأحدٍ من أهل النار أن يدخلَ النار وله عند أحدٍ من أهلِ الجنة حقٌّ، حتى أُقِصَّه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخلِ الجنة، وله عند أحدٍ من أهل النارحَقٌّ حَتّى أُقِصَّه[2] منه حتى اللَّطمةُ. قال قلنا: كيف، وإنما نأتي الله عُراةً غُرْلاً بُهماً؟ قال: بالحسَنَاتِ والسيِّئاتِ[3].

وعن شُعبَةَ، عن العَوَّام بن مُزَاحم، عن أبي عُثمانَ، عن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: إن الجَمَّاء[4] لتقتصُّ من القَرْناء يوم القيامة[5]. رواه عبد الله ابنُ الإمامِ أحمدَ. وله شواهدُ من وجوهٍ أُخَرَ، قد ذكرناها عند قوله: ﴿ ونَضَعُ الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظْلَم نفس شيئاً[6] ﴾ وعند قوله تعالى: ﴿ إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾[7].

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾

(١) الغُرْلَةُ: جلدة الصبيّ التي تقطع في الختان. ويقال: غَرِل الصبيّ: عظمتِ غَرْلته، وهو اغرلُ، والجمع: غُرْلٌ.
(٢) أي: أمكنه من أن يَقْتَصَّ منه.
(٣) مسند أحمد ٤٩٥/٣.
(٤) جَمّ الكبشُ والنعجة ونحوهما: لم يكن له قَرْنٌ وهو أجم، وهي جَمَّاء. وفي المثل: «عند النِّكاح يغلب الكبش الأجم». والقرناء: ذات القرن.
(٥) مسند أحمد ٧٢/١.
(٦) انظر فيما يأتي تفسير الآية ٤٧ من سورة الأنبياء.
(٧) انظر أيضاً فيما سبق تفسير الآية ٣٨ من سورة الأنعام.

يقولُ تعالى مُنَبِّها بني آدم على عَداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومُقَرِّعاً لمن اتَّبعه منهم وخالف خالقه ومولاه، الذي أنشأه وابتداه، وبألطاف رزقه غَذَاه، ثم بعد هذا كُلِّه والى إبليس وعادى الله، فقال تعالى: ﴿ وإذ قلنا للملائكة ﴾، أي: لجميعِ الملائكةِ، كما تقدم تقريره في أول سورة «البقرة».

﴿اسجدوا لآدم﴾، أي: سجودَ تشريفٍ وتكريمٍ وتعظيمٍ، كما قال تعالى: ﴿وإذ قال ربُّك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمإٍ مسنون * فإذا سوَّيته ونفختُ فيه من رُوحي فقعوا له ساجدين﴾.

وقولُه: ﴿ فَسَجدُوا إلا إبليسَ كان من الجنِّ ﴾، أي: خانه أصلُه، فإنه خلق من مارج من نارٍ، وأصلُ خَلْق الملائكة من نور، كما ثبت في صحيحِ مسلم، عن عائشة، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «خُـلِقَت الملائكة من نور، وخُلق إبليس من مارج من نار، وخُلِق آدم مما وُصِفَ لكم»[(١)]. فعند الحاجة نَضَح كُلُّ وعاءٍ بما فيه، وخانَه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه كان قد تَوَسَّم بأفعالِ الملائكة وتَشَبَّه بهم، وتَعَبَّد وتَنَسَّك، فلهذا دخلَ في خطابهم، وعَصَى بالمخالفة.

ونَبَّه تعالى هاهنا على أنه ﴿ من الجِنِّ ﴾، أي: إنه خُلِق من نار، كما قال: ﴿ أنا خيرٌ منه خَلَقتَنِي من نار وخَلَقتَه من طينٍ ﴾.

قال الحسنُ البصري: ما كان إبليسُ من الملائكةَ طَرْفَةَ عين قَطُّ، وإنه لأصلُ الجِنِّ، كما أن آدم ـ عليه السلام ـ أصل البشر. رواه ابنُ جرير بإسنادٍ صحيحٍ عنه[(٢)].

وقال الضحاك، عن ابن عباس: كان إبليسُ من حيٍّ من أحياء الملائكة، يقال لهم« الجِنُّ»[(٣)]، خلقوا من نار السَّمُوم من بين الملائكة، قال: وكان اسمُه الحارث، وكان خازِناً من خُزَّان الجنة. . . وخُلقت الملائكة من نور غَيْرَ هذا الحي، قال: وخُلِقت الجنُّ الذين ذُكِروا في القرآن من مارج من نار. وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت.

وقال الضحاك أيضاً، عن ابن عباس: كـان إبليسُ من أشرف الملائكةِ وأكرَمهم قبيلَة، وكان خازناً على الجنان، وكان له سلطان السماء الدنيا وسلطان الأرض، وكان مما سَوَّلت له نفسُه من قضاء الله أنه رأى أن له بذلك شَرَفاً على أهل السماء، فوقع من ذلك في قَلْبِهِ كبرٌ لا يعلَمُه إلا الله. فاستخرج الله ذلك الكِبْرَ منه حين أمره بالسُّجودِ لآدَمَ، ﴿ فاستكبر وكان من الكافرين ﴾، قال ابن عباس: وقوله: ﴿ كان من الجنِّ ﴾، أي: من خُزَّان الجنان، كما يُقال للرجل: مَكِّي، ومَدَنِي، وبَصْرِيّ، وكُوفي[(٢)]. وقال ابن جريج، عن ابن عباس، نحو ذلك.

وقال سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: هو من خُزَّانِ الجَنَّة، وكان يُدَبِّر أمر السماء الدنيا. رواه ابن جرير من حديث الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد، به[(٤)].

وقال سعيدُ بن المسيِّب: كان رئيسَ ملائكةِ سماءِ الدنيا.

---

(١) مسلم، كتاب الزهد ٤/٢٢٩٤.
(٢) تفسير الطبري ١٥/٢٦٠.
(٣) تقدم الأثر في سورة البقرة عند تفسير الآية ٣٤، ويرى الأستاذ محمود شاكر في نشرته لتفسير الطبري ١/٤٥٥، أن صواب الحن هنا بالحاء، معتمداً على ما ذكره الجاحظ في كتابه الحيوان.
(٤) تفسير الطبري ١٥/٢٥٩.

وقال ابن إسحاق، عن خلاد بن عطاء، عن طاوس، عن ابن عباس قال: كان إبليسُ قبل أن يركب المعصية من الملائكة، اسمُه عزازيل، وكان من سُكَّان الأرْضِ. وكان من أشدِّ الملائكةِ اجتهاداً وأكثرِهم علماً، فذلك دعاه إلى الكِبْر، وكان من حَيٍّ يسمون جِنّاً.

وقال ابن جُرَيج، عن صالح مولى التَّوْأمة وشريك بن أبي نَمر، أحدهما أو كلاهما عن ابن عباس قال: إن من الملائكة قبيلة من الجنّ، وكان إبليس منها، وكان يَسُوس ما بين السماء والأرض. فَعَصى، فَسَخِطَ الله عليه، فمسخه شيطاناً رجيماً ـ لعنه الله ـ مَمسُوخاً، قال: وإذا كانت خطيئةُ الرَّجلِ في كِبْرٍ فلا تَرْجُه، وإذا كانت في مَعْصيةٍ فارجُه.

وعن سعيد بن جُبَير أنه قال: كان من الجَنَّانين، الذين يعملون في الجنة[1].

وقد رُوي في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تُنقل لِيُنظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها. ومنها ما قد يُقطَع بكذبه لمخالفته الحقّ الذي بأيدينا، وفي القرآن غُنْيَةٌ عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة، لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين يَنْفُونَ عنها تَحريفَ الغالِين وانتحالَ المبطلين، كما لهذه الأمةِ من الأئمة العُلَماء، والسادةِ الأتقياءِ، البَرَرةِ النجباء، من الجهابذة النُّقَّاد، والحُفَّاظ الجيَّاد، الذين دَوَّنوا الحديثَ وحَرَّرُوه، وبَيَّنوا صَحيحه من حَسَنِه، من ضَعِيفِه، من مُنكَره وموضُوعه، ومَتْرُوكه ومَكذُوبه، وعَرَفوا الوضَّاعين والكَذَّابين والمجهولينَ، وغير ذلك من أصناف الرجال، كُلُّ ذلك صيانةٌ للجَناب النبويِّ والمقام المحمديِّ، خاتَمِ الرسل، وسيِّد البشر ـ عليه أفضلُ التحيّات والصلوات والتسليمات ـ أن يُنْسَب إليه كَذِبٌ، أو يُحدَّث عنه بما لَيس منه. فَرَضي الله عنهم وأرضَاهم، وجَعَل جناتِ الفِرْدَوسِ مأواهم، وقد فَعَل.

وقولُه: ﴿ ففسَقَ عن أمر ربه ﴾، أي: فَخَرَج عن طاعة الله، فإن الفسق هو الخُروج، تَقُول: «فَسَقت الرُّطبَة»: إذا خرجت من أكمامها «وفَسقت الفأرة من جُحْرها»: إذا خرجت منه للعَيْث والفساد.

ثم قال تعالى مُقرّعاً وموبِّخاً لمن اتبعه وأطاعَه: ﴿ أفتتخذونه وذُرِّيته أولياءَ من دوني ﴾، أي: بَدَلاً عنّي، ولهذا قال: ﴿ بئس للظالمين بدلاً ﴾.

وهذا المقامُ كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومَصير كلٍّ من الفريقين السُّعَداء والأشقياء في سورة يسٓ: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون * ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدُوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم * ولقد أَضلَّ منكم جِبِلّاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون﴾.

﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذتُموهم أولياء من دوني عَبيدٌ أمثالُكم، لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خَلْقِي للسموات والأرض، ولا كانوا إذْ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقلُّ بخلق الأشياء كُلِّها، ومُدَبِّرُها ومُقَدِّرها وَحْدي، ليس معي في ذلك شَريك ولا وَزير، ولا مُشِير ولا نَظِير، كما قال: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقالَ ذَرَّةٍ في السمواتِ ولا في الأرض وما لهم فيهما من شِرْكٍ وما له منهم من

---

(١) تفسير الطبري ١٥/٢٦١.

ظهير * ولا تنفعُ الشفاعةُ عنده إلا لمن أذن له﴾. . . الآية. ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾.
قال مالك: أعواناً(١).

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾

يقول تعالى مُخبراً عما يُخاطِبُ به المشركين يوم القيامة على رءوس الأشهاد، تقريعاً لهم وتوبيخاً: ﴿ نادوا شركائي الذين زعمتم ﴾ أي: في الدار الدنيا، ادعوهم اليوم، يُنقِذُونكم مما أنتم فيه، كما قال تعالى: ﴿ ولقد جئتمونا فُرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خَوَّلناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شُفَعاءكم الذين زَعَمتُم أنهم فيكم شركاء لقد تَقَطَّع بينكم وضلَّ عنكم ما كنتم تزعُمون ﴾.

وقولُه: ﴿ فَدَعَوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾، كما قال: ﴿ وقيل ادعوا شركاءكم فدعَوهم فلم يَسْتَجِيبوا لهم ورأَوُا العَذابَ لو أَنَّهم كانوا يهتدُون ﴾، وقال: ﴿ ومن أضلُّ ممن يدعُو من دون الله من لا يستجيبُ له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حُشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾. . . وقال تعالى: ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزّاً * كَلَّا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضِدّاً ﴾.

وقولُه: ﴿ وجعلنا بينهم مَوْبقا ﴾، قال ابن عباس، وقتادة، وغير واحد: مَهْلِكاً.

وقال قتادةُ: ذُكر لنا أنّ عَمْراً البِكالِيّ حدث عن عبد الله بن عَمرو قال: هو واد عميق، فُرِق به يومَ القيامة بين أهل الهُدَى وأهلِ الضَّلالةِ.

وقال قتادةُ: ﴿ مَوْبِقاً ﴾: وادياً في جهنم.

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سنان القزّاز، حدثنا عبد الصمد، حدثنا يزيدُ بن درْهَم، سمعتُ أنس بن مالك يقول في قول الله تعالى: ﴿ وجعلنا بينهم مَوْبِقاً ﴾، قال: واد في جهنم، من قَيْحٍ ودَمٍ(٢).

وقال الحسن البصريُّ: ﴿ مَوْبِقاً ﴾: عداوةً.

والظاهرُ من السياق هاهنا: أنه المَهْلِكُ، ويجوز أن يكون وادياً في جَهنَّم أو غيره، إلا أن الله تعالى أخبر أنه لا سبيلَ لهؤلاء المشركين، ولا وصولَ لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعُمون في الدنيا، وأنه يُفرِّق بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاصَ لواحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مَهْلِك وهَولٌ عظيم وأمرٌ كبيرٌ.

وأما إن جُعِل الضميرُ في قوله: ﴿ بينهم ﴾، عائِداً إلى المؤمنين والكافرين، كما قال عبدُ الله بن عَمرو: إنهُ يُفرِّق بين أهل الهدى والضلالة، فهو كقوله تعالى: ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾، وقال: ﴿ يومئذ يَصدَّعُون ﴾ وقال تعالى: ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾، وقال تعالى: ﴿ ويوم نحشُرهم جميعاً ثم نقولُ للذين أشركُوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون * فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين * هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾.

---

(١) أثر مالك ليس في نسخة الحرم. وهو في تفسير الطبري ١٥/٢٦٣ منسوباً إلى قتادة.
(٢) تفسير الطبري ١٥/٢٦٥

وقولُه: ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مُواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾، أي: إنَّهم لما عاينُوا جَهَنَّم حين جيء بها تُقادُ بسبعين ألف زِمَام، مع كلِّ زمام سبعونَ ألف مَلَكٍ، ﴿ فإذا رأى المجرمون النار ﴾، تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها، ليكونَ ذلك من باب تعجيل الهمِّ والحزن لهم، فإنَّ توقُّع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذابٌ ناجز.

﴿ ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾، أي: وليس لهم طريقٌ يعدِلُ بهم عنها، ولا بدَّلهم منها.

قال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابنُ وَهب، أخبرني عَمرو بن الحارث، عن دَرَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إن الكافِرَ لَيَرَى جهنم فيظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين[(١)] سنة».

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسنٌ، حدثنا ابن لَهِيعَة، حدثنا دَرَّاج، عن أبي الهَيْثَم، عن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يُنصَب للكافِرِ مقدارُ خمسين ألف سنة كما لم يعمل في الدنيا. وإن الكافر ليرى جهنم، ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة[(٢)]».

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾

يقول تعالى: ولقد بينَّا للناس في هذا القرآن، ووضَّحنا لهم الأمور وفَصَّلناها لِئَلَّا يَضِلُّوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهُدَى. ومع هذا البيان وهذا الفُرقان الإنسانُ كثيرُ المجادلة والمخاصَمَةِ والمعارضَةِ للحقِّ بالباطل، إلا من هَدَى الله وبَصَّره لطريق النجاة.

قال الإمام أحمد: حَدَّثنا أبو اليَمان، أخبرنا شُعَيب، عن الزُّهري، أخبرني عليُّ بن الحسن، أنَّ حُسَين ابن علي أخبره، أنَّ علي بن أبي طالب أخبرَه، أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ طَرَقَهُ[(٣)] وفاطمة بنتَ رسول الله ـ ﷺ ـ ليلة، فقال: ألَا تُصَلِّيان؟ فقلتُ: يا رسول الله، إنما أنفُسنا بيَدِ الله، فإذا شاءَ أن يبعثنا بَعثَنا. فانصرف حين قلت ذلك، ولم يَرْجِع إليّ شيئاً، ثم سمعته وهو مُولٍّ يضربُ فَخِذَه ويقول: ﴿ وكان الإنسان أكثَر شيءٍ جَدلا ﴾[(٤)]. أخرجاه في الصحيحين[(٤)].

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا ءَايَٰتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ ﴾

---

(١) في نسخة الحرم: «أربعمائة». وانظر تفسير الطبري ١٥/٢٦٥.

(٢) مسند أحمد ٣/٧٥. وفي نسخة مختصرة من تفسير ابن كثير بعده: «ورواه أبو يعلى والحاكم وصحَّحه، كلاهما عن أبي». أما حديث أبي يعلى ففي مسنده ٢/٥٢٤، ولفظه: «كما لم يعمل لله في الدنيا». وأما حديث الحاكم ففي المستدرك، كتاب الأهوال ٤/٥٩٧، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». ويقول الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٣٣٦: «رواه أحمد وأبو يعلى، وإسناده حسن على ما فيه من ضعف».

(٣) أي: أتاهما في الليل.

(٤) مسند أحمد ١/١١٢، وفتح الباري، تفسير سورة الكهف ٨/٤٠٨، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين ١/٥٣٧ ـ ٥٣٨.

يخبر تعالى عن تَمَرُّد الكفرة في قَدِيم الزمان وحَدِيثه، وتَكْذِيبهم بالحقِّ البيِّن الظاهر، مع ما يشاهدون من الآيات والآثارِ والدلالات الواضحات، وأنه ما منعهم من اتّباع ذلك إلا طَلبهم أن يشاهِدُوا العَذاب الذي وُعِدُوا به عِياناً، كما قال أولئك لنبيِّهم: ﴿ فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴾، وآخرون قالوا: ﴿ ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾. وقالت قريش: ﴿ اللهمَّ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليمٍ ﴾، ﴿ وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون * لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

ثم قال: ﴿ إلا أن تأتيهم سُنَّةُ الأولين ﴾، من غِشْيانهم بالعذاب، وأَخْذهم عن آخرهم، ﴿ أو يأتيهم العذابُ قُبُلاً ﴾، أي: يَرَونه عياناً مواجهةً ومقابلةً، ثم قال: ﴿ وما نُرْسِلُ المرسلين إلا مُبَشِّرين ومُنْذرين ﴾، أي: قبل العذاب مُبَشِّرين من صَدَّقهم وآمن بهم، ومُنْذِرين مَنْ كَذَّبهم وخالَفَهُم.

ثم أخبر عن الفكار بأنهم يجادلون بالباطل ﴿ لِيُدْحِضوا به ﴾ أي: لِيُضْعِفوا به ﴿ الحقَّ ﴾ الذي جاءتهم به الرسلُ، وليس ذلك بحاصل لهم. ﴿ واتَّخذوا آياتي وما أنذروا هُزُواً ﴾، أي: اتخذوا الحُجَجَ والبراهين وخَوارق العادات التي بُعِث الرسلُ وما أنذروهم وخَوَّفوهم به من العذاب ﴿ هُزُواً ﴾، أي: سَخِرُوا منهم في ذلك، وهو أشدُّ التكذيب.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَـٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾

يقول تعالى: وأيُّ عبادِ الله أظلمُ ممن ذُكِّر بآيات رَبِّه فأعرض عنها، أي: تناساها وأعرض عنها، ولم يُصْغِ لها، ولا ألقى إليها بالاً، ﴿ ونَسِي ما قَدَّمت يداه ﴾، أي: من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة، ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم ﴾، أي: قلوب هؤلاء ﴿ أكنة ﴾، أي: أغطيةً وغشاوةً، ﴿ أن يفقَهُوه ﴾، أي: لئلاَّ يفهَمُوا هذا القرآن والبيان، ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾، أي: صَمَمٌ معنوي عن الرشاد، ﴿ وإن تَدْعُهم إلى الهدى فَلَن يهتدُوا إذاً أبداً ﴾.

وقولُه: ﴿ وربُك الغفورُ ذو الرحمة ﴾، أي: ربُّك ـ يا محمد ـ غفورٌ ذو رحمةٍ واسعةٍ، ﴿ لو يُؤاخذُهم بما كَسَبوا لَعَجَّل لهم العذابَ ﴾، كما قال: ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ وقال: ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾. والآياتُ في هذا كثيرةٌ.

ثم أخبر أنه يَحلُم ويستُر ويَغْفِر، وربَّما هدى بَعضَهم من الغي إلى الرشاد، ومن استمرَّ منهم فله يومٌ يَشِيبُ فيه الوليد، وتَضَع كلُّ ذات حمل حملها. ولهذا قال: ﴿ بل لهم موعدٌ لن يجدوا من دونه مَوْئلا ﴾، أي: ليس لهم عنه مَحِيدٌ ولا مَحِيصٌ ولا مَعْدلٌ.

وقولُه: ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظَلَموا ﴾، أي: الأمم السالفةُ والقرون الخاليةُ أهلكناهم بسبب كُفرهم وعِنادهم، ﴿ وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴾، أي: جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معلومٍ معين، لا يزيد ولا

ينقص، أي: وكذلك أنتم أيها المشركون احذَرُوا أن يُصِيبَكُم ما أصابَهُم، فقد كَذَّبتم أشرفَ رسولٍ وأعظم نَبِيٍّ، ولستم بأعزَّ علينا منهم، فخافوا عذابي ونُذُرِ.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

سَبَبُ قول موسى ـ عليه السلام ـ لفتاه، وهو يُوشَعُ بن نُونٍ، هذا الكلامَ: أنه ذُكر له أنّ عبداً من عباد الله بمجمع البحرين، عنده من العلم ما لم يحظ به موسى، فأحبَّ الذَّهاب إليه، وقال لفتاه ذلك: ﴿ لا أبرَحُ حتى أبلُغَ مجمَعَ البحرين ﴾، أي: لا أزال[(١)] سائراً حتى أبلُغَ هذا المكانَ الذي فيه مجمَعُ البحرين، قال الفرزدق[(٢)]:

فَمَـا بَـرِحُـوا حَتَّى تَهَـادَتْ نِسَـاؤُهُمْ ... بِبَطْحَـاءِ ذي قَـارٍ، عِيَـابَ اللَّطَـائِمِ

قال قتادةُ وغيرُ واحد: وهما بحرُ فارس مما يلي المشرق، وبحرُ الروم مما يلي المغرب. وقال محمد بن كعب القُرَظي: مجمعُ البحرين عند طنجَةَ، يعني في أقصى بلاد المغرب، فالله أعلم.

وقولُه: ﴿ أو أمضِيَ حُقُباً ﴾، أي: ولو أني أسير حُقُباً من الزمان.

قال ابن جرير رحمه الله: ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحُقُب في لغة قيس سَنَةٌ[(٣)]. ثم رَوَى عن عبد الله بـن عمرو أنه قال: الحُقُب ثمانون سنة. وقال مجاهد: سَبْعُون خريفاً. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿ أو أمضيَ حُقُباً ﴾، قال: دهراً. وقال قتادة وابنُ زيد مثل ذلك.

---

(١) كذا فَسَّر ابنُ كثير ﴿لا أبرح﴾ بقوله: لا أزالُ سائراً، وجَعَلَ خَبَر أبرح محذوفاً. وذهب إلى هذا من قبله أبو إسحاق الزجاج، قال في معانيه ٢٩٨/٣: «معنى ﴿لا أبرح﴾ لا أزال. ولو كان لا (أزول) كان مُحالاً، لأنه إذا لم يَزُل من مكانه لم يقطع أرضاً. . .». ويشكل على هذا حذفُ الخبر، فمن النحاة من منع حذف خبر كان وأخواتها وإن دلّ الدليل على حذفه. ويبدو أن الزجاج كان من القائلين بجواز الحذف اعتماداً على قرينة الحال، واعتماداً على ما أعقبه من قوله تعالى: ﴿حتى أبلغ﴾. وكان الأزهري صاحب التهذيب قد ذهب إلى هذا أيضاً، ونقله عنه أبو عبيد الهروي في الغريبين ١/١٥٠. فأما الطبري، فقد فَسَّر (لا أبرح)، بقوله: لا أزول، واستشهد على ذلك ببيت الفرزدق، قال في تفسيره ٢٧١/١٥: «فما بَرِحُوا حتى تهادت نساؤهم. . .»، يقول: ما زالوا. وتأويل الطبري أقربُ إلى العربية لأنه يجعل «زال» تامة، فلا تحتاج إلى خبر، ولا يُرَدُّ عليه بما قاله الزجاج بأن معنى «لا أزول» أنه مقيم، والشأن أنه سائر، لأن المراد: أنا مقيم على ما أنه عليه من السير، فالإقامة هنا معنويَّة لا حسيَّة، وهذا ما ذكره الهروي راداً على الأزهري: «وقال غيره: لا أبرح، أي: لا أفارق سيري». فلك أن تجعل بَرِحَ تامة أو ناقصة؛ فإذا كانت تامة كان المعنى: لا أفارق سيري. وإذا كانت ناقصة كان المعنى: لا أزال سائراً.

(٢) هذا البيت ـ كما رأينا ـ استشهد به الطبري ٢٧١/١٥ على تمام بَرِح، وقد ذكره ابن كثير بعد تأويله لقوله تعالى: ﴿لا أبرح﴾ لا أزال سائراً، وهذا يعني نقصان برح. ولا أدري كيف كان هذا منه!!

البيت في ديوان الفرزدق ٢١٧/٢، ومعاني القرآن للأخفش ٣٩٨/٢ وذو قار: ماء لبني بكر قريب من الكوفة. وعياب جمع عيبة، وهي ما يجعل فيه الثياب وغيرها. واللطائم: جمع لطيمة، وهي المسك.

(٣) تفسير الطبري ٢٧٢/١٥.

وقوله: ﴿ فلما بَلَغا مجمَعَ بينهما نَسِيا حُوتَهُما ﴾، وذلك أنَّه كان قد أُمِر بحمل حُوتٍ مملُوحٍ معه، وقيل له: متى فقدت الحوت فهو ثَمَّة. فسارا حتى بلغا مجمع البحرين، وهناك عين يقال لها: عين الحياة، فناما هنالك، وأصابَ الحوتَ من رَشَاش ذلك الماء، فاضطرب، وكان في مِكْتَلٍ مع يُوشَع، وطَفَر من المِكْتَل إلى البحر، فاستيقظ يُوشَع ـ عليه السلام ـ وسقط الحوت في البحر وجعل يسير فيه، والماءُ له مثل الطاق[1] لا يلتئم بعده، ولهذا قال: ﴿ واتخذ سبيله في البحر سَرَباً ﴾، أي: مثل السَّرَب في الأرض.

قال ابن جُرَيج: قال ابن عباس: صار أثرُه كأنه حَجَر. وقال العوفي، عن ابن عباس، جعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يَبِس، حتى يكون كَصَخْرَة[2].

وقال محمد هو ابن إسحاق، عن الزُّهريِّ، عن عُبَيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، عن أُبَيِّ بن كَعْبٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ حين ذكر حديثَ ذلك: ما انجابَ[3] ماءٌ منذ كان الناسُ غيرُه، ثبت مكان الحوت الذي فيه، فانجاب كالكُوَّة حتى رجع إليه موسى فرأى مَسْلَكه، فقال: ﴿ ذلك ما كنا نَبْغِ ﴾.

وقال قتادة: سَرَبَ من البَرِّ حتى أفضى إلى البحر، ثم سَلَك فجعَلَ لا يسلُك فيه طريقاً إلا صار ماء جامداً.

وقوله: ﴿ فلما جاوَزَا ﴾، أي: المكانَ الذي نَسِيا الحوتَ فيه، ونُسب النسيان إليهما وإن كان يُوشَع هو الذي نَسِيه، كقوله تعالى: ﴿يَخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾، وإنما يخرج من المالح على أحد القولين.

فلما ذهبا عن المكان الذي نَسِياه فيه مَرْحَلَةً ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ لفتاه آتنا غَدَاءنا لقد لقينا من سفرنا هذا ﴾، أي: الذي جاوزا فيه المكان ﴿ نَصَبا ﴾، يعني تعباً. ﴿ قال أرأيت إذ أوينا إلى الصحرة فإني نَسيتُ الحوت وما أنسانيه إلا الشيطانُ أن أَذْكُرَه ﴾، قال قتادة: وقرأ ابن مسعود: «أن أذكركه»[4]. ولهذا قال: ﴿ واتَّخذ سبيله ﴾، أي: طريقه ﴿ في البحر عجباً. قال ذلك ما كنا نَبْغِ ﴾، أي: هذا الذي نطلب، ﴿ فارتدا ﴾، أي: رجعا ﴿ على آثارهما ﴾، أي: طريقهما ﴿ قَصَصاً ﴾، أي: يَقُصَّان أَثَر مشيهما، ويقفُوَان أثرهما.

﴿ فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمةً من عندنا وعَلَّمناه من لَدُنَّا علماً ﴾، وهذا هو الخَضِرُ عليه السلام، كما دلَّت عليه الأحاديث الصحيحة بذلك عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال البخاريّ.

حدثنا الحُمَيديُّ، حدثنا سفيان، حدثنا عَمْرو بن دينار، أخبرني سَعيد بن جُبَير قال: قلتُ لابن عباس: إن نَوفاً البِكَاليَّ[5] يزعُم أن موسى صاحبَ الخَضِر ليس هو موسى بني إسرائيلَ. قال ابنُ عباس: كَذَبَ عَدُوُّ الله! حدثنا أُبيّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ أنه سَمِع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: إنّ موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسُئِل: أيُّ الناس أعلمُ؟ فقال: أنا. فَعَتَبَ الله عليه إذ لم يَرُدَّ العِلْم إليه، فأوحى الله إليه: إنّ لي عبداً بمجمَع البحرين هو أعلَمُ منك. فقال موسى: يا ربِّ، وكيفَ لي به؟ قال: تأخذُ معك حُوتاً، تجعَلُه بِمِكتَلٍ،

(١) الطَّاقُ: ما عُطِف وجُعِل من الأبنية.
(٢) تفسير الطبري ١٥/٢٧٤.
(٣) أي: تجمع وتقبَّض. والأثر في تفسير الطبري ١٥/٢٧٣.
(٤) كذا في النسخ، والكشاف ٢/٣٩٦، وروح المعاني ١٥/٣١٨. ونسب إلى عبدالله في تفسير الطبري أنه قرأ: ﴿وما أنسانيه أن اذكره إلا الشيطان﴾.
(٥) قال ابن حجر في فتح الباري ٨/٤١٣ عن نوف: «اسم أبيه فَضَالةُ. وهو تابعي صدوق».

فحيثما فقدت الحوتَ فهو ثَمَّ. فأخذ حُوتاً، فجعله بمكْتَلٍ، ثم انطلق وانطلق معه بفَتاه يُوشَعَ بن نُونٍ عليهما السلام، حتى إذا أتيا الصخرة وَضَعا رءوسهما فَنَاما، واضطرب الحوتُ في المِكْتَل، فخرَجَ منه، فسقط في البحر، فاتَّخذ سبيله في البحر سَرَبا، وأمسَكَ الله عن الحوت جِرْيَةَ الماء، فصار عليه مثل الطاق. فلما استيقظ نَسِيَ صاحبُه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿ آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾. ولم يجد موسى النَّصَب حتى جاوَزَا المكان الذي أمره الله به. قال له فتاه: ﴿ أرأيتَ إذ أَوَينا إلى الصخرة فإني نسيتُ الحوت وما أنسانيه إلا الشيطانُ أن أذكُره واتَّخذ سبيله في البحر عجباً ﴾. قال: فكان للحوت سَرَباً ولموسى ولفتاه عَجَباً، فقال: ﴿ ذلك ما كنا نَبْغِ فارتدَّا على آثارهما قصصاً ﴾ ـ قال: فرجعا يَقُصّان أثرهما، حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رَجُلٌ مُسَجىً بثوب، فسلَّم عليه موسى، فقال الخَضِرُ: وَأَنَّى بأرضك السلام! قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتُعلِّمني مما عُلِّمت رشدا. ﴿ قال إنك لن تستطيعَ معي صبراً ﴾، يا موسى، إني على علم من عِلْم الله عَلَّمَنِيه، لا تعلَمُه أنت، وأنت على علم من عِلْم الله عَلَّمَكَه الله لا أعلَمُه. فقال موسى: ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ﴾. قال له الخَضِرُ: ﴿ إن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحدِثَ لك منه ذِكْراً ﴾.

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فَمرَّت سفينة فَكلَّموهم أن يحمِلُوهم فَعَرفوا الخَضِرَ، فَحملوهم بغير نَول، فلما ركبا في السفينة لم يَفْجَأْ إلا والخَضِرُ قد قَلَع لوحاً من ألواح السفينة بالقَدُوم، فقال له موسى: قد حَملونا بغير نَولٍ، عَمَدْتَ إلى سفينتهم فَخرقتها، لِتُغرِق أهلها؟! لقد جئت شيئاً إمراً. ﴿ قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا * قال لا تُؤاخِذْني بما نسيت ولا تُرهقني من أمري عسراً ﴾ قال: وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «وكانت الأولى من موسى نسياناً». قال: وجاء عصفور فوقَع على حَرْفِ السفينة، فنقر في البحر نَقْرةً[1]، فقال له الخَضِرُ: ما عِلْمي وعِلمُك في علم الله إلاَّ مثل ما نقصَ هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصَر الخَضِرُ غلاماً يلعَب مع الغلمان، فأخذ الخَضِرُ رأسه بيده، فاقتلعه بيده فَقَتله، فقال له موسى: ﴿ أقتلتَ نفساً زَكيَّة بغير نفس لقد جِئْتَ شيئاً نُكْراً * قال ألم أَقُلْ لك إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾. قال: وهذه أشدُّ من الأولى. ﴿ قال إن سألتُكَ عن شيء بَعْدَها فلا تُصاحِبْني قد بلغت من لدني عُذْراً. فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قريةٍ استطعَمَا أهلَها فَأَبوا أن يُضَيِّفُوهما فوجَدَا فيها جِدَاراً يريد أن ينقضَّ ﴾، قال: مائل، فقال الخَضِرُ بيده[2] ﴿ فأقامه ﴾، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾. قال: هذا فِرَاقُ بيني وبينك سَأُنَبِّئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «وَدِدْنا أَنَّ موسى كان صَبَر حتى يَقُصَّ الله علينا من خبرهما».

قال سعيد بن جُبَير: كان ابن عباس يقرأ: «وكان أمامهم مَلِكٌ يأخُذ كلَّ سفينةٍ صالحةٍ غَصْباً»، وكان يقرأ: «وأما الغلامُ فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين»[3].

ثم رواه البخاريُّ عن قُتَيبة، عن سفيان بن عُيَينة، فذكر نحوه، وفيه: «فخرج موسى ومعه فتاهيُوشَعُ بن نُون، ومعهما الحوتُ حتى انتهيا إلى الصخرة، فنزلا عندها، قال: فوضع موسى رأسه فنام، قال سفيان: وفي حديث غير عمرو قال: وفي أصل الصَّخرة عَين يقال لها «الحياة»، لا يصيب من مائها شيءٌ إلا حَيِيَ، فأصاب

(١) بعده في نسخة الحرم: «أو نقرتين».
(٢) أي: أقامه بيده.
(٣) فتح الباري، كتاب التفسير ٨/٤٠٩ ـ ٤١٠.

الحوت من ماء تلك العين، قال: فتحرك وانسلَّ من المِكْتَل، فدخل البحر، فلما استيقظ قال موسى لفتاه: ﴿ آتنا غداءنا ﴾. كذا قال، وساقَ الحديث: «ووقع عصفورٌ على حرف السفينة، فغمسَ منقارَه في البحر، فقال الخضر لموسى: ما علمي وعلمك وعِلْمُ الخلائق في عِلْم الله إلا مقدارُ ما غمس هذا العصفورُ منقاره». وذكر تمامه بنحوه[(١)].

وقال البخاريُّ أيضاً: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هِشَام بن يوسف، أن ابن جُرَيج أخبرهم قال: أَخْبرَني يَعلى بن مسلم وعَمرو بن دينار، عن سَعِيد بن جُبَير ـ يزيد أحدُهما على صاحبه ـ وغيرُهما قد سمعته يُحدِّث عن سعيد بن جبير قال: إنَّا لعند ابن عباس في بيته، إذ قال: سَلُوني. فقلت: أَيْ أبا عبَّاس[(٢)]. جعلني الله فداك، بالكوفة رجل قاصٌّ، يقال له «نَوْفٌ»، يَزعُم أنه ليس بموسى بني إسرائيل ـ أما عمرو فقال لي: قال: كَذَب عَدو الله! وأما يَعْلَى فقال لي: قال ابن عباس: حَدَّثني أبيّ بن كعب قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: موسى رسولُ الله، ذكَر الناسَ يوماً، حتى إذا فاضتِ العيونُ ورقَّت القلوبُ وَلَّى، فأدركه رجل فقال: أيْ رسولَ الله، هل في الأرض[(٣)] أحد أعلمُ منك؟ قال: لا. فعتبَ الله عليه إذ لم يَرُدَّ العلم إلى الله، قيل: بلى. قال: أيْ ربِّ، وأينَ؟ قال: بمجمَع البحرين. قال: أيْ رب، اجعل لي عَلَماً أعلم ذلك به. قال لي عَمْرو: قال: حيث يُفارقك الحوت. وقال لي يعلى: خُذْ حوتاً ميتاً حيث يُنفَخ فيه الروح. فأخذ حُوتاً فجعله في مِكْتَل، فقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت، قال: ما كَلَّفْتَ كبيراً. فذلك قولُه: ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لفتاه ﴾ يُوشَع بن نُونٍ، ليست عن سعيد بنُ جُبَير[(٤)] ـ قال: فبينا هو في ظل صخرة في مكان ثَرْيَانَ[(٥)] إذ تَضَرَّب الحوت وموسى نائم، فقال فتاة: لا أوقِظُه، حتى استيقظ نَسِي أن يخبره، وتَضَرَّبَ الحوتُ حتى دخل البحر، فأمسك الله عنه جِرْيَةَ الماء حتى كأن أَثَرَهُ في حَجَرٍ، قال: فقال[(٦)] لي عمرو: هكذا كان أثرُهُ في حَجَرٍ، وحَلَّق بين إبهاميه واللتين تَليانهما[(٧)] ـ ﴿لقدلقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾، قال: «وقد قَطَع الله عنك النَّصَبَ» ليست هذه عن سعيد ـ أخبره فرجعا فوجدا خَضِرا. قال: قال لي عثمان بن أبي سليمان: على طِنْفِسَةٍ خضراء على كبد[(٨)] البحر. قال سعيد بن جُبَير: مُسَجّىً بثوب، قد جعل طرفه تحت رجليه، وطرفه تحت رأسه، فسلَّم عليه موسى، فكشف عن وجهه وقال: هل بأرضٍ من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم: قال: فما شأنك؟ قال: جئتُكَ لِتُعلِّمني مما عُلِّمت رشداً. قال: أما يكفيك أن التوراة بيدك، وأن الوحي يأتيك! يا موسى، إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلَمه، وإن لَكَ علماً لا ينبغي لي أن أعلَمه. فأخذ طائر بمنقاره من البحر فقال: والله ما علْمي وعلمك في جَنْبِ علم الله إلا كما أَخَذ هذا الطائر بمنقاره من البحر، حتى إذا ركبا في السفينة وجدا[(٩)] مَعابِرَ صغاراً تحمل أهل هذا الساحل الآخر ـ عرفوه

---

(١) فتح الباري، كتاب التفسير ٤٢٣/٨ ـ ٤٢٤.

(٢) هي كنية عبدالله بن عباس.

(٣) في نسخة الحرم: هل في الناس.

(٤) قال ابن حجر في الفتح ٤١٤/٨: «القائل (ليست عند سعيد) هو ابن جُرَيج، ومراده أن تسمية الفتى ليست عنده في رواية سعيد. ويحتمل أن يكون الذي نفاه صورة السياق لا التسمية، فإنها وقعت في رواية سفيان عن عَمْرو بن دينار عن سعيد بن جُبَير، ولفظه «ثم انطلق وانطلق معه فقال يوشع بن نون».

(٥) أي: مبلول. وتَضَرَّب: اضطرب وتحرّك.

(٦) القائل هو ابن جُرَيج.

(٧) في نسخة الحرم: «واللتين تليهما». والمثبت رواية الكُشْمِيْهَنِي كما في فتح الباري ٤١٦/٨.

(٨) أي: وسطه.

(٩) «وجدا معابر» تفسير لقوله: (ركبا في السفينة).

فقالوا: عبد الله الصالح؟ ـ قال: فقلنا لسعيد: خَضِرٌ؟ قال نعم: ـ لا تحمِلُه بأجر. فَخرقها، وَوَتَد فيها وَتَداً. قال موسى: ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً ﴾ ـ قال مجاهد: منكراً ـ قال: ﴿ ألم أقل إنك لن تستطيع مَعِي صبراً ﴾، كانت الأولى نسياناً، والوسطى شَرْطاً، والثالثة عَمْداً. ﴿ قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عُسْراً ﴾، لقيا غلاماً فَقتله ـ قال يعلى: قال سعيد، وجد غلماناً يلعبون، فأخذ غلاماً كافراً ظَريفاً فأضجَعه، ثم ذبحه بالسكين، قال: ﴿ أقتلت نفساً زكية ﴾: لم تَعْمَل الحِنْث، وابن عباس قرأها ﴿ زكِيَّة ﴾ ـ ﴿ زَاكيَة ﴾: مُسْلِمَة[١] كقولك: غلاماً زكياً ـ فانطلقا، فوجدا جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال[٢] بيده، هكذا ورفع بيده فاستقام ـ قال يَعْلَى: حَسِبتُ أَنَّ سعيداً قال: فَمسحه بيده فاستقام، قال: ﴿ لو شِئْتَ لاتَّخذت عليه أجراً ﴾، قال سعيد: أجراً نأكله. ﴿ وكان وراءهم ملك ﴾: وكان أمامهم، قرأها ابن عباس: ﴿ أمامهم ملك ﴾، يزعمون عن غير سعيد أنه هُدَدُ بن بُدَدَ، والغلام المقتول اسمه ـ يزعمون ـ جَيسُور ﴿ مَلِكٌ يأخذ سفينة غصباً ﴾، فأردتُ إذا هي مرت به أن يَدَعها بعينها، فإذا جاوزوا أصلحوا فانتفعوا بها. ومنهم من يقول: سَدُّوها بقارورة، ومنهم من يقول: بالقار. ﴿ كان أبواه مؤمنين ﴾، وكان كافراً، ﴿ فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً ﴾، أن يحملهما حُبُّه على أن يتابعاه على دينه ﴿ فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة ﴾ لقوله: ﴿ أقتلت نفساً زَكِيَّة ﴾. ﴿ وأقربَ رُحماً ﴾: هما به أرحمُ منهما بالأول الذي قتل خَضِرٌ. وزَعَم غيرُ سعيد بن جُبَير أنهما أُبدِلا جارية. وأما داود بن أبي عاصم فقال عن غير واحد: إنها جارية[٣].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمَرٌ، عن أبي إسحاقَ، عن سَعِيد بنِ جُبَير، عن ابن عباس قال: خَطبَ موسى ـ عليه السلام ـ بني إسرائيل فقال: ما أحدٌ أعلمُ بالله وبأمره مني. فَأُمِرَ أن يلقى هذا الرجلَ. فذكر نحو ما تقدّم بزيادة ونقصان[٤].

وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن بن عُمَارة، عن الحكم بن عُتَيبة، عن سعيد بن جُبَير قال: جلستُ عند ابن عباس، وعنده نَفَرٌ من أهل الكتاب، فقال بعضُهم: يا أبا العباس، إن نوفاً ابن امرأة كعب يَزْعُم عن كعب، أن موسى النبي الذي طَلَب العالمَ إنما هو موسى بن ميشا؟ قال سعيد: فقال ابنُ عباس: أنوفٌ يقولُ هذا؟ قال سعيد: فقلت له: نعم، أنا سَمِعتُ نوفاً يقولُ ذلك. قال: أنتَ سمعته يا سعيد؟ قال قلت: نعم. قال: كَذَبَ نوفٌ. ثم قال ابن عباس: حدثني أُبيّ بن كعب، عن رسول الله ـ ﷺ ـ: أن موسى بني إسرائيل سأل ربه فقال: أَيْ ربِّ، إن كان في عبادك أحد هو أعلم مني، فَدُلَّني عليه. فقال له: نعم، في عبادي من هو أعلمُ منك. ثم نَعَت له مَكَانَه وأَذِن له في لُقِيِّه. فخرج موسى ومعه فتاه، ومعه حوتٌ مَلِيحٌ، قد قيل له إنه إذا حَيِيَ هذا الحوت في مكان فَصَاحِبُك هنالك، وقد أدركتَ حاجَتَكَ. فخرج موسى ومعه فتاه، ومعه ذلك الحوتُ يحملانه، فسار حتى جَهَدَه السيرُ، وانتهى إلى الصخرة وإلى ذلك الماء ماء الحياة، من شَرب منه خَلَدَ، ولا يقاربه شيء مَيِّتٌ إلا حَيِيَ. فلما نَزَلا ومسَّ الحوتَ الماءُ حَيِي ﴿ فاتخذ سبيله في البحر سرباً ﴾.

---

(١) قال ابن حجر في الفتح ٨/ ٤١٩: «قوله: «زاكية مسلمة كقولك غلاماً زاكياً»، هو تفسير من الراوي، ويشير إلى القراءتين، أي: إن قراءة ابن عباس بصيغة المبالغة والقراءة الأخرى باسم الفاعل بمعنى مسلمة. لكن اختلف في ضبط «مُسلمَة» فالأكثر بسكون السين وكسر اللام، ولبعضهم بفتح السين وتشديد اللام المفتوحة».

(٢) لفظ الصحيح: «قال سعيد بيده هكذا». ويذكر ابن حجر في الفتح ٨/ ٤٢٠ أن هذا من رواية ابن جريج، عن عمرو بن دينار عن سعيد. وفي رواية سفيان: «فوجدا جداراً يريد أن ينقض ـ قال مائل ـ فقال الخضر بيده فأقامه». ومعنى قال بيده: أقامه بيده.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة الكهف ٨/ ٤١١ ـ ٤١٢.

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٢٧٨.

فانطلقا فلمَّا جاوزا بمَنْقَلَةٍ(١) قال موسى لفتاه: ﴿ آتنا غَدَاءنا لقد لَقِينا من سَفَرنا هذا نَصَباً﴾ قال الفتى، وذَكَرَ: ﴿ أرأيتَ إذ أوينا إلى الصَّخرةِ فإني نَسِيت الحوتَ وما أنسانيه إلا الشيطانُ أن أذكُرَه واتَّخذ سَبيله في البحر عجباً﴾، قال ابن عباس: فظهر موسى على الصخرة حتى انتهيا إليها، فإذا رجلٌ مُتلفِّف في كساء له، فسلم موسى عليه، فرد عليه العالم، ثم قال له: ما جاء بك إن كان لك في قومك لَشُغُلاً؟! قال له موسى: جئتُك لِتُعلِّمني مما عُلِّمت رُشْداً. ﴿ قال إنك لن تَستَطيعَ معي صبراً ﴾ ـ وكان رجلاً يعلَمُ عِلْمَ الغيب، قد عُلِّم ذلك ـ فقال موسى: بلى. قال: ﴿ وكيف تَصْبرُ على ما لم تُحِطْ به خُبْراً ﴾؟ أي: إنما تعرف ظاهر ما تَرى من العدل، ولم تُحِطْ من علم الغيب بما أعلم. ﴿ قال سَتَجِدُني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ﴾، وإن رأيتَ ما يخالفني، قال: ﴿ فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء ﴾ ـ وإن أنكرته ـ ﴿ حتى أُحدِثَ لك منه ذِكْراً ﴾.

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر يتعرَّضان الناس، يَلْتَمِسان مَنْ يحملهما، حتى مَرَّت بهما سفينة جديدة وَثيقة، لم يمرَّ بهما من السفن شيء أحسن ولا أجمل ولا أَوْثَق منها. فسألا أهلَها أن يحملوهما، فَحَمَلُوهما، فلما اطمأنا فيها وَلَجَجَتْ(٢) بهما مع أهلها، أخرج مِنْقاراً له ومِطْرَقَةً، ثم عَمَد إلى ناحيةٍ منها فضَرَب فيها بالمِنْقار حتى خرقها. ثم أخذ لوحاً فطبّقه عليها، ثم جلس عليها يَرْقَعُها. فقال له موسى، وَرَأى أمراً فَظِعَ(٣) به: ﴿ أَخَرقتَها لِتُغرِقَ أهلَها لقد جِئْتَ شيئاً إمراً * قال ألم أَقُل إنَّك لن تستطيعَ معي صبراً * قال لا تُؤاخِذْني بما نَسِيتُ﴾، أي: مما تَرَكْتُ من عَهْدِك، ﴿ ولا تُرْهِقْني من أمري عسراً ﴾. ثم خرجا من السفينة فانطلقا، حتى إذا أَتَيَا أهل قرية فإذا غلمانٌ يلعَبُون خَلْفَها، فيهم غلام ليس في الغلمان غلامٌ أظرفُ منه ولا أَثْرأ(٤) ولا أوضأ منه، فأخذه بيده، وأخذ حجراً، قال: فضرب به رأسه حتى دمَغَه(٥) فقتله، قال: فرأى موسى أمراً فَظيعاً لا صَبْرَ عليه، صَبيٌّ صغير قتله لا ذَنْبَ له، قال: ﴿ أقتلت نفسا زكيَّةً ﴾، أي: صَغيرةً ﴿بغير نفس لقد جِئْتَ شيئاً نُكْراً * قال ألم أَقُل لك إنك لن تستطيع معي صبراً * قال إن سألتُكَ عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بَلَغْتَ من لَدُنّي عُذْراً ﴾، أي: قد أَعْذَرتَ في شأني، ﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يُضَيِّفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضَّ ﴾، فَهَدَمه ثم قَعَد يبنيه، فَضَجر موسى مما يراه يصنع من التكليف، وما [ليس له] عليه صبر، فقال: ﴿ لو شئتَ لاتَّخذت عليه أجراً ﴾، أي: قد استطعمناهم فلم يُطعِمُونا، وضِفْنَاهم فلم يُضَيِّفُونا، ثم قعدت تعمل من غير صَنِيعة، ولو شئت لأعطيتَ عليه أجراً في عمله. قال: ﴿ هذا فِراقُ بيني وبينك سَأُنبِّئُكَ بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا * أما السفينةُ فكانت لمساكينَ يعمَلُون في البحر فأردتُ أن أَعيبها وكان وراءَهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ﴾ ـ وفي قراءة أُبيِّ بن كعب: «كُلَّ سفينة صالحة» ـ وإنما عِبْتُهَا لأَرُدَّه عنها، فَسَلِمَت منه حين رأى العيب الذي صَنَعتُ بها. ﴿وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فَخَشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً * فأردنا أن يُبْدِلَهما رَبُّهما خيراً منه زكاة وأقرب رُحْماً * وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ﴾، أي: ما فعلتُه عن نَفْسي، ﴿ ذلك تأويل ما لم تَسْطِع عليه صبرا ﴾. وكان ابن عباس يقول: ما كان الكنزُ إلا علماً(٦).

---

(١) المنقلة: المرحلة من السفر، وهي المسافة يقطعها السائر في نحو يوم. وفي تفسير الطبري: مُنْقَلَبه. ولا معنى له.

(٢) لَجَجَت السفينة: خاضت بهم اللجّة، وهي وسط البحر.

(٣) أي: استعظمه وهاله.

(٤) في تفسير الطبري: ولا أثرى.

(٥) دَمَغه دَمْغاً: شجه. حتى بلغت الشجّة دماغه، وهو حشْوُ الرأس من أعصاب ونحوها، وفيه المخ والمخيخ والنخاع المستطيل. ودمَغه أيضاً: أخرج دِماغه، فهو وهي دَمِيغ.

(٦) تفسير الطبري ١٥/٢٧٩ ـ ٢٨٠.

وقال العوفيُّ، عن ابن عباس قال: لما ظهر موسى وقومه على مصر أنزل قومه مصر، فلما استقرت بهم الدار أنزل اللهُ: أن ذَكِّرهم بأيام الله. فخطب قومه، فَذَكَر ما آتاهم الله من الخير والنعمة، وذَكَّرهم إذْ أنجاهم الله من آل فرعون، وذَكَّرهم هلاكَ عَدُوِّهم، وما استخلفهم الله في الأرض، وقال: كلم الله نبيَّكم تكليماً، واصطفاني لنفسه، وأنزل عليَّ محبة منه، وآتاكم الله من كُلِّ ما سألتموه، فنبيُّكم أفضلُ أهل الأرض، وأنتم تقرؤون التوراة، فلم يترك نعمةً أنعمها عليهم [إلا ذكرها] وعَرَّفهم إيَّاها. فقال له رجل من بني إسرائيل: هُنَّ(١) كذلك يا نبي الله، قد عرفنا الذي تقول، فهل على الأرض أحدٌ أعلمُ منك يا نبيَّ الله؟ قال: لا. فبعث الله جبريل ـ عليه السلام ـ إلى موسى ـ عليه السلام ـ فقال: إن الله يقول: وما يُدريك أين أضعُ علمي؟ بلى، إن على شَطِّ البحر رجلاً أعلم منك ـ قال ابن عباس: هو الخَضْرُ ـ فسأل موسى ربه أن يُريَه إياه، فأوحى إليه: أن ائتِ البحر، فإنَّك تجد على شطِّ البحر حُوتاً، فَخُذه فادفعه إلى فتاك، ثم الزم شَطَّ البحر، فإذا نَسِيتَ الحوت وهَلَك منك فثَمَّ تجدُ العبدَ الصالح الذي تطلب. فلما طال سَفَرُ موسى نبيِّ الله ونَصِب فيه سأل فتاه عن الحوت، فقال له فتاه وهو غلامه: ﴿ أرأيتَ إذ أوينا إلى الصَّخْرَةِ فإني نَسِيتُ الحوتَ وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكرَه ﴾ لك، قال الفتى: لقد رأيتُ الحوتَ حين اتخذ سبيله في البحر سَرَباً فَأعجَبهُ ذلك(٢). فرجَع حتى أتى الصخرةَ فوجَد الحوتَ، فجعل الحوتُ يضربُ في البحر وَيتْبَعهُ موسى، وجعل موسى يُقَدِّم عصاه يَفْرُج بها عنه الماء يتبع الحوت، وجعل الحوتُ لا يَمَسُّ شيئاً من البحر إلا يَبِس، حتى يكون صخرة، فجعل نبيَّ الله يعجب من ذلك، حتى انتهى به الحوت إلى جزيرة من جزائر البحر، فلقي الخَضِرَ بها فَسَلَّم عليه، فقال الخَضِر: وعليك السلام. وأنَّى يكون هذا السلامُ بهذه الأرض؟ ومن أنت؟ قال: أنا موسى. فقال الخَضِر: أصاحب بني إسرائيل؟ قال: نعم. فرحب به وقال: ما جاء بك؟ قال: جئتك ﴿ على أن تُعَلِّمنِ مما عُلِّمت رُشداً ﴾ قال إنك لن تستطيع معي صَبْراً ﴾، يقول: لا تُطِيقُ ذلك. قال موسى: ﴿ستَجِدُني إن شاء الله صابراً ولا أعصِي لك أمراً ﴾. قال: فانطلَق به، وقال له: لا تسألْني عن شيءٍ أصنعُه حتى أُبيِّن لكِ شأنَه، فذلك قولُه: ﴿ حتى أُحدِثَ لك منه ذكراً ﴾(٣).

وقال الزهريُّ، عن عُبَيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود، عن ابن عباس: أنه تَمارى هو والحُرُّ بن قيس ابن حصْن الفَزَاري في صاحِب مُوسَى، فقال ابنُ عباس: هو خَضِر. فَمَرَّ بهما أُبيُّ بن كعب، فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريتُ أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيلَ إلى لُقِيِّه، فهل سمعتَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يذكر شأنه؟ قال: إني سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «بينا موسى ـ عليه السلام ـ في مَلأٍ من بني إسرائيل، إذ جاءه رجلٌ فقال: تَعلمُ مكانَ رجل أعلَم منك؟ قال: لا. فأوحى الله إلى موسى: بلى، عبدُنا خَضِرٌ. فسأل موسى السبيلَ إلى لُقيِّه، فجعل الله له الحوتَ آيةً، وقيل له: إذا فَقَدتَ الحوت فهو ثَمَّة، فارجعْ فإنك ستلقاه. فكان موسى يَتْبَع أثرَ الحُوتِ في البحر. فقال فتى موسى لموسى: ﴿ أرأيتَ إذْ أَوينا إلى الصخرة فإني نَسِيتُ الحوتَ ﴾. قال موسى: ﴿ ذلك ما كنا نَبْغِ فارتدَّا على آثارهما قصصاً﴾. فَوَجَدا عبدَنا خَضِراً، فكان من شأنهما ما قصَّ الله في كتابه(٤).

---

(١) في تفسير الطبري: هم كذلك.

(٢) كذا في نسخة وفي أخرى: فأعجب ذلك. وفي تفسير الطبري: فأعجب ذلك موسى.

(٣) تفسير الطبري ١٥/٢٨١.

(٤) تفسير الطبري ١٥/٢٨٢.

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن قيل موسى ـ عليه السلام ـ لذلك الرجل العالم، وهو الخَضِرُ، الذي خَصّه الله بعلم لم يُطْلع عليه موسى، كما أنه أُعطِي موسى من العلم ما لم يُعطَه الخَضِرُ، ﴿ قال له موسى هل أَتَّبعك ﴾، سؤال بتلطفٍ لا على وجه الإلزام والإجبار. وهكذا ينبغي أن يكونَ سؤالُ المتعلم من العالم. وقوله: ﴿ أَتَّبِعُك ﴾، أي: أصحبك وأُرَافِقك، ﴿ على أن تُعَلِّمني مما عُلِّمتَ رشداً ﴾، أي: مما عَلَّمَك الله شيئاً أسترشد به في أمري، من علم نافع وعَمَل صالح. فعندها ﴿ قال الخضر لموسى: ﴿ إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾، أي: أنت لا تَقْدِر تصاحِبُني، لما ترى من الأفعال التي تخالف شريعتك، لأني على علم من علم الله ما علمكه الله، وأنت على عِلْم من عِلْم الله ما عَلَّمَنِيه الله، فكل منا مُكَلَّف بأمورٍ من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدِرُ على صحبتي. ﴿ وكيف تَصْبِرُ على ما لَم تُحِطْ به خبراً ﴾، فأنا أعرف أنك ستنكر عَلَيّ ما أنتَ معذورٌ فيه، ولكنْ ما اطَّلعْتَ على حكمته ومصلحته الباطنة التي اطلعتُ أنا عليها دونك ﴿ قال ﴾ موسى: ﴿ سَتَجِدُني إن شاء الله صابراً ﴾، أي: على ما أرى من أُمُورك، ﴿ ولا أعصِي لك أمْراً ﴾، أي: ولا أخالِفُك في شيء. فعند ذلك شارطَهَ الخَضِرُ ﴿ قال فإن اتَّبعتني فلا تسألني عن شيء ﴾ ابتداءً ﴿ حتى أُحدِث لك منه ذكراً ﴾، أي: حتى أبدأَكَ أنا به قبل أن تسألني.

قال ابنُ جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوبُ، عن هارونَ بن عَنْتَرَةَ، عن أبيه عن ابن عباس قال: سأل موسى رَبَّه ـ عَزَّ وجلَّ ـ فقال: أيْ رَبِّ، أيُّ عبادك أحبُّ إليك؟ قال: الذي يذكُرني ولا ينسَاني. قال: فأيُّ عبادِك أقضَى؟ قال: الذي يقضِي بالحقِّ ولا يَتَّبع الهَوَى. قال: أيْ ربِّ، أيُّ عبادك أعلَمُ؟ قال: الذي يبتغي عِلْمَ الناس إلى علمِهِ، عسى أن يُصيب كلمة تَهْديه إلى هُدىً أو تَرُدَّه عن ردي. قال: أيْ رَبِّ، فهل في الأرض أعلمُ منِّي؟ قال: نعم. قال: فمن هُوَ؟ قال: الخَضِرُ. قال: فأين أطلبُه؟ قال: على السَّاحِل عند الصخرة التي ينفلت عندها الحوت. قال: فخرجَ موسى يطلبه حتى كان ما ذكر الله، وانتهى موسى إليه عند الصَّخرة، فسلَّم كلُّ واحد منهما على صاحبه. فقال له موسى: إني أريدُ أن تصحَبَني. قال: إنَّك لن تُطِيق صُحبتي. قال: بلى. قال: فإن صَحِبتَني ﴿ فلا تسألني عن شيء حتى أُحدِث لك منه ذكراً ﴾، قال: فسار به إلى البحر حتى انتهى إلى مجمع البحور[1]، وليس في الأرض مكان أكثرُ ماءً منه. قال: وبعَثَ الله الخُطَّاف[2] فجعل يستقي منه بمنقاره، فقال لموسى: كم ترى هذا الخطاف رَزَأ من هذا الماء؟ قال: ما أَقَلَّ ما رَزَأ! قال: يا موسى، فإنَّ عِلْمي وعِلْمَكَ في عِلْم الله كَقَدْر ما استقى هذا الخُطَّاف من هذا الماء. وكان موسى قد حَدَّث نفسه أن ليس أحدٌ أعلَمَ منه، أو تكلم به، فمن ثَمَّ أُمِر أن يأتِي الخَضر[3]. وذكر تمام الحديث في خَرْق السفينة وقَتْلِ الغُلام، وإِصْلاح الجِدَارِ، وتَفْسِيرَه له ذلك.

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ

---

(١) في نسخة الحرم: البحرين.
(٢) الخطاف: العُصفور الأسود، وهو الذي تدعوه العامة: عُصفور الجنة.
(٣) تفسير الطبري ١٥/٢٧٧.

﴿لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن موسى وصاحِبه، وهو الخَضِرُ، أنهما انطلقا واصطحبا، واشترط عليه ألاّ يسألَه عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدىء به من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه، فركبا في السفينة. وقد تقدَّم في الحديث كيف ركبا في السفينة، وأنهم عَرَفوا الخَضِر، فحملوهما بغير نَول ـ يعني بغير أجرة ـ تكرمةً للخضر. فلما استقلت بهم السفينة في البحر، ولَجَجت، أي: دخلت اللُّجَة، قام الخَضِرُ فَخَرقها، واستخرج لوحاً من ألواحها، ثم رَقَعها، فلم يملك موسى ـ عليه السلام ـ نفسه أن قال منكراً عليه: ﴿أخرقْتَها لِتُغرقَ أهلها﴾. وهذه اللام لامُ العاقبة لا لام التعليل، كما قال الشاعر(١):

لِـدُوا لِلْمَـوتِ وابْنُـوا لِلْخَـراب

﴿لقد جِئْتَ شيئاً إمراً﴾، قال مجاهد: مُنكَراً. وقال قتادةُ: عَجَباً. فعندها قال له الخَضِرُ مُذكِّراً بما تَقَدَّم من الشرط: ﴿ألم أقل إنك لن تَسْتَطيعَ معي صَبْراً﴾، يعني وهذا الصنيعُ فعلتَه قصداً، وهو من الأمور التي اشترطت معك ألاّ تُنكِر عليّ فيها، لأنك لم تُحِط بها خُبراً، ولها دَاخِلٌ هو مصلحة، ولم تعلمه أنت. ﴿قال﴾، أي موسى: ﴿لا تؤاخِذْني بما نسيتُ ولا تُرْهِقني من أمري عسراً﴾، أي: لا تضيِّق علي ولا تُشدِّد. ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «كانت الأولى من موسى نسياناً».

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿فانطلقا﴾، أي: بعد ذلك، ﴿حتى إذا لَقِيا غلاماً فقتله﴾. وقد تَقَدَّم أنَّه كان يلعبُ مع الغلمان في قرية من القُرَى، وأنه عَمَد إليه من بينهم، وكان أحسَنهم وأجمَلهم وأوضَأهم، فقتله، فَرُوي أنه احتزَّ رأسه، وقيل: رَضَخه بحجر. وفي رواية: اقتطفه بيده. فالله أعلم.

فلما شاهد موسى ـ عليه السلام ـ هذا أنكره أشدَّ من الأول، وبادر فقال: ﴿أقتلت نفساً زاكيةً﴾، أي: صغيرة لم تعمل الحِنْثَ، ولا حَمَلت إثما بعدُ فقتلته ﴿بغير نفس﴾، أي: بغير مُسْتَنَد لقتلِه، ﴿لقد جِئتَ شيئاً نُكراً﴾، أي: ظاهر النَّكارة. ﴿قال ألم أقل لك إنك لن تستطيعَ معي صبراً﴾، فأكَّد أيضاً في التذكار بالشرط الأول، فلهذا قال له موسى: ﴿إن سألتُكَ عن شيءٍ بعدَها﴾، أي: إن اعترضتُ عليكَ بشيءٍ بعدَ هذه المرَّة، ﴿فلا تصاحبني قد بلغتَ من لدنّي عُذراً﴾، أي: قد أعْذَرْتَ إليّ مرة بعد مرة.

قال ابنُ جَريرٍ: حدثنا عبدُ الله بن أبي زياد، حدثنا حَجّاج بن محمد، عن حَمْزَة الزيَّات، عن أبي إسحاقَ، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، عن أُبَيِّ بن كَعْب قال: كان النبيُّ ـ ﷺ ـ إذا ذَكَر أحداً فَدعا له، بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: رَحْمَةُ الله علينا وعلى مُوسى، لو لَبِث مع صاحبه لأبصَرَ العَجَبَ، ولكنه قال: ﴿إن سألتك عن شيء بعدَها فلا تُصَاحِبني قد بَلغتَ من لَدُنّي عذراً﴾، مُثَقَّلَة(٢).

---

(١) أبو العتاهية، وعجز البيت:

فَكلّكم يصير إلى تَبَاب.

(٢) تفسير الطبري ١٥/٢٨٨. ويعني بقوله مُثقَّلة أن نون (لَدُنّي) مشدّدة. وهي قراءة السبعة ما عدا نافعاً وأبا بكر فقد قرآ: ﴿لَدُنِي﴾ بضم الدال وتخفيف النون. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٦٩١.

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عنهما أنَّهما ﴿ انطلقا ﴾ بعد المرتين الأوليين، ﴿ حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾، روى ابن جرير، عن ابن سيرين أنها الأيْلة(١). وفي الحديث: «حتَّى إذا أتيا أهلَ قَرْيةٍ لِئاماً»(٢)، أي: بخلاء، ﴿ فأبوا أن يُضيِّفوهما فوَجَدَا فيها جِداراً يريدُ أن يَنْقَضَّ ﴾، إسنادُ الإرادة هاهنا إلى الجِدارِ على سَبيلِ الاستعارةِ، فإنَّ الإرادةَ في المحدَثات بمعنى الميل. والانقضاضُ هو السقوطُ.

وقولُه: ﴿ فأقامَه ﴾، أي فَرَدَّه إلى حالة الاستقامة. وقد تقدَّم في الحديث أنه رَدَّه بيديه، ودَعَمه حتى رَدَّ ميله. وهذا خارق، فعند ذلك قال موسى: ﴿ لو شئتَ لاتَّخذتَ عليه أجراً ﴾، أي: لأَجْلِ أنهم لم يُضيِّفونا، كان ينبغي ألَّا تعمَلَ لهم مجاناً، ﴿ قال هذا فِراقُ بيني وبينك ﴾، أي: لأنك شرطت عند قَتْلِ الغلام أنك إن سألتَني عن شيء بعدها لا تُصاحبني، فهذا فراقُ بيني وبينِك، ﴿ سأُنبِّئك بتأويل ﴾، أي: بِتَفسير ﴿ ما لم تَستَطِعْ عليه صبراً ﴾.

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩ ﴾

هذا تفسيرُ ما أشكلَ أمرُه على موسى ـ عليه السلام ـ وما أنكر ظاهِرَه وقد أظهر الله الخَضِر ـ عليه السلام ـ على حكمة باطنه، فقال: أما السفينة فإنها خَرقتُها لأعيبها، لأنهم كانوا يمرُّون بها على مَلِك من الظَّلَمَةِ، (يأخذ كلَّ سفينة) صالحةٍ، أي: جيِّدة (غَصْباً)، فأردتُ عَيْبَها لأردَّه عنها بِعَيْبِها فينتفعَ بها أصحابُها من المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرُها. وقد قيل: إنهم أيتامٌ.

وروى ابنُ جُرَيج، عن وهب بن سليمان، عن شُعَيبِ الجَبَئِيِّ: أن اسمَ ذلك المَلِك هُدَدُ بن بُدَد(٣). وتقدم أيضاً في رواية البخاري، وهو مذكورٌ في التوراة العِيص بن إسحاقَ، وهُو من الملوكِ المنصوصِ عليهم في التوراة، والله أعلم.

﴿ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١ ﴾

قد تَقدَّم أن هذا الغلام كان اسمه جَيْسُور. وفي الحديث عن ابن عباس، عن أبيِّ بن كعب، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «الغلام الذي قتله الخَضِرُ طُبع يوم طُبع كافراً»(٤). رواه ابنُ جرير من حديث أبي إسحاقَ، عن سعيدٍ، عن ابن عباس، به(٤) ولهذا قال: ﴿فكان أبواه مؤمنَينِ فَخَشِينا أن يُرهِقَهما طغياناً وكفراً﴾، أي: يحملهما حُبُّه على متابعته على الكفر.

---

(١) تفسير الطبري ١٥/٢٨٨.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بإسناده إلى ابن عباس عن أبي بن كعب ٥/١١٩.

(٣) تفسير الطبري ١٦/٢.

(٤) مسند أحمد ٥/١١٩، وتفسير الطبري ١٦/٣.

قال قتادةُ: قد فَرِح به أبواه حين وُلِد، وحَزِنا عليه حين قُتِل، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فَرَضِيَ امرؤٌ بقضاء الله، فإنَّ قضاءَ اللهِ للمؤمنِ فيما يَكرَهُ خير من قضائِهِ له فيما يُحبُّ».

وصح في الحديث: «لا يقضِي اللهُ للمؤمِنِ قَضاءً إلا كان خيراً له(١)». وقال تعالى: ﴿ وعَسَى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾.

وقولُه: ﴿ فأردنا أن يُبدلهما ربُّهما خيراً منه زكاةً وأقربَ رُحماً ﴾، أي: ولداً أزكى من هذا، وهما أرحمُ به منه. قاله ابن جُرَيج. وقال قتادة: أبَرَّ بوالديه.

وقد تقدم أنهما بُدِّلا جارية. وقيل: لما قتله الخَضِرُ كانت أُمُّه حامِلاً بغلام مسلم. قاله ابن جُرَيج.

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) ﴾

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة، لأنه قال أولاً: ﴿ حتى إذا أتيا أهلَ قَرْيةٍ ﴾، وقال ها هنا: ﴿ فكان لغلامين يتيمين في المدينة ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وكأين من قرية هي أشدُّ قوّةً من قريتك التي أخرجتك ﴾، ﴿ وقـالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾، يعني مكة والطائف.

ومعنى الآية: أن هذا الجِدَار إنما أصلَحه لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما.

قال عكرمة، وقتادة، وغير واحد: كان تحته مال مدفونٌ لهما. وهذا ظاهرُ السياق من الآية، وهو اختيارُ ابن جرير رحمه الله.

وقال العوفي، عن ابن عباس: كان تحته كَنْزُ عِلْمٍ: وكذا قال سعيد بن جُبَير: وقال مجاهد: صُحُفٌ فيها عِلْمٌ.

وقد ورد في حديث مرفوع ما يقوي ذلك؛ قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البَزَّار في مسنده المشهور.

حدثنا إبراهيمُ بن سعيدٍ الجوهري، حدثنا بشر بن المنذر، حدثنا الحارث بن عبدالله اليحصبي، عن عياش بـن عباس القِتْبانيِّ، عن ابن حُجَيْرَةَ، عن أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ رَفَعه قال ـ: إن الكنز الذي ذكر الله في كتابه لوحٌ من ذهب مُصْمَت : عَجِبتُ لمن أيقنَ بالقدَرِ، لِمَ يَنْصِبُ؟ وعَجِبْتُ لمن ذكر النار، لِمَ يضحك؟ وعَجِبتُ لِمن ذَكَر الموتَ، لِمَ غَفَلَ؟ لا إله إلا الله، مُحمَّدٌ رسول الله(٢).

وبشر بن المنذر هذا يقال له: قاضي المَصِّيصَة، قال الحافظ أبو جعفر العُقَيلِيُّ: في حديثه وَهَمٌ.

وقد روى في هذا آثار عن السلف، فقال ابن جَرير في تفسيره:

حدّثني يعقوب، حدّثني الحسن بن حبيب بن نَدَبة، حدثنا سلمة، عن نُعَيم العَنْبَرِيِّ ـ وكان من جلساء الحسن ـ قال: سَمِعت الحسن ـ يعني البصريَّ ـ يقول في قوله: ﴿ وكان تحته كنز لهما ﴾، قال: لوحٌ من ذَهَب

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بإسناده إلى أنس بن مالك ١١٧/٣.

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٥٦/٣ ـ ٥٧.

مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عَجِبت لمن يؤمن بالقَدَر، كيف يحزَنُ؟ وعجبت لمن يوقن بالموت، كيف يَفْرَح؟ وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها، كيف يَطْمَئِنُّ إليها؟ لا إله إلا الله مُحمَّد رسول الله.

وحدَّثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عبد الله بن عياش، عن عُمَر مولى غُفْرَة قال: إن الكنز الذي قال الله في السورة التي يذكر فيها الكهف: ﴿وكان تحته كنز لهما﴾، قال: كان لوحاً من ذهب مُصْمَتٍ، مكتوباً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عَجَبٌ لمن عرف النار ثم ضَحِكَ! عَجَبٌ لمن أيقن بالقَدَر ثم نَصِبَ! عَجَبٌ لمن أيقن بالموت ثم أمِنَ! أشهد أن لا إلَه إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وحدثني أحمد بن حازم الغِفَاريُّ، حَدَّثتنا هُنادَةُ بنتُ مالك الشيبانيّة قالت: سَمِعتُ صاحبي حَمّاد ابن الوليد الثقفي يقول: سمعت جعفر بن محمد يقول في قول الله تعالى: ﴿وكان تحته كنزٌ لهما﴾، قال: سطران ونصف لم يتم الثالث: عَجِبتُ للموقن بالرِّزق كيف يتعَبُ؟ وعَجِبتُ للمُوقِن بالحساب كيف يَغفُل؟ وعَجِبتُ للموقن بالموت كيف يفرَح؟ وقد قال تعالى: ﴿وإن كان مثقالَ حبّة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾. قالت: وذُكِر أنهما حُفِظا بصَلاح أبيهما، ولم يُذْكَر منهما صلاح، وكان بينهما وبين الأب الذي حُفِظا به سبعة آباء، وكان نساجاً[1].

وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة، وورد به الحديث المتقدِّمُ وإن صحَّ، لا ينافي قولْ عكرمة: إنه كان مالاً؛ لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب، وفيه مالٌ جزيل، أكثر ما زادوا أنه كان مودعاً فيه علم، وهو حِكَمٌ ومواعظ، والله أعلم.

وقولُه: ﴿وكان أَبُوهما صالح﴾ فيه دليل عل أن الرجلَ الصالح يُحفَظُ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنـيا والآخرة بشفاعته فيهم ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة، لتقرَّ عينهُ بهم، كما جاء في القرآن روردت به السنة، قال سعيد بن جُبَير عن ابن عباس: حِفْظا بصلاح أبيهما، ولم يُذْكَر لهما صلاح. وتقدم أنه كان الأب السابع.

وقولُه: ﴿فأراد ربُّك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما﴾، ها هنا أسند الإرادة إلى الله تعالى، لأنَّ بلوغَهما الحُلُم لا يقدر عليه إلا الله. وقال في الغلام: ﴿فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه﴾، وقال في السفينة: ﴿فأردتُ أن أَعِيبهَا﴾، فالله أعلم.

وقولُه: ﴿رحمةً من ربك وما فعلته عن أمْري﴾، أي: هذا الذي فعلتُه في هذه الأحوالِ الثلاثةِ إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالِدَي الغلام، ووَلَدَي الرجل الصالح، ﴿وما فعلتهُ عن أمري﴾، لكني أُمِرْتُ به ووُقِفْتُ عليه. وفيه دَلالَةٌ لمن قال بنُبوَّة الخَضِر ـ عليه السلام ـ مع ما تقدم في قوله: ﴿فوجدَا عبداً من عبادنا، آتيناه رحمة من عـندنا وعَلَّمناه من لَدُنَّا عِلْماً﴾. وقال آخرون: كان رسولاً: وقيل: بل كان مَلِكاً. نقله الماوردي في تفسيره. وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبياً، بل كان ولياً. فالله أعلم.

وذكر ابنُ قتيبة في «المعارف» أن اسم الخضر بَلْيا بن مَلْكان بن فالغ بن غابر بن شَالَخ بن أَرْفَخْشَذ ابن سام بن نوح عليه السلام[2].

---

(١) الآثار في تفسير الطبري ١٦/٥ـ٦.

(٢) المعارف ٤٢.

قالوا: وكان يُكنَى أبا العباس، ويُلقَّب بالخَضِر، وكان من أبناء الملوك، ذكره النووي في تهذيب الأسماء، وحكى هو وغيره في كونه باقياً إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولين، ومال هو وابنُ الصلاح إلى بقائه، وذكروا في ذلك حكايات وآثاراً عن السلف، وجاء ذكرهُ في بعضِ الأحاديثِ. ولا يصحُّ شيءٌ من ذلك، وأشهرُها حديثُ التعزيةِ، وإسنادهُ ضعيفٌ.

وَرَجَّح آخرون من المحدِّثين وغيرهم خلافَ ذلك، واحتُّجوا بقوله تعالى: ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخُلدَ ﴾، وبقول النبي ـ ﷺ ـ يوم بدر: «اللهمَّ، إن تَهلِكْ هذه العصابة لا تُعْبَدْ في الأرض[1]»، وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ولا حَضَر عنده، ولا قاتلَ معه. ولو كان حياً لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه، لأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى جميع الثقلين: الجن والإنس، وقد قال: «لو كان موسى وعيسى حَيَّيْن ما وَسِعَهما إلا اتباعي»، وأخبر قبل موته بقليل: أنه لا يبقَى مِمَّن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تَطْرِفُ[2]. إلى غير ذلك من الدلائل.

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا ابنُ المبارك، عن معمر، عن همام بن مُنَبِّه، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ: إنما سُمِّي خَضِراً لأنه جَلَس على فَرْوَةٍ بيضاءَ، فإذا هي تحته تهتزّ خضراء[3]».

ورواه أيضاً عن عبد الرزاق[3]: وقد ثبت في صحيح البخاري، عن هَمّام، عن أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنما سُمِّي الخَضِر لأنه جَلَس على فَرْوَةٍ فإذا هي تهتزُّ خَضْراءَ[4]».

والمراد بالفَرْوَةِ ها هنا الحشيشُ اليابسُ، وهو الهَشِيمُ من النبات، قاله عبد الرزَّاق[3]. وقيل: المراد بذلك وجه الأرض. .

وقولُه: ﴿ ذلك تأويلُ ما لم تسطع عليه صبراً ﴾، أي: هذا تفسير ما ضِقْتَ به ذرعاً، ولم تَصْبِرْ حتى أخبرَك به ابتداء، ولما أن فسّره له وبيّنه ووضّحه وأزال المشكل قال: ﴿ما لم تَسْطِعْ ﴾، وقبلَ ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً، فقال: ﴿ سَأُنَبِّئك بتأويل ما لم تستَطِع عليه صَبْراً ﴾، فقابل الأثقل بالأثقل، والأخفَّ بالأخفِّ، كما قال تعالى: ﴿ فما اسْطَاعـوا أن يظهروه ﴾، وهو الصعود إلى أعلاه، ﴿ وما استطاعوا له نقباً ﴾، وهو أشقُّ من ذلك، فقابل كُلّاً بما يناسبه لفظاً ومعنى، والله أعلم.

فإن قيل: فما بال فتى موسى ذُكِر في أول القصَّة ثم لم يذكر بعد ذلك؟ فالجواب أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخَضِر، وذكر ما كان بينهما. وفتى موسى معه تَبَعٌ. وقد صُرِّح في الأحاديث المتقدِّمة في الصحاح وغيرها أنه يُوشَعُ بن نُون، وهو الذي كان نَبِيَّ بني إسرائيل بعد موسى عليهم السلام. وهذا يدل على ضعف ما أورده ابن جرير في تفسيره حيث قال:

حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة، حدثني ابن إسحاق، عن الحسن بن عُمَارة، عن أبيه، عن عكرمة قال: قيل لابن عباس: لم نسمع بفتى موسى يُذْكَر في حديث وقد كان معه؟ فقال ابنُ عباس فيما يَذْكُر من حديث

---

(١) مسلم، كتاب الجهاد ١٣٨٤/٣، ومسند أحمد ٣٠/١.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بإسناده إلى علي رضي الله عنه ٩٣/١، ١٤٠.

(٣) مسند أحمد ٣١٢/٢، ٣١٨/٢.

(٤) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٤٣٣/٦.

الفتى، قال: شَرِب الفتى مِنَ الماءِ فَخُلِّد، فأخذه العالِمُ، فطابق به سفينةً ثم أرسله في البحر، فإنها لَتَموجُ به إلى يوم القيامة، وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب[١].

إسناد ضعيف، والحسن متروك، وأبوه غير معروف.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى لنبيه ـ ﷺ ـ: ﴿ويسئلونك﴾ يا محمد ﴿عن ذي القرنين﴾، أي: عن خبره. وقد قَدَّمنا أنه بَعَث كفارُ مكة إلى أهل الكتابِ يسألون منهم ما يمتَحِنُون به النبي ـ ﷺ ـ فقالوا: سَلُوه عن رجل طَوَّافٍ في الأرض. وعن فِتْيةٍ لا يُدرَى ما صنعوا، وعن الرُّوح. فنزلت سورة الكهف[٢].

وقد أورد ابنُ جرير ها هنا، والأموي في مغازيه، حديثاً أسندَه وهو ضعيفٌ، عن عقبة بن عامر: أن نفراً من اليهود جاءوا يسألون النبي ـ ﷺ ـ عن ذى القرنين، فأخبرهم بما جاءوا له ابتداءً، فكان فيما أخبرهم به: «أنه كان شاباً من الروم، وأنه بنى الإسكندرية، وأنه علا به مَلَكٌ في السماء، وذهب به إلى السدّ، ورأى أقواماً وجوهُهم مثل وجوه الكلاب». وفيه طول ونَكَارةٌ، ورفعه لا يصحُّ، وأكثر ما فيه من أخبار بني إسرائيل، والعجب أن أبا زُرعَةَ مع جلالة قدره، ساقة بتمامه في كتابه دلائل النبوة، وذلك غريبٌ منه، وفيه من النكارة أنه من الروم، وإنما الذي كان من الروم الإسكندر الثاني بن فيليبس المقدوني، الذي تُؤَرِّخ به الروم، فأما الأول فقد ذكره الأزرقي وغيره أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ أول ما بناه وآمن به وأتبعه، وكان معه[٣] الخضَر عليه السلام. وأما الثاني فهو إسكندر بن فيلبيس المقدوني اليوناني، وكان وزيرُه أرسطاطاليس الفيلسوفُ المشهور، والله أعلم. وهو الذي تُؤَرِّخ به من مملكته ملة الروم. وقد كان قبل المسيح ـ عليه السلام ـ بنحو من ثلثمائة سنة، فأم الأولُ المذكورُ في القرآن فكان في زمن الخليل، كما ذكره الأزرقي وغيره، وأنه طاف مع الخليل بالبيت العتيق لما بناه إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقَرَّبَ إلى الله قرباناً، وقد ذكرنا طرفاً صالحاً من أخباره في كتاب «البداية والنهاية» بما فيه كفاية، ولله الحمدُ.

قال وهب بن مُنَبِّه: كان ملكاً، وإنما سُمِّي ذا القرنين لأنّ صفحتي رأسه كانتا من نحاس. قال: وقال بعض أهل الكتاب: لأنه مَلَك الروم وفارس. وقال بعضهم: كان في رأسه شبه القَرْنين. وقال سفيان الثَّوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي الطُّفَيل قال: سُئل علي ـ رضي الله عنه ـ عن ذي القرنين، فقال: كان عبداً ناصَحَ الله عز وجل فناصَحَه، دعا قومه إلى الله فَضُربَ على قَرْنِهِ فمات، فأحياه الله، فدعا قومه إلى الله فضربوه على قَرْنِه فمات، فَسُمِّي ذا القرنين. وكذا رواه شعبة، عن القاسم بن أبي بَزَّةَ، عن أبي الطُّفَيل، سَمِعَ علياً يقول ذلك[٤]. ويقال: إنما سُمِّي ذا القرنين لأنه بَلَغ المشارق والمغارب، من حيث يطلع قرنُ الشمس ويغرب.

---

(١) تفسير الطبري ١٥/٢٨١.

(٢) انظر أول هذه السورة.

(٣) في نسخة الحرم: وكان وزيره الخضر.

(٤) تفسير الطبري ١٦/٨ ـ ٩.

وقولُه: ﴿ إنا مَكَّنا له في الأرض ﴾، أي: أعطيناه مُلكاً عظيماً متمكناً، فيه له من جميع ما تُؤتَى الملوك، من التمكين والجنود، وآلات الحرب والحصَارات. ولهذا مَلَك المشارقَ والمغاربَ من الأرض، ودانت له البلادُ، وخَضَعت له ملوك العِبَادِ، وخَدَمته الأمم، من العَرَب والعَجَم. ولهذا ذكر بعضُهم أنه إنما سُمِّي ذا القَرنين لأنه بلغ قَرْني الشمس مشرقها ومغربها.

وقولُه: ﴿ وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾، قال ابنُ عباسٍ، ومجاهدٍ، وسعيد بن جُبير، وعكرمةُ، والسدِّي، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: يعني علماً.

وقال قتادة أيضاً في قوله: ﴿ وآتيناه من كُلِّ شيء سبباً ﴾، قال: منازِلَ الأرضِ وأعلامها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿ وآتيناه من كل شيء سَبَباً ﴾، قال: تعليم الألسنة، وكان لا يغزُو قوماً إلا كَلَّمهم بلسانهم.

وقال ابن لَهيعة: حدثني سالم بن غَيلان، عن سعيد بن أبي هلال: أن معاويةَ بن أبي سفيان قال لكعب الأحبار: أنت تقول: إن ذا القرنين كان يَرْبِط خيله بالثُّريا؟ فقال له كعب: إن كنتُ قلتُ ذاك فإن الله تعالى قال: ﴿ وآتيناه من كلِّ شيءٍ سبباً ﴾.

وهذا الذي أنكره معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ على كعب الأحبار هو الصوابُ، والحقُّ مع معاوية في ذلك الإنكار؛ فإن معاوية كان يقول عن كعب: «إن كنا لنبلُو عليه الكَذِبَ». يعني فيما ينقله، لا أنه كان يتعمَّد نقل ما ليس في صُحُفِهِ، ولكن الشأن في صُحُفِهِ أنها من الإسرائيليَّاتِ التي غَالِبُها مُبَدَّل مصحَّف مُحرَّف مختلَق، ولا حاجة لنا مع خَبَر الله ورسوله إلى شيءٍ منها بالكُلِّية، فإنه دَخَل منها على الناس شر كثير، وفَساد عَريض. وتأويلُ كعب قولَ الله: ﴿ وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾، واستشهاده في ذلك على ما يجده في صُحُفِهِ من أنه كان يربِطُ خيلَه بالثريَّا، غيرُ صحيحٍ ولا مطابقٍ؛ فإنه لا سبيلَ للبشَر إلى شيء من ذلك، ولا إلى الترقي في أسباب السموات. وقد قال تعالى في حق بُلْقيس: ﴿ وأوتِيَتْ من كلِّ شيءٍ ﴾ أي: مما يؤتَى مثلُها من الملوك. وهكذا ذو القرنين يَسَّر الله له الأسباب، أي: الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرَّساتيق[1] والبلاد والأراضي، وكَسْر الأعادي، وكَبْت مُلوك الأرض، وإذلالَ أهلَ الشرك. قد أُوتِي من كُلِّ شيءٍ ما يَحتاج إليه مثلُه سبباً، والله أعلم.

وفي المختارةِ للحافظ الضِّيَاء المقدسي، من طريق قُتَيبة، عن أبي عَوَانة، عن سماك بن حَرْبٍ، عن حبيب ابن حِمَازٍ قال: كنتُ عند علي ـ رضي الله عنه ـ وسأله رجلٌ عن ذي القرنين: كيفَ بلَغَ المشارقَ والمغاربَ؟ فقال: سبحان الله. سَخَّر له السَّحابَ، وقدَّر له الأسبابَ، وبسط له اليَدَ.

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

قال ابن عباس: ﴿ فأتبَعَ سبباً ﴾، يعني بالسَّبَب المنزلَ. (وقال مجاهد: ﴿ فأتبع سَبَباً ﴾: منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب. وفي رواية عن مجاهد: ﴿ سبباً ﴾، قال: طَرَفي الأرض. وقال قتادةُ: أي اتَّبع منازِلَ الأرض ومَعَالِمها. وقال الضَّحاك: ﴿ فأتبعَ سَبباً ﴾، أي: المنازِلَ. وقال سعيد بن جُبَير في قوله: ﴿ فأتبع

(١) الرساتيق: جمع رُستاق، وهو القرية.

سَبَباً﴾، قال: عِلماً. وهكذا قال عكرمةُ، وعُبَيد بن تِعْلَى[١]، والسدّيُّ. وقال مطر: معالم الأرض وآثارُ كانت قبل ذلك.

وقولُه: ﴿ حتى إذا بلغَ مَغْرِب الشَّمْس ﴾، أي: فَسَلك طريقاً حتى وصَلَ إلى أقصى ما يُسلَك فيه من الأرض ناحية المغرب، وهو مغربُ الأرض. وأما الوصولُ إلى مغرب الشمس من السماءِ فمتعذّر، وما يذكره أصحاب القصصِ والأخبار من أنه سار في الأرض مدَّة والشمس تغرب من روائه، فشيءٌ لا حقيقةَ له، وأكثرُ ذلك من خرافاتُ أهل الكتاب، واختلاقُ زنادِقتهم وكَذَبتِهم.

وقولُه: ﴿ وجدَها تغربُ في عين حَمِئةٍ ﴾، أي: رأى الشمسَ في منظره تَغربُ في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرُبُ فيه، وهي لا تفارق الفلَكَ الرابع الذي هي مُثْبَتَة فيه لا تفارِقُه.

والحَمِئةُ: مُشتقة على إحدى القراءتين[٢] من «الحَمْأة» وهو الطين، قال تعالى: ﴿ إني خالقٌ بشراً من صَلْصَال من حَمإٍ مسنون ﴾، أي: طينٍ أملسَ. وقد تقدم بيانه.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، حدثني نافع بن أبي نُعَيم: سَمِعتُ عبد الرحمن الأعرج يقول: كان ابن عباس ﴿ في عين مئة ﴾، ثم فَسَّرها: ذات حَمْأة. قال نافع: وسُئِل عنها كعب الأحبار، فقال: أنتم أعلَمُ بالقرآن منيٍّ، ولكني أجدها في الكتاب تغيب في طينةٍ سوداءَ[٣].

وكذا رَوَى غير واحد عن ابن عباس. وبه قال مجاهد، وغير واحد.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا محمد بن دينار، عن سعد بن أوس، عن مِصدْعَ، عن ابن عباس، عن أبيّ بن كعب: أن النبي ـ ﷺ ـ أقرأه ﴿حَمِئَةٍ﴾[٤].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ وَجَدها تغرُب في عين حامية ﴾، يعني: حارة. وكذا قال الحسن البصري.

وقال ابنُ جرير: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان، فأيهما قَرَأ القارِئُ فهو مصيبٌ.

قلت: ولا منافاةَ بين مَعْنييهما، إذ قـد تكون حارَّةً لمجاورتها وَهَج الشمس عند غروبها، وملاقاتها الشعاع بلا حائل. و﴿حَمِئة﴾: في ماء وطين أسود، كما قال كعب الأحبار وغيره.

وقال ابنُ جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا العوام، حدثني مولى لعبدالله ابن عمرو، عن عبدالله قال: نظر رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى الشمس حين غابَتْ، فقال: «في نار الله الحامية، في نار الله الحامية، لولا ما يَزَعُها من أَمْرِ الله لأحرقَت ما عَلَى الأَرْض»[٥].

قلت: ورواه الإمام أحمد، عن يزيد بن هارون[*]. وفي صحة رفع هذا الحديث نظر، ولعله من كلام عبدالله بـن عمرو، من زَامِلَتَيهِ اللّتين وجدَهما يوم اليرموك، والله أعلم.

---

(١) في النسخ: يعلى، بالياء. انظر ترجمته في التاريخ الكبير ٤٤٣/٥، وتهذيب التهذيب ٦٠/٧، والثقات لابن حبان ١٣٤/٥.

(٢) قرأ ابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي: (حامية). والباقون من السبعة (حمئة). والقراءة الأولى اسم فاعل من حمى، أي: عين حارة. وعلى الأخرى: عين ذات حمأة، وهي الطين الأسود.

(٣) تفسير الطبري ١١/١٦.

(٤) مسند أبي داود الطيالسي ٧٢.

(٥) تفسير الطبري ١٢/١٦، ومسند أحمد ٢٠٧/٢. ويَزَعُها: يمنعها.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا حَجّاج بن حَمْزَة، حدثنا محمد ـ يعني ابنَ بشرٍ ـ حدثنا عَمرو بن ميمون، أنبأنا ابن حاضر، أن ابن عباس ذُكِرَ له أن معاوية بن أبي سفيان قرأ الآية التي في سورة الكهف: ﴿ تغرُب في عين حَامِية ﴾، قال ابن عباس: فقلتُ لمعاوية: ما نقرؤُها إلا ﴿ حَمِئَة ﴾، فسأل معاوية عبدَالله بن عمرو: كيف تقرؤها؟ فقال عبدالله: كما قرأتَها. قال ابن عباس: قلتُ لمعاويةَ: في بيتي نزل القرآن. فأرسل إلى كعب فقال له: أين تجد الشمس تغرُب في التوراة؟ فقال له كعب: سَلْ أهلَ العربية، فإنّهم أعلم بها، وأمّا أنا فإني أجِدُ الشمسَ تغرُب في التوراة في ماء وطين. وأشار بيده إلى المغرب، قال ابنُ حاضر: لو أنّي عندكما أفدتُكَ بكلام تَزدادُ فيه بصيرةً في ﴿ حَمِئَةٍ ﴾. قال ابن عباس: وإذاً ما هُو؟ قلتُ: فيما يُؤثَرُ قولُ تُبَّع، فيما ذَكَر به ذَا القرنين، في تَخَلّقه بالعلم واتّباعِه إياه(١).

بَلَغَ المَشَارقَ وَالمَغَارِبَ يَبْتَغي أَسْبَابَ أَمْرٍ مِنْ حَكِيمٍ مُرْشِدِ
فَرَأَى مَغَابَ(٢) الشَّمْسِ عِنْدَ غُروبِهَا في عَيْنِ ذي خُلُبٍ وَثَأْطٍ حَرْمَدِ

قال ابن عباس: ما الخُلُب؟ قلت: الطينُ بكلامهم ـ[يعني بكلام حمير] ـ(٣) قال: فما الثَّأْطُ؟ قلت: الحَمْأَة. قال: فما الحَرْمَدُ؟ قلت: الأسودُ. قال: فدعا ابنُ عباس رجلاً أو غُلاماً، فقال: اكتُبْ ما يقولُ هذا الرَّجلُ.

وقال سعيد بن جُبَير: بينا ابنُ عباس يقرَأُ سورةَ الكهف فَقرأ: ﴿ وجدها تغرُب في عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾. فقال كعب: والذي نفسُ كعبٍ بيده ما سَمِعتُ أحداً يقرؤُها كما أُنزِلَتْ في التوراةِ غيرَ ابن عباس؛ فإنا نجدها في التوراة تغرب في مَدَرَة سوداء.

وقال أبو يعلى الموصلي: حدَّثنا إسحاقُ بنُ أبي إسرائيلَ، حدّثنا هشام بن يوسف قال: في تفسير ابن جريج: ﴿ ووجد عندها قوماً ﴾، قال: مدينة لها اثنا عشرَ ألف باب، لولا أصواتُ أهلها لسمع الناس وُجُوبَ(٤) الشمس حين تَجِبُ.

[(٣- فَحدِّثت عن الحسن، عن سَمُرةَ قال: قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «سِتراً أي(٥) بناءً، لم يُبْنَ فيها بناءٌ قطُّ(٦)؛ كانوا إذا طَلَعَتِ الشمسُ دَخلُوا أَسْرَاباً لهم حَتّى تزول الشمس» -٣)].

وقولُه: ﴿ قلنا يا ذا القرنين إما أن تُعذِّب وإما أن تتخذ فيهم حُسْناً ﴾، معنى هذا: أن الله تعالى مَكّنه منهم، وحكّمه فيهم، وأظهره عليهم، وخيَّره إن شاء قَتَل وسَبَى، وإن شاء مَنَّ وَأَفْدَى(٧). فَعُرِفَ عدلُه وإيمانُهُ فيما أبداه عدله وبيانه، في قوله: ﴿ أما من ظَلَم ﴾، أي: من استمرَّ على كُفره وشِرْكِه بِرَبِّه، ﴿ فسوف نُعذِّبه ﴾،

(١) البيتان في اللسان، مادة ثأط، والثاني في حرمد، منسوبين إلى أمية بن أبي الصلت، وهما في ديوانه ٥٤٨ ـ ٥٤٩ والثاني أيضاً في مادة حرمد، وخلب منسوباً إلى تُبَّع.

(٢) كذا في نسخة الحرم: مَغَابَ. وهو من مصادر غاب كما في اللسان. وفي اللسان وديوان أمية: مَغِيب.

(٣) عن نسخة الحرم.

(٤) أي: سقوطها للمغيب.

(٥) في المطالب العالية ٣/٣٥٠: «سترى بناء». ويقول المحقق: «كذا في الإتحاف، وما في المسندة غير مستبين».

(٦) بعده في المطالب: «ولم يُبْنَ عليهم منها بناءٌ قطُّ». ومثله في تفسير الطبري ١٦/١٤.

(٧) في نسخة: أو فدى. وفي أخرى: وافتدى. كلاهما غير مستقيم لأنه لا يقدّم فداء وإنما يقبله، في اللسان: «وأفدى: إذا أعطى رجلاً وأخذ مالاً». وفي الحديث أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قال لقريش حين أُسِر عثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان: لا تُفْدِيكموها حتى يَقْدَمَ صاحبانا». يعني سعد بن أبي وقاص وعُتبة بن غَزْوَان.

قال قتادةُ: بالقتل، وقال السدّي: كان يحمى لهم بَقَرَ النّحاس ويضعهم فيه حتّى يَذُوبوا. وقال وَهْبُ بن مُنَبِّه: كان يُسلِّط الظُّلْمَة فتدخلُ أفواههم وبُيُوتهم، وتَغْشَاهم من جَمِيع جِهَاتِهِم[1]، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ ثم يُرَدّ إلى رَبِّه فيُعذّبه عذاباً نكراً ﴾، أي: شديداً بليغاً وجيعاً أليماً. وفي هذا إثباتُ المَعَاد والجَزَاء.

وقولُه: ﴿ وأمَّا من آمن ﴾، أي: تابَعنا على ما ندعُوه إليه من عبادة الله وحدَه لا شريكَ له، ﴿ فله جزاءً الحُسْنى ﴾، أي: في الدار الآخرة عند الله عز وجل، ﴿ وسنَقُول له من أمرنا يسرا ﴾، قال مجاهد: معروفاً.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾

يقول: ثم سَلَك طريقاً فسار من مَغْرب الشمس إلى مطلعها، وكان كُلّما مرَّ بأُمَّة قهرَهم وغلَبهم ودَعاهم إلى الله عز وجل، فإن أطاعوه وإلا أذلَّهم وأرغمَ آنافهم، واستباح أموالهم وأمتعتهم، واستخدم من كلِّ أمة ما يستعين به مع جيوشه على الإقليم المتاخِم لهم. وذُكِر في أخبارِ بني إسرائيل أنَّه عاش ألفاً وستمائة سنة، يَجُوب الأرضَ طولها والعرض، حتى بلغ المشارق والمغارب. ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال تعالى: ﴿ وجدها تطلُع على قوم ﴾، أي: أُمَّة ﴿ لم نجعَلْ لهم من دُونها سِتْراً ﴾، أي: ليس لهم بناء يَكُنُّهم، ولا أشجار تُظِلُّهم وتسترهم من حر الشمس.

قال سعيد بن جُبَير: كانوا حُمْراً قصاراً، مَسَاكِنُهم الغِيرَانُ، أكثرُ مَعِيشَتِهم من السَّمَكِ.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا سهل بن أبي الصلْت، سَمِعتُ الحسَنَ وسُئلَ عن قَوْلِ الله تعالى: ﴿ لم نَجْعَل لهم من دونها ستراً ﴾، قال: إن أرضَهم لا تحمِلُ البناءَ، فإذا طَلعت الشمسُ تغوَرّوا في المياه، فإذا غَرَبت خرَجوا يتراعون كما ترعى البهائم. قال الحسن: هذا حديث سَمُرة[2].

وقال قتادة: ذُكِر لنا أنهم بأرض لا تُنبت لهم شيئاً، فهُم إذا طَلَعَت الشمسُ في أسراب، حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حُرُوثهم ومعايشهم.

وعن سلمة بن كُهَيل أنه قال: ليس لهم أكنان، إذا طَلَعَت عليهم، فَلأَحَدِهم أذنان يفترش إحداهما ويلبس الأخرى.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: ﴿ وجدَها تطلُع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً ﴾، قال: هم الزَّنج.

وقال ابن جُرَيج في قوله: ﴿ وجدها تطلع على قوم لم تجعل لهم من دونها ستراً ﴾، قال: لم يبنوا فيها بناء قط، ولم يُبْنَ عليهم فيها بناء قط؛ كانوا إذا طلعتِ الشمسُ دخلوا أسراباً لهم حتى تزُول الشمسُ، أو دخَلُوا البحر، وذلك أن أرضَهم ليس فيها جَبَلٌ، جاءهم جيش مَرّة فقال لهم أهلها: لا تطلعَنَّ عليكم الشمسُ وأنتم

(١) انظر تفسير الطبري ١٦/١٨.
(٢) لم أجده في مسند أبي داود الطيالسي، وقد أخرجه الطبري ١٦/١٤ بإسناده إليه.

بها. قالوا: لا نَبْرَحُ حتى تطلع الشمسُ، ما هذه العظام؟ قالوا: هذه جِيَفُ جيشٍ طلعَت عليهم الشمس ها هنا فماتوا. قال: فذهَبُوا هاربين في الأرض[1].

وقولُه: ﴿ كذلك وقد أحطنا مما لديه خبراً ﴾، قال مجاهد، والسّدّيُّ: عِلْماً. أي: نحن مُطَّلِعُون على جميع أحواله وأحوال جيشه، لا يخفى علينا منها شيءٌ، وإن تفرّقت أُممهم وتقطّعت بهم الأرضُ، فإنه تعالى ﴿لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن ذى القَرْنين: ﴿ ثم أتبع سَبَبا ﴾، أي: ثمّ سَلَك طريقاً من مشارقِ الأرض ﴿ حتى إذا بَلَغ بين السدَّين ﴾، وهما جبلان متناوحان[2] بينهما ثُغْرَةٌ يخرج منها يأجوجُ ومأجوجُ على بلادِ الترك، فَيَعِيثون فيهم فساداً، ويُهلِكُون الحرثَ والنسلَ، ويأجوجُ ومأجوجُ من سُلالة آدمَ عليه السلام، كما ثَبَت في الصحيحين: «إن الله تعالى يقول: يا آدمُ. فيقول: لَبيَّكَ وسَعْدَيكَ. فيقول: ابعَث بَعْثَ النار. فيقول: وما بَعثُ النار؟ فيقول: من كلِّ ألفٍ تسعُمائةٍ وتسعةٌ وتسعون إلى النار، وواحدٌ إلى الجنة؟ فحينئذ يَشيبُ الصغيرُ، وتَضع كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها، فيقال: إنَّ فيكم أُمَّتين، ما كانتا في شيءٍ إلا كَثَّرتاه: يأجوج ومأجوج[3]».

وقد حكى النووي ـ رحمه الله ـ في شرح «مسلم»، عن بعض الناس: أن يأجوج ومأجوج خُلِقوا من مَنِيٍّ خَرَج من آدم فاختلط بالتراب، فَخُلِقوا من ذلك. فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم، وليسُوا من حواء. وهذا القولُ غريب جداً، لا دليلَ عليه لا من عقلٍ ولا نقلٍ، ولا يجوز الاعتمادُ ها هنا على ما يحكيه بعضُ أهل الكِتاب، لما عندهم من الأحاديثِ المفتعلة، والله أعلم.

وفي مسند الإمام أحمد، عن سَمُرَة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «وَلَدُ نوح ثلاثة: سامٌ أبو العرب، وحامٌ أبو السودان، ويافِثُ أبو الترك[4]». فقال بعضُ العلماء: هؤلاء من نسل يافثَ أبي الترك. قال: «إنما سُمُّوا هؤلاء تُرْكاً لأنهم تُرِكوا من وراء السدِّ من هذه الجهة، أولأَنّهم[5] أقرباء أولئك، ولكن كان في أولئك بغي وفساد وجَرَاءة. وقد ذكر ابنُ جرير ههنا عن وهب بن مُنَبِّه أثراً طويلاً في سِيَر ذي القرنين، وبنائه السدَّ، وكيفيَّةَ ما جَرَى له. وفيه طُولٌ وغرَابَةٌ ونَكارَةٌ في أشكالِهم وصِفَاتِهم، وطُولهم وقِصَر بَعْضِهم، وآذانِهم. ورَوَى ابنُ أبي حاتم أحاديثَ غريبةً في ذلك لا تَصِحُّ أسانيدها، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ وَجَد من دونها قوماً لا يكادون يفقَهون قولاً ﴾، لاستعجامِ كلامهم وبُعدِهم عن الناس.

(١) تفسير الطبري ١٤/١٦.

(٢) تناوح الشيئان: تقابلا.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة الحج ٤٤١/٨. ومسلم، كتاب الإيمان ٢٠١/١.

(٤) مسند أحمد ٩/٥.

(٥) كذا في نسخة الحرم. وفي غيرها: «وإلا فهم أقرباء».

﴿ قالوا يا ذا القرنين إن يأجوجَ ومأجوجَ مُفْسِدُون في الأرض فهل نَجعلُ لكَ خرجاً ﴾، قال ابن جُرَيج عن عطاء، عن ابن عباس: أجراً عظيماً. يعني أنهم أرادوا أن يجمَعوا له من بينهم مالاً يعطونه إياه، حتى يجعَل بينهم وبينهم سدًّا. فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصَلاح وقصد للخير: ﴿ ما مَكَّني فيه ربي خير ﴾، أي: إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خيرٌ لي من الذي تجمَعونه، كما قال سليمان عيه السلام: ﴿ أتمدونن بمال فما آتاني الله خيرٌ مما آتاكم بل أنتم بهديَّتكُمْ تفرَحُون ﴾. وهكذا قال ذو القَرنين: الذي أنا فيه خيرٌ من الذي تبذُلونه، ولكن سَاعِدوني ﴿بقوة﴾، أي: بِعَمَلكم وآلات البناءِ، ﴿ أجعل بينكم وبينهم ردماً * آتوني زُبرَ الحديد﴾، والزُبَر: جمع زُبْرَة، وهي القطعة منه. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وهي كاللَّبِنةَ، يقال: كل لبنة زنة قنطار بالدمشقي، أو تزيد عليه.

﴿ حتى إذا ساوى بين الصَّدَفين ﴾، أي: وَضَع بعضه على بعض من الأساس حتَّى إذا حاذى به رءوس الجبلين طولاً وعرضاً. واختلفوا في مساحة عَرضِه وطوله على أقوال ـ ﴿قال انفخوا﴾ أي: أَجَّجَ عليه النار حتى صار كلّه ناراً، ﴿ قال آتوني أفرغ عليه قطراً ﴾ ـ قال ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، والضحاكُ، وقتادةُ، والسُّدّيُّ: هو النحاس. وزاد بعضهم: المُذَاب. ويستشهد بقوله تعالى: ﴿ وأسلنا له عين القطر ﴾ ولهذا يشبه بالبُرْدِ المُحبَّر(١).

قال ابن جرير: حدثنا بشرٌ، حدثنا يزيدُ، حدثنا سعيدٌ، عن قتادةَ قال: «ذُكِر لنا أن رجلاً قال: يا رسول الله، قد رأيتُ سدَّ يأجوج ومأجوج. قال: انعته لي. قال: كالبُرْد المحبَّر، طريقة سوداءُ، وطريقة حمراءُ. قال: قد رأيته»(٢). هذا حديث مرسل.

وقد بعث الخليفةُ الواثقُ في دولته بعض أمرائه، وجَهَّزَ معه جيشاً سريَةً، لينظروا إلى السدِّ ويُعاينوه وينعَتُوه إذا رجعوا. فتوصَّلوا من بلاد إلى بلاد، ومن مُلْك إلى مُلْك، حتى وَصَلوا إليه، ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيه باباً عظيماً، وعليه أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللَّبِن والعَمَل في بُرْج هناك، وأن عنده حرساً من الملوك المتاخمة له، وأنه عال منيف شاهق، لا يُستطاع ولا ما حوله من الجبال. ثم رَجَعوا إلى بلادهم، وكانت غيبتهم أكثر من سنتين، وشاهَدُوا أهوالاً وعجائِبَ.

ثم قال الله تعالى:

﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن يأجوجَ ومأجوجَ أنهم ما قَدَرُوا على أن يصعَدُوا فوق هذا السدِّ، ولا قَدَروا على نَقْبِهِ من أسفله. ولما كان الظهورُ عليه أسهل من نَقْبِهِ قابل كُلًّا بما يناسبه، فقال: ﴿ فما اسطاعوا أن يظهَرُوه وما استطاعوا له نقباً﴾. وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نَقْبِهِ، ولا شيء منه. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد:

---

(١) البُرْد: كساءٌ مخطط يُلتحف به. والمحبَّر: الموشي والمزين.
(٢) تفسير الطبري ١٦/٢٣.

حدثنا روح، حدثنا سعيدُ بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادةَ، حدثنا أبو رافع، عن أبي هُرَيرَةَ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: إن يأجوجَ ومأجوجَ ليحفرون السدَّ كلَّ يوم، حتى إذا كادُوا يَرون شُعاعَ الشمس قال الذي عليهم: ارجعُوا، فستحفِرُونه غداً. فيعودُون إليه كأشدِّ ما كان، حتى إذا بلغت مُدّتُهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس، حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا، فستحفرونه غداً إن شاء الله. ويستثني[(١)]، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تَركُوه، فيحفرونه ويخرجُون على الناس، فَيَنْشِفُون[(٢)] المياه، ويتحصَّن الناس منهم في حصونهم، فيرمُون بسهامهم إلى السماء، فترجع وعليها كهيئَةِ الدم، فيقولون: قَهَرنا أهلَ الأرض وعَلَونا أهل السماء. فيبعث الله عليهم نَغَفاً[(٣)] في أقفائهم، فيقتلهم بها. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «والذي نفسي بيده إن دوابَّ الأرضِ لتسمَنُ، وتَشْكَرُ شَكَراً[(٤)] من لحومهم ودمائهم».

ورواه أحمد أيضاً عن حسن ـ هو ابنُ موسى الأشيبُ ـ عن سفيان، عن قتادَةَ، به. وكذا رواه ابنُ ماجه، عن أزهر بن مَرْوَان، عن عبد الأعلى، عن سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة قال: حدث أبو رافع. وأخرجه الترمذي، من حديث أبي عوانة، عن قتادة. ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه[(٥)].

وهذا إسناد جيّدٌ قويٌّ، ولكن في رفعه نَكارة، لأن ظاهر الآية يقتضي أنهم لم يتمكَّنوا من ارتقائه ولا من نَقْبِهِ، لإحْكام بنائه وصلابته وشدته. ولكن هذا قد رُوِي عن كعب الأحبار: أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحَسُونه حتى لا يبقى منه إلا القليل، فيقولون: غداً نفتحه. فيأتون من الغد وقد عاد كما كان، فيلحسونه حتى لا يبقي منه إلا القليل، فيقولون كذلك، ويصبحون وهو كما كان، فيلحَسُونه ويقولون: غداً نفتحه. ويُلْهَمون أن يقولوا: «إن شاء الله». فيصبحون وهو كما فارقوه، فيفتحونه. وهذا مُتَّجه، ولعل أبا هُريرة تلقَّاه من كعب، فإنه كثيراً ما كان يجالسه وَيُحدِّثه، فَحَدَّث به أبو هُريرة، فتوهَّم بعضُ الرواة عنه أنه مرفوع، فرفَعه. والله أعلم.

ويؤكد ما قلناه، من أنهم لم يتمكّنوا من نَقْبه ولا نَقْبِ شيء منه، ومن نَكَارة هذا المرفوع، قولُ الإمام أحمد.

حدثنا سفيان، عن الزهري، عن عروة، عن [(٦ـ) زينبَ بنتِ أبي سَلَمة، عن حَبِيبةَ بنت أُمِّ حَبِيبَةَ بنت أبي سفيان، عن أُمِّها أُمِّ حَبِيبة، عن (ـ٦)] زينبَ بنت جَحشٍ زوج النبي ـ ﷺ ـ قال سفيان: أربعُ نسوةٍ ـ قالت: استيقظَ النبيُّ ـ ﷺ ـ من نومه وهو محمَرٌّ وجهُهُ، وهو يقولُ: لا إلَه إلا الله! ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقتربَ! فُتِحَ اليومَ من ردْمِ يأجوج ومأجوج مثلُ هذا، وحَلَّق[(٧)]، قلت: يا رسولَ الله، أَنَهْلِكُ وفينا الصَّالحون؟ قال: نعم إذا كَثُر الخَبَثُ[(٨)].

---

(١) أي يقول: إن شاء الله.

(٢) أي: يُجفِّفون المياه.

(٣) النَّغَفُ: دود يكون في أنوف الإبل والغنم. ودودٌ أبيضُ يكون في النوى.

(٤) شكرت الدابة تَشْكُرُ: أصابت مرعىً فسمنت عليه.

(٥) مسند أحمد ٥١٠/٢ ـ ٥١١، وسنن ابن ماجه، كتاب الفتن ١٣٦٤/٢ ـ ١٣٦٥، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الكهف ١٠/١٢ ـ ١٢.

(٦ ـ ٦) عن المسند.

(٧) في رواية أخرى في المسند ٤٢٩/٦: «وهو عاقد بإصبعيه السبابة بالإبهام». وانظر فتح الباري ١٠٨/١٣ في كيفية هذا العقد ودلالته، كما ينظر البيان والتبيين للجاحظ ٧٦/١، ونتائج الفكر في النحو للسهيلي ١٢٨.

(٨) مسند الإمام أحمد ٤٢٨/٦.

هذا حديث صحيح اتَّفَق البخاريُّ ومسلمٌ على إخراجه، من حديث الزهري. ولكن سقط في رواية البخاري ذِكر حبيبة[١]، وأثبتها مسلم. وفيه أشياء عزيزة نادرة قليلة الوقوع في صناعة الإسناد، منها رواية الزهري عن عروةَ، وهما تابعيان، ومنها اجتماع أربع نسوة في سَنَدِه، كلُّهن يروي بعضهن عن بعض. ثم كلٌّ منهن صحابية، ثم ثنتان ربيبتان وثنتان زوجتان، رضي الله عنهن.

وقد رُوِيَ نحوُ، هذا عن أبي هُرَيرة أيضاً، فقال البزار: حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا مؤمَّل ابن إسماعيل، حدثنا وُهَيب، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة، عن النبي - ﷺ - أنه قال: «فُتِحَ اليومَ من رَدْمِ يأجوجَ ومأجوج مثلُ هذا وعَقَد التسعين».

وأخرجه البخاريُّ ومسلمٌ، من حَديث وُهَيْبٍ، به[٢].

وقوله: ﴿ قال هذا رحمةٌ من ربّي ﴾، أي: لَمَّا بناه ذُو القرنين ﴿ قال هذا رحمةٌ من ربّي ﴾، أي: بالناس، حيثُ جَعَل بينهم وبين يأجوجَ ومأجوجَ حائلاً يمنعُهم من العَيْثِ في الأرض والفساد. ﴿ فإذا جاء وعدُ ربي ﴾، أي: إذا اقترب الوعدُ الحقُّ، ﴿ جعله دكَّاء ﴾، أي: ساواه بالأرض. تقول العرب: ناقةَ دكَّاءُ: إذا كان ظهرها مستوياً لا سَنَامَ لها. وقال تعالى: ﴿ فلما تَجَلَّى ربُّه للجبل جعله دَكّاً ﴾، أي: مساوياً للأرض.

وقال عكرمةُ في قوله: ﴿ فإذا جاء وعد ربي جعله دَكَّاء ﴾، قال: طريقاً كما كان.

﴿ وكان وعد ربي حقاً ﴾، أي: كائنٌ لا محالَةَ.

وقوله: ﴿وتركنا بعضَهم يومئذٍ يموج في بعض﴾، أي: الناس يومئذٍ، أي: يوم يُدَكُّ[٣] هذا السدُّ ويخرجُ هؤلاء فيموجُون في الناس ويُفسِدُون على الناس أموالَهم ويُتْلِفون أشياءهم، وهكذا قال السدِّيُّ في قوله: ﴿ وتركنا بعضَهم يومئذ يموجُ في بعض ﴾، قال: ذاك حين يخرجون على الناس. وهذا كلُّه قبلَ يوم القيامة وبعد الدجَّال، كما سيأتي بيانه - إن شاء الله تعالى - عند قوله: ﴿ حتى إذا فُتحت يأجوجُ ومأجوجُ وهُم مِن كُلِّ حَدَبٍ ينسِلُون * واقترب الوعدُ الحقُّ﴾[٤] وهكذا قال ها هنا: ﴿وتركنا بعضَهم يومئذٍ يموجُ في بعضٍ ونُفخ في الصُّور فَجَمعناهم جمعاً ﴾، قال ابنُ زيد في قوله: ﴿ وتَرَكْنا بعضَهم يومئذٍ يموجُ في بعض ﴾. قال: هذا أوَّل يومِ القيامة، ثم ﴿نُفخَ في الصُّور﴾ على أَثَرِ ذلك، ﴿ فَجَمَعْنَاهم جمعاً ﴾[٥].

وقال آخرون: بل المرادُ بقوله: ﴿ وتَرَكْنا بعضَهم يومئذٍ يموجُ في بعض ﴾، أي: يومَ القيامة يختلِطُ الإنسُ والجنُّ.

روى ابنُ جرير، عن محمد بن حُمَيد، عن يعقوبَ القُمِّي، عن هارون بن عَنْتَرَة، عن شَيْخٍ من بني فَزَارَة في قوله: ﴿ وتركنا بعضَهُم يومئذ يموجُ في بَعضٍ ﴾، قال: إذا ماجَ الجنّ والإنسُ قال إبليس: أنا أعلمُ لكم عِلْمَ هذا الأمر. فيظعَن إلى المشرق، فيجد الملائكة قد تَطبَّقوا[٦] الأرض، ثم يظعَنُ إلى المغرب فيجدُ الملائكةَ تَطبَّقوا[٦] الأرض، ثم يظعن يميناً وشمالاً حتى ينتهي إلى أقصى الأرض، فَيجِدُ الملائكة تَطَبَّقوا[٦]

(١) في نسخة الحرم: «ذكر أم حبيبة». وهو خطأ. بل الساقط من رواية البخاري حبيبة. والحديث أخرجه البخاري ومسلم في كتاب الفتن، فتح الباري ١١/١٣، ومسلم ٢٢٠٧/٤.

(٢) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٣٨٢/٦، ومسلم، كتاب الفتن ٢٢٠٨/٤. (٣) في نسخة الحرم: يوم تبدّد.

(٤) انظر تفسير آيتي سورة الأنبياء ٩٥-٩٦. (٥) تفسير الطبري ٢٩/١٦.

(٦) كذا في نسخة الحرم، وفي غيرها: بطنوا. وكأن المراد بتطبّقوا أنهم عَمُّوها وغشوها. والمعروف في هذا المعنى: طَبَّق لا تطبّق، يقال: طبَّق السحاب الجَوّ، والغيمُ السماء، والماءُ وَجْهَ الأرض: غشاه وعَمَّه. وفي تفسير الطبري: قطعوا الأرض.

الأرض، فيقول: ما من مَحِيص فبينما هو كَذَلك إذ عَرَضَ له طريقٌ كالشِّراك، فأخذ عليه هو وذُرِّيته، فبينما هم عليه إذ هجموا على النار، فأخرجَ الله خازناً من خُزَّان النار، فقال: يا إبليسُ، ألم تكن لك المنزلةُ عند ربك؟! ألم تكن في الجِنان؟! فيقول: ليس هذا يومَ عتاب، لو أن الله فَرَضَ عَلَيَّ فريضةً لعبدتُه فيها عبادةً لم يَعْبُده مثلَها أحدٌ من خلقه. فيقول: فإن الله قد فَرَض عليك فريضةً. فيقول: ما هي؟ فيقول: يـأمرك أن تدخل النار. فيتلكأ عليه، فيقولُ[١] به وبذُرِّيته بجناحيه فيقذِفُهم في النار. فتزفر جهنم زفرةً لا يبقي مَلَكٌ مُقرَّب ولا نبي مُرسَل إلا جَثَى لِرُكبتَيه.[٢].

وهكذا رواه ابنُ أبي حاتم من حديث يعقوب القُمِّي، به. ورواه من وجه آخَر، عن يعقوب، عن هارون ابن عَنْتَرَة، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾، قال: الجن والإنس، يموجُ بعضهم في بعض.

وقال الطبراني: حدثنا عبدالله بن محمد بن العباس الأصبهاني، حدَّثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا المغيرة بن مسلم، عن أبي إسحاق، عن وهب بن جابر، عن عبدالله ابن عمرو، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، ولو أُرسِلوا لأفسدُوا على الناس مَعايشَهُم. ولن يموت منهم رجل إلا ترك من ذُرِّيته ألفاً فصاعداً، إن من ورائهم ثلاثَ أُمَمٍ: تاويل، وتاريس[٣]، ومنسك». هذا حديث غريب، بل منكر ضعيف[٤].

ورَوى النسائي من حديث شعبةَ، عن النعمان بن سالم، عن ابن عمرو بن أوس، عن أبيه، [عن جده][٥]، مرفوعاً: «إن يأجوج ومأجُوجَ لهم نساء يُجامعون ما شاءوا، وشجر يَلْقَحُون ما شاءوا، ولا يموتُ رجل منهم إلا ترك من ذُرِّيته ألفاً فصاعداً».

وقولُه: ﴿ ونُفِخَ في الصور ﴾، والصُّورُ كما جاء في الحديث: قَرْنٌ يُنفَخُ فيه، والذي ينفخُ فيه إسرافيل عليه السلام كما تقدَّم في الحديث بطوله[٦]، والأحاديث فيه كثيرة.

وفي الحديث عن عطيَّة، عن ابن عباس وأبي سَعِيد مرفوعاً: «كيف أنعَمُ وصاحب القرن قد التقم القَـرْن، وحنى جبهته واستمع متى يؤمر. قالوا: كيف نقولُ؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونِعْمَ الوكيلُ، على الله توكلنا[٧]».

وقولُه: ﴿ فَجمعناهم جَمْعاً ﴾ ، أي: أحضرنا الجميعَ للحساب ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾، ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾.

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ ﴾

(١) يطلق القول في اللغة على جميع الأفعال، والمعنى: فيأخذ به.
(٢) تفسير الطبري ١٦/٢٨ ـ ٢٩.
(٣) في مسند أبي داود: وتاريس.
(٤) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ٣٠١.
(٥) سقط من نسخة الحرم. والحديث أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سُننه الكبرى. انظر تحفة الأشراف للمزي ٦/٢.
(٦) انظر الحديث عند تفسير الآية ٧٣ من سورة الأنعام.
(٧) أخرجه الترمذي في أبواب صفة القيامة، عارضة الأحوذي ٩/٢٦١، وانظر التعليق السابق.

يقولُ تعالى مخبراً عما يفعله بالكُفَّار يوم القيامة، أنه يَعرض عليهم جهَنَّم، أي: يُبرزها لهم ويظهرها، ليَرَوا ما فيها من العذاب والنَّكال قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغَ في تَعْجِيل الهمِّ والحُزْنِ لهم.

وفي صحيح مسلم، عن ابن مسعود قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يُؤتَى بجهنم يوم القيامة تقادُ بسبعين ألفَ زِمَام، مع كلِّ زِمَامٍ سبعُونَ ألفَ مَلَكٍ»(١).

ثم قال مخبراً عنهم: ﴿ الذين كانت أعينُهم في غِطَاءٍ عن ذكري ﴾، أي: تعامَوا وتغافَلوا وتصامُّوا عن قبول الهُدى واتِّباع الحق، كما قال تعالى: ﴿ ومن يَعْشُ عن ذِكْرِ الرَّحمن نُقَيِّض له شيطاناً فهُو له قَرِين ﴾، وقال هاهنا: ﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾، أي: لا يعقِلُون عن الله أمره ونَهيه.

ثم قال: ﴿ أفحسب الذين كفروا أن يَتَّخذوا عبادي من دوني أولياء ﴾ أي: اعتَقَدُوا أنهم يصحُّ لهم ذلك، وينتفعون بذلك؟ ﴿ كَلَّا سيكفُرون بعبادتهم ويكونُون عليهم ضِدّاً ﴾، ولهذا أخبر أنه قد أعدَّ جهَنم يوم القيامة منزلا.

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

قال البخاري: حدثنا محمد بن بشار: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عَمْرو، عن مُصعَب قال: سألت أبي ـ يعني سَعْدَ بن أبي وقاص ـ: ﴿قل: هل نُنبئكم بالأخسرين أعمالاً﴾) أهم الحَرُورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ـ ﷺ ـ وأما النصارى فكفروا بالجَنَّةِ، وقالوا: لا طعامَ فيها ولا شَراب والحروريَّة الذين ينقضُون عهدَ الله من بعد ميثاقه. وكان سعد ـ رضي الله عنه ـ يسميهم الفاسقين(٢).

وقال علي بن أبي طالب، والضحاك، وغير واحد: هم الحَرُورية(٣).

ومعنى هذا عن علي رضي الله عنه: أن هذه الآية الكريمة تشمل الحروريَّة كما تشملَ اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هي أعمُّ من هذا؛ فإنَّ هذه الآية مكية قبل خطاب اليهودِ والنصارى وقبل وُجودِ الخوارج بالكلية، وإنما هي عامَّة في كل من عبدَ الله على غير طريقةٍ مَرْضيَّة يَحْسب أنه مصيبٌ فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطيء وعملُه مردودٌ، كما قال تعالى: ﴿ وجوه يومئذ خاشعةٌ * عامِلَةٌ ناصبةٌ * تصلَى ناراً حامية﴾، وقوله تعالى: ﴿ وقَدِمنا إلى ما عَمِلُوا من عَمَلٍ فجعلناه هباءً منثُوراً ﴾، وقال تعالى: ﴿ والذين كفروا بربهم أعمالُهم كسَرَاب بقيعةٍ يحسَبُه الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾.

وقال في هذه الآية الكريمة، ﴿ قل هل ننبئكم ﴾، أي: نُخبركم ﴿ بالأخسَرين أعمالاً ﴾؟ ثم فَسَّرهم فقال: ﴿ الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا ﴾، أي: عَمِلوا أعمالاً باطلةً على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة، ﴿ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾، أي: يَعتقدون أنَّهم على شيءٍ، وأنهم مَقبُولون مَحبُوبون.

(١) مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٤/٢١٨٤.
(٢) فتح الباري، تفسير سورة الكهف ٨/٤٢٥.
(٣) تفسير الطبري ١٦/٣٢ ـ ٣٣.

وقولُه: ﴿ أولئك الذين كَفروا بآياتِ ربِّهم ولقائِهِ ﴾، أي: جَحدوا آياتِ الله في الدنيا، وبَراهينَه التي أقام على وحدانيته، وصِدْق رسله، وكَذَّبوا بالدار الآخرة، ﴿ فلا نُقيمُ لهم يومَ القيامة وزناً ﴾، أي: لا نُثقِلُ موازينهم لأنها خالية عن الخير.

قال البخاري: حدثنا محمدُ بن عبد الله، حدثنا سعيدُ بن أبي مريم، أخبرنا المغيرةُ، حدَّثني أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هُريرة، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إنه لَيأتي الرجلُ العظيمُ السمينُ يومَ القيامة، لا يَزِنُ عند الله جناحَ بعوضةٍ، وقال: اقرءوا إن شئتم: ﴿ فلا نُقيم لهم يومَ القيامةَ وزناً ﴾. وعن يحيى بن بُكير، عن مغيرة بن عبد الرحمن، عن أبي الزناد، مثله[1].

هكذا ذَكره عن يحيى بن بكير مُعلَّقاً. وقد رواه مسلم، عن أبي بكر محمد بن إسحاق، عن يحيى بن بكير، به[1].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن صالح مولى التَّوأمةِ، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: يُؤتَى بالرَّجُلِ الأكُولِ الشَّرُوبِ العَظِيم، فَيُوزَن بحبَّة فلا يَزِنُها. قال: وقرأ: ﴿ فلا نُقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾.

وكذا رواه ابن جرير، عن أبي كُرَيب، عن أبي الصَّلْتِ عن ابن أبي الزِّنَادِ، عن صالح مولى التَّوْأَمَةِ، عن أبي هُرَيرة مرفُوعاً[2]. فذكره بلفظ البخاري سواء:

وقال أحمدُ بن عَمْرو بن عبدِ الخالق البزَّار: حدثنا العباسُ بنُ محمدٍ، حدثنا عَون بن عُمَارة، حدثنا هشام ابن حَسَّان، عن واصل، عن عبد الله بن بُرَيدة، عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ـ ﷺ ـ فأقبل رجل من قريش يَخْطِرُ في حُلَّة له، فلما قامَ على النبي ـ ﷺ ـ قال: يا بُرَيدَةُ، هذا ممن لا يُقيم الله له يوم القيامة وزناً.

ثم قال: تَفَرَّد به واصلُ مولى أبي عُيَينة، وعنه عَونُ بن عُمَارةَ وليس بالحافظ. ولم يتابع عليه[3].

وقد قال ابنُ جرير أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبدُ الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن شِمْرٍ، عن أبي يحيى، عن كعب قال: يؤتى يوم القيامة برجُلٍ عظيمٍ طويل، فلا يَزِن عند الله جناح بعوضةٍ، اقرءوا: ﴿ فلا نُقيمُ لهم يومَ القيامةِ وَزناً ﴾[4].

وقولُه: ﴿ ذلك جزاؤهم جهنَّم بما كفروا ﴾، أي: إنما جازيناهم بهذا الجزاءِ بِسَببِ كُفْرِهم واتِّخاذِهم آياتِ الله ورُسلِهِ هُزواً، استهزءوا بهم وكَذَّبوهم أشدَّ التكذيب.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن عباده السُّعَداء، وهم الذين آمنوا بالله ورُسُلِه وصَدَّقُوهم فيما جاءُوا به، بأنَّ لهم جناتِ الفِرْدَوس. قال مجاهد: الفردوسُ هو البُستان بالروميَّة. وقال كعبٌ، والسدِّي، والضَّحاك: هو البستان الذي فيه شجرُ الأعناب. وقال أبو أمامة: الفردوسُ سُرَّة الجنة. وقال قتادةُ: الفردوسُ: ربوةُ الجنة وأوسطها وأفضلها.

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة الكهف ٤٢٦/٨. ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ٢١٤٧/٤.

(٢) تفسير الطبري ٣٥/١٦.

(٣) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب اللباس ٣٦٥/٣.

(٤) تفسير الطبري ٣٥/١٦.

وقد رُوِي هذا مرفوعاً من حديث سعيد بن بَشير، عن قتادَةَ، عن الحسن، عن سَمُرة، عن النبي - ﷺ -: «الفردوسُ رَبوةُ الجنة، هي أوسطها وأحسنها».

وهكذا رواه إسماعيل بن مسلم، عن الحسن، عن سَمُرة، مرفوعا. ورُوِي عن قتادة، عن أنس بن مالك مرفوعاً بنحوه. ذكر ذلك كلَّه ابن جرير(١).

وفي الصحيحين: «إذا سألتُم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنةِ وأوسطُ الجنةِ، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنة»(٢).

وقوله: ﴿ نُزُلاً ﴾، أي: ضِيافةً، فإنَّ النُّزُلَ الضِّيافةُ.

وقولُه: ﴿ خالدين فيها ﴾، أي: مُقِيمين ساكنين فيها، لا يظعَنُون عنها أبداً، ﴿ لا يبغُون عنها حِوَلاً ﴾، أي: لا يختارون غيرَها، ولا يُحِبُّون سواها، وكما قال الشاعر(٣):

فَحَلّتْ سُوَيدَا القَلْبِ، لاَ أنَا بَاغياً ... سِـوَاهَـا، وَلاَ عَنْ حُبِّهـا أتَحَـوَّلُ

وفي قوله: ﴿ لا يبغُون عنها حِوَلاً ﴾، تنبيهٌ على رَغْبَتِهم فيها، وحِبهم لها، لأنّه قد يُتَوَهَّم فيمن هو مقيم في المكان دائماً أنه قد يسأمه أو يَملُّه، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السَّرمَدِيِّ لا يختارون عن مقامهم ذلك مُتحوَّلاً ولا انتقالا، ولا ظَعناً ولا رِحلةً ولا بَدَلاً.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى: قل يا مُحمَّدُ: لو كان ماءُ البحرِ مدَاداً للقلم الذي تُكتَبُ به كلمات رَبِّي وحِكَمه وآياته الدالة عليه، لَنَفِد البحر قبلَ أن تَفرُغَ كتابةُ ذلك، ﴿ ولو جئنا بمثله مدداً ﴾، أي: بمثل البحر آخَرَ، وَهَلُمَّ جرّاً، بُحورٌ تَمُدُّه ويُكتَب بها، لما نَفِدَت كلماتُ الله، كما قال تعالى: ﴿ ولو أنَّ ما في الأرضِ من شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يمدُّه من بعده سبعةُ أبحُرٍ ما نَفِدت كَلِماتُ الله إنَّ الله عزيز حكيم ﴾.

قال الربيع بن أنس: إنَّ مثلَ علم العبادِ كُلِّهم في علم الله كَقطْرَةٍ من ماء البحور كُلِّها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لَنفِدَ البحرُ قبل أن تنفَدَ كلماتُ ربِّي ولو جئنا بمثله مَدَداً ﴾.

يقولُ: لو كان البحرُ مِداداً، والشجر كُلُّها أقلامٌ، لانكسرت الأقلام وَفَنِي ماءُ البحر، وبَقِيت كلماتُ الله قائمةً لا يُفنِيها شيءٌ، لأن أحداً لا يستطيع أن يَقْدُرَ قدرها ولا يُثْنِي عليه كما ينبغي، حتى يكونَ هو الذي يُثْنِي على نفسه، إن ربَّنا كما يقول وفوق ما نقول، إنَّ مَثَلَ نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة كحبَّة من خَرْدَل في خلال الأرض.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾

---

(١) تفسير الطبري ٣٨/١٦.

(٢) فتح الباري، كتاب الجهاد ١١/٦.

(٣) النابغة الجعدي، وهو من شواهد المغني، انظر شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي ٣٨٧/٤، وروايته فيه:

وحلت سواد القلب لا أنا باغياً ... سواها ولا عن حبها متراخياً

يقولُ تعالى لرسوله محمد ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ: ﴿ قل ﴾ لهؤلاء المشركين المكذِّبين برسالتك إليهم: ﴿ إنما أنا بشر مثلكم ﴾، فمن يَزْعُم أني كاذب فَلْيأتِ بمثلِ ما جئتُ به، فإني لا أعلَمُ الغيب فيما أخبرتُكم به من الماضي، عما سألتم من قصة أصحاب الكهف، وخَبَر ذي القرنين، مما هو مطابق في نفس الأمر، لولا ما أطلَعَني الله عليه. وأنا أخبركم ﴿ أنَّما إلهكُم ﴾ الذي أدعوكُم إلى عبادته، ﴿ إلهٌ واحدٌ ﴾، لا شريكَ له، ﴿ فمن كان يرجُو لقاءَ ربِّه ﴾، أي: ثوابه وجزاءه الصالح، ﴿ فَلْيَعملْ عملاً صالحاً ﴾، وهو ما كان موافقاً لشرع الله، ﴿ ولا يُشرِكْ بعبادةِ ربِّه أحداً ﴾، وهو الذي يُرادُ به وَجْهُ الله وحدَه لا شريكَ له. وهذان ركنا العَمَلِ المتقبَّل. لابدَّ أن يكونَ خالِصاً لـلّه، صواباً على شريعة رسول الله.

وقد روى ابنُ أبي حاتم، من حديث معمر، عن عبد الكريم الجَزَري، عن طاوس قال: قال رجلٌ: يا رسولَ الله، إني أقف المواقف أريد وجهَ الله، وأحبُّ أن يُرَى موطني. فلم يَرُدَّ عليه رسول الله ـ ﷺ ـ شيئاً، حتى نزلت هذه الآية: ﴿ فمن كان يرجُو لقاءَ ربِّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يُشرِكْ بعبادَةِ ربه أحدا ﴾[1].

وهكذا أرسل هذا مجاهدٌ، وغيرُ واحد[1].

وقال الأعمش: حدثنا حمزة أبو عُمارة مولى بني هاشم، عن شَهْر بن حَوْشَب قال: جاء رجلٌ إلى عُبادَةَ ابن الصامت فقال: أنبئني عما أسألُكَ عنه: أرأيتَ رَجُلاً يُصَلِّي يبتغي وجه الله ويحِبُّ أن يحمدَ، ويصوم ويبتغي وجهَ الله ويُحبُّ أن يُحمَدَ، ويَتصدَّق ويبتَغي وجه الله ويحبُّ أن يحمد، ويحُجُّ ويبتغي وَجْهَ الله ويُحِبُّ أن يُحمَدَ؟ فقال عبادةُ: ليس له شيءٌ، إنَّ الله تعالى يقولُ: أنا خيرُ شريكٍ، فمن كان له معي شِرْكٌ[٢] فهو له كلُّه، لا حاجةَ لي فيه[٣].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير، حدثنا كثير بن زيد، عن رُبَيح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخُدْري، عن أبيه عن جَدِّه قال: كُنَّا نتناوَبُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فَنبيت عنده، تكونُ له الحاجةُ، أو يطرُقه أمرٌ من الليل، فيبعثنا. فكـثر المحتسبون وأهل النُّوَب، فكنا نتحدَّثُ، فخرج علينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال: ما هذه النَّجْوَى؟[٤] قال: فقلنا: تُبنا إلى الله أيْ نبيَّ الله، إنما كنا في ذكر المسيح، وفَرِقنا منه، فقال: ألا أُخبِرُكم بما هو أخوفُ عليكم من المسيح عندي؟ قال: قلنا: بلى. قال: الشركُ الخفيُّ، أن يَقومَ الرجلُ يُصَلِّي لمكانِ الرَّجل[٥].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد، يعني ابن بَهرام، قال: قال شهر بن حَوْشَب: قال ابنُ غَنْم: لما دخلنا مسجد الجابية[٦] أنا وأبو الدرداء، لقينا عبادَةَ بن الصامت، فأخذ يميني بِشمالِه، وشمالَ أبي الدرداء بيمينه، فخرَجَ يمشي بيننا ونحن نتناجَى، والله أعلم بما نتناجَى، فقال عبادةُ بن الصامت: إن طال بكما عمرُ أحدكما أو كليكما لَتُوشكان أن تَرَيا الرجل من ثَبَج المسلمين ـ يعني من وسط ـ قرأ القرآن على لسان محمد ـ ﷺ ـ فأعاده وأبدأه، وأحلَّ حلاله وحرَّم حرامه، ونزل عند منازله أو قرأه على لسان آخر قرأه على لسان محمد ـ ﷺ ـ فأعاده وأبدأه، وأحلَّ حلاله وحرم حرامه، ونَزَلَ عند منازله، لا يَحُورُ فيكم إلا كما

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٦/٤٠ بإسناده إلى معمر، مثله.
(٢) أي: نصيب. وفي تفسير الطبري: شريك.
(٣) تفسير الطبري ١٦/٤٠.
(٤) بعده في المسند: الم أنهكم عن التجوي؟!.
(٥) مسند أحمد ٣/٣٠.
(٦) الجابية: من أعمال دمشق.

يَحُورُ رأس الحمار الميت[١]. قال: فبينما نحنُ كذلك، إذ طَلَع شداد بن أوس، وعوف بن مالك، فجَلَسا إلينا، فقال شَدَّادٌ: إن أخوفَ ما أخاف عليكم أيها الناس ما سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: من الشهوة الخَفِيَّةِ والشرك. فقال عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء: اللهم غَفْراً. أو لم يكن رسول الله ـ ﷺ ـ قد حَدَّثنا أن الشيطان قد يَئِسَ أن يُعبَد في جزيرة العرب. وأما الشهوةُ الخفيَّةُ فقد عَرَفناها، هي شَهَوات الدنيا من نسائها وشهواتها، فما هذا الشرك الذي تُخَوِّفنا به يا شداد؟ فقال شداد: أرأيتَكُم لو رأيتُم رَجُلا يُصَلِّي لرجل، أو يصوم لرجل أو يتَصدَّق له، أتُرون أنه قد أشرك؟ قالوا: نعم، والله إنه من صلى لرجل أو صام له أو تصدَّق له، لقد أشرك. فقال شداد: فإني سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «من صلَّى يُرَائي فقد أشرك، ومن صام يُرَائي فقد أشرك، ومن تَصدَّق يرائي فقد أشرك. فقال عوفُ بن مالك عند ذلك: أفلا يعمِد الله إلى ما ابتغي به وجهَه من ذلك العمل كُلِّه، فيقبل ما خَلَص له ويَدَع ما أشرك به؟ فقال شداد عند ذلك: فإني سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: إن الله يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بي، من أشرك بي شيئاً فإنَّ عَمَله قَلِيلَه وكَثِيرَه لِشَريكِهِ الذي أَشرَكَ به، أنا عنه غَنِيٌّ»[٢].

طريقٌ أُخرَى لبعضه، قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثني عبد الواحد بن زياد، أخبرنا عُبادةَ بـن نُسَيٍّ، عن شَدَّاد بن أَوْس أنه بَكَى، فقيل له: ما يُبكِيك؟ قال: شيء سَمِعْتُه من رسول الله ـ ﷺ ـ فأبكاني، سمِعتُ رسولَ الله يقول: أتخوَّفُ على أُمَّتي الشرك والشهوةَ الخفيَّة. قلتُ: يا رسول اللهِ، أتُشرِكُ أمتك من بعدك؟ قال: نعم، أما إنهم لا يعبدُون شمساً ولا قمراً، ولا حجراً ولا وَثَناً، ولكن يُراءون بأعمالهم، والشهوةُ الخفيَّة أن يصبح أحدُهم صائماً فتعرِض له شهوةٌ من شَهَواته فيترُك صَوْمَه»[٣].

ورواه ابن ماجه[٢] من حديث الحسن بن ذكوان، عن عبادة بن نُسَيٍّ، به. وعبادةُ فيه ضعفٌ، وفي سماعه من شداد نظر.

حديث آخر، قال الحافظ أبو بكر البزَّار: حدثنا الحُسَين بن علي بن جعفر الأحمر، حدثنا علي بن ثابت، حدثنا قيس بن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يقول الله يوم القيامة: أنا خيرُ شريك، من أشرك بي أحداً فهو له كلُّه».

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبةُ، سمعت العلاء يُحدِّث عن أبيه، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ يرويه عن ربِّه ـ عز وجل ـ أنه قال: أنا خيرُ الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري، فأنا منه بريءٌ، وهو للذي أشرك»[٤]. تفرد به من هذا الوجه.

حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا ليث، عن يزيد ـ يعني ابن الهاد ـ عن عمرو، عن محمود بن لبيد: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكم الشركُ الأصغرُ. قالوا: وما الشركُ الأصغرُ يا رسولَ الله؟ قال: الرياءُ، يقولُ الله يومَ القيامةِ إذا جَزَى الناسَ بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تُرَاءون في الدنيا، فانظروا هل تَجِدُون عندهم جزاءً»[٥].

---

(١) الحَوْرُ: الرجوع، أي: لا يرجع فيكم بخير ولا ينتفع بما حفظه من القرآن الكريم كما لا ينتفع بالحمار الميّت صاحبُه.
(٢) مسند أحمد ٤/١٢٥ ـ ١٢٦.
(٣) مسند أحمد ٤/١٢٣ ـ ١٢٤، وسنن ابن ماجه، كتاب الزهد ٢/١٤٠٦.
(٤) مسند أحمد ٢/٣٠١.
(٥) مسند أحمد ٥/٤٢٨.

حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بَكْرٍ، أخبرنا عبد الحميد ـ يعني ابنَ جعفر ـ أخبرني أبي، عن زياد بن ميناءَ، عن أبي سعيد[1] بن أبي فَضَالَةَ الأنصاري ـ وكان من الصحابة ـ أنه قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: إذا جَمَعَ الله الأوَّلين والآخرينَ ليوم القيامة، ليوم لا ريب فيه، نادى منادٍ: من كان أشركَ في عملٍ عَمِله لله أحداً فَلْيطلُبْ ثوابَه من عند غيرِ الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك[2].

وأخرجه الترمذي وابن ماجه، من حديث محمود بن بكر، وهو البُرْساني[2] به.

حديث آخر، قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا بكر، حدثني أبي ـ يعني عبد العزيز بن أبي بكرةَ ـ عن أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «من سَمَّع سَمَّعَ الله به، ومن راءى راءى الله به[3]».

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا معاويةُ، حدثنا شيبانُ، عن فِراسٍ، عن عطيَّةَ، عن أبي سعيدٍ، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ قال: «من يُرَائي يُرائي الله به، ومن يُسَمِّع يُسَمِّع الله به»[4].

حديثٌ آخرُ، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يحيى بنُ سعيدٍ، عن شُعبةَ، حدثني عَمرو بن مُرَّة، قال: سَمِعتُ رجلًا في بيت أبي عبيدة أنه سَمِع عبد الله بن عمرو يُحدِّث ابن عمر، أنه سَمع رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «من سَمَّع الناس بعمله سَمَّع الله به، سامَعَ خَلْقَه، وصَغَّره وحَقَّره. فَذَرفت عينا عبد الله[5]».

وقال الحافظ أبو بكر البزَّار: حدثنا عَمرو بن يحيى الأيلي، حدثنا الحارثُ بن غَسَّانَ، حدثنا أبو عمرانَ الجَوْنيُّ، عن أنس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: تُعرَض أعمال بني آدم بين يَدَي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يوم القيامة في صُحُف مُخَتَّمةٍ فيقولُ الله: أَلقُوا هذا، واقبَلوا هذا. فتقولُ الملائكةُ: يا ربِّ، والله ما رأينا منه إلا خيراً. فيقولُ: إنَّ عمله كان لغير وَجْهي، ولا أقبل اليومَ من العمل إلا ما أُريد به وجهي[6].

ثم قال: الحارثُ بن غَسَّانَ، روى عنه جماعةٌ، وهو ثقة بصري ليس به بأس.

قال ابنُ وَهْبٍ: حدثني يزيدُ بن عياض، عن عبد الرحمن الأعرج، عن عبد الله بن قيس الخُزَاعِيِّ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «من قام رياءً وسُمعةً لم يزل في مَقْتِ الله حتى يجلس».

وقال أبو يعلَى: حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا محمد بن دينار، عن إبراهيم الهَجَرِيِّ، عن أبي الأحوص عوف بن مالك، عن ابن مسعود قال: قال: رسولُ الله ـ ﷺ ـ من أحسن الصلاة حيث يراه الناس، وأساءها حيثُ يخلُو. فتلك استهانة استهان بها ربَّه عز وجل[7].

وقال ابنُ جرير: حدثنا أبو عامر إسماعيل بن عَمرو السَّكُوني، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا ابن عيَّاش، حدثنا عمرو بن قيس الكِنْدِيّ: أنه سَمع معاويةَ بن أبي سفيان تلا هذه الآية. . . ﴿فمن كان يرجوُ لقاء ربه فَلْيعمَل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾، وقال: إنها آخر آية نزلت من القرآن[8].

(١) كذا في الأصول والمسند. وفي تهذيب الكمال ٥٢١/٩ والترمذي وابن ماجه: أبو سَعْد. ومثله في المقتنى للذهبي ٢٦٣. وفي تهذيب التهذيب ١٠٥/١٢: ويقال أبو سعيد.

(٢) مسند أحمد ٢١٥/٤، وعارضة الأحوي، تفسير سورة الكهف ١٢/١٢ ـ ١٣، وابن ماجه، كتاب الزهد ١٤٠٦/٢.

(٣) مسند أحمد ٤٥/٥.

(٤) مسند أحمد ٤٠/٣.

(٥) مسند أحمد ١٦٢/٢.

(٦) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب البعث ١٥٧/٤.

(٧) مسند أبي يعلى ٦٧/٥.

(٨) تفسير الطبري ٤٠/١٦.

وهذا أثرٌ مشكل، فإن هذه الآية آخِرُ سورةِ الكهف، والكهفُ كلُّها مكيّة، ولعلَّ معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسَخُها ولا تُغيِّر حكمها، بل هي مُثبتة محكَمة، فاشتَبه ذلك على بعضِ الرواة، فروي بالمعنى على ما فَهِمه، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزّار: حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، حدثنا النضر بن شُمَيل، حدثنا أبو قُرَّة، عن سعيد بن المسيِّب، عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: من قرأ في ليلةٍ: ﴿ فَمَن كان يرجُو لقاءَ ربِّه فَلْيَعْملْ عَملاً صالحاً ولا يُشرِكْ بعبادَةِ ربِّه أَحداً ﴾، كان له نورٌ من عَدَنِ أبينَ[1] إلى مَكَّةَ، حَشْوُهُ الملائكة. غريبٌ[2] جداً.

(١) عَدَنُ أبينَ: موضع باليمن، نُسِبَ إلى أبينَ رجلٍ من حِمْيَر، لأنه عَدَنَ به، أي: أقام. وهي عَدَن المعروفة الآن.
(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب الأذكار ٤/٢٥ ـ ٢٦. وانظر الدر المنثور ٥/٤٧٥.

تفسير

سورة مريم

وهي مكية

وقد روى محمدُ بن إسحاق في السِّيرة من حديثِ أم سَلمَة، وأحمدُ بن حَنْبَل، عن ابن مسعود، في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة في مكة: أن جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه(١). والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ
ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ
ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ ﴾

أمَّا الكلامُ على الحروف المُقطَّعة فقد تقدَّم في أول سورةِ البقرة.

وقولُه: ﴿ ذِكْرُ رحمة ربك ﴾. أي: هذا ذكر رحمة ربِّك بعبده زكريا.

وقرأ يحيى بن يعمر: ﴿ ذَكَّرَ رحمةَ ربك عبدَه زكريا ﴾(٢).

﴿ زَكَرِيَّا ﴾: يُمَدُّ ويُقصَرُ، قراءتان مشهورتان. وكان نبيّاً عَظِيماً من أنبياءِ بني إسرائيلَ. وفي صحيح البخاري(٣): أنه كان نَجّاراً، أي: إنه كان يأكلُ من عَمَل يدَيه في النِّجارة.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٣٦، ومسند أحمد ١/٤٦١.

(٢) اختلف في المنقول عن يحيى بن يَعْمَر من ضبط الفعل (ذكر)، فقيل: هو فعل ماضٍ، وقيل: فعلُ أمر. ونُقِل ذلك عن الحسن. انظر المحتسب لابن جني ٢/٣٧، والبحر المحيط ٦/١٧٢.

(٣) لم نجده في البخاري. وقد أخرجه مسلم في كتاب الفضائل ٤/١٨٤٧، وابن ماجه في كتاب التجارات ٢/٧٢٧، والإمام أحمد عن أبي هريرة ٢/٢٩٦، ٤٠٥، ٤٨٥. وانظر تحفة الأشراف للحافظ المزي ١٠/٣٨٦.

وقولُه: ﴿ إذْ نادى ربَّه نداء خَفِيّاً ﴾، قال بعضُ المفسرين: إنما أخفى دُعاءَه لئلا يُنسَبَ في طلب الولد إلى الرَّعُونة لِكِبَرِهِ. حكاه الماوردي.

وقال آخرون: إنما أخفاه لأنه أحبُّ إلى الله. كما قال قتادةُ في هذه الآية: ﴿ إذ نادى ربَّه نِداءً خَفِياً ﴾: إن الله يعلم القلب التَّقِيَّ، ويسمَعُ الصوتَ الخَفِيّ[(١)].

وقال بعضُ السَّلَفِ: قام من اللَّيل وقد نام أصحابُه، فجعل يهتف بِرَبِّه، يقول خُفيَةً: يا ربِّ، يا ربِّ، يا ربِّ. فقال الله: لَبَّيكَ، لَبَّيكَ، لَبَّيكَ.

﴿ قالَ رَبِّ إنِّي وَهن العَظْمُ مِنِّي ﴾، أي: ضَعُفَ، وخارَتِ القُوَى، ﴿ واشتعل الرأسُ شيباً ﴾، أي: اضطرم المَشيبُ في السَّواد، كما قال ابن دُرَيد في مقصورته[(٢)].

إمَّا تَـرَيْ رَأْسِـيَ حَـاكَـى لَـونُـهُ ... طُـرَّةَ صُبْـحٍ تحتَ أذْبَـالِ الـدُّجَى
وَاشْـتَـعَـلَ الـمُـبْـيَضُّ فـي مُـسْـوَدِّه ... مِثْلَ اشْتِعَالِ النَّارِ في جَزْلِ الغَضَـا

والمرادُ من هذا: الإخبار عن الضعف والكبر، ودلائله الظاهرة والباطنة.

وقولُه: ﴿ ولم أكُن بدُعَائِكَ ربِّ شَقِيّاً ﴾، أي: ولم أعهَدْ مِنك إلاّ الإجابَةَ في الدعاء، ولم تَرُدَّني قطُّ فيما سألتُكَ.

وقولُه: ﴿ وإني خفتُ الموالي من ورائي ﴾، قرأ الأكثرون بنصب «الياء» من ﴿ الموالي ﴾، على أنه مفعول. وعن الكسائي[(٣)] أنه سكن الياء، كما قال الشاعر[(٤)].

كَأنَّ أيْديهِنَّ في القَاعِ القَرِقْ ... أيدي جَوَارٍ يَتَعـاطَيْنَ الوَرِقْ

وقال الآخر:

فَتَى لو يُبَارِي الشَّمسَ ألْقَتْ قِنَاعَها ... أو القَمَرَ السَّارِي لألْقَى المَقَالدَا

ومنه قول أبي تَمَّام حَبيب بن أوس الطائي[(٥)]:

تَغَايَرَ الشِّعرُ فيه إذْ سَهِرتُ لَهُ ... حَتَّى ظَنَنْتُ قَـوَافِيْهِ سَتَقْتَتِـلُ

وقال مجاهدٌ، وقتادةُ، والسُّديُّ: أراد بالموالي العَصَبَةَ. وقال أبو صالح: الكَلالَةَ.

ورُوي عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ أنه كان يَقرؤُهـا: ﴿ وإني خَفَّتِ المَوَالِي من وَرَائِي ﴾، بتشديد «الفاء»، بمعنى: قَلَّت عَصَبَاتي من بعدي[(٦)].

---

(١) تفسير الطبري ١٦/٤٥.
(٢) شرح مقصورة ابن دريد، لابن هشام اللخمي ١٥١-١٥٣.
وطرَّة كلِّ شيء: جانبه. والدُّجى: جمع دُجْيَة، وهو ما ألبسك الليل من ظلمته. والجَزْلُ: الغليظ. والغضا: من الشجر ناره بطيئة الخمود.
(٣) نسبت القراءة في روح المعاني إلى الزهري، انظر ١٦/٦١.
(٤) نسبه ابن رشيق في العمدة إلى رؤبة. وعقب البغدادي في الخزائن بقوله ٨/٣٤٨: «ولم أرهما في ديوانه. وضمير أيديهن للإبل. والقاع هو المكان المستوي. والقَرِق بفتح القاف الأولى وكسر الراء: الأملس. والورق: الدراهم».
(٥) ديوانه بشرح التبريزي ٣/١٠.
(٦) تفسير الطبري ١٦/٤٧.

وعلى القراءة الأولى وجْهُ خوفه أنّه خَشِي أن يتصرّفوا من بعده في الناس تَصَرُّفاً سيئاً، فسأل الله ولداً يكون نبياً من بعده، لِيَسُوسَهم بنبوته وما يوحى إليه. فأجيب في ذلك، لا أنه خَشِي من وِرَاثتِهم له ماله، فإن النبي أعظمُ منزلةً وأجلُّ قدراً من أن يُشْفِقَ على ماله إلى ما هذا حدّه أن يأنف من وراثة عَصَباته له، ويسأل أن يكون له ولد، لِيَحُوزَ ميراثه دونهم. هذا وجه.

الثاني: أنه لم يُذكَر أنه كان ذا مال، بل كان نَجّارا يأكل من عَمَل يَدِهِ، ومثل هذا لا يجمع مالاً، ولا سيما الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فإنهم كانوا أزهد شيءٍ في الدنيا.

الثالث أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لا نُورَثُ؛ ما تركنا فَهُو صَدَقة»[1]. وفي رواية عند الترمذي بإسنادٍ صحيح: «نحن ـ مَعَاشر الأنبياء ـ لا نُورَثُ»[2]. فعلى هذا فتعين حمل قوله: ﴿ فهب لي من لدنك ولياً يرثني ﴾، على ميراث النبوة، ولهذا قال ﴿ ويَرِث من آل يعقوب ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وورث سليمانُ داودَ ﴾، أي: في النبوة، إذ لو كان في المال خَصّه من بين إخوته بذلك، ولَما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والمِلَل أنَّ الولد يَرِثُ أباه، فلولا أنها وراثةٌ خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يُقَرِّره ويُبَيِّنه ما صحّ في الحديث: «نحن ـ معشر الأنبياء ـ لا نُورَثُ، ما تركنا فَهُو صدقةٌ».

قال مجاهدٌ في قوله: ﴿ يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾: كان وِرَاثَته عِلْماً، وكان زكريّا من ذرية يعقوب[3].

وقال هُشَيم: أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح في قوله: ﴿ يَرِثُني ويَرِثُ من آل يعقوبَ ﴾، قال: يكون نبياً، كما كانت آباؤه أنبياء[3].

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادَةَ، عن الحسن: يَرِث نُبوَّته وعِلْمَه. وكذا قال السّدّي: يرث نُبُوّتي ونبوة آل يعقوب. وعن مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿ ويرث من آل يعقوب ﴾، قال: نبوتهم.

وقال جابرُ بن نُوح ويزيدُ بن هارونَ، كلاهما عن إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي صالح في قوله: ﴿ يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾، قال: يَرِثُ مالي، ويَرِثُ من آل يعقوبَ النبوَّة.

وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن قتادة: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «يرحَمُ الله زكريا! وما كان عليه من وَرَثةٍ؟ ويرحَمُ الله لوطاً! إن كان لَيَأوِي إلى رُكْنٍ شديدٍ».

وقال ابنُ جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا جابر بن نوح، عن مبارك ـ هو ابنُ فضالَةَ ـ عن الحسن قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «رَحِم الله أخي زكريا! ما كان عليه من وَرَثة ماله حين يقول: ﴿ هَبْ لِي من لدنك وَلِيّاً يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾».

وهذه مُرسَلات لا تعارض الصحاح، والله أعلم.

---

(١) فتح الباري، كتاب الاعتصام ١٣/٢٧٧، ومسلم، كتاب الجهاد ٣/١٣٧٩ ـ ١٣٨٣.

(٢) لم يقع لنا هذا الحديث بلفظه في سنن الترمذي، والمرويّ فيه نحو ما في الصحيحين. انظر عارضة الأحوذي، أبواب السير ٧/١١٢ ـ ١١٣.

وقد روى الحديث الإمام أحمد في مسنده ٢/٤٦٣.

(٣) تفسير الطبري ١٦/٤٨.

وقولُه: ﴿ واجعلْه ربِّ رَضِياً ﴾، أي: مرضياً عندك وعند خَلْقِكَ، تُحِبّه وتحبّبه إلى خلقك، في دينه وخُلُقِه.

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴿٧﴾ ﴾

هذا الكلام يَتضمَّنُ محذوفاً، وهو أنه أُجيبَ إلى ما سأل في دعائه، فقيل له: ﴿ يا زكريا إنا نُبشِّرك بغلام اسمُه يحيى ﴾، كما قال تعالى: ﴿ هنالك دَعَا زكريّاً ربَّه قال ربِّ هَبْ لي من لدنك ذريَّةً طيبة إنكَ سميعُ الدُّعاء. فنادته الملائكة وهو قائمٌ يصلّي في المحراب أن الله يُبَشِّرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين ﴾.

وقولُه: ﴿لم نجعل له من قبل سَمِيًّا﴾، قال قتادةُ، وابن جُرَيج وابنُ زيد، أيْ لم يُسمَّ أحد قبله بهذا الإسم، واختاره ابن جرير رحمه الله.

وقال مجاهد: ﴿ لم نجعل له من قبل سمياً ﴾، أي: شبيهاً. أخذه من معنى قوله: ﴿ فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم سَمِيّاً ﴾، أي: شبيهاً.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي لم تلد العَوَاقِرُ قبله مثلَه.

وهذا دليل على أن زكريا ـ عليه السلام ـ كان لا يُولَد له، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها، بخلاف إبراهيم وسارة ـ عليهما السلام ـ فإنهما إنما تَعَجّبا من البشارة بإسحاقَ لكبرهما، لا لِعُقْرِها، ولهذا قال: ﴿ أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرونِ ﴾، مع أنه كان وُلِد له قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة، وقالت امرأته: ﴿ ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيءٌ عَجيبٌ. قالوا أتعجبينَ من أمْرِ الله رحمةُ الله وبركاتُه عليكم أهل البيت إنه حميدٌ مجيدٌ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ ﴾

هذا تَعَجّبٌ من زكريا ـ عليه السلام ـ حين أُجيب إلى ما سأل، وبُشّر بالولد، ففرح فرحاً شديداً، وسأَلَ عن كيفية ما يُولَد له، والوجهُ الذي يأتيه منه الولدُ، مع أنَّ امرأته عاقرٌ لا تَلِد من أول عمرها مع كِبَرِها، ومع أنه قد كبر وعَتَا، أي: عَسَا عَظْمُه ونَحُل، ولم يبق فيه لقاحٌ ولا جماعٌ. تقول العرب للعُودِ إذا يَبِس: «عَتَا يَعْتُو عِتِيّاً وعُتُوّاً، وعَسَا يعسُو عُسوّاً وعِسِيّاً».

وقال مجاهد: ﴿ عتيا ﴾ بمعنى نُحُولِ العظم. وقال ابن عباس وغيره: ﴿ عتيا ﴾، يعني الكِبَرَ.

والظاهرُ أنه أخصُّ من الكِبَر.

وقال ابنُ جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا هُشَيم، أخبرنا حُصَين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قد عَلِمتُ السنّةَ كُلَّها، غير أني لا أدري أكانَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ يقرأ في الظُّهر والعَصْرِ أم لا؟ ولا أدري كيفَ كان يقرأ هذا الحرفَ: ﴿ وقد بلغت من الكبر عِتِيّاً ﴾، أو ﴿ عِسِيّاً ﴾[(1)].

(١) تفسير الطبري ٥١/١٦. ومسند أحمد ٢٤٩/١، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ٢١٤/١.

ورَواهُ الإمامُ أحمد عن سُرَيج بن النعمان، وأبو داود، عن زياد بن أيُّوب، كلاهما عن هُشَيم، به.

﴿ قال ﴾، أي: الملك مجيباً لزكريا عما استعجب منه: ﴿ كذلكَ قال ربُّكَ هو عليَّ هَيِّنٌ ﴾، أي: إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها، ﴿ هَيِّنٌ ﴾، أي: يَسِيرٌ سَهْلٌ على الله.

ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل فقال: ﴿ وقد خلقتك من قبلُ ولم تَكُ شيئاً ﴾، كما قال تعالى: ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن زكريا عليه السلام أنه ﴿ قال ربِّ اجعَلْ لي آيةً ﴾، أي: علامةً ودليلاً على وُجودِ ما وعدتَني لتستقرَّ نفسي ويطمئنَّ قلبي بما وعدتَني، كما قال إبراهيمُ عليه السلام: ﴿ ربِّ أرِني كيفَ تُحيي الموتى قال أولم تُؤمِنْ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ ... الآية، ﴿ قال آيتك ﴾، أي: علامتك ﴿ ألَّا تُكلِّمَ الناسَ ثلاث ليال سوياً ﴾، أي: أن تحبس لسانكَ عن الكلام ثلاث ليال وأنت صحيح سَوِيّ من غير مَرَضٍ ولا عِلَّةٍ.

قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، ووهبُ بنُ مُنَبِّهٍ، والسّديُّ، وقتادةُ، وغير واحد: اعتُقِلَ لسانُه من غير مرض.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلَمَ: كان يقرأُ ويُسبِّح، ولا يستطيع أن يُكلِّم قومَه إلا إشارة.

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ ثلاث ليال سوياً ﴾، أي: متتابعات.

والقول الأول عنه وعن الجمهور أصح، كما قال تعالى في أوَّل آل عمران: ﴿ قال ربِّ اجعَلْ لي آيةً قال آيتُكَ ألَّا تكلم الناس ثلاثةَ أيامٍ رَمْزاً. واذكر ربَّك كثيراً وسَبِّح بالعشيِّ والإبكار ﴾.

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿ ثلاثَ ليالٍ سَوِيّاً ﴾، من غير خَرَسٍ.

وهذا دليل على أنه لم يكن يكلِّم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها ﴿ إلا رمزاً ﴾، أي: إشارةً، ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿ فخرج على قومه من المحراب ﴾، أي: الذي بُشِّر فيه بالولد، ﴿ فأوحى إليهم ﴾، أي: أشار إشارةً خفيَّةً سريعة: ﴿ أن سَبِّحوا بُكرةً وعَشِيّاً ﴾، أي: موافقَةً له فيما أمر في هذه الأيام الثلاثة زيادةً على أعماله، وشكراً لله على ما أولاه.

قال مجاهد: ﴿ فأوحى إليهم ﴾، أي: أشار إليهم. وبه قال وهبٌ، وقتادةُ. وقال مجاهد في رواية عنه: ﴿ فأوحى إليهم ﴾، أي: كتب لهم في الأرض. كذا قال السديُّ.

﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾

وهذا أيضاً تضمَّن محذوفاً، تقديره: أنه وُجِد هذا الغلام المُبَشَّر به. وهو يحيى ـ عليه السلام ـ وأن الله علمه الكتاب، وهو التوراة التي كانوا يتدارَسُونها بينهم، ويحكمُ بها النبيون الذين أسلموا للذين هادُوا والربانيّون

والأحبار. وقد كان سِنُّهُ إذ ذاك صغيراً، فلهذا نَوَّه بذكره، وبما أنعم به عليه وعلى والديه، فقال: ﴿ يا يحيى خُذِ الكتابَ بقوة ﴾، أي: تَعَلَّم الكتاب ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾، أي: بجدٍّ وحرصٍ واجتهادٍ، ﴿ وآتيناه الحُكْم صبياً ﴾، أي: الفهم والعلم والجدَّ والعزم، والإقبال على الخيرِ، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه وهو صغير حديث السِّنّ.

قال عبد الله بن المبارك، قال معمر: قال الصِّبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب. قال: ما لِلَّعِبِ خُلِقْنا. قال: فلهذا أنزل الله: ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾[(١)].

وقولُه: ﴿ وحناناً من لَدُنَّا ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ وحناناً من لَدُنّا ﴾، يقول: ورحمةً من عندنا. وكذا قال عكرمة، وقتادةُ، والضحاكُ وزاد، لا يقدِرُ عليها غيرُنا. وزاد قتادةُ: رحم الله بها زكريا. وقال مجاهدٌ: ﴿ وحناناً من لدنا ﴾، وتعطُّفا من ربِّه عليه. وقال عكرمةُ: ﴿ وَحَناناً من لدنّا ﴾، قال: محبَّةً عليه. وقال ابنُ زيدٍ: أمَّا الحنانُ فالمحبة. وقال عطاء بن أبي رباح: ﴿ وحناناً من لدنا ﴾، قال: تعظيماً من لدنا.

وقال ابن جُرَيج: أخبرني عَمرو بن دينار، أنه سَمع عِكْرِمةَ، عن ابن عباس قال: لا والله، ما أدرِي ما حَنَاناً[(٢)].

وقال ابنُ جَرير: حَدَّثنا ابن حُمَيد، حدثنا جَرير، عن منصور، سألت سعيدَ بنَ جُبَيرٍ عن قوله: ﴿ وحناناً من لدنا ﴾، فقال: سألتُ عنها ابنَ عبَّاسٍ، فلم يُحِرْ فيها شيئاً[(٣)].

والظاهر من هذا السياق أن: ﴿ وَحَناناً ﴾ معطوف على قوله: ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾، أي: وآتيناه الحكم، وحناناً، وزكاة، أي: وجعلناه ذا حَنانٍ وزكاةٍ، فالحنان هو المحبة في شَفَقةٍ ومَيْلٍ، كما تقول العرب: «حَنَّت الناقة على ولدها، وحَنَّت المرأة على زوجها». ومنه سميت المرأة «حَنَّة» من الحِنَّةِ[(٤)]، وحَنَّ الرجلُ إلى وَطنِه، ومنه التعطف والرحمة، كما قال الشاعر[(٥)]:

تَحَنَّنْ عَلَيَّ ـ هَدَاكَ المَليكُ ـ فَإنَّ لِكُلِّ مَقامٍ مَقَالا

وفي المسند للإمام أحمد، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «يبقى رجلٌ في النار، ينادي ألفَ سنةٍ: يا حَنَّانُ، يا مَنَّانُ»[(٦)].

وقد يُثَنَّى، ومنهم من يجعل ما وَرَد من ذلك لغةً بذاتها، كما قال طَرَفة[(٧)].

أَبَا مُنْذِرٍ، أَفْنَيتَ، فَاسْتَبْقِ بَعْضَنَا حَنَانَيْك، بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وقولُه: ﴿ وزكاةً ﴾، معطوف على ﴿ وحناناً ﴾، فالزَّكاةُ الطهارةُ من الدَّنَسِ والآثامِ والذنوبِ.

---

(١) تفسير الطبري ١٦/٥٥.
(٢) تفسير الطبري ١٦/٥٦.
(٣) لم نجد هذا الأثر عند هذه الآية في تفسير الطبري.
(٤) حَنَّةُ الرجل: زوجتُه. والحِنَّةُ: رقة القلب.
(٥) الحطيئة، ديوانه ٧٢ وفي النسخ: تعطف علي. وما أثبت عن الديوان وتفسير الطبري ١٦/٥٧.
(٦) مسند أحمد ٣/٢٣٠.
(٧) ديوانه ٢٠٩، وأبو منذر كنية عمرو بن هند.

وقال قتادةُ: الزكاة: العملُ الصالحُ. وقال الضحاك، وابن جُرَيج، العمل الصالح الزَّكي.

وقال العَوْفِيُّ، عن ابن عبَّاس: ﴿ وزكاة ﴾ [قال: بركةً][1] ﴿ وكان تقياً ﴾: طَهُر، فلم يعمل بذنب[2].

وقولُه: ﴿ وبَرًّا بوالديه ولم يَكُن جَبَّاراً عَصِيًّا ﴾: لَمَا ذكر تعالى طاعتَه لربِّه وأنَّه خلقه ذا رحمةٍ وزكاةٍ وتُقىً، عطف بذكر طاعته لوالدَيه وبِرِّه بهما، ومجانبته عُقُوقهما، قولاً وفعلاً أمراً ونهياً. ولهذا قال: ﴿ ولم يكن جَبَّاراً عَصِيّاً ﴾. ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك: ﴿ وسَلامٌ عليه يوم وُلِد ويومَ يَموتُ ويومُ يُبعَثُ حَيّاً ﴾، أي: له الأمان في هذه الثلاثةِ الأحوالِ.

وقال سفيان بن عُيَينة: أوحشُ ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن: يومَ وُلِدَ، فيرى نفسَه خارجاً مما كان فيه. ويوم يَموت، فيرى قوماً لم يكن عايَنَهم. ويوم يُبعَث، فيرى نفسَه في محشرٍ عظيم. قال: فأكرَمَ الله فيها يحيى بن زكريا، فَخَصَّه بالسلام عليه فقال: ﴿ وسلام عليه يومَ وِلد ويوم يَموتُ ويوم يُبعَثُ حياً ﴾. رواه ابن جرير، عن أحمد بن منصور المَرْوزِيِّ، عن صدقَة بن الفضل، عنه[3].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعمرٌ، عن قتادةَ، في قوله: ﴿ جباراً عصياً ﴾، قال: كان ابن المسيِّب يذكر قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: ما من أحدٍ يلقى الله يوم القيامة إلا ذَا ذنب، إلا يحيى بن زكريا. قال قتادة: ما أذنَب، ولا هَمّ بامرأة[2]. مرسل.

وقال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيَّب، حدثني ابن العاص أنه سَمِع رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «كلُّ بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنبٌ، إلا ما كان من يحيى بن زكريا.

ابنُ إسحاقَ مُدَلِّس[4]. وقد عُنعِنَ هذا الحديثُ، فالله أعلم.

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا عَفَّان، حدثنا حَمَّاد، أخبرنا علي بن زيدٍ، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ما من أحدٍ من ولد آدمَ إلا وقد أخطأ، أو هَمَّ بخطيئةٍ، ليس يحيى بن زكريا وما ينبغي لأحدٍ أن يقولَ: أنا خير من يونس بن متى[5].

وهذا أيضاً ضعيف، لأن علي بن زيد بن جُدعان له منكرات كثيرة، والله أعلم.

وقال سَعِيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة: أنَّ الحسنَ قال: إنَّ يحيى وعيسى ـ عليهما السلام ـ التَقَيا، فقال له عيسى: استغفرْ لي، أنت خيرٌ مِنِّي. فقال له الآخرُ: استغفرْ لي، أنت خيرٌ مِنِّي. فقال له عيسى: أنت خير مِنِّي، سَلَّمْتُ على نفسي، وسلَّم الله عَلَيكَ. فعُرِف والله فضلُها[6].

---

(١) عن نسخة الحرم المكي. وليست في تفسير الطبري.

(٢) تفسير الطبري ١٦/٥٨.

(٣) تفسير الطبري ١٦/٥٨. ووقع في سنده في المطبوعة وهمان، أولهما: أحمد بن منصور الفيروزي. وصوابه: المَرْوَزِيُّ. والآخر: أخبرني صدقة بن الفضل قال: سمعت ابن عطية. وصوابه: ابن عيينة. انظر تهذيب الكمال ١/٤٩١، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤/٤٣٤.

(٤) قال ابن كثير في الباعث الحثيث ٥٠ ـ ٥٢: «والتدليس قسمان، أحدهما: أن يروي عمن لقيه ما لم يسمعه منه، أو عمن عاصَرَه ولم يَلْقه، موهماً أنه سمعه منه. ونقل عن الشافعي: التدليس أخو الكذب. وأما القسم الثاني فهو الإتيان باسم الشيخ أو كنيته على خلاف المشهور به، تعميةً لأمره، وتوعيراً للوقوف على حاله».

(٥) مسند أحمد ١/٢٥٤.

(٦) تفسير الطبري ١٦/٥٩.

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾

لما ذكر تعالى قصة زكريا ـ عليه السلام ـ وأنه أوجد منه في حال كِبَره وعُقْم زوجته ولداًزكيّاً طاهراً مباركاً، عَطَف بذكر قِصَّة مريم في إيجاده ولدها عيسى ـ عليهما السلام ـ منها من غير أَب، فإن بين القصتين مناسبةً ومشابهة. ولهذا ذكرهما في آل عمران وها هنا، وفي سورة الأنبياء، يقرن بين القصتين لُتقارب ما بينهما في المعنى، ليدلَّ عبادَه على قُدرته وعَظَمة سلطانه، وأنه على ما يشاء قادرٌ، فقال: ﴿ واذكر في الكتاب مريم ﴾، وهي مريم بنت عِمرانَ، من سلالة داود عليه السلام، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل. وقد ذكر الله تعالى قِصَّةَ ولادةِ أُمِّها لها في «آل عمران»، وأنها نَذرتْها مُحَرَّرةً، أي: لخدمة بيت المقدس، وكانوا يتقرَّبُون بذلك، ﴿ فَتقبَّلها ربُّها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً ﴾، ونشأت في بني إسرائيل نشأةً عظيمةً، فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادةِ العظيمة والتبتُّلِ والدُّؤوب، وكانت في كفالة زوج أختها ـ وقيل: خالتها ـ زكريا نبيِّ بني إسرائيل إذْ ذاك وعظيمَهم، الذي يَرجِعُون إليه في دينهم. ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بَهره، ﴿ كُلما دخل عليها زكريَّا المحرابَ وجدَ عندها رزقاً قال يا مريمُ أَنَّى لكِ هذا قالت هُو من عند الله إنَّ الله يرزقُ من يشاء بغيرحِسَاب ﴾، فذكر أنه كان يجد عندهَا ثَمر الشتاءِ في الصيف، وثمر الصيف في الشتاء، كما تقدم بيانه في «آل عمران»[١]. فَلَمَّا أراد الله تعالى ـ وله الحكمةُ والحجَّةُ البالغة ـ أن يُوجد منها عبده ورسوله عيسى ـ عليه السلام ـ أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام، ﴿ انتبذت من أهلها مكاناً شرقيّاً ﴾، أي: اعتزلتْهُمْ وتنحَّت عنهم، وذهبت إلى شرقيِّ المسجد المقدس.

قال السديّ: لحيضٍ أصابها. وقيل لغير ذلك. قال أبو كُدَيْـنَة، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: إن أهل الكِتاب كُتِب عليهم الصلاةُ إلى البيتِ والحجِّ إليه، وما صَرفهم عنه إلا قول ربك: ﴿ فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ﴾، قال: خرجت مريم مكاناً شرقياً، فَصَلُّوا قِبَلَ مَطلِعِ الشمس. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير[٢].

وقال ابنُ جرير أيضاً: حدثنا إسحاقُ بن شاهين، حدثنا خالد بن عبدالله، عن داود، عن عامر، عن ابن عباس قال: إني لأعلم خَلْقَ الله لأيِّ شيءٍ، اتخذت النصارى المشرق قِبْلة لقول الله تعالى: ﴿ فانتبذت من أهلها مكاناً شرقيّاً ﴾. واتخذوا ميلاد عيسى قبلة.

وقال قَتادة ﴿ مكاناً شرقياً ﴾: شاسعاً مُتنحياً. وقال محمد بن إسحاق: ذهبت بقُلَّتِها تستقي من الماء.
وقال نوف البِكالي: اتخذت لها منزلاً تتعبد فيه: فالله أعلم.

وقولُه: ﴿ فاتخذت من دونهم حجاباً ﴾، أي: استترت منهم وتوارَتْ، فأرسل الله تعالى إليها جبريل ـ عليه السلام ـ ﴿ فتمثل لها بشراً سوياً ﴾، أي: على صورة إنسان تامٍّ كاملٍ.

(١) انظر تفسير الآيات ٣٥ ـ ٣٧ من سورة آل عمران.
(٢) تفسير الطبري ٥٩/١٦.

قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن جُرَيج، ووهب بن مُنَبِّه، والسُّدِّيُّ في قوله: ﴿ فأرسلنا إليها روحَنَا ﴾، يعني جبريل عليه السلام.

وهذا الذي قالوه هو ظاهر القرآن، فإنه تعالى قد قال في الآية الأخرى: ﴿ نَزَل به الروحُ الأمين. على قَلْبِكَ لتكون من المنذرين ﴾.

وقال أبو جعفر الرازي[١] عن أبيه عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبَيِّ بن كَعْب قال: إن روح عيسى ـ عليه السلام ـ من جملة الأرواح التي أُخِذ عليها العهدُ في زمان آدمَ، وهو الذي تَمثَّل لها بشراً سويًّا، أي: روح عيسى، فحملت الذي خاطبها وحل في فيها.

وهذا في غاية الغرابة والنَّكارة، وكأنه إسرائيلي.

﴿ قالت إني أعوذُ بالرحمن منك إن كُنتَ تقيًّا ﴾، أي: لما تَبَدَّى لها المَلِك في صُورَة بشرٍ، وهي في مكان منفرد، وبينها وبين قومها حجابٌ، خافتة وظَنَّت أنه يريدها على نفسها، فقالت: ﴿ إني أعوذُ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾، أي: إن كنت تخاف الله، تذكيرٌ له بالله. وهذا هو المشروع في الدفع أن يكونَ بالأسهلِ، فخوَّفته أولاً بالله عَزَّ وجَلَّ.

قال ابن جرير: حدثني أبو كريب، حدثنا أبو بكر، عن عاصم قال: قال أبو وائل ـ وذكر قصَّةَ مريم ـ فقال: قد عَلِمَتْ أن التَّقِيَّ ذُو نُهيَةٍ[٢] حين قالت: ﴿إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ۞ قال إنما أنا رسول ربك ﴾[٣].

أي: فقال لها المَلَك مجيباً لها ومزيلاً ما حَصَل عندها من الخوف على نفسها: لست مما تَظُنِّين، ولكني رسول ربك، أي: بعثني الله إليك. ويقال: إنها لما ذكرتِ الرحمن انتفضَ جبريلُ فَرَقاً، وعاد إلى هَيْئَتِهِ، وقال ﴿ إنما أنا رسول ربك ليهب لك غلاماً زكيّاً ﴾، هكذا قرأ أبو عمرو بن العلاء، أحدُ مشهوري القراء[٤]. وقرأ الآخرون: ﴿ لأهَبَ لك غلاماً زكياً ﴾، وكلا القراءتين له وجه حسن، ومعنى صحيح، وكلٌ تستلزم الأخرى.

﴿ قالت أَنَّى يكونُ لي غلامٌ ﴾، أي: فَتعجَّبت مريمُ من هذا وقالت: كيف يكونُ لي غلام؟ أي: على أيِّ صفةٍ يوجَدُ هذا الغلامُ مِنِّي، ولستُ بذاتِ زَوج، ولا يُتصَوَّر مني الفجُور. ولهذا قالت: ﴿ وَلم يَمْسَسْنِي بشرٌ ولم أكُ بغيّاً ﴾. والبغيُّ: هي الزانية، ولهذا جاء في الحديث نهيٌ عن مهر البَغِيِّ[٥]. ﴿ قال كذلك قال ربُّك هو عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾، أي: فقال لها الملك مُجيباً لها عما سَأَلت: إن الله قد قال: إنه سيُوجَدُ منك غلاماً، وإن لم يكن لك بَعْلٌ، ولا توجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاءُ قادر، ولهذا قال: ﴿ ولنجعَلَه آيةً للناس ﴾، أي: دَلالةً وعلامةً للناس على قُدرةِ بارئِهم وخَالقهم، الذي نَوَّع في خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخَلَق حواء من ذكر بلا أنثى، وخَلَق بقية الذُّرِّية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرُّباعيَّة الدالة على كَمَالِ قُدرَتِهِ وعظيم سلطانه، فلا إلَه غيرُه، ولا رَبَّ سواه.

وقولُه: ﴿ ورحمَةً منا ﴾، أي: ونَجعل هذا الغلامَ رحمةً من الله نَبياً من الأنبياء، يدعُو إلى عبادة الله

---

(١) في نسخة الحرم: «أبو جعفر الرازي، عن أبيه، عن الربيع». وانظر المسند في تفسير الطبري ١٦/١٤٦، بتحقيق الأستاذ محمود شاكر.

(٢) النهية: العقل.

(٣) تفسير الطبري ١٦/٦١.

(٤) الإقناع لابن الباذش ٢/٦٩٦.

(٥) أخرجه البخاري البيوع، فتح الباري ٤/٤٢٦، ومسلم في كتاب المساقاة ٣/١١٩٩.

تعالى وتوحيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ إذ قالت الملائكةُ يا مريمُ إن الله يُبَشِّرك بكلمةٍ منه اسمُه المسيحُ عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرَّبين * وَيُكلِّم الناس في المهدِ وكَهْلاً ومن الصَّالِحينَ ﴾، أي: يدعُو إلى عبادة الله ربّه في مَهْدِهِ وكُهُولته.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم ـ دُحَيْمٌ ـ حدثنا مروان، حدثنا العلاء بن الحارث الكوفي، عن مجاهد قال: قالت مريم ـ عليها السلام ـ: كنت إذا خلوتُ حَدَّثني عيسى وكَلَّمني وهو في بطني، وإذا كنتُ مع الناس سَبَّح في بطني وكَبَّر.

وقولُه: ﴿ وكان أمراً مقضياً ﴾، يَحْتمِلُ أن هذا من تمام كلام جبريلَ لمريم، يُخبرها أَنَّ هذا أمرٌ مقدَّر في علم الله تعالى وقَدَرِه ومشيئته: وَيَحْتمِلُ أن يكون من خَبَر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ، وأنه كَنَى بهذا عن النفخ في فرجها، كما قال تعالى: ﴿ ومريم ابنةَ عمرانَ الَّتي أحصَنت فَرْجَها فنفخنا فيه من روحنا ﴾، وقال: ﴿ والتي أحصَنت فَرْجَها فنفخنا فيها من روحنا ﴾.

قال محمد بن إسحاق، : ﴿ وكان أمراً مقضيًّا ﴾، أي: إن الله قد عَزَم على هذا، فليس منه بدٌّ. واختار هذا أيضاً ابنُ جرير في تفسيره، ولم يَحْكِ غيره، والله أعلم[1].

﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم أنها قال لها جبريلُ عن الله تعالى ما قال استسلمت لقضاءِ الله تعالى، فذكر غيرُ واحدٍ من علماء السَّلَف أن المَلَك ـ وهو جبريلُ عليه السلام ـ عند ذلك نفخ في جَيْب درعها، فنزلت النفخةُ حتى وَلَجت في الفرج، فحملت بالولد بإذن الله تعالى. فلما حملت ضاقت ذرعاً به، ولم تَدْرِ ماذا تقولُ للناس، فإنها تعلَم أن الناس لا يُصدِّقونها فيما تخبرُهم به، غير أنها أفشت سرَّها وذكرت أمرها لأختِها امرأةِ زكريا. وذلك أن زكريا ـ عليه السلام ـ كان قد سأل الله الولد، فأُجيب إلى ذلك، فحملت امرأتُه، فدخلت عليها مريم فقامت إليها فاعتنقتها، وقالت: أشعَرْتِ يا مريم أني حبلى؟ فقالت لها مريم: وهل عَلِمْتِ أيضاً أني حُبلى؟ وذكرت لها شأنها وما كان من خبَرها، وكانوا بيت إيمان وتصديق، ثم كانت امرأةُ زكريا بعد ذلك إذا واجهت مريم تَجِدُ الذي في بَطْنِها يسجد للذي في بطن مريم، أي: يُعظِّمه ويخضع له، فإن السجود كان في مِلَّتهم عند السلام مشروعاً، كما سَجَد ليوسف أبواه وإخوته، وكما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدمَ عليه السلام. ولكن حُرِّم في ملتنا هذه، تكميلاً لتعظيم جَلَال الربِّ تعالى.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين قال: قُرِىء على الحارث بن مسكين وأنا أسمَعُ: أخبرنا عبد الرحمن بن القاسم قال: قال مالك ـ رحمه الله ـ: بَلَغني أَنَّ عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة، وكان حَمْلُهما جميعاً معاً، فبلغني أن أُمَّ يحيى قالت لمريم: إني أرى أن ما في بطني يسجُد لما في بطنك. قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى ـ عليه السلام ـ لأن الله جعله يُحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص.

ثم اختلف المفسرون في مُدة حمل عيسى ـ عليه السلام ـ فالمشهورُ عن الجمهورِ أنها حَمَلت به تسعة أشهر. وقال عكرمة: ثمانية أشهر. قال: ولهذا لا يعيشُ ولدٌ لثمانيةِ أشهرٍ.

---

(١) تفسير الطبري ١٦/٦٢.

وقال ابن جُرَيج: أخبرني المغيرة بن عثمانَ بن عبدالله الثقفي، سمع ابن عباس وسئل عن حَبَل مريم، قال: لم يكن إلا أن حَمَلت فوضعت(١).

وهذا غريب، وكأنه مأخوذٌ من ظاهر قوله تعالى: ﴿فحمَلَته فانتبذَتْ به مكاناً قَصِيّاً * فأجاءها المخاضُ إلى جِذْع النخلة﴾، فالفاء وإن كانت للتعقيب، ولكن تعقيب كلِّ شيءٍ بحسَبه، كما قال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسانَ من سُلالةٍ من طين * ثم جعلناه نطفةً في قرارٍ مَكين * ثم خلقنا النطفةَعلقةً فخلقنا العلقة مضغةً فخلقنا المضغةَ عظاماً﴾. فهذه الفاءُ للتعقيب بحسبها. وقد ثبت في الصَّحيحَين أنَّ بين كُلِّ صفتين أربعينَ يوماً. وقال تعالى: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾، فالمشهورُ الظاهرُ - والله على كلِّ شيءٍ قديرٌ - أنها حَمَلت به كما تَحْمِلُ النساءُ بأولادهنَّ، ولهذا لما ظَهرت مخايلُ الحمل عليها، وكان معها في المسجد رجلٌ صالح من قَرَاباتها يخدُم معها البيتَ المقدَّس، يقال له يوسف النجار، فلما رأى ثِقَل بطنِهَا وكِبَره أنكر ذلك من أمرها، ثم صَرَفه ما يعلم من بَرَاءتها ونزاهتها ودِينها وعبادتها، ثم تأمَّلَ ما هي فيه، فجعل أمرَها يجوس في فكره، لا يستطيع صَرْفه عن نفسه، فحمل نفسه على أن عَرَّض لها في القول، فقال: يا مريم، إني سائلك عن أمر فلا تعجلي عَلَيَّ. قالت: وما هُو؟ قال: هل يكون شجرٌ قَطُّ من غير حَبٍّ؟ وهل يكون زَرْع من غير بَذْرٍ؟ وهل يكونَ وَلَدٌ من غير أب؟ فقالت: نعم - وفَهِمَت ما أشار إليه -: أما قولك: «هل يكون شجر من غير حَبٍّ، وزرعٌ من غير بَذْرٍ» فإن الله قد خَلَق الشجر والزرع أول ما خَلَقهما من غير حَبٍّ ولا بَذْرٍ. «وهل يكون وَلَدٌ من غير أب»، فإن الله قد خَلَق آدم من غير أبٍ ولا أُمٍّ. فصدَّقها، وسَلَّم لها حالها.

ولما استشعرَت مريمُ من قومها اتِّهامَهَا بالرِّيبة، انتبذَتْ منهُم مكاناً قَصِيًّا، أي: قاصياً منهم بعيداً عنهم، لِئلاَّ تراهُم ولا يَرَوها.

قال محمد بن إسحاق: فلمَّا حَمَلت به وَمَلأت قُلَّتها ورَجَعَت استمسَكَ عنها الدمُ، وأصابها ما يُصِيبُ الحامل على الولد من الوَصَب والتوحُّم وتَغَيُّر اللونِ حتى فُطِر لسانُها، فما دخلَ على أهل بيت ما دَخَل على آل زكريا، وشاع الحديثُ في بني إسرائيلَ، فقالوا: «إنما صاحبُها يوسفُ». ولم يكن معها في الكَنِيسة غيرُه، وتوارت من الناس، واتخذت من دونهم حجاباً، فلا يراها أحدٌ ولا تَرَاه.

وقولُه: ﴿فأجاءها المخاضُ إلى جِذْعِ النخلة﴾، أي: فاضطَرَّها وألجأها الطلقُ إلى جذعِ النخلةِ، وهي نخلة في المكان الذي تَنَحَّت إليه.

وقد اختلفوا فيه، فقال السدِّيُّ: كان شرقيَّ محرابها الذي تُصَلِّي فيه من بيت المقدِس. وقال وَهْبُ بن مُنَبِّه: ذهبت هاربةً، فلما كانت بين الشام وبلاد مصر ضَرَبها الطلقُ. وفي رواية عن وَهْب: كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس، في قرية هناك يقال لها: بيتُ لحمٍ.

قلت: وقد تقدَّم في حديث الإسراء، من رواية النَّسائي عن أنس - رضي الله عنه - والبيهقي عن شداد بن أوس - رضي الله عنه -: أن ذلك ببيت لحم. فالله أعلم. وهذا هو المشهورُ الذي تلقَّاه الناسُ بعضُهم عن بعضٍ، ولا تَشُكُّ فيه النصارى أنه ببيتِ لحمٍ، وتلقاه الناس. وقد وَرَد به الحديث إن صَحَّ.

(١) تفسير الطبري ١٦/٦٥.

وقولُه تعالى إخباراً عنها: ﴿ قالت يا ليتني متُّ قبل هذا وكنت نَسْياً مَنسِيًّا ﴾، فيه دليلٌ على جواز تمنّي الموت عند الفتنة، فإنها عَرَفت أنها ستُبتلى وتُمتحنُ بهذا المولود، الذي لا يحمل الناسُ أمرَها فيه على السَّدادِ، ولا يُصدِّقونها في خبرِها، وبعد ما كانت عندهم عابدةً ناسكةً، تُصبحُ عندهم فيما يظنون عاهرةً زانيةً، فقالت: ﴿ يا ليتني مِتُّ قبلَ هذا ﴾، أي: قبل هذا الحال، ﴿ وكنت نَسياً مَنسِيًّا ﴾، أي: لم أُخلَق ولم أكُ شيئاً. قاله ابن عباس.

وقال السدّيّ: قالت وهي تُطْلَقُ[1] من الحَبَل، استحياءً من الناس: يا ليتني مِتُّ قبل هذا الكَرْبِ الذي أنا فيه، والحزن بولادتي المولود من غير بَعْلٍ ﴿ وكنت نَسْياً منسيا ﴾، نُسِي فتُرِك طلبُه، كخِرَقِ الحيض التي إذا أُلقِيت وطُرِحَت لم تُطلَب ولم تُذكر[2]. وكذلك كل شيء نُسِي وتُرِك فهو نَسْيٌ.

وقال قتادةُ: ﴿ وكنت نَسْياً منسياً ﴾، أي: شيئاً لا يُعرفُ ولا يُذكَر ولا يُدْرَى من أنا. وقال الربيع بن أنس: ﴿ وكنت نَسْياً مَنْسِيًّا ﴾ هُوَ السُّقطُ. وقال ابنُ زيدٍ: لم أكن شيئاً قطُّ.

وقد قدَّمنا الأحاديثَ الدالَّة على النهي عن تَمنّي الموت إلا عند الفتنة عند قوله: ﴿ تَوَفَّنِي مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾[3].

﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ ﴾

قرأ بعضُهم: ﴿ مَنْ تحتَها ﴾، بمعنى الذي تحتها. وقرأ آخرون ﴿ مِنْ تحْتِها ﴾، على أنه حرف جر[4].

واختلف المفسِّرون في المُراد بذلك، مَنْ هو؟ فقال العَوْفيُّ وغيرُه، عن ابن عباسٍ ﴿فناداها من تحتها﴾: جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها. وكذا قال سعيد بن جُبَير، والضحاك، وعمرو ابن ميمون، والسدّيُّ، وقتادةُ: إنه المَلَك جبريل عليه الصلاة والسلام، أي: ناداها من أسفلِ الوادي.

وقال مجاهدٌ: ﴿ فناداها من تحتها ﴾، قال: عيسى ابنُ مريم. وكذا قال عبد الرزّاق، عن مَعمرٍ، عن قتادَةَ قال: قال الحسنُ: هو ابنُها. وهو إحدى الرِّوايتين عن سعيد بن جُبَير: أنه ابنُها، قال: أوَلم تَسمعِ الله يقول: ﴿ فأشارت إليه ﴾: واختاره ابنُ زيدٍ، وابنُ جرير في تفسيره[5].

وقولُه: ﴿ ألَّا تحزَني ﴾، أي: ناداها قائلاً: لا تحزَني، ﴿ قد جعَل ربُّك تحتكِ سَريًّا ﴾، قال سفيان الثوريُّ وشعبةُ، عن أبي إسحاق، عن البَراء بن عازب: ﴿ قد جعل ربك تحتك سَرِيّاً ﴾، قال: الجدول. وكذا قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: السَّرِيّ: النهر. وبه قال عمرو بن ميمونَ: نهر تَشرَبُ منه.

وقال مجاهد: هو النهر، بالسريانية. وقال سعيد بن جُبَير: السَّرِيُّ: النهر الصغير بالنَّبطِيَّةِ، وقال الضحاك: هو النهر الصغير بالسريانية. وقال إبراهيمُ النَّخَعيُّ: هو النهرُ الصغيرُ. وقال قتادة: هو الجدول بلغة أهل

---

(١) يقال: طُلِقَت المرأة أو الحامل في المخاض: أصابها وجع الولادة، فهي مطلوقة.
(٢) تفسير الطبري ١٦/٦٦.
(٣) انظر تفسير الآية ١٠١ من سورة يوسف.
(٤) قرأ بفتح الميم من السبعة ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، وأبو بكر. الإقناع ٢/٦٩٦.
(٥) تفسير الطبري ١٦/٦٨ - ٦٩.

الحجاز. وقال وهب بن مُنَبِّه: السَّرِيُّ: هو رَبِيع الماء. وقال السدِّيّ: هو النهر. واختار هذا القول ابنُ جرير.

وقد وَرَد في ذلك حديث مرفوع، فقال الطبراني:

حدثنا أبو شُعَيب الحرَّاني، حدثنا يحيى بن عبدالله البَابْلُتِّيُّ[١]، حدثنا أَيُّوب بن نَهِيكٍ، سمعت عكرمة مولى ابن عباس يقولُ: سَمِعتُ ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ يقول: سَمِعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن السَّرِيَّ الذي قال الله لمريم: ﴿ قد جعل رَبُّكِ تحتكِ سريا ﴾، نهر أخرجَه الله لِتَشربَ منه»[٢].

وهذا حديثٌ غريبٌ جداً من هذا الوجه. وَأَيُّوب بن نَهِيك هذا هو الحَلَبِيُّ، قال فيه أبو حاتم الرازي: ضَعِيف. وقال أبو زُرعَةَ. منكرُ الحديثِ، وقال أبو الفتح الأَزدِيُّ: متروك الحديث.

وقال آخرون: المرادُ بالسَّرِيِّ عيسى عليه السلام، وبه قال الحسنُ، والربيعُ بن أَنس، ومحمد بن عَبَّاد ابن جعفر: وهو إحدى الروايتين عن قتادةَ، وقولُ عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. والقولُ الأَوَّلُ أظهرُ، ولهذا قال بعده: ﴿ وهُزِّي إليـك بجذع النخلة ﴾، أي: وخذي إليك بجذع النخلة[٣]. قيل: كانت يابسةً، قاله ابنُ عباس. وقيل: مثمرةً. قال مجاهد: كانت عجوةً. وقال الثوريُّ، عن أبي داود نُفَيع الأعمى: كانت صَرَفَانةً[٤].

والظاهرُ أنها كانت شجرةً، ولكن لم تَكُن في إبَّان ثَمَرِها، قاله وهبُ بن مُنَبِّه. ولهذا امتنَّ عليها بذلك أن جعل عندها طعاماً وشراباً، فقال: ﴿ تُساقِطْ عليك رُطَباً جَنِياً ✽ فكلي واشربي وقرِّي عيناً ﴾، أي: طيبي نفساً. ولهذا قال عمرو بـن ميمون: ما من شيء خير للنُّفَساءِ من التَّمرِ والرُّطَبِ، ثم تَلَا هذه الآيةَ الكريمةَ[٥].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسَين، حدثنا شيبانُ، حدثنا مسرور بن سعيد التميمي، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، عن عُروَة بن رُوَيم، عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرمـوا عَمَّتكم النخلة، فإنها خُلِقت من الطين الذي خُلِق منه آدم عليه السلام، وليس من الشجر شيء يُلقَحُ غيرُها، وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: أطعموا نساءكُمُ الوُلَّدَ الرُّطب، فإن لم يكن رُطَبٌ فتمر، وليس من الشجرة شَجَرة أكرَمُ على الله من شجرة نَزَلت تحتها مريمُ بنتُ عمران».

هذا حديث منكر جدّاً، ورواه أبو يعلى، عن شيبانَ، به[٦].

وقرأ بعضُهم: ﴿ تَسَّاقط ﴾، بتشديد السين، وآخرون بتخفيفها[٧]. وقرأ أبو نَهِيك: ﴿ تُسْقِطْ عليك رطباً جنياً ﴾، وروى أبو إسحاق، عن البراء: أنه قرأها ﴿يَسَّاقَطُ﴾[٨]، أي: الجذع والكل متقارب.

---

(١) في نسخة الحرم: النابلتي. والصواب من المعجم الكبير ١٢/٣٤٧ والأنساب للسمعاني ٢/٨ـ٩.

(٢) المعجم الكبير ١٢/٣٤٦.

(٣) قال الطبري ١٦/٧١: «وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قيلُ من قال: عنى به الجدولَ، وذلك أن أعلمها ما قد أعطاها الله من الماء الذي جعله عندها. وقال لها: (وهزِّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رُطَباً جَنِيّاً. فكلي) من هذا الرطب (واشربي) من هذا الماء (وقرّي عيناً) بولدك».

(٤) الصَّرَفَانُ: من أجودُ التمر. واحدته: صَرَفَانَةٌ.

(٥) تفسير الطبري ١٦/٧٢.

(٦) مسند أبي يعلى ١/٣٥٣. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/٨٩: «رواه أبو يعلى، وفيه مسرور بن سعيد التميمي، وهو ضعيف».

(٧) في السبعة ثلاث قراءات: (تُسَاقِطْ). وهي قراءة حفص. و (تَسَاقَطْ) وهي قراءة حمزة. و (تَسَّاقَطْ) وهي قراءة الباقين. انظر الإقناع ٢/٦٩٦، والتبصرة لمكيّ ٥٨٦.

(٨) تفسير الطبري ١٦/٧٢ ـ ٧٣. وفي روح المعاني ١٦/٨٥: «وقرأ البراءُ بنُ عازبٍ ﴿يَسَّاقَطْ﴾، بالياء من تحتُ، مضارع اسَّاقطه».

وقولُه: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ من البَشَر أحداً ﴾، أي: مهما رأيتِ من أحدٍ، ﴿ فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أُكَلِّم اليوم إنسيًّا ﴾، المراد بهذا القولِ الإشارة إليه بذلك، لا أن المراد به القولُ اللفظي، لئلا ينافي ﴿ فلن أُكلِّم اليومَ إنسياً ﴾.

قال أنس بن مالك في قولِه: ﴿ إني نذرت للرحمن صوماً ﴾، أي: صَمْتاً. وكذا قال ابن عباس، والضحّاك. وفي روايةٍ عن أنس: «صَوماً وصَمْتاً»(١)، وكذا قال قتادة وغيرهما.

والمراد أنهم كانوا إذا صامُوا في شريعتهم يحرُم عليه الطعامُ والكلامُ، نصَّ على ذلك السدّي، وقتادةُ، وعبد الرحمن بْـن زيد.

وقال أبو إسحاقَ، عن حارثةَ قال: كنتُ عند ابن مسعود، فجاء رجلان فسلَّم أحدُهما ولم يُسَلِّم الآخر، فقال: ما شأنك؟ قال أصحابه: حَلَف ألاّ يكلِّم الناسَ اليومَ. قال عبدُالله: كَلِّم الناس وسَلِّم عليهم، فإنَّ تلك امرأةٌ عَلِمت أن أحداً لا يُصَدِّقها أنها حَملت من غير زوج ـ يعني بذلك مريم عليها السلام ـ ليكون عُذْراً لها إذا سُئِلَت. رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير رحمهما الله(٢).

وقال عبد الرحمن بنُ زيد: لما قال عيسى لمريم: ﴿ لا تحزَني ﴾، قالت: وكيفَ لا أحزَن وأنت معي؟! لا ذاتُ زوج ولا مملوكة، أيُّ شيءٍ عُذري عند الناس؟ يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نَسْياً مَنْسيّاً، قال لها عيسى: أنا أكفيك الكلامَ، ﴿ فإمَّا تَرَيِنَّ من البشر أحداً فقُولي إني نذرتُ للرحمن صَوْماً فلن أُكلِّم اليومَ إنسياً ﴾، قال: هذا كلُّه من كلام عيسى لأمه(٢). وكذا قال وهبٌ(٢).

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أُمِرَت أن تصومَ يومها ذلك، وألاّ تُكلِّم أحداً من البشر، فإنها سَتُكْفَى أمْرَها ويقام بحُجّتِها فَسلَّمت لأمر الله ـ عز وجل ـ واستسلمت لقضائِه، وأخذت وَلَدها ﴿ فأتت به قومَها تَحْمله ﴾، فلما رأوها كذلك، أعظموا أمرها واستنكَرُوه جداً، وقالوا: ﴿ يا مريم لقد جئتِ شيئاً فرياً ﴾، أي: أمراً عظيماً. قاله مجاهد، وقتادة، والسدّيُّ، وغيرُ واحد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن أبي زياد(٣)، حدثنا سَيّار(٤)، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا أبو عمران الجوني، عن نوفٍ البكَاليِّ قال: وخَرَج قومها في طلبها. قال: وكانت من أهل بيت نُبوَّةٍ وشَرَف، فلم يُحِسُّوا منها شيئاً، فرأوا راعي بقر فقالوا: أرأيت فتاة كذا وكذا نَعْتُها؟ قال: لا، ولكن رأيتُ الليلة من بَقري ما لم أره منها قطُّ، قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيتها الليلة سُجَّداً نحو هذا الوادي. قال عبدالله بن أبي زياد: وأَحفَظُ عن

(١) تفسير الطبري ١٦/٧٤.
(٢) تفسير الطبري ١٦/٧٥.
(٣) هو عبد الله بن الحكم بن أبي زياد. انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٥/٣٨.
(٤) في نسخة الحرم. شيبان. وهو خطأ. راجع التعليق السابق.

سيَّار أنه قال: رأيت نوراً ساطعاً. فتوجَّهُوا حيثُ قال لهم، فاستقبلتهُم مريمُ، فلما رأتهم قَعدَت وحَمَلت ابنها في حِجْرِها، فجاءوا حتى قاموا عليها، ﴿ وقالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريًّا ﴾، أمراً عظيماً. ﴿ يا أختَ هٰرون ﴾، أي: يا شبيهةَ هارونَ في العبادة ﴿ ما كان أبوكِ امرأ سَوْءٍ وما كانت أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ ، أي: أنت من بيتٍ طَيِّبٍ طاهرٍ، معروف بالصلاح والعبادة والزَّهادَةِ، فكيف صَدَر هذا منك.

قال علي بن أبي طلحة، والسدِّيُّ: قيل لها: ﴿ يا أختَ هرونَ ﴾، أي: أخي موسى، وكانت من نَسْلِه، كما يقال للتميمي: يا أخا تميم. ولمُضَريٍّ، يا أخا مضر[1].

وقيل: نُسِبَت إلى رَجُلٍ صالحٍ كان فيهم اسمه هارون، وكانت تَتَأَسَّى[2] به في العبادة والزهادة.

وحكى ابنُ جريرٍ عن بعضهم. أنهم شبّهوها برجل فاجرٍ كان فيهم، يقال له: هارون[3]. ورواه ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جُبَير. وأغربُ من هذا كلِّه ما رواه ابنُ أبي حاتم:

حدَّثنا عليُّ بن الحُسَين الهِسِنْجَانِيُّ، حدثنا ابنُ أبي مريم، حدثنا المُفضَّل ـ يعني ابن فَضَالة ـ حدثني أبو صَخْرٍ، عن القُرَظِيِّ، في قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ يا أُخت هرون ﴾، قال: هي أختُ هارونَ لأبيه وأُمِّه، وهي أختُ موسى أخي هارون التي قَصت أثر موسى، ﴿ فَبَصُرَت به عن جُنُبٍ وهم لا يَشْعُرُونَ ﴾.

وهذا القولُ خطأٌ محضٌ، فإنَّ الله تعالى قد ذَكَر في كتابه أنه قَفَّى بعيسى بعد الرسل، فدلَّ على أنه آخر الأنبياء بعثاً، وليس بعده إلا محمد ـ صلواتُ الله وسلامُهُ عليه ـ ولهذا ثَبَت في الصحيح عند البخاري، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «أنا أولى الناس بابن مريم؛ إلا أنه ليس بيني وبينه نبيٌّ»[4]، ولو كان الأمرُ كما زعَمَ مُحمَّد بن كعب القُرَظِيُّ لم يكن مُتَأخِّراً عن الرسل سِوَى مُحمَّد، ولكان قبل سليمان وداودَ؛ فإنَّ الله قد ذكر أن داود بعد موسى ـ عليهم السلام ـ في قوله تعالى: ﴿ ألم تَرَ إلى المَلإ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبيٍّ لهم ابعَثْ لنا مَلِكاً نُقاتِلْ في سبيل الله ﴾ فذَكَر القصة إلى أن قال: ﴿ وقَتَلَ داودُ جالوتَ ﴾ . . . الآية. والذي جَرَّأَ القُرَظِيَّ على هذه المقالة ما في التوراة بعد خُروجِ موسى وبني إسرائيل من البحر، وإغراقِ فِرْعَونَ وقَوْمِه، قال: «وكانت مريم[5] بنت عمران أختَ موسى وهارون النبيَّيْن تضربُ بالدُّفِّ هي والنساءُ معها يُسَبِّحن الله ويشكُرْنَه على ما أنعم به على بني إسرائيل». فاعتقَد القرظي أن هذه هي أم عيسى. وهي هفوةٌ وغلطَةٌ شديدةٌ، بل هي باسم هذه، وقد كانوا يُسَمُّون بأسماء أنبيائهم وصالحيهم، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عبدالله بن إدريس، سمعت أبي يذكُره عن سِمَاكٍ، عن علقمةَ بن وائل، عن المغيرة بن شُعبَةَ قال: بعثني رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى نجران، فقالوا: أرأيتَ ما تقرءون: ﴿ يا أُختَ هرونَ ﴾، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فرجَعْتُ فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ. فقال: «ألا أخبرتَهم أنَّهم كانوا يُسَمُّون بالأنبياءِ والصالحين قبلهم»[6].

(١) أثر السدِّي في تفسير الطبري ١٦/٧٦.
(٢) في أغلب النسخ: تقاس.
(٣) تفسير الطبري ١٦/٧٨.
(٤) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/٤٧٧ ـ ٤٧٨.
(٥) في نسخة الحرم: «وقامت أخت موسى وهارون».
(٦) مسند أحمد ٤/٢٥٢، ومسلم، كتاب الآداب ٣/١٦٨٥، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة مريم ١٢/١٣ ـ ١٤.

انفرد بإخراجه مسلمٌ والترمذيُّ والنسائيُّ، من حديث عبدالله بن إدريسَ، عن أبيه، عن سِمَاكٍ، به. وقال الترمذيّ: «حسنٌ صحيحٌ غريبٌ، لا نعرفُه إلاّ من حديثِ ابن إدريسَ».

وقال ابنُ جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن سعيد بن أبي صَدقة، عن محمد بن سيرينَ قال: نُبِّئتُ أن كعباً قال: إنَّ قوله: ﴿ يا أختَ هرون ﴾. ليس بهارون أخي موسى. قال فقالت له عائشةُ: كذبتَ. فقال: يا أُمَّ المؤمنين، إن كان النبي ـ ﷺ ـ قاله فهو أعلمُ وأخبرُ، وإلا فإني أجد بينهما سِتَّمائةِ سنةٍ. قال: فسكتَتْ(١). وفي هذا التاريخ نظر.

وقال ابنُ جَريرٍ أيضاً: حدثنا بشر، حدثنا يزيدُ، حدثنا سعيدٌ، عن قتادةَ قولُه: ﴿ يا أختَ هرونَ ما كان أبوك امرأ سَوءٍ وما كانت أُمُّك بغياً ﴾، قال: كانت من أهلِ بيتٍ يُعرَفون بالصَّلاح ولا يُعرَفُون بالفساد، ومن الناس من يُعرفون بالصَّلاحِ ويَتوالَدُون به، وآخرُون يُعرَفون بالفَساد ويتوَالَدُون به. وكان هارونَ مصلحاً محبَّباً في عشيرته، وليس بهارونَ أخِي موسى، ولكنه هارونُ آخر، قال: وذكر لنا أنه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفاً، كلهم يُسمَّى هارونَ، من بني إسرائيل(١).

وقولُه: ﴿ فأشارت إليه قالُوا كيف نُكَلِّم من كان في المَهْدِ صَبيًّا ﴾، أي: إنهم لما استَرابوا في أمرها واستَنْكَرُوا قِصَّتَها، وقالوا لها ما قالوا معرِّضين بقذفها ورَمْيِها بالفِرْية، وقد كانت يومَها ذلك صائمةً صامتةً، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا مُتهكِّمين بها، ظانِّين أنها تَزْدَري بهم وتلعب بهم. ﴿ كيف نُكَلِّم من كان في المهد صَبياً ﴾.

قال ميمونُ بن مِهران: ﴿ فأشارت إليه ﴾، قالت: كَلِّموه. فقالوا: على ما جاءت به من الداهية تأمرنا أن نُكلِّم من كان في المَهْدِ صبياً!

وقال السدّيُّ: لما أشارت إليه غَضِبوا، وقالوا: لَسُخْرِيَّتُها بنا حين تأمُرنا أن نُكَلِّم هذا الصبيَّ أشَدُّ علينا من زناها.

﴿ قالوا كيف نُكَلِّم من كان في المهد صبياً ﴾، أي: من هو موجودٌ في مهده في حال صباه وصغره، كيف يتكلم؟ قال: ﴿ إني عبد الله ﴾، أوَّلُ شيءٍ تكلَّم به أن نَزَّه جناب ربه تعالى، وبَرَّأَ الله عن الولد، وأثبت لنفسِه العُبُوديَّة لربه.

وقولُه: ﴿ آتاني الكتابَ وجَعَلني نبيًّا ﴾: تبرئةٌ لأمِّه مما نَسَبت إليه من الفاحشَةِ.

قال نَوف البِكَاليُّ: لما قالوا لأمه ما قالوا، كان يرتَضِع ثَدْيه، فنَزَع الثدي من فَمِه، واتَّكأ على جنبه الأيسر، وقال: ﴿ إني عبدُ الله آتاني الكتابَ وجَعَلني نبيًّا ﴾، إلى قوله: ﴿ ما دمتُ حيًّا ﴾.

وقال حَمّاد بن سلمة، عن ثابت البُنَاني: رفع إصبعه السبابة فوق مَنْكِبِه، وهو يقول: ﴿ إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾... الآية.

وقال عكرمة: ﴿ آتاني الكتاب ﴾، أي: قضى أن يُؤْتيني الكتابَ فيـما قَضَى.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن المُصَفَّى، حدثنا يحيى بن سعيد ـ هو العطار ـ عن

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٧٧.

عبد العزيز بن زياد، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كان عيسىٰ ابنُ مريَمَ قد درَسَ الإنجيل وأحْكَمَه في بَطْنِ أمه، فذلك قوله: ﴿ آتاني الكتابَ وجَعَلني نبيًّا ﴾.

يحيى بنُ سعيد العَطَّار الحِمْصِي متروك.

وقولُه: ﴿ وجَعَلني مباركاً أينما كنتُ ﴾، قال مجاهد، وعَمْرو بن قيس، والثوري: وجعلني معلماً للخير، وفي رواية عن مجاهد: نَفَّاعاً.

وقال ابن جرير: حدثني سليمان بن عبد الجبار، حدثنا محمد بن يزيد بن خُنَيس المخزومي، سمعتُ وُهَيْبَ بن الوَرْد مولى ابن مخزوم قال: لَقِي عالم عالماً هو فوقه في العلم، فقال له: يرحَمُكَ الله، ما الذي أعلِنُ من علمي(١)؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإنه دينُ الله الذي بَعَث به أنبياءَه إلى عبادِهِ، وقد أجمَعَ الفقهاءُ على قول الله: ﴿ وجعلني مباركاً أينما كنتُ ﴾، قيل: ما بَرَكَتُه؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أينما كان(٢).

وقولُه: ﴿ وأوصاني بالصَّلاة والزَّكاة ما دمتُ حياً ﴾ كقوله تعالى لمحمد ـ ﷺ ـ: ﴿ واعبُدْ ربَّك حتى يأتيك اليقين ﴾.

وقال عبد الرحمن بن القاسم، عن مالك بن أنس في قولِه: ﴿ وأوصاني بالصَّلاة والزكاةِ ما دمتُ حيّاً ﴾، قال: أخبَره ما هو كائنٌ من أمره حتى يموت، ما أثبتها لأهل القدر.

وقولُه: ﴿ وبرّاً بوالدتي ﴾، أي: وأمرني ببِرِّ والدتي، ذَكَرَه بعد طاعة الله رَبِّه، لأنه الله تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال: ﴿ وقضى ربُّك ألا تعبدُوا إلا إيَّاه وبالوالدين إحساناً ﴾، وقال: ﴿ أنِ اشكُرْ لي ولوالديكَ إليَّ المصيرُ ﴾.

وقولُه: ﴿ ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾، أي: ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادَتِه وطاعَتِه وبِرِّ والدتي، فأشقى بذلك.

قال سفيان الثَّورِيُّ: الجَبَّارُ الشقيُّ: الذي يَقْتُل على الغَضَب.

وقال بعض السلف: لا تَجِد أحداً عاقّاً لوالديه إلا وجدته جَبَّاراً شقياً، ثم قرأ: ﴿ وبرّاً بوالدتي ولم يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شقياً ﴾، قال: ولا تجد سَيِّىءَ(٣) الملكة إلا وَجَدْتَه مُختالاً فَخُوراً، ثم قرأ: ﴿ وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مُختالاً فَخُوراً ﴾.

وقال قتادةُ: ذُكِر لنا أن امرأةً رأت ابنَ مريم يُحيي الموتَى ويُبرِىءُ الأكمَهَ والأبرصَ، في آياتٍ سَلَّطه الله عليهنَّ، وأذِن له فيهنَّ، فقالت: طُوبَى للبطن الذي حَمَلَكَ والثَّدْيِ الذي أُرضِعْتَ به! فقال نبيُّ الله عيسى ـ عليه السلام ـ يُجيبها: طوبى لمن تلا كتاب الله، فاتَّبع ما فيه، ولم يكن جَبَّاراً شَقِيّاً(٤).

---

(١) في نسخة الحرم: عمل.

(٢) تفسير الطبري ١٦/٨٠ ـ ٨١.

(٣) سَيِّىءُ المَلَكَةِ: الذي يُسيءُ صُحْبَةَ مَماليكه. يقال هو: سَيِّىء المَلَكة والمِلْكِ، وحَسَنُ المَلَكَةِ والمِلْكِ. وفي الحديث: «حُسْنُ المَلَكَةِ نماءٌ».

وانظر هذا الأثر عند تفسير الآية ٣٦ من سورة النساء.

(٤) تفسير الطبري ١٦/٨٢.

وقولُه: ﴿ والسلامُ عليَّ يومَ وُلِدتُ ويومَ أموتُ ويوم أُبعَثُ حيًّا ﴾: إثباتٌ منه لعبوديَّته لله ـ عز وجل ـ وأنه مخلوقٌ من خَلْق الله، يَحيا ويموتُ ويُبعَث كسائرِ الخلائق، ولكن له السلامةُ في هذه الأحوال الَّتِي هي أشقُّ ما يكونُ عَلَى العبَاد.

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ـ ﷺ ـ: ذلك الذي قَصصنا عليكَ من خَبَر عيسى، ﴿قولَ الحق الذي فيه يَمتَرُون ﴾، أي: يختلف المُبطِلُون والمُحِقُّون ممن آمن به وكفَر به، ولهذا قرأ الأكثرون: ﴿ قولُ الحقِّ ﴾، برفع قول. وقرأ عاصم، وعبدالله بن عامر: ﴿ قولَ الحقِّ ﴾[1].

وعن ابن مسعود أنه قرأ: ﴿ذلك عيسى ابن مريم قَوْلَ الحقِّ﴾[2]. والرفعُ أظهرُ إعراباً، ويشهد له قوله تعالى: ﴿ الحقُّ من ربك فلا تكن من الممترين﴾.

ولما ذكر تعالى أنه خلَقَه عبداً نبيًّا نَزَّه نفسَه المقدَّسة فقال: ﴿ ما كان لله أن يَتَّخِذَ من ولدٍ سبحانه ﴾، أي: عما يقولُ هؤلاءِ الجاهِلُون الظَّالمون المعتدُون عُلُوًّا كَبيراً، ﴿ إذا قَضَى أمراً فإنما يقولُ له كُن فيكونُ ﴾، أي: إذا أراد شيئاً فإنما يأمر به، فيصيرُ كما يشاء، كما قال تعالى: ﴿ إنَّ مثل عيسى عندَ الله كَمثلِ آدمَ خَلَقه من تُرابٍ ثم قال له كُن فيكونُ * الحقُّ من ربك فلا تَكُن من المُمتَرين﴾.

وقولُه: ﴿ وإن الله ربِّي وربُّكم فاعبدُوه هذا صراطٌ مستقيم ﴾، أي: ومما أمر به عيسى قومَه وهُو في مَهْدِه، أن أخبرهم إذ ذاك أن الله رَبُّه وربُّهم، وأَمَرهم بعبادته، فقال: ﴿ فاعبدُوه هذا صِراطٌ مستقيم ﴾، أي: هذا الذي جِئتُكم به عن الله صراطٌ مستقيم، أي: قويمٌ، من اتَّبعه رَشَدَ وهُدِي، ومن خَالَفه ضَلَّ وغَوَى.

وقولُه: ﴿ فاختلف الأحزابُ من بينهم ﴾، أي: اختلفَت أقوالُ أهل الكِتاب في عيسى بعد بيان أمرِه ووضوح حاله، وأنه عبدُه ورسولُه وكَلِمتُه ألقاها إلى مَرْيَم وروحٌ منه، فصمَّمت طائفة ـ وهم جمهورُ اليهود، عليهم لعائنُ الله ـ على أنه ولدُ زِنْيَةٍ، وقالوا: كلامهُ هذا سحرٌ. وقالت طائفة أخرى: إنما تَكلَّم الله. وقال آخرون: هو ابن الله. وقال آخرون: ثالث ثلاثة. وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله. وهذا هو قولُ الحقِّ، الذي أرشد الله إليه المؤمنين، وقد رُوِي نحوُ هذا عن عمرو بن ميمون، وابن جُرَيج، وقتادة، وغير واحد من السلَفِ والخَلَف.

قال عبد الرزَّاق: أخبرنا معمَرٌ، عن قتادَةَ في قوله: ﴿ ذلك عيسى ابنُ مريمَ قولَ الحقِّ الذي فيه يمترون ﴾، قال: اجتمع بنُو إسرائيل، فأخرجوا منهم أربعة نَفَرٍ، أخرجَ كُلُّ قوم عَالِمهم، فامترَوا في عيسى حين رُفِع، فقال أحدهم: هو الله هَبَط إلى الأرض فأحيا من أحيا، وأماتَ من أماتَ، ثم صَعِدَ إلى السماء. وهم اليعقوبية. فقال الثلاثة: كَذَبت. ثم قال اثنان منهم للثالث: قُلْ أنت فيه. قال: هو ابن الله. وهم النسطورية.

---

(١) الإقناع لابن الباذش ٦٩٦/٢، وتفسير الطبري ٨٣/١٦.
(٢) انظر تفسير الطبري ٨٣/١٦.

فقال الاثنانِ: كَذَبْتَ. ثم قال أحد الاثنين للآخر: قُلْ فيه. قال: هو ثالث ثلاثة: الله إله، وهو إله، وأمه إله. وهم الإسرائيليَّة ملوكُ النصارى، عليهم لعائن الله. قال الرابع: كَذَبْتَ، بل هو عبدُ الله ورسولُه ورُوحه وكَلِمتُه. وهم المسلمون. فكان لكلِّ رجل منهم أتباع على ما قالوا، فاقتتلوا، فَظُهِرَ على المسلمين، فذلك قولُ الله تعالى: ﴿ ويقتلونَ الذين يأمُرونَ بالقِسْطِ من الناس ﴾. وقال قتادةُ: وهم الَّذين قال الله: ﴿ فاختلف الأحزابُ من بينهم ﴾، قال: اختلفوا فيه فَصَارُوا أحزاباً.

وقد رَوَى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، وعن عُرْوَة بن الزبير، وعن بعض أهل العلم، قريباً من ذلك. وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم: أن قسطنطين جَمَعهم في مَحفِلٍ كبيرٍ من مجامعهم الثلاثة المشهورة عندهم، فكان جماعة الأساقفة ألفين ومائةً وسبعين أُسقُفاً، فاختلفوا في عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ اختلافاً متبايناً جدّاً، فقالت كُلُّ شرذمة فيه قولاً، فمائة تقولُ فيه قولاً، وسبعون تقولُ فيه قولاً آخَرَ، وخمسون تقولُ فيه شيئاً آخر، ومائةٌ وستون تقولُ شيئاً، ولم يجتمع على مقالةٍ واحدة أكثر من ثلاثمائةٍ وثمانيةٍ منهم، اتفقوا على قول وصَمَّمُوا عليه، ومال إليهم الملك، وكان فيلسوفاً، فقدمهم ونَصَرهم وطَرَد من عداهم، فوضعوا لـه الأمانة الكبيرة، بل هي الخيانةُ العظيمةُ، ووضَعُوا له كتب القوانين، وشَرَّعوا له أشياءَ، وابتدعوا بِدَعاً كثيرةً، وحرَّفوا دينَ المسيح وغَيَّروه، فابتنى لهم حينئذ الكنائس الكبارَ في مملكته كلِها: بلاد الشام، والجزيرة، والروم، فكان مبلغ الكنائسِ في أيامه ما يقاربُ اثني عَشَر ألفَ كنيسةٍ، وبنت أُمُّه هيلانةُ قُمامةً[1] على المكان الذي صُلِب فيه المصلوبُ الذي تزعم اليهود والنصارى أنه المسيحُ، وقد كَذَبوا، بل رَفَعه الله إلى السماء.

وقولُه: ﴿ فويلٌ للذين كفروا من مشهَدِ يوم عظيم ﴾: تهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ لمن كَذَب على الله وافترى، وزعَم أن له ولداً. ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامةِ وأجَّلهم حِلْماً وثقةً بقدرته عليهم؛ فإنه الذي لا يَعْجَل على من عصاه، بل كما جاء في الصحيحين: «إنّ الله لَيُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿ وكذلك أَخْذُ ربِّك إذا أَخَذَ القُرى وهي ظالمةٌ إن أَخْذَه أليمٌ شديدٌ ﴾[2]. وفي الصحيحين أيضاً، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «لا أحد أصبرُ على أذىً سَمِعه من الله، إنهم يجعلُون له ولداً وهُوَ يرزقُهم ويُعَافِيهم[3]»، وقد قال الله تعالى: ﴿ وكأيِّن من قريةٍ أمليتُ لها وهي ظالمةٌ ثم أخذتُها وإليّ المصير ﴾، وقال تعالى: ﴿ ولا تحسَبنَّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يُؤَخِرهم ليوم تشخَص في الأبصار ﴾، ولهذا قال ها هنا: ﴿ فويلٌ للذين كفروا من مَشْهَدِ يومٍ عظيمٍ ﴾، أي: يوم القيامة. وقد جاء في الحديث الصحيح المتَّفق على صِحَّته، عن عُبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من شهد أن لا إلَه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداًعبده ورسوله، وأنّ عيسى عبدُ الله ورسولُه، وكَلِمتُه ألقاها إلى مَرْيَم وروحٌ منه، وأنَّ الجنةَ حَقٌّ، والنارَ حقٌّ، أدخلَه الله الجنةَ على ما كانَ من العَمَلِ»[4].

---

(١) أي: ديراً.

(٢) فتح الباري، تفسير سورة هود ٨/٣٥٤. ومسلم، كتاب البرّ ٤/١٩٩٧ ـ ١٩٩٨.

(٣) فتح الباري، كتاب التوحيد ١٣/٣٦٠، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ٤/٢١٦٠.

(٤) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/٤٧٤، ومسلم، كتاب الإيمان ١/٥٧.

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُخبراً عن الكفار يومَ القيامة أنَّهم يكونون أسْمَعَ شيءٍ وأبْصَرَه، كما قال تعالى: ﴿ولو تَرَى إذِ المجرمون ناكسو رُءوسِهم عند ربِّهم ربَّنا أبصرْنا وسَمِعنا فارجِعْنا نعمَلْ صالحاً إنا مُوقنون﴾، أي: يقولون ذلك حين لا ينفعُهم ولا يُجدِي عنهم شيئاً، ولو كان هذا قبلَ معاينةِ العذابِ لكانَ نافعاً لهم ومُنقِذاً من عذاب الله، ولهذا قال: ﴿ أَسْمِعْ بهم وأبْصِرْ ﴾، أي: ما أسمعَهم وأبصرهم ﴿ يوم يأتوننا ﴾، يعني يوم القيامة، ﴿ لكن الظالمون اليومَ ﴾، أي: في الدنيا ﴿ في ضلال مبين ﴾، أي: لا يسمَعُون ولا يُبصِرُون ولا يَعقِلُون، فحيث يُطلَبُ منهم الهُدى لا يهتَدُون، ويكونون مُطيعين حيثُ لا ينفَعُهم ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿ وأنْذِرهم يوم الحسرة ﴾، أي: أنذِرِ الخلائقَ يوم الحسرَة، ﴿ إذ قُضِي الأمرُ ﴾، أي: فصل بين أهل الجنةِ وأهل النارِ، ودخلَ كلٌّ إلى ما صار إليه مُخلَّداً فيه، (وهم ﴾، أي: اليومَ ﴿في غفلة﴾ عما أُنذِروا به، ﴿ وهم لا يؤمنون ﴾، أي: لا يُصدِّقون به.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخُدْري قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النار النارَ، يُجَاءُ بالموت كأنه كبشٌ أملَحُ، فيوقَفُ بين الجنّةِ والنَّارِ، فيقال: يا أهلَ الجنةِ، هل تعرفون هذا؟ فيشرئِبُّونَ فينظرُون ويقولُون: نَعَم، هذا الموتُ. قال: فيقال: يا أهلَ النار، هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبُّون فينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت. قال: فيؤمَرُ به فيذبَحُ، قال: ويقال: يا أهل الجنةِ، خلودٌ ولا موتَ، ويا أهلَ النارِ، خلودٌ ولا موتَ. قال: ثم قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿ وأنذِرْهُم يومَ الحسرة إذ قُضِي الأمرُ وهم في غفلة ﴾، وأشارَ بيَدِه[١]. قال: «أهلُ الدنيا في غفلة الدنيا».

هكذا رواه الإمامُ أحمدُ، وقد أخرجه البخاريُّ ومسلم في صَحِيحيهما، من حديث الأعمش. به. ولفظهما قريبٌ من ذلك[١]. وقد رَوى هذا الحديث الحسنُ بن عَرَفَةَ: حدثني أسباط بن محمد، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً، مثله[٢]. وفي سُنَن ابن ماجه وغيره، من حديث محمد بن عمرو، عن أبي سَلَمَة، عن أبي هُريرة، بنحوه[٣]. وهوفي الصحيحين عن ابن عُمَر[٤]. ورواه ابن جُريج قال: قال ابن عباس، فذكر من قبله نحوه[٥]. ورواه أيضاً عن أبيه أنه سمع عُبَيد بن عُمَير يقول في قَصَصه: يؤتى بالوت كأنه دابَّة، فَيُذبَحُ والناس ينظرون[٥]. وقال سفيان الثوريُّ، عن سلمة بن كُهَيل: حدثنا أبو الزَّعراء، عن عبدالله ـ هو ابنُ مسعود ـ في قصة ذكرها، قال: «فليس نفسٌ إلا وهي تنظُر إلى بيتٍ في الجنَّةِ وبيتٍ في النارِ، وهو يومُ الحَسْرَةِ. فَيَرى أهلُ النارِ البيتَ الذي في الجنَّة، فيقال لهم: لو عملتُم! فتأخذهُمُ الحسرةُ، قال: وَيَرى أهل الجنة البيتَ الذي في النار. فَيُقال: لولا أن مَنَّ الله عليكُم»[٦].

(١) مسند أحمد ٣/٩، وفتح الباري، تفسير سورة مريم ٨/٤٢٨، ومسلم، كتاب الجنة ٤/٢١٨٨.
(٢) أخرجه ابن جرير من حديث أسباط، به ١٦/٨٨.
(٣) سنن ابن ماجه، كتاب الزهد ٢/١٤٤٧. وكذلك في مسند أحمد ٢/٣٧٧.
(٤) فتح الباري، كتاب الرقاق ١١/٤١٥، ومسلم، كتاب الجنة ٤/٢١٨٩.
(٥) تفسير الطبري ١٦/٨٨.
(٦) تفسير الطبري ١٦/٨٧.

وقال السدّيُّ، عن زِيَادٍ، عن زِرِّ بن حُبَيْش، عن ابن مَسعُودٍ في قوله: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يومَ الحسرة إذ قُضِي الأمرُ﴾، قال: إذا دَخل أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ أتى بالموت في صورة كبش أملَح، حتى يُوقَف بين الجنة والنار، ثم ينادِي مُنادٍ: يا أهلَ الجنةِ، هذا الموتُ الذي كان يُميتُ الناسَ في الدنيا، فلا يبقى أحدٌ من أهل عليِّين ولا في أسفلِ درجةٍ من الجنة إلا نَظَر إليه، ثم يُنادَى: يا أهلَ النار، هذا الموتُ الذي كان يُميتُ الناسَ في الدنيا. فلا يبقى أحدٌ في ضَحْضَاحٍ من نار ولا في أسفلِ دَرْكٍ من جهنم إلا نَظر إليه، ثم يُذْبَح بين الجنة والنار، ثم يُنادَى: يا أهلَ الجنةِ، هو الخلودُ أبدَ الآبدين، ويا أهلَ النار، هو الخلودُ أبدَ الآبدِينَ. فيَفرحُ أهلُ الجَنَّة فرحةً لو كان أحدٌ ميتاً من فرح ماتُوا، ويَشهَقُ أهلُ النار شهقةً لو كانَ أحد ميتاً من شَهْقَةٍ ماتوا، فذلك قوله: ﴿ وَأَنذِرْهُم يوم الحسرةِ إذ قُضِي الأمرُ﴾، يقول: إذا ذُبِحَ الموت. رواه ابنُ أبي حاتم في تفسيره.

وقال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وأنذِرْهُم يومَ الحسرَةِ ﴾، من أسماءِ يوم القيامة، عَظَّمهُ الله وَحذَّره عباده.

وقال عبدُ الرحمن بن زيدِ بنِ أسلَمَ في قوله: ﴿ وأنذِرْهُم يومَ الحسرة ﴾، قال: يومُ القيامة، وقَرأ: ﴿ أن تقول نفسٌ يا حسرتا على ما فَرَّطتُ في جَنْبِ الله ﴾[(١)].

وقولُه: ﴿ إنّا نحن نَرثُ الأرضَ ومَن عليها وإلينا يُرجَعُون ﴾: يخبر تعالى أنه الخالقُ المالكُ المتصرِّف، وأنَّ الخلق كُلَّهم يَهْلِكون ويبقى هو ـ تعالى وتقدس ـ ولا أحدَ يَدَّعي مُلْكاً ولا تَصرُّفاً، بل هو الوارثُ لجميع خَلْقه، الباقي بعدهم، الحاكمُ فيهم، فلا تُظْلَم نفسٌ شيئاً ولا جَنَاحَ بعوضةٍ ولا مِثقالَ ذَرَّةٍ.

قال ابن أبي حاتم: ذكر هُدْبَة بن خالد القَيسي: حدثنا حَزم بن أبي حَزْمِ القُطَعي قال: كتب عُمَر بن عبد العزيز إلى عَبدِ الحميد بن عبد الرحمن صاحب الكوفة: «أما بعدُ فإن الله كَتَب على خَلْقِهِ حين خَلَقهم الموتَ، فَجعلَ مَصيرهم إليه، وقال فيما أنزلَ من كتابِ الصَّادقِ الذي حَفظه بِعلْمِه، وأشهدَ ملائكته على خلقه: إنه يَرِث الأرضَ ومن عليها، وإليه يُرْجَعُون»[(٢)].

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى لنبِّيه محمدٍ ـ ﷺ ـ: واذكر في الكتاب إبراهيمَ وَاتْلُه على قومِك، هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، واذكُر لهم ما كان من خبر إبراهيمَ خليلِ الرحمن الذين هم من ذُرِّيته، ويَدَّعون أنهم على مِلَّته، وَقد كان صِدِّيقاً نبياً ـ مع أبيه، كيف نَهاه عن عبادةِ الأصنام، فقال: ﴿ يا أبتِ لِمَ تعبدُ ما لا يسمَع ولا يُبصِرُ ولا يُغني عنك شيئاً ﴾، أي: لا ينفعُك ولا يدفع عنك ضَرراً.

﴿ يا أَبَتِ إِنّي قد جاءَنِي من العِلْم ما لم يَأْتِكَ ﴾. يقول: فإن كنتُ من صُلبكَ وتَرَى أني أصغر منك، لأني ولدُك، فاعلم أني قد اطَّلعت من العلم من الله على ما لم تَعْلَمه أنت ولا اطَّلعت عليه ولا جاءَكَ بعدُ،

(١) تفسير الطبري ١٦/٨٨.

(٢) الدرّ المنثور ٥/٥١٣ عن ابن أبي حاتم.

﴿ فاتَّبِعْنِي أهدِكَ صراطاً سَوِيّاً ﴾ أي: طريقاً مستقيماً مُوصِلاً إلى نيل المطلوب، والنجاة من المرهُوبِ.

﴿ يا أَبتِ لا تعبُدِ الشيطانَ ﴾، أي: لا تُطِعه في عبادَتِك هذه الأصنامَ، فإنَّه هو الداعي إلى ذلك، والراضِي به، كما قال تعالى: ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبُدوا الشيطان ﴾ وقال: ﴿ إن يدعُون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مَريداً ﴾.

وقولُه: ﴿ إنَّ الشيطانَ كان للرحمنِ عَصِيّاً ﴾، أي: مُخَالِفاً مستكبراً عن طاعة رَبِّه، فَطَرَدَه وأبعدَه، فلا تَتَّبِعه تَصِرْ مثله.

﴿ يا أبتِ إني أخافُ أن يمسَّكَ عذابٌ من الرحمن ﴾، أي: على شركك وعصيانك لما آمرُكَ به، ﴿ فتكونَ للشيطان ولياً ﴾، يعني: فلا يكون لك مولى ولا ناصراً ولا مغيثاً إلا إبليسُ، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيءٌ، بل اتباعك له موجبٌ لإحاطةِ العَذاب بك، كما قال تعالى: ﴿ تالله لقد أرسَلْنا إلى أُمَمٍ من قَبْلِك فزيَّن لهم الشيطانُ أعمالَهم فهو وَلِيُّهم اليومَ وَلَهُم عذابٌ أَلِيم ﴾.

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾

وقولُ تعالى مخبراً عن جَوَاب أبي إبراهيم لولَدِه إبراهيمَ فيما دَعَاه إليه أنه قال: ﴿ أراغبٌ أنتَ عن آلهتي يا إبراهيمُ ﴾ يعني أمَا تُريدُ عبادتَها ولا ترضَاها؟ فانتَهِ عن سَبِّها وشَتْمِها وعَيْبِها، فإنك إن لم تَنتَهِ عن ذلك اقتصصتُ منك وشتمتُكَ وسَبَبْتُكَ، وهو قوله: ﴿ لأرجُمنَّكَ ﴾، قاله ابنُ عبَّاسٍ، والسدِّيُّ، وابنُ جُرَيجٍ، والضحَّاك، وغيرهم[(١)].

وقولُه: ﴿ واهجُرني مَلِيّاً ﴾، قال مجاهد، وعكرمةُ، وسعيد بن جُبَير، ومحمد بن إسحاقَ: يعني دهراً. وقال الحسنُ البصريُّ: زماناً طويلاً. وقال السدِّيُّ: ﴿ واهجُرني مَلِيّاً ﴾، قال: أبداً.

وقال عليُّ ابن أبي طلحةَ، والعوفيُّ، عن ابن عَبَّاس: ﴿ واهجُرني ملِيّاً ﴾، قال: سَوِياً سالماً قبل أن تصيبك مني عُقوبة. وكذا قال الضحاك، وقتادةُ، وعَطِية الجَدَلِيُّ[(٢)]، وأبو مالك، وغيرهم. واختاره ابنُ جَرير[(٣)].

فعندها قال إبراهيمُ لأبيه: ﴿ سلامٌ عليك ﴾، كما قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿ وإذا خاطَبَهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾، وقال تعالى: ﴿ وإذا سَمِعوا اللَّغو أعرضُوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولَكُم أعمالُكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾.

ومعنى قول إبراهيم لأبيه: ﴿ سلامٌ عليك ﴾، يعني: أمَّا أنا فلا ينالُك مِنِّي مكروه ولا أذىً، وذلك لِحُرمة الأبُوَّة، ﴿ سأستغفرُ لك ربِّي ﴾، أي: ولكن سَأسألُ الله تعالى فيك أنْ يَهدِيَكَ ويَغفِرَ ذنبك، ﴿ إنه كان بي حَفِيّاً ﴾. قال ابنُ عباس وغيره: لطيفاً، أي في أن هداني لعبادته والإخلاص له، وقال مجاهدٌ، وقتادةُ، وغيرهما: ﴿ إنه كان بي حَفِيّاً ﴾، قالوا: عَوَّدَهُ الإجابَةَ.

---

(١) تفسير الطبري ١٦/٩١.

(٢) هو عطية بن سَعْد العوفي، أبو الحسن. انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٦/٣٨٢، والأنساب للسمعاني ٤/٢٥٨.

(٣) تفسير الطبري ١٦/٩٢.

وقال السّديُّ: الحفِيُّ: الذي يَهْتَمّ بأمرِه.

وقد استغفر إبراهيم لأبيه مُدّةً طويلةً، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنَى المسجدَ الحرام، وبعد أن وُلد له إسماعيلُ وإسحاقُ ـ عليهما السلام ـ في قوله: ﴿ ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾.

وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهلهم من المشركين في ابتداءِ الإسلام، وذلك اقتداءً بإبراهيمَ الخليلِ في ذلك حتى أنزل الله تعالى: ﴿ قد كانت لكم أسوةٌ حسنة في إبراهيمَ والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا بُرآءُ منكم ومما تعبدُون من دون الله كَفرنا بكم وبَدَا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاءُ أبداً حتى تُؤمِنُوا بالله وحدَه إلا قولَ إبراهيم لأبيه لأستغفرنَّ لك وما أملِكُ لك من الله من شَيءٍ ﴾ الآية، يعني إلا في هذا القول، فلا تتأسّوا به. ثم بين تعالى أن إبراهيمَ أقلعَ عن ذلك، ورجع عنه، فقال تعالى: ﴿ ما كان للنبيِّ والذين آمنوا أن يستغفِرُوا للمشركين وَلو كانوا أُولِي قُربى من بعد ما تَبيَّن لهم أنهم أصحابُ الجَحِيم * وما كان استغفارُ إبراهيم لأبِيه إلا عن موعدَةٍ وعَدَاها إيَّاه فلما تَبيَّن له أنه عدوٌّ لله تَبرَّأ منه إنَّ إبراهيمَ لأوّاه حَلِيمٌ ﴾.

وقولُه: ﴿ وأعتزِلُكم وما تدعون من دون الله وَأدعُو ربي ﴾، أي: أجتَنِبُكم وأتبرأُ منكم ومن آلهتكم التي تعبدُونها، ﴿ وأدعو ربِّي ﴾، أي: وأعبد ربِّي وحدَه لا شريكَ له، ﴿ عَسَى ألاَّ أكونَ بِدُعاءِ ربي شَقِيّاً ﴾ «وعسى» هذه مُوجِبَةٌ لا محالَةَ فإنه ـ عليه السلام ـ سيِّد الأنبياء بعد محمد ﷺ.

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) ﴾

يقولُ: فَلَما اعتزلَ الخليلُ أباه وقومَه في الله أبدلَه الله من هو خيرٌ منهم، وَهَب له إسحاقَ ويعقوبَ، يعني ابنه وابن إسحاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ ويعقوب نافلةً ﴾، وقال: ﴿ ومن وراء إسحاق يعقوبَ ﴾.

ولا خلافَ أنَّ إسحاقَ والد يعقوب، وهو نص القرآن في سورة البقرة: ﴿ أم كنتم شهداءَ إذ حضر يعقوبَ الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلَهك وإلَه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاقَ ﴾. ولهذا إنما ذكر هاهنا إسحاقَ ويعقوب، أي: جَعَلنا له نسلاً وعَقباً أنبياءَ، أقرَّ الله بهم عينَه في حياته، ولهذا قال: ﴿ وكلاًّ جعلنا نبياً ﴾، فلو لم يكن يعقوبُ قد نُبِّيء في حياة إبراهيم لَمَا اقتصر عليه، ولذكر ولده يوسف فإنه نَبِيٌّ أيضاً، كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ في الحديث المتفق على صِحَّتِهِ، حين سُئِل عن خير الناس، فقال: «يوسفُ نبيُّ الله ابنُ يعقوب نبيِّ الله، ابن إسحاقَ نبيِّ الله، ابن إبراهيمَ خليلِ الله»(١). وفي اللَّفظِ الآخر: «إنَّ الكريمَ ابنَ الكريمِ ابنِ الكريم ابنِ الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ»(٢).

وقولُه: ﴿ وَوَهَبنا لهم من رَحمتِنا وجَعلنا لهم لِسانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني الثناءَ الحسَنَ. وكذا قال السدِّيُّ، ومالكُ بنُ أنَس.

وقال ابنُ جرير: إنما قال: ﴿ عليّاً ﴾، لأن جَمِيع المِلَلِ والأديانَ يُثنون عليهم ويمدَحُونهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين(٣).

---

(١) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٣٨٧/٦، ومسلم، كتاب الفضائل ١٨٤٦/٤.

(٢) فتح الباري، كتاب المناقب ٥٥١/٦.

(٣) تفسير الطبري ٩٣/١٦.

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾

لما ذَكَر تعالى إبراهيمَ الخليلَ وأثنى عليه عَطَف بِذِكْرِ الكَلِيم، فقال: ﴿ واذكُرْ في الكتاب مُوسَى إنه كان مُخْلَصاً ﴾ قرأ بعضهم بكسر اللام[1]، من الإخلاص في العبادة.

قال الثوريُّ، عن عبد العزيز بن رُفيع، عن أبي لُبَابَةَ قال: قال الحواريُّون: يا رُوح الله، أخبرنا عن المخلص لله. قال: الذي يعمل لله، لا يحبُّ أن يحمَدَهُ الناسُ.

وقرأ الآخرون بفتحها، بمعنى أنه كان مُصطفىً، كما قال تعالى: ﴿ إني اصطفيتك على الناس ﴾.

﴿ وكان رسولاً نبياً ﴾، جَمَع الله له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار أُولي العزم الخمسة، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلواتُ الله وسلامُه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين.

وقولُه: ﴿ وناديناه من جانب الطُّور ﴾، أي: الجَبَل ﴿ الأيمن ﴾، أي: من جانبِهِ الأيمن من موسى، حين ذهب يبتغي من تلك النار جَذوةً، رآها تلوح فقصدها، فوجدها في جانب الطور الأيمن منه، غَرْبِيَّه عند شاطىء الوادي. فكلمه الله تعالى، ناداه وقربه فناجاه.

قال ابن جرير: حدثنا ابن بَشَّار، حدثنا يحيى ـ هو القَطَّان ـ حدثنا سفيان، عن عطاء بن السائب[2]، عن سَعِيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿ وقربناه نَجِيّاً ﴾، قال: أُدْنِيَ حتى سَمِع صَرِيفَ القَلَم[3].

وهكذا قال مجاهدٌ، وأبو العالية، وغيرُهم. يعنون صرِيفَ القلم بكتابة التوراة. وقال السُّديُّ: ﴿ وقربناه نجياً ﴾، قال: أدخل في السماء فَكُلِّم، وعن مجاهد نحوه. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادةَ: ﴿ وقربناه نجياً ﴾، قال: نجا بِصِدْقه.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا عبدُ الجَبَّار بن عاصم، حدثنا محمد بن سَلَمة الحَرَّانِيُّ، عن أبي واصلٍ[4]، عن شهر بن حَوْشَب، عن عَمرو بن معديكرب قال: لما قَرَّب الله موسى نَجِيًا بطور سيناء، قال: يا موسى، إذا خلقتُ لك قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة تُعِينُ على الخير فلم أَخزُن عنك من الخير شيئاً، ومن أَخزُن عنه فلم أفتح له من الخير شيئاً.

وقولُه: ﴿ ووهَبنا له من رَحْمَتِنا أخاه هارون نبياً ﴾، أي: وأجبنا سُؤاله وشفاعته في أخيه فجعلناه نبياً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وأخي هرونُ هو أفصحُ مني لساناً فأرسِلْه معي رِدْءاً يُصدِّقني إني أخاف أن يُكَذِّبونِ﴾، وقال: ﴿وقد أوتيت سؤلك يا موسى﴾، وقال: ﴿فأرسل إلى هرون * ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلونِ ﴾. ولهذا قال بعضُ السلف: ما شَفَع أحدٌ في أحد شفاعةً في الدنيا أعظَمَ من شفاعةِ موسى في هارونَ أن يكون نبيّاً، قال الله تعالى: ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً ﴾.

---

(١) قرأ بالفتح من السبعة الكوفيون، والباقون بكسر اللام. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٦٩٧.

(٢) في النسخ: عطاء بن يسار. والمثبت عن تفسير الطبري. وانظر ترجمة عطاء بن السائب في تهذيب التهذيب ٧/٢٠٣ ـ ٢٠٤، والجرح لابن أبي حاتم ٦/٣٣٨.

(٣) تفسير الطبري ١٦/٩٤.

(٤) هو: عبد الحميد بن واصل الباهلي، انظر الجرح لابن أبي حاتم ٦/١٨، والمقتنى للحافظ الذهبي ٢/١٣٣.

قال ابنُ جرير: حدّثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن داودَ، عن عكرمةَ قال: قال ابنُ عباسٍ قوله: ﴿ وَوَهبنا له من رحمتنا أخاه هرونَ نبياً ﴾، قال: كان هارونُ أكبر من موسى، ولكن أراد، وهب له نبوته.

وقد ذكره ابنُ أَبِي حاتم مُعَلَّقا، عن يعقوب ـ وهو ابنُ إبراهيمَ الدَّورقي ـ به.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾

هذا ثناءٌ من الله على إسماعيل بن إبراهيم الخليل ـ عليهما السلام ـ وهو والد عَرَبِ الحجاز كلِّهم بأنه ﴿ كان صادق الوعد ﴾.

قال ابنُ جُرَيجٍ: لم يَعِدْ ربَّه عِدَةً إلا أنجزها. يعني ما التزم عبادةً قطُّ بنذرٍ إلا قام بها، ووفَّاها حَقَّها.

وقال ابن جرير: حدثني يونُس، أنبأنا ابنُ وهبٍ، أخبرني عمرو بن الحارث، أن سهل بن عَقِيل حَدَّثه: أن إسماعيل النبي ـ عليه السلام ـ وَعَد رَجُلاً مكاناً أنْ يأتيه، فجاء ونَسِي الرجلُ، فظلَّ به إسماعيل وبات حتى جاء الرجلُ من الغد، فقال: ما بَرِحتَ من ها هنا؟ قال: لا. قال: إني نَسِيتُ. قال: لم أكُن لأبرحَ حتى تأتِيني. فلذلك: ﴿كان صادق الوعد﴾[١].

وقال سفيانُ الثَّورِيُّ: بَلَغني أنه أقامَ في ذلك المكان ينتظِرُه حولاً حتى جاءَه. وقال ابنُ شَوْذَبٍ: بَلَغني أنه اتَّخذ ذلك الموضعَ سكناً.

وقد رَوَى أبو داود في سُنَنه، وأبو بكر محمد بن جعفر الخَرائطي في كتابه «مكارم الأخلاق»، من طريق إبراهيم بـن طهمان، عن بُدَيل[٢] عن مَيْسَرَةَ، عن عبد الكريم ـ يعني ابن عبد الله بن شَقِيق ـ عن أبيه، عن عبد الله بن أبي الحمساء قال: بايعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قبل أن يُبعَثَ فَبَقِيَتْ له عليَّ بقيَّة، فوعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك، قال: فنسيت يومي والغد، فأتيته في اليوم الثالث، وهو في مكانه ذلك، فقال لي. يا فَتى، لقد شققتَ عليَّ، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك. لفظ الخرائطي، وساق آثاراً حسنة في ذلك[٣].

ورواه ابنُ مَنْـدَه أبو عبد الله في كتابِ «معرفةِ الصحابة»، بإسنادِهِ عن إبراهيمَ بن طهمانَ، عن بُدَيل بن ميسرَةَ، عن عبد الكريم، به.

وقال بعضُهم: إنما قيل له: ﴿ صادقَ الوعد ﴾، لأنه قال لأبيه: ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾، فَصدَق في ذلك.

فَصِدْقُ الوعد من الصفات الحميدة، كما أن خُلْفَه من الصفات الذميمة، قال الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كَبُر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾، وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «آية المنافق ثلاث: إذا حَدَّثَ كَذَب، وإذا وَعَد أخلَفَ، وإذا اؤتُمِنَ خانَ»[٤].

ولما كانت هذه صفاتِ المنافقين، كانَ التلبُّس بِضدِّها من صفاتِ المؤمنين، ولهذا أثنى الله على عَبْدِهِ

(١) تفسير الطبري ١٦/٩٥.

(٢) في النسخ: عبدالله بن مَيْسَرَةَ. والمثبت عن سنن أبي داود.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الأدب ٤/٢٩٩.

(٤) أخرجاه في كتاب الإيمان، فتح الباري ١/٨٩، ومسلم ١/٧٨.

ورسُوله إسماعيل بصدق الوعد، وكذلك كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ صادقَ الوعد أيضاً، لا يَعِدُ أحداً شيئاً إلا وفى له به، وقد أثنى على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينبَ، فقال: حَدَّثني فَصَدَقني، ووعَدَني فوفَى لي»[1]. ولما تُوفي النبي ـ ﷺ ـ قال الخليفةُ أبو بكر الصدِّيقُ: من كان له عند رسول الله ـ ﷺ ـ عِدَةٌ أو دينٌ فلْيأتِني أُنجزْ له. فجاءَهُ جابرُ بن عبد الله، فقال: إنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان قال: «لو جاء مال البحرَين أعطيتُك هكذا وهكذا وهكذا ـ يعني مِلْءَ كَفَّيه ـ فلما جاء مالُ البحرَين أمرَ الصدِّيقُ جابراً بِغرْف يَدَيه من المال، ثم أمره بِعَدِّه، فإذا هو خَمْسُمائةِ درهم، فأعطاه مِثْلَها مَعها[2].

وقولُه: ﴿ وكان رَسُولاً نبياً ﴾، في هذا دلالَةٌ على شَرَف إسماعيل على أخيه إسحاقَ، لأنه إنما وُصِفَ بالنبوَّة فقط، وإسماعيلُ وُصِف بالنبوَّة والرسالة. وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل»... وذكر تَمامَ الحديثِ[3]، فَدَلَّ على صحة ما قلناه.

وقولُه: ﴿ وكان يأمُر أهلَه بالصَّلاةِ والزَّكاة وكان عند ربه مَرْضِياً ﴾: هذا أيضاً من الثناء الجَميل، والصِّفة الحَميدة والخلَّةِ السَّديدَةِ، حيث كان مُثابراً على طاعة ربه آمراً بها أهْلَه، كما قال تعالى لرسوله: ﴿ وَأْمُر أهلَكَ بالصَّلاة واصطَبِرْ عليها لا نسألُك رزقاً نحن نرزُقك والعاقبةُ للتَّقوى ﴾، وقال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً * وقودُها الناسُ والحجارةُ * عليها ملائكةٌ غلاظٌ شِدَادٌ﴾... الآية، أي: مُرُوهم بالمعروفِ، وانهَوهم عن المنكر، ولا تَدَعوهم هَمَلا فتأكلَهم النار يوم القيامة، وقد جاء في الحديث، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «رَحِم اللهُ رجُلاً قام من الليل فصلَّى، وأيقظ امرأتَه، فإن أبت نَضَح في وجهها الماء. رَحِم الله امرأةً قامت من الليل فَصلَّت، وأيقظت زوجها، فإن أَبَى نَضَحت في وجهه الماء». أخرجه أبو داود وابن ماجه[4].

وعن أبي سَعيد، وأبي هُرَيرة ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إذا استيقظَ الرجلُ من الليل وأيقظَ امرأته، فَصلَّيا ركعتين، كُتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات». رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، واللفظ له[5].

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾

وهذا ذِكْرُ إدريسَ ـ عليه السلامُ ـ بالثناء عليه، بأنه كان صِدِّيقاً نَبيّاً، وأن الله رَفَعه مكاناً عليّاً. وقد تقدم في الصحيح: أن رسول الله ـ ﷺ ـ مَرّ به ليلةَ الإسراءِ وهو في السماء الرابعة[6].

وقد روى ابنُ جَرير هاهنا أثراً غريباً عجيباً، فقال:

حدثني يونُس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابنُ وهب، أخبرني جَرير بن حازم، عن سُليمان الأعمش، عن شِمْر ابن عطية، عن هلالِ بن يَساف قال: سأل ابنُ عباسٍ كَعباً وأنا حاضرٌ، فقال له: ما قولُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ

---

(١) أخرجاه في كتاب فضائل الصحابة، فتح الباري ٨٥/٧، ومسلم ١٩٠٣/٤ ـ ١٩٠٤.
(٢) فتح الباري، كتاب الهبة ٢٢١/٥ ـ ٢٢٢، وكتاب الشروط ٢٨٩/٥، ومسلم، كتاب الفضائل ١٨٠٦/٤ ـ ١٨٠٧.
(٣) مسلم، كتاب الفضائل ١٧٨٢/٤. وانظر تحفة الأشراف ٧٧/٩.
(٤) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ٧٠/٢، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة ٤٢٤/١.
(٥) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ٧٠/٢، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة ٤٢٣/١ ـ ٤٢٤.
(٦) أخرجه الإمام أحمد ومسلم بإسنادهما إلى أنس بن مالك. انظر أول تفسير سورة الإسراء.

لإدريس: ﴿ ورفعْناه مكاناً عَلِيّاً ﴾؟ فقال كعب: أما إدريسُ فإن الله أوحى إليه أني أرفعُ لك كُلَّ يوم مثلَ عَمَل جَمِيع بني آدم. فَأَحَبَّ أن يَزْدَاد عملاً. فأتاه خليلٌ له من الملائكةِ فقال: إنَّ الله أوحى إليَّ كذا وكذا، فَكَلِّم لي ملكَ الموت، فَلْيؤخِّرني حتى أزداد عملا. فَحمَله بين جناحيه، ثم صَعِد به إلى السماء، فلما كان في السماءِ الرابعةِ تلقاهم مَلَك الموت مُنْحَدِراً، فَكَلَّم ملكَ الموت في الذي كَلَّمه فيه إدريسُ، فقال: وأين إدريسُ؟ فقال: هو ذا على ظهري. قال ملـك الموت: فالعجبُ! بُعِثْتُ وقيل لي: اقبِضْ روحَ إدريسَ في السماءِ الرابعة: فجعلت أقول: فكيفَ أَقبِضُ روحه في السماء الرابعة، وهو في الأرض؟ فَقَبَضَ روحَه هناك. فذلك قولُ الله: ﴿ ورفعناه مكاناً عَلِيّاً ﴾.

هذا من أخبار كعب الأحبار الإسرائيليات، وفي بعضه نَكارة، والله أعلم.

وقد رواه ابنُ أبي حاتم وجه آخر، عن ابن عباس: «أنه سَأَل كعباً»... فذكر نحو ما تقدَّم، غير أنه قال لذلك الملك: «هل لك أن تسأله ـ يعني ملكَ الموت ـ كم بَقِي من أجلي؟ لكي أزدادَ من العمل»... وذكر باقيه، وفيه أنه لما سأله عما بقي من أجَلِه، قال: لا أدري حتى أنظر: ثم نظر، قال: إنك تسألني عن رَجُلٍ ما بقي من عمره إلا طرفة عين، فنظر الملك تحت جَناحِه إلى إدريس، فإذا هو قُبِضَ عليه السلام، وهو لا يشعُر به[1].

ثم رواه من وجه آخر عن ابن عباس: أن إدريسَ كان خياطاً، فكان لا يغرزُ إبرةً إلا قال: «سبحان الله»، فكان يمشي حين يمشي، وليس في الأرض أحد أفضل عملاً منه. وذكر بقيته كالذي قبله، أو نحوه.

وقال ابنُ أبي نَجِيح، عن مجاهد في قوله: ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾، قال: إدريسُ رُفع ولم يَمُتْ، كما رفع عيسى[1].

وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ قال: السماء الرابعة.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿ ورفعناهُ مَكاناً عَلِيّاً ﴾، قال: رُفع إلى السماءِ السادسةِ فماتَ بها، وهكذا قال الضَّحَّاكُ بن مُزاحم.

وقال الحَسَن، وغيره، في قوله: ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾، قال: الجنة.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨) ﴾

يقولُ تعالى: هؤلاء النبيُّون ـ وليس المراد هؤلاء المذكورين في هذه السُّورةِ فقط، بل جنسَ الأنبياءِ عليهم السلام، استطرد من ذكر الأشخاصِ إلى الجنس ـ ﴿ الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين من ذُرِّيَّةِ آدم ﴾... الآية.

قال السُّديُّ وابنُ جَرير: فالذي عُنِي به من ذُرِّية آدمَ إدريسُ، والذي عُنِي به من ذُرِّية مَن حملنا مع نوح إبراهيم، والذي عُنِي به من ذُرِّية إبراهيم إسحاقُ ويعقوبُ وإسماعيل، والذي عُنِي به من ذُرِّية إسرائيلَ موسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى ابنُ مريم.

(١) تفسير الطبري ٩٦/١٦.

قـال ابنُ جَرير: «ولذلك فرّق أنسابهم، وإن كان يجمَع جميعهم آدمُ، لأنَّ فيهم من ليس من وَلَدِ مَنْ كان مع نوح في السفينة، وهو إدريسُ، فإنه جَدُّ نُوح»(١).

قلت: هذا هو الأظهرُ أنَّ إدريسَ في عَمُود نَسَب نوح عليهما السلام. وقد قيل: إنه من أنبياء بني إسرائيلَ، أخذاً من حديث الإسراء، حيث قال في سلامه على النبي ـ ﷺ ـ: «مرحباً بالنبي الصالح، والأخ الصالح» ولم يَقُل: «والولد الصالح»، كما قال آدمُ وإبراهيمُ عليهما السلام.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرني ابن لَهِيعَة، عن يزيد بن أبي حَبِيب، عن عبدالله بـنُ عَمْرو(٢) أن إدريس أقدمُ من نوح، بعثَه الله إلى قَوْمِه، فأمَرَهم أن يقولُوا: لا إله إلا الله، ويعمَلوا ما شاءوا، فأبوا، فأهلكهم الله عز وجل.

ومما يُؤَيِّد أنَّ الـمراد بهذه الآيةِ جنسُ الأنبياء، أنها كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وتلك حُجَّتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفعُ درجاتٍ من نشاءُ إن ربّك حكيمٌ عليمٌ ۞ ووَهَبنا له إسحاقَ ويعقوبَ كُلًّا هَدَينا ونوحاً هدينا من قبلُ ومن ذُرِّيته داود وسليمان وأيوبَ ويوسفَ وموسى وهرون وكذلك نَجْزي المحسنين ۞ وزكريًّا ويحيى وعيسى وإلياس كلٌّ من الصالحين ۞ وإسماعيل واليسعَ ويونُسَ ولوطاً وكُلًّا فضَّلنا على العالمين ۞ ومن آبائِهم وذُرِّياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهَدَيناهم إلى صِرَاطٍ مستقيم ﴾، إلى أن قال: ﴿ أولئك الذين هَدَى الله فَبِهُداهم اقتَدِه قُلْ لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾ . وقال تعالى: ﴿ منهم من قَصَصْنا عليكَ ومنهُم من لم نقصُصْ عليك﴾. وفي صحيح البخاري، عن مجاهد: أنه سأل ابنَ عبَّاس: أفي «صۤ» سَجْدة؟ فقال: نعم، ثم تلا هذه الآية: ﴿ أولئك الذين هَدَى الله فَبِهُداهم اقتَدِه ﴾، فنبيكم ممن أُمِرَ أن يَقتَدِيَ بهم، قال: وهو منهم(٣). يعني داود.

وقال الله تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خَرُّوا سُجَّداً وبُكيًّا ﴾، أي: إذا سَمِعوا كلام الله المتضمِّنَ حُجَجَه ودلائلَه وبَراهِينه سَجَدُوا لربهم خضوعاً واستكانة، وحَمْداً وشُكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة.

والبُكِيُّ: جَمْعُ باكٍ، فلهذا أَجْمَعَ العلماءُ على شرعيَّةِ السجود ها هنا، اقتداءً بهم، واتباعاً لمنوالهم.

قال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي مَعْمَرٍ، قال: قرأ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ سورة مريم فسجد وقال: هذا السجودُ، فأين البُكِيّ؟ يريد البكاء.

رواه ابنُ أبي حاتم وابنُ جريرٍ(٤)، وسقَطَ من روايته ذِكْرُ أبي مَعْمَرٍ ـ فيما رأيتُ ـ والله أعلم.

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حِزْبَ السعداء، وهم الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ومن اتَّبعَهم، من القائمين بحدُود الله

(١) تفسير الطبري ١٦/٩٧.
(٢) في نسخة الأزهر: عبدالله بن محمد. وفي نسخة الحرم: عبدالله بن عُمَر. وانظر الدر المنثور ٥/٥١٧.
(٣) فتح الباري، تفسير سورة الأنعام ٨/٢٩٤، وتفسير سورة ص ٨/٥٤٤.
(٤) تفسير الطبري ١٦/٩٨.

وأوامره، المؤدِّين فرائضَ الله، التاركين لزواجِره، ذكر أنه ﴿ خَلَف مِن بَعدِهم خَلْفٌ ﴾، أي: قُرون أُخَر، ﴿ أضاعوا الصلاة ﴾، وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيعُ، لأنها عِمادُ الدِّين وقِوامه، وخيرُ أعمال العباد. وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذِّها، ورضُوا بالحياةِ الدُّنيا واطمَأنُّوا بها، فهؤلاء سَيلقَون غياً، أي: خَساراً يوم القيامة.

وقد اختلفوا في المراد بإضاعةِ الصلاة ها هنا، فقال قائلون: المراد بإضاعَتِها تَرْكُها بالكلية، قاله محمد ابن كعب القرظي، وابنُ زيدِ بن أسلَمَ، والسدِّيُّ، واختاره ابنُ جرير. ولهذا ذَهَبَ مَن ذَهَب من السَّلَف والخَلَف والأئمة كما هو المشهور عن الإمام أحمد، وقولٌ عن الشافعي إلى تكفير تارك الصلاة، لِحَديث: «بين العبدِ وبين الشركِ تَركُ الصلاة»(١)، والحديث الآخر: «العهدُ الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تَرَكَها فقد كفر»(٢). وليس هذا محلَّ بسطِ هذه المسألة.

وقال الأوزاعيُّ، عن موسى بن سُلَيمان، عن القاسم بن مُخَيمِرَة في قوله: ﴿ فَخَلَف من بعدهم خَلْفٌ أضاعُوا الصلاة ﴾، قال: إنما أضاعُوا المواقيتَ، ولو كان تَرْكاً كان كُفـراً(٣).

وقال وكيع، عن المسعودي، عن القاسم بن عبد الرحمن والحسن بن سعْدٍ(٤)، عن ابن مسعود أنه قيل له: إن الله يُكثِر ذِكر الصلاة في القرآن: ﴿ الذين هم عن صَلاتهم ساهون ﴾ و﴿ على صلاتهم دائمون ﴾ و﴿ على صَلاتهم يُحافِظُون ﴾؟ فقال ابن مسعود: على مواقيتها. قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على التَّرْكِ؟ قال: ذلك الكفرُ.

قال مسروقٌ: لا يحافِظ أحدٌ على الصلواتِ الخَمْسِ فَيُكْتَبَ من الغافِلِينَ، وفي إفراطِهِنَّ الهلكَةُ. وإفراطُهنَّ إضاعَتُهنَّ عن وقتهنَّ(٥).

وقال الأوزاعيُّ، عن إبراهيم بن يزيد: أن عمر بن عبد العزيز قرأ: ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يَلْقَون غَيًّا ﴾، ثم قال: لم تكن إضاعتُهم تَرْكَها، ولكن أضاعُوا الوقْتَ(٥).

وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: ﴿ فخَلَف من بعدهم خلف أضاعُوا الصلاة واتَّبعوا الشهوات ﴾، قال: عند قيام الساعة وذَهاب صالحي أُمَّةِ محمدٍ ﷺ، يَنْزُو بعضهم على بعض في الأَزِقَّة، وكذا رَوَى ابن جُرَيـج، عن مجاهد، مثله.

وروى جابر الجُعْفيّ، عن مجاهد، وعكرمة، وعطاء بن أبي رَباح: أنهم من هذه الأمة. يَعنُون في آخر الزمان.

وقال ابنُ جَرير: حدثني الحارث، حدثنا الحسنُ الأشيبُ، حدثنا شَرِيكٌ، عن إبراهي بن مُهاجر، عن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ٨٨/١، وأبو داود في كتاب السنة ٢١٩/٤، والترمذي في أبواب الإيمان، عارضة الأحوذي ٨٩/١٠، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة ٣٤٢/١.

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب الإيمان، عارضة الأحوذي ٨٩/١٠ - ٩٠، والنسائي في كتاب الصلاة ٢٣١/١، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة ٣٢٤/١.

(٣) تفسير الطبري ٩٨/١٦.

(٤) في تفسير الطبري ٩٩/١٦: «الحسن بن مسعود». وهو خطأ، انظر ترجمة الحسن بن سَعْدِ بن مَعْبَدٍ القرشي في تهذيب الكمال ١٦٣/٦.

(٥) تفسير الطبري ٩٩/١٦.

مجاهد: ﴿ فخلف من بعدهم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ﴾، قال: هم في هذه الأمة، يتراكبون تراكب الأنعام والحُمُر في الطرق، لا يخافون الله في السماء، ولا يستَحْيُون الناسَ في الأرض.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرىء، حدثنا حَيْوَةُ، حدثنا بَشِير بن أبي عَمرو الخَولاني: أن الوليد بن قَيس حَدَّثه، أنه سَمِع أبا سعيد الخُدْرِي يقول: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: يكُون خَلْفٌ بعد ستِّين سنة، أضاعُوا الصلاة وَاتَّبعُوا الشهواتِ فَسَوف يَلْقَون غيًّا. ثم يكون خلف يقرءون القرآن لا يعدُو تراقِيَهم. ويقرأ القرآن ثلاثةٌ: مؤمن، ومنافق، وفاجر. قال بَشيرٌ: قلتُ للوليد: ما هؤلاءِ الثلاثةُ؟ قال: المؤمنُ مؤمنٌ به، والمنافقُ كافرٌ به، والفاجرُ يَتأكَّلُ به.

وهكذا رواه أحمد، عن أبي عبدِ الرَّحمن المُقرىءِ، به(١).

وقال ابنُ حاتم أيضاً: حدثني أبي، حدثنا إبراهيم بن موسى، أنبأنا عيسى بن يونُسَ، حدثنا عبيد الله ابن عبد الرحمن بن مَوْهَب، عن مالك، عن أبي الرِّجَال: أن عائشة كانت تُرْسِل بالشيء صدقةً لأهل الصُّفَّة، وتقول: لا تُعطُوا منه بَرْبَرياً ولاَ برْبَرية، فإني سَمِعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: هم الخَلْفُ الذين قال الله تعالى: ﴿ فَخَلف من بعدهم خَلْفٌ أضاعُوا الصلاة ﴾: هذا حديث غريبٌ.

وقال أيضاً: حدثني أبي، حدثنا عبد الرحمن بن الضحاك، حدثنا الوليد، حدثنا حَرِيزٌ، عن شَيْخ من أهل المدينة: أنه سمع مُحمَّد بن كعب القُرَظِيُّ يقول في قوله: ﴿ فَخَلَف من بعدهم خَلْف ﴾، قال: هم أهل الغرب، يملكون، وهم شَرُّ من ملك.

وقال كعب الأحبار: والله إنِّي لأجدُ صفَةَ المنافقين في كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ شَرَّابيـن للقَهَواتِ(٢)، تَرَّاكين للصَّلَواتِ، لَعَّابين بالكَعَبات، رَقَّادين عن العَتمات، مُفَرِّطين في الغَدَواتِ، تاركين للجُمُعَاتِ، قال: ثم تَلا هذه الآية: ﴿ فَخَلف من بَعدِهم خَلْفٌ أضاعُوا الصَّلاة واتَّبعُوا الشهواتِ فسوفَ يَلْقَون غيًّا ﴾.

وقال الحسنُ البصريُّ: عَطَّلوا المساجدَ ولَزِموا الضَّيعَاتِ.

وقال أبو الأشهب العَطَارديُّ: أوحى الله تعالى إلى داودَ: يا داودُ، حَذِّر وأَنذِرْ أصحابَكَ أَكْلَ الشهوات، فإن القُلوب المعلَّقة بشَهَواتِ الدنيا عُقُولها عَنِّي محجوبةٌ، وإنَّ أهوَنَ ما أصنَعُ بالعبد من عَبِيدِي إذا آثر شهوةً من شهواته عَلَيَّ أن أَحْرِمَه طاعتي.

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا زيدُ بن الحُبَاب، حدثني أبو السَّمح (٣) السَّهْمي، عن أبي قَبِيل، أنه سمع عُقْبَةَ بن عامر قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنِّي أخاف على أُمتّي اثنَتين: القرآن واللَّبَن، أما اللبن فَيَبْتَغون الرِّيفَ، وَيَتْبَعُون الشهوات، ويتركون الصلوات، وأما القرآن فيتعلمه المنافقون، فيجادلون به المؤمنين»(٤).

ورواه عن حسنِ بن موسى، عن ابن لَهِيعة، حدثنا أبو قَبِيلٍ، عن عُقْبَةَ، به مرفوعاً بنحوه. تفرد به(٤).

(١) مسند أحمد ٣/٣٨ ـ ٣٩.

(٢) القَهْوَة: الخمر. والكَعَبات: جمع كَعْبَة وكَعْب، وهي فُصوصُ النَّرْد. والعتمات: جمع عَتَمَة، وهو: وقتُ صلاة العشاء الأخيرة. والغَدَوات: جمع الغَداة، وهي صلاة الصبح.

(٣) في نسخة الحرم: أبو زيد التيمي. وفي نسخة الأزهر سقطت كلمة السمح: انظر ترجمة أبي السمح السهمي في تهذيب الكمال ٨/٤٧٧، واسمه: دَرّاج بن سمعان، ويقال: اسمه عبد الرحمن، ودرّاجٌ لقب.

(٤) الروايتان في المسند ٤/١٥٦، ١٤٦.

وقولُه: ﴿ فسوف يَلْقَوْن غَيًّا ﴾، قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿ فسوف يلقون غَيًّا ﴾، أي: خسراناً. وقال قتادة: شراً.

وقال سفيان الثوري، وشعبة، ومحمد بن إسحاقَ، عن أبي إسحاقَ السَّبيعي، عن أبي عُبَيْدَةَ، عن عبدالله ابن مسعودٍ: ﴿ فسوفَ يَلْقون غَيًّا ﴾، قال: وَادٍ في جَهَنَّم، بعيدُ القَعرِ، خَبيثُ الطَّعم.

وقال الأعمش، عن زيادٍ، عن أبي عياضٍ في قولِه: ﴿ فسوف يلقون غياً ﴾، قال: واد في جهنم من قَيْحٍ ودَمٍ.

وقال الإمام أبو جعفر ابن جرير: حدثني عباس بن أبي طالب، حدثنا محمد بن زِيادِ بن زَبَّار[(١)]، حدثنا شَرْقيُّ بن قُطاميٍّ، عن لُقمانَ بن عامر الخُزَاعيِّ قال: جئتُ أبا أُمامَة صُدَيَّ بن عَجْلَان الباهليَّ فقلت: حَدِّثنا حديثاً سَمِعتَه من رسول الله ـ ﷺ ـ قال: فدعا بطَعَام، ثم قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: لو أن صَخْرَةً زِنَةَ عَشْرِ أَواقٍ قَذَفَ بها من شَفِير جَهَنَّم ما بَلَغت قَعْرَها خمسين خريفاً، ثم تنتهي إلى غَيٍّ وأثام. قال قلت: وما غيٌّ وأثامٌ؟ قالَ: بئران في أسفلِ جَهَنَّم، يسيل فيهما صديدُ أهلِ النار، وهما اللَّتان ذَكر اللهُ في كتابه: ﴿ أضاعُوا الصلاة واتبعوا الشهواتِ فسوف يَلْقون غَيًّا ﴾. وقوله في الفرقان: ﴿ ولا يَزْنُون ومن يَفْعل ذلك يَلْقَ أثاماً ﴾[(٢)].

هذا حديثٌ غريبٌ، ورفعُه منكَرٌ.

وَقولُه: ﴿ إلا من تاب وآمن وعَمِل صالحاً ﴾، أي: إلَّا من رَجَع عن تَرْكِ الصلاة واتِّباعِ الشهواتِ فإن الله يتقبَّل تَوْبته، ويُحسِنُ عاقبته، ويجعله من وَرَثَة جَنَّة النعيم. ولهذا قال: ﴿ فأولئك يدخلُونَ الجَنَّةَ ولا يظلَمون شيئاً ﴾، وذلك لأن التوبة تَجُبّ ما قبلها. وفي الحديث الآخر: «التائبُ من الذَّنب كَمَن لا ذنبَ لَهُ»[(٣)]، ولهذا لا يُنْقَصُ هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عَمِلوها شيئاً، ولا قُوبلوا بما عَمِلوه قبلها فَنُقِصَ لهم مما عَمِلوه بعدها، لِأَنَّ ذلك ذَهَب هَدراً وتُرِكَ نَسياً، وذهب مَجَّاناً، من كَرَمِ الكريم، وحِلْمِ الحَليم.

وهذا الاستثناءُ ها هنا كَقَولِهِ في سُورَةِ الفُرقان: ﴿ والذين لَا يدعُونَ مع الله إلَهاً آخر ولا يقتُلُونَ النفسَ التي حَرَّمَ الله إلا بالحقِّ ولا يزنُونَ ومن يفعَلْ ذلك يَلْقَ أثاماً * يُضاعَفْ له العذابُ يومَ القيامةِ ويخلُدْ فيه مُهاناً * إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يُبَدِّل الله سيئاتهم حسناتٍ وكان الله غَفوراً رحيماً ﴾.

﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ ﴾

يقولُ: الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم، هي ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾، أي: إقامة ﴿ التي وعد الرحمن عباده ﴾ بظهر الغيب، أي: هي من الغيب الذي يُؤمنون به وما رأوه، وذلك لشدَّةِ إيقانهم وقوة إيمانهم.

وقولُه: ﴿ إنه كان وعدُه مأتيًّا ﴾، تأكيد لحصولِ ذلك وثبوته واستقراره، فإن الله لا يُخلِفُ الميعادَ ولا يُبَدِّلُه، كقوله: ﴿ كان وعدُه مفعولاً ﴾، أي: كائنٌ لا محالَةَ.

---

(١) في النسخ: ابن زبان. وفي تفسير الطبري: بن رزان. والصواب عن المؤتلف والمختلف للدارقطني ١٠٨٧/٢، والجرح لابن أبي حاتم ٢٥٨/٧.

(٢) تفسير الطبري ١٠٠/١٦.

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ١٤١٩/٢ - ١٤٢٠.

وقولُه ها هنا: ﴿مأتياً﴾ أي: العبادُ صائِرُون إليه ،وسيأْتُونَه.

ومنهم من قال مأتياً بمعنى آتياً، لأن كُلَّ ما أتاك فقد أتيته، كما تقول العرب: أَتَتْ عَلَيَّ خمسون سنة، وأتيت على خمسين سنة، كلاهما بمعنى واحد(١).

وقولُه: ﴿لا يسمَعُون فيها لغواً﴾، أي: هذه الجناتُ ليس فيها كلامٌ ساقطٌ تافِهٌ لا معنى له، كما قد يوجد في الدنيا.

وقولُه: ﴿إلا سلاماً﴾ استثناء منقطع، كقوله: ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً * إلا قيلاً سلاماً سلاماً﴾.

وقولُه: ﴿ ولهم رزقُهم فيها بكرةً وعَشيًّا ﴾، أي: في مثل وقت البُكراتِ ووقت العشيات، لا أن هناك ليلاً ونهاراً، ولكنهم في أوقات تتعاقَبُ، يعرفون مُضِيَّهَا بأضواءٍ وأنوارٍ، كما قال الإمامُ أحمدُ.

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمَرٌ، عن هَمَّام، عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أول زُمْرَة تَلجُ الجنةَ صُوَرُهم على صُورَةِ القَمَر ليلةَ البدر، لا يبصقُون فيها، ولا يتمخَّطون فيها، ولا يَتغوَّطون. آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومَجامِرُهم الألُوَّةُ(٢)، ورَشْحُهم المِسْكُ، ولِكُلِّ واحدٍ منهم زوجتان، يرى مُخ ساقها من وَراءِ اللَّحم؛ من الحسن. لا اختلافَ بينهم ولا تباغُض، قُلوبُهم على قلبٍ واحدٍ، يُسَبِّحونَ الله بُكرَةً وعَشيًّا»(٣).

أخرجاه في الصحيحين، من حديث مَعْمَرٍ به(٣).

وقال الإمامُ أحمدَ: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاقَ، حدثني الحارث بن فُضَيل الأنصاريّ، عن محمود بن لَبيد الأنصاريِّ، عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «الشُّهَداءُ على بارقِ نهرٍ ببابِ الجَنَّةِ، في قُبَّة خضَراءَ، يخرُجُ عليهم رزقُهم من الجنة بكرة وعشياً». تفرد به أحمد من هذا الوجه(٤).

وقال الضحَّاكُ، عن ابنِ عباسٍ: ﴿ ولهم رزقُهم فيها بكرةً وعَشِيًّا ﴾، قال: مقاديرَ الليلِ والنهارِ.

وقال ابنُ جرير: حدثنا علي بن سَهْلٍ، حدثنا الوليد بن مسلم قال: سألت زُهَير بن محمد، عن قول الله تعالى: ﴿ ولهم رزقُهم فيها بكرةً وعَشِيًّا ﴾، قال: ليس في الجنةِ ليل، هم في نُورٍ أبداً، ولهم مقدارُ الليل والنهار، يعرفون مقدار الليل بإرخاءِ الحُجُب وإغلاقِ الأبواب. ويعرِفُون مقدارَ النهار برفع الحُجَبِ وفَتحِ الأبواب.

وبهذا الإسناد عن الوليد بن مسلم، عن خُلَيد، عن الحسن البصري ـ وذَكَرَ أبوابَ الجنة فقال ـ: أبوابٌ يُرَى ظاهِرُها من بَاطِنِها، فَتُكلِّم وتُكَلَّم، فتفهَمُ(٥) انفَتِحِي انغَلِقي، فَتفعلُ(٦).

وقال قتادةُ في قولِه: ﴿ ولهم رزقُهم فيها بُكْرَةً وعَشِيًّا ﴾. فيها ساعتان، بُكْرةٌ وعَشِيٌّ، ليس ليلٌ ولا نَهارٌ، وإنما هو ضَوءٌ ونورٌ.

---

(١) تفسير الطبري ١٦/١٠١ ـ ١٠٢.

(٢) الألُوَّة: العود الذي يُتَبخَّرُ به.

(٣) مسند أحمد ٢/٣١٦ من حديث طويل، وفتح الباري، كتاب بدء الخلق ٦/٣١٨ ـ ٣١٩، ومسلم، كتاب الجنة ٤/ ٢١٨٠.

(٤) مسند أحمد ١/٢٦٦.

(٥) في نسخة: فتفهمه. وفي تفسير الطبري: فَتَهْمَهِم.

(٦) تفسير الطبري ١٦/١٠٢.

وقال مجاهد: ليس فيها بكرة ولا عَشِيٌّ، ولكن يُؤتَون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا.

وقال الحسن، وقتادةُ، وغيرهما: كانت العربُ، الأنْعَمُ فيهم، من يَغدَّى ويتعشَّى، ونَزَل القرآن على ما في أنفسهم من النَّعيم، فقال تعالى: ﴿ ولهم رزقُهم فيها بكرةً وعشيًّا ﴾.

وقال ابنُ مهديٍّ، عن حَمَّاد بن زيد، عن هشام، عن الحسن: ﴿ ولهم رزقُهم فيها بكرةً وعَشِيًّا ﴾، قال: البكورُ يَردُ على حُدَيرِ العَشِيِّ، والعَشِيُّ يَردُ على البكور، ليس فيها ليلٌ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا سُلَيم بن منصور بن عَمَّار، حدثني أبي، حدثنا محمد بن زياد قاضي أهل شِمْشَاطَ، عن عبد الله بن حُدَيرٍ، عن أبي سُلَمة بن عبد الرحمن، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «ما من غَدَاةٍ من غَدَوَات الجنة، وكلُّ الجنة غَدَواتٌ، إلا أنه يُزَفُّ إلى وَلِيِّ الله فيها زوجة من الحُورِ العِينِ، أدناهُنَّ التي خُلِقت من الزَّعفرانِ».

قال أبو محمد: هذا حديثٌ منكَرٌ.

﴿ تلكَ الجنةُ التي نُورِثُ من عبادنا من كان تَقِيًّا ﴾، أي: هذه الجنة التي وَصَفنا بهذه الصفات العظيمة هي التي نُورِّثها عبادَنا المُتَّقِين، وهم المطيعون لله ـ عز وجل ـ في السَّراء والضَّراءِ، والكاظِمُون الغيظَ، والعافُونَ عن الناس، وكما قال تعالى في أول سورة المؤمنين: ﴿قد أفلحَ المؤمنون * الذين هُم في صلاتِهم خاشِعُونَ﴾، إلى أن قال: ﴿أولئك هم الوارثون * الذين يَرِثُون الفِرْدَوسَ هم فيها خالِدُونَ﴾.

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾

قال الإمام أحمد: حدثنا يَعْلى ووكيع قالا: حدثنا عمر بن ذَرٍّ، عن أبيه، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عَبَّاس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ لجبريلَ: ما يَمْنَعُك أن تَزُورنا أكثرَ مما تَزُورُنا؟ قال: فَنزلت: ﴿ وما نتنزَّلُ إلا بأمرِ ربك ﴾. . . إلى آخر الآية(١).

انفرد بإخراجه البخاري، فَرَواه عند تفْسير هَذِه الآيةِ عن أبي نُعَيم، عن عُمَر بن ذَرٍّ، به. ورواه ابن أبي حاتم وابنُ جريرٍ، من حديث عُمَرَ بن ذَرٍّ، به. وعندهما زيادةٌ في آخر الحديث: فكان ذلك الجواب لمحمد ﷺ(١).

وقال العَوفِيُّ، عن ابن عَبَّاسٍ: احتبسَ جِبْريلُ عن رسول الله ـ ﷺ ـ فَوجدَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ من ذلك وحَزن، فأتاه جبريلُ وقال: يا محمدُ، ﴿ وما نتنزَّلُ إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خَلْفَنا وما بين ذلك وما كان ربكَ نَسِيًّا ﴾.

وقال مجاهدٌ: لَبِث جبريلُ عن محمد ـ ﷺ ـ اثنتي عشرةَ ليلةً، ويقولون: أُقْلِيَ؟ فلما جاءه قال: يا جبريلُ، لقد رِثْتَ(٢) عَلَيَّ حتى ظَنَّ المشركون كُلَّ ظَنٍّ! فنزلت: ﴿ وما نتنزَّلُ إلا بأمر رَبِّك له ما بين أيدينا وما

(١) مسند أحمد ١/٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٣ ـ ٢٣٤، وفتح الباري، تفسير سورة مريم ٨/٤٢٨ ـ ٤٢٩، وتفسير الطبري ١٦/١٠٣.
(٢) أي: أبطأت.

خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نَسِيًّا﴾، قال: وهذه الآية كالَّتي في الضحى[١].

وكذلك قال الضحاك بن مُزَاحم، وقتادةُ، والسديُّ، وغيرُ واحد: إنها نزلت في احتباس جبريلَ.

وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: أبطأ جبريلُ النزولَ على رسول الله - ﷺ - أربعين يوماً، ثم نَزَل، فقال له النبيُّ ﷺ: ما نَزَلت حتى اشتقتُ إليكَ. فقال له جبريلُ: بل أنا كنتُ إليكَ أشوقَ، ولكنِّي مأمور، فَأُوحِيَ إلى جبريلَ أن قُل له: ﴿وما نتنزَّلُ إلا بأمْرِ ربك﴾... الآية. رواه ابنُ أبي حاتِمٍ، وهو غريبٌ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو مُعَاوِيَةَ، حدثنا الأعمشُ، عن مجاهدٍ قال: أبطأَتِ الرُّسُلُ على النبيِّ ﷺ، ثم أتاه جبريل فقال له: ما حَبَسك يا جبريلُ؟ فقال له جبريل: وكيف نأْتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم، ولا تُنَقُّون بَرَاجِمَكُم[٢]، ولا تأخُذُون شَوَارِبكم، ولا تَسْتَاكُون؟ ثم قرأ: ﴿وما نَتَنزَّلُ إلا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾... الآية.

وقد قال الطَّبَرَانيُّ: حدثنا أبو عامر النحويُّ[٣] محمد بن إبراهيم الصُّورِيُّ، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدِّمَشْقِيُّ، حدثنا إسماعيل بنُ عياش، أخبرني ثعلبةُ بن مسلم، عن أبي كَعْبٍ مولى ابن عباس، عن ابن عَبَّاس، عن النبيِّ - ﷺ - أن جبريل أبطأ عليه، فَذَكر ذلك له، فقال: وكيف وأنتم لا تَسْتَنُّون[٤]، ولا تُقَلِّمون أظفاركم، ولا تقصُّون شَوَاربكم، ولا تُنَقُّون رَوَاجِبَكم[٥].

وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبي اليمان، عن إسماعيل بن عياش، به نحوه[٥].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سيار، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا المُغِيرَةُ بن حَبيب خَتَنُ[٦] مالك بن دينار: حَدَّثَنِي شيخٌ من أهل المدينة، عن أم سَلَمة قالت: قال لي رسول الله - ﷺ -: «أصلحي لنا المَجْلِس، فإنه يَنزِل ملك إلى الأرض لم يَنْزِلُ إليها قَطُّ»[٧].

وقولُه: ﴿له ما بين أَيدينا وما خَلْفنا﴾، قيل: المرادُ بما بين أيدينا: أَمْرُ الدنيا، وما خَلْفنا: أمر الآخرة، ﴿وما بين ذلك﴾: ما بين النفختين. هذا قول أبي العالية، وعكرمةَ، ومجاهدٍ، وسعيد بن جُبَير. وقتادة - في رواية عنهما - والسديُّ، والربيع بن أنس.

وقيل: ﴿ما بين أيدينا﴾ ما نستقبل من أمر الآخرة، ﴿وما خَلْفنا﴾، أي: ما مَضَى من الدنيا، ﴿وما بين ذلك﴾، أي: ما بين الدنيا والآخرة. يُروَى نحوه عن ابن عباس، وسعيد بن جُبَير، والضحاك، وقتادة، وابن جُرَيج، والثوريّ. واختاره ابنُ جَرير[٨] أيضاً، والله أعلم.

وقولُه: ﴿وما كان ربُّك نَسِيّاً﴾، قال مجاهد: «معناه ما نَسِيكَ ربك». وقد تقدَّم عنه أن هذه الآية كقوله: ﴿والضُّحَى * والليل إذا سَجَى * ما وَدَّعَكَ ربُّك وما قَلَى﴾.

---

(١) تفسير الطبري ١٦/١٠٤.

(٢) البراجم: جمع بُرْجُمة، وهي مَفصِلُ الإصبع.

(٣) في النسخ: «... حدثنا محمد بن إبراهيم». والمثبت عن المعجم الكبير، والمعجم الصغير ٢/٧٩.

(٤) استنَّ: استاك. والرواجبُ: جمع راجبة، وهي مفاصل الأصابع.

(٥) المعجم الكبير ١١/٤٣١ - ٤٣٢. ومسند الإمام أحمد ١/٢٤٣.

(٦) في النسخ: عن مالك. والمثبت عن المسند. وانظر ترجمة المغيرة بن حبيب في الجرح لابن أبي حاتم ٨/٢٢٠ - ٢٢١.

(٧) المسند ٦/٢٩٦.

(٨) تفسير الطبري ١٦/١٠٥.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا يزيدُ بن محمد بن عبد الصَّمَدِ الدمشقي، حدثنا محمد بن عثمان ـ يعني أبا الجُماهر ـ حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا عاصم بن رجاء بن حَيْوة، عن أبيه، عن أبي الدرداء ـ يرفعه ـ قال: «أحلَّ الله في كتابه فهو حَلاَل، وما حَرَّم فهو حَرَام، وما سكت عنه فهو عافية، فاقبَلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً. ثم تَلَا هذه الآية: ﴿ وما كانَ ربك نَسِيّاً ﴾»(١).

وقولُه: ﴿ ربُّ السمواتِ والأرض وما بينَهما ﴾، أي: خالقُ ذلك ومدبِّره، والحاكمُ فيه والمتصرِّف الذي لا مُعقِّب لحكمه، ﴿ فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سَمِيّا ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هل تعلم للرب مِثْلاً أو شِبْهاً. وكذلك قال مجاهد، وسعيد بن جُبَير، وقتادة، وابن جُرَيج، وغيرهم.

وقال عكرمة، عن ابن عَبَّاسٍ: ليسَ أحَدٌ يسمَّى الرحمنَ غيرَه. تبارك وتعالى، وتقدَّس اسمه.

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾

يُخْبِرُ تعالى عن الإنسان أنه يَتعجَّب ويستبعدُ إعادتَه بعد موته، كما قال تعالى: ﴿ وإن تَعْجَب فعجَبٌ قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد ﴾. وقال: ﴿أوَلم يَرَ الإنسانُ أنا خَلَقناه من نُطْفة فإذا هو خَصِيمٌ مبينٌ * وضَرب لنا مثلاً ونَسِيَ خَلْقَه قال من يُحيي العِظام وهي رَمِيم * قل يُحييها الذي أنشأها أوّلَ مرّةٍ وهو بكلِّ خلق عليم﴾. وقال ها هنا: ﴿ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا * أوَلا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾، يَستدِلُّ تعالى بالبَدْأةِ على الإعادة، يعني أنه تعالى قد خلق الإنسانَ ولم يَكُ شيئاً، أفلا يُعيدُه وقد صار شيئاً، كما قال تعالى ﴿ وهو الذي يَبدأُ الخلق ثم يُعيده وهو أهونُ عليه ﴾، وفي الصحيح: «يقول الله تعالى: كَذَّبني ابنُ آدم ولم يكن له أن يكذبني. وآذاني ابنُ آدم ولم يكن له أن يُؤْذيني، أمَّا تكذيبُه إيَّاي فقولُه: لن يُعيدَني كما بَدَأني. وليس أولُ الخلق بأهونَ عَلَيَّ من آخره. وأما أذاه إيَّاي فقولُه: إنَّ لي ولداً. وأنا الأحدُ الصمدُ، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفُواً أحدٌ»(٢).

وقولُه: ﴿ فوَربك لَنحشُرنَّهم والشياطينَ ﴾ أقسم الربُّ ـ تبارك وتعالى ـ بنفسه الكريمة، أنَّه لابد أن يحشُرَهم جميعاً وشياطينهم الذين كانوا يعبدُون من دون الله، ﴿ ثم لنحضرنهم حول جَهنَّم جِثِيّاً ﴾.

قال العوفي، عن ابن عباس: يعني قعوداً، كقوله: ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾.

وقال السّديُّ في قوله: ﴿ ثم لَنُحضِرَنَّهم حول جَهَنَّم جثِيّاً ﴾، يعني: قياماً. ورُوِي عن مُرَّة، عن ابن مسعود مثلَه.

وقولُه: ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَـنَّ من كُلِّ شِيعَةٍ ﴾، يعني: من كُلِّ أمة. قاله مجاهد، ﴿ أَيُّهم أشدُّ على الرحمن عِتِيّاً ﴾.

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه والبيهقي، بإسنادهما إلى عاصم بن رجاء، المستدرك، تفسير سورة مريم ٣٧٥/٢. وسنن البيهقي، كتاب الضحايا ١٢/١٠.

(٢) فتح الباري، تفسير سورة البقرة ١٦٨/٨، وتفسير سورة الإخلاص ٧٣٩/٨.

قال الثوري، عن علي بن الأقمر، عن أبي الأحْوَص، عن ابن مسعود قال: يُحبَس الأولُ على الآخر، حتى إذا تكاملت العِدَّةُ أتاهم جميعاً، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جُرماً[1]. وهو قولُه: ﴿ثم لَننزِعَنَّ من كُلِّ شيعَةٍ أَيُّهم أَشَدُّ على الرحمن عِتِيّاً﴾.

وقال قتادةُ: ﴿ثم لننزعَـنَّ من كُلِّ شِيعَةٍ أيُّهم أَشَدُّ على الرحمن عِتِيّاً﴾، قال: ثم لَنَنز عَنَّ من أهل كُلِّ دين قادتَهم ورُءُوسهم في الشرِّ. وكذا قال ابن جُرَيج، وغيرُ واحدٍ من السَّلَف. وهذا كقوله تعالى: ﴿حتى إذا ادَّاركُوا فيها جميعاً قالت أُخراهم لأُولاهم ربنا هؤلاء أَضلُّونا فآتِهم عذاباً ضِعْفاً من النار قال لكلٍّ ضِعْفٌ ولكن لا تعلمون * وقالت أُولاهم لأُخراهم فما كانَ لكم علينا من فَضْلٍ فذُوقوا العذاب بما كنتم تَكْسِبونَ﴾.

وقولُه: ﴿ثم لَنَحنُ أعلَمُ بالذين هم أولى بها صِلِيّاً﴾، ثُمَّ هاهنا لعَطف الخبر على الخبر، والمرادُ أنه تعالى أعلَمُ بمن يستحِقُّ من العباد أن يَصْلَى بنار جَهَنَّم ويَخلُد فيها ومَن يستحقُّ تَضْعِيفَ العذابِ، كما قال في الآيةِ المتقدِّمةِ: ﴿قال لكلٍّ ضِعفٌ ولكن لا تعلَمُون﴾.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾

قال الإمامُ أحمد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا غالب بن سليمان، عن كثير بن زياد البُرْسَانِيِّ، عن أبي سُمَيَّةَ قال: اختلفنا في الوُرودِ، فقال بعضنا: لا يدخلُها مؤمن. وقال بعضنا: يدخُلُونَها جميعاً ثم ينجي الله الذين اتقوا. فلقيت جابر بن عبد الله، فقلت له: إنا اختلفنا في الوُرود، فقال: يَرِدُونها جميعاً - وقال سليمان مَرّة: يدخُلونها جميعاً - وأهوى بإِصبَعيه إلى أُذُنيه، وقال: صُمَّتا إن لم أكن سَمِعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول: «لا يبقى بَرٌّ ولا فاجر إلا دَخَلها، فتكون على المؤمنين بَرْداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيمَ، حتى إنَّ للنارِ ضَجِيجاً من بَرْدِهِم، ثم يُنَجِّي الله الذين اتقوا، ويَذَرُ الظالمين فيها جِثِيّاً»[2]. غريبٌ ولم يُخَرِّجُوه.

وقال الحسنُ بن عرفةَ: حَدَّثنا مَرْوان بن مُعَاوِيَةَ، عن بَكّار، عن[3] أبي مَرْوان، عن خالد بن مَعْدَان قال: قال أهلُ الجَنَّةِ بعدما دَخَلُوا الجنةَ: ألم يَعِدْنا رَبُّنا الورودَ على النار؟ قال: قد مَرَرْتُم عليها وهي خامدة.

وقال عبد الرزاق، عن ابن عُيَيْنَة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حَازِمٍ قال: كان عبد الله ابن رَوَاحَةَ واضعاً رأسه في حِجْرِ امرأتِه، فبكى، فبكَت امرأتُه فقال: ما يُبكيكِ؟ فقالت: رأيتُك تَبْكِي فبَكَيتُ. قال: إني ذكرتُ قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وإن منكم إلا واردُها﴾، فلا أدري أنجو منها أم لا؟[4] وفي رواية: وكان مريضاً.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا ابنُ يَمان، عن مالك بن مِغْوَلٍ، عن أبي إسحاقَ: كان أبو مَيسَرَةَ إذا أوى إلى فراشه قال: يا ليتَ أُمِّي لم تَلِدني! ثم يَبْكِي، فقيل: ما يُبكِيكَ يا أبا مَيْسَرَةَ؟ فقال: أخبرنا أَنَّا وارِدُوها، ولم نُخَبَّرْ أنا صادِرُون عنها[4].

وقال عبدُ الله بن المُبارَك، عن الحسن البصري قال: قال رجلٌ لأخيه: هل أتاك بأنَّكَ واردُ النارَ؟ قال:

---

(١) تفسير الطبري ١٦/١٠٧.

(٢) مسند أحمد ٣/٣٢٨ - ٣٢٩. وفي نسخة بعده: «غريب ورواه الحاكم وصححه، والبيهقي، ولم يخرجوه».

(٣) في تفسير الطبري ١٦/١٠٩: بكار بن أبي مروان.

(٤) تفسير الطبري ١٦/١١٠.

نعم. قال: فهل أتاك أنك صادر؟ قال: لا. قال: فَفِيمَ الضحك؟ قال: فما رُئِي ضاحكاً حتّى لَحِقَ بالله.

وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا ابن عُيَينةَ، عن عمرو، أخبرني من سَمع ابن عباس يُخاصم نافع بن الأزرق، فقال ابنُ عباس: الورودُ الدخولُ؟ فقال نافع: لا. فقرأ ابن عباس: ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَب جهنم أنتم لها واردون﴾، وَرَدُوا أم لا؟ وقال: ﴿ يَقدُمُ قَوْمَه يومَ القِيَامَةِ فأوردهم النار ﴾، أورَدُوها أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها، فانظر هل تخرُج منها أم لا؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك. فضحك نافع.

وروى ابنُ جُرَيج، عن عطاءٍ قال: قال أبو راشدٍ الحَرُوريُّ ـ وهو نافع بن الأَزْرَق ـ: ﴿ لا يسمَعُون حَسِيسَها ﴾: فقال ابن عباس: ويلك! أمجنون أنت؟ أين قوله: ﴿ يقدُم قومَه يوم القيامةِ فأوردَهُم النارَ ﴾، ﴿ ونَسُوق المجرمين إلى جهنم وِرْداً ﴾، ﴿ وإن منكم إلا وارِدُها ﴾؟ والله إن كان دعاءُ من مضى: اللهُمَّ، أخرجني من النار سالماً، وأدخلني الجنة غانماً.

وقال ابنُ جَريرٍ: حَدَّثني محمد بن عُبَيد المحاربيُّ، حدثنا أسباطٌ، عن عبد الملك، عن عبيد الله، عن مُجاهدٍ قال: كنت عند ابن عباس، فأتاه رجل يُقَال له: أبو راشد، وهو نافعُ بن الأزرق، فقال له: يا ابنَ عباس، أرأيت قول الله: ﴿ وإن منكم إلا وَارِدُها كان على ربِّك حَتماً مَقضِيّاً ﴾؟ قال: أما أنا وأنت يا أبا راشدٍ فَسَنَرِدُها، فانظر: هل نصدر عنها أم لا[1]؟

وقال أبو داود الطيالسي: قال شعبة، أخبرني عبد الله بن السائب، عَمَّن سَمِع ابنَ عباس يقرؤها كذلك: ﴿ وإن منهم إلا وارِدُها ﴾ يعني الكفار.

وهكذا روى عُمَر بن الوليد الشَّنِّي، أنه سمع عكرمة يقرؤها كذلك ﴿ وإن منهم إلا وارِدُها ﴾، قال: وهم الظلمة، كذلك كنا نقرؤُها. رواه ابنُ أبي حاتم، وابنُ جَرير[1].

وقال العَوْفيّ، عن ابن عباس قوله: ﴿ وإن منكم إلا وارِدُها كان على رَبِّك حتماً مقضياً ﴾، يعني البرَّ والفاجرَ، ألا تسمع إلى قول الله لفرعونَ: ﴿ يقدُم قومه يوم القيامة فأوردهم النارَ وبئس الوِرْدُ المورودُ ﴾، ﴿ ونَسُوق المجرمين إلى جَهَنَّم ورداً ﴾، فَسَمَّى الوُرُودَ في النار دُخولاً، وليس بصادر.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا عبدُ الرحمن، عن إسرائيلَ، عن السُّدِّيّ، عن مُرَّةَ، عن عبد الله ـ هو ابنُ مسعود ـ ﴿وإن منكم إلا وَارِدُها﴾، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يَرِدُ الناسُ كلُّهم، ثم يصدُرُونَ عنها بأعمالهم»[2].

ورواه التِّرمِذيُّ عن عبد بن حُمَيد، عن عُبَيد الله، عن إسرائيلَ، عن السُّديِّ، به: ورواه من طريق شُعبَةَ، عن السُّديِّ، عن مُرَّة، عن ابن مسعود موقوفاً.

هكذا وقع هذا الحديثُ هاهنا مرفوعاً، وقد رواه أسباطٌ، عن السُّدّيِّ، عن مُرَة، عن عبد الله بن مسعود قال: يَرِدَ الناس جميعاً الصراط، وورودُهم قيامُهم حولَ النار، ثم يصدُرون عن الصِّراط بأعمالهم، فمنهُم من يمرّ مثل البرق، ومنهم من يمرُّ مثلَ الريح، ومنهم من يمرُّ مثلَ الطير، ومنهم من يمرُّ كأجودِ الخيل، ومنهم من يمرُّ كأجودِ الإبل، ومنهم من يمرُّ كَعَدْوِ الرجل، حتى إنَّ آخرَهُم مَرّاً رجلٌ نورُه على موضِعَي إبهامَيْ قَدَمَيْه، يَمُرّ

---

(١) تفسير الطبري ١٦/١١١.

(٢) مسند أحمد ١/٤٣٤ ـ ٤٣٥، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة مريم ١٢/١٦ ـ ١٧.

يتكفأُ به الصِّراطُ، والصِّراطُ دَحْضٌ(١) مَزِلَّةٌ، عليه حَسَكٌ كَحَسكِ القَتَادِ، حافَتَاهُ ملائكةٌ، معهم كَلَالِيبُ من نارٍ، يختطِفُون بها الناس. . . وذكر تَمَام الحديثِ. رواه ابنُ أبي حاتم.

وقال ابنُ جَرِيرٍ: حدثنا خَلَّاد بن أسلم، حدثنا النضر، حدثنا إسرائيل، أخبرنا أبو إسحاقَ، عن أبي الأحوصِ، عن عبدالله: قولُه: ﴿ وإن منكُم إلا وارِدُها ﴾، قال: الصِّراط على جَهَنَّم مثلُ حَدِّ السيفِ، فتمرُّ الطبقةُ الأولى كالبرق، والثانيةُ كالرِّيح، والثالثةُ كأجوَدِ الخيلِ، والرابعةُ كأجوَدِ البهائمِ، ثم يَمُرُّون والملائكةُ يقولون: اللهمَ سَلِّم سَلِّم(٢).

ولهذا شواهِدُ في الصَّحِيحَين وغيرهما، من روايةِ أَنَسٍ، وأبي سعيدٍ، وأبي هُرَيرةَ، وجابرٍ، وغيرهم من الصحابة، رضي الله عنهم(٣).

وقال ابنُ جَرير: حدثني يعقوبُ، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن الجُرَيريِّ، عن أبي السَّلِيل، عن غُنَيم بن قَيْسٍ قال: ذَكَروا وُرُودَ النار، فقال كعبٌ: تُمْسَكُ النارُ للنَّاسِ كأنها متْنُ إهالَةٍ(٤) حتى يَستوي عليها أقدامُ الخلائق، بَرُّهُم وفاجرُهم، ثم يناديها منادٍ: أن أَمْسِكي أصحابَكِ، ودَعِي أصحابي. قال: فَتَخْسِفُ بكل وَلِيٍّ لها، وَلَهِيَ أعلم بهم من الرجل بولده، ويخرج المؤمنون نَدِيَّةً ثيابُهم. قال كعبٌ: ما بين مَنْكِبَي الخازن من خَزَنتها مسيرة سنَةَ، مع كل واحد منهم عَمُودٌ ذو شُعبتَينِ، يَدفعُ به الدَّفْعَةَ فيصرَعُ به في النار سَبْعَمائَةِ أَلْفٍ(٥).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو معاويةَ، حدثنا الأعمشُ، عن أبي سفيانَ، عن جابر، عن أم مُبَشِّرٍ، عن حفصَةَ قالت: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إني لأرجو ألَّا يدخلَ النار إن شاء الله أحدٌ شَهِدَ بدراً والحُدَيبِيَةَ. قالت: فقلت: أليس الله يقولُ: ﴿ وإن منكم إلا واردُها ﴾؟ قالت: فَسَمِعتُه يقول: ﴿ ثم نُنَجِّي الذين اتقوا ونَذَرُ الظالمين فيها جِثِيّاً ﴾(٦).

وقال أحمدُ أيضاً: حدثنا ابنُ إدْرِيسَ، حدثنا الأعمشُ، عن أبي سفيانَ، عن جابرٍ، عن أُمِّ مُبَشِّرٍ ـ امرأة زيد بن حارثة ـ قالت: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ في بيتِ حفصةَ، فقال: لا يدخلُ النارَ أحدٌ شهد بدراً والحديبيةَ. قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿ وإن منكم إلا واردُها ﴾؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿ ثم نُنَجِّي الذي اتقوا ﴾(٧).

وفي الصَّحِيحَين، من حديث الزُّهري، عن سَعِيد، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يموتُ لأحدٍ من المسلمين ثلاثةٌ من الوَلَدِ تَمَسُّه النارُ، إلا تَحِلَّة القَسَم»(٨).

---

(١) مكان دَحْضٌ: إذا كان مَزِلَّة لا تثبت عليه الأقدام. والحسك: الشوك. والقتاد: شجر له شوك.

(٢) تفسير الطبري ١٦/١١٠.

(٣) فتح الباري، كتاب الأذان ٢/٢٩٢ـ٢٩٣ وكتاب الرقاق ١١/٤٤٥ـ٤٤٦، وكتاب التوحيد ١٣/٤١٩. ومسلم، كتاب الإيمان ١/١٦٣ـ١٧١.

(٤) الإهالة: كل ما اؤتُدِم به من زُبْدٍ وَوَدَكِ شحم ودهن سمسم، وكذلك ما علا القِدْرَ من وَدَكِ اللحم السمين. ومَتْنُ الإهالة: ظهرها إذا سكنت في الإناء، فشبَّه كعب سكون جَهَنَّم قبل أن يصير فيها الكفار بذلك.

(٥) تفسير الطبري ١٦/١٠٩.

(٦) مسند الإمام أحمد ٦/٢٨٥.

(٧) مسند الإمام أحمد ٦/٣٦٢.

(٨) فتح الباري، كتاب الأيمان ١١/٥٤١، ومسلم، كتاب البرّ ٤/٢٠٢٨. وتحلّة القسم: ما ينحلُّ به القسم، وهو اليمين، وهو مصدر: حَلَّلَ=

وقال عبدُ الرزَّاق: قال معمرٌ: أخبَرَني الزهريُّ، عن ابن المسيَّب، عن أبي هُرَيرَةَ: أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «من مات له ثلاثة لم تَمَسَّه النارُ إلا تَحِلَّة القسم». يعني الوُرُودَ[1].

وقال أبو داودَ الطَّيالسيُّ: حدثنا زَمْعَةُ، عن الزُّهريِّ، عن سعيد بن المسيَّب، عن أبي هُريرَةَ قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: «لا يَموتُ لمسلم ثلاثةٌ من الوَلَد، تَمَسُّه النارُ إلا تَحِلَّةَ القَسَم. قال الزُّهرِيُّ: كأنه يريدُ هذه الآيةَ: ﴿ وَإِنْ مِنكُم إلاَّ وَارِدُها كانَ على رَبِّكَ حَتْماً مقضِياً ﴾[2].

وقال ابنُ جَريرٍ: حدثنا عمرانُ بن بَكَّارٍ الكَرَعِيُّ، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا عبد الرحمن بن يزيدَ بن تميم، حدثنا إسماعيل بن عبد الله، عن أبي صالح، عن أبي هُريرَةَ قال: خَرج رسولُ الله ـ ﷺ ـ يعودُ رجلاً من أصحابه وَعِكاً، وأنا معه، ثم قال: «إن الله تعالى يقولُ: هي نارِي أُسلِّطها على عبدي المؤمن، لتكون حظه من النار في الآخرة»[3]. غريب، ولم يُخْرِجُوه من هذا الوَجْهِ.

وحدثنا أبو كُرَيبٍ، حدثنا ابن يَمَانٍ، عن عثمانَ بن الأسودِ، عن مجاهدٍ قال: الحُمَّى حَظُّ كلِّ مؤمنٍ من النارِ، ثم قرأ: ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا زَبَّانُ بن فائد، عن سهل بن مُعَاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: من قرأ: ﴿ قُلْ هو الله أحدٌ ﴾، حتى يختمها عَشْرَ مَرَّاتٍ، بَنَى الله له قصراً في الجنة. فقال عمر: إذاً نستكثر يا رسولَ الله. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الله أكثرُ وأطيبُ»[4].

وقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من قرأ ألفَ آيةٍ في سبيل اللهِ كُتِب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، إن شاء الله. ومن حَرَس من رواء المسلمين في سبيل الله مُتَطَوِّعاً لا بأجرة[5] سُلطانٍ لم يَرَ النارَ بعينيه إلا تَحِلَّةَ القَسَم، قال الله تعالى: ﴿ وإن منكم إلا واردُها ﴾، وإن الذكر في سبيل الله يُضْعَفُ فوق النفقة بسبعمائةِ ضعفٍ، وفي رواية: بسبعمائة ألف ضِعْف[4].

وروى أبو داود، عن أبي الطاهر، عن ابن وهب، عن يحيى بن أيوب وسعيد بن أبي أيوب، كلاهما عن زبَّانَ، عن سهل، عن أبيه، عن رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الصلاة والصيام والذكر تُضَاعَفُ على النفقة في سبيل الله بسبعمائة ضِعف»[6].

وقال عبد الرزَّاق، عن معمرٍ، عن قتادةَ قوله: ﴿ وإن منكُم إلا وَارِدُها ﴾، قال: هو المَمَرُّ عليها[7].

وقال عبدِ الرحمن بن زيدِ بن أسلم في قوله: ﴿ وإن منكم إلا واردُها ﴾، قال: ورودُ المسلمين المرور

= اليمين، أي: كَفَّرها. وقال الخطابي: حَلَّلْتُ القسم تحلةً: أي أَبْرَرْتُها. وقال: معناه: لا يدخل النار ليعاقب بها، ولكنه يدخلها مجتازاً، ولا يكون ذلك الجواز إلا قَدْر ما يُحَلِّل به الرجلُ يمينه. انظر فتح الباري، كتاب الجنائز ١٢٣/٣.

(١) تفسير الطبري ١١٤/١٦. وفي فتح الباري ١٢٤/٤: «واختلف في موضع القسم من الآية، فقيل: مقدر، أي: والله إن منكم. وقيل: معطوف على القسم الماضي في قوله تعالى: ﴿فوربك لنحشرنهم﴾، أي: وربك إن منكم. وقيل: هو مستفادٌ من قوله: ﴿حتماً مقضياً﴾ أي: قسماً واجباً. . .».

(٢) مسند أبي داود الطيالسيِّ ٣٠٤.

(٣) تفسير الطبري ١١١/١٦.

(٤) مسند الإمام أحمد ٤٣٧/٣ ـ ٤٣٨.

(٥) في نسخة الحرم: لا بأجر. وفي المسند: لا بأَخْذِهِ. وفي المعجم الكبير للطبراني ١٨٥/٢٠: «لا يأخذه سلطان».

(٦) سنن أبي داود، كتاب الجهاد ٨/٣.

(٧) تفسير الطبري ١١٠/١٦.

على الجسر بين ظهريها، وورودُ المشركين أن يدخلوها، وقال النبي - ﷺ -: الزالُّون والزالاَّت يومئذٍ كثيرٌ، وقد أحاط بالجِسْرِ يومئذ سِماطان(١) من الملائكة، دعاؤهم: يا ألله، سَلِّم سَلِّم».

وقال السُّدِّيُّ، عن مُرّة، عن ابن مسعودٍ في قوله: ﴿ كان على ربك حتما مقضيّاً ﴾، قال: قسماً واجباً.

وقال مجاهد: حتماً، قال: قضاء. وكذا قال ابن جُرَيج.

وقولُه: ﴿ ثم نُنَجِّي الذين اتقوا ﴾، أي: إذا مَرَّ الخلائق كلُّهم على النار، وسقط فيها من سَقَط من الكُفّار والعُصَاة ذوي المعاصي، بحَسَبهم، نُنَجِّي الله تعالى المؤمنين المُتقين منها بحَسب أعمالهم. فجَوازُهم على الصراط وسُرعتُهم بقَدْر أعمالهم التي كانت في الدنيا، ثم يُشَفَّعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفَعُ الملائكةُ والنبيُّون والمؤمنون، فيُخرِجُون خَلْقاً كثيراً قد أكلتهم النارُ، إلا دارات وجوههم - وهي مواضعُ السجود - وإخراجهُم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان، فيُخرجُون أوَّلاً مَن كان في قلبه مثقال دينارٍ من إيمان، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، حتى يُخرجُون من كان في قلبة أدنى أدنى أدنى مثقالِ ذَرَّةٍ من إيمانٍ، ثم يخرج الله من النار من قال يوماً من الدهر: «لا إلَهَ إلا الله»، وإن لم يعمل خيراً قَطُّ، ولا يبقى في النار إلا من وَجَب عليه الخلودُ، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحةُ عن رسول الله - ﷺ - ولهذا قال: ﴿ ثم نُنَجِّي الذين اتقوا ونَذَرُ الظالمين فيها جِثِيّاً ﴾.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾

يخبر تعالى عن الكُفّار حيث تُتلى عليهم آيات الله ظاهرةَ الدلالة بَيِّنَةَ الحجَّة واضحةَ البرهان، أنَّهم يَصدُّون عن ذلك، ويُعرضون ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومُحتجين على صِحَّة ما هم عليه من الدِّين الباطل بأنهم: ﴿ خيرٌ مقاماً وأحسن نَدِيّا ﴾، أي: أحسنُ منازلَ وأرفعُ دُوراً وأحسنُ نَدِيّاً، وهو مُجْتَمَعُ الرجال للحديث، أي: ناديهم أعمرُ وأكثر وارداً وطارقاً، يعنون: فكيف نكونُ ونحن بهذه المثابة على باطل، وأولئك الذين هم مختفون مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدور على الحق؟! كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴾. وقال قومُ نوحٍ: ﴿ أنؤمن لك واتَّبعك الأرذلون ﴾، وقال تعالى: ﴿ وكذلك فَتَنّا بعضهم ببعضٍ ليقُولوا أهؤلاءِ مَنَّ الله عليهم من بَيْنِنا أَلَيسَ الله بأعلَمَ بالشاكرينَ ﴾، ولهذا قال تعالى رَدّاً عليهم شبهتهم: ﴿ وكَم أهلكنا قبلهم من قَرْنٍ ﴾، أي: وكم من أُمَّة وقرنٍ من المكذّبين قد أهلكناهم بكفرهم، ﴿ هم أحسن أثاثاً وَرِئياً ﴾، أي: كانوا أحسنَ من هؤلاءِ أموالاً وأمتعةً ومناظِرَ وأشكالاً.

قال الأعمشُ، عَن أبي ظَبيانِ، عن ابن عَبَّاس: ﴿ خيرٌ مقاماً وأحسنُ نَدِيّاً ﴾، قال: المقامُ: المنزلُ، والنديُّ: المجلسُ، والأثاثُ: المتاعُ، والرِّئي: المنظرُ(٢).

وقال العَوفِيُّ، عن ابن عَبَّاس: المقامُ: المسكنُ، والنَّدِيُّ: المجلس والنعمة والبهجة التي كانوا فيها، وهو كما قال الله لقوم فرعون حين أهلكهم وقصَّ شأنَهم في القرآن: ﴿ كم تركوا من جنات وعيون. وزُروعٍ

(١) أي: صفّان.
(٢) تفسير الطبري ١٦/١١٦.

ومقامٍ كريم﴾، فالمقام: المسكن والنعيم، والندي: المجلسُ والمجمَعُ الذي كانوا يجتمعُون فيه، وقال فيما قصَّ على رسوله من أمر قَوْمِ لوط: ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾، والعربُ تُسمِّي المجلِسَ: الناديَ[١].

وقال قتادةُ: لما رأوا أصحابَ محمد ـ ﷺ ـ في عيشهم خشونةً، وفيهم قَشَافة، فَعرَّضَ أهلُ الشرك بما تسمعون: ﴿أيّ الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾. وكذا قال مجاهد، والضحاك.

ومنهم من قال في الأثاث: هو المالُ. ومنهم من قال: المتاعُ. ومنهم من قال: الثيابُ. والرِّئْيُ: المنظر، كما قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد.

وقال الحسن البصريُّ: يعني الصُّوَر. وكذا قال مالك: ﴿أثاثاً ورئياً﴾: أكثر أموالاً وأحسن صُوَراً. والكل متقارب صحيحٌ.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾

يقولُ تعالى: ﴿قل﴾ يا محمدُ لهؤلاء المشركين بربِّهم المدَّعِين أنَّهم على الحقِّ وأنكم على الباطل: ﴿من كان في الضلالة﴾، أي: منا ومنكم، ﴿فَلْيمدُدْ له الرحمنُ مداً﴾، أي: فَأمْهَلَه الرحمن فيما هو فيه، حتى يَلْقَى ربَّه وينقضيَ أجلُه، ﴿إما العذابَ﴾ يُصيبه، ﴿وإما الساعةَ﴾ بغتةً تأتيه، ﴿فسيعلَمون﴾ حينئذٍ ﴿من هو شرٌّ مكانا وأضعفُ جنداً﴾ في مُقابَلةِ ما احتجُوا به من خيريَّة المقام وحسن النَّديِّ.

قال مجاهدٌ في قوله: ﴿فَلْيمدُدْ له الرحمنُ مداً﴾، فَلْيَدَعْهُ الله في طُغيانه. وهكذا قَرَّر ذلك أبو جعفر بن جَريرٍ رحمه الله[١].

وهذه مباهلةٌ للمشركين الذين يزعمون أنهم على هُدىً فيما هم فيه، كما ذكر تعالى مباهَلَة اليهود في قوله: ﴿قل يا أيها الذين هادُوا إن زَعمتم أنَّكم أولياءُ لله من دونِ الناسِ فَتمنَّوا الموتَ إن كُنتم صادقين﴾، أي: ادعوا بالموت على المبطل منا ومنكم، إن كنتم تدَّعون أنَّكم على الحقِّ فإنه لا يضرُّكم الدعاء. فَنَكلُوا عن ذلك، وقد تقدَّم تقرير ذلك في سورة «البقرة» مبسوطاً، ولله الحمد. وكما ذكر تعالى المباهَلَة مع النصارى في سورة «آل عِمْران» حين صَمَّمُوا على الكفر، واستمرُّوا على الطغيان والغُلُو في دعواهم أن عيسى ولد الله، وقد ذكر الله حُجَجَه وبراهينَه على عبوديةِ عيسى، وأنه مخلوقٌ كآدم، قال بعد ذلك: ﴿فمن حاجَّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فَقُلْ تعالوا نَدْعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفُسنا وأنفسكم ثم نَبْتَهِلْ فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾، فَنَكلُوا أيضاً عن ذلك.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

لما ذَكر تعالى إمدادَ من هُوَ في الضلالة فيما هو فيه وزيادته على ما هو عليه، أخبر بزيادة المُهتَدين هُدى، كما قال تعالى: ﴿وإذا ما أُنزلت سورة فمنهم من يقولُ أيُّكم زادته هذه إيماناً فأمَّا الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم

(١) تفسير الطبري ١٦/١١٩.

يَستبشِرُون * وأما الذين في قلوبهم مَرَضٌ فزادتهم رِجْساً إلى رِجْسِهِم وماتُوا وهم كافِرُونَ﴾.

وقولُه: ﴿والباقياتُ الصالحاتُ﴾، قد تقدَّم تفسيرُها والكلامُ عليها، وإيراد الأحاديث المتعلقة بها في سورة «الكهف»(١). ﴿خيرٌ عند رَبِّكَ ثَوَاباً﴾، أي. جزاءً ﴿وخير مَرَدّاً﴾، أي: عاقبه ومَرَدّاً على صاحبها.

وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا عُمَر بن راشد، عن يحيـى بن أبي كثير، عن أبي سَلَمة بن عبد الرحمن قال: جلس رسولُ الله ـ ﷺ ـ ذاتَ يوم، فأخذ عُوداً يابساً فَحطَّ وَرَقَه ثم قال: إن قَوْلَ «لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله»، تَحُطُّ الخطايا كما تَحُطُّ ورق هذه الشجرةِ الريحُ، خُذْهُنَّ يا أبا الدرداء قبل أن يُحال بينك وبينهن، هُنَّ الباقياتُ الصالحاتُ، وهُنَّ من كُنُوزِ الجنة. قال أبو سلمة: فكان أبُو الدرداء إذا ذَكَر هذا الحديثَ قال: لأُهَلِّلَنَّ الله، ولأُكَبِّرَنَّ الله، ولأُسبِّحَنَّ الله، حتى إذا رآني الجاهلُ حَسِب أني مجنون(٢).

وهذا ظاهرُه أنه مرسَلٌ، ولكن قد يكون من رواية أبي سَلَمة، عن أبي الدرداء، والله أعلم. وهكذا وقع في سُنَن ابن ماجه، من حديث أبي مُعاوية، عن عُمَر بن راشدٍ، عن يحيـى، عن أبي سَلَمَةَ، عن أبي الدَّرداءِ، فذكَر نحوه(٣).

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا أبو مُعاوية، حدثنا الأعمشُ، عن مُسْلِم، عن مَسْرُوقٍ، عن خَبَّاب بن الأَرتِّ قال: كنت رَجُلاً قيناً، وكان لي على العاص بن وائل دينٌ، فأتيتُه أتقاضاه. فقال لا، والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا، والله لا أكفُر بمحمدٍ ـ ﷺ ـ حتى تَمُوتَ ثم تُبعَثَ. قال: فَإِنِّي إذا مِتُّ ثم بُعِثْتُ جئتني ولي ثَمَّ مالٌ وولدٌ، فأعطيتُكَ. فأنزل الله: ﴿أفرأيتَ الذي كَفَر بآياتنا وقالَ لأُوتَيَنَّ مالا وولَداً﴾ إلى قوله: ﴿ويأتينا فَرْداً﴾(٤).

أخرجَه صاحبا الصَّحيح وغيرهما، من غير وجهٍ، عن الأَعْمَش به، وفي لفظ البخاريِّ: كنت قَيناً بمكَّة، فَعَمِلْتُ للعاص بن وائل سَيفاً، فجئتُ أتقاضاه»... فذكر الحديث، وقال: ﴿أم اتَّخذ عند الرحمن عَهْداً﴾، قال: مَوْثقاً(٥).

وقال عبد الرزَّاق: أخبرنا الثوريُّ، عن الأعمَش، عن أبي الضُّحَى، عن مَسروقٍ قال: قال خَبَّابُ بن الأَرتِّ كنت قيناً بمكَّة، فكنت أعملُ للعاص بن وائل، قال: فاجتمعت لي عليه دراهمُ، فجئتُ لأتقاضاه، فقال لي: لا أقضِيكَ حتى تكفر بمُحَمَّد. فقلتُ: لا أكفُر بمحمَّدٍ حتَّى تموتَ ثم تبعَثَ. قال: فإذا بُعِثتُ كان لي مالٌ وولدٌ. قال: فذكرتُ ذلك لرسولِ الله ـ ﷺ ـ فأنزل الله: ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأُوتَيَنَّ مالاً وولداً﴾، إلى قوله: ﴿ويأتينا فرداً﴾(٦).

(١) انظر تفسير الآية ٤٦ من سورة الكهف.
(٢) تفسير الطبري ١٦/١٢٠.
(٣) سنن ابن ماجه، كتاب الأدب ٢/١٢٥٣.
(٤) مسند الإمام أحمد ٥/١١١، وفتح الباري، تفسير سورة مريم ٨/٤٣١، ومسلم، كتاب صفة القيامة ٤/٢١٥٣.
(٥) فتح الباري، تفسير سورة مريم ٨/٤٣٠.
(٦) تفسير الطبري ١٦/١٢١.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس: إن رجالاً من أصحاب رسول الله - ﷺ - كانوا يَطلُبون العاصَ بنَ وائل السَّهميَّ بدين، فأتوه يتقاضَونَه، فقال: ألستُم تزعُمون أن في الجنة ذهباً وفضَّةً وحَريراً، ومن كلِّ الثمرات؟ قالوا: بلى. قال: فإنَّ موعدكم الآخرة، فوالله لأُوتَيَنَّ مالاً وولداً، ولأُوتَيَنَّ مثلَ كتابكم الذي جئتُم به. فضرب الله مثله في القرآن فقال: ﴿ أفرأيتَ الذي كفر بآياتنا ﴾ إلى قوله: ﴿ ويأتينا فَرْداً ﴾.

وهكذا قال مجاهد، وقتادةُ، وغيرهم: إنها نزلت في العاص بن وائل.

وقولُه: ﴿ لأوتَيَنَّ وَولداً ﴾، قرأ بعضُهم بفتح «الواو» من ﴿ وَلَداً ﴾، وقرأ آخرون بِضَمِّها[1]، وهو بمعناه، قال رُؤْبَةُ[2]:

الحَمْدُ لله العَزيزِ فَرْدَا لَمْ يَتَّخِذْ مِنْ وُلْدِ شَيءٍ وُلْدَا

وقال الحارث بن حِلِّزَةَ:

وَلَقَدْ رَأيتُ مَعَاشِراً قَدْ ثَمَّرُوا مَالاً وَوُلْدَا

وقال الشاعر:

فَلَيتَ فُلاناً كانَ في بَطْنِ أمِّه وَلَيتَ فُلاناً كانَ وُلْدَ حِمَارِ

وقيل: إنّ الوُلْدَ - بالضم - جمعٌ، والوَلَدَ - بالفتح - مُفرَدٌ، وهي لغةُ قيسٍ، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ أَطَّلع الغيبَ ﴾، إنكارٌ على هذا القائل: ﴿ لأُوتَيَنَّ مالا وَولداً ﴾، يعني يوم القيامة، أي: أعلَمَ ماله في الآخرة حتّى تَألَّى وَحلَف على ذلك، ﴿ أم اتَّخذ عند الرحمن عهداً ﴾، أم له عند الله عَهد أن سيؤتيه ذلك؟ وقد تقدَّم عند البخاري: أنه المَوْثِق.

وقال الضحَّاك، عن ابن عباس: ﴿ أَطَّلَعَ الغيبَ أم اتَّخذ عِنْدَ الرَّحمنِ عَهداً ﴾، قال: لا إله إلا الله، فَيرجُوه بها.

وقال محمد بن كعب القُرظِيُّ: ﴿ أَمِ اتَّخَذَ عندالرحمن عَهداً ﴾، قال: شهادةُ أن لا إله إلا الله، ثم قرأ: ﴿ إلا من اتَّخذ عند الرحمن عَهْداً ﴾.

وقولُه: ﴿ كَلَّا ﴾: هي حرف رَدْعٍ لما قبلها وتأكيدٍ لما بعدها، ﴿ سَنَكتُبُ ما يقولُ ﴾، أي: مِنْ طَلَبه ذلك وحُكمه لنفسه بما تمناه، وكُفره بالله العظيم، ﴿ ونمدُّ له من العذاب مَدّاً ﴾، أي: في الدارِ الآخرة، على قوله ذلك، وكفره بالله في الدنيا، ﴿ ونرثه ما يقول ﴾، أي: من مال ووَلَدٍ، نسلُبه منه، عكس ما قال: إنه يُؤتى في الدار الآخرة مالاً وولداً زيادةً على الذي له في الدنيا، بل في الآخرة يُسلَب مِنَ الذي كان له في الدنيا، ولهذا قال: ﴿ ويأتينا فرداً ﴾، أي: من المال والولد.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: ﴿ ونرثه ما يقول ﴾، نَرِثُه[3].

---

(١) قرأ حمزة والكسائي من السبعة (وُلْداً) بضم فسكون في آيات مريم الأربعة: ٧٧، ٨٨، ٩١، ٩٢ وفي سورة الزخرف، الآية ٨١. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٦٩٧

(٢) الأشعار في تفسير الطبري ١٦/١٢١ - ١٢٢.

(٣) تفسير الطبري ١٦/١٢٣.

وقال مجاهد: ﴿ ونرثه ما يقولُ ﴾: ماله وولده، وذلك الذي قال العاص بن وائل.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة: ﴿ ونرثه ما يقولُ ﴾، قال: ما عنده، وهو قولُه: ﴿ لأُوتَيَنَّ مالاً وولداً ﴾. وفي حَرْفِ ابن مسعود ﴿ ونرثه ما عنده ﴾.

وقال قتادة: ﴿ ويأتينا فرداً ﴾: لا مالَ له ولا وَلَد.

وقال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ: ﴿ ونرثُه ما يقولُ ﴾، قال: ما جَمَع من الدنيا، وما عَمِل فيها، قال: ﴿ ويأتينا فرداً ﴾، قال: فرداً من ذلك، لا يتبعه قليلٌ ولا كثير.

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن الكُفّار المشركين بربِّهم أنهم اتَّخذُوا من دونه آلِهةً، لتكُونَ لهم تلك الآلهةُ ﴿ عِزّاً ﴾ يَعتزُّون بهم ويستنصرونهم.

ثم أخبر أنه ليس الأمرُ كنا زَعَموا، ولا يكون ما طَمِعُوا، فقال: ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ﴾، أي: يوم القيامة ﴿ ويكونون عليهم ضداً ﴾، أي: بخلاف ما ظَنُّوا فيهم، كما قال تعالى: ﴿ ومن أضلّ ممن يدعُو من دون الله مَن لا يستجيبُ له إلى يومِ القيامةِ وَهُم عن دعائِهم غافلُون * وإذا حُشِر الناسُ كانوا لهم أعداءً وكانُوا بعبادَتِهم كافِرين ﴾.

وقرأ أبو نَهيكٍ: ﴿ كُلٌّ سَيَكفرون بعبادَتِهم ﴾[1].

وقال السّديّ: ﴿ كَلّا سيكفرون بعبادتهم ﴾، أي: بعبادة الأوثان. وقوله: ﴿ ويكونون عليهم ضِداً ﴾، أي: بخلاف ما رَجَوْا منهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ ويكونُون عليهم ضدّاً ﴾، قال: أعواناً. قال مجاهد: عَوناً عليهم، تُخاصمُهم وتُكَذِّبُهم. وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿ ويكونون عليهم ضِدّاً ﴾، قال: قُرناء. وقال قتادةُ: قرناء في النار، يلعَنُ بعضهم بعضاً، ويكفُر بعضُهم ببعضٍ. وقال السّديُّ: ﴿ ويكونُون عليهم ضِداً ﴾، قال: الخُصَماء الأشدّاء في الخُصُومة. وقال الضحّاك: ﴿ ويكونون عليهم ضِدّاً ﴾، قال: أعداءً. وقال ابنُ زيدٍ: الضدُّ: البلاءُ. وقال عكرمةُ: الضدُّ: الحسرةُ.

وقولُه: ﴿ ألم تَرَ أنا أرسلنا الشياطينَ على الكافِرين تَؤزُّهم أَزّاً ﴾، قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: تُغويهم إغواء.

وقال العوفيُّ عنه: تُحرِّضُهم على محمدٍ وأصحابه. وقال مجاهدٌ: تُشْلِيهم إشلاء[2]. وقال قتادةُ: تُزعِجُهم إزعاجاً إلى معاصي الله. وقال سفيان الثوريُّ: تُغريهم إغراءً وتستعجِلُهم استعجالاً. وقال السّديُّ: تُطغِيهم طُغياناً.

---

(١) كذا في النسخ: كُلٌّ. وقد ذكر الألوسي عند تفسير هذه الآية ١٦/ ١٣٤: «وذكر الطبري عنه [أي: عن أبي نَهيكٍ] أنه قَرَأ: (كلٌّ)، بضم الكاف والرفع، وهو على هذا مبتدأ، والجملة بعده خبر». على أنَّ المثبت في مطبوعة الطبري ١٦/ ١٢٥: (كُلّاً)، بالنصب، وهي قراءة نسبها الألوسيّ لابن نهيك أيضاً. وانظر البحر المحيط لأبي حيان ٦/ ٢١٣، والمحتسب لابن جنّي ٢/ ٤٥.

(٢) أي: تغريهم إغراءً.

وقال عبد الرحمن بن زيد: هذا كقوله تعالى: ﴿ ومن يعشُ عن ذِكرِ الرحمن نُقَيِّض له شيطاناً فهو له قرين ﴾(١).

وقولُه: ﴿ فلا تَعجلْ عليهم إنما نَعُدُّ لهم عَدّاً ﴾، أي: لا تعجَلْ يا محمدُ على هؤلاءِ في وقوع العذابِ بهم، ﴿ إنما نَعُدُّ لهم عَدّاً ﴾، أي: إنما نُؤَخِّرهم لأجلٍ معدودٍ مضبوطٍ، وهم صائرون لا محالة، إلى عذاب الله ونكاله، ﴿ ولا تحسبنَّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يُؤخِّرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾، ﴿ فَمَهِّلِ الكافرين أمْهِلْهُم رُوَيداً ﴾، ﴿ إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ﴾، ﴿ نُمَتِّعُهم قليلاً ثم نَضطرُّهم إلى عذابٍ غليظٍ ﴾، ﴿ قل تَمتَّعوا فإنَّ مصيركم إلى النار ﴾.

قال السدِّيُّ: ﴿ إنما نَعُدُّ لهم عدّاً ﴾، السنين، والشهور، والأيام، والساعات.

وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباسٍ: ﴿ إنما نَعُدُّ لهم عَدّاً ﴾، قال: نعدُّ أنفاسَهم في الدنيا.

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عن أوليائِه المُتَّقين الذي خافوه في الدار الدنيا، واتبعُوا رسلَه وصَدَّقوهم فيما أخبرُوهم، وأطاعوهم فيما أمرُوهم به، وانتهوا عما عنه زَجروهم: أنه يحشُرهم يوم القيامةِ وَفداً إليه. والوفدُ: همُ القادِمُون ركباناً، ومنه الوفود، وركُوبهم على نَجائبَ من نور، من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمونَ على خير مَوفودٍ إليه، إلى دار كرامته ورضوانه. وأما المجرمُون المُكذِّبون للرسل المخالفون لهم، فإنهم يُساقون عُنفاً إلى النارِ، ﴿ وِرْداً ﴾: عطاشاً، قاله أبو هُرَيرة، وابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، والحسنُ، وقتادةُ، وغيرُ واحدٍ. وهاهنا يُقال: ﴿ أي الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسنُ ندِيّاً ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو خالد، عن عَمْرو بن قَيسٍ المُلائيِّ، عن أبي مَرْزُوقٍ(٢): ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وَفْداً ﴾، قال: يَسْتقبِلُ المؤمنُ عند خُروجِهِ من قبره أحسنَ صورة رآها، وأطيبهُ(٣) ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أما تَعْرفني؟ فيقول: لا، إلا أن الله قد طَيَّب ريحك وحَسَّن وَجْهك. فيقول: أنا عَمَلُك الصالح، وهكذا كُنت في الدنيا، حَسَنَ العمل طَيِّبه، فطالما رَكِبتُك في الدنيا، فهَلُمَّ اركَبْني. فيركَبُه، فَذلِك قوله: ﴿ يوم نحشرُ المُتَّقين إلى الرحمنِ وَفْداً ﴾.

وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباسٍ: ﴿ يوم نحشر المُتَّقين إلى الرَّحمنِ وَفْداً ﴾، قال: ركباناً.

وقال ابنُ جرير: حدثني ابنُ المثنى، حدثنا ابنُ مهديٍّ، عن سعيد(٤)، عن إسماعيلَ، عن رجلٍ، عن أبي هُريرة: ﴿ يوم نَحشُر المتقين إلى الرَّحمنِ وَفْداً ﴾، قال: على الإبلِ.

وقال ابن جُرَيج: على النجائب. وقال الثوريُّ: على الإبل النُّوقِ. وقال قتادةُ: ﴿ يوم نحشُر المتقين إلى الرحمن وَفْداً ﴾، قال: إلى الجنة.

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٦/١٢٥.

(٢) انظر ترجمته في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٩/٤٤٢.

(٣) هذا أسلوب عربي صحيح، والنحاة يُقدِّرونَه: وأطيَبَ شيءٍ ريحاً.

(٤) في تفسير الطبري ١٦/١٢٧: شعبة.

وقال عبدُ الله ابن الإمام أحمدَ في مُسنَد أبيه: حدثنا سُوَيد، بن سَعيد، أخبرنا علي بن مُسْهِر، عن عبد الرحمن بن إسحاقَ، حدثنا النعمان بن سَعدٍ قال: كنا جلوساً عند علي ـ رضي الله عنه ـ فقرأ هذه الآية: ﴿ يوم نَحشُرُ المتَّقين إلى الرحمن وَفْداً ﴾، قال: لا، والله ما على أرجلهم يُحشَرُون، ولا يُحشَر الوفد على أرجُلِهم، ولكن بِنُوقٍ لم يَرَ الخلائقُ مثلَها، عليها رحائِلُ من ذَهَبٍ، فيركبون عليها، حتى يَضرِبُوا أبواب الجنة[1].

وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابنُ جرير، من حديث عبد الرحمن بن إسحاق المدني، به. وزاد: «عليها رحائلُ الذهبَ، وأزِمَّتُها الزبرجد»، والباقي مثله[2].

وقد روى ابن أبي حاتم هاهنا حديثاً غريباً جداً مرفوعاً، عن علي ـ رضي الله عنه ـ فقال:

حدثنا أبي، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النَّهديُ، حدثنا مسلَمَةُ بن جعفر البَجليُّ، سمعت أبا مُعاذٍ البصريَّ قال: إن علياً كان ذاتَ يوم عند رسُولِ الله ـ ﷺ ـ فقرأ عليٌّ هذه الآية: ﴿ يوم نحشُر المتَّقين إلى الرحمن وَفْداً ﴾، فقال: ما أظنُّ الوفدَ إلا الركبَ يا رسولَ الله. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: والذي نفسي بيده إنَّهم إذا خَرَجُوا من قُبُورِهم يُستَقبلُون ـ أو: يُؤتَون ـ بنُوقٍ بيض لها أجنحة، وعليها رحالُ الذَّهب، شُرُكُ[2] نِعالهم نور، يتلألأ كُلُّ خطوةٍ منها مَدَّ البصر، فينتَهُون إلى شجرةٍ يَنبُع من أصلها عينان، فيشرَبُون من إحداهما، فَتَغسِل ما في بطونهم من دَنَسٍ، ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أبشارُهم ولا أشعارُهم بعدها أبداً، وتَجري عليهم نضرةُ النعيم، فَينتَهون، أو: فيأتون باب الجنة، فإذا حَلْقَةٌ من ياقوتةٍ حمراءَ على صفائح الذهب، فيضربون بالحلقة على الصَّفيحة فَيُسمَع لها طَنِينٌ يا عليُّ، فيبلُغ كُلَّ حوراءَ أنَّ زوجها قد أقبل، فتبعَثُ قَيِّمها فيفتَحُ له، فإذا رآه خرَّ له ـ قال مسلمةُ: أراه قال: ساجداً ـ فيقول: ارفَعْ رأسَكَ، إنما أنا قَيِّمك، وُكِلْتُ بأمرك فيتبَعُه ويقفُو أثره، فَتستَخِفُّ الحوراءَ العجلةُ، فتخرُج من خيام الدُّرِّ والياقوتِ حتى تَعتَنِقَه، ثم تقول: أنت حِبِّي وأنا حِبُّك، وأنا الخالدةُ التي لا أموتُ، وأنا الناعمةُ التي لا أبأَسُ، وأنا الراضيةُ التي لا أسخَطُ، وأنا المقيمةُ التي لا أظعَنُ. فيدخل بيتاً من أُسِّه إلى سقفه مائةُ ألفِ ذراع، بناؤه على جَنْدَلِ اللؤلؤ طرائقُ أصفرُ وأحمرُ وأخضرُ، ليس منها طريقة تُشاكِلُ صاحبتَها. وفي البيت سبعونَ سَريراً، على كُلِّ سرير سبعون حَشِيَّةً، على كل حَشِيَّةٍ سبعون زوجة، على كل زوجةٍ سبعون حُلَّةً، يُرى مُخُّ ساقِها من وراء الحُلَل، يُقضَى جِماعُها في مقدارِ ليلةٍ من لياليكم هذه، الأنهار من تحتهم تَطَّرِدُ، أنهارٌ من ماء غير آسن ـ قال: صافٍ لا كَدَر فيه ـ وأنهار من لبن لم يتَغيَّر طعمُه، لم يخرُج من ضروع الماشية، وأنهار من خمر لذة للشاربين، لم يعتصرها الرجال بأقدامهم، وأنهار من عَسَلٍ مُصفًّى لم يخرج من بُطُونِ النحلِ، فيستميل[3] الثِّمار، فإن شاء أكلَ قائماً، وإن شاء قاعداً، وإن شاء متكئاً، ثم تلا: ﴿ ودانيةً عليهم ظلالُها وذُلِّلت قطوفُها تَذْليلاً ﴾، فيشتهي الطعام فيأتيه طيرٌ أبيضُ، وربما قال: أخضرُ، فَترفع أجنحتَها، فيأكُل من جُنُوبها أيَّ الألوانِ شاءَ، ثم تطيرُ فتذهبُ، فيدخل الملك فيقول: سلامٌ عليكم، ﴿ تلك الجنة التي أُورِثتُموها بما كنتم تعملون ﴾، ولو أن شعرة من شعر الحور العين[4] وقعت لأهل الأرض لأضاءت الشمسُ معها سوادٌ في نُورٍ».

هكذا وَقَع في هذه الرِّواية مرفوعاً، وقد رويناه في المقدِّمات من كلام علي ـ رضي الله عنه ـ بنحوه، وهو أشبه بالصحة، والله أعلم.

(١) مسند الإمام أحمد ١/١٥٥، وتفسير الطبري ١٦/١٢٦.

(٢) الشُّرُك: جمع شراك، وهو سيرُ النَّعْل على ظهر القدم

(٣) في نسخة: فيستجني.

(٤) في نسخة: «من شعر الحوراء وقعت»

وقولُه: ﴿ ونسوقُ المُجرمين إلى جَهنَّم وِرداً ﴾، أي: عطاشاً، ﴿ لا يَمْلِكُون الشَّفاعَة ﴾، أي: ليس لهم من يشفَعُ لهم كما يشفَعُ المؤمنون بعضهم لبعض، كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿ فما لنا من شافِعِينَ * ولا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾.

وقولُه: ﴿ إلا من اتَّخذ عند الرحمن عهداً ﴾، هذا استثناء منقطع، بمعنى: لكن من اتخذَ عند الرحمنِ عهداً، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والقيامُ بحقِّها.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ إلا من اتَّخذَ عند الرحمنِ عَهداً ﴾، قال: العهدُ شهادةُ أن لا إله إلا الله، ويَتبرَّأ إلى الله من الحَوْلِ والقُوَّةِ، ولا يرجُو إلا الله عزَّ وجلَّ[١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عَمَّار بن خالد الواسطي، حدثنا محمد بن الحسن الواسطي، عن المسعودي، عن عَون بن عبد الله، عن أبي فاختةَ، عن الأسود بن يزيد قال: قَرَأ عبد الله ـ يعني ابنَ مسعود ـ هذه الآية: ﴿ إلا من اتَّخذَ عند الرحمن عهداً ﴾، ثم قال: اتخذوا عند الله عهداً، فإن الله يقولُ يوم القيامة: «من كان له عند الله عَهْدٌ فَلْيقُم» قالوا: يا أبا عبد الرحمن، فَعَلِّمنا. قال: قولوا: اللهم، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أنك إن تكلني إلى عملي يُقرِّبْني من الشر ويُباعِدْني من الخير، وَإنِّي لا أثِقُ إلا بِرَحْمَتِكَ، فاجعل لي عندك عهداً تُؤدِّيه إليَّ يوم القيامة، إنك لا تُخلِفُ الميعادَ.

قال المسعودي: فحدثني زكريا، عن القاسم بن عبد الرحمن، أخبرنا ابن مسعود: وكان يُلحِقُ بهن: خائفاً مستجيراً مستغفراً، راهباً راغباً إليك.

ثم رواه من وجه آخر، عن المسعودي، بنحوه[٢].

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾

لما قَرَّر تعالى في هذه السورة الشريفة عُبوديَّةَ عيسى عليه السلام، وذَكَر خَلْقه من مَرْيمَ بلا أبٍ، شَرَع في مقام الإنكار على من زَعَم أن له ولداً ـ تعالى وتقدَّس وتنزَّه عن ذلك عُلُوّاً كبيراً ـ فقال: ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن وَلَداً * لقد جئتم ﴾، أي: في قولكم هذا ﴿شيئاً إدّاً﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومالك: أي عظيماً.

ويقال: إدّاً بكسر الهمزة وفتْحها، ومع مَدِّها أيضاً، ثلاثُ لغاتٍ[٣]، أشهرُها الأولى.

وقولُه: ﴿تكاد السمواتُ يَتفطَّرن منه وتَنْشقُّ الأرض وتَخِرُّ الجبالُ هَدّا * أن دَعَوا للرحمن وَلَداً﴾، أي: يكاد يكون ذلك عند سماعِهِنَّ هذه المقالة من فَجَرة بني آدمَ، إعظاماً للربِّ وإجلالا، لأنهنَّ مخلوقاتٌ

(١) تفسير الطبري ١٦/١٢٨.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك وصحّحه، كتاب التفسير ٢/٣٧٧ ـ ٣٧٨.

(٣) اللغات الثلاث: ﴿إدًّا﴾، و﴿أدًّا﴾، آدًّا. وبكسر الهمزة قرأ الجمهور، وبفتحها من غير مدٍّ قرأ أبو عبد الرحمن السلمي. وأما آدٌّ ـ بالفتح مع المدّ ـ فلُغَةٌ لِبعضِ العَرب رُوِيت عن ابن عباس وأبي العالية. انظر تفسير القرطبي ١١/١٥٦. وروح المعاني للألوسي ١٦/١٣٩.

ومُؤسِّسات على توحيده، وَأنه لا إلَه إلا هو، وأنه لا شريكَ له، ولا نَظِيرَ له، ولا وَلَدَ له، ولا صاحِبَةَ له، ولا كُفْءَ له، بل هو الأحَدُ الصَّمَدُ:

وفي كُلِّ شيْءٍ لَهُ آيةٌ تَدُلُّ على أنه واحِدُ

وقال ابن جرير: حدثني علي، حدثنا عبدُ الله، حدثني معاويةُ، عن عَلِيٍّ، عن ابن عباس، قولُه: ﴿ تكادُ السمواتُ يتفطَّرنَ منه وتنشقُّ الأرضُ وتخرُّ الجبالُ هداً * أن دَعَوا للرَّحمنِ وَلَداً ﴾، قال: إن الشِّرك فَزِعَت منه السمواتُ والأرضُ والجبالُ، وجميع الخَلائق إلا الثَّقلين، فكادت أن تزولَ منه لعظمةِ الله، وكما لا ينفَعُ مع الشِّرْكِ إحسانُ المشركِ، كذلك نَرْجُو أن يغفر الله ذنوبَ المُوَحِّدين، وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لَقِّنوا موتاكم شهادَةَ أن لا إلَه إلا الله، فمن قالَها عند موته وَجَبَتْ له الجنةُ. قالوا: يا رسولَ اللهِ، فمن قالها في صِحَّته؟ قال: تلك أَوجبُ وأوجبُ. ثم قال: والذي نفسِي بيده، لو جِيءَ بالسمواتِ والأرَضينَ وما فيهنَّ، وما بينهنَّ، وما تحتهنَّ، فَوُضِعْنَ في كفَّةِ الميزان، ووَضِعت شهادةُ ألا إلَه إلا الله في الكِفَّةِ الأخرى، لرجَحتْ بهن»[(١)].

هكذا رواه ابن جَرير، ويشهَدُ له حديثُ البِطَاقةِ[(٢)]، والله أعلم.

وقال الضَّحاكُ: ﴿ تكاد السموات يَنفطَّرن منه ﴾، أي: يتشققن فَرَقاً من عظمة الله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلَمَ: ﴿ وتنشقُّ الأرضُ ﴾، أي: غَضَباً لله عزَّ وجلَّ.

﴿ وَتَخِرُّ الجبال هَداً ﴾، قال ابن عباس: هَدْماً. وقال سعيد بن جُبَير: ﴿ هَدّاً ﴾: ينكسر بعضُها على بعضٍ متتابعاتٍ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيدَ المقرئُ[(٣)]، حدثنا سُفيان بن عُيَينَةَ، حدثنا مِسْعَرٍ، عن عَونِ بن عبد الله قال: إنَّ الجبلَ لَيُنادِي الجبلَ باسمِهِ: يا فلانُ، هل مَرَّ بك اليومَ ذاكرُ الله عزَّ وجلَّ؟ فيقولُ: نعم، ويستبشرُ قال عونٌ: فهي للخير أسمَعُ، أفيسمَعْنَ الزُّورَ والباطلَ إذا قيل ولا يسمَعْنَ غيرَه، ثم قرأ: ﴿ تكادُ السمواتُ يتفطَّرنَ منه وتنشقُّ الأرضُ وتَخِرُّ الجبالُ هَدّاً * أن دَعَوا للرَّحمنِ وَلَداً ﴾.

وقال ابنُ أبي حاتمٍ أيضاً: حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا هَوْذَة، حدثنا عوفٌ، عن غَالِبِ بنِ عَجْرَدٍ، حدثني رجل من أهل الشَّام في مسجد مِنىً قال: بَلَغني أَنَّ الله لما خَلَق الأرضَ وخَلَق ما فيها من الشَّجَر، لم يكن في الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعةً ـ أو قال: كان لهم فيها منفعةٌ ـ ولم تَزَلِ الأرضُ والشجرُ بذلك، حتى تَكلَّم فَجَرَةُ بني آدَمَ بتلك الكلمةِ العظيمةِ، قولهم: ﴿ اتخذ الرحمن ولداً ﴾، فلما تكلَّموا بها اقشعرَّت الأرض، وشاك الشجرُ.

وقال كعبُ الأحبارِ: غَضِبت الملائكة، واستعرت جَهَنَّمُ حين قالوا ما قالوا.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمشُ، عن سعيد بنُ جُبير، عن أبي عبد الرحمن السُّلَميِّ

---

(١) تفسير الطبري ١٦/١٣٠.

(٢) حديث البطاقة أخرجه الترمذي في أبواب الإيمان. انظر عارضة الأحوذي ١٠/١٠٧ ـ ١٠٨، وقال: «هذا حديث حسن غريب». وابن ماجه في كتاب الزهد ٢/١٤٣٧. والإمام أحمد في مسنده ٢/٢١٣، ٢٢٣.

(٣) في أغلب النسخ: محمد بن عبدالله بن سويد المقبري. وهو خطأ. انظر ترجمة الدثبت في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٧/٣٠٧ ـ ٣٠٨.

عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: لا أَحَدَ أَصْبَرُ على أَذىً سَمِعهُ من الله؛ إنه يُشْرَك به، ويُجْعَلُ له ولدٌ، وهو يُعافِيهِمْ ويَدْفَع عَنهُم، ويَرزُقُهم[1].

أخرجاه في الصَّحِيحَين. وفي لفظ: «إنهم يَجعلُون له وَلَداً، وهو يَرزُقُهم ويُعافيهِمْ»[1].

وقولُه: ﴿ وما ينبغي للرَّحمن أن يَتَّخِذَ وَلداً ﴾، أي: لا يصلح له، ولا يَلِيقُ به لِجَلالِهِ وعَظَمتِه، لأنه لا كُفْءَ له من الخلق، لأنَّ جميع الخلائق عبيدٌ له، ولهذا قال: ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً ✽ لقد أحصاهم وعدَّهم عَدَّاً ﴾، أي: قد علم عَدَدهم منذ خَلَقهم إلى يوم القيامة، ذَكَرهم وأُنثاهم، وصَغِيرَهم وكَبِيرَهم. ﴿ وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾، أي: لا ناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكُم في خَلقِه بما يشاء، وهو العادِلُ الذي لا يَظْلِم مثقال ذَرَّةٍ، ولا يَظْلِمُ أحداً.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه يَغْرِسُ لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات ـ وهي الأعمالُ التي تُرضي الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لمتابعتها الشريعة المحمدية ـ يَغْرِس لهم في قلوب عباده الصالحين مَحبَّةً ومودَّةً، وهذا أمرٌ لابدَّ منه، ولا مَحيدَ عنه. وقد وَرَدت بذلك الأحاديثُ الصَّحِيحةُ عَن رسول الله ـ ﷺ ـ من غير وجهٍ:

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عفَّانُ، حدثنا أبو عَوَانَةَ، حدثنا سُهَيل، عن أبيه، عن أبي هُرَيرَةَ، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «إن الله إذا أحبَّ عبداً دعا جبريلَ فقال: يا جبريلُ، إني أحبُّ فلاناً فَأَحِبَّه. قال: فَيُحِبُّه جبريلُ. قال: ثم ينادي في أهلِ السماء: إن الله يحبُّ فلاناً. قال: فَيُحِبُّه أهلُ السماء، ثم يُوضَع له القبولُ في الأرض. وإن الله إذا أبغضَ عبداً دعا جبريلَ فقال: يا جبريلُ، إني أبغضُ فلاناً فَأَبغِضْهُ. قال: فَيُبغِضُه جبريلُ. ثم يُنادي في أهلِ السماء: إن الله يُبغِضُ فلاناً فَأَبغِضُوه. قال: فَيُبْغِضُه أهلُ السماءِ، ثم تُوضَعُ له البغضاءُ في الأرض»[2].

ورواه مسلم من حديث سُهَيل. ورواه أحمَدُ والبُخاريُّ، من حديث ابن جُرَيج، عن موسى بن عُقبَةَ، عن نافع مولى ابن عمر، عن أبي هُريرة، عن النبي ـ ﷺ ـ بنحوه[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بَكْرٍ، حدثنا ميمون أبو محمد المَرَئي، حدثنا محمد بن عَبَّاد المخزومي، عن ثوبانَ ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: إن العبد لَيَلْتَمِسُ مرضاة الله، فلا يَزَالُ بذلك، فيقول الله عز وجل لجبريل: إن فلاناً عبدي يلتمسُ أن يُرضِيَني؛ ألا وإنَّ رحمتي عليه، فيقول جبريلُ: «رحمةُ الله على فلان»، ويقولُها حملة العرش، ويقولُها مَن حولهم، حتى يقولها أهلُ السمواتِ السبع، ثم تَهبِطُ إلى الأرض». غريبٌ، ولم يُخرِّجوه من هذا الوجه[3].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا أسودُ بنُ عامرٍ، حدثنا شريكٌ، عن مُحمَّد بن سعدٍ الواسطيِّ، عن أبي ظَبْيَةَ،

---

(١) مسند أحمد ٤/٤٠٥. وفتح الباري، كتاب الأدب ١٠/٥١١، وكتاب التوحيد ١٣/٣٦٠. ومسلم، كتاب صفة القيامة ٤/٢١٦٠.
(٢) مسند أحمد ٢/٤١٣، ومسلم، كتاب البر ٤/٢٠٣٠. ومسند أحمد ٢/٥١٤، وفتح الباري، كتاب الأدب ١٠/٤٦١.
(٣) مسند أحمد ٥/٢٧٩.

عن أبي أُمامَةَ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إن المِقَة من الله ـ قال شَريكٌ: هي المحبة ـ والصِّيت من السماء، فإذا أحبَّ الله عبداً قال لجبريلَ عليه السلامُ: «إني أحبُّ فلاناً». فينادي جبريل: إن ربكم يَمِقُ ـ يعني يُحبُّ ـ فلاناً، فأَحِبُّوه ـ وأُرَى شَريكاً قد قال: فتنزلُ له المحبَّةُ في الأرض ـ وإذا أبغضَ عبداً قال لجبريل: إني أُبغِضُ فلاناً فأبغضْهُ. قال: فينادي جبريلُ: إن ربكم يُبغِضُ فلاناً فأبغضوه ـ قال: أُرَى شريكاً قد قال: فيجري له البُغضُ في الأرض»(١). غريبٌ، ولم يُخرجُوه.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حَدَّثنا أبو داودَ الحَفَريُّ، حدثنا عبد العزيز ـ يعني ابنَ محمد، وهو الدَّراوَرْديُّ ـ عن سُهَيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هُرَيرة أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إذا أحبَّ اللهُ عبداً نادى جبريلَ: «إني قد أحببتُ فلاناً فأَحِبَّه». فينادي في السماء، ثُم يُنزلُ له المحبة في أهلِ الأرضِ، فذلك قولُ الله عز وجل: ﴿إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ سَيجعَلُ لهم الرحمن وُدّاً﴾(٢).

ورواه مسلم والترمذيُّ كلاهما عن قُتَيبَة، عن الدَّراوَرْدِيِّ، به وقال الترمذيُّ: حسن صحيح(٣).

وقال عليُّ بن أبي طَلْحَةَ، عن ابنِ عباسٍ في قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لهمُ الرحمنُ وُدّاً﴾، قال: حُبّاً.

وقال مجاهد: عنه: ﴿ سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾، قال: محبةً في الناسِ في الدّنيا. وقالَ سعيد بنُ جُبَير، عنه: يُحبّهم ويُحَبِّبُهم، يعني: إلى خَلْقِه المؤمنين. كما قال مجاهد أيضاً، والضحاك، وغيرهم. وقال العَوفي، عن ابن عباس أيضاً: الوُدُّ من المسلمين في الدنيا، والرِّزقُ الحسَنُ، واللسان الصادقُ.

وقال قتادةُ: ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ سيجعَلُ لهم الرَّحمنُ وُدّاً ﴾. إيْ واللهِ، في قلوبِ أهلِ الإيمان، ذُكِرَ لنا أَنَّ هَرِم بن حَيَّان كان يقولُ: ما أقبلَ عبدٌ بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يَرزُقَه مَودَّتَهم ورحمتهم. وقال قتادةُ: وكان عثمانُ بن عفان ـ رضي الله عنه ـ يقول: ما من عبدٍ يعمَلُ خيراً أو شراً، إلا كَساه الله ـ عز وجل ـ رِداء عَمَلِه(٤).

وقال ابنُ أبي حاتم ـ رحمه الله ـ: حدثنا أحمد بن سنان، حدَّثنا عبدُ الرحمن بنُ مهديّ، عن الرَّبيع بن صَبيح، عن الحسنِ البصري ـ رحمه الله ـ قال رجلٌ: «والله لأعبُدَنَّ الله عبادةً أُذكَرُ بها. فكان لا يُرَى في حين صلاة إلا قائماً يُصَلِّي، وكان أولَ داخل إلى المسجد وآخِرَ خارجٍ، فكان لا يُعَظَّمُ، فمكث بذلك سبعةَ أشهر، وكان لا يمرُّ على قوم إلا قالوا: انظروا إلى هذا المرائي. فأقبلَ على نفسه فقال: لا أراني أُذْكَر إلا بشرٍّ، لأجعلن عملي كُلَّه لله عز وجل، فلم يَزِدْ على أن قَلَب نيَّته، ولم يزد على العمل الذي كان يعمل. فكان يمرُّ بَعدُ بالقوم، فيقولون: رَحم الله فلاناً الآنَ. وتلا الحسن: ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعَملوا الصالحاتِ سَيَجْعَلُ لهم الرَّحمنُ وُدّاً ﴾.

وقد رَوَى ابنُ جَرير(٤) أثراً أَنّ هذه الآيَةَ نَزَلت في هِجْرَة عبد الرحمن بن عوف. وهو خَطأٌ، فإنَّ هذه السورةَ بتمامها مكية لم ينزل شيءٌ منها بعد الهجرةِ، ولم يَصِحَّ سندُ ذلك، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ فإنما يسَّرناه ﴾، يعني: القرآن، ﴿ بلسانك ﴾، أي: يا محمدُ، وهو اللسان العربيُّ المبين

---

(١) مسند أحمد ٥/٢٦٣.
(٢) بعده في نسخة الحرم: «قال: حباً».
(٣) مسلم، كتاب البرّ ٤/٢٠٣١، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة مريم ١١/١٧ ـ ١٨.
(٤) انظر تفسير الطبري ١٦/١٣٢ ـ ١٣٣.

الفصيحُ الكاملُ، ﴿ لِتُبشِّر به المتَّقين ﴾، أي: المستجيبين لله المُصَدِّقين لرسوله، ﴿ وتُنذِرَ به قوماً لُدّاً ﴾، أي: عُوجاً عن الحقِّ مائلين إلى الباطل.

وقال ابن أبي نَجِيحٍ، عن مُجاهدٍ: ﴿ قوماً لُدّاً ﴾: لا يستقيمون. وقال الثوريُّ، عن إسماعيل، وهو السديّ، عن أبي صالح، ﴿ وتنذر به قوماً لُدّاً ﴾: عُوجاً عن الحق. وقال الضحاك: الألدُّ: الخَصِمُ. وقال القُرَظيُّ: الألدُّ الكذابُ. وقال الحسن البصري: ﴿ قوماً لداً ﴾: صُمّاً. وقال غيره: صُمٌّ آذان القلوب. وقال قتادة: ﴿ قوماً لُدّاً ﴾ يعني فِرَقاً(١). وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿ قوماً لُدّاً ﴾: فُجّاراً. وكذا رَوَى ليث بن أبي سليم، عن مجاهد. وقال ابن زيد: الألدُّ: الظلوم، وقرأ قول الله: ﴿ وهو ألَدُّ الخِصَام ﴾.

وقولُه: ﴿ وكَم أهلكنا قبلهم من قَرْنٍ ﴾، أي: من أُمَّةٍ كَفروا بآيات الله وكذبوا رسله، ﴿ هل تُحِسُّ منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزاً ﴾، هل تَرَى منهم أحداً، ﴿ أو تسمعُ لهم رِكْزاً ﴾، قال ابن عباس، وأبو العالية، وعكرمة، والحسن البصري، وسعيد بن جُبَير، والضحاك، وابن زيد: يعني: صوتاً. وقال الحسنُ، وقتادةُ: هل ترى عيناً، أو تسمَعُ صوتاً:

والرِّكزُ في أَصلِ اللغة هو: الصوتُ الخفيُّ، قال الشاعر(٢).

فَتَـوجَّسَتْ رِكْـزَ الأَنِيسِ فَـرَاعَهَـا … عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ، والأَنِيسُ سَقَـامُهَـا

آخر تفسير سورة مريم

---

(١) كذا في نسخة الحرم. وفي غيرها: قُرَيشاً.
(٢) لبيد، معلقته بشرح أبي بكر ابن الأنباري ٥٦٥.

تفسير

سُورَةُ طه

وهي مكية

وروى إمامُ الأئمةِ محمدُ بن إسحاق بن خُزَيْمَةَ في كتاب التوحيد، عن زيادِ بن أَيُّوبَ، عن إبراهيمَ بن المنذرِ الحِزاميِّ: حدثنا إبراهيم بن مهاجر بن مِسْمارٍ، عن عمر بن حفص بن ذَكْوانَ، عن مولى الحُرَقَة ـ يعني عبد الرحمن بنَ يعقوبَ ـ عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إن الله قَرَأَ طه ويسٓ قبلَ أن يخلُقَ آدَمَ بألف عام، فلما سَمِعَتِ الملائكةُ قالُوا: طُوبَى لأُمةٍ ينزل عليهم هذا، وطُوبَى لأجوافٍ تحمِلُ هذا. وطُوبَى لألسُنٍ تَكَلَّمُ بهذا»[1].

هذا حديثٌ غريبٌ، وفيه نَكَارَةٌ، وإبراهيم بن مُهَاجِرٍ وشيخُه تُكُلِّم فيهما.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾

تَقدَّم الكلامُ على الحروف المُقطَّعة في أول سُورَةِ البَقَرةِ بما أغنَى عن إعادَتِه.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا الحُسَين بن محمد بن شَنْبَةَ[2] الواسطي، حدثنا أبو أحمد ـ يعني الزُّبيريَّ ـ أنبأنا إسرائيل، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: طه: يا رجلُ. وهكذا رُوِي عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وعطاء، ومحمد بن كعب، وأبي مالك، وعطية العَوفي، والحسن، وقتادة، والضحاك، والسُّديِّ، وابن أَبْزى أنهم قالوا: طه: يا رَجُل.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/٥٤٨ عن الدارمي، وابن خزيمة في التوحيد، والعقيلي في الضعفاء، والطبراني في الأوسط، وابن عدي، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب.

(٢) في نسخة الحرم: شيبة. والمثبت عن تهذيب الكمال ٦/٤٧٩، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣/٦٥.

وفي رواية عن ابن عباس، وسعيد بن جُبَير، والثوري: أنها كلمة بالنَّبطِيَّة[١] معناها: يا رجلُ. وقال أبو صالح: هي مُعَرَّبة.

وأسند القاضي عياضٌ في كتابه «الشفاء» من طريق عَبْدِ بن حُمَيدٍ في تفسيره: حدثنا هاشمُ بنُ القاسِم، عن أبي جعفر، عن الربيع بن أنس قال: كان النبيُّ ـ ﷺ ـ إذا صَلَّى قام على رِجْل ورفعَ الأخرى، فأنزل الله تعالى: ﴿ طه ﴾، يعني طإِ الأرض يا محمد، ﴿ ما أنزلنا عليكَ القرآن لِتَشقَى ﴾. ثم قال: ولا خفاءَ بما في هذا من الإكرام وحسن المعاملة[٢].

وقولُه ﴿ ما أَنزلْنا عليكَ القُرآنَ لِتَشقَى ﴾، قال جُوَيبر، عن الضحاك: لما أنزل الله القرآن على رسوله، قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قُرَيش: ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى. فأنزلَ الله تعالى: ﴿طه * ما أنزلنا عَلَيكَ القرآنَ لتشقَى * إلا تذكِرةً لمن يخشَى﴾.

فليس الأمرُ كما زَعَمَه المُبطِلُونَ، بل مَن آتاه الله العِلْم فقد أراد به خيراً كثيراً، كما ثبت في الصحيحَينِ، عن مُعاوية قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «من يُرد الله به خيراً يُفَقِّهْهُ في الدين»[٣].

وما أحسن الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطَّبَرانِيُّ في ذلك حيثُ قال:

حدثنا أحمد بن زُهَير، حدثنا العلاء بن مَسْلَمة أبو سالم[٤]، حدثنا إبراهيم الطالَقَانِيُّ، حدثنا ابنُ المُبارَكِ، عن سُفْيَانَ، عن سِمَاكِ بن حَرْبٍ، عن ثعلَبة بن الحَكَم قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يقولُ الله تعالى للعُلَماءِ، يومَ القيامَةِ إذا قَعَد على كُرسِيِّه لِقَضاءِ عبادِهِ: إني لم أجعَلْ عِلْمِي وحِكْمَتي فيكم إلَّا وأنا أُرِيدُ أن أغفِرَ لكم، على ما كان منكم، ولا أُبَالي»[٥].

إسنادُه جَيِّد، وثعلَبةُ بن الحَكَم هذا هو اللَّيثيُّ، ذكره أبو عُمَرَ في استيعابه، وقال: نَزَل البصرة، ثم تَحوَّلَ إلى الكوفة، ورَوَى عنه سِمَاكُ بنُ حَرْبٍ[٦].

وقال مجاهدٌ في قَوله: ﴿ ما أنزلنا عليك القرآنَ لِتَشقىَ ﴾: هي كَقَوْلِهِ: ﴿ فاقرءُوا ما تَيَسَّر منه ﴾، وكانوا يُعَلِّقُون الحِبالَ بِصُدُورهم في الصلاة.

وقال قتادةُ: ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لِتَشْقى ﴾: لا، والله ما جَعَله شقاءً، ولكن جَعَله رحمةً ونُوراً، ودليلاً إلى الجنَّةِ.

﴿ إلا تَذْكِرةً لمن يخشَى ﴾: إن الله أنزل كتابه، وبعثَ رسوله رحمةً، رَحِمَ بها العبادَ، ليتذكَّر ذاكرٌ، وينتفع رجلٌ بما سَمِع من كتاب الله، وهو ذكرٌ أنزل الله فيه حلالَه وحرامه.

وقولُه: ﴿ تنزيلًا ممن خلق الأرضَ والسمواتِ العُلَى ﴾، أي: هذا القرآنُ الذي جاءك يا محمدُ تنزيلٌ من

---

(١) النبطيَّة: لهجة عربية قديمة كانت تكتب بالخط الآرامي. وقد عاش النبطيون في شمال الحجاز، وكانت عاصمتهم الكبرى فيه مدينة سَلْع، وموقعها الآن جنوبيَّ فلسطين، كما كانت قاعدتهم الصغرى في الجنوب هي الحِجْر، مدائن صالح الآية.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/٥٦.

(٣) فتح الباري، كتاب العلم ١/١٦٤، ومسلم، كتاب الزكاة ٢/٧١٨.

(٤) في النسخ: «العلاء بن سالم». وفي المعجم الكبير: «العلاء بن مسلمة». وهو: «العلاء بن مَسْلمة بن عثمان بن محمد بن إسحاق الرواس، أبو سالم البغدادي، مولى بني تميم». انظر مُصَوَّرة تهذيب الكمال ٢/١٠٧٤.

(٥) المعجم الكبير ٢/٨٤. وفي سنده سقط.

(٦) الاستيعاب ١/٢١٧.

ربِّ كلِّ شيءٍ ومَليكه، القادرُ على ما يَشاء، الذي خَلَق الأرضَ بانخفاضها وكَثافتِها، وخَلَق السمواتِ العُلَى في ارتفاعها ولطافتِها. وقد جاء في الحديثِ الذي صَحَّحه الترمِذِيُّ وغيرُه: إنَّ سُمْكَ كلِّ سَماءٍ مَسِيرةُ خَمْسمائةِ عَامٍ، وبُعدَ ما بينها بين والتي تليها مَسيرةُ خمسمائة عام[١].

وقد أوردَ ابنُ أبي حاتمٍ هاهنا حَديثَ الأَوْعَالِ[٢]، من رواية العباس عَمِّ رسول الله ـ ﷺ ـ ورَضِيَ عنه.

وقولُه: ﴿ الرحمنُ على العَرْشِ استَوَى ﴾: تَقدَّم الكلامُ على ذلك في سورة الأعراف، بما أغنى عن إعادته أيضاً، وأن المسلك الأسلم في ذلك طريقةُ السَّلَفِ، إمرارُ ما جاء في ذَلِكَ من الكتابِ والسنَّةِ من غير تَكْيِيفٍ ولا تَحْرِيفٍ، ولا تَشْبِيهٍ ولا تَعْطِيلٍ ولا تَمْثِيلٍ[٣].

وقولُه: ﴿ له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثَّرى ﴾، أي: الجميعُ ملكه وفي قَبْضَتِه، وتحت تَصْرِيفه ومشيئته وإرادته وحكمه، وهو خالقُ ذلك ومالكُه وإلَهُهُ، لا إله سِوَاه، ولا رَبَّ غيرُه.

وقولُه: ﴿ وما تحت الثَّرَى ﴾، قال مُحمَّد بن كعب: أي ما تحت الأرض السابعة.

وقال الأوزاعي: إن يحيى بن أبي كثير حَدَّثه أن كعباً سُئِلَ فَقِيلَ له: ما تحت هذه الأرض؟ قال: الماء. قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرضُ. قيل: وما تحتَ الأرض؟ قال: الماء. قِيل: وما تحت الماء؟ قال الأرضُ. قيل: وما تحت الأرض؟ قال: الماءُ. قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرضُ. قيل: وما تحت الأرض؟ قال: الماءُ. قيل: وما تحت الماء؟قال: الأرضُ. قيل: وما تحت الأرضُ؟ قال: صخرةٌ. قيل: وما تحتَ الصخرة؟ قال: مَلَكٌ. قيل: وما تحت المَلَكِ؟ قال: حُوتٌ مُعلَّق طرفاه بالعَرْشِ. قيل: وما تحت الحُوتِ؟ قال: الهواءُ والظلمةُ، وانقطع العلم.

وقال ابنُ أبي حاتمٍ: حدثنا أبو عُبَيدٍ[٤] الله ابنُ أخـي ابن وَهْبٍ، حدثنا عَمِّي، حدثنا عبدُ الله بن عَيَّاشٍ، حدثني عبد الله بن سليمان، عن دَرَّاج، عن عيسى بن هلال الصَّدَفِي، عن عبد الله بن عَمْرو قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إن الأَرضين بين كلِّ أرضٍ والتي تَلِيها مسيرةُ خمسمائة عام، والعُليا منها على ظَهْرِ حُوتٍ، قد التقى طرفاه في السماء، والحوتُ على صَخْرةٍ، والصَّخْرَةُ بيَدِ المَلَك، والثانية سجنُ الرِّيحِ، والثالثة فيها حجارةُ جَهَنَّمَ، والرابعةُ فيها كِبْريتُ جهَنَّم، والخامسةُ فيها حَيَّاتُ جَهَنَّم، والسادسة فيها عقارب جَهَنَّم، والسابعة فيها سقَرَ، وفيها إبليس مُصَفَّدٌ بالحديد، يَدٌ أمامَه ويَدٌ خَلْفَه، فإذا أراد الله أن يُطلِقَه لما يشاء أَطْلَقَه». هذا حديثٌ غريب جداً، ورفعُه فيه نظر.

وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا أبو موسى الهَرَوِيّ، عن العباس بن الفضل قال، قلت: ابن الفضل الأنصاري؟ قال: نعم ـ عن القاسم بن عبد الرحمن، عن محمد بن علي، عن جابر بن عبد الله قال: كنتُ مع رسول الله ـ ﷺ ـ في غزوة تَبُوكَ، فأقبلنا راجعين في حَرٍّ شديدٍ، فنحنِ متفرِّقون بينَ واحد واثنين، مُنتشِرينَ، قال: وكنتُ في أَوَّلِ العسكر إذْ عارضَنَا رجلٌ فَسلَّم، ثم قال: أَيُّكم مُحمَّد؟ ومَضى أصحابي وَوَقَفْتُ معه، فإذا رسولُ الله ـ ﷺ ـ قد أقبلَ في وَسَط العَسْكر على جَمَلٍ أحمَرَ، مُقَنَّع بثوبه على رأسِه من الشَّمس، فقلت: أَيُّها السائلُ، هذا رسولُ الله قد أتاك. فقال: أيُّهم هو؟ فقلتُ: صاحب البَكْرِ الأحمَرِ. فدنا منه،

(١) عارضة الأحوذي، تفسير سورة الحديد ١١/١٨٢ ـ ١٨٤.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السنة ٤/٢٣١، وابن ماجه في المقدمة ١/٦٩، والإمام أحمد ١/٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٣) انظر تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف.

(٤) هو أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، مترجم في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢/٥٩ ـ ٦٠، وتهذيب الكمال ١/٣٨٧.

فأخذ بخطَام راحلته، فكفَّ عليه رسولَ الله، فقال: أنتَ محمَّدٌ؟ قال: نعم. قال: إني أريد أن أسألك عن خِصَالٍ لا يعلَمُهنَّ أحدٌ من أهلِ الأرض إلا رَجُلٌ أو رجلان. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: سَلْ عَمَّا شِئْتَ. فقال: يا محمَّدُ، أينام النبيُّ؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: تنام عيناه ولا ينامُ قلبُه. قال: صَدَقْتَ. ثم قال: يا محمَّدُ، مِنْ أين يُشبه الوَلَدُ أباه وأُمَّه؟ قال: ماءُ الرجل أبيضُ غَلِيظٌ، وماء المرأة أصفر رقيق، فأيُّ الماءين غَلَب على الآخر نَزَع الوَلَدَ. فقال: صَدَقْتَ. فقال: ما للرَّجُلِ من الولد وما للمرأة منه؟ فقال: للرجُل العِظَامُ والعرُوق والعصب، وللمرأة اللحم والدم والكبد[١]. قال: صَدَقْتَ. ثم قال: يا محمَّدُ، ما تحت هذه؟ يعني الأرض. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: خَلْقٌ. فقال: فما تحتهم؟ قال: أرضٌ. قال: فما تحتَ الأَرْض؟ قال: الماءُ. قال: فما تحتَ الماءِ؟ قال: ظُلْمَةٌ. قال: فما تحت الظُّلْمَةِ؟ قال: الهَوَاءُ. قال: فما تحتَ الهَوَاءِ؟ قال: الثَّرى. قال: فما تحتَ الثَّرَى؟ ففاضت عَيْنَا رسول الله ـ ﷺ ـ بالبكاء، وقال: انقطع عِلْمُ المخلوقين عند عِلْمِ الخالق أيها السائلُ، ما المسئول عنها بأعلَمَ من السائل. قال: فقال: صَدَقْتَ، أشهد أنَّك رسول الله. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: أيها الناسُ، هل تدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسولُه أعلَمُ. قال: هذا جبريلُ ﷺ.

هذا حديث غريب جداً، وسياق عجيبٌ تَفَرَّد به القاسم بن عبد الرحمن هذا، وقد قال فيه يحيى بن مَعِين: «ليس يُسَاوِي شيئاً»، وضَعَّفه أبو حاتم الرازي، وقد قال ابنُ عَدِيٍّ: لا يُعرَفُ.

قلت: وقد خَلَّطَ في هذا الحديث، ودَخَلَ عليه شيءٌ، في شيءٍ، وحديثٌ في حديثٍ. وقد يَحتَمِلُ أنه تَعَمَّد ذلك، أو أُدخِلَ عليه فيه، فالله أعلم[٢].

وقولُه: ﴿ وإن تَجهَرْ بالقولِ فإنَّه يعلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى ﴾، أي: أنزل هذا القرآنَ الذي خَلَق الأرض والسموات العُلَى الذي يعلم السِّرَّ وأخفَى، كما قال تعالى: ﴿ قل أنزله الذي يعلم السرَّ في السمواتِ والأَرْضِ إنه كان غفوراً رحيماً ﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ يعلم السرَّ وأخفَى ﴾، قال: السرُّ ما أسرَّ ابنُ آدمَ في نفسه، ﴿ وأخفى ﴾: ما أُخفِيَ على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه، فالله يعلم ذلك كلَّه، فَعِلْمُه فيما مَضَى من ذلك وما بَقِيَ عِلْمٌ واحد، وجميعُ الخلائق في ذلك عندَه كنفسٍ واحدةٍ، وهو قولُه: ﴿ ما خَلْقُكُم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾.

وقال الضحاك: ﴿ يعلم السرَّ وأخفَى ﴾، قال: السرُّ ما تُحدِّث به نفسك، وأخفى ما لم تُحدِّث به نفسك بعد.

وقال سعيد بن جُبَير: أنت تعلَمُ ما تُسِرُّ اليوم، ولا تعلم ما تُسِرُّ غداً، والله يعلم ما تُسِرُّ اليوم، وما تُسِرُّ غداً.

وقال مجاهد: ﴿ وأخفى ﴾، يعني الوَسْوَسَةَ. وقال أيضاً هو وسعيد بن جُبَير: ﴿ وأخفى ﴾، أي: ما هو عاملُه مما لم يُحدِّث به نفسه.

وقولُه: ﴿ الله لا إِلَهَ إلا هُوَ له الأسماءُ الحُسنَى ﴾، أي: الذي أنزل عليك القرآنَ هو الله الذي لا إِلَهَ إلا هُوَ ذُو الأسماء الحسنى والصفات العُلَى.

---

(١) في نسخة: والدم والشعر.

(٢) بعده في نسخة الحرم: «وفي هذا الحديث. . . . . العباس بن الفضل».

وقد تقدَّم بيانُ الأحاديثِ الواردةِ في الأسماءِ الحُسنَى في أواخرِ سُورَةِ الأعراف[١]، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾

من هاهنا شَرَع تبارك وتعالى في ذِكْرِ قِصَّةِ مُوسَى، وكيف كان ابتداءُ الوَحْيِ إليه وتكليمُه إياه، وذلك بعد ما قَضَى موسى الأَجَل الذي كان بينه وبين صِهْرِه في رعاية الغَنَم وسار بأهله، قِيل: قاصداً بلاد مصر، بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأَضلَّ الطريق، وكانت ليلةً شاتيةً، ونَزَل مَنْزِلا بين شِعَابٍ وجِبَالٍ، في برد وشِتَاءٍ، وسحاب وظلام وضَبابٍ، وجعل يَقْدح بزَنْدٍ معه ليُورِيَ ناراً، كما جرت له العادَةُ به، فجعل لا يقدَح شيئاً، ولا يخرج منه شَرَرٌ ولا شيءٌ. فبينا هو كذلك، إذ آنَسَ مِن جانبِ الطور ناراً، أي: ظهرت له نار من جانب الجَبَلِ الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يُبَشِّرُهم: ﴿ إِنِّي آنستُ ناراً لعلي آتيكُم منها بقَبَسٍ ﴾، أي: شهابٍ مِن نارٍ. وفي الآية الأخرى: ﴿ أو جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ ﴾، وهي الجَمْرُ الذي معه لَهَبٌ، ﴿ لعلكم تَصْطَلُون ﴾، دلَّ على وُجُودِ البَرْدِ، وقَولُه: ﴿ بِقَبَس ﴾ دلَّ على وجود الظلام.

وقوله: ﴿ أو أَجِدُ على النار هُدىً ﴾، أي: من يَهْدِيني الطريقَ، دلَّ على أنه قد تاه عن الطريق. كما قال الثوريُّ، عن أبي سعيد الأعور، عن عكرمة، عن ابن عَبَّاسٍ في قوله: ﴿ أو أجد على النار هدى ﴾، قال: من يَهْدِيني إلى الطريق. وكانوا شاتِينَ وضَلُّوا الطريقَ[٢]. فلما رأى النار قال: إن لم أَجِدْ أحداً يهديني أتيتُكم بنار تُوقِدُون بها.

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ فلما أتاها ﴾، أي: النارَ واقتربَ منها، ﴿ نودي يا موسى ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿ نُودي من شاطىء الوادي الأيمنِ في البقعة المباركة من الشجرة أن يا مُوسَى إني أنا الله ﴾، وقال هاهنا: ﴿إِنِّي أنا ربُّكَ ﴾، أي: الذي يُكَلِّمكَ ويُخاطِبُك، ﴿ فاخْلَعْ نعلَيْكَ ﴾.

قال علي بن أبي طالب، وأبو ذَرٍّ، وأبو أيُّوبَ، وغيرُ واحد من السلف: كانتا من جلد حمار غير ذَكِيٍّ. وقيل: إنما أمره بخَلْعِ نعلَيه تعظيماً للبُقْعَةِ. قال سعيد بنُ جُبَيرٍ: كما يُؤمَرُ الرجلُ أن يخلَعَ نعلَيه إذا أراد دخول الكعبة. وقيل: لِيَطأَ الأرضَ المقدَّسَة بقَدَميهِ حافياً غير مُنتَعِلٍ. وقيل غيرُ ذلك، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ طُوًى ﴾، قال علي بن أبي طلحَةَ، عن ابن عباس: هو اسمٌ للوادي. وكذا قال غيرُ واحد، فعلى هذا يكون عطفَ بيانٍ.

وقيل: عبارةٌ عن الأَمْر بالوَطْءِ بقدميه[٣].

(١) انظر تفسير الآية ١٨٠ من سورة الأعراف.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، الدر المنثور ٥/٥٥١.

(٣) أخرجه الطبري عن ابن عباس، انظر تفسير الطبري ١٦/١٤٦. والدرّ المنثور ٥/٥٦٠.

وقيل: لأنه قُدِّس مرّتين، وطُوِي له البركة وكُرِّرت. والأول أصح، كقوله: ﴿إذ ناداه ربه بالوادِ المقدس طُوًى﴾.

وقولُه: ﴿ وأنا اخترتُك ﴾، كقوله: ﴿إني اصطفيتُك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾، أي: على جميع الناس مِنَ الموجودين في زَمانِه.

وقد قيل: إن الله تعالى قال: يا موسى، أتدري لم خصصتُكَ بالتكليم من بين الناس؟ قال: لا. قال: لأني لم يتواضَعْ لي أحدٌ تواضُعَكَ.

وقولُه: ﴿ فاستَمعْ لما يُوحَى ﴾، أي: اسمع الآن ما أقولُ لَكَ وأُوحِيه إليك، ﴿ إنَّني أنا الله لا إلهَ إلاَّ أنا ﴾: هذا أول واجبٍ على المكلَّفين أن يعلَمُوا أنَّه لا إلَهَ إلاَّ الله، وحدَه لا شريكَ له.

وقولُه: ﴿ فاعبُدْنِي ﴾، أي: وحِّدني وَقُم بعبادَتِي من غير شريكٍ، ﴿ وأقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ﴾، قيل: معناه صَلِّ لِتذكُرَني. وقيل: معناه وأقم الصلاة عند ذكرك لي. ويشهدُ لهذا الثاني ما قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِيّ، حدثنا المثنى بن سعيد، عن قتادَةَ، عن أَنَس، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: إذا رَقَد أحدكم عن الصلاة، أو غَفَل عنها، فَلْيُصَلِّها إذا ذَكَرها، فإن الله تعالى قال: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾(١).

وفي الصَّحِيحَين عن أنسٍ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من نَام عن صَلاةٍ أو نَسِيهَا فَكَفَّارتها أن يُصَلِّيها إذا ذكرها، لا كَفَّارة لها إلا ذلكَ»(٢).

وقولُه: ﴿ إنَّ الساعَةَ آتِيَةٌ ﴾، أي: قائمةٌ لا محالَةَ، وكائنةٌ لابدَّ منها.

وقولُه: ﴿ أكاد أُخفِيها ﴾، قال الضَّحاك، عن ابن عباس: أنه كان يقرؤُها: «أكاد أُخفِيهَا من نَفْسِي»، يقول: لأنها لا تخفَى من نَفْسِ الله أبداً(٣).

وقال سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: من نفسه. وكذا قال مجاهد، وأبو صالح، ويحيى بن رافع.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ أكاد أخفيها ﴾، يقول: لا أُطْلِعُ عليها أحداً غيري.

وقال السُّديّ: ليس أحدٌ من أهل السمواتِ والأرضِ إلا قد أَخْفَى الله عنه عِلْمَ السَّاعةِ، وهي في قراءة ابن مسعود. «إني أكاد(٤) أُخفِيها من نفسي»، يقول: كتمتها من الخلائق، حتى لو استطعتُ أن أكْتُمَها من نَفْسِي لفعلتُ.

وقال قتادةُ ﴿ أكاد أُخْفِيها ﴾، وهي بعض القراءة «أُخْفِيها من نفسي»، ولعمري لقد أخفاها الله من الملائِكَةِ المُقَرَّبين، ومن الأنبياء والمرسلين.

قلت: وهذا كقوله: ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾، وقال ﴿ ثَقُلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ﴾، أي: ثقل علمُها على أهل السموات والأرض.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعَةَ، حدثنا منجاب، حدثنا أبو تُمَيلَة، حدثني محمد بن سَهل الأسديُّ،

(١) مسند أحمد ١٨٤/٣.
(٢) فتح الباري، كتاب مواقيت الصلاة ٧٠/٢، ومسلم، كتاب المساجد ٤٧٧/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، وابن الأنباري. انظر الدر المنثور ٥٦٣/٥.
(٤) كذا. وفي الدر: «أكاد...»، دون ذكر «إني».

عن وِقاءٍ قال: أقرأنيها سعيد بن جُبيرٍ ﴿ أكاد أَخْفِيها ﴾ ـ يعني بنَصْبِ الألف وخَفْضِ الفاء ـ يقول: **أُظْهِرها**، ثم قال: أما سَمِعتِ قول الشاعر[1]:

دَأْبَ شَهْرَين، ثم شَهْراً دَمِيكاً بـأَريكَيـن يَخْفِيـانِ غَمِيـرَا

وقال الأسدي: الغَمِير: نبتٌ رَطْبٌ، يَنبُتُ في خِلالِ يَبَسٍ. **والأَرِيكَيْن: مَوْضِعٌ، والدَّمِيك: الشهر** التام. وهذا الشعر لِكَعب بنِ زُهير.

وقولُه سبحانه وتعالى: ﴿ لتُجْزَى كلُّ نفسٍ بما تَسْعَى ﴾، أي: **أُقيمها لا محالَةَ لأَجزيَ كُلَّ عاملٍ** بعَمَلِه، ﴿ فَمَن يَعمَلْ مثقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهْ * ومَن يَعْمَلْ مثقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهْ ﴾، و﴿ **إنما تُجْزَون ما كنتم** تعملون ﴾.

وقولُه: ﴿ فلا يَصُدَّنك عنها مَن لا يُؤمن بها واتَّبعَ هَواه فَتَرْدَى ﴾، **المرادُ بهذا الخِطاب آحادُ المُكَلَّفين**، أي: لا تتبعوا سَبيلَ مَنْ كذب بالساعة، وأقبل على ملاذِّه في دنياه، وعَصَى مولاه، **واتَّبَعَ هواه، فمن وافقهم على** ذلك فقد خابَ وخَسِر، ﴿ فتردَى ﴾، أي: تَهْلِكَ وتَعْطَبَ، قال الله تعالى: ﴿**وما يُغني عنه مالُه إذا تردَّى**﴾.

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

هذا برهانٌ من الله تعالى لموسى ـ عليه السلام ـ ومعجزةٌ عظيمةٌ، وخرقٌ للعادة، **دالٌّ على أنَّه لا يقدر** على مثل هذا إلا الله ـ عز وجل ـ وأنه لا يأتي به إلا نبيٌّ مُرسل. فقولُه: ﴿ وما تلكَ بِيَمِينِكَ يا موسى ﴾، قال بعضُ المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له. وقيل: إنما قال له ذلك علي **وَجْهِ التقرير، أي: أما** هذه التي في يَمينك عَصَاكَ التي تَعرِفُها فَسترى ما نصنع بها الآن. ﴿ **وما تلك بِيمينكَ يا موسى** ﴾، استفهام تقرير، ﴿ قال هي عصاي أتوكَّؤ عليها ﴾، أي: أعتمد عليها في حال المشي ﴿ **وأهُشُّ بها على غَنَمِي** ﴾، أي: أَهُزُّ بها الشجرةَ لِيسقُطَ ورقُها، لترعاه غنمي.

قال عبدُ الرحمن بن القاسم، عن الإمام مالك: والهَشُّ: أن يضعَ الرجلُ المِحْجَنَ في الغُصْنِ، ثم يُحرِّكه حتى يسقطَ ورقه وثَمَرُه، ولا يكسِرَ العودَ، فهذا الهش، ولا يَخْبِطَ. وكذا قال مَيمون بن مِهْرانَ أيضاً[2].

---

(١) هو كعب بن زهير، كما سيأتي. والبيت في ديوانه ١٧٤، وفيه يروي:

دَأْبَ شهرين ثم نصفاً دميكا بأريكين يكدمان غَمِيرا

والرواية المثبتة في تفسير الطبري ١٤٩/١٦، والدرّ عن ابن أبي حاتم وابن الأنباري ٥٦٣/٥.

ويبدو أن ابن الأنباري قد استشهد ببيت آخر على قراءة سعيد بن جُبَير، وذلك في الرواية المثبتة في معاني الفراء ١٧٦/٢ ـ ١٧٧، والبيت لامرىء القيس بن عابس الكندي، وهو:

فإن تدفنوا الداء لا نَخْفِه وإن تبعثوا الحرب لا نَقْعُدِ

يريد: لا نُظهِرْه. وانظر تفسير القرطبي ١٨٢/١١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم. انظر الدرّ المنثور ٥٦٤/٥.

والمِحْجَنُ: عصا معقوفة الرأس.

وقولُه: ﴿وَلِيَ فيها مآربُ أخرى﴾، أي: مصالحُ ومنافعُ وحاجاتٌ أُخَرُ غير ذلك.

وقد تَكَلَّف بعضُهم لِذِكْرِ شيءٍ من تلك المآرب التي أُبهِمَتْ، فقيل: كانت تُضِيء له بالليل، وتحرُس له الغَنَم إذا نام، ويَغرِسُها فتصير شجرة تُظِلُّه، وغير ذلك من الأمور الخارقةِ للعادةِ.

والظاهرُ أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى صيرورتها ثُعباناً، فما كان يفرُّ منها هارباً، ولكن كلُّ ذلك من الأخبار الإسرائيلية. وكذا قولُ بعضهم: إنها كانت لآدمَ عليه السلام. وقولُ الآخَر: إنها هي الدابة التي تخرج قبل يوم القيامةِ. ورُوِي عن ابن عباس أنه قال: كان اسمُها ماشا. والله أعلمُ بالصَّوابِ.

وقوله تعالى: ﴿قال أَلْقِها يا مُوسى﴾، أي: هذه العصا التي في يدك يا مُوسى، ألقها. ﴿فألقاها فإذا هي حَيَّةٌ تسعَى﴾، أي: صارت في الحال حَيَّةً عَظِيمةً، ثُعباناً طَوِيلاً، يَتحرَّك بحركةٍ سَرِيعة، فإذا هي تهتزُّ كأنها جانٌ، وهو أسرعُ الحيات حركة، ولكنه صغير، فهذه في غاية الكِبَرِ، وفي غاية سرعةَ الحركة، ﴿تسعَى﴾، أي: تمشي وتضطرب.

قال ابنُ أبي حاتمٍ: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عَبْدَة، حدثنا حَفْصُ بن جُمَيع، حدثنا سِمَاك، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس ﴿فألقاها فإذا هِيَ حَيَّةٌ تسعَى﴾: ولم تكن قبلَ ذلك حَيَّةً، فَمرَّت بشجرةٍ فأكلَتها، ومَرَّتْ بصخرة فابتعلتها، فجعل موسى يَسْمَع وَقْعَ الصَّخرة فِي جوفها، فَولَّى مُدبراً، فَنُودِيَ أن: يا مُوسَى، خُذْها. فلم يأخُذْها، ثم نُودِي الثانيَة: أن خُذْها ولا تَخَف. فَقِيل له في الثالثةِ: إنَّكَ من الآمِنِينَ. فأخذَها[1].

وقال وهبُ بن مُنَبِّهٍ في قوله: ﴿فألقاها فإذا هي حية تسعى﴾، قال: فألقاها على وجه الأَرْضِ، ثم حانت منه نظرةٌ فإذا بأعظمُ ثعبان نَظَر إليه الناظرون، يَدِبُّ يلتمسُ كأنه يبتغي شيئاً يُرِيدُ أَخْذَه، يمر بالصَّخرة مثل الخَلِفَةِ[2] من الإبل فيلتقمها، ويطعنُ بالنَّاب من أنيابه في أصلِ الشجرة العَظِيمة فَيَجتثُّها، عيناه تُوقدان ناراً، وقد عاد المِحْجَنُ منها عُرفاً، قيل: شعرُه مثل النَّيازِك[3]، وعاد الشُّعبَتَان منها مثل القَلِيب[4] الواسع، فيه أضراسٌ وأنيابٌ، لها صَرِيف. فلما عاين ذلك موسى وَلَّى مدبراً ولم يُعقِّب، فَذَهب حتى أمعَنَ، ورأى أنه قد أعجزَ الحية، ثم ذكر ربه فوقف استحياءً منه، ثم نُودِي: يا موسى، أنْ ارجعْ حيثُ كُنتَ. فرجَعَ موسى وهو شديدُ الخوف، فقال: ﴿خُذْهَا﴾ بيمينك ﴿ولا تَخَف سَنُعِيدُهَا سيرَتَها الأُولَى﴾، وعلى مُوسَى حينئذٍ مِدْرَعَةٌ[5] من صُوفٍ، قَد خَلَّها بخلالٍ[6] من عِيدانٍ، فلما أمره بأخذها أدْلَى طرف المِدْرعة على يَدِه، فقال مَلَكٌ: أرأيتَ يا مُوسى، لو أَذِنَ الله بما تُحاذِر أكانت المدرعة تُغنِي عَنْكَ شيئاً؟ قال: لا. ولكنِّي ضَعِيفٌ، ومن ضَعْفٍ خُلِقتُ. فكشَفَ عن يَدِه ثم وَضعها على فَمِ الحَيَّة، حتى سَمِع حِسَّ الأضراس والأنياب، ثم قَبض فإذا هي عَصاه التي عَهِدها، وإذا يَدُه في موضعها الذي كان يضعها إذا توكأ بين الشُّعْبَتَينِ. ولهذا قال تعالى: ﴿سَنُعِيدها سيرتها الأَولى﴾، أي: إلى حَالِها التي تُعرَفُ قبل ذلك.

---

(١) الدر المنثور ٥/٥٦٥.

(٢) الخَلِفَةُ: الناقة الحامل.

(٣) النَّيْزَك: الرمح القصير، وهي مُعَرَّبة.

(٤) القليب: البئر، يذكر ويؤنث.

(٥) المدرعة: ضَـرْبٌ من الثياب ولا تكون إلا من الصوف خاصَّةً.

(٦) أي: جمع بين طرفيها. يقال: خلَّ الشيءَ يخلّه خلاً: ثقبه ونفذه. والخِلَال: ما خُلَّ به الثوب، أي: ثُقِب. وفي حديث أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ أنه كان له كساءٌ فَدَكيٌّ، فإذا رَكِبَ خَلَّه عليه، أي: جَمَع بين طَرَفيه ـ بِخِلالٍ من عُودٍ أو حديد. النهاية، ماء خلّ.

﴿ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى (٢٣) ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ
فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي (٢٥) وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي (٢٦) وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي (٢٨) وَٱجۡعَل لِّي
وَزِيرًا مِّنۡ أَهۡلِي (٢٩) هَٰرُونَ أَخِي (٣٠) ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي (٣١) وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي (٣٢) كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ
بِنَا بَصِيرًا (٣٥) ﴾

وهذا بُرهان ثانٍ لموسى عليه السلام، وهو أنَّ الله أمرَهَ أن يُدخِلَ يدَه في جيبه، كَما صَرَّح به في الآية الأخرى، وهاهنا عَبَّر عن ذلك بقوله: ﴿ واضمُمْ يدكَ إلى جَنَاحِك ﴾، وقال في مكان آخر: ﴿ واضمم إليك جناحك من الرَّهْبِ فذانك بُرهانان من رَبِّك إلى فِرْعونَ ومَلَئِهِ ﴾.

وقال مجاهد: ﴿ واضممُ يَدَكَ إلى جناحِكَ ﴾: كَفَّه تحتَ عَضُدِه.

وذلك أن موسى ـ عليه السلام ـ كان إذا أدخلَ يده في جَيْبِه ثم أخرجها، تخرج تتلألأ كأنها فِلْقَةُ قمر.

وقولُه: ﴿ تخرجُ بيضاءَ من غير سُوءٍ ﴾، أي: من غير بَرَصٍ ولا أذىً، ومن غير شَينٍ. قاله ابنُ عباسٍ، ومجاهِدٌ، وعكرمةُ، وقتادةُ، والضَّحاكُ، والسدِّيُّ، وغيرُهم.

وقال الحسن البصريّ: أخرجَهَا ـ واللهِ ـ كأنها مصباحٌ، فعلم موسى أنه قد لَقِيَ ربَّه عز وجل، ولهذا قال تعالى: ﴿ لِنُرِيَكَ من آياتنا الكُبْرَى ﴾[(١)].

وقال وهبٌ: قال له ربُّه: ادْنُهْ. فلم يَزَلْ يُدنيه حتى شَدَّ ظهره بِجِذْعِ الشجرة، فاستقر وذهبت عنه الرِّعدَةُ، وجَمَع يدَه في العَصَا، وخَضَع برأسِه وعُنُقِه.

وقولُه: ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾، أي: اذهب إلى فرعون ملك مصر، الذي خَرَجت فارّاً منه وهارباً، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فَلْيُحْسِن إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبَغَى، وآثر الحياة الدنيا، ونسي الرب الأعلى.

وقال وهبُ مُنبِّه: قال الله لموسى: انطلِقْ برسالتي فإنَّك بعيني وسَمْعِي، وَإِنَّ معك أَيْدِي ونَصْري، وإني قد ألبستُكَ جُنَّةً من سلطاني لتستكمِلَ بها القُوَّةَ في أمري، فأنتَ جندٌ عظيمٌ من جُندي، بعثتُك إلى خَلْقٍ ضعيفٍ من خَلْقِي، بَطِرَ نِعْمَتي، وأَمِنَ مَكْرِي، وغَرَّته الدنيا عَنّي، حتى جَحَدَ حَقِّي، وأنكر رُبُوبِيَّتِي، وزَعَم أنه لا يَعرفني؛ فإني أُقسم بعزَّتي لولا القَدَرُ الذي وضعتُ بيني وبين خلقي لبطشتُ به بَطشَةَ جَبَّارٍ، يَغْضَبُ لغضبه السمواتُ والأرضُ، والجبالُ والبحارُ، فَإِنْ أمرتُ السماءَ حَصَبَتْهُ، وإِنْ أمرتُ الأرضَ ابتلعَتْهُ، وإن أمرتُ الجبالَ دَمَّرته، وإن أمرتُ البِحَارَ غَرَّقته، ولكنَّه هانَ عليَّ، وسقَط من عَيْني، ووسِعَهُ حِلْمِي، واستغنيتُ بما عندي. وحَقٌّ إني أنا الغنيُّ لا غنيَّ غيري. فَبَلِّغه رسالتي، وادعُه إلى عبادتي وتوحيدي وإخلاصي، وذَكِّره أيامي، وحَذِّره نِقْمَتي وبَأْسِي، وأخْبِرْه أنه لا يقومُ شيءٌ لِغَضَبِي، وقُلْ له فيما بين ذلك قولاً ليناً لعلَّه يتذكَّر أو يخشَى، وخَبِّره أني إلى العَفْوِ والمغفرة أسرَعُ منِّي إلى الغَضَبِ والعقوبة ولا يُرَوِّعنَّك ما ألبسته من لباسِ الدُّنيا، فإنَّ ناصيته بيدي، ليس يَنْطِقَ ولا يَطْرِف ولا يَتَنفَّسُ إلا بإذني. وقل له: أجب ربَّك فإنه واسع المغفرة، وقد أمهلك أربعمائة سنة، في كلها أنت مبارِزُه بالمحاربة، تَسُبُّه وتتمثَّل به، وتصدُّ عباده عن سبيله، وهو يُمطِرُ عليك السَّماءَ، ويُنبِتُ لك

(١) أخرجه ابن أبي حاتم. انظر الدرّ المنثور ٥/٥٦٥.

الأرض، لم تَسْقَم ولـم تَهرَمْ ولـم تَفتقِرْ ولـم تُغلَبْ، ولو شاء أن يُعَجِّل لك العقوبَة لَفعَل، ولكنه ذو أناةٍ وحِلْمٍ عظيم. وجاهِدْه بنفسك وأخيك، وأنتما تحتَسِبان[١] بجهاده. فإني لو شئتُ أن آتيه بجنود لا قِبلَ له بها لَفعَلت، ولكن ليعلَم هذا العبدُ الذي قد أعْجَبَتْهُ نفسه وجموعُه أنَّ الفئة القليلة ـ ولا قليلَ مني ـ تغلِبُ الفئةَ الكثيرةَ بإِذْني. ولا تُعجِبنَّكُما زينتُه، ولا ما مُتِّع به، ولا تَمُدَّا إلى ذلك أعيُنَكما، فإنها زَهْرَةُ الحياةِ الدنيا، وزينةُ المُترَفين. ولو شئت أن أُزَيِّنَكما من الدنيا بزينةٍ لِيعلَمَ فِرْعَونُ حينَ ينظُرُ إليها أن مَقْدِرَته تَعجَزُ عن مثل ما أوتيتما، فعلتُ. ولكن أرغَبُ بكما عن ذلك وأَزْوِيه[٢] عنكما. وكذلك أفعل بأوليائي. وقديماً ما جرت عادتي في ذلك، فإني لأذودُهم عن نعيمها ورَخائها، كما يَذودُ الراعي إبلَه عن مَبارِكِ المعرَّةِ. وما ذاك لهوانهم عليَّ، ولكن ليستكملوا نصيبَهم من كَرامتي سالماً موفراً لم تَكْلَمْه[٣] الدنيا.

واعلم أنه لم يتزيَّن لي العباد بزينةٍ هي أبلغ فيما عندي من الزُّهْدِ في الدنيا، فإنها زينةُ المتَّقينَ، عليهم منها لباسٌ يُعْرَفُون به من السكينة والخُشُوع، سِيماهُم في وُجُوهِهم من أثَر السُّجود، أُولئكَ أوليائِي حَقَّاً حقَّاً، فإذا لَقِيتَهُم فاخفِض لهم جناحَك، وذَلِّل قلبكَ ولسانَك، واعلم أنه من أهانَ لِي وليّاً أو أخافَ فقد بارَزَني بالمُحارَبَةِ، وبادأني وعَرَّض لي نفسه ودَعاني إليها، وأنا أسرعُ شيءٍ إلى نُصرةِ أوليائي، أفيظنُّ الذي يحاربني أن يقُوم لي، أم يَظُنُّ الذي يُعادِيني أن يُعجِزَني، أم يظن الذي يُبارِزُني أن يسبقني أو يَفوتني. وكيف وأنا الثائر لهم في الدنيا والآخرة، لا أَكِلُ نُصْرَتَهُم إلى غيري، رَواه ابنُ أبي حاتم.

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾، هذا سُؤال من موسى ـ عليه السلام ـ لربِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يشرَحَ له صدرَه فيما بعثَه به، فإنَّه قد أمره بأمر عظيم، وخَطْب جسيم، بعثه إلى أعظَم ملك على وجه الأرض إذْ ذاكَ وأَجْبَرِهم وأشدِّهم كفراً، وأكثرهم جنوداً، وأعمرهم مُلكاً، وأطغاهم وأبلَغِهم تَمرُّداً، بَلَغ من أمره أن ادَّعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلَم لرعاياه إلَهاً غيره.

هذا وقد مكث موسى في داره مُدَّةً وليداً عندهم، في حِجْرِ فِرْعَون على فراشه، ثم قَتَل منهم نفساً فَخافَهُم أن يقتلوه، فهَرَب منهم هذه المدَّة بكمالها. ثُمَّ بعدَ هذا بَعثَه ربُّهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ إليهم نَذيراً يدعُوهم إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يعبدُوه وحدَه لا شريكَ له. ولهذا قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾، أي: إن لم تكن أنت عَوْني ونَصِيري، وعَضُدِي وظَهيري، وَإِلاَّ فلَا طاقَةَ لي بِذَلِكَ.

﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾، وذلك لِمَا كان أصابه من اللَّثْغ، حين عَرَض عليه الثمرة والجَمْرَة، فأخذ الجَمْرَة فوضَعَها على لسانه، كما سيأتي بيانه. وما سأل أن يَزُولَ ذلك بالكلِّيَة، بل بحيث ما يزولُ العِيُّ ويحصُلُ لهم فَهْمُ ما يُريدُ منه وهو قَدْرُ الحاجَةِ. ولو سَأَل الجميعَ لزالَ، ولكنَّ الأنبياءَ لا يسألونَ إلا بِحَسَب الحاجَةِ، ولهذا بَقِيَتْ بقيَّةٌ. قال الله تعالى إخباراً عن فِرْعَونَ أنه قال: ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾، أي: يفصح بالكلام.

وقال الحسنُ البَصريُّ: ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴾، قال: حَلَّ عُقدةً واحدةً، ولو سَأَل أكثر من ذلك أُعطِيَ.

---

(١) يقال: احتسب بكذا أجراً عند الله: فعله مُدَّخراً أجره عند الله.
(٢) أي: أطويه.
(٣) أي: لم تنقص منه الدنيا شيئاً.

وقال ابنُ عباس: شَكَا موسَى إلى ربِّه ما يتخوَّف من آل فِرْعَون في القتيل، وعقدةَ لسانه، فإنه كان في لِسَانه عُقْدَةٌ تمنعه من كَثِير من الكَلَام، وسأَلَ ربَّه أن يُعِينَهُ بأخِيه هارونَ يكُونَ له رِدْءاً ويتكلَّم عنه بكثيرٍ مما لا يُفصِحُ لسانه، فآتاه سُؤلَه، فَحلَّ عقدَةً من لِسانه.

وقال ابن أبي حاتم: ذُكِرَ عن عَمْرو بن عثمانَ، حدَّثنا بقيَّةُ، عن أرطاةَ بن المنذرِ، حَدَّثني بعضُ أصحاب محمد بنِ كعب، عنه قال: أتاه ذُو قرابة لـه فقال له: ما بك بأسٌ لولا أنك تلحَنُ في كلامك، ولستَ تُعرب في قراءتك؟ فقال القُرَظي: يا ابن أخي، ألستُ أُفهِمُكَ إذا حدَّثتك؟ قال: نعم. قال: فإن موسى عليه السلام إنما سأل رَبه أن يحل عُقدَةً من لسانهِ كي يفقَهَ بَنُو إسرائيل كلامَه، ولم يَزِد عليها. هذا لفظُهُ.

وقولُه: ﴿واجعَل لي وزيراً من أهلي * هرونَ أَخِي﴾، وهذا أيضاً سُؤال من موسى في أمْرٍ خارجيٍّ عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له.

قال الثوريُّ، عن أبي سعيدٍ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس أنه قال: فَنُبِّىءَ هارونُ ساعَتَئِذٍ حين نُبِّىء موسى عليهما السلام[1].

وقال ابن أبي حاتم: ذُكِر عن ابن نُمَير، حدثنا أبو أُسَامَة، عن هِشَام بن عُرْوَةَ، عن أبيه، عن عائشةَ أنَّها خَرَجت فيما كانت تعتمر، فَنَزلت ببعض الأعراب، فَسمِعَت رجلاً يقول: أيّ أخ في الدنيا كان أنفعَ لأخيه؟ قالوا: ما نَدْري. قال: أنا والله أدري؟ ـ قالت: فقلتُ في نفسي: في حَلِفِه لا يستثنى إنه لَيَعْلَم أيَّ أخٍ في الدُّنيا كانَ أنْفَعَ لأخيه ـ قال: موسى حين سأل لأخيه النبوَّةَ. فقلتُ: صَدَق والله. قلتُ: وفي هذا قال الله تعالى في الثناء على موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿وكان عندَ اللهِ وَجِيهاً﴾.

وقولُه: ﴿اشدُدْ به أَزْرِي﴾، قال مجاهد: ظَهْري. ﴿وأَشْرِكْه في أَمْرِي﴾ أي: في مشاورتي، ﴿كي نُسَبِّحك كثيراً ونذكرك كثيراً﴾، قال مجاهد: لا يكون العبدُ من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً.

وقولُه: ﴿إنَّك كنتَ بنا بَصِيراً﴾، أي: في اصطفائِكَ لنا، وإعطائِكَ إيانا النبوَّةَ، وبَعْثَتِكَ لنا إلى عَدُوِّك فِرْعَونَ، فلك الحمد على ذلك.

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ ﴾

هذه إجابةٌ من الله لرسوله موسى ـ عليه السلام ـ فيما سأل من رَبِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ وتذكيرٌ له بنِعَمه السَّالفةِ عليه، فيما كان ألهم أمَّه حين كانت تُرضِعُهُ، وتَحذَرُ عليه من فرعون ومَلَئِه أن يقتلوه، لأنه كانَ قد وُلِد في السَّنةِ التي يقتلون فيها الغِلْمَانَ. فاتخذَتْ له تابُوتاً، فكانت تُرضِعُه ثم تَضَعُه فيه، وتُرسِلُه في البحر ـ وهو النيل ـ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم. الدرّ المنثور ١٦/٥٦٧.

وتُمسكه إلى مَنْزِلها بحبل، فَذَهبت مرة لِترَبِطَه فانفلت منها وذهب به البحر، فحَصَل لها من الغَمِّ والهمِّ ما ذكره الله عنها في قولِه: ﴿ وأصبح فُؤَاد أُمِّ موسى فارغاً إن كادت لَتُبدي به لولا أن رَبطنا على قلبها ﴾، فذهَب به البحرُ إلى دَار فِرْعَون، ﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَونَ ليكُونَ لهم عَدُوّا وحَزناً ﴾، أي: قَدَراً مقدُوراً من الله، حيثُ كانوا هم يقتلُون الغلمان من بني إسرائيلَ، حَذَراً من وجود موسى، فَحَكَم الله ـ وله السلطانُ العظيم والقدرةُ التامة ـ أن لا يُربَّى إلاّ على فراش فرعون، ويُغْذَى بطَعَامِه وشَرابه، مع مَحبَّتِه وزوجَتِهِ له. ولهذا قال: ﴿يأخُذْه عَدوٌّ لي وعَدُوٌّ له وألقيتُ عليكَ محبةً مِنّي ﴾. أي: عند عَدُوّك، جَعلتُه يُحِبُّكَ.

قال سَلَمة بن كُهَيلٍ: ﴿ وألقيتُ عليك محبةً منيّ ﴾ قال: حَبَّبْتُكَ إلى عبادي. ﴿ولتصنَع على عيني ﴾، قال أبو عمران الجَوْني: تُرَبَّى بعين الله. وقال قتادةُ: تُغْذَى على عيني. وقال معمَرُ بن المثنى: ﴿ ولتصنع على عيني ﴾، بحيثُ أَرَى. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني أجعله في بيت المُلْكِ، يَنْعَم ويَتْرَفُ، غذاؤُه عندهُم غذاءُ المُلْكِ، فتلك الصنعةُ(١).

وقولُه: ﴿ إذ تَمشِي أختُكَ فتقولُ هل أَدُلُّكم على من يَكفُله فرجَعْنَاك إلى أُمِّكَ كي تَقَرَّ عينُها ﴾، وذلك أنه لما استقرَّ عند آل فِرْعَونَ، عَرَضُوا عليه المَرَاضِعَ، فأباها. قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وحَرَّمنا عليه المَرَاضِعَ من قَبْلُ ﴾، فجاءت أختُه وقالت: ﴿ هل أَدُلُّكم على أهل بيتٍ يكفُلُونه لكم وهم له ناصحون ﴾، تعني هل أدلكم على من تُرْضِعُـهُ لكم بالأجرة؟ فذهبَتْ به وهُم معها إلى أُمِّه، فعرضَت عليه ثَدْيَها، فَقَبله، فَفَرِحُوا بذلك فَرَحاً شَدِيداً، واستأجروها على إرضاعه، فنالها بسببه سعادةٌ ورفعةٌ وراحةٌ في الدنيا، وفي الآخرة أغنَمُ وأجزَلُ. ولهذا جاء في الحديث: «مَثَلُ الصَّانع الذي يحتسِبُ في صَنْعَتِهِ الخيرَ كَمَثَل أُمِّ موسى، تُرضع وَلَدها وتأخُذ أَجْرَها»(٢).

وقال تعالى هاهنا: ﴿ فَرجعناك إلى أُمِّك كي تقر عينها ولا تحزن ﴾، أي: عليك، ﴿ وقتلتَ نفساً ﴾، يعني: القِبْطِيَّ، ﴿ فَنجَّيناك من الغَمِّ ﴾، وهو ما حصل له بسبب عَزْمِ آل فِرعَون على قَتْلِهِ، فَفَرَّ منهم هارباً، حتى وَرَد ماء مَدْيَن، وقال له ذلك الرجلُ الصالحُ: ﴿ لا تَخَفْ نجوتَ من القوم الظالمين ﴾.

وقولُه: ﴿ وفتناك فتوناً ﴾، قال الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شُعَيبِ النسائي ـ رحمه الله ـ في كتاب التفسير من سُنَنِه، قوله: ﴿ وفتنّاك فُتُوناً ﴾، حَديث الفُتُون:

حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا يزيدُ بن هارونَ، أنبأنا أصبغُ بنُ زَيدٍ، حدثنا القاسمُ بن أبي أيُّوب، أخبرني سَعيد بن جُبَير قال: سألتُ عبد الله بن عباس عن قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لموسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً ﴾، فسألته عن الفُتون، ما هو؟ فقال: استأنِفِ النَّهارَ يا ابن جُبَيرٍ فإنَّ لها حديثاً طويلاً. فلما أصبحتُ غدوتُ إلى ابن عباس لأَتَنَجَّزَ منه ما وعَدَني من حديث الفُتُون، فقال: تَذَاكَرَ فِرْعون وجلساؤُه ما كان الله وَعَد إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يجعَلَ في ذُرِّيتِهِ أنبياءَ ومُلوكاً، فقال بعضهم: إنَّ بَني إسرائيلَ ينتظرون ذلك، ما يَشُكُّون فيه، وكانوا يَظُنُّون أنَّهُ يوسف بن يعقوب. فلما هَلَك قالوا: ليس هكذا كان وعدَ إبراهيمَ. فقال فِرعَوْنُ: فكيف تَرَون؟ فائتَمَرُوا وأجمَعُوا أَمْرَهم على أن يبعث رجالاً معهم الشِّفَار يطوفُون في بني إسرائيل، فلا يجدُون مولوداً ذكراً إلا ذَبَحُوه. فَفَعلُوا ذلك، فلما رَأَوا أنَّ الكبار من بني إسرائيل يَمُوتُون بآجالهم والصِّغار

(١) أخرجه الطبري ١٦/١٦٢.

(٢) أخرج البيهقي في سننه، عن أبي داود في مراسيله بإسناده إلى جُبَير بن نُفَير أن رسول الله ﷺ قال: «مثل الذين يغزون من أُمَّتي ويأخذون الجُعْلَ يتقوّون على عدوِّهم مَثَلُ أمّ موسى، ترضع ولدها وتأخذ أجرها». السنن الكبرى، كتاب السير ٩/٢٧.

يُذبَحُون، قالوا: لَيُوشِكَنَّ أن تُفنُوا بني إسرائيلَ فَتصيرُوا أن تُباشِرُوا من الأعمالِ والخِدْمة التي كانوا يكفونكم، فاقتلوا عاماً كُلَّ مولودٍ ذَكَرٍ، فيقلَّ نباتُهم(١)، ودَعُوا عاماً فلا تقتلُوا منهم أحداً، فيشبَّ الصِّغار مكانَ من يَموتُ من الكِبَار، فإنهم لن يكثُروا بمن تستحيُون منهم، فتخافوا مُكاثَرَتُهم إياكم، ولن يَفنوا بمن تقتلون وتحتاجُون إليهم. فأجمَعُوا أمرَهُم على ذلك.

فَحملت أُمُّ موسى بهارونَ في العام الذي لا يُذْبحَ فيه الغلمان، فولدته علانيةً آمِنةً، فلما كان من قابل حَملت بموسى عليه السلام، فَوقَع في قلبها الهَمُّ والحُزن ـ وذلك من الفُتُون يا ابنَ جُبيرَ ـ ما دَخَل عليه في بطن أُمِّه، مما يُراد به. فأوحى الله إليها أن: ﴿ لَا تَخَافِي ولا تحزَنِي إنا رَادُّوه إلَيكَ وَجَاعِلُوه مِنَ الْمُرسَلِينَ ﴾. [القصص: ٧]. فأمَرَها إذا ولدت أن تجعَلَه في تابوتٍ ثم تُلقيه في اليمِّ. فلما وَلَدت فَعَلت ذلك، فلما تَوارَى عنها ابنُها أتاها الشيطانُ، فقالت في نفسها: ما فعلتُ يا بني، لو ذبِحَ عندي فواريتُه وَكَفَّنتُه كان أحبَّ إليَّ من أن أُلقِيَهُ إلى دَوابِّ البحرِ وحِيتَانِه.

فانتهى الماءُ به حتَّى أوفي به عند فُرْضَة(٢) مُستَقى جَوَاري امرأةِ فِرْعَون، فلما رَأينه أَخَذْنَه فَهَمَمْنَ أن يفتَحْنَ التابوتَ، فقال بعضُهنَّ: إنَّ في هذا مالاً، وإنّا إن فَتَحناه لم تُصدِّقنا امرأةُ الملك بما وَجَدْنا فيه، فَحمَلْنه كهيئَتِهِ لم يُخرجْنَ منه شيئاً حتى دَفَعْنَه إليها. فلما فَتحته رَأَتْ فيه غلاماً، فَأُلقِي عليه منها محبةٌ لم يُلْقَ منها على أحدٍ قَطُّ. وأَصبحَ فؤادُ أم موسى فارغاً من ذِكْرِ كلِّ شيء، إلا من ذِكْرِ موسى.

فلما سَمِعَ الذبَّاحون بِأَمْرِه أقبلُوا بِشِفارِهم إلى امرأة فِرْعَون لِيذْبَحُوه ـ وذلك من الفُتُون يا ابن جُبَير ـ فقالت لهم: أَقِرُّوه فإن هذا الواحدَ لا يَزيدُ في بني إسرائيل حتى آتِيَ فِرْعَونَ فَأَستوهِبَه منه، فإن وَهَبه لي كُنتُم قد أحسنتُم وأَجْمَلتُم، وإن أمر بِذَبْحه لم أَلُمْكُم.

فَأتت فِرْعَونَ فقالت ﴿ قُرَّة عَيْنٍ لي وَلَك ﴾ [القصص: ٨]. فقال فِرعَونُ: يكونُ لك، فأما لي فلا حاجَةَ لي فيه. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «والذي يُحلَفُ به لو أقرَّ فِرعَونُ أن يكون قُرَّةَ عين له، كما أَقَرَّت امرأتُه، لهداه الله كما هداها، ولكن حَرَمَه ذلك».

فأرسَلَت إلى من حَوْلَها، إلى كلِّ امرأةٍ لها لبنٌ لتختار له ظِئْراً(٣)، فجعَلَ كُلَّما أخذته امرأةٌ منهنَّ لِتُرضِعَه لم يَقْبَل ثَدْيَها حتَّى أشفقَت امرأةُ فِرْعَون أن يَمْتَنِع من اللَّبَن فَيمُوتَ، فَأحزَنَها ذلك. فَأمرَتْ به فَأُخرِج إلى السوق ومَجْمَعِ النَّاسِ، ترجُو أن تَجدَ له ظِئْراً تأخذُهُ منها، فلم يَقْبَل.

وأصبحت أمُّ موسى وَالِهاً، فقالت لأخته: قُصِّي أثَره واطلُبيه، هل تَسمَعِين له ذِكْراً؟ أَحَيٌّ ابني أَمْ قد أكلته الدوابُّ؟ ونَسِيَتْ ما كان اللهُ وَعَدَها فيه، فَبَصُرَتْ به أُختُه عن جُنُبٍ وهم لا يشعُرون ـ والجُنُبُ: أن يَسْمُوَ بَصَرُ الإنسان إلى شيء بعيد، وهو إلى جنبه، وهو لا يُشعَر به ـ فقالت من الفَرَح حين أعياهم الظُّئُورات(٣): أنا أدلُّكم على أهل بيتٍ يكفُلونه لكم وهُم له ناصحون. فأخذوها فقالوا: ما يُدرِيكِ؟ ما نصحُهم له؟ هل تعرفونه؟ حتى شَكُّوا في ذلك ـ وذلك من الفُتون يا ابن جُبَير ـ فقالت: نُصحُهم له وشَفَقتُهم عليه رَغْبَتُهم في ظُئُورَةِ(٣) الملك، ورجاءُ منفعةِ المَلكِ. فأرسَلُوها فانطلقت إلى أُمِّها، فأخبرتها الخبَرَ، فجاءت أُمُّه، فلما وضَعْتَه في

---

(١) اي: نَشْؤهم. وانظر مسند أبي يعلى ٥/١١. (٢) الفَرْضة من النهر: مشرب الماء منه. ومن البحر: مَحَطُّ السفن.

(٣) الظِّئْرُ: المُرْضِعَةُ لغير ولدها. و الجمع: أَظْؤُر واظآر، وظُئُور، وظُئُورة. فقوله بعد هذا: «حين أعياهم الظُّئُوراتِ» لعله جمع الجمع، أي: جمع ظُئُور أو ظُئُورة. والفعل: ظَأَر ـ كمنع ـ ظَأْراً وظِئَاراً، والاسم الظُّئُورَة، وبها يفسّر قوله أيضاً: «رغبتهم في ظئورة الملك»، أي: في أن يقوموا بهذا الأمر له.

حجرها نزَا إلى ثَدْيـها فَمصّه حَتّى امتلأ جنباه رِيّاً، وانطلق البُشرَاء إلى امرأةِ فرْعونَ يُبشِّرونَها أن قد وَجدنا لابنك ظِئراً. فأرسلت إليها فَأتت بها وَبِهِ[1]، فلما رأت ما يصنعُ بها قالت: امكُثي تُرْضِعي ابني هذا، فإني لم أُحِبَّ شيئاً حُبَّه قطُّ. قالت أُمّ موسى: لا أستَطيع أن أدَع بَيْتِي وَوَلدِي فَيضِيعَ، فإن طابت نفسُكِ أن تُعطِينيه، فأذهَبَ به إلى بيتي، فَيكُونَ معي لا آلوه[2] خيراً فَعلتُ فإني غيرُ تاركةٍ بيتي وولدي. وذَكَرت أُمّ موسى ما كان الله وَعَدَها فيه، فتعاسَرَت على امرأةِ فِرْعونَ، وأيقنَتْ أن الله منجزٌ مَوْعُودَه، فَرجعت به إلى بيتها من يَوْمِها، وأنبته الله نباتاً حسناً، وحُفِظَ لما قد قَضَى فيه.

فلم يَزَل بنُو إسرائيلَ وهم في ناحيةِ القَرية ممتنعين من السُّخرة والظُّلم ما كان فيهم، فلما ترَعْرَع قالت امرأةُ فرعونَ لأم موسى: أزيريني[3] ابني؟ فوعَدَتْها يوماً تُزِيرها إيَّاه فيه، وقالت امرأةُ فِرْعونَ لخزّانها وظُئُورهَا وقَهارِمتها[4]: لا يبقينَّ أحدٌ منكم إلا استقبلَ ابني اليومَ بهديَّةٍ وكرامةٍ لأرى ذلك فيه، وأنا باعثةٌ أميناً يُحصِي ما يَصنعُ كُلُّ إنسانٍ منكم، فلم تَزَلِ الهدايا والنُّحَلُ والكرامةُ تستقبله من حين خرَجَ من بيت أمه إلى أن دَخَلَ على امرأةِ فِرْعَون، فلما دخلَ عليها نَحَلَتْه وأكرمته وفرحَتْ به، ونَحلت أُمَّه لِحُسْنِ أثرِها عليه، ثم قالت: لآتِينَّ به فِرْعونَ فَلْيَنْحلنَّه ولَيُكرمنَّه. فلما دَخَلت به عليه جَعَله في حِجْره، فتناولَ موسى لِحيَةَ فِرْعَون فمدَّها إلى الأرض، فقال الغُوَاةُ من أعداءِ الله لِفِرْعَون: ألا ترى ما وَعَدَ الله إبراهيم نَبيَّه، إنه زَعَم أن يَرُبَّك[5] ويعلُوك ويصرعُك. فأرسل إلى الذَّبَّاحين ليذبَحُوه ـ وذلك من الفتـون يـا ابن جُبَير ـ بعد كُلِّ بلاءٍ ابتُلِي به وأُرِيد به فُتُوناً.

فجاءت امرأةُ فِرْعَون[6] فقالت: ما بَدَا لك في هذا الغلام الذي وَهَبته لي؟ فقال: ألا ترينه، إنه يَزْعُمُ أنه يصرَعُني ويعلوني! فقالت: اجعَلْ بيني وبينكَ أمراً يُعرفُ فيه الحقُّ، إيتِ بجمْرتَين ولُؤلُؤتَين فقرِّبْهُنَّ إليه، فإن بَطَش باللُّؤلُؤتَين واجتنب الجمْرتَين عَرَفتَ أنه يَعقِلُ، وإن تناول الجمْرتَين ولم يُرِدِ اللُّؤلُؤتَين عَلِمتَ أنَّ أحداً لا يُؤثِرُ الجمْرتَين على اللُّؤلُؤتين وهو يَعْقِلُ. فقُرِّب إليه، فتناول الجمْرتَين فانتزعوهما منه مخافةَ أن تحرقا يَدَه، فقالت المرأةُ: ألا ترى؟ فَصرفه الله عنه بعدما كان قد هَمَّ به، وكان الله بالغاً فيه أمْرَه.

فلما بلغ أَشُدَّه وكان من الرجال لم يكن أَحَدٌ من آل فِرْعَونَ يَخلُصُ إلى أَحَدٍ من بني إسرَائيلَ معه بِظُلْمٍ ولا سُخْرة، حتى امتنعوا كُلَّ الامتناع.

فبينما موسى ـ عليه السلام ـ يمشي في ناحية المدينة إذا هو برجُلَين يَقتَتِلان، أحدُهما فِرْعَوني والآخر إسرائيلي، فاستغاثَهُ الإسْرائيليُّ على الفِرْعَوني، فَغَضِبَ موسى غضباً شديداً؛ لأنه تَناوله وهو يعلَمُ مَنْزلَته من بني إسرائيل وحِفْظَه لهم، لا يعلم الناسُ إلا أنما ذلك من الرَّضاع إلا أُمَّ موسى، إلَّا أن يكون الله أطلعَ موسى من ذلك على ما لم يُطْلِعْ عليه غَيْرَه. فوكز موسى الفِرْعَوْنِيَّ فقتَلَه، وليس يراهما أحدٌ إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والإسرائيليّ، فقال موسى حين قَتَل الرجل: ﴿هذا من عَمَلِ الشيطان إنه عَدُوٌّ مُضِلٌّ مبينٌ﴾ [القصص: ١٥]. ثم قال: ﴿ رَبِّ إني ظلمتُ نَفْسي فاغفِر لي فَغَفَر له إنه هو الغفُور الرَّحيمُ ﴾ [القصص: ١٦].

(١) في تفسير الطبري، والدُّرّ المنثور: فَأتيتْ.
(٢) أي: لا أُقصِّر في إبلاغ الخير إليه.
(٣) طَلَبَتْ منها أن تحمل ابنها وتزورها.
(٤) القهارمة: جَمْعُ القَهْرَمَانَةُ، وهي: مُدَبِّرة البيتِ ومتولِّيَةُ شئونه. وهي كلمة مُعَرَّبة. ويُقال لأمين الملك ووكيله الخاصّ بتدبير دَخْلِه وخَرْجِه: قَهْرَمان.
(٥) أي: يكون سيِّداً يَملكه ويكون فوقه.
(٦) في هامش نسخة الحرم بعده «تَسْعَى إلى فِرْعَونَ». ومثله ما في الطبري والدرّ المنثور.

فأصبح في المدينة خائفاً يترقَّبُ الأخبار. فَأُتِي فرعونَ فقيل له: إنَّ بني إسرائيل قَتلوا رجلاً من آل فِرْعَون، فخُذْ لنا بحَقِّنا ولا تُرْخِصْ لهم. فقال: ابغُوني قاتِلَهُ ومن يَشهد عليه، فإنّ المَلِكَ وإن كان صَغْوُه[1] مع قَوْمِهِ لا يستقيم له أن يُقِيدَ بغير بيِّنة ولا ثَبَت. فاطلبوا لي عِلْمَ ذلك آخُذْ لكم بِحَقِّكم.

فبينما هم يَطُوفون ولا يَجِدُون ثَبَتاً إذا مُوسَى من الغد قد رَأَى ذلك الإسرائيليَّ يُقاتِلُ رَجُلاً من آل فِرْعَونَ آخرَ، فاستغاثه الإسرائيليُّ على الفِرْعَونيِّ، فصادَفَ موسى قد نَدِمَ على ما كان منه وكَره الذي رأى، فَغَضِبَ الإسرائيليُّ وهو يُريد أن يَبْطِش بالفرْعَونيِّ، فقال للإسرائيلي لِمَا فعل بالأمس واليوم: ﴿ إنك لَغَوِيٌّ مُبين ﴾ [القصص: ١٨]. فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال، فإذا هو غَضْبَانُ كغَضَبه بالأمس الذي قَتَل فيه الفِرْعَونيَّ، فخاف أن يكون بعد ما قال له: ﴿إنك لَغَوِيٌّ مُبين ﴾، أن يكون إِيَّاه أرادَ، ولم يكن أَرادَهُ إنما أراد الفِرْعَونيَّ. فخافَ الإسرائيليُّ وقال: ﴿ يا مُوسَى أَتُرِيدُ أن تَقتُلَني كما قَتَلْتَ نَفْساً بالأَمْس ﴾ [القصص: ١٩]، وإنما قالَه مخافَةَ أن يكونَ إيَّاه أراد موسى لِيقتُلَه فَتتارَكا، وانطلقَ الفِرْعَونيُّ فأخبرَهم بما سَمِعَ من الإسرائيليِّ من الخبر حين يقولُ: ﴿ أَتُرِيدُ أن تَقتُلَني كما قتلتَ نفساً بالأَمْسِ ﴾. فأرسَل فِرْعَونُ الذَّبَّاحِينَ ليقتلوا موسى، فأخذ رُسُلُ فِرْعَون في الطريقَ الأعظَم يمشُون على هِينَتِهم[2] يطلبون موسى وهم لا يخافُونَ أن يفُوتَهم، فجاء رجلٌ من شِيعَةِ مُوسَى من أقصى المَدينةِ، فاختَصر طريقاً حتى سَبَقَهم إلى موسى، فأخبره الخبر. وذلك من الفُتون يا ابن جُبَير[3].

فَخَرج مُوسى مُتَوجِّهاً نحو مَدْيَن، لم يَلْقَ بَلاءً قبل ذلك، وليس له بالطَّريق عِلْمٌ إلا حُسْنُ ظَنِّه بربِّه عزَّ وجلَّ؛ فإنه قال: ﴿ عسى ربِّي أن يَهْدِيني سواءَ السبيل * ولما ورد ماء مَدْيَنَ وَجَد عليه أُمَّةً من الناس يَسْقُون ووجَدَ من دونهم امرأتين تَذُودان ﴾ [القصص: ٢٢-٢٣]، يعني بذلك حابستين غَنَمَهُمَا، فقال لهما: ما خَطْبُكما مُعتزِلَتَين لا تَسقِيان مع الناس؟ فقالتا: ليس لنا قُوَّة نُزاحِمُ القَوْمَ، وإنما ننتظر فُضُول حِياضِهم. فسَقَى لهما، فجعل يغترف في الدلو ماءً كثيراً، حتّى كان أَوَّلَ الرِّعاءِ[4]. فانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما. وانصرف موسى - عليه السلام - فاستظلَّ بشَجَرةٍ، وقال: ﴿ربِّ إني لما أنزلتَ إليَّ من خَيْرٍ فقير﴾ [القصص: ٢٤]. واستنكر أَبُوهما سُرعَةَ صُدُورهما بغنمهما حُفَّلاً[5] بِطاناً فقال: إنَّ لكما اليوم لَشَأناً. فأخبرتاه بما صَنَع موسى.

فأمر إحداهما أن تَدْعُوَه، فأتَت موسى فَدَعَته، فلما كلَّمه قال: ﴿ لا تَخَفْ نجوتَ من القَوْمِ الظالمين ﴾ [القصص: ٢٥]. ليس لفرعون ولا لِقَوْمِه علينا سُلطان، ولسنا في مَمْلَكته، فقالت إحداهما: ﴿ يا أبتِ استأجِرْهُ إن خَيْرَ من استأجَرْتَ القويُّ الأمينُ ﴾ [القصص: ٢٦]. فاحتمَلَتْهُ الغيرةُ على أن قال لها: ما يُدْرِيكِ ما قُوَّته؟ وما أمانتُه؟ قالت أما قُوَّته فما رأيتُ منه في الدَّلْو حين سقى لنا، لم أَرَ رجلاً قَطُّ أَقْوَى في ذلك السَّقْي منه، وأما الأمانةُ فإنه نَظَر إليَّ حين أقبلتُ إليه وشَخَصْتُ له، فلما عَلِم أني امرأةٌ صَوَّب[6] رأسه فلم يَرْفَعه حتى بَلَّغتُه رِسالَتك. ثم قال لي: امشِي خَلْفِي، وانْعَتِي لي الطريقَ. فلم يفعَلْ هذا إلا وهو أمينٌ. فسُرِّي عن أبيها وصَدَّقَها، وَظَنَّ به الذي قالت.

---

(١) أي: ميلُه وأقاد القاتل بالقتيل: اقتصَّ منه فقتله به. والثَّبَتُ: البيِّنة والحجة.
(٢) الهِيْنَةُ: الرفق والمَوَدة، وهي مشية المُطمئِن.
(٣) إلى هنا انتهى ما ساقه الطبري من هذا الحديث.
(٤) الرِّعاء: جمع راعٍ. وفي الدرّ المنثور: حتى كانتا أول الرُّعاة.
(٥) حفَل اللبنُ في الضرع: اجتمع، وضَرْعٌ حافل: ممتلىء لبناً، والجمع حُفَّلٌ. وبطان: ممتلئة البطون، جمع بطين.
(٦) أي: خفضه وأماله.

فقال له: هل لك ﴿ أن أُنكِحَكَ إحدى ابنتيَّ هاتَين على أن تأْجُرَني ثمانيَ حِجَجٍ فإن أتممتَ عَشراً فمن عِندكَ وما أُريدُ أن أَشُقَّ عليكَ سَتَجِدني إن شاء الله من الصَّالحِين ﴾ [القصص: ٢٧]. ففعل، فكانت على نبيِّ الله موسى ثَمانِي سنينَ واجبةٌ، وكانت سنتان عِدَةً منه، فقضَى الله عنه عِدَتَه فأتمَّها عشْراً.

قالَ سعِيدٌ، وهو ابنُ جُبَير: فَلَقِيَني رجلٌ من أهل النَّصرانية من عُلَمائهم، قال: هل تَدْري أيَّ الأجلين قَضى موسى؟ قلت: لا ـ وأنا يومئذ لا أدري ـ فَلَقِيتُ ابنَ عباس، فَذكرتُ ذلك له، فقال: أما عَلِمْتَ أن ثَمانياً كانَت على نَبيِّ الله واجبةً، لم يكن لنبيِّ الله لِينتقِصَ منها شيئاً، ويعلَمُ أَنَّ الله كان قاضِياً عن(١) موسى عِدَته التي وعَدَه فإنه قَضى عشر سِنينَ. فَلَقِيت النصرانيَّ فأخبرتُه ذلك، فقال: الذي سألتَه فأخبرَكَ أعلَمُ منك بذلك. قلت: أَجَلْ، وأَوْلَى.

فلما سار موسى بأهله كان من أمْر النار والعَصَا ويَده ما قَصَّ الله عليكَ في القرآن، فشكا إلى الله سبحانه ما يتخوَّف من آل فِرْعَون في القَتْل وعُقْدَة لسانه، فإنه كان في لسانه عُقدةٌ تمنعه من كَثيرٍ من الكلام، وسَأَل ربَّه أن يُعينه بأخيه هارونَ، يكون له رِدْءاً، ويتكلَّم عنه بكثير مما لا يُفصِحُ به لسانُه. فآتاه الله سُؤْلَه، وحَلَّ عُقدَةً من لسَانِهِ، وأَوحى الله إلى هارونَ وأَمَره أن يَلْقاه. فاندفع موسى بعَصَاه حتى لقي هارونَ ـ عليهما السلام ـ فانطلقا جميعاً إلى فِرْعَونَ، فأقاما على بابه حيناً لا يُؤذَنُ لهما، ثم أُذِن لهما بعد حِجَابٍ شديد، فقالا: ﴿ إنا رَسُولا ربك ﴾ [طه: ٤٧]. قال: ﴿ فمن رَبُّكما ﴾ [طه: ٤٩]. فأخبره بالذي قَصَّ اللهُ عَلَيك في القرآن. قال: فما تُريدان؟ وذَكَّره القَتيل، فاعتَذر بما قد سَمِعْتَ. قال: أريد أن تؤمن بالله، وتُرْسِل معي بني إسرائيل. فأَبى عليه وقال: ﴿ ائت بآيةٍ إن كنتَ من الصَّادقين ﴾. فألقى عصاه فإذا هي حَيَّةٌ تسعَى عظيمةٌ فاغرَةً فاها، مُسرعةً إلى فِرْعَون. فلما رآها فِرْعَون قاصدةً إليه خَافَها، فاقتَحَم عن سريره واستغاث بمُوسَى أن يَكُفَّها عنه. ففعل، ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاءَ من غير سُوءٍ ـ يعني من غير بَرَص ـ ثم رَدَّها فعادت إلى لونها الأول. فاستشار الملأ حولَه فيما رأى، فقالوا له: هذانِ ساحران ﴿ يُريدان أن يخرجاكم من أرْضِكم بسحرهما ويَذْهَبا بطريقتكم المُثْلى ﴾ [طه: ٦٣] ـ يعني مُلْكَهم الذي هم فيه والعيشَ ـ فأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طَلَب، وقالوا له: اجمع لهما السَّحرة، فإنَّهم بأرضك كثيرٌ حتى تَغْلِب بِسِحْرك سِحْرَهما. فأرسل إلى المدائن فَحَشر له كُلَّ ساحرٍ مُتَعالِمٍ، فلما أَتوا فِرْعَونَ قالوا: بِمَ يعمَلُ هذا الساحرُ؟ قالوا: يعمَلُ بالحيَّات. قالوا: فلا والله ما أحدٌ في الأرض يعمَلُ بالسِّحر بالحيات والحِبال والعصي الذي نعمَلُ. وما أَجْرُنا إن نحنُ غَلَبنا؟ قال لهم: أنتم أقاربي وخاصَّتي، وأنا صانع إليكم كُلَّ شيءٍ أَحْبَبْتُم. فتواعدوا يومَ الزينة، ﴿ وأن يحشر الناس ضُحىً ﴾ [طه: ٥٩].

قال سعيد بن جُبَير: فَحدَّثني ابنُ عباسٍ أَنَّ يومَ الزينةَ اليومُ الذي أظهر الله فيه مُوسَى على فِرْعَونَ والسَّحرَةِ، وهُوَ يوم عاشُوراء.

فلما اجتمعوا في صَعِيدٍ قال الناسُ بعضُهم لبعض: انطلقُوا فَلْنحضُرْ هذا الأَمْرَ، ﴿ لَعَلَّنا نتبعُ السَّحرة إن كانُوا هم الغالِبينَ ﴾ [الشعراء: ٤٠]، يعنُونَ موسى وهارونَ استهزاءً بهما. فقالوا: يا مُوسَى ـ لِقُدْرَتِهم بِسِحْرِهم ـ ﴿ إما أن تُلقي وَإِمَّا أن نَكُونَ نحن الملقين ﴾ [الأعراف: ١١٥]. ﴿ قال بل ألقوا ﴾ [طه: ٦٦]. ﴿ فألقَوا حِبالهم وعصيهم وقالوا بعزَّةِ فِرْعَون إنا لنحنُ الغالِبونَ ﴾ [الشعراء: ٤٤]. فرَأى مُوسَى من سِحْرِهم ما أوجسَ في نفسه خِيفَةً، فأوحى الله إليه ﴿ أنْ أَلْقِ عَصَاك ﴾ [الأعراف: ١١٧] فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيمة

---

(١) في نسخة: «على موسى».

فاغرةً فاها، فجعلت العِصِيُّ تلتبس بالحبال حتى صارت جَزَراً[(١)] إلى الثعبان تدخُل فيه، حتى ما أبقت عَصاً ولا حَبْلاً إلا ابتلعَتْه، فلما عَرَفَ السحرة ذلك قالوا: لو كان هذا سِحْراً لم يبلُغ من سِحْرنا كُلَّ هذا، ولكنه أَمْرٌ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ آمنَّا بالله وبما جاء به موسى، ونَتُوبُ إلى الله مما كُنَّا عليه. فَكَسَر اللهُ ظَهْرَ فِرْعَونَ في ذلك الموطن وأشياعِهِ، وظَهرَ الحقُّ، ﴿وبطَلَ ما كانوا يعملون * فَغُلِبوا هنالك وانقَلَبُوا صَاغِرِين﴾ [الأعراف: ١١٨ ـ ١١٩] وامرأة فرعون بارزَةٌ مُتَبَذِّلة[(٢)] تدعو الله بالنَّصر لموسَى على فِرعَونَ وأشياعه، فمن رآها من آل فِرْعَون ظَنَّ أنها إنما ابتذَلَتْ للشفقةِ على فِرْعَونَ وأشياعِه، وإنما كان حُزْنُها وهَمُّها لِمُوسَى.

فلما طال مُكْثُ مُوسَى بِمَوَاعِيدِ فِرْعَونَ الكاذبة، كُلَّما جاء بآية وَعَده عندها أن يُرْسِلَ معه بني إسرائيل، فإذا مضت أخلَفَ مَوْعِدَه وقال: هل يستطيع رَبُّك أن يصنع غَيْرَ هذا؟ فأرسل الله على قومه الطُّوفَانَ والجَرَادَ والقُمَّلَ والضفادِعَ والدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ، كُلُّ ذلك يشكو إلى مُوسَى ويطلُب إليه أن يَكُفَّها عنه، ويُوَاثِقُه على أن يُرسِلَ معه بني إسرائيلَ، فإذا كُفَّ ذلك عنه أخلَفَ مَوْعِدَه، ونَكَثَ عَهْدَه.

حتى أَمَرَ اللهُ موسى بالخُروج بقومه فَخَرج بهم ليلاً، فلما أصبحَ فِرْعَونُ ورأى أنَّهم قد مَضَوا أرسَلَ في المدائن حاشِرِينَ، فَتَبِعه بجنودٍ عظيمةٍ كثيرةٍ، وأوحى اللهُ إلى البحر: إذا ضَرَبَكَ عَبْدِي موسى بعصاه فانفَلِقْ اثنتي عشرة فِرْقَةً، حتى يجوزَ موسى ومن مَعَه، ثم الْتَقِ على من بَقِي بعدُ من فِرْعونَ وأشياعِهِ. فَنَسِيَ موسى أن يضرِبَ البحرَ بالعَصَا، وانتهى إلى البَحْرِ وَلَه قَصِيفٌ[(٣)] مخافَةَ أن يَضْرِبَه موسى بعصاه وهو غافلٌ فَيَصِيرَ عاصياً لله.

فلما تراءى الجمعان وتَقَاربا، ﴿قال أصحابُ موسى إنا لَمُدرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] افعَلْ ما أمرَكَ به ربُّك، فإنه لم يَكْذِبْ ولم تَكْذِبْ: قال: وَعَدَني أن إذا أتيتُ البحرَ انفرَق اثنتي عشرةَ فرقةً حتى أُجاوِزَه. ثم ذَكَر بعد ذلك العَصَا، فضرَبَ البحرَ بعصَاه حين دَنا أوائلُ جُنْدِ فِرْعَونَ من أواخر جُنْدِ موسى، فانفرَق البحرُ كما أمره ربُّه وكما وَعَد موسى، فلما أن جازَ موسى وأصحابُه كُلُّهم البحرَ، ودَخل فرعونُ وأصحابُه، التقى عليهم البحرُ كما أُمِرَ، فلما جاوَزَ موسى البحرَ قال أصحابه: إنا نخافُ ألَّا يكونَ فِرْعَونُ غَرِق ولا نُؤمِنُ بهلاكه. فدعا ربَّه فأخرجَه له بِبَدَنِه حتى استيقَنُوا بهلاكِه.

ثم مَرُّوا بعد ذلك على قوم يعكُفون على أصنامٍ لَهُم ﴿قالوا يا مُوسَى اجعَلْ لنا إلَهاً كما لَهُم آلهةٌ قال إنَّكم قوم تجهَلُون * إنَّ هؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٣٩] قد رأيتُم من العِبَرِ وَسمِعتُم ما يكفيكم ومَضَى. فأنزلهم موسى منزلاً وقال: أَطِيعُوا هارونَ فإني قد استخلفتُه عليكم، فإني ذاهبٌ إلى ربِّي. وأجَّلَهم ثلاثين يوماً أن يرجعَ إليهم فيها.

فلما أتى ربَّه وأراد أن يُكَلِّمه في ثلاثين يوماً وقد صامَهُنَّ ليلَهُنَّ ونهارهُنَّ، وكَرِه أن يُكَلِّم رَبَّه وريحُ فيه ـ ريحُ فَمِ الصائم ـ فتناولَ موسى من نبات الأرض شيئاً فمضَغَه، فقال له رَبُّه حين أتاه: لم أفطَرْتَ؟ ـ وهو أعلم بالذي كان ـ قال: يَا ربِّ، إني كرهتُ أن أُكَلِّمكَ إلا وفمي طَيِّبُ الريح. قال: أوَ مَا عَلِمْتَ يا موسى أن ريح فَمِ الصَّائِمِ أطيبُ من رِيحِ المِسْكِ، ارجع فَصُمْ عشراً ثم ائتني. فَفَعل مُوسَى ـ عليه السلام ـ ما أُمِرَ به.

---

(١) الجَزَرُ: واحِدُهُ جَزَرة، وهي: الشاةُ الصالحة لأن تُجْزَر، أي تذبح للأكل. شبه الحبال بذلك. وقد يقال في جَمْعِ جَزَرَةٍ: جِزَرٌ، بكسر الجيم. وبها روى ما في حديث الفتون.

(٢) تَبَذَّلت المرأةُ: تركت التزين والتجمل.

(٣) القصيف: صوت الرَّعْدِ الشديد، يقال: قَصَفَ الرعدُ قَصْفاً وقَصِيفاً.

فَلَمَّا رأى قومُ موسى أنه لم يَرْجِع إليهم في الأجل ساءَهُم ذلك. وكان هارون قد خَطَبهم وقال: إنكم قد خَرجتُم من مصر، وَلِقَوْمِ فرعون عندكم عَوارِيُّ[1] وَوَدائعُ، ولكم فيهم مثلُ ذلك، وأنا أرى أنكم تحتَسِبُون[2] مالكم عندهم، ولا أُحِلُّ لكم وَديعةً استُودِعتُمُوها ولا عاريَّةً، ولسنا برَادِّين إليهم شيئاً من ذلك ولا مُمْسِكيه لأنفسنا، فَحَفر حَفِيراً، وأمَر كُلَّ قوم عندهم من ذلك من متاع أو حِلْيَةٍ أن يَقذِفُوه في ذلك الحَفِير، ثم أوقد عليه النارَ فأحرقَه، فقال: لا يكون لنا ولاَ لَهُم.

وكان السامريُّ من قوم يَعبُدُونَ البقَر جيرانٍ لبني إسرائيل، ولم يكن من بني إسرائيلَ، فاحتَمَل[3] مع موسى وبني إسرائيل حين احتَمَلوا، فَقُضِي له أن رأى أثراً[4] فقبَضَ منه قبضةً، فمرَّ بهارونَ، فقال له هارُون ـ عليه السلام ـ: يا سامريُّ، ألا تُلقِي ما في يَدِكَ؟ وهو قابضٌ عليه، لا يَرَاه أَحَدٌ طَوَالَ ذلك، فقال: هذه قبضةٌ من أَثَر الرسول الذي جاوَزَ بكم البحرَ، ولا أُلقِيها لشيءٍ إلا أن تَدْعُوَ الله إذا ألقيتُها أن يكونَ ما أريد. فألقاها، ودعا له هارونُ، فقال: أريد أن يكونَ عِجْلاً. فاجتمع ما كان في الحَفِيرَةِ من متاع أو حِلْيَةٍ أو نُحاسٍ أو حَدِيدٍ، فصار عِجْلاً أجوفَ، ليس فيه روحٌ، له خُوارٌ.

قال ابنُ عباسٍ: لا والله ما كان له صوتٌ قطُّ، إنما كانت الرِّيح تدخُل في دُبُرِه وتخرُج من فِيه، فكان ذلك الصوتُ من ذلك.

فتفرَّق بنو إسرائيل فِرَقاً، فقالت فرقةٌ: يا سامريُّ، ما هذا؟ وأنتَ أعلمُ به. قال: هذا ربُّكم، ولكن موسى أضلَّ الطريق. وقالت فرقةٌ: لا نُكَذِّب بهذا حتى يرجعَ إلينا مُوسَى، فإن كان ربَّنا لم نكن ضَيَّعناه وعَجَزنا فيه حين رأيناه، وإن لم يكن رَبَّنا فإنا نتَّبعُ قولَ موسى. وقالت فرقةٌ: هذا عَمَلُ الشيطان، وليس بربِّنا ولا نُؤمِن به ولا نُصَدِّق. وَأُشْرِبَ[5] فرقةٌ في قلوبهم الصِّدْقَ بما قال السَّامِريُّ في العجل وأَعْلَنُوا التَّكْذِيبَ به، فقال لهم هارون: ﴿ يا قوم إنما فتِنتُم به وإنَّ ربَّكم الرَّحمن ﴾ [طه: ٩٠] [وليس][6] هكذا. قالوا: فما بالُ موسى وَعَدَنا ثلاثين يوماً ثُمَّ أخلفنا؟ هذه أربعونَ يوماً قد مَضت! وقال سفهاؤُهم: أخطأ ربَّه فهو يطلُبه ويتبَعُه.

فلما كلم الله موسى وقال له ما قال، أخبره بما لَقِي قَوْمُه من بعده، ﴿ فرجعَ مُوسَى إلى قومه غَضْبانَ أَسِفاً ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، فقال لهم ما سَمِعتُم في القرآن، ﴿ وأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه ﴾، وألقى الألواحَ من الغَضَب، ثم إنه عَذَر أخاه بعُذْرِه، واستغفر له، وانصرف إلى السامريِّ فقال له: ما حَمَلك على ما صنعتَ؟ قال: قبضتُ قَبْضَةً من أَثَر الرسول، وفَطِنتُ لها وعُمِّيتْ عليكم، فقذفتها ﴿وكذلك سَوَّلَت لي نَفْسِي * قال فاذهَبْ فإنَّ لك في الحياةِ أن تَقُولَ لا مِسَاسَ وإنَّ لك مَوْعِداً لن تُخلَفَه وانظرُ إلى إلَهِكَ الذي ظَلْتَ عليه عاكفاً لَنُحرِّقَنه ثم لننسِفَنَّه في اليَمِّ نَسْفاً﴾ [طه: ٩٦ ـ ٩٧] ولو كان إلَهاً لم يُخلَصْ إلى ذلك منه. فاستيقن بَنُو إسرائيلَ بالفتنةِ، واغتبطَ الذين كان رأيُهم فيه مثلَ رَأْيِ هارونَ، فقالوا لجماعَتِهم: يا موسى، سَلْ لنا ربَّك أن يفتَحَ لنا بابَ توبةٍ نصنَعُها، فَيُكفِّر عنا ما عملنا. فاختار موسى قومَه سبعين رجلاً لذلك، لا يَأْلُو الخيرَ خيارَ بني إسرائيل، ومن لم يُشْرِك في

---

(١) العاريَّة: ما تُعطيه غيرك على أن يعيده إليك، والجمع عَوارِيُّ. ويقال فيها أيضاً: العارَةُ، والجمع عوارٍ.

(٢) أي: تصبرون على مالكم عندهم، وتَدَّخرون الأجر عليه.

(٣) أي: ارتحل معهم حين ارتحلوا.

(٤) انظر تفسير الآية ٩٦ من هذه السورة.

(٥) أي: خالَطَ قلوبَهم صِدْقُ السامريّ في مقالته، ولكنهم أعلنوا غير ما يبطنون. وهذه فرقة المنافقين منهم.

(٦) عن الدرّ المنثور. وكلمة «هكذا» ساقطة من النسخ عدا نسخة الحرم.

العِجل، فانطلق بهم يسألُ لهم التوبة، فَرَجفت بهم الأرضُ، فاستحيا نبيُّ الله مِنْ قومه ومن وَفْدِه حين فُعِل بهم ما فُعِل، فقال: ﴿ رَبِّ لو شِئْتَ أهلكتَهُم من قبل وإياي أتُهلِكُنا بما فَعَل السُّفهاءُ منَّا ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وفيهم من كان الله اطَّلَعَ منه على ما أُشرِبَ قلبُه من حُبِّ العجل وإيمانٍ به، فلذلك رَجَفَتْ بهم الأرضُ، فقال: ﴿ رحمَتِي وَسِعت كل شيء فسأكتبُها للذين يتَّقون ويُؤتُونَ الزَّكاةَ والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يَتَّبِعُونَ الرسُولَ النبيَّ الأُمِّيَّ الذي يَجِدُونَه مَكتُوباً عِندَهم في التوراة والإنجيل ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. فقال: يا ربِّ، سألتُكَ التوبةَ لقومي، فقلت: إنَّ رحمتي كتبتُها لقوم غير قومي، فَلَيتك أخَّرتني حتى تُخرجني في أُمَّة ذلك الرَّجُلِ المَرْحُومَةِ! فقال له: إنَّ توبتهم أن يَقْتُلَ كُلُّ رجل منهم مَنْ لقي من وَالِدٍ وَوَلَدٍ، فَيَقتله بالسيف ولا يبالي من قَتَلَ في ذلك الموطن، وتاب أولئك الذين كان خَفِي على مُوسَى وهارونَ واطَّلع الله من ذُنُوبِهِمْ فاعتَرَفُوا بها، وَفَعلوا ما أُمِرُوا، وغَفَر الله للقاتِلِ والمقتُولِ.

ثم سار بهم موسى ـ عليه السلام ـ مُتوجِّهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواحَ بعد ما سَكت عنه الغضبُ، فأمرهم بالذي أمَره به أن يُبَلِّغهم من الوظائف، فَثَقُلَ ذلك عليهم، وأبَوا أن يُقِرُّوا بها، فَنتَق[1] الله عليهم الجَبَل كأنه ظُلَّةٌ، وَدَنا منهم حتى خَافُوا أن يَقع عليهم، فأخذُوا الكتابَ بأيمانهم وهم مُصغُونَ ينظرُون إلى الجَبَلِ، والكتابُ بأيديهم، وهُم من وراءِ الجَبَل مخافَةَ أن يَقَعَ عليهم.

ثم مَضَوا حتى أتَوا الأرضَ المُقدَّسة، فوجدُوا مدينةً فيها قومٌ جَبَّارونَ، خَلْقُهُمْ خَلْقٌ مُنكَرٌ ـ وذَكَروا من ثمارهم أمراً عجيباً من عِظَمِها ـ فقالوا: ﴿ يا موسَى إنَّ فيها قوماً جَبَّارِينَ ﴾ [المائدة: ٢٢] لا طاقَةَ لنا بهم، ولا ندخُلُها ما داموا فيها، ﴿ فإن يخرجُوا منها فإنا داخلون * قال رَجُلان من الذين يَخَافُون ﴾[2] [المائدة: ٢٢ ـ ٢٣] ـ قيل ليزيدَ: هكذا قَرَأَه؟ قال: نعم، من الجَبَّارِين ـ آمَنَا بمُوسى. وخَرَجا إليه، فقالوا: نحن أعلمُ بقومنا، إن كنتم إنما تَخافون ما رأيتم من أجسامهم وعَدَدِهم، فإنهم لا قُلُوبَ لهم ولا مَنَعة عندهم، فادخُلوا عليهم الباب، ﴿ فإذا دخلتمُوه فإنكم غالبون ﴾ [المائدة: ٢٣] ويقول أناس: إنهما من قوم موسى ـ فقال الذين يَخافُون، بَنُو إسرائيل: ﴿ يا مُوسَى إنا لن نَدْخلَها أبداً ما دامُوا فيها فاذهَبْ أنت وربُّك فَقَاتِلا إنَّا هاهنا قاعِدُون ﴾ [المائدة: ٢٤]. فأغضَبُوا موسى، فدعا عليهم وسَمَّاهم فاسقين، ولم يَدْعُ عليهم قبل ذلك، لِمَا رأى منهم من المعصِيَة وإساءَتِهم، حتى كان يومئذٍ فاستجاب الله تعالى له، وسَمَّاهم كما سَمَّاهم موسى: فاسقين، فَحَرَّمها عليهم أربعين سنةً يَتيهونَ في الأرض، يُصبحُون كلَّ يوم فَيَسيرُون ليس لهم قَرارٌ. ثم ظَلَّل عليهم الغَمام في التيه، وأنزل عليهم المنَّ والسَّلْوَى، وجَعل لهم ثياباً لا تَبْلَى ولا تَتسخ، وجعل بين ظهرانيهم حَجَراً مُرَبَّعاً، وأمر موسى فضَرَبه بعصاه، ﴿ فانفجرَتْ مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْناً ﴾ [البقرة: ٦٠]، في كل ناحيةٍ ثلاثُ أعينٍ، وأَعْلَم كُلَّ سِبْط عَيْنَهُم التي يشربُون منها، فلا يَرْتَحِلُون من مَنْقَلة[3] إلا وَجَدُوا ذلك الحَجر بينهم بالمكانِ الذي كانَ فيه بالأمسِ.

رفع ابنُ عباس هذا الحديثَ إلى النبيِّ ـ ﷺ ـ وصَدَّقَ ذلك عندي أن معاوية سَمِعَ ابن عباس حَدَّثَ هذا الحديثَ، فأنكر عليه أن يكون الفِرْعَوني الذي أفشَى على موسى أمْرَ القتيل الذي قَتَل، فقال: كيف يُفشِي عليه ولم يكن عَلِمَ به ولا ظَهَرَ عليه إلا الإسرائيليُّ الذي حَضَر ذلك؟ فغضِبَ ابنُ عباس، فأخذ بِيَدِ مُعَاوِيَةَ فانطلق به

---

(١) أي: رَفَعه.

(٢) نسبت هذه القراءة إلى عبدالله بن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبير. انظر روح المعاني للألوسي ٦/١٠٧.

(٣) المنقلة: المرحلة من مراحل السفر، والمرحلة: المسافة يقطعها السائر في نحو يوم.

إلى سَعْد بن مالك الزُّهريِّ، فقال له: يا أبا إسحاق، هل تذكُرُ يومَ حَدَّثَنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن قَتِيل موسى الذي قَتَل من آل فرعون؟ ألإسرائيليّ الذي أفشى عليه أم الفِرْعَوني؟ قال: إنما أفشَى عليه الفِرْعَونيُّ بما سمع من الإسرائيليِّ الذي شَهِد على ذلك وحَضَره.

هكذا رواه الإمام النسائيُّ في السُّنَن الكبير، وأخرجه أبو جعفر بن جَرير[١] وابن أبي حاتم في تفسيريهما، كلُّهم من حديث يزيد بن هارون، به. وهو موقوفٌ من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوعٌ إلا قليلٌ منه، وكأنه تلقاه ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ مما أُبيح نقله من الإسرائيليات عن كَعْب الأحبار أو غيره، والله أعلم. وسَمِعتُ شيخنا الحافظ أبا الحجاج المِزِّيَّ يقولُ ذلك أيضاً.

﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول تعالى مخاطباً لموسى ـ عليه السلام ـ: إنه لَبِث مُقيما في أهل «مَدْيَن» فاراً من فرعون ومَلَئِه، يَرْعَى على صهره، حتى انتهت المدَّةُ وانقضى الأجلُ، ثم جاء موافقاً لقَدَرِ الله وإرادته من غير ميعاد، والأمرُ كلُّه لله تبارك وتعالى، وهو المسَيِّر عباده وخَلْقه فيما يشاء، ولهذا قال: ﴿ ثم جئتَ على قَدَرٍ ﴾، قال مجاهد: أي على مَوْعِدٍ.

وقال عبد الرزَّاق، عن مَعْمرٍ، عن قتادَةَ في قوله: ﴿ ثم جئتَ على قَدَرٍ يا موسى ﴾، قال: على قَدَرِ الرِّسالة والنبوة.

وقولُه: ﴿ واصطنعتُك لنفسي ﴾، أي: اصطفيتُكَ واجتبيتُكَ رَسُولاً لنفسي، أي: كما أُريد وأشاء.

وقال البخاري عند تَفْسيرها: حدثنا الصَّلْتُ بن محمد، حدثنا مَهْدِيُّ بن مَيْمُونٍ، حدثنا محمد بن سِيرينَ، عن أبي هُريرَةَ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «التقى آدمُ وموسى، فقال موسى: أنت الذي أشقيتَ الناس وأخرجتَهم من الجنَّة؟ فقال آدم: أنتَ الذي اصطفاكَ الله برسالاته، واصطفَاكَ لنفسِه، وأنزل عليك التوراةَ؟ قال: نعم. قال: فوجدتَهُ قد كَتَب عَليَّ قبل أن يخلُقني؟ قال: نَعم. فَحَجَّ آدمُ موسى. أخرجاه[٢].

﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ﴾، أي: بحُجَجي وبراهيني ومعجزاتي، ﴿ ولا تنيا في ذكري ﴾، قال علي ابن أبي طلحَةَ، عن ابن عباس: لا تُبطِئا. وقال مجاهد، عن ابن عباس: لا تَضْعُفا[٣].

والمرادُ أنهما لا يَفْتُران في ذِكْرِ الله، بل يَذْكُران الله في حالِ مواجهةِ فِرْعَون، ليكون ذِكْرُ الله عَوْناً لهما عليه، وقُوَّةً لهما وسلطاناً كاسِراً له، كما جاء في الحديث: «إن عَبْدِي لَلَّذي يذكُرني وهو مُناجِزٌ قِرْنَه»[٤].

---

(١) تفسير الطبري ١٦/١٦٤ ـ ١٦٧، والدرّ المنثور عن ابن أبي عُمَر العَدَني، وعبد بن حُميد، والنسائي، وابو يعلى، والطبري، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن سعيد بن جبير ٥/٥٦٩ ـ ٥٧٩.

وحديث أبي يعلى في مسنده ٥/١٠ ـ ٢٩ عن أبي خيثمة، عن يزيد بن هارون، به. وقد أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/٥٦، وقال: «رواه أبو يعلى ورجاله رجالُ الصحيح غير أصبغ بن زيد، والقاسم بن أبي أيوب، وهما ثقتان».

(٢) فتح الباري، تفسير سورة طه ٨/٤٣٤، ومسلم، كتاب القدَر ٢/٢٠٤٣ ـ ٢٠٤٤. وانظر شرح الحديث في فتح الباري، كتاب القدر ١١/٥٠٥ ـ ٥١٢.

(٣) تفسير الطبري ١٦/١٦٨ ـ ١٦٩، والدرّ المنثور ٥/٥٧٩.

(٤) عارضة الأحوذي، أبواب الدعاء ١٣/٨١ ـ ٨٢.

﴿ اذهبا إلى فِرْعونَ إنه طَغَى ﴾، أي: تَمرَّد وعَتَا وتَجَهْرم على الله وعَصَاه، ﴿ فقولا له قولاً لَيِّنا لعله يتذكَّر أو يخشى ﴾، هذه الآية فيها عِبرةٌ عظيمة، وهو أن فِرْعون في غاية العُتُوِّ والاستكبار، وموسى صَفْوَةُ الله من خَلْقِه إذ ذاك، ومع هذا أُمِرَ ألاَّ يخاطِب فِرْعونَ إلا بالملاطفة واللِّين، كما قال يَزيدُ الرَّقَاشيُّ عند قوله: ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾: يا مَن يتحبَّبُ إلى من يعاديه، فكيف بمن يَتولاَّه ويُناديه؟ وقال وهب بن مُنَبه: قولا له: إني إلى العَفْوِ والمغفرةِ أقربُ منِّي إلى الغَضَبِ والعُقُوبَةِ.

وعن عِكْرِمَة في قوله: ﴿ فقُولاَ له قَوْلاً لَيِّناً ﴾، قال: لا إلَه إلاَّ الله. وعن عَمْرو بن عُبَيد، عن الحسن البَصْرِيِّ: ﴿ فقُولا له قولاً لَيِّناً ﴾: أعْذرا إليه، قُولاَ له: إنَّ لك ربّاً، ولكَ مَعاداً، وإنَّ بين يَدَيْك جَنَّةً وناراً.

وقالَ بقيَّةُ، عن علي بن هارونَ، عن رجل، عن الضَّحاك بن مُزَاحِم، عن النَّزَّال بن سَبْرة، عن علي في قوله: ﴿ فقولا له قولاً لَيِّناً ﴾، قال: كَنِّه. وكذا رُوِيَ عن سُفيانَ الثَّورِيِّ: كَنِّه بأبي مُرَّةَ.

والحاصلُ من أقوالهم أنَّ دعوتهما له تكون بكلام رقيق لَيِّن قَريبٍ سَهْلٍ، لِيَكُون أوقعَ في النفوس وأبلغ وأنجعَ، كما قال تعالى: ﴿ ادعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحِكْمَةِ والموعِظَةِ الحَسَنَةِ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾... الآية.

وقولُه: ﴿ لعله يتذكَّر أو يخشَى ﴾، أي: لَعلَّه يرجع عما هو فيه الضَّلال والهلكة، ﴿ أو يخشَى ﴾، أي: يُوجِدُ طاعةً من خَشيةِ ربِّه، كما قال تعالى: ﴿ لمن أَرَاد أن يَذَّكَّر أو أراد شُكُورا ﴾[١]، فالتذكُّرُ: الرجوعُ عن المحذُورِ، والخشيةُ: تَحصِيلُ الطَّاعَةِ.

وقال الحسنُ البَصْرِيّ: ﴿ لَعَلَّه يتذكَّرُ أو يخشَى ﴾، يقول: لا تَقُلْ أنتَ يا موسى وأَخُوكَ هارون: أَهْلِكْه، قبل أن تُعْذِرا[٢] إليه.

وهاهنا نذكُر شعرَ زَيدِ بنِ عَمرو بن نُفَيل، ويُرْوَى لأُمَيّةَ بن أبي الصَّلْتِ فيما ذَكَره ابنُ إسحاقَ[٣]:

وَأَنتَ الذي مِنْ فَضْلِ مَنٍّ وَرحمة ... بَعَثْتَ إلى مُوسَى رَسُولاً مُنَادِيَا
فَقُلتَ له: يَا اذهَبْ وَهَارُونَ فادعُوَا ... إلى الله فِرعونَ الذي كانَ بَاغِيَا
فَقُولاَ له: هَلْ أَنتَ سَوَّيتَ هَذهِ ... بِلاَ وَتِدٍ حتَّى اسْتَقلَّتْ كَمَا هِيَا؟
وَقُولا لَه: آ أَنت رَفَعْتَ هَذِهِ ... بِلا عَمَدٍ؟ أَرْفِقْ إذا بِكَ بَانِيَا!
وَقُولاَ له: آ أَنت سَوَّيت وَسْطَها ... مُنِيراً إذا ما جَنَّهُ اللَّيلُ هَادِيا؟
وقُولاَ له: مَنْ يُخرِجُ الشَّمْسَ بُكرَةً ... فَيُصْبِحَ مَا مَسَّتْ مِنَ الأرضِ ضَاحِيَا؟
وقولاَ له: مَنْ يُنْبِتُ الحبَ في الثَّرَى ... فَيُصْبِحَ منه البَقْلُ يَهْتَزُّ رَابِيَا؟
ويُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّه في رُؤُوسِه ... فَفِي ذَاكَ آيَاتٌ لِمَنْ كَانَ وَاعِيَا

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ

(١) في النسخ: «لمن أراد أن يذكر أو يخشى». وليس آية، والآية المثبتة من سورة الفرقان، رقم ٦٢.

(٢) انظر أثر الحسن في الدرّ المنثور ٥/ ٥٨٠. وأعذر إليه: كان منه نحوه ما يُعذَر به، والمراد: أَخلِصا النصيحة له حتى لا يؤاخذكما بمظنّة التقصير في حقّه. وهو معنى المثل المشهور: أَعْذَرَ مَنْ أَنذَرَ.

(٣) تقدمت الأبيات عند تفسير الآية الثانية من سورة الرعد، وشرحناها هنالك.

﴿أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ إنهما قالا مُستَجيرَين بالله تعالى شاكيَيْن إليه: ﴿إِنَّنا نخافُ أَنْ يَفْرُطَ علينا أو أن يَطْغَى﴾، يعنيان أن يَبْدُرَ إليهما بعُقوبةٍ، أو يعتدي عليهما فيعاقِبَهما وهما لا يستحقان منه ذلك.

قال عبدُ الرحمن بن زيد: ﴿أن يَفرُطَ﴾: يَعْجَل. وقال مجاهد: يَبْسُطَ علينا. وقال الضَّحَّاكُ، عن ابن عبَّاسٍ: ﴿أو أن يَطْغَى﴾: يَعْتَدِي.

﴿قال لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُما أسمَعُ وَأَرَى﴾، أي: لا تَخافا منه، فإنني معكما أسمَعُ كَلامَكما وكَلامَه، وأرى مَكانكما ومَكانه، لا يخفَى عليَّ من أمركم شيءٌ، واعلَما أنَّ ناصِيته بِيَدي، فلا يَتكلَّم ولا يَتنفَّسُ ولا يَبْطِشُ إلا بِإذني وبعد أمري، وأنا مَعَكما بِحِفْظي ونَصْري وتأْييدي.

وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطَّنَافسيُّ، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عَمْرو بـن مُرَّة، عن أبي عُبَيدة، عن عبد الله قال: لما بعث اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ موسى إلى فِرْعونَ قال: ربِّ، أيَّ شيءٍ أقولُ؟ قال: قُلْ: هيا شر هيا. قال الأعمشُ: فَسْرُ ذلك الحيُّ قبل كلِّ شيءٍ، والحيُّ بعدَ كلِّ شيءٍ[1]. إسناد جيد، وشيء غريبٌ.

﴿فَأْتِياهُ فَقُولا إنا رَسُولاَ رَبِّكَ﴾، قد تَقدَّم في حديثِ «الفُتُونِ» عن ابن عبَّاسٍ أنه قال: مَكَثا على بابه حِيناً لا يُؤذَنُ لهما، ثم أَذِن لهما بعد حِجابٍ شَدِيدٍ.

وذكر مُحمَّد بن إسحاقَ بن يَسارٍ أنَّ موسى وأخاه هارونَ خرجا فوقفا بباب فِرْعونَ يَلتَمِسانِ الإِذْنَ عليه وهما يَقُولان: إنا رُسُل رب العالمين، فآذِنُوا بنا هذا الرجُلَ. فمكثَا فيما بلغني سنتين يَغْدُوان ويَرُوحَان، لا يعلَمُ بهما ولا يجترىءُ أحدٌ على أن يُخبِرَه بشأنهما، حتى دخل عليه بَطَّالٌ[2] له يُلاعِبُه ويُضحِكُه، فقال له: أيُّها الملك، إنَّ على بابك رَجُلاً يقول قولاً عجباً، يزعُم أنَّ له إلَهاً غيرَك أرسَلَه إليكَ. قال: ببابِي؟ قال: نعم. قال: أَدخِلُوه. فَدَخل ومعه أخوه هارونُ وفي يده عَصَاه، فلما وَقَف على فِرْعَونَ قال: إني رسولُ ربِّ العالمين. فَعَرَفَه فِرْعَونُ.

وذكر السُّدّي أنه لما قَدِم بلاد مِصْرَ، ضاف أُمَّه وأخاه وهما لا يَعْرِفانه، وكان طَعامُهم لَيْلَتئِذٍ الطَّفَيْشَلَ[3] وهو اللُّفْتُ، ثم عَرَفاه وسَلَّما عليه، فقال موسى: يا هارونُ، إن ربِّي قد أمرني أن آتيَ هذا الرجل فِرْعَونَ فأدعُوه إلى الله، وَأمر أن تُعاوِنَني. قال: افعَلْ ما أَمرَكَ ربُّك. فَذَهبا، وكان ذلك ليلاً، فَضَرَبَ موسى بابَ القصر بِعَصَاه، فسمع فِرْعَونُ فغضب وقال: من يجترىءُ على هذا الصَّنِيع؟ فأخبره السَّدنة والبَوَّابون بأن هاهنا رجلاً مجنوناً يقول: «إنه رسولُ الله». فقال: عَلَيَّ به. فلما وقفا بين يديه قالا وقال لهما ما ذَكَر اللهُ في كتابه.

---

(١) الدرّ المنثور ٥/٥٨١ عن ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم.

(٢) البَطَّال: الهازل، والذي يأخذ في اللهو والجهالة.

(٣) في نسخة الأزهر: الطعشل. وهي غير واضحة في نسخة الحرم، على أنها أقرب إلى ما في البداية والنهاية ١/٢٣٦، ففيها، الطفشيل. فأما الطفشيل هذا فلم نجده في اللغة، والمثبت في تاج العروس: الطَّفَيْشَل ـ كسَمَيْدَع ـ وهو نوع من المرق. ولم يثبت في تفسيره أنه اللِّفت. وقد بحثنا في مرادفات اللِّفت فلم نجد إلا السَّلْجَم. ولعلَّ كلمة «اللِّفت» مُحَرَّفةٌ عن «اللَّفِيتة»، وقد قيل في تفسيرها: إنها مَرَقَةٌ تُشبهُ الحَيْسَ، والحَيْسُ: تَمْرٌ واقِطٌ ـ وهو لَبَنٌ مُحمَّض يُجمَّد حتى يَسْتحجِرَ ويُطبَخ، أو يُطبَخُ به ـ وسَمْنٌ، تُخْلَط وتُعجَن وتُسَوَّى كالثريد. فهذا ما يُسمَّى طعاماً، فأما أن يكون اللِّفت طعاماً فبعيد!

وقوله: ﴿ قد جئناكَ بآيةٍ من ربِّك ﴾، أي: بِدَلالةٍ ومُعجزَةٍ من ربِّك، ﴿ والسلامُ على من اتَّبع الهُدَى ﴾، أي: والسلامُ عليكَ إن اتَّبعتَ الهُدَى.

ولهذا لما كَتَب رسولُ الله - ﷺ - إلى هِرَقْلَ عظيم الروم كتاباً، كان أوَّلَه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هِرَقْلَ عظيم الروم، سلامٌ على من اتَّبع الهُدَى. أما بعدُ، فإني أدعوكَ بدعايةِ الإسلام، فَأَسْلِم تَسْلَم يُؤتِكَ الله أَجْرَكَ مرَّتين»(١).

وكذلك لما كَتَب مُسَيلمة إلى رَسُولِ الله - ﷺ - كتاباً صُورتَهُ: «من مسَيلِمَةَ رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك. أما بعد، فإني قد أُشْرِكتُ في الأمر مَعَك، فَلَكَ المَدَرُ ولي الوَبَرُ، ولكن قُريشاً قومٌ يعتدون».

فكتب إليه رسولُ الله - ﷺ -: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكَذَّاب، سلامٌ على من اتَّبع الهدى، أما بعد فإنَّ الأرضَ لله يُورثُها من يشاءُ من عِباده، والعاقبةُ للمُتقين»(٢).

ولهذا قال موسى وهارون عليهما السلام لِفرْعونَ: ﴿والسلامُ على من اتَّبع الهُدَى * إنا قد أُوحِيَ إلينا أَنَّ العذابَ على من كَذَّب وتَوَلَّى ﴾، أي: قد أَخبَرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوَحْيِ المعصُوم أَنَّ العذابَ مُتمحِّض لمن كَذَّب بآيات الله وتَولَّى عن طاعته، كما قال تعالى: ﴿فأما من طغَى وآثَرَ الحياة الدنيا * فإن الجَحِيمَ هي المَأْوى﴾، وقال تعالى: ﴿فأنذرْتُكم ناراً تلظَّى * لا يَصْلاها إلا الأشقَى * الذي كَذَّب وتَوَلَّى﴾، وقال تعالى: ﴿فلا صَدَّق ولا صلى * ولكن كَذَّب وتَولَّى﴾، أي: كذبَ بقلْبه وتولَّى بفعْلِه.

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن فِرْعونَ أنه قال لموسى مُنكِراً وُجودَ الصَّانع الخالق، إلَهِ كلِّ شيءٍ ورَبِّه ومَليكه، قال: ﴿ فمن ربُّكما يا مُوسَى ﴾، أي: الذي بَعَثك وأرسلك مَنْ هو؟ فإني لا أعرِفُه، وما عَلِمْتُ لكم من إلَهٍ غيري، ﴿ قال رَبُّنا الذي أَعطَى كُلَّ شيء خَلْقَه ثم هَدَى ﴾.

قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس، يقول: خَلَق لكل شيء زَوْجة. وقال الضَّحاكُ، عن ابنِ عباس: جَعَل الإنسان إنساناً، والحمار حِماراً، والشاةَ شاةً. وقال لَيثُ بن أبي سُلَيم، عن مجاهد: أعطى كُلَّ شيء صُورَته. وقال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: سَوّى خَلْقَ كلِّ دابة(٣).

وقال سعيد بنُ جُبير في قوله: ﴿ أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقه ثم هَدَى ﴾، قال: أعطى كُلَّ ذي خَلْقٍ ما يُصلِحه من خَلْقه، ولم يجعل للإنسان من خَلْق الدابة، ولا للدَّابة من خلق الكَلْب، ولا للكَلْب من خَلْق الشَّاة، وأعطى كُلَّ ذي شَيْءٍ ما ينبغي له من النكاح، وهيَّأ كُلَّ شيءٍ على ذلك، ليس شيْءٌ منها يُشبِهُ شيئاً من أفعاله في الخَلْق والرِّزْقِ والنكاح(٣).

وقال بعضُ المفسِّرين: ﴿ أعطى كُلَّ شيءٍ خَلْقه ثم هدى ﴾ كقوله تعالى: ﴿ الذي قَدَّر فهَدى ﴾، أي:

(١) فتح الباري، كتاب بدء الوحي ١/٣٢. ومسلم، كتاب الجهاد ٣/١٣٩٦، ومسند أحمد ١/٢٦٣.
(٢) سيرة ابن هشام ٢/٦٠٠ - ٦٠١.
(٣) انظر الآثار في تفسير الطبري ١٦/١٧١ - ١٧٢، والدرّ المنثور ٥/٥٨١ - ٥٨٢.

قَدَّر قدراً، وهَدَى الخلائق إليه، أي: كَتَب الأعمالَ والآجالَ والأرزاقَ، ثم الخلائقُ ماشُونَ على ذلك، لا يَحِيدُون عنه، ولاَ يقدِرُ أحدٌ على الخروج منه. يقول: رَبُّنا الذي خَلَق، وقَدَّر، وجَبَل الخَليقة على ما أراد.

﴿ قال فما بالُ القرونِ الأولى ﴾، أصحُّ الأقوالِ في معنى ذلك أنَّ فِرْعَونَ لما أخبَره مُوسَى بأنَّ ربَّه الذي أرسله هو الذي خَلَق ورزَق وقَدَّر فهدى، شَرَع يحتج بالقرون الأولى، أي: الذين لم يَعبُدوا الله، أي: فما بالُهم إذ كان الأمرُ كما تقول لم يعبُدوا رَبَّك، بل عَبَدُوا غيره؟ فقال له موسى في جَواب ذلك: هُم وإن لم يعبدُوه فإنَّ عَمَلهم عند الله مضبوطٌ عليهم، وسَيَجْزيهم بعَمَلِهم في كتاب الله، وهو اللوحُ المحفوظُ وكتابُ الأعمال، ﴿ لا يضلُّ ربِّي ولا ينسَى ﴾، أي: لا يَشِذُّ عنه شيء، ولا يفوتُه صغيرٌ ولا كبيرٌ، ولا ينسَى شيئاً. يَصِفُ علمه تعالى بأنه بكلِّ شيءٍ محيطٌ، وأنه لا ينسَى شيئاً، تبارك وتعالى وتقدَّس، فإنَّ علم المخلوقِ يَعتَريه نُقصانانِ، أحدُهما: عَدَمُ الإحاطةِ بالشيءِ، والآخرُ نِسيانُه بعد عِلْمِه، فَنَزَّه نفسَه عن ذلك.

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾

هذا من تمام كلام مُوسَى فيما وَصف به ربَّه ـ عزَّ وجلَّ ـ حين سأله فِرْعَون عنه، فقال: ﴿ الذي أعطَى كُلَّ شيء خلقه ثم هَدَى ﴾، ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال: ﴿ الذي جَعَل لكم الأرض مهاداً ﴾، وفي قراءة بعضهم: ﴿ مَهْداً ﴾[١]، أي: قراراً تستقِرُّون عليها وتَقُرُّون عليها وتَقُومون وتنامون عليها وتُسافِرُون على ظهرها، ﴿ وسَلَكَ لكم فيها سُبُلا ﴾، أي: جعل لكم طرقاً تمشون في مناكبها، كما قال تعالى: ﴿ وجَعَلنا فيها فِجَاجاً سُبُلاً لعلهم يَهتدُونَ ﴾.

﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ﴾. أي: من ألوان النباتات من زُرُوعٍ وثِمارٍ، من حامِضٍ وحُلْوٍ، وسائر الأنواع.

﴿ كُلُوا وارعَوا أنعامكم ﴾، أي: شيءٌ لطعامكم وفاكهتكم، وشيءٌ لأنعامكم لأقواتها خضراً ويابساً.

﴿ إنَّ في ذلك لآياتٍ ﴾، أي: لدلالات وحُجَجاً وبراهينَ ﴿ لأولي النهى ﴾، أي: لِذَوِي العُقول السليمة المستقيمة، على أنَّه لا إلَهَ إلا الله، ولا ربَّ سواه.

﴿ منها خَلَقناكم وفيها نُعيدكم ومنها نُخرجُكم تارةً أخرى ﴾، أي: من الأرض مَبْدَؤكم، فإنَّ أباكُم آدمَ مخلوقٌ من تُرَابٍ من أديمِ الأَرْضِ، ﴿ وفيها نُعيدكم ﴾، أي: وإليها تَصِيرون إذا مِتُّم وبَلِيتُم، ﴿ ومنها نُخرِجُكم تارة أُخْرَى ﴾، ﴿ يومَ يدعوكم فتستجيبونَ بحَمْدِه وتَظُنُّون إن لبثتم إلا قليلاً ﴾.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾. وفي الحديث الذي في السُّنن أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ حَضَر جنازَةً، فلما دُفِن الميِّتُ أخذ قَبضةً من التُّراب فألقاها في القبر ثم قال: ﴿ منها خَلَقناكُم ﴾. ثم أُخرَى وقال: ﴿ وفيها نُعيدكم ﴾. ثم أُخرَى وقال: ﴿ ومنها نُخرِجُكم تارةً أخرى ﴾[٢].

(١) قرأ الكوفيون (مَهْداً)، والباقون من السبعة (مِهاداً). انظر الإقناع لابن الباذش ٦٩٨/٢.

(٢) أخرج الحاكم نحوه، المستدرك ٣٧٩/٢، وانظر السُّنن الكبرى للبيهقي، كتاب الجنائز ٤٠٩/٢، والدر المنثور ٥٨٤/٥.

وقوله: ﴿ولقد أريناه آياتنا كلَّها فكذَّب وأبى﴾، يعني فِرعون، أنه قامت عليه الحُجَجُ والآياتُ والدَّلالاتُ، وعاين ذلك وأبصرَه، فكذَّب بها وأباها كُفراً وعِناداً وبَغْياً، كما قال تعالى: ﴿وجحَدُوا بها واستيقنتها أنفسُهم ظُلماً وعُلوّاً فانظر كيف كان عاقبةُ المُفسِدِينَ﴾.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن فِرعَون أنه قال لموسَى حين أراه الآيةَ الكُبرى، وهي إلقاءُ عصاه فصارَت ثعباناً عَظيماً، ونَزَع يده من تحتِ جَناحِه فخرَجت بيضاءَ من غير سُوءٍ، فقال: هذا سحر، جئتَ لِتَسحَرَنا وتَستوليَ به على الناس، فيَتَّبعونك وتُكاثرنا بهم، ولا يتمُّ هذا معك، فإنَّ عندنا سِحراً مثل سِحْرِك، فلا يَغُرَّنك ما أنتَ فيه، ﴿فاجعَل بيننا وبينكَ مَوْعِداً﴾، أي: يوماً نجتمعُ نحن وأنتَ فيه، فنعارضَ ما جئتَ به بما عندنا من السحر في مكانٍ مُعيَّنٍ ووقتٍ مُعيَّنٍ. فعند ذلك (قال) لهم موسى: ﴿مَوْعِدُكم يومُ الزِّينة﴾، وهو يومُ عِيدِهم ونَوْرُوزِهم[١] وتفرغهم من أعمالِهم واجتماعهم جميعهم، ليشاهدَ الناسُ قدرةَ الله على ما يشاءُ، ومُعجِزاتِ الأنبياء، وبطلانِ معارَضَةِ السِّحر لخوارق العادات النبوية، ولهذا قال: ﴿وأن يحشر الناس﴾، أي: جميعهم ﴿ضُحىً﴾، أي: ضَحْوَة من النهار ليكونَ أظهرَ وأجلَى وأبْيَنَ وأوضَحَ. وهكذا شأنُ الأنبياءِ، كُلُّ أَمْرِهم واضحٌ بيِّنٌ، ليس فيه خَفاءٌ ولا ترويجٌ[٢]. ولهذا لم يقل: ليلاً، ولكن نهاراً ضُحىً.

قال ابن عبَّاسٍ: وكان يومُ الزينة يومَ عاشوراء. وقال السديُّ، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ: كان يومَ عيدهم. وقال سَعيد بن جُبَير: يوم سُوقهم.

ولا منافاة. قلتُ: وفي مثله أهلك الله فِرْعونَ وجُنودَه، كما ثبت في الصحيح.

وقال وهب بن مُنبِّه: قال فِرعَونُ: يا مُوسَى، اجعَلْ بيننا وبينكَ أجلاً ننظرُ فيه. قال موسى: لم أُومر بهذا، إنما أُمِرتُ بمُناجَزتك[٣]، إن أنت لم تخرج دخلت إليك. فأوحى الله إلى موسى أن اجعَلْ بينَكَ وبينَه أجلاً، وقل له أن يجعَلَ هو. قال فِرْعونُ: اجعله إلى أربعين يوماً. ففَعل.

وقال مجاهدٌ، وقتادةُ: ﴿مكاناً سُوَى﴾، قال: مَنْصِفاً. وقال السُّديُّ: عَدْلاً. وقال عبدُ الرحمٰن بن زَيدِ بن أسلمَ: ﴿مكاناً سُوَى﴾: يتَبيَّن الناسُ ما فيه، لا يكونُ صَوَبٌ[٤] ولا شيءٌ يتغيَّبُ بعضَ ذلك عن بَعْضٍ، مُستوٍ حينَ يُرَى.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن

---

(١) النَّوروز، أو النيروز بالفارسية: اليوم الجديد، وهو أول يوم من السنة الشمسيّة الإيرانية، ويوافق اليوم الحادي والعشرين من شهر مارس من السنة الميلادية. وعيد النيروز أكبر الأعياد القومية للفرس. يريد أنه عيد لأهل مصر بمثابة عيد النيروز للفرس.

(٢) أي: ولا اختلاط ولا إبهام، يقال: رَوَّج كلامه: أبهمه فلا تُعلَم حقيقته.

(٣) أي: بمنازلتك ومقاتلتك.

(٤) في النسخ والدر المنثور ٥/٥٨٤: صَوْتٌ. والمثبت عن تفسير الطبري ١٦/١٧٦. ولعل الصُّوَب جمعُ صُوبَةٍ، وهو تطلق على كُلِّ مجتمع من تمرٍ وتراب وغير ذلك.

يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن فِرْعونَ أنه لما تواعَدَ هو وموسى ـ عليه السلام ـ إلى وقتٍ ومكان معلومَين، تولَّى، أيّ: شَرَع في جَمْع السَّحرةِ من مدائن مملكته، كُلّ من نُسِبَ إلى سِحْرٍ في ذلك الزمان. وقد كان السِّحرُ فيهم كثيراً نافقاً جداً، كما قال تعالى: ﴿ وقال فِرْعونُ ائتُوني بكلّ ساحرٍ عَلِيم ﴾.

﴿ ثم أتى ﴾، أي: اجتمع الناسُ لميقاتِ يومٍ معلومٍ وهو يومُ الزينةِ، وجلسَ فِرْعونُ على سَرير مملكته، واصطفَّ له أكابرُ دَوْلَتِه، ووقفَت الرعايا يمنةً ويسرةً، وأقبلَ موسى ـ عليه السلام ـ يتوكَّأُ على عَصاه، ومعه أخوه هارونُ، ووقف السَّحرةُ بين يَدَي فرعون صُفُوفا، وهو يُحرِّضُهم ويَحُثُّهم، ويُرَغِّبهم في إجادةِ عَمَلهم في ذلك اليوم، وَيَتَمنَّون عليه، وهو يَعِدُهم ويُمنِّيهم، فيقولون: ﴿أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين ﴾. ﴿ قال لهم موسى وَيْلَكُم لاَ تفترُوا على الله كَذِبا ﴾، أي: لا تُخيِّلوا للناس بأعمالكم إيجادَ أشياء لا حقائق لها، وأنها مخلوقة وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتم على الله، ﴿ فَيُسْحِتَكم بعذاب ﴾، أي: يُهلِكَكُم بعقوبةٍ هَلاكاً لا بَقِيَّة له، ﴿وقد خابَ من افترى * فَتنازعُوا أَمْرهم بينَهُم ﴾، قيل: معناه أنهم تَشاجَرُوا فيما بينهم، فقائل يقول: ليس هذا بكلام ساحرٍ، إنما هذا كلامُ نبيٍّ. وقائلٌ يقولُ: بل هو ساحرٌ. وقيل غيرُ ذلك. والله أعلم.

وقولُه ﴿ وأسرُّوا النجوى ﴾، أي: تناجَوا فيما بينهم، ﴿ قالوا إنَّ هذان لساحران ﴾، هذه لغةٌ لبعضِ العَرَب جاءت هذه القراءة على إعرابها. ومنهم من قَرأَ: ﴿ إنَّ هذين لساحران ﴾[1]، وهذه اللغةُ المشهورةُ. وقد توسَّع النحاة في الجواب عن القراءة الأولى بما ليسَ هذا موضعَه[2].

والغرضُ أن السحرة قالوا فيما بينهم: تَعلمُونَ أَنَّ هذا الرجلَ وأخاه ـ يعنون موسى وهارونَ ـ ساحرانِ عالمان خَبيران بصناعةِ السِّحر، يريدان في هذا اليوم أن يَغْلِباكم وقَوْمَكم ويَسْتَوليا على الناسِ، وتتبعهما العامَّةُ ويُقاتِلا فِرْعونَ وجنودَه، فينتصرا عليه ويُخرِجَاكم من أَرْضِكم.

وقولُه: ﴿ ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾، أي: ويستبدَّا بهذه الطريقةِ، وهي السحر، فإنَّهم كانوا مُعظَّمِين بسببها، لهم أموالٌ وأرزاقٌ عليها، يقولون: إذا غلب هذانِ أهلَكَاكُم وأخرجَاكم من الأرض، وتَفرَّدا بذلك، وتمحَّضَت لهما الرِّياسة بها دُونكم.

وقد تقدَّم في حديث الفُتُون عن ابن عباس في قوله: ﴿ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾، يعني: مُلْكَهم الذي هم فيه والعيشَ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا نُعَيم بن حَمَّاد، حدثنا هُشَيم، عن عبد الرحمن بن إسحاق، سَمع الشعبيَّ يُحدِّث عن عَليٍّ في قوله: ﴿ويذهَبا بطريقتكم المُثلَى﴾، قال: يَصْرِفان وجوهَ الناس إليهما[3].

وقال مجاهدٌ: ﴿ويَذْهَبا بِطَرِيقتكم المُثْلَى﴾: قال: أولي الشَّرفِ والعَقْلِ والأنسابِ. وقال أبو صالح:

(١) هذه قراءة أبي عمرو من السبعة، انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٦٩٩.
(٢) انظر البحر المحيط ٦/٢٥٥.
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١٦/١٨٣.

﴿بطريقتكم المثلى﴾: أشرافكم وثَرَواتكم. وقال عكرمة: بخيركم. وقال قتادة: وطريقتهم المثلى يومئذ بنو إسرائيل، كانوا أكثَرَ القوم عدداً وأموالاً، فقال عدو الله: يُريدان أن يذهبا بها لأنفسهما. وقال عبدُ الرحمن بن زيدٍ: ﴿بطريقتكم المُثْلَى﴾، بالذي أنتم عليه.

وقولُه: ﴿فأجمِعُوا كَيْدَكم ثم ائتوا صَفّاً﴾، أي: اجتمِعُوا كلكُم صفّاً واحداً، وألقُوا ما في أيديكم مَرَّةً واحدةً، لتبهروا الأبصارَ، وتَغْلبوا هذا وأخاه، ﴿وقد أفلحَ اليومَ مَن استعلَى﴾، أي: منّا ومنه، أما نحن فقد وَعَدنا هذا الملكُ العطاءَ الجزيلَ، وأما هو فينال الرِّياسة العظيمةَ.

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن السَّحرة حين توافقوا هم وموسى ـ عليه السلام ـ أنهم قالوا لموسى: ﴿إما أن تُلقِيَ﴾، أي أنتَ أولاً، ﴿وإما أن نكون أوَّل من ألقى * قال بل ألقُوا﴾، أي: أنتم أولاً لنرى ماذا تصنعُون من السِّحر، وليظهَرَ للناس جَليَّةُ أمرهم، ﴿فإذا حبالهم وعصيهم يُخيَّل إليه من سِحْرهم أنَّها تَسْعَى﴾. وفي الآية الأخرى أنهم لما ألقوا ﴿قالوا بعزَّةِ فرْعون إنا لنحنُ الغالِبُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿سَحَرُوا أعيُنَ الناس واسترهبوهم وجاءوا بِسحر عظيم﴾: وقال ها هنا: ﴿فإذا حبالُهم وعِصيُّهم يُخيَّل إليه من سِحْرهم أنها تَسْعَى﴾.

وذلك أنهم أودَعُوها من الزئبق ما كانت تتحرَّكُ بسببه وتضطربُ وتَميد، بحيث يُخيَّل للناظِر أنها تسعَى باختيارها، وإنما كانت حيلةً، وكانوا جمّاً غفيراً وَجمعاً كبيراً، فألقى كلُّ منهم عصاً وحبلاً، حتى صار الوادي ملآنَ حياتٍ يركَبُ بعضُها بعضاً.

وقولُه: ﴿ فأوجس في نفسه خيفةً موسى ﴾، أي: خاف على الناس أن يَفْتَتِنُوا بسحرهم ويَغتَرُّوا بهم قبل أن يلقي ما في يمينه، فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة أن ﴿ألْق ما في يَمِينك﴾، يعني عصاه، فإذا هي تلقَف ما صَنعوا، وذلك أنها صارت ثعباناً[(١)] عظيماً هائلاً ذا عيونٍ وقوائمَ وعُنق ورأسٍ وأضراس، فجعلت تتبَّعُ تلك الحبالَ والعصي حتى لم تُبْقِ منها شيئاً إلا تَلقَّفته وابتلعَته، والسحرةُ والناسُ ينظرون إلى ذلك عِياناً جَهْرَةً، نَهاراً ضَحوةً. فقامت المعجزةُ، واتَّضح البرهان، وبَطَلَ السِّحرُ، ولهذا قال تعالى: ﴿إنما صَنَعوا كيدُ ساحر ولا يُفلِحَ الساحِرُ حيثُ أتى﴾.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن موسى الشَّيباني، حدثنا حماد بن خالد، حدثنا ابن معاذ ـ أحسبه الصائغ ـ عن الحسن، عن جُنْدَب بن عبدالله البَجَليِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا أخذتم ـ يعني الساحر ـ فاقتلوه، ثم قرأ: ﴿ولا يُفلحُ الساحرُ حيثُ أتى﴾، قال: لا يُؤمَنُ حيث وُجِد»[(٢)].

وقد رَوى أصلَه التِّرمذيُّ موقوفاً ومرفوعاً[(٣)].

---

(١) في نسخة: «ثُنيناً». والتِّنين: الحية العظيمة.

(٢) أخرجه السيوطي في الدرّ المنثور عن ابن أبي حاتم وابن مردويه ٥/٥٨٦.

(٣) عارضة الأحوذي، أبواب الحدود ٦/٢٤٦.

فلما عاين السحرة ذلك وشاهدُوه، ولهم خبرةٌ بفُنون السِّحر وطُرُقه ووُجُوهِه، عَلِموا عِلْمَ اليقين أنَّ هذا الذي فَعَله موسى ليس من قَبِيل السحر والحيل، وأنه حقٌّ لا مِرْيَةَ فيه، ولا يَقْدِر على هذا إلا الذي يقولُ للشيءِ كُن فيكون. فعند ذلك وقعوا سُجَّداً لله، وقالوا: ﴿آمنا برب العالمين * رب موسى وهرون﴾.

ولهذا قال ابن عباس، وعُبَيد بن عُمَير: كانوا أول النهار سَحَرةً، وفي آخر النهار شُهَداءَ بَرَرةً. وقال محمدُ ابن كعب: كانوا ثمانين ألفاً. وقال القاسم بن أبي بَزّة: كانوا سبعين ألفاً. وقال السديُّ: بضعةً وثلاثين ألفاً. وقال الثوري، عن عبد العزيز بن رُفَيع، عن أبي ثُمامة[1]: كان سَحَرةُ فرعون تسعة عَشَرَ ألفاً. وقال محمد ابن أبي إسحاق كانوا خمسةَ عشرَ ألفاً. [وقال كعب الأحبار: كانوا اثني عشر ألفاً[2]].

وقال ابنُ أبي حاتِم: حدثنا عَليُّ بن الحُسَين، حدثنا مُحمَّد بن علي بن حَمْزَةَ[3]، حدثنا علي بن الحُسَين بن وَاقِدٍ، عن أبيه، عن يزيدَ النحويِّ، عن عكرمةَ، عن ابن عباسٍ قال: كانت السحرةُ سبعينَ رَجُلاً، أصبحوا سَحَرَةً وأمسَوْا شُهَداءَ[4].

قال ابنُ أبي حاتمٍ، حَدَّثنا أَبي، حَدَّثنا المُسيَّبُ بن وَاضِحٍ بمكَّةَ، حَدَّثنا ابنُ المبارَكِ قال: قال الأوزاعيُّ: لما خَرَّ السَحَرَةُ سُجَّداً رُفِعَتْ لهم الجنَّةُ حتى نَظَرُوا إليها.

قال: وذُكِر عن سعيد بن سلّام: حدثنا إسماعيلُ بن عبدالله بن سليمان، عن سالم الأفطَسِ، عن سعيد ابن جُبَير.

قولُه: ﴿وأُلقِيَ السحرةُ سُجَّداً﴾، قال: رَأَوا منازِلَهم تُبنَى لهم وهم في سُجُودهم. وكذا قال عِكْرِمَةُ، والقاسم بن أبي بَزَّةَ[5].

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾

يقولُ تعالى مُخْبِراً عن كفر فِرْعونَ وعناده وبَغْيِهِ ومُكَابَرتِهِ الحَقَّ بالباطلِ، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصَرَ بهم قد آمنوا بحضرة الناس كُلِّهم وغُلِبَ كل الغَلَب ـ شَرَع في المكابرة والبَهْتِ، وعَدَل إلى استعمال جاهه وسُلطانه في السَّحرة، فَتهدَّدهم وتَوَعَّدَهم، وقال: ﴿آمنتُم له﴾،

(١) في نسخة الحرم: «عن أبي ثمامة، عن كعب الأحبار». وأثر أبي ثمامة أخرجه السيوطي في الدرّ المنثور ٥١٣/٣ عن ابن المنذر وابن أبي حاتم، عند آية الأعراف ١١٣.

(٢) سقط من نسخة الحرم.

(٣) في نسخة الحرم: «محمد بن موسى». ومحمد بن علي بن حمزة هو المروزي، ترجم له ابن أبي حاتم في الجرح ٢٨/٨، وقال: روى عن علي بن الحسين بن واقد... روى عنه علي بن الحسين بن الجُنَيد».

(٤) الدرّ المنثور ٥١٣/٣.

(٥) الدرّ المنثور ٥٨٦/٥ ـ ٥٨٧.

أي: صدَّقتموه ﴿قبل أن آذن لكم﴾، أي: وما أمرتكم بذلك وافْتَتُّم[٢] عليَّ في ذلك. وقال قولاً يعلم هو والسحرةُ والخلقُ كلُّهم أنه بَهْت وكَذِبٌ: ﴿إنه لكبيرُكم الذي عَلَّمكم السحرَ﴾، أي: أنتم إنما أخذتُم السِّحْر عن موسى، واتفقتُم أنتم وإياه عليَّ وعلى رَعِيَّتي لِتُظهِروه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ إنَّ هذا لمكر مكرتُموه في المدينة لِتُخرِجُوا منها أهلَها فسوف تعلمون﴾.

ثم أخذ يَتهدَّدُهم فقال: ﴿لأقطعنَّ أيديكم وأرجُلكم من خِلافٍ ولأُصَلِّبَنَّكُمْ في جُذُوعِ النَّخْلِ﴾، أي: لأجعلنَّكم مُثلةً ولأُشهِرَنَّكم. قال ابنُ عباس: فكان أول من فَعَل ذلك. رواه ابنُ أبي حاتم.

وقولُه: ﴿ولتعلمُنَّ أيُّنا أشدُّ عذاباً وأبقى﴾، أي: أنتم تقولون: إنِّي وقَومي على ضَلالةٍ، وأنتُم مع موسى وقَوْمِهِ على الهُدَى. فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقَى فيه.

فلما صال عليهم بذلك وتوعَّدهم، هانت عليهم أنفسُهم في الله ـ عزَّ وجلَّ ـ و ﴿قالوا لن نُؤثِرَكَ على ما جاءنا من البيِّنات﴾، أي: لن نختارك على ما حَصَل لنا من الهُدى واليقين.

﴿والذي فَطَرنا﴾: يَحتمِلُ أن يكون قسماً، ويَحتمِلُ أن يكون معطوفاً على البينات. يعنون: لن نختارَك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العَدَمِ، المبتدىءِ خَلْقَنا من الطِّين، فهو المستحقُّ للعبادَةِ والخُضُوعِ لا أنتَ.

﴿ فَاقضِ ما أنتَ قَاضٍ ﴾، أي: فافعل ما شئتَ وما وَصَلَت إليه يدُك، ﴿ إنما تقضي هذه الحياةَ الدُّنيا﴾، أي: إنما لك تَسَلُّطٌ في هذه الدارِ، وهي دارُ الزَّوال، ونحن قد رَغِبْنا في دَارِ القَرَارِ.

﴿ إنا آمنا برِبِّنا ليغفرَ لنا خطايانا ﴾، أي: ما كان منا من الآثام، خصوصاً ما أكرهتنا عليه من السحر لِنُعارِضَ به آيةَ الله تعالى ومعجزةَ نَبيِّه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا نُعَيم بن حَمّاد، حدثنا سفيان بن عُيَينة، عن أبي سَعْدٍ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عَبَّاس في قوله: ﴿وما أكرهتَنا عليه من السِّحر﴾، قال: أخذَ فِرْعَونُ أربعينَ غُلاماً من بني إسرائيلَ، فَأمر أن يُعلَّموا السحر بالفَرَمَا[٢]، وقال: علموهم تعليماً لا يَغْلِبهم أحدٌ في الأرض. قال ابنُ عباس: فَهُم من الذين آمنوا بموسى، الذين قالوا: ﴿ آمنَّا بربِّنا لِيَغْفِرَ لنا خَطايَانَا وما أكرهتَنَا عليه من السِّحْرِ ﴾[٣]. وكذا قال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلمَ[٤].

وقولُه: ﴿ والله خيرٌ وأبقَى ﴾، أي: خيرٌ لنا منك، ﴿ وأبقَى ﴾، أي: أدومُ ثواباً مما كنتَ وَعَدتنا ومنَّيْتنا. وهو رواية عن ابن إسحاقَ، رَحِمَه الله.

وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿والله خيرٌ﴾، أي: لنا منك إن أطيع، ﴿وأبقى﴾، أي: منك عذاباً إن عُصِي، ورُوِي نحوه عن ابنِ إسحاقَ أيضاً.

---

(١) افتات في الأمر: استبدَّ به ولم يستشر من له الرأيُ فيه.

(٢) الفَرَما: حصن على ضَفَّة البحر في مصر بين العريش والفسطاط. كذا ذكر في معجم البلدان. وقد ذكرها السمعاني في الأنساب فقال: بُلَيدة.

(٣) الدرّ المنثور عن ابن أبي حاتم ٥/٥٨٧.

(٤) تفسير الطبري ١٦/١٨٨.

والظاهر أن فِرْعَون ـ لعنَهُ الله ـ صَمَّم على ذلك وفَعَله بهم، رَحِمَهم الله. ولهذا قال ابنُ عباس وغيرُه من السَّلَفِ: أَصبحوا سَحَرةً، وأمسَوا شُهداء.

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾

الظاهرُ من السِّياق أن هذا من تَمام ما وَعَظ به السحرةُ لفرعون، يُحَذِّرونه من نِقْمَةِ الله وعَذابه الدائم السَّرمَد، ويُرغِّبُونه في ثوابه الأَبَديِّ المخلَّد، فقالوا: ﴿ إِنَّه من يأتِ رَبَّـهُ مُجرِماً ﴾، أي: يلقى الله يومَ القيامةِ وهو مجرمٌ، ﴿ فإن له جَهَنَّم لا يَموت فيها ولا يحيَى ﴾. كقوله: ﴿ لا يُقضَى عليهم فيمُوتوا ولا يُخفَّف عنهم من عذابها كذَلِك نَجزي كلَّ كفور﴾، وقال: ﴿ويَتَجنَّبُها الأشقى * الذي يصلَى النار الكُبرى * ثم لا يَموتُ فيها ولا يَحيى﴾. وقال تعالى: ﴿ونَادَوا يا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَينا ربُّك قال إنَّكم ماكِثُونَ﴾.

وقال الإمامُ أحمدُ بن حَنبل: حدثنا إسماعيل، أخبرنا سَعِيدُ بن يَزيدَ، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أما أهلُ النار الذين هم أهلها فإنَّهم لا يموتُون فيها ولا يَحْيَون، ولكن أُناسٌ تُصِيبُهم النارُ بذُنُوبهم فتُمِيتُهم إماتةً، حتى إذا صاروا فحماً أُذِن في الشفاعة، فَجِيءَ بهم ضَبائِرَ ضَبائِرَ[1]، فَبُثُّوا على أنهار الجنة، فيقال: يا أهلَ الجنة، أَفِيضُوا عليهم. فينبُتُونَ نَبات الحِبَّة تكون في حَمِيلِ السَّيلِ[2]. فقال رجل من القوم: كأن رسولَ الله ﷺ كان بالبادية[3].

وهكذا أخرجه مُسلمٌ في كتابه الصَّحيح من رواية شُعبةَ وبِشر بن المُفَضَّلِ، كِلاهُما عن أبي مَسْلَمَة سعيدِ ابن يزيدَ، به[3].

وقال ابنُ أبي حاتم: ذُكِرَ عن عبد الوارث بن عبد الصَّمَد بن عبد الوارث قال: حدثنا أبي، حدثنا حَيَّان، سَمِعْتُ سُليمان التَّيميَّ، عن أبي نَضْرَة، عن أبي سَعِيدٍ: أن رسولَ الله ﷺ خَطَب فأتى على هذه الآية: ﴿إنَّه من يأتِ رَبَّه مجرماً فإن له جَهَنَّم لا يموتُ فيها ولا يَحيى ﴾، قال النبيُّ ﷺ: «أما أهلها الذين هم أهلُها فلا يَموتون فيها ولا يحيَون، وأما الذين ليسوا من أهلها فإن النار تمسُّهم، ثم يقوم الشفعاءُ فيشفَعُون، فتجعل الضَّبائر[1]، فيُؤتَى بهم نهراً يقال له: نهرُ الحياة ـ أو: الحيوان ـ فَيَنبتُون كما يَنبُتَ الغُثاءُ في حَمِيلِ السَّيلِ».

وقولُه: ﴿ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات﴾، أي: ومن لَقِيَ ربَّه يوم المعاد مؤمنَ القلب، قد صَدَّق ضميرَه بقوله وعمله، ﴿فأولئك لهم الدرجاتُ العُلَى﴾ أي: الجنةُ ذاتُ الدرجاتِ العالياتِ، والغُرَفِ الآمناتِ، والمساكنِ الطيِّباتِ.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عَفَّان، أنبأنا هَمَّام، حدثنا زيدُ بن أسلَمَ، عن عطاءِ بن يَسَارٍ، عن عُبادَةَ بن

(١) ضبائر: جمع ضِبَارة، وهي الجماعة. أي: يُؤتَى بهم جَماعاتٍ متفرقة.
(٢) حَمِيلُ السَّيل: ما يحتمله من الغُثاء.
(٣) مسند أحمد ٣/١١، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١٧٢ ـ ١٧٣.

الصَّامِتِ، عن النبيِّ ﷺ قال: «الجنة مائةُ درجَةٍ، ما بين كُلِّ درجتَين كما بين السماء والأرض، والفِرْدَوس أعلاها درجةً، ومنها تخرجُ الأنهارُ الأربعةُ، والعرشُ فوقَها، فإذا سألتم اللهَ فاسألُوه الفِرْدَوس»[٤].

ورواه الترمذِيُّ، من حديث يزيدَ بن هارونَ، عن هَمَّامٍ، به[١].

وقال ابنُ أبي حاتِمٍ: حدثنا أبي. حدثنا سُليمان بن عبد الرحمن الدِّمشقي، أخبرنا خالدُ بن يزيدَ بن أبي مالك، عن أبيه قال: كانَ يقال: الجنةُ مائةُ دَرَجَةٍ، في كلِّ درجةٍ مائةُ درجةٍ، ما بينَ كلِّ دَرَجتَين كما بينَ السماءِ والأرض، فيهنَّ الياقوت والحلى، في كُلِّ درجةٍ أميرٌ، يَرَون له الفَضلَ والسؤْدُد.

وفي الصَّحيحَين: «أنَّ أهل عِلِّيِّين ليَرَوْنَ من فوقَهُم كما تَرَونَ الكَوكب الغابرَ في أُفُقِ السَّماء، لتفاضُلِ ما بينهم. قالُوا: يا رسولَ اللهِ، تلك منازلُ الأنبياء؟ قال: بلى، والذي نفسي بيَدِه رجالٌ آمنُوا باللهِ وصَدَّقوا المرسلين»[٢]. وفي السنن: «وإن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعما»[٢].

وقولُه: ﴿جناتُ عدنٍ﴾، أي: إقامة. وهو بدل من ﴿الدَّرجاتُ العُلَى﴾. ﴿تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها﴾، أي: ماكثين فيها أبدا. ﴿وذلك جزاءُ من تزكَّى﴾، أي: طَهَّر نفسَه من الدَّنسِ والخَبَثِ والشِّرْكِ، وعبَدَ الله وحدَه لا شَريكَ له، واتَّبع المرسَلين فيما جاءُوا بِهِ من خَبَرٍ وطَلَبٍ.

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُخبراً أنه أمَرَ موسى ـ عليه السلام ـ حين أبى فِرْعَونُ أن يُرسِلَ معه بني إسرائيلَ، أن يُسرِيَ بهم في الليل، ويذهبَ بهم من قَبْضَةِ فرعون. وقد بسَطَ الله هذا المقامَ في غيرِ هذه السورةِ الكريمة[٣]. وذلك أن موسى لما خَرج ببني إسرائيل أصبحُوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مُجيب، فغَضِب فِرْعَونُ غضباً شديداً وأرسَلَ في المدائن حاشرين، أي: من يجمعون له الجند من بلدانه ورَساتيقه[٤] يقول: ﴿إن هؤلاء لشِرذمَةٌ قليلون * وإنَّهم لنا لغائظونَ﴾. ثم لما جَمَع جنده واستوسَق[٥] له جيشهُ، ساق في طلبهم ﴿فأتبعوهم مشرقين﴾، أي: عند طلوع الشمس، ﴿فلما تراءى الجمعان﴾ أي: نظر كل من الفريقين إلى الآخر، ﴿قال أصحابُ موسى إنا لمدرَكُون * قال كلا إنَّ معي ربي سَيهدينِ﴾، ووقف موسى ببني إسرائيل، البحرُ أمامهم، وفِرْعَونُ وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه أن ﴿اضرب لهم طريقاً في البحر يَبَسا﴾، فضرب البحر بعصاه، وقال: «انفلِقْ بإذن الله»، ﴿فانفلق فكان كلُّ فِرْق كالطَّودِ العظيم﴾ أي: الجبل العظيم. وأرسلَ الله الرِّيح على

---

(١) مسند أحمد ٥/٣١٦، وعارضة الأحوذي، أبواب صفة الجنة ١٠/٧-٨.

(٢) فتح الباري، كتاب بدء الخلق ٦/٣٢٠، وكتاب الرقاق ١١/٤١٦. ومسلم، كتاب الجنة ٤/٢١٧٧. ومسند أحمد ٣/٢٦، ٢٧، وسنن أبي داود، كتاب الحروف والقراءات ٤/٣٤، وسنن ابن ماجه، المقدمة ١/٣٧.
الغابرُ: الذاهبُ. وأنعما: زاداً على تلك المرتبة.

(٣) انظر سورة الشعراء، من الآية ٥٢، والدخان من الآية ٢٣.

(٤) الرُّستاق ـ ويقال فيه: رُزداق ـ: موضع فيه مُزدرَع، وقرى.

(٥) أي: اجتمع.

أرض البحر فلفحته حتى صار يابساً كوجه الأرض، ولهذا قال: ﴿فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً﴾، أي: من فرعون، ﴿ولا تخشى﴾، يعني من البحر أن يغرق قومك.

ثم قال تعالى: ﴿فأتبعهم فِرْعونُ بجنوده فغَشِيَهم من اليمِّ﴾، أي: البحر ﴿ما غشيهم﴾، أي: الذي هو معروف ومشهور. وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، كما قال تعالى: ﴿والمؤتفكة أهوى * فغشّاها ما غشّى﴾، وكما قال الشاعر[1]:

أنا أبو النَّجمِ وشِعْري شِعْري

أي: الذي يُعرَف، وهو مشهورٌ.

وكما تقدَّمهم فِرْعونُ فَسَلك بهم في اليمِّ فأضلَّهم وما هَداهم إلى سبيلِ الرَّشادِ، كذلك ﴿يقدُمُ قومَهُ يومَ القيامةِ فأوردَهُم النارَ وبئسَ الوِرْدُ المورودُ﴾.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾

يذكرُ تعالى نِعمَه على بني إسرائيلَ العِظامِ، ومِننه الجِسامَ، حيث نَجّاهم من عدوِّهم فِرْعونَ، وأقرَّ أعيُنَهم منه، وهم ينظُرون إليه وإلى جُنْدِه قد غرِقُوا في صبيحةٍ واحدةٍ، لم ينجُ منهم أحَدٌ، كما قال: ﴿وأغرقنا آل فِرْعونَ وأنتم تنظُرونَ﴾.

وقال البخاري: حدثنا يعقوبُ بن إبراهيمَ، حدثنا رَوحُ بن عُبادة، حدثنا شعبة، حدَّثنا أبو بِشْرٍ، عن سعيدِ بن جُبَيرٍ، عن ابنَ عبَّاسٍ قال: لما قَدِم رسولُ الله ﷺ المدينةَ واليهودُ تصومُ عاشوراءَ، فسألهم فقالوا: هذا اليومُ الذي أظهر الله فيه موسَى على فِرْعونَ. فقال: نَحنُ أولى بموسى، فَصُوموه[2]. رواه مسلمٌ أيضاً في صَحيحه[2].

ثم إنَّه تعالى واعَدَ موسى وبني إسرائيل بعد هَلاكِ فِرْعونَ إلى جانبِ الطُّورِ الأيمن، وهو الذي كلَّمه تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هنالك. وفي غُضُون ذلك عَبَدَ بَنُو إسرائيلَ العِجْلَ، كما يقصُّه تعالى قريباً.

وأما المنُّ والسَّلْوَى، فقد تَقدَّم الكلام على ذلك في سورة البقرة وغيرها[3]. فالمنُّ: حَلْوى كانت تنزلُ عليهم من السماء. والسَّلوى: طائرٌ يسقُط عليهم، فيأخذُون من كلٍّ قدرَ الحاجةِ إلى الغدِ، لُطْفاً من الله ورحمةً بهم وإحساناً إليهم. ولهذا قال: ﴿كُلُوا من طَيِّباتِ ما رزقناكم ولا تطغَوا فيه فَيَحِلَّ عليكم غَضَبِي﴾، أي: كلُوا من هذا الذي رزقتُكم، ولا تطغَوا في رِزْقِي فتأخذوه من غير حاجة، وتخالِفُوا ما آمركم به، ﴿فيحلَّ عليكم

---

(١) أبو النجم العجلي. والرجز في شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي ٥/٣٤٠، والكامل للمبرِّد ١/٦٢. وانظره في الكشاف عند تفسير الآية ١٠ من سورة الواقعة.

(٢) فتح الباري، تفسير سورة طه ٨/٤٣٤، ومسلم، كتاب الصيام ٢/٧٩٥.

(٣) انظر تفسير الآية ٥٧ وما بعدها من سورة البقرة، والآية ١٦٠ من سورة الأعراف.

غضبي﴾، أي: أغضبُ عليكم، ﴿ومن يَحلِل عليه غضبي فقد هَوَى﴾. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي فقد شَقِيَ.

وقال شُفَيُّ بن مانع: إن في جهنَّم قصراً يُرْمَى الكافر من أعلاه، فيهوي في جهنَّم أربعين خريفاً قبل أن يبلغَ الصَّلْصَال، وذلك قوله: ﴿ومن يَحْلِلْ عليه غَضَبي فقد هَوَى﴾. رواه ابنُ أبي حاتم[١].

وقوله: ﴿وإني لغفَّارٌ لمن تاب وآمَنَ وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾، أي: كلُّ مَن تاب إليَّ تبتُ عليه مِن أيِّ ذنبٍ كان، حتى إنه تاب تعالى على من عبد العِجْلَ من بني إسرائيل.

وقوله: ﴿تاب﴾، أي: رَجَع عما كان فيه من كفر أو شرك أو نفاق أو معصية. وقوله: ﴿وآمَنَ﴾، أي: بقَلْبِه، ﴿وعَمِلَ صالحاً﴾، أي: بجوارِحِه. وقوله: ﴿ثم اهتدى﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي ثم لم يَشْكُكْ. وقال سعيد بن جُبَير: ﴿ثم اهتَدَى﴾، أي: استقام على السنَّة والجماعةِ. ورُوِي نحوُه عن مجاهِدٍ، والضحَّاكِ، وغير واحد من السَّلَف. وقال قتادةُ: ﴿ثم اهتَدَى﴾، أي: لَزِم الإسلام حتى يَموتَ. وقال سفيانُ الثَّوري: ﴿ثم اهتَدَى﴾، أي: عَلِم أن لهذا ثواباً.

وثُمَّ ها هنا لترتيب الخَبرِ على الخبر، كَقولِه: ﴿ثم كانَ مِنَ الَّذين آمَنُوا﴾... الآية[٢].

﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾

لمَّا سار موسى ـ عليه السلام ـ ببني إسرائيل ـ بعد هلاك فِرْعَون، وأَتوا ﴿على قوم يَعكُفون على أصنامٍ لهم قالوا يا مُوسَى اجعَلْ لنا إلَهاً كما لهم آلهةٌ قال إنكم قوم تجهلون * إنَّ هؤلاء مُتَبَّر ما هُم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون﴾. وواعدَه ربُّه ثلاثين ليلة ثم أتَمَّها له عشراً، فتمَّت له أربعين ليلةً، أي: يصومُها ليلاً ونهاراً. وقد تقدم في حديث «الفتون» بيانُ ذلك. فسارع موسى ـ عليه السلام ـ مبادراً إلى الطور، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارونَ، ولهذا قال تعالى: ﴿وما أعجَلَكَ عن قَومِكَ يا موسى * قال هم أُولاءِ على أَثَري﴾، أي: قادِمُون ينزِلُون قريباً من الطُّور، ﴿وعَجِلتُ إليك ربِّ لِترضَى﴾، أي: لتزداد عني رضا. ﴿قال فإنا قد فتنَّا قومَكَ من بَعدِكَ وأضلَّهم السامِريُّ﴾. أخبر تعالى نَبيَّه موسى بما كان بعده من الحَدَث في بني إسرائيل، وعبادَتِهم العِجْلَ الذي عَمِله لهم ذلك السامريُّ. وفي الكتب الإسرائيلية: أنه كان اسمُه هارون أيضاً، وكتب الله تعالى له في هذه المُدَّة الألواحَ المتضمِّنة التوراة، كما قال تعالى: ﴿وكتبنا له في الألواح من كلِّ شيءٍ موعظةً وتفصيلاً لكلِّ شيءٍ

(١) الدرّ المنثور للسيوطي ٥٩١/٥.
(٢) الآية ١٧ من سورة البلد.

فخذها بقُوَّةٍ وَأمرْ قوْمَك يأخذُوا بأحَسنِها سَأُورِيكُمْ دار الفاسقين﴾، أي: عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمري.

وقولُه: ﴿فَرَجَع موسى إلى قَوْمِهِ غضبانَ أسِفاً﴾، أي: بعد ما أخبره تعالى بذلك، في غايةِ الغَضَب والحَنَق عليهم، هُوَ فيما فيه مِن الاعتناءِ بأمرهم، وتَسلُّمِ التوراةِ التي فيها شريعَتُهم، وفيها شرفٌ لهم. وهُم قوم قد عبدوا غير الله ما يَعْلَمُ كلُّ عاقلٍ له لُبٌّ بطلانَ ما هُم فيه.وسخافةَ عُقولِهم وأذهانِهم. ولهذا رَجَع إليهم غضبانَ أسِفاً. والأسَفُ: شدَّةُ الغَضَب. وقال مجاهدٌ: ﴿غضبانَ أسِفاً﴾، أي: جَزِعا. وقال قتادةُ والسُّدِّي: ﴿أسِفا﴾، أي: حزيناً على ما صَنَعَ قَوْمُه من بعده[1].

﴿قال يا قوم ألم يَعِدْكُم ربُّكم وعداً حَسَناً﴾، أي: أما وَعَدكم على لساني كُلَّ خيرٍ في الدنيا والآخرة وحسن العاقبةِ، كما قد شاهدتُم مِن نُصرته إيَّاكم على عَدُوِّكم وإظهارِكُم عليه، وغير ذلك من أياديه عِنْدَكم؟ ﴿أفطال عليكم العهدُ﴾، أي: في انتظار ما وَعَدكم الله، ونسيانِ ما سلَف من نِعَمِه، وما بالعهدِ من قِدَم. ﴿أم أردتم أن يحلَّ عليكم غضبٌ من ربكم﴾. أم: ها هنا بمعنى بل، وهي للإضراب عن الكلام الأول، وعُدُولٍ إلى الثاني، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحلَّ عليكم غضبٌ من رَبِّكم ﴿فأخلفتُم موعدي * قالوا﴾، أي: بنو إسرائيل في جواب ما أنَّبهم موسى وقرَّعهم: ﴿ما أخلفنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾، أي: عن قُدْرَتنا واختِيارِنا.

ثُم شرعُوا يعتذِرُون بالعذر البارد، ويُخبرون عن تَوَرُّعهم عما كان بأيديهم من حُلى القِبْطِ الذي كانوا قد استعاروه منهم، حين خرجوا من مصرَ، ﴿فقذفناها﴾، أي: ألقيناها عنا، وقد تَقَدَّم في حديثِ «الفتون» أن هارون ـ عليه السلام ـ هو الذي كان أمرهم بإلقاءِ الحُليِّ في حَفيرةٍ فيها نارٌ.

وفي رواية السُّدِّي، عن أبي مالك، عن ابن عباس: إنما أراد هارون أن يجتمعَ الحُليُّ كلهُ في تلك الحِفَيرة، ويُجعَلَ حَجَراً واحِداً، حتى إذا رَجَع موسى ـ عليه السلام ـ رأى فيه ما يشاء. ثُم جاء بعد ذلك السامريُّ فألقى عليها تلك القبضةَ التي أخذها من أثر الرسول، وسأل هارون أن يدعُوَ الله أن يستَجيبَ له في دعوته، فَدَعا له هارون ـ وهو لا يعلمُ ما يُريدُ ـ فأُجيبَ له، فقال السامريُّ عند ذلك: أسأل الله أن يكون عِجْلاً. فكان عِجْلاً له خُوارٌ، أي: صوتٌ، استدراجاً وإمهالاً ومحنةً واختِباراً، ولهذا قالوا: ﴿فَكَذلك ألقَى السامريُّ * فأخْرَجَ لَهم عِجْلاً جَسداً له خُوارٌ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عَبادةَ بن البَخْتَري، حدثنا يزيدَ بن هارونَ، أخبرنا حَمادٌ، عن سِمَاكٍ، عن سعيد بن جُبَيرٍ، عن ابن عباس: أنَّ هارونَ مَرَّ بالسامريِّ وهو يَنْحَتُ العِجْلَ. فقال له: ما تصنَعُ؟ فقال: أصنعُ ما يضرُّ ولا ينفَعُ. فقال هارون: اللهمَّ أعطِه ما سأل على ما في نَفْسِهِ. ومضى هارونُ، فقال السامريُّ: اللهم، إني أسألك أن يَخُورَ فخارَ، فكان إذا خَارَ سَجَدُوا له، وإذا خارَ رفعوا رءوسَهُم.

ثم رَوَاه من وَجهٍ آخر عن حَمَّادٍ، وقال: أعمل ما ينفَعُ ولا يَضُرُّ.

وقال السدِّيُّ: كان يخورُ ويمشي.

﴿فقالوا﴾، أي: الضُّلَّال منهم الذين افتُتِنُوا بالعِجْلِ وعَبَدوه: ﴿هذا إلَهكم وإلَهُ موسى فَنَسِيَ﴾، أي: نَسِيه ها هنا، وذَهَب يَتَطلَّبه. كذا تَقدَّم في حديث «الفتون» عن ابن عباس. وبه قال مجاهدٌ.

(١) تفسير الطبري ١٦/١٩٦.

وقال سماكٌ، عن عكرمةَ، عن ابن عباس: ﴿فَنَسِيَ﴾، أي: نَسِيَ أن يُذَكِّركم أنَّ هذا إلَهكم.

وقال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن جُبَير، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس فقالوا: ﴿هذا إلَهكم وإلَه موسى﴾، قال: فعكفوا عليه وأحبُّوه حباً لم يحبُّوا شيئاً قطُّ يعني مثله، يقول الله: ﴿فَنَسِيَ﴾، أي: تَرَكَ ما كان عليه من الإسلام، يعني السامِريَّ(١).

قال الله تعالى رَداً عليهم، وتقريعاً لهم، وبياناً لفضيحتهم وسخافةِ عُقُولهم فيما ذَهَبوا إليه: ﴿أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً﴾؟ أي: العِجْلُ، ﴿أفلا يَرونَ﴾ أنه لا يُجيبهم إذا سألوه، ولا إذا خاطَبُوه، ﴿ولا يملِكُ لهم ضَرّاً ولا نفعاً﴾، أي: في دنياهم ولا في أخراهم.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: لا والله ما كان خُوارُه إلا أن يدخُلَ الرِّيح في دُبُره فيخرُجَ من فِيه، فيُسمَع له صوتٌ.

وقد تقدَّم في متون(٢) الحديث عن الحسنِ البصريِّ: أن هذا العجلَ اسمُه بُهْموتُ.

وحاصلُ ما اعتَذَرَ به هؤلاء الجهلةِ أنهم تورَّعوا عن زينَة القِبْطِ، فألقوها عنهم وعَبَدُوا العِجْلَ. فَتورَّعوا عن الحَقير وفَعَلُوا الأمر الكبير. كما جاء في الحديث الصَّحيح عن ابنَ عُمَر: أنه سَأَله رجلٌ من أهل العراقِ عن دَمِ البَعُوض إذا أصاب الثَّوبَ ـ يعني: هل يُصَلَّى فيه أم لا؟ ـ فقال ابنُ عمر ـ رضي الله عنه ـ: انظروا إلى أهلِ العِراقِ، قَتَلوا ابنَ بنتِ رَسُولِ الله ﷺ ـ يعني الحُسَينَ ـ وهم يسألونَ عن دم البَعُوضِ؟(٣).

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾

يُخبر تعالى عما كان من نَهْيِ هارون ـ عليه السلام ـ لهم عن عبادة العِجْلِ، وإخباره إياهم أنما هذا فتنة لكم، ﴿وإن ربكم الرحمن﴾ الذي خَلَق كُلَّ شيءٍ فقدَّره تَقديراً، ذو العرش المجيدُ، الفَعَّالُ لما يريد، ﴿فاتَّبعوني﴾، أي: فيما آمركم به، واتركُوا ما أنهاكُم عنه.

﴿ قالوا لن نبرَح عليه عاكِفِينَ حَتَّى يرجعَ إلينا مُوسَى ﴾، أي: لا نترك عبادَته حتى نَسمع كلامَ موسى فيه. وخالَفُوا هارونَ في ذلك وحارَبُوه، وكادُوا أن يقتلُوه.

﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ ﴾

يقولُ مخبراً عن موسى ـ عليه السلام ـ حين رَجَع إلى قومه، فرأى ما قد حَدَث فيهم من الأمر العظيم،

(١) تفسير الطبري ٢٠١/١٦.
(٢) في نسخة الحرم: «في حديث الفتون». ولم يتقدّم للحسن ذكرٌ فيه. وانظر الدرّ المنثور عند تفسير الآية ٥١ من سورة البقرة، فقد أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن.
(٣) فتح الباري، كتاب الأدب ٤٢٦/١٠، ومسند الإمام ٩٣/٢، ١١٤. وعارضة الأحوذي، أبواب المناقب ١٩١/١٣. وانظر تحفة الأشراف ٤٨٠/٥.

فامتلأ عند ذلك غيظاً، وألقى ما كان في يَدِه من الألواح الإلَهيَّة، وأخذ بَرأسِ أخيه يجرُّه إليه، وقد قدمنا في «الأعراف»[١] بَسْطَ ذلك، وذكرنا هناك حديث: «ليس الخبرُ كالمُعَاينة».

وشَرَع يلوم أخاه هارون فقال: ﴿ما مَنَعك إذْ رأيتهم ضَلُّوا * ألا تتَّبعَن﴾، أي: فتخبرني بهذا الأمر أوَّلَ ما وَقع، ﴿أفعصيتَ أمري﴾، أي: فيما كُنتَ تقَدَّمتُ إليكَ، وهو قوله: ﴿اخلُفني في قومي وأصلِحْ ولا تتَّبع سَبيلَ المُفسِدين﴾.

قال: ﴿يا ابن أُمَّ﴾، ترَقَّق له بذكر الأُمِّ، مع أنه شقيقُه لأبوَيه، لأنَّ ذكر الأمِّ هاهنا أرَقُّ وأبلغ في الحنوِّ والعَطْف، ولهذا قال: ﴿يا ابنَ أُمَّ لا تأخذْ بلحيتي ولا برَأسي إنِّي خَشيتُ أن تقولَ فرَّقتَ بين بَني إسرائيلَ ولم ترَقُب قَولي﴾. هذا اعتذارٌ من هارونَ عند مُوسَى في سبب تأخُّره عنه، حيثُ لم يلحَقه فيُخبرَه بما كان من هذا الخَطْب الجَسيم، ﴿قال إنِّي خشيتُ﴾ أن أتبعَكَ فأُخبرَكَ بهذا، فتقول لي: لم تركتَهُم وحدَهم وفرَّقتَ بيْنَهم ﴿ولم ترقُب قولي﴾، أي: وما راعيت ما أمرتُكَ به حيث استخلفتك فيهم. قال ابن عباس: وكان هائباً له مُطيعاً[٢].

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾

يقول موسى ـ عليه السلام ـ للسامريِّ: ما حَمَلك على ما صنعتَ؟ وما الذي عَرَض لك حتَّى فَعَلْتَ ما فَعلْتَ؟!

قال محمد بن إسحاقَ، عن حكيم بن جُبَير، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: كان السامريُّ رجلاً من أهل باجَرْما[٣]، وكان من قومٍ يعبدُون البقَر، وكان حُبُّ عبادةِ البَقَرِ في نفسه، وكان قد أظهر الإسلامَ مع بَني إسرائيلَ، وكان اسمُ السامريِّ: موسى بن ظَفَر[٤]. وفي رواية عن ابن عباس: كان من كِرْمانَ. وقال قتادةُ: كان من قرية اسمها سامَرَّا[٥].

﴿قال بَصُرت بما لم يبصُروا به﴾، أي: رأيتُ جبريلَ حين جاء لهلاك فِرْعَون، ﴿فقبضتُ قبضةً من أثَرِ الرسول﴾ أي من أثَرِ فَرَسِه. وهذا هو المشهورُ عند كثيرٍ من المفسِّرين أو أكثرِهم.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمَّار بن الحارث، أخبرنا عُبَيد الله بن موسى، أخبرنا إسرائيل، عن السدِّي، عن أبيّ بن عُمارة، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: إن جبريل ـ عليه السلام ـ لما نَزَل فَصَعِد موسى إلى السماء، بَصُر به السامريُّ من بين الناس، فقبض قبضةً من أثر الفَرَسِ، قال: وحَمَل جبريلُ موسى خَلْفَه،

(١) انظر تفسير الأبيات ١٥٠ ـ ١٥٤ من سورة الأعراف.
(٢) تفسير الطبري ١٦/٢٠٣.
(٣) باجَرْما: قرية قُرْبَ الرَّقَّة، من أرض الجزيرة.
(٤) الأثر في الدرّ المنثور ٥/٥٩٣.
(٥) سامرا: مدينة بين بغداد وتكريت على شرقي دجلة.

حتى إذا دَنَا من بابِ السماءِ، صَعِد وكتبَ اللهُ الألواح وهو يسمعُ صَريرَ الأقلامِ في الألواحِ . فلما أخبَره أنَّ قومَه قَد فُتِنُوا من بعده قال: نَزَل موسى، فأخذ العجلَ فأحرقه. غريب.

وقال مجاهد: ﴿ فَقَبَضتُ قبضةً من أثرِ الرسول ﴾، قال: من تحت حافر فرسِ جبريل، قال: والقبضة مِلْءُ الكَفِّ، والقَبْصَةُ بأطرافِ الأصابع[1].

قال مجاهد: نَبَذ السامريّ، أي: ألقى ما كان في يده على حِلْيَة بني إسرائيل، فانسبك عجلا جسداً له خُوارٌ، حفيفُ الرِّيح فيه، فهو خُوارُه.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا محمد بن يحيى، أخبرنا علي بن المديني، حدثنا يزيد بن زُرَيع، حدثنا عُمَارة، حدثنا عِكرمة: أن السامريَّ رأى الرسولَ فَأُلقِيَ في رُوعِه أنك إن أخذتَ من أثَرِ هذا الفرسِ قبضةً فألقيتَها في شيءٍ، فقلت له: كُن، فكان. فقبض قبضةً من أثر الرسولِ، فَيَبِسَتْ أصابعُه على القبضة، فلما ذهبَ موسى للميقات، وكان بنو إسرائيل استعاروا حُليَّ آل فِرْعَونَ، فقال لهم السامري: إنَّ ما أصابكم من أجل هذا الحُلِيِّ، فاجمعُوه. فَجَمعُوه فأوقدوا عليه، فذاب، فرآه السامريُّ فَأُلقِيَ في رُوعه أنك لو قذفتَ هذه القَبْضَةَ في هذه فقلت: كُن. فكان. فقذف القَبْضَةَ وقال: كُن. فكان عجلاً له خُوارٌ، فقال: ﴿هَذا إِلَهُكُم وإِلَهُ مُوسَى﴾.

ولهذا قال: ﴿ فنبذتُها ﴾، أي: ألقيتُها مع من ألقى، ﴿ وكذلك سَوَّلت لِي نفسي ﴾، أي: حَسَّنته وأعجبها إذ ذاك، ﴿ قال فاذهَبْ فإنَّ لك في الحياة أن تقولَ لا مِسَاس ﴾، أي: كما أَخَذْتَ ومَسِسْتَ ما لم يكنْ لك أخذُه ومسُّه من أثر الرسول، فَعُقوبَتُك في الدنيا أن تَقُولَ: لا مِسَاسَ، أي: لا تُماسَّ الناسَ ولا يَمَسُّونَكَ. ﴿ وإنَّ لك مَوْعِداً ﴾، أي: يومَ القيامة، ﴿ لن تُخلَفه ﴾، أي: لا مَحِيدَ لَكَ عنه.

قال قتادةُ: ﴿ أن تَقُول لا مِسَاسَ ﴾، قال: عقوبةٌ لهم، وبقاياهم اليوم يَقُولون: لا مِسَاسَ[2].

وقولُه: ﴿ وإنَّ لك موعداً لن تُخلَفَه ﴾، قال الحسن، وقتادة، وأبو نَهِيك: لن تَغيب عنه.

وقولُه: ﴿ وانظر إلى إلَهكَ﴾، أي: مَعبُودكَ، ﴿ الذي ظَلْتَ عليه عاكفاً ﴾، أي: أقمتَ على عبادتِهِ - يعني العجل - ﴿لنحرِّقنَّه﴾، قال الضحاك، عن ابن عباس، والسُّديُّ: سَحَلَه بالمَبَارِدِ وألقاه على النَّارِ[3].

وقال قتادةُ: استحال العجلُ من الذَّهب لحماً ودماً، فحرقه بالنار، ثم ألقاه، أي: رمادَه في البحر، ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ لننسِفَنَّه في اليَمِّ نَسْفاً﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، أنبأنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عُمَارةَ بن عَبْدٍ وأبي عبد الرحمن، عن علي - رضي الله عنه - قال: إن موسى لَمَّا تعجَّلَ إلى ربِّهِ عَمَد السامِرِيُّ فجمع ما قَدَر عليه من حُلِيِّ نساءِ بني إسرئيلَ، ثم صَوَّره عِجْلاً، قال: فعمد موسى إلى العجل فوضع عليه المَبارِدَ فبَرده بها، وهو على شط نهر. فلم يشرب أحد من ذلك الماء مِمَّن كانَ يعبُد العِجْلَ إلا اصفَرَّ وجهُه مثل الذهب. فقالوا لموسى: ما تَوبتنا؟ قال: يقتل بعضُكم بعضاً.

وهكذا قال السُّديُّ: وقد تقدم في تفسير سُورَة البقرة[4]، ثم في حديث الفُتُون بسط ذلك.

وقولُه: ﴿ إِنَّما إِلَهكُم اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هو وَسِعَ كُلَّ شيءٍ علماً ﴾، يقول لهم موسى عليه السلام: ليس

(١) الدر المنثور ٥/٥٩٦.

(٢) انظر أثر قتادة في تفسير الطبري ١٦/٢٠٦، والقرطبي ١١/٢٤١، والدرّ المنثور ٥/٥٩٦.

(٣) السَّحْلُ: البَرْدُ والسَّحْقُ، والمِسْحَلُ: المِبْرَدُ، والسُّحَالة: ما سقط من الذهب والفضة ونحوهما إذا بُرِدَا.

(٤) انظر تفسير الآية ٩٣ من سورة البقرة، والآية ٤٠ من هذه السورة.

هذا إلهكُم، إنما إلَهكم الله الذي لا إله إلا هو، أي: لا يستحقُّ ذلكَ على العبادِ إلا هو، ولا تنبغي العبادةُ إلا له، فإن كلَّ شيءٍ فقيرٌ إليه، عبدٌ لَدَيْهِ.

وقولُه: ﴿ وَسِع كلَّ شيء علماً ﴾، نصب على التمييز، أي: هو عالم بكلِّ شيءٍ، ﴿ أحاطَ بكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾، ﴿ وأحصى كلَّ شيءٍ عَدَداً ﴾، فلا ﴿ يعزُب عنه مثقالُ ذَرَّةٍ ﴾، ولا ﴿ تسقُطُ من وَرَقةٍ إلا يعلَمُها ولا حَبَّةٍ في ظُلُماتِ الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلاَّ في كتابٍ مُبينٍ ﴾، ﴿ وما من دابَّةٍ في الأرضِ إلا على الله رزقُها ويعلَمُ مستقرَّها ومستودَعُها كلٌ في كتابٍ مبينٍ ﴾. والآياتُ في هذا كثيرةٌ جداً.

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ ﴾

يقولُ تعالى لنبيِّه محمدٍ ـ ﷺ ـ: كما قَصصْنَا عليك خَبرَ مُوسَى، وما جَرَى له مع فِرْعَونَ وجنودِه على الجَليَّة وبالأمر الواقع، كذلك نقصُّ عليك الأخبارَ الماضيةَ كما وَقَعت من غير زيادةٍ ولا نقصٍ، هذا ﴿ وقد آتيناك من لَدُنَّا ﴾، أي: عندنا ﴿ذِكْراً﴾، وهو القرآن العظيم، الذي ﴿لا يأتيه الباطلُ من بين يديهِ ولا من خَلْفِهِ تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ ﴾، الذي لم يُعطَ نبيٌّ من الأنبياء منذ بُعثوا إلى أن خُتِموا بمحمَّدٍ ـ ﷺ تسليماً ـ، كتاباً مِثْله ولا أكملَ منه، ولا أجمعَ لخبر ما سَبَق وخَبَر ما هو كائن، وحُكْم الفَصْل بينَ الناسِ منه. ولهذا قال تعالى: ﴿ من أعرضَ عنه ﴾، أي: كَذَّب به وأعرضَ عن اتباعه أمراً وطلباً، وابتغَى الهُدَى في غَيْره فإنَّ الله يُضِلُّه ويهديه إلى سَواءِ الجَحِيم، ولهذا قال: ﴿ مَنْ أَعْرَضَ عنه فإنَّه يحمِلُ يومَ القيامةِ وِزْراً ﴾، أي: إثماً، كما قال الله تعالى: ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنارُ موعِدُه ﴾.

وهذا عام في كلِّ من بلغه القرآن من العَرَب والعَجَم، أهل الكتاب وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿ لأُنذِرَكم به ومن بلغ ﴾. فكُلُّ من بلغه القرآن فهو نَذيرٌ له وَدَاع، فمن اتَّبعه هُدِي، ومن خالفه وأعرضَ عنه ضَلَّ وشَقِي في الدنيا، والنار موعِدُه يوم القيامة. ولهذا قال: ﴿من أعرض عنه فإنه يحملُ يوم القيامة وِزْراً * خالدين فيه ﴾، أي: لا مَحِيد لهم عنه ولا انفكاك، ﴿ وساء لهم يوم القيامة حِمْلا ﴾، أي: وبئس الحِمْلُ حِمْلُهُمْ.

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

ثَبت في الحديثِ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ سُئِلَ عن الصُّور، فقال: «قَرْن يُنفَخُ فيه»(١).

وقد جاء في حديث «الصُّور» من رواية أبي هُرَيرةَ: أنه قرنٌ عظيمٌ، الدَّارةُ منه بِقَدْرِ السمواتِ والأرض، يَنفُخُ فيه إسرافيلُ عليه السلام»(٢).

وجاء في الحديث: «كيفَ أنعَمُ وصاحبُ القَرنِ قد التقَمَ القَرْنَ وحَنَى جَبْهَته وانتظَرَ أن يُؤذَنَ له. فقالوا: يا رسولَ اللهِ، كيفَ نقولُ؟ قال: «قولوا: حسبُنا الله ونِعْمَ الوكيلُ، على الله تَوَكَّلنا»(٣).

(١) انظر تفسير الآية ٧٣ من سورة الأنعام.
(٢) تقدّم الحديث في تفسير الآية ٧٣ من سورة الأنعام عن الطبراني. والدارة: الدائرة.
(٣) أخرجه الترمذي، انظر عارضة الأحوذي، أبواب صفة القيامة ٦/٢٦١.

وقولُه: ﴿ ونحشُر المجرمينَ يومئذ زُرقاً ﴾، قيل: معناه زُرْقُ العيون من شدَّةِ ما هُم فيه من الأهوال.

﴿ يتخافَتُون بينهم ﴾، قال ابن عباس: يَتسارُّون بينهم. أي: يقولُ بعضهم لبعض: ﴿ إن لبثتم إلا عشراً ﴾، أي: في الدار الدنيا، لقد كان لُبثُكم فيها قليلاً، عشرةَ أيامٍ أو نحوُها.

قال الله تعالى: ﴿ نحن أعلَمُ بما يقولون ﴾، أي: في حال تَناجيهم بينهم، ﴿ إذ يقولُ أمْثَلُهم طريقةً ﴾، أي: العاقلُ الكاملُ فيهم، ﴿ إن لبثْتم إلا يوماً ﴾، أي: لِقِصَر[1] مُدَّةِ الدُّنيا في أنفسهم يوم المعاد، لأنَّ الدنيا كُلَّها وإن تكرَّرَتْ أوقاتُها وتعاقَبَتْ لياليها وأيامُها وساعاتُها كأنَّها يومٌ واحدٌ، ولهذا يَستَقصِرُ الكافرون مُدَّةَ الحياة الدنيا يوم القيامة. وكان غرضهم في ذلك دَرْءَ قيام الحُجَّةِ عليهم، لِقِصَر المدَّةِ، ولهذا قال تعالى: ﴿ ويومَ تقومُ الساعةُ يقسِمُ المجرمون ما لَبثُوا غير ساعةٍ كذلك كانوا يؤفَكُونَ * وقال الذين أوتوا العِلْمَ والإيمانَ لقد لَبِثْتم في كتابِ الله إلى يوم البعثِ فهذا يومُ البعثِ ولكنَّكم كنتُم لا تعلَمُون ﴾، وقال تعالى: ﴿ أوَ لم نُعمِّركم ما يتذكَّرُ فيه مَنْ تَذكر وجاءَكُم النذيرُ فَذُوقُوا فما للظالمين من نصير ﴾، وقال تعالى: ﴿ كم لبثْتم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادِّين * قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنم كنتم تعلمون ﴾، أي: إنما كان لُبثكم فيها قليلا، ولو أنكم كنتم تعلمون لآثرتُم الباقيَ على الفانِي، ولكن تَصرَّفتم فأسأتُم التصرُّفَ، قَدَّمتُم الحاضِرَ الفانيَ على الدائم الباقي.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ ويسألونَك عن الجبال ﴾، أي: هل تبقى يوم القيامة أو تَزُولُ؟ ﴿ فقل ينسِفُها ربِّي نسفاً ﴾، أي: يُذهِبُها عن أماكنها ويمحَقُها ويُسيِّرها تسييرا، ﴿ فيَذَرُها ﴾، أي: الأرضَ ﴿ قاعاً صفصفاً ﴾، أي: بساطاً واحداً.

والقاع: هو المستوى من الأرض. والصفصفُ تأكيدٌ لمعنى ذلك، وقيل: الذي لا نبات فيه. والأولُ أولى، وإن كان الآخر مُراداً أيضاً باللازم. ولهذا قال: ﴿ لا ترى فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً ﴾، أي: لا تَرَى في الأرضِ يومئذٍ وادياً ولا رابيةً، ولا مكاناً منخفضاً ولا مُرتفِعاً، كذلك قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن البَصري، والضحاك، وقتادة، وغير واحد من السلف.

﴿ يومئذ يَتَّبِعون الداعيَ لا عِوَجَ له ﴾، أي: يوم يَرَون هذه الأحوال والأهوال يستجيبون مُسارِعين إلى الدَّاعي، حيثُما أُمِرُوا بادَروا إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم، ولكن حيث كان لا ينفعهم، كما قال تعالى: ﴿ أَسْمِع بهم وأَبْصِر يومَ يأتوننا ﴾، وقال: ﴿ مُهطِعين إلى الدَّاع يقولُ الكافرون هذا يوم عَسِرٌ ﴾.

قال محمد بن كعب القُرَظيُّ: يحشرُ الله الناس يوم القيامة في ظلمة، وتُطوَى السماءُ، وتَتناثر النجومُ، وتذهب الشمسُ والقمرُ، وينادي مناد، فيَتبَعُ الناسُ الصوتَ فيأتُونه[2]، فذلك قولُه: ﴿ يومئذ يَتَّبِعون الدَّاعِي لا عِوَجَ له ﴾[3].

وقال قتادة: ﴿ لا عِوَجَ له ﴾، لا يميلون عنه. وقال أبو صالح: ﴿ لا عِوَجَ له ﴾، لا عِوَج عنه.

وقولُه: ﴿ وَخَشعت الأصواتُ للرَّحمنِ ﴾، قال ابن عباس: سَكَنت. وكذا قال السُّديُّ.

---

(٢) في نسخة الحرم: «لقصر ما يبقى مدة».

(٢) في نسخة: يؤمُّونه.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، انظر الدرّ المنثور ١٦/٥٩٩.

﴿ فلا تَسمَعُ إلا هَمْساً ﴾، قال سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: يعني وَطْءَ الأقدام. وكذا قال عكرمةُ، ومجاهدٌ، والضحَّاكُ، والربيعُ بن أنَسٍ، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ، وغيرُهم.

وقال عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاسٍ: ﴿ فلا تَسمَعُ إلا هَمْساً ﴾: الصَّوت الخفيّ، وهو رِوَايةٌ عن عكرمةَ، والضحاك.

وقال سعيد بن جُبَير: ﴿ فلا تسمعُ إلا همساً ﴾: الحديثَ وسرَّه، ووطْءَ الأقدام. فقد جَمَع سعيدٌ كلا القَوْلين وهو مُحتَمِلٌ، أما وَطْءُ الأقدام فالمراد سَعْيُ الناس إلى المحشر، وهو مَشيُهم في سُكُون وخضُوع. وأما الكلام الخَفِيُّ فقد يكون في حالٍ دون حال، فقد قال تعالى: ﴿ يوم يأتِ لا تَكَلَّم نفسٌ إلا بإذنه فمنهم شقِيٌّ وسعيدٌ ﴾.

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ يومئذٍ ﴾، أي: يومَ القيامة ﴿ لا تنفع الشفاعةُ ﴾، أي: عنده ﴿ إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴾، كقولِهِ: ﴿ من ذا الذي يشفَعُ عنده إلا بإذنه ﴾، وقولِهِ: ﴿ وكَم من مَلَكٍ في السمواتِ لا تُغني شَفَاعَتُهم شيئاً إلا من بعد أن يأذَنَ الله لمن يشاءُ ويَرْضى ﴾، وقال: ﴿ ولا يشفَعُون إلا لمن ارتضى ﴾، وقال: ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذِن له ﴾، وقال: ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾.

وفي الصحيحَين من غير وجه، عن رَسُولِ الله ﷺ، وهو سَيِّد وَلَدِ آدم، وأكرم الخلائق على الله عزّ وجلّ أنه قال: «آتي تحت العرش فأخِرُّ لله ساجداً، ويَفتح عَلَيَّ بمحامِدَ لا أُحصيها الآن، فيَدَعني ما شاء الله أن يَدَعني، ثم يقول: يا محمدُ، ارفع رأسك، وقل يُسمَع، واشفع تُشفَّع. قال: فَيَحُدُّ لي حَدّاً، فأُدخِلُهم الجنة، ثم أعود». فذكر أربعَ مَرَّاتٍ. صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء[(١)].

وفي الحديث أيضاً: «يقول تعالى: أخرجوا من النار من كان في قلبه مِثقالٌ من إيمان. فيُخرجُون خلْقاً كثيراً، ثم يقول: أخرجُوا من النار من كان في قلبه نصفُ مِثقالٍ من إيمان، أَخرِجوا من النار من كانَ في قلبه ما يزن ذَرَّةً، من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مِثقالِ ذَرَّةٍ من إيمان» . . . الحديث[(٢)].

وقولُه: ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾، أي: يُحِيطُ علماً بالخلائق كلِّهم، ﴿ ولا يُحيطُون به علماً ﴾، كَقَولِه: ﴿ ولا يحيطون بشيءٍ من عِلْمِهِ إلا بما شاء ﴾.

وقولُه: ﴿ وعَنَت الوجوه للحيِّ القيُّوم ﴾، قال ابنُ عباس وغيرُ واحدٍ: خَضعت وذَلَّت واستسلَمَتْ الخلائقُ لجبّارِها الحيِّ الذي لا يَموت، القيوم: الذي لا ينام، وهو قَيِّمٌ على كُلِّ شيءٍ، يُدَبِّره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الذي كلُّ شيءٍ فقيرٌ إليه، لا قِوَامَ له إلا به.

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة البقرة ٨/١٦٠، ومسلم، كتاب الإيمان ١/١٨١.

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أبي سعيد ١/٩٤ ـ ٩٥، والنسائي في كتاب الإيمان ٨/١١٢ ـ ١١٣.

وقولُه: ﴿ وقد خاب من حَمل ظُلماً ﴾، أي: يوم القيامة، فإن الله سيؤدِّي كُلَّ حقٍّ إلى صاحبه، حتى يُقتَصَّ للشاة الجَمَّاء من الشاة القَرْناءِ[1]. وفي الحديث: «يقول الله تعالى: وعزَّتي وجَلَالي، لا يُجاوِزُني اليومَ ظلمُ ظالمٍ». وفي الصحيح: «إياكم والظلمَ، فإن الظلمَ ظلماتٌ يوم القيامة»[2]. والخيبة كُلُّ الخَيْبةِ لِمن لَقِي الله وهو مُشرِكٌ به، فإن الله تعالى يقول: «إنَّ الشِّرْكَ لَظُلمٌ عَظِيمٌ».

وقولُه: ﴿ ومَن يَعمل من الصَّالحات وهو مؤمنٌ فلا يخافُ ظُلماً ولا هَضْماً ﴾، لما ذكر الظالمين ووعيدَهم ثنَّى بالمتقين وحُكْمِهم، وهو أنهم لا يُظلَمون ولا يُهضَمون، أي: لا يُزاد في سيئاتهم ولا يُنقَصُ من حسناتهم. قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، والضحَّاك، والحسن، وقتادة، وغير واحد. فالظلم: الزِّيادةُ بأن يحمَلَ عَلَيه ذنبُ غَيرِه والهَضْمُ: النقصُ.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾

يقولُ: ولَمَّا كان يوم المَعَاد والجَزاء بالخير والشر واقعاً لا محالَةَ، أنزلنا القرآنَ بشيراً ونذيراً، بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ فَصيح[3]، لا لبسَ فيه ولا عِيٍّ، ﴿ وصرَّفنا فيه الوعيد لعلهم يتَّقون ﴾، أي: يتركون المآثم والمحارمَ والفَواحش، ﴿ أو يُحدِثُ لهم ذِكراً ﴾، وهو إيجادُ الطَّاعة وفعلُ القُرُبات، ﴿ فتعالى الله الملكُ الحقُّ ﴾ أي: تَنزَّه وتَقَدَّسَ الملكُ الحقُّ، الذي هو حَقٌّ، ووعدُه حقٌّ، وَوَعيدُه حقٌّ، ورُسُلُه حق، والجنَّةُ حقٌّ، والنارُ حقٌّ، وكلُّ شيءٍ منه حقٌّ. وعدله تعالى ألَّا يُعذِّب أحداً قبلَ الإنذار وبعثةِ الرُّسُلِ والإعذارِ إلى خَلْقِهِ، لئلا يبقَى لأحدٍ حُجَّةٌ ولا شُبهَةٌ[4].

وقولُه: ﴿ ولا تَعْجَلْ بالقرآن من قبلِ أن يُقضَى إليك وَحيهُ ﴾، كقوله تعالى في سورة «لا أقسم بيوم القيامة»: ﴿لا تُحرِّكْ به لسانك لتعجَلَ به * إنَّ علينا جَمْعَه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتَّبع قرآنه * ثُمَّ إنَّ علينا بيانَه ﴾، وثبت في الصحيح عن ابن عباس أنَّ رسول الله - ﷺ - كان يُعالجُ من الوَحْيِ شِدَّةً، فكان مما يُحرِّكُ لسانه، فأنزل الله هذه الآية[5]. يعني أنه - عليه السلام - كان إذا جاءه جبريلُ بالوحي، كلَّما قال جبريل آيةً قالها مَعَه، من شدَّةِ حِرْصِه على حِفْظ القرآنِ، فأرشدَه الله تعالى إلى ما هو الأسهلُ الأخفُّ في حقه؛ لئلا يشقَّ عليه، فقال: ﴿ لا تُحرِّكْ به لسانَك لتعجَلَ به إن علينا جَمْعه وقُرآنه ﴾، أي: أن نجمَعَه في صَدْرِك، ثم تقرأَه على النَّاس من غير أن تَنْسَى منه شيئاً، ﴿فإذا قرأناه فاتَّبع قرآنه * ثُمَّ إنَّ علينا بيانَه﴾. وقال في هذه الآية: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضَى إليك وحيُه ﴾، أي: بل أنصت، فإذا فَرَغ المَلَك من قراءته عليك فاقرأه بعده، ﴿ وَقُل ربِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ أي: زِدْني منكَ عِلْماً.

قال ابنُ عُيَينة رَحِمه الله: ولم يَزَل - ﷺ - في زيادة (من العلم)[6] حتى تَوَفَّاه الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) تقدم الحديث عن تفسير الآية ٥٧ من سورة النساء، وخرجناه هنالك، وشرحنا غريبه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بإسناده إلى جابر بن عبدالله ٣/٣٢٣، ومسلم في كتاب البر ٤/١٩٩٦.

(٣) في نسخة الحرم: فصيح اللسان.

(٤) أي: كثيراً ما كان يفعل ذلك.

(٥) أخرجه الشيخان، فتح الباري، كتاب بدء الوحي ١/٢٩، ومسلم في كتاب الصلاة ١/٣٣٠.

(٦) عن نسخة الحرم.

ولهذا جاء في الحديث: «أنَّ الله تابع الوَحْي على رسوله، حتى كان الوحيُ أكثَرَ ما كانَ يوم تُوفِّي رسولُ الله ﷺ»(١).

وقال ابنُ ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبةَ، حدثنا عبد الله بن نُمَير، عن موسى بن عُبيدةَ، عن محمد ابن ثابت، عن أبي هُريرة رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يقول: «اللهمَّ، انفعني بما علَّمتني، وعلِّمني ما ينفعُني، وزِدْني عِلماً. والحمدُ لله على كلِّ حالٍ»(٢).

وأخرجَه الترمذيُّ، عن أبي كُرَيب، عن عبد الله بن نُمَير، به. وقال: غريبٌ من هذا الوجه(٢). ورواه البَزَّارُ عن عمرو بن علي الفلاَّس، عن أبي عاصمٍ، عن موسى بن عُبَيدَةَ، به. وزاد في آخره: «وأعوذُ بالله من حالِ أهلِ النّارِ»(٣).

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمدُ بن سنان، حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن سعيد بن جُبَير، عن ابنِ عباس قال: إنما سُمِّي الإنسان لأنه عُهِد إليه فَنَسِي. وكذا رواه عليُّ بن أبي طَلْحَةَ، عنه. وقال مجاهدٌ، والحسنُ: تَرَكَ.

وقولُه: ﴿ وإذ قُلنا للملائكةِ اسجُدُوا لآدَمَ ﴾، يذكر تعالى تشريفَ آدمَ وتكريمَه، وما فضَّله به على كثيرٍ ممَّن خَلَق تفضيلاً. وقد تقدَّم الكلام على هذه القصة في سورة «البقرة»، وفي «الأعراف»، وفي «الحِجْر»، و«الكهف»(٤) وسيأتي في آخر سورة (صٓ)(٥) ـ إن شاء الله تعالى ـ يذكر فيها تعالى خَلْقَ آدَمَ وأَمْرَه الملائكة بالسُّجودِ له تشريفاً وتكريماً، ويُبيِّن عداوةَ إبليسَ لبني آدَمَ ولأبيهم قديماً. ولهذا قال تعالى: ﴿ فسجَدُوا إلا إبليسَ أبى ﴾، أي: امتنع واستكبر، ﴿ فقلنا يا آدَمُ إن هذا عَدُوٌّ لك ولزَوجِكَ ﴾، يعني حَوّاءَ عليهما السلام، ﴿ فلا يُخرجَنَّكُما من الجنة فتشقى ﴾، أي: إياك أن يسعى في إخراجك منها فتتعَبَ وتَعْنى وتَشْقى في طَلَبِ رِزْقِكَ، فإنك هاهنا في عيشٍ رغيدٍ هَنيءٍ، لا كُلفَةَ ولا مَشَقَّةَ.

﴿إنَّ لك ألَّا تجوعَ فيها ولا تَعْرى﴾: إنما قَرَنَ بين الجُوعِ والعُرْيِ لأن الجوعَ ذُلُّ الباطن والعُرْيَ ذُلُّ الظّاهِرِ.

(١) تقدم الحديث أول التفسير في كتاب فضائل القرآن، وخرجناه هنالك.
(٢) سنن ابن ماجه، المقدمة ١/٩٢، وكتاب الدعاء ٢/١٢٦٠. وعارضة الأحوذي، أبواب الدعاء ١٣/٨٨.
(٣) هذه الزيادة واقعة في الرواية التي ساقها ابن ماجه في كتاب الدعاء ٢/١٢٦٠.
(٤) انظر تفسير الآيات ٣٠ ـ ٣٨ من سورة البقرة، ١١ ـ ٢٤ من سورة الأعراف، ٢٨ ـ ٤٠ من سورة الحجر، والإسراء ٦١ ـ ٦٥، والكهف الآية ٥٠.
(٥) انظر تفسير الآيات ٧١ ـ ٨٥.

﴿ وأنك لا تظمَؤُ فيها ولا تَضحَى ﴾: وهذان أيضاً متقابلان، فالظُّمَأ: حَرُّ الباطن، وهو العطش. والضُّحيُّ: حَرُّ الظاهر.

وقوله: ﴿ فوسوسَ إليه الشيطانُ قال يا آدمُ هل أدلُّك على شَجرةِ الخُلْدِ ومُلْكٍ لا يَبْلَى ﴾: قد تقدم أنه ﴿ دَلَّاهما بغرور ﴾، ﴿ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴾[1]. وقد تقدم أن الله تعالى أوحى إلى آدم وزوجته أن يأكلا من كل الثمار، ولا يقربا هذه الشجرة المعيَّنة في الجنة. فلم يَزَلْ بهما إبليسُ حتى أكَلا منها، وكانت شجرةُ الخُلْدِ ـ يعني التي من أكل منها خَلَد ودام مكثه ـ وقد جاء في الحديث ذِكْرُ شجرة الخُلْدِ، فقال أبو داود الطيالسي:

حدثنا شعبةُ، عن أبي الضَّحَّاكِ، سَمعتُ أبا هُرَيرة يُحدِّث، عن النبي ـ ﷺ ـ: قال: «إنَّ في الجنَّة شجرةً يسيرُ الراكبُ في ظِلِّها مائةَ عام، مَا يَقْطَعها، وهي شجرةُ الخُلدِ»[2]. ورواه الإمامُ أحمدُ[2].

وقوله: ﴿ فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما ﴾، قال ابنُ أبي حاتم:

حدثنا علي بن الحسين بن إشكاب، حدثنا علي بن عاصم، عن سَعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادَةَ، عن الحسن، عن أبيّ بن كعب قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الله خَلَق آدم رَجُلاً طُوَالاً كثيرَ شَعْرِ الرأس، كأنه نخلةٌ سَحُوقٌ[3]. فلما ذاق الشجرةَ سَقَط عنه لباسُه، فأوَّلُ ما بدا منه عَوْرَتُه، فلما نَظَر إلى عَوْرَتِه جعل يَشْتَدُّ في الجنة، فأخذَتْ شعرَه شجرةٌ، فنازعها، فنادى الرحمنُ: يا آدمُ، مِنِّي تَفِرُّ؟ فَلَمَّا سَمِع كلامَ الرَّحمنِ قال: يا ربِّ لا، ولكن استحياءً، أرأيتَ إن تبتُ ورجعتُ، أعائدِي إلى الجَنَّةِ؟ قال: نعم، فَذَلك قولُه: ﴿ فتلقَّى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾[3].

وهذا منقطعٌ بين الحسن وأُبيّ بن كعب، فلم يَسْمَعه منه، وفي رفعه نظرٌ أيضاً.

وقولُه: ﴿ وطَفِقا يَخصِفان عليهما من وَرَق الجنَّةِ ﴾، قال مجاهد: يرفعان كهيئة الثوب. وكذا قال قتادةُ والسدِّي.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفر بن عَوْنٍ[4]، حدثنا سفيان، عن ابن أبي ليلى، عن المِنْهَالِ، عن سعيد ابن جُبَير، عن ابن عباس، ﴿ وطَفِقا يَخْصِفَانِ عليهما من وَرَق الجنَّةِ ﴾، قال: يَنْزِعان وَرَقَ التِّين، فيجعلانه على سَوْآتِهما.

وقولُه: ﴿ وعَصَى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربُّه فتاب عليه وهَدَى ﴾، قال البخاريُّ:

حدثنا قُتَيبة، حدثنا أيوبُ بن النَّجار، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ قال: «حاجَّ موسى آدمَ فقال له: أنت الذي أخرجتَ الناسَ من الجنَّةِ بذنبك وأشقيتَهم؟ قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسَالاته وبكلامه، أتلومُني على أمرٍ قد كَتَبه الله عليَّ قبل أن يُخلقَنِي، أو: قَدَّره الله علي قبل أن يخلقني؟ قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: فَحَجَّ آدمُ موسى»[5].

---

(١) انظر تفسير أيتي ٢١ ـ ٢٢ من سورة الأعراف.

(٢) مسند أبي داود الطيالسي ٢٣٢، ومسند أحمد ٢/٤٥٥، ٤٦٢.

(٣) أي: طويلة. وقد تقدم الحديث عند تفسير الآية ٣٦ من سورة البقرة.

(٤) كذا، وابن أبي حاتم لا يروى عن جعفر بن عون، وقد وجدناه في تفسيره يروي عن أبي عقيل يحيى بن حبيب، عنه، أو عن محمد ابن إسماعيل الاحمسي، عنه. رأينا ذلك في تفسير الآية ٧٧ من سورة يوسف، والآية ٨٢ من سورة النمل.

(٥) فتح الباري، تفسير سورة طه ٨/٤٣٤ ـ ٤٣٥. وقد تقدّم الحديث عن تفسير الآية ٤١ من هذه السورة، وخرجناه هنالك.

وهذا الحديث له طرق في الصحيحين وغيرهما من المسانيد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابنُ وهب، أخبرني أنس بن عِياض، عن الحارث ابن أبي ذُبَاب، عن يزيدَ بن هُرمُزَ قال: سمعتُ أبا هُرَيرة يقول: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: حَجَّ آدَمُ وموسى عند رَبِّهما، فحج آدمُ موسى، قال موسى: أنت الذي خلقَكَ الله بيده، ونفَخَ فيك من رُوحه، وأسجَدَ لك ملائكته، وأسكنَكَ في جَنَّته، ثم أهبطْتَ الناسَ إلى الأرضِ بخطيئتِكَ. قال آدم: أنتَ مُوسَى الذي اصطَفاكَ الله برسالَتِهِ وكَلَامِهِ، وأعطاكَ الألْوَاحَ فيها تبيانُ كلِّ شيْءٍ، وقَرَّبك نجيّاً، فَبِكَمْ وَجَدْتَ الله كتَبَ التوراةَ[1]؟ قال موسى: بأربعين عاماً. قال آدم: فهل وَجدتَ فيها: ﴿ وعَصَى آدمُ ربَّه فَغوى ﴾؟ قال: نعم. قال: أَفتَلُومني على أن عملتُ عملاً كَتَب الله عليَّ أن أعملَه قبل أن يخلُقَني بأربعينَ سنةً، قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: فحجَّ آدمُ موسى.

قال الحارثُ: وحدَّثني عبد الرحمن بن هُرمُزَ بذلك عن أبي هُرَيرة، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ تسليماً.

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى لآدَمَ وحَوَّاء وإبليسَ: ﴿ اهبِطُوا منها جَميعاً ﴾، أي: من الجنَّةِ كُلُّكم. وقد قدَّمنا بَسْطَ ذلك في سورة البقرة[2].

﴿ بعضُكم لبعضٍ عَدُوٌّ ﴾، قال: آدمُ وذُرِّيتهُ، وإبليسُ وذُرِّيته. وقولُه: ﴿ فإما يأتينَّكم مني هُدىً ﴾، قال أبو العالية: الأنبياءُ والرسلُ والبيانُ. ﴿ فمن اتَّبع هُدَاي فلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى ﴾، قال ابنُ عباسٍ: لا يَضِلُّ في الدنيا، ولا يشقَى في الآخِرَةِ.

وقولُه: ﴿ ومَن أَعْرَضَ عن ذِكْري ﴾، أي: خالفَ أمري وما أنزلتُه على رَسُولي، أَعرَضَ عنه وتناساه وأخَذَ من غيره هداه، ﴿ فإنَّ له معيشةً ضَنْكاً ﴾، أي: في الدنيا، فلا طمأنينةَ له، ولا انشراحَ لصدرِه، بل صَدْرُه ضَيِّقٌ حَرِجٌ لضلالِه، وإن تَنَعَّم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكَلَ ما شاء، وسَكَن حيث شاء، فإنَّ قلبه ما لم يخلُصْ إلى اليقينِ والهُدَى، فهو في قَلَقٍ وَحيْرَةٍ وشَكٍّ، فلا يزالُ في رِيبَةٍ يتردَّدُ. فهذا من ضَنْكِ المَعيشَةِ.

قال علي بنُ أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ فإنَّ له مَعيشةً ضَنكاً ﴾، قال: الشقاء. وقال العَوْفي، عن ابن عباس: ﴿ فإنَّ له مَعيشةً ضَنْكاً ﴾، قال: كلُّ مال أعطيتُه عبداً من عبادي، قلَّ أو كثر، لا يتقيني فيه، فلا خَيرَ فيه، وهو الضَّنْكُ في المَعيشة. ويُقال أيضاً: إنَّ قوماً ضُلَّالا أعرضُوا عن الحقِّ، وكانوا في سَعَةٍ من الدنيا مُتكبِّرين، فكانت معيشتهم ضَنكاً؛ ذلك أنَّهم كانوا يَرَون أنَّ الله ليس مُخلفاً لهم معايشهم، من سُوء ظَنِّهم بالله والتكذيبِ، فإذا كان العبدُ يُكذِّب بالله، ويُسيءُ الظنَّ به والثقةَ به، اشتدَّت عليه معيشتُه، فذلك الضَّنْكُ[3].

---

(١) بعده في الطبعات السابقة: «قبل أن أخلَق».
(٢) انظر تفسير الآية ٣٨ من سورة البقرة.
(٣) تفسير الطبري ١٦/٢٢٧.

وقال الضحاك: هو العمل السيِّىء، والرزقُ الخبيثُ. وكذا قال عكرمةُ، ومالك بن دينار.

وقال سفيان بنُ عُيينة، عن أبي حَازِم، عن أبي سَلَمَةَ، عن أبي سعيد في قوله: ﴿ معيشة ضنكاً ﴾، قال: يُضيَّق عليه قبرُه حتى تَختلِفَ أضلاعُه فيه. وقال أبو حاتم الرازيُّ: النعمانُ بن أبي عَيَّاشٍ يُكنَى أبا سَلَمة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا صفوانُ، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لَهيعة، عن درَّاج، عن أبي الهَيْثَم، عن أبي سَعيدٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ في قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فإنَّ له معيشةً ضَنْكاً ﴾، قال: ضَمَّة القبر. الموقوف أصح.

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا الربيعُ بن سُلَيمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن لَهيعَةَ، حدثنا دَراج أبو السَّمْح، عن ابن حُجَيرَة ـ اسمه عبد الرحمن ـ عن أبي هُرَيرة، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ قال: «المؤمن في قبره في روضة خضراء، ويُرَحَّب له في قبره سبعون ذراعاً، ويُنَوَّر له قبرُه كالقَمَر ليلةَ البَدْر، أتدرُونَ فيم أُنزلَت هذه الآية: ﴿ فإن له معيشة ضنكا ﴾؟ أتدرون: ما المعيشةُ الضَّنْك؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ. قال: عذابُ الكافِرِ في قبره، والذي نفسي بِيَدِهِ إنه لَيُسلَّط عليه تسعةٌ وتسعون تِنِّينا، أتدرون: ما التِّنِّين؟ تسعةٌ وتسعون حَيَّةً، لِكُلِّ حية سبعة رُءُوس ينفخُون في جِسْمِه، ويَلسَعُونَه ويخدِشُونه إلى يوم يُبعَثُونَ». رَفعهُ مُنكر جداً.

وقال البزَّار: حدثنا محمد بن يحيى الأَزْدي، حدثنا محمد بن عُمَر، حدثنا هشام بنِ سَعْدٍ، عن سَعِيد بن أبي هِلال، عن ابن حُجَيرَةَ، عن أبي هُرَيرَةَ، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فإنّ له مَعِيشةً ضَنْكاً ﴾، قال: المعيشة الضنكُ الذي قال الله تعالى: أنه يُسَلَّطُ عليه تسعةٌ وتسعونَ حيةً، ينهَشُونَ لحمَه حتى تَقومَ الساعةُ»(1).

وقال أيضاً: حدثنا أبو زُرعَةَ، حَدَّثنا أبو الولِيد، حدثنا حَمَّاد بن سَلَمة، عن مُحَمَّد بن عمرو، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ: ﴿ فإن له مَعِيشةً ضَنْكاً ﴾ قال: عذاب القبر. إسنادٌ جيِّدٌ.

وقولُه: ﴿ ونحشُرُه يومَ القيامة أعمى ﴾، قال مجاهد: وأبو صالح، والسدِّيُّ: لا حُجَّة له. وقال عكرمة: عُمِّي عليه كلُّ شيء إلا جَهَنَّم.

ويَحتَمِلُ أن يكون المراد أنه يُحشَر أو يبعث إلى النار أعمى البصرِ والبصيرة أيضاً، كما قال تعالى: ﴿ ونحشُرُهم يوم القيامةِ على وُجُوههم عُمياً وبُكماً وصُمّاً مَأْواهم جهَنَّم كُلَّما خَبَتْ زِدْناهم سَعِيراً ﴾، ولهذا يقول: ﴿ رَبِّ لم حَشَرتني أعمى وقد كنتُ بَصِيراً ﴾، أي: في الدنيا، ﴿ قال كذلك أَتَتك آياتُنا فَنَسِيتَها وكذلك اليوم تُنسَى﴾، أي: لما أعرضت عن آيات الله، وعامَلْتَها معاملةَ مَن لم يذكرها، بعد بلاغها إليك تناسيتَها وأعرضْتَ عنها وأغفلتها، كذلك نُعامِلُك معاملَة مَنْ ينساك، ﴿ فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾؛ فإنَّ الجزاءَ من جِنْسِ العَمَل. فأما نِسيانُ لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلاً في هذا الوعيد الخاص، وإن كانَ مُتوَعّداً عليه من جهةٍ أخرى؛ فإنه قد وَرَدَت السُّنةُ بالنهي الأكيد والوعيدِ الشديد في ذلك، قال الإمامُ أحمد:

حدثنا خَلَفُ بن الوليد، حدثنا خالد، عن يزيد بن أبي زياد، عن عيسى بن فائد، عن رَجُلٍ، عن سعد ابن عُبادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: ما من رجل قَرأَ القرآن فَنَسِيه إلا لقي الله يومَ يلقاه وهو أَجْذَمُ(2).

(1) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٥٨/٣ ـ ٥٩.

(2) مسند الإمام أحمد ٢٨٥/٥.

ثم رواه الإمامُ أحمدُ من حديث يزيد بن أبي زياد، عن عيسى بن فائد، عن عُبادة بن الصامت، عن النبي ـ ﷺ ـ، فذكر مثله سواء[١].

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى: وهكذا نُجَازِي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة، ﴿ لهم عَذَابٌ في الحياة الدُّنيا ولَعَذابُ الآخرة أشقُّ وما لهم مِنَ الله من واق ﴾، ولهذا قال: ﴿ ولَعَذابُ الآخِرَةِ أشدُّ وأبقى ﴾، أي: أشد ألماً من عذاب الدنيا، وأدومُ عليهم، فهم مُخلَّدون فيه. ولهذا قال رسول الله ـ ﷺ ـ للمتلاعنين: «إنَّ عذابَ الدنيا أهونُ من عَذَابِ الآخرة»[٢].

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ أفلم يَهْدِ ﴾ لهؤلاء المكذِّبين بما جئتَهم به ـ يا محمَّدُ ـ كم أهلكنا من الأُمَم المكذِّبين بالرسل قبلهم، فبادوا، فليس لهم باقيةٌ ولا عينٌ ولا أثَرٌ، كما يُشاهِدُون ذلك من ديارهم الخالية التي خَلَفُوهم فيها، يمشُون فيها، ﴿ إن في ذلك لآيات لأولي النهى ﴾، أي: العقول الصحيحة، والألباب المستقيمة، كما قال تعالى: ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكونَ لهم قلوبٌ يعقِلُون بها أو آذان يَسمعُون بها فإنها لا تَعْمَى الأبصارُ ولكن تَعْمَى القلوبُ التي في الصُّدُورِ ﴾، وقال في سورة «السَّجدةِ»: ﴿ أَوَلَم يَهْدِ لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ ولولا كلمةٌ سَبَقت من ربِّك لكان لِزاماً وأَجلٌ مسمّىً ﴾، أي: لولا الكلمةُ السابقة من الله، وهو أنه لا يُعذِّب أحداً إلا بعد قيام الحجَّة عليه ـ والأجلُ المسمَّى الذي ضَرَبه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدّةٍ مُعيَّنة ـ لجاءهم العذابُ بغتةً. ولهذا قال لنبيِّه مسلياً له: ﴿ فاصبرْ على ما يقولون ﴾، أي: تَكْذِيبهم لك، ﴿ وسَبِّح بحمد ربك قبل طُلُوع الشمس ﴾، يعني صلاةَ الفجر، ﴿ وقبل غروبها ﴾ يعني صلاةَ العَصر، كما جاء في الصحيحين، عن جرير بن عبد الله البَجَليِّ قال: كُنَّا جُلُوساً عندَ رسولِ الله ـ ﷺ ـ، فَنَظر إلى القمر ليلةَ البدرِ، فقال: «إنكم سَترون رَبَّكم كما تَرَون هذا القمر، لا تُضامُون في رؤيته، فإن استطعتم ألَّا تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا»، ثم قرأ هذه الآية[٣].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا سُفيان بن عُيَينة، عن عبد الملك بن عُمَير، عن عمارة بن رُوَيبَةَ قال: سَمِعتُ

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٣٢٣.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب اللعان ٢/١١٣٠ ـ ١١٣١، والترمذي في كتاب التفسير، عارضة الأحوذي ١٢/٤٤، والنسائي في كتاب الطلاق ٦/١٧٦. وانظر تحفة الأشراف ٥/٤٢٦.

(٣) فتح الباري، كتاب مواقيت الصلاة ٢/٣٣. ومسلم، كتاب المساجد ١/٤٣٩. و«لا تُضامُون» ـ بتخفيف الميم ـ أي: لا يحصل لكم ضيمٌ حينئذ. ويروى بفتح أوله وتشديد الميم، من الضَّمِّ، والمراد نفي الازدحام.

رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «لن يَلِجَ النارَ أحدٌ صلَّى قبلَ طلوعِ الشمس، وقبلَ غُروبِها»(١). رواه مسلم من حديث عبد الملك بن عُمَير، به(١).

وفي المُسْنَد والسُّنَن، عن ابن عُمَر قال: رسول الله ـ ﷺ ـ: «أدنى أهل الجنَّةِ منزلةً من ينظُر في مُلْكِه مسيرةَ ألفي سنةٍ، ينظر إلى أقصاه كما ينظُر إلى أدناه، وإنَّ أعلاهم مَنْزلةً لَمَنْ ينظُر إلى الله عزَّ وجلَّ في اليوم مرَّتين»(٢).

وقولُه: ﴿ ومن آناء الليل فَسَبِّح ﴾، أيْ: ساعاتِهِ فتَهَجَّد به. وحَمَله بعضُهم على المغرب والعِشاء، ﴿ وأطراف النهار ﴾، في مقابلة آناءِ الليل، ﴿ لعلك ترضى ﴾، كما قال تعالى: ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾. وفي الصَّحيح: «يقول الله: يا أهلَ الجنة. فيقولون: لَبَّيكَ رَبَّنا وسَعْدَيْكَ. فيقول: هل رَضِيتم، فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتَنا ما لم تُعطِ أحداً من خَلْقِكَ؟ فيقول: إني أُعطِيكُم أفضلَ مِنْ ذلِكَ. فيقولون: وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رِضْواني، فلا أَسخطُ عليكم بعده أبداً»(٣).

وفي الحديث الآخر يقال: «يا أهلَ الجنَّةِ، إنَّ لكم عند الله مَوْعِداً يُريد أن يُنْجِزكُمُوه. فيقولون: وما هو؟ ألم يُبَيِّض وجوهنا؛ ويُثَقِّل موازيننا، ويُزَحزِحنا عن النار، ويُدْخِلْنا الجنة؟ فيُكْشَفُ الحجابُ، فينظرون، فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه، وهي الزيادة»(٤).

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيِّه محمد ـ صواتُ الله وسلامُه عليه ـ: لا تنظر إلى ما متَّعنا به هؤلاء المترَفين وأشباهَهم ونُظَراءهم، وما هم فيه من النعيم، فإنما هو زَهرةٌ زائلةٌ، ونعمة حائلة، لِنَختَبِرَهم بذلك، وقليلٌ من عبادِيَ الشكورُ.

وقال مجاهدٌ: ﴿ أزواجاً منهم ﴾، يعني الأغنياءَ، فقد آتاك الله خيراً مما آتاهم. كما قال في الآية الأُخرَى: ﴿ ولقد آتيناك سُبعاً من المَثاني والقرآنَ العَظِيمَ. لا تَمُدَّنَّ عينَيكَ إلى ما مَتَّعنا به أزواجاً مِنهُم ﴾، وكذلك ما ذَخَره تعالى لرسوله في الدار الآخرة أَمْرٌ عظيمٌ لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ، كما قال تعالى: ﴿ ولسوف يُعطِيكَ ربُّك فَترضَى ﴾، ولهذا قال: ﴿ ورِزْقُ رَبِّك خيرٌ وأبقَى ﴾.

وفي الصَّحيح أن عُمَر بن الخطاب لما دَخَل على رسولِ الله ـ ﷺ ـ في تلك المَشْرُبة التي كان قد اعتزل فيها نساءه، حين آلى منهن(٥)، فرآه متوسداً مضطجعاً على رِمالِ(٦) حصير، وليس في البيت إلا صُبْرَة من

(١) مسند أحمد ١٣٦/٤، ومسلم، كتاب المساجد ٤٤٠/١.

(٢) مسند أحمد ١٣/٢، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة القيامة ٢٣٠/١٢ ـ ٢٣٣. وانظر تحفة الأشراف ٣٢٥/٥.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، فتح الباري ٤٨٧/١٣، ومسلم في كتاب الجنة ٢١٧٦/٤.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ١٦٣/١، والترمذي في أبواب صفة الجنة، عارضة الأحوذي ١٨/١٠ ـ ١٩، وتفسير سورة يونس ٢٦٩/١١ ـ ٢٧٠. وانظر فيما تقدم تفسير الآية ٢٦ من سورة يونس.

(٥) كان ﷺ قد حلف ألَّا يدخل على نسائه شهراً، من شدَّة مَوْجِدَته عليهنَّ حين عاتبه الله تعالى.

(٦) رمال ـ بكسر الراء وضمها ـ: ما رُمِل، أي نُسِجَ.

قَرَظٍ(١) وأَهَبَةٌ مُعَلَّقة، فابتَدَرتْ عينا عُمرَ بالبُكَاءِ، فقال رسول الله: ما يبكيك يا عُمَر؟ فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ كسرى وقيصرَ فيما هُما فيه، وأنتَ صَفْوةُ اللهِ من خَلْقِهِ؟ فقال: «أَوَ في شَكٍّ أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قومٌ عُجِّلت طَيِّباتُهم في حَيَاتهم الدنيا»(٢).

فكان ـ صلوات الله وسلامُه عليه ـ أزهدَ الناس في الدُّنيا مع القُدرَةِ عليها، إذا حَصَلت له يُنفِقُها هكذا وهكذا في عباد الله، ولم يَدَّخِر لنفسِه شيئاً لغد.

وقال ابن أبي حاتم: أنبأنا يونس، أخبرني ابنُ وَهبٍ، أخبرني مالك، عن زَيدِ بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ عـليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الحياة الدنيا. قالوا: وما زَهرةُ الحياة الدنيا يا رسول الله؟ قال: «بركاتُ الأرضِ».

وقال قتادةُ، والسدّيُّ: زهرة الحياة الدنيا، يعني زينةَ الحياةِ الدنيا. وقال قتادةُ: ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ ﴾ لِنَبْتَلِيَهُم(٣).

وقولُه: ﴿ وَأْمُرْ أَهلَكَ بالصَّلاة واصْطَبِرْ عَلَيها ﴾، أي: استَنقِذْهُم من عذابِ الله بإقامِ الصَّلاةِ، واصطَبِرْ أنت على فعلها، كما قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفُسَكم وأَهْلِيكم ناراً ﴾.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابنُ وهب، أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلَمَ، عن أبيه أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده أنا ويَرْفا(٤). وكان له ساعةٌ من الليل يُصَلِّي فيها، فَرُبَّما لم يَنَمْ فَنَقولَ: لا يَقومُ الليلةَ كما كانَ يَقومُ. وكان إذا استيقظَ أَقَامَ ـ يعني أهلَه ـ وقال: ﴿ وَأْمُر أهلَكَ بالصَّلاة واصطَبِرْ عَلَيها ﴾(٥).

وقولُه: ﴿ لا نسأَلُك رِزْقاً نحنُ نرزُقُكَ ﴾، يعني إذا أقمتَ الصَّلاة أتاك الرِّزقُ من حيثُ لا تحتَسِبُ، كما قال تعالى: ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقْهُ من حيث لا يحتَسِبُ﴾، وقال تعالى: ﴿ وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلا ليعبُدُونِ * ما أُرِيدُ منهم من رِزق وما أُريدُ أن يُطعمونِ * إن الله هو الرزَّاق ذُو القُوَّةِ المتينُ﴾، ولهذا قال: ﴿ لا نَسأَلُكَ رِزْقاً نحن نَرزُقك ﴾، قال الثوري: ﴿ لا نسألك رزقاً ﴾، أي: لا نُكَلِّفُكَ الطَّلَبَ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا حفصُ بنُ غياثٍ، عن هشام، عن أبيه: أنه كان إذا دخل على أهل الدنيا، فرأى من دنياهم طَرَفاً فإذا رَجَعَ إلى أهـله فَدَخَل الدار قرأ: ﴿ ولا تمدنَّ عينيكَ ﴾ إلى قوله: ﴿ نـحن نرزُقكَ ﴾، ثم يقول: الصلاةَ الصلاةَ، رَحِمكم اللهُ(٦).

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدَّثنا أبي، حدثنا عبدُ الله بنُ أبي زيادٍ القَطَوَانِيّ، حدثنا سَيَّار، حدثنا جعفر،

---

(١) القَرَظُ: وَرَق السلم، يدبغ به، والصَّبرة: الكُومَةَ. وأَهَبَةَ ـ كذا في النسخ، وقال ابن حجر في الفتح ١١٧/٥: «وأهبة، بفتح الهمزة والهاء ويجوز ضمها»، وقال في ٢٨٨/٩: «الأهبة بفتح الهمزة والهاء وبضمها [كذا] أيضاً بمعنى الأهَبَ والهاء فيه للمبالغة، وهو جمع إهاب على غير قياس، وهو الجلد قبل الدّباغ. وقيل: هو الجلد مطلقاً دبغ أو لم يُدبغ. والذي يظهر أن المراد «هنا جلد شرع في دبغه». والذي في اللغة: آهبة، جمع إهاب، وهو الجلد من البقر والغنم والوحش، وما يدبغ، وهو جمع قليل.

(٢) فتح الباري، كتاب المظالم ١١٥/٥ ـ ١١٧، ومسلم، كتاب الطلاق ١١٠٦/٢ ـ ١١١٣.

(٣) تفسير الطبري ٢٣٥/١٦ ـ ٢٣٦.

(٤) أخرجه الطبري بإسناده إلى هشام بن سعد، نحوه ٢٣٧/١٦. ولفظه هنا: «كان يبيت عند عُمَر من غلمانه أنا ويَرْفَأ». «ويَرْفَأ ـ كيَمْنَعُ ـ مولى عُمَر بن الخطاب، يقال: إنه أدرك الجاهلية، وحج مع عُمَر في خلافة أبي بكر». تاج العروس، مادة: رفأ، ولسان العرب، مادة: يرف.

(٥) أخرجه مالك والبيهقي، انظر الدرّ المنثور ٦١٣/٥ ـ ٦١٤، والموطأ، كتاب صلاة الليل ١١٩/١.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة والطبري، الدر المنثور ٦١٤/٥، وتفسير الطبري ٢٣٦/١٦ ـ ٢٣٧.

عن ثابت قال: كان النبيُّ ـ ﷺ ـ إذا أصابه خصاصةٌ نادى أهله: يا أهلاه، صَلُّوا. صَلُّوا. قال ثابتٌ: وكانت الأنبياء إذا نَزَل بهم أمرٌ فَزِعُوا إلى الصَّلاةِ.

وقد رَوَى الترمذيّ وابنُ ماجه، من حديث عمرانَ بن زائدة، عن أبيه، عن أبي خالد الوالبيّ، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يقول الله: يـا ابنَ آدمَ، تَفَرَّغ لعبادَتِي أَمْلأْ صدرَكَ غِنىً، وأَسُدُّ فَقْرَك. وإن لم تَفعَلْ ملأتُ صدرَكَ شُغلاً، ولم أسدَّ فَقْرَك»[١].

ورَوَى ابنُ ماجه من حَديثِ الضحَّاك، عن الأسود، عن ابن مسعودٍ: سمعتُ نبيَّكم ـ ﷺ ـ يقول: «مَنْ جَعَل الهُمُوم هَمّاً واحداً، هَمَّ المَعادِ، كفاه الله هَمَّ دنياه. ومن تَشَعَّبت به الهُمُومُ في أحوالِ الدُّنـيا لم يبال الله في أيِّ أوديتِه هَلَك»[٢].

ورَوَى أيضاً من حَديثِ شُعبةَ، عن عُمَرَ بن سُليمَان، عن عبد الرحمن بن أَبانَ، عن أبيه، عن زيدِ بن ثابتٍ: سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «من كانت الدُّنيا هَمُّه فَرَّقَ الله عليه أَمْرَه، وَجَعَلَ فَقْرَه بين عينيه، ولم يَأْتِه من الدنيا إلا ما كُتِبَ له. ومن كانت الآخرة نِيَّتَه جَمَع له أَمْرَه، وجَعَل غناه في قَلْبِه، وأتته الدُّنيا وهي راغمة»[٢].

﴿ والعاقبةُ للتَّقوَى ﴾، أي: وحسنُ العاقبَةِ في الدنيا والآخرة ـ وهي الجنة ـ لمن اتَّقى الله.

وفي الصحيح أنَّ رَسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «رأيتُ الليلَةَ كأنا في دار عُقبَةَ بن رَافع، وأَنَّا أُتِينا بِرُطَب من رُطَبِ ابنِ طَابٍ[٣]، فَأَوَّلتُ ذلك أَنَّ العاقِبَةَ لنا في الدُّنيا والرفعةَ[٤]، وأَنَّ دِينَنا قد طَابَ»[٥].

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُخبراً عن الكُفَّار في قولهم: ﴿ لولا ﴾، أي: هَلاَّ ﴿ يأتينا ﴾ مُحمَّدٌ ﴿ بآيةٍ من ربِّه ﴾، أي: بعلامَةٍ دالَّةٍ على صِدْقهِ في أنَّه رسولُ الله؟ قال الله تعالى: ﴿ أو لم تأتِهِمْ بيِّنَةُ ما في الصُّحُفِ الأولى ﴾، يعني القرآن العظيم الذي أنزله عليه الله وهو أُمِّي لا يُحسِنُ الكتابَة، ولم يُدَارِسْ أهلَ الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدُّهُور، بما يُوافِقُه عليه الكُتُب المتقدِّمة الصحيحة منها، فإن القرآنَ مُهَيمِنٌ عليها، يُصَدِّق الصحيحَ، ويُبَيِّن خَطَأَ المكذُوب فيها وعليها. وهذه الآيةُ كقوله تعالى في سورة «العنكبوت»: ﴿ وقـالوا لولا أُنزِلَ عليه آياتٌ من ربه قل إنما الآياتُ عند الله وإنما أنا نذيرٌ مبينٌ * أو لم يكْفِهم أَنَّا أنزلنا عليك الكتابَ يُتْلَى عليهم إنَّ في ذلك لرحمةً وذكرى لقومٍ يؤمنون ﴾. وفي الصحيحين عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال:

---

(١) عارضة الأحوذي، أبواب صفة القيامة ٢٨٦/٧، وابن ماجه، كتاب الزهد ١٣٧٦/٢، والمقدمة ٩٥/١.

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب الزهد ١٣٧٥/٢.

(٣) رطب ابن طاب: نوع من الرطب معروف، يقال له: رطب ابن طاب، وتمر ابن طاب، وعِذْق ابن طاب، وعرجون ابن طاب. وابن طاب: رجل من أهل المدينة.

(٤) في نسخة: والعاقبة لنا في الآخرة. ولفظ مسلم وأبي داود: «فأوّلت الرفعة لنا في الدنيا والعاقبة في الآخرة».

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الرؤيا ١٧٧٩/٤، وأبو داود في كتاب الأدب ٣٠٦/٤، وانظر تحفة الأشراف ١١٨/١.

«ما مِن نبيٍّ إلا وقد أُوتِيَ من الآيات ما آمَنَ على مِثْلِهِ البشرُ، وإنما كان الذي أُوتيتُه وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أَكُونَ أكثَرَهم تابعاً يومَ القِيَامَةِ»(١).

وإنما ذُكِرَ هاهنا أعظمِ الآيات التي أُعطِيها عليه السلام، وهو القرآنُ، وله مِنَ المعجزات ما لا يُحَدُّ ولا يُحصَرُ، كما هو مُودَعٌ في كتبه، ومُقرَّر في مواضعه.

ثم قال تعالى: ﴿ ولو أَنَّا أهلكنَاهُم بعَذابٍ من قبله لقالوا رَبَّنا لولا أرسلتَ إلينا رَسُولا ﴾، أي: لو أَنَّا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نُرْسِلَ إليهم هذا الرسولَ الكريم، ونُنزِّل عليهم هذا الكتابَ العظيمَ لكانوا قالوا: ﴿ رَبَّنا لولا أرسلتَ إلينا رَسُولا ﴾ قبل أن تُهلِكَنا، حتى نُؤمنَ به ونَتَّبعَه؟ كما قال: ﴿ فَنَتَّبِعَ آياتك من قبل أن نَذِلَّ ونخزَى ﴾، يبين تعالى أَنَّ هؤلاء المكذبين مُتعنِّتون مُعَانِدُون لا يؤمنون، ﴿ ولو جاءتهم كُلُّ آية حتى يَرَوُا العذابَ الأليم ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتَّبِعُوه واتَّقُوا لعلكم تُرحَمُون * أن تَقُولوا إنما أُنزلَ الكتابُ على طائِفَتَيْن من قبلنا وإن كُنَّا عن دِرَاستهم لَغَافلين * أو تقُولُوا لو أَنَّا أُنزل علينا الكتابُ لَكُنَّا أهدَى منهم فقد جاءكم بَيِّنَةٌ من رَبِّكم وهُدًى ورحمةٌ فمن أظلم ممن كَذَّب بآيات الله وَصَدَفَ عنها سنجزي الذين يَصْدِفون عن آياتنا سُوءَ العذاب بما كانوا يَصْدِفُونَ ﴾، وقال: ﴿ وأقسموا بالله جَهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونُنَّ أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً ﴾. وقال: ﴿ وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم لئن جاءتهم آيةٌ ليؤمنُنَّ بها قُل إنما الآياتُ عند الله وما يُشعِرُكم أَنَّها إذا جاءَت لا يُؤمِنُونَ * ونُقَلِّبُ أفئِدَتَهم وأبصارَهم كما لم يُؤمِنُوا به أول مَرَّةٍ ونَذَرُهم في طغيانهم يعمهون ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ قُل ﴾، أي: يا محمد لمن كَذَّبك وخالَفَك واستمَرَّ على كفره وعناده: ﴿ كُلٌّ مُتربِّصٌ ﴾، أي: منَّا ومنكم، ﴿ فَتَربَّصُوا ﴾، أي: فانتظروا، ﴿ فستعلمون من أصحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ ﴾، أي: الصِّراطِ المستقيم، ﴿ ومن اهتدى ﴾، إلى الحق وسبيل الرشاد. وهذا كقوله تعالى: ﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذابَ من أَضلُّ سَبِيلاً ﴾، ﴿ سيعلمون غداً من الكذابُ الأَشِرُ ﴾.

* * *

آخرُ تفسير سُورةِ طه، ولله الحَمْدُ

---

(١) تقدم الحديث أول التفسير في فضائل القرآن، وخرجناه هنالك.

تفسير

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

وهي مكية

قال البخاريُّ: حدثنا مُحَمَّد بن بَشَّار، حدثنا غُنْدَر، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاقَ: سَمِعتُ عبد الرحمن ابن يزيد، عن عبدالله قال: بَنُو إسرائيل، والكهفُ، ومريمُ، وطه، والأنبياءُ هُنَّ من العِتَاقِ الأُوَلِ، وهن من تلادِي[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ
وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ
تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ
بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾

هذا تنبيهٌ من الله عزَّ وجلَّ على اقتراب الساعة ودُنُوِّها، وأنَّ الناس في غَفْلَةٍ عنها، أي: لا يعملُون لها، ولا يَستعِدُّون من أَجْلِها.

وقال النَّسائيُّ: حدثنا أحمد بن نصر، حدثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسيُّ، حدثنا أبو معاويةَ، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سَعِيدٍ، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ: ﴿ في غَفْلَةٍ مُعرِضُونَ ﴾، قال: «في الدنيا»[2].

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة الأنبياء ٨/٤٣٥.
والعتاق: جمع عتيق وهو القديم، أو هو كلّ ما بلغ الغاية في الجودة. وهن من تلادي، أي: مما حُفِظَ قديماً. ومُرَادُ ابن مسعود أنهنَّ من أول ما تعلّم من القرآن، وأنّ لَهُنَّ فضلاً لما فيهنَّ من القصص وأخبار الأنبياء والأمم.

(٢) انظر تحفة الأشراف للمزي ٣/٢٤٩.

وقال تعالى: ﴿أتى أمْرُ الله فلا تستعجلوه﴾، وقال: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يَرَوا آية يُعرِضُوا ويقولوا سِحْرٌ مُستَمِرٌ﴾.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن هانىء أبي نُوَاس الشاعر أنه قال: أشعرُ الناسِ الشيخُ الطاهر أبو العتاهية حيث يقولُ[1]:

النَّـاس فـي غَـفَـلاتِـهِـمْ ورَحـا الـمَـنِـيَّـةِ تَـطْـحَـنُ

فقِيل له: من أين أخَذْتَ هذا؟ قال: من قوله تعالى: ﴿ اقتربَ للناسِ حسابُهم وهم في غَفْلَةٍ مُعرِضُونَ ﴾.

[2]⌈وروَى في ترجمة عامر بن ربيعة، من طريق مُوسى بنُ عُبَيدةَ الرَّبذيِّ[3]، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلَمَ، عن أبيه، عن عامر بن رَبِيعَةَ: أنه نزل به رجلٌ من العَرَب فأكرَم عامِرٌ مَثواه، وكَلَّم فيه رسولَ الله ـ ﷺ ـ فجاءه الرجلُ فقال: إني استقطعتُ من رسولِ الله ـ ﷺ ـ وادياً في العَرَب[4]، وقد أردتُ أن أُقطِعَ لك منه قطعَةً تكونُ لك ولِعَقِبكَ من بعدك. فقال عامر: لا حاجَةَ لي في قَطِيعَتِكَ، نزلَتِ اليومَ سورةٌ أذهلَتْنَا عن الدُّنيا: ﴿ اقتَرَبَ للنَّاسِ حِسَابُهُم وَهُم في غَفْلَةٍ مُعرِضُونَ﴾⌋[2].

ثم أخبر تعالى أنهم لا يُصغون إلى الوَحْيِ الذي أنزله الله على رسوله، والخطابُ مع قريش ومن شبههم من الكفار، فقال: ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدَث ﴾، أي: جديد إنزالُه ﴿ إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾، كما قال ابن عباس: ما لكم تسألون أهلَ الكُتُب عما بأيديهم وقد حَرَّفوه وبَدَّلوه، وزادوا فيه ونَقَصُوا منه، وكتابُكم أحدثُ الكتبِ بالله تقرءُونه مَحْضاً لم يُشَبْ. رواه البخاريّ بنحوه[5].

وقولُه: ﴿ وأسرُّوا النجوى الذين ظَلَمُوا ﴾، أي: قائلين فيما بينهم خِفْيَةً: ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾، يعنونَ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يستبعدُون كونَه نبياً، لأنه بَشَر مثلهم، فكيف اختصَّ بالوحي دونهم؟! ولهذا قال: ﴿ أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ﴾، أي: أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر وهو يعلَم أنه سحر. فقال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب: ﴿ قـال ربي يعلَمُ القولَ في السماء والأرض ﴾، أي: الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافيةٌ، وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمَل على خبر الأولين والآخرين، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا الذي يعلم السر في السموات والأرض.

وقولُه: ﴿ وهو السميع العليم ﴾، أي: السميعُ لأقوالكم، ﴿ العليم ﴾ بأحوالكم. وفي هذا تهديد لهم ووعيد.

وقولُه: ﴿ بل قالوا أضغاثُ أحلامٍ بل افتَرَاه ﴾: هذا إخبار عن تَعَنُّت الكفار وإلْحادهم، واختلافِهم فيما يَصِفُون به القرآن وحيرتهم فيه، وضلالُهم عنه. فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه شعراً، وتارة يجعلونه

(١) ديوانه ٤٢٩.

(٢ ـ ٢) هذا الأثر غير ثابت في نسخنا. وقد أخرجه أيضاً ابن مردويه وأبو نُعَيم في الحلية، انظر الدرّ المنثور ٥/٦١٥، وحلية الأولياء ١/١٧٩.

(٣) في الطبعات السابقة: «موسى بن عبدالأمدي». وقد رواه أبو نُعَيم بإسناده إلى أبي همام محمد بن الزبرقان، عن موسى بن عبيدة. وأبو همام يروي عن موسى بن عبيدة الرَّبَذِيّ.

(٤) في الحلية: «وادياً ما في العرب وادٍ أفضلُ منه».

(٥) فتح الباري، كتاب التوحيد ١٣/٤٩٦. ولم يُشَبْ: لم يخالِطْه غيرهُ

أضغاثُ أحلام، وتارة يجعلونه مُفترىً، كما قال: ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فَضَلُّوا فلا يستطيعونَ سَبيلاً ﴾.

وقولُه: ﴿ فَلْيأتِنَا بآيةٍ كما أُرسِلَ الأوَّلُونَ ﴾، يعنُون ناقةَ صالح، وآيات موسى وعيسى. وقد قال الله تعالى: ﴿ وما مَنَعنا أن نُرسِلَ بالآيات إلا أن كَذَّبَ بها الأولون وآتينا ثمودَ الناقة مبصرةً فَظَلَموا بها ﴾... الآية. ولهذا قال تعالى: ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ﴾، أي: ما آتينا قريةً من القُرَى الذين بُعِثَتْ فيهم الرسلُ آيةً على يَدَيْ نبيها فآمنوا بها، بل كَذَّبوا، فأهلكناهم بذلك، أفهؤلاء يؤمنون بالآياتِ لو رَأَوْها دون أولئك؟ كلا، بل ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كلُّ آية حتى يَرَوُا العذابَ الأليم ﴾.

هذا كله، وقد شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات والدلائل البينات، على يَدَيْ رسولِ الله - ﷺ - ما هو أظهر وأجلى، وأبهرُ وأقطع وأقهر، مما شُوهِدَ مع غيره من الأنبياء، صلوات الله وسلامُه عليهم أجمعين.

قال ابنُ أبي حاتمٍ: ذكر عن زيد بن الحُبَاب: حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا الحارث بن يزيد الحَضْرمي، عن علي بن رَبَاح اللَّخمي، حدثني من شهد عُبادة بن الصامت يقول: كُنّا في المسجد، ومعنا أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - يُقرِئُ بعضُنا بعضاً القرآن، فجاء عبدُ الله بن أُبَيّ ابن سَلُول، ومعه نُمرُقة وزِرْبيّة[1]، فوضع واتَّكأ، وكان صَبيحاً فَصيحاً جَدِلاً، فقال: يا أبا بكر، قل لمحمد يأتينا بآية كما جاء الأولون؟ جاء موسى بالألواح، وجاء داودُ بالزَّبُور، وجاء صالحٌ بالناقة، وجاء عيسى بالإنجيل وبالمائدة. فبكى أبو بكر - رضي الله عنه - فخرج رسول الله - ﷺ - فقال أبو بكر: قوموا بنا إلى رسول الله - ﷺ - نَستغِيثُ به من هذا المنافق. فقال رسول الله: إنه لا يقام لي، إنما يقام لله عزَّ وجلَّ. فقلنا: يا رسول الله، إنا لقينا من هذا المنافق! فقال: أتى جبريل فقال لي: اخرج فأخْبِر بنِعَم الله التي أَنعم بها عليك، وفَضيلته التي فُضِّلتَ بها. فبشرني أنه بعثني إلى الأحمر والأسود، وأمرني أن أنذر الجِنَّ، وآتاني كتابه وأنا أُمّي، وغَفَر ذنبي ما تقدم وما تأخر، وذَكَر اسمِي في الأذان، وَأَمدَّني بالملائكة، وآتاني النَّصر، وجَعَل الرّعب أمامي، وآتاني الكوثر، وجعل حَوضي من أعظم الحِيَاض يوم القيامة، ووعَدَني المقام المحمود والناس مُهطِعُون مُقْنعو[2] رُءوسهم، وجعلني في أول زمرة تخرج من الناس، وأدخل في شفاعتي سبعين ألفاً من أمتي الجنةَ بغير حساب، وآتاني السُّلطانَ والمُلكَ، وجعلني في أعلى غُرْفَةٍ في الجنةِ في جنات عَدْنٍ، فليس فوقي أحدٌ إلا الملائكةُ الذين يحمِلُون العرش، وأحلَّ لي الغنائمَ، ولم تَحِلَّ لأحدٍ كان قبلنا.

هذا الحديث غريب جداً.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ٨ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٩ ﴾

يقولُ تعالى راداً على من أنكر بعثة الرُّسُل من البشر: ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نُوحِيَ إليهم ﴾، أي:

(١) النُّمرقة: الوسادة الصغيرة يُتكأ عليها. والزِّرْبية: الوسادة تبسط للجلوس عليها.
(٢) أقنع رأسه وعنقه: رفعهما وشخص ببصره نحو الشيء في ذُلٍّ وخُشُوع.

جميعُ الرُّسُلِ الذين تقدموا كانوا رجَالاً من البشر، لم يكن فيهم أحد من الملائكة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نُوحِيَ إليهم من أهل القرى ﴾، وقال تعالى: ﴿ قل ما كنتُ بدعاً من الرُّسُلِ ﴾، وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم أنهم أنكروا ذلك فقالوا: ﴿ أَبَشَرٌ يهدوننا﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ فاسألوا أهلَ الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾، أي: اسألوا أهلَ العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرُّسُل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة؟ إنما كانوا بشراً، وذلك من تمام نِعَمِ الله على خَلْقِهِ، إذْ بعث فيهم رسلاً منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم.

وقولُه: ﴿ وما جَعلناهُم جَسَداً لا يأكلونَ الطعام ﴾، أي: بل قد كانوا أجساداً يأكلون الطعام، كما قال تعالى: ﴿ وَما أرسَلنا قبلَكَ من المُرسَلِينَ إلاَّ إنَّهم ليأكُلُون الطعام ويمشُون في الأسْوَاق ﴾، أي: قد كانوا بشراً من البشر، يأكلُون ويشربُون مثلَ الناس، ويدخلون الأسواق لِلتكَسُّب والتِّجارة، وليس ذلك بِضَائِر لهم ولا ناقِصٍ منهم [شيئاً]، كما توهمه المشركون في قولهم: ﴿ ما لهذا الرسولِ يأكلُ الطعام ويمشي في الأسواق لولا أُنزِلَ إليه مَلَكٌ فيكونَ معه نَذِيراً ۞ أو يُلقى إليه كنز أو تكونُ له جنةٌ يأكل منها وقال الظالمونَ إن تتبعونَ إلا رَجُلاً مَسْحُوراً ﴾.

وقولُه: ﴿ وما كانوا خالدين ﴾، أي: في الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم يموتون، ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾، وخاصّتهُم أنهم يُوحَى إليهم من الله عزَّ وجلَّ، تَتنزَّل عليهم الملائكة عن الله بما يحكُم في خَلْقِهِ، مما يأمر به وينهى عنه.

وقولُه: ﴿ ثم صدقناهم الوعد ﴾، أي: الذي وَعَدهم ربُّهم، ﴿ لَنُهلِكَنّ الظالمين ﴾، صَدَقهم الله وعده، فَفعلَ ذلك، ولهذا قال: ﴿ فأنجيناهم ومن نشاءُ ﴾، أي: أتباعَهم من المؤمنين، ﴿ وأهلكنا المسرفين ﴾، أي: المكذِّبين بما جاءت الرسل به.

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُنَبِّهاً على شَرَف القرآن، ومُحرِّضاً لهم على معرفة قدره: ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذِكْرُكم ﴾، قال ابن عباس: شَرفُكم، وقال مجاهد: حَدِيثكم. وقال الحسن: دِينُكم.

﴿ أفلا تعقلون ﴾، أي: هذه النعمةَ وتَتلقَّونها بالقَبُول، كما قال تعالى: ﴿ وإنه لذِكْر لَكَ ولِقومِك وسوف تُسئَلُونَ ﴾.

وقولُه: ﴿ وكم قَصَمنا من قريةٍ كانت ظالِمةً ﴾، هذه صيغةُ تكثيرٍ، كما قال: ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ﴾. وقال تعالى: ﴿ فكأيِّن من قريةٍ أهلكناها وهي ظَالِمَةٌ فهي خاويةٌ على عُرُوشها وبئرٍ مُعطَّلةٍ وقصْرٍ مَشِيدٍ ﴾.

وقولُه: ﴿ وأنشأنا بعدَها قوماً آخرينَ ﴾، أي: أُمَّةً أخرى بَعْدَهم. ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بأْسنا ﴾، أي: تَيَقَّنوا أن العذاب واقع بهم كما وعدهم نبيُّهم، ﴿إذا هم منها يركُضُون﴾، أي: يَفِرُّون هارِبين، ﴿لا تركُضُوا وارجعُوا

إلى ما أُترِفتُم فيه ومَسَاكِنِكُم﴾، هذا تَهَكُّم بهم قَدَراً، أي: قيل لهم قَدَراً: لا تركُضُوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النِّعمةِ والسُّرور، والعِيشَةِ والمساكن الطيبة. قال قتادة: استهزاءً بهم.

﴿لعَلَّكم تُسئَلُون﴾، أي: عما كنتم فيه من أداء شكر النعمة.

﴿قالوا يا وَيلنا إنا كُنَّا ظَالمين﴾، اعترَفُوا بذنوبهم حين لا ينفَعُهم ذلك، ﴿فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حَصيداً خامِدِينَ﴾، أي: ما زالت تلك المقالةُ - وهي الاعترافُ بالظلم - هِجِّيرَاهُم[1] حَتَّى حَصَدْنَاهُم حَصْداً[2]. وخَمدت حركاتُهم وأصواتُهم خُمُوداً.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

يخبر تعالى أنه خلق السَّمواتِ والأرْضَ بالحقِّ، أي: بالعَدْلِ والقسط، ﴿ليجزيَ الذين أساءُوا بما عَملوا ويَجزيَ الذي أحسنوا بالحسنى﴾، وأنه لم يخلق ذلك عَبَثاً ولا لَعِباً، كما قال: ﴿وما خَلقنا السماء والأرضَ وما بينهما باطِلاً ذلك ظَنُّ الذين كفروا فويلٌ للذين كَفَروا من النار﴾.

وقولُه: ﴿لو أردنا أن نَتَّخِذَ لهواً لاتَّخذناه من لَدُنَّا إن كنا فَاعِلين﴾، قال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: ﴿لو أردنا أن نَتَّخِذ لهواً لاتَّخذْناه من لَدُنَّا﴾، يعني من عندنا، يقول: وما خَلَقنا جَنَّةً ولا ناراً، ولا مَوْتاً ولا بَعْثاً، ولا حِسَاباً.

وقال الحسن، وقتادةُ، وغيرهما: ﴿لو أردنا أن نَتَّخِذ لهواً﴾، اللهو: المرأة بلسان أهل اليمن[3]. وقال إبراهيم النخَعِيُّ: ﴿لو أردنا أن نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخذناهُ﴾ من الحُورِ العِينِ. وقال عكرمةُ، والسدِّيُّ: المرادُ باللهو هاهنا الولد.

وهذا والذي قبله متلازمان، وهو كقوله تعالى: ﴿لو أراد الله أن يَتَّخِذَ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه﴾ فَنَزَّه نفسه عن اتِّخاد الوَلَد مُطلقاً، لاسِيَّما عما يقولون من الإفْكِ والباطِل، من اتِّخاذِ عيسى، أو عُزَيرٍ، أو الملائكة، سُبحان الله عما يقولون عُلُوًّا كَبيراً.

وقولُه: ﴿إن كنَّا فاعلين﴾، قال قتادة، والسّدّي، وإبراهيم النخَعِيُّ، ومُغيرة بن مِقْسَمٍ: أي ما كنا فاعلين. وقال مجاهد: كل شيء في القرآن «إنْ» فهو إنكار.

وقولُه: ﴿بل نَقذِفُ بالحقِّ على الباطل﴾، أي: نُبَيِّن الحق فَيَدحَضُ الباطلَ، ولهذا قال: ﴿فيدمغة فإذا هو زَاهِقٌ﴾ أي: ذاهبٌ مُضمَحِلٌّ، ﴿ولكم الويلُ﴾، أي: أيها القائلون: لله وَلَدٌ، ﴿مما تَصِفُون﴾، أي: تقولون وتَفتَرُون.

---

(١) الهِجِّيري: الدأب والعادة. ولا تكاد تستعمل هذه الكلمة إلا في العادة المذمومة.

(٢) في الأصل: حتى جعلناهم حصيداً خامدين.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ١٠.

ثم أخبر تعالى عن عُبُوديَّةِ الملائكةِ له، ودَأْبِهم في طاعَتِهِ ليلاً ونَهاراً، فقال: ﴿ وله من في السموات والأرض ومن عنده ﴾، يعني الملائكَةَ، ﴿ لا يَستكبِرُونَ عن عبادَتِهِ ﴾، أي: لا يستنكفون عنها، كما قال: ﴿لن يَستنكِفَ المسيحُ أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المُقرَّبونَ ومن يَستنكِفْ عن عِبادَتِه ويَسْتَكبِرْ فَسَيحشُرُهم إليه جَميعاً ﴾.

وقولُه: ﴿ولا يَسْتَحسِرُون﴾، أي: لا يَتْعَبُون ولا يَملُّون، ﴿يُسَبِّحون الليل والنهار لا يفترُون﴾، فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً، مُطيعون قصداً وعَمَلاً، قادِرُون عليه، كما قال تعالى: ﴿لا يَعصُون الله ما أَمَرهم ويَفعَلُون ما يُؤْمَرُونَ﴾.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا عليُّ بن أبي دُلامة البَغْدادي، أنبأنا عبد الوهاب بن عَطاءٍ، حدثنا سعيد، عن قتادةَ، عن صفوان بن مُحرز، عن حكيم بن حِزامٍ قال: بينا رسولُ الله ـ ﷺ ـ بين أصحابه إذ قال لهم: هل تسمَعُون ما أسمع؟ قالوا: ما نسمَعُ من شيءٍ. فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إني لأسمع أَطِيطَ السماءِ، وما تُلام أن تَئِطَّ، وما فيها مَوْضِع شِبْرٍ إلا وعليه ملك ساجد أو قائم». غريب ولم يُخرجُوه.

ثم رواه ابن أبي حاتم من طريق يزيد بن زُرَيعٍ، عن سعيد، عن قتادة، مرسلاً.

وقال أبو إسحاق[١]، عن حَسَّان بن مخارق، عن عبد الله بن الحارث بن نوفلٍ قال: جلستُ إلى كعب الأحبار وأنا غلام، فقلت له: أرأيتَ قولَ اللهِ للملائكة: ﴿ يُسَبِّحون الليل والنهار لا يفتُرون ﴾، أما يشغلهم عن التَّسبيح الكلامُ والرسالةُ والعملُ؟ فقال: فمن هذا الغُلام؟ فقالوا: من بَني عبد المطَّلب. قال: فَقَبَّل رأسي، ثم قال لي: يا بُنَيَّ، إنه جَعَل لهم التسبيح كما جَعَل لكم النَّفَسَ، أليس تتكلم وأنتَ تَتنفَّسُ، وأنت تمشي وأنت تَتنفَّسُ؟

﴿ أَمِ اتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

يُنكر تعالى على من اتَّخذ من دونه آلهةً، فقال، بل ﴿ اتَّخذُوا آلهةً من الأرض هم يُنشِرُون ﴾، أي: أهم يُحيون الموتى ويُنشِرُونهم من الأرض؟! أي: لا يقدرون على شَيْءٍ من ذلك، فكيف جعلوها لله نِدّاً وعَبَدُوها معه؟!

ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهةٌ غيره لَفَسَدت السمواتُ والأرضُ، فقال: ﴿لو كان فيهما آلهةٌ﴾ أي: في السماء والأرض، ﴿لفسدتا﴾، كقوله تعالى: ﴿ما اتَّخَذَ الله من وَلَدٍ وما كان معه من إلَهٍ إذاً لذهَبَ كُلُّ إلَه بما خَلَق ولعلا بعضُهم على بعضٍ سبحان الله عمَّا يَصِفُون ﴾، وقال هاهنا: ﴿ فسبحانَ اللهِ ربِّ العرش عَمَّا يَصِفُون ﴾، أي: عما يقولون أنَّ له ولداً أو شريكاً، سُبحانَه وتعالى وتَقَدَّس وتَنزَّه عن الذي يفترون ويأفكونَ عُلوّاً كبيراً.

---

(١) في النسخ: «محمد بن إسحاق». وأثبتنا ما في سند الطبري ١٧/١٢ ـ ١٣. وأبو إسحاق هو سليمان بن أبي سليمان الشيباني، مترجم في تهذيب الكمال ٤٤٤/١١. وانظر الجرح والتعديل، ترجمة حسان بن مخارق ٢٣٥/٣.

وقولُه: ﴿ لا يُسئَلُ عما يفعَلُ وهم يُسئَلون ﴾، أي: هو الحاكم الذي لا مُعَقِّبَ لِحُكمِه، ولا يعترضُ عليه أحدٌ، لعَظَمته وجلاله وكبريائه، وعُلُوِّه وحكمته وعدله ولُطفه، ﴿ وهم يُسئَلون ﴾، أي: وهو سائلٌ خلقَه عمَّا يعمَلون، كقَوله: ﴿فوربِّك لنسألنهم أجمعِينَ * عما كانوا يعمَلون﴾. وهذا كقَولِه تعالى: ﴿وهو يُجِيرُ ولا يُجارُ عَليه ﴾.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى: بل ﴿ اتَّخذُوا من دونه آلهة قُل ﴾ يا محمدُ: ﴿ هاتُوا بُرهَانَكم ﴾، أي: دَليلكم على ما تقولون، ﴿ هذا ذكرُ من معي ﴾، يعني القرآنَ، ﴿ وذكر من قبلي ﴾، يعني الكتبَ المتقدمةَ على خلافِ ما تقولون وتزعُمون، فكلُّ كتابٍ أُنزلَ على كُلِّ نبيٍّ أُرسِلَ ناطقٌ بأنه لا إلَه إلا الله، ولكن أنتم ـ أيُّها المشركون ـ لا تعلَمُونَ الحقَّ، فأنتم مُعرِضُونَ عنه. ولهذا قال: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلا نُوحِيَ إليه أنَّه لا إلَه إلا أنا فاعبدونِ﴾، كما قال: ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبَدُون ﴾، وقال: ﴿ ولقد بعثنا في كُلِّ أمةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتَنِبُوا الطاغُوتَ ﴾، فكُلُّ نبيٍّ بعثه الله يدعُو إلى عبادَةِ الله وحدَه لا شريكَ له، والفِطْرَةُ شاهدةٌ بذلك أيضاً، والمشركون لا بُرْهانَ لهم، وحُجَّتهم داحضةٌ عند ربِّهم، وعليهم غَضَبٌ، ولهم عذابٌ شديدٌ.

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

يقولُ تعالى راداً على من زَعَم أنّ له ـ تعالى وتَقَدَّس ـ ولداً من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بَناتُ الله، فقال: ﴿ سُبحانه بل عبادٌ مُكْرَمُونَ ﴾، أي: الملائكةُ عبادُ الله، مُكرَمُون عِندَه في منازِلَ عاليةٍ ومقاماتٍ ساميةٍ، وهُم له في غاية الطاعة قولاً وفعلاً. ﴿ لا يسبِقُونه بالقَوْلِ وهم بأمْره يعمَلُون ﴾، أي: لا يَتَقدَّمون بين يديه بأمر، ولا يُخَالِفُونه فيما أمَرَ به، بل يُبادِرُون إلى فِعْلِه، وهو تعالى عِلْمُه محيطٌ بهم، فلا يَخفَى عليه منهم خافيةٌ، ﴿ يَعْلَم ما بين أيديهم وَما خَلْفَهم ﴾.

وقولُه: ﴿ ولا يَشْفَعُون إلا لمن ارتضى ﴾، كَقوْلِهِ: ﴿ من ذا الذي يَشْفَع عِندَه إلا بإذْنِهِ ﴾، وقوْله: ﴿ ولا تنفَعُ الشفاعةُ عندَه إلا لمن أذِنَ له ﴾، في آياتٍ كثيرة في معنى ذلك.

﴿وهُم من خشْيتِهِ﴾، أي: من خوفه ورَهْبتِهِ ﴿مُشفِقُون * ومن يَقُل منهم إنِّي إلَهٌ من دُونِهِ﴾، أي: مَن ادَّعى منهم أنه إلَه من دُونِ الله، أي: مَعَ الله، ﴿ فذلك نَجْزيه جهنم كَذلك نَجْزي الظالمين ﴾، أي: كُلُّ من قال ذلك. وهذا شرطٌ، والشرطُ لا يلزَم وقوعُه، كقَولِه: ﴿ قل إن كان للرحمن ولَدٌ فأنا أوَّلُ العابِدِينَ ﴾، وقَولِهِ: ﴿ لَئِنْ أشرَكْتَ لَيَحبَطَنَّ عَمَلُك ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُنبِّهاً على قُدرته التامة وسُلطانه العظيم في خَلْقِهِ الأشياءَ، وقَهره لجميع المخلوقات، فقال: ﴿ أَوَلم ير الذين كفروا ﴾، أي الجاحدُون لإلَهيته العابدُون معه غيره، ألم يعلَمُوا أن الله هو المستقلُّ بالخلق، المستبِدُّ بالتدبير، فكيفَ يليقُ أن يُعبَد غيرُه أو يُشرَك به ما سِواه، ألم يَرَوا ﴿ أن السموات والأرض كانتا رَتْقاً ﴾ أي: كان الجميع مُتَّصِلا، بعضُه ببعضٍ متلاصقٌ، متراكمٌ بعضُهُ فوق بعض في ابتداء الأمر، فَفَتق هذه من هذه، فَجَعل السمواتِ سبعاً، والأرض سبعاً، وفصل بين سماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماءُ وأنبتت الأرضُ، ولهذا قال: ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ﴾، أي: وهو يشاهِدُون المخلوقاتِ تحدُثُ شيئاً فشيئاً عِياناً، وذلك دليلٌ على وجودِ الصانع، الفاعل المختار، القادرِ على ما يشاءُ[١]:

فَفِي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

قال سفيانُ الثوريُّ، عن أبيه، عن عكرمة قال: سُئِل ابن عباس: الليلُ كان قبلُ أو النهار؟ فقال: أرأيتم السمواتِ والأرض حين كانتا رَتْقاً، هل كان بينها إلا ظلمة؟ ذلك لتعلمُوا أن الليل قبل النهار[٢].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن حمزةَ، حدثنا حاتم، عن حمزة بن أبي محمد، عن عبد الله بـن دينار، عن ابن عُمَر: أن رجلاً أتاه يسألُهُ عن السموات والأرض ﴿ كانتا رَتْقاً ففتقناهما ﴾، قال: اذهَبْ إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعالَ فأخبرني ما قال لك. قال: فَذَهب إلى ابن عباس فسأله، فقال ابن عباس: نعم، كانت السمواتُ رَتْقاً لا تُمطِرُ، وكانت الأرض رَتْقاً لا تُنبِتُ، فلما خَلَق للأرضِ أهلاً فَتَق هذه بالمطر، وفَتَق هذه بالنبات. فرجع الرجلُ إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن قد علمتُ أن ابن عباس قد أُوتِيَ في القرآن عِلماً، صَدَق، هكذا كانت. قال ابن عمر: قد كنت أقول: ما يُعجِبني جَراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد عَلِمتُ أنه قد أُوتِيَ في القرآن عِلماً[٣].

وقال عطيةُ العَوفيُّ: كانت هذه رتقاً لا تُمطِر، فأمطرت. وكانت هذه رتقاً لا تُنبِت فأنبتت.

وقال إسماعيل بن أبي خالد: سألت أبا صالح الحَنَفِي عن قوله: ﴿ أَنَّ السمواتِ والأرضَ كانتا رَتْقاً فَفَتقناهُما ﴾، قال: كانت السماءُ واحدة فَفَتق منها سَبْعَ سموات، وكانت الأرضُ واحدةً ففتق منها سَبْعَ أَرَضِينَ.

وهكذا قال مجاهد، وزاد: ولم تكن الأرض والسماء متماسَّتَين.

وقال سَعيد بن جُبَير: بل كانت السماءُ والأرضُ مُلتزِقَتين، فلما رَفَع السماء وأبرزَ منها الأرضَ كان ذلك فَتْقَهُما الذي ذكر الله في كتابه.

وقال الحسنُ، وقتادةُ: كانتا جَميعاً ففصَلَ بينهما بهذا الهَواءِ.

---

(١) البيت لأبي العتاهية، ديوانه ١٢٢.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٧/١٩.

(٣) أخرجه السيوطي في الدرّ المنثور، عن ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي نعيم في الحلية. انظر ٥/٦٢٥.

وقولُه: ﴿ وجَعَلنا من الماءِ كُلَّ شيءٍ حَيٍّ ﴾، أي: أَصْلُ كُلِّ الأحياءِ منه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجُماهر، حدثنا سعيد بن بَشِير، حدثنا قتادة، عن أبي ميمونَةَ، عن أبي هُرَيرة أنه قال: يا نبي الله، إذا رأيتك قَرَّتْ عيني وطَابَتْ نَفْسِي، فأخبرني عن ﴿ كلِّ شيء ﴾، قال: «كل شيء خلق من ماء»(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا هَمَّام، عن قتادَةَ، عن أبي ميمونَةَ، عن أبي هُرَيرة قال: قلت: يا رسولَ الله، إني إذا رأيتُك طابت نفسي وقرَّت عيني، فأَنْبِئْني عن (كلِّ شيء). قال: كلّ شيء خلق من ماء. قلتُ: أَنبِئْني عن أَمْرٍ إذا عملتُ به دخلتُ الجنَّة. قال: أَفْشِ السلام، وَأَطْعِمِ الطَّعَام، وصِلِ الأَرْحَام، وقُم بالليلِ والناسُ نيام، ثم ادخُلِ الجنَّةَ بِسَلام(٢).

ورواه أيضاً عن عبد الصمد، وعفَّان، وبَهْز، عن هَمَّام(٢). تَفَرَّد به أحمد. وهذا إسنادٌ على شَرْطِ الصحيحين. إلا أن أبا ميمونَةَ من رجال السُّنن واسمُه سُلَيم، والترمذيُّ يُصحِّح له. وقد رَوَاه سعيد بن أبي عَرُوبةَ، عن قتادة مرسلاً، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ وجعلنا في الأرض رواسِيَ ﴾، أي: جبالاً أَرْسَى الأرضَ بها وقَرَّرها وثَقَّلها، لئلا تميد بالناس، أي: تضطرب وتتحرَّك، فلا يحصُلُ لهم عليها قرارٌ، لأنها غامرة في الماء إلا مقدارَ الربع، فإنه بادٍ للهواء والشمس، ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات، والحكم والدلالات. ولهذا قال: ﴿ أن تَميدَ بهم ﴾، أي: لِئلا تميدَ بهم.

وقولُه: ﴿وجعلنا فيها فِجَاجاً سُبُلاً﴾، أي: إلى قُطْرٍ في الجِبَال يَسلُكُون فيها طُرُقاً من قُطْرٍ إلى قُطْرٍ، وإقليم إلى إقْليم، كما هو المُشَاهَدُ في الأرض، يكونُ الجَبَلُ حائلاً بين هذه البلادِ وهذه البلادِ، فيجعلُ الله فيه فَجْوَةً لِغَيرِه، لِيَسلُكَ الناسُ فيها من ها هنا إلى ها هنا. ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهم يهتَدُونَ﴾.

وقولُه: ﴿ وَجَعلنا السماءَ سَقْفاً ﴾، أي: على الأرض، وهي كالقُبَّة عليها، كما قال: ﴿ والسماءَ بنيناها بأَيْدٍ وإنا لَمُوسِعُونَ ﴾، وقال: ﴿والسَّماءِ وما بَنَاها﴾، ﴿أفلم ينظُروا إلى السماء فوقَهم كيفَ بَنَيناها وزَيَّنَّاها وما لَهَا من فُرُوج ﴾، والبناءُ هو نَصْبُ القُبَّة، كما قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «بُنِي الإسلامُ على خَمْسٍ »(٣)، أي: خمس دعائم، وهذا لا يكون إلا في الخِيَام، على ما تَعْهَدُه العربُ.

﴿ محفُوظاً ﴾، أي: عالياً مَحرُوساً أن يُنالَ. وقال مجاهدٌ: مَرْفُوعاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدَّشْتَكِيّ، حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعث ـ يعني ابن إسحاق القُمِّي ـ عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال رجل: يا رسولَ الله، ما هذه السماءُ، قال: «هذا موجٌ مكفوفٌ عنكم». إسناد غريب.

وقولُه: ﴿ وهم عن آياتها مُعرِضُونَ ﴾، كقوله: ﴿ وكأَيِّن من آية في السموات والأرض يَمرُّونَ عليها وهم عنها

(١) أخرجه الحاكم ـ وصححه ـ في كتاب البرّ والصلة ٤/١٦٠، وانظر الدرّ المنثور ٥/٦٢٦.
(٢) مسند أحمد ٢/٢٩٥، ٣٢٣، ٣٢٤، ٤٩٣.
(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٣ من سورة البقرة، وخرجناه هنالك.

مُعرضُون ﴾، أي: لا يَتفكَّرون فيما خلَق الله فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر، وما زُيِّنت به من الكواكب الثَّوابت والسيارات في ليلها، وفي النهار من هذه الشمس التي تَقْطَع الفُلك بكماله في يوم وليلةٍ، فتسيرُ غايةً لا يعلم قدرها إلا الذي قَدَّرها وسَخَّرها وسَيَّرها.

وقد ذكر ابن أبي الدنيا في كتابه «التفكُّر والاعتبار»: أن بَعْضَ عُبَّاد بني إسرائيل تَعَبَّد ثلاثين سنة، وكان الرجل منهم إذا تَعَبَّد ثلاثين سنة أظلته غَمامة، فلم يَرَ ذلك الرجلُ شيئاً مما كان يُرى لغيره، فَشكى ذلك إلى أُمِّه، فقالت له: يا بني، فلعلك أذنبت في مدة عبادتك هذه، فقال: لا، والله ما أعلم، قالت: فلعلَّكَ هَمَمْتَ؟ قال: لا، والله ولا هَمَمْتُ. قالت: فَلَعلَّكَ رفعت بصرك إلى السماء ثم رددته بغير فكر، فقال: نعم، كثيراً. قالت: فمن هاهنا أُتيتَ.

ثم قال مُنبِّهاً على بعض آياته: ﴿ وهو الذي خَلَق الليل والنهار ﴾، أي: هذا في ظلامه وسُكُونه، وهذا بضيائه وأُنسِه، يَطولُ هذا تارةً ثم يقصُر أخرى، وعكسُه الآخرُ، ﴿والشمس والقمر﴾، هذه لها نورٌ يخصُّها وفَلَكٌ بذاته، وزمانٌ على حِدَةٍ، وحَرَكةٌ وسير خاصٌّ، وهذا بنورٍ خاصٍّ آخَرَ وفَلَكٍ آخَرَ، وسيرٍ آخَرَ، وتقديرٍ آخَرَ، ﴿ وكلٌّ في فلك يسبحون ﴾، أي: يَدُورونَ.

قال ابن عباس: يَدُورون كما يَدُور المِغْزَل في الفَلْكَةِ. وكذا قال مجاهدٌ: فلا يَدُور المِغْزَلُ إلا بالفَلْكَة ولا الفَلْكَةُ إلا بالمِغْزَلِ، كذلك النجومُ والشمسُ والقمرُ، لا يدورون إلا به ولا يَدُور إلا بهنَّ[1]. كما قال تعالى: ﴿ فالق الإصباح وَجعل الليل سكناً والشمس والقمر حُسباناً ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ ﴾.

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك ﴾ يا محمد، ﴿ الخُلْدَ ﴾، أي: في الدنيا، بل ﴿ كلُّ من عليها فانٍ * ويبقى وجهُ ربِّك ذو الجلالِ والإكرام﴾.

وقد استدلَّ بهذه الآية الكريمة مَن ذَهب من العلماء إلى أن الخَضِر ـ عليه السلام ـ مات وليس بحيٍّ إلى الآن، لأنه بشر، سواء كانَ ولياً أو نبياً أو رسولاً، وقد قال الله تعالى: ﴿ وما جعلنا لبشرٍ من قبلك الخُلْدَ ﴾.

وقولُه: ﴿ أفإن مِتَّ ﴾، أي: يا محمد، ﴿ فهم الخالدون ﴾؟! أي: يُؤمِّلون أن يَعيشوا بعدَك، لا يكون هذا، بل كلٌّ إلى فناءٍ، ولهذا قال: ﴿ كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ ﴾، وقد رُوِي عن الشافعي رحمه الله، أنه أنشد واستشهد بهذين البيتين[2]:

تَمَنَّى رِجَـالٌ أن أمُوتَ، وإن أمُتْ ... فَتلْكَ سَبِيـلٌ لَسْتُ فِيهَـا بِـأوْحَـدِ
فَقُلْ للَّذي يَبْغِي خِلافَ الذي مضى: ... تَهَيَّـأ لأخـرى مِثْلِهـا فَكـأنْ قَـدِ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ، انظر الدرّ المنثور ٥/٦٢٧ ـ ٦٢٨.
(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٧٣.

وقولُه: ﴿ ونبلُوكم بالشرِّ والخير فتنةً ﴾، أي: نَخْتَبِرُكم بالمصائبِ تارةً وبالنِّعَم أُخرى، لِننظُر مَن يشكُر ومن يكفُر، ومن يصبر ومن يقنطُ، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ ونبلُوكم ﴾، يقول: نبتليكم بالشر والخير فتنة، بالشدَّةِ والرخاءِ، والصِّحَّة والسَّقَمِ، والغِنَى والفقرِ، والحلالِ والحَرَامِ، والطاعَةِ والمعصِيَةِ، والهدى والضلال(١).

وقولُه: ﴿ وإلينا تُرجَعُونَ ﴾، أي: فنُجازِيكم بِأعمالِكُم.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٦ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧﴾

يقولُ تعالى لنبيِّه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ ﴿ وإذا رآكَ الذين كفروا ﴾، يعني: كُفَّار قُرَيش، كأبي جَهل وأشباهه، ﴿ إن يَتَّخذونك إلا هُزُوا ﴾، أي: يَستهزِئُون بك ويَنتقِصُونَكَ، يقولونَ: ﴿ أهذا الذي يذكُر آلهتكم ﴾، يعنون: أهذا الذي يَسُبُّ آلهتكم ويُسَفِّه أحلامكم، قال الله تعالى: ﴿ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحمن هُم كَافِرُون ﴾، أي: وهم كافرون بالله، ومع هذا يستهزئون برسول الله، كما قال في الآيةِ الأُخرى: ﴿ وإذا رَأَوْكَ إن يَتَّخِذُونَكَ إلا هُزُواً، أهذا الذي بَعَثَ اللهُ رسولاً * إن كادَ لَيُضِلُّنا عن آلهتنا لولا أن صَبَرْنَا عليها وسوف يَعلَمُون حين يَرَوْنَ العذابَ من أضلُّ سبيلاً ﴾.

وقولُه: ﴿ خُلِقَ الإنسان من عَجَل ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وكان الإنسان عَجُولاً ﴾، أي: في الأمور.

قال مجاهد: خَلَق اللهُ آدمَ بعد كلِّ شيءٍ من آخر النهار من يوم خلق الخلق، فلما أحيا الرُّوحُ عينيه ولسانَه وَرأسَهُ، ولم يبلغ أسفله قال: يا ربِّ، استعجل بِخَلْقِي قبل غُرُوب الشمس(٢).

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أحمدُ بن سِنَانٍ، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا محمد بن عمرو بن علقمة بن وَقَّاص الليثي، عن أبي سَلَمة، عن أبي هُرَيرة، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «خيرُ يوم طَلَعت فيه الشمس يومُ الجمعة، فيه خُلِقَ آدمُ، وفيه أُدْخِلَ الجنةَ، وفيه أُهبِطَ منها، وفيه تقومُ الساعةُ، وفيه ساعةٌ لا يُوافِقُها مؤمنٌ يُصَلِّي ـ وقَبَض أصابعه، قَلَّلها ـ فسأل الله خيراً إلا أعطاه إياه. قال أبو سَلَمةَ: فقال عبدُ الله بن سَلَامٍ: قد عرفت تلك الساعةَ، وهي آخر ساعاتِ النهار من يوم الجُمُعةِ، وهي التي خَلَق اللهُ فيها آدمَ، قال الله تعالى: ﴿ خُلِق الإنسان من عَجَلٍ سَأُوريكم آياتي فلا تَسْتعجِلُونِ ﴾.

والحكمةُ في ذكر عَجَلة الإنسان هاهنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ وقع في النفوس سرعةُ الانتقام منهم واستعجلت ذلك، فقال الله تعالى: ﴿ خُلِقَ الإنسانُ من عَجَلٍ ﴾، لأنه تعالى يُملي للظالِم حَتَّى إذا أخذَه لم يُفلِتْه، يُؤجِّل ثم يُعَجِّل، ويُنظِر ثم لا يُؤخِّر، ولهذا قال: ﴿ سأُوريكم آياتي ﴾، أي: نِقَمِي وحُكْمِي واقتداري على من عَصَاني، ﴿ فلا تَسْتعجلونِ ﴾.

---

(١) تفسير الطبري ١٧/٢٥.
(٢) أخرجه الطبري ١٧/٢٦. وانظر تفسير الآية ١١ من سورة يونس، والآية ١١ من سورة الإسراء.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

يُخبرُ تعالى عن المشركين أنهم يَستَعْجِلُون أيضاً بوقوع العذاب بهم، تكذيباً وجُحوداً وكُفراً وعِناداً واستبعاداً، فقال: ﴿ ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين ﴾، قال الله تعالى: ﴿ لو يعلَم الذين كفَروا حين لا يَكُفُّون عن وُجُوههم النار ولا عن ظُهُورهم ﴾، أي: لو تَيقَّنوا أنها واقعةٌ بهم لا محالَةَ لما استعجَلُوا، ولو يعلمون حين يَغْشَاهم العذابُ من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ﴿ لهم من فوقهم ظُلَلٌ من النار ومن تحتهم ظُلَلٌ ﴾، ﴿ لهم من جَهنَّم مِهادٌ ومن فوقهم غَواشٍ ﴾. وقال في هذه الآية: ﴿ حين لا يَكُفُّون عن وجوههم النار ولا عن ظُهُورهم ﴾، وقال: ﴿ سَرابيلهم من قَطِران وتَغْشى وجوهَهُم النارُ ﴾، فالعذابُ محيطٌ بهم من جَميعِ جِهَاتِهم، ﴿ ولا هم يُنصَرُونَ ﴾، أي: لا ناصر لهم، كما قال: ﴿ وما لَهُم مِنَ اللهِ مِنَ واقٍ ﴾.

وقولُه: ﴿ بل تأتيهم بغتةً ﴾، أي: تأتيهم النارُ بغتةً، أي: فجأةً ﴿ فتبهَتُهم ﴾، أي: تَذْعَرُهم فَيستسلِمُون لها حائِرِينَ لا يَدْرُون ما يَصنَعُون، ﴿ فلا يستطيعون رَدَّها ﴾، أي: ليس لهم حيلَةٌ في ذلك، ﴿ ولا هم يُنظَرُونَ ﴾، أي: ولا يُؤخَّر عنهم ذلك ساعةً واحدةً.

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

يقول تعالى مُسَلِّياً لرسوله عما آذاه به المشركونَ من الاستهزاءِ والتكذيب: ﴿ ولقد استُهزِئَ برسُلٍ من قبلك فحاقَ بالذين سَخِرُوا منهم ما كانوا به يَستهزِءُونَ ﴾، يعني: من العذابِ الذي كانوا يستبعدون وقوعَه، كما قال: ﴿ولقد كَذِّبت رسلٌ من قبلك فَصبروا على ما كُذِّبوا وأُوذُوا حتى أتاهم نصرُنا ولا مُبَدِّلَ لكلماتِ الله ولقد جاءَكَ من نَبَإِ المُرسَلِينَ ﴾.

ثم ذكر تعالى نعمَته على عبيده في حِفْظِه لهم بالليل والنهار، وكَلَاءَته وحراسَته لهم بعينه التي لا تَنامُ، فقال: ﴿ قل من يَكْلَؤُكم بالليل والنهار مِنَ الرحمن ﴾، أي: بَدَلَ الرحمن، بمعنى غيره، كما قال الشاعر[1]:

جَـارِيَـةٌ لَـمْ تَـلْبَسِ الـمُـرَقَّـقَـا ... وَلَمْ تَـذُقْ مِنَ الـبُـقُـولِ الفُسْتُقَـا

أي: لم تذق بَدَلَ البُقول الفُسْتُقَ.

---

(١) هو أبو نُخيلة بنُ حَزْنٍ، من بني حِمَّان بن كعب بن سعد، راجز إسلامي من مخضرمي الدولتين. انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٦٠٢، وشرح أبيات مُغْني اللبيب للبغدادي ٣٢٩/٢، ٣٢٤/٥. وقال الأسود الغُنْدُجاني في فرحة الأديب ١٨٥: «صَحَّف ابن السيرافي في البيت الذي استشهد به، فجعل (النُّقُول) ـ وهي بالنون ـ (البُقول) بالباء، لأجل ما يقول هو وغيره أن أبا نُخَيلَةَ تَوهَّم أن الفُسْتُقَ من البقول. ولم يكن أبو نخيلة ممن لا يعرف الفستق، فقد عرفه غيره، ممن هو أقدم منه، وهو أبو القمقام بن مصعب الأسدي».

وقولُه تعالى: ﴿ بل هُم عن ذكر ربِهم مُعرِضُون ﴾، أي: لا يعترفون بنعَمِهِ عليهم وإحسانِهِ إليهم، بل يُعرِضُون عن آياتِهِ وآلائِهِ. ثم قال: ﴿ أم لهم آلهةٌ تمنعُهم من دوننا ﴾، استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أي: ألهم آلهةٌ تمنعهم وتكلَؤهم غيرُنا؟! ليس الأمرُ كما توَهَّموا، لا ولا كما زَعمُوا، ولهذا قال: ﴿ لا يستطيعون نصْرَ أنفُسِهم ﴾، أي: هذه الآلهةُ التي استَنَدُوا إليها غيْرَ اللهِ لا يَستطيعُون نصْرَ أنفُسِهم.

وقولُه: ﴿ ولا هُم منا يُصْحَبُون ﴾، قال العَوفي، عن ابن عباس: ﴿ ولا هم منا يُصحَبُون ﴾، أي: يُجارُونَ. وقال قتادة: لا يُصْحَبون بخير. وقال غيره: ﴿ ولا هم منا يُصحَبُون ﴾: يُمنَعُون.

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن المشركين: إنما غرَّهم وحَمَلَهم على ما هم فيه من الضَّلالِ أنَّهم مُتِّعوا في الحياة الدنيا ونُعِّموا، وطالَ عليهم العُمُر فيما هُم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء.

ثم قال واعظاً لهم: ﴿ أفلا يَرون أنا نأتي الأرضَ ننقُصها من أطرافها ﴾، اختلف المفسِّرون في معناه، وقد أسلفناه في سورة «الرَّعد»[(١)]، وأحسنُ ما فُسِّرَ بقولِهِ تعالى: ﴿ ولقد أهلكنا ما حَولكم من القُرَى وصَرَّفنا الآياتِ لعلَّهم يَرجِعُون ﴾[(٢)].

وقال الحسنُ البَصريّ: يعني بذلك ظُهورَ الإسلامِ على الكُفر[(٣)].

والمعنى: أفلا يعتبرون بنصْرِ الله لأوليائِهِ على أعدائِهِ، وإهلاكِهِ الأُمَمَ المُكَذِّبة والقُرى الظَّالمة، وإنجائِهِ لعباده المؤمنين. ولهذا قال: ﴿ أفَهُم الغالبون ﴾، يعني: بل هُم المغلوبون الأسفَلُون الأخسَرُونَ الأرذَلُونَ.

وقولُه: ﴿ قل إنَّما أُنذِرُكم بالوَحْيِ ﴾، أي: إنما أنا مبلغٌ عن الله ما أُنذِرُكم به من العَذاب والنَّكال، ليس ذلك إلا عمَّا أوحاه الله إليّ، ولكن لا يُجدِي هذا عمَّن أعمى الله بَصيرتَه، وخَتم على سَمْعِهِ وقَلْبِهِ، ولهذا قال: ﴿ ولا يَسْمع الصمُّ الدعاءَ إذا ما يُنذَرون ﴾.

وقولُه: ﴿ ولئن مَسَّتْهم نفحةٌ من عذاب ربك ليقولُنَّ يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾، أي: ولئن مَسَّ هؤلاءِ المكذبين أدنى شيءٍ من عذاب الله ليعترِفُنَّ بذنوبهم، وأنهم كانوا ظالمين لأنفُسِهم في الدنيا.

وقولُه: ﴿ ونَضع الموازينَ القِسْطَ ليوم القيامة فلا تُظلَمُ نفسٌ شيئاً ﴾، أي: ونضعُ الموازين العَدْلَ ليوم القيامة. الأكثر على أنه إنما هو ميزانٌ واحدٌ، وإنما جُمِعَ باعتبار تَعدُّد الأعمالِ الموزُونةِ فيه.

وقولُه: ﴿فلا تُظلَم نفسٌ شيئاً وإنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ من خرْدَلٍ أتينا بها وكَفَى بنا حاسِبينَ﴾، كما قال تعالى:

---

(١) انظر تفسير الآية ٤١ من سورة الرعد.

(٢) سورة الأحقاف، الآية ٢٧.

(٣) انظر الدرّ المنثور ٥/٦٣٢، وتفسير البغويّ ٣/٢٤٦.

﴿ولا يَظْلِمُ ربُّك أحداً﴾، وقال: ﴿إنَّ الله لا يَظلِمُ مثقالَ ذرّةٍ وإن تكُ حسنةً يضاعِفْها ويُؤتِ من لَدُنه أجراً عظيماً﴾، وقال لقمان: ﴿يا بنيَّ إنها إن تَكُ حبّةٍ من خردَلٍ فتكُنْ في صخرةٍ أو في السموتِ أو في الأرضِ يأت بها الله إن الله لطيفٌ خبيرٌ﴾.

وفي الصحيحَين عن أبي هُريرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كَلِمتان خفيفَتان على اللِّسانِ، ثقيلَتانِ في الميزان، حَبيبتان إلى الرَّحمن: سبحانَ الله وبحَمْدِهِ، سُبحانَ اللهِ العظيم»(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن إسحاقَ الطَّالَقَانِيُّ، حدثنا ابنُ المبارك، عن لَيث بن سعدٍ، حدثني عامر بن يحيى، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلِيِّ قال: سَمِعتُ عبد الله بن عَمْرو بن العاص يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: إن اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ يستخلِصُ رَجُلاً من أُمّتي على رُءُوس الخَلائقِ يوم القيامة، فينشر عليه تسعةً وتسعين سِجِلاً، كلُّ سجلٍ مدُّ البصر، ثم يقول: أتُنكرُ من هذا شيئاً؟ أظَلَمتْكَ كَتَبَتي الحافظُونَ؟ قال: لا، يا ربِّ. قال: أفلكَ عُذرٌ أو حسَنةٌ؟ قال: فَبُهِتَ الرَّجُلُ فيقول: لا، يا ربِّ. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنةً واحدةً، لا ظلم اليومَ عليك. فيُخرجُ له بطاقةً فيها: «أشهدُ أن لا إلَه إلا الله، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه»، فيقولُ: أحضِرُوه. فيقول: يا ربِّ، ما هذه البطاقةُ مع هذه السِّجلاتِ؟ فيقول: إنك لا تُظلَم. قال: فتوضع السجلاتُ في كِفّةٍ والبِطاقةُ في كِفّةٍ، قال: فطاشَتِ السِّجلاتُ وثَقُلَت البطاقةُ. قال: ولا يثقل شيءٌ بسم الله الرحمنِ الرحيم»(٢).

ورواه التِّرمذِيُّ وابنُ ماجه، من حديث اللَّيث بن سَعْدٍ، به، وقال التِّرمذِيُّ: حَسَنٌ غَريبٌ(٣).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا قُتَيبةُ، حدثنا ابنُ لَهيعَةَ، عن عَمْرو بن يحيى، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلِيِّ، عن عبد الله بن عَمرو بن العاص قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «تُوضَعُ الموازينُ يومَ القيامة، فيُؤتَى بالرجل فيوضَع في كِفّةٍ، فيوضَع ما أُحصِيَ عليه، فتَمايَلَ به الميزانُ، قال: فيُبعَثُ به إلى النار، قال: فإذا أُدبِرَ به إذا صائحٌ من عند الرحمن ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول: لا تعجَلُوا فإنه قد بَقِيَ له. فيُؤتَى ببِطاقةٍ فيها: «لا إلَه إلا الله»، فتوضَعُ مع الرجل في كِفّةٍ، حتى يَمِيلَ به الميزانُ»(٤).

وقال الإمامُ أحمدُ أيضاً: حَدَّثنا أبو نُوحٍ قُراد، أنبأنا ليثُ بن سَعدٍ، عن مَالِكِ بن أَنَسٍ، عن الزُّهريِّ، عن عُروَةَ، عن عائِشَةَ، أن رَجُلاً من أصحاب رسولِ الله ـ ﷺ ـ جلَس بين يديه، فقال: يا رسولَ الله، إن لي مملُوكين يَكْذِبُونَني ويَخُونونَني ويَعصُونني، وأضرِبُهم وأشتُمُهم، فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: يُحسَب ما خانُوكَ وعَصَوكَ وكَذَبُوكَ وعِقابُكَ إياهم، إن كان عقابُكَ إياهم دُون ذُنُوبِهم كانَ فَضْلاً لك. وإنْ كان عقابُكَ إياهم بقَدْرِ ذنوبهم كان كَفافاً، لا لك ولا عليك. وإنْ كان عقابُكَ إياهم فوق ذنوبهم اقتُصَّ لهم منكَ الفضلُ الذي بَقِيَ قِبَلَك. فجعَلَ الرجلُ يبكي بين يَدَي رسولِ الله ـ ﷺ ـ ويهتِف، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما له؟! أما يقرأ كتابَ الله؟: ﴿ونضعُ الموازينَ القسطَ ليوم القيامة فلا تُظلَم نفسٌ شيئاً وإن كان مثقالَ حبّةٍ من خردَلٍ أتينا بها وكفَى بنا حاسبينَ﴾. فقال الرجل: يا رسولَ الله، ما أجدُ شيئاً خيراً من فِراقِ هؤلاءِ ـ يعني عبيدَهُ ـ إني أُشهِدُكَ أنهم أحرارٌ كلُّهم»(٥).

---

(١) فتح الباري، كتاب التوحيد ٥٣٧/١٣، ومسلم، كتاب الذكر ٢٠٧٢/٤.
(٢) مسند أحمد ٢١٣/٢. وطاشَتْ: رُفِعَتْ.
(٣) عارضة الأحوذي، أبواب الإيمان ١٠٧/١٠ ـ ١٠٨، وابن ماجه، كتاب الزهد ١٤٣٧/٢.
(٤) مسند أحمد ٢٢١/٢ ـ ٢٢٢.
(٥) مسند أحمد ٢٨٠/٦ ـ ٢٨١.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

قد تقدَّم التنبيهُ على أن الله تعالى كثيراً ما يَقرن بين ذِكْر موسى ومحمدٍ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليهما ـ وبين كتابيهما، ولهذا قال: ﴿ ولقد آتينا مُوسَى وهارونَ الفرقَانَ ﴾.

قال مجاهد: يعني الكتابَ. وقال أبو صالح: التوراةَ. وقال قتادةُ: التوراةَ حلالَها وحرامَها، وما فَرَّق الله بين الحق والباطل. وقال ابنُ زيد: يعني النصر[1].

وجامعُ القول في ذلك أنَّ الكُتب السماوية تشتمِلُ على التفرقة بين الحقِّ والباطل، والهُدَى والضَّلَالِ، والغيِّ والرشاد، والحَلَالِ والحَرام، وعلى ما يحصُل نُوراً في القُلُوب، وهداية وخَوْفاً وإنابةً وخشيةً، ولهذا قال: ﴿ الفرقانَ وضياءً وذِكْراً للمتقين ﴾، أي: تذكيراً لهم وعظة.

ثم وَصَفهم فقال: ﴿ الذين يخشَون ربَّهم بالغيب ﴾، كَقَوله: ﴿ من خَشِيَ الرحمن بالغَيْبِ وجاء بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾، وقوله: ﴿ إن الذين يخشَون ربَّهم بالغيبِ لهم مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ ﴾[2].

﴿ وهم من الساعة مُشفِقون ﴾، أي: خائفون وَجِلُون.

ثم قال تعالى: ﴿ وهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أنزَلْناهُ ﴾، يعني القرآن العظيمَ، الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يَدَيه ولا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ من حَكِيمٍ حَمِيدٍ، ﴿ أفأنتم له مُنكِرُونَ ﴾، أي: أفتُنكِرُونه وهو في غاية الجَلَاء والظُّهور؟!

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

يخبر تعالى عن خَليله إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنه آتاه رُشْدَه من قبل، أي: من صِغره ألهمَه الحقَّ والحُجَّة على قومه، كما قال: ﴿ وتلك حُجَّتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾، وما يُذكَرُ عنه من الأخبار في إدخال أبيه له في السَّرَب وهو رضيع، وأنه خرَج به بعد أيام، فَنظَر إلى الكواكب والمخلوقاتِ فَتبصَّر فيها، وما قصَّه كثيرٌ من المفسرين وغيرهم ـ فعامَّتها أحاديثُ بني إسرائيل، فما وافق منها الحقَّ مما بأيدينا عن المعصوم قَبلناه لموافقتِه الصحيحَ، وما خالَف شيئاً من ذلك رَددناه، وما ليس فيه موافقةٌ ولا مخالفةٌ لا نُصدِّقه ولا نُكذِّبه، بل نجعلُه وقفاً. وما كان من هذا الضَّرْب منها فقد تَرخَّص كثيرٌ من السلَفِ في رِوَايتِها، وكَثيرٌ من ذلك مِمَّا لا فائدةَ فيه، ولا حاصلَ له مما يُنتَفعُ به في الدين، ولو كانت فيه فائدة تعودُ على المُكلَّفين في دينهم لَبيَّنته هذه الشريعةُ الكاملةُ الشاملةُ. والذي نَسْلُكه في هذا التفسيرِ الإعراضُ عن كثيرٍ من الأحاديثِ الإسرائيليَّةِ، لما فيها من تَضْييع الزَّمانِ، ولما اشتَمل عليه كثيرٌ منها من الكَذِب المروَّج عليهم، فإنهم لا تَفرِقَةَ عندهم بين صَحِيحها وسَقِيمها، كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة.

(١) تفسير الطبري ١٧/٣٤، والدرّ المنثور ٥/٦٣٥.

(٢) انظر تفسير الآيات ٧٥ ـ ٧٩ من سورة الأنعام.

والمقصودُ هاهنا أن الله تعالى أخبر أنه قد آتى إبراهيمَ رُشْدَه من قبل، أي: من قبل ذلك. وقوله: ﴿ وَكُنَّا بِهِۦ عالمين ﴾، أي: وكان أهلاً لذلك.

ثم قال: ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيلُ التي أنتم لها عاكفُون ﴾، هذا هو الرُّشد الذي أُوتيه من صِغرِه، الإنكارُ على قومه عبادةَ الأصنام من دون الله عزَّ وجلَّ، فقال: ﴿ ما هذه التماثيلُ التي أنتم لها عاكِفُون ﴾، أي: مُعتكِفُون على عبادتها.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد الصباح، حدثنا أبو معاوية الضرير، حدثنا سَعْدُ بن طَريف، عن الأصبغ بن نُباتَةَ، قال: مَرَّ عليٌّ على قوم يلعبون بالشِّطرنج، فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ لأنْ يَمسَّ صاحبُكم جَمْراً حتى يَطْفَأ خيرٌ له من أن يَمَسَّها.

﴿ قالوا وَجَدنا آباءَنا لها عابِدِينَ ﴾، لم يكن لهم حُجَّةٌ سِوَى صَنيع آبائِهم الضُّلاَل، ولهذا قال: ﴿ لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾، أي: الكلام مع آبائِكم الذين احتجَجْتُم بصنيعهم كالكَلام معكم، فأنتم وهم في ضَلاَلٍ، على غير الطريق المستقيم.

فلما سَفَّه أحلامَهُم، وضَلَّل آباءَهم، واحتَقَر آلهتهم ﴿ قالوا أجِئْتَنا بالحقِّ أم أنت من اللاَّعبين ﴾، يَقُولون: هذا الكلامُ الصادرُ عنك تقولُه لاعباً أو مُحِقّاً فيه؟ فإنا لم نَسْمَع به قبلك. قال: ﴿ بل ربُّكم ربُّ السمواتِ والأرضِ الذي فَطَرَهُنَّ ﴾، أي: رَبُّكم الذي لا إلَهَ غيرُه هو الذي خَلَق السموات والأرض وما حوت من المخلوقات، الذي ابتدأ خلقهنَّ، وهو الخالقُ لجميعِ الأشياءِ، ﴿ وأنا على ذَلِكُم من الشَّاهِدِينَ ﴾، أي: وأنا أشهدُ أنه لا إلَهَ غيرهُ، ولا رَبَّ سِواهُ.

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

ثم أقسمَ الخليلُ قسماً أسمعَه بعضَ قومه: ليكيدَنَّ أصنامَهُم، أي: ليحرِصَنَّ على أذاهم وتَكْسِيرهم بعد أن يُوَلُّوا مُدْبِرينَ، أي: إلى عِيدهم. وكان لهم عيدٌ يخرجون إليه.

قال السدِّيُّ: لما اقترب وقتُ ذلك العيد قال أبوه: يا بُنَيَّ، لو خَرَجْتَ معنا إلى عيدنا لأعجبَك دِينُنا! فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نَفْسَه إلى الأرض وقال: إني سقيمٌ. فجعلوا يَمُرُّون عليه وهو صريعٌ فيقولون: مَهْ[1]! فيقول: إني سقيمٌ. فلما جاز عامَّتُهم وبَقِي ضُعَفاؤُهم، قال: ﴿ تالله لأكيدَنَّ أصنامَكُم ﴾، فَسمِعَه أُولئك.

وقال أبو إسحاقَ، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: لما خَرَج قومُ إبراهيم إلى عيدهم، مَرُّوا عليه فقالوا: يا إبراهيم، ألا تخرُج معنا؟ قال: ﴿إني سَقِيم﴾. وقد كان بالأمس قال: ﴿تالله لأكيدَنَّ أصنامَكُم بعد أن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾، فَسمِعَه ناسٌ منهم.

(١) أي: ما شأنك؟.

وقولُه: ﴿ فجعلهم جُذاذاً ﴾، أي: حُطاماً، كَسَّرَها كلَّها ﴿ إلا كبيراً لهم ﴾، يعني إلا الصَّنم الكبير عندهم، كما قال: ﴿ فَراغَ عليهم ضَرْباً باليمين ﴾.

وقولُه: ﴿ لعلَّهم إليه يَرجِعُون ﴾: ذكروا أنه وضع القَدُوم في يَدِ كبيرهم، لعلهم يَعتَقِدون أنه هو الذي غارَ لنفسِه، وأَنِفَ أن تُعبَدَ معه هذه الأصنامُ الصِّغار، فكَسَرَها.

﴿ قالوا مَن فَعَلَ هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾، أي: حين رَجَعوا وشاهَدُوا ما فعله الخليلُ بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدالِّ على عَدَم إلَهيتها، وعلى سَخَافة عُقول عابدِيها ﴿ قالوا من فَعَل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾، أي: في صنيعه هذا. ﴿ قالوا سَمِعنا فتى يذكُرُهم يُقال له إبراهيم ﴾، أي: قال من سَمِعه يَحْلِفُ إنه لَيَكِيدنَّهم: ﴿ سَمِعنا فتى ﴾، أي: شاباً ﴿ يذكُرهم يقال له إبراهيم ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا جريرُ بن عبد الحميد، عن قابُوس، عن أبيه، عن ابن عبَّاس قال: ما بَعَث الله نبياً إلاَّ شاباً، ولا أوتي العلم عالمٌ إلا وهو شابٌّ، وتلا هذه الآية: ﴿ قالوا سَمِعنا فتى يذكُرُهم يقال له إبراهيمُ ﴾.

وقولُه: ﴿ قالوا فأْتُوا به على أعين الناس ﴾، أي: على رُءوس الأشهاد في الملأ الأكبر بِحَضْرَة الناس كلِّهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم أن يُبيِّنَ في هذا المحفل العظيم كثرةَ جَهْلهم وقِلَّة عقولهم في عبادة هذه الأصنام، التي لا تدفع عن نفسها ضرًّا، ولا تستطيع لها نصراً، فكيف يُطلَبُ منها شيءٌ من ذلك.

﴿قالوا أأنتَ فعلتَ هَذا بآلهتنا يا إبراهيمَ * قال بَل فَعَله كبيرُهم هَذا﴾، يعني الذي تَرَكه لم يكسره، ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾. وإنما أراد بهذا أن يُبادِرُوا من تِلقاء أنفُسِهم فيعترِفُوا أنهم لا ينطقون، فإنَّ هذا لا يصدُر عن هذا الصَّنَم، لأنه جَمادٌ.

وفي الصحيحين من حديث هشام بن حَسَّان[1]، عن محمد بن سِيرينَ، عن أبي هُرَيرة، أنَّ رَسُول الله ـ ﷺ ـ قال: «إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يَكْذِبْ غير ثلاث، ثنتين في ذات الله، قوله: ﴿ بل فَعَله كبيرُهم هذا ﴾، وقولُه: ﴿ إني سَقِيم ﴾. قال: وبينا هو يسيرُ في أرض جَبَّار من الجبابرة، ومعه سارةُ إذْ نَزَل مَنزلاً، فأتى الجبارَ رجلٌ فقال: إنه قد نزل ههنا بأرضك رجلٌ معه امرأة أحسنُ الناس. فأرسل إليه فجاء، فقال: ما هذه المرأةُ منك؟ قال: هي أختي. قال: فاذهب فأرسِلْ بها إليّ. فانطلق إلى سارةَ فقال: إن هذا الجَبَّار سألني عنك، فأخبرته أنك أختي، فلا تُكَذِّبيني عنده، فإنك أُختي في كتاب الله، وإنه ليس في الأرض مسلمٌ غيري وغيرك. فانطلق بها إبراهيمُ. ثم قام يُصلِّي، فلما أن دَخلت عليه فرآها أَهْوَى إليها فتناولها فأُخِذَ[2] أخذاً شديداً، فقال: ادعي الله لي ولا أضُرُّكِ. فَدَعَت له فأُرسِلَ، فأهوى إليها فتناولها، فأُخِذَ بمثلها أو أشَدَّ. ففعل ذلك الثالثةَ فأُخِذَ. فذكر مثل المرتين الأُولَيين، فقال: ادْعِي الله فلا أَضُرُّكِ. فَدَعت له فأُرسِلَ، ثم دَعَا أدنى حُجَّابه فقال: إنك لم تأتني بإنسان، وإنما أَتيتني بشيطان، أخْرِجها وأَعطِها هاجَرَ. فأُخرِجَت وأُعطِيَت هاجَرَ، فأقبلَت. فلما أحسَّ إبراهيمُ بمجيئها انفتلَ من صلاته، قال: مَهْيَم[3]. قالت: كَفَّ الله كَيْدَ الكافر الفاجِر،

---

(١) كذا، وحديث هشام بن حسان عن محمد بن سيرين أخرجه النسائي في السنن الكبرى في كتاب المناقب. انظر تحفة الأشراف ٣٥٧/١٠. فأما رواية الصحيحين فمن طريق أيوب السختياني، عن محمد بن سيرين. انظر فتح الباري، كتاب الأنبياء ٣٨٨/٦، ومسلم، كتاب الفضائل ١٨٤٠/٤ ـ ١٨٤١.

(٢) في رواية مسلم: «فقبضت يده قبضة شديدة».

(٣) أي: ما الخبر؟.

وأخدَمَني هاجَرَ. قال محمد بن سيرين. فكان أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ إذا حدَّث بهذا الحديث قال: فتلك أُمُّكم يا بَني ماءِ السَّماءِ[١].

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

يُخبِرُ تعالى عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال: ﴿فرَجَعُوا إلى أنفسهم﴾، أي، بالمَلامة في عَدم احترازِهم وَحِراستهم لآلهتهم، فقالوا: ﴿ إنكم أنتم الظَّالمُون ﴾، أي: في تَرْكِكم لها مهملةً لا حافظَ عندها. ﴿ ثم نُكِسُوا على رُءُوسهم ﴾، أي: ثم أَطْرَقُوا في الأرض فقالوا: ﴿ لقد عَلِمْتَ ما هؤلاءِ ينطقُون ﴾. قال قتادةُ: أدركت القوم حيرة سوء، فقالوا: ﴿ لقد عَلِمْتَ ما هؤلاءِ ينطقُون ﴾. وقال السُّدِّيُّ: ﴿ ثم نُكِسوا على رُءُوسهم ﴾، أي: في الفتنة. وقال ابنُ زيد: أي في الرأي.

وقولُ قتادة أظهرُ في المعنى، لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزاً، ولهذا قالوا له: ﴿ لقد عَلِمْتَ ما هؤلاء ينطقُون ﴾، فكيفَ تقولُ لنا: سَلُوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطِق؟! فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفُوا بذلك: ﴿أَفتعبدُون من دون الله ما لا ينفَعُكم شيئاً ولا يَضُرُّكم﴾، أي: إذا كانت لا تنطِقُ وهي لا تَضُرُّ ولا تنفَع، فَلِمَ تعبدونها من دون الله؟! ﴿أفٍّ لكم ولما تعبدُون من دون الله أفلا تعقلون﴾، أي: أفلا تَتَدبَّرُون ما أنتم فيه من الضَّلال والكُفر الغليظ، الذي لا يروجُ إلا على جاهلٍ ظالمٍ فاجرٍ؟! فأقام عليهم الحجَّة وألزَمَهم بها، ولهذا قال تعالى: ﴿ وتلك حُجَّتنا آتيناها إبراهيمَ على قَوْمِهِ ﴾... الآية.

﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

لما دَحَضت حُجَّتُهم، وبان عجزُهم، وظهر الحقُّ، واندفع الباطلُ، عَدَلوا إلى استعمالِ جاه مُلكهم، فقالوا: ﴿ حَرِّقوه وانصُروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾. فجمَعُوا حَطَباً كثيراً جداً ـ قال السدِّيُّ: حتى إن كانت المرأةُ تمرَضُ، فَتنذرُ إن عُوفِيَتْ أن تحمِلَ حَطباً لحريق إبراهيم ـ ثم جعلوه في جَوْبَة[٢] من الأرض، وأضرموها ناراً، فكان لها شَرَرٌ عظيم ولَهَب مرتفع، لم توقد قَطُّ نارٌ مثلها، وجَعَلوا إبراهيم ـ عليه السلام ـ في كِفَّة المَنْجَنِيقَ بإشارةِ رجلٍ من أعرَاب فارس من الأكراد ـ قال شُعَيبُ الجَبَئِيُّ: اسمه هَيْزَن[٣] ـ فخسَفَ اللهُ به الأرضَ، فهو يَتجلْجَلُ[٤] فيها إلى يوم القيامة، فلما ألقوه قال: «حسبي الله ونعم الوكيل». كما رواه البخاري،

(١) قال ابن حجر في فتح الباري ٣٩٤/٦: «قال ابن حبّان في صحيحه: كل من كان من ولد إسماعيل يقال له: ماء السماء، لأن إسماعيل ولد هاجر، وقد رُبِّي بماء زمزم، وهي من ماء السماء. وقيل: سُمُّوا بذلك لخُلُوص نسبهم وصفائه، فأشبه ماء السماء». هذا وقد ذكر في تفسير الاسم قولاً غير ذلك.

(٢) الجَوْبَة: الحفرة المستديرة الواسعة.

(٣) انظر تفسير الطبري ٤٣/١٧، والقرطبي ٣٠٣/١١، ٩٧/١٥.

(٤) أي: يَسُوخ فيها ويغوص.

عن ابن عباس أنه قال: ﴿ حسبي الله ونعم الوكيل ﴾، قالها إبراهيم حين أُلقي في النار، وقالها محمد حين قالوا: ﴿ إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حَسْبُنا الله ونعم الوكيلُ ﴾(١).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو هشام، حدثنا إسحاق بن سليمان، عن أبي جعفر، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لما أُلقِيَ إبراهيمُ عليه السلام في النار قال: اللهمَّ، إنك في السماء واحد، وأنا في الأرض واحدٌ أعبدُك»(٢).

ويُرْوَى أنه لما جَعَلوا يُوثِقُونه قال: لا إلَه إلا أنت، سُبحانك، لك الحمدُ، ولك الملكُ، لا شريكَ لك(٣).

وقال شُعَيبٌ الجَبَئِيُّ: كان عمره إذ ذلك ستَّ عشرةَ سنةً. فالله أعلم(٣).

وذكر بعضُ السلف أنه عَرَض له جبريل وهو في الهواءِ، فقال: ألك حاجةٌ؟ فقال: أما إليك فلا(٣).

وقال سعيد بن جُبَير ـ ويُروى عن ابن عباس أيضاً ـ قال: لما أُلقِيَ إبراهيمُ جَعَل خازنُ المَطَر يقول: متى أُومَرُ بالمطر فَأُرسِلَه؟ قال: وكان أمرُ الله أسرَعَ من أَمْرِه، قال الله: ﴿ يا نارُ كُوني بَرْداً وسَلَاماً على إبراهيمَ ﴾، قال: فَلَم تَبْقَ من الأَرض نارٌ إلَّا طَفِئَتْ.

وقال كعبُ الأحبار: لَمْ ينتفعْ أحدٌ يومئذٍ بنارٍ، ولم تحرق النارُ من إبراهيم سِوَى وَثَاقه.

وقال الثوريّ، عن الأعمش، عن شيخ، عن علي بن أبي طالب: ﴿ قلنا يا نار كُوني بَرْداً وسَلَاماً على إبراهيمَ ﴾، قال: [بَرُدَتْ عليه حتى كادت تقتلُه، حتى قيل: ﴿ وَسَلاماً ﴾]، قال: لا تَضُرِّيه(٤).

وقال ابنُ عباس، وأبو العالية: لولا أن الله ـ عزّ وجلّ ـ قال: ﴿وسلاماً﴾ لأذَى إبراهيمَ بَرْدُها.

وقال جُوَيبِرٌ، عن الضّحاك: ﴿ كوني برداً وسلاماً على إبراهيمَ ﴾، قال: صَنَعُوا له حَظِيرةً مِن حَطَبِ جَزْل، وأشعَلُوا فيه النار من كلِّ جانب، فأصبح ولم يُصبه منها شيءٌ، حتى أخمَدَها الله. قال: وَيذكُرون أَنَّ جبريلَ كان مَعَهُ يمسَحُ وجهَه من العَرَق، فلم يُصِبْه منها شَيءٌ حين ذلك.

وقال السدِّيُّ: كان معه فيها مَلَكُ الظِّلِّ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا يوسُفُ بن موسى، حدثنا مِهرانُ، حدثنا إسماعيل ابن أبي خالد، عن المنهال بن عَمْرو قال: أُخبِرْتُ أَنَّ إبراهيم أُلقِيَ في النار، فقال: كان فيها إما خَمسينَ وإما أربعين، قال: ما كنتُ أياماً ولياليَ قَطّ أطيبَ عيشاً إذ كنتُ فيها، وَوَدِدْت أن عيشي وحياتي كلَّها مثل عيشي إذ كُنتُ فيها.

وقال أبو زُرعَةَ بنُ عمرو بنِ جَرير، عن أبي هُرَيرة قال: إن أحسنَ شيءٍ قال أبو إبراهيم لما رُفع عنه الطَّبَقُ وهو في النار، وجده يَرْشَح جبينُه، قال عند ذلك: نِعْمَ الربُّ ربُّك يا إبراهيم(٥).

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة آل عمران ٢٢٩/٨. وانظر فيما تقدم تفسير الآية ١٧٣ من سورة آل عمران.
(٢) أخرجه أبو يعلى، وأبو نعيم، وابن مردويه، والخطيب. انظر الدرّ المنثور ٦٣٩/٥.
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٤٥/١٧.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٤٤/١٧. وما بين القوسين عنه. وانظر الدرّ المنثور ٦٤١/٥.
(٥) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم. انظر تفسير الطبري ٤٤/١٧، والدرّ ٦٤١/٥.

وقال قتادةُ: لم يأتِ يومئذٍ دابةٌ إلا أطفأت عنه النارَ، إلا الوَزَغَ[١]. وقال الزهري: أمر النبي - ﷺ - بقتله وسماه فُوَيسقاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عُبَيد الله ابن أخي ابن وَهْب، حدثني عَمّي، حدثنا جَرير بن حازم، أن نافعاً حدَّثه قال: حَدَّثتني مولاةُ الفاكهِ بن المغيرة المخزوميِّ قالت: دخلتُ على عائشة فرأيتُ في بيتها رُمحاً. فقلتُ: يا أُمَّ المؤمنين، ما تَصنَعين بهذا الرُّمح؟ فقالت: نقتل به هذه الأوزاغ، إن رسولَ الله - ﷺ - قال: «إن إبراهيم حينَ أُلقِي في النار لم يكن في الأرض دابَّةٌ إلا تُطْفىءُ النارَ غَيْرَ الوَزَغِ، فإنه كان ينفُخ على إبراهيمَ. فأمَرنا رسولُ الله - ﷺ - بقتله.

وقولُه: ﴿ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسَرين ﴾، أي: المغلُوبين الأسفَلِينَ، لأنهم أرادُوا بنبيِّ الله كيداً، فكادهم الله ونَجَّاه من النار، فَغُلِبوا هنالك.

وقالَ عَطيَّة العوفيُّ: لما أُلقِيَ إبراهيمُ في النار جاءَ مَلِكُهم لينظر إليه، فطارت شرارةٌ فوقعت على إبهامِهِ، فأحرقته مثل الصُّوفَة.

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن إبراهيم أنَّه سَلَّمه الله من نار قَوْمِه، وأخرجَه من بينِ أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام، إلى الأرض المُقَدَّسة منها، كما قال الربيعُ بن أنس، عن أبي العالية، عن أُبيِّ بن كعب في قوله: ﴿ إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾. قال: الشام، وما من ماءٍ عذبٍ إلا يخرُج من تحت الصَّخْرَة[٢]. وكذا قال أبو العالية أيضاً.

وقال قتادةُ: كانا بأرضِ العِرَاقِ، فأُنجيَا إلى الشام، وكان يُقَال الشامُ عِمَادُ دارِ الهجرة، وما نَقَصَ من الأرض زِيدَ في الشام، وما نَقَص من الشام زِيدَ في فلسطين. وكان يُقَال: هي أرض المحشَرِ والمنشَرِ، وبها ينزِلُ عيسى ابن مريم عليه السلامُ، وبها يهلك المسيحُ الدجَّال.

وقال كعبُ الأحبار في قوله: ﴿ إلى الأرضِ التي باركنا فيها للعالمين ﴾: إلى حَرَّان.

وقال السدِّيُّ: انطلق إبراهيمُ ولوط قِبَلَ الشام، فَلَقِيَ إبراهيمُ سارَةَ، وهي ابنة ملك حَرَّان، وقد طَعَنَتْ على قومها في دينهم، فَتزَوَّجَها على ألاّ يُغيرَها[٣].

رَواه ابنُ جرير. وهو غَريبٌ، والمشهورُ أنها ابنةُ عمِّه، وأنه خَرَج مُهاجراً من بلادِهِ.

---

(١) الوَزَغُ: سامُّ أبرَص، واحده: وَزَغَةٌ.

(٢) تفسير الطبري ١٧/٤٦، والدر المنثور ٥/٦٤٢-٦٤٣.

(٣) أغار الرجلُ زوجَتَه: جعلها تغارُ بالزواج وغيره.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عبَّاسٍ: إلى مكة؛ ألا تسمَعُ قولَه: ﴿ إنَّ أوَّل بيتٍ وُضِعَ للناس للَّذي ببَكَّة مباركاً وهُدىً للعالمين ﴾.

وقولُه: ﴿وَوَهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ نافلةً﴾، قال عطاء، ومجاهد: عطيةً.

وقال ابنُ عباس، وقتادةُ، والحَكَم بن عُتَيبَة: النافلةُ ولدُ الولدِ. يعني أنَّ يعقوبَ وَلَد إسحاقَ، كما قال: ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراءِ إسحاقَ يعقوبَ﴾.

وقال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ: سأل واحداً فقال: ﴿ رَبِّ هَبْ لي من الصَّالحين ﴾، فأعطاه الله إسحاقَ، وزادَه يعقوبَ نافلةً.

﴿ وكلًّا جعلنا صالحين ﴾، أي: الجميعُ أهلُ خيرٍ وصلاحٍ، ﴿ وجعلناهم أئمةً ﴾، أي: يُقتَدى بهم، ﴿ يَهدُونَ بأمرِنا ﴾، أي: يَدْعُون إلى الله بإذنه، ولهذا قال: ﴿ وأَوحَينا إليهمْ فِعْلَ الخَيْراتِ وإقامَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزَّكاةِ ﴾، من باب عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ، ﴿ وكانُوا لنا عابِدِينَ ﴾، أي: فاعِلين لما يأمُرون الناسَ به.

ثم عَطَف بذكر لوطٍ ـ وهو لوطُ بنُ هارانَ بن آزَرَ ـ كان قد آمَنَ بإبراهيم واتَّبعه، وهاجَرَ معه، كما قال تعالى: ﴿ فآمن له لوطٌ وقال إني مُهاجِرٌ إلى رَبِّي ﴾، فآتاه الله حُكماً وعِلْماً، وأوحَى إليه، وجَعَله نبياً، وبعَثَه إلى سَدُومَ[1] وأعمالِها، فخالَفُوه وكَذَّبوه، فأهلَكَهم الله ودمَّر عليهم، كما قَصَّ خَبَرَهم في غيرِ ما موضعٍ من كتابه العزيز، ولهذا قال: ﴿ونَجَّيناه من القرية التي كانَتْ تعمَلُ الخبائثَ إنَّهم كانوا قَوْمَ سوءٍ فاسقين * وأدخلناه في رَحْمَتِنا إنَّه مِنَ الصالحينَ﴾.

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

يُخبِرُ تعالى عن استجابته لعبده ورَسُوله نُوح عليه السلامُ، حين دعا على قومه لما كَذَّبوه: ﴿ فدعا ربه أني مغلوبٌ فانتصِر﴾، ﴿وقال نوحٌ ربِّ لا تَذَرْ على الأرضِ من الكافرين دَيَّاراً * إنَّكَ إن تَذَرْهُم يُضِلُّوا عبادَكَ ولا يَلِدُوا إلا فاجراً كفاراً﴾. ولهذا قال هاهنا: ﴿إذ نادى من قبلُ فاستجبنا له فنَجَّيناه وأهلَه﴾، أي: الذين آمنوا به، كما قال: ﴿وأهلَكَ إلا من سَبَقَ عليه القولُ ومن آمن وما آمن مَعَه إلا قليلٌ﴾.

وقولُه: ﴿ من الكَرْبِ العَظِيمِ ﴾، أي: من الشدَّةِ والتَّكذيب والأذى، فإنه لَبِثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلا خمسينَ عاماً يدعُوهم إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فلم يُؤمن به منهم إلا القليلُ، وكانوا يَقْصِدونَ لأذاه، ويتواصَوْنَ قَرْناً بعد قَرْنٍ، وجيلاً بعدَ جيلٍ على خِلافِه.

وقولُه: ﴿ ونصَرْناه مِنَ القَوم ﴾، أي: ونَجَّيناه وخَلَّصناه منتصراً من القوم ﴿ الذين كَذَّبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سَوْءٍ فأغرقناهم أجمعين﴾، أي: أهلكَهم الله بعامَّةٍ، ولم يُبْقِ على وَجْهِ الأرضِ منهم أحداً، إذ دَعا عليهم نَبِيُّهم.

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ

(١) سَدُومُ: بُلَيدة مشهورة من أعمال حلب.

صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

قال أَبو إسحاق، عن مُرّة، عن ابن مسعود، كان ذلك الحَرْثُ كَرْماً قد نَبَتَتْ عناقيده. وكذا قال شُرَيح.

قال ابن عباس: النَّفْشُ الرَّعْيُ. وقال شَريحٌ، والزهري، وقتادةُ: النَّفْشُ بالليل. زاد قتادةُ: والهَمْلُ بالنهار.

قال ابنُ جَرير: حدَّثنا أبو كُرَيب وهارون بن إدريسَ الأصمّ قالا: حدثنا المحاربيّ، عن أشعثُ، عن أبي إسحاق، عن مُرَّةَ، عن ابن مسعود في قوله: ﴿ وداودَ وسليمانَ إذ يحكُمان في الحَرْثِ إذ نَفَشت فيه غَنَمُ القَوْمِ ﴾، قال: كَرْمٌ قد أنبتَ عناقيدَه، فأفسدَتْه، قال: فقضى داودُ بالغَنَم لصاحب الكَرْم، فقال سُلَيمان: غيرُ هذا يا نبيَّ الله! قال: وما ذاك؟ قال: تَدْفَعُ الكَرْم إلى صاحب الغنم فيقومُ عليه حتى يعودَ كما كان، وتَدْفَعِ الغَنَم إلى صاحب الكرم فيُصيب منها، حتى إذا كان الكَرْمُ كما كان دَفَعْتَ الكَرْمَ إلى صاحبه، ودَفَعْتَ الغَنَم إلى صاحبها، فذلك قوله: ﴿ فَفَهَّمْناها سُلَيمانَ ﴾(١).

وهكذا رَوى العَوْفي، عن ابن عباس.

وقال حَمّاد بن سلمة، عن علي بن زيد، حدثنا خليفةُ، عن ابن عباس قال: فَحَكم داودُ بالغَنَم لأصحاب الحرث، فَخرج الرِّعاء معهم الكلابُ، فقال لهم سُلَيمان: كيف قَضى بينكم؟ فأخبروه، فقال: لو وُلِّيتُ أَمْرَكُم لَقَضَيتُ بغير هذا! فَأُخبِرَ بذلك داودُ، فدعاه فقال: كيف تَقْضِي بينهم؟ قال: أَدفَع الغَنَم إلى أصحاب الحرث، فيكون لهم أولادُها وأَلبانُها وسِلاَؤها(٢) وَمَنافعها، ويبذُر أصحابُ الغَنَم لأهلِ الحَرْثِ مثل حَرْثِهم، فإذا بَلَغ الحرثُ الذي كان عليه أَخذ أَصْحابُ الحَرْثِ الحَرْثَ، ورَدُّوا الغَنَم إلى أَصْحابِهَا.

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدثنا سَعيد بن سُلَيمان، حدثنا حُدَيجٌ، عن أبي إسحاق، عن مُرَّة، عن مَسْرُوقٍ قال: الحَرْثُ الذي نَفَشت فيه الغنم إنما كان كَرْماً نَفَشت فيه الغَنَمُ، فلم تَدَع فيه وَرَقَةً ولا عُنقوداً من عِنَبٍ إِلّاَ أكلَته، فأتوا دَاوُد فأعطاهم رقابَها، فقال سُليمان: لا، بل تؤخذ الغَنَم فتُعطى أهلَ الكَرْم، فيكونُ لهم لَبَنُها ونفعُها، ويُعطى أهلُ الغَنَم الكَرْم فيَعْمُروه ويُصلِحوه، حتى يَعُودَ كالذي كان ليلةَ نَفَشتْ فيه الغَنَمُ، ثم يُعطى أهلُ الغَنَم غَنَمَهم، وأهلُ الكرم كَرْمُهم.

وهكذا قال شُرَيح، ومُرَّةُ، ومجاهِدٌ، وقتادَةُ، وابنُ زَيدٍ، وغيرُ واحد.

وقال ابنُ جرير: حدَّثنا ابنُ أبي زِيَادٍ، حدثنا يزيدُ بن هارونَ، أنبأنا إسماعيلُ، عن عامر، قال: جاء رجلان إلى شُرَيح، فقال أحدُهما: إن شاةَ هذا قَطعت غزْلاً لي، فقال شُرَيحٌ: نهاراً أم ليلاً؟ فإن كان نهاراً فقد بَرِئَ صاحب الشاة، وإن كان ليلاً فقد ضَمِنَ، ثم قرأ: ﴿ وداود وسُلَيمان إذ يحكمان في الحَرْثِ ﴾... الآية(٣).

---

(١) تفسير الطبري ١٧/٥١.

(٢) السِّلاءُ: السَّمْنُ ونحوه ما دام خالصاً، يقال: سَلأَ الدُّهْنَ أو الزُّبْدَ سَلْئاً وسِلاءً: أذابهُ بالتسخين ونحوه.

(٣) تفسير الطبري ١٧/٥٢. وتتمّة الخبر: «وقال: كان النَّفْش ليلاً».

وهذا الذي قاله شُرَيح شَبيهٌ بما رواه الإمامُ أحمد ، وأبو داودَ، وابنُ ماجه، من حديث اللَّيث بن سَعْدٍ عن الزُّهري، عن حَرام بن مُحَيِّصَةَ[١]: أن ناقَةَ البَرَاء بن عازبٍ دَخلت حائطاً، فأفسَدَت فيه، فَقَضى رسولُ الله ـ ﷺ ـ على أهل الحوائط حِفْظَها بالنهار، وما أفسَدَت المَواشي بالليل ضَامِنٌ على أهْلِها[٢]. وقد عُلِّل هذا الحديثُ، وقد بَسَطنا الكلام عليه في كتاب «الأحكام»، وبالله التوفيق.

وقولُه: ﴿ فَفَهَّمناها سُلَيمان وكُلًّا آتينا حُكْماً وعِلْماً ﴾، قال ابنُ أبي حاتمٍ:

حَدَّثنا أبي، حدثنا مُوسَى بنُ إسماعيل، حدثنا حَمَّاد، عن حُمَيد: أَنَّ إياسَ بنَ مُعاوِيَةَ لما استُقْضِيَ أتاه الحَسَن فبكى، قال: ما يُبكيك؟ قال: يا أبا سعيد، بَلَغني أن القضاة: رجل اجتَهَد فأخطأ فَهُو في النار، ورجُلٌ مال به الهَوى فهو في النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة. فقال الحسنُ البصري: إن فيما قَصَّ الله من نَبَإ داود وسُليمان ـ عليهما السلام والأنبياءُ ـ حُكماً يَرُدُّ قول هؤلاء الناس عن قولهم، قال الله تعالى: ﴿ وداوُدَ وسُليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نَفَشت فيه غَنمُ القوم وكُنَّا لحكمهم شاهدين ﴾، فأثنى الله على سليمان ولم يَذُمَّ داود. ثم قال ـ يعني الحسنَ ـ: إن الله اتَّخَذَ على الحُكَماءِ[٣] ثلاثاً: لا يَشْتَرُوا به ثمناً، ولا يَتَّبِعُوا فيه الهَوَى، ولا يَخْشَوا فيه أحداً، ثم تلا: ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفةً في الأرض فاحكُم بين النَّاس بالحقِّ ولا تَتَّبِع الهَوَى فَيُضِلَّكَ عن سبيل الله ﴾، وقال: ﴿ فلا تَخْشَوُا الناسَ واخْشَوْنِ ﴾، وقال: ﴿ ولا تَشْتَرُوا بِآياتي ثمناً قَليلاً ﴾.

قلتُ: أما الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فكلُّهم معصومُون مُؤَيَّدُونَ من الله عَزَّ وجلَّ، وهذا مِمَّا لا خلافَ فيه بين العلماء المحقِّقين من السَّلَفِ والخَلَفِ، وأما مَن سِواهم فقد ثَبَت في صحيح البخاري، عن عَمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا اجتهد الحاكم فأصابَ فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجرٌ»[٤] فهذا الحديث يَرُدُّ نَصّاً ما توهَّمه «إياس» من أن القاضيَ إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار، والله أعلم. وفي السُّنَنِ: «القضاةُ ثلاثةٌ: قاضٍ في الجَنَّةِ، وقاضيانِ في النَّار: رَجُلٌ عَلِم الحَقَّ وقَضَى به فَهُو في الجَنَّةِ، ورجل حَكَم بين الناس على جَهْلٍ فَهُو في النار، ورجل عَلِم الحق وقَضَى بخلافه فَهُو في النار»[٥].

وقَريبٌ من هذه القصَّةِ المذكُورَةِ في القرآن ما رواه الإمامُ أحمدُ في مُسنَدِه، حيث قال:

حدثنا علي بن حَفْصٍ، أخبرنا وَرْقاءُ، عن أبي الزناد، عن الأَعْرَجِ، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «بينما امرأتان معهما ابنان لهما، جاء الذئبُ فأخَذَ أحد الابنيـن، فتحاكمتا إلى داودَ، فَقَضى به للكبرى، فَخَرجتا. فدعاهما سليمان فقال: هاتوا السِّكين أَشُقُّه بينهما، فقالت الصُّغْرَى: يَرحَمُكَ اللهُ! هو ابنُها، لا تَشُقَّه. فقضى به للصُّغرى»[٦].

---

(١) هو: حرام بن سعد بن مُحَيِّصَة، مترجم في تهذيب الكمال ٥/٥٢٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥/٤٣٥ ـ ٤٣٦ بإسناده إلى مالك، ومعمر، وسفيان عن الزهري. وأبو داود في كتاب البيوع ٣/٢٩٨، بإسناده إلى معمر والأوزاعي، عن الزهريّ، وابن ماجه في كتاب الأحكام ٢/٧٨١ بإسناده إلى الليث بن سعد. وانظر تحفة الأشراف للمزيّ ٢/١٣ ـ ١٤.

(٣) أي: القضاة.

(٤) فتح الباري، كتاب الاعتصام ١٣/٣١٨.

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب الأقضية ٣/٢٩٩، وابن ماجه، كتاب الأحكام ٢/٧٧٦، وانظر تحفة الأشراف للمزيّ ٢/٩٤.

(٦) مسند الإمام أحمد ٢/٣٢٢. وفتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/٤٥٨، ومسلم، كتاب الأقضية ٣/١٣٤٤ ـ ١٣٤٥.

وأخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما. وبَوَّبَ النسائيُّ عليه في كتاب القَضَاء: بابُ الحاكِمِ يُوهِمُ خلافَ الحُكْمِ ليستَعلِمَ الحقَّ».

وهكذا القصة التي أوردها [الحافظ] أبو القاسم ابن عساكر في ترجمة سُلَيمان ـ عليه السلام ـ من تاريخه، من طريق الحسن بن سفيان، عن [صَفْوانَ] بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن سعيد بن بَشِير، عن قتادةَ، عن مجاهد، عن ابن عباس، فذكر قِصَّةً مُطَوَّلة، ملخَّصُها: أن امرأة حسناء في زمان بني إسرائيلَ، راوَدَها عن نفسها أربعةٌ من رُؤَسائهم، فامتنعت على كُلٍّ منهم، فاتَّفقوا فيما بينهم عليها، فَشَهدوا عليها عند داود ـ عليه السلام ـ أنها مَكَّنت من نفسها كلباً لها، قد عوَّدته ذلك منها، فَأمر برَجْمِها. فلما كان عَشِيَّةُ ذلك اليوم جَلَس سليمانُ، واجتمع معه وِلْدانٌ مِثلُه، فانتَصَب حاكماً، وتَزَيَّا أربعةٌ منهم بزيِّ أولئك، وآخر بزيِّ المرأةِ، وشَهِدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كَلْباً، فقال سليمان فَرِّقوا بينهم. فقال لأوَّلِهم: ما كانَ لونُ الكَلْبِ؟ فقال: أَسودُ فَعَزله، واستدعى الآخر فَسَأله عن لونه، فقال: أحمر. وقال الآخر: أغبش. وقال الآخر: أبيض. فأمر بِقَتْلِهِم، فَحُكِي ذلك لداود، فاستدعى من فَوْرِه بأولئك الأربعة، فسألهم مُتفرِّقين عن لون ذَلِك الكَلْبِ، فاختلَفُوا عليه، فأمر بقتلهم.

وقولُه: ﴿ وَسَخَّرنا مع داودَ الجبَالَ يُسبِّحْنَ والطَّير وكُنا فاعلين ﴾، وذلك لطيب صوته بتلاوَةِ كتابه الزَّبُور، وكان إذا تَرَنَّم به تَقِفُ الطيرُ في الهواء فَتُجَاوِبُه، وتَرُدُّ عليه الجبالَ تأويباً، ولهذا لَما مَرَّ النبيُّ ـ ﷺ ـ على أبي موسى الأشعري، وهو يتلو القرآنَ من الليل، وكان له صوتٌ طَيِّبٌ جداً، فَوَقَفَ واستَمَع لقراءته، وقال: «لقد أُوتِيَ هذا من مَزَامِيرِ آلِ دَاودَ». قال: يا رسول الله، لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تَحْبِيراً[١].

وقال أبو عثمان النَّهدي: ما سمعت صوت صَنْجٍ ولا بَرْبَطٍ ولا مِزْمَارٍ مثل صَوْتِ أبي موسى رضي الله عنه[٢]. ومع هذا قال: «لقد أُوتِيَ مِزْماراً من مزامير آل داود».

وقولُه: ﴿ وَعلَّمناه صَنْعَةَ لَبوسٍ لكم لتُحصِنَكُم[٣] من بَأْسِكُم ﴾، يعني صنعةَ الدروع.

قال قتادةُ: إنما كانت الدروعُ قَبْلَه صفائح، وهو أول من سَرَدَها[٤] حِلَقاً. كما قال تعالى: ﴿ وأَلَنَّا له الحديدَ * أن اعمَلْ سابغاتٍ وقَدِّر في السَّرْدِ ﴾، أي لا توسع الحلقة، فَتَقلَق[٥] المِسْمار ولا تُغْلِظ المِسْمارَ فَتَقُدَّ الحَلْقة، ولهذا قال: ﴿ لِتُحصِنَكم[٣] من بأْسِكم ﴾ يعني: في القتالِ، ﴿ فَهَل أنتم شاكِرُون ﴾، أي: نِعَمَ الله عليكم، لما أَلْهَمَ به عبده داودَ، فَعَلَّمه ذلك من أجلكم؟

وقولُه: ﴿ولسليمان الريحَ عاصفةً﴾، أي: وسَخَّرنا لسليمان الريحَ العاصفةَ، تجري بأمره إلى الأرضِ التي بَارَكْنا فيها ﴾، يعني أرضَ الشام، ﴿ وكُنَّا بكلِّ شيءٍ عالمين ﴾، وذلك أنه كانَ له بِسَاطٌ من خَشَبٍ يُوضَع عليه كُلُّ ما يُحتاج إليه من أُمورِ المملكة، والخَيْلِ والجمالِ والخِيَامِ والجُنْدِ، ثم يَأمُرُ الرِّيح أن تَحمِلَه

---

(١) تقدّم الحديث أول التفسير في كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة وباب من أحب أن يسمع القرآن من غيره، وخُرِّج هنالك.

(٢) أخرجه أبو عُبَيد في فضائل القرآن، وقد تقدّم الحديث أول التفسير في كتاب فضائل القرآن، وشُرِح غريبُه.

(٣) في مخطوطة الأزهر: (لِيُحْصِنَكُمْ)، بالياء. وهي قراءة الجمهور. وبالتاء قرأ ابن عامر وحفص، وبالنون قرأ أبو بكر. انظر الإقناع لابن الباذش ٧٠٣/٢.

(٤) سَرَدَ الدِّرْعَ: نسجها، فَشَكَّ طرَفَي كُلِّ حَلْقَة وسَمَّرَهما.

(٥) أي: تُحركه.

فتدخلَ تحته، ثم تحملَه فترفعه وتسيرَ به، وتُظلُّه الطير من الحر إلى حيث يشاء من الأرض، فينزلُ وتُوضَعُ آلاته وخَشَبُه، قال الله تعالى: ﴿فَسَخَّرنا له الرِّيحَ تجري بأمرِه رُخاءً حيثُ أصابَ﴾، وقال: ﴿غُدُوُّها شهرٌ ورَواحُها شهرٌ﴾.

قال ابن أبي حاتم: ذُكِر عن سفيان بن عُيَينَةَ، عن أبي سِنَانٍ، عن سَعِيد بن جُبَير قال: كان يُوضَع لسليمان ستمائة ألْف كُرسيٍّ، فيجلسُ مما يليه مؤمنو الإنس، ثم يجلس من ورائهم مُؤمِنُو الجن، ثم يأمر الطيرَ فَتُظِلُّهم، ثم يأمر الرِّيح فتحملُه ﷺ(١).

وقال عبدُ الله بن عُبَيد بن عمير: كان سليمانُ يأمر الريحَ فتَجتَمعُ كالطَّودِ العظيم ـ كالجبل ـ ثم يأمرُ بفراشه فَيُوضَع على أعلى مكانٍ منها، ثم يدعُو بفَرَسٍ من ذَوَاتِ الأجنحة فترتَفع حتى تصعَدَ على فِرَاشِه، ثم يأمُر الريحَ فترتفع به كُل شَرَفٍ دون السماء، فهو مطأطِئٌ رأسه، ما يَلْتفِتُ يميناً ولا شمالاً، تعظيماً لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وشُكراً لما يعلم من صِغَر ما هو فيه في ملك الله تعالى، حتى تَضَعَه الريح حيث يشاءُ أن تَضَعَه(٢).

وقولُه: ﴿ومن الشياطين من يَغُوصون له﴾، أي: في الماء يستخرجُون الجواهر واللآلىء، ﴿ويعمَلُون عَمَلاً دون ذلك﴾، أي: غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿والشياطينَ كُلَّ بناءٍ وَغَوَّاص * وآخرين مُقَرَّنين في الأصفادِ﴾.

وقولُه: ﴿وكنا لَهُم حافظين﴾، أي: يحرسُه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء، بل كلٌّ في قَبْضَتِه وتحت قهره، لا يتجاسَرُ أحد منهم على الدُّنُوِّ إليه والقُرب منه، بل هو يحكُم فيهم، إن شاء أطلقَ، وإن شاء حَبَس منهم من يشاء. ولهذا قال: ﴿وآخرين مُقَرَّنين في الأصفادِ﴾.

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾

يذكرُ تعالى عن أيُّوبَ ـ عليه السلام ـ ما كانَ أصابَه من البلاء في ماله وَوَلدِه وجَسَده، وذلك أنه كان له من الدوابِّ والأنعام والحَرْث شيءٌ كثيرٌ، وأولادٌ كثيرةٌ، ومنازلُ مرضيَّةٌ، فابتُلِيَ في ذلك كُلِّه وذَهَبَ عن آخره، ثم ابتُلِي في جَسَده ـ يقال بالجذام في سائر بَدَنه، ولم يبق منه سليمٌ سوى قلبِه ولسانِه، يذكر بهما الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حتى عافه الجليسُ، وأُفرِدَ في ناحيةٍ من البلد، ولم يبقَ من الناس أحدٌ يحنُو عليه سوى زوجته، كانت تقومُ بأمْره، ويقال: إنها احتاجت فَصارت تخدُمُ الناسَ من أجله، وقد قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: «أشدُّ الناس بلاءً الأنبياءُ، ثم الصالحون، ثم الأمثلُ فالأمثلُ»(٣). وفي الحديث الآخر(٤): «يُبتَلى الرجلُ على قَدْرِ دينه، فإن كان في دينه صَلابةٌ زِيدَ في بلائِه». وقد كان نبيُّ الله أيوبُ ـ عليه السلام ـ غايةً في الصَّبرِ، وبه يُضرَبُ المثَلُ في ذلك.

وقال يزيدُ بن مَيْسَرَة: لما ابتلى الله أيوبَ ـ عليه السلام ـ بذهاب الأهل والمال والوَلَد، ولم يبق له شيءٌ،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، والحاكم وصححه، عن ابن عباس. انظر الدرّ المنثور ٥/٦٥١، والمستدرك، كتاب التاريخ ٢/٥٨٩.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم. انظر الدرّ ٥/٦٥١.

(٣) أخرجه الإمام أحمد بإسناده إلى سعد بن أبي وقاص ١/١٧٢ ـ ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥. والترمذي وابن ماجه أيضاً، انظر عارضة الأحوذي، أبواب الزهد ٩/٢٤٣ ـ ٢٤٤، وابن ماجه، كتاب الفتن ٢/١٣٣٤.

(٤) كذا. وهو جُزءٌ من الحديثِ السابق.

أَحسَنَ الذِّكر، ثم قال: أَحمدُكَ ربَّ الأَرْبَابِ الذي أحسنتَ إليَّ، أعطيتَنِي المالَ والولَدَ، فلم يبقَ من قلبي شعبةٌ إلاَّ قد دَخله ذلك، فأخذْتَ ذلك كُلَّه منِّي، وفَرَّغت قلبي، ليس يحولُ بَيني وبينَكَ شيءٌ، لو يعلَم عَدُوِّي إبليس بالذِي صنعتَ حَسَدَنِي! قال: فَلَقِيَ إبليسُ من ذلك مُنكَراً(١).

قال: وقال أيوب ـ عليه السلام ـ: يا ربِّ، إنَّكَ أعطيتَنِي المالَ والولَدَ فَلَم يَقُم على بابي أحدٌ يشكُوني لظلم ظَلَمتَه، وأنت تعلم ذلك. وإنه كان يُوَطَّأُ لي الفِرَاشُ فأتركُها وأقولُ لنفسي: يا نفسُ، إنك لم تُخلَقِي لِوَطْءِ الفُرُشِ، ما تركت ذلك إلا ابتغاءَ وَجْهِكَ. رواه ابنُ أبي حاتم.

وقد ذُكِر عنِ وَهْبِ بن مُنَبِّهٍ في خَبَرِه قِصَّةٌ طويلةٌ ساقها ابنُ جرير(٢) وابنُ أبي حاتم بالسَّنَدِ عنه، وذَكَرها غيرُ واحدٍ من مُتَأخِّري المُفسِّرينَ، وفيها غَرَابَةٌ تركناها لِحَالِ الطُّولِ.

وقد رُوِي أنه مكث في البلاء مُدَّةً طويلةً، ثم اختلفوا في السبب المُهَيِّج له على هذا الدعاء، فقال الحسن وقتادةُ: ابتُلِي أيوبُ ـ عليه السلام ـ سبع سنين وأشهراً مُلْقىً على كُنَاسَةٍ لِبَنِي إسرائيلَ، تختَلِفُ الدوابُّ في جَسَدِه، فَفَرَّج الله عنه، وعَظَّم له الأجرَ، وأحسَنَ عليه الثناء.

وقال وهبُ بن مُنَبِّه: مكَثَ في البلاءِ ثلاثَ سنين، لا يَزيد ولا يَنقُصُ.

وقال السدِّيُّ: تساقَطَ لحمُ أيُّوبَ حتى لم يَبْقَ إلا العَصَبُ والعظامُ، فكانت امرأتُه تقومُ عليه وتأتيه بالرماد(٣) يكون فيه، فقالت له امرأتُه لما طَال وجَعَه: يا أيوبُ، لو دَعَوت الله فَفَرَّجَ عنك! فقال: قد عِشْتُ سبعين سنة صحيحاً، فهل قليلٌ لله أن أصبِرَ له سبعين سنةً؟ فَجزِعَتْ من ذلك فَخَرَجتْ، فكانت تعمَلُ للناس بأجرٍ وتأتيه بما تُصيب فَتُطعِمُه، وإن إبليس انطلق إلى رجلين من فِلَسْطِينَ كانا صديقَين له وأخَوين، فأتاهُمَا فقال: أخوكُما أيُّوبُ أصابَه من البلاءِ كَذَا وكَذَا، فَأْتِياه وَزُوراه واحمِلا معَكما من خمْرِ أرضكما، فإنَّه إن شَرِبَ منه بَرَأَ. فَأَتَياه، فلما نَظَرا إليه بَكَيا، فقال: من أنتما؟ فقالا: نحن فلانٌ وفلانٌ. فرحَّب بهما وقال: مرحباً بمن لا يجفُوني عند البلاء. فقالا: يا أيوبُ، لَعلَّكَ كنت تُسر شيئاً تُظهر غيره، فلذلك ابتلاكَ الله؟ فَرفَع رأسه إلى السماء ثم قال: هو يَعلَمُ، ما أسرَرتُ شيئاً أظهرتُ غيره. ولكن ربِّي ابتلاني لينظُرَ أأصبِر أم أجزَعُ؟ فقالا له: يا أيُّوبُ، اشرب من خَمرِنا، فإنك إن شَرِبْتَ منه بَرَأْتَ. قال: فَغَضِبَ وقال: جاءكما الخبيثُ فأمركما بهذا؟ كلامُكما وطعامُكما وشرابكما عليَّ حَرَامٌ؟ فقاما من عنده، وخَرجَتْ امرأتُه تعمَل للناس، فَخبزت لأهل بيتٍ لهم صبيٌّ، فَجَعلَتْ لهم قِرصَةً(٤) وكان ابنهم نائماً، فَكرِهُوا أن يُوقظُوه، فَوَهَبُوه لها. فأتت به إلى أيُّوب، فأنكره وقال: ما كُنتِ تَأتِيني بهذا، فما بالُكِ اليومَ؟ فأخبَرَته الخبرَ، قال: فَلعلَّ الصبيَّ قد استيقَظَ فطلب القُرْصَ فلم يَجِدْه، فهو يبكي على أهله. فَانْطَلِقي به إليه. فَأَقبلَتْ حتى بَلَغَتْ دَرَجَةَ القوم، فَنَطَحَتْها شاةٌ لهم فقالت: تَعِسَ أيُّوبُ الخَطَّاءُ! فلما صَعِدَتْ وَجدَتِ الصَّبي قد استيقَظَ وهو يطلب القُرْصَ، ويبكي على أهله، لا يقبلُ منهم شيئاً غَيْرَه. فقالت: رَحِم الله أيُّوبَ! فدفعت إليه القُرْصَ ورَجَعت. ثم إن إبليسَ أتاها في صُورة طبيبٍ، فقال لها: إنَّ زوجَكِ قد طال سُقمُه، فإن أراد أن يَبْرَأ فَلْيأخذ ذُبَاباً فَلْيَذْبحه باسم صَنَمِ بني فلان، فإنه يبرأُ ويتُوبُ بعد ذلك؟ فقالت ذلك لأيُّوبَ، فقال: قد أتاكِ الخبيثُ، للهِ عَلَيَّ إن بَرَأتُ أن أجلِدَكِ مائة جَلْدَةٍ! فخرجت تسعَى

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، وأبو نُعَيم، وابن عساكر. انظر الدرّ المنثور ٥/٦٥٣ ـ ٦٥٤.

(٢) تفسير الطبري ١٧/٦٦ ـ ٦٨.

(٣) في النسخ: بالزاد. والمثبت عن البداية والنهاية، ولفظها ١/٢٠٧: وبالرماد تفرشه تحته.

(٤) القِرْصَةُ: جمعُ قُرْصٍ، من الخبز وما أشبهه. ويجمع أيضاً على قِرَاصٍ، وأقراص.

عليه، فَحُظِرَ عنها الرزقُ، فجعلت لا تأتي أهلَ بَيْتٍ فَيُريدُونَها، فلما اشتدَّ عليها ذاك وخافَتْ على أَيُّوب الجوعَ، حلقت من شعرها قَرْناً[1]، فباعته من صِبْيَةٍ من بناتِ الأشراف، فأعطوها طعاماً طَيِّباً كثيراً، فأتت به أيوبَ، فلما رآه أنكره، وقال: من أين لك هذا؟ قالت: عَمِلتُ لأناس فأطعَموني. فأكل منه، فلما كان الغد خَرجت فَطَلبت أن تعمَل فلم تَجِد، فَحَلقت أيضاً قَرناً فباعَته من تلك الجارية، فأعطوها من ذلك الطَّعام، فأتت به أَيُّوبَ، فقال: والله لا أطعمُه حتى أعلَمَ من أين هو؟ فَوَضَعت خِمارها، فلما رأى رَأسها محلوقاً جَزِعَ جَزَعاً شديداً، فعند ذلك دعا رَبَّه عزَّ وجلَّ: ﴿ أَنِّي مَسَّنِي الضُّر وأَنتَ أرحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حَمَّاد، حدثنا أبو عِمْران الجَوْنيُّ، عن نَوفٍ البِكالِيِّ: أن الشيطان الذي عَرَّجَ[2] في أيوب كان يقال له: مِسْوَطُ[3] قال: وكانت امرأةُ أيوبَ تقولُ: ادعُ الله فَيَشفِيَكَ. فجعل لا يدعو، حتى مَرَّ به نفرٌ من بني إسرائيل، فقال بعضُهم لبعضٍ: ما أصابَهُ إلا بِذَنْبٍ عظيمٍ أصابَهُ. فعند ذلك قال: «رَبِّ إنِّي مَسَّني الضرُّ وأنتَ أرْحَمُ الرَّاحمينَ».

وحَدَّثنا أبي، حدثنا أبو سَلَمة، حدثنا جَرير بنُ حازم، عن عَبْدِ الله بن عُبَيد بن عُمَير قال: كان لأَيُّوبَ ـ عليه السلام ـ أَخَوانِ فجاءا يوماً فلم يستطيعَا أن يدنُوَا منه، من ريحه، فَقَاما من بَعيدٍ، فقال أحدُهما للآخَر: لو كان الله عَلِمَ من أَيُّوبَ خيراً ما ابتلاهُ بهذا، فَجزِعَ أَيُّوب من قولهما جَزَعاً لم يجزَع من شيءٍ قَطُّ، فقال: اللَهمَّ، إن كنتَ تعلمُ أني لم أبِت ليلةً قَطُّ شبعانَ وأنا أَعلمُ مكان جائع فَصَدِّقني. فَصُدِّق من السماء وهما يسمَعَان. ثم قال: اللهمَّ، إن كنتَ تعلم أني لم يَكُن لي قَميصَانِ قَطُّ. وأنا أعلم مكانَ عارٍ فَصَدِّقني فَصُدِّق من السماء وهما يسمعان، ثم قال: بِعِزَّتِك. ثم خر ساجداً، ثم قال: اللهم بعزَّتك لا أرفَعُ رَأْسِي أبداً حتى تَكْشِفَ عَنِّي. فما رَفَع رأسه حتى كَشَف عنه[4].

وقد رواه ابنُ أبي حاتم من وَجْهٍ آخرَ مرفوعاً بنحو هذا فقال:

أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرناابنُ وهب، أخبرني نافعُ بن يزيدَ، عن عُقَيلٍ، عن الزُّهريِّ، عن أَنَس ابن مالك، أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: إنَّ نَبيَّ الله أيوب لَبِثَ به بلاؤُه ثماني عشرةَ سنةً، فَرَفَضه القريبُ والبعيدُ، إلَّا رَجُلين من إخوانه، كانا من أخصِّ إخوانه له، كانا يغدُوان إليه ويرُوحَان، فقال أحدُهما لصاحِبِه: تَعلَّم ـ والله ـ لقد أذنَب أَيُّوبُ ذنباً ما أذنَبه أحدٌ من العالمين. فقال له صاحبُه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرةَ سنةً لم يَرْحمْه الله فَيَكشِفَ ما به. فلما راحا إليه لم يَصْبِر الرجلُ حتى ذَكَر ذلك له، فقال أَيُّوبُ عليه السلام: لا أدري ما تقول، غير أن الله عزَّ وجلَّ يعلم أني كنتُ أَمُرُّ على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فَأَرْجِعُ إلى بيتي فَأُكَفِّر عنهما كراهةَ أن يَذْكُرا اللهَ إلا في حَقٍّ. قال: وكان يخرُج في حاجَتِهِ، فإذا قَضاها أَمسكَتِ امرأتُه بيدِه حتى يبلُغَ، فَلَمَّا كان ذاتَ يوم أبطأت عليه، فأوحَى إلى أَيُّوبَ في مكانِهِ: أن اركُضْ برجلك، هذا مُغتَسَلٌ باردٌ وشَرَابٌ.

رَفْعُ هذا الحديثِ غريبٌ جدّاً.

---

(١) القَرْنُ: الخُصْلَةُ مِن الشَّعر.

(٢) لم أجد معنى لعَرَّج نصّاً في هذا السياق، والذي في الدرّ المنثور في تفسير سورة (ص) ١٩٣/٧ عن ابن أبي حاتم: «الشيطانُ الذي مَسَّ أيوبَ يقال له: مسوط». لكن يقال: «عَرَّج عليه». عطف. وعَرَّج بالمكان: أقام». فلعلّ معنى «عَرَّج في أيوب»: لزمه وحلّ به.

(٣) كذا في أصلنا: مِسْوطُ، ومثله في روح المعاني ٢٠٦/٢٣. وكان معتمدنا في ضبطه حديث سَوْدَةَ: «إني أخاف عليكم المِسْوَطَ»، يعني الشيطان، سُمّي به من ساط القِدْر بالمِسْوَطِ والمِسْواطِ، وهو خشبةٌ، يحرّك بها ما فيها ليختلط». انظر اللسان: سوط.

(٤) الدرّ المنثورُ ٦٥٤/٥، وأخرجه ابن جرير بإسناده إلى جرير، نحوه ٧١/١٧.

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي: حدثنا موسى بن إسماعيلَ، حدثنا حَمَّادُ، أخبرنا عليُّ بن زيدٍ، عن يوسف بـن مهران، عن ابن عباس، قال: وألبسه الله حُلَّةً من الجنة، فتنحَّى أيوبُ فجَلَس في ناحية، وجاءت امرأتُه فلم تَعرفه، فقالت: يا عبدَ الله، أين ذَهَب هذا المُبتَلَى الذي كان هاهنا؟ لعلَّ الكلابَ ذَهَبت به أو الذئابُ، فَجعلَت تُكلِّمه ساعةً، فقال: ويحك! أنا أيُّوبُ! قالت: أتَسْخَرُ مِنِّي يا عبد الله؟ فقال: أنا أيوب، قد رَدَّ الله عَلَيَّ جَسَدِي.

وبه قال ابن عباس: وَرَدَّ عليه مالَه وَوَلَده عياناً، ومِثْلَهم معهم.

وقال وَهْبُ بن مُنبِّه: أوحى الله إلى أَيُّوبَ: قد رَدَدْتُ عليك أهلك ومالك ومثلهم مَعَهم، فاغتسل بهذا الماءِ، فإن فيه شفاءَك، وقرِّب عن صاحبتك قُرباناً، وَاسْتَغفِرْ لهم، فإنهم قد عَصَوني فيك. رواه ابن أبي حاتم.

وقال أيضاً: حَدَّثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا هَمَّام، عن قتادةَ، عن النَّضر بن أنس، عن بَشير بن نَهيكٍ، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «لما عافى الله أيُّوبَ أمطرَ عليه جَراداً من ذَهَبٍ فجعَلَ يأخذُ بيدِهِ ويجعَلُه في ثَوْبِهِ، قال: فَقِيلَ له: يا أيُّوبُ، أما تَشْبَعُ؟ قال: يا رَبِّ وَمَن يَشْبَع من رَحْمَتِكَ[(١)]»؟!

أصله في الصَّحِيحَين، وسيأتي في مَوْضِعٍ آخَرَ.

وقولُه: ﴿ وآتيناه أهلَه ومثلَهم مَعَهُم ﴾، قد تَقَدَّم عن ابن عباس أنه قال: رُدُّوا عليه بأعيانِهم. وكذا رواهُ العَوفي، عن ابن عباس أيضاً، ورُوِي مثله عن ابن مسعود ومجاهد. وبه قال الحسنُ وقتادةُ.

وقد زَعَم بعضُهم أن اسم زَوْجَتِه رَحمةُ، فإن كان أخذ ذلك من سياق الآية فقد أبعد النُّجْعَةَ، وإن كان أخذَه من نقل أهل الكتاب، وصَحَّ ذلك عنهم، فهو مما لا يُصدَّق ولا يكذب. وقد سماها ابن عساكر في تاريخه ـ رَحِمَه الله تعالى ـ قال: ويُقال: اسمُها لَيَّا ابنةُ مِنَشَّا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، قال: ويقال: لَيَّا بنتُ يعقوبَ عليه السلام، زوجةُ أيُّوبَ، كانت معه بأَرْضِ البَثَنِيَّةِ[(٢)].

وقال مجاهدٌ: قيل له: يا أيُّوبُ، إن أهلَكَ لَكَ في الجنَّةِ، فإن شِئْتَ أتيناكَ بهم، وإن شِئْتَ تَركناهم لَكَ في الجَنَّة، وعَوَّضْناكَ مثلهم؟ قال: لا بل اترُكْهُم لي في الجنة. فتُركوا له في الجنة وعُوِّض مِثْلَهم في الدنيا.

وقال حَمَّاد بن زيد، عن أبي عِمْرانَ الجَوْني، عن نَوفٍ البِكَالِيِّ قال: أُوتِيَ أجْرَهم في الآخرة، وأعطِيَ مثلهم في الدنيا. قال: فَحَدَّثْتُ به مُطَرِّفاً، فقال: ما عَرَفْت وجهها قبلَ اليوم[(٣)].

وهكذا رُوِيَ عن قَتادَةَ، والسدِّيِّ، وغير واحد من السَّلَفِ، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ رحمةً من عندنا ﴾، أي: فَعَلنا به ذلك رحمةً من الله به، ﴿ وذِكْرَى للعابدين ﴾، أي: وجعلناه في ذلك قدوةً، لئلا يَظُنَّ أهلُ البلاءِ أنَّما فعلنا بهم ذلك لِهَوَانهم علينا، وليتَأسَّوا به في الصَّبر على مَقدُوراتِ الله وابتلائِه لعبادِه بما يشاء، وله الحكمةُ البالغةُ في ذلك.

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

---

(١) أخرجه الحاكم بإسناده إلى عمرو بن مرزوق، مثله. انظر المستدرك، كتاب التاريخ ٢/٥٨٢.
(٢) البَثَنِيَّة: قرية بين دمشق وأذرعات.
(٣) الدرّ المنثور عن ابن أبي حاتم وابن المنذر ٥/٦٥٤.

أما إسماعيلُ فالمرادُ به ابنُ إبراهيمَ الخليل عليهما السلام، وقد تَقَدَّم ذكرُه في سُورَة مريم، وكذلك إدريسُ عليه السلام.

وأما ذُو الكِفْلِ فالظاهرُ من السياق أنه ما قُرِنَ مع الأنبياء إلا وهو نبي. وقال آخرون: إنما كان رجلاً صالحاً، وكانَ مَلِكاً عادلاً، وحكماً مُقسِطاً. وتوقَّف ابنُ جريرٍ في ذلك، فالله أعلم.

وقال ابنُ جُرَيج، عن مجاهد في قوله: ﴿ وذَا الكفل ﴾، قال: رجلٌ صالح غيرُ نَبيٍّ، تَكَفَّل لِنبيٍّ قومه أن يكفيه أَمْرَ قومه ويُقيمهم له، ويَقْضِي بينهم بالعَدْلِ، ففعَلَ ذلك، فَسُمِّي: ذا الكِفْلِ. وكذا روىَ ابن أبي نَجِيح، عن مُجاهدٍ أيضاً.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عَفَّان، حدثنا وُهَيْب، حدثنا داودُ، عن مجاهدٍ قال: لما كَبِر اليَسعُ قال: لو أني استخلفتُ رَجُلاً على الناس يعمَلُ عليهم في حياتي، حتى أنظُرَ كيفَ يعملُ؟ فجمَعَ الناسَ، فقال: مَن يَتقبَّلُ[١] بثلاثٍ: أستخلِفُه بِصَوْمِ النَّهارِ، ويَقُومُ الليلَ، ولا يغضَبُ؟ قال: فقام رجلٌ تزدَريه العينُ، فقال: أنا. فقال: أنت تصومُ النهار، وتقومُ الليلَ، ولا تغضَبُ؟ قال: نعم. قال: فَردَّهم ذلك اليوم، وقال مثلَها في اليوم الآخر، فسكَت الناسُ، وقام ذلك الرجل وقال: أنا. فاستخلَفه، قال: وجعل إبليسُ يقولُ للشياطين: عليكُم بفُلانٍ. فأعياهم ذلك الرَّجُلُ، قال: دعُوني وإياه، فأتاه في صُورة شيخٍ كبيرٍ فقيرٍ، فأتاه حين أخذ مضجعه للقائلةِ ـ وكان لا ينامُ الليل والنهار إلا تلك النومةَ ـ فَدَقَّ الباب، فقال: من هذا؟ قال: شيخٌ كبيرٌ مظلومٌ. قال: فقام ففتح الباب، فجعل يقصُّ عليه، فقال: إن بيني وبين قومي خصومةً وإنهم ظَلَموني، وفعلوا بي وفعلوا. وجعل يُطَوِّل عليه حتى حَضَر الرَّواحُ وذَهبتِ القائلةُ، فقال: إذا رُحتُ فأتني آخذ لك بحقِّك. فانطلق، وراح، فكان في مجلسه، فجعل ينظر هل يَرَى الشيخَ؟ فلم يَرَه، فقام يَتْبَعُه[٢]، فلما كان الغدُ جعل يقضي بين الناس، وينتظره ولا يَراه، فلما رَجَع إلى القائلة فأخذ مَضْجَعه أتاه فَدَقَّ الباب، فقال: من هذا؟ قال: الشيخ الكبير المظلومُ. ففتح له فقال: ألم أقل لك. إذا قعدتُ فَأْتِني؟ قال: إنهم أخبثُ قومٍ، إذا عَرَفوا أنك قاعد قالوا: نحن نعطيك حقك وإذا قمتُ جَحَدوني. قال: فانطلِقْ، فإذا رحتُ فَأْتِني. قال: ففاتته القائلة، فراح، فجعل ينتظره ولا يراه، وشَقَّ عليه النُّعاسُ، فقال لبعض أهله: لا تَدَعَنَّ أحداً يَقرُب هذا البابَ حتى أنام، فإني قد شَقَّ عليَّ النوم. فلما كان تلك الساعةُ أتاه فقال له الرجلُ: وراءَكَ وراءَكَ.[٣] فقال: إني قد أتيتُه أمس فذكرت له أمري. فقال: لا، والله لقد أمرنا ألَّا نَدَعَ أحداً يَقرَبُه. فلما أعياه نظر فرأى كُوَّةً في البيت، فَتسوَّرمنها، فإذا هو في البيت، وإذا هو يَدُقّ الباب من داخل، قال: فاستيقظَ الرجلَ[٤] فقال: يا فلانُ، ألم آمرْكَ؟ فقال: أما من قِبَلِي والله فلم تُؤتَ، فانظر مِنْ أَيْنَ أُتيتَ؟ قال: فَقَامَ إلى الباب فإذا هو مُغلَقٌ كما أغلقَه، وإذا الرجلُ معه في البيتِ، فعرفَه، فقال: أعدوُّ الله؟ قال: نعم، أعييتَنِي في كلِّ شيءٍ، ففعلتُ ما تَرَى لأُغضِبَكَ. فسمَّاه الله ذا الكِفْلِ، لأنه تكفَّلَ بأمرٍ، فَوَفَى به[٥].

وهكذا رواه ابنُ أبي حاتم، من حديث زُهَير بن إسحاقَ، عن داودَ، عن مُجاهدٍ، بمثلِه.

---

(١) أي: يتكَفَّل.

(٢) أي: يسير وراءه ويَتَطلَّبُهُ. وفي تفسير الطبري: «فجعل يَبْتَغيه». وفي الدرّ المنثور: «فقام يبغيه».

(٣) أي: تأخر.

(٤) أي: أيْقظه.

(٥) تفسير الطبري ١٧/٧٤، والدرّ المنثور ٥/٦٦١ـ٦٦٢.

وقال ابنُ أبي حاتمٍ: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن مسلم قال: قال ابن عباس: كان قاضٍ في بني إسرائيل فَحَضَره الموتُ، فقال: مَن يقومُ مَقامي على ألَّا يغضَبَ؟ قال: فقال رجلُ: أنا. فَسُمِّي ذا الكِفْل. قال: فكان ليلُه جميعاً يصلِّي، ثم يُصبحُ صائماً فيقضي بين الناس ـ قال: وله ساعةٌ يَقِيلُها ـ قال: فكان كذلك، فأتاه الشيطانُ عند نَوْمَتِه، فقال له أصحابه: ما لك؟ قال: إنسان مسكين، له على رجل حقٌّ، وقد غلبني عليه. قالوا: كما أنت حتى يستيقظ ـ قال: وهو فوقُ نائمٌ ـ قال: فجعَلَ يَصِيح عمداً حتى يُوقِظَه، قال: فَسَمِعَ، فقال: ما لَكَ؟ قال: إنسانٌ مسكينٌ، له على رجُلٍ حق. قال: اذهب فقل له يُعطِيك. قال: قد أبى. قال: اذهَبْ أنت إليه. قال: فذهب، ثم جاء من الغد، فقال: ما لك؟ قال: ذهبتُ إليه فلم يرفع بكلامِكَ رأساً. قال: اذهَبْ إليه فقل له يُعطيك حَقَّك. قال: فذَهَب، ثم جاء من الغد حين قال[١]، قال: فقال له أصحابه: اخرُج، فَعَلَ الله بك، تجيء كُلَّ يوم حين ينامُ، لا تَدَعُهُ ينام؟ فجعل يَصِيح: من أجل أنِّي إنسان مسكين، لو كُنت غنياً؟ قال: فَسَمع أيضاً، فقال: ما لك؟ قال: ذهبتُ إليه فَضَرَبني. قال: امشِ حتى أجيءَ معك. قال: فهو ممسكٌ بيده، فلما رآه ذَهَب معه نَثَر يدَه منه، فَفَرَّ[٢].

وهكذا رُوِي عن عبد الله بن الحارث، ومُحمَّد بن قَيسٍ، وابنِ حُجَيرةَ الأكبر، وغيرهِم من السَّلَفِ نحوٌ من هذه القصَّةِ، والله أعلم.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجُمَاهِر، أخبرنا سعيد بن بشير، حدثنا قتادة، عن (أبي)[٣] كنانة الأخنس قال: سمعت الأشعري وهو يقول على هذا المنبر: ما كان ذو الكفل بنبي، ولكن كان ـ يعني في بني إسرائيل ـ رجل صالح يصلي كل يوم مائة صلاة، فتكفل له ذو الكفل من بعده، فكان يصلي [كل يوم] مائة صلاة، فسمي ذا الكفل.

وقد رواه ابنُ جَرير من حديث عبد الرزَّاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادَةَ قال: «قال أبو موسى الأشعري....». فذكره منقطعاً[٤]، والله أعلم.

وقد رَوَى الإمام أحمد حديثاً غريباً فقال:

حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمشُ، عن عبد الله بن عبد الله، عن سَعْدٍ مولى طلحة، عن ابن عُمَر قال: سَمِعتُ من رسولِ الله ـ ﷺ ـ حديثاً لو لم أسمعه إلا مَرَّةً أو مَرَّتين ـ حتى عدَّ سبع مرات ـ ولكن قد سَمِعتُهُ أكثَرَ من ذلك، قال: كان الكِفْل من بني إسرائيل، لا يتورَّعُ من ذَنْبٍ عَمِله، فأتته امرأةٌ فأعطاها ستين ديناراً على أن يَطَأها، فلما قَعَد منها مَقعدَ الرجل من امرأته، أُرْعِدَتْ[٥] وبَكَتْ، فقال: ما يُبكيكِ؟ أكرَهْتُكِ؟ قالت: لا، ولكن هذا عملٌ لم أعْمَله قطّ، وإنما حَمَلَني عليه الحاجةُ، قال: فتفعلين هذا ولم تفعليه قَطُّ؟! ثم نَزَلَ فقال: اذهَبِي فالدَّنانيرُ لَكِ. ثم قال: واللهِ لا يَعصِي اللهَ الكِفْلُ أبداً. فماتَ من ليلتِهِ، فأصبحَ مكتُوباً على بابِهِ: قد غَفَر الله للكِفْل[٦].

هكذا وقع في هذه الرواية: «الكفل»، من غير إضافةٍ، فالله أعلم. وهذا الحديث لم يُخرِّجه أحدٌ من

(١) قال يقيل قيلاً: نام نصف النهار.
(٢) الدر المنثور ٥/٦٦٢ ـ ٦٦٣.
(٣) في النسخ: ابن كنانة. وفي تهذيب التهذيب ١٢/٢١٣ أن أبا كنانة القرشي يروي عن أبي موسى. ـ س ـ.
(٤) تفسير الطبري ١٧/٧٥.
(٥) أي: أخذتها الرِّعدة، والرِّعْدَة: اضطراب الجسم من فَزَعٍ أو حُمَّى أو غيرهما.
(٦) مسند أحمد ٢/٢٣.

أصحاب الكتب الستة(١)، وإسناده غريبٌ، وعلى كلِّ تقديرٍ فلفظُ الحديثِ إن كان «الكفل»، ولم يقل: «ذو الكفل»، فلعلَّه رَجُلٌ آخرُ، والله أعلم.

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ ﴾

هذه القصَّةُ مذكورةٌ هاهنا وفي سورة «الصافات» وفي سُورَةِ «نٓ»، وذلك أن يونس بن مَتَّى - عليه السلام - بعثه الله إلى أهل قرية «نِينَوى»، وهي قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله، فأبوا عليه وتمادَوا على كُفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم، ووعَدَهم بالعذاب بعد ثلاث. فلما تحقَّقُوا منه ذلك، وعلموا أن النبيَّ لا يكذب خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفرَّقوا بين الأمهات وأولادها، ثم تضرَّعوا إلى الله عزَّ وجلَّ، وجأروا إليه، ورَغَتِ الإبل وفُصلانها، وخارت البَقَرُ وأولادها. وثَغَتِ الغَنَم وحُمْلانُها. فرفع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: ﴿ فلولا كانت قريةٌ آمنت فنفعها إيمانها إلا قَوْمَ يونس لما آمنوا كَشَفنا عنهم عَذابَ الخِزْيِ في الحياة الدنيا ومَتَّعناهم إلى حِين ﴾.

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم سَفِينةٍ فَلَجَّجَتْ بهم وخافوا أن تَغْرَق بهم، فاقترعوا على رجل يُلقونَه من بينهم يَتخفَّفُونَ منه، فوقَعَت القرعةُ على يونُس، فأَبوا أن يُلقوه، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، فأبوا. ثم أعادُوا القُرعَةَ فوقَعَت عليه أيضاً، قال الله تعالى: ﴿ فساهم فكان من المُدْحَضِين ﴾، أي: وقعت عليه القُرعَةُ، فقام يونس - عليه السلام - وتَجرَّد من ثيابه، ثم ألقى نفسه في البحر، وقد أرسل الله - سبحانه وتعالى - من البحر الأخضر - فيما قاله ابنُ مسعود - حُوتاً يَشُقُّ البِحار، حتى جاء فالتقم يونُس حين ألقى نفسه من السفينة، وأوحى الله إلى ذلك الحوت ألَّا يأكُلَ له لحماً، ولا يهشِم له عَظماً؛ فإن يونس ليس لك رِزْقاً، وإنما بطنُك يكون له سِجناً.

وقولُه: ﴿ وذا النُّون ﴾، يعني الحُوتَ، صحت الإضافة إليه بهذه النِّسبة.

وقولُه: ﴿ إذ ذَهَب مُغاضباً ﴾، قال الضحاكُ: لقومه، ﴿ فظنَّ أن لن نَقدِرَ عليه ﴾ أي: نُضَيِّقَ عليه في بطن الحُوتِ. يُروَى نحوُ هذا عن ابن عباس، ومجاهد، والضَّحَّاك، وغيرهم، واختاره ابنُ جرير، واستشهَدَ عليه بقوله تعالى: ﴿ومن قُدِر عليه رزقُه فلينفق مما آتاه الله لا يُكلِّفُ الله نَفْساً إلا ما آتاها سيجعَلُ الله بعد عُسْر يسرا ﴾.

وقال عطية العَوفي: ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾، أي: نَقْضِي عليه، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير، فإن العرب تقول: قَدَر وقَدَّر بمعنى واحد، قال الشاعر(٢):

فَلا عائدٌ ذاكَ الزَّمانُ الذي مَضى ... تبارَكْتَ، ما تَقْدِرْ يَكُنْ، فَلَكَ الأَمْرُ

---

(١) أخرجه الترمذي في أبواب صفة القيامة، عارضة الأحوذي ٩/٣٠٥-٣٠٧. والحاكم وصحّحه، المستدرك، كتاب التوبة والإنابة ٤/٢٥٤ - ٢٥٥، ورواه ابن حبان من غير هذه الطريق في كتاب البرّ والإحسان، انظر: الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١/٣٠٢.

(٢) أنشده ثعلب مع بيت آخر، وروايتهما كما في تفسير القرطبي ١١/٣٣٢:

فَلَيْتَ عشيَّاتُ اللِّوى برواجعٍ ... لنا أبداً ما أورق السَّلَم النَّضْر
ولا عائدٌ ذاكَ الزَّمانُ الذي مضى ... تباركت، ما تقدر يقع ولك الشكر

ومنه قولُه تعالى: ﴿ فَالتقى الماءُ على أمْرٍ قد قُدِر ﴾، أي: قُدِّر.

وقولُه: ﴿فنادَى في الظُّلُمات أن لا إلّه إلا أنتَ سُبحانَكَ إني كنتُ من الظَّالمين﴾، قال ابنُ مسعود: ظلمةُ بطنِ الحُوتِ، وظلمةُ البحرِ، وظلمةُ الليل. وكذا رُوِي عن ابن عباس، وعَمرو بن ميمون، وسعيد بن جُبَير، ومحمد بن كعب، والضحاك، والحسن، وقتادةَ.

وقال سالم بن أبي الجعد: ظُلْمَةُ حُوتٍ، في بَطْن حُوتٍ آخَرَ، في ظُلْمَةِ البحر.

قال ابن مسعود، وابنُ عباس وغيرهما. وذلك أنه ذَهَب به الحوتُ في البحار يَشُقُّها، حتى انتهى به إلى قرار البحر حتى سَمِع يونُس تسبيحَ الحَصَى في قَرَارِه، فعند ذَلكَ وهنالكَ قال: ﴿ لا إلّه إلا أنت سُبحانك ﴾.

وقال عوف الأعرابي: لما صار يونُس في بَطنِ الحوت ظن أنه قد مات، ثم حَرَّك رجليه فلما تَحرَّكت سجد مكانه، ثم نادى، يا ربِّ، اتخذتُ لك مسجداً في موضع ما اتَّخذه أحد[٢]..

وقال سعيدُ بن أبي الحَسَن البصري: مكث في بطن الحوت أربعين يوماً. رواهما ابن جَرير[١].

وقال محمدُ بن إسحاقَ بن يَسَارٍ، عَمَّن حَدَّثه، عن عبد الله بن رافع ـ مولى أُمِّ سَلَمة ـ سَمِعتُ أبا هُرَيرة يقول: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «لما أراد الله حَبْسَ يُونُسَ في بطن الحُوتِ، أوحى الله إلى الحُوتِ أن خُذْه ولا تخدَش لحماً ولا تكسر عَظماً. فلما انتهى به إلى أسفلِ البَحْرِ سمع يونس حِسّاً، فقال في نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه، وهو في بَطنِ الحُوتِ: إن هذا تسبيحُ دَوَابِّ البحر. قال: فَسبَّح وهو في بطن الحوت، فَسمِع الملائكةُ تسبيحَه فقالوا: يا رَبَّنا إنا نسمعُ صوتاً ضَعيفاً بأرض غريبة! قال: ذلك عبدي يونُس، عَصَاني فحبسته في بَطْنِ الحُوتِ في البحر. قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعَدُ إليك منه في كل يوم وليلة عملٍ صالح؟ قال: نعم. قال: فَشفَعُوا له عند ذلك، فأمر الحوتَ فَقَذفه في الساحِلِ، كما قال الله عزَّوجلَّ: ﴿ وهو سَقِيم ﴾.

رواه ابنُ جرير[٢]، ورواه البَزَّار في مُسنَده، من طريق محمد بن إسحاقَ، عن عبد الله بن رافع، عن أبي هُرَيرة، فَذَكَرَهُ بنحوه، ثم قال: «لا نعلمه يُروَى عن النبي ـ ﷺ ـ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد»[٣]. وَرَوى ابن عبد[٤] من حديث شعبة، عن عمرو بن مُرَّة، عن عبد الله بن سَلَمَة[٥]، عن علي مرفوعاً: «لا ينبغي لعبد أن يقول: «أنا خير من يونس بن متى، سَبَّح لله في الظلمات».

[وقد رُوِي هذا الحديث] بدون هذه الزيادة، من حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ، وابنِ مسعُودٍ، [وعبد الله بن جعفر]، وسيأتي أسانيدُها في سورة «نٓ».

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو عُبَيد[٦] الله أحمد بن عبد الرحمن ابن أخي ابن وهب، حدثنا عمِّي: حدثني أبو صَخْرٍ أن يزيد الرَّقَاشِيَّ حَدَّثه قال: سمعتُ أنس بن مالك ـ ولا أعلم إلا أن أنساً يرفَعُ الحديثَ إلى

---

(١) تفسير الطبري ١٧/٨١، ٧٩.

(٢) تفسير الطبري ١٧/٨١.

(٣) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٣/٦٧ ـ ٦٨.

(٤) بعد كلمة «عبد» بياض في الأصل بمقدار كلمة. وفي مخطوطة الأزهر: «وروى ابن عبد الحق».

(٥) في النسخ: عبدالله بن مسلم. وهو خطأ. وعبدالله بن سلمة هو المرادي الكوفي.

(٦) في النسخ: «أبو عبدالله». وانظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢/٥٩ ـ ٦٠، والمغني للذهبي ٣٨٠.

رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن يونُسَ النبي ـ عليه السلام ـ حين بدا له أن يدعُوَ بهذه الكلمات وهو في بَطنِ الحُوتِ، قال: ﴿ اللَّهُمَّ، لا إلَه إلا أنتَ، سبحانَكَ، إني كنت من الظالمين»، فأقبلت هذه الدعوة تَحُفُّ بالعرش، فقالت الملائكة: يا رَبِّ، صوتٌ ضعيفٌ معروفٌ من بلاد غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذاك؟ قالوا: لا، يا رَبَّنا، ومَن هُوَ؟ قال: عبدي يونس. قالوا: عبدُك يونس الذي لم يَزَل يرفَعُ له عَمَلاً مُتَقَبَّلاً، ودعوةً مجابةً؟! [قال: نعم][1]. قالوا: يا ربِّ أفلا ترحَمُ ما كان يَصْنَعُ[2] في الرخاء فتنجيَه من البلاء؟ قال: بلى. فَأَمَرَ الحُوتَ فَطَرحه في العَرَاءِ[3].

وقولُه: ﴿ فاستجَبْنَا له ونَجَّيناه من الغَمِّ ﴾، أي: أخرجناه من بَطْنِ الحُوتِ وتلك الظُّلُماتِ، ﴿ وكذلك نُنجِي المؤمنين ﴾، أي: إذا كانوا في الشدائد ودَعَونا مُنِيبين إلينا، ولاَ سِيَّما إذا دَعَوا بهذا الدُّعاءِ في حال البلاء، فقد جاء الترغيب في الدعاء بها عن سَيِّد الأنبياء، قال الإمام أحمد:

حدثنا إسماعيل بن عُمَر، حدثنا يُونُس بن أبي إسحاقَ الهَمْدَانِيُّ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد، حدثني والدي محمد، عن أبيه سَعْدٍ ـ وهو ابنُ أبي وَقَّاص ـ قال: مَرَرْتُ بعثمانَ بن عَفَّان ـ رضي الله عنه ـ في المسجد، فَسلَّمتُ عليه فَملأ عينَيه مني ثم لم يَرْدُدْ عليَّ السَّلام، فأتيت عُمَر بن الخطاب فقلت: يا أميرَ المؤمنين، هل حَدَث في الإسلام شيءٌ؟ مَرَّتين، قال: لا، وما ذاك؟ قلتُ: لا، إلا أنِّي مررتُ بعثمان آنِفاً في المسجدِ، فَسلَّمت عليه، فملأ عينَيه مِنِّي، ثم لم يَرْدُد عَلَيَّ السَّلاَمَ: قال: فأرسل عُمَر إلى عثمانَ فدعاه، فقال: ما مَنَعك ألاَّ تكونَ رَدَدْتَ على أخيكَ السلامَ؟ قال: ما فعلتُ. قال سعدٌ: قلتُ: بلى. حتى حَلَفَ وحَلَفْتُ، قال: ثم إنَّ عثمانَ ذَكَرَ فقال: بلى، وأستغفرُ الله وأتوبُ إليه، إنَّكَ مَرَرْتَ بي آنفاً وأنا أحدِّثُ نفسي بكَلمة سَمِعتُها من رسولِ الله ـ ﷺ ـ لا والله ما ذكرتها قطُّ إلا تَغْشَى بَصَري وقلبي غِشَاوةٌ. قال سعدٌ: فأنا أُنبئُك بها، إنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ ذَكَر لنا أَوَّلَ دَعْوَةٍ، ثُمَّ جاء أعرابي فَشغَله، حتى قامَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ فاتَّبعتُه، فلما أشفقتُ أن يَسْبِقني إلى مَنْزِله ضَرَبْتُ بقَدمِي الأرض، فالتفت إليَّ رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال: من هذا؟ أبو إسحاق[4]؟ قال قلت: نَعَم، يا رسول الله. قال: فَمَه[5]؟ قلت: لا والله، إلا أَنَّك ذكرتَ لنا أَوَّل دَعْوَةٍ، ثم جاء هذا الأعرابيُّ فشغَلَكَ. قال: نَعَم، دعوةُ ذِي النُّونِ، إذ هُوَ في بَطْنِ الحُوتِ: ﴿لا إلَه إلا أنتَ سُبحَانَكَ إنِّي كنتُ من الظَّالمينَ﴾، فإنه لم يدعُ بها مسلمٌ ربَّه في شَيْءٍ قطُّ إلاَّ استجاب له»[6].

ورواه الترمذي والنسائي في «اليوم والليلة»، من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد، عن أبيه، عن سعد، به[6].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجُّ، حدثنا أبو خالدِ الأحمرُ، عن كَثير بن زيد، عن المطلب بن حَنْطَبٍ ـ قال أبو خالد: أحسبه عن مُصعَبٍ ـ يعني ابن سَعْدٍ ـ عن سَعْدٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: من دعا بدعاءِ يونُس استُجيبَ له. قال أبو سعيد: يُريد به ﴿ وكَذَلِكَ نُنجِي المُؤمِنِينَ ﴾.

---

(١) عن الدرّ المنثور.

(٢) في النسخ: يصنعه.

(٣) الدرّ المنثور ٥/٦٦٨.

(٤) أبو إسحاق: كنية سعد بن أبي وقاص.

(٥) أي: ما شانك وما خبرك؟.

(٦) مسند أحمد ١/١٧٠، وعارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ١٣/٣٣ ـ ٣٤.

وقال ابن جرير: حدثني عمران بن بَكّار الكَلاعِيُّ، حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن، حدثني بِشْر بن منصور، عن علي بن زَيدٍ، عن سعيد بن المُسَيَّب قال: سَمِعتُ سعدَ بن مالك ـ وهو ابن أبي وَقَّاص ـ يقول: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: اسمُ الله الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى، دعوةُ يونس بن مَتّى. قال: قلت: يا رسول الله، هي ليونُسَ خاصَّةً أم لجماعة المسلمين؟ قال: هي ليونُسَ بن مَتّى خاصّةً وللمؤمنين عامّةً إذا دَعَوا بها، ألم تسمَع قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُماتِ أن لا إله إلا أنت سبحانَكَ إنّي كنتُ من الظالمين * فاستجبنا له ونجّيناه من الغم وكذلك نُنْجي المؤمنين ﴾. فهو شَرْطٌ من الله لمن دعاه به[1].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي سُرَيج، حدثنا داود بنُ المُحَبَّر بن قَحْذَم المَقْدِسيُّ، عن كَثِير بن مَعْبَدٍ[2] قال: سألتُ الحسَن، قلت: يا أبا سَعيد، اسمُ اللهِ الأعظَمُ الذي إذا دُعِي به أجابَ، وإذا سُئِل به أعْطى؟ قال: ابن أخي، أما تقرأ القرآن؟ قولَ الله عَزَّ وجلّ: ﴿ وذَا النُّونِ إذا ذَهَبَ مُغاضِباً ﴾ إلى قوله: ﴿ المُؤمِنِينَ ﴾، ابنَ أخي، هذا اسمُ الله الأعظمُ، الذي إذا دُعِيَ به أجابَ، وإذا سُئِل به أعطى[3].

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

يُخبِرُ تعالى عن عبده زَكَرِيًّا، حين طَلَب أن يَهَبَه الله وَلَداً، يكونُ من بعده نبيّاً. وقد تَقَدَّمت القصة مبسوطةً في أول سورة «مريم» وفي سورة «آل عمران» أيضا، وهاهنا أخصَرُ منهما، ﴿ إذ نادى ربَّه ﴾، أي: خِفْيَةً عن قومه: ﴿ رَبِّ لا تَذَرْني فَرداً ﴾، أي: لا ولدَ لي ولا وارِثَ يقومُ بَعدي في النّاس، ﴿ وأنت خيرُ الوارثِينَ ﴾، دعاءٌ وثناءٌ مناسبٌ للمسألة. قـال الله تعالى: ﴿ فَاستَجَبْنَا له وَوَهبنا لَه يَحيى وَأَصْلَحنا له زَوْجَه ﴾ أي: امرأتَه. قال ابن عباس، ومجاهد، وسَعِيد بن جُبَير: كانت عاقراً لا تَلِد، فولدت. وقال عبد الرحمن بن مَهديٍّ، عن طلحة بن عمرو، عن عطاءٍ: كان في لسانها طولٌ فأصلحها الله. وفي روايةٍ: كان في خَلْقها شيءٌ فأصلحها الله. وهكذا قال محمد بن كعب، والسُّدّي. والأظهرُ من السياق الأولُ.

وقولُه: ﴿ إنّهم كانوا يُسَارِعُون في الخَيرات ﴾، أي: في عَمَل القُرُبات وفِعْل الطاعات، ﴿ ويَدعُونَنا رَغَباً ورَهَباً ﴾، قال الثوريُّ: ﴿ رَغَباً ﴾ فيما عندنا، و﴿ رَهَباً ﴾ مما عندنا، ﴿ وكانوا لنَا خاشِعينَ ﴾. قال علي ابن أبي طلحةَ، عن ابن عَبّاس: أي مُصَدِّقين بما أنزَلَ الله. وقال مجاهد: مُؤمنين حقاً. وقال أبو العالية: خائِفِينَ. وقال أبو سِنَانٍ: الخشوعَ هو الخوفُ اللازمُ للقلب، لا يُفارِقُه أبداً. وعن مجاهدٍ أيضاً ﴿ خَاشِعينَ ﴾، أي: مُتَواضِعِينَ. وقال الحسن، وقتادة، والضحاك: ﴿ خَاشِعين ﴾ أي: مُتَذَلِّلين لله عزَّ وجلَّ. وكلُّ هذه الأقوال متقاربة.

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حَدَّثنا علي بن محمد الطُّنافِسيُّ، حدثنا محمد بن فُضَيل، حدثنا عبد

---

(١) تفسير الطبري ١٧/٨٢.

(٢) كثير بن مَعْبَد: ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال ٣/٤١٠، والمغني في الضعفاء ٢/٥٣٠ وقال: «ضَعَّفَه الأزديّ، لا يكاد يُعرَف».

(٣) أخرجه السيوطيّ في الدرّ عن ابن أبي حاتم ٥/٦٦٩.

الرحمن بن إسحاق، عن عبد الله القُرَشيِّ، عن عبد الله بن عُكَيم قال: خَطَبنا أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ ثم قال: أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله، وتثنوا عليه بما هو له أهلٌ، وتَخلِطُوا الرَّغبةَ بالرَّهبةِ، وتجمَعُوا الإلحافَ بالمسألة؛ فإن الله عزَّ وجلَّ أثنى على زكريا وأهلِ بيته، فقال: ﴿ إنهم كانُوا يُسارِعُون في الخيراتِ ويَدْعُونَنا رَغَباً ورَهَباً وكانُوا لنا خاشعين ﴾[1].

﴿ وَالَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

هكذا يَقرِنُ تعالى قِصَّة مريم وابنها عيسى ـ عليه السلام ـ بقصَّة زكريا وابنه يحيى ـ عليهما السلام ـ فيذكُر أوَّلاً قصة زكريا، ثم يتبعها بقصة مريمَ؛ لأنَّ تلك مُوَطِّئَةٌ لهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طَعَن في السنِّ، ومن امرأةٍ عجوزٍ عاقرٍ لم تكن تَلِد في حال شبابها، ثم يذكر قصَّةَ مريمَ وهي أعجبُ، فإنها إيجادُ وَلَدٍ من أنثى بلا ذكر. هكذا وقع في سورة آل عمران وفي سورة مريم، وهاهنا ذكر قصة زكريا، ثم أتبعها بقصَّةِ مريم. فقوله: ﴿ والتي أحصنت فَرْجَها ﴾ يعني مريم عليها السلام، كما قال في سورة التحريم: ﴿ ومريمَ ابنةَ عمران التي أحصنت فرجها فَنَفخنا فيه من روحنا ﴾.

وقولُه: ﴿ وجعلناها وابنها آيةً للعالمين ﴾، أي: دَلالةٌ على أن الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنه يخلُق ما يشاء، و﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾. وهكذا كقوله: ﴿ ولنجعله آيةً للناس ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عَمْرو بن علي، حَدَّثنا أبو عاصم الضَّحاك بن مَخْلَدٍ، عن شَبيب ـ يعني ابن بِشْرٍ ـ عن عكرمة، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ للعالمين ﴾، قال: العالمين الجنُّ والإنسُ.

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

قال ابنُ عباس، ومجاهد، وسعيد بنُ جُبَير، وقتادة، وعبدُ الرحمن بن زيد بن أسلَمَ في قوله: ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾، يقول: دينكُم دينٌ واحدٌ.

وقال الحسن البصري في هذه الآية: بيَّن لهم ما يأتون ثم قال: سُنَّتكم سُنَّةٌ واحدةٌ.

فقولُه ﴿ إنَّ هذه ﴾: إن واسمها، وأمتكُم خبر إنَّ، أي: هذه شريعتُكم التي بُيِّنت لكم ووضِّحت لكم. وقوله: ﴿ أمةً واحدةً ﴾ نصب على الحال، ولهذا قال: ﴿ وأنا ربكم فاعبدونِ ﴾، كما قال: ﴿ يا أيها الرسلُ كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم * وإن هذه أُمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتَّقونِ ﴾. وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «نحن مَعْشَر الأنبياء أولادُ عَلَّاتٍ دينُنا واحدٌ»[2]، يعني أنَّ المقصودَ هو عبادةُ الله وحدَه لا شريكَ له بشرائع مُتنوِّعة لرسله، كما قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجاً ﴾.

وقولُه: ﴿ وتَقَطَّعُوا أمرهم بينهم ﴾، أي: اختلفتِ الأمَمُ على رُسُلها، فمن بين مُصدِّقٍ لهم ومُكَذِّبٍ،

---

(١) أخرجه الحاكم بإسناده إلى محمد بن فُضيل، وفي حديثه زيادة، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد». انظر كتاب التفسير ٢/٢٨٣ ـ ٢٨٤، كما أخرجه أبو يوسف في كتاب الخراج عن عبد الرحمن بن إسحاق ٤٦ ـ ٤٧ بتحقيقنا.

(٢) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ١٥٩ من سورة النساء، وخرجناه هنالك.

ولهذا قال: ﴿ كُلٌّ إلينا راجعُونَ ﴾، أي: يوم القيامة، فيُجازِي كلًّا بحسب عمله، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌّ، ولهذا قال: ﴿ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ﴾، أي: قلبُه مصدِّق، وعَمِل عَمَلاً صالحاً، ﴿ فلا كُفرانَ لِسعيه ﴾، كقوله: ﴿إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾، أي: لا نَكْفُرُ سعيَهُ، وهو عمله، بل نَشْكُرُ، فلا يُظْلَم مثقالَ ذرَّة، ولهذا قال: ﴿ وإنَّا له كاتبُونَ ﴾ أي: نَكْتُبُ جميعَ عَمَلِه فلا يَضِيعُ عليه منه شيءٌ.

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وحَرامٌ على قَريةٍ﴾، قال ابن عباس: وجب[1]. يعني قدراً مُقدَّراً أن كُلَّ أهلِ قرية أُهلِكُوا أنهم لا يرجِعُون إلى الدنيا قبلَ يوم القيامة. هكذا صَرَّح به ابنُ عباس، وأبو جعفرٍ الباقِرُ، وقتادةُ، وغيرُ واحدٍ.

وفي رواية عن ابن عباس: ﴿ أنهم لا يَرْجِعُون ﴾، أي: لا يَتُوبونَ. والقول الأول أظهر، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ حَتّى إذا فُتِحَتْ يأجُوجُ ومَأْجُوجُ ﴾، قد قدَّمنا أنهم من سلالة آدمَ ـ عليه السلام ـ بل هُم من نَسْلِ نوح أيضاً، من أولاد يافث أبي الترك، والتركُ شرذمةٌ منهم، تُركوا من وراءِ السدِّ الذي بَنَاهُ ذُو القرنين. وقال: ﴿ هذا رحمةٌ من ربِّي فإذا جَاء وعد ربِّي جعله دكَّاء وكان وعدُ ربي حقّاً * وتركنا بعضَهم يومئذٍ يموجُ في بعض ونُفخ في الصور فجمعناهم جَمْعاً ﴾، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ حتى إذا فُتِحت يأجوجُ ومأجوجُ وهم من كل حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾، أي: يُسرِعون في المشي إلى الفساد.

والحَدَبُ: هو المرتفَعُ من الأرض، قاله ابنُ عباس، وعكرمةُ، وأبو صالحٍ، والثوريُّ، وغيرهم. وهذه صفتُهم في حال خُروجهم، كأنَّ السامعَ مشاهد لذلك، ﴿ ولا يُنبِئُكَ مثلُ خَبِيرٍ ﴾، هذا إخبار عَالِمٍ ما كانَ وما يكونُ، الذي يعلَمُ غيبَ السَّمواتِ والأرضِ، لا إلَه إلا هُوَ.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن مُثَنّى، حدثنا محمدُ بن جعفر، حدثنا شعبةُ، عن عُبَيد الله بن أبي يزيدَ قال: رأى ابنُ عباس صبياناً ينزُو بعضُهم على بعضٍ، يَلعبُونَ، فقال ابن عباس: هكذا يخرُج يأجوجُ ومأجوجُ[2].

وقد وَرَد ذكرُ خُروجهم في أحاديثَ متعدِّدةٍ من السنة النبوية، فالحديثُ الأوَّلُ، قال الإمامُ أحمدُ:

حَدَّثنا يعقوبُ، حَدَّثنا أبي، عن ابن إسحاقَ، عن عاصم بن عُمَر بن قتادة، عن محمود بن لَبيد، عن أبي سعيد الخُدريِّ قال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول «يُفتح يأجوجُ ومأجوجُ، فيخرجون على الناس كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ من كل حَدَبٍ ينسِلُون ﴾، فيغشَونَ الناس[3]، وينحازُ المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحُصُونهم،

---

(١) قراءة الجمهور: (حَرَامٌ)، وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي: (حِرْمٌ). فأما ابنُ عباس فقد نسبت إليه قراءات في هذا الحرف: أولاها: (حَرِمَ)، ثانيها: (حَرَمَ)، ثالثها: (حَرُم)، وهذه الثلاثة أفعالٌ ماضية.

انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧٠٤، وروح المعاني للألوسي ١٧/٩٠ ـ ٩١. كما يراجع المحتسب لابن جني ٢/٦٥ ـ ٦٦، والبحر المحيط لأبي حيان ٦/٣٢٨.

(٢) تفسير الطبري ١٧/٨٨.

(٣) لفظ المسند: فيغشون الأرض.

ويَضُمُّون إليهم مَواشِيَهُم، ويشربون مياه الأرض، حتى إن بعضَهم لَيَمرُّ بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يَبَساً، حتى إن مَنْ بعدهم لَيَمرُّ بذلك النهر فيقول: قد كان هاهنا ماءٌ مرةً، حتى إذا لم يبقَ من الناس أحد إلا أحدٌ في حصن أو مدينةٍ قال قائلُهم: هؤلاءِ أهلُ الأرض، قد فَرَغنا منهم، بقي أهلُ السماء. قال: ثم يهزُّ أحدُهم حربته، ثم يرمي بها إلى السماء، فترجع إليه مُخْتَضِبَةً دماً؛ للبلاءِ والفتنةِ. فبينما هم على ذلك إذْ بعَثَ الله عزَّ وجلَّ دوداً في أعناقهم كَنَغَفِ[1] الجرادِ الذي يخرُج في أعناقه، فَيُصبحون موتى لا يُسمَعُ لهم حِسٌّ، فيقول المسلمون: ألا رجلٌ يَشْري لنا[2] نفسَه فينظرَ ما فَعَل هذا العدوُّ؟ قال: فيَتجرَّدُ رجلٌ منهم مُحتَسِباً نفسه، قد أوطَنَها على أنه مقتولٌ، فينزل فيجدهم موتى، بعضُهم على بعضٍ، فينادي: يا معشَرَ المسلمين، ألا أبشروا، إن الله عَزَّ وجلَّ قد كفاكم عَدُوَّكم. فيخرجون من مدائنهم وحصونهم، ويُسَرِّحون مواشِيَهم، فما يكون لها رعيٌ إلا لحومهم، فَتَشْكَرُ[3] عنه كأحسن ما شَكِرَت عن شيءٍ من النَّباتِ أصابته قَطُّ[4].

ورواه ابنُ مَاجه، من حديث يُونُسَ بن بُكَير، عن ابن إسحاقَ، به[4].

الحديث الثاني، قال الإمام أحمد أيضاً:

حدثنا الوليد بن مسلم أبو العباس الدِّمَشقِيُّ، حدثنا عبدُ الرحمن بن يزيدَ بن جابرٍ، حدثني يحيى بن جابر الطائي قاضي حِمْصٍ، حدثني عبد الرحمن بن جُبَير بن نُفَير الحَضْرَمِيُّ، عن أبيه، أنه سَمِع النَّوَّاس بن سِمْعانَ الكلابي قال: ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ الدَّجال ذات غَداة، فَخَفَّضَ فيه ورَفَّعَ[5]. حتى ظنناه في طائفة[6] النَخلِ، [7][فلما رُحْنا إليه عَرَف ذلك في وُجُوهنا، فسألناه فقلنا: يا رسولَ الله، ذكرت الدجَّالَ الغَدَاة، فَخَفَّضت فيه ورَفَّعتَ حتى ظنناه في طائفة النخل][7]. فقال: غيرُ الدجال أخْوَفُني[8] عليكم، فإن يخرجْ وأنا فيكم فأنا حَجيجُه دونكم، وإن يخرج ولستُ فيكم فامرؤٌ حجيجُ نفسِه، والله خليفتي على كلِّ مسلم. إنه شاب جَعْدٌ قَطَطٌ عينهُ طافيةٌ، وإنه يخرج خَلَّةً[9] بينَ الشامِ والعراقِ، فعاث يميناً وشمالاً، يا عباد الله، اثبتُوا.

قلنا: يا رسولَ الله، ما لبثه في الأرض؟ قال: أربعين يوماً، يومٌ كَسَنةٍ، ويومٌ كَشهرٍ، ويوم كجُمُعَةٍ، وسائر أيامه كأيامكم.

قلنا: يا رسولَ الله، فذاك اليومُ الذي هو كسنة، أتكفينا فيه صلاةُ يوم وليلة؟ قال: لا، اقدرُوا له قَدْرَه.

قلنا: يا رسولَ الله، فما إسراعُه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الرِّيحُ. قال: فيَمُرُّ بالحي فيدعُوهم،

---

(١) النَّغَفُ: دودٌ طِوالٌ سودٌ وغُبرٌ، ومنه ما يكون في أنوفِ الإبل والغَنَم، الواحدة: نَغَفَةٌ.

(٢) «لنا»: غير ثابتة في المسند.

(٣) أي: تَسْمَن.

(٤) مسند أحمد ٣/٧٧، وابن ماجه، كتاب الفِتَن ٢/١٣٦٣ - ١٣٦٤.

(٥) أي: خَفَّض من صوته في حال الكثرة فيما تَكَلَّم فيه، فخفَّضَ بعد طول الكلام والتعب ليستريح، ثم رفَّعَ ليبلغ صوتُه كلَّ أحدٍ بلاغاً كاملاً مُفَخَّماً.

(٦) في النسخ: ناحية النخل. والطائفة هنا: الناحية.

(٧-٧) عن المسند.

(٨) قال ابن مالك في شواهد التوضيح ١١٩: «الأصل فيه: أخوفُ مخوفاتي عليكم، فحذف المضاف إلى الياء، وأقيمت هي مقامه، فاتّصل أخوف بها مقرونة بالنون».

وفي الحديث ـ كما ترى ـ إضافة أفعل التفضيل ـ وهو أخوف ـ إلى ياء متكلم مقرونة بنون الوقاية، وهذا الاستعمال إنما يكون مع الأفعال المتعدّية، ولكن لما كان لأفعل التفضيل شبه بالفعل، وخصوصاً فعل التعجب، جاز أن تلحقه النون.

(٩) الخَلَّة: ما بين البلدين.

فيستجيبون له، فيأمُر السماءَ فتُمطِرُ، والأرضَ فتُنبتُ، وتروح عليهم سَارِحتُهم وهي أطول ما كانت ذُراً(١)، وأمده خواصر، وأسبغه ضروعاً. ويمرُّ بالحي فيدعوهم فيردُّون عليه قولَه، فتتبعه أموالُهم، فيُصبحون مُمْحِلين(٢)، ليس لهم من أموالهم شيءٌ! ويمر بالخَربَة فيقول لها: «أخرجي كنوزَكِ». فتتبعُه كنوزُها كَيعاسِيبِ النحل. قال: ويأمُر برجُلٍ فيُقتَلُ، فيضربُه بالسيف فيقطعه جزْلَتين(٤) رَمْيَةَ الغَرَض، ثم يدعوه فيقبل إليه [يتهلّل وَجهُه](٥).

فبينما هُم على ذلك إذ بَعَث الله ـ عزَّ وجلَّ ـ المسيحَ ابن مَرْيَم، فينزلُ عند المنارَةِ البيضاءِ، شرقيَّ دِمَشْقَ، بين مَهْرُودَتَين(٦) واضعاً يَدَه على أجنحةِ مَلَكين، فيتبعُهُ فَيُدْرِكُه، فيقتلُه عند باب لُدّ الشَّرْقِيِّ(٧).

قال: فبينما هُم كذلك إذْ أوحَى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى عيسى ابن مَرْيَمَ أَنِّي قد أخرجتُ عباداً من عبادي لا يَدَان لك(٨) بقتالهم، فَحَوِّزْ(٩) عبادي إلى الطور، فيبعث الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يأجوجَ ومأجوجَ وهم كما قال الله: ﴿ من كُلِّ حَدَبٍ ينسِلُون ﴾، فيرغَب عيسى وأصحابُه إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيرسل الله عليهم نَغَفاً في رقابهم، فيصبحون فَرْسَى(١٠)، كموت نفس واحدة.

فيهبطُ عيسى وأصحابُه فلا يجدونَ في الأرض بيتاً إلا قد ملأه زَهَمُهم(١١) ونَتْنُهم، فيرغَب عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل عليهم طيراً كأعناق البُخْت(١٢)، فتحمِلُهم فتطرَحُهم حيث شاء الله.

قال ابنُ جابر: فحدثني عطاء بن يزيدَ السَّكْسَكيّ، عن كعب أو غيره، قال: فتطرحهم بالمَهْبِل(١٣). قال ابنُ جابر: فقلت: يا أبا يزيدَ، وأين المَهْبِلُ؟ قال: مَطْلع الشَّمْس.

قال: ويرسِلُ الله مطراً لا يَكُنُّ(١٤) منه بيت مَدَر ولا وَبَر أربعين يوماً، فيغسِل الأرضَ حتى يتركها كالزَّلَفَة(١٥)، ويقال للأرض: أنبتي ثَمرتك، وَرُدِّي بَرَكَتكِ. قال: فيومئذ يأكل النفرُ من الرمَّانة ويستظِلُّون بقِحْفِها(١٦)، ويُبَارك في الرِّسْل(١٧)، حتى إن اللِّقْحَةَ من الإبل لتكفي الفِئَامَ من الناس، واللِّقْحَةَ من البقر تكفي

---

(١) تروح: ترجع آخر النهار. والسارحة: الماشية. والذُّرا: الأعالي والأسنمة، جمع ذُرْوه ـ بالضم والكسر ـ وأسبغه: أتمُّه.

(٢) أي: أصابهم المَحْلُ من قلة المطر، ويَبَسِ الأرض من الكلأ.

(٣) اليَعْسُوبُ: مَلِكَةُ النَّحل، وهي أنثى، وكانت العرب يظنونها ذكراً لضخامتها، ويقال: هو يعسوب قومه: رئيسهم وكبيرهم ومُقَدَّمهم. والجمع: يعاسيب. والمراد أنه تتبعه جماعة النحل لا اليعسوب خاصة، لكنه كنى عن الجماعة باليعسوب.

(٤) الجَزْلَة ـ بفتح الجيم وكسرها ـ: القطعةُ. ومعنى: رمية الغَرَضِ أنه يجعل بين الجزلتين مقدارَ رَمْيَةٍ.

(٥) عن المسند.

(٦) المهرودتان ـ بالدال المهملة، ويروي بالذال المعجمة، والمهملة أكثر. والمعنى: لابساً مَهْرُودتين، وهما ثوبان مصبوغان بِوَرْسٍ، ثم يُزَعفران. وقيل: هما شقتان، والشُّقَّةُ: نصف المُلاءَة.

(٧) باب لُدّ: بلدة قريبة من بيت المقدس.

(٨) أي: لا قدرة لك ولا طاقة.

(٩) أي: ضُمَّهم إليه. ورواية مسلم: فحرِّزْ ـ بالراء ـ والمعنى واحد.

(١٠) في الأصل: موتى. وفَرْسَى: جمع فَرِيسٍ، وهو: القتيل.

(١١) أي: دَسَمُهم.

(١٢) البُخْتُ: الإبل الخراسانية، وهي طوال الأعناق.

(١٣) المَهْبِل: الهُوَّة الذاهبة في الأرض.

(١٤) أي: لا يمنع من نزول الماء.

(١٥) أي: كالمرآة، وقيل: كالروضة.

(١٦) أي: مُقعَّر قشرها، شُبِّهت بِقِحْفِ الرأس.

(١٧) الرِّسْل: القطيع من الإبل والغَنَم وغيرها. واللِّقْحَة: هي القريبة العهد بالولادة. والفئام: الجماعة الكثيرة.

الفَخِذ [١]. والشاة من الغنم تكفي أهل البيت.

قال: فبينما هُم على ذلك إذ بَعَثَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ريحاً طيبة تحت آباطهم فتقبضُ روحَ كُلِّ مسلم ـ أو قال: كُلِّ مؤمن ـ ويبقى شرارُ الناس يتهارَجُون تهارُجَ الحمير، وعليهم تقومُ الساعة [٢].

انفرد بإخراجه مُسلمٌ دونَ البُخاريِّ، فرواه مع بَقِيَّة أهلِ السُّنَنِ من طُرُقٍ، عن عبد الرحمن بن يزيدَ بن جابرٍ، به. وقال التِّرمذيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ [٢].

الحديثُ الثالث، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا محمد بن بِشْر، حدَّثنا محمد بن عَمْرو، عن ابن حَرْمَلَةَ، عن خالته قالت: خَطَب رسولُ الله ـ ﷺ ـ وهو عاصبٌ إصْبَعَهُ من لَدْغَةِ عَقْرب، فقال: إنكم تقولون: لا عَدُوَّ لكم. وإنَّكم لا تَزَالون تُقاتِلون عَدُوّاً حتى يأتي يأجوجُ ومأجوجُ عِراضَ الوجوهِ صِغارَ العيونِ، شُهْبَ [٣] الشِّعافِ من كل حَدَبٍ يَنسِلُون، كَأَنَّ وُجُوهَهُم المَجَانُّ المُطْرَقَةُ [٤].

وكذا رواه ابنُ أبي حاتم من حديث مُحمَّد بن عمرو، عن خالِد بن عبدِ الله بن حَرْمَلَةَ المُدْلِجيِّ، عن خالةٍ له، عن النبي ـ ﷺ ـ فذكره مِثْلَهُ سَوَاءً.

الحديثُ الرابعُ: قد تقدَّم في تفسير آخرِ سُورَةِ الأعراف [٥] من رواية الإمام أحمدَ، عن هُشَيم، عن العَوَّام، عن جَبَلَةَ بن سُحَيم، عن مُؤْثِر بن عَفَازَةَ، عن ابن مسعود، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ قال: «لَقِيتُ ليلةَ أُسرِيَ بي إبراهيم وموسى وعيسى ـ عليهم السلام ـ قال: فتذاكَرُوا أمر الساعة، فَرَدُّوا أمرَهم إلى إبراهيم، فقال: لا عِلْمَ لي بها. فَرَدُّوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا علم لي بها. فَرَدُّوا أمرهم إلى عيسى، فقال: أما وَجْبَتُها فلا يعلم بها أحدٌ إلا الله، وفيما عهِدَ إليَّ ربِّي أن الدجال خارج. قال: ومعي قَضِيبان، فإذا رآني ذاب كما يَذُوب الرَّصاص، قال: فَيُهلِكه الله إذا رآني، حَتَّى إنَّ الحَجَر والشجرَ يقول: يا مسلم إن تحتِي كافراً فتعالَ فاقتُله. قال: فَيُهلِكُهم الله. ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم. قال: فعند ذلك يخرُج يأجوجُ ومأجُوج وهم من كل حَدَبٍ يَنْسلون، فيطئون بلادَهم، لا يأتون على شيءٍ إلا أهلكوه، ولا يَمُرُّون على ماء إلا شربوه. قال: ثم يَرْجِعُ الناسُ إليَّ يشكونَهم فأدعُو الله عليهم فيهلكُهم ويميتهم، حتى تَجْوَى الأرضُ من نَتْنِ ريحهم، ويُنزِلُ الله المطر فَيجترفُ أجسادَهم، حتى يَقْذِفَهم في البحر. ففيما عهد إليَّ ربي أن ذلك إذا كان كذلك أنَّ الساعة كالحاملِ المُتِمِّ، لَا يَدْرِي أهلُها مَتَى تَفْجَؤهم بولادتها ليلاً أو نهاراً.

ورواه ابن ماجه، عن محمد بن بَشّار، عن يزيدَ بن هارونَ، عن العَوَّام بن حَوْشَب، به نحوه وزاد: «قال العَوَّامُ، وَوُجِدَ تصديقُ ذلك في كتاب الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ حتى إذا فُتِحت يأجوجُ ومأجوجُ وَهُم من كل حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾. ورواه ابنُ جرير هاهنا من حديث جبلة [٦]، به.

---

(١) الفَخِذ: الجماعة من الأقارب.

(٢) مسند أحمد ٤/١٨١ ـ ١٨٢، ومسلم، كتاب الفتن ٤/٢٢٥٠ ـ ٢٢٥٥. وعارضة الأحوذي، أبواب الفتن ٩/٩١ ـ ٩٦. وابن ماجه، كتاب الفتن ٢/١٣٥٦ ـ ١٣٥٧.

(٣) كذا في الأصل والمسند. وفي غير الأصل: صُهْب. والشُّهْبَةُ: البياضُ المختلطُ بِسَوَادٍ. والصُّهبةُ: صفرةٌ تَضْرِبُ إلى الحُمرة والبَيَاضِ.

(٤) المِجَنّ: التُّرسُ الذي كان يتوقى به المحارب، وجمعه: مَجَانٌّ. والمجانُّ المُطرقَة: ما كان بين جلدين أحدهما فوق الآخر. أراد أنهم عراضُ الوجُوهِ غِلاظُها. والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥/٢٧١.

(٥) تقدم الحديث في سورة النساء، عند الآية ١٥٩، وسورة الأعراف، عند الآية ١٨٧، وخرجناه، وشرحنا غريبه.

(٦) تفسير الطبري ١٧/٩١.

والأحاديثُ في هذا كثيرةٌ جداً. والآثارُ عن السَّلَفِ كذلِكَ.

وقد رَوَى ابنُ جَرير وابن أبي حاتم، من حديث مَعْمَرٍ، عن غير واحد، عن حُمَيد بن هلالٍ، عن أبي الضَّيْفِ قال: قال كعب: إذا كان عند خُروج يأجوجَ ومأجوجَ حفروا حتى يسمَعَ الذين يَلُونَهم قَرْعَ فُئوسِهم، فإذا كان الليلُ قالوا: نَجِيء غداً فنخرج. فيعيدُه الله كما كان، فيجيئون من الغد، فيجدونَه قد أعاده الله كما كان. فَيحفِرُونه حتى يسمَع الذين يلونَهم قَرْعَ فُئُوسهم، فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول: نجيء غداً فنخرج إن شاء الله. فيجيئون من الغد فيجدونه كما تركوه. فيحفرون حتى يخرجوا. فتمرُّ الزُّمرة الأولى بالبُحيرة فيشربون ماءها، ثم تمر الزُّمرة الثانية فيلحسون طينها، ثم تمر الزُّمرة الثالثة فيقولون: قد كان هاهنا مَرَّةً ماءٌ، وتفرُّ الناس منهم، فلا يقومُ لهم شيء. ثم يَرْمُون بسهامهم إلى السماء فترجعُ مُخَضَّبة بالدماء فيقولون: غَلَبْنا أهلَ الأرضِ وأهلَ السماءِ. فيدعو عليهم عيسى ابنُ مريَمَ عليه السلام فيقول: اللهم، لا طاقة ولا يَدَين لنا بهم، فاكفناهم بما شئت. فَيُسلِّط الله عليهم دُوداً يقال له النَّغَفُ، فَيَفرِسُ رقابهم، ويبعَثُ الله عليهم طيراً تأخذهم بمناقيرها فتلقيهم في البحر، ويبعث الله غَيْثاً[1] يقال له: الحياة، يُطَهِّر الله[2] الأرضَ ويُنبتُها، حتى إنَّ الرمانة ليشبعَ منها السَّكْنُ ـ قيل: وما السَّكْنُ يا كعبُ؟ قال: أهلَ البيت ـ قال: فبينما الناسُ كذلك إذ أتاهم الصَّريخُ أن ذا السُّوَيقَتَين[3] يريده فيبعَثُ عيسى ابن مريم طَليعةً سبعمائة، أو بين السبعمائة والثمانمائة، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بَعَث الله ريحاً يمانيةً طَيِّبة، فَيَقْبَضُ فيها روحُ كُلِّ مؤمن، ثم يبقى عَجاج[4] الناس، فيتسافدون كما يَتَسافَدُ البهائم، فَمَثل الساعةِ كَمَثل رجل يُطيفُ حول فَرسِهِ [ينتظرها] متى تضع؟ قال كعب: فمن [تَكَلَّفَ] بعد قولي هذا شيئاً أو: بعد علمي هذا شيئاً ـ فهو المُتَكَلِّف[5].

هذا من أحسن سياقات كعب الأحبار، لما شَهد له من صحيح الأخبار، وقد ثَبت في الحديث أن عيسى ابن مَرْيَم ـ عليه السلام ـ يحجُّ البيتَ العتيق. وقالَ الإمامُ أحمدُ:

حدثنا سُليمَان بن داودَ، حدثنا عمران، عن قتادَةَ، عن عبد الله بن أبي عُتْبَةَ، عن أبي سَعيدٍ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: لَيُحجَّنَ هذا البيتُ، ولَيُعْتَمَرنَّ بعد خُروج يأجوجَ ومأجوجَ[6]. انفرد بإخراجه البخاري[6].

وقولُه: ﴿ واقتربَ الوعدُ الحقُّ ﴾، يعني يومَ القيامةِ، إذا وُجدَت هذه الأهوالُ والزلازلُ والبلابلُ أزِفَت الساعة واقتربت، فإذا كانت ووَقَعت قال الكافرون: ﴿ هذا يوم عَسِر ﴾. ولهذا قال تعالى: ﴿ فإذا هي شاخصةٌ أبصارُ الذين كفروا ﴾، أي: من شدة ما يشاهدونه من الأمُورِ العِظَام. ﴿ يا وَيْلَنا ﴾، أي: يقولون: ﴿ يا وَيْلَنا قد كُنَّا في غَفْلَةٍ من هذا ﴾، أي: في الدنيا، ﴿ بل كُنَّا ظَالِمينَ ﴾، يَعْتَرِفُون بِظُلْمهم لأنفُسِهم، حيثُ لا ينفعُهم ذلك.

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ

---

(١) كذا في الأصل. وفي غيره: «عينا يقال لها».

(٢) لفظ الطبري: «ويطهر الأرض».

(٣) السويقتان: تثنية سُوَيقةٍ، وهي تصغير ساقٍ، أي: له ساقان دقيقتان. وأخرج البخاري في كتاب الحج عن أبي هريرة: «يخرِّب الكعبة ذُو السويقتين من الحبشة». انظر فتح الباري ٣/٤٥٤، ٤٦٠.

(٤) العَجاج: رَعَاعُ الناس وغَوْغاؤهم. وتسافد الحيوانُ: نَزَا بعضُهم على بَعْضٍ ووثَب.

(٥) تفسير الطبري ١٧/٨٩. وما بين القوسين عنه.

(٦) مسند الإمام أحمد ٣/٢٧ ـ ٢٨، وفتح الباري، كتاب الحج ٣/٤٥٤.

ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى مخاطباً لأهل مكة من مشركي قُرَيش ومن دَان بِدِينهم من عَبَدَةِ الأصنام والأوثان: ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَب جَهَنَّم ﴾، قال ابنُ عَبَّاسٍ: أي وقودُها. يعني كقوله: ﴿ وقودُها النَاسُ والحِجَارَةُ ﴾.

وقال ابن عباس أيضاً: ﴿ حَصَبَ جَهَنَّم ﴾، بمعنى شَجَر جهنم. وفي رواية قال: ﴿ حَصَب جهنم ﴾، يعني حطب جَهَنَّم، بالزنجية. وقال مجاهد، وعكرمة، وقتادة: [حَطَبُها]. وهي كذلك في قراءة عَلِيٍّ وعائشة، رَضِي الله عنهما[١].

وقال الضحَّاك: ﴿ حَصَب جهنم ﴾، أي: ما يُرمَى به فيها. وكذا قال غيره. والجميعُ قريبٌ.

وقوله: ﴿ أنتم لها واردون ﴾، أي: داخلون. ﴿ لو كانَ هَؤُلاء آلهةً ما وَرَدوها ﴾، يعني: لو كانت هذه الأصنامُ والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آلهةً صحيحةً لما وَرَدوا النار، وَلَمَا دَخلُوها، ﴿ وكلٌّ فيها خالدون ﴾، أي: العابدون ومعبوداتهم، كُلُّهم فيها خالدون. ﴿ لهم فيها زفيرٌ ﴾، كما قال: ﴿ لهم فيها زفير وشَهيقٌ ﴾. والزفير: خروجُ أنفاسهم، والشهيق: ولوجُ أنفاسِهم، ﴿ وهم فيها لا يسمَعُون ﴾.

قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطَّنَافسي، حدثنا ابن فُضَيل، حدثنا عبد الرحمن ـ يعني المسعودي ـ عن أبيه قال: قال ابنُ مسعود: إذا بقي من يُخَلَّد في النار جُعِلُوا في توابيت من نار، فيها مسامير من نار، فلا يَرَى أحد منهم أنه يعذب في النار غيره، ثم تلا عبد الله: ﴿ لَهُم فيها زَفيرٌ وهُم فيها لا يَسْمَعُون ﴾.

ورواه ابنُ جرير، من حديث حجاج بن محمد، عن المسعودي، عن يونس بن خَبَّاب، عن ابن مَسْعُودٍ فذكره[٢].

وقولُه: ﴿ إن الذين سَبَقت لهم منا الحُسنَى ﴾، قال عكرمةُ: الرحمةُ. وقال غيره: السعادةُ، ﴿ أولئك عنها مُبعَدُونَ ﴾، لما ذَكَر تعالى أهلَ النار وعذابَهم بسبب شِرْكِهم بالله، عَطَف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسُله، وهم الذين سَبَقت لهم من الله السعادةُ، وأسلفوا الأعمالَ الصالحةَ في الدنيا، كما قال: ﴿ للذين أحسَنُوا الحُسْنَى وزيادة ﴾، وقال: هل جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسانُ ﴾، فكما أحسَنُوا العمل في الدنيا، أحسَن الله مآلهم وثوابهم، فنجاهم من العذاب، وحصَّل لهم جَزيل الثواب، فقال: ﴿أولئك عنها مُبعَدُونَ * لا يسمَعُون حَسِيسها﴾، أي: حريقها في الأجساد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عفان، حدثنا حَمَّادُ بن سَلَمَةَ، عن أبيه، عن الجُرَيري[٣]، عن أبي عثمان: ﴿ لا يَسمَعُونَ حَسِيسها ﴾، قال: حيات على الصراط تلسعهم، فإذا لسعتهم قال: حَسِّ حَسِّ[٤].

(١) انظر روح المعاني للالوسي ٩٦/١٧.

(٢) تفسير الطبري ٩٥/١٧.

(٣) في نسختي الحرم والأزهر: «عن أبي عثمان الجريري». والجريري هو أبو محمد عباس بن فَرُّوخ. وأبو عثمان الذي يروي عنه الجريري هو عبد الرحمن بن مل.

(٤) حَسِّ: كلمة تقال عند الألم المفاجىء.

وقولُه: ﴿ وهم فيما اشتهت أنفسُهم خالدون ﴾، فَسَلَّمهم من المحذور والمرهُوب، وحَصَّل لهم المطلوبَ والمحبوبَ.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن أبي سُرَيج، حدثنا محمد بن الحَسَن بن أبي يزيدَ الهَمْداني، عن ليث بن أبي سُلَيم، عن ابن عَمِّ النعمان بن بشير، عن النعمان بن بشير قال ـ وسَمَرَ مع علي ـ رضي الله عنه ـ ذات ليلة، فقرأ: ﴿ إن الذين سَبَقت لهم منَّا الحسنَى أولئك عنها مبعدون ﴾، قال: أنا منهم، وعُمَر منهم، وعُثمان منهم، والزبير منهم، وطلحة منهم، وعبد الرحمن منهم ـ أو قال: سَعدٌ منهم ـ قال: وأقيمت الصلاة فقام، وأظنه يَجُرُّ ثوبه، وهو يقول: ﴿ لا يَسمَعُون حَسِيسَهَا ﴾[1].

وقال شعبةُ، عن أبي بشر، عن يُوسف المَكّي، عن محمد بن حاطبٍ قال: سَمِعت علياً يقول في قوله: ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾، قال: عُثمانُ وأصحابه.

ورواه ابن أبي حاتم أيضاً، ورواه ابنُ جرير من حديث يوسُفَ بن سعدٍ ـ وليس بابن ماهك ـ عن محمد ابن حاطب، عن علي، فذكره ولفظه: عثمان منهم[2].

وقال عليّ بن أبي طَلحَةَ، عن ابن عباس في قوله: ﴿ إن الذين سَبَقت لهم منا الحُسنى أولئك عنها مُبعَدُون ﴾: فأولئك أولياءُ الله يَمُرُّون على الصِّراط مَرّاً هو أسرعُ من البَرْقِ، ويبقى الكفارُ فيها جِثِيّاً.

فهذا مطابقٌ لما ذكرناه. وقال آخرون: بل نزلت استثناء من المعبودين، وخرج منهم عُزَير والمسيح. كما قال حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جُرَيج وعثمان بن عطاءٍ، عن عطاءٍ، عن ابن عباس: ﴿ إنكم وما تعبدُون من دون الله حَصَب جهنم ﴾، ثم استثنى فقال: ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾، فقال: هُم الملائكةُ، وعيسى، ونحو ذلك مما يُعبد من دون الله عزَّ وجلَّ. وكذا قال عكرمة، والحسنَ وابن جُرَيج.

وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿ إن الذين سَبَقت لهم منا الحسنى ﴾،قال: نَزَلت في عيسى ابن مَرْيَمَ وعُزير عليهما السلام.

وقال ابنُ أبي حاتمٍ: حدثنا أبي، الحُسَين بن عيسى بن مَيْسَرَة، حدثنا أبو زُهَير، حدثنا سعد بن طَريف، عن الأصبغ، عن عَليّ ـ رضي الله عنه ـ في قوله: ﴿ إن الذين سَبَقت لهم منا الحُسنَى ﴾، قال: كلُّ شيءٍ يُعبَد من دون الله في النار إلا الشمسَ والقمرَ وعيسى ابن مَرْيَم. إسنادُه ضعيفٌ.

وقال ابنُ أبي نَجيحٍ، عن مُجَاهِدٍ: ﴿ أولئك عنها مُبعَدُونَ ﴾، قال: عيسى، وعُزَيرٌ، والملائكةُ.

وقال الضحّاك: عيسى، ومريم، والملائكة، والشمس، والقمر. وكذا رُوِي عن سعيد بن جُبَير، وأبي صَالحٍ وغيرِ واحدٍ.

وقد رَوَى ابنُ أبي حاتم في ذلك حَديثاً غريباً جداً فقال:

حدَّثنا الفضلُ بن يعقوبَ الرُّخَامِي[3]، حدثنا سعيد بن مَسْلَمة بن عبد الملك، حدثنا الليثُ بن أبي سُلَيم، عن مُغِيثٍ، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله: ﴿ إن الذين سَبَقت لهم منا الحُسنَى أولئك عنها مُبعَدُونَ ﴾، قال: عِيسَى، وعُزيرٌ، والملائكةُ.

---

(١) أخرجه في الدر المنثور ٥/٦٨١.

(٢) تفسير الطبري ١٧/٩٦.

(٣) في النسخ: الرخاني. والمثبت عن الجرح ٧/٧٠، والأنساب للسمعاني ٣/٥٢

وذكر بعضهم قِصَّة ابن الزِّبَعْرى ومناظرةَ المشركين، قال أبو بكر بن مَرْدُوَيه:

حدثنا محمد بن علي بن سهل، حدثنا محمد بن الحسن الأنماطي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن عَرْعَرَةَ، حدثنا يزيدُ بنِ أبي حَكيم، حدثنا الحكم - يعني ابنَ أبانَ - عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس قال: جاء عبد الله بن الزِّبَعْريَ إلى النبي - ﷺ - فقال: تزعُم أن الله أنزل عليك هذه الآية: ﴿ إنكم وما تعبدُون من دون الله حَصَبُ جهنم أنتم لها واردون ﴾، فقال ابنُ الزِّبعرى: قد عُبِدَتِ الشمسُ والقَمرُ والملائكة، وعُزيرٌ وعيسَى ابن مَرْيَم، كلُّ هؤلاءِ في النار مع آلهتنا؟ فنزلت: ﴿ولما ضُرب ابن مريم مثلًا إذا قومك منه يَصِدُّون * وقالوا أآلهتنا خير أمْ هُو ما ضَرَبُوه لك إلا جَدَلًا بل هم قوم خَصِمون ﴾. ثم نزلت: ﴿ إن الذين سَبَقَت لهم منا الحُسنَى أولئك عنها مُبعَدُون ﴾. رواه الحافظُ أبو عبد الله في كِتَابِه «الأحاديثُ المختارة»(١).

وقال ابنُ أبي حاتمٍ: حدثنا أبي، حدثنا قَبيصة بن عقبة، حدثنا سفيانُ - يعني الثوريَّ - عنِ الأعمش، عن أصحابه، عن ابن عبَّاس قال: لما نزلَت: ﴿ إنكم وما تَعبُدون من دون الله حَصَبُ جهَنَّم أنتم لها واردون ﴾، قال المشركون: فالملائكة، وعُزَيرٌ، وعيسى يُعْبَدون من دون الله؟ فَنزلَت: ﴿ لو كانَ هؤلاءِ آلهةً ما وَرَدُوهَا ﴾، الآلهة التي يعبدون، ﴿ وكلٌّ فيها خَالِدُونَ ﴾.

وَرُوِيَ عن أبي كُدَينَةَ، عن عَطاءِ بن السَّائب، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عَبَّاسٍ مثلَ ذلك، وقال، فنزلت: ﴿ إن الذين سَبَقَتْ لهم منا الحُسنَى أولئك عنها مُبعَدُونَ ﴾.

وقال الإمام مُحمَّد بن إسحاق بن يسار - رحمه الله - في كتاب «السِّيرة»: وجَلَس رسول الله - ﷺ - فيما بَلَغني - يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضرُ بن الحارث حتى جلسِ معهم، وفي المسجد غيرُ واحدٍ من رجال قريش، فتكلَّم رسول الله - ﷺ - فَعرض له النضرُ بن الحارث، فكلَّمه رسول الله - ﷺ - حتى أفحمَه، وتلا عليه وعليهم: ﴿إنَّكم وما تعبدُون من دُون الله حَصَبُ جَهَنَّم أنتُم لها وارِدُون * لو كان هَؤلاء آلهةً ما وَرَدُوها وكلٌّ فيها خالدون * لَهُم فيها زَفيرٌ وَهُم فيها لا يَسمَعُون﴾. ثم قام رسولُ الله - ﷺ - وأقبل عبدُ الله ابن الزِّبَعْرى السَّهمِيُّ حتّى جَلَس، فقال الوليدُ بن المغيرة لعبد الله بن الزِّبَعرى: والله ما قام النضرُ بن الحارث لابن عبد المُطَّلب آنفاً ولا قَعَد، وقد زَعَم مُحمَّد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حَصَبُ جَهَنَّم. فقال عبد الله بن الزِّبَعرى: أما والله لو وَجَدْتُه لَخَصَمته(٢)، فَسَلُوا محمداً: كلُّ ما يُعْبَدُ من دُون الله في جَهَنَّم مع مَن عَبَدَه؟ فنحنُ نعبدُ الملائكة، واليهودُ تعبدُ عزيراً، والنصارى تعبدُ عيسى ابن مريمَ؟! فَعجب الوليدُ ومن كان معه في المجلس من قَولِ عبد الله الزِّبعرى، ورأوا أنه قد احتجَّ وخاصَمَ. فَذُكِرَ ذلك لرسول الله - ﷺ - فقال: «كل مَنْ أحبَّ أن يُعْبَدَ من دون الله فهو مع من عَبَده، إنَّهم إنما يعبدُون الشياطين ومن أمَرَتْهُم بعبادته. وأنزلَ الله:

﴿إن الذين سَبَقت لهم منا الحُسنَى أولئك عنها مُبعَدُون * لا يَسمَعُون حَسيسَها وهم فيما اشتهت أنفسُهم خالِدُون ﴾، أي: عيسى وعُزيرٌ ومن عُبدوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، فاتخذهم مَن يَعبدُهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله. ونَزَل فيما يذكرون أنهم يعبدُون الملائكة، وأنهم بنات الله:

﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عبادٌ مُكرَمون * لا يَسْبِقونَه بالقول وهم بأمره يَعْمَلون﴾. إلى قوله: ﴿ ومن يَقُل منهم إنِّي إلَهٌ من دونه فذلك نجزيه جَهَنَّم كذلك نجزي الظالمين ﴾، ونَزَل فيما ذُكِر من أمر عيسى،

---

(١) الدر المنثور عن ابن مردويه والضياء في المختارة ٥/٦٧٩.

(٢) خصمه: غلبه في الخصومة.

وأنه يُعبَد من دون الله، وعَجب الوليد ومَن حَضره من حُجَّته وخصومته: ﴿ولما ضُرب ابن مَرْيَم مثلا إذا قومك منه يَصِدُّون * وقَالوا أآلهتنا خيرٌ أم هُو ما ضَرَبُوه لك إلا جَدَلاً بل هم قومٌ خَصِمُون * إن هُوَ إلا عَبدٌ أنعمنا عليه وجَعَلناه مَثَلاً لبني إسرائيل * ولو نَشاءُ لجعلنا منكم ملائكةً في الأرض يَخلفُون * وإنه لَعِلْمٌ للساعة فلا تَمْتَرُنَّ بها﴾، أي: ما وُضِعَتْ على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراءِ الأسقام، فكَفى به دليلاً على عِلْم الساعة، يقول: ﴿فلا تمترنَّ بها واتبعون هذا صراط مستقيم﴾[(١)].

وهذا الذي قاله ابن الزِّبعرى خَطأٌ كبيرٌ؛ لأن الآية إنما نزلَت خطاباً لأهل مَكَّة في عبادتهم الأصنام التي هِيَ جمادٌ لا تَعقِلُ، ليكون ذلك تَقريعاً وتَوبيخاً لِعَابديها، ولهذا قال: ﴿إنكم وما تعبدُون من دون الله حَصَب جَهَنَّم﴾، فكيف يوردُ عَلَى هذا المسيحَ والعُزَير ونحوهما ممن له عملٌ صالحٌ، ولم يَرْض بعبادة من عَبَده، وعَوَّل ابنُ جرير في تفسيره في الجواب على أن «ما» لما لا يعقل عند العرب[(٢)].

وقد أسلم عبدُ الله بن الزِّبَعْرى بعد ذلك، وكان من الشعراء المشهورين. وكان يُهَاجِي المسلمين أوّلا، ثم قال مُعتَذِراً[(٣)]:

يـا رَسُـولَ المليك، إنَّ لِسـانِي ... راتِـقٌ مَـا فَتَـقْـتُ إذْ أنـا بُـورُ
إذْ أُجَارِي الشيطَانَ في سَنَنِ الغيِّ ... وَمَـنْ مَـالَ مَـيْـلَه مَـثْـبُـورُ

وقولُه: ﴿لا يحزُنُهم الفَزَعُ الأكبرُ﴾، قيل: المرادُ بذلِكَ الموتُ. رَواهُ عبد الرزّاق، عن يحيى بن رَبيعَةَ، عن عطاء.

وقيل: المرادُ بالفَزَعِ الأكبرِ النفخةُ في الصُّور. قاله العَوفيُّ عن ابن عَبَّاسٍ، وأبو سِنَانٍ سعيدُ بن سِنَانٍ الشَّيباني، واختاره ابنُ جرير[(٤)] في تفسيره.

وقيل: حين يُؤمَر بالعبدِ إلى النار. قاله الحسنُ البصري. وقيل: حين تُطبِقُ النارُ على أهلها. قاله سَعيد ابن جُبَير، وابن جُرَيجٍ. وقيل: حين يُذبَحُ الموتُ بين الجنة والنار. قاله أبو بكر الهُذَلي، فيما رواه ابنُ أبي حاتم، عنه.

وقولُه: ﴿وتَتَلقَّاهم الملائكةُ هذا يومُكم الذي كنتم تُوعَدُونَ﴾، يعني تقولُ لهم الملائكةُ، تُبَشِّرهم يومَ مَعَادهم إذا خَرَجُوا من قُبُورهم: ﴿هذا يومُكم الذي كنتم تُوعَدُون﴾، أي: قَابِلُوا ما يَسُرُّكُم.

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

يقولُ تعالى: هذا كائنٌ يومَ القيامة، ﴿يوم نَطْوِي السماءَ كطَيِّ السجلِّ للكتابِ﴾[(١)] كما قال تعالى:

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٥٨ ـ ٣٦٠، وتفسير الطبري ١٧/٩٦ ـ ٩٧.
(٢) تفسير الطبري ١٧/٩٨.
(٣) سيرة ابن هشام ٢/٤١٩. ورَتق: سدَّ. وفتق الشيء: شقَّه. يريد ما كان منه في الدين، فكلّ إثم فَتْق وتمزيق، وكل توبة رَتْق. وبُور: هالك. يقال: رجل بور وبائر، ورجال بُورٌ. ومثبورٌ: هالك. (٤) تفسير الطبري ١٧/٩٩.
(٤) كذا في الأصل ونسخة الأزهر، وفي غيرها: (للكُتُب) جمعاً، وبالجمع قرأ حفص وحمزة والكسائي من السبعة، والباقون بالتوحيد. انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧٠٤.

﴿ وما قَدروا الله حَقّ قَدْرِه والأرضَ جَميعاً قَبضتُه يومَ القيامةِ والسموات مطويات بِيَمينِهِ سُبحانه وتَعالى عما يُشرِكُون ﴾. وقد قال البخاري:

حدثنا مُقَدَّمُ بن محمد، حدثني عَمِّي القاسم بن يحيى، عن عُبَيد الله، عن نافع، عن ابن عُمَر، عن رَسُول الله ـ ﷺ ـ، قال: «إنَّ الله يَقبِضُ الأرضينَ يوم القيامةِ، وتكونُ السمواتُ بِيَمِينِهِ»(١).

انفَرَد به من هذا الوجهِ البخاريُّ، رحمه الله.

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبي، حدثنا محمد بن أحمد بن الحجَّاجِ الرَّقِّي، حدثنا محمد بن سَلَمة، عن أبي الواصِلِ، عن أبي المُلَيحِ الأزْدِيِّ، عن أبي الجَوْزاءِ الأزديِّ، عن ابن عباس قال: يَطْوي الله السمواتِ السَّبعَ بما فيها من الخَليقَةِ، والأرضينَ السَبعَ بما فيها من الخَليقَةِ، يَطْوي ذلك كلَّه بِيَمِينه، يكونُ ذلك كلُّه في يَدِهِ بمنزلة خَرْدَلَةٍ.

وقولُه: ﴿ كَطَيِّ السِّجلِّ للكتاب ﴾، قيل: المراد بالسجِلِّ الكتاب. وقيل: المراد بالسِّجلِّ هاهنا مَلَكٌ من الملائكة.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا يحيى بن يمان، حدثنا أبو الوفاء الأشجعي، عن أبيه، عن ابن عُمَر في قوله تعالى: ﴿ يوم نَطْوِي السماء كطي السجل للكتاب ﴾. قال: السجلُّ مَلَكٌ، فإذا صَعِد بالاستغفار قال: اكتُبها نوراً.

وهكذا رواه ابن جرير(٢)، عن أبي كُرَيب، عن ابن يَمَانٍ.

قال ابن أبي حاتم: ورُوِيَ عن أبي جعفرٍ مُحمَّد بن عَلِيِّ بن الحُسَين أنَّ السِّجلَّ مَلَكٌ.

وقال السُّدِّيُّ في هذه الآية: السِّجلُ مَلَكٌ مُوكَّلٌ بالصُّحُفِ، فإذا ماتَ الإنسانُ رُفع كِتابُه إلى السِّجلِّ فَطَواه، وَرَفَعه إلى يوم القِيامَةِ.

وقيل: المراد به اسم رجل صحابيٍّ كان يكتُب للنبيِّ ـ ﷺ ـ الوَحْيَ:

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا نَصرُ بن عليٍّ الجَهْضَمِيّ، حدثنا نُوحُ بن قيس، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجَوْزاءِ، عن ابن عباس: يوم نَطْوِي السماء كطي السجلِّ للكتاب، قال: السجل هو الرَّجُلُ.

قال نوحٌ: وأخبرني يزيدُ بن كعب ـ هو العَوْذيُّ ـ عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: السِّجلُّ كاتبُ للنبيِّ ﷺ.

وهكذا رواهُ أبو داودَ والنسائيُّ عن قُتَيبَةَ بن سعيد، عن نُوح بن قيس، عن يزيدَ بن كعبٍ، عن عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس، قال: السجلُّ كاتِبٌ للنبي ﷺ.

ورواه ابنُ جرير عن نَصْر بن علي الجَهْضَمِيِّ، كما تقدم. ورواه ابنُ عَدِيٍّ من روايةِ يحيى بن عمرو بن

(١) فتح الباري، كتاب التوحيد ١٣/٣٩٣.
(٢) تفسير الطبري ١٧/٩٩.

مالك النُّكْريّ، عن أبيه، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: كان للنبيِّ ـ ﷺ ـ كاتبٌ يُسمّى السِّجِلّ، وهو قوله: ﴿ يوم نَطْوِي السماء كطي السِّجِلِّ للكتاب ﴾، قال: كما يَطْوِي السِّجِلُّ الكتابَ، كذلك نَطْوِي السماءَ ثم قال: وهو غير محفوظ.

وقال الخطيبُ البغدادي في تاريخه: أنبأنا أبو بكر البَرْقَاني، أنبأنا محمد بن محمد بن يعقوبَ الحجاجي، أنبأنا أحمد بن الحسن الكرخي، أن حَمْدَانَ بن سَعِيد حَدَّثهم، عن عبد الله بن نُمَير، عن عُبيدَ الله ابن عُمَر، عن نافع، عن ابن عُمَر، قال: السِّجلّ كاتبٌ للنبي ﷺ.

وهذا منكر جداً من حديث نافع عن ابن عمر، لا يصح أصلاً، وكذلك ما تقدم عن ابن عباس، من رواية أبي داود وغيره، لا يصح أيضاً. وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه ـ وإن كان في سنن أبي داود ـ منهم: شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المِزّي، فَسَحَ الله في عُمُره، ونَسَأَ في أَجَلِه، وخَتَم له بصالح عَمَلِه، وقد أفردت لهذا الحديث جزءاً على حِدَةٍ، ولله الحمد[1].

وقد تصدَّى الإمام أبو جعفر بن جرير للإنكار على هذا الحديث، وَرَدَّه أَتَمَّ رَدٍّ، وقال: لا يُعرَف في الصحابة أحدٌ اسمُه السِّجِلُّ، وكتاب النبي ـ ﷺ ـ معروفون، وليس فيهم أحد اسمه السِّجلُّ[2]. وَصَدَق ـ رحمه الله ـ في ذلك، وهو من أقوى الأدلة على نَكَارة هذا الحديث. وأما مَنْ[3] ذكر في أسماء الصحابة هذا فإنما اعتَمَد على هذا الحديث، لا على غيره، والله أعلم.

والصحيح عن ابن عباس أن السجلّ هي الصحيفة. قاله علي بن أبي طلحة والعوفي، عنه. ونَصَّ على ذلك مجاهد، وقتادةُ، وغير واحد. واختاره ابنُ جَرير؛ لأنه المعروفُ في اللغة، فَعَلى هذا يكونُ معنى الكلام: ﴿يوم نَطْوِي السماء كطيِّ السِّجِلِّ للكتاب﴾ أي: على هذا الكتاب، بمعنى المكتوبِ، كَقَوله: ﴿فَلما أَسْلَما وتَلَّه للجَبِينَ﴾، أي: على الجَبِينِ، وله نظائر في اللغة[4]، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ كما بَدَأنا أول خَلْقٍ نُعيدُه وَعْداً عَلَينا إنا كُنَّا فَاعِلين ﴾، يعني هذا كائنٌ لا محالَةَ، يومَ يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً ﴿كما بَدَأنا أَوَّل خَلْقٍ نُعيدُه﴾، أي: كما بَدَأهم هو القادِرُ على إعادتهم، وذلك واجبُ الوقوع، لأنه من جُمْلَةِ وَعْدِ الله الذي لا يُخْلَف ولا يُبدَّلُ، وهو القادرُ على ذلك. ولهذا قال: ﴿ إنا كنا فاعلين ﴾. وقال الإمام أحمد:

حدثنا وكيعٌ وابن جَعفر وعَفَّانُ الـمَعْنِيُّ قالوا[5]: حدثنا شعبةُ، عن المغيرة بن النعمان، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ـ ﷺ ـ بموعظةٍ فقال: «إنكم محشُورون إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حُفاةً عُرَاةً غُرْلاً كما بدأنا أول خلق نُعيدُه وعداً علينا إنا كنا فاعلين»... وذكر تمام الحديث[6].

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الإمارة ١٣٢/٣. وتحفة الأشراف للمزّي ٣٦٦/٤، وتاريخ بغداد، ترجمة حمدان بن سعيد ١٧٥/٨.

(٢) تفسير الطبري ١٠٠/١٧.

(٣) أخرجه ابنُ الأثير عن ابن مَنْدَه وأبي نُعيم، انظر أسد الغابة ٣٢٦/٢.

(٤) أخذه ابن كثير من كلام الطبري ١٠٠/١٧. وانظر في إعراب هذه الآية روح المعاني للألوسي ٩٩/١٧.

(٥) كذا في نُسَختنا. وفي المسند: «حدثنا وكيع وابن جعفر المعنى قالا».

(٦) مسند الإمام أحمد ٢٣٥/١، وفتح الباري، تفسير سورة المائدة ٢٨٦/٨، وتفسير سورة الأنبياء ٤٣٧/٨ ـ ٤٣٨، وكتاب الرقاق ٣٧٧/١١. ومسلم، كتاب الجنة ٢١٩٤/٤ ـ ٢١٩٥. وتفسير الطبري ١٠٢/١٧.
غُرْلاً: غير مختونين.

أخرجاه في الصَّحِيحَين من حديث شعبة. ورواه البخاريُّ عند هذه الآية في كتابه. وقد رَوَى ليث ابن أبي سُلَيم، عن مجاهد، عن عائشة عن النبي ـ ﷺ ـ نحو ذلك.

وقال العَوْفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿ كما بدأنا أوَّل خَلْقٍ نُعِيدُه ﴾، قال: نُهلِكُ كل شيء، كما كان أوَّل مرَّةٍ[١].

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِن بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عمَّا حَتَمه وقَضَاه لعباده الصالحين، من السعادة في الدنيا والآخرة، وَوِرَاثة الأرض في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿ إنَّ الأرضَ لله يُورِثُها من يشاءُ من عباده والعاقبةُ للمتَّقين ﴾. وقال: ﴿إنا لَنَنصُرُ رُسُلَنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويومَ يقومُ الأشهادُ﴾. وقال: ﴿ وَعَد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيَسْتَخلِفَنَّهم في الأرض كما استَخْلَف الذين من قبلهم وَلَيمكِّنَنَّ لهم دينَهم الذي ارتَضى لهم وَلَيبدِّلنَّهم من بعد خَوْفهم أَمْناً ﴾.... الآية.

وأخبر تعالى أنَّ هذا مكتوبٌ مسطورٌ في الكتب الشرعية والقَدَرية، فهو كائن لا محالة. ولهذا قال تعالى: ﴿ ولقد كتبنا في الزَّبور من بعد الذِّكر ﴾، قال الأعمش: سألتُ سعيد بن جُبَير عن قوله تعالى: ﴿ ولقد كتبنا في الزَّبور من بعد الذِّكر﴾، فقال الزَّبور: التوراة، والإنجيل، والقرآن[٢]. وقال مجاهد: الزَّبُور الكتاب. وقال ابنُ عباس، والشعبيُّ، والحسنُ، وقتادةُ، وغيرُ واحد: الزَّبورُ الذي أُنزلَ على داود، والذِّكر التوراة. وعن ابن عباس: الزَّبُور القرآن. وقال سعيد بن جُبَير: الذكر الذي في السماء. وقال مجاهد: الزبورُ: الكُتُبُ. والذِّكرُ: أُمُّ الكتابِ عند الله.

واختار ذلك ابنُ جرير[٣] رَحِمه الله. وكذا قال زيدُ بن أسلم: هو الكتاب الأَوَّل، وقال الثوريُّ: هو اللوح المحفوظ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الزَّبور: الكُتُب التي نُزِّلت على الأنبياء، والذكرُ: أُمُّ الكتاب الذي يُكتَبُ فيه الأشياءُ قبل ذلك.

وقال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: أخبرَ الله سُبحانه في التوراة والزَّبور وسَابِق عِلْمه قبلَ أن تكونَ السمواتُ والأرضُ، أن يُورثَ أمةَ محمد ـ ﷺ ـ الأرضَ ويُدخِلَهم الجنةَ، وهم الصالحون.

وقال مجاهدٌ، عن ابن عباس: ﴿ أن الأرضَ يَرِثُها عبادِي الصالحونَ ﴾، قال: أرضَ الجنة. وكذا قال أبو العالية، ومجاهدٌ، وسَعيد بن جُبَير، والشعبيُّ، وقتادَةُ، والسديُّ، وأبو صالح، والربيعُ بن أنس، والثوريُّ.

وقال أبو الدرداء: نحن الصالحون. والسّديُّ: هم المؤمنونَ.

وقوله: ﴿إنَّ في هذا لبلاغاً لقوم عابِدِين﴾، أي: إنَّ في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ـ ﷺ ـ لَبلاغاً: لَمَنْفعةً وكفايةً لقوم عابدين، وهم الذين عَبَدوا الله بما شَرَعه وأَحبَّه ورَضِيه، وآثَروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشَهوات أنفسهم.

---

(١) تفسير الطبري ١٧/١٠٣.
(٢) تفسير الطبري ١٧/١٠٤.

وقولُه: ﴿وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمين﴾: يُخبِرُ تعالى أن الله جَعَلَ محمداً ـ ﷺ ـ رحمةً للعالمين، أي: أرسله رحمةً لهم كُلِّهم، فمن قَبِل هذه الرحمةَ وشكرَ هذه النِعمةَ سَعِد في الدنيا والآخرة، ومن رَدَّها وجَحَدها خَسِر في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين بَدَّلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومَهم دار البوار * جَهَنم يصلَونها وبئس القرار﴾، وقال الله تعالى في صفة القرآن: ﴿قل هُوَ للذين آمنوا هدىً وشفاءٌ والذين لا يُؤمِنون في آذانهم وَقْرٌ وهو عَلَيهم عَمىً أولئك يُنادَون من مكانٍ بَعيدٍ﴾.

وقال مُسلِمٌ في صحيحه: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا مَرْوَانُ الفَزَارِيُّ، عن يَزِيدَ بن كيسانَ، عن أبي حازم، عن أبي هُرَيرة قال: قيل: يا رسولَ اللهِ، ادعُ على المشركين. قال: إني لم أبعَثْ لَعَّاناً، وإنما بُعِثْتُ رحمةً انفرد بإخراجه مسلم[1].

وفي الحديث الآخر: «إنما أنا رحمةٌ مُهداةٌ». رواه عبد الله بن أبي عِرابَةَ[2] وغيره، عن وَكيع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً[3]. قال إبراهيم الحربي. وقد رواه غيره عن[4][وكيع، فلم يذكر أبا هريرة[5]. وكذا قال البخاري، وقد سُئِل عن هذا الحديثِ، فقال: كان عند حفصِ بن غِياثٍ مرسلاً.

قال الحافظُ ابنُ عساكِرَ: وقد رواه مالكُ بن سُعَير بن الْخِمْس، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة مرفوعاً[6]. ثم ساقه من طريق أبي بكر بن المقرىء وأبي أحمد الحاكم، كلاهما عن بكر بن محمد بن إبراهيم الصوفي: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري، عن أبي أسامة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنما أنا رحمةٌ مهداة».

ثم أورده من طريق الصَّلْتِ بن مسعودٍ، عن سفيان بن عيينة، عن مسعر، عن سعيد بن خالد، عن رجل، عن ابن عُمَر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله بعثني رحمة مهداة، بُعِثْتُ بِرَفْعِ قوم وخَفْضِ آخرين».

قال أبو القاسم الطبرانيُّ: حدثنا أحمد بن محمد بن نافع الطحَّانُ، حدثنا أحمد بن صالح قال: وجدتُ كتاباً بالمدينة عن عبد العزيز الدَّرَاوَرْدِيِّ وإبراهيم بن محمد بن عبد العزيز بن عُمَر بن عبد الرحمن بن عَوْفٍ، عن محمد بن صالح التَّمار، عن ابن شِهَاب، عن محمد بن جُبَير بن مُطْعِم، عن أبيه قال: قال أبو جَهلٍ حين قَدِمَ مكة مُنصَرَفه عن حَمْزَة[7]: يا معشَرَ قريش، إن محمداً نزل يَثْرِبَ وأرسَلَ طلائعَه، وإنما يُريد أن يُصيب منكم شيئاً، فاحذروا أن تَمُرُّوا طريقَه أو تقاربوه، فإنه كالأسد الضاري؛ إنه حَنِقٌ عليكم لأنكم نَفَيتُموه نفي القِرْدَان عن المَنَاسِم[8]، والله إن له لَسَحَرَةً، ما رأيته قطُّ ولا أحداً من أصحابه إلا رأيتُ معهم الشياطين، وإنكم قد عرفتم عداوَةَ ابني قَيلَةَ ـ يعني الأوس والخزرج ـ لَهُو عدو استعان بعدو، فقال له مُطعِم بن عَدِي:

---

(١) مسلم، كتاب البر ٤/٢٠٠٦ ـ ٢٠٠٧.

(٢) قال أبو حاتم بن حبان في الثقات ٨/٣٦٢: «... من أهل الشاش، كنيته أبو محمد. يروي عن ابن عيينة، ووكيع، ويزيد بن هارون. روى عنه أهل بلده. مات في رجب سنة ٢٣٩». وله ترجمة في الأنساب ٣/٣٧٥ وحرفت فيه عرابة إلى عوانة.

(٣) أخرجه الحاكم في كتاب الإيمان بإسناده إلى الأعمش مرفوعاً، المستدرك ١/٣٥.

(٤) من قوله «وكيع» وقع سقط كبير من مخطوطة الحرم المكي ينتهي عند أوائل تفسير الآية الثالثة من سورة الحج.

(٥) أخرجه الدارمي بإسناده إلى الأعمش عن أبي صالح مقطوعاً ١/١١.

(٦) هذه هي طريق أبي عبدالله الحاكم في مستدركه ١/٣٥.

(٧) أي: عن سرِّية حمزة بن عبد المطلب، وخبرها في مغازي الواقدي ٩/١٠ ـ ١١، والبداية والنهاية ٣/٢٣٣.

(٨) القِرْدان: جمع قُرادٍ، وهو دُوَيبَّةٌ، متطفِّلة ذاتُ أرجل كثيرة، تعيش على الدواب والطيور. والمناسم: جمع مَنْسِمٍ، وهو طَرَفُ خفِّ البعير.

يا أبا الحكم والله ما رأيتُ أحداً أصدقَ لساناً ولا أصدقَ مَوعِداً من أخيكم الذي طَرَدتُم، وإذ فعلتم الذي فَعلتم فكونوا أكفَّ الناس عنه. قال أبو سُفيان بن الحارث: كونوا أشدَّ ما كنتم عليه، إن ابنَيْ قيلَةَ إن ظَفرُوا بكم لم يرْقُبوا فيكم إلًّا ولا ذِمَّةً، وإن أطعَتْموني ٱلحَمْتُموه[1] خَيْرَ كِنَانَة، أو تُخرجُوا مُحمَّداً من بين ظَهْرَانيهم، فيكون وحيداً مطروداً، وأما ابنا قَيلَةَ فوالله ما هُما وأهلُ دَهْلَكَ[2] في المذلَّة إلا سواءُ، وسأكْفِيكُم حَدَّهم، وقال:

سَأَمْنَحُ جَانِباً منّي غَلِيظاً عَلَى مَا كَانَ مِنْ قُرْبٍ وبُعْدِ
رِجَالَ الخَزْرَجِيَّةِ أهْلَ ذُلٍّ إذَا مَا كَانَ هَزْلٌ بَعْدَ جِدِّ

فَبلغ ذلك رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال: والَّذي نفسي بِيَدِه، لأَقْتُلَنَّهم وَلأُصَلِّبَنَّهم وَلأَهدِيَنَّهم وهم كارهون، إني رحمةً بعثني الله، ولا يَتوفَّاني حتى يُظهرَ الله دينه، لي خمسةُ أسماءٍ: أنا محمد، وأحمدُ، وأنا الماحي الذي يمحُو الله بي الكُفْرَ، وأنا الحاشِرُ الذي يُحشَر الناسُ على قَدَمِي، وأنا العاقِبُ».

وقال أحمدُ بنُ صالحٍ: أرجو أن يكون الحديثُ صَحِيحاً[3].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا معاويةُ بن عَمرو، حدثنا زائدةُ، حدثني عَمْرو بن قَيس، عن عَمْرو بن أبي قُرَّةَ الكِنْديّ قال: كان حُذَيفةُ بالمدائن، فكان يذكُر أشياءَ قالَها رسولُ الله ـ ﷺ ـ فجاء حديفةُ إلى سَلْمان فقال سلمانُ: يا حذيفةُ، إنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يغضَبُ فيقولُ، ويرضَى فيقولُ، لقد علمت أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ خَطَب فقال: أَيُّما رجل من أمتي سَبَبْتُهُ سَبَّةً في غَضَبِي أو لعنتُه لعنةً، فَإنَّما أنا رجلٌ من وَلَدِ آدم، أغضَب كما يَغضَبُون، وإنما بَعَثني رَحمةً للعالمين، فاجعلها صلاةً عليه يوم القيامة[4].

وَرَواه أبو داود، عن أحمدَ بن يُونُس، عن زَائِدَةَ[4].

فَإن قِيلَ: فأيّ رَحْمَةٍ حَصَلت لمن كَفَر به؟ فالجوابُ ما رواه أبو جعفر بن جرير:

حدثنا إسحاقُ بن شَاهِينَ، حدثنا إسحاق الأزرقُ، عن المَسْعوديّ، عن رَجُل يقال له: سعيدُ، عن سعيد ابن جُبَير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعَالَمِينَ﴾، قال: من آمنَ بالله واليوم الآخر كُتِبَ له الرحمةُ في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورَسُوله عُوفِي مما أصاب الأُمَمَ من الخَسْفِ والقَذْفِ[5].

وهكذا رَوَاه ابن أبي حاتم، من حديث المسعودي، عن أبي سَعدٍ ـ وهو سَعِيدُ بن المرزُبان البَقّالُ ـ عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، فَذَكره بنحوه، والله أعلم.

وقد رواه أبو القاسِمُ الطبراني عن عبدانَ بن أحمدَ، عن عيسى بن يونُسَ الرَّمْلِي، عن أَيُّوبَ بن سُوَيد، عن المسعُودِيِّ، عن حَبيب بن أبي ثابت، عن سَعِيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿وَمَا أرسلناكَ إلاَّ رحمةً

---

(١) كذا في المعجم الكبير، على أن فيه: اطعمتموني. وفي نسخة من التفسير: وإن اطعتموني الجئهم، وأخرى: الجاتموهم. هذا ويقال: الحمه القتالُ، والحِمَ الرحل الحاماً: إذا نشب في الحرب فلم يجد مخلصاً، والحمه غيره فيها. ولعل المعنى: وإن أطعتموني نشبت الحرب بينهم وبين خير كنانة، ويعني بخير كنانة قريشاً. والله أعلم.

(٢) دَهْلَكُ: جزيرة في بحر اليمن، ويقول ياقوت أيضاً: وهي مرسي بين بلاد اليمن والحبشة.

(٣) المعجم الكبير ٢/١٢٣ ـ ١٢٤.

(٤) مسند أحمد ٥/٤٣٧، وسنن أبي داود، كتاب السنة ٤/٢١٥.

(٥) تفسير الطبري ١٧/١٠٦.

للعالمينَ ﴾، قال: من تَبعه كان له رَحمةً في الدُّنيا وَالآخِرَةِ، ومن لم يَتْبَعه عُوفِيَ مما كان يُبتَلَى به سائِرُ الأُمَمِ من الخَسْفِ والمَسْخِ والقَذْفِ(١).

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

يقولُ تعالى آمراً رسولَه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ أن يقولَ للمشركين: ﴿ إنما يُوحَى إليَّ أنَّما إلٰهكم إلٰه واحدٌ فَهَل أنتم مُسلِمُون ﴾، أي: مُتَّبِعون على ذلك مُستَسْلِمُونَ مُنقادُونَ له. ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوا ﴾، أي: تركوا ما دعوتَهم إليه، ﴿ فَقُلْ آذنتُكُم عَلَى سَوَاءٍ ﴾، أي: أعلمتُكم أني حَرْبٌ لكم كما أَنكم حَرْبٌ لي، بريءٌ منكم كما أَنكم بُرَآء مني، كقوله: ﴿ وإن كَذَّبُوك فَقُل لي عَمَلي ولكم عملكم أَنتم بَريئُون مما أعمل وَأنا بَرِيءٌ مما تَعْمَلُون﴾. وقال: ﴿وإما تخافَنَّ من قوم خِيانةً فانبذ إليهم على سَواءٍ﴾، أي: لِيكن عِلْمُك وعِلْمُهم بِنَبْذِ العُهودِ على السَّواءِ، وهكذا ها هنا، ﴿فإن تَوَلَّوا فَقُل آذَنْتُكُم على سواء﴾، أي: أَعْلَمتُكم ببراءتي منكم، وبَرَاءتكم مِنّي، لعلمي بذلك.

وقولُه: ﴿وإن أَدْري أقريبٌ أم بعيدٌ ما تُوعَدُون﴾، أي: هو واقعٌ لا محالَةَ، ولكن لا عِلْمَ لي بقُربه ولا بُعْده، ﴿إنه يعلَمُ الجَهْرَ من القَوْلِ ويعلَمُ ما تَكْتُمونَ﴾، أي: إنَّ الله يعلمُ الغيبَ جَميعَه، ويعلَم ما يُظهِرُهُ العباد وما يُسِرُّون، يعلم الظَّواهِرَ والضَّمائِرَ، ويعلَمُ السرَّ وَأَخْفَى، ويعلَم ما العبادُ عامِلُون في إِجْهَارِهم وَإِسْرَارِهم، وسَيَجزيهم على ذلك، على القليل والجليل.

وقولُه: ﴿ وَإِنْ أَدْري لعلَّه فتنةٌ لكم ومتاعٌ إلى حينٍ ﴾، أي: وما أَدْري لعلَّ هذا فتنةٌ لكم ومتاعٌ إلى حين.

قــال ابنُ جَرير: لَعلَّ تأخِيرَ ذَلِك عَنْكُم فتنةٌ لكم، ومتاعٌ إلى أَجَلٍ مُسَمَّىً. وحكاه عن ابن عباس(٢)، والله أعلم.

﴿قال رَبِّ احكُم بالحقِّ﴾، أي: افصِلْ بَينَنَا وبين قومنا المُكَذِّبين بالحقِّ.

قال قتادةُ: كان الأنبياءُ ـ عليهم السلام ـ يقولون: ﴿ رَبَّنَا افتَحْ بيننا وبينَ قومنا بالحقِّ وأنت خيرُ الفاتحين ﴾. وأُمِرَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن يقولَ ذلك(٣).

وعن مالك، عن زيد بن أسلَم: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا شَهد قتالاً قال: ﴿ رَبِّ احكُمْ بالحَقِّ ﴾.

وقولُه: ﴿ وَرَبُّنـا الرحمنُ المستَعَانُ على ما تَصِفُون ﴾، أي: على ما يَقُولون ويَفْتَرُون من الكَذِب، ويَتَنوَّعُون في مقاماتِ التكذيبِ والإِفكِ، والله المستعانُ عليكُم في ذلك.

هذا آخر تفسير سورة الأنبياء

---

(١) المعجم الكبير ٢٣/١٢.
(٢) تفسير الطبري ١٠٨/١٧.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، انظر الدرّ المنثور ٦٨٩/٥.

تفسير

سُورَةُ الحَجّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾

يقولُ تعالى آمراً عبادَه بتقواه، ومخبراً لهم بما يَستقبلُون من أهوالِ يومِ القيامة وَزَلازِلها وأحوالها. وقد اختلَف المُفسِّرون في زَلزلة الساعة: هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يومَ نُشُورهم إلى عَرَصات القيامة؟ أو ذلك عبارةٌ عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجداثهم؟ كما قال تعالى: ﴿إذا زُلزِلتِ الأرضُ زلزالها * وأخرجَتِ الأرضُ أثقالها﴾. وقال تعالى: ﴿وحُمِلَتِ الأرضُ والجبالُ فدكَّتا دكةً واحدةً * فيومئذٍ وَقَعتِ الواقعةُ﴾. وقال تعالى: ﴿إذا رُجَّت الأرضُ رَجّاً * وبُسَّت الجبالُ بساً * فكانت هباء مُنْبثّاً﴾. فقال قائلون: هذه الزلزلةُ كائنةٌ في آخرِ عُمُر الدنيا، وأوّلِ أحوالِ الساعةِ.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بَشّار، حدثنا ابن يحيى، حدثنا سُفيان، عن الأعمشِ، عن إبراهيمَ، عن علقمةَ في قوله: ﴿ إنَّ زلزلةَ الساعةِ شَيءٌ عظيمٌ ﴾، قال: قبلَ الساعة[1].

ورواه ابن أبي حاتم من حديث الثوري، عن منصور والأعمش، عن إبراهيم، عن عَلْقَمَةَ، فذكره. قال: ورُوي عن الشعبي، وإبراهيم وعُبَيد بن عُمَير، نحوَ ذلك.

وقال أبو كُدَينَةَ، عن عطاء، عن عامر الشعبيِّ: ﴿ يا أيها الناس اتَّقُوا ربكم ﴾، الآية، قال: هذا في الدنيا قبل يوم القيامة[1].

وقد أورد الإمام أبو جعفر بن جرير مُسْتَنَدَ مَنْ قال ذلك في حديث الصُّور، من رواية إسماعيل بن رافع

---

(١) تفسير الطبري ١٧/١٠٩.

قاضي أهل المدينة، عن يزيدَ بن أبي زياد، عن رجُلٍ من الأنصار، عن محمد بن كعب القُرَظيِّ، عن رَجُل، عن أبي هُرَيرَةَ. قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: إن الله لمّا فَرَغَ من خلْقِ السموات والأرض خَلَق الصُّورَ، فأعطاه إسرافيل، فهو واضعُه على فيه، شاخصٌ ببصره إلى العَرْش، ينتظرُ متى يُؤمَر. قال أبو هُرَيرة: يا رسولَ اللهِ، وما الصُّورُ؟ قال: قَرْن. قال: فكيفَ هو؟ قال: قرن عظيم يُنفَخ فيه ثلاثُ نفخات، الأولى نفخةُ الفَزَع، والثانية نفخةُ الصَّعْق، والثالثة نفخةُ القيام لربِّ العالمين. يأمر الله إسرافيلَ بالنفخة الأولى فيقول: انفُخ نفخَةَ الفَزَع. فيفزَعُ أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله، ويأمره فيَمُدُّها ويُطوِّلها ولا يفْتر، وهي التي يقولُ الله تعالى: ﴿ وما ينظر هؤلاء إلا صيحةً واحدةً ما لها من فَوَاقٍ﴾ فيُسَيِّرُ الله الجبال فتكونُ سراباً، وتَرُجّ الأرضُ بأهلها رجّاً، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿يوم ترجُف الراجفة * تَتبعُها الرادفةُ * قلوبٌ يومئذٍ واجفَةٌ ﴾، فتكون الأرضُ كالسفينة المُوبَقَة[1] في البحر، تَضْربُها الأمواجُ تكفؤها[2] بأهلها، وكالقِنْديل المعلَّق بالعَرْش تُرَجِّحهُ الأرواحُ. فَتَميدُ الناس على ظهرها، فتذهَلُ المَرَاضِعُ، وتَضَع الحوامِلُ، ويَشيب الوِلْدَانُ، وتَطِيرِ الشياطينِ هاربةً حتى تأتي الأقطارَ، فَتَلقَّاها الملائكةُ فتضربُ وُجُوهَها، فترجع ويُوَلّي الناس مُدبرينَ، يُنادي بعضُهم بعضاً، وهو الذي يقول الله تعالى: ﴿يومَ التّنَاد * يوم تُوَلُّونَ مُدبِرينَ ما لكم من الله من عَاصمٍ ومن يُضْلِلِ الله فما له من هَادٍ﴾، فبينما هم على ذلك إذ انْصَدَعتِ الأرضُ مَن قُطرٍ إلى قُطرٍ، فَرَأوا أمراً عظيماً، فأخذهم لذلك من الكَرْبُ ما الله أعلَمُ به، ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالمُهْلِ[3]. ثم خُسِفَ شَمسُها وخُسِفَ قَمَرُها، وانتثَرَتْ نجومُها، ثم كُشِطت عنهم. قال رسولُ الله - ﷺ -: والأمواتُ لا يعلمون بشيءٍ من ذلك. قال أبو هريرة: فمن استثنَى اللهُ حينَ يقولُ: ﴿ ففَزِعَ مَن في السمواتِ ومَن في الأرض إلاّ مَن شاء الله ﴾؟ قال: أولئك الشهداءُ، وإنما يَصِلُ الفَزَعُ إلى الأحياءِ، أولئك أحياءٌ عند رَبِّهم يرزقون، وقاهم الله شرّ ذلك اليوم وآمَنَهم، وهو عذابُ اللهِ يبعَثُه على شِرَارِ خَلْقِه، وهو الذي يقول الله: ﴿يا أيها الناسُ اتّقوا ربّكم إنَّ زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم تَرونها تَذهَل كُلّ مرضعة عما أرضعت وتَضعُ كلُّ ذات حمل حَمْلها وتَرَى الناسَ سُكارى وما هم بِسُكارَى ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ﴾.

وهذا الحديث قد رواه الطبرانيّ، وابن جَرير[4]، وابنُ أبي حاتم، وغير واحد، مُطَوَّلاً جداً. والغرضُ منه أنه دَلّ على أَنَّ هذه الزَّلْزلة كائنَةٌ قبلَ يوم السَّاعة، وَأُضيفَتْ إلى السَّاعَةِ لِقُربها منها، كما يُقال: أشراطُ الساعة، ونحو ذلك، والله أعلم.

وقال آخرون: بل ذلك هَوْلٌ وفزَعٌ وزَلْزَالٌ وبلبالٌ، كائنٌ يومَ القيامةِ في العَرَصات، بعدَ القِيَامِ من القُبورِ. واختار ذلك ابنُ جرير، واحتجُّوا بأحاديث:

الأول، قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن هِشَام، حدثنا قتادةُ، عن الحَسَن، عن عِمْرانَ حُصَينٍ: أَنَّ رسولَ الله - ﷺ - قال وهو في بعض أسفاره، وقد تفاوتَ بين[5] أصحابه السيرُ، رَفَع بهاتين الآيتين صوتَه: ﴿ يا أيُّهاالناس اتّقوا ربكم إنّ زلزلة الساعة شيءٌ عظيم * يوم تَرَونها تذهَلُ كلُّ مرضعةٍ عَمّا أرضَعَت وتَضعُ كلُّ ذاتِ

(١) أي: المحبُوسَة.
(٢) أي: تقلبها.
(٣) المُهْلُ: عَكَر الزَّيت. وقال الحسن: كالفِضَّة إذا أُذِيبتْ.
(٤) تفسير الطبري ١٧/١١٠ - ١١١. وانظر تفسير الآية ٧٣ من سورة الأنعام.
(٥) أي: بَعُد ما بينهم.

حَمْلٍ حَمْلَها وتَرَى الناس سُكَارى وما هم بِسُكَارى ولكنَّ عذابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾، فلما سَمِعَ أصحابُهُ بذلك حَثَوا المَطِيَّ، وعَرَفوا أنه عند قولٍ يقولُه، فَلَمَّا تَأَشَّبُوا[١] حولَه قال: أَتَدْرُونَ أَيَّ يومٍ ذاك؟ ذاك يومَ يُنَادَى آدمُ ـ عليه السلام ـ فيناديه ربُّه ـ عزَّ وجلَّ ـ فيقول: يا آدَمُ، ابعَثْ بعثَك إلى النار. فيقول: يا ربِّ، وما بَعْثُ النار؟ فيقول: من كلِّ ألفٍ تسعمائةٌ وتسعةٌ وتسعون في النار، وواحد في الجَنَّةِ. قال: فَأَبْلَسَ أصحابُه[٢] حَتَّى ما أَوْضَحُوا بِضَاحِكَةٍ فلما رَأَى ذلك قال: أَبشِرُوا واعمَلُوا، فوالذي نفسُ محمد بيـده إنكم لَمَعَ خَلِيقَتَينِ[٣] ما كانتا مَعَ شَيءٍ قطُّ إلا كَثَّرتاه: يأجوجُ ومأجوجُ، ومن هَلَكَ من بني آدم وبني إبليس، قال: فَسُرِّيَ عنهم، ثم قال: اعمَلُوا وَأَبشِرُوا، فوالذي نفسُ محمدٍ بيـده ما أنتم في الناسِ إلا كالشَّامَةِ في جَنْبِ البعير، أو الرَّقْمَةِ[٤] في ذِرَاعِ الدابة»[٥].

وهكذا رواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سُنَنَيْهِما، عن محمد بن بشار، عن يحيـى ـ وهو القطان ـ عن هشام ـ وهو الدَّسْتَوائِيُّ ـ عن قتادةَ، به بنحوِهِ. وقال الترمذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ[٥].

طريقٌ أُخرى لهذا الحديث، قال التِّرمذِيُّ: حدثنا ابنُ أبي عُمَر، حدثنا سفيان بن عُيَينة، حدثنا ابنِ جُدْعان، عن الحسن، عن عِمْران بن حُصَينٍ أن النبي ـ ﷺ ـ قال لما نَزَلت: ﴿ يا أَيُّها الناسُ اتقوا ربكم إنَّ زلزلةَ الساعةِ شيءٌ عَظيمٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ ولَكِنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ ﴾، قال: أنزلت عليه هَذه وَهُو في سَفَرٍ، فقال: أَتدرُونَ أيَّ يومٍ ذلك؟ فقالوا: اللهُ ورسولُه أعلم. قال: ذلك يوم يقولُ الله لآدم: ابعَثْ بَعْثَ النارِ. قال: يا ربِّ، وما بعثُ النارِ؟ قال: تسعمائة وتسعةٌ وتسعونَ إلى النارِ، واحدٌ إلى الجنة. فأنشأ المسلِمُونَ يبكُونَ، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: قَارِبُوا وسَدِّدُوا، فإنها لم تكن نُبُوَّةٌ قطُّ إلا كان بين يديها جاهليةٌ، قال: فَيُؤخَذُ العَدَد من الجاهلية، فإن تَمَّت وإلا كَمُلَتْ من المنافقين، وما مثلكم والأمم إلا كَمَثَلِ الرَّقْمة في ذِرَاعِ الدابَّة، أو كالشامَةِ في جنبِ البَعير. ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا رُبعَ أهلِ الجَنَّةَ. فكبَّروا، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثُلُثَ أهلِ الجَنَّةِ. فكَبَّروا، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا نصفَ أهلِ الجنة. فكَبَّروا، قال: ولا أَدْرِي أقال الثلثين أم لا[٦].

وكذا رواه الإمامُ أحمدُ عن سُفيانَ بن عُيَينة، به ثم قال التِّرمذِيُّ أيضاً: هذا حديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وقد رُوِيَ من غير وَجْهٍ، عن الحسن، عن عِمْرانَ بن الحُصَين. وقد رَوَاه ابنُ أبي حاتم من حديثِ سَعِيد ابن أبي عَرُوبة، عن قَتادَةَ، عن الحسن والعلاء بن زياد العَدَوِيِّ، عن عِمْرانَ بن الحُصَين، فذكره.

وهكذا رَوَى ابن جرير عن بُندار، عن غُنْدَر، عن عوفٍ، عن الحَسَن قال: بلغني: أَنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ لما قَفَل من غَزْوة العسرة ومعه أصحابُه بعد ما شارَفَ المدينة قرأ: ﴿ يا أَيُّها الناسُ اتَّقُوا رَبَّكم إنَّ زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ . . . وذكر الحديث[٧]، فذكر نحو سياق ابن جُدعانَ، فالله أعلم.

---

(١) أي: تَجَمَّعوا واختلطوا.

(٢) أي: سكتوا. وما أوضحوا بضاحكة، أي: ما طَلَعُوا بضاحكةٍ ولا أَبْدَوها، وهي إحدى ضَواحِكِ الإنسانِ التي تبدُو عند الضَّحِكِ.

(٣) الخليقَةُ: الخَلْق والخلائق.

(٤) الرقمة: هَنَةٌ ناتئة في ذراع الدابة من داخل، وهما رقمتان في ذراعيها.

(٥) مسند أحمد ٤٣٥/٤، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الحج ٢٨/١٢ ـ ٣٠.

(٦) عارضة الأحوذي، تفسير سورة الحج ٢٧/١٢ ـ ٢٨. ومسند أحمد ٤٣٢/٤.

(٧) تفسير الطبري ١١١/١٧.

الحديث الثاني، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن الطباع، حدثنا أبو سفيان المَعْمَريُّ، عن معمر، عن قتادَةَ، عن أنس قال: نزلت: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾... وذكر يعني نحو سياقِ الحَسَن عن عِمْرَانَ، غير أنه قال: «ومن هَلَكَ من كَفَرَةِ الجنِّ والإنس».

رواه ابنُ جَرير بطوله، من حديث مَعْمَر.

الحديث الثالث، قال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن سُلَيمان، حدثنا عَبَّاد ـ يعني ابن العَوَّام ـ حدثنا هلالُ بن خَبَّاب، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: تلا رسولُ الله ـ ﷺ ـ هذه الآية... فذكر نحوه، وقال فيه: «إنّي لأرجُو أن تَكونُوا رُبُعَ أهلِ الجَنَّةِ، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثُلث أهلِ الجَنَّةِ، ثم قال: إني لأرجُو أن تكونُوا شَطر أهلِ الجَنَّةِ. ففرحوا، وزاد أيضاً: وإنما أنتم جُزءٌ من أَلْفِ جزْءٍ.

الحديث الرابع، قال البخاريُّ عند هذه الآية: حدثنا عُمَر بن حَفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمشُ، حدثنا أبو صالح، عن أبي سَعِيد قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «يقولُ الله تعالى يوم القيامة: يا آدمُ. فيقول: لَبَّيك ربنا وسعدَيك. فَيُنادَى بصَوتٍ: إن الله يأمركَ أن تُخرِجَ من ذريتك بَعثاً إلى النار. قال: يا ربِّ، وما بعثُ النار؟ قال: من كلِّ ألف ـ أُراهُ قال ـ تِسعَمائةٍ وتسعةً وتسعين. فحينئذ تَضَع الحامل حَمْلَها، ويَشيبُ الوليدُ، ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾. فَشَقَّ ذلك على الناس حتى تَغَيَّرت وجوهُهم. قال النبي ـ ﷺ ـ: مِنْ يأجُوجَ ومأجُوجَ تسعمائة وتسعةً وتسعينَ، ومنكم واحدٌ، ثم أنتم في الناس كالشَّعرةِ السوداءِ في جَنْب الثَّور الأبيض، أو كالشَّعرةِ البيضاءِ في جَنْب الثَّورِ الأسود، وإني لأرجُو أن تكونوا رُبُعَ أهلِ الجَنَّة. فَكَبَّرنا ثم قال: ثلث أهلِ الجنة. فكبرنا. ثم قال: شَطْرَ أهلِ الجنة. فكبرنا»(١).

وقد رواه البُخارِيُّ أيضاً في غير هذا الموضعِ، ومسلم، والنسائي في تفسيره، من طُرُقٍ، عن الأعمش، به(٢).

الحديث الخامس، قال الإمام أحمد: حدثنا عَمَّارُ بن محمد ـ ابنُ أختِ سُفيانَ الثَّوريِّ ـ وعبيدة المَعْنَى، كلاهما عن إبراهيم بن مسلم، عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إن الله يبعثُ يومَ القيامة منادياً [يُنادِي]: يا آدمُ، إن الله يأمُرُكَ أن تبعثَ بعثاً من ذُرِّيتك إلى النار، فيقول آدمُ: يا ربِّ من هم؟ فيقال له: من كلِّ مائةٍ تسعةً وتسعين. فقال رجلٌ من القوم: مَن هذا الناجي مِنَّا بعد هذا يا رسول الله؟ قال: هل تَدْرُون ما أنتم في الناس إلَّا كالشَّامَةِ في صَدْرِ البعير»(٣).

انفرَد بهذا السَّندِ وهذا السِّياق الإمامُ أحمدُ.

الحديث السادس، قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن حاتم بن أبي صَغِيرَةَ، حدثنا ابنُ أبي مُلَيكة: أن القاسم بن مُحمَّد أخبره، عن عائشةَ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: إنكم تُحشَرون يوم القيامة حُفاةً عُراةً غُرْلاً(٤). قالت

(١) فتح الباري، تفسير سورة الحج ٤٤١/١٣.
(٢) فتح الباري، كتاب الرقاق ٣٨٨/١١، وكتب التوحيد ٤٥٣/١٣. ومسلم، كتاب الإيمان ٢٠١/١ ـ ٢٠٢.
(٣) مسند الإمام أحمد ٣٨٨/١.
(٤) غُرْلاً: غير مختونين.

عائشةُ: يا رسولَ الله، الرجالُ والنساءُ ينظر بعضُهم إلى بعض؟! قال: يا عائشةُ، إن الأمر أشدُّ من أن يهمهم ذاك[1].

أخرجاه في الصحيحين[1].

الحديث السابع، قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا يحيى بنُ إسحاقَ، حدثنا ابنُ لَهِيعَةَ، عن خالد بن أبي عمْران، عن القاسم بن محمد، عن عائشةَ قالت: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، هل يذكر الحبيبُ حبيبَه يومَ القيامة؟ قال: يا عائشةُ، أمَّا عند ثلاثٍ فلا، أمَّا عند الميزان حتى يثقل أو يَخِفَّ فلا. وأما عند تَطَايُر الكُتُب فإما أنْ يُعطى بيمينه أو يُعطَى بشماله فلا. وحين يخرج عُنُق[2] من النار فَينطَوِي عليهم، ويتَغيَّظُ عليهم، ويقول ذلك العُنُق: وُكِلْتُ بثلاثة، وُكِلْتُ بثلاثة، وُكِلْتُ بثلاثة: وُكِلْتُ بمن ادَّعَى مع الله إلَهاً آخر، وَوُكِلْتُ بمن لا يُؤمِنُ بيوم الحِسَاب، وَوُكِلْتُ بكلِّ جَبَّارٍ عَنيد. قال: فَينْطَوِي عليهم، ويَرْمِيهم في غَمرات، وَلِجَهنَّم جِسْرٌ أدَقّ من الشعر وأحدُّ من السيف، عليه كَلَالِيبُ[3] وَحَسكٌ يَأخُذْنَ من شاء الله، والناس عليه كالطَّرْف[4] وكالبَرْق، وكالرِّيح، وكأجَاوِيدِ الخيل، والرِّكاب[5]، والملائكةُ يقولون: ربِّ سَلِّم سَلِّم. فناجٍ مُسَلَّمٌ: وَمَخْدوشٌ مُسَلَّم، ومُكَوَّرٌ في النار على وُجْهه[6].

والأحاديثُ في أهوال يوم القيامة والآثارُ كثيرةُ جداً، لها موضعٌ آخَرُ. ولهذا قال تعالى: ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيمٌ ﴾، أي: أمرٌ كبيرٌ، وخَطْب جَلِيل، وطارق مُفظِعٌ، وحادث هائلٌ، وكائن عجيبٌ.

والزلزال: هو ما يحصُل للنفوس من الفَزَع والرعبِ كما قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ابتُلِي المؤمنونَ وزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ يومَ تَرَونها ﴾: هذا من باب ضمير الشأنِ، ولهذا قال مُفَسِّراً له: ﴿ تذهَلُ كُلُّ مُرضِعَةٍ عما أَرضَعَتْ ﴾ أي: تَشْتَغِلُ لهول ما تَرَى عن أَحَبِّ الناس إليها، والتي هي أشفَقُ الناسِ عليه، تَدهَش عنه في حَالِ إرضاعِها له، ولهذا قال: ﴿ كلُّ مُرضِعَةٍ ﴾، ولم يقل «مُرْضِعٍ»[7]. وقال: ﴿ عما أرضعت ﴾، أي: عن رضيعها قبل فطامه.

وقولُه: ﴿ وتَضَع كُلُّ ذات حَمْلٍ حَمْلها ﴾، أي: قبل تَمامِهِ لِشِدَّةِ الهَوْلِ، ﴿ وتَرَى الناسَ سُكَارَى ﴾. وقُرِىء: ﴿ سَكْرَى ﴾[8]، أي: من شِدَّةِ الأمر الذي صَارُوا فيه قد دَهِشَتْ عقولُهم، وغابت أذهانُهم، فمن رآهم حَسِبَ أنهم سُكَارَى، ﴿ وما هُم بِسُكَارى ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ ﴾.

---

(١) مسند أحمد ٦/٥٣، وفتح الباري، كتاب الرقاق ١١/٣٧٧ - ٣٧٨، ومسلم، كتاب الجنة ٤/٢١٩٤.

(٢) أي: قطعة من النار.

(٣) الكلاليب: جمع كُلَّاب، وهو حديدةٌ مُعْوَجَّة الرأس يُنْشَلُ بها الشيء أو يُعَلَّق. والحَسَكُ من الحديد: ما يعمل على مثال الحَسَكِ من النبات - له ثمرة خشنة تتعلق بأصواف الغنم وأوبار الإبل - كان يُلقى حول العسكر ويُبَث في مذاهب الخيل فينشب في حوافرها.

(٤) في رواية مسلم، في كتاب الإيمان ١/١٦٩ بإسناده إلى أبي سعيد: «فيمرّ المؤمنون كَطَرْفِ العين».

(٥) الرِّكاب: الإبل.

(٦) مسند الإمام أحمد ٦/١١٠.

(٧) قال الأخفش في معانيه ٢/٤١٣: «تذهلُ كل مرضعةٍ عما أرضعت. وذلك أنه أراد - والله أعلم - الفعل، ولو أراد الصفة فيما نرى لقال: مُرْضِع، وكذلك كُلُّ مُفْعِل وفاعل يكون للأنثى ولا يكون للذكر فهو بغير هاء، نحو: مُقْرِب ومُوقِر، نخلة موقر، وحامل وحائض، وطامث وطالق».

(٨) قرأ حمزة والكسائي: (سكْرى) بفتح السين وبغير ألف، على وزن فَعْلَى. وباقي السبعة (سُكَارى). انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٧٠٥.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤ ﴾

يقولُ تعالى ذاماً لمن كَذَّب بالبعث، وأنكر قُدرَةَ الله على إحياء الموتى، مُعرضاً عما أنزلَ الله على أنبيائه، مُتَّبعـاً في قوله وإنكاره وكُفره كُلَّ شيطان مَريد، من الإنس والجن، وهذا حالُ أهل الضَّلال والبدَع، المُعرضينَ عن الحقِّ، المتَّبعين للباطل، يتركون ما أنزله الله على رسوله من[1]] الحق المبين، ويَتبعون أقوالَ رُءُوس الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء. ولهذا قال في شأنهم[2] وأشباههم: ﴿ ومِنَ الناسِ مَن يُجادلُ في الله بغير علم ﴾، أي: علم صحيح، ﴿ويتَّبع كُلَّ شيطان مَريد * كُتِب عليه﴾، قال مجاهد: «يعني الشيطان»، يعني كُتِبَ عليه كتابةً قَدَرِيَّةً ﴿ أنه من تولاه ﴾، أي: اتَّبعه وقلَّده، ﴿ فأنَه يُضِلُّه ويَهديه إلى عذاب السَّعير ﴾، أي: يُضِلُّه في الدنيا، ويَقُوده في الآخرة إلى عذاب السَّعير، وهو الحارُّ المؤلم المُزعِجُ المقلِقُ.

وقد قال السديّ، عن أبي مالك: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث. وكذا قال ابن جُرَيج.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن سَلْم البَصْرِيُّ، حدثنا عمرو بن المحرَّم أبو قتادة، حدثنا المُعْتَمِر، حدثنا أبو كعب المكي قال: قال خَبيثٌ من خُبَثاء قريش: أخبرونا عن ربكم، مِن ذَهَبٍ هُوَ، أو من فِضَّةٍ هو، أو من نُحاسٍ هو؟ فقعقعت السماءُ قعقعةً ـ والقَعْقَعَةُ في كلامِ العَرَبِ: الرعدُ ـ فإذا قِحْفُ[3] رأسه ساقطٌ بين يَدَيه[4].

وقال ليث بن أبي سُلَيم، عن مجاهد: جاء يهوديٌّ فقال: يا محمدُ، أَخْبِرْني عن رَبِّك، من أَيِّ شيءٍ هُو؟ من دُرّ أم من ياقُوتٍ؟ قال: فجاءت صاعقةٌ فأَخذته.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧ ﴾

لما ذَكر تعالى المخالفَ للبَعث، المُنكِرَ للمَعَاد، ذَكر تعالى الدليلَ على قُدرَتِه تعالى على المعاد، بما يُشاهَدُ من بَدْئِه للخلق، فقال: ﴿ يا أيها الناسُ إن كنتم في رَيب ﴾، أي: في شك ﴿ من البَعث ﴾، وهو المعادُ وقيامُ الأرواح والأجساد، يوم القيامة، ﴿ فإنا خَلَقناكم مِن تُراب ﴾ أي: أصلُ بَرْئِه لكم من تُراب، وهو الذي خُلِق منه آدمُ عليه السلام، ﴿ ثم من نُطفَةٍ ﴾، أي: ثم جعل نَسْلَه من سُلالة من ماء مَهين، ﴿ ثم من عَلَقَةٍ ثم من مُضْغَةٍ ﴾. وذلك أنه إذا استقرت النطفةُ في رَحِم المرأة، مَكَثت أربعين يوماً كذلك، يُضَاف إليه ما يجتمعُ

---

(١) إلى هنا ينتهي السقط من نسخة الحرم، والذي بدأ عند تفسير الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء.

(٢) في نسخة الحرم: «في صحيح شأنهم».

(٣) القِحْفُ: أحد القحاف ثمانية تكوِّن علبة عظيمة هي الجُمْجُمة، وفيها الدِّماغ.

(٤) انظر الآثار والأحاديث في ذلك عند تفسير الآية ١٣ من سورة الرعد.

إليها، ثم تنقلب عَلقَة حمراءَ بإذن الله، فتمكث كذلك أربعينَ يوما، ثم تستحيل فتصيرُ مُضغةً: قطعةً من لحم لا شكلَ فيها ولا تخطيط، ثم تَشْرَعُ في التشكيل والتخطيط فَيُصَوَّر منها رأس ويَدَان، وصَدْرٌ وبطن، وفَخِذان ورِجْلان، وسائر الأعضاء. فتارة تُسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارةً تُلقيها وقد صارت ذات شَكْل وتَخطيط، ولهذا قال تعالى: ﴿ ثم من مُضغَةٍ مخلَّقة وغير مخلقة ﴾، أي: كما تشاهِدُونها، ﴿ لنبيِّن لكم ونقرُّ في الأرحام ما نشاءُ إلى أَجَلٍ مُسمًّى ﴾ أي: وتارةً تَستَقِرُّ في الرَّحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهِدٌ في قوله تعالى: ﴿ مخلَّقةٍ وغير مُخلَّقةٍ ﴾، وقال: «هو السِّقط مَخلوقٌ وغيرُ مخلوقٍ». فإذا مَضى عليها أربعون يوماً، وهي مُضْغَة، أرسَلَ الله تعالى إليها ملكاً فَنَفَخَ فيها الروحَ، وسَوَّاها كما يشاء الله عز وجل، من حَسَن وقَبيح، وذَكر وأنثى، وكَتَب رزقها وأجلها، وشقيّ أو سَعيد، كما ثَبَت في الصَّحيحَين، من حديث الأعمش، عن زيد بن وَهْب، عن ابن مَسْعُودٍ قال: حَدَّثنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ وهو الصَّادقُ المصدُوقُ: «إنَّ خَلْقَ أحدكم يُجمعُ في بطن أُمِّه أربعين ليلةً، ثم يكون عَلقَةً مثل ذلك، ثم يكون مُضْغَةً مثلَ ذلك، ثم يبعَثُ الله إليه المَلَك فَيُؤمَرُ بأربعِ كَلِماتٍ، يكتب عملَه وأجلَه ورزقَه، وشقيٌّ أو سعيدٌ، ثم يُنفَخُ فيه الرّوحُ»[1].

وروى ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم من حديث داودَ بن أبي هِندٍ، عن الشَّعبيِّ، عن عَلقَمَةَ، عن عبد الله قال: النطفة إذا استقرت في الرحم جاءَها مَلَكٌ بكَفِّه قال: يا ربِّ، مُخلَّقةٌ أو غير مُخلَّقة؟ فإن قيل: «غيرُ مُخلَّقة» لم تكن نَسَمَةً، وقَذَفتها الأرحامُ دماً. وإن قيلَ: «مُخلَّقة»، قال: أَيْ ربِّ، ذكرٌ أو أنثى؟ شقيٌّ أو سعيدٌ؟ ما الأجلُ؟ وما الأثرُ؟ وبأيِّ أرضٍ يموتُ؟ قال: فَيُقال للنُّطفة: من ربُّك؟ فتقول: الله. فيقال: من رَازِقُك؟ فتقولُ: الله. فيقال له: اذهَبْ إلى الكِتاب، فإنك ستجدُ فيه قِصَّةَ هذه النُّطفةِ. قال: فتُخلَق فَتَعيشُ في أجلها، وتأكُلُ رزقَها وتطأُ أثَرها، حتى إذا جاء أجَلُها ماتت، فَدُفِنت في ذلك. ثم تلا عامِرٌ الشَّعبيُّ: ﴿ يا أيها الناسُ إن كُنتم في رَيْب من البَعْث فإنا خَلقناكم من تُراب ثم من نُطْفَةٍ ثم من عَلَقَةٍ ثم من مُضغَةٍ مُخلَّقة وغير مُخلَّقة ﴾. فإذا بلغت مُضغةً نُكِست في الخَلْقِ الرابع[2] فكانت نَسَمة، فإن كانت غير مُخلَّقة قَذَفتها الأرحامُ دَماً، وإن كانت مُخلَّقة نُكِسَت في الخَلْقِ.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المُقرِئُ، حدثنا سفيان، عن عَمرو بن دينار، عن أبي الطُّفَيل، عن حُذيفة بن أَسِيدٍ ـ يَبلُغ به النبي ـ ﷺ ـ قال: «يدخُلُ المَلَكُ على النُّطفة بعد ما تَستقِرُّ في الرَّحم بأربعين أو خَمْس وأربعين، فيقول: أيْ ربِّ، أشقيٌّ أم سَعيدٌ؟ فيقول الله، ويَكتُبان، فيقول: أذكرٌ أم أنثى؟ فيقولُ الله ويكتُبان، ويكتب عَمَله وأثره ورزقه وأَجَله، ثم تُطوى الصحفُ، فلا يُزادُ على ما فيها ولا يُنقَصُ».

ورواه مسلمٌ من حديث سُفيانَ بن عُيَينة، ومن طُرُقٍ أُخَر، عن أبي الطُّفَيلِ، بنحوِ مَعناه[3].

وقولُه: ﴿ ثم نُخرجُكم طِفلاً ﴾، أي: ضعيفاً في بَدَنه وسَمْعِه وبَصره وحَواسِّه، وبَطْشِه وعقله. ثم يعطيه الله القُوّة شيئاً فشيئاً ويلطُفُ به، ويُحنِّن عليه والدَيه في آناء الليل وأطرافِ النَّهار. ولهذا قال: ﴿ ثم لِتَبلُغوا أشُدَّكم ﴾، أي: يتكامل القويُّ ويتزايدُ، ويَصِل إلى عُنفُوانِ الشباب وحُسْن المنظر. ﴿ ومنكم من يُتوفَّى ﴾،

---

(١) أخرجاه في كتاب القدر، فتح الباري ١١/٤٧٧، ومسلم ٤/٢٠٣٦.
(٢) أي: رُدَّت في الخلق الرابع وقُلِبَتْ.
(٣) مسلم، كتاب القدر ٤/٢٠٣٧.

اي: في حال شبابه وقُواه، ﴿ ومنكم من يُردُّ إلى أرذلِ العُمر ﴾، وهو الشَّيْخوخَةُ والهَرم، وضَعْفُ القوَّة والعقل والفَهم، وتناقص الأحوال من الخَرَف وضَعْفِ الفِكْر، ولهذا قال: ﴿ لكيلا يعلَم من بعد علْم شيئاً ﴾، كما قال تعالى: ﴿ الله الذي خَلَقَكُم من ضَعْفٍ ثم جَعَل من بعد ضَعْفٍ قُوَّةٍ ثم جَعَل من بعدِ قوةٍ ضَعْفاً وشيبةً يخلقُ ما يشاء وهو العليم القَدِيرُ ﴾.

وقد قال الحافظ أبو يَعْلَى أحمدُ بن علي بن المُثَنَّى المَوْصلي في مسنده: حدثنا منصور بن أبي مُزَاحِم، حدثنا خالد الزيات، حدثني داود أبو سليمان[١]، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمَر بن حَزْم الأنصاري، عن أنس بن مالك ـ رَفَع الحديث ـ قال: المولود حتى يبلغ الحِنْث[٢]، ما عَمِل من حَسَنةٍ كُتِبت لوالده أو لوالدته، وما عَمِل من سَيِّئةٍ لم تُكتَب عليه ولا على والديه، فإذا بلغ الحِنْث أجْرَى الله عليه القَلَم، أمَر المَلَكان اللَّذان معه أن يحفظا وأن يُشدِّدا، فإذا بلغ أربعين سنةً في الإسلام أمَّنه الله من البلايا الثلاث: الجُنُون، والجُذَام، والبَرَص. فإذا بلغ الخمسين، خَفَّف الله حسابَه. فإذا بَلَغ الستّين رَزَقه الله الإنابة إليه بما يُحِبُّ، فإذا بلغ السبعين أَحَبَّه أهلُ السماء، فإذا بلغ الثمانين كَتَب الله حَسَناته وتجاوَزَ عن سيِّئاتِه، فإذا بلغ التِّسعين غَفَر الله له ما تَقَدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وشفَّعه في أهل بيته، وكان أسيرَ الله في أرضِه، فإذا بلغ أرذل العُمُر ﴿ لِكيلا يعلم من بعد عِلْمٍ شيئاً ﴾، كَتَب الله له مثْل ما كان يعملُ في صِحَّتِه من الخير، فإذا عَمِل سَيِّئةً لم تُكتَب عليه[٣].

هذا حديثٌ غريبٌ جدّاً، وفيه نَكَارة شَدِيدة. ومع هذا قد رَوَاه الإمامُ أحمدُ بن حَنبلٍ في مسنده مرفوعاً وموقوفاً فقال:

حدثنا أبو النضر، حدثنا الفَرَجُ، حدثنا محمد بن عامر، عن محمد بن عبد الله العَامِرِيِّ[٤]، عن عمرو بن جعفر، عن أنس قال: إذا بَلَغ الرجلُ المسلمُ أربعينَ سنةً أمَّنه الله من أنواع البلايا، من الجُنونِ والجُذام والبَرَص. فإذا بلغ الخمسين لَيَّن الله حسابه، وإذا بلغ الستّين رَزَقه الله إنابةً يُحبُّه عليها. وإذا بَلَغ السَّبعين أحبَّه الله وأحبَّه أهلُ السماء، وإذا بَلَغ الثمانين تَقَبَّل الله حسناته، ومحا عنه سَيِّئاته. وإذا بلغ التِّسعين غَفَر الله له ما تَقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وسُمِّي أَسِير الله في الأرض، وشُفِّع في أهله[٥].

ثم قال: حدثنا هاشم، حدثنا الفرج، حدثني محمد بن عبد الله العامِرِيّ، عن محمد بن عبد الله بن عَمْرو بن عُثمانَ، عن عبد الله بن عُمَر بن الخطاب، عن النبي ـ ﷺ ـ مثله[٥].

ورواه الإمامُ أحمدُ أيضاً: حدثنا أَنَس بن عِيَاض، حدثني يُوسُفُ بن أبي ذَرَّة[٦] الأنصاريّ، عن جعفر بن عمرو بن أمية الضَّمْرِيِّ، عن أَنَس بن مالك: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: ما من مُعمَّر يُعمَّر في الإسلام أربعين سنة إلا صَرَفَ الله عنه ثلاثةَ أنواعٍ من البلاءِ: الجُنونَ والجُذَامَ والبَرَص. . . » وذكر تمام الحديث[٧]، كما تقدم سَوَاءً.

---

(١) في مسند أبي يعلى: داود بن سليمان.

(٢) الحِنْث: الإثم والمعصية، والمراد: حتى يبلغ مبلغ الرجال فحينئذٍ يُؤثَّم بما يعمل.

(٣) مسند أبي يعلى ٦/٣٥١ ـ ٣٥٢.

(٤) في النسخ: العاملي. والمثبت عن المسند.

(٥) مسند أحمد ٢/٨٩.

(٦) في الأصل: يونس بن أبي ذر. وفي المسند: يوسف بن أبي بُرْدَة. والمثبت عن تهذيب الكمال. ترجمة جعفر بن عمرو الضَّمْري ٥/٦٨، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٩/٢٢٢.

(٧) مسند أحمد ٣/٢١٧ ـ ٢١٨.

ورواه الحافظُ أبو بكر البزّارُ، عن عبد الله بن شَبيبٍ، عن أبي شَيْبَةَ، عن عبد الله بن عبد الملك، عن[١] أبي قَتَادَةَ العُذْري، عن ابن أخي الزهري، عن عَمِّه، عن أنس بن مالكٍ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما مِن عبد يُعمَّر في الإسلام أربعينَ سنة، إلا صَرَفَ الله عنه أنواعاً من البلاء: الجُنونَ والجُذامَ والبَرصَ، فإذا بلغ خمسينَ سنةً لَيَّن الله له الحساب، فإذا بلغ سِتِّين سنة رَزَقه الله الإنابَةَ إليه بما يُحِبُّ، فإذا بلغ سبعين سنةً غفر الله له ما تَقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وسُمِّي أسير الله، وَأحبَّه أهلُ السماء، فإذا بلغ الثَّمانِينَ تَقبَّل الله منه حَسَناتِهِ وتجاوَزَ عن سيئاته، فإذا بَلَغ التِّسعين غَفَر الله له ما تقدَّم من ذَنْبِهِ وما تأخَّرَ، وسُمِّي أَسيرَ الله في أَرْضِهِ، وشُفِّع في أَهْلِ بَيْتِهِ»[٢].

وقولُه: ﴿ وترى الأرض هامدةً ﴾: هذا دليلٌ آخرُ على قُدْرَتِهِ تعالى على إحياءِ الموتى، كما يُحيِي الأرضَ الميِّتَةَ الهامدة، وهي القَحْلَة التي لا نبتَ فيها ولا شَيْء.

وقال قتادة: غبراءَ مُتَهشِّمَةً. وقال السُّدِّيُّ: مَيْتَةً.

﴿ فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزَّت وربَت وَأنبتت من كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ ﴾، أَيْ: فإذا أنزلَ اللهُ عليها المَطر ﴿ اهتزَّت ﴾، أي: تَحرَّكت بالنبات وحَيِيتْ بعد مَوْتها، ﴿ وَرَبت ﴾، أي: ارتفعت لما سَكَن فيها الثَّرى، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفُنُون، من ثمار وزروع، وأشتاتِ النباتات في اختلاف ألوانها وطُعُومها، وروائحها وأشكالها ومَنَافعها. ولهذا قال تعالى: ﴿ وأنبتَتْ من كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ ﴾، أي: حَسَنِ المَنْظَرِ طَيِّب الرِّيح.

وقولُه: ﴿ ذَلِك بِأَنَّ الله هُوَ الحَقُّ ﴾، أي: الخالق المدبِّر الفعَّالُ لما يَشاءُ، ﴿ وأنه يُحيِي الموتى ﴾، أي: كما أحيا الأرضَ الميِّتة وَأنبتَ منها هذه الأنواعَ؛ ﴿ إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنَّه على كُلِّ شيء قدير ﴾، فـ ﴿ إنَّما أمرُه إذا أراد شيئاً أن يقولَ له كُن فيكونُ ﴾.

﴿ وَأَنَّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها ﴾، أي: كائنةٌ لا شَكَّ فيها ولا مِرْيَة، ﴿ وأن الله يبعثُ مَن في القبور ﴾ أي: يُعيدهم بعد ما صَارُوا في قُبورهم رمَماً، ويُوجِدُهم بعد العَـدَم، كما قال تعالى: ﴿ وضَرَب لنا مَثَلاً ونَسِيَ خَلْقَه قال من يُحيي العِظَام وهي رَمِيمٌ * قُلْ يُحييها الذي أنشأها أَوَّل مَرَّةٍ وهو بكُلِّ خلْقٍ عَلِيم * الذي جَعَل لكم من الشَّجرِ الأخضَرِ ناراً فإذا أنتم منه تُوقِدُون ﴾. . . والآياتُ في هذا كثيرةٌ.

وقال الإمام أحمد: حدثنا بَهْزٌ، حدثنا حَمَّاد بنُ سَلَمةَ قال: أنبأنا يعلى بنُ عَطَاءٍ، عن وكيع بن عُدُسٍ، عن عمه أبي رَزِينٍ العُقَيلي ـ واسمه لَقِيطُ بن عامر ـ أنه قال: يا رسولَ الله، أَكُلُّنا يَرى رَبَّه ـ عزَّ وجلَّ ـ يوم القيامة؟ وما آية ذلك في خَلقه؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أليسَ كُلُّكم ينظرُ إلى القَمرِ مُخْلياً[٣] به؟ قلنا: بلى. قال: فالله أعظم. قال قلتُ: يا رسولَ الله، كيفَ يُحيِي الله الموتى، وما آيةُ ذلك في خَلْقِهِ؟ قال: أما مَرَرْتَ بِوَادِي أهلك مُمْحلاً[٤] قال: بلى. قال: ثم مررتَ به يهتزُّ خضراً؟ قال: بلى. قال: فَكَذلك يُحيِي الله الموتى، وذلك آيتُه في خَلْقِهِ[٥].

ورواه أبو داودَ وابنُ ماجه، من حديث حَمَّاد بن سَلَمة، به[٥].

---

(١) في نسخة الحرم وحدها: عبدالله بن أبي قتادة.

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزّار، كتاب الزهد ٤/٢٢٦.

(٣) أي: منفرداً به. يقال: أخلى بفلان: انفرد به في خَلْوَةٍ.

(٤) أمْحَل المكان: أَجْدَب. ومُمْحِلاً، كذا في النسخ. وفي المسند: مَحْلاً. وكلٌّ صَوَاب. يقال: أرض مَحْلٌ ومَحْلَةٌ.

(٥) مسند أحمد ٤/١١، وسنن أبي داود، كتاب السنة ٤/٢٣٤، وسنن ابن ماجه، المقدمة ١/٦٤.

ثم رواه الإمام أحمد أيضاً: حدثنا علي بن إسحاق، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا عبد الرحمن بن يَزِيدَ بن جابر، عن سليمان بن موسى، عن أبي رَزِين العُقَيلي قال: أتيت رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقلت: يا رسولَ الله، كيف يُحيي الله الموتى؟ قال: أمررت بأرض من أرْضِ قومك مُجْدِبَةً، ثم مَرَرْتَ بها مُخصِبَةً؟ قال: نعم. قال: كذلك النُّشورُ[1].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عُبَيس[2] بن مرحوم، حدثنا بُكَير بن [أبي][3] السَّمِيط، عن قتادة، عن أبي الحَجَّاج، عن مُعَاذِ بن جبل قال: «مَن عَلِم أن الله هو الحقُّ المبينُ، وأن الساعة آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأن الله يبعث من في القبور، دَخَل الجنة[4]. والله أعلم.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠ ﴾

لما ذكر تعالى حال الضُّلَّال الجُهَّال المُقلِّدين في قوله: ﴿ ومن الناس من يجادلُ في الله بغير علم ويَتَّبع كُلَّ شيطان مَريد ﴾، ذكر في هذه حال الدُّعاة إلى الضلال من رءُوس الكفر والبِدَع، فقال: ﴿ ومن الناس من يُجادِلُ في الله بغير علم ولا هُدىً ولا كِتَابٍ مُنِير ﴾، أي بلا عقل صَرِيح، ولا نَقْل صَحِيح صَرِيح، بل بمجرَّد الرَّأيِ والهَوَى.

وقولُه: ﴿ ثاني عطفه ﴾، قال ابن عباس وغيره: مُستكبراً عن الحقِّ إذا دُعِي إليه.

وقال مجاهدٌ، وقتادةُ، ومالكٌ، عن زيد بن أسلَمَ: «ثاني عطفه»، أي: لاوِيَ عُنُقِه، وهي رقبته. يعني يُعرض عما يُدعَى إليه من الحق ويُثْنِي رقبته استكباراً، كقولِه تعالى: ﴿ وفي مُوسَى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين * فتولَّى برُكْنِه وقال ساحرٌ أو مجنون﴾، وقال تعالى: ﴿ وإذا قيلَ لهم تعالَوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيتَ المنافقين يَصُدُّون عنك صُدُوداً ﴾. وقال: ﴿ وإذا قِيلَ لهم تعالوا يستغفرْ لكم رسول الله لَوَّوا رُءُوسَهم ورأيتَهم يصدُّون وهم مستكبرون ﴾، وقال لقمان لابنه: ﴿ ولا تُصَعِّر خدَّكَ للناس ﴾، أي: تُميلُه عنهم استكباراً عليهم. وقال تعالى: ﴿ وإذا تُتلَى عليه آياتُنا وَلَّى مستكبراً كأن لم يَسمَعْهَا [كأنَّ في أُذُنيه وقراً]، فَبَشِّرْه بعذاب أليم ﴾.

وقوله: ﴿ لِيُضِلَّ عن سبيل الله ﴾، قال بعضهم: هذه لام العاقبة، لأنه قد لا يقصد ذلك وَيَحْتَمِلُ أن تكون لام التعليل. ثم إمَّا أن يكونَ المرادُ بها المعاندين، أو يكون المراد بها أن هذا الفاعلَ لهذا إنما جعلناه على هذا الخُلُق الذي يجعلُه ممن يُضِلّ عن سبيل الله.

ثم قال تعالى: ﴿ له في الدنيا خِزْيٌ ﴾، وهو الإهانة والذلُّ، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لَقَّاه الله المذلَّةَ في الدنيا، وعاقَبَه فيها قبل الآخرة، لأنها أكبر هَمِّه ومبلغُ عِلْمِه، ﴿ونُذِيقُه يوم القيامة عذابَ الحَرِيق *

---

(١) مسند أحمد ١١/٤.
(٢) في الأصل: عيسى. وفي نسخة عنبس. والمثبت عن الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣٤/٧.
(٣) عن تهذيب الكمال ٢٣٦/٤، والجرح لابن أبي حاتم ٤٠٦/٢.
(٤) أخرجه أيضاً عبد بن حميد، وعبدالله بن أحمد في زوائد الزهد. انظر الدرّ المنثور ١١/٦.

ذلك بما قدَّمت يداك ﴾، أي: يقال له هذا تقريعاً وتوبيخاً، ﴿ وأن الله ليس بظلّام للعبيد ﴾، كقوله تعالى: ﴿خُذُوه فاعتلوه إلى سَوَاءِ الجَحِيم * ثم صُبُّوا فوقَ رأسِهِ من عَذابِ الحَمِيم * ذُقْ إنَّك أنت العزيزُ الكريمُ * إنَّ هذا ما كنتم به تَمترُون﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن الصبّاح، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام، عن الحسن قال: بَلَغني أنَّ أحَدَهُم يُحرَقُ في اليومِ سَبْعِينَ ألفَ مَرَّةٍ[1].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾

قال مجاهدٌ، وقتادةُ، وغيرهما: ﴿ على حَرْفٍ ﴾: على شَكٍّ. وقال غيرُهم: على طَرَفٍ. ومنه حَرْفُ الجبل. أي: طَرَفُه، أي: دخل في الدين على طَرَفٍ، فإن وَجَد ما يُحِبُّه استقرَّ، وإلا انشمَرَ[2].

وقال البخاريُّ: حدثنا إبراهيمُ بن الحارث، حدثنا يحيى بنُ أبي بُكَير، حدثنا إسرائيل، عن أبي حَصِين، عن سَعِيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: ﴿ ومِنَ الناس مَن يعبدُ الله على حَرْفٍ ﴾، قال: كان الرجل يَقْدَمُ المدينة، فإن وَلَدتْ امرأتُه غلاماً، ونُتِجت خَيْلُه، قال: هذا دينٌ صالحٌ. وإن لم تَلِد امرأتُه، ولم تُنتَجْ خيلُه قال: هذا دينُ سَوْءٍ[3].

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بنُ الحُسَين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبي، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق القُمّي، عن جعفر بن أبي المُغيرَة، عن سَعِيد بن جُبير، عن ابن عَبَّاس قال: كان ناسٌ من الأعراب يأتون النبيَّ - ﷺ - فيُسلمون، فإذا رَجَعُوا إلى بلادهم فإن وَجَدُوا عام غَيث وعام خِصْبٍ وعَام وِلَادٍ حَسَنٍ قالوا: إنَّ ديننا هذا لَصالح. فتمسَّكوا به. وإن وَجَدُوا عام جُدُوبة وعام وِلَادِ سَوْءٍ وعام قَحْطٍ قالوا: ما في ديننا هذا خير. فأنزل الله على نَبيه: ﴿ ومن الناس من يعبدُ الله على حَرْفٍ فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنةٌ انقلَب على وَجهِهِ ﴾.

وقال العَوفيُّ، عن ابن عَبَّاس: كان أحدُهم إذا قَدِم المدينةَ، وَهُم بأرضٍ دَوِيَّةٍ[4]، فإن صحَّ بها جِسمُه، ونُتِجت فرسُه مُهراً حسناً، وَولدت امرأتُه غُلاماً، رَضي به واطمأنّ إليه، وقال: ما أصبتُ منذ كنتُ على ديني هذا إلا خيراً. وإن أصابته فتنة - والفتنة: البلاءُ - أي: وإن أصابه وَجَعُ المدينة، وولدتِ امرأتُه جَاريةً، وتأخَّرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبتَ منذُ كنتَ على دِينِكَ هذا إلا شرّاً. وذلك الفتنةُ.

وهكذا ذَكَر قتادةُ، والضَّحاكُ، وابنُ جُرَيج، وغيرُ واحدٍ من السَّلَفِ، في تفسير هذه الآية.

وقال عبدُ الرحمن بن زَيدِ بن أسلم: هو المنافق، إن صَلَحت له دُنياه أقامَ على العِبَادَةِ، وإن فَسَدت عليه

---

(١) الدرّ المنثور ١٣/٦.

(٢) أي: مضى.

(٣) فتح الباري، تفسير سورة الحج ٤٤٢/٨.

(٤) أرضٌ دَوِيَّةٌ: غيرُ موافِقَةٍ للإقامة فيها. ولفظ الطبري ١٢٢/١٧: «وهي أرض وَبِيئة». ومثله في الدر المنثور ١٣/٦.

دُنياه وتغيَّرت انقلب فلا يُقيم على العبادةِ إلا لِمَا صَلَح من دنياه، فإن أصابته فتنةٌ أو شدَّةٌ أو اختبارٌ أو ضِيقٌ ترك دينَه ورجع إلى الكفر[١].

وقال مجاهدٌ في قوله: ﴿ انقلب على وَجْهِهِ ﴾، أي: ارتدَّ كافراً.

وقولُه: ﴿ خَسِرَ الدنيا والآخِرَةَ ﴾، أي: فلا هو حَصَلَ من الدنيا على شيءٍ، وأما الآخرةُ فقد كَفَر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاءِ والإهانة. ولهذا قال: ﴿ ذلك هو الخسران المبين ﴾، أي: هذه هي الخسارةُ العظيمةُ، والصفقةُ الخاسرة.

وقولُه: ﴿ يدعُو من دون الله ما لا يضرُّه وما لا ينفعه ﴾، أي: من الأصنام والأنداد، يستغيثُ بها ويستنصِرُهَا وَيَسترزِقُها، وهي لا تنفعهُ ولا تَضُرُّه، ﴿ذلك هو الضلالُ البعيدُ * يدعُو لَمَن ضَرُّه أقربُ من نَفْعِهِ ﴾، أي: ضَرَرُه في الدنيا قبلَ الآخرةِ أقربُ من نَفْعِهِ فيها، وأما في الآخرة فَضررُهُ مُحقَّقٌ متيقَّنٌ.

وقولُه: ﴿ لبئسَ المولى وَلبِئْسَ العَشِيرُ ﴾، قال مجاهد: يعني الوثن. يعني بِئْسَ هذا الذي دَعَا به من دون الله مولى، يعني: ولياً وناصراً، ﴿وبئس العشيرُ﴾، وهو المخالطُ والمعاشرُ.

واختار ابنُ جرير أنَّ المراد: لَبِئْسَ ابنُ العمِّ والصاحِبُ من يَعبُدُ على حَرفٍ[٢]. ﴿فإن أصابه خيرٌ اطمَأنَّ به وإن أصابته فتنةٌ انقَلَب على وَجْهِهِ﴾.

وقولُ مجاهدٍ إنَّ المرادَ به الوثنُ، أولى وأقربُ إلى سياقِ الكلامِ، والله أعلم.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ ﴾

لما ذَكر أهلَ الضلالة الأشقياء عَطَف بذكر الأبرار السُّعداء، من الذين آمنُوا بقلوبهم، وصدَّقوا إيمانَهم بأفعالهم، فَعَمِلوا الصالحات من جَميع أنواع القُرُبات، وتركوا المنكرات، فأورثهم ذلك سُكنَى الدرجاتِ العالياتِ، في رَوْضاتِ الجنَّاتِ.

ولما ذَكَر أنه أضلَّ أولئك، وهَدى هؤلاءِ، قال: ﴿ إنَّ الله يفعلُ ما يريدُ ﴾.

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾

قال ابن عباس: من كان يظنُّ أن لن ينصُرَ الله محمداً ـ ﷺ ـ في الدنيا والآخرة، ﴿ فَلْيمدُدْ بِسَببٍ ﴾، أي: بحبلٍ ﴿ إلى السَّماء ﴾، أي: سماءِ بيتِهِ، ﴿ ثم ليقطَعْ ﴾، يقول: ثُمَّ لْيختَنِقْ به[٣]. وكذا قال مجاهدٌ، وعكرمةُ، وعطاءٌ، وأبو الجوزاءِ، وقتادةُ، وغيرهم.

وقال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَم: ﴿ فَلْيمدُدْ بسَببٍ إلى السماء ﴾، أي: ليتوصَّل إلى بُلُوغِ السماءِ، فإنَّ النصرَ إنما يأتي مُحمَّداً من السماء، ﴿ ثُمَّ لْيَقطَعْ ﴾ ذلك عنه، إنْ قَدَرَ على ذلك.

(١) تفسير الطبري ١٧/١٢٣.
(٢) تفسير الطبري ١٧/١٢٥.
(٣) تفسير الطبري ١٧/١٢٦، وأخرجه الحاكم في مستدركه، تفسير سورة الحج ٢/٣٨٦: وقال: «صحيحُ الإسنادِ ولم يُخرجاه». وزاد في الدر المنثور ٦/١٥ عن عَبْد بن حُمَيد، والفِرْيَابيِّ، وابن المُنْذِرِ، وابن أبي حاتم.

وقولُ ابنِ عباس وأصحابه أولى وأظهرُ في المعنى، وأبلغُ في التهكم؛ فإنَّ المعنى: من ظَنَّ أن الله ليس بناصرٍ محمداً وكتابَه ودينَه فَلْيذهَبْ فَلْيقتُلْ نفسه، إن كان ذلك غائظَه فإن الله ناصرُه لا محالَةَ، قال الله تعالى: ﴿إنا لَننصُر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقومُ الأشهادُ ۞ يوم لا ينفعُ الظالمين مَعْذِرَتُهم ولهم اللعنةُ ولهم سوء الدارِ﴾. ولهذا قال: ﴿فَلْينظُرْ هل يُذْهِبَنَّ كيدُهُ ما يَغيظُ﴾.

قال السدِّيُّ: يعني من شأن مُحمَّد ﷺ. وقال عطاءُ الخُراسانيُّ: فَلْينظُرْ هل يَشْفِي ذلك ما يَجِدُ في صَدْرِهِ مِنَ الغَيظِ.

وقولُه: ﴿وَكَذلكَ أنزلناهُ﴾، أي: القرآنَ ﴿آياتٍ بَيِّناتٍ﴾، أي: وَاضِحاتٍ في لَفْظِها ومعناها، حُجَّةً من الله على الناس ﴿وأن الله يَهْدي من يُريد﴾، أي: يُضِلّ من يشاء ويَهدي من يشاء، وله الحكمةُ التَّامَّةُ والحجَّةُ القاطِعَةُ في ذلك، ﴿لا يُسئَلُ عما يفعَلُ وهم يُسئَلُونَ﴾، أما هو فَلحكْمَته ورَحْمَته وعَدْله، وعلْمه وقَهْرِه وعَظَمَتِه، لا مُعقِّبَ لِحُكْمِه، وهو سَريعُ الحسابِ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

يخبرُ تعالى عن أهل هذه الأديانِ المختلفة من المؤمنين، ومن سِوَاهم من اليهود والصَّابئينَ ـ وقد قَدَّمنا في سورة البقرة[1] التعريفَ بهم، واختلافَ الناسِ فيهم ـ والنصارى والمجُوس، والذين أشركوا فَعَبدُوا غيرَ الله مَعَه؛ فإنه تعالى ﴿يفصل بينهم يوم القيامة﴾، ويحكُم بينهم بالعدل، فَيُدخِلُ من آمَنَ به الجَنَّةَ، ومن كَفَر به النارَ، فإنه تعالى شهيدٌ على أفعالهم، حَفِيظٌ لأقوالهم، عليمٌ بسرائرِهم، وما تُكِنُّ ضَمائِرُهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾

يخبرُ تعالى أنه المستحقُّ للعبادة وحدَه لا شريكَ له؛ فإنه يسجُدُ لعظمته كُلُّ شيءٍ طوعاً وكرهاً، وسجُودُ كلِّ شيءٍ ممَّا يختصُّ به، كما قال: ﴿أولم يَرَوا إلى ما خَلَق الله من شيءٍ يَتَفيَّأُ ظلالُه عن اليمين والشمائل سُجَّداً لله وهم داخرون﴾. وقال هاهنا: ﴿ألم تَرَ أن الله يَسْجُد له مَن في السموات ومَن في الأرض﴾، أي: من الملائكةِ في أقطار السمواتِ، والحيواناتِ في جَميع الجهاتِ، من الإنسِ والجنِّ والدوابِّ والطيرِ، ﴿وإن من شيءٍ إلاّ يُسبِّح بِحَمْدِهِ﴾.

وقولُه: ﴿والشمسُ والقمرُ والنجومُ﴾، إنما ذكر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عُبِدَت من دون الله، فبَيَّن أنها تَسجُدُ لخالقها، وأنها مربُوبةٌ مُسَخَّرة ﴿لا تَسجُدُوا للشمس ولا للقمَرِ واسجُدُوا لله الذي خَلَقَهُنَّ إن كنتم إياه تعبدون﴾.

وفي الصحيحين عن أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ: «أتدري أين تذهبُ هذه

---

(١) انظر تفسير الآية ٦٢ من سورة البقرة.

الشمسُ؟ قلت: الله ورسولُه أعلم. قال: فإنها تذهبُ فتسجُدُ تحتَ العرشِ، ثم تستأمِرُ فيُوشِكُ أن يقال لها: ارجعي من حيثُ جئتِ»(١).

وفي المسنَد وسُنَنِ أبي داودَ، والنسائي، وابن ماجه، في حديث الكُسُوف: «إن الشمس والقمر خَلْقان من خَلْقِ الله، وإنهما لا يَنْكَسِفانِ لموتِ أَحَدٍ ولا لِحَياتِهِ، ولكنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ إذا تجلّى لشيءٍ من خَلْقِه خشع له»(٢).

وقال أبو العالية: ما في السماءِ نجمٌ ولا شمسٌ ولا قَمَرٌ إلا يَقَعُ للهِ ساجداً حين يَغيب، ثم لا يَنصرفُ حتى يُؤذَنَ له، فيأخذُ ذاتَ اليمين حَتّى يرجعَ إلى مَطْلَعِهِ.

وأما الجبالُ والشَجر فسجودُهُما بفَيءِ ظلالهما عن اليمين والشمائل. وعن ابن عباس قال: جاء رجلٌ فقال: يا رسولَ الله، إني رأيتني الليلَة وأنا نائمٌ كَأَنّي أُصلّي خلفَ شَجَرةٍ، فَسجدتُ فسجَدَتِ الشجرةُ لسُجودي، فسمعتُها وهي تقولُ: اللهُمَّ، اكتُبْ لي بها عندكَ أجراً، وَضَعْ عَنّي بها وِزْراً، واجْعَلْها لي عندَكَ ذُخْراً، وتقبَّلْها مِنّي كما تَقَبَّلْتَها من عبدك داودَ. قال ابن عباس: فقرأ النبيُّ ـ ﷺ ـ سجدةً ثم سَجَد، فَسمِعتُهُ وهُو يقولُ مثلَ ما أخبره الرجلُ عن قَوْلِ الشَّجَرَةِ. رَواه الترمذيُّ، وابنُ ماجه، وابنُ حِبّانَ في صَحيحِهِ(٣).

وقولُه: ﴿ والدَّوَابُّ ﴾، أي: الحيوانات كلها. وقد جاء في الحديث عن الإمام أحمَدَ: أَنّ رسول الله ـ ﷺ ـ نَهَى عن اتّخاذ ظُهُورِ الدوابِّ(٤) مَنابِرَ(٥). فَرُبَّ مركوبةٍ خيرٌ وأكثَرُ ذِكراً للهِ من رَاكِبِها.

وقولُه: ﴿ وكَثيرٌ من الناس ﴾، أي: يسجُد لله طوعاً مختاراً مُتعبِّداً بذلك، ﴿ وكثيرٌ حَقَّ عليه العذابُ ﴾، أي: ممن امتنع وأبى واستكبَرَ، ﴿ ومن يُهِنِ الله فما له من مُكْرِمٍ إنَّ اللهَ يفعلُ ما يَشاءُ ﴾.

وقال ابن أبي حاتمٍ: حدثنا أحمد بن شيبان الرملي، حدثنا القَدّاحُ(٦)، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي قال: قيل لعلي: إنّ هاهنا رجلاً يتكلّم في المشيئة. فقال له علي: يا عبدَ الله، خَلَقك الله كما يشاء أو كما شِئْتَ؟ قال: بل كما شاءَ. قال: فيُمْرِضُك إذا شاءَ أو إذا شِئْتَ؟ قال: بل إذا شاء. قال: فَيَشْفِيكَ إذا شاءَ أو إذا شِئْتَ؟ قال: بلِ إذا شاء. قال: فيُدخلك حيث شِئْتَ أو حيث يَشاء؟ قال: بل حيثُ يَشاء. قال: والله لو قلتَ غير ذلك لضربتُ الذي فيه عيناك بالسيف(٧).

وعن أبي هُرَيرة قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا قرأ ابن آدمَ السجدةَ اعتزلَ الشيطانُ يَبْكِي، يقولُ: يا وَيْلَه! أُمِرَ ابنُ آدَمَ بالسجود فَسجد، فله الجَنّة. وأُمِرْتُ بالسُّجُودِ فأبيتُ، فَلِي النار. رواه مسلم(٨).

---

(١) فتح الباري، كتاب بَـدْءِ الخَلْقِ ٢٩٧/٦، ومسلم، كتاب الإيمان ١٣٩/١.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢٦٧/٤، ٢٦٩، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ٣٠٦/١، والنسائي، كتاب الكسوف ١٤١/٣، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة ٤٠١/١. وفي نسخة الحرم: «خشع له». بَدَل: «خضَعَ له».

(٣) عارضة الأحوذي، أبواب السفر ٦٠/٣، وأبواب الدعوات ٣٠٩/١٢ ـ ٣١٠. وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة ٣٣٤/١، والإحسان بترتيب صحيح ابن حِبّان، باب سجود التلاوة ١٨٩/٤ ـ ١٩٠.

(٤) في نسخة الحرم: الخيول.

(٥) الحديث أخرجه أبو داود في سننه بإسناده إلى أبي هريرة، في كتاب الجهاد ٢٧/٣. ولم يقع لنا ـ حتى الآن ـ في مسند الإمام أحمد.

(٦) هو: عبدالله بن ميمون القدّاح، مترجم في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١٧٢/٥.

(٧) الدرّ المنثور ١٨/٦.

(٨) مسلم، كتاب الإيمان ٨٧/١.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم وأبو عبد الرحمن المُقرىء قالا: حدثنا ابنُ لَهيعَة، حدثنا مِشْرَحُ بن هاعَانَ أبو مُصعَبِ المَعافِريُّ قال: سَمِعتُ عقبةَ بنَ عامر يقولُ: قلتُ: يا رسولَ الله، أَفَضلَتْ سورةُ الحجِّ على سائرِ القُرآنِ بِسَجْدَتَين؟ قال: نَعم، فمن لم يَسْجُدهما فلا يَقْرأْهُما[١].

ورواهَ أبو داود والتِّرمِذيُّ، من حديث عبد الله بن لَهيعَة، به وقال التِّرمذيُّ: «ليس هو بقَويٍّ»[١]. وفي هذا نظر، فإنّ ابنَ لهيعة قد صَرَّح فيه بالسَّماعِ، وأكثرُ ما نَقَمُوا عليه تَدْليسه[٢].

وقد قال أبو داودَ في المراسيل: حدثنا أحمد بن عمرو بن السَّرح، أنبأنا ابنُ وهبٍ، أخبرني معاوية بن صالح، عن عامرِ بنِ جُشَيْبٍ، عن خالد بن مَعْدَانَ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «فَضلَتْ سورةُ الحجِّ على القرآنِ بِسَجْدَتَين».

ثم قال أبو داود: وقد أُسنِدَ هذا ـ يعني من غير هذا الوجه ـ ولا يصحُّ[٣].

وقال الحافظُ أبو بكر الإسماعيليُّ[٤]: حدثنا ابنُ أبي داودَ، حدثنا يزيدُ بنُ عبدِ الله، حدثنا الوليدُ، حدثنا أبو عمرو، حدثنا حَفْصُ بن غياثٍ، حدثني نافع، حدثني أبو الجَهْم أن عُمَر سجد سجدتين في الحج، وهو بالجابية، وقال: إن هذه فَضَلت بِسَجْدَتَين.

ورَوى أبو داودَ وابنُ ماجه: من حديث الحارث بن سَعيد العُتَقِيِّ، عن عبد الله بن مُنَينٍ، عن عمرو بن العاص: أَنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ أقرأه خَمْسَ عشرَةَ سجدةً في القرآن، منها ثلاثٌ في المُفَصَّل[٥]، وفي سورة الحج سجدتان[٦]. فهذه شَواهِدُ يَشُدُّ بعضُها بعضاً.

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾

ثَبت في الصَّحِيحَين، من حديث أبي مِجْلَزٍ، عن قيس بن عُبَادٍ، عن أبي ذَرٍّ: أنه كان يُقسم قَسَماً أَنَّ هذه الآية: ﴿هَذانِ خَصْمان اختَصَمُوا في رَبِّهم﴾ نَزَلَتْ في حَمْزَةَ وصَاحِبَيه، يوم بَرَزوا في بَدْرٍ[٧].

---

(١) مسند أحمد ١٥١/٤، ١٥٥. وسنن أبي داود، كتاب الصلاة ٥٨/٢، وعارضة الأحْوَذيّ، أبواب السفر ٥٩/٣.

(٢) قال ابن كثير في الباعث الحثيث ٥٠ ـ ٥٢ بتصرُّف: «التدليس قسمان:

أحدهما: أن يَرْوِي عَمَّن لقيه ما لم يسمعه منه، أو عَمّن عاصَرَه ولم يلقه، موهماً أنه سمعه منه. وقد كره هذا القسم من التدليس جماعةٌ وذمُّوه.

وأما القسم الثاني فهو الإتيان باسم الشيخ أو كنيته على خلاف المشهور به، تعميةً لأمره، ويختلف ذلك باختلاف المقاصد، فتارةً يكره، كما إذا كان أصغر سنّاً منه، أو نازل الرواية. وتارة يحرم كما إذا كان غير ثِقَةٍ فَدَلَّسَه لئلا يُعرَف حالُه».

(٣) مراسيل أبي داود ١١.

(٤) هو الإمام أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي، صاحب التصانيف في الحديث والفقه. توفي سنة ٣٧١. العبر للذهبي ٣٥٨/٢ ـ ٣٥٩.

(٥) حِزْبُ المُفَصَّل من سورة (ق) حتى يُخْتم القرآن. وقد ورد في ذلك حديث رواه الإمام أحمد في مسنده ٩/٤، وأبو داود في كتاب رمضان ٥٥/٢ ـ ٥٦، وابن ماجه في كتاب الإقامة ٤٢٨/١. وانظر كتاب فضائل القرآن لابن كثير ١٦٥.

(٦) سنن أبي داود، كتاب الصلاة ٥٨/٢، وابن ماجه، كتاب الإقامة ٣٣٥/١.

(٧) فتح الباري، تفسير سورة الحج ٤٤٣/٨، ومسلم، كتاب التفسير ٢٣٢٣/٤.

لفظُ البخاريِّ عن تفسيرها، ثم قال البخاري:

حدثنا حَجَّاجُ بن مِنْهَالٍ، حَدَّثنا المعتَمِرُ بن سُلَيمان، سَمِعتُ أبي، حدثنا أبومِجْلَز، عن قَيْسِ بن عُبَادٍ، عن عَلِيِّ بن أبي طالبٍ أنه قال: أنا أوَّلُ من يَجثُو بين يَدَيِ الرَّحمن للخُصُومَةِ يوم القيامة. قال قيسٌ: وفيهم نَزَلَت: ﴿ هذان خَصْمَانِ اختَصَمُوا في رَبِّهم ﴾، قال: هم الذين بَارَزُوا يوم بَدْرٍ: عَلِيٌّ وحمزَةُ وعُبَيدَةُ، وشَيبةُ بن رَبِيعَةَ وعُتبَةُ بـن رَبِيعَةَ والوليدُ بن عُتبَةَ. انفرد به البخاري[١].

وقال سَعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادةَ في قوله: ﴿ هذان خَصْمانِ اختَصَمُوا في رَبِّهم ﴾، قال: اختَصَمَ المسلمون وأهلُ الكتاب، فقال أهلُ الكتاب: نَبِيُّنا قبل نَبِيِّكم، وكتابُنا قبل كِتابكم، فنحنُ أولى بالله منكم. وقال المسلمون: كتابُنا يَقضِي على الكُتُب كُلِّها، ونَبِيُّنا خاتَمُ الأنبياءِ، فنحنُ أولى بالله منكم. فأفلجَ[٢] الله الإسلامَ على من ناوَأه، وأنزل: ﴿ هذان خَصْمان اختَصَمُوا في رَبِّهم ﴾. وكذا روى العَوفي، عن ابن عباس[٣].

وقال شعبةُ، عن قتادةَ في قوله: ﴿ هذان خَصْمان اختَصَمُوا في رَبِّهم ﴾، قال: مُصَدِّقٌ ومُكَذِّبٌ.

وقال ابنُ أبي نَجِيح، عن مجاهد في هذه الآية: مثلُ الكافر والمؤمن اختَصَما في البعث. وقال ـ في روايةٍ هو وعطاء في هذه الآيةِ ـ: هم المؤمنون والكافرون.

وقال عكرمة: ﴿ هذان خَصْمان اختَصَمُوا في رَبِّهم ﴾، قال: هي الجنة والنار، قالت النار: جَعَلَنِي للعُقُوبَةِ. وقالت الجنة: جَعَلَنِي للرَّحمَةِ[٤].

وقولُ مجاهدٍ وعطاءٍ: إنَّ المرادَ بهذا الكافرون والمؤمنون، يشمَلُ الأقوالَ كُلَّها، وينتظم فيه قِصَّةُ يوم بَدْرٍ وغيرها؛ فإن المؤمنين يُريدون نُصْرَةَ دين الله، والكافرون يريدون إطفاءَ نور الإيمان وخِذْلانَ الحقِّ وظُهورَ الباطل. وهذا اختيار ابن جرير. وهو حَسَن. ولهذا قال: ﴿ فالذين كفروا قُطِّعَت لهم ثياب من نار ﴾، أي: فُصِّلت لهم مُقطَّعات من نارٍ.

قال سعيد بن جبير: من نُحاسٍ وهو أشَدُّ الأشياءِ حَرَارَةً إذا حمي.

﴿ يُصَبُّ من فوق رُءُوسِهِمُ الحَمِيم * يُصْهَرُ به ما في بُطُونهم والجلودُ ﴾، أي: إذا صُبَّ على رُءُوسهم الحميمُ، وهو الماء الحارُّ في غاية الحرارة.

وقال سعيدٌ: هو النُّحاسُ المُذَابُ، أذابَ ما في بُطُونهم من الشَّحْمِ والأمعاء. قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وسعيدُ بن جُبَير، وغيرهم. وكذلك تَذُوب جُلُودهم، وقال ابن عباس وسعيد: تَسَاقَطُ.

وقال ابنُ جرير: حدثني محمد بن المُثَنَّى، حدثنا إبراهيمُ أبو إسحاق الطالَقانيُّ، حدثنا ابنُ المبارك، عن سعيـد بـن زيدٍ، عن أبي السَّمح، عن ابن حُجَيرة، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: إنَّ الحَمِيمَ لَيُصَبُّ

---

(١) فتح الباري، تفسير سورة الحج ٨/٤٤٣.

وعُبيدَة هو ابن الحارث بن المطلب، ابن عَمِّ رسول الله ﷺ استشهد في بَدْرٍ، قتله عُتبة بن ربيعة، قطع رِجْلَه، فمات بالصفراء. وانظر خبر المبارزة في سيرة ابن هشام ١/٦٢٥.

(٢) أي: أظهره وأثبته. وناوَأه: فاخَرَه وعاداهُ.

(٣) أخرجه عبد بن حُمَيد، وابنُ المُنذِر، وابن أبي حاتم. انظر الدرّ المنثور ٦/٢٠.

(٤) أخرجه الطبري ١٧/١٣٢ ـ ٣٣٣. ولفظُه: «خلقني» بدل «جعلني»، ومثلُه في الدرِّ المنثور ٦/٢٠.

على رُءُوسهم، فَينفذُ الجُمْجُمَةَ حتى يخلُصَ إلى جَوْفِهِ، فَيَسْلُتُ ما في جَوْفِه، حتى يبلُغَ قَدَميه، وهو الصَّهْر. ثم يُعَادُ كما كان[١].

ورواه التِّرمِذيُّ من حديث ابن المُبَارك، وقال: «حَسَن صحيح»[١]. وهكذا رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه عن أبي نُعَيم، عن ابن المبارك، به. ثم قال ابنُ أبي حاتم:

حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا أحمَدُ بن أبي الحَوارِيِّ، سَمِعت عبد الله بن السَّرِيِّ قال: يأتيه المَلَك يحمِلُ الإناء بكَلْبَتَين من حَرارته، فإذا أدناه من وجهه تَكرَّهه، قال: فيرفع مِقْمَعَةً معه فيضرِب بها رأسه، فَيُفرِغُ دِماغَه، ثم يُفرِغ الإناء من دماغه، فيصل إلى جوفه من دماغه، فذلك قوله: ﴿ يُصهَر به ما في بُطُونِهِم والجلودُ ﴾[٢].

وقولُه: ﴿ وَلَهم مَقَامِعُ من حدِيدٍ ﴾، قال الإمامُ أحمدُ:

حدثنا حسنُ بنُ موسى، حدثنا ابنُ لَهِيعَةَ، حدثنا دَرَّاجٍ، عن أبي الهيثَم، عن أبي سَعيدٍ، عن رسول الله - ﷺ - قال: «لو أن مِقْمَعاً من حَدِيد وُضِع في الأرض، فاجتمع الثقلان ما أَقَلُّوه من الأرض»[٣].

وقال الإمام أحمدُ: حَدَّثنا موسى بن دَاود، حدثنا ابنُ لَهِيعَةَ، حدثنا دَرَّاجٌ، عن أبي الهيثَم، عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: لو ضُربَ الجَبَلُ بِمِقْمَعٍ من حَدِيدٍ لَتفتَّتَ ثم عاد كما كَان. ولو أن دَلْواً من غَسَّاقٍ يُهرَاقُ في الدُّنيا لأنتَنَ أهلُ الدنيا[٤].

وقال ابنُ عباس في قوله: ﴿ ولهم مَقَامِعُ من حَديدٍ ﴾، قال: يُضْرَبُون بها، فَيَقعُ كُلُّ عضوٍ على حِيَالِهِ، فَيدعُونَ بالثُّبورِ[٥].

وقولُه: ﴿ كُلَّما أرادوا أن يخرجوا منها من غَمٍّ أُعِيدُوا فيها ﴾، قال الأعمش، عن أبي ظبيان، عن سلمان قال: النار سوداءُ مظلِمةٌ، لا يُضِيءُ لَهَبُها ولا جَمْرُها، ثم قرأ: ﴿ كُلَّما أرادوا أن يخرُجوا منها من غَمٍّ أُعِيدُوا فيها ﴾[٦].

وقال زيدُ بن أسلَمَ في هذه الآية: ﴿ كُلَّما أرادُوا أن يَخرجُوا منها من غَمٍّ أُعِيدُوا فيها ﴾، قال: بَلَغني أَنَّ أهلَ النارِ في النار لا يَتَنَفَّسُون[٦].

---

(١) تفسير الطبري ١٧/١٣٣ - ١٣٤. وعارضة الأحوذي، أبواب صفة جهنم ١٠/٥٠ - ٥١ ونَفَذَ الجُمْجُمَةَ: تجاوزها. وسَلَتَ ما في جوفه: أخذ ما فيه.

(٢) في الدرّ المنثور ٦/٢١: «أخرجه ابن أبي حاتم، عن السدّيّ». وهو خطأ صوابه ما هنا.

والكَلْبَتَان: أداةٌ يأخذ بها الحدّادُ الحديد المُحْمَى. والمِقْمَعَةُ: خشبةٌ أو حديدةٌ مُعْوَجَّةُ الرأس، يُضرَب بها رأسَ الفيل ونحوه لِيَذِلَّ ويُهانَ.

(٣) مسند أحمد ٣/٢٩.

ما أقلُّوه: ما رَفَعوه.

(٤) مسند الإمام أحمد ٣/٨٣.

الغَسَّاق، بتخفيف السين وتشديدها -: ما يسيلُ من جُلودِ أهل النار وصَديدهم.

(٥) أخرجَهُ ابنُ أبي حاتم، انظر الدرّ المنثور ٦/٢١.

ووقع على حِياله: في مقابلته وبإزائه.

(٦) أخرجه الحاكم بإسناده إلى الأعمش، وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه». المستدرك، تفسير سورة الحج ٢/٣٨٧. وانظر الدرّ المنثور ٦/٢٢. وتفسير الطبري ١٧/١٣٥.

وقال الفُضَيل بن عَياض: والله ما طَمِعُوا في الخروجِ، إنَّ الأرجُلَ لَمُقيَّدَةٌ، وإنَّ الأيدي لَمُوثَّقَةٌ، ولكن يرفَعُهم لَهَبُها، وتَرُدُّهم مَقامِعُها[1].

وقولُه: ﴿ وذُوقُوا عذابَ الحَريق ﴾، كقولِهِ: ﴿ وقِيلَ لهم ذُوقوا عَذابَ النارِ الذي كُنتُم به تُكذِّبُونَ ﴾، ومعنى الكلام أنهم يُهانُونَ بالعَذابِ قَوْلاً وفعلاً.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾

لما أخبر تعالى عن حَالِ أهلِ النار ـ عياذاً بالله من حالهم ـ وما هُم فيه من العذاب والنَّكال والحريق والأغلال، وما أُعِدَّ لهم من الثياب من النار، ذكر حالَ أهلِ الجنة ـ نسألُ الله من فَضْلِه وكَرَمِه [أن يُدخلنا الجنَّةَ] ـ فقال: ﴿ إن الله يُدخِلُ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ﴾، أي: تتخرَّق في أكنافها وأرجائها وجَوانبها، وتحت أشجارها وقُصورها، يَصْرِفُونها حيث شاؤوا وأين شاءوا، ﴿ يُحلَّون فيها ﴾، من الحلية، ﴿ من أساورَ من ذَهَبٍ ولُؤلؤاً ﴾، أي: في أيديهم، كما قال النبي ـ ﷺ ـ في الحديثِ المتَّفَق عليه: «تبلغُ الحِلْيَةُ من المؤمنِ حيثُ يبلغُ الوضوءُ»[2].

وقال كعبُ الأحبار: إنَّ في الجنَّةِ مَلَكاً لو شِئتُ أن أُسَمِّيَهُ لَسمَّيتُه، يَصُوغ لأهلِ الجَنَّة الحُليَّ منذ خَلَقه الله إلى يوم القيامةِ، لو أُبرِزَ قُلْبٌ[3] منها ـ أي: سِوَارٌ منها ـ لردَّ شُعاعَ الشمس، كما تَرُدُّ الشمسُ نورَ القَمَر.

وقولُه: ﴿ولباسُهم فيها حَريرٌ﴾، في مُقابلة ثياب أهل النار التي فُصِّلت لهم، لباسُ هؤلاءِ من الحرير، استبرَقِهِ وسُندُسِهِ، كما قال: ﴿ عاليهم ثيابُ سندسٍ خُضْرٌ وإستبرقٌ وحُلُّوا أساورَ من فِضَّةٍ وسَقاهم ربُّهم شراباً طَهُوراً * إنَّ هذا كان لكم جزاءً وكان سَعيُكُم مَشْكُوراً﴾، وفي الصحيح: «لا تلبسوا الحَريرَ ولا الدِّيباج في الدُّنيا، فإنَّه من لَبِسَه في الدُّنيا لم يلبسه في الآخرة»[4].

قال عبدُ الله بن الزُّبير: ومن لم يلبس الحَرير في الآخرة لم يدخل الجنة، قال الله تعالى: ﴿ لِباسهم فيها حَريرٌ ﴾[5].

وقولُه: ﴿ وهُدُوا إلى الطيِّب من القولِ ﴾، كَقوله: ﴿ وأُدخِلَ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحات جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها بإذنِ ربِّهم تحيَّتُهم فيها سَلامٌ ﴾، وقولِهِ: ﴿ والملائكةُ يدخلُون عليهم من كلِّ باب * سلامٌ عليكم بما صَبرتُم فنعم عُقبى الدَّار﴾، وقولِهِ: ﴿لا يَسْمَعون فيها لغواً ولا تأثيماً * إلا قِيلاً سَلاماً سَلاماً﴾، فَهُدوا إلى المكان الذي يَسْمَعون فيه الكلامَ الطَّيِّبَ، ﴿ويُلَقَّون فيها تحيةً وسَلاماً﴾، لا كما

---

(١) أخرجه ابنُ أبي حاتم، الدرّ المنثور ٦/٢٣.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة ١/٢١٩، والنسائي، كتاب الطهارة ١/٩٣، ومسند أحمد ٢/٣٧١. وانظر تحفة الأشراف للمزّي ١٠/٨١.

(٣) القُلْبُ: السِّوارُ يكون نظماً واحداً.

(٤) أخرجاه في كتاب اللباس، فتح الباري ١٠/٢٨٤، ومسلم ٣/١٦٣٧.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم، وابن مَرْدُويه، والبيهقي في سننه. انظر الدرّ المنثور ٦/٢٣، والسُّنن الكُبرى للبيهقي، كتاب الصلاة ٢/٤٢٢. وتحفة الأشراف للمزّي ٤/٣٢٠ ـ ٣٢١.

يهانَ أهلُ النار بالكلام الذي يُروِّعُون[١] به ويُفَزَّعون به، يقال لهم: ﴿ ذُوقُوا عذابَ الحَرِيق ﴾.

وقولُه: ﴿ وهُدُوا إلى صراط الحميد ﴾، أي: إلى المكان الذي يَحْمَدُون فيه ربَّهم، على ما أحسنَ إليهم وأنعمَ به وأسداه إليهم، كما جاء في الصَّحيح: إنهم يُلْهَمُون التَّسبيحَ والتَّحميدَ، كما يُلهمون النَّفَسَ[٢].

وقد قال بعضُ المفسرين في قوله: ﴿ وهُدُوا إلى الطيِّب من القول ﴾، أي: القرآن. وقيل: لا إِلَه إلا الله. وقيل: الأذكارُ المشروعة[٣]، ﴿ وهُدُوا إلى صِراطِ الحميدِ ﴾، أي: الطَّريق المستقيم في الدنيا. وكلُّ هذا لا ينافي ما ذكرناه. والله أعلم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُنكراً على الكُفَّار في صَدِّهم المؤمنين عن إتيانِ المسجد الحرام، وقَضَاء مناسِكِهم فيه، ودَعواهم أنهم أولياؤُه ﴿ وما كانوا أولياءَه إن أولياؤُه إلا المُتَّقون ولكنَّ أكثرَهم لا يعلَمُون ﴾.

وفي هذه الآية دليلٌ أنها مَدَنِيَة، كما قال في سورة البَقَرة: ﴿ يسألونك عن الشهر الحَرَام قتالٍ فيه قل قتال فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام وإخراجُ أهله منه أكبرُ عند الله ﴾، وقال هاهنا: ﴿ إن الذين كفروا ويصدُّون عن سبيل الله والمسجد الحرام ﴾، أي: ومن صِفَتهم مع كُفرهم أنَّهم يَصُدُّون عن سبيل الله والمسجد الحرام، أي: ويَصُدّون عن المسجد الحرام مَن أراده من المؤمنين الذين هم أحقُّ الناس به في نفس الأمر. وهذا التركيبُ في هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ الذين آمنوا وتَطمئِنُّ قلوبُهم بذكر الله ألا بِذِكْرِ الله تطمئنُّ القلوبُ ﴾، أي: وَمِن صِفَتِهم أنَّهم تطمئنُّ قلوبُهم بِذِكْرِ الله.

وقولُه: ﴿ الذي جَعَلناه للناس سواءً العاكفُ فيه والبادِ ﴾ أي، يمنعونَ الناس عن الوصُولِ إلى المسجدِ الحَرام، وقد جَعله الله شَرْعاً سواءً، لا فَرْقَ فيه بين المُقِيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه، [٤][ومن ذلك استواء الناس في[٥] رِباع مَكّة وسُكناها، كما][٤] قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ سَوَاءً العاكِفُ فيه والبادِ ﴾، قال: يَنزلُ أهلُ مكّة وغيرُهم في المسجد الحَرام[٦].

وقال مجاهدٌ: ﴿ سواءً العاكفُ فيه والبادِ ﴾، أهلُ مكّة وغيرُهم فيه سواءٌ في المنازل، وكذا قال أبو صالح، وعبد الرحمن بن سابط، وعبد الرحمن بن زيد بن أَسْلَم.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَرٍ، عن قتادَة: سَواءٌ فيه أهلُه وغيرُ أهلِهِ.

وهذه المسألةُ اختلَفَ فيها الشافعيُّ وإسحاق بن راهَويه بمسجد الخَيْفِ، وأحمدُ بن حنبلٍ حاضرٌ أيضاً، فذهب الشافعي ـ رحمه الله ـ إلى أن رِباع مكة تملك وتُورَّث وتُؤَجَر، واحتجَ بحديث الزُّهري، عن علي بن

(١) في نسخة الحرم: الذي يُوبِّخون به.
(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجنة ٤/٢١٨٠ ـ ٢١٨١، والإمام أحمد في مسنده ٣/٣٤٩. وانظر تحفة الأشراف للمزي ٢/٦٤٦.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، عن إسماعيل بن أبي خالد، والضحاك، وابن زيد. انظر الدرّ المنثور ٦/٢٤.
(٤ ـ ٤) ما بين القوسين ليس في نسخة الحرم.
(٥) الرِّباع: جمع رَبْع، وهو المنزل المشتمل على أبيات. وقيل: هو الدار.
(٦) تفسير الطبري ١٧/١٣٧.

الحُسَين، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة بن زيد قال: قلت: يا رسولَ الله، أتنزل غداً في دارك بمكة؟ فقال: وهل ترك لنا عَقِيلٌ من رِباع[١]؟. ثم قال: «لا يَرِثُ الكافرُ المسلِمَ، ولا المُسْلِمُ الكافرَ»[١]. وهذا الحديثُ مُخرَّجٌ في الصَّحِيحَين. وبِمَا ثَبَتَ أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوانَ بن أمية داراً بمكة، فَجَعَلَها سِجْناً بأربعة آلاف درهم. وبه قال طاوس، وعَمرو بن دينار.

وذهب إسحاقُ بن راهَويه إلى أنها لا تورث ولا تُؤَجَّر. وهو مذهبُ طائفةٍ من السلف، ونصَّ عليه مجاهد وعطاء، واحتجَّ إسحاق بن راهويه بما رواه ابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبَةَ؛ عن عيسى بن يونُس، عن عُمَر بن سعيد بن أبي حُسَين، عن عثمان بن أبي سليمان، عن علقمة بن نَضْلة قال: تُوُفِّي رسول الله ـ ﷺ ـ وأبو بكر وعمر، وما تدعي رِباعُ مَكَّة إلا السوائبَ، من احتاج سَكَن، ومن استغنى أسكَنَ[٢].

وقال عبد الرزاق، عن ابن مجاهد، عن أبيه، عن عبد الله بن عَمْرو أنه قال: لا يحلّ بيعُ دُورِ مَكَّة ولا كراؤها.

وقال أيضاً عن ابنُ جَريج: كان عطاء ينهي عن الكراء في الحَرَم، وأخبرني أن عمر بن الخطاب كان ينهي أن تُبوَّب دور مكة، لأَنَ يَنْزل الحاجّ في عَرَصاتها، فكان أولُ من بَوَّب داره سُهَيل بن عمرو، فأرسلَ إليه عُمَر بنُ الخطاب في ذلك، فقال: أنظِرْني يا أمير المؤمنين، إني كنت امرأً تَاجِراً، فأردت أن أتَّخِذَ بابين يحبسان لي ظهري قال: فذلك إذاً.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن منصور، عن مجاهد: أن عُمَر بن الخطاب قال: يا أهلَ مَكَّةَ، لا تَتَّخِذُوا لِدُوركم أبواباً لِينزلَ البادي حيث شاءَ.

قال: وأخبرنا معمرٌ، عمن سَمع عطاءً يقول: ﴿ سواءً العاكفُ فيه والبادِ ﴾، قال: ينزلون حيث شاءُوا[٣].

ورَوَى الدارقطني من حديث ابن أبي نجيح، عن عبدالله بن عَمْرو موقوفاً[٤]: من أكل كراء بيوت مَكَّة أَكَلَ ناراً. وتوسَّط الإمامُ أحمدُ فقال: تُملَّك وتُورَّث ولا تُؤَجَّر، جمعاً بين الأدلة. والله أعلم.

وقولُه: ﴿ ومن يُرد فيه بِإلحادٍ بظلم نُذِقْه من عذابٍ أليم ﴾، قال بعضُ المفسِّرين من أهلِ العَرَبِيَّة: الباءُ ها هنا زائدةٌ، كقوله: ﴿ تُنبتُ بالدُّهنِ ﴾[٥]، أي: تُنبِتُ الدُّهنَ، وكذا قولُه: ﴿ وَمَن يُرِد فيه بِإلحَادٍ ﴾، تقديره إلحاداً، وكما قال الأعشى[٦]:

---

(١) أخرجاه في كتاب الحج، فتح الباري ٤٥٠/٣، ومسلم ٩٨٤/٢. وانظر الحديث أيضاً في فتح الباري، كتاب المغازي ١٤/٨، وكتاب الفرائض ٥٠/١٢.

وفي فتح الباري ٤٥٢/٣: «مُحَصَّلِ هذا أن النبي ـ ﷺ ـ لما هاجر استولى عقيل وطالب على الدار كلِّها، باعتبار ما وَرِثاه من أبيهما، لكونهما لم يُسْلِما، وباعتبار تَرْكِ النبيِّ ـ ﷺ ـ لحقه منها بالهجرة. وفُقِد طالبٌ ببدر، فباع عقيل الدار كلها».

(٢) سنن ابن ماجه، كتاب المناسك ١٠٣٧/٢.

(٣) آثارُ عبد الرزاق في المصنف، باب الكراء في الحرم ١٤٧/٥ ـ ١٤٨.

(٤) في نسخة الحرم: مرفوعاً. والحديث في سنن الدارقطني، كتاب البيوع ٥٧/٣، موقوفاً على عبدالله بن عمرو بن العاص.

(٥) قرأ ابن كثير وأبو عمرو من السبعة (تُنبِتُ)، بضم التاء، فالفعل من أنبت، وهو متعدٍّ بنفسه، ومن هنا قالوا: إن الباء زائدة. انظر الإقناع لابن الباذش ٧٠٨/٢، والبحر المحيط ٤٠١/٦.

(٦) البيت في تفسير الطبري ١٣٩/١٧، وشرح القصائد السبع للأنباري ٤٦٠ ولسان العرب: جرد. ورواية الديوان ٥٧:

ضَمِنَتْ لنا أعجازُهُنَّ قُدُورَنا

ولا شاهد عليه.

يريد: ضَمِنَتْ رِزْقَ عيالنا. ولبنٌ أجرَدُ: لا رَغْوَةَ فيه. والمراجلُ: جمع مِرْجَل وهو القِدْرُ.

ضَمِنَتْ بِـرِزْقِ عِيَـالِنَـا أَرْمَـاحُنَـا   بَيْنَ المَـرَاجِلِ والصَّرِيحَ الأَجْـرَدَا

وقال الآخر[١]:

بِـوَادٍ يَمَـانٍ يُنْبِتُ الشَّثَّ صَدْرُهُ   وَأَسْفَلُهُ بِـالـمَـرْخِ وَالشَّبَـهَـانِ

والأجودُ أنه ضَمَّنَ الفِعْلَ هاهنا معنى «يَهُمُّ» ، ولهذا عَدَّاه بالباءِ، فقال: ﴿ وَمَن يُرِدْ فيه بِإِلحادٍ ﴾ ، أي: يَهُمُّ فيه بأمرٍ فَظيعٍ من المَعاصِي الكِبَارِ.

وقوله: ﴿ بِظُلمٍ ﴾، أي: عامداً قاصداً أنه ظَلَم ليس بمُتَأوِّلٍ، كما قال ابن جُرَيج، عن ابن عباس: هو التعمُّدُ[٢]. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ بِظُلم ﴾: بِشِرْكٍ. وقال مجاهد: أن يُعبَدَ فيه غيرُ الله. وكذا قال قتادةُ، وغيرُ واحدٍ. وقال العَوفيُّ، عن ابن عباس: ﴿ بظلم ﴾ هو أن تَستحِلَّ من الحَرامِ ما حَرَّم الله عليكَ من لسانٍ، أو قَتْلٍ، فَتَظْلِمَ مَن لا يظلِمُك، وتَقتُلَ مَن لا يقتُلُك، فإذا فَعَل ذلك فَقَد وَجَب له العذابُ الأليمُ.

وقال مجاهدٌ: ﴿ بظُلم ﴾، يعمَلُ فيه عملاً سَيِّئاً.

وهذا من خُصُوصية الحرم أنه يُعاقَبُ النَّاوِي فيه الشرَّ، إذا كانَ عازماً عليه، وإن لم يُوقِعْه، كما قال ابن أبي حاتم في تفسيره:

حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا شعبة، عن السُّدِّيِّ: أنه سمع مُرَّةَ يحدِّثُ عن عبد الله ـ يعني ابنَ مسعودٍ ـ في قوله: ﴿ ومن يُرِد فيه بِإلحادٍ بِظُلمٍ ﴾، قال: لو أَنَّ رَجُلاً أرادَ فيه بإلحادٍ بِظُلمٍ، وهو بِعَدَنِ أَبْيَنَ[٣]، أذاقه الله من العَذَابِ الأليم[٤].

قال شعبةُ: هو رَفَعه لنا، وأنا لا أرفعهُ لكم. قال يزيد: هو قد رَفَعه. ورواه أحمد، عن يزيدَ بنِ هَارُونَ، به[٥].

قلت: هذا الإسنادُ صَحيحٌ على شَرْطِ البخاريِّ، وَوَقْفُه أَشبهُ من رَفْعِه، ولهذا صَمَّم شعبةُ على وَقْفِه من كلام ابنِ مسعودٍ. وكذلك رواه أسباطُ، وسفيانُ الثَّوريّ، عن السدِّي، عن مُرَّةَ، عن ابن مَسعُودٍ موقوفاً. والله أعلم.

وقال الثوريُّ، عن السُّدِّيِّ، عن مُرَّةَ، عن عبد الله قال: ما من رَجُل يهمّ بسيِّئةٍ فَتُكتَبَ عليه، ولو أَنّ رجلا بِعَدَنِ أبينَ هَمَّ أن يقتُلَ رَجُلا بهذا البيتِ لأذاقه الله من العَذَابِ الأليم. وكذا قال الضَّحاك بن مُزَاحم.

وقال سفيان الثوريُّ، عن منصور، عن مجاهد: إلحادٌ فيه: لا واللهِ، وبَلَى واللهِ. ورُوِي عن مجاهد، عن عبد الله بـن عَمْرٍو، مثلُه.

---

(١) الأحول اليشكري كما في اللسان، مادة: شبه، عن أبي عُبَيدةَ. والشَّثُّ: ضرب من الشجر طيب الريح مرّ الطعم يدبغ به. والمرخ: شجر النار. والشُّبَهان: ما عظم من شجر الشوك.
وشاهد البيت أن المرخ معطوف على الشثّ، لأن التقدير: ويُنبت المَرْخ والشبهانَ، ولكنه زاد الباء.

(٢) انظر الآثار في تفسير الطبري ١٧/ ١٤٠ ـ ١٤١.

(٣) عَدَنُ أَبْيَنَ: مدينة معروفة باليمن، أضيفت إلى أَبْيَنَ ـ بوزن أبيض ـ وهو رجل من حِمْيَر.

(٤) الأثر رواه غير واحد، كما في الدرّ المنثور ٦/ ٢٦، ومنهم الحاكم، وهو في المستدرك، كتاب التفسير ٢/ ٣٨٧ بإسناده إلى مُرَّةَ، وبإسناده إلى يزيد بن هارون ٢/ ٣٨٨. وقال: «صحيح الإسناد على شرط مسلم، ولم يخرجاه».

(٥) مسند أحمد ١/ ٤٢٨. وفيه: «وقال لي شعبة ـ وَرَفَعه ـ ولا أَرْفَعُه لك».

وقال سعيد بن جُبَير: شَتمُ الخادمِ ظُلمٌ فما فَوْقَه.

وقال سُفيانُ الثوريُّ، عن عبد الله بن عطاء، عن ميمون بن مهران، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿ومن يُرِد فيه بِإلحادٍ بِظُلمٍ﴾، قال: تِجارةُ الأَمير فيه.

وعن ابن عُمَر: بيعُ الطعام بمكَّة إلحادٌ.

وقال حَبيبُ بن أبي ثابت: ﴿ومن يُرِد فيه بِإلحادٍ بظلمٍ﴾، قال: المحتَكِرُ بمكَّةَ. وكذا قال غيرُ واحد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدُ الله بن إسحاقَ الجوهريُّ، أنبأنا أبو عاصم، عن جعفر بن يحيى، عن عَمِّه عمارةَ بن ثوبان، حدثني موسى بن باذان، عن يعلى بن أمية: أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: احتكارُ الطعام بِمكَّةَ إلحادٌ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعَةَ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بُكَير، حدثنا لَهيعَةَ، حَدَّثني عَطَاء بن دينار، حدثني سعيد بن جُبَير قال: قال ابنُ عباس في قول الله: ﴿ومن يُرِد فيه بِإلحادٍ بِظُلمٍ﴾، قال: نَزَلَت في عبد الله بـن أُنَيس أن رسول الله ـ ﷺ ـ بَعَثه مع رجلين، أحدهما مُهاجِرٌ والآخر من الأنصار، فافتَخَروا في الأنساب، فَغَضِبَ عبد الله بن أُنَيس، فقتل الأنصاريَّ ثم ارتدَّ عن الإسلام، وهَرَب إلى مَكَّةَ، فنزلت فيه: ﴿ومن يُرِدْ فيه بإلحادٍ بِظُلمٍ﴾، يعني من لَجَأ إلى الحَرَم بإلحادٍ يعني بميلٍ عن الإسلام.

وهذه الآثار، وإن دَلَّت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكنْ هُو أعم من ذلك، بل فيها تنبيهٌ على ما هو أغلظُ منها، ولهذا لما هَمَّ أصحابُ الفيل على تَخْريب البيتِ أرسلَ الله عليهم طيراً أبابيلَ ﴿تَرْمِيهم بحجارةٍ من سجيلٍ * فجعلهم كعصف مأكول﴾، أي: دمَّرهم وجَعَلهم عبرةً ونَكَالاً لكلِّ من أراده بسوء. ولذلك ثَبت في الحديثِ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «يَغزُو هذا البيتَ جيشٌ، حتى إذا كانوا ببيداءَ من الأرضِ خُسِفَ بأوَّلِهم وآخرهم»[٢]... الحديث.

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا محمد بن كُنَاسة، حدثنا إسحاقُ بن سَعيدٍ، عن أبيه قال: أَتى عبدُ الله بن عَمر عبدَ الله بـن الزبير، فقال: يا ابنَ الزُّبير، إياكَ والإلحادَ في حَرَم الله، فإني سَمِعتُ رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: «إنه سيُلحِدُ فيه رجلٌ من قُرَيش، لو تُوزَن ذنوبُه بذنوبِ الثَّقلَين لرجَحت، فانظر لا تكونَه»[٣].

وقال أيـضـاً [٤][في مسند عبد الله بن عَمرو بن العَاص][٤]: حدثنا هاشم، حدثنا إسحاقُ بنُ سَعيد، حدثنا سعيد بن عَمرو قال: أتى عبدُ الله بن عمرو ابنَ الزُّبير: وهو جالسٌ في الحِجْر فقال: يا ابنَ الزُّبَير، إياكَ والإلحادَ في الحَرَم، فإني أَشهَدُ لَسمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: يُحلُّها ويُحلُّ به رَجُلٌ من قريش، لو وُزِنَتْ ذنوبُه بذنوب الثقلين لوَزَنَتها. قال: فانظر لا تكون هو[٥].

لم يُخرِّجه أحدٌ من أصحاب الكُتُب من هذين الوَجْهَين.

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم. الدر المنثور ٦/٢٧.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب البيوع، فتح الباري ٤/٣٣٨، ومسلم في كتاب الفتن ٤/٢٢٠٩.

(٣) مسند الإمام أحمد ٢/١٣٦.

(٤) عن نسخة الحرم.

(٥) مسند الإمام أحمد ٢/٢١٩.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾

هذا فيه تَقريعٌ وتَوبيخٌ لمن عَبَد غير الله، وأشرك به من قُرَيش، في البقعة التي أُسِّستْ من أوّل يوم على توحيدِ الله وعبادَتِه وحدَه لا شريكَ له، فذكر تعالى أنه بَوَّأَ إبراهيمَ مكانَ البيتِ، أي: أرشَده إليه، وسَلَّمَهُ له، وأَذِن له في بنائه.

واستدلَّ به كثيرٌ ممن قال: «إنَّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو أوَّل من بني البيتَ العتيقَ، وأنه لم يُبنَ قبله»، كما ثبت في الصَّحيح عن أبي ذَرٍّ قلتُ: يا رسولَ الله، أيُّ مسجدٍ وُضِعَ أوَّلُ؟ قال: المسجدُ الحَرام. قلت: ثم أيٌّ؟ قال: بيتُ المقدِسِ. قلت: كم بينهما؟ قال: أَرْبعونَ سنةً[١].

وقد قال الله تعالى: ﴿إن أوَّل بيت وُضِع للناسَ للذي ببَكَّة مباركاً وهُدىً لِلعالَمين * فيه آياتٌ بَيِّناتٌ مقامُ إبراهيمَ﴾ . . . الآية، وقال تعالى: ﴿ وعَهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طَهرا بيتي للطائِفين والعاكفين والرُّكَّع السُّجُودِ﴾.

وقد قَدَّمنا ذكر ما وَرَد في بناءِ البيتِ من الصِّحاح والآثارِ، بما أغنى عن إعادته هاهنا[٢].

وقال تعالى هاهنا: ﴿ أن لا تُشركَ بي شيئاً﴾، أي: ابْنِه على اسمي وَحْدِي، ﴿ وَطَهِّر بيتي ﴾ قال مجاهدٌ وقتادةُ: من الشرك، ﴿ للطائفين والقائمين والرُّكَّع السُّجُودِ﴾، أي: اجعله خالصاً لهؤلاءِ الذين يَعبدُون الله وحدَه لا شريكَ له، فالطائفُ به معروفٌ، وهو أخصُّ العباداتِ عند البيت، فإنه لا يفْعَل ببقعةٍ من الأرض سواها، والقائمُ، أي: في الصلاة، ولهذا قال: ﴿ والركَّع السُّجُودِ﴾، فقَرن الطَّواف بالصلاة، لأنهما لا يُشرَعَان إلا مُختَصَّين بالبيت، فالطوافُ عنده، والصلاةُ إليه في غالب الأحوال، إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباهِ القبلة وفي الحربِ، وفي النافلةِ في السَّفَرِ، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ وأذِّن في الناس بالحجِّ﴾، أي: نادِ في الناس داعياً لهم إلى الحجِّ إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه، فذُكر أنه قال: يا ربِّ، وكيفَ أُبلِّغُ الناسَ وصَوتي لا ينفُذُهم؟ فقيلَ: نادِ وعلينا البلاغُ. فقام على مَقامه، وقيل: على الحِجْر، وقيل: على الصَّفا، وقيل: على أبي قُبَيس، وقال: يا أيها الناس، إنَّ ربكم قد اتخذ بيتاً فَحُجُّوه. فيقال: إنَ الجِبَال تواضَعَت حتى بلغ الصوتُ أرجاءَ الأرض، وأَسمَعَ مَن في الأرحام والأصلاب، وأجابه كُلُّ شيءٍ سَمِعه من حَجَر أو مَدَرٍ أو شجر، ومَن كَتَب الله أنه يحجُّ إلى يوم القيامة: «لبيك اللهمَّ لبيكَ».

هذا مضمون ما رُوِي عن ابن عباس، ومجاهِدٍ، وعكرِمَةَ، وسَعيد بن جُبَيرٍ، وغيرُ واحد من السَّلَفِ، والله أعلم. أوردَها ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم مُطَوّلةً[٣].

وقولُه: ﴿ يأتوك رجالاً وعلى كلِّ ضامرٍ يأتين من كل فَجٍّ عَميقٍ﴾، قد يَستدِلُّ بهذه الآية من ذَهَب من العلماء إلى أن الحجَّ ماشياً لمن قَدَر عليه أفضلُ من الحجِّ راكباً، لأنه قدَّمهم في الذكر، فدَلَّ على الاهتمام بهم وقُوَّة هِمَمِهم وشِدَّة عَزْمهم.

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ١/٣٧٠، والإمام أحمد في مسنده ٥/١٥٠، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٠.

(٢) انظر تفسير آية البقرة ١٢٥، وآل عمران ٩٦، ٩٧.

(٣) تفسير الطبري ١٧/١٤٤ ـ ١٤٥، وأخرجه غير واحد، منهم الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير ٢/٣٨٨ ـ ٣٨٩، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه». والبيهقي في سننه، كتاب الحج ٥/١٧٦. وانظر الدرّ المنثور ٦/٣٢ ـ ٣٥.

(١)[وقال وكيعٌ، عن أبي العُمَيس، عن أبي حلحلة، عن محمد بن كعب، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: ما آسي على شيءٍ إلاّ أني وَدِدْتُ أني كنت حججتُ ماشياً، إن الله يقول: ﴿ يأتوكَ رِجالاً ﴾](١).

والذي عليه الأكثرون أنّ الحجَّ راكباً أفضلُ؛ اقتداءً برسولِ الله - ﷺ - (٢)[فإنه حج راكباً مع كمال قُوَّتِهِ عليه السلامُ](٢).

وقولُ: ﴿ يأتين من كلِّ فَجٍّ ﴾، يعني طريق، كما قال: ﴿ وجعلنا فيها فِجَاجاً سبلا ﴾.

وقولُه: ﴿ عَمِيق ﴾، أي: بعيد. قاله مجاهدُ، وعطاءُ، والسُّدّيُّ، وقتادةُ، ومقاتلُ بن حَيَّانَ، والثوريُّ، وغير واحد.

وهذه الآيةَ كقوله تعالى إخباراً عن إبراهيم، حيث قال في دعائه: ﴿ فاجعل أفئدةً من الناس تَهوي إليهم ﴾، فليس أحدٌ من أهل الإسلام إلا وهو يَحِنُّ إلى رؤية الكعبةِ والطواف، والناسُ يقصِدُونها من سائر الجهاتِ والأقطارِ.

﴿ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ۝٢٨ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ۝٢٩ ﴾

قال ابنُ عباس: ﴿ ليشهدوا منافعَ لهم ﴾، قال: منافع الدنيا والآخرة؛ أما منافعُ الآخرةِ فرضوانُ الله، وأما منافع الدنيا فما يُصِيبونَ من منافع البُدْن والذبائح والتجارات(٣). وكذا قال مجاهدٌ، وغير واحد: إنها منافعُ الدنيا والآخرة، كقوله: ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغُوا فضلاً من ربِّكم ﴾.

وقولُه: ﴿ ويذكُروا اسمَ الله في أيامٍ معلوماتٍ على ما رَزَقَهُم من بَهيمةِ الأنعام ﴾، قال شعبةُ وهُشَيم، عن أبي بشر، عن سعيد، عن ابن عباس: «الأيام المعلومات أيام العشر»(٤). وعَلَّقه البخاري عنه، بصيغة الجَزْم(٥) به، ويُروَى مثلُه عن أبي موسى الأشعريِّ، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وقتادَة، والضحَّاكِ، وعطاء الخُراسانيِّ، وإبراهيمَ النخعِيِّ. وهو مذهبُ الشافعيِّ، والمشهورُ عن أحمدَ بنَ حَنْبَلٍ.

وقال البخاري: حدثنا محمد بن عَرْعَرَة، حدثنا شُعبَةُ، عن سُلَيمان، عن مُسلم البَطِين، عن سَعِيد بن جُبير، عن ابن عباس، عن النبي - ﷺ - قال: ما العملُ في أيَّامٍ أفضلَ منها في هذه. قالوا: ولا الجهادُ في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلٌ يخرُج يُخَاطِر بنفسه ومالِهِ فلم يَرْجِع بشيءٍ(٥).

ورواه الإمامُ أحمد، وأبو داود، والترمذيُّ، وابن ماجه، وقال الترمذي: «حديثٌ حَسَنٌ غريبٌ صَحيح. وفي الباب عن ابن عُمَر، وأبي هُرَيرةَ، وعبد الله بن عَمْرو، وجابر»(٥).

قلت: وقد تَقَصَّيتُ هذه الطرقَ، وأفردتُ لها جُزءاً على حِدَتِه، فمن ذلك ما قال الإمامُ أحمد:

(١ ـ ١) ما بين القوسين عن نسخة الحرم.

(٢) ليس في نسخة الحرم.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، الدر المنثور ٣٧/٦.

(٤) أخرجه ابن مردويه، كما في فتح الباري، كتاب العيدين ٤٥٨/٢.

(٥) فتح الباري، كتاب العيدين ٤٥٧/٢. ومسند الإمام أحمد ٣٣٨/١، وأخرجوه في كتاب الصوم، سنن أبي داود ٣٢٥/٢، وعارضة الأحوذي ٢٨٩/٣، وابن ماجه ٥٥٠/١.

حدثنا عَفَّان، أنبأنا أبو عوانة، عن يزيدُ بن أبي زياد، عن مجاهدٍ، عن ابن عُمَر قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ : ما من أيام أعظَمُ عند الله ولا أحبُّ العملُ فيهنَّ، من هذه الأيام العشر؛ فأكثروا فيهنَّ من التهليل والتكبير والتحميد(٤). ورُوي من وجه آخَرَ، عن مجاهدٍ، عن ابن عُمَر، بنحوه(١).

وقال البخاريُّ: وكان ابنُ عُمَر، وأبو هُرَيرة يخرجان إلى السُّوق في أيام العشر، فَيُكبِّران ويُكَبِّر الناس بتكبيرهما(٢).

وقد رَوَى أحمدُ عن جابر مرفوعاً: أن هذا هو العَشْر الذي أقسَمَ الله به في قوله: ﴿والفجر. وليال عشر﴾(٣).

وقال بعضُ السلف: إنه المراد بقوله: ﴿وأتممناها بِعَشْرٍ﴾(٤). وفي سُنَن أبي داودَ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يَصُوم هذا العَشْرَ(٢).

وهذا العشر مشتمل على يوم عَرَفة، والذي ثَبَت في صحيح مسلم عن أبي قَتَادة ـ رضي الله عنه ـ قال: سئِل رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن صيام يوم عرفة، فقال: أحتسِبُ على الله أن يُكَفِّر السنة الماضية والآتية(٥).

ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحجِّ الأكبر، وقد وَرَد في حديثٍ أنه أفضلُ الأيامِ عند اللهِ(٦).

وبالجملة فهذا العشرُ قد قيل: إنه أفضلُ أيامِ السَّنة، كما نَطَق به الحديث، ففضله كثيرٌ على عشر رمضانَ الأخير، لأن هذا يشرع فيه ما يشرع في ذلك، من صيام وصلاة وصدقة وغيره، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فَرْض الحَجِّ فيه. وقيل: ذاك أفضلُ لاشتماله على ليلة القدرِ، التي هي خيرٌ من ألف شهر. وَتَوسَّط آخرون فقالوا: أيام هذا أفضلُ، وليالي ذاك أفضلُ. وبهذا يجتمع شمل الأدلة، والله أعلم.

قول ثان في الأيام المعلومات، قال الحكم، عن مِقْسَمٍ، عن ابن عباس: الأيام المعلومات: يوم النحر وثلاثة أيام بعده. ويُروَى هذا عن ابن عُمَر، وإبراهيم النخعيِّ، وإليه ذهب أحمدُ بن حَنبلٍ في رواية عنه.

قول ثالث، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن المَدِيني، وحدثنا يحيى بن سَعِيد، حدثنا ابن عَجلان، حدثني نافع: أن ابنَ عُمر ـ رضي الله عنهما ـ كان يقول: الأيامُ المعلوماتُ والمعدوداتُ هُنَّ جَمِيعُهنَّ أربعةُ أيام، فالأيامُ المعلومات يوم النحر ويومان بعده، والأيامُ المعدوداتُ ثلاثةُ أيام بعد يوم النَّحرِ(٧).

هذا إسنادٌ صحيحٌ إليه وقاله السُّدِّيُّ. وهو مذهبُ الإمام مالك بن أنس، ويُعضِّد هذا القولَ والذي قبله قولُهُ تعالى: ﴿على ما رَزَقهم من بَهيمة الأنعام﴾، يعني به ذكر الله عند ذبحها.

قولٌ رابعٌ: إنها يومُ عرفَةَ، ويوم النَّحر، ويومٌ آخَرُ بعده. وهو مذهبُ أبي حنيفة.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢/٧٥، ١٣١ ـ ١٣٢.

(٢) انظر الهامش رقم (٥) في الصفحة السابقة.

(٣) مسند الإمام أحمد ٣/٣٢٧.

(٤) الآية ١٤٢ من سورة الأعراف.

(٥) مسلم، كتاب الصيام ٢/٨١٨ ـ ٨١٩.

(٦) أخرجه أبو داود في كتاب المناسك ٢/١٤٨ ـ ١٤٩، والنسائي في السنن الكبرى في المناسك أيضاً، والإمام أحمد في مسنده ٤/٣٥٠. وانظر تحفة الأشراف ٦/٤٠٥.

(٧) الدرّ المنثور ٦/٣٨.

وقال ابنُ وهب: حدثني ابنُ زيدِ بن أسلَم، عن أبيه أنه قال: المعلوماتُ يومُ عَرَفَة، ويوم النَّحر، وأيام التَّشريق.

وقوله: ﴿ على ما رَزَقهم من بَهيمة الأنعامِ ﴾، يعني الإبلَ والبقرَ والغَنَم، كما فصَّلها تعالى في سورة الأنعام وأنها ﴿ ثمانية أزواج ﴾. . . الآية.

وقولُه: ﴿ فَكُلُوا منها وأَطعِمُوا البائسَ الفقير ﴾، استدلَّ بهذه الآية مَن ذَهب إلى وُجوب الأَكل من الأضاحي. وهو قولٌ غريب، والذي عليه الأكثرون أنه من باب الرّخصةِ أو الاستحباب، كما ثَبت أن رسول الله ـ ﷺ ـ لما نَحر هَدْيَه أَمَرَ من كُلِّ بَدَنَةٍ بِبَضْعةٍ فَتُطبخ، فأكَلَ من لَحمِها، وحَسا من مَرَقِها[1].

وقال عبدُ الله بن وَهب: قال لي مالكٌ: أُحِبُّ أن يأكل من أُضحِيَته، لأن الله يقول: ﴿فكلوا منها﴾. قال ابنُ وَهبٍ: وسألتُ الليثَ، فقال لي مثل ذلك.

وقال سفيانُ الثوريُّ، عن منصور، عن إبراهيم: ﴿ فَكُلوا منها ﴾، قال: كان المشركُونَ لا يأكُلونَ من ذَبائحهم، فَرُخِّص للمسلمين، فمن شاء أكَلَ، ومن شاء لم يأكُلْ. ورُوي عن مجاهد، وعطاء، نحو ذلك.

قال هُشَيم، عن حُصَين، عن مجاهد في قوله ﴿ فَكُلُوا منها ﴾: هي كقوله: ﴿ فإذا حَلَلتم فَاصطادُوا ﴾، ﴿ فإذا قُضِيت الصلاة فانتشرُوا في الأرض ﴾[2].

وهذا اختيارُ ابن جرير في تفسيره، واستدلَّ مَن نَصر القولَ بأن الأضاحي يُتصدَّقُ منها بالنِّصفِ بقوله في هذه الآيةِ ﴿ فَكُلُوا منها وأطعِمُوا البائس الفقيرَ ﴾، فَجَزَّأَها نصفين: نصف للمضحّي، ونصف للفقراء.

والقولُ الآخر أَنها تُجزأُ ثلاثة أجزاءٍ: ثُلثٌ له، وثُلثٌ يُهديه، وثُلثٌ يَتصدَّق به، لقوله في الآية الأخرى: ﴿ فكلوا منها وأَطعِمُوا القانع والمُعْتَرَّ ﴾. وسيأتي الكلامُ عليها عندها، إن شاء الله، وبه الثقةُ.

وقولُه: ﴿ البائسَ الفقيرَ ﴾، قال عكرمة: هو المضطرُّ الذي عليه البؤسُ، والفَقيرَ: المتعفِّف.

وقال مجاهدٌ: هو الذي لا يبسُطُ يده. وقال قتادةُ: هو الزَّمِنُ. وقال مقاتل بن حَيّان: هو الضَّرير.

وقولُه: ﴿ ثم لْيَقضُوا تَفَثهم ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عَبّاسٍ: هو وضعُ الإحرام، من حَلْقِ الرأسِ ولُبس الثّياب وقَصِّ الأظفار، ونحو ذلك[3]. وهكذا روى عطاءٌ ومجاهدٌ، عنه. وكذا قال عكرمةُ، ومحمدُ بن كعب القُرَظِيّ.

وقال عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ ثم لْيَقضُوا تَفَثهم ﴾، قال: التَّفَثُ: المناسكُ.

وقولُه: ﴿ وَلْيوفُوا نُذورَهم ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني نَحْرَ ما نَذَرَ من أَمْرِ البُدْنِ.

وقال ابنُ أبي نَجيح، عن مُجاهد: ﴿ وَلْيوفُوا نُذورَهم ﴾: نَذْرُ الحج والهَدْيِ، وما نَذر الإنسانُ من شيء يكون في الحجِّ.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحج ٨٩٢/٢، وأبو داود في المناسك ١٨٦/٢، والترمذي في أبواب الحج، عارضة الأحوذي ٣٠/٤، وابن ماجه في المناسك ١٠٢٧/٢، والأضاحي ١٠٥٥/٢.

(٢) تفسير الطبري ١٤٨/١٧.

(٣) تفسير الطبري ١٥٠/١٧.

وقال إبراهيم بن ميسَرَة، عن مجاهدٍ: ﴿ وليوفوا نُذُورَهم ﴾، قال: الذبائحُ.

وقال لَيث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿ وليوفوا نُذُورَهم ﴾: كلُّ نَذْر إلى أَجَل.

وقال عكرمة: ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُم ﴾، قال: حَجَّهم.

وكذا رَوَى الإمامُ ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابنُ أبي عُمَر، حدثنا سفيان في قوله: ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهم ﴾، قال: نَذْرُ الحج.

وكلّ من دخل بالحج فَعَليه من العمل فيه: الطّوافُ بالبيتِ وبين الصَّفا والمروة، وعَرَفة، والمزدلفة، وَرَمْيُ الجمار، على ما أُمِرُوا به. ورُوِيَ عن مالك نحو هذا.

وَقَولُه: ﴿ وَلْيطَّوفوا بالبيت العَتِيق ﴾، قال مجاهد: يعني الطوافَ الواجبَ يوم النَّحر.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حَمَّاد، عن أبي جَمْرَةَ قال: قال لي ابنُ عَبَّاس: أتقرأُ سورةَ الحجِّ؟ يقولُ الله: ﴿ وَلْيطَّوفُوا بالبيت العَتِيق ﴾، فإنَّ آخرَ المناسِكِ الطَّواف بالبيتِ[1].

قلتُ: وهكذا صَنَع رسولُ الله ـ ﷺ ـ فإنه لما رَجَع إلى منى يومَ النَّحر بدأ برَمِي الجَمْرَةِ، فرماها بسبع حصيات، ثم نَحر هَدْيَه، وحَلَق رَأْسَه، ثم أفاض فَطَاف بالبيت. وفي الصحيح عن ابن عباس أنه قال: «أُمِرَ الناسُ أن يكون آخرُ عهدُهم بالبيت الطوافُ، إلا أنه خُفِّفَ عن المرأةِ الحائضِ»[2].

وقولُه: ﴿ بالبيتِ العَتِيق ﴾، فيه مُستَدَلّ لمن ذهب إلى أنه يَجِبُ الطواف من وراء الحِجْر، لأنه من أصلِ البيت الذي بناه إبراهيمُ، وإن كانت قريشٌ قد أخرجُوه من البيت، حين قَصَرت[3] بهم النَّفَقةُ. ولهذا طافَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ من وراء الحِجْر، وأخبر أن الحِجْرَ من البيت، ولم يستلم الرُّكنين الشامِيَّيْنِ، لأنهما لم يُتَمَّما على قَوَاعِدِ إبراهيم العتيقة، ولهذا قال ابن أبي حاتم:

حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عُمَر العَدَنِيُّ، حدثنا سفيانُ، عن هشام بن حُجَير[4]، عن رَجُلٍ، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ وَلْيطَّوفوا بالبيتِ العَتِيق ﴾، طاف رسولُ الله ـ ﷺ ـ من وَرَائِهِ.

وقال قتادةُ، عن الحسن البصري في قوله: ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾، قال: لأنه أوَّلُ بيتٍ وُضِع للناس، وكذا قال عبد الرحمن بن زَيدِ بن أَسلَمَ. وعن عكرمَة أنه قال: إنما سُمِّي البيتَ العتيقَ، لأنه أُعتِق يوم الغَرَق زمانَ نُوح. وقال خُصَيف: إنما سُمِّي البيتَ العتيقَ لأنه لم يظهر عليه جَبَّار قَطُّ. وقال ابنُ أبي نجيح، وليث، عن مجاهد: أُعْتِقَ من الجبابرة أن يُسلَّطوا عليه. وكذا قال قتادة.

وقال حَمَّاد بن سَلَمة، عن حُمَيد، عن الحسن بن مسلم، عن مجاهد: لأنه لم يُرِدْهُ أحدٌ بِسُوءٍ إلا هَلَك.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن ابن الزُّبير قال: إنما سُمِّي البيتَ العتيقَ لأنَّ الله أعتقَه من الجبابرة.

وقال الترمذيُّ: حدثنا محمد بن إسماعيل وغير واحد، حدثنا عبدُ الله بن صالح، أخبرني الليث، عن عبد

---

(١) الدرّ المنثور ٦/٤٢ وأبو جَمْرَة هو نصر بنْ عِمْرَان الضُّبَعِيُّ، مترجم في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/٤٦٥.
(٢) أخرجه الشيخان في كتاب الحجّ، فتح الباري ٣/٥٨٥، ومسلم ٢/٩٦٣.
(٣) أي: لم تبلغ بهم مقصدهم حين أرادوا بناءه على قواعد إبراهيم.
(٤) في النسخ: حجر. والمثبت من تهذيب الكمال ١١/٨٢، ترجمة سفيان بن عُيينة، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٩/٥٣ - ٥٤.

الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب، عن محمد بن عُروَةَ، عن عبد الله بن الزُّبير قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ إنما سُمِّي البيتَ العتيق لأنه لم يظهَر عليه جبَّارٌ»[٢].

وكذا رواه ابنُ جرير، عن محمد بن سهل البُخاريّ؛ عن عبد الله بن صالح، به. وقال: «إن كان صحيحاً»[١]. وقال الترمذي: «هذا حديثٌ حسن غريب». ثم رواه من وجه آخر عن الزهري، مرسلاً[١].

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾

يقولُ تعالى: هذا الذي أَمَرنا به مِنَ الطاعاتِ في أَدَاءِ المناسِكِ، وما لفاعِلِها من الثَّواب الجَزيل.

﴿ ومن يُعظِّم حُرُماتِ الله ﴾، أي: ومن يَجْتَنِب معاصيَه ومحارمَه، ويكونُ ارتكابُها عَظيماً في نفسِه، ﴿ فهو خيرٌ له عند ربِّه ﴾، أي: فله على ذلك خيرٌ كثيرٌ وثوابٌ جزيلٌ. فكَما على فِعْلِ الطَّاعاتِ ثوابٌ جزيلٌ وأجرٌ كَبيرٌ، كذلك على تَرْكِ المحرمات واجتناب المحظورات.

قال ابنُ جُرَيجٍ: قال مجاهد في قوله: ﴿ ذلك ومن يُعظِّم حُرُماتِ الله ﴾، قال: الحرمة: مكة والحجُّ والعمرة، وما نَهى اللهُ عنه من معاصيه كلِّها. وكذا قال ابنُ زيدٍ.

وقولُه: ﴿ وَأُحِلَّت لكم الأنعامُ إلا ما يُتلى عَليكم ﴾، أي: أحللنا لكم جميعَ الأنعام، وما جَعَل الله من بَحيرةٍ، ولا سائبة، ولا وَصِيلةٍ، ولا حَامٍ.

وقولُه: ﴿ إلا ما يُتلى عليكم ﴾، أي: من تحريم الميتة، والدم، ولحم الخنْزير، وما أُهِلَّ لغير الله به والمُنخَنِقَةِ، والموقُوذَةِ، والمتردِّية، والنطيحَةِ وما أكَل السبعُ إلاَّ ما ذَكَّيتُم... الآية[٢]، قال ذلك ابن جرير، وحكاه عن قتادة[٣].

وقولُه: ﴿ فاجتَنِبُوا الرجسَ من الأوثان واجتَنِبُوا قولَ الزُّورِ ﴾: «مِن» هاهنا لبيان الجنس، أي: اجتَنِبُوا الرجسَ الذي هو الأوثان. وقَرَنَ الشرك بالله بقول الزُّور، كقوله: ﴿ قل إنما حَرَّم ربِّي الفواحشَ ما ظَهَر منها وما بَطَن والإثم والبَغْيَ بغير الحقِّ وأن تُشركوا بالله ما لم ينزل به سُلطانا وأن تَقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾، ومنه شهادة الزور. وفي الصحيحين عن أبي بَكْرَةَ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ألا أُنَبِّئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى: يا رسولَ الله. قال: الإشراك بالله وعقوقُ الوالدين ـ وكان مُتَّكِئاً فجلس ـ فقال: ألا وقولَ الزُّور، ألا وشهادةَ الزور. فما زال يُكرِّرها، حتى قلنا: ليته سَكَت»[٤].

---

(١) عارضة الأحوذي، تفسير سورة الحج ١٢/٣٠ ـ ٣١، وتفسير الطبري ١٧/١٥١ ـ ١٥٢ ولفظ الترمذي. «هذا حديث حسن صحيح»
(٢) أي: في آية المائدة الثالثة.
(٣) تفسير الطبري ١٧/١٥٣.
(٤) أخرجه البخاري في كتاب الشهادات ٥/٢٦١، ومسلم، في كتاب الإيمان ١/٩١ وانظر تحفة الأشراف للمزي ٩/٤٧

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا مروان بن معاوية الفَزَاريُّ، أنبأنا سفيان بن زياد، عن فَاتِكِ بن فَضَالة، عن أيمنَ بن خُرَيم قال: قام رسولُ الله ـ ﷺ ـ خطيباً فقال: يا أيُّها الناسُ، عَدَلَت شهادةُ الزُّورِ إشراكاً بالله، ثلاثاً، ثم قرأ: ﴿ فاجتَنِبُوا الرجسَ من الأوثان واجتَنِبُوا قولَ الزُّورِ ﴾[1].

وهكذا رواه التِّرمذِيُّ، عن أحمدَ بن مَنِيع، عن مَرْوَانَ بن معاوية، به. ثم قال: «غريبٌ، إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد. وقد اختُلِفَ عنه في رِوَايةِ هذا الحَدِيثِ، ولا نَعرِفُ لأيمنَ بن خُرَيم سماعاً من النبي ـ ﷺ ـ»[1].

وقال الإمامُ أحمدُ أيضاً: حدثنا مُحمد بن عُبَيد، حدثنا سفيان العُصْفُرِيُّ، عن أبيه: عن حَبِيب بن النعمان الأسديِّ، عن خُرَيم بن فاتِكٍ الأسدي قال: صلَّى رسولُ الله ـ ﷺ ـ الصُّبحَ، فلما انصرف قام قائماً فقال: عَدَلَتْ شهادةُ الزُّورِ الإشراكَ باللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ثم تلا هذه الآية: ﴿ فاجتَنِبُوا الرِّجْسَ من الأوثان واجتَنِبُوا قولَ الزُّورِ * حُنَفاء لله غيرَ مشركين به ﴾[2].

وقال سُفيان الثَّوريُّ، عن عاصم بي أبي النَّجُود، عن وائل بن ربيعةَ، عن ابن مسعود أنه قال: تَعدِلُ شهادةُ الزور بالشرك بالله، ثم قرأ هذه الآية[3].

وقولُه: ﴿ حُنَفاء لله ﴾، أي: مُخلِصِينَ له الدينَ، مُنحَرِفين عن الباطل قصداً إلى الحق، ولهذا قال ﴿ غير مُشركين به ﴾.

ثم ضَرَب للمُشرك مثلاً في ضَلالِهِ وهَلاكِهِ وبُعدِهِ عن الهُدَى فقال: ﴿ ومن يُشرِكْ بالله فكأنما خَرَّ من السَّماءِ ﴾، أي: سَقَطَ منها، ﴿ فتخطَفهُ الطيرُ ﴾، أي: تقطَعُه الطيورُ في الهواء: ﴿ أو تَهْوِي به الرِّيحُ في مكانٍ سَحِيق ﴾، أي: بعيدٍ مُهلك لمن هَوَى فيه. ولهذا جاء في حديث البراء: إن الكافر إذا تَوَفَّته ملائكةُ الموتِ، وصَعِدُوا برُوحِهِ إلى السَّمَاء، فلا تُفتَحُ له أبوابُ السماءِ، بل تُطرَح روحُه طَرْحاً من هناك. ثم قرأ هذه الآية. وقد تَقَدَّم الحديثُ في سورة إبراهيم[4] بحُروفه وألفاظه وطُرُقِه.

وقد ضرب تعالى للمشرك مثلاً آخر في «سورة الأنعام»، وهو قوله: ﴿قل أندعُوا من دُون الله ما لا يَنفعُنَا ولا يَضرُّنا ونُرَدُّ على أعقابنا بعد إذْ هدانا الله كالَّذي استهوَته الشياطينُ في الأَرْضِ حيرانَ لَهُ أصحابٌ يدعُونه إلى الهدى ائتنا قل إن هُدَى الله هو الهُدَى وأُمِرنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العالمين ﴾[5].

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾

يقولُ تعالى: هذا ﴿ ومن يُعَظِّم شعائر الله ﴾، أي: أوامره، ﴿ فإنها من تقوى القلوب ﴾. ومن ذلك تعظيمُ الهدايا والبُدْن، كما قال الحَكَم، عن مِقْسَمٍ، عن ابن عباس: تعظيمُها: استسمانُها واستحسانُها.

(١) مسند أحمد ٤/١٧٨، ٢٣٣. وعارضة الأحوذي، أبواب الشهادات ٩/١٧٤. وانظر تحفة الأشراف للمزي ٢/١١، ٣/١٢١ ـ ١٢٢.
(٢) مسند الإمام أحمد ٤/٣٢١.
(٣) أخرجه غير واحد، انظر الدرّ المنثور ٦/٤٥.
(٤) انظر تفسير الآية ٢٧ من سورة إبراهيم.
(٥) آية الأنعام ٧١.

وقال ابنُ أَبي حاتم: حدثنا أبو سَعِيد الأَشَجُّ، حدثنا حَفْصُ بن غِياثٍ، عن ابن أبي لَيلى، عن ابن أبي نَجيحٍ، عن مُجاهد، عن ابن عباس: ﴿ ذلك ومن يعظم شعَائر الله ﴾ قال: الاستِسمَانُ والاستِحسَانُ والاستِعظامُ[١].

وقال أبو أمامة بن سهل: كنا نُسَمِّن الأضحيَةَ بالمدينةِ، وكان المسلمون يُسمِّنونَ. رواه البُخَاري[٢].

وعن أبي هُرَيرة أَنَّ رسولَ ـ ﷺ ـ قال: دَمُ عفْرَاءَ أَحَبُّ إلى الله من دَمِ سَوداوَين. رواه أحمد[٣]، وابن ماجه.

قالوا: والعَفراءُ هي البيضاءُ بياضاً ليس بناصع، فالبيضاءُ أفضلُ من غيرها، وغيرُها يُجزىءُ أيضاً، لما ثبت في صحيح البخاري، عن أَنسٍ: أَنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ ضَحَّى بكَبشَين أملَحين أقرنَين[٤].

وعن أبي سَعيد: أَنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ ضَحَّى بكبش أَقرَنَ فَحِيل[٥] يأْكُل في سَوادٍ، وَيَنظُر في سَوادٍ، ويَمْشِي في سَوادٍ. رَواه أهلُ السُّنَن، وصَحَّحَهُ التِّرمِذيُّ[٦]. أي: فيه نُكتةُ سَوادٍ في هذه الأماكن.

وفي سُنَنِ ابن ماجه، عن أبي رافع: أَنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ ضَحَّى بكبشَين عَظِيمين سَمِينين أقرنَين أَمْلَحين مَوجُوءَين[٧]. قيل: هما الخَصِيَّان. وقيل: اللذان رُضَّ[٨] خُصْياهُما، ولم يَقْطَعهما، والله أعلم.

وكذا رَوَى أبو داود وابن ماجه عن جَابِرٍ: ضَحَّى رسولُ الله ـ ﷺ ـ بكبشين أَقْرَنين أملَحَين مَوْجُوءَين[٩].

وعن عَلِي ـ رضي الله عنه ـ قال: أَمَرَنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن نَستَشرِفَ[١٠] العينَ والأُذُنَ، ولا نُضَحِّيَ بمقابَلَةٍ، ولا مُدابَرَةٍ، ولا شرقَاءَ، ولا خرقاء. رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذي[١١].

ولهم عنه، قال: نهى رسول الله ـ ﷺ ـ أن نُضحّي بأعضَبِ القَرْنِ والأُذُنِ[١٢] وقال سعيد بن المُسَيِّب: العَضَبُ: النِّصْفُ فأكثر[١٢].

وقال بعضُ أهلِ اللُّغةِ: إن كُسِرَ قرنُها الأعلى فهي قَصْماءُ، فأما العَضْبُ فهو كَسْرُ الأسفلِ، وعَضْبُ الأذُنِ: قَطْعُ بَعْضِهَا.

---

(١) الدرّ المنثور ٤٦/٦.

(٢) فتح الباري، كتاب الأضاحي ٩/١٠.

(٣) مسند الإمام أحمد ٤١٧/٢. ولم يقع لنا في سنن ابن ماجه، وقد أخرجه البيهقي في سننه مرفوعاً، وموقوفاً على أبي هريرة، ثم قال: «قال البخاري: ويرفعه بعضهم. ولا يصح». السنن الكبرى، كتاب الضحايا ٢٧٣/٩.

(٤) أخرجه الشيخان في كتاب الأضاحي، فتح الباري ٩/١٠، ١٨، ٢٢، ومسلم ١٥٥٦/٣ ـ ١٥٥٧.

(٥) في نسخة الحرم: كحيل. وهو خطأ. وفَحِيلٌ: كامل الخِلْقَة لم تُقْطَع أنثياه.

(٦) أخرجوه في كتاب الأضاحي، سنن أبي داود ٩٥/٣، وعارضة الأحوذي ٢٩٢/٦ ـ ٢٩٣، والنسائي ٢٢١/٧، وابن ماجه ١٠٤٦/٢.

(٧) حديث أبي رافع في مسند الإمام أحمد ٨/٦، ٣٩١. فما ما رواه ابن ماجه فمن عائشة وأبي هريرة، انظر كتاب الأضاحي ١٠٤٣/٣ ـ ١٠٤٤.

(٨) أي: دُقَّ.

(٩) أخرجاه في كتاب الأضاحي، سنن أبي داود ٩٥/٣، وسنن ابن ماجه ١٠٤٣/٢.

(١٠) نستشرف: ننظر ونتأمل في حالهما لئلا يكون فيهما عيبٌ.

(١١) مسند الإمام أحمد ٨٠/١، ١٠٨. وأخرجه أهل السنن في كتاب الأضاحي، سنن أبي داود ٩٧/٣ ـ ٩٨، والنسائي ٢١٨/٧، وابن ماجه ١٠٥٠/٢، وعارضة الأحوذي ٢٩٦/٦ ـ ٢٩٧.

(١٢) مسند الإمام أحمد ٨٣/١، ١٠٩، ١٢٧، وأخرجه أصحاب السنن في كتاب الأضاحي، سنن أبي داود ٩٨/٣، وعارضة الأحوذي ٢٩٦/٦، والنسائي ٢١٧/٧ ـ ٢١٨، وابن ماجه ١٠٥١/٢.

وعند الشافعي أن التَّضحيةَ بذلك مُجزئةٌ، لكن تُكرَهُ. وقال أحمدُ: لا تُجزىءُ الأضحيَةُ بأعضَبِ القَرْنِ والأذن، لهذا الحديث. وقال مالكٌ: إن كانَ الدمُ يسيلُ من القَرْنِ لم يُجزىء، وإلا أجزأ، والله أعلم.

وأما المقابَلَة: فهي التي قُطِعَ مُقدَّم أُذُنها، والمدابَرَةُ: من مُؤخِرِ أُذُنها. والشَّرْقَاءُ: هي التي قُطِعت أُذُنها طُولاً، قاله الشافعيُّ. والخرقاءُ: هي التي خَرقَتِ السِّمَةُ أُذُنَها خَرْقاً مُدوّراً، والله أعلم.

وعن البراء قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: أربعٌ لا تجوزُ في الأضاحِي: العَوْرَاء البَيِّنُ عَوَرُها، والمريضَةُ البَيِّنُ مَرَضُها، والعَرْجَاءُ البَيِّن ظَلَعُها، والكسيرة التي لا تُنْقِي(١). رواه أحمدُ، وأهلُ السُّنَنِ، وصَحَّحه التِّرمذيُّ(٢).

وهذه العيوبُ تنقُصُ اللَّحم، لِضَعفِها وعَجْزِها عن استكمال الرَّعي، لأن الشَّاء يَسبِقُونها إلى المرعَى، فلهذا لا تُجزيءُ التضحيةُ بها عند الشافعيِّ وغيره من الأئمَّةِ، كما هو ظاهرُ الحديثِ. واختلفَ قولُ الشافعيِّ في المريضة مَرَضاً يسيراً، على قولَين:

وروى أبو داود، عن عُتْبَةَ بن عَبْدٍ السُّلَمِيِّ: أَن رسول الله ـ ﷺ ـ نهى عن المُصَفَّرَةِ، والمُسْتَأْصَلَةِ، والبَخْقَاء، والمُشَيَّعَةِ والكَسِيرة.(٣).

فالمُصَفَّرَة قيل: الهَزِيلة. وقيل: المستأصَلَةُ الأذُن. والمُستأْصَلَةُ: المكسورةُ القَرْن. والبَخْقَاءُ: هي العَوْرَاءُ(٤). والمُشَيَّعةُ: هيَ التي لا تَزَال تُشَيَّعُ خَلْفَ الغَنَم، ولا تَتْبَع لِضَعفها. والكَسِيرة: العَرْجاءُ.

فهذه العيوب كُلُّها مانعةٌ من الإجزاء. فَأَمَّا إن طَرَأ العيبُ بعد تعيين الأُضْحِيَّة فإنه لا يضرُّ عيبُه عند الشافعي خلافاً لأبي حَنيفَةَ.

وقد رَوَى الإمامُ أحمدُ، عن أبي سعيدٍ قال: اشتريتُ كبشاً أُضَحِّي به، فعدا الذئبُ فأخذ الأَلْيَةَ، فسألت النبيَّ ـ ﷺ ـ فقال: ضَحِّ به(٥).

ولهذا في الحديث: «أَمرنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن نَسْتَشرفَ العينَ والأذُنَ». أي: تكون الهديَّةُ أو الأضحيَةُ حَسَنةً ثمينَةً، كما رواه الإمام أحمدُ وأبو داودَ، عن عبد الله بن عُمَر قال: أهدَى عمر نَجيباً(٦)، فَأُعطِيَ بها ثلاثمائة دينار، فأتى النبيَّ ﷺ فقالَ: يا رسُولَ الله، إنِّي أهدَيْتُ نجيباً فأُعْطِيتُ بها ثلاثمائة دينار، أفأبيعها واشتري بثمنها بُدْناً؟ قال: لا، انحرها إياها(٧).

وقال الضَّحَّاكُ، عن ابن عباس: البُدنُ من شَعائرِ الله. وقال محمد بن أبي موسى: الوقوفُ ومزدلفةُ والجمارُ والرمي والبدنُ والحَلْقُ: من شعائرِ الله. وقال ابنُ عُمَر: أعظم الشعائر البيتُ.

وقولُه: ﴿ لكم فيها منافعُ ﴾، أي: لكم في البدن منافعُ، من لَبَنها، وصُوفها وأوبارِها وأشعارِها، ورُكوبِها.

---

(١) الظَّلع: العرجُ. وفي نسخة الحرم: البيِّن ظَلَعُها في عرجها. ومعنى لا تُنقي: ليس لها نِقْيٌ، وهو مُخُّ العظام، يريدُ أنها مهزولة.

(٢) مسند أحمد ٤/٢٨٤، ٢٨٩. وأخرجه أهل السنن في كتاب الأضاحي، سنن أبي داود ٣/٩٧، عارضة الأحوذي ٦/٢٩٤ ـ ٢٩٥، والنسائي ٧/٢١٥، وابن ماجه ٢/١٠٥٠ ـ ١٠٥١.

(٣) سنن أبي داود ٣/٩٧.

(٤) قيل: إن البخق هو ذهاب البصر مع بقاء العين منفتحة.

(٥) مسند أحمد ٣/٣٢. الألية: العجيزة، أو ما ركبها من لحم وشحم.

(٦) النجيب من الإبل: القويّ الخفيف السريع.

(٧) مسند أحمد ٢/١٤٥، وسنن أبي داود، كتاب المناسك ٢/١٤٦ ـ ١٤٧.

﴿ إلى أجل مسمًّى ﴾، قال مِقْسَم، عن ابن عباس: ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: ﴿ لكم فيها مَنافعُ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾، قال: ما لم يُسَمَّ بُدْناً.

وقال مجاهد في قوله: ﴿ لكم فيها مَنافعُ إلى أجلٍ مُسمًّى ﴾، قال: الركوب واللبن والولد، فإذا سُمّيت بَدَنَةً أو هَدْياً ذهب ذلك. وكذا قال عطاءٌ، والضحاك، وقتادةُ، ومقاتلٌ، وعطاءٌ الخُرَسانيُّ، وغيرهم.

وقال آخرون: بل له أن ينتفعَ بها وإن كان هَدْياً، إذا احتاج إلى ذلك، كما ثَبت في الصحيحَين عن أنس: أن رسول الله ـ ﷺ ـ رأى رجلا يَسُوقُ بدَنةً، قال: اركبها. قال: إنها بَدَنَةٌ. قال: اركبها، ويحك! في الثانية أو الثالثة[1].

وفي روايةٍ لمسلم، عن جابر، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «اركَبْها بالمعرُوفِ إذا أُلْجِئْتَ إليها»[2].

وقال شعبةُ، عن زُهَير بن أبي ثابت الأعمي، عن المُغيرة بن حَذْفٍ، عن عَليٍّ أنه رأى رَجُلا يسوقُ بدنةً ومعها وَلَدُها، فقال: لا تَشْرَب من لبنها إلاّ ما فَضَل عن وَلَدِها، فإذا كانَ يومُ النحرِ فاذبَحها وولَدَها[3].

وقولُه: ﴿ ثم مَحِلُّها إلى البيتِ العَتِيق ﴾، أي: مَحلُّ الهَدْي وانتهاؤه إلى البيتِ العَتِيق، وهو الكعبةُ، كما قال تعالى: ﴿هَدْياً بالغَ الكعبةِ﴾. وقال: ﴿والهدي معكوفاً أن يبلُغَ مَحِلَّه﴾. وقد تقدم الكلام على معنى البيت قَريباً، ولله الحمدُ.

وقال ابنُ جرَيج، عن عَطَاءٍ: كان ابنُ عبَّاسٍ يقول: كلُّ مَن طافَ بالبيتِ فقد حَلَّ، قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ مَحِلُّها إلى البيتِ العَتِيقِ ﴾.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يُخبِرُ تعالى أنه لم يَزَل ذبحُ المناسِكِ وإراقةُ الدِّماءِ على اسم الله مَشْروعاً في جميع المِلَل.

قال علي بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿ لكل أمة جعلنا منسكاً ﴾، قال: عيداً[4].

وقال عكرمةُ: ذَبحاً. وقال زيدُ بن أسلَمَ في قوله: ﴿ لكل أمة جعلنا منسكاً ﴾: إنها مَكَّةُ، لم يجعلِ الله لأمّةٍ قطُّ مَنْسَكاً غيرَها.

[وقوله]: ﴿ ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾، كما ثَبت في الصَّحِيحَين عن أنس قال: أُتِيَ رسول الله ـ ﷺ ـ بكبشَين أَمْلَحَين أقرنَين، فسمَّى وكبَّر، ووَضَع رِجْلَه على صِفَاحِهما[5].

وقال الإمامُ أحمدُ بن حَنبلٍ: حدثنا يزيد بن هارونَ، أنبأنا سَلاَّم بن مِسْكِين، عن عائذ الله المُجاشِعيِّ،

---

(١) أخرجاه في كتاب الحج، فتح الباري ٥٣٦/٣، ومسلم ٩٦٠/٢. وقد أطلق الرحل البدنة على الواحدة من الإبل المهداة إلى البيت الحرام.

(٢) مسلم، كتاب الحج ٩٦١/٢، وتمامه: «حتى تجد ظهراً».

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الحج ٢٣٦/٥ ـ ٢٣٧.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم، الدرّ المنثور ٤٧/٦.

(٥) تقدّم تخريجه عند الآية ٣٢ من هذه السورة. والصِّفَاح: الجوانب، والمراد الجانب الواحد من وجه الأضحية.

عن أبي داود - وهو نُفَيع بن الحارث - عن زيد بن أَرْقَم قال: قلت - أو قالوا -: يا رسولَ الله، ما هذه الأضاحي؟ قال: سنةُ أبيكم إبراهيم. قالوا: ما لنا منها؟ قال: بِكُلِّ شَعرةٍ حَسَنَةٌ. قالوا: فالصُّوفُ؟ قال: بِكُلِّ شَعرَةٍ من الصُّوف حَسَنَةٌ[١].

وأخرجه الإمامُ أبو عبدِ الله مُحمَّد بنُ يزيدَ، ابنُ ماجه في سُنَنِـهِ، من حديث سَلَّام بن مِسْكِينٍ، به[١].

وقولُه: ﴿ فإلَهكُم إلَهٌ واحدٌ فَلَه أسلِمُوا ﴾، أي: مَعبودُكم واحدٌ وإن تنوَّعت شرائعُ الأنبياء ونَسخ بعضُها بعضاً فالجميع يدعُون إلى عبادة الله وحده لا شريكَ له، ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلا نُوحِي إليه أنه لا إلَه إلا أنا فاعبدونِ﴾. ولهذا قال: ﴿ فَلَه أسلِمُوا ﴾، أي: أَخلِصُوا واستَسْلِمُوا لحُكْمِـهِ وطاعَتِه.

﴿ وبَشِّر المُخبتينَ ﴾، قال مجاهد: المُطمئِنين. وقال الضحَّاكُ وقتادة: المُتَواضِعِين. وقال السدِّيُّ: الوَجِلِينَ. وقالَ عَمْرو بنُ أوسٍ: المخبِتُونَ: الذين لا يَظلِمُونَ، وإذا ظُلِمُوا لم يَنْتَصِروا[٢].

وقال الثوريُّ: ﴿ وبَشِّر المُخبتينَ ﴾، قال: المُطمَئِنِّين الراضِينَ بقضاء اللهِ، المُستَسْلِمِينَ له.

وأحسن ما يُفسِّر بما بعده وهو قولُه: ﴿ الذين إذا ذُكِر الله وَجِلَت قُلُوبُهم ﴾، أي: خافَت منه قلوبُهم، ﴿ والصَّابرين على ما أصابهم ﴾، أي: من المصائب.

قال الحسن البصري: والله لَتَصبِرَنَّ أو لَتَهلِكَنَّ.

﴿ والمقيمي الصلاة ﴾، قَرَأَ الجمهورُ بالإضافةِ، وبقيةُ العَشَرةِ أيضاً. وقرأ ابنُ السَّمَيْقَع: ﴿والمُقِيمين الصَّلاةَ ﴾ بالنصْب. وقال الحسن[٣] البصريُّ: ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾. وإنما حُذِفَتِ النُون هاهنا تخفيفاً، ولو حذفت للإضافة لوجب خفض الصلاة، ولكن على سبيل التَّخفِيفِ [فَنُصِبت]. أي: المُؤدِّين حَقَّ الله فيما أوجَبَ عَلَيهم مِنْ أداءِ فَرائِضِه.

﴿ ومِمَّا رَزَقناهم يُنفِقُون ﴾، أي: ويُنفِقُون مما آتاهم[٤] الله فيما أوجب عليهم من طيب الرِّزْقِ على أهليهم وأرِقَّائهم وقَرَاباتهم، وفقرائهم ومحاويجهم، ويُحسِنُون إلى خَلْق الله مع محافظتهم على حُدُودِ الله. وهذه بخلاف صفاتِ المنافقينَ، فإنهم بالعكس من هذا كُلِّه، كما تقدَّم تفسيرُه في «سُورَةِ بُرَاءَة»[٥].

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُمتناً على عباده فيما خلَق لهم من البُدْنِ، وجَعَلها من شعائره، وهو أنه جَعَلها تُهْدَى إلى بيته الحرام، بل هي أفضلُ ما يُهدَى، كما قال تعالى: ﴿ لا تُحِلُّوا شعائرَ الله ولا الشهرَ الحَرامَ ولا الهَدْيَ ولا القَلائِدَ ولا آمِّينَ البيت الحرام يبتغُون فضلاً من رَبِّهم ﴾.

(١) مسند أحمد ٣٦٨/٤، وابن ماجه، كتاب الأضاحي ١٠٤٥/٢.
(٢) أخرجه الطبري وغير واحد، تفسير الطبري ١٦١/١٧، والدرّ المنثور ٤٨/٦.
(٣) أي: وقرأ الحسن البصري. وهذه من عبارات المتقدّمين. وانظر قراءة الحسن في المحتسب ٨٠/٢، وروح المعاني للألوسي ١٥٤/١٧، وبها قرأ أيضاً ابن أبي إسحق، وأبو عَمْرو في رواية.
(٤) هذا نص مخطوطة الحرم. وفي غيرها: وينفقون ما آتاهم من طَيِّب...
(٥) انظر تفسير الآيات ٦٧، ٧٥ - ٧٩ من سورة التوبة.

قال ابن جُرَيج: قال عطاء في قوله: ﴿والبُدْنَ جَعلناها لكم من شَعائِرِ اللهِ﴾، قال: البقرة، والبَعيرُ. وكذا رُوي عن ابنِ عُمَر، وسعيد بن المُسيَّب، والحَسَن البَصْرِي.

وقال مجاهد: إنما البُدْنِ من الإبل.

قلت: أما إطلاقُ البَدَنة على البعير فَمتَّفقٌ عليه، واختلَفُوا في صحَّةِ إطلاقِ البَدَنةِ على البقرة، على قولين، أصحهما أنه يُطلَق عليها ذلك شرعاً كما صَحَّ في الحديث.

ثم جمهورُ العلماء على أنه تُجزِئُ البَدَنةُ عن سَبعةٍ، والبَقَرةُ عن سَبعةٍ، كما ثَبَت به الحديثُ عند مسلم، من رواية جابر بن عبد الله، قال: أَمَرنَا رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن نشترِكَ في الأضاحي، البَدَنَةُ عن سبعةٍ، والبقرةُ عن سبعةٍ[1].

وقال إسحاق بنُ رَاهَويه وغيره: بل تُجزِئُ البقرةُ عن سَبعةٍ، والبعير عن عَشْرةٍ. وقد وَرَد به حديثٌ في مُسنَدِ الإمامِ أحمدَ، وسُنَنِ النسائي، وغيرِهما[2]. فالله أعلم.

وقولُه: ﴿لكم فيها خيرٌ﴾، أي: ثوابٌ في الدار الآخرة.

وعن سُلَيمانَ بن يزيدَ الكعبيِّ، عن هشام بن عُروة، عن أبيه، عن عائشةَ أَنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «ما عَمِل ابنُ آدمَ يوم النحرِ عَمَلاً أحبَّ إلى الله من هِراقَةِ دَم. وإنَّه ليأتي يومَ القيامةِ بقُرُونها[3] وأظلافِها وأشعارِها، وإن الدمَ ليقع من الله بمكانٍ قبلَ أن يقَعَ على الأرض، فَطِيبُوا بها نفساً ـ رواهُ ابن ماجه، والترمذيُّ وحَسَّنَه[4].

وقال سفيان الثَّوريُّ: كان أبو حاتمٍ يَستَدينُ ويسوقُ البُدْنَ، فقيل له: تَستَدِينُ وتَسُوقُ البُدْنَ؟ فقال: إني سَمِعتُ الله يقول: ﴿لكم فيها خَيرٌ﴾.

وعن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ما أنفقتَ الوَرِقَ في شيءٍ أفضلَ من نَحِيرةٍ في يوم عيدٍ. رواه الدار قطني في سننه[5].

وقال مجاهدٌ: ﴿لكم فيها خيرٌ﴾، قال: أجرٌ ومنافعُ. وقال إبراهيم النَّخعِيُّ: يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها.

وقولُه: ﴿فاذكروا اسم الله عليها صَوَافَّ﴾، وعن المُطَّلِب بن عبد الله بن حَنْطَبٍ، عن جابر بن عبد الله قال: صلَّيتُ مع رسول الله ـ ﷺ ـ عيدَ الأضحَى، فلما انصرفَ أُتِي بِكَبْشٍ فَذَبحه، فقال: «باسم الله والله أكبر، اللهُمَّ هذا عَنِّي وعمن لم يُضح من أُمَّتِي». رواه أحمدُ، وأبو داودَ، والتِّرمذيُّ[6].

وقال محمد بن إسحاقَ، عن يزيدَ بن أبي حَبيبٍ، عن أبي عَيَّاش[7]، عن جابرٍ قال: ضَحَّى رسولُ الله ـ ﷺ ـ بكبشَينِ في يوم عيدٍ، فقال حين وَجَّههما: ﴿وَجَّهتُ وَجْهِيَ للذي فَطر السموات والأرض حَنِيفاً وما

---

(١) مسلم، كتاب الحج ٢/٩٥٦.

(٢) مسند الإمام أحمد ١/٢٧٥ عن ابن عباس. وأخرجوه في الأضاحي، النسائي ٧/٢٢١، وابن ماجه ٢/١٠٤٧، والترمذي ٦/٣٠٠ ـ ٣٠١. وانظر تحفة الأشراف للمزّي ٥/١٥١ ـ ١٥٢.

(٣) أي: وإنه ليأتي المذبوح والمضحّى به. وقوله: بقرونها ـ بتأنيث الضمير ـ باعتبار الضحيَّة.

(٤) أخرجاه في الأضاحي، ابن ماجه ٢/١٠٤٥، وعارضة الأحوذي ٦/٢٨٨ ـ ٢٨٩.

(٥) سنن الدارقطني، كتاب الأشربة ٤/٢٨٢. والوَرِقُ: المال من الدراهم.

(٦) مسند الإمام أحمد ٣/٣٥٦، وسنن أبي داود، كتاب الأضاحي ٣/٩٩، وعارضة الأحوذي، أبواب الأضاحي ٦/٣١٨.

(٧) في النسخ: ابن عباس. وهو خطأ. وانظر تخريج الحديث.

أنا من المشركين﴾. ﴿إنَّ صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريكَ له وبذلك أُمِرْتُ وأنا أول المسلمين﴾، اللهُمَّ مِنْكَ ولَكَ، وعن مُحمَّدٍ وأُمَّتِهِ. ثم سَمَّى الله وكَبَّر وذَبَح[١].

وعن علي بن الحُسَين، عن أبي رافع: أنَّ رسولَ الله - ﷺ - كان إذا ضَحَّى اشترى كبشَين سَمِينَين أقرنين أملحَين، فإذا صَلَّى وخَطَب الناس أُتِي بأحدهما وهو قائم في مُصَلَّاه فَذَبحه بنَفْسِهِ بالمُدية، ثم يقول: «اللهُمَّ، هذا عن أُمَّتي جَمِيعها، مَنْ شَهد لك بالتوحيد وشَهِدَ لي بالبلاغ». ثم يُؤتى بالآخر فيذبَحه بنفسِهِ، ثم يقول: هذا عن مُحمَّدٍ وآلِ مُحمَّدٍ» فيُطعِمُهما جَميعاً المساكينَ، ويَأكلُ هو وأهلُه منهُمَا. رواه أحمدُ وابنُ ماجه[٢].

وقال الأعمشُ، عن أبي ظَبيان، عن ابن عَبَّاسٍ في قوله: ﴿ فاذكروا اسمَ الله عليها صَوافَّ ﴾، قال: قياماً على ثلاث قوائم، معقولةً يدُها اليسرى، يقول: «باسم الله والله أكبرُ[٣]، اللهُمَّ منكَ ولكَ»[٤]. وكذلك رَوَى مجاهدٌ، وعلي بن أبي طلحة، والعَوفي، عن ابن عَبَّاسٍ، نحوَ هذا.

وقال ليثٌ، عن مجاهدٍ: إذا عُقِلت رجلُها اليُسرى قامت على ثلاث. ورَوَى ابن أبي نَجيح، عنه، نحوه.
وقال الضحاك: تُعقَلُ رجلٌ واحدة فتكون على ثلاثٍ.
وفي الصَّحيحَين عن ابن عُمَر: أنه أَتَى على رجل قد أناخ بَدَنَته وهو ينحرُها، فقال: ابْعَثْها قِياماً مقيَّدةً، سُنَّةَ أبي القاسمِ ﷺ[٥].

وعن جابر أنَّ رسولَ الله - ﷺ - وأصحابَه كانوا ينحَرون البُدْن معقولةَ اليُسْرَى، قائمة على ما بقي من قوائمها. رواه أبو داود[٦].

وقال ابنُ لَهيعَةَ: حدثني عطاءُ بنُ دِينارٍ، أنَّ سالم بن عبد الله قال لِسُلَيمان بن عبد الملك، قفْ من شِقِّها الأيمن، وَانحرْ من شِقِّها الأيسَر.

وفي صحيح مسلم، عن جابر، في صِفَةِ حَجَّةِ الوَدَاعِ، قال فيه: «فَنَحر رسولُ الله - ﷺ - بيده ثلاثاً وستين بَدَنة»[٧]. جَعَلَ يَطعَنُهَا بِحَرْبَةٍ في يَدِه.

وقال عبدُ الرزَّاقِ: أخبرنا معمَرٌ، عن قتادةَ قال: «في حرف ابن مسعود: ﴿ صَوَافِنَ ﴾، أي: مُعَقَّلة قياما[٨].

وقال سفيانُ الثوريُّ، عن منصورٍ، عن مجاهدٍ: مَن قَرَأها ﴿ صوافِنَ ﴾، قال: معقولة. ومن قرأها ﴿ صَوَافَّ ﴾، قال: تُصَفُّ بين يديها.

---

(١) أخرجه أبو داود وابن ماجه في الأضاحي، سنن أبي داود ٩٥/٣، وابن ماجه ١٠٤٣/٢.
(٢) حديث أبي رافع في المسند ٨/٦، ٣٩١ - ٣٩٢، ولم يقع لنا في سنن ابن ماجه. وهو فيها من رواية عائشة وأبي هريرة. انظر كتاب الأضاحي ١٠٤٣/٢ - ١٠٤٤.
(٣) بعده في نسخة الحرم: «لا إله إلا الله».
(٤) أخرجه غير واحد، منهم الطبري في تفسيره ١٦٣/١٧ - ١٦٤، والحاكم في مستدركه، كتاب التفسير ٣٨٩/٢، وقال: «على شرط الصحيحين ولم يخرجاه». والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب الحج ٢٣٧/٥. وانظر الدرّ المنثور ٥٢/٦.
(٥) أخرجاه في كتاب الحج، فتح الباري ٥٥٣/٣، ومسلم ٩٥٦/٢ - ٩٥٧.
(٦) سنن أبي داود، كتاب الحج ١٤٩/٢.
(٧) مسلم، كتاب الحج ٨٩٢/٢.
(٨) الدُّر المنثور ٥٣/٦. وتفسير الطبري ١٦٥/١٧.

وقال طاوسٌ، والحَسنُ، وغيرُهما: ﴿ فاذكُروا اسمَ اللهِ عليها صَوافِيَ ﴾، يَعني خالصةً لله عزَّ وجلَّ(١)، [وكذا رَوَاه مالكٌ، عن الزُّهري](٢).

وقال عبدُ الرحمن بنُ زَيدٍ: ﴿ صوافِيَ ﴾، ليس فيها شِرْكٌ كَشِرْكِ الجَاهلية لأصنامِهم.

وقولُه: ﴿ فإذا وَجَبت جُنوبُها ﴾، قال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: يعني سَقطت إلى الأرض. وهو روايةٌ عن ابن عباس. وكذا قال مقاتلُ بنُ حَيَّانَ.

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ فإذا وجَبَتْ جنوبُها ﴾ يعني نُحِرَتْ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ فإذا وَجَبتْ جُنوبها ﴾ يعني ماتت.

وهذا القول هو مُرادُ ابن عباس ومجاهد، فإنه لا يجوز الأكل من البَدَنَة إذا نُحِرَت حتى تموتَ وتَبْرُدَ حَرَكَتُها. وقد جاء في حديث مرفوع: ولا تُعجِلُوا النفوسَ أن تَزْهَق. وقد رَوَاه الثوريُّ في جامعه، عن أيوبَ، عن يحيى بن أبي كَثِير، عن فَرافِصَةَ الحَنَفِي، عن عُمَر بن الخطاب أنه قال ذلك. ويُؤيِّدُه حديثُ شَدَّاد بن أوس في صحيح مسلم: «إن الله كتبَ الإحسانَ على كلِّ شيء، فإذا قتلتُم فأحسِنُوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسِنوا الذِّبح، ولْيَحُدَّ أحدُكم شفرَته، ولْيُرِحْ ذَبيحَتَه»(٣).

وعن أبي واقد اللَّيثيِّ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما قُطِعَ من البَهيمة وهي حَيَّةٌ فهو مَيْتَةٌ»(٤). رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي وصَحَّحه.

وقوله: ﴿ فَكُلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ﴾، قال بعض السَّلَف(٥). قولُه: ﴿ فَكُلُوا منها ﴾، أَمْرُ إباحَةٍ. وقال مالكٌ: يُستَحبُّ ذلك. وقال غيره: يَجِبُ. وهو وَجْه لبعض الشافعيَّة.

واختُلِفَ في المراد بالقانع والمعترِّ، فقال العوفي، عن ابن عباس: القانعُ: المُسْتَغني بما أعطيته وهو في بيته. والمعتر: الذي يَتَعرَّض لك، ويُلِمُّ بك أن تعطيهِ من اللَّحم، ولا يسأل. وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب القُرَظِيُّ.

وقالَ عليُّ بن أبي طَلْحَة، عن ابن عباسٍ: القانعُ: المُتَعفِّفُ، والمُعترُّ: السائِلُ. وهذا قولُ قتادةَ، وإبراهيمَ النخَعيِّ، ومجاهدٍ في روايةٍ عنه.

وقال ابنُ عباس، وزيدُ بن أسلم، وعكرمة، والحسنُ البصريُّ، وابنُ الكلبيِّ، ومقاتلُ بن حَيَّانَ، ومالك ابن أنس: القانع وهو الذي يَقْنَع إليك(٦) ويسالك. والمُعْتَرُّ: الذي يَعْتَرِيك، [يتضرَّع] ولا يَسْأَلُكَ. وهذا لفظ الحسن.

وقال سعيدُ بن جُبَير: القانع هو السائلُ، ثم قال: أما سمعت قول الشَّمَّاخ(٧):

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٩٩/٣، وتفسير البَغَوِيّ ٢٨٨/٣.

(٢) ما بين القوسين ليس في نسخة الحرم.

(٣) مسلم، كتاب الصيد والذبائح ١٥٤٨/٣.

(٤) مسند الإمام أحمد ٢١٨/٥، وأخرجه أهل السنن في كتاب الصيد، أبو داود ١١١/٣، وعارضة الأحوذي ٢٧٢/٦ ـ ٢٧٣، وابن ماجه ١٠٧٢/٢.

(٥) في نسخة الحرم: «بعض الناس».

(٦) أي: ينقطع إليك، ويلتزق بك في خضوع.

(٧) ديوان: ٢٢١، والمفاقر: وجوه الفقر.

لَمَالُ المَرْءِ يُصْلِحُهُ فَيُغْنِي ... مَفَاقِرَه، أَعَفُّ مِنَ القُنُوعِ

قال: يغني من السؤال: وبه قال ابنُ زَيدٍ.

وقال زيد بن أسلم: القانع: المسكين الذي يَطُوف، والمعترُّ: الصَّدِيق والضعيف الذي يَزُور. وهو رواية عن ابنه عبد الرحمن بن زيد أيضاً[١].

وعن مجاهد أيضا: القانعُ: جارك الغَنيُّ الذي يُبصِرُ ما يدخلُ بيتك. والمعتر: الذي يَعْتَرِيكَ مِنَ الناس.

وعنه أنَّ القانِعَ: هو الطامعُ. والمعترّ: هو الذي يَعْتَرُّ[٢] بالبُدْن من غنيٍّ أو فقيرٍ. وعن عكرمة نحوُه، وعنه القانعُ: أهلُ مكَّةَ.

واختار ابنُ جريرٍ أنّ القانعَ: هو السائلُ؛ لأنه من أَقنَعَ بِيَدِهِ إذا رَفَعها للسُّؤالِ. والمعترُّ من الاعتِرَارِ، وهو: الذي يَتعرَّض لأكل اللحم.

وقد احتجَّ بهذه الآيةِ الكريمةِ مَن ذهب مِن العلماءِ إلى أن الأضحية تُجزَّأُ ثلاثةَ أجزاءٍ، فَثُلثٌ لصاحبها يأكلُه. وثُلثٌ يُهدِيه لأصحابه، وثلث يَتصدَّقُ به على الفُقَراء، لأنه تعالى قال: ﴿ فَكُلُوا منها وأَطعِمُوا القانِعَ والمعترَّ ﴾. وفي الحديث الصحيح أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال للناس: «إني كنتُ نهيتُكُم عن ادِّخارِ لُحُوم الأضاحِي فوقَ ثلاثٍ، فَكُلُوا وادَّخِرُوا ما بدا لكم». وفي رواية: «فَكُلوا وادَّخِرُوا وتَصَدَّقوا». وفي رواية: «فَكُلُوا وأطعِمُوا وتَصَدَّقوا»[٣].

والقول الثاني: أن المضحِّي يأكلُ النِّصفَ ويتصدَّقُ بالنِّصفِ، لقوله في الآية المتقدِّمة: ﴿ فَكُلوا منها وأطعِمُوا البائسَ الفقيرَ ﴾، ولقوله في الحديث: «فكلوا وادَّخروا وتَصَدَّقوا».

فإن أكل الكلَّ فقيل: لا يَضْمَن شيئاً. وبه قال ابنُ سُرَيجٍ[٤] من الشافعية.

وقال بعضُهم: يَضْمَنها كُلَّها بمثلها أو قيمتها، وقيل: يضمَنُ نِصفَها، وقيل: ثُلثَهَا. وقيل: أدنى جُزءٍ منها. وهو المشهورُ من مذهبِ الشافعيِّ.

وأما الجلودُ ففي مُسنَدِ أحمدَ، عن قتادةَ بن النعمان، في حَدِيث الأضَاحِي: «فكُلوا، وتَصدَّقوا، واستمتِعُوا بجلودها، ولاَ تبيعُوها»[٥].

ومِنَ العُلماء مَن رَخَّصَ في ذلك. ومنهم مَن قال: يُقاسِمُ الفُقَراءَ ثمنَهَا. والله أعلم.

مسألة

عن البَرَاء بن عازب قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ : «إنَّ أَولَ ما نبدأُ به في يومنا هذا نُصَلِّي، ثم نَرْجِعَ

---

(١) في نسخة الأزهر: عبدالله بن زيد.

(٢) المراد: أنه الذي يحضر ذبح البُدْن، وأصل المعنى أن المعترّ هو الذي يُطيفُ بك يطلب ما عندك، سألك أو لم يسألك. وانظر الأثر في تفسير الطبري ١٦٩/١٧.

(٣) أخرجه أهل السنن في كتاب الأضاحي، سنن أبي داود ٩٩/٣ ـ ١٠٠، وعارضة الأحوذي ٣٠٩/٦ ـ ٣١٠، والنسائي ٢٣٥/٧ ـ ٢٣٦، وابن ماجه ١٠٥٥/٢.

وأخرجه الشيخان في كتاب الأضاحي، فتح الباري ٢٤/١٠، ومسلم ١٥٦٢/٣ ـ ١٥٦٤.

(٤) هو أبو العباس أحمد بنُ عُمَر الفقيه. العبر ١٣٢/٢.

(٥) مسند أحمد ١٥/٤.

فننحر. فَمَن فَعَل ذلك فقد أصابَ سُنّتنا، ومن ذَبح قبلَ الصلاةِ فإنّما هُوَ لحمٌ قدّمه لأهْلِه، ليسَ هُو من النُّسكِ في شيءٍ». أخرجَاه(١).

فلهذا قال الشافعيُّ وجماعةٌ من العلماء: إنّ أوّل وقتِ ذَبْحِ الأضْحَى(٢) إذا طلعت الشمسُ يومَ النّحر، ومضى قدرُ صلاةِ العيد والخُطْبَتَين. زاد أحمد: وأن يذبح الإمامُ بعد ذلك، لما جاء في صَحيح مُسلم: «وألّا تَذْبحُوا حتّى يَذْبحَ الإمامُ»(٣).

وقال أبو حَنِيفَة: أمّا أهلُ السّوادِ من القُرَى ونحوهم فَلَهُم أن يَذْبحوا بعد طلوع الفجر؛ إذ لا صلاة عيد تُشْرَعُ عنده لهم. وأما أهلُ الأمصارِ فلا يذبَحُوا حتى يُصَلِّي الإمامُ، والله أعلم.

ثم قيل: لا يُشرَعُ الذبحُ إلا يومَ النّحرِ وحدَه. وقيل: يومَ النّحرِ لأهلِ الأمصارِ لِتيسُّر الأضاحِيّ عندهم. وأما أهلُ القُرَى فيومُ النّحر وأيامُ التشريق بعده، وبه قال سعيد بن جُبَير. وقيل: يومُ النحر، ويومٌ بعدَه للجميع. وقيل: ويومان بعده، وبه قال أحمد. وقيل: يومُ النحر وثلاثة أيام التشريق بعده، وبه قال الشافعي، لحديث جُبَير بن مُطعِم أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «وأيامُ التشريقِ كُلُّها ذَبْحٌ». رواه أحمد وابن حِبّانَ(٤).

وقيل: إنَّ وقتَ الذَّبْحِ يَمتدُّ إلى آخرِ ذي الحِجّةِ، وبه قال إبراهيمُ النخَعِيُّ، وأبو سَلَمة بن عبد الرحمن(٥). وهو قولٌ غريبٌ.

وقولُه: ﴿ كذلك سَخّرناها لكم لعلكم تشكُرُونَ ﴾، يقولُ تعالى: من أجلِ هذا ﴿ سَخّرناها لكم ﴾، أي: ذَلّلناها لكم، أي: جعلناها مُنقادةً لكم خاضعةً، إنْ شِئتم رَكِبتُم، وإنْ شِئتُم حَلَبتُم، وإنْ شِئتُم ذَبحتُم. كما قال تعالى: ﴿أوَ لم يروا أنا خَلَقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فَهُم لها مالِكُونَ * وذَلّلناها لهم فمنها رَكُوبُهم ومنها يأكُلُونَ * ولهم فيها منافعُ ومشاربُ أفلا يشكرون﴾، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لكم لعلكم تَشكُرونَ﴾.

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى: إنما شَرَع لكم نَحْرَ هذه الهدايا والضَّحَايا لتذكُروه عند ذَبحِها، فإنّه الخالقُ الرزّاقُ، لا أنّه يناله شَيْءٌ من لُحومها ولا دِمائها، فإنّه تعالى هو الغَنِيُّ عما سِواهُ.

وقد كانوا في جَاهليّتِهم إذا ذَبَحُوها لآلهتهم وَضَعوا عَلَيها من لُحُوم قَرابِينِهم، ونَضَحُوا عليها من دِمائها، فقال تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ اللهَ لُحومُها ولا دِماؤُها ﴾.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا محمد بن أبي حَمّاد، حدثنا إبراهيم بن المختار،

(١) فتح الباري، كتاب العيدين ٤٥٦/٢، ومسلم، كتاب الأضاحي ١٥٥٣/٣.
(٢) الأضحى: واحدها أضحاة، وهي ما ضَحيت به، مثل أرطىً وأرطاة. وفي اللسان عن يعقوب: ويُسمّى اليومُ أضحىً بجمع الأضحاةِ التي هي الشاة.
(٣) لم يقع لنا هذا في صحيح مسلم.
(٤) مسند أحمد ٨٢/٤، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبّان، كتاب الحج ٦٢/٦.
(٥) في نسخة الأزهر: «وأبو سلمة بن سمرة».

عن ابنِ جُرَيج قال: كان أهلُ الجاهلية ينضَحُون البيتَ بلُحُوم الإبل ودِمَائها، فقال أصحابُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ: فنحنُ أحقُّ أن ننضح. فأنزل الله: ﴿لَن ينالَ اللهَ لحومُها ولا دماؤها ولكن يَنالُه التقوى مِنكُم﴾[(١)].

أي: يَتقبَّل ذلك ويَجزِي عليه. كما جاء في الصحيح: «إنَّ الله لا يَنظُر إلى صُوَرِكم ولا إلى أَموالِكُم، ولكن يَنظُر إلى قُلُوبكم وأعمالِكُم»[(٢)]. وما جاء في الحديث: إنَّ الصدَقَةَ لتقَعُ في يَدِ الرَّحمن قبل أن تقع في يد السائل، وإنَّ الدم ليقعُ من الله بمكانٍ قبل أن يَقع على الأرض. كما تَقدَّم في الحديث[(٣)]، رواه ابن ماجه والترمذيُّ وحَسَّنه، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعاً ـ فمعْناه أنه سِيقَ لتحقيق القَبُولِ من الله لمن أخلص في عمله، وليس له معنىً يتبادر عند العلماء المحققين سِوَى هذا، والله أعلم.

وقال وكيعٌ، عن يحيى بن مُسلم أبي الضَّحاكِ: سألتُ عامراً الشَّعبيَّ عن جُلُودِ الأَضَاحِيِّ، فقال: ﴿لن ينالَ اللهَ لحومها ولا دماؤها﴾، إن شئتَ فبِعْ، وَإن شِئتَ فأمسِكْ، وَإنْ شِئتَ فَتصَدَّق.

وقولُه: ﴿كذلك سَخَّرَها لكم﴾، أي: من أجل ذلك سَخَّر لَكُم البدن، ﴿لِتُكَبِّروا اللهَ على ما هَدَاكم﴾، أي: لِتُعظِّمُوه كما هداكم لدينه وشَرْعه وما يُحِبُّه وما يرضاه، نَهَاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه.

وقولُه: ﴿وَبَشِّرِ المُحسنينَ﴾، أي: وبَشِّر يا محمدُ المحسنينَ، أي: في عَمَلِهم، القائمين بِحدُودِ الله المتَّبِعِينَ ما شَرَع لهُم. المصَدِّقين بالرسُول فيما أبْلَغهم وجاءَهم به من عِندِ رَبِّهِ عزَّ وجلَّ.

مسألة

وقد ذهبَ أَبو حَنيفةَ ومالكٌ والثوريُّ إلى القولِ بوجُوب الأضحية على مَن ملك نِصاباً، وزاد أبو حَنيفةَ اشتراطَ الإقامةِ أيضاً. واحتجَّ لهم بما رواه أحمدُ وابنُ ماجه بإسنادٍ رجالُه كُلُّهم ثِقاتٌ، عن أبي هُرَيرة مرفوعاً: «مَن وَجَد سعةً فلم يُضَحِّ فلا يَقربَنَّ مُصَلَّانا»[(٤)]. على أن فيه غرابةً، واستنكره أحمدُ بن حَنبلٍ.

وقال ابنُ عُمَر: أقامَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ [بالمدينة][(٥)] عَشْرَ سنين يُضَحِّي. رَواه التِّرمِذيُّ[(٦)].

وقال الشافعيُّ وأحمدُ: لا تجبُ الأُضحِيةُ، بل هي مُستحبَّةٌ لما جاءَ في الحديث: «ليس في المال حَقٌّ سوى الزكاة»[(٧)]. وقد تَقدَّم أنه ـ ﷺ ـ ضَحَّى عن أُمَّته فأسقطَ ذلك وُجوبَها عنهم.

وقال أبو سَريحةَ: كنتُ جاراً لأبي بكر وعمَر، فكانا لا يُضَحِّيان خشيةَ أَنْ يَقْتَدِيَ الناسُ بهما[(٨)].

وقال بعضُ الناس: الأُضحيَةُ سنةُ كِفَايةٍ، إذا قام بها واحدٌ من أهل دارٍ أو مَحلةٍ أو بيتٍ سقطت عن الباقين، لأنَّ المقصودَ إظهارُ الشِّعار.

(١) الدرّ المنثور ٦/٥٦.
(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر ٤/١٩٨٦ ـ ١٩٨٧، وابن ماجه في الزهد ٢/١٣٨٨.
(٣) تقدم الحديث عند تفسير قوله تعالى: ﴿لكم فيها خير﴾ من الآية ٣٦ من هذه السورة.
(٤) مسند الإمام أحمد ٢/٣٢١، وابن ماجه، كتاب الأضاحي ٢/١٠٤٤.
(٥) عن سُنَن الترمذي.
(٦) عارضة الأحوذي، أبواب الأضحيَة ٦/٣٠٥، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن».
(٧) أخرجه التِّرمذيُّ وابن ماجه والبيهقي في كتاب الزكاة بإسنادهم إلى شريك، عن أبي حمزة، عن عامر الشعبي، عن فاطمة بنت قيس مرفوعاً، على أن في رواية الترمذيّ والبَيهقيّ: «إنّ في المال حقاً سوى الزكاة». ويقول البَيْهقيُّ: «والذي يَرْوِيه أصحابنا في التعاليق: «ليس في المال حَقٌّ سوى الزكاة»، فلستُ أحفظ فيه إسناداً، والذي رويت في معناه ما قدَّمتُ ذكره». انظر عارضة الأحوذي ٣/١٦٢، وابن ماجه ١/٥٧٠، والسُّنَن الكبرى للبيهقي ٤/٨٤.
(٨) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٣/١٨٢، وانظر مجمع الزوائد ٤/١٨.

وقد رَوَى الإمامُ أحمد، وأهل السُّنَن ـ وحسَّنه الترمذيُّ ـ عن مِخْنَف بن سُلَيم أنه سمع رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ بعرفاتٍ: «على كُلِّ أهلِ بيتٍ في كُلِّ عامٍ أُضْحَاةٌ وعَتِيرَةٌ، هل تدرُون ما العَتِيرةُ؟ هي التي تدْعُونها الرَّجَبِيَّةَ»[1]. وقد تُكلِّم في إسنادِهِ.

وقال أبو أيُّوب: كان الرجُل في عَهدِ رسول الله ـ ﷺ ـ يُضَحِّي بالشاةِ الواحدةِ عنه وعن أهل بيته، فيأكلون ويُطعمون حتى تَبَاهى الناسُ فصارَ كما تَرَى. رواه الترمذيُّ وصَحَّحه، وابنُ ماجه[2].

وكان عبدُ الله بن هِشَام يُضَحِّي بالشاةِ الواحدةِ عن جَميع أهلِه. رَواه البخاريُّ[3].

وأما مقدار سِنِّ الأضحية فقد روي مُسلِم عن جابرٍ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «لاَ تَذْبَحُوا إلاَّ مُسِنَّةً، إلا أن يَعسُرَ عليكم فتَذبَحُوا جَذَعةً من الضأن»[4].

ومن هاهنا ذهب الزُّهريُّ إلى أن الجَذَع لا يُجزىءُ. وقابله الأوزاعيُّ فذهَبَ إلى أن الجذَعَ يُجزيء من كُلِّ جنس، وهما غريبان. وقال: الجمهور: إنما يجزىء الثَّنِيُّ من الإبل والبقر والمَعْز، والجَذَعُ من الضَّأنِ. فأما الثَّنِيُّ من الإبلِ فهو: الذي له خمس سنين، ودخل في السادسة. ومن البَقَر [(٥)ما له سنتان ودَخَلَ في الثالثة. وقيل](٥) ما له ثلاثُ سنين ودخَلَ في الرابعة. ومن المَعْز ما له سنتان، وأما الجَذَعُ من الضأن فقيل: ما له سنةٌ، وقيل: عشرةُ أشهُر، وقيل: ثمانيةُ أشهُر، وقيل: ستةُ أشهُر، وهو أَقَلُّ ما قيل في سِنِّهِ، وما دُونَه فهو حَمَلٌ، والفرقُ بينهما أنَّ الحَمَل شعرُ ظَهْرِه قائِمٌ، والجَذَعُ شعرُ ظَهْرِه نائمٌ، قد[6] انْفَرَد صَدْعَين. والله أعلم.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

يخبرُ تعالى أنه يَدْفَع عن عباده الذين توكَّلوا عليه وأنابوا إليه شرَّ الأشرار وكيدَ الفُجَّار، ويحفظُهم ويَكْلَؤُهم ويَنصرُهم، كما قال تعالى: ﴿ أليسَ الله بِكَافٍ عبدَه ﴾، وقال: ﴿ومَن يتوكَّل على اللهِ فهو حَسْبُه إنَّ الله بالغُ أمرِه قد جَعَل اللهُ لكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ﴾.

وقولُه: ﴿ إنَّ الله لا يُحِبُّ كُلَّ خوَّانٍ كَفُورٍ ﴾، أي: لا يُحِبُّ من عبادِهِ من اتَّصَفَ بهذا، وهو الخيانةُ في العُهود والمواثيق، لا يفي بما قال. والكفر: الجَحدُ للنِّعم، فلا يعترفُ بها.

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

---

(١) مسند أحمد ٤/٢١٥، ٥/٧٦، وأخرجه أهل السنن في كتاب الأضاحي، سنن أبي داود ٤/٩٣، وعارضة الأحوذي ٦/٣١٧، والنسائي في الفرع والعتيرة ٧/١٦٧ ـ ١٦٨، وسنن ابن ماجه ٢/١٠٤٥.

(٢) أخرجاه في الأضاحي، عارضة الأحوذي ٦/٣٠٤، وابن ماجه ٢/١٠٥١.

(٣) فتح الباري، كتاب الأحكام، ١٣/٢٠٠.

(٤) مسلم، كتاب الأضاحي ٣/١٥٥٥.

(٥ ـ ٥) سقط في مخطوطة الحرم.

(٦) كذا في نسخة الحرم. وفي غيرها: وانعدل صدعين».

قال العَوفيُّ، عن ابن عَبَّاس: نَزَلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكـة. (١[وقاله مجاهد والضحاك وقتادة وغير واحد]١).

وقال غيرَ واحد من السلف (٢[كابن عَبَّاسٍ، ومُجَاهد، وعُروةَ بن الزُّبير، وزيد بن أسلَم، ومقاتِل بن حَيَّانَ، وقتادة، وغيرهم]٢). هذه أول آية نزلت في الجهاد، واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية.

وقال ابنُ جَرير: حَدّثني يحيى بنُ داودَ الواسطيُّ، حدثنا إسحاقُ بنُ يوسفَ، عن سفيانَ، عن الأعمش، عن مسلم ـ هو البَطين ـ عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عَبَّاس قال: لما خَرَج النبي ـ ﷺ ـ من مَكّة قال أبو بكر: أخرجُوا نَبِيَّهم! إنا لله وإنا إليه راجعونَ، لَيَهْلِكُنَّ. قال ابن عباس: فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ أُذِنَ للذين يقاتَلُون بأنهم ظُلِموا وَإِنَّ الله على نَصْرِهم لَقَديرٌ ﴾. قال أبو بكر ـ رَضي الله عنه ـ فعرفتُ أنه سيكونُ قِتالٌ(٣).

وَرَواه الإمامُ أحمدُ(٤)، عن إسحاقَ بنُ يوسُفَ الأَزْرَقِ، به، وزاد: قال ابنُ عَبَّاسٍ: وهي أَوَّل آيةٍ نَزَلت في القتال.

ورواه التِّرمذيُّ، والنسائي في التفسير من سُنَنيهما، وابنُ أبي حاتم من حديثِ إسحاقَ بنِ يُوسُفَ ـ زاد الترمذيُّ: ووكيعٌ ـ كلاهما عن سُفيانَ الثوريِّ، به. وقال الترمذي: «حديث حسن، وقد رَواه غيرُ واحدٍ، عن الثوريّ، وليس فيه ابنُ عباس»(٤).

وقولُه: ﴿ وَإِنَّ الله عَلَى نَصْرِهم لَقَدِيرٌ ﴾، أي: هو قادرٌ على نَصْرِ عبادِه المؤمنين من غير قتالٍ، ولكن هو يُريد من عباده أن يبلوَ جُهدَهم في طاعته، كما قال: ﴿ فإذا لقيتُم الذين كفروا فَضَرْبَ الرقاب حتّى إذا أثخنتموهُم فشُدُّوا الوَثاق فإما مَنّاً بعدُ وإما فداءً حتى تَضَعَ الحربُ أَوْزارَها ذلك ولو يشاء الله لانْتصَرَ منهم ولكن لِيَبْلُوا بعضَكم ببعضٍ والذين قُتِلوا في سَبيلِ اللهِ فلن يُضِلَّ أعمالهم * سَيَهدِيهم ويُصلحُ بالهم * ويُدْخِلُهم الجَنَّةَ عَرَّفها لهم﴾. وقال تعالى: ﴿قاتلوهم يعَذِّبهم الله بأيديكم ويُخزِهم وينَصُركم عليهم ويَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * ويُذْهِبْ غيظَ قُلوبهم ويتوبُ الله على من يَشاء والله عليم حكيم ﴾، وقال: ﴿ أم حَسِبتُم أن تُتركوا ولَمَّا يَعْلِم الله الذين جاهَدُوا منكم ولم يَتَّخِذُوا من دُون الله ولا رسوله ولا المؤمنينَ وليجةً والله خبير بما تعملون ﴾. وقال: ﴿أَمْ حَسِبتُم أن تدخُلوا الجنة ولما يعلم الله الذينَ جَاهَدُوا منكم ويَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكم حتى نعلمَ المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾. والآيات في هذا كثيرةٌ. ولهـذا قال [ابنُ عباس في قوله]: ﴿ وَإِنَّ الله عَلَى نَصْرِهم لَقَديرٌ ﴾: وقد فَعَلَ(٥).

وإنما شَرَع الله تعالى الجهادَ في الوقت الأَلْيَقِ به، لأنهم لما كانوا بمكّة كان المشركون أكثَرَ عدداً، فلو أَمَرَ المسلمين، وهم أقل من العشر، بقتال الباقين لَشَقّ عليهم. ولهذا لما بايَعَ أهلُ يثرب ليلة العقبة رسولَ الله ـ ﷺ ـ وكـانوا نيِّفا وثمانين، قالوا: يا رسولَ الله، ألا نَميل على أهل الوادي ـ يَعنُون أهلَ مِنىً ـ لَيَالِيَ مِنىً فنقتُلَهم؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إني لم أُومَر بهذا(٦). فَلَمَّا بَغَى المشركُون، وأخرجوا النبيَّ ـ ﷺ ـ من بين أظْهُرِهم، وهَمُّوا بقتله، وشَرَّدُوا أصحابه شَذَرَ مَذَر، فذَهَب منهم طائفةٌ إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينةِ. فلما

(١ ـ ١) مكانه في غير نسخة الحرم بعد الفقرة التالية التي تنتهي بقوله: «... على أن السورة مدنية».

(٢ ـ ٢) عن نسخة الحرم.

(٣) تفسير الطبري ١٧/١٧٢.

(٤) مسند أحمد ١/٢١٦، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة الحج ١٢/٣١ ـ ٣٢.

(٥) تفسير الطبري ١٧/١٧٢.

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣/٤٦٠ ـ ٤٦٢، وابن هشام في السيرة ١/٤٤٨.

استقَرُوا بالمدينةِ، ووافاهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ واجتمعوا عليه، وقاموا بنَصْرِه، وصارت لهم دارَ إسلام ومعقِلاً يلجئُون إليه ـ شَرَع الله جهادَ الأعداءِ، فكانت هذه الآيةُ أوَّلَ ما نزل في ذلك، فقال تعالى: ﴿ أُذِنَ للذين يُقاتَلُون بأنهم ظُلِمُوا وإنَّ على نَصْرِهم لقدير * الذين أُخرجُوا من دِيَارِهم بغير حَقٍّ ﴾.

قال العَوفيُّ، عن ابنِ عَبَّاسٍ: أُخرجُوا من مَكَّة إلى المدينة بغير حَقٍّ، يعني محمداً وأصحابه[١].

﴿ إلا أن يَقولُوا ربُّنا الله ﴾، أي: ما كان لهم إلى قومهم إساءةٌ، ولا كان لهم إلا أنَّهم وَحَّدُوا الله وَعَبَدُوه[٢] لا شريكَ له. وهذا استثناءٌ منقطعٌ بالنسبة إلى نَفْسِ الأمر، وأما عند المشركين فهو أكبرُ الذُّنُوب، كما قال تعالى: ﴿ يُخرِجُون الرَّسُولَ وإيَّاكُم أن تُؤمِنُوا بالله ربِّكُم ﴾، وقال تعالى: في قِصَّة أصحاب الأُخدُودِ: ﴿ وما نَقَمُوا منهم إلا أن يُؤمِنُوا بالله العَزيزِ الحَمِيدِ ﴾. ولهذا لَمَّا كان المسلمون يَرتجِزُون في بناء الخَنْدَقِ، ويقولون[٣]:

لاهُمَّ لَولاَ أنتَ ما اهتَدَينا ... وَلاَ تَصَدَّقنا وَلاَ صَلَّينا
فَأَنزِلَنْ سَكِينَةً عَلَينا ... وَثَبِّتِ الأَقدَامَ إنْ لاَقَينا
إنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوا عَلَينا ... إذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَينا

فيوافقهم رسول الله ـ ﷺ ـ ويقولُ معهم آخر كُلِّ قافيةٍ، فإذا قالوا: «إذا أرادوا فتنةً أَبينَا»، يقول: «أبينا»، يمدُّ بها صَوْتَه.

ثم قال تعالى: ﴿ ولولا دفْعُ الله الناسَ بعضَهم ببعضٍ ﴾، أي: لولا أنَّه يدفَع عن قومٍ بقومٍ، ويَكْشِفُ شَرَّ أُناسٍ عن غيرهم، بما يخلقه ويُقدِّره من الأسبابِ لفَسَدَتِ الأرضُ، وأهلَكَ القويُّ الضعيفَ.

﴿ لَهُدِّمَت صَوَامِعُ ﴾، وهي المعابد الصِّغَار للرهبان، قاله ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وأبو العاليةِ، وعكرمةُ، والضَّحَّاكُ، وغيرُهم. وقال قتادةُ: هي معابد الصابئين. وفي رواية عنه: صوامعُ المجوسِ. وقال مقاتلُ بنُ حَيَّان: هي البيوتُ التي على الطرق.

﴿ وَبِيَعٌ ﴾، وهي أوسع منها، وأكثرُ عابدين فيها. وهي للنصارى أيضاً، قاله أبو العاليةِ، وقتادةُ، والضحَّاكُ، وأبو صَخْرٍ، ومقاتلُ بن حَيَّان، وخُصَيف، وغيرهم.

وحكى ابنُ جُبَير عن مُجاهدٍ وغيره: أنها كنائس اليهود. وحكى السُّدِّيُّ عمن حَدَّثه، عن ابن عباس: أنها كنائسُ اليهود. ومجاهد إنما قال: هي الكنائس. والله أعلم.

وقولُه: ﴿ وصَلَوات ﴾، قال العوفي، عن ابن عباس: الصلوات الكَنَائِس. وكذا قال عكرمةُ، والضَّحَّاكُ، وقتادةُ: إنها كنائسُ اليهودِ. وهم يُسَمُّونَها: صَلُوتاً[٥].

وحكى السُّدِّيُّ، عمن حَدَّثه، عن ابن عباس: أنها كنائِسُ النصارى. وقال أبو العالية، وغيرُه: الصلواتُ: معابدُ الصابئين. وقال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهدٍ: الصَّلَوَاتُ: مساجدُ لأهل الكتابِ ولأهل الإسلامِ بالطُّرُق، وأما المساجدُ فهي للمسلمين.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، وابن مَرْدُويه. انظر الدرّ المنثور ٦/٥٨.
(٢) في غير نسخة الحرم: «إلا أنهم عبدوا الله وحده».
(٣) سيرة ابن هشام ٢/٣٢٨ ـ ٣٢٩، وينسب الرجز إلى عامر بن سنان الأكوع رضي الله عنه.
(٤) لعله: حميد بن زياد الخراط. مترجم في تهذيب الكمال ٧/٣٦٦.
(٥) تفسير الطبري ١٧/١٧٦. وانظر المعرَّب للجواليقي ٢٥٩.

وقولُه: ﴿ يُذكَرُ فيها اسمُ اللهِ كثيراً ﴾، فقد قيل الضميرُ في قوله: ﴿ يُذْكرُ فيها ﴾ عائدٌ إلى المساجد لأنها أقربُ المذكورات. وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها اسم الله كثيراً.

وقال ابن جرير: [الصواب] لهدِّمت صوامعُ الرهبان وَبِيَعُ النصارى وصلواتُ اليهود، وهي كنائسهم، ومساجد المسلمين التي يُذكَرُ فيها اسمُ اللهِ كثيراً، لأن هذا هو المستعملُ المعروف في كَلَامِ العرب[1].

وقال بعضُ العلماء: هذا تَرَقٍّ من الأقلِّ إلى الأكثرِ إلى أن يُنتَهى إلى المساجِدِ، وهي أكثر عُمَّاراً وأكثر عُبَّاداً، وهم ذَوُو القَصْدِ الصَّحيح.

وقولُه: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُه ﴾، كقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصُروا الله يَنصُركم ويُثَبِّت أقدامكم * والذين كفروا فَتَعساً لهم وأضلَّ أعمالَهم ﴾.

وقولُه: ﴿ إن الله لقويٌّ عَزِيزٌ ﴾ وَصَفَ نفسه بالقُوَّة والعِزَّة، فبِقُوَّتِه خَلَق كُلَّ شيءٍ فَقَدَّره تقديراً، وبِعِزَّتِه لا يقهرُه قاهر، ولا يَغلِبُه غالِبٌ، بل كلُّ شيءٍ ذليل لديه، فقير إليه. وَمَن كان القويُّ العزيزُ ناصِرَه فهو المنصورُ، وعَدُوُّه هو المقهور، قال الله تعالى: ﴿ولقد سَبَقت كَلِمتُنا لعبادِنَا المرسَلِينَ * إنَّهم لهم المنصُورون * وَإنَّ جُندَنا لَهم الغالِبُونَ﴾. وقال تعالى: ﴿كَتَب الله لأَغلِبَنَّ أنا وَرُسُلي إن الله لقويٌّ عَزِيزٌ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الربيع الزَّهراني[2]، حدثنا حَمَّاد بنُ زيد، عن أيوب وهشام، عن محمد قال: قال عثمان بن عَفَّان: فِينَا نَزَلت: ﴿ الذين إن مَكَّناهم في الأرض أقامُوا الصلاة وآتوا الزكاة وأَمَرُوا بالمعروف ونَهَوا عن المُنكَرِ ﴾، فَأُخرِجْنَا من دِيَارِنا بغير حَقٍّ إلاَّ أن قُلنا: «رَبُّنا اللهُ»، ثم مكَّنا في الأرض، فأقمنَا الصَّلاةَ، وآتينا الزكاةَ، وأَمَرْنا بالمعروفِ، ونَهَينا عن المنكر، ولله عاقبةُ الأمورِ، فهِيَ لي ولأَصْحَابي[3].

وقال أَبو العَالِيةِ: هُم أصحابُ مُحمَّدٍ ﷺ.

وقال الصَّبَّاحُ بن سَوادة الكِنْدِيُّ: سَمِعتُ عُمَر بن عبد العزيز يخطُب وهو يقولُ: ﴿ الذين إن مَكَّناهم في الأرض ﴾ . . . الآية، ثم قال: أَلَا إنها ليستْ على الوالي وحدَه، ولَكِنَّها على الوالي والمُولَّى عليه، أَلا أُنَبِّئُكم بما لَكُم على الوالي من ذلكم، وبما للوالي عليكُم منه؟ إنَّ لكم على الوالي من ذلكم أن يُؤاخِذَكم بِحُقُوق الله عليكم، وأن يأخُذَ لبعضكم من بَعْض، وأن يَهدِيَكم للتي هي أقومُ ما استطاع، وإنَّ عليكم من ذلك الطاعة غير المَبْزُوزَة[4] ولا المُسْتَكْرَهِ بها، ولا المُخالِفِ سِرُّها عَلانِيَتَها.

وقال عَطِيَّةُ العَوْفِيُّ: هذه الآيةُ كقولِه: ﴿ وَعَدَ اللهُ الذين آمَنوا منكم وعَمِلُوا الصالحاتِ لَيَستَخلِفنَّهم في الأرضِ ﴾.

---

(١) تفسير الطبري ١٧/١٨٧

(٢) هو: سليمان بن داود العتكيّ، مترجم في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤/١١٣.

(٣) الدرّ المنثور عن عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه ٦/٥٩.

(٤) أي: غير المسلوبة، ومنه قولهم في المثل: من عزّ بزّ، معناه: من غلب سلب. ويقال أيضاً: بزّه: غلبه وغصبه.

وقولُه: ﴿ ولله عاقبةُ الأمور ﴾، كقوله تعالى: ﴿ والعاقبةُ للمتّقين ﴾. وقال زيدُ بن أسلَم: ﴿ولله عاقبةُ الأمورِ ﴾: وعند الله ثوابُ ما صَنَعُوا(١).

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُسلّياً نبيَّه محمداً - ﷺ - في تكذيب من خالَفه من قومه: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فقد كَذَّبت قَبْلَهم قومُ نُوحٍ ﴾ إلى أن قال: ﴿ وَكُذِّب مُوسَى ﴾، أي: مع ما جاء به من الآياتِ البيِّناتِ والدَّلائِلِ الواضِحاتِ.

﴿ فأمليتُ للكافرين ﴾، أي: أنظرتُهم، ﴿ ثُمَّ أخذتُهم فكيفَ كانَ نَكيرِ ﴾، أي: فكيفَ كان إنْكارِي عليهم ومُعاقَبَتي لهم؟!

ذكر بعضُ السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه: ﴿ أنا رَبُّكم الأعلى ﴾، وبين إهلاكِ الله له أربعونَ سنة.

وفي الصَّحِيحَين عن أبي موسى، عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «إنَّ الله لَيُمْلِي للظَّالِمِ حَتَّى إذا أَخَذَه لم يُفْلِتْه»، ثم قرأ: ﴿ وَكَذلك أَخْذُ ربك إذا أَخذَ القُرَى وهي ظَالِمة إنَّ أَخْذَه أَلِيمٌ شديدٌ ﴾(٢).

ثُمَّ قال تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن من قَرِيةٍ أَهْلَكنَاهَا ﴾، أي: كَمْ من قريةٍ أهلكتها ﴿ وهي ظالمة ﴾ أي: مُكَذِّبة لِرَسُولها، ﴿ فَهِيَ خاويةٌ على عُرُوشِها ﴾، قال الضحاك: سُقُوفها، أي: قد خَرِبت منازلُها وتعطَّلَتْ حَوَاضِرُها.

﴿ وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ ﴾، أي: لا يُسْتَقَى منها، ولا يَرِدُها أحدٌ بعد كثرة وَارِدِيها والازْدِحامِ عَلَيها.

﴿ وقصرٍ مَشيد ﴾، قال عكرمةُ: يعني المبيض بالجِصِّ. وَرُوِي عن علي بن أبي طالب، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جُبَير، وأبي المُلَيح، والضَّحَّاك، نحوُ ذلك.

وقال آخرون: هو المُنِيف المُرتفعُ. وقال آخرون: الشديد المَنِيع الحَصِين.

وكُلُّ هذه الأقوالِ متقاربةٌ، ولا منافاةَ بينها، فإنه لم يحم أهلَه شِدَّةُ بنائه ولا ارتفاعهُ، ولا إحكامُه ولا حَصَانَتُه عن حُلُولِ بأسِ الله بهم، كما قال تعالى: ﴿ أينما تكونوا يُدرِكْكُم المَوتُ ولو كنتم في بُرُوجٍ مُشَيَّدةٍ ﴾.

وقولُه: ﴿ أفلم يَسيرُوا في الأرض ﴾، أي: بأبدانهم وبفكرهم أيضاً، وذلك كافٍ، كما قال ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر والاعتبار.

حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا سَيَّار(٣)، حدثنا جعفر، حدثنا مالك بن دينار قال: أوحى الله تعالى إلى

(١) الدرّ المنثور ٦/٦٠.

(٢) فتح الباري، تفسير سورة هود ٨/٣٥٤، ومسلم، كتاب البر ٤/١٩٩٧ - ١٩٩٨.

(٣) في النسخ: سيار بن جعفر. وهو خطأ. وسيّار هو ابن حاتم العَنَزِيُّ، أبو سلمة، يروي عن جعفر بن سليمان. انظر المؤتلف والمختلف للدارقطني ٣/١٢٢١، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤/٢٥٧.

موسى عليه السلام: أَنْ يا مُوسَى، اتَّخِذ نَعلين من حديدٍ وعَصاً، ثم سِحْ في الأرضِ واطلُبِ الآثارَ والعِبَرَ، حتى تَتخرَّقَ النعلان وتُكسَرَ العَصا(١).

وقال ابنُ أبي الدنيا: قال بعض الحُكماء: أَحْيِ قَلْبَكَ بالمواعظ، ونَوِّره بالفِكَر، ومَوِّته بالزهدِ، وقَوِّه باليقين، وذلِّلْهُ بالموت(٢) وقَرِّره بالفناء(٣)، وبَصِّره فجائع الدنيا(٤)، وحَذِّره صولةَ الدهر، وفحش تَقلُّبِ الأيام، واعرض عليه أخبارَ الماضين، وذَكِّره ما أصاب(٥) من كان قبله، وسِرْ في ديارهم وآثارهم، وانظر ما فعلوا، وأين حَلُّوا، وعَمَّ انقلبوا»(٦).

[أي]: فينظروا ما حلَّ بالأمم المكذبة من النِّقَم والنَّكالِ، ﴿ فتكونَ لهم قلوبٌ يَعقِلُون بها أو آذانٌ يسمَعُون بها ﴾، أي: فيعتبرون بها ﴿ فإنَّها لا تعمى الأبصار ولكن تَعْمَى القلوبُ التي في الصُّدُور ﴾، أي: ليس العمى عَمَى البَصَر، وإنما العَمَى عَمي البَصِيرَةِ، وإن كانت القُوَّةُ الباصرةُ سليمةً فإنها لا تنفذ إلى العِبَرِ، ولا تدري ما الخَبَر. وما أحسن ما قاله بعضُ الشعراء في هذا المعنى، وهو أبو مُحمَّد عبدُ الله بنُ مُحَمَّدِ بنِ سَارَةَ(٧) الأندلُسِيُّ الشُّنْتَرِينيُّ، وقد كانت وفاته سنة سبع عشرة وخمسمائة:

يَا مَن يُصِيخُ إِلَى دَاعِي الشَّقَاءِ، وَقَد ... نَادَى به النَّاعيَان: الشَّيْبُ وَالْكِبَرُ
إِنْ كُنتَ لَا تَسْمَعُ الذِّكْرَى، فَفِيمَ تُرَى ... في رَأْسِكَ الوَاعيانِ: السَّمْعُ وَالبَصَرُ؟
لَيْسَ الأَصَمُّ ولا الأعمَى سوى رَجُلٍ ... لم يَهْدِه الهَادِيَانِ: العَيْنُ والأَثَرُ
لَا الدَّهرُ يَبْقَى وَلَا الدّنيا، وَلَا الفَلَكُ الـ ... أَعْلَى وَلَا النَّيِّرَانِ: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
لَيَرْحَلَنَّ عَنِ الدُّنيَا، وَإِن كَرِهَا ... فِرَاقَها، الثَّاوِيَانِ: البَدْوُ والحَضَرُ

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ: ﴿ وَيستعجِلُونَكَ بالعذابِ ﴾، أي: هؤلاء الكفارُ المُلحِدُون المُكذِّبون بالله وكتابه ورَسُوله واليوم الآخر، كما قال تعالى: ﴿ وإذ قالوا اللَّهُمَّ إن كان هذا هو الحقَّ من عِندِكَ فأمطِرْ علينا حِجارَةً من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليم ﴾، ﴿ وقالوا رَبَّنا عَجِّل لنا قِطَّنا قبلَ يومِ الحساب ﴾.

وقولُه: ﴿ وَلَن يُخلِفَ الله وعدَه ﴾، أي: الذي قد وَعَد، من إقامةِ الساعةِ والانتقامِ من أعدائِهِ، والإكرامِ لأوليائه.

---

(١) الدرّ المنثور ٦/٦١.
(٢) في نسختي الحرم والأزهر: بالقرب. والصواب مما عداهما، ومن نهج البلاغة.
(٣) في نسختي الحرم والأزهر: وتدبره بالثناء. وفي أخرى وقدره بالفناء. والمثبت عن نهج البلاغة.
(٤) في نسخة الحرم: بجامع الدنيا. وفي نسخة الأزهر: بمجامع. والمثبت عن نهج البلاغة.
(٥) في نسختي الحرم والأزهر: «وذكره بأم من كان».
(٦) انظر نهج البلاغة المنسوب للإمام علي ٣٠٨، بتحقيقنا.
(٧) في نسخة الحرم: بن جبارة. وفي نسخة الأزهر: بن جهارة. انظر ترجمته في المغرب في حلى المغرب ١/٤١٩، والعبر للذهبي ٤/٤٠.

قال الأصمعيُّ: كنتُ عند أبي عَمْرو بن العَلاء، فَجاءه عمرو بن عُبَيد، فقال: يا أبا عَمْرو، وَهَل يُخلِفُ الله الميعاد؟ فقال: لا. فذكر آيةَ وَعِيدٍ، فقال له: أمن العجم أنت؟ إنَّ العربَ تَعُدُّ الرجوع عن الوَعْدِ لُؤماً، وعن الإيعاد كرماً(١)، أوَ مَا سمعتَ قول الشاعر(٢):

لاَ يُرْهِبُ ابنَ العَمِّ والجار سَطْوَتِي ولا يَنْثَنِي عن سَطْوَةِ المُتَهَدِّدِ(٣)
فَإنِّي وَإنْ أوْعَدْتُه أوْ وَعَدْتُه لَمُخْلِفُ إيعادِي ومُنْجِزُ مَوْعِدِي

وقولُه: ﴿ وإنَّ يوماً عند رَبِّكَ كألف سنة مما تَعُدُّون ﴾، أي: هو تعالى لا يَعجَلُ، فإنَّ مقدارَ ألفِ سَنَةٍ عند خَلْقِهِ كيومٍ واحدٍ عنده بالنِّسبة إلى حُكمه، لِعِلْمِه بأنَّه على الانتقام قادرٌ، وأنه لا يفوتُه شيءٌ، وإن أجَّلَ وأنظَرَ وأمْلَى. ولهذا قال بعد هذا: ﴿وكَأيِّن من قَرْيَةٍ أمليتُ لها وهي ظالمةٌ ثم أخذتُها وإليَّ المَصِيرُ﴾.

قال ابنُ أبي حاتمٍ: حَدَّثنا الحسنُ بن عَرَفَةَ، حدثني عبدةُ بن سُلَيمان، عن محمد بن عَمْرو، عن أبي سَلَمَةَ، عن أبي هُرَيْرَةَ أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ «قال: يدخلُ فقراءُ المسلمين الجنةَ قبلَ الأغنياءِ بنصفِ يومٍ، خمسمائةِ عامٍ».

وَرواه التِّرمِذيُّ والنَّسائيُّ، من حديث الثَّوريِّ، عن محمد بن عَمْرو، به. وقال التِّرمِذيُّ: «حسن صحيح»(٤). وقد رواه ابنُ جرير، عن أبي هُرَيْرَةَ موقُوفاً، فقال:

حدثني يعقوبُ، حَدَّثنا ابن عُلَيَة، حدثنا سَعيد الجُرَيريُّ، عن أبي نَضْرَةَ، عن سُمَير بن نَهارٍ قال: قال أبو هُرَيرة: يدخلُ فقراءُ المسلمين الجنَةَ قبل الأغنياءِ بمقدارِ نصف يوم. قلت: وما نصف يوم؟ قال: أوَ ما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قال: ﴿وإنَّ يوماً عندِ ربِّك كألفِ سَنَةٍ مما تَعدُّون﴾(٥).

وقال أبو داود في آخر كتاب المَلاحم من سُنَنِهِ: حدثنا عَمرو بن عُثمانَ، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صَفوانُ، عن شُرَيح بن عُبَيد، عن سَعدِ بن أبي وقَاص، عن النبيِّ ـ ﷺ ـ أنه قال: «إني لأرجو ألاَّ تَعجزَ أُمَّتي عند ربِّها أن يُؤخرهم نِصفَ يومٍ. قيل لسعد: وما نِصفُ يوم؟ قال: خَمْسُمائةِ سنةٍ(٦).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمدُ بن سِنَان، حدثنا عبد الرحمن بن مهديٍّ، عن إسرائيلَ، عن سِمَاك، عن عِكْرِمةَ، عن ابن عبَّاسٍ: ﴿ وإن يوماً عند ربِّك كَألْفِ سنة مما تَعُدُّون ﴾، قال: من الأيام التي خَلَق الله فيها السموات والأرض.

رواه ابنُ جرير، عن ابن بَشَّار، عن ابن مَهْدِي(٧)، وبه قال مجاهدٌ، وعكرمةُ، ونصَّ عليه أحمدُ بنُ حَنْبَلٍ في كتاب «الردّ على الجَهْمِيَّة».

---

(١) في نسخة الحرم: «من العجمة تبيان العرب تَقَدّم الرجوع عن الوعيد يوماً، وعن الإيعاد ذكرها». ومثله في نسخة الأزهر. والمثبت عن الطبعات السابقة.

(٢) عامر بن الطفيل، ديوانه ٥٨، واللسان: ختأ. والثاني: وعد.

(٣) رواية الديوان، واللسان:

لا يُرهِبُ ابن العَمّ مِنّي سطوتي ولا أختتي من سطوة المتهدّد

واختتأ من فلان: اختبأ منه واستتر خوفاً أو حياءً. وتركُ الهمزة ضرورة.

(٤) عارضة الأحوذي، أبواب الزهد ٢١٣/٩، ورواه النسائي في الكبرى في التفسير. انظر تحفة الأشراف للمزّي ٦/١١.

(٥) تفسير الطبري ١٨٣/١٧.

(٦) سنن أبي داود، كتاب الملاحم ١٢٥/٤.

(٧) تفسير الطبري ١٨٣/١٧، والدرّ المنثور ٦٢/٦.

وقال مجاهدٌ، هذه الآية كقوله: ﴿ يُدَبِّرُ الأمرَ من السماءِ إلى الأرضِ ثم يَعرُجُ إليه في يومٍ كانَ مقدارُه ألفَ سَنَةٍ مما تَعُدُّون ﴾.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عارمٌ ـ محمد بن الفَضْل ـ حدَّثنا حَمَّاد بن زيد، عن يحيى بن عَتيق، عن محمد بن سيرين، عن رَجُلٍ من أهل الكتاب أسلَمَ قال: إن الله تعالى خلق السموات والأرضَ في ستةِ أيام، ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾، وجعل أجَلَ الدنيا ستَّةَ أيام، وجعَلَ السَّاعةَ في اليوم السابع، ﴿ وَإنَّ يوماً عند رَبِّكَ كألْفِ سَنَةٍ مما تَعُدُّون ﴾، فقد مضت الستةُ الأيامُ، وأنتم في اليوم السابع. فَمَثَلُ ذلك كَمَثَلِ الحامِلِ إذا دخلَت شَهرَها، ففي أيَّةِ لحظةٍ وَلَدت كان تَماماً.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ ﴾

يقولُ تعالى لنبيِّه ـ ﷺ ـ حين طلب منه الكُفَّارُ وُقوعَ العذاب واستعجَلُوه به: ﴿ قُلْ يا أيُّها الناسُ إنما أنا لكم نذيرٌ مبينٌ ﴾، أي: إنما أرسلني الله إليكم نذيراً لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديدٍ، وليسَ إليَّ من حِسَابكم من شَيْءٍ، أمْرُكم إلى الله، إن شاء عَجَّل لكم العذابَ، وإن شاء أخَّره عنكم، وإن شاء تابَ على مَن يتوب إليه، وإن شاء أضلَّ من كتب عليه الشَّقاوة، وهو الفَعَّال لما يشاء ويُريد ويَختار، ﴿ لا مُعقِّبَ لِحُكْمِهِ وهو سَريعُ الحِسَابِ ﴾، و﴿إنما أنا لكم نذيرٌ مبينٌ * فالذينَ آمنُوا وعَمِلوا الصَّالِحَاتِ ﴾، أي: آمنَتْ قلوبُهم وصَدَّقُوا إيمانهم بأعمالهم، ﴿ لهم مَغفِرةٌ ورزقٌ كريمٌ ﴾، أي: مَغفِرَةٌ لما سَلَف من سَيِّئاتهم، ومجازاةٌ حَسَنةٌ على القليلِ من حَسَناتِهم.

قال محمدُ بنُ كعبٍ القُرَظِيُّ: إذا سَمِعتَ الله تعالى يقولُ: ﴿ وَرِزْقٌ كريم ﴾، فهو الجنةُ[1].

وقولُه: ﴿ والذين سَعَوا في آياتنا مُعَاجِزينَ ﴾، قال مجاهد: يُثَبِّطُونَ الناس عن مُتَابعَةِ النبيِّ ﷺ. وكذا قال عبد الله بن الزبير: مُثَبِّطين. وقال ابن عباس: ﴿ مُعَاجِزينَ ﴾: مُراغِمينَ[2].

﴿ أولئكَ أصحابُ الجَحيم ﴾، وهي النارُ الحارَّةُ المُوجِعَةُ الشديدةُ عذابُها ونَكَالُها، أجارنا الله منها. قال الله تعالى: ﴿ الذينَ كفرُوا وصَدُّوا عن سَبيلِ الله زِدْنَاهُم عذاباً فوقَ العذابِ بما كانُوا يُفسِدُونَ ﴾.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

قد ذَكر كثيرٌ من المفسِّرين هاهنا قصة الغَرانيق[3]، وما كان من رُجوعِ كثيرٍ من المُهاجرة إلى أرضِ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، الدرّ المنثور ٦/٦٣.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم أيضاً، الدر ٦/٦٤. ويقال: راغَمَه: إذا هَجَره وعاداه.

(٣) الغرانيق: جَمْعُ غُرْنُوق، وهو طائر مائي أبيض، طويل الساق، جميل المنظر، له قُنْزُعة ذَهَبية اللون، وهو ضربٌ من الكراكيّ. وكانوا يزعمون ـ كما يقول ابن الأنباري ـ أن الأصنام تقربهم من الله عزّ وجلّ وتشفع لهم إليه، فشُبِّهت بالطيور تعلو وترتفع في السماء.

الحَبَشة، ظَنّاً منهم أن مشركي قريش قد أسلمُوا. ولكنها من طرق كلها مُرسَلَةٍ، ولم أرها مسندةً من وجهٍ صحيحٍ، والله أعلم.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونُس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سَعيد بن جُبَير قال: قرأ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بمكَّةَ «النَّجْم» فلما بَلَغ هذا الموضعَ: ﴿أفرأيتُم اللاتَ والعُزّى * ومناةَ الثالثةَ الأخرَى﴾، قال: فألقى الشيطانُ على لِسانِه: «تلك الغَرانيقُ العُلَى. وَإِنَّ شَفاعَتَهُنَّ تُرْتَجى». قالوا: ما ذكر آلهتِنا بخيرٍ قبلَ اليوم. فَسَجَدَ وسَجدُوا، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هذه الآية: ﴿وَمَا أَرسَلْنا مِنْ قَبلِكَ مِن رَسُولٍ ولا نَبِيٍّ إلا إِذَا تَمَنَّى أَلقَى الشيطانُ في أُمنيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلقي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحكِمُ اللهُ آياتِهِ﴾.

رواه ابنُ جَرير، عن بُندار، عن غُنْدَر، عن شعبة، به نحوه[١]. وهو مرسل. وقد رواه البَزّارُ في مسنده، عن يوسف بن حمّاد، عن أُميَّةَ بن خالد، عن شُعبَةَ، عن أبي بشر، عن سَعيد بن جُبَير، عن ابن عباس، فِيما أَحسبُ ـ الشكُّ في الحَديثِ ـ أَنَّ النبيَّ ـ ﷺ ـ قرأ بمكَّة سُورَةَ النَّجم، حتى انتهَى إلى: ﴿أفرأيتُم اللاتَ والعُزّى﴾. وذَكَر بَقِيَّته. ثم قال البَزّارُ: «لا نَعْلَمهُ يُرْوَى مُتَّصِلا إلا بهذَا الإسنادِ، تَفَرَّد بِوَصْلِهِ أميةُ بنُ خالدٍ، وهو ثِقَةٌ مشهور. إنما يُروى هذا من طَريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس»[٢].

ثم رَواه ابنُ أبي حاتم، عن أبي العَاليَةِ، وعن السُّدِّيِّ، مُرسَلاً. وكذا رَواه ابنُ جَرير، عن محمد بن كعب القُرَظِيِّ، ومحمد بن قَيس، مرسلاً أيضاً[٣].

وقال قتادةُ: كان النبيُّ ـ ﷺ ـ يُصَلِّي عند المقام إذ نَعَس، فألقى الشيطان على لسانه «وإن شفاعَتَها لَتُرتَجى. وإنها لَمَع الغَرانيق العُلَى». فَحَفِظَها المشركُونَ. وأجرى[٤] الشيطانُ أن نبيَّ الله قد قَرأَها، فَذَلَّتْ[٥] بها ألسنتُهم، فأنزل الله: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نَبيٍّ إلا إذا تمنَّى﴾ . . . الآية، فَدَحَر اللهُ الشيطانَ[٦].

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا مُوسَى بن أبي موسى الكوفيُّ، حدثنا محمد بن إسحاقَ المُسَيَّبِي، حدثنا محمد بن فُلَيح، عن موسى بن عُقبَةَ، عن ابن شِهَابٍ قال: أُنزلَت سورةُ النَّجم، وكان المشركون يقولون: لو كان هذا الرجلُ يذكُر آلهتنا بخير أَقْرَرْناه وأصحابَه، ولكنَّه لا يذكُر من خَالَف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يَذكُر آلهتنا من الشَّتْم والشَّر. وكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ قد اشتدَّ عليه ما ناله وأصحابَه من أَذَاهم وتَكْذيبِهم، وأَحْزَنه ضَلالُهم، فكانَ يتمنَّى هُدَاهم، فلما أنزل الله سورة النجم قال: ﴿أفَرأيتُم اللّاتَ والعُزَّى * ومناة الثالثة الأخرَى * أَلَكُم الذَّكرُ ولَهُ الأُنثى﴾، ألقى الشيطانُ عِندها كلماتٍ حين ذَكَر اللهُ الطواغيتَ، فقال: «وإنهنَّ لَهُنَّ الغرانيقُ العُلَى. وإنَّ شفاعَتَهُنَّ لهي التي تُرتَجى». وكان ذلك من سَجْع الشَّيطان وَفِتْنَتِه، فوقَعت هاتان الكلمتان في قَلْب كُلِّ مُشْرِكٍ بمكَّة، وذَلَّت[٥] بها ألسنتُهم، وَتَباشَرُوا بها، وقالوا: إنَّ محمداً قد رَجَع إلى دِينِه الأوّل، وَدِينِ قَوْمِهِ. فلما بَلَغ رسولُ الله ـ ﷺ ـ آخر النَّجم، سَجَدَ وسَجَد كُلُّ من حَضَرهُ من مُسلِم أو مُشرِكٍ. غير أَنَّ الوليدَ بن المُغيرةِ كان رَجُلاً كَبيراً، فَرَفَع على كَفِّه ترابا، فَسَجد عليه، فَعَجِب الفريقَان كِلَاهما من

---

(١) تفسير الطبري ١٧/١٨٨ ـ ١٨٩.

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب التفسير ٣/٧٢.

(٣) تفسير الطبري ١٧/١٨٦ ـ ١٨٧.

(٤) في الدرّ المنثور: «وأخبرهم الشيطان».

(٥) أي: لانت. وفي بعض آثار هذه القصة: ذَلِقَتْ، يقال: ذَلِقَ اللسان والسنان ذَلَقاً: دَرِب وصار حديداً ماضياً.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم، الدرّ المنثور ٦/٦٨.

جَماعتهم في السُّجُودِ لِسُجود رسول الله ـ ﷺ ـ فـأمَّا المُسلمُونَ فَعَجبُوا لِسُجودِ المشركين مَعَهُم على غير إيمانٍ ولا يقينٍ ـ ولم يَكُن المسلمون سَمِعُوا الَّذي ألقى الشيطانُ في مَسَامع المشركين ـ [وأما المشركون][(١)] فاطمأنت أنفُسهم لِمَا ألقى الشيطانُ في أُمنِيَّةِ رسُولِ الله ـ ﷺ ـ وحَدَّثهم به الشيطانُ أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قد قَرَأَها في السورة، فَسَجَدُوا لتعظيم آلهتهم. فَفَشَت تلك الكلمةُ في الناس، وأظهرها الشيطانُ، حتى بلغت أرضَ الحبشة ومَن بها من المسلمين، عثمانَ بن مظعونٍ وأصحابَه، وتحدَّثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلّهم، وصَلّوا مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ وبلغهم سجودُ الوليد بن المَغيرَة على التراب على كَفه، وحُدِّثوا أن المسلمين قد أَمِنُوا بمكة. فَأقبلُوا سِراعاً وقد نَسخ الله ما ألقى الشيطانُ، وأحكم اللهُ تعالى آياتِه، وحَفظه الله من الفِرْيَة، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرسَلْنا من قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ولا نَبيٍّ إلا إذا تَمَنَّى ألقى الشيطانُ في أُمنيَّتِهِ فينسَخُ اللهُ ما يُلقِي الشيطانُ ثم يُحكِمُ اللهُ آياتِهِ واللهُ عَليم حَكيم ۞ ليجعَلَ ما يلقِي الشيطانُ فتنةً للذين في قُلُوبهم مَرَضٌ والقاسيةِ قلوبُهم وإن الظالمين لفي شِقَاقٍ بَعيدٍ﴾، فلما بَيَّن اللهُ قضاءَه، وبَرّأه من سَجْعِ الشيطانِ، انقلبَ المشركُون بِضَلالِهم وعَدَاوتهم المسلمين، واشتدُّوا عليهم. وهذا أيضاً مرسل.

وفي تفسير ابن جَرير عن الزُّهريِّ، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هِشَام، نحوه[(٢)]. وقد رواه الحافظ أبو بكر البَيهقيُّ في كتابه «دلائل النبوة» فلم يَجُزْ به موسى بن عُقبَةَ، ساقه في مغازيه بِنحوه، قال: وقد رَوَينا عن ابن إسحاق هذهِ القصَّة[(٣)].

قلت: وقد ذَكرها محمدُ بن إسحاقَ[(٤)] في السيرة بِنَحوٍ من هذا، وكلها مرسلَات ومنقطعاتٌ، فالله أعلم.

وقد ساقها البغويُّ[(٥)] في تفسيره مجموعةً من كلام ابن عباس، ومحمد بن كعب القُرَظي، وغيرهما بِنَحوٍ من ذلك، ثم سَأل هاهنا سؤالًا: «كيف وَقَع مثلُ هذا مع العِصْمَةِ المضمونةِ من الله لرسوله صلواتُ الله وسلامُه عليه؟ ثم حكى أجوبة عن الناس، من ألطفها: أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك، فَتوهَّموا أنه صَدَر عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ وليس كذلك في نفسِ الأمرِ، بل إنما كان من صَنيع الشيطان لا عن سَبيلِ الرحمن[(٦)]. والله أعلم.

وهكذا تنوّعت أجوبةُ المُتكلّمين عن هذا بتقدير صِحَّتِهِ. وقد تَعَرَّضَ القاضي عياض ـ رحمه الله في كتاب «الشِّفَا» لهذا، وأجاب بما حاصلُه[(٧)].

---

(١) ما بين القوسين عن دلائل النبوة للبيهقي.

(٢) تفسير الطبري ١٧/١٨٩.

(٣) دلائل النبوة للبيهقيّ ٢/٢٨٦ ـ ٢٩٦.

(٤) لم يوردها ابن هشام، وقد ذكر السُّهَيلي في الروض الأُنُف ١/٢٢٩ هذا الخبر، قال: «ذكره موسى بن عقبة وابن إسحاق في غير رواية البكائي. وأهل الأصول يدفعون هذا الحديث بالحجة، ومن صححه قال فيه أقوالاً، منها أن الشيطان قال ذلك وأشاعه، والرسول لم ينطق به. وهذا جيِّد، لولا أن في حديثهم أنّ جبريل قال لمحمّدٍ: «ما أتيتك بهذا». ومنها أنَّ النبيَّ ـ ﷺ ـ قالها من قبل نَفْسِه، وعنى بها الملائكة أن شفاعتهم لَتُرْتَجى. ومنها أن النبي ـ عليه السلام ـ قالها حاكياً عن الكفرة، وأنهم يقولون ذلك، فقالها متعجباً من كفرهم». ثم يقول السهيلي: «والحديث ـ على ما خُيِّلَتْ ـ غير مقطوع بصحته، والله أعلم».

(٥) تفسير البغوي ٣/٢٩٣ ـ ٢٩٤.

(٦) في غير نسخة الحرم: «لا من رسول الرحمن ﷺ».

(٧) هنا انقطع النص في نُسَخنا، ولم يذكر بعده ابن كثير شيئاً. على أن في الطبعات السابقة بعده: «أنها كذلك لثبوتها». وهذه إضافة من عمل جاهل أو مُغرض، وإليك نصَّ القاضي عياض في كتابه: الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/٧٥٠ ـ ٧٦٣: «فاعلم ـ أكرمك الله ـ أن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين، أحدهما: في توهين أصله، والثاني على تسليمه. أما المأخذُ الأول فيكفيك أنَّ هذا حديث لم يخرجه أحدٌ منه أهل الصحَّة، ولا رواه بسندٍ سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسّرون والمؤرخون المولَعون بكل غريب، =

وقولُه: ﴿ إلَّا إذا تَمَنَّى ألقى الشيطانُ في أُمنِيَّتِهِ ﴾، هذا فيه تسليةٌ له ـ صلوات الله وسلامُه عليه ـ أي: لا يَهِيدَنَّك(١) ذلك، فقد أصاب مثلَ هذا مَن قبلك من المُرسَلين والأنبياء.

قال البخاريُّ: قال ابنُ عَبَّاسٍ: ﴿ في أُمنِيَّتِه ﴾: إذا حَدَّث ألقى الشيطانُ في حَدِيثِهِ، فَيُبطِلُ الله ما يُلقِي الشيطانُ ويُحكِمُ الله آياته(٢).

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ إذا تَمَنَّى ألقى الشيطان في أُمنِيَّته ﴾، يقولُ: إذا حَدَّث ألقى الشيطانُ في حَدِيثه. وقال مجاهد: ﴿ إذا تَمَنَّى ﴾، يعني: إذا قال.

ويقال: ﴿ أُمْنِيَّتُهُ ﴾: قراءته، ﴿ إلا أمانيَّ ﴾، يقولونَ ولا يكتبونَ.

قال [البغوي]: وأكثر(٣) المفسِّرين قالوا: معنى قوله: ﴿ تَمَنَّى ﴾، أي: تَلَا وقرأ كتاب الله، ﴿ ألقى الشيطان في أُمنِيَّتِهِ ﴾، أي: في تلاوته، قال الشاعر في عثمان حين قُتِل(٤):

تَـمَـنَّـى كِـتَـابَ الله أوّلَ لَـيْـلَةٍ وآخِـرَهَـا لَاقَـى حِمَـامَ الـمَـقَـادِرِ

وقال الضحاك: ﴿ إذا تَمَنَّى ﴾، إذا تلا، قال ابنُ جرير: هذا القولُ أشبهُ بتأويل الكلام(٥).

وقولُه: ﴿ فَينسَخُ الله ما يُلقِي الشيطانُ ﴾، حقيقة النسخ لغة: الإزالةُ والرَّفعُ.

قال عليُّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عَبَّاسٍ: أي: فَيُبطِلُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ما ألقى الشيطانُ. وقال الضحاك: نَسَخ جبريلُ بأمر الله ما أَلقَى الشيطانُ، وأَحكَمَ الله آياتِهِ.

وقولُه: ﴿ والله عليمٌ ﴾، أي: بما يكونُ من الأمور والحوادِثِ، لا تَخْفَى عليه خافيةٌ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾، أي: في تَقْدِيره وخَلْقِهِ وأَمْرِه، له الحكمةُ التامَّةُ، والحجَّةُ البالغةُ. ولهذا قال: ﴿ لِيجعَلَ ما يُلقِي الشيطانُ فتنةً للذين في قلوبهم مَرَضٌ ﴾، أي: شَكٌّ وشِرْكٌ وكفرٌ ونِفاقٌ، كالمشركين حين فَرِحوا بذلك واعتقَدُوا أنه صحيحٌ، وإنما كان من الشيطان.

قال ابنُ جُرَيجٍ: ﴿ الذين في قلوبهم مرضٌ ﴾ هم: المنافقون، ﴿ والقاسيةِ قلوبهُم ﴾: المشركُون. وقال مُقاتِل بن حَيَّان: هم اليهود.

﴿ وإنَّ الظالمين لفي شِقَاقٍ بعيدٍ ﴾، أي: في ضلالٍ ومُخَالفةٍ وعنادٍ بعيدٍ، أي: من الحَقِّ والصَّوابِ.

﴿ وَلِيعلَم الذين أُوتوا العلم أنه الحقُّ من رَبِّك فَيُؤمِنُوا به ﴾، أي: وَلِيعلم الذين أُوتُوا العلمَ النافعَ الذي يُفَرِّقون به بين الحقِّ والباطل، المؤمنون بالله ورسوله، أنَّ ما أَوحيناه إليك هو الحقُّ من ربِّك، الذي أنزله بعلمه وحَفِظه وحَرَسه أن يختلط به غيرُه، بل هو كتابٌ حكيم، ﴿ لا يأتيه الباطلُ من بين يَدَيهِ ولا من خَلْفِهِ تنزيلٌ من حَكِيم حَمِيدٍ ﴾.

= المتلقِّفون من الصحف كل صحيح وسقيم». ثم ذكر بعد هذا وجوه الضعف من جهة النقل والمعنى، ثم قال: «وأما المأخذ الثاني فهو مبنيٌّ على تسليم الحديث لو صحَّ ـ وقد أعاذنا الله من صحته ـ ولكن على كلِّ حال فقد أجاب على ذلك أئمة المسلمين بأجوبة منها الغث والسمين». وذكر هذه الأجوبة بعد ذلك.

(١) هاده الأمرُ: أَفْزَعَهُ وكَرَبَهُ.

(٢) فتح الباري، تفسير سورة الحج ٨/٤٣٨.

(٣) تفسير البغوي ٣/٢٩٣.

(٤) هو كعب بن مالك، انظر تفسير الآية ٧٨ من سورة البقرة.

(٥) تفسير الطبري ١٧/١٩٠.

وقوله: ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾، أي: يُصدِّقوه وينقادوا له، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: تخضع وتذلَّ، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، أي: في الدُّنيا والآخرة، أما في الدنيا فَيُرشِدُهم إلى الحقِّ واتِّباعه، ويُوفِّقهم لمخالفة الباطلِ واجتنابه، وفي الآخرة يَهديهم إلى الصراط المستقيم، الموصِّل إلى درجاتِ الجنات، ويُزحزِحُهم عن العذابِ الأليم والدركات.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن الكفار أنَّهم لا يَزالون في مِرْيَةٍ، أي: في شكٍّ وريبٍ من هذا القرآن، قاله ابنُ جُرَيج، واختاره ابن جرير[1].

وقال سَعيد بن جُبَير، وابنُ زيدٍ: ﴿منه﴾، أي: مما ألقى الشيطانُ.

﴿حتَّى تأتيهم الساعةُ بغتةً﴾، قال مجاهد: فجأةً. وقال قتادة: ﴿بغتةً﴾، بَغَتَ القومَ أمرُ الله، وما أخذ الله قوماً قطُّ إلا عند سكرتهم وغِرَّتهم ونعمتهم، فلا تغترُّوا بالله، إنَّه لا يَغترُّ بالله إلَّا القومُ الفاسقون.

وقولُه: ﴿أو يأتيهم عذابُ يومٍ عَقيمٍ﴾، قال مجاهد: قال أُبَيُّ بن كعب: هو يوم بدر. وكذا قال مجاهد وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، وقتادةُ وغيرُ واحد. واختاره ابن جرير.

وقال عكرمةُ، ومجاهد ـ في روايةٍ عنهما ـ: هو يومُ القيامةِ لا ليلةَ له. وكذا قال الضحَّاكُ، والحسنُ البصريُّ.

وهذا القولُ هو الصحيحُ، وإن كان يومُ بدر من جُملة ما أُوعِدُوا به، لكن هذا هو المرادُ، ولهذا قال: ﴿الملكُ يومئذٍ لِلَّهِ يحكُم بينهم﴾، كقوله: ﴿مالكِ يوم الدِّين﴾ وقوله: ﴿الملكُ يومئذٍ الحقُّ للرحمن وكانَ يوماً على الكافرينَ عسيراً﴾.

﴿فالذين آمنوا وعَمِلوا الصالحات﴾، أي: آمنت قلوبُهم، وصدَّقوا بالله ورسُوله، وعمِلوا بمقتضى ما علِموا، وتُوافِقُ قلوبُهم وأقوالُهم وأعمالُهم. ﴿في جَنَّاتِ النَّعِيم﴾، أي: لهم النعيمُ المقيمُ، الذي لا يَحولُ ولا يزولُ ولا يَبِيدُ.

﴿والذين كفَروا وكذَّبوا بآياتنا﴾، أي: كَفرتْ قُلوبُهم بالحقِّ وجَحدَتْهُ وكَذَّبوا به، وخَالَفُوا الرسُلَ، واستكبروا عن اتِّباعِهم. ﴿فاولئك لهم عذابٌ مُهينٌ﴾، أي: مُقابلةَ استكبارِهم وإعراضِهم عن الحقِّ، كقوله تعالى: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾، أي: صاغِرين.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾

---

(١) تفسير الطبري ١٩٢/١٧.

يُخبر تعالى عمَّن خرج مُهاجراً في سبيل الله ابتغاء مَرْضاتِه، وطلباً لما عنده، وتَركَ الأوطانَ والأهلِين والخلَّانَ، وفارقَ بلادَه في الله ورسُولِه، ونُصرةً لدين الله، ﴿ ثم قُتِلوا ﴾ أي: في الجهاد، ﴿ أو ماتوا ﴾، أي: حَتْفَ أنفهم ـ أي: من غير قتال على فُرُشهم ـ فقد حَصَلوا على الأجر الجزيل، والثناءِ الجَميل، كما قال تعالى: ﴿ ومن يَخرُج من بيته مُهَاجراً إلى الله ورسُولِهِ ثم يدركْهُ الموتُ فقد وَقَع أجرُه على الله ﴾.

وقولُه: ﴿ لَيَرْزُقَنَّهم الله رزقاً حَسناً ﴾، أي: لَيَجزِيَنَّ عليهم من فضله ورزْقِه من الجنة ما تقرُّ به أعينُهم، ﴿وإنَّ الله لهوَ خيرُ الرَّازقين * لَيُدخِلَنَّهم مُدخلاً يرضَونه﴾، أي: الجنة. كما قال تعالى: ﴿فأما إن كان من المقرَّبين * فروحٌ وريحانٌ وجنةُ نعيم﴾، فأخبر أنه يحصلُ له الراحةُ والرزقُ وجنةُ نعيم، كما قال ها هنا: ﴿ لَيَرْزُقَنَّهم الله رِزْقاً حسناً ﴾، ثم قال: ﴿ ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم ﴾، أي: بمن يُهاجِرُ ويُجاهِدُ في سبيله، وبمن يستحقُّ ذلك، ﴿ حَليمٌ ﴾، أي: يحلُم ويصفحُ ويغفِرُ لهم الذنوبَ ويُكفِّرها عنهم بهجْرَتهم إليه، وتَوَكُّلِهم عليه. فأما من قُتِل في سبيل الله من مُهاجر أو غير مُهاجر، فإنه حيٌّ عند ربه يُرزَقُ، كما قال تعالى: ﴿ ولا تحسبنَّ الذين قُتِلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربِّهم يُرزَقُونَ ﴾. والأحاديث في هذا كثيرة، كما تقدَّم[1]. وأما مَنْ تُوُفي في سبيل الله من مُهاجِرٍ أو غَيْرِهِ فقد تَضمَّنت هذه الآيةُ الكريمةُ مع الأحاديثِ الصَّحيحةِ إجراءَ الرِّزْقِ عليه، وعَظِيمَ إحسان الله إليه.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا المسَيَّب بن وَاضِح، حدثنا ابن المبارك، عن عبد الرحمن بن شُرَيح، عن ابن الحارث ـ يعني عبد الكريم ـ عن ابن عُقبة ـ يعني أبا عُبَيدةَ بن عقبة ـ قال: حدثنا شُرحبيل بن السِّمط: طال رِباطُنا وإقامتُنا على حصن بأرض الرُّوم، فمرَّ بي سليمان ـ يعني الفارسيَّ، رضي الله عنه ـ فقال: إني سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: مَن ماتَ مُرابطاً أَجْرَى اللهُ عليه مثلَ ذلك الأجر، وأجرى عليه الرِّزقَ، وأَمِن من الفَتَّانين. واقرءوا إن شئتم: ﴿ والذين هاجَرُوا في سبيل الله ثم قُتِلوا أو ماتوا لَيَرْزُقَنَّهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو خيرُ الرَّازقين * لَيُدخِلَنَّهم مُدخلاً يرضَونه وإنَّ الله لعليم حَليم﴾[2].

وقال أيضاً: حدثنا أبو زُرْعة، حدثنا زيد بن بِشْر، أخبرني ضِمَامٌ[3]، أنه سَمع أبا قَبيل وَربيعةَ بنَ سَيفٍ المَعَافِريَّ يَقُولانِ: كنا بِرُودِسَ، ومعنا فَضَالةُ بن عُبَيد الأنصاريّ صاحبُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ فَمُرَّ بجنازتين، إحداهما قَتيلٌ والأخرى مُتَوفًّى، فمال الناسُ على القَتيل، فقال فَضَالة: ما لي أرى الناسَ مالُوا مع هذا وتَرَكُوا هذا؟! فقالُوا: هذا قتيلٌ في سبيل الله تعالى. فقال: والله ما أُبالي من أيِّ حُفرتَيهما بُعِثْتُ، اسمعُوا كتاب الله: ﴿ والذين هاجَرُوا في سَبيلِ الله ثم قُتِلوا أو ماتوا لَيَرْزُقَنَّهم الله رزقاً حَسناً وإنَّ الله لهو خير الرازقين ﴾.

وقال أيضاً: حَدَّثنا أبي، حَدَّثنا عَبْدةُ بن سُليمان، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا ابن لَهِيعة، حَدثنا سَلامان بن عامر الشَّعبانِيُّ، أن عبد الرحمن بن جَحْدَم الخولاني حَدَّثَه: أنه حَضَر فضالة بن عُبيد في البحر مع جنازَتين، أحدُهما أُصِيبَ بِمَنجنيقٍ والآخر تُوفي، فَجَلس فضالة بن عُبَيد عند قبر المُتَوفَّى، فقيل له: تَركْتَ الشهيد فلم تجلس عنده؟ فقال: ما أبالي من أيِّ حفرتيهما بُعِثْتُ، إن الله يقول: ﴿ والذين هاجَرُوا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا لَيَرْزُقَنَّهُم الله رزقاً حَسناً وإنَّ الله لهو خير الرازقين * ليدخلنهم مُدخلاً يرضونه﴾: فما تَبتغِي أيُّها العبدُ إذا أُدخلْتَ مُدخلاً تَرضاه وَرُزِقتَ رزقاً حَسناً؟! والله ما أُبالي من أيِّ حُفرتَيهما بعثتُ؟!

(١) انظر تفسير الآية ١٦٩ من سورة آل عمران.
(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة ٣/١٥٢٠ بإسناده إلى شرحبيل بن السِّمط، والنسائي في كتاب الجهاد ٦/٣٩ بإسناده إلى عبد الرحمن ابن شريح، ومثله الطبراني في المعجم الكبير ٦/٢٦٦.
(٣) هو: ضِمَامُ بن إسماعيل، أبو إسماعيل المَعافِريُّ، مترجم في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤/٤٦٩.

ورواه ابن جرير، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابنَ وهب، أخبرني عبدُ الرحمن بن شُرَيح، عن[١] سَلَامان بن عامر قال: كان فضالة بِرُودِس أميراً على الأرباع[٢]، فخرج بجنازَتي رجلين، أحدهما قتيلٌ والآخر مُتوفَّى... فذكر نحو ما تقدم[٣].

وقولُه: ﴿ ذلك ومن عَاقَب بمثلِ ما عُوقِبَ به ثم بُغِيَ عليه لَيَنصُرنَّه الله ﴾، ذكر مقاتلُ بن حَيَّان وابنُ جُريج أنها نزلت في سَرِيَّةٍ من الصَّحابة، لَقُوا جمعاً من المشركين في شهر مُحَرَّم، فناشَدهم المسلمون لئلاّ يُقاتِلُوهم في الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالَهم وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمُون، فنصرَهم الله عليهم، ﴿ إنَّ الله لعفوٌّ غفورٌ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُنبِّهاً على أنه الخالق المتصرِّف في خلقه بما يشاء، كما قال: ﴿ قُلِ اللَّهم مالكَ المُلكِ تُؤتي المُلْكَ من تشاء وتَنزِعُ المُلْكَ ممَّن تَشاءُ وتُعِزُّ مَن تَشاءُ وتُذِلُّ مَن تَشاءُ بيدِك الخيرُ إنَّك على كُلِّ شيءٍ قديرٌ * تُولِجُ اللَّيلَ في النهار وتُولِجُ النهارَ في اللَّيل وتخرج الحيَّ من الميِّت وتخرج الميِّتَ من الحَيِّ وترزقُ من تشاء بغير حسابٍ ﴾، ومعنى إيلاجه اللَّيلَ في النهار والنهارَ في اللَّيل: إدخالُه مِن هَذا في هذا، ومِنْ هذا في هذا، فتارةً يطولُ الليل ويقصُر النهار كما في الشتاء، وتارة يطولُ النهارُ ويقصُر الليل كما في الصَّيف.

وقولُه: ﴿ وَأنَّ الله سميعٌ بصيرٌ ﴾، أي: سَمِيعٌ بأقوال عباده، بصيرٌ بهم، لا يخفى عليه منهم خافيةٌ في أحوالهم وحَرَكاتهم وسَكَناتهم.

ولما بَيَّن أنه المتصرِّفُ في الوجودِ، الحاكمُ الذي لا مُعقِّب لِحُكْمِه، قال: ﴿ ذلك بأنَّ الله هو الحقُّ ﴾، أي: الإلَه الحقُّ الذي لا تَنبغي العبادةُ إلا له، لأنه [ذُو] السلطانِ العظيم، الذي ما شاء كانَ وما لم يَشأ لم يَكُنْ، وكلُّ شيءٍ فَقير إليه، ذَليل لديه، ﴿ وأنَّ ما يدعُون من دُونه هُو الباطلُ ﴾، أي: من الأصنام والأنداد والأوثان، وكلُّ ما عُبِد من دُونه تعالى فهو باطلٌ، لأنه لا يملكُ ضَراً ولا نَفعاً.

وقولُه: ﴿ وأن الله هو العليُّ الكَبير ﴾، كما قال: ﴿ وهو العَليُّ العظيم ﴾، وقال: ﴿ الكبيرُ المُتَعال ﴾، فكل شيء تحتَ قَهره وسُلطانه وعَظمته، لا إلَه إلا هُو، ولا ربَّ سِواه، لأنه العظيمُ الذي لا أعظَمَ منه، العليُّ الذي لا أعلى منه، الكبيرُ الذي لا أكبَرَ منه، تعالى وتقدَّس وتنزَّه، وعزَّ وجلَّ عما يقولُ الظالمون المعتدون عُلُوّاً كَبيراً.

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ

---

(٤) في نسخة الحرم: «وسَلَامان».
(٥) يبدو أن المراد بالأرباع الغنائم. وانظر المعجم الكبير للطبراني ١٨/٢٩٨.
(٦) تفسير الطبري ١٧/١٩٤ ـ ١٩٥.

أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ ﴾

وهذا أيضاً من الدَّلالة على قُدرته وعَظيم سُلطانه، فإنه يُرسِلُ الرِّياح فتثيرُ سَحاباً، فيُمطِرُ على الأرض الجُرُزِ التي لا نَبَات فيها، وهي هامِدَةٌ يابِسَةٌ سوداءُ[1] مُمْحِلَةٌ، ﴿ فَإِذا أَنزلنا عَليها الماء اهتزَّتْ ورَبَتْ ﴾.

وقولُه: ﴿ فَتُصبِحُ الأرضُ مُخضرَّةً ﴾، «الفاء» هاهنا للتعقيب، وتعقيبُ كُلِّ شيءٍ بحَسَبِه، كما قال: ﴿ فخلقنا النطفةَ عَلَقةً فخلقنا العلقةَ مُضغةً فخلقنا المُضغَةَ عظاماً ﴾، وقد ثبت أَنَّ بين كُلِّ شيئين أربعين يوماً[2]، ومع هذا هو مُعقَّبٌ بالفاء، وهكذا هاهنا قال: ﴿ فَتُصبِحُ الأرضُ مُخضرَّةً ﴾، أي: خضراء بعد يَبَسِهَا[3] ومُحُولِها.

وقد ذُكِرَ عن بعض أهل الحِجَازِ أنها تُصبحُ عَقِيبَ المطر خَضْرَاءَ. فالله أعلمُ.

وقولُه: ﴿ إنَّ الله لطيفٌ خبيرٌ ﴾، أي: عليمٌ بما في أرجاءِ الأرض وأقطارِها وأجزائها من الحبِّ وإن صَغُر، لا يخفى عليه خافيةٌ، فيُوصِلُ إلى كُلٍّ منه قِسْطَه من الماء فيُنبِتُه به، كما قال لُقمانُ: ﴿ يا بُنَيَّ إنها تكُ مثقالَ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ فتكُن في صَخْرةٍ أو في السَّمواتِ أو في الأرض يَأْتِ بها الله إن الله لَطِيفٌ خَبير ﴾، وقال: ﴿ألاَّ يَسْجُدوا لله الذي يُخرِج الخَبْءَ في السَّمواتِ والأرض ﴾، وقال تعالى: ﴿ وما تسقط من ورقةٍ إلا يَعلَمُها ولا حَبَّةٍ في ظلماتِ الأرض ولا رَطْبٍ ولا يَابسٍ إلا في كتابٍ مبينٍ ﴾، وقال: ﴿ وما يَعزُبُ عن رَبِّكَ من مثقالِ ذَرَّةٍ في الأرضِ ولا في السَّماء ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبر إلاّ في كتابٍ مبينٍ ﴾. ولهذا قال أُمَيَّةُ بن أبي الصَّلت ـ أو: زيد بن عَمرو بن نُفَيلٍ ـ في قصيدته[4]:

وقولاَ لَه: مَنْ يُنبِتُ الحَبَّ في الثَّرَى ... فَيُصبِـحَ مِنْـهُ البَقْـلُ يَهْتَـزُّ رَابِيـا؟
وَيُخْـرِجُ مِنْـهُ حَبَّـه في رءُوسِـهِ ... فَفِي ذَاكَ آيـاتٌ لِمَنْ كـانَ وَاعِيـا

وقولُه: ﴿ له ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ وإن الله لهو الغنيُّ الحَمِيدُ ﴾، أي: مُلكه جميعُ الأشياء، وهو غَنِيٌّ عما سواه، وكلُّ شيءٍ فقيرٌ إليه، عبدٌ لديه.

وقولُه: ﴿ ألم تَرَ أن الله سَخَّر لَكُم ما في الأرضِ ﴾، أي: من حيوان، وجَماد، وزُرُوع، وثمار؟! كما قال: ﴿ وسَخَّر لكم ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ جَميعاً منه ﴾، أي: من إحسَانِه وفَضْلِهِ وامتِنَانِه، ﴿ والفُلْكَ تجرِي في البحرِ بأَمْرِهِ ﴾، أي: بتَسخيره وتَسْييره، أي: في البحر العَجاج، وتَلاطُم الأمواج، تجري الفُلْكُ بأهلها[5]، بريحٍ طَيِّبَة، ورفق وتُؤَدَةٍ، فيحملُون فيها ما شاءُوا من تجائِرَ وبضائع ومَنَافِعَ، من بَلَدٍ إلى بَلَدٍ، وقُطرٍ إلى قُطرٍ، ويَأْتونَ بما عند أولئك إلى هؤلاء، كما ذَهَبُوا بما عندَ هؤلاءِ إلى أولئك، مما يحتاجُونَ إليه، ويَطلُبُونه ويُرِيدُونه، ﴿ ويُمسِكُ السماءَ أن تقعَ على الأرضِ إلا بإذنه ﴾، أي: لو شاء لأذِن للسماء فسقطت على الأرض، فَهلَك مَن فيها، ولكن من لُطفِه ورَحمته وقُدرته، يُمسِكُ السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ولهذا قال: ﴿ إنّ

---

(١) أي: مُجْدِبةٌ انقطع عنها المطرُ ويَبِسَتْ من الكَلإ. وبعضُ علماء اللغة يقول: «يقال: أمحل البلدُ فهو ماحل، ولا يقال: مُمْحِلٌ». ولكن ابن سيده نقل ذلك عن أبي حنيفة فقال: «أرضٌ مُمْحِلَةٌ ومُمْحِلٌ». انظر اللسان.

(٢) تقدّمت الآثار في ذلك عند تفسير الآية الخامسة من هذه السورة.

(٣) في النسخ: يباسها. ولم نجد هذا المصدر.

(٤) تقدم هذان البيتان مع غيرهما عند تفسير الآية الثانية من سورة الرعد، والآية ٤٤ من سورة طه.

(٥) في نسخة الحرم: تجري الفُلك بأمره بريح....

الله بالناس لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، أي: مع ظلمهم. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وإن رَبَّك لَذُو مَغْفِرة للناسِ على ظُلْمِهِم وإنَّ ربكَ لَشديدُ العقاب﴾.

وقولُه: ﴿ وهو الذي أحياكُم ثمَّ يُميتكم ثمَّ يُحييكُم إنَّ الإنسان لكفور﴾، كقوله: ﴿ كيفَ تَكفُرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يُميتكم ثم يُحييكم ثم إليه تُرجَعُونَ﴾، وقولُه: ﴿ قل الله يُحييكُم ثم يُميتكم ثم يَجْمَعُكم إلى يوم القيامة لا ريبَ فيه﴾، وقوله: ﴿ قالوا رَبَّنا أمَتَّنا اثنَتين وأحييتَنا اثنتين﴾. ومعنى الكلام: كيف تجعلُون لله أنداداً وتعبدُون معه غيرَه، وهو المستقلُّ بالخَلْق والرِّزْق والتصرُّف، ﴿ وَهو الذي أحياكُم﴾، أي: خَلَقكم بعد أن لم تَكُونوا شيئاً يُذكَرُ فَأَوجَدَكم، ﴿ ثم يُميتكم ثم يُحيِيكُم﴾، أي: يومَ القيامة، ﴿ إن الإنسان لكفورٌ﴾، أي: جَحُودٌ.

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

يُخبِرُ تعالى أنه جَعَل لِكُلِّ قوم مَنسكاً، قال ابنُ جَرير: «يعني لكلِّ أُمَّةِ نَبيٍّ مَنْسَكاً». وأصلُ المنسَكِ في كَلام العَرَب هو الموضِعُ الذي يعتادُه الإنسانُ وَتَرَدَّدُ إليه إما لخيرٍ أو شَرٍّ. قال: ولهذا سُمِّيت مناسِكُ الحجِّ بذلك، لَتردَاد الناس إليها وعُكُوفهم عليها»[١].

فإن كان كما قال من أنَّ المراد «لِكُلِّ أمةِ نَبيٍّ جعلنا مَنْسَكاً»، فيكون المرادُ بقوله: ﴿ فلا ينازِعُنَّك في الأمر﴾، أي: هؤلاءِ المشركون، وإن كان المرادُ: لكل أُمَّةٍ جعلنا مَنْسَكاً جعلاً قَدَرِيّاً، كما قال: ﴿ وَلِكلٍّ وجهةٌ هو مُوَلِّيها﴾، ولهذا قال هاهنا: ﴿ هم ناسِكوه﴾، أي: فاعِلُوه. فالضَّميرُ هاهنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق، أي: هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قَدَر الله وإرادته، فلا تتأثر بمنازَعَتِهم لك، ولا يَصْرِفْك ذلك عما أنت عليه من الحقِّ. ولهذا قال: ﴿ وادعُ إلى ربِّك إِنَّكَ لعلى هُدىً مُستَقيم﴾، أي: طريقٍ واضحٍ مستقيمٍ مُوَصِّلٍ إلى المقصود. وهذه كقوله: ﴿ ولا يَصُدُّنَّك عن آياتِ الله بعد إذ أُنزلت إليك وادعُ إلى ربِّك﴾.

وقولُه: ﴿ وإن جادلوك فقل الله أعلمُ بما تعملون﴾، كقوله: ﴿ وإن كذبوك فَقُل لي عَمَلي ولَكُم عَمَلُكم أنتم بريئُون مما أعمل وأنا بريءٌ مما تَعْمَلُون﴾.

وقولُه: ﴿ الله أعلمُ بما تعمَلون﴾ تهديد شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ، كقوله: ﴿ هو أعلمُ بما تُفيضون فيه كَفَى به شهيداً بيني وبينكم﴾، ولهذا قال: ﴿ الله يحكم بينكم يومَ القيامة فيما كُنتم فيه تختلفون﴾. وهذه كقوله: ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أُمرت ولا تتبع أهواءَهُم وقل آمنتُ بما أنزلَ الله من كتابٍ وأُمِرْتُ لأعدِلَ بينكم اللهُ ربُّنا وربُّكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حُجَّة بيننا وبينكم الله يجمعُ بيننا وإليهِ المَصيرُ﴾.

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

---

(١) تفسير الطبري ١٧/١٩٨.

يخبرُ تعالى عن كمال عِلمه بخَلقه، وأنه محيطٌ بما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، فلا يَعزُب عنه مثقالُ ذرّةٍ في الأرضِ ولا في السماء، ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى عَلِمَ الكائناتِ كلَّها قبل وُجُودِها، وكتبَ ذلك في كتابِه اللوحِ المحفوظِ، كما ثَبَتَ في صحيحِ مسلمٍ، عن عبد الله بن عَمرو قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إن الله قَدَّرَ مقاديرَ الخلائقِ قبل خَلْقِ السموات والأرضِ بخمسينَ ألفَ سَنةٍ، وكان عرشُه على الماءِ[1].

وفي السُّنَنِ من حَديثِ جَماعةٍ من الصَّحابةِ أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «أوّلُ ما خلَق الله القلمُ، قال له: اكتُب. قال: وما أكتُب؟ قال: اكتُبْ ما هو كائنٌ. فَجرى القلمُ بما هو كائنٌ إلى يوم القِيامَةِ[2]».

وقال ابنُ أبي حاتِم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا ابن بُكَير، حدثني ابن لَهِيعة، حدثني عطاء بن دينار، حدثني سَعيد بن جُبَير قال: قال ابنُ عبَّاسٍ: خلَق الله اللوحَ المحفوظَ كَمَسيرَةِ مائةِ عام، وقال للقلم قبل أن يَخلُقَ الخَلْقَ ـ وهو على العرش ـ تبارك وتعالى ـ: اكتُب. فقال القلم: وما أكتُب؟ قال: عِلْمي في خلقي إلى يوم تَقُومِ السَّاعة. فجرى القلمُ بما هو كائنٌ في عِلْمِ الله إلى يوم القيامة، فذلك قولُه تعالى للنبي ـ ﷺ ـ: ﴿ أَلَمْ تعلَمْ أَنَّ اللهَ يعلمُ ما في السماءِ والأرْضِ ﴾.

وهذا من تَمَام عِلْمِه تعالى أنه علم الأشياء قبل كَونها، وقَدَّرها، وكَتَبها أيضاً، فما العبادُ عامِلُون قدر علمه تعالى قبل ذلك، على الوجه الذي يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أن هذا يُطيع باختياره، وهذا يَعْصِي باختياره، وكَتَب ذلك عنده، وأحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً، وهو سَهْلٌ عليه، يَسيرٌ لديه، ولهذا قال تعالى: ﴿ إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يَسيرٌ ﴾.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن المشركين فيما جَهلوا وكَفَروا وعَبَدوا من دون الله ما لم يُنَزِّل به سُلطاناً، يعني: حُجَّةً وبُرهاناً، كقوله: ﴿ ومن يَدْعُ مع الله إلَهاً آخَرَ لا بُرهانَ له به فإنَّما حِسابُهُ عند رَبِّه إنه لا يُفلِحُ الكافِرُونَ ﴾، ولهذا قال هاهنا: ﴿ ما لم يُنَزِّل بِهِ سُلطاناً وما لَيسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ ﴾، أي: ولا علم لهم فيما اختلقُوه وائتفكُوه، وإنَّما هو أمـر تَلَقَّوه عن آبائهم وأسلافِهم، بلا دليلٍ ولا حُجَّةٍ، وأصله مما سَوَّل لهم الشيطانُ وزَيَّنه لهم، ولهذا تَوعَّدَهم تعالى بقوله: ﴿وما للظَّالمين من نصيرٍ﴾، أي: من ناصر ينصُرهم من الله، فيما يَحلُّ بهم من العذابِ والنَّكالِ.

ثم قال: ﴿ وإذا تُتلَى عليهم آياتُنا بيناتٍ ﴾، أي: وإذا ذُكِرَت لهم آياتُ القرآن والحُجَجُ والدلائلُ الواضحاتُ على توحيدِ الله، وأنه لا إلَه إلا هُو، وأنَّ رُسُلَه الكرامَ حَقٌّ وصدقٌ، ﴿ يكادون يَسْطُون بالذين يَتلُون

(١) مسلم، كتاب القدر ٢٠٤٤/٤.

(٢) سنن أبي داود، كتاب السنة ٢٢٥/٤ ـ ٢٢٦، وعارضة الأحوذي، أبواب القدر ٣١٩/٨ ـ ٣٢٠، ومسند الإمام أحمد ٣١٧/٥. وانظر تحفة الأشراف للمزّي ٢٤٦/٤.

عليهم آياتنا ﴾، أي: يكادون يُبادِرُون الذين يَحتجُّون عليهم بالدلائل الصَّحيحَةِ من القُرآن، وَيبسطُون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء! ﴿ قل ﴾، أي: يا مُحمَّدُ لهؤلاء: ﴿ أفأنبئكم بِشَرٍّ من ذلكم النارُ وَعَدَها الله الذينَ كفروا ﴾، أي: النارُ وعذابها ونكالها أشدُّ وأشقُّ وأطمُّ وأعظم مما تُخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذابُ الآخرة على صَنيعكم هذا أعظمُ مما تنالون منهم، إن نلتم بزعمكم وَإرادَتِكم.

وقوله: ﴿وبِئْس المصيرُ﴾. أي: وبئس النارُ منزلاً ومَقِيلاً ومَرجعاً ومَوئلاً ومَقاماً، ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُنبِّهاً على حَقارة الأصنام وسخَافة عُقُولِ عابديها: ﴿ يا أَيُّها الناسُ ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾، أي: لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به، ﴿ فَاستَمِعُوا له ﴾، أي: أنصِتوا وتَفهَّموا، ﴿ إنّ الذين تدعُون من دُون الله لن يَخلقُوا ذُباباً ولو اجتَمعُوا له ﴾، أي: لو اجتمَع جميعُ ما تَعبدُون من الأصنامِ والأندادِ على أن يَقدِرُوا على خلق ذُبابٍ واحدٍ ما قَدَروا على ذلك. كما قال الإمام أحمدُ:

حَدَّثنا أسودُ بن عامرٍ، حدثنا شَريك، عن عُمَارة بن القعقاع، عن أبي زُرعَةَ، عن أبي هُرَيرة ـ رفع الحديث ـ قال: «ومن أظلم ممن خَلَق كخلقي! فَلْيخلقُوا مثل خَلقي ذَرّة، أو ذُبابة، أو حَبّة»[1].

وأخرجه صاحبا الصَّحيح، من طريق عُمَارة، عن أبي زُرعَةَ، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: قال الله عزَّ وجلَّ: ومَن أظلَم ممن ذَهَب يخلُق كَخَلْقِي؟ فَلْيخلقُوا ذَرَّةً، فَلْيخلقُوا شَعِيرةً ﴾[1].

ثم قال تعالى أيضاً: ﴿ وَإِنْ يسلبْهُم الذبابُ شيئاً لا يستنقِذُوه منه ﴾، أي: هم عاجِزُونَ عن خَلْقِ ذُبابٍ وَاحِدٍ، بل أبلغ من ذلك عاجِزُونَ عن مقاومته والانتصارِ منه، لو سَلَبها[2] شيئاً من الذي عليها من الطِّيب، ثم أرادت أن تَستنقِذَه منه لَما قدَرت على ذلك. هذا والذبابُ من أضعفِ مخلوقاتِ الله وأحقرها ولهذا قال: ﴿ ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾.

قال ابنُ عباس: الطالبُ: الصَّنَم، والمطلوبُ: الذبابُ. واختاره ابنُ جَريرٍ[3]. وهو ظاهرُ السِّياق.

وقال السدِّيّ وغيره: الطالب: العابد، والمطلوب: الصنم.

ثم قال: ﴿ ما قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِه ﴾، أي: ما عَرَفوا قَدْرَ الله وعظَمَته حين عَبدُوا معه غَيرَه مِنْ هذه[4]

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢/٣٩١، وأخرجاه في كتاب اللباس، فتح الباري ١٠/٣٨٥، ومسلم ٣/١٦٧١. وفي الصحيحين قبله، قال أبو زُرْعَة: دخلتُ مع أبي هريرة داراً بالمدينة، فرأى في أعلاها مُصَوِّراً يُصَوِّر، قال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول... وذكر الحديث.
وقوله: «ذَهَب»، أي: قصد. وقوله: «كَخَلْقِي»، التشبيه في فعل الصورة وحدها لا من كلّ الوجوه. وفي فتح الباري عن ابن بطال:
«فهم أبو هريرة أن التصوير يتناول ما له ظِلٌّ وما ليس له ظِلٌّ، فلهذا أنكر ما يُنْقَش في الحيطان».

(٢) أي: الأوثان والأصنام.

(٣) تفسير الطبري ١٧/٢٠٣.

(٤) في نسخة الحرم: «من هذا الذي لا يقاوم الذباب لضعفها...».

التي لا تُقاوِم لذباب لضَعفها وعَجزها، ﴿ إن الله لقويٌّ عَزيزٌ ﴾، أي: هو القويُّ الذي بقُدرَته وقوَّته خلق كُلّ شيء، ﴿وهو الذي يبدأُ الخَلْقَ ثم يُعيده وهو أهونُ عليه﴾، ﴿إنّ بَطْشَ رَبِّك لَشَديدٌ * إنه هو يُبدِئ ويُعيد﴾، ﴿ إن الله هو الرزّاق ذُو القُوَّة المَتِينُ ﴾.

وقولُه: ﴿ عَزيزٌ ﴾، أي: قَد عَزَّ كُلَّ شيءٍ فقهَرَه وغَلَبه، فلا يُمانَعُ ولا يُغالَب، لعظمته وسُلطانه، وهو الواحد القَهَّارُ.

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ ﴾

يُخبِر تعالى أنه يختارُ من الملائكة رُسُلاً فيما يشاء من شَرعه وقَدَرِه، ومن الناس لإبلاغ رسالاته، ﴿ إن الله سميعٌ بصير ﴾، أي: سَمِيعٌ لأقوال عباده، بَصِيرٌ بهم، عَلِيمٌ بمن يستحقُّ ذلك منهم، كما قال: ﴿ الله أعلمُ حيث يجعل رِسَالاتِهِ ﴾[1].

وقولُه: ﴿ يعلَم ما بين أيديهم وما خَلْفَهم وإلى الله تُرجَعُ الأمورُ ﴾، أي: يعلم ما يفعل رُسُلُه فيما أرسلهم به، فلا يخفَى عليه من أمورهم شيءٌ، كما قال: ﴿عالم الغيب فلا يُظهِرُ على غيبِهِ أحداً * إلا من ارتَضى من رسُولٍ فإنه يَسلُكُ من بين يديه ومن خلفه رَصَداً * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربِّهم وأحاط بما لَدَيهم وأحصَى كُلَّ شيءٍ عَدَداً ﴾ فَهُو ـ سبحانه ـ رقيبٌ عليهم، شَهيدٌ على ما يُقال لهم، حافظٌ لهم، ناصرٌ لجنابهم؛ ﴿ يا أيُّها الرسولُ بَلِّغ ما أُنزلَ إليكَ من رَبِّكَ وإن لم تفعل فما بَلَّغتَ رِسالَتَه والله يَعصِمُكَ من الناس ﴾... الآية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾

اختلف العُلَماء ـ رحمهم الله ـ في هذه السجدة الثانية من سورة الحج: هل هي مشروعٌ السجودُ فيها أم لا؟ على قولين، وقد قَدَّمنا عند الأولى[2] حديث عُقبَةَ بن عامر عن رسول الله ﷺ: فُضِّلت سورةُ الحج بِسَجْدَتَين، فمن لم يسجُدهما فلا يقرأهُما.

وقولُه: ﴿ وجاهِدُوا في الله حَقَّ جِهادِهِ ﴾، أي: بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿ اتقُوا الله حق تُقاته ﴾.

وقولُه: ﴿ هو اجتباكم ﴾، أي: يا هذه الأمّة، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفَضَّلكم وشرَّفكم وخصَّكم بأكرَمِ رسُولٍ، وأكملِ شَرعٍ.

---

(١) الآية ١٢٤ من سورة الأنعام، وقد قرأ ابن كثير وحفص ﴿رسالته﴾ بالإفراد، والباقون بالجمع، انظر الإقناع لابن الباذش ٢/٦٤٣.
(٢) انظر تفسير الآية ١٨ من هذه السورة.

﴿ وما جَعَل عليكم في الدِّين من حَرَجٍ ﴾، أي: ما كَلَّفكم ما لا تُطيقون، وما أَلزمكم بشيء فَشَقَّ عليكم إلا جَعَل لكم فرجاً ومخرجاً، فالصلاةُ ـ التي هي أكبرُ أركان الإسلام بعد الشهادتين ـ تَجبُ في الحَضر أربعاً، وفي السفر تُقصَر إلى ثِنْتين، وفي الخوف يُصَلِّيها بعضُ الأئمة ركعةً، كما وَرَد به الحديث، وتُصَلِّى رِجالا وركبانا، مستقبلي القبلة وغيرَ مستقبلها. وكذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها. والقيامُ فيها يَسقُط بعذر المرض، فيصلِّيها المريض جالساً، فإن لم يستطع فَعلَى جَنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات، في سائر الفرائض والواجبات، ولهذا قال عليه السلام: «بُعِثْتُ بالحنيفيَّة السَّمحة»[1]، وقال لمعاذ وأبي موسى، حين بعثهما أميرَين إلى اليمن: «بَشِّرا ولا تُنَفِّرا، ويَسِّرا ولا تُعَسِّرا»[1]. والأحاديث في هذا كثيرة. ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حَرَج ﴾، يعني من ضيقٍ[2].

وقولُه: ﴿ مِلَّةَ أبيكم إبراهيمَ ﴾، قال ابنُ جرير: نُصِب على تقدير: ﴿ ما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾، أي: من ضيق، بل وَسَّعه عليكم كمِلَّة أبيكم إبراهيم. قال: ويَحتَمِلُ أنه منصوبٌ على تقدير: الزموا ملة أبيكم إبراهيم[3].

قلتُ: وهذا المعنى في هذه الآية كقوله: ﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قِيَماً مِلَّةَ إبراهيم حَنيفاً ﴾ . . . الآية.

وقولُه: ﴿ هو سَمَّاكم المسلمين من قبلُ وفي هذا ﴾، قال الإمام عبد الله بن المبارك، عن ابن جُرَيج، عن عطاء، عن ابن عباس في قوله: ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل ﴾، قال: الله عز وجل. وكذا قال مجاهد، وعطاء، والضحاك، والسدي، وقتادة، ومقاتل بن حَيَّان.

وقال عبد الرحمن بنُ زيد بن أسلَمَ: ﴿ هو سَمَّاكم المسلمين من قَبلُ ﴾، يعني: إبراهيم، وذلك لقوله: ﴿ ربَّنا واجعَلنا مُسلِمَين لَكَ ومن ذُرِّيتنا أمةً مسلِمَةً لَكَ ﴾.

قال ابن جرير: وهذا لا وجه له؛ لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يُسَمِّ هذه الأمة في القرآن مسلمين، وقد قال الله تعالى: ﴿ هو سماكم المسلمين من قبلُ وفي هذا ﴾، قال مجاهد: الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة، وفي الذكر، ﴿ وفي هذا ﴾، يعني القرآن. وكذا قال غيره.

قلتُ: وهذا هو الصواب، لأنه تعالى قال: ﴿ هو اجتباكم وما جَعَل عليكم في الدين من حَرَجٍ ﴾، ثم حَثَّهم وأغراهم على ما جاء به الرسول ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ بأنه مِلَّة أبيهم إبراهيمَ الخليل. ثم ذكر مِنَّته تعالى على هذه الأمة بما نَوَّه به من ذكرها، والثناء عليها في سالِفِ الدَّهر وقَديم الزمان في كتب الأنبياء، يُتلَى على الأحبار والرهبان، فقال: ﴿ هو سَمَّاكم المسلمين من قبل ﴾، أي: من قبل هذا القرآن ﴿ وفي هذا ﴾، وقد قال النسائي عند تفسير هذه الآية:

أنبأنا هشام بن عَمَّار، حدثنا محمد بن شُعَيب، أنبأنا معاوية بن سلام، أن أخاه زيد بن سَلَّام أخبره، عن أبي سَلَّام أنه أخبره قال: أخبرني الحارثُ الأشعريُّ، عن رسولِ الله ـ ﷺ ـ قال: من دعا بدَعْوى الجاهلية فإنه من جِثِيِّ جَهنَّم. قال رجلٌ: يا رسولَ الله، وإن صام وصَلَّى؟ قال: نَعَم، وإن صامَ وصَلَّى. فادعوا بدَعْوَة الله التي سَمَّاكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله.

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٨٥ من سورة البقرة، ١٥٧ من سورة الأعراف، ١٢٨ من سورة التوبة. وخرجناه هنالك.

(٢) تفسير الطبري ١٨/٢٠٦.

(٣) تفسير الطبري ١٨/٢٠٧.

وقد قدمنا[١] هذا الحديث بطوله عند تفسير قوله: ﴿ يا أيها الناسُ اعبدُوا ربَّكم الذي خَلقكم والَّذِين من تبلكم لَعلَّكم تَتَّقون ﴾ من سورة البقرة، ولهذا قال: ﴿ ليكونَ الرسولُ شهيداً عليكُم وتكونوا شُهَداء على الناس ﴾، أي: إنما جعلناكم هكذا أمة وسطاً عُدولاً خِيَاراً، مَشْهُوداً بعَدَالتكم عندَ جَميع الأمم، لتكونوا يوم القيامة ﴿شهداء على الناس﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذٍ بسيادتهم وفضلهم على كل أمة سواها، فلهذا تُقبَلُ شهادتُهم عليهم يوم القيامة في أنَّ الرسل بَلَّغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك. وقد تقدَّم الكلام على هذا عند قوله: ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسطاً لتكونوا شُهَداء على الناس ويكونَ الرسولُ عليكُم شهيداً ﴾[٢]، وذكرنا حديث نوح وأُمَّتِه بما أغنى عن إعادته.

وقولُه: ﴿ فَأَقيمُوا الصلاةَ وآتُوا الزَّكاة ﴾، أي: قابلوا هذه النعمةَ العظيمةَ بالقيام بِشُكرها، وَأَدُّوا حَقَّ الله عليكم في أداء ما افترضَ، وطاعةِ ما أوجَبَ، وتَرْكِ ما حَرَّم. ومن أَهمِّ ذلك إقامُ الصلاة وإيتاءُ الزكاة، وهو الإحسان إلى خلقِ الله بما أوجبَ للفقير على الغني، من إخراج جُزءٍ نَزْرٍ من ماله في السَّنة للضعفاء والمحاويج، كما تَقَدَّم بيانُه وتفصيلُه في آية الزكاة من «سورة التوبة»[٣].

وقولُه: ﴿ واعتصمُوا بالله ﴾، أي: اعتَضِدُوا بالله، واستَعِينُوا به، وتوكَّلُوا عليه، وتَأَيَّدُوا به، ﴿ هو مولاكم ﴾، أي: حافظُكم وناصِرُكم ومُظفِرُكم على أعدائكم، ﴿ فَنِعْمَ المولَى ونعم النَّصِيرُ ﴾، يعني نعم الوليُّ ونعم الناصرُ من الأعداء.

قال وُهَيبُ بن الوَرْدِ: يقول الله تعالى: ابنَ آدمَ، اذكرْني إذا غَضِبتَ أذكرْكَ إذا غَضِبتُ، فلا أمحقُكَ فيمن أمحَقُ وإذا ظُلِمتَ فاصبِر، وارض بِنُصرتي، فإنَّ نُصرَتي لك خَيرٌ من نُصرتِك لنفسك. رواه ابن أبي حاتم.

* * *

آخر تفسير سورة الحج. ولله الحمدُ والمنَّةُ والثناء الحسن الجميلُ، لا نُحصي ثناءً عليه

(١) أخرجه النسائي في السِّير وفي التفسير من سننه الكبرى، كما قال المزِّي في تحفة الأشراف ٣/٣. وقد تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ٢١ من سورة البقرة.
(٢) انظر تفسير الآية ١٤٣ من سورة البقرة.
(٣) الآية ٦٠ من سورة براءة.

تفسير

سُورَةُ المُؤْمِنُونَ

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ
﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرني يونس بن سُليم قال: أملى عليَّ يونس بن يزيد الأَيْلِيُّ، عن ابن شهاب، عن عُروة بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عَبْدٍ القاريِّ قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كان إذا نزل على رسول الله ـ ﷺ ـ الوحيُ يُسمَع عند وَجْهه كدَويِّ(١) النَّحلِ فمكثنا ساعةً، فاستقبل القبلةَ ورفَع يديه، فقال: اللهمَّ، زِدْنا ولا تنقُصنا، وأكرمنا ولا تُهِنَّا، وأعطِنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تُؤثِر علينا، وارضَ عنا وأرضِنا. ثم قال: لقد أُنزِلت عليَّ عشر آيات، مَنْ أقامهن دَخَل الجنة، ثم قرأ: ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ حتى ختم العَشْر.

وكذا رَوَى الترمذي في تفسيره، والنسائي(٢) في الصلاة، من حديث عبد الرزاق، به. وقال الترمذي(٣): منكر، لا نعرف أحداً رواه غير يونس بن سليم، ويونس لا نعرفه.

وقال النسائي في تفسيره: أنبأنا قُتيبة بن سعيد، حدثنا جعفر، عن أبي عمران، عن يزيدَ بن بَابَنُوسَ قال: قلنا لعائشةَ: يا أُمَّ المؤمنين، كيف كانَ خُلُق رسولِ الله ﷺ؟ قالت: كان خُلُق رسولِ الله ـ ﷺ ـ القرآن،

---

(١) الدَّوِيُّ: صوت ليس بالعالي كصوت النحل ونحوها.

(٢) مسند أحمد ١/٣٤، وعارضة الأحوذيّ، تفسير سورة المؤمنون ١٢/٣٣ ـ ٣٤، والنَّسائي في كتاب الصَّلاة من سُنَنِه الكبرى، كما في تحفة الأشراف ٨/٩٣.

(٣) لم نجد هذا القول في سُنن التِّرمِذيّ، وهو في تحفة الأشراف ٨/٩٣ منسوباً إلى النَّسائي.

فَقَرأَتْ: ﴿ قد أفلحَ المؤمنونَ ﴾، حتى انتهت إلى: ﴿ والذينَ هُم على صَلَوَاتِهِم يُحافِظُونَ ﴾، قالت: هكذا كان خلُقُ رسولِ الله ﷺ (١).

وقد رُوي عن كعب الأحبار، ومجاهد، وأبي العالية، وغيرهم: لَمّا خلقَ الله جنةَ عدن، وغَرَسها بيده، نظر إليها وقال لها: تكلمي. فقالت: ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾. قال كعب الأحبار: لِمَا أَعَدَّ لهم فيها من الكرامة. وقال أبو العالية: فأنزل الله ذَلك في كتابه.

وقد رُوي ذلك عن أبي سعيد الخدري مرفوعا، فقال أبو بكر البَزَّار:

حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا المغيرة بن سلمة، حدثنا وُهَيب، عن الجُرَيري(٢)، عن أبي نَضْرَةَ، عن أبي سعيد قال: خلق الله الجنّةَ لَبِنةً من ذَهَب ولَبِنَةً من فِضَّةٍ، وغَرَسها، وقال لها: تَكَلَّمي. فقالت: ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾، فدخلتها الملائكة فقالت: طوبى لك، مَنْزِلَ الملوك!

وقَال: وحدثنا بشر بن آدم، وحدثنا يونس بن عُبَيد الله العُمَري، حدثنا عَدِيُّ بن الفَضل، حدثنا الجُرَيري، عن أبي نَضرَةَ، عن أبي سَعيد، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: خلق الله الجنة لَبِنَةً من ذَهَب، ولَبِنَةً من فضة، ومِلَاطُها(٣) المسك.

قال أبو بكر: ورأيت في موضع آخر من هذا الحديث ـ: حَائِطُ الجنة لَبِنَةُ ذَهَبٍ ولَبِنَةُ فِضَّةٍ، ومِلَاطُها المِسْكُ. فقال لها: تَكَلَّمي. فقالت: ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾. فقالت الملائكة: طُوبى لك، منزلَ الملوكِ!

ثم قال البَزَّارُ: «لا نعلَم أحداً رفعه إلا عَدِيَّ بنَ الفضل، وليس هو بالحافظ، وهو شيخٌ مُتَقَدِّمُ المَوْتِ»(٤).

وقال الحافظ أبو القاسم الطَبَرانيُّ: حدثنا أحمد بن علي، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا بقية، عن ابن جُرَيج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال النبي ـ ﷺ ـ: لما خَلَق جنةَ عَدْنٍ خلق فيها ما لا عين رأت، [ولا أذن سمعت]، ولا خطر على قلب بشر. ثم قال لها: تكلمي. فقالت: ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾(٥).

بَقِيَّةُ عن الحجازيين ضعيف.

وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شَيْبَةَ، حدثنا مُنجَابُ بن الحارث، حدثنا حَمَّاد بن عيسى العَبْسِي، عن إسماعيل السُّدِّي، عن أبي صالح، عن ابن عباس يرفعه: لما خَلَق الله جَنَّةَ عَدْنٍ بيده، ودَلَّى فيها ثمارها. وَشقَّ فيها أنهارها، ثم نَظَر إليها فقال: ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ ـ قال: وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن المثنى البَزَّارُ، حدثنا محمد بن زياد الكَلْبي، حدثنا يعيش ابن حسين، عن سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادَةَ، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: خلَق الله جَنّة عدن بيده لَبِنَةً من دُرّة بيضاء، ولَبِنَةً من ياقوتة حمراء، ولَبِنَةً من زَبَرجَدَة خضراء، مِلَاطُها المِسكُ، وحصباؤُها اللؤلؤ، وحَشِيشها الزعفَرَان، ثم قال لها: انطقي. قالت: ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾، فقال الله:

---

(١) أخرجه النسائي في التفسير من سُنَنِهِ الكبرى، انظر تحفة الأشراف ١٢/٣٣٦.
(٢) كذا ورد السند في ابن كثير، وفي كشف الأستار: محمد بن المثنى، عن حجاج بن المنهال، عن حماد بن سلمة، عن الجُرَيري».
(٣) المِلَاطُ: الطين يُطلى به الحائط، وطين يجعل بين كل لَبِنَتَيْن.
(٤) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب صفة الجنة ٤/١٨٩ ـ ١٩٠.
(٥) المعجم الكبير ١١/١٨٤.

وعِزَّتي وجلالي لا يُجاوِرُني فيك بَخيلٌ. ثم تَلاَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ﴿ ومن يُوقَ شُحَّ نفسِهِ فأولئك هم المُفلِحُون ﴾.

فقوله تعالى: ﴿ قد أفلَح المؤمنون ﴾، أي: قد فازُوا وسَعِدوا وحَصَلُوا على الفَلاَح، وهُم المؤمنون المتَّصِفُون بهذه الأوصاف.

﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ خاشِعُون ﴾: خائِفُون ساكنون. وكذا رُوِي عن مجاهد، والحسن، وقَتادَة، والزُهريّ. وعن علي بن أبي طالب ـ رَضِي الله عنه ـ: الخشوعُ خشوعُ القلب. وكذا قال إبراهيم النَّخَعِي. وقال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخَفَضوا الجناح.

وقال محمد بن سيرين: كان أصحابُ رسول الله ـ ﷺ ـ يرفعُون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشِعُون ﴾، خفضوا أبصارهم إلى موضع سُجُودهم. قال ابن سيرين: وكانوا يقولون: لا يجاوز بصرُه مُصَلاَّه، فإن كان قد اعتاد النظر فَلْيُغمِض. رواه ابن جرير[١] وابن أبي حاتم.

ثم رَوَى ابنُ جرير عنه، وعن عطاء بن أبي رباح أيضاً مرسلاً: أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يفعل ذلك، حتى نزلت هذه الآية[١].

والخشوعَ في الصلاة إنما يحصُل لمن فَرَّغ قلبه لها، واشتغل بها عَمَّا عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحةً له وقرَّة عين، كما قال النبي ـ ﷺ ـ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي، عن أنس، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «حُبِّبَ إلَيَّ الطيبُ والنساءُ، وجُعِلت قُرَّة عيني في الصَّلاة»[٢].

وقال الإمام أحمدُ: حدَّثنا وكيع، حدثنا مِسعَرٌ، عن عَمْرو بن مُرَّة، عن سالم بن أبي الجَعد، عن رجل من أسلَمَ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: يا بلالُ أَرِحنا بالصلاة[٣].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا إسرائيل، عن عُثمان بن المغيرة، عن سالم بن أبي الجَعد، أنَّ مُحمَّد ابنَ الحَنَفيَّة قال: دَخَلتُ مع أبي على صِهْرٍ لَنا من الأنصار، فَحَضَرَتِ الصلاةُ، فقال: يا جاريةُ، ائتِني بوَضُوءٍ لعلِّي أُصلِّي فَأستريحَ. فَرآنا أنكرْنا عليه ذلك، فقال: سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: قُم يا بلالُ، فَأَرِحنَا بالصَّلاة[٤].

وقولُه: ﴿ والذين هُم عن اللَّغو مُعرضُونَ ﴾، أي: عن الباطل، وهو يشملُ الشِّرك ـ كما قاله بعضُهم ـ والمعاصِيَ ـ كما قاله آخرون ـ وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿ وإذا مَرُّوا باللَّغو مَرُّوا كِراماً ﴾.

قال قتادةُ: أتاهم ـ والله ـ من أَمْرِ الله ما وقَذَهم[٥] عن ذلك.

---

(١) تفسير الطبري ١٨/٢. والدرّ المنثور ٨٣/٦ ـ ٨٤.
(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٤ من سورة آل عمران، وخرجناه هنالك.
(٣) مسند أحمد ٣٦٤/٥.
(٤) مسند أحمد ٣٧١/٥.
(٥) الدرّ المنثور عن ابن المبارك ٨٧/٦. وَوَقَذهم: مَنَعهم.

وقولُه: ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾، الأكثرون على أنّ المراد بالزكاة هاهنا زكاةُ الأموال، مع أن هذه الآية مكية، وإنما فُرِضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة. والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات الأنصبة. والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهرُ أنّ أصل الزكاة كان واجباً بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام، وهي مكية: ﴿ وآتوا حَقَّه يوم حَصَادِهِ ﴾.

وقد يَحتَمِلُ أن يكون المرادَ بالزكاة هاهنا زكاةُ النفس من الشُرك والدنس، كقوله: ﴿ قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾، وكقوله: ﴿ وويل للمشركين * الذين لاَ يُؤتون الزكاة ﴾، على أحد القولين في تفسيرها.

وقد يَحتَمِلُ أن يكونَ كِلا الأَمرين مُراداً، وهو زكاةُ النفوس وزكاةُ الأموال؛ فإنه من جُملة زكاةِ النفوس، والمؤمنُ الكاملُ هو الذي يتعاطَى هذا وهذا، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ والذين هم لفروجهم حافِظُون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير مَلُومين ﴾، أي: والذين قد حَفِظوا فروجهم من الحرام، فلا يَقَعون فيما نهاهم الله عنه من زناً أو لِواطٍ، ولاَ يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم، وما ملكت أيمانهم من السراري، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حَرَج، ولهذا قال: ﴿ فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك ﴾، أي: غير الأزواج والإماء، ﴿ فأولئك هم العادون ﴾، أي: المعتدُون.

وقال ابنُ جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا سعيد، عن قتادة: أن امرأة اتخذت مملوكها، وقالت: تَأَوَّلْت آيَة من كتاب الله: ﴿أو ما ملكت أيمانهم﴾، فأُتِيَ بها عُمَرَ بنَ الخَطّاب فقال له ناسٌ من أصحاب النبيِّ ـ ﷺ ـ: تَأَوَّلَتْ آيَةً من كتابِ الله على غيرِ وَجْهِهَا. قال: فَغَرَّب العبدَ وجَزَّ رأسَه، وقال: أَنْتِ بعدَه حَرَامٌ على كُلِّ مسلمٍ.

هذا أَثَرٌ غريبٌ منقطع، ذَكَره ابنُ جرير في أول تفسير سورةِ المائدة[1]، وهو هاهنا أَلْيَقُ، وإنما حَرَّمَها على الرجالِ معاملةً لها بنقيضِ قَصْدِها، والله أعلم.

وقد استدلَّ الإمامُ الشافعيُّ ـ رحمه الله ـ ومن وافقَه على تحريم الاستمناءِ باليدِ بهذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿ والذين هم لِفُروجهم حافِظُونَ * إلَّا على أزواجهم أو ما مَلَكت أيمانُهم ﴾، قال: فهذا الصنيعُ خارجٌ عن هذين القسمين، وقد قال: ﴿ فمن ابتغَى وراءَ ذلك فأولئك هم العادُون ﴾. وقد استأنسوا بحديثٍ رَوَاه الإمامُ الحَسَن بن عَرَفَةَ في جُزئه المشهور حيث قال:

حدثني علي بن ثابت الجَزَرِيّ، عن مسلمة بن جعفر، عن حسان بن حُمَيد[2]، عن أنس بن مالك، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا يجمعهم مع العاملين، ويدخلهم النار أول الداخلين، إلا أن يتوبوا، فمن تاب تاب الله عليه: ناكح يده، والفاعل، والمفعول به، ومدمن الخمر، والضارب والديه حتى يستغيثا، والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه، والناكح حليلة جاره».

هذا حديث غريب، وإسنادُه فيه مَن لا يُعرَف؛ لجهالته، والله أعلم.

وقولُه: ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدِهم راعُون ﴾، أيْ: إذا اؤْتُمِنوا لم يَخُونوا، بل يُؤَدُّونها إلى أهلها،

---

(١) تفسير الطبري، الآية الخامسة من سورة المائدة ١٠٦/٦.

(٢) في نسخة الحرم: حسان بن أحمد. والصواب ما أثبت، انظر ميزان الاعتدال ١٠٨/٤. وجُزْءَ الحَسَن بنِ عَرَفَةَ ٦٤.

وإذا عاهَدُوا أو عاقَدُوا أوفَوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «آية المنافقِ ثلاث إذا حَدَّث كَذَب، وإذا وَعَد أخلَفَ، وإذا اؤتُمِنَ خانَ»[(١)].

وقوله: ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾، أي: يواظبون عليها في مواقيتها، كما قال ابن مسعود: «سألت النبي ـ ﷺ ـ فقلت: يا رسولَ الله، أيّ العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: الصلاةُ على وقتها، قلت: ثم أي؟ قال: برُّ الوالدين. قلت: ثم أي: قال: الجهاد في سبيل الله.

أخرجاه في الصحيحين[(٢)]. وفي مستدرك الحاكم قال: الصلاة في أول وقتها[(٢)].

وقال ابن مسعود، ومَسروقٌ في قوله: ﴿ والذين هم على صَلَواتهم يُحافِظُونَ ﴾، يعني: مواقيتَ الصلاةِ. وكذا قال أبو الضُحَى، وعلقمة بن قَيس، وسَعِيد بن جُبَير، وعِكْرِمَة. وقال قتادةُ: على مواقيتها ورُكُوعها وسُجُودها.

وقد افتتح الله ذكر هذه الصفاتِ الحَميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة، فدل على أفضليتها، كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ: استقيموا ولن تُحصُوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يُحافظ على الوُضوءِ إلا مؤمن[(٣)].

ولمّا وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعالِ الرَّشيدة قال: ﴿أولئك هم الوارثون * الذين يَرثُون الفِرْدَوس هم فيها خالدون ﴾. وثبت في الصحيحين أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفِرْدَوس، فإنه أعلَى الجنة وأوسطُ الجَنَّةِ، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ، وفوقَهُ عرشُ الرحمن[(٤)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سِنانٍ، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالحٍ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: ما منكم من أحد إلا وله مَنْزِلان: منزلٌ في الجَنّة ومنزل في النار، فإن مات فدخل النارَ وَرِثَ أهلَ الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾[(٥)].

وقال ابن جُرَيج، عن ليثٍ، عن مجاهدٍ: ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾، قال: ما من عبد إلا وله منزلان، منزلٌ في الجنة، ومنزلٌ في النار، فأما المؤمن فيُبنَى بيته الذي في الجنة، ويُهدَم بيته الذي في النار، وأما الكافر فيُهدَم بيته الذي في الجنة، ويُبنَى بيتهُ الذي في النار. وَرُوِي عن سعيد بن جُبَير نحوُ ذلك.

فالمؤمنون يرثون منازل الكفار؛ لأنهم خُلِقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجَبَ عليهم من العبادة، وتَرَك أولئك ما أمِرُوا به مما خُلقوا له ـ أحرزَ هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل، بل أبلغ من هذا أيضاً، وهو ما ثبت في صحيح مسلم، عن أبي بُرْدَةَ بن أبي موسى، عن أبيه، عن

(١) تقدّم الحديث في غير موضع، وخرجناه هنالك، انظر تفسير الآية ١٧٧، ٢٠٤ من سورة البقرة، ٧٧ من سورة التوبة، ٢٥ من سورة الرعد.

(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢٣٨ من سورة البقرة، ١٥١ من سورة الأنعام، وخرجناه هنالك. وهو في المستدرك، كتاب الصلاة ١٨١/١.

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطهارة ١٠١/١.

(٤) تقدّم الحديث عند تفسير الآية ١٣٣ من سورة آل عمران، ١٠٧ من سورة الكهف. وقد انفرد به البخاريّ كما في تحفة الأشراف ٢٧٨/١٠.

(٥) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ١٤٥٣/٢، والطبري في تفسيره ١٨/٥ـ٦.

النبي ـ ﷺ ـ قال: «يجيء يومَ القيامة ناسٌ من المسلمين بذُنوبٍ أمثالِ الجِبالِ، فيغفرها الله لهم، ويَضَعُها على اليهودِ والنصَارَى»[١].

وفي لفظٍ له قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إذا كان يومُ القيامة دَفَع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً، فيقال: هذا فَكَاكُكَ من النار». فاستحلف عُمَر بن عبد العزيز أبا بُردةَ بالله الذي لا إلّه إلا هو ـ ثلاث مرات ـ أن أباه حَدّثه عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: فحلف له[٢].

قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ تلك الجنة التي نُورث من عبادنا من كان تقياً ﴾، وكقوله: ﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾. وقد قال مجاهد، وسعيد بن جُبير: الجنة بالرومية هي الفردوس. وقال بعض السلف: لا يسمى البستان فردوساً إلا إذا كان فيه عنب[٣]. فالله أعلم.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن ابتداءِ خَلْقِ الإنسان من سُلالة من طينٍ ـ وهو آدمُ عليه السلام ـ خَلَقه الله من صَلصال من حَمَإٍ مسنُون.

وقال الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن أبي يحيى، عن ابن عباس: ﴿ من سلالة من طين ﴾، قال: صَفوةُ الماء. وقال مجاهد: ﴿ من سلالة ﴾، أي: من منيّ آدم. قال ابنُ جَرير: وإنما سمى آدم طيناً لأنه مخلوقٌ منه[٤].

وقال قتادة: استُلّ آدمُ من الطِّينِ. وهذا أظهر في المعنى، وأقرب إلى السياق، فإن آدم ـ عليه السلام ـ خُلِق من طينٍ لازبٍ، وهو الصَّلْصَال من الحمَإِ المسنون، وذلك مخلوق من التراب، كما قال تعالى: ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سَعيد، حدَّثنا عوفٌ، حدثنا قَسامة بن زُهير، عن أبي مُوسَى، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن الله خَلَق آدمَ من قَبْضةٍ قَبَضَها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قَدْر الأرض، جاء منهم الأحمرُ والأسودُ والأبيضُ، وبَيْنَ ذلك، والخبيثُ والطيِّبُ، وبَيْنَ ذلك»[٥].

وقد رَواه أبو داودَ والترمذي، من طُرُق، عن عَوفٍ الأعرابي، به نحوه. وقال الترمذيّ: حسن صحيح[٥].

﴿ ثم جعلناه نطفةً ﴾: هذا الضمير عائد على جنس الإنسان، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهينٍ ﴾، أي: ضعيفٍ، كما قال: ﴿ ألم نخلُقكم من ماء

---

(١) مسلم، كتاب التوبة ٤/٢١٢٠.
(٢) مسلم، الكتاب السابق ٤/٢١١٩.
(٣) المعرّب للجواليقي ٢٨٨ ـ ٢٨٩.
(٤) تفسير الطبري ١٨/٨.
(٥) مسند أحمد ٤/٤٠٠، ٤٠٦. وسنن أبي داود، كتاب السنة ٤/٢٢٢، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة البقرة ١١/٧٥ ـ ٧٧.

مهين * فجعلناه في قرارٍ مكين﴾، يعني: الرَّحِمُ مُعَدٌّ لذلك مُهَيَّأً له، ﴿إلى قَدَر معلوم * فقدرنا فنعم القادرون ﴾. أي: مُدَّةٍ معلومة وأجَلٍ مُعَيَّن حتى استحكم وتنَقَّل من حال إلى حال، وصفة إلى صفة، ولهذا قال هاهنا: ﴿ ثم خلقنا النطفة علقة ﴾ أي: ثم صَيَّرنا النطفة ـ وهي الماء الدافق الذي يخرُج من صُلْب الرجل، وهو ظهره، وترائب المرأة، وهي عظامُ صَدْرِها ما بين الترقُوَة إلى الثَّنْدُوَة[1] ـ فصارت علقة حمراءَ على شكل العَلَقة مستطيلة. قال عكرمة: وهي دَمٌ. ﴿ فخلقنا العَلَقَةَ مُضغَةً ﴾، وهي قطعة كالبَضعة من اللحم، لا شكلَ فيها ولا تخطيطَ، ﴿ فخلقنا المضغةَ عظاماً﴾، يعني: شكلناها ذات رأس ويَدين ورجلين بعظامها وعَصَبها وعُروقها. وقرأ آخرون: ﴿فخلقنا المضغة عظماً﴾[2]. قال ابن عباس: وهو عَظْمُ الصُّلب. وفي الصحيح، من حديث أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: كُلُّ جَسَدِ ابنِ آدمَ يَبْلَى إلا عَجْبُ الذَّنَبِ، منه خُلِقَ ومنهُ يُرَكَّب[3].

﴿ فكسونا العظامَ لحماً ﴾، أي: وجعلنا على ذلك ما يستُره ويشده[4] ويُقوِّيه، ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخَرَ ﴾، أي: ثم نفخنا فيه الروحَ، فتحرك وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا جعفرُ بن مسافر، حدثنا يحيى بن حسان، حدثنا النضر ـ يعني ابن كثير، مولى بني هاشم ـ حدثنا زيدُ بن علي، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: إذا تَمَّت للنطفةِ أربعةُ أشهر بُعِث إليها مَلَك فَنَفخ فيها الروحَ في الظلمات الثلاثِ، فذلك قوله: ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾، يعني: نفخنا فيه الروحَ[5].

ورُوي عن أبي سعيد الخُدريِّ أنه نَفْخُ الروح.

قال ابنُ عباس: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخَرَ﴾، يعني نَفَخْنا فيه الروحَ. وكذا قال مجاهدٌ، وعكرمةُ، والشعبيُّ، والحسنُ، وأبو العاليةِ، والضحاكُ، والربيع بن أنس، والسُّدِّيُّ، وابنُ زيدٍ. واختاره ابنُ جرير[6].

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾، يعني: نَنقُله من حالٍ إلى حالٍ، إلى أن خَرَج طفلاً، ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم، ثم صار شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً هَرِماً. وعن قتادة، والضحاك نحوُ ذلك. ولا منافاةَ، فإنه من ابتداءِ نَفخ الروح فيه شرَعَ في هذه التنقلات والأحوال. والله أعلم.

قال الإمامُ أحمدُ في مُسنَده: حدثنا أبو معاويةَ، حدثنا الأعمشُ، عن زيدِ بن وَهْبٍ، عن عبد الله ـ هو ابنُ مسعودٍ ـ قال: حدثنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ وهو الصادقُ المصدوقُ: «إنَّ أحدَكُم لَيُجمع خَلْقُه في بطن أمه في أربعين يوماً، ثم يكونُ علقةً مثلَ ذلك، ثم يكون مضغةً مثلَ ذلك، ثم يُرسَلُ إليه الملكُ فينفُخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: رزقِه، وأجلِه، وعَمَلِهِ، وهل هو شقي أو سعيد. فوالذي لا إله غيره إنَّ أحدَكُم لَيعمَلُ بَعمَلِ أهلِ

---

(١) الثُّندوةُ: لحم الثدي.
(٢) قال ابن الباذِش في الإقناع ٢/٧٠٨ (عَظْماً) و (العَظْم)، مُوَحّدان: أبو بكر وابن عامر.
(٣) أخرجه الشيخان، فتح الباري، تفسير سورة (عَمَّ يتساءلون) ٨/٦٨٩ ـ ٦٩٠، ومسلم، كتاب الفتن ٤/٢٢٧٠ ـ ٢٢٧١ وَعَجْبُ الذَّنَبِ: أصله، وهو العظم اللطيف الذي في أسفل الصلب.
(٤) في نسخة الحرم: ويسنده.
(٥) الدرّ المنثور ٦/٩٣.
(٦) تفسير الطبري ١٨/١١.

الجنّة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذِرَاع، فيسبق عليه الكتابُ، فَيُختم له بعمل أهل النار فَيدخلها، وإنَّ الرجل لَيعملِ بعَمَلِ أهل النارِ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتابُ فَيُختَم له بعَملِ أهلِ الجنة، فيدخُلُها». أخرجاه من حديث سليمانَ بن مِهْرَان الأعمش[1].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن خَيْثَمَةَ قال: قال عبد الله ـ يعني ابنَ مسعود ـ إن النُطفَة إذا وقَعت في الرَحِم طارت في كل شَعَرٍ وظُفُرٍ، فتمكث أربعينَ يوماً، ثم تَنْحَدِرُ في الرَحِم فتكون علقةً[2].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا حُسَين بن الحسن، حدثنا أبو كُدَينة، عن عَطَاء بن السائب، عن القاسم ابن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله قال: مَرّ يهودي برسول الله ـ ﷺ ـ وهو يحدِّث أصحابَه، فقالت قُرَيش يا يهوديُّ، إن هذا يَزعُم أنه نبيٌّ. فقال: لأسألنّه عن شيءٍ لا يعلَمُه إلا نبيٌّ. قال: فجاءه حتى جلس فقال: يا محمدُ، ممّ يُخلَق الإنسانُ؟ فقال: يا يهوديُّ، مِن كُلٍّ يُخلَقَ، من نُطفة الرجل ومن نطفة المرأة، فأما نُطْفةُ الرجل فَنُطفةٌ غليظة منها العظم والعَصَب، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدمُ. فقام اليهوديُّ فقال: هكذا كان يقول من قبلك[3].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا سفيان، عن عمرو، عن أبي الطُّفَيل، عن حُذَيفَةَ بن أَسيدٍ الغِفَارِيِّ قال: سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ: يدخُل الملَكُ على النُطفَة بعد ما تستقرُّ في الرَحِم بأربعين ليلةً، فيقول: يا ربِّ ماذا؟ أشقي أم سعيد؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله فَيكتُبان. [4]‹فيقولان: ماذا؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله ـ عز وجل ـ فيكتبان›[4] ويُكتَبُ عملُه، وأثرُه، ومُصيبته، ورزقُه، ثم تُطوَى الصحيفةُ، فلا يُزاد على ما فيها ولا يُنقَصُ»[5].

وقد رواه مسلم في صحيحه، من حديث سفيان بن عُيَينة، عن عمرو ـ وهو ابن دينار ـ به نحوَه. ومن طُرُق أخرَى، عن أبي الطفيل عامر بن واثلة، عن حُذَيفة بن أَسِيدٍ أبي سَريحةَ الغفاري بنحوه، والله أعلم[*].

وقال الحافظُ أبو بكر البزّارُ: حدثنا أحمد بنُ عَبْدَةَ، حدثنا حَمَّاد بنُ زيد، حدثما عُبَيد الله بنُ أبي بكر، عن أَنَس أَنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: إن الله وَكَّلَ بالرَحِم مَلَكاً فيقولُ: أَيْ ربِّ، نطفةٌ. أيْ ربِّ، عَلَقَةٌ. أيْ رب، مضغَةٌ. فإذا أراد الله خَلْقَها قالَ. يا ربِّ. ذكرٌ أو أنثى؟ شَقِيٌّ أو سَعِيد؟ فما الرِّزقُ والأجلُ؟ قال: فذلك يُكتَبُ في بَطْنِ أُمِّه. أخرجاه في الصحيحين من حديث حماد بن زيد[6]، به.

وقولُه: ﴿ فَتبارك الله أحسنُ الخالقين ﴾، يَعني: حين ذَكر قُدرَته ولُطفَه في خَلْق هذه النطفة من حالٍ إلى حالٍ، وشَكْلٍ إلى شكل، حتى تَصَوَّرت إلى ما صَارت إليه من الإنسان السَّوِيّ الكاملَ الخلق، قال: ﴿ فَتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونُس بن حبيب: حدثنا أبو داود، حدثنا حَمَّاد بن سَلَمة، حدثنا علي بن زيد،

---

(١) مسند أحمد ١/٣٨٢، وفتح الباري، كتاب الأنبياء ٦/٣٦٣، ومسلم، كتاب القدر ٤/٢٠٣٦.
(٢) الدرّ المنثور ٦/٩١.
(٣) مسند الإمام أحمد ١/٤٦٥.
(٤ ـ ٤) عن المسند.
(٥) مسند أحمد ٤/٦ ـ ٧، ومسلم، كتاب القدر ٤/٢٠٣٧.
(٦) فتح الباري، كتاب الحيض ١/٤١٨، ومسلم، كتاب القدر ٤/٢٠٣٨.

عن أنس، قال: قال عُمَر ـ يعني ابن الخطاب، رضي الله عنه ـ: وافقت ربِّي ووافقني في أربع: نزلت هذه الآية ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾، فلما نَزَلَتْ قلت أنا: فتبارك الله أحسن الخالقين، فنزلت: ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[1].

وقال أيضاً: حدثنا أبي: حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شيبان، عن جابر الجُعفي، عن عامر الشعبي، عن زيد بن ثابت الأنصاري قال: أملى عَلَيَّ رسولُ الله ـ ﷺ ـ هذه الآية: ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ إلى قوله: ﴿ خلقاً آخر ﴾، فقال معاذ: ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾، فضحك رسولُ الله ﷺ. فقال له معاذ: مِمَّ ضحكتَ يا رسولَ الله؟ قال: بها خُتِمَت ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾.

جابر بن يزيد الجُعْفيّ ضعيف جداً، وفي خبره هذا نَكارة شديدة، وذلك أن هذه السورة مكية، وزيد بن ثابت إنما كتب الوحي بالمدينةِ، وكذلك إسلامُ معاذِ بن جَبَلٍ إنما كان بالمدينةِ أيضاً، فالله أعلم.

وقولُه: ﴿ ثمَّ إنَّكم بعد ذلك لَمَيِّتون ﴾، يعني بعد هذه النشأة الأولى من العدم تَصِيرون إلى الموت، ﴿ ثم إنكم يوم القيامة تُبعَثُون ﴾، يعني النشأة الآخرة، ﴿ ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ﴾، يعني يومَ المَعَاد، وقيامَ الأرواح والأجساد، فَيُحاسب الخلائِقَ، ويُوفّى كلُّ عامِلٍ عَمَله، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرٌّ.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

لما ذكرَ تعالى خَلْقَ الإنسان، عَطَف بذكر خلق السموات السبع. وكثيراً ما يذكر تعالى خَلْق السموات[3] والأرض مع خلق الإنسان، كما قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السمواتِ والأرض أكبرُ من خَلْقِ الناس ﴾. وهكذا في أول ﴿ الۤمۤ ﴾ السجدة، التي كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يقرأ بها في صبيحة يوم الجمعة، في أولها خَلْق السموات والأرض، ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين، وفيها أمرُ المعادِ والجزاءِ وغير ذلك من المقاصد.

فقولُه: ﴿ سبع طرائق ﴾، قال مجاهد: يعني السموات السبع. وهذه كقوله تعالى: ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴾، ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبعَ سموات طباقاً ﴾، و﴿ الله الذي خَلَق سبعَ سَمٰواتٍ ومن الأرض مثلَهُنَّ يتنزل الأمر بينهُنَّ لتعلَمُوا أن الله على كلِّ شيءٍ قدير وأن الله قد أحاطَ بكلِّ شيءٍ عِلْماً ﴾: وهكذا قال ها هنا: ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبعَ طرائق وما كنا عن الخلق غافلين﴾، أي: و ﴿يعلم ما يلِجُ في الأرض وما يخرُج منها وما ينزل من السماء وما يَعرُج فيها وهو معكم أينما كُنتم والله بما تعملون بصير﴾. وهو ـ سبحانه ـ لا يَحجبُ عنه سماءٌ سماءً، ولا أرضٌ أرضاً، ولا جبلٌ إلا يعلم ما في وَعْره، ولا بحرٌ إلا يعلم ما في قَعْره، يعلم عَدَد ما في الجبال والتِلاَل والرِمَالِ، والبِحَارِ، والقِفَار والأشجار، ﴿ وما تسقُط من ورقة إلا يعلمها ولا حبَّةٍ في ظلمات الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابسٍ إلا في كتابٍ مُبينٍ ﴾.

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ

---

(١) أخرجه أيضاً أبو داود الطيالسي في مسنده ٩ ـ ١٠، وابن مردويه، وابن عساكر، انظر الدر المنثور ٦/٩٤.
(٢) أخرجه أيضاً ابن راهويه وغير واحد، الدر ٦/٩٤.
(٣) في نسخة الحرم: «خلق السموات السبع مع خلق الإنسان».

لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده التي لا تعدّ ولا تحصى، في إنزاله القَطْر من السماء ﴿ بِقَدَرٍ ﴾، أي: بحسب الحاجة، لا كثيراً فَيُفسِدُ الأرضَ والعمران، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار، بل بِقَدْرِ الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به، حتى إنّ الأراضي التي تحتاج ماء كثيراً لزرعها ولا تحمل دِمْنَتُها[1] إنزالَ المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلادٍ أخرى، كما في أرض مصر، ويقال لها: «الأرضُ الجُرُز»، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها، فيأتي الماءُ يحملُ طيناً أحمَرَ، فَيَسقِي أرضَ مصر، وَيُقِرُّ الطين على أرضهم ليزدَرِعوا فيه. لأن أرضهم سباخٌ يغلِبُ عليها الرمال، فَسُبحان اللطيفُ الخَبير الرَّحيم الغفور!

وقولُه: ﴿ فأسكنَّاه في الأرضِ ﴾، أي: جعلنا الماء إذا نَزَل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابليَّةً له، تشرَبه ويتغذَّىَ به ما فيها من الحبِّ والنَّوَى.

وقولُه: ﴿وإنَّا على ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُون﴾، أي: لو شئنا ألّا تُمطِر لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى السباخ والبراري و[البحار][2] والقِفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أُجاجاً لا يُنتَفَع به لِشُربٍ ولا لِسَقي لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض، بل يَنْجَرُّ على وجهها لفعلنا. ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يَغُور إلى مَدًى لا تَصِلُون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا. ولكن بلطفه ورَحمته يُنزِل عليكم الماء من السحاب عذباً فراتاً زلالاً، فيسكنه في الأرض ويَسْلُكُه ينابيعَ في الأرض، فَيُفَجِّرُ العيونَ والأنهارَ، فيسقِي به الزروعَ والثمارَ، وتشرَبُون منه ودوابكم وأنعامكم، وتَغْتَسِلُونَ وَتَغسِلُون، وتتطهَّرُون وتُتنظَّفونَ، فله الحمدُ والمِنَّةُ.

وقولُه: ﴿فأنشأنا لَكُم به جنَّاتٍ من نَخيلٍ وَأعنابٍ﴾، يعني فَأخرجنا لكُم بما أنزلنا من الماء ﴿جناتٍ﴾. أي: بساتينَ وحدائِقَ ذاتَ بهجةٍ، أي: ذاتَ منظرٍ حَسَنٍ.

وقولُهُ: ﴿ من نَخيلٍ وأعنابٍ ﴾، أي: فيها نخيلٌ وأعنابٌ، وهذا ما كان يألَف أهلُ الحجاز، ولا فرق بين الشيء وبين نَظيره، وكذلكَ في حَق كل أهل إقليم، عندهم من الثمار من نِعَم الله عليهم ما يَعجِزون عن القيام بشكره.

وقولُه: ﴿ لكم فيها فواكه كثيرةٌ ﴾، أي: من جميع الثمار، كما قال: ﴿ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ﴾.

وقولُه: ﴿ ومنها تأكلون ﴾ كأنه معطوف على شيء مقدر، تقديره: تنظُرون إلى حُسنه ونُضجه، ومنه تأكلون.

وقولُه: ﴿ وشجرةً تخرُج من طُور سَيناء ﴾، يعني الزيتونة. والطور: هو الجبلُ. وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عَرِي عنها سُمّي جَبَلًا لا طَوراً. والله أعلم. وطور سَيناء: هو طور سينين، وهو الجبل الذي كَلَّمَ الله عليه موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ وما حوله من الجبال التي فيها شَجر الزيتون.

وقولُه: ﴿ تُنْبِتُ[3] بالدُّهنِ ﴾، قال بعضُهم: الباءُ زائدةٌ، وتقديره: تُنبِتُ الدهنَ، كما في قول العرب: ألقى

(١) يعني: التُّربَةُ.
(٢) من نسخة الحرم.
(٣) ضبطنا الفعل بضم التاء وكسر الباء، لأن التخريج التالي على هذه القراءة، وهي تنسب إلى ابن كثير وأبي عمرو من السبعة، انظر الإقناع =

فلان بيده أي: يَدَه. وأما على قول من يُضمِّن الفعل فتقديره: تَخرُج بالدهن، أو تأتي بالدّهن[١]. ولهذا قال: ﴿ وصبغ ﴾، أي: أُدْمٍ، قاله قتادة: ﴿ للآكلين ﴾، أي: فيها ما يُنْتفع به من الدهن والاصطباغ، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وكيع، عن عبد الله بن عيسى، عن عطاء الشامي، عن أبي أسيد ـ واسمه مالك بن ربيعة الساعدي الأنصاري ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كُلُوا الزيتَ وادَّهِنُوا به؛ فإنه من شَجَرةٍ مُبارَكةٍ»[٢].

وقال عبد بن حُميد في مُسنَده وتَفسيره: حدثنا عبد الرزَّاق، أخبرنا معمَر، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عُمَر أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ائتَدِمُوا بالزَيتِ وادَّهِنُوا به، فإنه يَخرُج من شَجَرةٍ مُباركةٍ».

ورواه الترمذي وابنُ ماجه من غير وجه، عن عبد الرزَّاق، قال الترمذيُّ: ولا يُعرَف إلا من حديثه، وكان يَضطرب فيه، فربما ذكر فيه عُمَر، وربما لم يذكره[٣].

قال أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبي، حدثنا سفيان بن عُيَينة، حدثني الصَّعْبَ[٤] بن حكيم بن شريك بن نَمْلَة، عن أبيه، عن جَدِّه. قال: ضِفْتُ عُمَر بن الخطاب ليلةً، فأطعمني كُسُوراً[٥] من رأس بعيرٍ بارد، وأطعمنا زيتاً، وقال: هذا الزيتُ المباركُ الذي قال الله لنبيه ﷺ[٦].

وقولُه: ﴿وإنَّ لكم في الأنعام لعبرة نُسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون * وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾، يذكر تعالى ما جَعَل لِخَلْقِهِ في الأنعام من المنافع، وذلك أنهم يشرَبون من ألبانها الخارجة من بين فَرْث ودَم، ويأكُلون من حُمْلانها، ويَلْبَسُون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويركَبون ظهورها، ويُحمِّلونها الأحمالَ الثِّقالَ إلى البلاد النائيةِ عنهم، كما قال تعالى: ﴿ وتحملُ أثقالكم إلى بَلَدٍ لم تكونوا بالغِيه إلا بشِقّ الأنفس إن ربَّكم لرءوف رحيم ﴾، وقال تعالى: ﴿ أوَلم يروا أنا خَلَقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون * وذَلَّلناها لهم فمنها ركُوبُهم ومنها يأكلون * ولهم فيها منافعُ ومشارِبُ أفلا يَشكرُونَ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

يخبر تعالى عن نوح ـ عليه السلام ـ حين بعثه إلى قومه لِيُنذرهم عذابَ الله وبأسه الشديد، وانتقامَه ممّن أشرَكَ به، وخَالف أمْرَه وكَذَّب رُسُله، ﴿ فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرُه أفلا تَتّقون ﴾، أي: ألا تخافون من الله في إشراككم به؟! فقال الملأ ـ وهم السادة والأكابرُ منهم ـ: ﴿ ما هذا إلا بشر مثلُكم يريد أن

= لابن الباذش ٢/٧٠٨، وروح المعاني للألوسي ١٨/٢٢.

(١) الباء على هذا التقدير أصلية لا زائدة، وهي معدّية للفعل المضمن. وانظر فيما تقدّم تفسير الآية ٢٥ من سورة الحج.

(٢) مسند أحمد ٣/٤٩٧.

(٣) أخرجاه في كتاب الأطعمة، عارضة الأحوذي ٨/٤٢ ـ ٤٣، وابن ماجه ٢/١١٠٣.

(٤) في نسخة الحرم: المصعب بن حكيم.

(٥) في نسخة الحرم: عسوراً. وفي أخرى: عاسوراً. والمثبت عن المعجم الكبير.

(٦) المعجم الكبير ١/٧٤.

يتفضل عليكم ﴾، يعنون: يَترفَّعُ عليكم ويتعاظَمُ بدعوى النبوة، وهو بَشَرٌ مثلكم. فكيفَ أُوحِيَ إليه دونكم؟ ﴿ ولو شاء الله لأنزل ملائكةً ﴾. أي: لو أراد أن يبعث نبياً لبَعَثَ مَلَكاً من عنده ولم يَكُن بشراً! ﴿ما سَمِعنا بهذا﴾، أي: بِبَعْثِهِ البشرَ ﴿في آبائنا الأولين﴾. يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم والأمم[1] الماضية.

وقولُه: ﴿ إن هو إلا رجلٌ به جنّة ﴾، أي: مجنونٌ فيما يزعمه، من أنَّ الله أرسله إليكم، واختصَّه من بينكم بالوحي، ﴿فتربَّصُوا به حتى حِين﴾، أي: انتظروا به ريبَ المنُونِ، واصبِرُوا عليه مُدّةً حتى تستريحُوا منه.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن نوح ـ عليه السلام ـ أنه دعا ربَّهُ يستنصره على قومه، كما قال تعالى مخبراً عنه في الآية الأخرى: ﴿ فدعا ربَّه أني مغلوبٌ فانتصر ﴾، وقال هاهنا: ﴿ ربِّ انصُرني بما كَذَّبونِ ﴾، فعند ذلك أمرَه الله تعالى بِصَنْعة السفينة وإحكامِها وإتقانِها، وأن يَحملَ فيها من كُلِّ زوجَين اثنين، أي: ذَكَراً وأنثى من كُلِّ صِنْفٍ من الحيوانات والنباتاتِ والثِمارِ وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿ إلّا من سبق عليه القولُ منهم ﴾، أي: سبقَ فيه القولُ من الله بالهلاك، وهُم الذين لم يُؤمنوا به من أهله، كابنه وزوجَتِه، والله أعلم.

وقولُه ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظَلَمُوا إنَّهم مُغرَقون ﴾، أي: عند مُعاينة إنزال المطر العظيم، لا تأخُذَنَّك رأفةٌ بقومك، وشفقةٌ عليهم، وطَمَعٌ في تأخيرهم لَعلَّهم يؤمنون، فإني قد قَضيتُ أنهم مُغرَقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان. وقد تَقَدَّمت القصةُ مبسوطةً في «سورة هود»[2] بما يُغنِي عن إعادة ذلك هاهنا.

وقولُه: ﴿ فإذا استويتَ أنتَ ومن معكَ على الفُلك فقُل الحمدُ لله الذي نَجّانا من القوم الظّالِمينَ ﴾، كما قال: ﴿ وجَعَلَ لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمةَ ربِّكم إذا استويتُم عليه وتقولوا سبحانَ الذي سَخَّر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربِّنا لمُنقَلِبُون ﴾. وقد امتثل نوحٌ ـ عليه السلام ـ هذا، كما قال تعالى: ﴿ وقال اركبُوا فيها بِسم الله مجراها ومرساها ﴾. فذَكر الله تعالى عند ابتداءِ سيره وعند انتهائه، وقال تعالى: ﴿ وقُل ربِّ أنزلني مُنزَلاً مُباركاً وأنت خيرُ المنزلين ﴾.

وقولُه: ﴿ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ ﴾. أي: إن في هذا الصنيع، وهو إنجاءُ المؤمنين وإهلاكُ الكافرين، ﴿ لآيات ﴾، أي: لَحُججاً ودَلالاتٍ واضحاتٍ على صِدْقِ الأنبياء فيما جاءُوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعلٌ لما يشاء، وقادرٌ على كلِّ شيء، عليمٌ بكلِّ شيء.

وقولُه: ﴿ وإنْ كنّا لَمُبْتَلينَ ﴾، أي: لمختَبِرين للعباد بإرسالِ المرسلين.

﴿ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ

(١) في نسخة الحرم: والدهور الماضية.
(٢) انظر تفسير الآيات ٢٥ ـ ٤٨ من سورة هود.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

يُخبِرُ تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قَرْناً آخرين، قيل: المرادُ بهم عادٌ؛ فإنهم كانوا مُستَخْلَفين بعدهم. وقيل: المراد بهؤلاء ثمودُ، لقوله: ﴿ فأخذتهم الصيحةُ بالحق ﴾ ـ وأنه تعالى أرسل فيهم رسولا منهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحدَه لا شريكَ له، فكَذَّبوه وخالَفُوه، وأَبَوا من اتِّباعِه لِكَونِه بَشراً مثلهم، واستنكفوا عن اتِّباعِ رسولٍ بشريٍّ، فكَذَّبوا بلقاء الله في القيامةِ، وأنكَرُوا المَعادَ الجُثمانيَّ، وقالوا: ﴿ أَيَعِدُكم أنَّكم إذا مِتُّم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون ۞ هيهات هيهات لما تُوعَدُون ﴾، أي بعيدٌ بعيدٌ ذلك. ﴿ إن هو إلا رجلٌ افترى على الله كَذِباً ﴾، أي: فيما جاءكم به من الرسالة والنِّذارة والإخبار بالمَعاد، ﴿ وما نحن له بمؤمنين ۞ قال ربِّ انصُرني بما كَذَّبونِ ﴾، أي: استفتح عليهم الرسولُ واستنصَر ربَّه عليهم، فأجاب دُعاءَه، ﴿ قال عمَّا قليلٍ لَيُصبِحُنَّ نادمين ﴾، أي: بمخالفتك وعِنادِك فيما جئتهم به، ﴿ فأخذتهم الصيحةُ بالحقِّ ﴾، أي: وكانوا يَستحِقُّون ذلك من الله لِكُفْرِهم وطغيانهم.

والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحةٌ مع الريح الصَّرصر العاصف القويّ الباردة، ﴿ تُدَمِّر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يُرَى إلا مَساكِنهم ﴾.

وقولُه: ﴿ فجعلناهم غُثاءً ﴾، أي: صَرْعَى هَلْكَى كغُثاء السَّيل، وهو: الشيءُ الحقير التافهُ الهالك الذي لا يُنتفَعُ بشيءٍ منه. ﴿ فبعداً للقوم الظالمين ﴾، كقوله: ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾، أي: بِكُفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله. فَلْيحذَر السامعون أن يُكَذِّبوا رسولَهم.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قُروناً آخرينَ ﴾، أي: أُمماً وخلائِقَ، ﴿ ما تَسبِقُ من أُمَّةٍ أَجَلَها وما يستأخرونَ ﴾، يعني: بل يُؤخَذُونَ حَسَبَ ما قَدَّر لهم تعالى في كتابه المحفوظِ وعِلْمِهِ قبل كَوْنِهم، أُمَّةً بعد أُمةٍ، وقرناً بعد قرنٍ، وجيلاً بعد جيلٍ، وخَلَفاً بعد سلف.

﴿ ثم أرسلنا رسلنا تَتْرا ﴾، قال ابن عباس: يعني يَتْبَعُ بعضُهم بعضاً[1]. وهذه كقوله تعالى: ﴿ ولقد بعثنا في كلِّ أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهُم من هَدَى الله ومنهم من حَقَّت عليه الضلالةُ ﴾.

وقولُه: ﴿ كُلَّما جاء أمةً رسولُها كَذَّبوه ﴾، يعني: جُمهورَهم وأكثرَهم، كقوله تعالى: ﴿ يا حسرةً على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءُون ﴾.

---

(١) تفسير الطبري ١٨/٢٣.

وقولُه: ﴿ فأتبعنا بعضهم بعضاً ﴾، أي: أهلكناهم. كقولِهِ: ﴿ وكَم أهلكنا من القرونِ من بعد نُوحٍ ﴾. ﴿ وجعلناهم أحاديثَ ﴾، أي: أخباراً وأحاديث للناس، كقولِهِ: ﴿ فجعلناهم أحاديث وَمَزَّقناهم كل مُمزَّقٍ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

يخبر تَعالى أنه بَعَث رسولَه موسى ـ عليه السلام ـ وأخاه هارونَ إلى فِرْعَونَ ومَلَئِه بالآياتِ والحُجَج الدامغات، والبراهين القاطعات، وأَنَّ فرعونَ وقومه استكبَرُوا عن اتباعهما، والانقيادِ لأمرهما، لكونهما بَشرين، كما أنكرتِ الأممُ الماضيةُ بَعْثَةَ الرسُل من البشر، تَشَابهَتْ قلوبُهم، فأهلك الله فرعونَ ومَلأه، وأغرقَهُم في يوم واحدٍ أجمعين، وأنزل على موسى الكتاب ـ وهو التوراةُ ـ فيها أحكامُه وأوامرُه ونواهيه، وذلك بعد ما قَصَم الله فِرْعَون والقبطَ، وأخذهم أخذَ عزيزٍ مُقتَدِرٍ. وبعد أن أنزل الله التوراة لم يُهلِك أمةً بعامَّةٍ، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعدما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكَّرون ﴾.

ثم قال تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن عبدِه ورسُولِه عيسىابن مريم ـ عليهما السلام ـ أنه جعلهما آيةً للناس، أي: حجةً قاطعةً على قُدرتِهِ على ما يشاء، فإنه خَلَق آدمَ من غير أبٍ ولا أمٍ، وخَلَقَ حَوَّاءَ من ذَكَرٍ بلا أُنثى، وخَلَق عيسى من أُنثى بلا ذَكَرٍ، وخَلَق بقيَّةَ الناسِ من ذَكَرٍ وأنثى.

وقولُه: ﴿ وآويناهُما إلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرَارٍ ومَعِينٍ ﴾، قال الضحاك، عن ابن عباسٍ: الرَّبْوةُ: المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات. وكذا قال مجاهد، وعكرمةُ، وسعيد بن جُبَيرٍ، وقتادة.

قال ابن عباس: وقولُه: ﴿ ذاتِ قَرَارٍ ﴾، يقولُ: ذاتِ خصبٍ ﴿ ومَعينٍ ﴾، يعني ماءً ظاهراً[١]، وقال مجاهدٌ: رَبْوَة مستوية. وقال سعيد بن جُبَير: ﴿ ذاتِ قرارٍ ومَعِينٍ ﴾، استوى الماء فيها. وقال مجاهد وقتادة: ﴿ ومعينٍ ﴾: الماءِ الجاري.

ثم اختلف المُفَسِّرون في مكانِ هذه الربوة في أيِّ أرض هي؟ فقال عبدُ الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ: ليس الرُّبى إلا بمصر. والماءُ حين يُرسَلُ يكونُ الرُّبَى عليها القُرَى، ولولا الرُّبَى غَرِقت القُرَى[٢].

ورُوِي عن وَهب بن مُنَبِّهٍ نحوُ هذا[٣]. وهو بعيدٌ جداً.

---

(١) الدرّ المنثور ٦/١٠٠ عن ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم، انظر الدرّ المنثور ٦/١٠٠.

(٣) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن عساكر. الدرّ المنثور ٦/١٠٠.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيدَ المقرِئ، حدثنا سفيان، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيِّب في قوله تعالى: ﴿وَآوَيناهما إلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَـرارٍ ومَعِين﴾، قال: هي دمشقُ.

قال: ورُوي عن عبد الله بن سلام، والحَسَن، وزيد بن أسلَم، وخالد بن مَعْدانَ نحوُ ذلك.

وقال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا أبو سعيدٍ الأشجُّ، حدثنا وكيعٌ، عن إسرائيلَ، عن سِماكٍ، عن عِكْرِمَةَ، عن ابن عباس: ﴿ ذاتِ قرارٍ ومَعِين ﴾، قال: أنهار دمشق.

وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿ وآويناهُما إلى رَبْوَةٍ ﴾، قال: عيسى ابنُ مَريم وأُمّه، حين أويا إلى غَوْطَة دِمشقَ وما حولها(١).

وقال عبد الرزّاق، عن بشر بن رافع، عن أبي عبد الله ابن عَمِّ أبي هُرَيرة، قال: سَمِعتُ أبا هريرة يقول: في قوله: ﴿ إلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ ومَعِين ﴾، قال: هي الرَملَةُ من فِلَسْطِينَ(٢).

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف الفِرْيابي، حدثنا روَّاد بن الجرَّاح، حدثنا عَبّاد بن عَبّاد الخوَّاصُ أبو عُتبة، حدثنا السَّيباني، عن ابن وَعْلَةَ، عن كُرَيبٍ السَّحُولي، عن مُرَّة البَهْزِيِّ قال: سَمِعتُ النبي - ﷺ - يقول لرجل: إنك تموتُ بالرَّبوَة. فمات بالرَّملَة. وهذا حديثٌ غريبٌ جداً.

وأقربُ الأقوال في ذلك ما رواه العَوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وآويناهما إلى رَبْوَةٍ ذات قرار ومَعِين﴾، قال: المَعين الماء الجاري، وهو النهر الذي قال الله تعالى: ﴿قد جَعَل رَبُّك تحتك سرياً﴾(٣). وكذا قال الضحاك، وقتادة: ﴿ إلى ربوة ذات قرار ومَعِين ﴾ هو بيت المقدس. فهذا والله أعلم هو الأظهر؛ لأنه المذكور في الآية الأخرى، والقرآن يفسر بعضه بعضاً. وهو أولى ما يُفسَّر بهِ، ثُمَّ الأحاديث الصحيحة، ثم الآثار.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

يأمر تعالى عبادَه المرسلين - عليهم الصلاةُ والسلام أجمعينَ - بالأكل من الحلال. والقيام بالصَالِح من الأعمال. فدَلَّ هذا على أنَّ الحلال عَونٌ على العمل الصالح، فقام الأنبياء - عليهم السلام - بهذا أتَمَّ القيام، وجَمَعوا بين كل خير، قولاً وعملاً، ودلالةً ونصحاً، فَجزاهم الله عن العباد خَيراً.

قال الحسَنُ البصريُّ في قوله: ﴿ يا أيها الرسلُ كُلوا من الطيبات ﴾، قال: أمَا والله ما أُمِروا بأصفركم ولا أحمركم، ولا حُلوكم ولا حَامِضِكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه. وقال سعيد بن جبير، والضحاك: ﴿ كلوا من الطيبات ﴾، يعني: الحلال. وقال أبو إسحاق السَّبيعي، عن أبي مَيسَرَةَ عَمْرو بن شُرَحبيل: كان عيسى ابنُ مريم يأكلُ من غَزْل أُمِّه.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، الدرّ المنثور ٦/١٠٠.

(٢) تفسير الطبري ١٨/٢٦، وأخرجه غير واحد كما في الدر ٦/١٠١.

(٣) أخرجه الطبري أيضاً في تفسيره ١٨/ ٢٧ وانظر الدر ٦/١٠١.

وفي الصَحِيح : ما من نَبيٍّ إلا رَعَى الغَنَم. قالوا: وأنتَ يا رسولَ الله؟ قال: نعم، كنتُ أرعاها على قَراريطَ لأهل مكة(١). وفي الصحيح: «إن داود ـ عليه السلام ـ كان يأكُلُ من كسب يده»(٢).

وفي الصَّحِيحَين: «إنَّ أَحَبَّ الصيام إلى الله صيامُ داودَ، وأحبَّ القيام إلى الله قيامُ داودَ، كان ينام نصفَ الليل، ويقومُ ثُلثَه وينامُ سُدسَه، وكانَ يصومُ يوماً ويُفطِرُ يوماً، ولا يَفِرُّ إذا لاقَى»(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو اليمان الحَكَم بن نافع، حدثنا أبو بكر بن أبي مريم، عن ضَمْرَة بن حبيب: أنَّ أم عبد الله، أُختَ(٤) شَدَّادِ بن أوس بَعَثَ إلى النبي ـ ﷺ ـ بقَدح لبن عند فِطْره وهو صائم، وذلك في طول(٥) النهار وشدة الحر، فردَّ إليها رسولها: أنَّى كانت لك الشاة؟ فقالت: اشتريتُها من مالي. فَشَرب منه، فلما كان من الغد أتته أم عبد الله أخت(٤) شَدَّاد فقالت: يا رسول الله، بعثتُ إليك بلبنٍ مَرْثيةً(٦) لك من طُولِ النهار وشدَّةِ الحرِّ، فَرَدَدتَ إليَّ الرسولَ فيه؟! فقال لها: بِذَلِكَ أُمِرت الرسلُ، ألَّا تأكلَ إلا طَيِّباً، ولا تعمَلَ إلَّا صَالِحاً(٧).

وقد ثبت في صحيح مسلم، وجامع الترمذي، ومسند الإمام أحمد ـ واللفظُ له ـ من حديث فُضَيل بن مَرزُوقٍ، عن عَديِّ بن ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: يا أيهاالناسُ،إنَّ الله طيبٌ لا يقبلُ إلا طَيِّباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أَمَر به المرسلين، فقال: ﴿ يا أيها الرسل كُلوا من الطيِّباتِ واعمَلُوا صالحاً إني بما تعملونَ عليم ﴾، وقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كُلُوا من طَيِّباتِ ما رَزَقناكم ﴾. ثم ذكر الرجلَ يُطِيل السفَرَ أشعث أغبر، ومطعَمُه حرامٌ، ومَشْرَبُه حَرَامٌ، ومَلْبَسُه حَرَامٌ، وغُذِيَ بالحرام، يَمُدُّ يَدَيه إلى السماءِ: يا ربِّ. فأنَّى يستجاب لذلك»؟!.

وقال الترمذيُّ: «حَسَن غريبٌ، لا نَعرِفه إلا من حديث فُضيل بن مَرْزُوقٍ»(٨).

وقولُه: ﴿ وإنَّ هذه أمتكم أمة واحدة ﴾، أي: وإنَّ دينكم ـ يا معشر الأنبياء ـ دينٌ واحدٌ، ومِلَّةٌ واحدَةٌ، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له. ولهذا قال: ﴿ وأنا ربكم فاتقونِ ﴾، وقد تقدَّم الكلامُ على ذلك في سورة الأنبياء، وأن قوله ﴿ أُمَّةً واحدة ﴾ منصوب على الحال(٩).

وقولُه: ﴿ فَتَقطَّعوا أَمْرَهم بينَهم زُبُراً ﴾(١٠)، أي: الأُمَم التي بُعث إليهم الأنبياء، ﴿ كلُّ حِزْبٍ بما لَدَيهم فَرِحُون ﴾، أي: يَفرَحُون بما هُم فيه من الضَلال لأنهم يحسَبون أنهم مهتدون، ولهذا قال مُتهدِّداً لَهم ومُتوعِّداً ﴿ فَذَرهم في غَمْرَتهم ﴾ أي: في غَيِّهم وضلالهم ﴿ حتى حين ﴾، أي: إلى حين حَينهم وهلاكهم، كما قال

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإجارة ٤٤١/٤.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب البيوع ٣٠٣/٤.
(٣) فتح الباري، كتاب الأنبياء ٤٥٥/٦، ومسلم، كتاب الصيام ٨١٦/٢.
(٤) في النسخ: بنت. والمثبت عن مصادر التخريج.
(٥) في النسخ: أول النهار، والمثبت عن هامش نسخة الحرم، والمستدرك.
(٦) أي: توجُّعاً لك وإشفاقاً.
(٧) أخرجه الحاكم في مستدركه بإسناده إلى أبي بكر بن أبي مريم، به. المستدرك، كتاب الأطعمة ١٢٥/٤ ـ ١٢٦، وأخرجه ابن الأثير في أسد الغابة، في ترجمة أم عبدالله أخت شداد. وفي الدرّ المنثور ١٠٢/٦ أن الإمام أحمد أخرجه في الزهد، وكذلك ابن مَرْدُويه.
(٨) مسلم، كتاب الزكاة ٧٠٢/٢، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة البقرة ١١٠/١١، ومسند الإمام أحمد ٣٢٨/٢.
وقد تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ١٧٢ من سورة البقرة.
(٩) سورة الأنبياء، الآية ٩٢.
(١٠) زُبُراً: جمع زَبُور، وهي: الفرقة والطائفة. والمعنى: فِرَقاً وقِطَعاً مختلفةً.

تعالى: ﴿ فمهِّل الكافرين أمهلهم رُوَيداً ﴾، وقال تعالى: ﴿ ذَرْهم يأكلُوا ويتمتَّعُوا ويُلْهِهم الأملُ فسوف يَعْلَمُون ﴾.

وقولُه: ﴿أيحسَبُون أنما نُمِدُّهم به من مال وبنين * نُسارع لهم في الخيرات بل لا يَشعُرون﴾، يعني: أيظنُّ هؤلاء المغرورون أن ما نُعطيهم من الأموال والأولاد لِكَرامتهم علينا ومَعَزَّتهم عندنا؟! كَلاَّ، ليس الأمرُ كما يزعُمون في قولهم: ﴿ نحن أكثرُ أموالاً وأولاداً وما نحن بمُعذَّبين ﴾، لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجاؤُهم، بل إنما نفعلُ بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاءً، ولهذا قال: ﴿ بل لا يشعُرون ﴾، كما قال تعالى: ﴿ فلا تُعجبك أموالهم ولا أولادُهم إنما يُريد الله لِيُعذِّبهم بها في الحياة الدنيا وتزهَقَ أنفسُهم وهم كافرون ﴾. وقال تعالى: ﴿ إنما نُملي لهم ليزدادُوا إثماً ﴾، وقال تعالى: ﴿ فَذَرني ومن يُكَذِّب بهذا الحديث سَنَسْتَدرِجُهم من حيثُ لا يعلَمُون * وأُملِي لهم إن كَيدِي مَتِينٌ﴾، وقال: ﴿ذَرْني ومن خلقتُ وَحِيداً * وجعلتُ له مالاً ممدوداً * وبَنِينَ شهوداً * ومَهَّدتُ له تمهيداً * ثم يطمَعُ أن أزيد * كلا إنه كان لآياتنا عنيداً﴾، وقال تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تُقرِّبكم عندنا زُلفى إلاَّ مَن آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاءُ الضِعفِ بما عَمِلوا وهُم في الغرفات آمنون﴾، والآيات في هذا كثيرةٌ.

قال قتادةُ في قوله: ﴿أيحسَبُون أنما نُمِدُّهم به مالٍ وبنين * نُسارع لهم في الخيرات بل لا يَشعُرونَ﴾، قال: مُكر ـ والله ـ بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابنَ آدم، فلا تَعتَبر الناسَ بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتَبْرهم بالإيمان والعمل الصالح.

وقال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا محمد بن عُبَيد، حدثنا أبانُ بن إسحاق، عن الصبّاح بن مُحَمَّدٍ، عن مُرَّةَ الهَمْدانِيِّ، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم. وإنَّ الله يعطي الدنيا من يُحِبُّ ومن لا يُحِبّ، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فَمَن أعطاه الله الدين فقد أحبه. والذي نفسي بيده، لا يُسلِمُ عبدٌ حتى يَسْلَم قلبه ولسانه، ولا يُؤمِنُ حتى يأمنَ جارُه بوائِقَه. قالوا: وما بوائقه يا نَبيَّ الله؟ قال: غَشْمُه وظُلْمه ـ ولا يكسِبُ عبدٌ مالاً من حَرَام فينفِقَ منه فيبارَكُ له فيه، ولا يَتَصدَّقُ به فيُقبلَ منه، ولاَ يتركه خَلْفَ ظهره إلا كان زادَه إلى النار، إنَ الله لا يمحُو السيِّءَ بالسَّيِّءِ، ولكن يمحُو السيِّءَ بالحَسَنِ، إن الخبيثَ لا يمحُو الخبيثَ»[1].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ إنَّ الذينَ هُم من خَشية ربِّهم مشفقون ﴾، أي: هم مع إحسانهم وإيمانهم وعَمَلهم الصَّالح مُشفِقونَ مِنَ الله، خائِفُون منه، وَجِلون مِن مَكْرِهِ بهم، كما قال الحَسَنُ البَصريُّ: إن المؤمِنَ جَمَع إحساناً وشَفَقة، وإنَّ المنافق جَمَع إساءة وأمناً[2].

﴿ والذين هم بآياتِ ربِّهم يُؤمِنون ﴾، أي: يؤمنون بآياته الكَونية والشَرعيَّة، كقوله تعالى إخباراً عن

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢٦٧ من سورة البقرة، ١١٤ من سورة هود، وخرجناه هنالك. وسيأتي عند تفسير الآية ٨٢ من سورة القصص.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم، تفسير الطبري ١٨/٣٢، والدرّ المنثور ٦/١٠٥.

مريم ـ عليها السلام ـ: ﴿ وصَدَّقت بكَلِمات ربِّها وكُتُبه ﴾، أي: أيقنت أن ما كانَ فإنما هو عن قدَرِ الله وقَضائِه، وما شَرَعه الله فـهو إن كان أمراً فمما يُحبُّهُ ويَرْضاه، وإن كان نهياً فهو مما يكرَهُه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حقٌّ، كما قال الله تعالى: ﴿ والذين هم بِرَبِّهم لا يشركون ﴾، أي: لا يعبدون مَعَه غيره، بل يُوَحِّدُونه ويَعلَمُون أنه لا إلَه إلا الله، أحداً صمداً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نَظِير له ولا كُفْءَ له.

وقولُه: ﴿ والذين يُؤتون ما آتوا وقلوبُهم وَجِلةٌ أنهم إلى رَبِّهم راجعون ﴾، أي: يُعطُون العَطَاء وهم خائفون وَجِلُون ألَّا يُتقبَّلَ منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصَّروا في القيام بشروط الإعطاء. وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك بن مِغْوَل، حَدَّثنا عبد الرحمن بن سعيد بن وَهب، عن عائشة أنها قالت: يا رسولَ اللهِ، ﴿الذين يُؤتُون ما آتوا وقلوبُهم وَجِلة﴾، يا رسولَ الله، هو الذي يَسرِقُ ويَزني ويشرَبُ الخمرَ، وهو يخافُ الله عز وجل؟ قال: لا يا بنت أبي بكر، يا بنتَ الصِدِّيق، ولكنه الذي يُصَلِّي ويصومُ ويَتَصدَّق، وهو يخاف الله عَزَّ وجَلَّ[(١)].

وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم، من حديث مالك بن مِغْوَلٍ، به بنحوه. وقال لا يا بنتَ الصديقِ، ولكنهم الذين يُصَلّون ويصوُمون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم، ﴿ أولئك يسارعون في الخيرات ﴾، قال الترمذي: «ورُوي هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن سعيد، عن أبي حازِم، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ نَحْوَ هذا»[(١)]. وهكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب القُرَظي، والحسنُ البصري في تفسير هذه الآية.

وقد قرأ آخرون هذه الآية: ﴿ والذين يَأْتون ما أَتوا وقُلُوبهم وَجِلَة ﴾[(٢)]، أي: يفعلون ما يفعلون وهم خائفون، ورُوي هذا مرفوعاً إلى النبي ـ ﷺ ـ أنه قرأ كذلك:

قال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثنا عفَّانُ، حدثنا صَخرُ بن جُوَيرِيَة، حدثنا إسماعيلُ المَكِي، حدثني أبو خَلَفٍ مولى بني جُمَح: أنه دخل مع عُبَيد بن عُمَير على عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقالت: مرحباً بأبي عاصم[(٣)]، ما يمنعُك أن تزورَنا ـ أو: تُلِمَّ بنا ـ؟ فقال: أَخْشَى أن أُمِلَّكِ. فقالت: ما كنت لتفعلَ؟ قال. جِئتُ أسألُكِ عن آية في كتاب الله عز وجل، كيف كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يقرؤُها؟ فقالت: أيَةُ آيةٍ؟ فقال: ﴿ الذين يُؤتُون ما آتوا ﴾ أو ﴿ الذين يَأْتون ما أتوا ﴾؟ فقالت: أيتُهما أحبُّ إليك؟ قلتُ: والذي نفسي بيده، لإحداهما أحبُّ إليَّ من الدنيا جميعاً ـ أو: الدنيا وما فيها ـ قالت أيّتهما؟ قلت: ﴿ الذين يَأْتون ما أَتوا ﴾. فقالت: أشهدُ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ كذلك كات يقرؤها، وكذلك أُنزلَت، ولكن الهجاء حرف[(٤)].

إسماعيل بن مُسلِم المكي ضعيفٌ.

والمعنى على القراءة الأولى ـ وهي قراءة الجمهور السبعة وغيرهم ـ أظهر، لأنه قال: ﴿أولئك يسارعون

---

(١) مسند الإمام أحمد ١٥٩/٦، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة المؤمنون ٣٩/١٢ ـ ٤١.

(٢) في روح المعاني ٤٤/١٨: «وقرأت عائشة وابن عباس، وقتادة، والأعمش، والحسن، والنخعي ﴿يأتون ما أتوا﴾، من الإتيان لا من الإيتاء... وأطلق عليها المفسّرون قراءة رسول الله عليه الصلاة والسلام، يعنون أن المحدِّثين نقلوها عنه ـ ﷺ ـ ولم يروها القراء من طرقهم».

(٣) في المسند بعده: «يعني عبيد بن عمير».

(٤) مسند أحمد ٩٥/٦.

في الخيرات وهم لها سابقون﴾، فجعلهم من السابقين. ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك ألاَّ يكونوا من السابقين، بل من المقتصدين أو المُقصِّرين، والله تعالى أعلم.

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

يقولُ تعالى مخبراً عن عدله في شَرعه على عباده في الدنيا: أنه لا يُكَلِّف نفساً إلا وُسْعَها، أي: إلا ما تُطيق حمله والقيامَ به، وأنه يومَ القيامة يُحاسِبُهم بأعمالهم التي كَتَبها عليهم في كتاب مَسطُورٍ لا يَضِيع منه شَيءٌ، ولهذا قال: ﴿ ولدينا كتاب ينطِقُ بالحق ﴾، يَعني: كتابَ الأعمال، ﴿ وهم لا يُظلَمون ﴾، أي: لا يُبخَسُون من الخير شيئاً، وأما السيِّئاتُ فيعفو ويَصفَحُ عن كثير منها لعباده المؤمنين.

ثم قال منكراً على الكُفَّار والمشركين من قريش: ﴿ بل قلوبُهم في غَمرةٍ ﴾، أي: غَفْلَةٍ وضَلالَةٍ ﴿ من هذا ﴾، أي: القرآنِ الذي أنزلَه على رَسُوله ﷺ.

وقولُه: ﴿ ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملُون ﴾، قال الحكَمُ بن أبانَ، عن عِكْرِمةَ، عن ابن عباس: ﴿ ولهم أعمال ﴾، أي: سَيِّئة من دُون ذلك، يعني الشِرْكَ، ﴿ هم لها عاملون ﴾، قال: لابُدَّ أن يعملوها(١). وكذا رُوِي عن مجاهدٍ، والحسَنِ، وغير واحدٍ.

وقال آخرون: ﴿ ولهم أعمال من دُون ذلك هم لها عاملون ﴾، أي: قد كُتِب عليهم أعمالٌ سيئة لا بدَّ أن يعملوها قبل مَوْتِهم لا محالة، لِتَحِقَّ عليهم كلمةُ العَذاب. ورُوِي نحوُ هذا عن مقاتِل بن حَيَّان، والسدِّيِّ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلَم. وهو ظاهرٌ قويٌّ حَسَنٌ. وقد قَدمنا في حديث ابن مسعود: «فوالذي لا إلَه غيره، إن الرجُلَ ليعمَلُ بعمَل أهلِ الجنَّة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذِراعٌ، فَيسبِقُ عليه الكتابُ، فيَعمَلُ بِعَمَلِ أهلِ النَّارِ، فيدخُلُها»(٢).

وقولُه: ﴿حتى إذا أخذنا مُترَفيهم بالعَذاب إذا هم يجأَرُون﴾، يعني حتى إذا جاءَ مترفيهم ـ وهم السعداء المنعَّمون في الدنيا ـ عذابُ الله وبأسُه ونقمتُه بهم ﴿ إذا هم يَجأَرُون ﴾ أي: يَصرُخون ويَستغيثُون، كما قال تعالى: ﴿﴿وذَرْني والمكذِّبين أولي النعمة ومَهِّلهم قليلاً * إنَّ لَدَينا أنكالاً وجَحيماً * وطعاماً ذا غُصَّةٍ وعَذاباً أليماً﴾. وقال تعالى: ﴿كم أهلكنا من قبلهم من قَرْن فَنادَوا ولاتَ حينَ مناصٍ﴾.

وقولُه: ﴿ لا تَجأَروا اليوم إنَّكم منا لا تُنصَرُون ﴾، أي: لا نُجيركم مما حلَّ بكم، سواء جَأَرتم أو سكَتُّم، لا مَحيدَ ولا مَناصَ ولا وَزَرَ، لَزِم الأمرُ، وَوَجبَ العذابُ.

ثم ذكر أكبر ذُنوبهم فقال: ﴿ قد كانت آياتي تُتلى عليكم فكنتُم على أعقابكم تَنكِصُون ﴾، أي: إذا دُعِيتُم أبيتُم، وإذا طُلِبتُم امتنعتم؛ ﴿ ذلكم بأنه إذا دُعِي الله وحده كفرتُم وإن يُشرَك به تؤمنوا فالحُكم لله العليِّ الكَبير ﴾.

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. الدرّ المنثور ٦/١٠٧.
(٢) انظر تفسير الآية ١٤ من هذه السورة.

وقولُه: ﴿ مستكبرين به سامِراً تهجُرون ﴾، في تفسيره قولان، أحدهما: أن ﴿ مستكبرين ﴾ حال منهم حين نُكُوصهم عن الحق وإبائِهم إياه، استكباراً عليه واحتقاراً له ولأهله. فعلى هذا الضَّميرُ في ﴿ بِهِ ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدُهـا: أنَّه الحرَمُ بمكة، ذُمُّوا لأنهم كانوا يسمرون به بالهُجْر من الكلام.

والثاني: أنَّه ضميرُ القرآن، كانوا يسمُرون ويذكُرون القرآن بالهُجرِ من الكلام: «إنه سحرٌ، إنه شعرٌ، إنه كهانةٌ». إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة.

والثالثُ: أنَّه محمدٌ ـ ﷺ ـ كانوا يذكُرونه في سَمَرهم بالأقوال الفاسدة، ويضربون الأمثال الباطلة، من أنَّه شاعر، أو كاهنٌ، أو ساحرٌ، أو كذابٌ، أو مجنونٌ. وكلُّ ذلك باطلٌ، بل هو عبدُ الله ورسولُه، الذي أظهره الله عليهم، وأخرجَهُم من الحَرَم صاغِرين أذِلَّاءَ.

وقيل: المراد بقوله: ﴿ مستكبرين به ﴾، أي: بالبيت، يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه ولسْتُم به[1]، كما قال النَّسائي في التفسير من سُنَنِهِ:

أخبرنا أحمدُ بن سليمان، أخبرنا عُبَيد الله، عن إسرائيل، عن عبد الأعلى، أنه سَمِعَ سعيد بن جُبير يُحَدِّث عن ابن عباس أنه قال: إنما كُرِه السمرُ حين نَزَلت هذه الآيةُ: ﴿ مستكبرين به سامراً تهجُرون ﴾، فقال مستكبرين بالبيت، يقولون: نحن أهلُه، ﴿ سامراً ﴾، قال: يَتكبَّرون ويَسمُرونَ فيه ولا يَعمرُونَه: يَهجُرونه[2].

وقد أطنبَ ابنُ أبي حاتمٍ ها هُنا بما هذا حاصِلُه[3].

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ
جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ
بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ
لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم
مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

يقولُ تعالى منكراً على المشركين في عَدَمِ تَفَهُّمهم للقرآن العظيم وتَدَبُّرهم له وإعراضِهم عنه، مع[4] أنهم قد خُصُّوا بهذا الكتاب الذي لم يُنزل الله على رسولٍ أكملَ منه ولا أشرفَ، لا سيما آباؤُهم الذين ماتوا في

(١) في نسخة الأزهر: ولستم بهم. والمثبت عن نسخة الحرم.

(٢) أخرجه النسائي في التفسير من سننه الكبرى، انظر تحفة الأشراف ٤/٤٢٣ ـ ٤٢٤. وكذلك ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم وصححه، انظر المستدرك، تفسير سورة المؤمنون ٢/٣٩٤، والدرّ المنثور ٦/١٠٩.

(٣) هذا ونَصْبُ (سامراً) على الحال، وهو اسم جمع كالحاجّ والحاضر والجامل والباقر. وقيل: هو مصدر وقع حالاً، فهو يشمل القليل والكثير باعتبار أصله. ومجيءُ المصدر على وزن فاعل نادرٌ، ومنه: العافيةُ والعاقبةُ. وفَسَّر بعضهم السَّامِر بالليل المظلم، وجعله منصوباً بما بعده على نزع الخافض. يقول الألوسي: «وليس بشيء». وقرأ ابن مسعودٍ وابنُ عباسٍ، وغير واحدٍ: (سُمَّراً) جمع سامرٍ. وقرأ ابنُ عباسٍ أيضاً وغيره: (سُمَّاراً) جمع سامر كذلك. وهما جمعان مقيسان. انظر روح المعاني ١٨/٤٩ ـ ٥٠، وتفسير الطبري ١٨/٣٩.

(٤) أم في قوله تعالى: ﴿أم جاءهم﴾ للإضراب والانتقال من التوبيخ بعدم التدبُّر إلى بيان ما خصَّهم الله به.

الجاهلية، حيث لم يبلغهم كتابٌ ولا أتاهم نذيرٌ، فكان اللائقُ بهؤلاء أن يُقابِلُوا النعمةَ التي أسداها الله إليهم بقَبُولِها، والقيامِ بشكرها وتفهّمِها، والعَمَلِ بمقتضاها آناءَ الليل وأطرافَ النهار، كما فعله النُّجَباءُ منهم مِمَّن أَسلَمَ واتَّبع الرسولَ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ ورَضِي عنهم.

وقال قتادةُ: ﴿ أفلم يدَّبروا القولَ ﴾: إذاً والله يَجِدُون في القرآن زَاجِراً عن مَعْصِيَةِ الله لو تَدَبَّره القومُ وعَقَلوه، ولكنهم أَخَذُوه بما تَشَابه، فَهَلَكُوا عند ذلك.

ثم قال مُنكراً على الكافرين من قريش: ﴿ أم لم يَعرفوا رسولَهُم فهم له منكرون ﴾، أي: أَفَهُم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانته التي نشأ بها فيهم، أفيقدرون على إنكار ذلك والمُبَاهَتَة فيه[1]؟ ولهذا قال جعفر ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ للنجاشي ملك الحبشة: «يأيها الملكُ، إنَّ الله بَعَث إلينا رَسُولاً نعرفُ نَسَبه وصِدْقَه وأمانَتَه»[2]. وهكذا قال المغيرة بن شُعبة لنائب كسرى حين بارَزَهم[3]. وكذلك قال أبو سُفيان صخرُ بن حرب لملك الروم هِرقَل حينَ سأله وأصحابَه عن صفات النبي ـ ﷺ ـ ونَسَبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعدُ كفاراً لم يسلموا، ومع هذا ما أمكنهم إلا الصدقُ فاعترفوا بذلك[4].

وقوله: ﴿ أم يقولون به جِنَّةٌ ﴾، يَحْكِي قولَ المشركين عن النبي ـ ﷺ ـ أنه تَقَوَّل القرآن، أي: افتراه من عنده، أو أَنَّ به جُنوناً لا يَدْرِي ما يقول. وأخبر عنهم أَنَّ قلوبهم لا تُؤمِنُ به، وهم يَعلمُون بُطلان ما يقولونه في القرآن، فإنه قد أتاهم مِنْ كلام الله ما لا يُطاق ولا يدافَع، وقد تحدّاهم وجميعَ أهلِ الأرض أن يَأْتُوا بمثله، فما استطاعوا ولا يستطيعون أبد الآبدين، ولهذا قال: ﴿ بل جاءهم بالحقِّ وأكثرهم للحق كارهون ﴾: يَحتَمِلُ أن تكون هذه جملة حالية، أي: في حال كراهة أكثرهم للحق، ويَحتمِلُ أن تكون خبرية مستأنفة، والله أعلم.

وقال قتادة: ذُكر لنا أن نَبيَّ الله ـ ﷺ ـ لقي رجلا فقال له: أَسْلِمْ. فقال الرجلُ: إنك لتدعوني إلى أمر أنا له كارهٌ. فقال نبي الله ـ ﷺ ـ: وإن كنتَ كارهاً. وذُكِرَ لنا أنه لقي رَجُلاً فقال له: أسلم. فَتَصَعَّده ذلك وكَبُر عليه. فقال له نبيُّ الله: أرأيتَ لو كنتَ في طريق وعْرٍ وَعْثٍ، فَلقِيتَ رَجُلاً تعرفُ وجهه، وتعرف نَسَبه، فدعَاك إلى طريق واسعٍ سهلٍ، أكنت مُتَّبعه؟ قال: نعم. فقال: فَوَالذي نفسُ محمدٍ بيده إنك لفي أَوْعَر من ذلك الطريق لو قد كُنتَ عليه، وإني لأدعوكَ إلى أسهلَ من ذلك لو دُعِيت إليه وذُكِر لنا أن نَبيَّ الله ـ ﷺ ـ لقي رجلا، فقال له: أسلم، فَتصعَّده ذلك، فقال له نبي الله ـ ﷺ ـ: أرأيت فَتَيَيْكَ، أحدهما إذا حَدَّثك صَدَقك، وإذا ائتمنتَه أدّى إليكَ أهو أحبُّ إليك أم فتاكَ الذي حدثك كَذَبك، وإذا ائتمنته خانَك؟! قال: بل فتاي الذي إذا حَدَّثني صَدَقني، وإذا ائتمنتُه أَدَّى إليَّ. فقال النبي ـ ﷺ ـ: كذاكُم أنتم عندَ رَبِّكم[5].

وقولُه: ﴿ ولو اتَّبع الحق أهواءهم لفَسَدتِ السمواتُ والأرضُ وَمن فِيهِنَّ ﴾، قال مجاهد، وأبو صالح، والسُّدِّيُّ: الحق هو الله عَزَّ وجلَّ. والمرادُ لو أجابَهم الله إلى ما في أنفسِهم من الهوى، وشَرَع الأمور على وفق ذلك، ﴿ لفَسَدت السمواتُ والأرضُ ومن فِيهِنَّ ﴾، أي: لِفَسَادِ أهوائِهم واختلافها، كما أخبَر عنهُم في قولهم: ﴿لولا نُزِّل هذا القرآن على رَجُل من القريتين عَظِيم﴾، ثم قال: ﴿أهم يقسِمُونَ رَحمةَ رَبِّك﴾، وقال تعالى:

(١) باهت فلاناً: استقبله بالبهتان، وهو الكذب المفتَرى.

(٢) سيرة ابن هشام ١/٣٣٦، والبداية والنهاية لابن كثير ٣/٧١.

(٣) انظر البداية والنهاية لابن كثير، غزوة القادسية ٧/٣٩ وما بعدها.

(٤) فتح الباري، كتاب بدء الوحي ١/٣١ ـ ٣٢.

(٥) أخرج هذه الآثار عبد بن حميد وابن أبي حاتم، الدرّ المنثور ٦/١١٠.

﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمةِ ربِّي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قَتوراً﴾. وقال: ﴿ أم لهم نصيبٌ من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نَقيراً ﴾، ففي هذا كله تبيينُ عَجْز العباد واختلافِ آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاتِه وأقوالِه وأفعالِه وشَرْعِه وقَدَرِه، وتَدْبيره لخلقه ـ تعالى وتقدّس ـ فلا إلَه غيرُه، ولا ربَّ سواه.

ثم قال: ﴿ بل أتيناهُم بذِكْرِهم ﴾، يعني القرآن، ﴿ فَهُم عَن ذِكْرِهِم مُعرِضُونَ ﴾.

وقولُه: ﴿أم تسألهم خَرْجاً ﴾، قال الحسن: أجراً. وقال قتادة: جُعلاً[١]، ﴿ فخراجُ ربك خير ﴾، أي: أنت لا تسألهم أجرةً ولا جُعلاً ولا شيئاً على دعوتك إياهُم إلى الهدى، بل أنت في ذلك تَحتسِبُ عند الله جزيلَ ثوابِه، كما قال: ﴿ قُل ما سألتُم من أجرٍ فَهُو لكم إنْ أجريَ إلا على اللهِ ﴾، وقال: ﴿ قُل ما أسألُكم عليه من أجرٍ وما أنا من المتكلِّفين ﴾، وقال: ﴿ قُل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودَّة في القُربى ﴾، وقال تعالى: ﴿ وجاء من أقصى المدينةِ رَجُلٌ يسعى قال يا قومِ اتَّبِعُوا المُرسلين * اتَّبِعُوا مَن لا يسألكم أجراً وهم مُهتَدُون﴾.

وقولُه: ﴿ وَإنَّكَ لتدعُوهم إلى صراطٍ مستقيم * وإنَّ الذين لا يُؤمِنُون بالآخرةِ عن الصِراطِ لَناكِبُونَ ﴾، قال الإمامُ أحمدُ:

حدثنا حَسَن بن موسى، حدثنا حَمّاد بن سَلَمة، عن علي بن زيد بن جُدعان، عن يوسفَ بن مِهْران، عن ابن عباس: أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ أتاه ـ فيما يَرى النائم ـ ملكان، فَقعد أحدُهما عند رجليه، والآخرُ عند رأسه، فقال الذي عند رِجلَيه لِلَّذي عند رأسِهِ: اضرب مَثَل هذا ومَثَل أمته. فقال: إن مَثَلَه ومثل أُمّته كَمَثَلِ قوم سَفْرٍ انتهوا إلى رأسِ مفازَةٍ، فلم يكنْ معهم من الزادِ ما يقطَعُون به المفازَةَ ولا ما يرجعونَ به، فَبينا هُم كذلكَ إذْ أتاهم رجلٌ في حُلَّةٍ حِبَرَةٍ، فقال: أرأيتُم إن وردت بكُم رياضاً مُعشبة، وحياضاً رِواءً تتَّبِعُوني؟ فقالوا: نعم. قال: فانطلق بهم، فأوردَهم رياضاً مُعْشِبَةً وحياضاً رواءً، فأكلُوا وشَربوا وسَمِنُوا. فقال لهم: ألَم أُلفِكُم على تلك الحال فَجعلتم لي إن وَردتُ بكم رياضا مُعْشِبَةً وحياضا رواءً أن تتبعوني؟ قالوا: بلى. قال: فإنَّ بين أيديكم رِياضاً أعشَبَ من هذه، وحياضاً هي أَرْوى من هذه، فاتَّبِعُوني. قال: فقالت طائفةٌ: صَدَقَ الله، لَنَتَّبِعَنَّه. وقالت طائفة: قد رَضِينا بهذا، نُقيمُ عليه[٢].

وقال الحافظ أبو يعلَى الموصلي: حدثنا زُهَير، حدثنا يُونُس بم محمد، حدثنا يعقُوب بن عبد الله الأشعريُّ، حدثنا حفصُ بـن حُمَيد، عن عكرمةَ، عن ابنِ عَبَّاس، عن عُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إني مُمسِكٌ بحُجَزِكم[٣]: هَلُمّ عَن النار، هَلُمَّ عن النار، وتغلبونني وتَقاحَمُون فيها تَقاحُمَ الفَراشِ والجَنادِب[٤]، فأُوشِكُ أن أُرسِلَ حُجَزَكم وأنا فَرَطُكم على الحوض، فَترِدُون عَلَيَّ معاً وأشتاتاً، أعرفكم بسيماكُم وأسمائكم، كما يَعرفُ الرجلُ الغريبَ في إبلِهِ، فيُذْهَب بكم ذات اليمين وذات الشمال، فأُناشِدُ فيكم ربَّ العالمين: أيْ ربِّ، قَومِي، أيْ ربِّ أُمَّتِي، فيُقالُ: يا محمدُ، إنكَ لا تَدري ما أحدثُوا بعدكَ، إنهم كانوا

(١) الجُعْلُ: ما يُجعَل على العمل من أجر أو رشوة.
(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٢٨ من سورة التوبة، وخرجناه هنالك.
(٣) الحُجزُ: جمع حُجْزَةٍ، وهي موضع شدّ الإزار من الوسط.
(٤) الجنادب: جمع جُنْدُبٍ، وهو نوع من الجراد.

يمشُون بعدكَ القَهْقَرى على أعقابهم، فَلأعرفَنّ أحدكم يأتي يوم القيامة يحمِلُ شاةً لها ثغاءٌ يُنادي: يا محمدُ، يا محمدُ. فأقولُ: لا أَملِكُ لك شيئاً قد بَلّغتُ، وَلأعرفَنّ أحدكم يأتي يوم القيامة يَحمِلُ بعيراً له رُغاءٌ، يُنادي: يا محمدُ، يا محمدُ. فأقولُ: لا أملِكُ لك شيئاً، قد بَلّغتُ. وَلأعرفَنّ أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل فرساً لها حَمْحَمَةٌ فينادي: يا محمدُ، يا محمدُ. فأقول: لا أملِكُ لَكَ شيئاً، قد بَلّغتُ. ولأعرفَنّ أُحدكُم يأتي يومَ القيامةِ يحمِلُ سقاءً من أدمٍ(١)، ينادي: يا محمدُ، يا محمدُ، فأقول: لا أَملِكُ لك شيئاً، قد بَلّغت.

وقال علي بن المَديني: هذا حَديثٌ حَسَنُ الإسنادِ، إلاّ أنّ حفصَ بن حُميدَ مجهول، لا أعلم رَوَى عنه غيرُ يعقوبُ بـن عبد الله الأشعريُّ القُمّي.

قلتُ: بل رَوَى عنه أيضاً أشعثُ بن إسحاق، وقال فيه يحيى بن معين: صالحٌ. وَوَثّقه النسائيُّ وابن حِبّانَ.

وقولُه: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴾، أي: لعادِلُونَ جائِرُونَ مُنحرِفُونَ. تقولُ العربُ: نَكَبَ فلانٌ عن الطريقِ: إذا زَاغَ عنها.

وقولُه: ﴿ ولو رَحِمناهم وكَشَفنا ما بهم من ضُرٍّ لَلَجُّوا في طغيانهم يَعمَهُون ﴾: يُخبر تعالى عن غِلَظهم في كُفرهم، بأنه لو أزَاحَ عِلّتَهُم وأَفْهَمَهُم القرآنَ لما انقادُوا له، وَلاستمرُّوا على كفرهم وطغيانهم، كما قال تعالى: ﴿ ولو عَلِمَ اللهُ فيهم خيراً لأسمَعَهُم ولو أسمَعَهُم لَتولّوا وهم مُعرِضُونَ ﴾، وقال: ﴿ ولو ترَى إذ وُقِفوا على النارِ فقالوا يا ليتنا نُرَدّ ولا نُكَذِّبَ بآياتِ رَبّنا ونكونَ من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يُخفونَ من قبل ولو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون * وقالوا إن هي إلا حَياتُنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾، فهذا من باب عِلْمِه تعالى بما لا يكون، ولو كان كيف كان يكون.

قال الضحاك، عن ابن عباس: كلُّ ما فيه «لو» فهو مما لا يكونُ أبداً.

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ٧٦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ
مُبْلِسُونَ ٧٧ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ٧٨ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ٧٩ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٨٠ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ
ٱلْأَوَّلُونَ ٨١ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ٨٢ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ
إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٨٣ ﴾

يقولُ تعالى: ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب ﴾، أي: ابتليناهم بالمصائب والشدائد، ﴿ فما استكانُوا لربِّهم وما يتضرّعون ﴾، أي: فما رَدّهم ذلك عما كانوا فيه من الكُفرِ والمخالفة، بل استمرُّوا على ضلالهم وغَيِّهم. ﴿ فما استكانوا ﴾ أي ما خشعوا، ﴿ وما يَتضرّعون ﴾، أي: ما دَعوا، كما قال تعالى: ﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تَضرّعوا ولكن قَسَت قلوبهم وزَيّنَ لهم الشيطانُ ما كانوا يعملون ﴾.

---

(١) الأدَم: الجلد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا علي بن خشرم[1] المروزيُّ، حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا أبي، عن يزيد ـ يعني النحوي ـ عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا محمد، أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العِلْهِزَ ـ يعني الوبَر والدم ـ فأنزل الله: ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرَّعُون﴾[2].

وهكذا رواه النسائي عن محمد بن عَقيل، عن علي بن الحسين، عن أبيه، به[2]. وأصل هذا الحديث في الصحيحين أن رَسُولَ الله ـ ﷺ ـ دَعَا على قُرَيشٍ حين استعصوا فقال: «اللَّهُمَّ، أعِنِّي عليهم بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ»[3].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحُسَين، حدثنا سلمة بن شَبيب، حدثنا عبد الله بن إبراهيم بن عُمر ابن كيسان، حَدَّثني وهبُ بن عمر بن كيسَان قال: حُبِسَ وهبُ بن مُنَبِّه، فقال له رجل من الأبناء[4]: ألا أُنشدُك بيتاً من شعر يا أبا عبد الله؟ فقال وهبٌ: نحنُ في طرفٍ من عَذَابِ الله. والله تعالى يقولُ: ﴿ولقد أخذناهم بالعَذَابِ فما استكانُوا لربِّهم وما يتضرَّعُونَ﴾. قال: وَصَامَ وَهبٌ ثلاثاً متواصلةً. فقيل له: ما هذا الصومُ يا أبا عبد الله؟ قال: أُحْدِثَ لنا فأحدَثْنا. يعني أُحْدِثَ لنا الحبسَ، فأحدثنا زيادةَ عبادةٍ.

وقولُه: ﴿حتَّى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مُبْلِسُونَ﴾، أي: حتى إذا جاءهم أمْرُ الله وجاءتهم الساعةُ بغتةً وأخذَهم من عقاب الله ما لم يكونوا يحتسِبُون، فعند ذلك أبْلسُوا[5] من كلِّ خيرٍ، وأَيِسُوا من كلِّ راحةٍ، وانقطعت آمالُهم ورجاؤُهم.

ثم ذكَرَ تعالى نعمتَه على عباده في أن جَعَلَ لهم السمعَ والأبصارَ والأفئدة ـ وهي العُقولُ والفُهومُ ـ التي يُدركون بها الأشياءَ، ويَعتَبِرُون بما في الكون من الآيات الدالّة على وحدانيّة الله تعالى، وأنه الفاعل المختار لما يشاء.

وقولُه: ﴿قليلا ما تشكرون﴾، أي: ومَا أقلَّ شكرَكُم لله على ما أنعمَ به عليكُم. كقوله: ﴿وما أكثرُ الناسِ ولو حَرَصتَ بمؤمنين﴾.

ثم أخبر تعالى عن قُدرته العظيمةِ وسلطانِه القاهرِ، في بَرْئِه الخليقةَ وذَرْئه لهم في سائرِ أقطارِ الأرضِ، على اختلاف أجناسهم ولُغاتهم وصِفاتهم، ثم يوم القيامة يجمعُ الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم، فلا يتركُ منهم صغيراً ولا كبيراً، ولا ذكراً ولا أنثى، ولا جليلاً ولا حَقيراً، إلا أعاده كما بدأه. ولهذا قال: ﴿وهو الذي يُحيي ويُميت﴾، أي: يُحيي الرِّمَمَ ويُميت الأُمَمَ، ﴿وله اختلاف الليل والنهار﴾، أي: وعن أمره تسخيرُ الليلِ والنهارِ، كلٌّ منهما يطلبُ الآخرَ طلباً حثيثاً، يتعاقبان لا يفتُران، ولا يفترقان بزمان غيرهما. كقوله

---

(١) في نسخة الأزهر: محمد بن حمزة. وفي نسخة الحرم: علي بن حمزة. ولم نجده. وعلي بن خشرم المروزي ممن يروي عن علي بن الحسين بن واقد، كما في تهذيب الكمال. وهو مترجم في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٦/١٨٤.

(٢) أخرجه النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى، كما في تحفة الأشراف ٥/١٧٩، والحاكم وصححه في تفسير سورة المؤمنون ٢/٣٩٤، والبيهقي في الدلائل ٤/٨١، وزاد في الدر المنثور ابن مردويه ٦/١١١.

(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٩٩ من سورة يوسف، وخرجته هناك.

(٤) في اللسان: ويقال لأولاد فارس: الأبناء، وهم الذين أرسلهم كسرى مع سيف بن ذي يزن، لما جاء يستنجدهم على الحبشة، فنصروه وملكوا اليمن وتديَّروها، وتزوجوا في العرب، فقيل لأولادهم: الأبناء، وغلب عليهم هذا الاسم لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم.

(٥) في نسخة الحرم: أبلسوا. وأبلس وأيس بمعنى.

تعالى: ﴿ لا الشمسُ ينبغي لها أن تدركَ القمر ولا الليلُ سابقُ النهار وكلٌ في فلكٍ يسْبحُون ﴾.

وقوله: ﴿ أفلا تعقلون ﴾، أي: أفليس لكم عقولٌ تدلُّكم على العزيزِ العليمِ، الذي قد قَهر كُلَّ شيءٍ، وعزَّ كُلَّ شيءٍ، وخضع له كلُّ شيءٍ.

ثم قال مُخبراً عن مُنكري البعث الذين أشبهوا من قبلَهم من المُكذِّبين: ﴿بل قالوا مثل ما قال الأولون * قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنَّا لمبعوثون ﴾؟ يعني: يَستبعِدُون وقوع ذلك بعد صَيرُورتهم إلى البلَى، ﴿ لقد وُعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطيرُ الأوَّلين ﴾، يعنون أنَّ الإعادة محال، إنما يخبرُ بها من تلَقَّاها عن كُتُبِ الأولين واختلاقهم. وهذا الإنكارُ والتكذيبُ منهم كقوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿أئذا كُنَّا عظاماً نخرة * قالوا تلك إذاً كرَّةٌ خاسرة * فإنما هي زَجْرةٌ واحدة * فإذا هم بالسَّاهِرةِ﴾، وقال تعالى: ﴿أو لم يرَ الإنسانُ أنا خلقناه من نُطفةٍ فإذا هو خَصيمٌ مُبينٌ * وضَربَ لنا مَثلاً ونَسِي خَلْقَه قالَ من يُحيِي العِظامَ وهي رَمِيمٌ * قل يحييها الَّذِي أنشأها أوَّلَ مرَّةٍ وَهُو بكلِّ خَلقٍ عَلِيم﴾... الآيات.

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

يُقرِّر تعالى وحدانيته واستقلالَه بالخلق والتصرف والمُلكِ، ليرشدَ إلى أنه الذي لا إلَه إلا هُو، ولا تَنْبغِي العبادةُ إلا لَهُ وحدَه لا شريكَ له، ولهذا قال لرسوله محمد ـ ﷺ ـ أن يقولَ للمشركين العابدين معه غيرَه، المعترفين له بالرُّبوبية، وأنه لا شريكَ له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلَهية، فعَبدوا غيره معه، مع اعترافهم أن الذين عَبَدُوهم لا يخلقون شيئاً، ولا يملكون شيئاً، ولا يستبدُّون بشيءٍ، بل اعتقدُوا أنهم يُقرِّبونهم إليه زلفى: ﴿ ما نَعبُدُهم لِيُقرِّبونا إلى الله زُلفى ﴾، فقال: ﴿ قُلْ لِمَنِ الأرضُ وَمَن فيها ﴾؟ أي: مَن مالكها الذي خلقها ومَن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات، وسائر صنوفِ المخلوقات؟ ﴿إن كنتم تعلمون * سيقولون لله﴾. أي: فيعترفُونَ لك بأن ذلك لله وحدَه لا شريكَ له، فإذا كان كذلك ﴿ قل أفلا تذكرون ﴾، أي: ألا تذكرون أنه لا تليقُ العبادةُ إلَّا للخالقِ الرزَّاق لا لغيره.

﴿قُل من ربُّ السمواتِ السَّبعِ وربُّ العرشِ العَظِيم﴾؟ أي: مَن هُو خالقُ العالم العُلْوي بما فيه من الكواكب النيِّرات، والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهاتِ، ومَن هو ربُّ العرش العظيم؟ يعني الذي هو سَقفُ المخلوقات، كما جاء في الحديثِ الذي رَواه أبو داود، عن رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «شأنُ الله أعظمُ من ذلك، إن عَرْشَه على سمواتِه هكذا. وأشار بيده مثل القُبَّة»[1]. وفي الحديثِ الآخر: «ما السمواتُ السبعُ والأرضون السبعُ وما فيهنَّ وما بينهنَّ في الكرسيِّ إلا كحَلْقَةٍ مُلقاةٍ بأرضِ فلاة، وإنَّ الكرسيَّ بما فيه بالنسبة إلى العَرش كتلك الحلقة في تلك الفلاة»[2]. ولهذا قال بعضُ السلف: إنَّ مسافة ما بين قُطْرَي العرشِ من جانبٍ

(١) سنن أبي داود، كتاب السنة ٤/٢٣٢.

(٢) انظر الحديث عند تفسير ٢٥٥ من سورة البقرة، والثانية من سورة الرعد، والخامسة من سورة طه.

إلى جانبِ مسيرةُ خمسين ألفَ سنةٍ، وارتفاعُها عن الأرضِ السابعةِ مسيرةَ خمسين ألفَ سنةٍ.

وقال الضحاكُ، عن ابنِ عبَّاس: إنما سُمِّي عَرشاً لارتفاعِهِ. وقال الأعمش، عن كعب الأحبار: إنّ السمواتِ والأرضَ في العرشِ كالقنديلِ المعلَّقِ بين السماءِ والأرضِ. وقال مجاهد: ما السمواتُ والأرضُ في العرشِ إلا كحلقةٍ في أرضٍ فلاةٍ.

وقال ابنُ أبي حاتم: حدثنا العلاءُ بن سالم، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان الثوري، عن عمار الدُّهنيِّ، عن مسلم البَطين، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: العرش لا يقدُر أحد قدْرَه. وفي رواية: إلا الله عزَّ وجلَّ.

وقال بعض السلف: العرشُ من ياقوتةٍ حمراءَ. ولهذا قال هاهنا: ﴿ وربِّ العرشِ العظيمِ ﴾، يعني الكبير، وقال آخر السورة: ﴿ربُّ العرش الكريم﴾، أي: الحسن البَهِيّ. فقد جمع العرشُ بين العَظمة في الاتساع والعلو، والحُسنِ الباهِرِ. ولهذا قال من قال: إنه من ياقوتة حمراء.

وقال ابنُ مسعود: إنَّ ربَّكُم ليسَ عنده ليلٌ ولا نهارٌ، نورُ العَرْشِ من نُورِ وَجْهِهِ.

وقولُه: ﴿ سَيَقُولون لله قُل أفلا تَتَّقُونَ ﴾، أي: إذا كنتم تعترفون بأنه رَبُّ السمواتِ وربُّ العرشِ العظيمِ، أفلا تخافونَ عِقابَه وتحذَرون عذابَه في عبادَتِكم معه غيرَه وإشراكِكُم به؟!

قال أبو بكر عبدُ الله بن محمد بن أبي الدُّنيا القُرَشي في كتاب «التفكر والاعتبار»: حدثنا إسحاقُ بن إبراهيم، أخبرنا عَبدُ الله بن جعفر، أخبرني عبد الله بن دينار، عن ابن عُمَر ـ رضي الله عنهما ـ قال: وكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ كثيراً ما يُحدِّث عن امرأة كانت في الجاهلية على رأس جبلٍ، معها ابنٌ لها يرعَى غنماً، فقال لها ابنُها: يا أُمَّاه، مَن خلَقَكِ؟ قالت: الله. قال: فمن خلَق أبي؟ قالت: الله. قال: فمن خلَقني؟ قالت: الله. قال: فمن خلَق السماء؟ قالت: الله. قال: فمن خلَق الأرض؟ قالت: الله. قال: فمن خلق الجبلَ؟ قالت: الله. قال: فمن خلَق هذه الغَنَم؟ قالت: الله. قال: فإني أسمعُ لله شأناً. ثم ألقى نفسه من الجبل فتقطَّع.

قال ابنُ عُمَر: كان رسول الله ـ ﷺ ـ كثيراً ما يحدثنا هذا الحديث. قال عبدُ الله بن دينار: كان ابنُ عُمَر كثيراً ما يُحدِّثنا بهذا الحديث.

قلتُ: في إسناده عبدُ الله بن جعفر المَدِيني، والدِ الإمام عَليِّ بن المديني، وقد تَكَلَّمُوا فيه، فالله أعلم.

﴿ قُل مَن بيَدِهِ ملكوتُ كلِّ شيءٍ ﴾: أي: بيده الملكُ، ﴿ ما من دَابَّةٍ إلا هُو آخذٌ بناصِيَتِها ﴾، أي: متصرِّف فيها. وكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يقول: «لا، والذي نَفْسِي بيدِه»[1]. وكان إذا اجتهد في اليمين قال: «لا، ومُقلِّب القُلُوب»[2]، فهو سبحانه الخالق المالكُ المتصرِّف، ﴿ وهو يُجير ولا يُجار عليه إن كُنتم تَعلمُون ﴾، كانت العَربُ إذا كان السيد فيهم فأجارَ أحداً لا يُخْفَر[3] في جِوارِه، وليس لمن دونه أن يُجيرَ عليه لئلا يفتَات عليه[4]. ولهذا قال الله: ﴿ وهو يُجير ولا يُجار عَلَيه ﴾، أي وهو السَّيدُ العَظيم الذي لا أعظمَ منه، الذي له الخلقُ والأمرُ، ولا مُعقِّب لحكمه، الذي لا يُمانَع ولا يُخالَف، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن،

---

(١) انظر هذا الحديث عند تفسير الآية ٧٩ من سورة المائدة.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، فتح الباري ١٣/٣٧٧.

(٣) أي: لا يُنْقض عهده.

(٤) يقال: افتات عليه في الأمر: فعله دون مشورته.

وقال الله: ﴿ لا يُسئَلُ عمَّا يفعلُ وهم يُسئَلون ﴾، أي: لا يُسئَل عما يفعل لعَظَمته وكِبْريَائِهِ، وقَهْرِه وغَلَبته، وعِزَّتِهِ وحِكْمَتِهِ وعَدْلِهِ، والخلقُ كلهم يُسئَلون عن أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿فوربِّك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعمَلُونَ ﴾.

وقولُه: ﴿ سيقُولونَ للهِ ﴾، أي: سيعترفون أن السيدَ العظيم الذي يُجير ولا يُجَار عليه هو الله تعالى، وحده لا شَريكَ له. ﴿قل فأنّى تُسحَرُون﴾ أي: فكيف تذهَبُ عُقولُكم في عبادتكم معه غَيره مع اعتِرَافِكم وعِلْمِكم بذلك.

ثم قال تعالى: ﴿ بل أتيناهُم بالحقِّ ﴾، وهو الإعلام بأنه لا إلَه إلا الله، وأقمنا الأدلَّة الصحيحةَ الواضحةَ القاطعةَ على ذلك، ﴿ وإنَّهم لكاذبون ﴾، أي: في عبادتهم مع الله غيره، ولا دليلَ لهم على ذلك، كما قال في آخر السورة: ﴿ ومن يدع مع الله إلَهاً آخر لا برهان له به فإنما حِسابه عند رَبِّه إنه لا يُفلِح الكافرون ﴾، فالمشركون لا يفعلُونَ ذلك عن دليلٍ قادهم إلى ما هُم فيه من الإفك والضَّلالِ، وإنما يفعَلُون ذلك اتباعاً لآبائهم وأسلافِهم الحيارَى الجُهَّالِ، كما قالوا: ﴿ إنا وجدنا آباءَنا على أمة وإنّا على آثارهم مقتدون ﴾.

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

يُنَزِّه تعالى نفسه عن أن يكون له ولدٌ أو شريكٌ في الملك، فقال: ﴿ ما اتّخذ الله من ولدٍ وما كان معه من إلَهٍ إذاً لذهَبَ كلُ إلَهٍ بما خَلَق ولَعَلا بعضُهم على بعضٍ ﴾، أي: لو قُدّر تعدُّدُ الآلهة لانفرد كلٌّ منهم بما يخلق، فما كان ينتظم الوجوُد. والمشاهد أن الوجود منتظم مُتّسِقٌ، كلٌّ مِن العالم العُلْوِي والسُفلي مرتبطٌ بعضُه ببعض، في غاية الكمال، ﴿ ما ترى في خَلْق الرحمن من تفاوت ﴾. ثم لَكَان كلٌّ منهم يطلب قهر الآخرِ وخلافَه، فيعلو بعضُهم على بعض. والمُتكلّمون ذكروا هذا المعنى وعَبَّروا عنه بدليل التمانع، وهو: لو فُرِض صانعان فصاعداً فأراد واحد تحريك جسم وأراد الآخر سكونه، فإن لم يَحصُل مرادُ كلٍّ واحدٍ منهما كانا عاجزَين، والواجبُ لا يكون عاجزاً، ويمتنع اجتماع مَرادَيهما للتضادِّ. وما جاء هذا المحالُ إلا من فرض التعدُّد، فيكونُ محالاً، فأما إن حَصَل مرادُ أحَدِهما دون الآخر، كان الغالبُ هو الواجبَ، والآخر المغلوبُ ممكناً؛ لأنه لا يَليقُ بصفةِ الواجب أن يكونَ مَقهُوراً، ولهذا قال: ﴿ ولعلا بعضُهم على بعضٍ سُبحانَ الله عما يَصِفُون ﴾، أي: عما يقولُ الظالمونَ المعتدون في دعواهم الولدَ أو الشريكَ عُلوّاً كَبيراً.

﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾، أي: يعلم ما يغيبُ عن المخلوقات وما يشاهدونه، ﴿ فتعالى عما يُشركون ﴾، أي: تَقدَّس وتنزه، وتعالى، وعَزَّ وجلَّ.

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾

يقولُ تعالى آمراً أن يُدعَى بهذا الدعاء عند حُلولِ النِّقَم: ﴿ رَبِّ إمّا تُرِيَنّي ما يُوعَدُون ﴾ أي: إن عاقبتهم

ـ وإني شاهدُ ذلك ـ فلا تَجْعَلني فيهم، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذيّ وصَحَّحه: «وَإِذَا أردتَ بقومٍ فتنةً فتوفَّني إليك غيرَ مَفتونٍ»(١).

وقولُه: ﴿ وإنَّا على أن نُريكَ ما نَعِدُهم لقَادِرُونَ ﴾، أي: لو شئنا لأريناك ما نُحِلُّ بهم من النِّقَمِ والبلاءِ والمِحَنِ.

ثم قال مرشداً له إلى التِّرْياق النافع في مخالطة الناس، وهو الإحسانُ إلى من يُسِيء لِيَسْتَجلِبَ خاطِرَه، فتعود عداوتُه صداقةً وبُغْضُه محبَّةً، فقال: ﴿ ادفع بالتي هي أحسنُ السيئةَ ﴾. وهذا كما قال في الآية الأخرى: ﴿ ادفعْ بالتي هي أحسنُ فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنه وليٌّ حَميم * وما يُلَقَّاها إلا الذين صَبَروا وما يُلَقَّاها إلا ذو حظٍّ عظيم ﴾، أي: ما بالهم هذه الوَصِيَّة أو الخَصْلَة أو الصِّفَةَ ﴿ إلا الذين صَبَرُوا ﴾، أي: على أذَى الناس، فَعَامَلُوهُم بالجَمِيل مع إسدائِهم إليهم القبيحَ، ﴿ وما يُلَقَّاها إلا ذُو حَظٍّ عَظِيم ﴾، أي: في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿ وقل ربِّ أعوذُ بكَ من هَمَزاتِ الشياطين ﴾، أَمَرَه أن يستعيذَ من الشياطين، لأنهم لا ينفَعُ معهم الجميل(٢). ولا ينقادون بالمعروف. وقد قَدَّمنا عند الاستعاذة أنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان يقول: «أعوذُ بالله السميع العليم من الشيطانِ الرَّجيم، من هَمْزِه وَنَفْخِه ونَفْثِه».

وقولُه: ﴿ وأعوذ بِكَ رَبِّ أن يحضُرونِ ﴾، أي: في شيءٍ من أمري: ولهذا أَمَرَ بذكر الله في ابتداءِ الأمور ـ وذلك مَطْرَدَةٌ للشياطين ـ عند الأكلِ والجماع والذَّبح، وغير ذلك من الأُمُور. ولهذا رَوَى أبو داود أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقول: اللَّهُمَّ إني أعوذُ بِكَ من الهَرَم، وأعوذُ بك من الهَدْمِ ومِنَ الغَرَق، وأعوذُ بك أن يَتَخَبَّطني الشيطانُ عند الموتِ»(٣).

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا يزيدُ، أخبرنا محمد بن إسحاقَ، عن عَمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جَدِّه قال: كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُعلِّمنا كلماتٍ يَقولُهنَّ عند النوم، من الفزع: باسم الله، أعوذُ بكلماتِ الله التامَّةِ من غَضَبه وعِقَابه، ومن شرِّ عباده، ومن هَمَزاتِ الشياطينَ وأن يَحضُرونِ. قال: فكان عبد الله بن عَمْرو يُعلِّمها من بَلَغ من وَلَدِه أن يقولَها عند نَومِه، ومَن كان منهم صغيراً لا يَعقِل أن يَحفظَها كَتَبها له، فعلَّقها في عُنُقِه(٤).

ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، من حديث محمد بن إسحاق، قال: الترمذيُّ حَسَنٌ غَريبٌ(٤).

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

يُخبر تعالى عن حال المحتضَر عند الموت من الكافرين أو المفرِّطين في أمر الله تعالى، وقِيلِهم عند ذلك، وسُؤَالهم الرَّجعَةَ إلى الدنيا؛ لِيُصلِحَ ما كان أفسدَه في مُدَّةِ حياتِه، ولهذا قال: ﴿ربِّ ارجعُونِ * لعلّي أعملُ صالحاً فيما تركتُ ﴾، كما قال الله تعالى: ﴿ وأنفِقُوا ممَّا رزقناكم من قبل أن يأتيَ أحدكم الموتُ فيقول

(١) تقدَّم الحديث عند تفسير الآية ١٠١ من سورة يوسف وخرجناه هنالك.

(٢) في أغلب النسخ: الحيل.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الوتر ٢/٩٢.

(٤) مسند أحمد ٢/١٨١، وسنن أبي داود، كتاب الطبِّ ٤/١٢، وعارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ١٣/٥٢ ـ ٥٣، والنسائي في اليوم والليلة. وانظر تحفة الأشراف للمزي ٦/٣٣٢.

ربِّ لولاَ أخرتَنِي إلى أَجَلٍ قريبٍ فأصَّدَّقَ وأَكُنْ من الصَّالِحين * ولن يُؤَخر الله نفساً إذا جاءَ أجلُها والله خبيرٌ بما تَعمَلُون ﴾، وقال تعالى، ﴿ وأنذرِ النَّاسَ يوم يأتيهم العذابُ فيقول الذين ظلموا رَبَّـنا أخِّرنا إلى أَجَلٍ قريب نُجِبْ دعوتَكَ ونَتَّبِع الرُّسلَ أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زَوَالٍ ﴾، وقال تعالى: ﴿ يومَ يأتي تأويله يقول الذين نَسُوه من قبل قد جاءت رُسُل رَبِّنا بالحق فهل لنا من شُفَعاء فَيَشفَعُوا لنا أو نُرَدُّ فنعملَ غير الذي كنا نعمل ﴾، وقال تعالى: ﴿ ولو ترى إذِ المجرمون ناكسُوا رُءُوسِهم عند ربِّهم رَبَّنا أَبْصَرْنا وسَمِعنا فَارجِعْنَا نَعمَلْ صالحا إِنَّا مُوقنُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ ولو تَرى إذ وُقِفُوا على النّار فقالوا يا ليتنا نُرَدُّ ولا نُكَذِّبَ بآياتِ رَبِّنا ونكونَ من المؤمنين * بل بَدَا لهم ما كانوا يخفون من قبلُ ولو رُدُّوا لعادُوا لما نُهُوا عنه وإنهم لكاذبون﴾، وقال تعالى: ﴿ وتَرَى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مَرَدٍّ من سبيلٍ ﴾، وقال تعالى: ﴿ قالوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذُنُوبنا فهل إلى خُروجٍ من سَبِيلٍ * ذلك بأنه إذا دُعِي الله وحدَه كَفَرتم وإن يُشرَك به تُؤمِنُوا فالحكمُ لله العلي الكبير ﴾، وقال تعالى: ﴿ وهم يصطرخون فيها رَبَّنا أَخرِجْنَا نعمَلْ صالحاً غير الذي كنا نعمَلُ أوَ لم نُعَمِّركم ما يَتَذَكَّر فيه من تَذَكَّر وجاءكم النذيرُ فَذُوقوا فما للظالمينَ من نَصيرٍ ﴾ فَذَكر تعالى أنهم يسأَلونَ الرجعةَ فلا يُجابون عند الاحتضارِ، ويوم النُشورِ، ووقتَ العرضِ على الجبَّارِ، وحينَ يُعرَضُونَ على النارِ، وهم في غَمراتِ العذابِ في الجحيم.

وقولُه هاهنا: ﴿ كَلَّا إِنَّها كلمةٌ هو قائلُها ﴾، كَلَّا: حرفُ رَدْعٍ وزَجْرٍ، أي: لا نُجيبه إلى ما طَلَب، ولا نقبلُ منه.

وقولُه: ﴿ إنَّها كلمةٌ هو قائلُها ﴾، قال عبد الرحمن بن زيدِ بن أسلَمَ: أي لا بُدَّ أن يَقُولَها محالَة كلُّ مُحتضَرٍ ظالم [1].

وَيحتمِلُ أن يكونَ ذلك عِلَّةً لقوله ﴿ كَلَّا ﴾، أي: لأنها كلمةٌ، أي: سؤاله الرجوع ليعملَ صالحاً هو كلامٌ منه، وقولٌ لا عَمَل معه، ولو رُدَّ لما عمل صالحاً، ولكان يُكَذِّبُ في مقالته هذه، كما قال تعالى: ﴿ ولو رُدُّوا لعادُوا لما نُهُوا عنه وإنهم لكاذِبُونَ ﴾.

وقال محمد بن كعب القُرَظي: ﴿حتى إذا جاء أحدَهم الموتُ قال ربِّ ارجعُونِ * لَعَلِّي أعملُ صالِحاً فيما تركتُ ﴾، قال: فيقول الجَبَّارُ: ﴿ كَلَّا إنها كلمةٌ هو قائلُها ﴾.

وقال عُمَر بن عبد الله مولى غُفْرَة: إذا سَمِعت الله يقول: ﴿ كَلَّا ﴾، فإنما يقول: كَذَب.

وقال قتادةُ في قوله تعالى: ﴿ حتى إذا جاء أحدَهم الموتُ ﴾، قال: كان العلاء بن زِيَادٍ يقول: لِيُنْزِلْ أحدُكم نفسَه أنه قد حَضَره الموتُ، فاستقال[2] ربَّه فأقاله، فَلْيَعملْ بطاعةِ الله عَزَّ وجلَّ.

وقال قتادةُ: والله ما تَمنَّى أن يرجعَ إلى أهل ولا إلى عشيره، ولكن تَمنَّى أن يَرجِع فيعمَلَ بطاعةِ الله، فانظُروا أُمنيَّةَ الكافر المفرِّط فاعملُوا بها، ولا قُوَّةَ إلا بالله. وعن محمد بن كعب القرظي نحوه.

وقال محمد بن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن يوسف، حدثنا فُضَيل - يعني ابن عياض - عن ليث، عن طلحة بن مُصَرِّف، عن أبي حازم، عن أبي هُرَيرة قال: إذا وُضِع - يعني الكافر - في قَبره، فَيرى مقعده من النار - قال: فيقول: رب، ارجعني أتوب وأعملُ صالحاً، قال: فيقال: قد عُمِّرتَ ما كنتَ مُعَمَّراً،

(١) تفسير الطبري ١٨/٥٣.
(٢) أي: طلب من ربه أن يُنْظِره، فأنظره وأخره.

قال: فَيُضيَّق عليه قبرُه، قال: فهو كالمنهوش، ينام ويفزَعُ، تَهوِي إليه هَوَامُّ الأرضِ وحيَّاتُها وعَقَاربُها[١].

وقال أيضاً: حدثنا أبي، حدثنا عَمْرو بن علي، حدثني سَلَمة بن تمام، حدثنا علي بن زيد، عن سعيد بن المُسَيَّب، عن عائشة أنها قالت: ويلٌ لأهل المعاصِي من أهل القبور! تدخُل عليهم في قبورهم حيات سُودٌ ـ أو: دُهْمٌ، حية عند رأسه، وحَيَّةٌ عند رجليه، تَقْرِضَانِهِ حتى يلتقيا في وَسَطه، فذلك العذابُ في البرزخِ الذي قال الله تعالى: ﴿ ومن ورائهم برزخٌ إلى يوم يُبعثُونَ ﴾.

وقال أبو صالح وغيرُه في قوله تعالى: ﴿ ومن وَرَائِهم ﴾: يعني أمامَهم. وقال مجاهد: البرزخ: الحاجز ما بين الدنيا والآخرة. وقال محمد بن كعب: البرزخُ: ما بين الدنيا والآخرة، لَيسُوا مع أهل الدنيا يأكلُون ويشرَبُون، ولا مع أهل الآخرة يُجازُون بأعمالهم. وقال أبو صخر: البرزخُ: المقابرُ، لا هُم في الدنيا، ولا هُم في الآخرة، فهم مُقِيمون إلى يوم يُبعثُونَ.

وفي قوله: ﴿ ومن وَرَائِهم برزخٌ ﴾ تهديدٌ لهؤلاءِ المحتضَرين من الظَّلَمةِ بعذابِ البرزخِ، كما قال: ﴿ من ورائهم جَهَنَّمُ ﴾. وقال: ﴿ ومن ورائه عذابٌ غليظٌ ﴾.

وقولُه: ﴿ إلى يوم يُبعَثُون ﴾، أي: يستمر به العذابُ إلى يوم البعث، كما جاء في الحديث: «فلا يزال مُعَذَّباً فيها»[٢]، أي: في الأرض.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

يُخبر تعالى أنه إذا نُفِخ في الصُّور نفخةُ النشور، وقام الناسُ من القبور، ﴿ فلا أنسابَ بينهم ﴾، أي: لا تنفعُ الأنسابُ يومئذٍ، ولا يَرثِي والدٌ لولده، ولا يَلْوِي عليه، قال الله تعالى: ﴿ولا يسألُ حميمٌ حَمِيماً * يُبَصَّرونَهم﴾، أي: لا يسأل القريب عن قريبه وهو يبصره، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره، وهو أعز الناس عليه ـ كان ـ في الدنيا، ما التفت إليه ولا حَمَل عنه وزنَ جناح بَعُوضةٍ، قال الله تعالى: ﴿يوم يَفِرُّ المرءُ من أخيه * وأُمِّه وأبيه * وصاحِبَتِه وبَنِيه * لِكُلِّ امرىءٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنِيه﴾.

وقال ابنُ مسعودٍ: إذا كان يومُ القيامة جَمَع الله الأولين والآخرين ثم نادى منادٍ: ألا من كان له مظلمةٌ فَلْيَجِيء فَلْيأخُذ حقَّه، قال: فيفرَحُ المرءُ أن يكون له الحقُّ على والدِه أو وَلَدِه أو زَوجته وإن كان صغيراً، ومِصداقُ ذلك في كتاب الله: ﴿ فإذا نُفِخ في الصُّورِ فلا أنسابَ بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون ﴾. رواه ابن أبي حاتم[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد ـ مولى بني هاشم ـ حدثنا عبدالله بن جعفر، حدثتنا أم بكر بنت المِسْورِ بن مَخْرَمَة، عن عُبَيد الله بن أبي رافع، عن المِسْورِ ـ هو ابن مَخْرَمة، رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا أيضاً في ذكر الموت، الدرّ المنثور ٦/١١٤.

(٢) انفرد بإخراجه الترمذي، عارضة الأحوذي، أبواب الجنائز ٤/٢٩١ ـ ٢٩٣.

(٣) وأخرجه الطبري في تفسيره ١٨/٥٤، وابن المبارك في الزهد، وابن المنذر، وأبو نعيم في الحلية، وابن عساكر. الدرّ المنثور ٦/١١٧.

الله ـ ﷺ ـ: فاطمة بَضْعَةٌ مني، يَقْبِضُنِي ما يَقبِضُها، ويَبْسطُني ما يَبْسطُها[(١)]، وإنَّ الأنسابَ تنقطع يوم القيامة غَير نسبي وسَبَبي وصهْري»[(٢)].

هذا الحديث له أصل في الصحيحين عن المِسْوَرِ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «فاطمة بَضعة مني، يَرِيبُنِي ما رَابَها، ويُؤذِيني ما آذاها»[(٣)].

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا أبو عامر، حدثنا زُهَير، عن عبد الله بن محمد، عن حمزة بن أبي سَعِيد الخُدْري، عن أبيه قال: سمعتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول على هذا المنبر: ما بالُ رجالٍ يقولونَ: إنَّ رَحم رسولِ الله ـ ﷺ ـ لا تنفع قومَه؟ بلى، والله إنَّ رَحِمِي موصولةٌ في الدنيا والآخرة، وإني ـ أَيُّها الناسُ ـ فَرَطٌ[(٤)] لكم. فإذا جئتم قال رجلٌ: يا رسولَ اللهِ، أنا فلانُ بنُ فلانٍ. وقال آخرُ: أنا فلانُ بنُ فلانٍ. فأقول: أما النسبُ فقد عرفتُ، ولكنكم أحدثتُم بعدِي، وارتددتُم القَهْقَرَى[(٥)].

وقد ذكرنا في مُسْنَد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، من طرق مُتعدِّدة عنه ـ رضي الله عنه ـ: أنه لما تَزَوَّج أُمَّ كُلثوم بنتَ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ قال: أَمَا ـ والله ـ ما بي إلا أني سَمِعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول: كل سببٍ ونَسَبٍ فإنه منقطعٌ يوم القيامة، إلا سَبَبي ونَسَبِي.

رواه الطبراني، والبزَّار، والهيْثَم بن كُلَيب، والبيهقي[(٦)]، والحافظ الضياءُ في «المختارة»، وذكرنا أنه أصدقها أربعين ألفاً؛ إعظاماً وإكراماً رضي الله عنه. فقد رَوَى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي العاص بن الرَّبيع ـ زوج زينبَ بنت رسول الله ـ ﷺ ـ من طريق أبي القاسم البَغَوي:

حدثنا سليمانُ بن عُمَر الأقطعُ، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام، عن إبراهيم بن يزيدَ، عن محمد بن عباد ابن جعفر، سمعت ابنَ عُمَر يقول: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نَسَبي وصِهْري».

وروى فيها من طريق عَمَّار بن سيف، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو مرفوعا: سألتُ ربي ـ عزَّ وجلَّ ـ ألَّا أتزوج إلى أحد من أمتي، ولا يتزوج إليَّ أحد إلا كان مَعِي في الجنَّة. فأعطاني ذلك».

ومن حديث عَمَّار بن سَيفٍ، عن إسماعيل، عن عبد الله بن عمرو.

وقولُه: ﴿ فمن ثَقُلت موازينه فأولئك هُم المفلِحُونَ ﴾، أي: من رَجَحت حَسَناته على سَيِّئاتِهِ ولو بواحدةٍ، قاله ابن عباس. ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾، أي: الذين فازوا فَنجَوا من النار وأُدخِلُوا الجنةَ. وقال ابن عباس: أولئك الذين فازوا بما طلبوا، ونَجَوا من شَرِّ ما منه هَرَبُوا. ﴿ ومن خفت موازينه ﴾، أي: ثقلت سيئاته على حسناته، ﴿ فأولئك الذين خَسِرُوا أنفُسَهم ﴾، أي خابوا وهلكوا، وَبَاءُوا بالصَفقَةِ الخاسرة.

---

(١) في النسخ: وينشطني ما ينشطها. والمثبت عن المسند، والحاكم والطبراني. ويبسطني: يسرني.

(٢) مسند الإمام أحمد ٤/٣٢٣، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير بإسناده إلى عبدالله بن جعفر ٢٢/٤٠٥، والحاكم في مستدركه بإسناده إلى الإمام أحمد ٣/١٥٨.
هذا والنسب بالولادة، والسبب بالزواج.

(٣) فتح الباري، كتاب النكاح ٩/٣٢٧، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة ٤/١٩٠٢.

(٤) في الحديث أيضاً: «وأنا فَرَطُهم على الحوض». رواه مسلم في كتاب الطهارة ١/٢١٨، والمعنى: أني متقدمهم إليه، يقال: فَرَطَ يفرِطُ فهو فارِطٌ وفَرَطٌ: إذا تقدم وسبق القوم ليرتاد لهم الماء ويهيىء الدلاء والماشية. والكلام على التشبيه.

(٥) مسند أحمد ٣/١٨.

(٦) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب النكاح ٧/٦٤، ١١٤. والمختارة ١/٣٩٨.

وقال الحافظ أبو بكر البزّار: حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا داود بن المحَبَّر، حدثنا صالح المُرّيُّ، عن ثابت البُنَاني وجعفر بن زيد ومنصور بن زَاذان، عن أنس بن مالك يرفعه قال: مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بالميزان، فَيُؤتى بابن آدم، فَيُوقَف بين كفَّي الميزان، فإن ثَقُل ميزانه نادى ملكٌ بصوتٍ يُسْمِعُ الخلائقَ: سَعِدَ فلانٌ سعادةً لا يشقَى بعدَها أبداً. وإن خَفَّ ميزانُه نادى ملك بصوت يُسمعُ الخلائقَ: شَقِي فلان شقاوةً لا يسعَدُ بعدها أبداً[1].

إسنادُهُ ضعيفٌ. فإنَّ داود بن المُحَبَّر متروك.

ولهذا قال: ﴿ في جَهنَّم خالدون ﴾، أي: ماكثـون فيها، دائمونَ مُقيمون لا يَظْعَنون. ﴿ تلفَحُ وجوههم النار ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وتَغْشَى وجوهَهم النار ﴾، وقال: ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لا يَكُفُّون عن وجوههم النارَ ولا عن ظُهُورهم ولا هم يُنْصَرُون ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا فَرْوَةُ بن أبي المَغْرَاء، حدثنا محمد بن سُلَيمان بن الأصبهاني، عن أبي سنان ضِرَار بن مُرَّةَ، عن عبد الله بن أبي الهُذَيل، عن أبي هُرَيرة، عن النبي ـ ﷺ ـ: «إن جَهَنَّم لما سِيقَ إليها أهلها تَلَقَّاهم لهبُها ثم لَفَحَتْهُم لفحةً فلم يَبْقَ لحمٌ إلا سَقَطَ على العُرْقُوب»[2].

وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى القزاز، حدثنا الخضر بن علي بن يونس القطان، حدثنا عمر بـن أبي الحارث بن الخَضِر القَطَّان، حدثنا سعد بن أبي سعيد المقبري، عن أخيه، عن أبيه، عن أبي الدَّرْدَاء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ في قول الله: ﴿ تَلفَحُ وجوهَهم النارُ ﴾، قال: تلفَحُهم لفحةً فَتَسِيلُ لحومُهم على أعقابهم.

وقولُه: ﴿ وهم فيها كالحون ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني عابسـون.

وقال الثوريُّ، عن أبي إسحاقَ، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود: ﴿ وهم فيها كَالِحُون ﴾، قال: ألم تر إلى الرأس المُشَيَّط الذي قد بدا أسنانه وقَلَصت شَفَتَاهُ[3].

وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: أخبرنا عليّ بن إسحاق، أخبرنا عبد الله ـ هو ابن المبارك، رحمه الله ـ أخبرنا سَعيد بن يزيدَ، عن أبي السمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخُدْري، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: ﴿ وهم فيها كالحونَ ﴾، قال: تَشْويه النارُ فَتَتَقَلَّصُ شفتهُ العليا حتى تبلغ وَسَطَ رأسه. وتسترخي شفته السفلى حتى تَضرِب سُرَّته[4].

ورواه الترمذيُّ، عن سُوَيـد بن نَصر، عن عبد الله بن المبارك، به. وقال: حَسَن صحيح غريبٌ[4].

﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب البعث ٤/١٦٠ ـ ١٦١.

(٢) أخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية. الدرّ المنثور ٦/١١٨.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١٨/٥٦. والمُشَيَّط: المحرَّق. وقَلَصت شفتاه. اجتمعتا.

(٤) مسند أحمد ٣/٨٨، وعارضة الأحوذي، تفسير سورة المؤمنون ١٢/٤١.

هذا تقريعٌ من الله تعالى لأهل النار وتوبيخٌ لهم على ما ارتكبُوا من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التي أوبقتهم في ذلك، فقال: ﴿ ألم تكن آياتي تُتلى عليكم فكنتُم بها تكذبون ﴾؟ أي: قد أرسلتُ إليكم الرسلَ، وأنزلتُ الكتبَ، وأزلتُ شُبهكم، ولم يبق لكم حجة تُدلُون بها كما قال: ﴿ لئلا يكونَ للناس على الله حُجَّةٌ بعد الرُّسُلِ ﴾، وقال: ﴿ وما كنا مُعذِّبين حتى نَبْعثَ رسولاً ﴾، وقال: ﴿ كُلَّما ألقي فيها فوجٌ سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذيرٌ فكذَّبنا وقلنا ما نزَّل الله من شيءٍ إن أنتم إلا في ضلالٍ كبير * وقالوا لو كُنَّا نسمَعُ أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير * فاعترفُوا بذنبهم فسُحقاً لأصحاب السعير﴾، ولهذا قالوا: ﴿ربَّنا غَلَبت علينا شِقْوَتُنا وكنا قوماً ضالين﴾، أي: قد قامت علينا الحجةُ، ولكن كُنَّا أشقى من أن ننقاد لها ونتَّبِعَها، فضَلَلْنا عنها ولم نُرْزَقها.

ثم قالوا: ﴿ ربَّنا أخرجنا منها فإن عُدنا فإنا ظالمون ﴾، أي: رُدّنا إلى الدار الدنيا، فإن عُدنا إلى ما سَلَف منا، فنحن ظالمون مُستحِقُّون للعقوبةِ، كما قالوا: ﴿ فاعترفنا بذُنوبنا فهل إلى خُرُوجٍ من سَبيلٍ * ذلكم بأنه إذا دُعِيَ الله وحدَه كفرتم وإن يُشْرَك به تؤمنوا فالحكمُ لله العلي الكبير ﴾، أي: لا سبيلَ إلى الخروجِ، لأنكم كنتم تُشرِكون بالله إذا وَحَّده المؤمنون.

﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

هذا جوابٌ من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروجَ من النار والرجعةَ إلى هذه الدار، يقول: ﴿ اخسَئُوا فيها ﴾، أي: امكثوا فيها صاغرين مُهانين أذلاء. ﴿ ولا تُكلِّمُونِ ﴾، أي: لا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا جوابَ لكُم عندي.

قال العَوفيّ، عن ابن عباس: ﴿ اخسَئُوا فيها ولا تكلمون ﴾، قال: هذا قولُ الرحمن حين انقطع كلامُهم منه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عَبْدَة بن سليمان المَرْوَزي، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو قال: إن أهل جهنم يَدْعُون مالكاً فلا يجيبهم أربعين عاماً، ثم يَرُدُّ عليهم: ﴿إنكم ماكثون﴾. قال: هانت دعوتهم ـ والله ـ على مالك وَربِّ مالك. ثم يَدْعون ربهم فيقولون: ﴿ رَبَّنا غَلَبت علينا شِقْوَتُنا وكنا قوماً ضالِّين * ربنا أخرجنا منها فإن عُدنا فإنا ظالمون ﴾، قال: فيسكت عنهم قَدْرَ الدنيا مرَّتين، ثم يَرُد عليهم: ﴿ اخسَئُوا فيها ولا تُكلِّمونِ ﴾، قال: والله ما نَبَس القومُ بعدها بكَلِمة واحدةٍ، وما هو إلا الزفيرُ والشهيقُ في نار جهنم. قال: فشُبهت أصواتهم بأصوات الحمير، أولها زَفيرٌ وآخرها شَهيقٌ[1].

وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن سِنان، حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدي، حدثنا سفيان، عن سلمة بن كُهَيل، حدثنا أبو الزَّعْراءِ، قال: عبدُ الله بن مسعودٍ: إذا أراد الله ألاَّ يُخرِجَ منهم أحداً ـ يعني من جَهَنَّم ـ غَيَّر وجُوهَهم

---

(١) أخرجه أيضاً الحاكم وصححه، المستدرك، كتاب التفسير ٢/٣٩٥، وابن أبي شيبة، وهَنّاد، وعبد بن حميد، وعبدالله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن المنذر، والطبراني، والبيهقي في البعث. الدرّ المنثور ٦/١١٩.

والوانهم، فَيَجِيءُ الرجلُ من المؤمنين فيشفع فيقول: يا ربِّ. فيقول: من عَرَف أحداً فَلْيُخرجْه. فيجيء الرجلُ فينظر فلا يعرفُ أحداً فيقولُ: أنا فلانٌ. فيقول: ما أعرفُكَ. قال: فعند ذلك يقول: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجنا منها فإن عُدنا فإنا ظَالِمُونَ ﴾، فعند ذلك يقول: ﴿ اخسَئُوا فيها ولا تُكَلِّمُونِ ﴾. وإذا قال ذلك أُطبقتْ عليهم فلا يخرج منهم بَشَر.

ثم قال تعالى مُذَكِّراً لهم بذنوبهم في الدنيا، وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه، فقال: ﴿ إنه كان فريق من عبادي يقولون رَبَّنا آمنا فاغفِر لنا وارحَمْنا وأنتَ خيرُ الراحمين * فاتخذتموهم سِخْرِيًا ﴾، أي: فَسَخِرتُم منهم في دعائهم إياي وتضرّعهم إليّ، ﴿ حتى أنسَوكم ذكري ﴾، أي: حَملكم بغضُهم على أن نَسيتم مُعاملتي ﴿ وكنتم منهم تضحكون ﴾، أي: من صَنيعهم وعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿ إنَّ الذينَ أجرمُوا كانوا مِنَ الذينَ آمنوا يضحَكُونَ * وإذا مروا بهم يتغامزون ﴾، أي: يلمزونهم استهزاء.

ثم أخبر عما جَازَى به أولياءه وعبادَه الصالحين، فقال: ﴿ إنِّي جَزيتُهم اليوم بما صَبروا ﴾، أي: على أذاكم لهم واستهزائِكم منهم، ﴿ أنهم هو الفائزون ﴾، أي: جعلتُهم هُمُ الفائزين بالسعادةِ والسَّلامةِ والجَنَّةِ، الناجينَ من النَّارِ.

﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾

يقولُ تعالى مُنَبِّهاً لهم على ما أضاعُوه في عُمرِهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته، ولو صَبَروا في مدة الدنيا القصيرة لَفَازوا كما فاز أولياؤُه المتقون، ﴿ قال كَم لبثتم في الأرض عَدَد سِنِينَ ﴾؟ أي: كم كانت إقامتكم في الدنيا؟ ﴿ قالوا لَبِثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العَادِّين ﴾، أي: الحاسبين. ﴿ قال إن لَبِثتم إلا قليلاً ﴾، أي: مُدَّةً يسيرة على كل تقدير ﴿ لو أنكم كنتم تعلمون ﴾، أي: لما آثرتم الفانيَ على الباقيَ، ولما تَصرَّفتم لأنفسكم هذا التصرف السيىء، أنِ استحققتم من الله سُخطه في تلك المدة اليسيرة، ولو أنكم صبرتُم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لَفُزتم كما فَازُوا.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن الوَزير، حدثنا الوليد، حدثنا صفوان، عن أيفَع بن عبدِ الكَلاعي أنه سَمِعه يخطب الناس فقال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: إن الله إذا أدخلَ أهل الجنةِ الجنة، وأهلَ النار النارَ، قال: يا أهلَ الجنة، كم لَبِثتم في الأرضِ عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم. قال: لَنِعم ما اتجرتُم في يوم أو بعضِ يوم، رحمتي ورضواني وجَنَّتي، امكثُوا فيها خالدين مُخَلَّدين؟ ثم يقول: يا أهلَ النار، كم لَبِثتُم في الأرض عَدَد سنين؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعضَ يومٍ. فيقولُ: بِئْسَ ما اتجرتُم في يومٍ أو بعضِ يوم، ناري وسَخَطي، امكثوا فيها خالدين مخلدين[١].

وقولُه: ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عَبَثاً ﴾، أي: أَفَظننتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصدٍ ولا إرادةٍ منكُم ولا

---

(١) الدرّ المنثور ١٢١/٦.

حكمةٍ لنا، ﴿ وأَنَّكم إلينا لا تُرجَعُون ﴾، أي: لا تَعُودُون في الدار الآخرةِ، كما قال: ﴿ أيحسبُ الإنسانُ أن يُترَكَ سُدىً ﴾، يعني هَمَلاً[١].

وقولُه: ﴿ فتعالى الله الملك الحقُّ ﴾، أي: تَقَدّس أن يَخلُقَ شيئاً عبثاً، فإنه المَلِك الحقُّ المُنَزَّه عن ذلك، ﴿ لا إلَه إلا هو رَبُّ العرش الكريم ﴾. فَذَكر العرش لأنه سقفُ جميعِ المخلوقاتِ، وَوَصفه بأنه كريمٌ، أي: حَسَنُ المنظر بَهِيُّ الشَّكلِ، كما قال تعالى: ﴿وأنبتنا فيها مِنْ كلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾.

قال ابنُ أبي حاتم: حَدَّثنا عليُّ بن الحُسينَ، حدثنا علي بن محمد الطَّنَافِسِيُّ، حدثنا إسحاق بن سليمان - شيخ من أهل العراق - أنبأنا شُعَيب بن صَفوان، عن رجل من آل سعيد بن العاص قال: كان آخرُ خطبةٍ خَطَب عُمَر بنُ عبد العزيز أن حَمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أمَّا بعدُ، فإنكم لم تُخلَقُوا عبثاً، ولن تتركُوا سُدىً، وإن لكم معاداً يَنزِلُ الله فيه للحُكْم بينكم والفَصْل بينكم، فخاب وخَسِر مَن خَرَج من رحمَةِ الله، وحُرِمَ جَنَّةً عرضُها السمواتُ والأرضُ، ألم تعلَمُوا أنه لا يأمن غداً إلا من حَذِر هذا اليومَ وخافه، وباع نافداً بباقٍ، وقليلاً بكثيرٍ، وخوفاً بأمانٍ، ألا تَرَون أنكم من أصلاب الهالكين، وسَيكُون مَن بعدَكُم الباقين، حتى تَرُدُّوا إلى خير الوارثين؟ ثم إنكم في كلِّ يوم تُشيِّعُون غادياً ورائحاً إلى الله عز وجل، قد قَضَى نحبه، وانقضى أجلُه، حتى تُغيِّبُوه في صَدْعٍ من الأرض، في بطنِ صَدْعٍ غير مُمَهَّدٍ ولا مُوَسَّد، قد فارق الأحبابَ، وباشَر التُرابَ، وواجه الحساب، مُرتَهَنٌ بعَمَله، غَنِيٌّ عما تَرَك، فَقِيرٌ إلى ما قَدَّم: فاتقُوا الله عبادَ الله قبل انقضاءِ مَوَاثيقه، ونُزُولِ الموت بكم». ثم جعل طَرَف ردائِهِ على وَجْهِهِ، فَبَكى وأبكى من حوله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا بَحرُ بن نَصْر[٢] الخَوْلاني، حدثنا ابن وَهب، أخبرني ابن لَهِيعَة، عن ابن هُبَيرة، عن حَنَش بن عبد الله: أنَّ رجلا مصاباً مَرَّ به عبد الله بن مسعود، فقرأ في أذنه هذه الآية: ﴿ أفَحسِبتُم أنما خلقناكُم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملكُ الحقُّ ﴾، حتى خَتَم السورة فَبَرأ، فَذَكَر ذلك لِرسُولِ الله - ﷺ - فقال رسولُ الله - ﷺ -: بماذا قرأت في أذنه؟ فأخبره، فقال رسولُ الله - ﷺ -: والذي نفسي بيده لو أنَّ رجُلًا مُوقِناً قَرأها على جَبَلٍ لَزَال[٣].

وروى أبو نُعَيم من طريق خالد بن نزار، عن سفيان بن عُيَينة، عن محمد بن المنكدر، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن أبيه قال: بعثنا رسولُ الله - ﷺ - في سَرية، وَأَمَرنا أن نقولَ إذا نحنُ أمسَينا وأصبحنا: ﴿ أفحسِبتُم أنما خَلقناكُم عبثاً وأنَّكُم إلينا لا تُرْجَعُون ﴾، قال: فقرأناها فَغَنِمنا وسَلِمنا[٤].

وقال ابن أبي حاتم أيضاً: حدثنا إسحاق بن وَهب العَلَّاف الواسطي، حدثنا أبو المسيب سَلْمة بن سلام، حدثنا بكر بن خُنَيس، عن نَهْشَل بن سعيد، عن الضَّحَّاك بن مزاحم، عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ -: «أمانٌ لأمتي من الغَرَق إذا ركبوا في السُّفن: باسم الله الملك الحق، ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرضُ جَميعاً قبضتُه يوم القيامة والسمواتُ مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾، ﴿ باسمِ الله مَجراها ومُرسَاها إنَّ ربِّي لغفورٌ رَحِيمٌ ﴾»[٥].

(١) الهَمَل: المهمل المتروك.

(٢) في نسخة الحرم: يحيى بن نصير. والصواب عن الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢/٤١٩.

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده ٨/٤٥٨ بإسناده إلى ابن لهيعة. وفي الدرّ المنثور ٦/١٢٢: أخرجه الحكيم الترمذي، وابن السني في عمل اليوم والليلة، وأبونعيم في الحلية، وابن مردويه. وانظر مجمع الزوائد ٥/١١٥.

(٤) أخرجه ابن السني، وابن منده، وأبو نعيم في المعرفة. الدرّ المنثور ٦/١٢٢، وأسد الغابة ١/٥١.

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٢/١٢٤ - ١٢٥ بإسناده إلى نهشل بن سعيد، وقد تقدّم عند تفسير الآية ٤١ من سورة هود.

﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١١٧ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١١٨﴾

يقول تعالى مُتوعِّداً مَن أشرك به غيرَه، وعَبَد معه سِوَاهُ، ومُخبِراً أنَّ مَن أشرَكَ بالله ﴿ لا بُرهَانَ له ﴾، أي: لا دَليلَ له على قوله، فقال: ﴿ وَمَن يدعُ مع الله إلَهاً آخر لا بُرهانَ له به ﴾، وهذه جملةٌ معترضَةٌ، وجوابُ الشرطِ في قوله: ﴿ فإنما حسابُه عند ربِّه ﴾ أي: اللهُ يُحاسِبُه على ذلك. ثم أخبر: ﴿ إنَّه لا يُفلح الكافرون ﴾، أي: لَدَيه يومَ القيامة، لا فَلاحَ لَهُم ولا نَجاة.

قال قتادةُ: ذُكِر لنا أن نبيَّ الله ـ ﷺ ـ قال لرجل: ما تعبُد؟ قال: أعبد الله، وكذا وكذا. حَتى عدَّ أصناماً، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: فَأيُّهم إذا أصابك ضُرٌّ فدعَوْتَه كَشفه عَنك؟ قال: الله عزَّ وجلَّ. قال: فأيُّهم إذا كانت لك حاجةٌ فدعوتَهُ أعطاكَها؟ قال: الله عزَّ وجلَّ. قال: فما يحمِلُكَ على أن تعبدَ هؤلاء معه؟ قال: أردت شُكْره بعبادةِ هؤلاء معه، أم حَسِبْتَ أن يُغلَب عليه! فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ «تَعْلَمُونَ ولا تَعلمُونَ!». قال الرجلُ بعدَما اسلم: لَقِيتُ رَجُلاً خَصَمَني.

هذا مُرسَلٌ من هذا الوجه، وقد رَوَى أبو عيسى الترمذي في جامعه مُسنَداً عن عمران بن الحُصَين، عن أبيه، عن رسول الله ـ ﷺ ـ نحو ذلك[1].

وقولُه: ﴿ وقل ربِّ اغفر وارْحَم وأنْتَ خيرُ الرَّاحِمينَ ﴾، هذا إرشادٌ من الله إلى هذا الدعاء، فالغَفرُ إذا أُطلِق معناه محوُ الذنب وسَتْرُه عن الناس، والرحمةُ معناها أن يُسَدِّدَه ويُوفِّقَه في الأقوالِ والأفعالِ.

آخرُ تفسير سُورةِ المؤمنون

---

(١) عارضة الأحوذي، أبواب الدعوات ١٣/٢٤. وقال الترمذي: «هذا حديث غريب».

فهرس موضوعات الجزء الخامس

- تفسير سورة النحل ١٩٧٧
- تفسير سورة الإسراء ٢٠٢٨
- تفسير سورة الكهف ٢١٤١
- تفسير سورة مريم ٢٢٠٥
- تفسير سورة طه ٢٢٥٦
- تفسير سورة الأنبياء ٢٣٠٦
- تفسير سورة الحجّ ٢٣٥٦
- تفسير سورة المؤمنون ٢٤١٦

□□□